تفسير الكشاف

عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم: للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري
المتوفى سنة ٥٣٨ هـ

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



الكشاف

عن حقائق غوامض التنزيل
وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم : للإمام جادالله محمود بن عمر الزمخشرى
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الانتصاف : للإمام احمد بن المنير الاسكندرى.
الثاني: الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلاني.
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقى على تفسير الكشاف.
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

الجزء الرابع

الناشر دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

سـورة يس

مكية ، [إلا آية ٤٥ فمدنية]

وآياتها ٨٣ [نزلت بعد الجنّ]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

قرئ : يس ، بالفتح [٣] ، كأين وكيف . أو بالنصب على اتل يس ، وبالكسر على الأصل كجير ، وبالرفع على هذه يس . أو بالضم كحيث . وفخمت الألف وأميلت [٣] . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : معناه يا إنسان فى لغة طيئ ، والله أعلم بصحته ، وإن صح فوجهه أن يكون أصله يا أنيسين ، فكثر النداء به على ألسنتهم حتى اقتصروا على شطره ، كما قالوا فى القسم : م الله فى أيمن الله ﴿ الحكيم ﴾ ذى الحكمة . أو لأنه دليل ناطق بالحكمة كالحى . أو لأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به ﴿ على صراط مستقيم ﴾ خبر بعد خبر ، أو صلة للمرسلين . فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أنّ المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم ؟ قلت : ليس الغرض

---

(١) قوله « قرئ يس بالفتح » يفيد أن السكون قراءة الجهور ، والحركات قراءات لبعضهم ، فالفتح بناء أو نصب ، والكسر بناء فقط ، فتدبر (ع)

(٢) قوله « وأخفت الألف وأميلت » يعنى : قرأ الجهور بالتفخيم . وقرأ بعضهم بالامالة ، كما فى النسفى . (ع)

بذكره ماذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته ، وإنما الغرض وصفه ووصف ماجاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين فى نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضاً فإن التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه [١]. وقرئ (تنزيل العزيز الرحيم) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، وبالنصب على أعنى ، وبالجر على البدل من القرآن ﴿قوما ماأنذر آباؤهم﴾ قوما غير منذر آباؤهم على الوصف [٢] ونحوه قوله تعالى (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) ، (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) . وقد فسر (ماأنذر آباؤهم) على إثبات الإنذار . ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية ، لتنذر قوما إنذار آبائهم أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثانى لتنذر [٣] قوما ماأنذره آباؤهم من العذاب ، كقوله تعالى (إناأنذرناكم عذابا قريبا) فإن قلت : أى فرق بين تعلق قوله ﴿فهم غافلون﴾ على التفسيرين ؟ قلت : هو على الأول متعلق بالنفى ، أى : لم ينذروا فهم غافلون ، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم ، وعلى الثانى بقوله (إنك لمن المرسلين) لتنذر ، كما تقول : أرسلتك إلى فلان لتنذره ، فإنه غافل . أوفهو غافل . فإن قلت : كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا مافى الآى الآخر ؟ قلت : لا مناقضة : لأنّ الآى فى نفى إنذارهم لافى نفى إنذار آبائهم ، وآباؤهم القدماء من ولد إسمعيل وكانت النذارة فيهم [٤] فإن قلت : ففى أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر ، فما تصنع به ؟ قلت :

---

(١) قال محمود : «إن قلت ماسر قوله على صراط مستقيم وقد علم بكونه من المرسلين أنه كذلك ؟ وأجاب بأن الغرض وصفه ووصف ماجاء به ، فجاء بالوصفين فى نظام واحد ، فكأنه قال : إنك لمن المرسلين على طريق ثابت . قال : وأيضاً ففى تنكير الصراط أنه مخصوص من بين الصرط المستقيمة بصراط لايكتنه وصفه . انتهى كلامه» قال أحمد : قد تقدم فى مواضع أن التنكير قد يفيد تفخيما وتعظيما وهذا منه .

(٢) قال محمود : إنه على الوصف كقوله (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) قال : وقد فسر (ما أنذر آباؤهم) على إثبات الانذار على أن ما مصدرية أو موصولة . قال : والفرق بين موقع الفاء على التفسيرين أنها على الأول متعلقة بالنفى معنى جواباً له ، والمعنى أن نفى إنذارهم هو السبب فى غفلتهم ، وعلى الثانى بقوله (إنك لمن المرسلين) لتنذر ، كما تقول : أرسلناك إلى فلان لتنذره ، فانه غافل أو فهو غافل انتهى» قال أحمد : يعنى أنها على التفسير الثانى تفهم أن غفلتهم سبب فى إنذارهم .

(٣) قوله «على المفعول الثانى لتنذر» لعل بعده سقطا تقديره : أى لتنذر . (ع)

(٤) قال محمود : فان قلت كيف يكونون منذرين على هذا التفسير غير منذرين فى قوله (ماأتاهم من نذير من قبلك) وأجاب بأن الآية لنفى إنذارهم لا لنفى إنذار آبائهم ، وآباؤهم القدماء من ولد إسمعيل ، وقد كانت النذارة فيهم . قال : فما تصنع بأحد التفسيرين الذى مقتضاه أن آباءهم لم ينذروا وهو التفسير الاول فى هذه الآية مع التفسير الثانى ، ومقتضاه أنهم أنذروا ، وأجاب بأن آباءهم الاباعد هم المنذرون لا آباؤهم الأدنون . قال : ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنهم لايرعوون ولايرجعون بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لايلتفتون إلى الحق ولا يطأطئون رؤسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ماخلفهم قال والضمير للأغلال لأن طوق

أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد ﴿القول﴾ قوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يعنى تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

ثم مثل تصميمهم على الكفر، وأنه لاسبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين: فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رءوسهم له. وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم: فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿فهى إلى الأذقان﴾؟ قلت: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها، وذلك أن طوق الغل الذى فى عنق المغلول، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود، نادراً[1] من الحلقة إلى الذقن. فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله[2]، فلا يزال مقمحا. والمقمح: الذى يرفع رأسه ويغض بصره. يقال: قمح البعير فهو قامح: إذا روى فرفع رأسه. ومنه شهرا قماح[3]؛ لأن الإبل ترفع رءوسها عن الماء لبرده فيهما، وهما الكانونان. ومنه: اقتحمت السويق. فإن قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق ـ وبذلك يسمى جامعة ـ كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى[4]؟ قلت: الوجه ما ذكرت لك، والدليل عليه قوله

ـــــ الغل يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذقن، فلا تخليه يطأطئ رأسه، فلا يزال مقمحاً. انتهى كلامه» قال أحمد: إذا فرقت هذا التشبيه كان تصميمهم على الكفر مشبها بالأغلال، وكان استكبارهم عن قبول الحق وعن الخضوع والتواضع لاستماعه، مشبها بالاقماح؛ لأن المقمح لا يطأطئ رأسه. وقوله: (فهى إلى الأذقان) تتمة للزوم الاقماح لهم، وكان عدم الفكر فى القرون الخالية مشبهاً بسد من خلفهم، وعدم النظر فى العواقب المستقبلة مشبهاً بسد من قدامهم.

(١) قوله «رأس العمود نادراً» أى شاذاً، كما يفيده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ويوطئ قذاله» فى الصحاح «القذال»: جماع مؤخر الرأس، فتدبر. (ع)

(٣) قوله «ومنه شهراً قماح» بوزن كتاب وغراب، كما نقل عن القاموس. وفى الصحاح: سميا بذلك؛ لأن الابل إذا وردت فيهما آذاها برد الماء فقامحت. (ع)

(٤) قال محمود: فان قلت: فما قولك فيمن جعل الضمير للأيدى وزعم أن الغل لما كان جامعاً لليد والعنق وبذلك يسمى جامعة: كان ذكر الأعناق دالا على ذكر الأيدى. وأجاب بأن الوجه هو الأول، واستدل على هذا التفسير الثانى بقوله (فهم مقمحون) لأنه جعل الاقماح نتيجة قوله (فهى إلى الأذقان) ولو كان الضمير للأيدى لم يكن معنى التسبب فى الاقماح ظاهراً، وترك الحق الأبلج للباطل اللجلج. انتهى كلامه» قال أحمد: ويحتمل أن تكون الفاء للتعقيب كالفاء الأولى فى قوله (فهى إلى الأذقان) أو للتسبب، ولا شك أن ضغط اليد مع العنق فى الغل يوجب الاقماح؛ فان اليد والعياذ بالله تعالى تبقى ممسكة بالغل تحت الذقن دافعة بها ومانعة من وطأتها، ويكون التشبيه ـــــ

﴿فهم مقمحون﴾ ألا ترى كيف جعل الإقماح نتيجة قوله (فهى إلى الأذقان) ولو كان الضمير للايدى لم يكن معنى التسبب فى الإقماح ظاهراً على أن هـذا الإضمار فيه ضرب من التعسف وترك الظاهر الذى يدعوه المعنى إلى نفسه إلى الباطن الذى يجفو عنه وترك للحق الأبلج إلى الباطل اللجلج[1] . فإن قلت : فقـد قرأ ابن عباس رضى الله عنهما فى أيديهم وابن مسعود فى أيمانهم ، فهل تجوز على هاتين القراءتين أن تجعل الضمير للأيدى أو للايمان ؟ قلت : يأبى ذلك وإن ذهب الإضمار المتعسف ظهور كون الضمير للاغلال ، وسداد المعنى عليه كما ذكرت . وقرئ : سداً بالفتح والضم . وقيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق الله فبالضم ﴿فأغشيناهم﴾ فأغشينا أبصارهم ، أى : غطيناها وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئى ، وعن مجاهد : فأغشيناهم : فألبسنا أبصارهم غشاوة . وقرئ بالعين من العشا . وقيل : نزلت فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلى ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به ، فلما رفع يده أثبتت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، فقال مخزومى آخر : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب ، فأعمى الله عينيه[2]

وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

فإن قلت : قد ذكر ما دلّ على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الإنذار ، ثم قفاه بقوله (إنما تنذر)[3] وإنما كانت تصح هذه التقفية لو كان الإنذار منفيا . قلت : هو كما قلت . ولكن لما كان ذلك نفيا للايمان مع وجود الإنذار وكان معناه أن البغية المرومة بالإنذار غير حاصلة وهى الإيمان ، قفى بقوله (إنما تنذر) على معنى : إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر : وهو القرآن أو الوعظ ، الخاشون ربهم .

--- أتم على هذا التفسير ، فان اليد متى كانت مرسلة مخلاة كان للمغلول بعض الفرج باطلاقها ، ولعله يتحيل بها على فكاك الغل ، ولا كذلك إذا كانت مغلولة ، فيضاف إلى ماذكرناه من التشبيهات المفرقة أن يكون انسداد باب الحيل عليهم فى الهداية والانخلاع من ربقة الكفر المقدر عليهم مشبهاً بغل الأيدى ؛ فان اليد آلة الحيلة إلى الخلاص .

(١) قوله «إلى الباطل اللجلج» أى الذى يردد من غير أن ينفذ . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه ابن إسحق فى السيرة فى كلام طويل . ورواه أبو نعيم فى الدلائل من طريق ابن إسحاق : حدثنى محمد بن محمد بن سعيد ، أو عكرمة ، عن ابن عباس «أن أبا جهل قال : إنى أعاهد الله لأجلسن غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه . فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر بين يديه : وأصله فى البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما

(٣) قال محمود : «إن قلت : قد ذكر ما دل على انتفاء إيمانهم مع ثبوت الانذار ، ثم قفاه بقوله (إنما تنذر) وإنما كانت التقفية تصح لو كان الانذار منفياً ، وأجاب بأن الأمر كذلك ، ولكن لما بين أن البغية المرومة ---

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

﴿نحي الموتى﴾ نبعثهم بعد مماتهم . وعن الحسن : إحياؤهم : أن يخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿ونكتب ما﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها وماهلكوا عنه من أثر حسن ، كعلم علموه ، أو كتاب صنفوه ، أو حبيس حبسوه ، أو بناء بنوه : من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك . أو سيء ، كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين ، وسكة أحدث فيها تخسيرهم ، وشيء أحدث فيه صدّعن ذكر الله : من ألحان وملاه ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها . ونحوه قوله تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أى : قدم من أعماله ، وأخر من آثاره . وقيل : هى آثار المشائين إلى المساجد . وعن جابر : أردنا النقلة إلى المسجد والبقاع حوله[1] خالية ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتانا فى ديارنا وقال : يا بنى سلمة ، بلغنى أنكم تريدون النقلة إلى المسجد . فقلنا نعم ، بعد علينا المسجد والبقاع حوله خالية ، فقال : عليكم دياركم . فإنما تكتب آثاركم . قال : فما وددنا حضرة المسجد لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز : لو كان الله مغفلا شيئا لأغفل هذه الآثار التى تعفيها الرياح . والإمام : اللوح . وقرئ : ويكتب ماقدموا وآثارهم على البناء للمفعول . وكل شيء : بالرفع

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)

﴿واضرب لهم مثلا﴾ ومثل لهم مثلا ، من قولهم : عندى من هذا الضرب كذا ، أى : من هذا المثال ، وهذه الأشياء على ضرب واحد ، أى على مثال واحد . والمعنى . واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ، أى : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية . والمثل الثانى بيان للاوّل . وانتصاب إذ بأنه بدل من أصحاب القرية . والقرية أنطاكية . و ﴿المرسلون﴾ رسل عيسى عليه

ـــ بالانذار وهى الايمان منفية عنهم : قفاه بقوله (إنما تنذر) أى إنما تحصل بغية الانذار ممن اتبع الذكر . انتهى كلامه » قلت : فى السؤال سوء أدب ، وينبغى أن يقال : وما وجه ذكر الانذار الثانى فى معرض المخالفة للأولى ، مع أن الأول إثبات ، والانذار الثانى كذلك .

(١) أخرجه ابن حبان فى الأول من الأول من طريق أبى نضرة عنه . وأصله فى مسلم .

السلام إلى أهلها، بعثهم دعاة إلى الحق وكانوا عبدة أوثان. أرسل إليهم اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا: نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض من سنتين فمسحاه، فقام، فآمن حبيب وفشا الخبر. فشفي على أيديهما خلق كثير، ورقى حديثهما إلى الملك وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك، فقال: حتى أنظر في أمركما، فتبعهما الناس وضربوهما. وقيل: حبسا، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون، فدخل متنكراً وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به، فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه؟ فقال: لا، حال الغضب بيني وبين ذلك، فدعاهما، فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال: صفاه وأوجزا. قالا: يفعل مايشاء ويحكم مايريد. قال: وما آيتكما؟ قالا: مايتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين، فدعوا الله حتى انشق له بصر، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فكانتا مقلتين ينظر بهما، فقال له شمعون: أرأيت لوسألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف. قال: ليس لي عنك سر. إنّ إلهنا لايبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع ويحسبون أنه منهم، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به، فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا، وقال: فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن هم؟ قال شمعون، وهذان، فتعجب الملك. فلما رأى شمعون أنّ قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا ﴿فعززنا﴾ فقوينا. يقال: المطر يعزز الأرض إذا لبدها وشدّها، وتعزز لحم الناقة. وقرئ بالتخفيف من عزه يعزه: إذا غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ﴿بثالث﴾ وهو شمعون. فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به؟ قلت: لأنّ الغرض ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عزّ الحق وذلّ الباطل، وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه، كأن ما سواه مرفوض مطرح. ونظيره قولك: حكم السلطان اليوم بالحق، الغرض المسوق إليه: قولك بالحق فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه. إنما رفع بشر ونصب[1] في قوله ﴿ماهذا بشرا﴾ لأنّ إلا تنقض النفي، فلا يبقى لما المشبهة بليس شبه، فلا يبقى له عمل. فإن قلت: لم قيل: إنا إليكم

---

(١) قوله «إنما رفع بشر ونصب» عبارة النسفي: إنما رفع بشر هنا ونصب ... الخ (ع)

مرسلون أولا[1] ، و ﴿إنا إليكم لمرسلون﴾ آخرا ؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار ، والثانى جواب عن إنكار .

قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (١٧)

وقوله (ربنا يعلم) جار مجرى القسم فى التوكيد ، وكذلك قولهم : شهد الله ، وعلم الله . وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع قولهم ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أى الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته؛وإلا فلو قال المدعى : والله إنى لصادق فيما أدعى ولم يحضر البينة كان قبيحا .

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩)

﴿تطيرنا بكم﴾ تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ونفرت منه نفوسهم ، [2] وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا ببركة هذا وبشؤم هذا ، كما حكى الله عن القبط : وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . وعن مشركى مكة : وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . وقيل : حبس عنهم القطر فقالوا ذلك . وعن قتادة : إن أصابنا شىء كان من أجلكم ﴿طائركم معكم﴾ وقرئ : طيركم ، أى سبب شؤمكم معكم وهو كفرهم . أو أسباب شؤمكم معكم وهى كفرهم ومعاصيهم . وقرأ الحسن : أطيركم أى تطيركم . وقرئ : أئن ذكرتم ؟ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط . وآئن بألف بينهما ، [3] بمعنى : أتطيرون إن ذكرتم؟ وقرئ : أأن ذكرتم بهمزة الاستفهام وأن الناصبة ، يعنى : أتطيرتم لأن ذكرتم ؟ وقرئ : أن ، وإن ، بغير استفهام لمعنى الإخبار ، أى تطيرتم لأن ذكرتم ، أو إن ذكرتم تطيرتم . وقرئ : أين ذكرتم : على التخفيف ، أى شؤمكم معكم حيث جرى ذكركم . وإذا شئم المكان بذكرهم كان بحلولهم فيه أشأم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ فى العصيان : ومن ثم أتاكم الشؤم ، لا من قبل رسل الله وتذكيرهم ، أو بل أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم متمادون فى غيكم ، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله .

---

(١) قال محمود : «إن قلت : لم أسقط اللام هنا وأثبتها فى الثانية عند قوله (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) قلت : الأول ابتداء إخبار ، والثانى جواب إنكار» قال أحمد : أى فلاق توكيده .

(٢) قوله «ونفرت منهم» لعله : منه كعبارة النسفى . (ع)

(٣) قوله «وآئن بألف بينهما» الذى فى النسفى أن هذا وماقبله بياء مكسورة بدل الهمزة الثانية . (ع)

وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)

﴿رجل يسعى﴾ هو حبيب بن إسرائيل النجار ، وكان ينحت الأصنام ، وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ، ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره . وقيل : كان فى غار يعبد الله ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقاول الكفرة ، فقالوا : أو أنت تخالف ديننا ، فوثبوا عليه فقتلوه . وقيل : توطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه [1] من دبره . وقيل : رجموه وهو يقول : اللهم اهد قومى ؛ وقبره فى سوق أنطاكية ، فلما قتل غضب الله عليهم فأهلكوا بصيحة جبريل عليه السلام. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «سباق الأمم ثلاثة : لم يكفروا بالله طرفة عين : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون» [2] ﴿من لا يسئلكم أجراً وهم مهتدون﴾ كلمة جامعة فى الترغيب فيهم ، أى : لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، ثم أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل فى إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ، ولقد وضع قوله ﴿وما لى لا أعبد الذى فطرنى﴾ مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم . ألا ترى إلى قوله ﴿وإليه ترجعون﴾ ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذى فطرنى وإليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال (آمنت بربكم فاسمعون) يريد فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه : أنّ العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم ، وما أدفع العقول وأنكرها لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده ؛ ولم يقدروا على

(١) قوله «حتى خرج قصبه» فى الصحاح «القصب» بالضم : المتق . والمعى : واحد الأمعاء . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق عبدالرحمن بن أبى ليلى عن أبيه بهذا ، وفيه عمرو بن جميع وهو متروك . ورواه العقيلي والطبراني وابن مردويه ، من طريق حسين بن حسن الأشقر عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ، بلفظ «السباق ثلاثة . فالسابق الى عيسى صاحب يس ، والى محمد صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب

إنقاذكم منه بوجه من الوجوه ، إنكم فى هذا الاستحباب لواقعون فى ضلال ظاهر بين لا يخفى على ذى عقل وتمييز . وقيل : لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل، فقال لهم ﴿إنى آمنت بربكم فاسمعون﴾ أى اسمعوا إيمانى تشهدوا لى به . وقرئ : إن يردنى الرحمن بضر ، بمعنى : أن يوردنى ضراً ، أى يجعلنى مورداً للضر .

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

أى لما قتل ﴿قيل﴾ له ﴿ادخل الجنة﴾ وعن قتادة : أدخله الله الجنة وهو فيها حىّ يرزق أراد قوله تعالى (بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين) وقيل : معناه البشرى بدخول الجنة، وأنه من أهلها . فإن قلت : كيف مخرج هذا القول فى علم البيان ؟ قلت : مخرجه مخرج الاستئناف، لأنّ هذا من مظان المسألة عن حاله عند لقاء ربه ، كأنّ قائلا قال : كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى نصرة دينه والتسخى لوجهه بروحه ؟ فقيل : قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له، لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه ، لا إلى المقول له مع كونه معلوما . وكذلك ﴿قال يا ليت قومى يعلمون﴾ مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة . وفى حديث مرفوع : نصح قومه حيا وميتاً .[1] وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى ، والتشمر فى تخليصه والتلطف فى افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه . ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام . ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره ، وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة ، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة ، لأنّ فى ذلك زيادة غبطة له وتضاعف لذة وسرور . والأوّل أوجه . وقرئ : المكرمين . فإن قلت : ما فى قوله تعالى ﴿بما غفر لى ربى﴾ أى الماآت هى ؟ قلت : المصدرية أو الموصولة ، أى : بالذى غفره لى من الذنوب . ويحتمل أن تكون استفهامية ؛ يعنى بأى شىء غفر لى ربى ؛ يريد به

---

(١) ورد هذا فى قصة عروة بن مسعود أخرجه ابن مردويه من حديث المغيرة بن شعبة ، فذكر القصة وفى آخرها «فكان يقول وهو فى النزع : يامعشر ثقيف ائتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطلبوا منه الأمان ، قبل أن يبلغه موتى فيغزوكم . فلم يزل كذلك حتى مات ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : لقد نصح قومه حيا وميتا ، وشبهه بصاحب يس .

ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل. إلى أن قولك (بم غفر لى) بطرح الألف أجود وإن كان إثباتها جائزاً؛ يقال: قد علمت بما صنعت هذا، أى: بأى شىء صنعت وبم صنعت.

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨)
إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)

المعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء، كما فعل يوم بدر والخندق. فإن قلت: وما معنى قوله ﴿وما كنا منزلين﴾؟ قلت: معناه: وما كان يصح فى حكمتنا أن ننزل فى إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء، وذلك لأنّ الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما ذلك إلا بناء على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة. ألا ترى إلى قوله تعالى (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا). فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ قال تعالى (فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها)، (بألف من الملائكة مردفين)، (بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)، (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)؟ قلت: إنما كان يكفى ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه، ولكنّ الله فضل محمداً صلى الله عليه وسلم بكل شىء على كبار الأنبياء وأولى العزم من الرسل، فضلا عن حبيب النجار، وأولاده من أسباب الكرامة والإعذار ما لم يوله أحداً؛ فمن ذلك: أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار بقوله: (وما أنزلنا)، (وما كنا منزلين) إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور التى لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعله بغيرك ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة﴾ إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة. وقرأ أبو جعفر المدنى بالرفع على كان التامة، أى: ما وقعت إلا صيحة، والقياس والاستعمال على تذكير الفعل؛ لأنّ المعنى: ما وقع شىء إلا صيحة، ولكنه نظر إلى ظاهر اللفظ وأن الصيحة فى حكم فاعل الفعل، ومثلها قراءة الحسن: فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، وبيت ذى الرمّة:

* وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ * (١)

---

(١) برى لحمها سير الفيافى وحرها ... ومابقيت إلا الضلوع الجراشع

للبيد. يصف ناقته بأنها أذهب لحمها سير الاراضى القفرة، أى السير فيها وحرها الشديد، يرمابقيت فيها إلا الضلوع. وكان الأفصح حذف التاء؛ لأن المعنى: مابقى فيها شىء إلا الضلوع، لكنه أنث نظراً للضلوع. والجراشع: جمع جرشع كقنفذ، وهو الغليظ المرتفع. ويروى: بدل الشطر الأول * طوى الحر والأجراز ما فى عروضها *

وقرأ ابن مسعود: الأزقية: واحدة، من زقا الطائر يزقو ويزق، إذا صاح. ومنه المثل: أثقل من الزواقى ﴿خامدون﴾ خمدوا كما تخمد النار، فتعود رماداً، كما قال لبيد:

وَمَا الْمَرْءُ إلاَّ كَالشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إذْ هُوَ سَاطِعُ (١)

****

يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾

﴿يا حسرة على العباد﴾ نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها: تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها، وهى حال استهزائهم بالرسل. والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون. أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين. ويجوز أن يكون من الله تعالى على سبيل الاستعارة فى معنى تعظيم ماجنوه على أنفسهم ومحنوها به، وفرط إنكاره له وتعجيبه منه، وقراءة من قرأ: يا حسرتا، تعضد هذا الوجه لأن المعنى: يا حسرتى. وقرئ: ياحسرة العباد، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم؛ من حيث أنها موجهة إليهم. ويا حسرة على العباد: على إجراء الوصل مجرى الوقف.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿ألم يروا﴾ ألم يعلموا، وهو معلق عن العمل فى ﴿كم﴾ لأن كم لا يعمل فيها عامل قبلها، كانت للاستفهام أو للخبر؛ لأن أصلها الاستفهام، إلا أن معناه نافذ فى الجملة، كما نفذ فى قولك: ألم يروا إن زيداً لمنطلق، وإن لم يعمل فى لفظه. و﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ بدل من (كم أهلكنا) على المعنى، لا على اللفظ، تقديره: ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم

═ والأجراز: جمع جرز، وهى المفازة القفرة. والعروض: جمع عرض ـ بضم فسكون ـ: أى جنوبها. ويروى: النحز، بدل الحر، وهو بنون فهملة فزاى: النخس والدفع. ويروى «غروض» بغين معجمة: جمع غرض، كقفل: وهو حزام الرحل، أراد بالصدر لعلاقة المجاورة. أوهو على حذف مضاف، أى محل غروضها. ويجوز أنه أراد بما فى غروضها الصدر ذاته لاالشحم واللحم. ومعنى الطي التضمير أوالاذهاب على طريق المجاز.

(١) وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوما أن ترد الودائع

للبيد العامرى، أى: ليس حال المرء وحياته وبهجته ثم موته وفناؤه بعد ذلك إلا مثل حال شهاب النار وضوئه حال كونه يصير رماداً بعد إضاءته. ويمكن أن قوله «يحور رماداً» استئناف مبين لوجه الشبه، وذلك تشبيه هيئة ولا يصح تشبيه المرء بالشهاب وضوئه، وشبه مال الشخص وأقاربه بالود نع تشبيهاً بليغاً، بجامع أنه لابد من أخذ كل، وبين ذلك بقوله: ولابد أن ترد الودائع فى يوم من الأيام.

غير راجعين إليهم. وعن الحسن: كسر إنّ على الاستئناف. وفى قراءة ابن مسعود: ألم يروا من أهلكنا، والبدل على هذه القراءة بدل اشتمال، وهذا مما يردّ قول أهل الرجعة. ويحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قيل له: إن قوماً يزعمون أنّ عليا مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: بئس القوم نحن إذن نكحنا: نساءه وقسمنا ميراثه [١]. قرئ: لما، بالتخفيف، على أن (ما) صلة للتأكيد، وإن: مخففة من الثقيلة، وهى متلقاة باللام لا محالة. ولما بالتشديد، بمعنى: إلا، كالتى فى مسألة الكتاب. نشدتك بالله لما فعلت، وإن نافية. والتنوين فى (كل) هو الذى يقع عوضا من المضاف إليه، كقولك: مررت بكل قائماً. والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة. وقيل محضرون معذبون. فإن قلت: كيف أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد [٢]؟ قلت: ليس بواحد: لأن كلا يفيد معنى الإحاطة، وأن لا ينفلت منهم أحد، والجميع: معناه الاجتماع، وأن المحشر يجمعهم. والجميع: فعيل بمعنى مفعول، يقال حى جميع، وجاؤا جميعاً

وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

القراءة بالميتة على الخفة أشيع، اسلسها على اللسان. و ﴿أحييناها﴾ استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك نسلخ: ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل، لأنه أريد بهما الجنسان مطلقين لا أرض [٣] وليل بأعيانهما، فعوملا معاملة النكرات فى وصفهما

(١) أخرجه الحاكم فى تفسير البقرة نحوه باختصار. وأخرجه من حديث الحسن فى فضائل الصحابة أتم منه. وليس فيه: بئس القوم نحن إذن

(٢) قال محمود: «إن قلت لم أخبر عن كل بجميع ومعناهما واحد وأجاب بأن كلا تفيد الاحاطة لا ينفلت عنهم أحد وجميع تفيد الاجتماع وهو فعيل بمعنى مفعول وبينهما فرق انتهى كلامه». قال أحمد: ومن ثم وقع أجمع فى التوكيد تابعاً لكل؛ لأنه أخص منه وأزيد معنى

(٣) قال محمود: «يجوز أن يكون أحييناها صفة للأرض وصح ذلك لأن المراد بالأرض الجنس ولم يقصد بها أرض معينة وأن يكون بيانا لوجه الآية فيها» قال أحمد: وغيره من النحاة يمنع وقوع الجملة صفة للمعرف وإن كان جنسيا وليس الغرض منه معينا وراعى هذا المانع المطابقة اللفظية فى الوصفية ومنه

• ولقد أمر على اللئيم يسبنى •

بالأفعال ، ونحوه :

* وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي * [١]

وقوله ﴿فمنه يأكلون﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضرّ ، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء . قرئ ﴿وفجرنا﴾ بالتخفيف والتثقيل ، والفجر والتفجير ، كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى . وقرئ ﴿ثمره﴾ بفتحتين وضمتين وضمة وسكون ، والضمير لله تعالى : والمعنى : ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر ﴿و﴾ من ﴿ما عملته أيديهم﴾ من الغرس والسقى والآبار ، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله ، يعنى أنّ الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه ، وفيه آثار من كد بنى آدم ، وأصله من ثمرنا كما قال : وجعلنا ، وفجرنا : فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات . ويجوز أن يرجع إلى النخيل ، وتترك الأعناب غير مرجوع إليها ، لأنه علم أنها فى حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره . ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات ، كما قال رؤبة :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ بَيَاضٍ وَبَلَقْ ... كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ [٢]

فقيل له ، فقال : أردت كأن ذاك : ولك أن تجعل (ما) نافية على أنّ الثمر خلق الله ولم تعمله أيدى الناس ولا يقدرون عليه . وقرئ على الوجه الأوّل ، وما عملت من غير راجع ، وهى فى مصاحف أهل الكوفة كذلك ، وفى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير ﴿الأزواج﴾ الأجناس والأصناف ﴿ومما لا يعلمون﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولا توصلوا إلى معرفتها بطريق من طرق العلم ، ولا يبعد أن يخلق الله تعالى من الخلائق الحيوان والجماد ما لم يجعل للبشر طريقاً إلى العلم به ، لأنه لا حاجة بهم فى دينهم ودنياهم إلى ذلك العلم ، ولو كانت بهم اليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون ، كما أعلمهم بوجود ما لا يعلمون . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يسمهم . وفى الحديث « مالا عين رأت [٣] ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، بله ما أطلعتهم عليه » فأعلمنا بوجوده وإعداده ولم يعلمنا به ما هو ، ونحوه (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وفى الإعلام بكثرة ما خلق مما علموه ومما جهلوه ما دلّ على عظم قدرته واتساع ملكه .

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٦ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٤٩ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله « فى الحديث مالا عين رأت » أوله : « أعددت لعبادى الصالحين » كما مر فى تفسير السجدة . (ع)

وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾

سلخ جلد الشاة : إذا كشطه عنها وأزاله . ومنه : سلخ الحية لخرشائها [١] ، فاستعير لازالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملق ظله ﴿مظلمون﴾ داخلون فى الظلام ، يقال : أظلمنا ، كما تقول : أعتمنا وأدجينا [٢] ﴿لمستقر لها﴾ لحدّ لها مؤقت مقدّر تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة ، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره ، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب ؛ لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها ، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها ؛ لأنها لا تعدوه أو لحدّ لها من مسيرها كل يوم فى مرأى عيوننا وهو المغرب . وقيل : مستقرها : أجلها الذى أقر الله عليه أمرها فى جريها ، فاستقرت عليه وهو آخر السنة . وقيل : الوقت الذى تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة .

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وقرئ : تجرى إلى مستقر لها . وقرأ ابن مسعود : لامستقر لها ، أى : لاتزال تجرى لاتستقر . وقرئ : لامستقر لها ، على أنّ لا بمعنى ليس ﴿ذلك﴾ الجرى على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذى تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام فى استنباطه . ماهو إلا تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، المحيط علما بكل معلوم . قرئ : والقمر رفعا على الابتداء ، أو عطفاً على الليل . يريد : من آياته القمر ، ونصبا بفعل يفسره قدرناه ، ولا بدّ فى ﴿قدرناه منازل﴾ من تقدير مضاف ؛ لأنه لامعنى لتقدير نفس القمر منازل . والمعنى : قدرنا مسيره منازل وهى ثمانية وعشرون منزلا ، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستو لا يتفاوت ، يسير فيها كل ليلة من المستهل إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، وهذه المنازل هى مواقع النجوم التى نسبت إليها العرب الأنواء المستمطرة ، وهى : الشرطان ، البطين ، الثريا ، الدبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذراع ، النثرة ، الطرف ، الجبهة ، الزبرة ، الصرفة ، العوا ، السماك ، الغفر ، الزبانى ، الإكليل ، القلب ، الشولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، فرغ الدلو المقدم ،

(١) قوله «ومنه سلخ الحية لخرشائها» فى الصحاح «الخرشاء» : مثل الحرباء : جلد الحية . (ع)

(٢) قوله «أعتمنا وأدجينا» الدجى : وجع فى حافر الفرس أوخف البعير . أفاده الصحاح وغيره . (ع)

فرغ الدلو المؤخر ، الرشا . فإذا كان فى آخر منازله دق واستقوس ، و﴿عاد كالعرجون القديم﴾ وهو عود العذق ، ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة . وقال الزجاج : هو «فعلون» من الانعراج وهو الانعطاف . وقرئ : العرجون ، بوزن الفرجون [1] ؛ وهما لغتان ، كالبزيون والبزيون ، والقديم المحول ، وإذا قدم دق وانحنى واصفر ، فشبه به من ثلاثة أوجه . وقيل : أقل مدة الموصوف بالقدم الحول ، فلو أنّ رجلا قال : كل مملوك لى قديم فهو حر . أو كتب ذلك فى وصيته : عتق منهم من مضى له حول أو أكثر . وقرئ : سابق النهار . على الأصل ، والمعنى : أنّ الله تعالى قسم لكل واحد من الليل والنهار وآيتيهما قسما من الزمان ، وضرب له حدا معلوما ، ودبر أمرهما على التعاقب ، فلا ينبغى للشمس : أى لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم لوقوع التدبير على المعاقبة ، وإن جعل لكل واحد من النيرين سلطان على حياله [2] ﴿أن

---

(١) قوله «وقرئ العرجون بوزن الفرجون» فى الصحاح «الفرجون» : المحسة ، وقد فرجنت الدابة إذا فرجنتها . ومنه قول بعضهم : ادفنونى فى ثيابى ولا تحسوا عنى ترابا ، أى : لا تنفضوه . وفيه «البزيون» : السندس . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه أن كل واحد منهما لا يدخل على الآخر فى سلطانه فيطمس نوره بل هما متعاقبان بمقتضى تدبيره تعالى . قال : فان قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق ؟ قلت : لأن الشمس بطيئة السير تقطع فلكها فى سنة والقمر يقطع فلكه فى شهر ، فكانت الشمس لبطئها جديرة بأن توصف بالادراك ، والقمر لسرعته جديراً بأن يوصف بالسبق انتهى كلامه» قال أحمد : يؤخذ من هذه الآية أن النهار تابع لليل وهو المذهب المعروف للفقهاء ، وبيانه من الآية أنه جعل الشمس التى هى آية النهار غير مدركة للقمر الذى هو آية الليل ، وإنما نفى الادراك لأنه هو الذى يمكن أن يقع ، وذلك يستدعى تقدم القمر وتبعية الشمس ، فانه لا يقال : أدرك السابق اللاحق ، ولكن أدرك اللاحق السابق ، وبحسب الامكان توقيع النفى ، فالليل إذا متبوع والنهار تابع . فان قيل : هل يلزم على هذا أن يكون الليل سابق النهار ؟ وقد صرحت الآية بأنه ليس سابقاً ، فالجواب : أن هذا مشترك الالزام ، وبيانه أن الأقسام المحتملة ثلاثة : إما تبعية النهار لليل وهو مذهب الفقهاء . أو عكسه وهو المنقول عن طائفة من النحاة . أو اجتماعهما ، فهذا القسم الثالث منفى باتفاق ، فلم يبق إلا تبعية النهار لليل وعكسه ، وهذا السؤال وارد عليهما جميعاً ؛ لأن من قال : إن النهار سابق الليل، لزمه أن يكون مقتضى البلاغة أن يقال : ولا الليل يدرك النهار ، فان المتأخر إذا نفى إدراكه كان أبلغ من نفى سابقه ، مع أنه يتنادى عن مقتضى قوله (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) تنائيا لا يجمع شمل المعنى باللفظ ، فان الله تعالى نفى أن تكون مدركة فضلا عن أن تكون سابقة ، فاذا ثبت ذلك فالجواب المحقق عنه أن المنفى السبقية الموجبة لتراخى النهار عن الليل وتخلل زمن آخر بينهما ، وحينئذ يثبت التعاقب وهو مراد الآية . وأما سبق أول المتعاقبين للآخر منهما فانه غير معتبر . ألا ترى إلى جواب موسى بقوله : هم أولاء على أثرى ، فقد قربهم منه عذرا عن قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك) فكأنه سهل أمر هذه العجلة بكونهم على أثره ، فكيف لو كان متقدما وهم فى عقبه لا يتخلل بينهم وبينه مسافة ؟ فذاك لو اتفق لكان سياق الآية يوجب أنه لا يعد عجلة ولا سبقاً ، فحينئذ يكون القول بسبقية النهار لليل مخالفاً صدر الآية على وجه لا يقبل التأويل ، فان بين عدم الادراك الدال على التأخير والتبعية وبين السبق بوناً بعيدا ومخالفاً أيضاً لبقية الآية ، فانه لو كان الليل تابعاً ومتأخراً لكان أحرى أن يوصف بعدم الادراك ولا يبلغ به عدم السبق ، ويكون القول بتقدم الليل على النهار مطابقاً لصدر الآية صريحاً ، ولعجزها بوجه من التأويل مناسب لنظم القرآن وثبوت ضده أقرب إلى الحق من حبل وريده ، والله الموفق للصواب من القول وتسديده .

تدرك القمر﴾ فتجتمع معه فى وقت واحد وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره ، ولا يسبق الليل النهار يعنى آية الليل آية النهار وهما النيران ، ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن يبطل الله مادبر من ذلك ، وينقض ماألف فيجمع بين الشمس والقمر ، ويطلع الشمس من مغربها . فإن قلت : لم جعلت الشمس غير مدركة ، والقمر غير سابق ؟ قلت : لأن الشمس لا تقطع فلكها إلا فى سنة ، والقمر يقطع فلكه فى شهر ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطئ سيرها عن سير القمر خليقا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ﴿وكل﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : وكلهم ، والضمير للشموس والأقمار على ماسبق ذكره .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)

﴿ذريتهم﴾ أولادهم ومن يهمهم حمله . وقيل : اسم الذرية يقع على النساء ، لأنهن مزارعها وفى الحديث أنه نهى عن قتل الذرارى يعنى النساء . ﴿من مثله﴾ من مثل الفلك ﴿ما يركبون﴾ من الإبل ، وهى سفائن البر . وقيل ﴿الفلك المشحون﴾ سفينة نوح ، ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها : أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين ، وفى أصلابهم هم وذرياتهم ، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ فى الامتنان عليهم ، وأدخل فى التعجيب من قدرته ، فى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة فى سفينة نوح . و (من مثله) من مثل ذلك الفلك مايركبون من السفن والزوارق ﴿لاصريخ﴾ لامغيث . أو لا إغاثة . يقال : أتاهم الصريخ ﴿ولاهم ينقذون﴾ لاينجون من الموت بالغرق ﴿إلا رحمة﴾ إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة ﴿إلى حين﴾ [1] إلى أجل يموتون فيه لابد لهم منه بعد النجاة من موت الغرق . ولقد أحسن من قال :

وَلَمْ أَسْلَمْ لِكَيْ أَبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْحِمَامِ إِلَى الْحِمَامِ [2]

وقرأ الحسن رضى الله عنه : نغرقهم ،

---

(١) قال أحمد : من هنا أخذ أبو الطيب :

ولم أسلم لكى أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

لأنه تعالى أخبر أنهم إن سلموا من موت الغرق فتلك السلامة متاع إلى حين ، أى : إلى أجل يموتون فيه ، ولا بد .

(٢) للمتنبى يقول : ولم أسلم من حوادث الدهر ومكاره الحرب لأجل أن أخلد ، وإنما سلمت من الحمام ـ ككتاب ـ : أى الموت ببعض الأسباب إلى أن أموت ببعضها الآخر . أو منقلب إلى الموت ببعضها الآخر ؛ لأنه لاخلود فى الدنيا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)

﴿اتقوا مابين أيديكم وما خلفكم﴾ كقوله تعالى (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) وعن مجاهد: ما تقدم من ذنوبكم وماتأخر. وعن قتادة: مابين أيديكم من الوقائع التي خلت، يعنى من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها، وماخلفكم من أمر الساعة ﴿لعلكم ترحمون﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله. وجواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ فكأنه قال: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا. ثم قال: ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧)

كانت الزنادقة منهم يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئته فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا، ولوشاء لأعزه، ولو شاء لكان كذا؛ فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله. ومعناه: أنطعم المقول فيه هذا القول بينكم، وذلك أنهم كانوا دافعين أن يكون الغنى والفقر من الله؛ لأنهم معطلة لا يؤمنون بالصانع: وعن ابن عباس رضى الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذاأمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لاوالله، أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وقيل: كانوا يوهمون أن الله تعالى لما كان قادراً على إطعامه ولايشاء إطعامه فنحن أحق بذلك. نزلت فى مشركى قريش حين قال فقراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله، يعنون قوله (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً)، فحرموهم وقالوا: لوشاء الله لأطعمكم.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)

﴿إن أنتم إلا فى ضلال مبين﴾ قول الله لهم. أوحكاية قول المؤمنين لهم. أو هو من جملة جوابهم للمؤمنين. قرئ: وهم يخصمون بإدغام التاء فى الصادمع فتح الخاء وكسرها، وإتباع الياء الخاء فى الكسر. ويختصمون على الأصل. ويخصمون، من خصمه. والمعنى: أنها تبغتهم

وهم فى أمنهم وغفلتهم عنها ، لايخطرونها ببالهم مشتغلين بخصوماتهم فى متاجرهم ومعاملاتهم وسائر ما يتخاصمون فيه ويتشاجرون . ومعنى خصمون : يخصم بعضهم بعضاً . وقيل : تأخذهم وهم عند أنفسهم يخصمون فى الحجة فى أنهم لايبعثون ﴿فلا يستطيعون﴾ أن يوصوا فى شىء من أمورهم ﴿توصية﴾ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم وأهاليهم ، بل يموتون بحيث تفجؤهم الصيحة .

وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

قرئ الصور ، بسكون الواو وهو القرن ، أوجمع صورة ، وحركها بعضهم . و﴿الأجداث﴾ القبور . وقرئ بالفاء[1] ﴿ينسلون﴾ يعدون بكسر السين وضمها ، وهى النفخة الثانية . قرئ : يا ويلتنا . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : من أهبنا ، من هب من نومه إذا انتبه ، وأهبه غيره وقرئ : من هبنا بمعنى أهبنا : وعن بعضهم : أراد هب بنا ، فحذف الجار وأوصل الفعل : وقرئ : من بعثنا ، ومن هبنا ، على من الجارة والمصدر ، و﴿هذا﴾ مبتدأ ، و ﴿ما وعد﴾ خبره ، وما مصدرية أوموصولة . ويجوز أن يكون هـذا صفة للمرقد ، وما وعد : خبر مبتدإ محذوف ، أى : هـذا وعد الرحمن ، أى : مبتدأ محذوف الخبر ، أى ما وعد ﴿الرحمن وصدق المرسلون﴾ حق . وعن مجاهد : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا : من بعثنا ، وأما (هذا ماوعد الرحمن) فكلام الملائكة . عن ابن عباس . وعن الحسن : كلام المتقين . وقيل : كلام الكافرين يتذكرون ماسمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضاً . فإن قلت : إذا جعلت (ما) مصدرية : كان المعنى : هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله (وصدق المرسلون) إذا جعلتها موصولة ؟ قلت : تقديره : هـذا الذى وعده الرحمن والذى صدّقه المرسلون ، بمعنى : والذى صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال . ومنه صدقنى سن بكره . فإن قلت : (من بعثنا من مرقدنا) ؟ سؤال عن الباعث ، فكيف طابقه ذلك جوابا ؟ قلت : معناه بعثكم الرحمن الذى وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل ؛ إلا أنه جىء به على طريقة : سيئت بها قلوبهم ، ونعيت إليهم أحوالهم ، وذكروا كفرهم وتكذيبهم ، وأخبروا بوقوع ما أنذروا به وكأنه قيل لهم : ليس بالبعث الذى عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده ، حتى يهمكم السؤال عن

---

(١) قوله «وقرئ بالفاء» فى الصحاح «الجدف» : القبر ، وهو إبدال الجدث . قال الفراء : العرب تعقب بين الفاء والثاء فى اللغة ، فيقولون : جدث وجدف ، وهى الأجداث والأجداف . (ع)

الباعث، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع، وهو الذى وعده الله فى كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين.

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨)

﴿إلا صيحة واحدة﴾ قرئت منصوبة ومرفوعة ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئا ... ... إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل﴾[1] حكاية ما يقال لهم فى ذلك اليوم. وفى مثل هذه الحكاية زيادة تصوير للموعود، وتمكين له في النفوس، وترغيب فى الحرص عليه وعلى ما يثمره (فى شغل) فى أى شغل وفى شغل لا يوصف، وما ظنك بشغل من سعد بدخول الجنة التى هى دار المتقين، ووصل إلى نيل تلك الغبطة وذلك الملك الكبير والنعيم المقيم، ووقع فى تلك الملاذ التى أعدها الله للمرتضين من عباده، ثوابا لهم على أعمالهم مع كرامة وتعظيم، وذلك بعد الوله والصبابة، والتفصى من مشاق التكليف ومضايق التقوى والخشية، وتخطى الأهوال، وتجاوز الأخطار وجواز الصراط. ومعاينة ما لقى العصاة من العذاب، وعن ابن عباس: فى افتضاض الأبكار. وعنه: فى ضرب الأوتار. وعن ابن كيسان: فى التزاور. وقيل: فى ضيافة الله. وعن الحسن: شغلهم عما فيه أهل النار التنعم بما هم فيه. وعن الكلبى: هم فى شغل عن أهاليهم من أهل النار، لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم: لئلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم. قرئ: فى شغل، بضمتين وضمة وسكون، وفتحتين، وفتحة وسكون. والفاكه والفكه: المتنعم والمتلذذ: ومنه الفاكهة؛ لأنها مما يتلذذ به. وكذلك الفكاهة، وهى المزاحة. وقرئ فاكهون، وفكهون، بكسر الكاف وضمها، كقولهم: رجل حدث وحدث[2]، ونطس ونطس. وقرئ: فاكهين وفكهين،

---

(١) قال أحمد: هذا مما التنكير فيه للتفخيم، كأنه قيل: فى شغل أى شغل، وكذا قوله تعالى: سلام قولا من رب رحيم.

(٢) قوله «كقولهم رجل حدث وحدث» أى حسن الحديث، والنطس البالغ فى التطهر والمدقق فى العلم. أفاده الصحاح. (ع)

على أنه حال والظرف مستقر ﴿هم﴾ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيداً للضمير فى (فى شغل) وفى (فاكهون) على أنّ أزواجهم يشاركنهم فى ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال. وقرئ: فى ظلل، والأريكة: السرير فى الحجلة[1]. وقيل: الفراش فيها. وقرأ ابن مسعود: متكئين ﴿يدعون﴾ يفتعلون من الدعاء، أى: يدعون به لأنفسهم، كقولك: اشتوى واجتمل، إذا شوى[2] وجمل لنفسه. قال لبيد:

* فَاشْتَوَى لَيْلَةَ رِيحٍ وَاجْتَمَلْ * [3]

ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه، كقولك: ارتموه، وتراموه. وقيل: يتمنون، من قولهم: ادّع علىّ ماشئت، بمعنى تمنه علىّ، وفلان فى خير ما ادّعى، أى فى خير ما تمنى. قال الزجاج: وهو من الدعاء، أى: مايدعو به أهل الجنة يأتيهم. و ﴿سلام﴾ بدل مما يدعون، كأنه قال لهم: سلام يقال لهم ﴿قولا من﴾ جهة ﴿رب رحيم﴾ والمعنى: أنّ الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة، مبالغة فى تعظيمهم وذلك متمناهم، ولهم ذلك لا يمنعونه. قال ابن عباس: فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين. وقيل: (مايدعون)، مبتدأ وخبره سلام، بمعنى: ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه. و (قولا) مصدر مؤكد لقوله تعالى (ولهم مايدعون سلام) أى: عدة من رب رحيم. والأوجه: أن ينتصب على الاختصاص، وهو من مجازه. وقرئ: سلم، وهو بمعنى السلام فى المعنيين. وعن ابن مسعود: سلاما نصب على الحال، أى لهم مرادهم خالصا.

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

﴿وامتازوا﴾ وانفردوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة. ونحوه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون، فأما الذين آمنوا

---

(١) قوله «السرير فى الحجلة» هى بيت العروس يزين بالثياب والستور، كذا فى الصحاح. (ع)

(٢) قوله «اجتمل إذا شوى» فى الصحاح: جملت الشحم أجمله جملا، واجتملته: إذا أذبته. (ع)

(٣) وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ماسأل
أرسلته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ريح واجتمل

للبيد بن ربيعة. والألوك: الرسالة، أى: ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهى هنا السؤال، فبذلنا ماسأله من الطعام عقب سؤاله، وبين ذلك بقوله: أرسلته فأتاه رزقه، وفيه دلالة على أنه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم الغلام، أى: فأتاه رزقه من الصيد، فاشتوى لنفسه من اللحم فى ليلة ريح مظلمة يقل فيها الجود، واحتمل: أى حمل كثيراً منه بنفسه لنفسه، ولأمه التى أرسلته. ويروى: اجتمل، بالجيم: وفى الصحاح: جملت الشحم واجتملته إذا أذبته، وهذه الرواية أنسب وأفيد.

وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون وأما الذين كفروا ... الآية) يقال: مازه فانماز وامتاز . وعن قتادة : اعتزلوا عن كل خير . وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه ، لا يرى ولا يرى . ومعناه : أنّ بعضهم يمتاز من بعض .

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾
وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

العهد : الوصية ، وعهد إليه : إذا وصاه . وعهد الله إليهم : ماركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع . وعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم . وقرئ : إعهد ، بكسر الهمزة . وباب «فعل» كله يجوز فى حروف مضارعته الكسر[1] ، إلا فى الياء . وأعهد ، بكسر الهاء . وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب . وأحهد : بالحاء . وأحد : وهى لغة تميم . ومنه قولهم : دحا محا[2] ﴿هذا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن ، إذ لا صراط أقوم منه ، ونحو التنكير فيه ما فى قول كثير :

لَئِنْ كَانَ يُهْدَى بَرْدُ أَنْيَابِهَا الْعُلَا ... لِأَفْقَرَ مِنِّى إِنَّنِى لَفَقِيرُ[3]

أراد : إننى لفقير بليغ الفقر ، حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه فىّ ، وإلا لم يستقم معنى البيت ، وكذلك قوله ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يريد : صراط بليغ فى بابه ، بليغ فى استقامته ، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه . ويجوز أن يراد : هذا بعض الصرط المستقيمة ،

---

(١) قوله «فى حروف مضارعته الكسر» لعله مضارعه . (ع)

(٢) قوله «ومنه قولهم دحا محا» أى : دعها معها . (ع)

(٣) دعوت إلهى دعوة ماجهلتها ... وربى بما تخفى الصدور بصير
لئن كان يهدى رد أنيابها العلا ... لأفقر منى إنى لفقير
فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت ... فهل يأتينى بالطلاق بشير

لكثير عزة . وقيل : لمجنون ليلى . وقوله «ماجهلتها» معناه : أنها عن قصد وحضور قلب . وقوله : لئن كان يهدى ، بيان للدعوة ، وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت فى السر ، أى : لئن كان يعطى برد أسنانها العليا ، خصها لأنها التى تبدو كثيرا . وقيل : العلا الشريفة ، لأحوج منى إنى لبليغ فى الفقر فأنا أحق بها من كل محتاج ، لأنى أحوج الناس إليها . ويجوز أن يرد أنيابها : كناية عن ذاتها كلها ، وإنى لفقير : خبر بمعنى الانشاء مجازاً مرسلا ؛ لأن إظهار شدة الاحتياج يلزمه الطلب . ويجوز أنه كناية عنه وهو جواب القسم المدلول عليه باللام ، وجواب الشرط محذوف وجوبا لدلالة المذكور عليه ، وما تعجبية ، وأكثر فعل تعجب ، والأخبار مفعوله ، وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وهى على تقدير حرف الجر ، أى : أتعجب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها ، وهل استفهام بمعنى التمنى أو التعجب مجازاً مرسلا لعلاقة مطلق الطلب ، أى : أتمنى ذلك أو أتعجب من عدمه .

توبيخا لهم على العدول عنه، والتفادي عن سلوكه، كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذى يؤدى إلى الضلالة والتهلكة، كأنه قيل: أقل أحوال الطريق الذى هو أقوم الطرق: أن يعتقد فيه كما يعتقد فى الطريق الذى لا يضل السالك، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذى ليس بعده: هذا فيما أظنّ قول نافع غير ضار، توبيخا له على الإعراض عن نصائحه.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)

قرئ: جبلا، بضمتين، وضمة وسكون، وضمتين وتشديدة، وكسرتين، وكسرة وسكون، وكسرتين وتشديدة. وهذه اللغات فى معنى الخلق. وقرئ: جبلا، جمع جبلة، كفطر وخلق. وفى قراءة على رضى الله عنه: جيلا واحدا، لا أجيال.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦)

يروى أنهم يجحدون ويخاصمون؛ فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم. فيحلفون ماكانوا مشركين، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفى الحديث: [1] «يقول العبد يوم القيامة: إنى لا أجيز علىّ شاهداً إلا من نفسى، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقى فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكنّ وسحقا. فعنكن كنت أناضل» [2] وقرئ: يختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم. وقرئ: ولتكلمنا أيديهم وتشهد، بلام كى والنصب على معنى: ولذلك تختم على أفواههم: وقرئ: ولتكلمنا أيديهم ولتشهد، بلام الأمر والجزم على أنّ الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)

الطمس: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فاستبقوا الصراط﴾ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل. والأصل: فاستبقوا إلى الصراط. أو يضمن معنى ابتدروا.

(١) أخرجه مسلم والنسائى من طريق الشعبى عن أنس، ووهم الحاكم فاستدركه.
(٢) قوله «كنت أناضل» أى أجادل. (ع)

أو يجعل الصراط مسبوقا لا مسبوقا إليه . أو ينتصب على الظرف . والمعنى : أنه لو شاء لمسح أعينهم ، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع [١] الذى اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التى ترددوا إليها كثيراً ـ كما كانوا يستبقون إليه ساعين فى متصرفاتهم موضعين [٢] فى أمور دنياهم ـ لم يقدروا ، وتعايى عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره . أو لو شاء لأعماهم ، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين فى الطريق المألوف ـ كما كان ذلك هجيراهم ـ لم يستطيعوا . أو لو شاء لأعماهم ، فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذى اعتادوا المشى فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقا ، يعنى أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك ، كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضروا [٣] به من المقاصد دون غيرها ﴿على مكانتهم﴾ وقرئ : على مكاناتهم . والمكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام . أى : لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضىّ ولا رجوع واختلف فى المسخ ، فعن ابن عباس : لمسخناهم قردة وخنازير . وقيل : حجارة . وعن قتادة : لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم . وقرئ : مضياً بالحركات الثلاث ، فالمضىّ والمضى كالعتىّ والعتى . والمضىّ كالصبىّ .

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ننكسه فى الخلق﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقى من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه فى الخلق فجعلناه يتناقص ، حتى يرجع فى حال شبيهة بحال الصبىّ فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم ، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله . قال عزّ وجلّ ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا﴾ ، (ثم رددناه أسفل سافلين) وهذه دلالة على أنّ من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه ـ قادر على أن يطمس على

---

(١) قوله «إلى الطريق المهيع» الهيوع : الجبن ، والهيعة : الذوبان والسيلان وكل ما أفزعك من صوت ، كذا فى الصحاح . ولعل المراد الذى سهله كثرة سلوكه . (ع)

(٢) قوله «موضعين» فى الصحاح : وضع البعير وغيره : أسرع من سيره وأوضعه راكبه . (ع)

(٣) قوله «وضروا به» أى : مرنوا . (ع)

أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد: وقرئ بكسر الكاف[١]. وننكسه وننكسه، من التنكيس والإنكاس ﴿أفلا يعقلون﴾ بالياء والتاء.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَٰفِرِينَ (٧٠)﴾

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: شاعر، وروى أنّ القائل: عقبة بن أبى معيط، فقيل ﴿وما علمناه الشعر﴾ أى: وما علمناه بتعليم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر فى شيء. وأين هو عن الشعر. والشعر إنما هو كلام موزون مقفى، يدل على معنى، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين المعانى التى ينتحيها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذاً لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت، اللهمّ إلا أنّ هذا لفظه عربى، كما أنّ ذاك كذلك ﴿وما ينبغى له﴾ وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أى: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعلناه أمّياً لا يتهدّى للخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض. وعن الخليل: كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتى له. فإن قلت: فقوله:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ٱبْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ[٢]

وقوله:[٣]

هَلْ أَنْتِ إِلَّا أُصْبُعٌ دَمِيتِ وَفِى سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ[٤]

(١) قوله «وقرئ بكسر الكاف» يفيد أن القراءة المشهورة بضم الكاف، وهما من النكس. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث البراء بن عازب فى حديث.

(٣) متفق عليه من حديث جندب بن سفيان فى حديث.

(٤) هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت
يا نفس لا تقتلى تموتى هذى حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلى فعلهما هديت

لعبدالله بن رواحة حين حمل اللواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فأصيبت أصبعه فى الحرب فدميت وروى البخارى عن جندب أنه قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم يمشى إذ أصابه حجر، فعثر، فدميت أصبعه فقال «هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت» فأفاد أنه صلى الله عليه وسلم يتمثل بشعر غيره، وهو بكسر التاء على وفق القافية، وقال الكرمانى: التاء فى الرجز مكسورة، وفى الحديث ساكنة. وقال عياض غفل بعض الناس فروى: دميت: ولقيت، بغير مد وخالف الرواية. وروى أحمد والطيالسى أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين كان خارجا إلى الصلاة، ودميت: صفة أصبع، والمعنى: لم يحصل لك شيء من الأذى إلا أنك دميت ولم يكن ذلك هدراً بل كان فى سبيل الله ومرضاته لا غير، أى: الذي لقيته من الأذى فى سبيل الله، فلا تحزنى، ==

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذى كان يرمى به على السليقة ، من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا ، كما يتفق فى كثير من إنشاءات الناس فى خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعراً ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر ، وإذا فتشت فى كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع فى أوزان البحور غير عزيز ، على أن الخليل ما كان يعد المشطور من الرجز شعراً ، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ يعنى : ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجن ، كما قال (إن هو إلا ذكر للعالمين) وما هو إلا قرآن كتاب سماوى ، يقرأ فى المحاريب . ويتلى فى المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر الذى هو من همزات الشياطين ؟ ﴿لينذر﴾ القرآن أو الرسول وقرئ : لتنذر ، بالتاء . ولينذر : من نذر به إذا علمه ﴿من كان حيا﴾ أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت . أو معلوما منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان ﴿ويحق القول﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿على الكافرين﴾ الذين لا يتأملون ولا يتوقع منهم الإيمان .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)

﴿مما عملت أيدينا﴾ مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ، وإنما قال ذلك لبدائع الفطرة والحكمة فيها ، التى لا يصح أن يقدر عليها إلا هو . وعمل الأيدى : استعارة من عمل من يعملون بالأيدى ﴿فهم لها مالكون﴾ أى خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون . أو فهم لها ضابطون قاهرون ، من قوله :

= ونزلها منزلة العاقل فخاطبها بذلك تسلية وتثبيتاً لها ، وهو فى الحقيقة لنفسه ، ثم صرح بخطاب النفس مثبتاً لها . بقوله إن لم تقتلى فى الحرب فلا بد لك من الموت وهذه حياضه فلا تعرى منها لأن الوقوع فى البلاء أهون من انتظاره وشبه الموت بسبيل على سبيل المكنية ، فأثبت له الحياض تخييلا ، وشبهه بالنار كذلك ، فأثبت له الصلى وهو اقتحام النار ، ولا مانع من تشبيه الشىء بأمرين مختلفين مع الرمز لكل منهما بما يلائمه ، ويجوز استعارة الحياض للمعركة تصريحا ، والذى تمنيته من الحرب المؤدى إلى الشهادة فقد لقيته ، إن تفعلى كفعل زيد وجعفر ، هديت إلى طريق الخير .

أَصْبَحْتُ لاَأَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا (١)

أى لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة . وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها ، كما قال القائل :

يُصَرِّفُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهٍ وَيَحْبِسُهُ عَلَى الْخَسْفِ الْجَرِيرُ
وَتَضْرِبُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْهَرَاوَى فَلاَ غِيَرٌ لَدَيْهِ وَلاَ نَكِيرُ (٢)

ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وقرئ : ركوبهم . وركوبتهم . وهما ماركب . كالحلوب والحلوبة . وقيل : الركوبة جمع . وقرئ : ركوبهم ، أى ذو ركوبهم . أو فمن منافعها ركوبهم ﴿منافع﴾ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك ﴿ومشارب﴾ من اللبن ، ذكرها بجملة ، وقد فصلها فى قوله تعالى (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ... الآية) والمشارب : جمع مشرب وهو موضع الشرب ، أو الشرب

وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ

---

(١)
أصبح منى الشباب مبتكراً إن ينأ عنى فقد ثوى عصرا
فارقنا قبل أن نفارقه لما قضى من جماعنا وطرا
أصبحت لا أملك السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدى وأخشى الرياح والمطرا

للربيع بن منيع ، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاما ، عاش بعده مائة وستين . والمبتكر : المسافر أول النهار ، فهو تشبيه بليغ ، ثم تسلى بقوله : إن ينأ ، أى بعد عنى فقد أقام عندى أزمنة طويلة فارقنا ، أى : ذهب عنا قبل أن نموت ، فقوله ونفارقه، مجاز عن ذلك ، أوكناية عنه ، أو مجاز عن البغض . والجماع : معناه الاجتماع والمصاحبة ، والوطر : الحاجة ، وهذا كله ترشيح للتشبيه أول الكلام ، ولايخفى ما فى البيت من إيهام ماكان ينبغي الاحتراس منه ، فان قضاء الوطر من الجماع اشتهر استعماله فى مقام الوطء ، ثم قال : صرت لاأضبط السلاح بيدى ولا رأس البعير إن ند منى ولاأقدر عليهما . ويروى : لاأحمل السلاح ، أى : لاأقدر على حمله ، وأخشاه : أى أخافه ، إن مررت به وحدى وأخاف الرياح والمطر ولومع غيرى ، وكل هذا كناية عن بلوغه غاية الضعف والهرم .

(٢)
لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير

لكثير عزة حين رآه عبدالملك بن مروان قصيراً حقيراً ، فقال : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . وقيل : للعباس ابن مرداس . وقيل : لمعاوية بن مالك الكلابى ، وعظم : ضخم وطال . واللب : العقل ، وأتى بالظاهر موضع المضمر للتهويل فى الطول والجسامة ، بكل وجه : فى كل جهة . والخسف : الذل . والجرير : حبل غير الزمام يربط به . والهراوى : جمع هراوة وهى العصا ، وجمعها دلالة على كثرة الضرب . والغير ـ بالتحريك ـ الغيرة . والنكير : الانكار ، يعنى أن العبرة بالألباب والعقول ، لابالغلظ والطول .

وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦)

اتخذوا الآلهة طمعاً فى أن يتقوّوا بهم ويعتضدوا بمكانهم ، والأمر على عكس ما قدّروا ، حيث هم جند لآلهتهم معدّون ﴿محضرون﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم ، ويغضبون لهم ؛ والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر ، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم . والأمر على خلاف ما توهموا ، حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم ؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار . وقرئ : فلا يحزنك ، بفتح الياء وضمها ، من حزنه وأحزنه . والمعنى : فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم ﴿وما يعلنون﴾ وإنا مجازوهم عليه ، فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر فى نفسه صورة حاله وحالهم فى الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن . فإن قلت : ما تقول فيمن يقول : إن قرأ قارئ : أنا نعلم ، بالفتح : انتقضت صلاته ، وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى : كفر ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون على حذف لام التعليل ، وهو كثير فى القرآن وفى الشعر ، وفى كل كلام وقياس مطرد ، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء . وعليه تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الحمد والنعمة[1] لك ، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعى ، وكلاهما تعليل . والثانى : أن يكون بدلا من (قولهم) كأنه قيل : فلا يحزنك ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون . وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول ، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالما وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها ، وإنما يدوران على تقديرك ، فتفصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل ، كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدر معنى المفعولية ، ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحاً على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل ، فما فيه إلا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن على كون الله عالما بسرهم وعلانيتهم ، وليس النهى عن ذلك مما يوجب شيئاً . ألا ترى إلى قوله تعالى (فلا تكونن ظهيراً للكافرين) . (ولا تكونن من المشركين) ، (ولا تدع مع الله إلهاً آخر)

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر فى أثناء حديث .

مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّٰقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قبح الله عزّ وجل إنكارهم البعث تقبيحاً لاترى أعجب منه وأبلغ ، وأدل على تمادى كفر الإنسان وإفراطه فى جحود النعم وعقوق الأيادى ، وتوغله فى الخسة وتغلغله فى القحة[1] ، حيث قرره بأن عنصره الذى خلقه منه هو أخسّ شىء وأمهنه ، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذى هو قناة النجاسة ، ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار ، وشرز صفحته[2] لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ، ويمحك ويقول : من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه فى ألزم وصف له وألصقه به ، وهو كونه منشأ من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهى المكابرة التى لا مطمح وراءها ، وروى أن جماعة من كفار قريش منهم أبىّ بن خلف الجمحى وأبو جهل والعاصى بن وائل والوليد ابن المغيرة تكلموا فى ذلك ، فقال لهم أبىّ : ألا ترون إلى مايقول محمد ، إنّ الله يبعث الأموات ، ثم قال : واللات والعزى لأصيرنّ إليه ولأخصمنه ، وأخذ عظما بالياً فجعل يفته بيده وهو يقول : يامحمد ، أترى الله يحيى هذا بعد ماقد رمّ ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم ويبعثك ويدخلك جهنم[3] وقيل : معنى قوله ﴿فاذا هو خصيم مبين﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر على الخصام ، مبين : معرب عما فى نفسه فصيح ، كما قال تعالى (أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) . فإن قلت : لم سمى قوله ﴿من يحيى العظام وهى رميم﴾ مثلا ؟ قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهى إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى . أو لما فيه من التشبيه ، لأن ما أنكر من قبيل مايوصف الله بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى ، فإذا قيل :

---

(١) قوله «وتغلغله فى القحة» فى الصحاح : وقح الرجل قحة ووقاحة ، إذا صار قليل الحياء . (ع)

(٢) قوله «وشرز صفحته ... الخ» فى الصحاح «الشرز» الشرس ، وهو الغلظ . والمحك : اللجاج . (ع)

(٣) هكذا ذكره الحلبي عن قتادة بغير سند ، وأخرجه الحاكم من رواية أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء ، ففتته بيده ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيحيى الله هذا بعد مارم ؟ فقال : نعم ، يميتك الله - الحديث» وروى البيهقى فى الشعب من طريق حصين عن أبى مالك . قال : جاء أبى بن خلف بعظم نخر - الحديث» وروى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : «جاء أبو جهل بعظم حائل» .

من يحي العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه ، كان تعجيزاً لله وتشبيها له بخلقه فى أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه . والرميم : اسم لما بلى من العظام غير صفة ، كالرمة والرفات ، فلا يقال : لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث ؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة فى العظام ويقول : إن عظام الميتة نجسة لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها . وأما أصحاب أبى حنيفة فهى عندهم طاهرة ، وكذلك الشعب والعصب ، ويزعمون أن الحياة لاتحلها فلايؤثر فيها الموت ، ويقولون : المراد بإحياء العظام فى الآية ردّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة فى بدن حىّ حساس ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ يعلم كيف يخلق ، لا يتعاظمه شىء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها . ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر ، مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهى الزناد التى تورى بها الأعراض وأكثرها من المرخ والعفار ، وفى أمثالهم : فى كل شجر نار . واستمجد المرخ والعفار ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر ، على العفار وهى أنثى فتنقدح النار بإذن الله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب[1]. قالوا : ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين . قرئ : الأخضر ، على اللفظ . وقرئ : الخضراء ، على المعنى . ونحوه قوله تعالى (من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم)

من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسى أقدر ، وفى معناه قوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقرئ : يقدر ، وقوله ﴿أن يخلق مثلهم﴾ يحتمل معنيين : أن يخلق مثلهم فى الصغر والقماءة[2] بالإضافة إلى السموات والأرض أو أن يعيدهم ؛ لأن المعاد مثل للمبتدأ وليس به ﴿وهو الخلاق﴾ الكثير المخلوقات ﴿العليم﴾ الكثير المعلومات . وقرئ : الخالق ﴿إنما أمره﴾ إنما شأنه ﴿إذا أراد شيئا﴾ إذا دعاه داعى حكمة إلى تكوينه ولا صارف ﴿أن يقول له كن﴾ أن يكونه من غير توقف ﴿فيكون﴾ فيحدث ، أى : فهو كائن موجود لامحالة . فإن قلت : ماحقيقة قوله (أن يقول له كن فيكون) ؟ قلت : هو مجاز من الكلام وتمثيل ، لأنه لايمتنع عليه شىء من المكونات ، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع . فإن قلت : فما وجه القراءتين فى فيكون ؟ قلت : أما الرفع فلأنها جملة من مبتدإ وخبر ؛ لأن تقديرها : فهو يكون ، معطوفة على مثلها ، وهى أمره أن يقول له كن . وأما النصب فللعطف على يقول ، والمعنى : أنه لايجوز عليه شىء مما يجوز على الأجسام

---

(١) لم أجده

(٢) قوله «والقماءة» الصغر والذلة . أفاده الصحاح . (ع)

إذا فعلت شيئاً مما تقدر عليه ، من المباشرة بمحال القدرة ، واستعمال الآلات ، ومايتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل ، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة ؟ ﴿فسبحان﴾ تنزيه له مما وصفه به المشركون ، وتعجيب من أن يقولوا فيه ماقالوا ﴿بيده ملكوت كل شيء﴾ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته . وقرئ : ملكة كل شيء . وملك كل شيء . والمعنى واحد ﴿ترجعون﴾ بضم التاء وفتحها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كنت لا أعلم ماروى فى فضائل يس وقراءتها كيف خصت ، بذلك ، فإذا أنه لهذه الآية .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء قلباً ، وإن قلب القرآن يس ، من قرأ يس يريدبها وجه الله ، غفر الله تعالى له ، وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيبه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه ، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ، ويمكث فى قبره وهو ريان . ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان[1] . وقال عليه الصلاة والسلام « إن فى القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها . ألا وهى سورة يس »[2] .

---

(١) أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبى بن كعب ، وأوله فى الترمذى من رواية هرون أبى محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس . وقال : غريب . وهرون مجهول « وفى الباب عن أبى بكر وأبى هريرة . فأما حديث أبى هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكى مولى آل علقمة . وهو ضعيف . وحديث أبى بكر : أخرجه الحكيم الترمذى .

(٢) أخرجه الثعلبى من طريق محمد بن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها .

ســـــورة الصافات

مكية ، وهى مائة وإحدى وثمانون آية ، وقيل : واثنتان وثمانون

[نزلت بعد الأنعام]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (١) فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ (٤) رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ (٥)

أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها فى الصلاة ، من قوله تعالى (وإنا لنحن الصافون) أو أجنحتها فى الهواء واقفة منتظرة لأمر الله ﴿فالزاجرات﴾ السحاب سوقا ﴿فالتاليات﴾ لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها . وقيل (الصافات) : الطير ، من قوله تعالى (والطير صافات) والزاجرات : كل مازجر عن معاصى الله . والتاليات : كل من تلا كتاب الله . ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه . أو بنفوس قواد الغزاة فى سبيل الله التى تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر[1] مع ذلك لا تشغلها

(١) قال محمود : «المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم ، والمراد صفهم فى الصلاة وزجرهم السحاب أى سوقهم وتلاوتهم ذكر الله أو العلماء والمراد تصافف أقدامهم فى الصلاة وزجرهم بالمواعظ عن المعاصى وتلاوتهم الذكر ...... إلى أن قال : ... «ويكون التفاصل بين الطوائف إما على أن الأول هو الأفضل أو على العكس» قال أحمد : قد جوز أن يكون ترتيبها فى التفاضل على أن الأول وهو الأفضل وعلى العكس ، ولم يبين وجه كل واحد منهما من حيث صنعة البديع ، ونحن نبينه فنقول : وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم . فقدم ؛ ووجه عكس هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى ؛ ومنه قوله :

بهاليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير

ولا يقال : إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضى رتبة ، فان هذا غايته أنه عذر ، وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة ؛ وفى هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل فى مثل (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) فانهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف ، وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم ؛ فوقوع الفاء فى هذه الآية موقع الواو والمعنى واحد ؛ إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها دليل واضح على أن الواو الواقعة فى مثل هذا السياق للعطف لا للقسم .

عنه تلك الشواغل، كما يحكى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه. فإن قلت: ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة فى الصفات؟ قلت: إما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود، كقوله:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ الصَّـابِحِ فَالْغَانِمِ فَالآيِبِ[1]

كأنه قيل: الذى صبح فغنم فآب. وإما على ترتبها فى التفاوت من بعض الوجوه، كقولك: خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها فى ذلك، كقوله: رحم الله المحلقين فالمقصرين؛ فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة فى الصفات. فإن قلت: فعلى أى هذه القوانين هى فيما أنت بصدده؟ قلت: إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات فى التفاضل، وإن ثلثته، فهى للدلالة على ترتب الموصوفات فيه، بيان ذلك: أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها، فعطفها بالفاء يفيد ترتباً لها فى الفضل: إما إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة، وإما على العكس، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة. وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على أخر، فقد أفادت ترتب الموصوفات فى الفضل، أعنى أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل، والتاليات أبهر فضلا، أو على العكس، وكذلك إذا أردت بالصافات: الطير، وبالزاجرات: كل ما يزجر عن معصية. وبالتاليات: كل نفس تتلو الذكر؛ فإن الموصوفات مختلفة. وقرئ بإدغام التاء فى الصاد والزاى والذال ﴿رب السموات﴾ خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإ محذوف. و﴿المشارق﴾ ثلثمائة وستون مشرقا، وكذلك المغارب: تشرق الشمس كل يوم فى مشرق منها وتغرب فى مغرب، ولا تطلع ولا تغرب فى واحد يومين. فإن قلت: فماذا أراد بقوله (رب المشرقين ورب المغربين)؟ قلت: أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾

﴿الدنيا﴾ القربى منكم. والزينة: مصدر كالنسبة، واسم لما يزان به الشىء، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة، ويحتملهما قوله ﴿بزينة الكواكب﴾ فإن أردت المصدر، فعلى إضافته إلى الفاعل، أى: بأن زانتها الكواكب، وأصله: بزينة الكواكب: أو على إضافته إلى المفعول، أى: بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها إنما زينت السماء لحسنها فى أنفسها، وأصله (بزينة الكواكب) وهى قراءة أبى بكر والأعمش وابن وثاب. وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان: أن تقع الكواكب بياناً للزينة، لأن الزينة مبهمة فى الكواكب وغيرها مما يزان به، وأن يراد

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤١ فراجعه إن شئت اه مصححه.

ما زينت به الكواكب . وجاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : بزينة الكواكب : بضوء الكواكب : ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة ، كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء ، وغير ذلك ، ومطالعها ومسايرها . وقرئ على هذا المعنى : بزينة الكواكب ، بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال . ويجوز فى نصب الكواكب : أن يكون بدلا من محل بزينة ﴿وحفظا﴾ مما حمل على المعنى ؛ لأنّ المعنى : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً من الشياطين ، كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ويجوز أن يقدر الفعل المعلل ، كأنه قيل : وحفظا ﴿من كل شيطان﴾ زيناها بالكواكب ، وقيل : وحفظناها حفظا . والمارد : الخارج من الطاعة المتملس[1] منها .

لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

الضمير فى ﴿لا يسمعون﴾ لكل شيطان ، لأنه فى معنى الشياطين . وقرئ بالتخفيف والتشديد ، وأصله : يتسمعون . والتسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع ، أو فلم يسمع . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم يتسمعون ولا يسمعون ، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد . فإن قلت : لا يسمعون كيف اتصل بما قبله ؟ قلت : لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان ، أو استئنافاً فلا تصح الصفة ؛ لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له ، وكذلك الاستئناف ؛ لأنّ سائلا لو سأل : لم تحفظ من الشياطين ؟ فأجيب بأنهم لا يسمعون : لم يستقم ، فبقى أن يكون كلاماً منقطعاً مبتدأ اقتصاصاً ، لما عليه حال المسترقة للسمع[2] ، وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة . أو يتسمعوا وهم

(١) قوله « من الطاعة المتملس منها » فى الصحاح : يقال : املس من الأمر ، إذا أفلت منه . (ع)

(٢) أبطل الزمخشرى أن يكون (لا يسمعون) صفة لأن الحفظ من شيطان لا يسمع لا معنى له وأبطل أن يكون أصله لئلا يسمعوا ، لحذف اللام وحذفها كثير ، ثم حذف أن وأهدر عملها مثل :

ألا أيها ذا الزاجرى أحضر الوغي ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

واستبعد اجتماع هذين الحذفين ، وإن كان كل واحد منهما بانفراده سائغاً ، ولما أبطل هذين الوجهين تعين عنده أن يكون ابتداء كلام اقتصاصاً لما عليه أحوال المسترقة للسمع ، قال أحمد : كلا الوجهين مستقيم ، والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول : أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه ، فحال الشيطان حال كونه محفوظاً منه هى حاله حال كونه لا يسمع ، وإحدى الحالين لازمة للأخرى ، فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه ، وكونه موصوفاً بعدم السماع فى حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسيمه ، ونظير هذه الآية على هذا التقدير قوله تعالى (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) فقوله تعالى (مسخرات) حال مما تقدمه العامل فيه الفعل الذى هو سخر ، ومعناه مستقيم ؛ لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة ، فالحال التى =

مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك ، إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة ؛ فعندها تعاجله الملكة بإتباع الشهاب الثاقب . فإن قلت : هل يصح قول من زعم أن أصله : لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت فى قولك : جئتك أن تكرمنى ، فبقى أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها ، كما فى قول القائل :

* أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الْوَغى * [1]

قلت : كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده ، فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات ، على أن صون القرآن عن مثل هـذا التعسف واجب . فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلاناً يتحدّث ، وسمعت إليه يتحدّث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه ؟ قلت : المعدّى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ، والملأ الأعلى : الملائكة ؛ لأنهم يسكنون السموات . والإنس والجن : هم الملأ الأسفل ؛ لأنهم سكان الأرض . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم الكتبة من الملائكة . وعنه : أشراف الملائكة ﴿من كل جانب﴾ من جميع جوانب السماء من أى جهة صعدوا للاستراق ﴿دحوراً﴾ مفعول له ، أى : ويقذفون للدحور وهو الطرد ، أو مدحورين على الحال . أو لأنّ القذف والطرد متقاربان فى المعنى ، فكأنه قيل : يدحرون أو قذفاً . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى بفتح الدال على : قذفا دحوراً طروداً . أو على أنه قد جاء مجىء القبول والولوع . والواصب : الدائم ، وصب الأمر وصوباً ، يعنى أنهم فى الدنيا مرجومون بالشهب ، وقد أعدّ لهم فى الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع ﴿من﴾ فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون ، أى : لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى ﴿خطف الخطفة﴾ وقرئ : خطف بكسر الخاء والطاء وتشديدها ، وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها ، وأصلهما : اختطف . وقرئ : فأتبعه ، وفاتبعه .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهى بمعنى الاستفهام فى أصلها ، فلذلك قيل

ـــ سخرت فيها هى الحال التى كانت فيها مسخرة ، لا على معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك ، وما أشار له الزمخشرى فى هذه الآية قريب من هذا التفسير ؛ إلا أنه ذكر معه تأويلا آخر كالمستشكل لهذا الوجه ، فجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كممزق ، وجعل المعنى : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعا من التسخير ، وفيما ذكرناه كفاية ، ومن هذا النمط (ثم أرسلنا رسلنا) وهم ما كانوا رسلا إلا بالارسال ، وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلا بالحفظ . وأما الجواب عن إشكاله الثانى فورود حذفين فى مثل قوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) وأصله لئلا تضلوا ، فحذف اللام و « لا » جميعاً من محليهما .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٩ فراجعه إن شئت اهـ مصححه .

﴿فاستفتهم﴾ أى استخبرهم ﴿أهم أشدّ خلقاً﴾ ولم يقل: فقرّرهم، والضمير لمشركى مكة. قيل: نزلت فى أبى الأشد بن كلدة، وكنى بذلك لشدّة بطشه وقوته ﴿أم من خلقنا﴾ يريد: ماذكر من خلائقه: من الملائكة، والسموات والأرض، والمشارق، والكواكب، والشهب الثواقب، والشياطين المردة، وغلب أولى العقل على غيرهم، فقال: من خلقنا، والدليل عليه قوله بعد عدّ هذه الأشياء: فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا، بالفاء المعقبة. وقوله: أم من خلقنا، مطلقاً من غير تقييد بالبيان، اكتفاء ببيان ما تقدّمه، كأنه قال: خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه، فاستفتهم أهم أشدّ خلقاً أم الذى خلقناه من ذلك، ويقطع به قراءة من قرأ: أم من عددنا، بالتخفيف والتشديد. وأشدّ خلقاً: يحتمل أقوى خلقاً من قولهم: شديد الخلق. وفى خلقه شدّة، وأصعب خلقاً وأشقه، على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم ﴿من طين لازب﴾ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة، أو احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذى خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: أئذا كنا تراباً. وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث. وقيل: من خلقنا من الأمم الماضية، وليس هذا القول بملائم. وقرئ: لازب ولاتب، والمعنى واحد، والثاقب: الشديد الإضاءة.

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿بل عجبت﴾ من قدرة الله على هذه الخلائق العظيمة ﴿و﴾ هم ﴿يسخرون﴾ منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة الله، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث. وقرئ بضم التاء، أى: بلغ من عظم آياتى وكثرة خلائقى أنى عجبت منها، فكيف بعبادى وهؤلاء بجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتى أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله، وهم يسخرون ممن يصف الله بالقدرة عليه. فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله تعالى، وإنما هو روعة تعترى الإنسان عند استعظامه الشيء، والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام: والثانى: أن يتخيل العجب ويفرض. وقد جاء فى الحديث: عجب ربكم من ألكم [1] وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم [2]. وكان شريح

(١) قوله «من ألكم وقنوطكم» الأل: يأتى بمعنى السرعة والأنين والفساد. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه أبو عبيد فى الغريب عن محمد بن عمرو يرفعه، ثم قال: فقال: الأل رفع الصوت بالدعاء. وقال بعضهم: يرويه الأزل، وهو الشدة.

يقرأ بالفتح ويقول : إنّ الله لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم ، فقال إبراهيم النخعي : إنّ شريحاً كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم ، يريد عبد الله بن مسعود ، وكان يقرأ بالضم . وقيل معناه : قل يا محمد بل عجبت . ﴿وإذا ذكروا﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به ﴿وإذا رأوا آية﴾ من آيات الله البينة كانشقاق القمر ونحوه ﴿يستسخرون﴾ يبالغون في السخرية . أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها .

وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾

﴿وآباؤنا﴾ معطوف على محل ﴿إن﴾ واسمها . أو على الضمير في مبعوثون ، والذى جوّز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام . والمعنى : أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل . وقرئ أو آباؤنا ﴿قل نعم﴾ وقرئ : نعم بكسر العين وهما لغتان . وقرئ : قال نعم ، أى الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وسلم . والمعنى : نعم تبعثون ﴿وأنتم داخرون﴾ صاغرون ﴿فإنما﴾ جواب شرط مقدّر تقديره : إذا كان ذلك فما ﴿هى إلا زجرة واحدة﴾ وهى لا ترجع إلى شيء ، إنما هى مبهمة موضحها خبرها . ويجوز : فإنما البعثة زجرة واحدة وهى النفخة الثانية . والزجرة : الصيحة ، من قولك : زجز الراعى الإبل أو الغنم : إذا صاح عليها فريعت لصوته . ومنه قوله :

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا ... أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بِالْغَنَمِ (١)

يريد تصويته بها ﴿فإذا هم﴾ أحياء بصراء ﴿ينظرون﴾ .

وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

يحتمل أن يكون ﴿هذا يوم الدين﴾ إلى قوله (احشروا) من كلام الكفرة بعضهم مع بعض

(١) للنابغة الجعدى . وأبو عروة : كنية العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ، كانوا يزعمون أنه يصيح بالسباع فينفتق مرارة الأسد في جوفه ، وروى أن غارة أتتهم يوم حنين فصاح : ياصباحاه فأسقطت الحوامل ، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال . وزجره يزجره ، إذا صاح بمنعه ، أى : كزجر أبي عروة السباع عن الغنم إذا خاف اختلاطهن بها في البادية .

وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون (ياويلنا هذا يوم الدين) كلام الكفرة . و﴿هذا يوم الفصل﴾ من كلام الملائكة جوابا لهم . ويوم الدين : اليوم الذى ندان فيه ، أى نجازى بأعمالنا . ويوم الفصل : يوم القضاء ، والفرق بين فرق الهدى والضلالة .

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَالَكُمْ لَاتَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿احشروا﴾ خطاب الله للملائكة ، أو خطاب بعضهم مع بعض ﴿وأزواجهم﴾ وضرباءهم عن النبي صلى الله عليه وسلم : وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة : أهل الزنا مع أهل الزنا ، وأهل السرقة مع أهل السرقة . وقيل : قرناؤهم من الشياطين . وقيل : نساؤهم اللاتى على دينهم ﴿فاهدوهم﴾ فعرّفوهم طريق النار حتى يسلكوها . هذا تهكم بهم وتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعد ما كانوا على خلاف ذلك فى الدنيا متعاضدين متناصرين ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز ، فكلهم مستسلم غير منتصر . وقرئ : لا تتناصرون ولاتناصرون ، بالإدغام .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَاإِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها ، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور ، ويتشاءمون بالشمال ، ولذلك سموها : الشؤمى ،

كما سموا أختها اليمنى ، وتيمنوا بالسانح ،[١] وتطيروا بالبارح ، وكان الأعسر معيباً عندهم ، وعضدت الشريعة ذلك ، فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين ، وأراذلها بالشمال . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التيامن فى كل شيء .[٢] وجعلت اليمين لكاتب الحسنات ، والشمال لكاتب السيئات ؛ ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسيء أن يؤتاه بشماله : استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى : من قبل الخير وناحيته ، فصدّه عنه وأضله . وجاء فى بعض التفاسير : من أتاه الشيطان من جهة اليمين : أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق . ومن أتاه من جهة الشمال : أتاه من قبل الشهوات . ومن أتاه من بين يديه : أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب . ومن أتاه من خلفه : خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده ؛ فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة . فإن قلت : قولهم : أتاه من جهة الخير وناحيته : مجاز فى نفسه ، فكيف جعلت اليمين مجازاً عن المجاز ؟ قلت : من المجاز ما غلب فى الاستعمال حتى لحق بالحقائق ، وهذا من ذاك ؛ ولك أن تجعلها مستعارة للقوّة والقهر ؛ لأنّ اليمين موصوفة بالقوة ، وبها يقع البطش . والمعنى : أنكم كنتم تأتوننا عن القوّة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسروننا عليه . وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم ، والغواة لشياطينهم ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه ، مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر . غير ملجئين إليه ﴿وما كان لنا عليكم﴾ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بل كنتم قوما﴾ مختارين الطغيان ﴿فحق علينا﴾ فلزمنا ﴿قول ربنا إنا لذائقون﴾ يعنى : وعيدالله بأنا ذائقون لعذابه لامحالة ، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ، ولو حكى الوعيد كما هو لقال : إنكم لذائقون ، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم ؛ لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم . ونحوه قول القائل :

* لَقَدْ زَعَمَتْ هَوَازِنُ قَلَّ مَالِي * [٣]

---

(١) قوله « وتيمنوا بالسانح » السانح : المار من اليسار إلى اليمين . والبارح عكسه . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها أتم من هذا .

(٣)
ألا زعمت هوازن قل مالى ... وهل لى غير ما أنفقت مال
أسربه نعم ونعم قديما ... على ما كان من مال وبال

ألا استفتاحية ، وهوازن : امرأته ، وضمن زعمت معنى قالت ، فعداه إلى الجملة ، ولو حكى قولها بلفظه لقال : قل مالك ، ولكن جاء بياء المتكلم لجواز الحكاية بالمعنى ، وهل : استفهام إنكارى ، وغير : حال مقدمة ، أى : ليس لى مال غير ماأنفقته فى المكارم ، وأسر به . مبنى للمجهول صفة لمال ، أى : لايسرنى شيء ما أنفقته ، وبين جهة الانفاق بقوله : نعم ونعم ، أى جوابى للسائلين بذلك من قديم الزمان : هو وبال ومضرة على ما كان لى من مال ، ويجوز أن أسر مبنى للفاعل . ونعم الأولى مفعوله ، أى : هل لى مال أسر به من يجاب بنعم ، والحال أن نعم وبال على المال ، ومهلكة له قديماً ، حيث أجيب السائل بها .

ولو حكى قولها لقال : قل مالك . ومنه قول المحلف للحالف : احلف لأخرجنّ ، ولتخرجنّ : الهمزة لحكاية لفظ الحالف ، والتاء لإقبال المحلف على المحلف ﴿فأغويناكم﴾ فدعوناكم إلى الغي دعوة محصلة للبغية ، لقبولكم لها واستحبابكم الغيّ على الرشد ﴿إنا كنا غاوين﴾ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا ﴿فإنهم﴾ فإنّ الأتباع والمتبوعين جميعا ﴿يومئذ﴾ يوم القيامة مشتركون فى العذاب كما كانوا مشتركين فى الغواية ﴿إنا﴾ مثل ذلك الفعل ﴿نفعل﴾ بكل مجرم ، يعنى أنّ سبب العقوبة هو الإجرام ، فمن ارتكبه استوجبها ﴿إنهم كانوا إذا﴾ سمعوا بكلمة التوحيد نفروا أو استكبروا عنها وأبوا إلا الشرك .

وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾

﴿لشاعر مجنون﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿بل جاء بالحق﴾ رد على المشركين ﴿وصدق المرسلين﴾ كقوله (مصدقا لما بين يديه) وقرئ : لذائقو العذاب ، بالنصب على تقدير النون ، كقوله :

* وَلَا ذَاكِرَ اللهَ إِلَّا قَلِيلَا * (1)

بتقدير التنوين . وقرئ على الأصل : لذائقون العذاب ﴿إلا ما كنتم تعملون﴾ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئا بعمل سيئ .

إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

(1) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٤٨ فراجعه إن شئت اهـ مصححه .

﴿إلا عباد الله﴾ ولكن عباد الله، على الاستثناء المنقطع. فسر الرزق المعلوم بالفواكه: وهى كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة، يعنى أن رزقهم كله فواكه، لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد. فكل ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذذ. ويجوز أن يراد: رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها: من طيب طعم، ورائحة، ولذة، وحسن منظر. وقيل: معلوم الوقت، كقوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً) وعن قتادة: الرزق المعلوم الجنة. وقوله (فى جنات) يأباه، وقوله ﴿وهم مكرمون﴾ هو الذى يقوله العلماء فى حد الثواب على سبيل المدح والتعظيم، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوى الهمم، كما أن من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هوان أهل النار وصغارهم.

التقابل: أتم للسرور وآنس. وقيل: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

يقال للزجاجة فيها الخمر: كأس، وتسمى الخمر نفسها كأساً، قال:

* وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ * (١)

وعن الأخفش: كل كأس فى القرآن فهى الخمر، وكذا فى تفسير ابن عباس ﴿من معين﴾ من شراب معين. أو من نهر معين، وهو الجارى على وجه الأرض، الظاهر للعيون: وصف بما يوصف به الماء، لأنه يجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء، قال الله تعالى (وأنهار من خمر). ﴿بيضاء﴾ صفة للكأس ﴿لذة﴾ إما أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها: أو هى تأنيث اللذ، يقال: لذ الشىء فهو لذ ولذيذ. ووزنه: فعل، كقولك: رجل طب، قال:

وَلَذٍّ كَطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ (٢)

(١) وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكى يعلم الناس أنى امرؤ أتيت المعيشة من بابها

للأعشى، والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر، وعلى الخمر فيها: مجازاً مشهوراً، وهى مؤنثة بدليل تأنيث صفتها وضميرها. يقول: ورب كأس شربتها مع لذة، أو لأجل لذة فضرتنى، فشربت كأساً أخرى تداويت من الأولى بها، ليعلم الناس أنى مجرب للأمور، وكنى عن ذلك بقوله: أتيت المعيشة من بابها، وشبه المعيشة مع أسبابها المناسبة لها بدار لها باب على طريق المكنية وإثبات الباب تخييل، أى: كما داويت الداء من بابه أدرك المعيشة وأحصلها من الأسباب التى تناسبها. ويروى: بدل الشطر الثانى من البيت الأول * دهاق يرنح من ذاقها *. ودهقه: كسره وغمزه غمزاً شديداً، وكأس داهق: ممتلئة، ودهاق: مملوءة. وترنح: تميل، لكن هذا من قافية أخرى.

(٢) اللذ: وصف، واللذة: مؤنثة، وهى اسم للكيفية القائمة بالنفس، واسم للشىء اللذيذ. والصرخد: موضع من الشام ينسب إليه الشراب. والحدثان: مصدر كالحدث، إلا أنه يدل على التجدد والتكرر، يقول: ورب شىء لذيذ يعنى النوم، طعمه كطعم الشراب الطيب، تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بى. ويروى بدل الشطر الثانى * عشية خمس القوم والعين عاشقة * وخمست القوم أخمسهم - بالضم -: أخذت خمس أموالهم.

يريد النوم . الغول : لمن غاله يغوله غولا إذا أهلكه وأفسده . ومنه : الغول الذى فى تكاذيب العرب . وفى أمثالهم : الغضب غول الحلم ، و ﴿ينزفون﴾ على البناء للمفعول ، من نزف الشارب [1] إذا ذهب عقله . ويقال للسكران : نزيف ومنزوف . ويقال للمطعون : نزف فمات إذا خرج دمه كله . ونزحت الركية حتى نزفتها : إذا لم تترك فيها ماء . وفى أمثالهم : أجبن من المنزوف ضرطا . وقرئ : ينزفون ، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه . قال :

لَعَمْرِى لَئِنْ أَنْزَفْتُمُو أَوْ صَحَوْتُمُو ... لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُو آلَ أَبْجَرَا [2]

ومعناه : صار ذا نزف . ونظيره : أقشع السحاب ، وقشعته الريح ، وأكب الرجل وكببته . وحقيقتهما : دخلا فى القشع والكب . وفى قراءة طلحة بن مصرف : وينزفون : بضم الزاى ، من نزف ينزف كقرب يقرب ، إذا سكر . والمعنى : لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التى تكون فى شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار [3] أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ، ولاهم يسكرون [4] ، وهو أعظم مفاسدها فأفرزه وأفرده بالذكر ﴿قاصرات الطرف﴾ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم ، كقوله تعالى (عربا) [5] والعين : النجل العيون [6] شبههنّ ببيض النعام المكنون فى الأداحى ، وبها تشبه العرب النساء وتسميهنّ بيضات الخدور .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾

---

(١) قوله «من نزف الشارب» فى الصحاح : نزفت ماء البئر نزفا ، إذا نزحته كله . ونزفت هي : يتعدى ولا يتعدى . . ونزفت أيضاً على ما لم يسم فاعله . (ع)

(٢) للأبيرد . ونزف دمه : خرج منه حتى ضعف وانقطعت حركته . ونزف الرجل فى الخصومة : انقطعت حجته ، وأنزف : صار ذا نزف ، فنزف وأنزف لازمان . وقوله : لئن أنزفتم ، أى سكرتم وبطلت حركتكم ، أو انقطع شرابكم ، ولبئس الندامى : جواب القسم ، وجواب الشرط مثله محذوف ، وأنتم : هو المخصوص بالذم . وآل أبجر : منادى ، وفيه نوع من التهكم والاستخفاف بهم .

(٣) قوله «فى الصحاح : الخمار : بقية السكر . (ع)

(٤) قوله «ولاهم يسكرون» لعله : ولا هم عنها يسكرون . (ع)

(٥) قوله «كقوله تعالى : عربا» أى متحببات إلى أزواجهن كما يأتى . (ع)

(٦) قوله «النجل العيون» فى الصحاح : النجل ـ بالتحريك : كشف العين . والرجل أنجل ، والعين نجلاء ، والجمع نجل . وفيه : مدحى النعامة : موضع بيضها . وأدحيها موضعها ، وهو أفعول من دحوت ؛ لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه اه والأداحى : جمعه . (ع)

أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿فأقبل بعضهم على بعض﴾؟ قلت : على يطاف عليهم. والمعنى: يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب [1] ؛ قال :

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلاَّ أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ [2]

فيقبل بعضهم على بعض ﴿يتساءلون﴾ عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ، إلا أنه جىء به ماضياً على عادة الله فى أخباره . قرئ : من المصدقين ، من التصديق . ومن المصّدّقين مشدد الصاد ، من التصدق ، وقيل : نزلت فى رجل تصدّق بماله لوجه الله ، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه ، فقال : وأين مالك ؟ قال : تصدقت به ليعوضنى الله به فى الآخرة خيراً منه ، فقال : أئنك لمن المصدّقين بيوم الدين . أو من المتصدّقين لطلب الثواب . والله لا أعطيك شيئا ﴿لمدينون﴾ لمجزيون ، من الدين وهو الجزاء . أو لمسوسون مربوبون . يقال : دانه ساسه . ومنه الحديث : « العاقل من دان نفسه » [3] . ﴿قال﴾ يعنى ذلك القائل ﴿هل أنتم مطلعون﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين . قيل : إن فى الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار . وقيل : القائل هو الله عز وجل : وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة : هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار . وقرئ . مطلعون ، فاطلع . وفأطلع بالتشديد ، على لفظ الماضى والمضارع المنصوب : ومطلعون فاطلع ، وفأطلع بالتخفيف ، على لفظ الماضى والمضارع المنصوب . يقال : طلع علينا فلان ، واطلع ، وأطلع بمعنى واحد ، والمعنى : هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضا . أوعرض عليهم الاطلاع فاعترضوه ، فاطلع هو بعد ذلك . وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره ، فالمعنى : أنه لما شرط فى اطلاعه اطلاعهم ، وهو من

(١) قوله « كعادة الشرب » جمع شارب ، كالصحب جمع صاحب ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) للفرزدق ، يقول : وما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث الكرام ، أو مابقيت شهوة من الشهوات اللذيذة إلا أحاديث الكرام على الخمر ، وأتى بحرف الاستعلاء لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم فوقه ، وكان الظاهر : ومابقى من اللذات ، لكن أنث الفعل لأنه مفرغ لما بعد إلا ، أو للتأويل المتقدم .

(٣) أخرجه الترمذى وابن ماجه ، والحاكم وأحمد والبزار وأبو يعلى والحرث والطبرانى كلهم من رواية أبى بكر ابن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس .

آداب المجالسة . أن لا يستبد بشيء دون جلسائه ، فكأنهم مطلعوه . وقيل : الخطاب على هذا للملائكة . وقرئ : مطلعون بكسر النون ، أراد : مطلعون إياى ؛ فوضع المتصل موضع المنفصل ، كقوله :

* هُمُ الفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالآمِرُونَهُ * (١)

أو شبه اسم الفاعل فى ذلك بالمضارع لتآخ بينهما ، كأنه قال : تطلعون ، وهو ضعيف لايقع إلا فى الشعر ﴿فى سواء الجحيم﴾ فى وسطها ، يقال : تعبت حتى انقطع سوائى ، وعن أبى عبيدة : قال لى عيسى بن عمر : كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائى ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة ، وهى تدخل على «كاد» كما تدخل على «كان» ، ونحوه (إن كاد ليضلنا) واللام هى الفارقة بينها وبين النافية ، والإرداء : الإهلاك . وفى قراءة عبد الله : لتغوين ﴿نعمة ربى﴾ هى العصمة والتوفيق فى الاستمساك بعروة الإسلام ، والبراءة من قرين السوء . أو إنعام الله بالثواب وكونه من أهل الجنة ﴿من المحضرين﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك .

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩)

الذى عطفت عليه الفاء محذوف ، معناه : أنحن مخلدون منعمون ، فما نحن بميتين ولا معذبين . وقرئ بمائتين . والمعنى أن هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى الله به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى ، بخلاف الكفار ، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة ، وقيل لبعض الحكماء : ما شر من الموت ؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت .

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله واغتباطا بحاله وبمسمع من قرينه ، ليكون توبيخا له يزيد به تعذبا ، وليحكيه الله فيكون لنا لطفا وزاجراً . ويجوز أن يكون قولهم جميعا ، وكذلك قوله ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ أى إن هذا الأمر الذى نحن فيه . وقيل : هو من قول الله عز وجل تقريراً لقولهم وتصديقا له . وقرئ : لهو الرزق العظيم ، وهو ما رزقوه من السعادة .

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣)

---

(١) هم الفاعلون الخير والآمرونه إذا ما خشوا من حادث الدهر معظما

الخير : نصب على المفعولية . ويقال : أمرتك الخير وأمرتك به ، فالآمرونه : اسم فاعل متعد للمفعول الثانى بنفسه ، وكان حقه الفصل فوصل ، وربما كان فى البيت أوقع منه فى اسم الفاعل المجرد من اللام ، وما زائدة : أى إذا خافوا من حادث الدهر أمراً معظما . ويروى : مفظعاً ، أى : مخيفاً لخفه فى حرف العين .

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)

تمت قصة المؤمن وقرينه، ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال ﴿أذلك﴾ الرزق ﴿خير نزلا﴾ أى خير حاصلا ﴿أم شجرة الزقوم﴾ وأصل النزل: الفضل والريع فى الطعام، يقال: طعام كثير النزل، فاستعير للحاصل من الشيء. وحاصل الرزق المعلوم: اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم: الألم والغم، وانتصاب نزلا على التميز، ولك أن تجعله حالا، كما تقول: أثمر النخلة خير بلحا أم رطبا؟ يعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة. وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم، فأيهما خير فى كونه نزلا. والنزل: ما يقال [1] للنازل بالمكان من الرزق. ومنه إنزال الجند لأرزاقهم، كما يقال لما يقام لساكن الدار: السكن [2]. ومعنى الأول: أن للرزق المعلوم نزلا، ولشجر الزقوم نزلا، فأيهما خير نزلا. ومعلوم أنه لا خير فى شجرة الزقوم، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم، قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم ﴿فتنة للظالمين﴾ محنة وعذابا لهم فى الآخرة. أو ابتلاء لهم فى الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجر، فكذبوا. وقرئ: نابتة ﴿فى أصل الجحيم﴾ قيل: منبتها فى قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها: والطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها: إما استعارة لفظية، أو معنوية، وشبه برؤوس الشياطين دلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر، لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، فيقولون فى القبيح الصورة: كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان. وإذا صوره المصورون: جاؤا بصورته على أقبح ما يقدر وأهوله؛ كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محض لا شر فيه، فشبهوا به الصورة الحسنة. قال الله تعالى (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) وهذا تشبيه تخييلى. وقيل: الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر هائلة جدا. وقيل: إن شجراً يقال له الأستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة، يسمى ثمره:

---

(١) قوله «ما يقال للنازل بالمكان» لعله «ما يقام» كعبارة النسفى. (ع)

(٢) قوله «لساكن الدار السكن» فى الصحاح «السكن»: كل ما سكنت إليه. (ع)

رؤوس الشياطين . وما سمت العرب هذا الثمر برؤوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين ، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به ﴿ منها ﴾ من الشجرة ، أى من طلعها ﴿ فمالئون ﴾ بطونهم ، لما يغلبهم من الجوع الشديد ، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها ، ليكون بابا من العذاب ؛ فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شرابا من غساق أو صديد ، شوبه : أى مزاجه ﴿ من حميم ﴾ يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم ، كما قال فى صفة شراب أهل الجنة (ومزاجه من تسنيم) وقرئ : لشوبا ، بالضم ، وهو اسم ما يشاب به ، والأول تسمية بالمصدر . فإن قلت : ما معنى حرف التراخى فى قوله (ثم إن لهم عليها لشوبا) وفى قوله ﴿ ثم إن مرجعهم ﴾ ؟ قلت : فى الأول وجهان ، أحدهما : أنهم يملؤن البطون من شجر الزقوم ، وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم ، فلا يسقون إلا بعد ملىّ تعذيبا بذلك العطش ، ثم يسقون ما هو احرّ وهو الشراب المشوب بالحميم . والثانى : أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع ، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته فى الزيادة عليه . ومعنى الثانى : أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم فى الجحيم ، وهى الدركات التى أسكنوها إلى شجرة الزقوم ، فيأكلون إلى أن يتملؤا ، ويسقون بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى دركاتهم ، ومعنى التراخى فى ذلك بين : وقرئ : ثم إن منقلبهم ، ثم إن مصيرهم ، ثم إن منفذهم إلى الجحيم : علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين ، واتباعهم إياهم على الضلال ، وترك اتباع الدليل . والإهراع : الإسراع الشديد ، كأنهم يحثون حثا . وقيل : إسراع فيه شبه بالرعدة .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)

﴿ ولقد ضلّ قبلهم ﴾ قبل قومك قريش . ﴿ منذرين ﴾ أنبياء حذروهم العواقب . ﴿ المنذرين ﴾ الذين أنذروا وحذروا ، أى أهلكوا جميعا ﴿ إلا عباد الله ﴾ الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله ، أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين .

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

لما ذكر إرسال المنذرين فى الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين ، أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه ، واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : فوالله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء . والمعنى : إنا أجبناه أحسن الإجابة ، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ مايكون ﴿هم الباقين﴾ هم الذين بقوا وحدهم وقد فنى غيرهم ، فقد روى أنه مات كل من كان معه فى السفينة غير ولده . أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة . قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح . وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد : سام ، وحام ، ويافث . فسام أبو العرب ، وفارس ، والروم . وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب . ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج ﴿وتركنا عليه فى الآخرين﴾ من الأمم هذه الكلمة . وهى : ﴿سلام على نوح﴾ يعنى يسلمون عليه تسليما ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكى ، كقولك : قرأت سورة أنزلناها . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿فى العالمين﴾ ؟ قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً ، وأن لا يخلو أحد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم . علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا ، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً ، ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك فى تحصيله والازدياد منه .

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿من شيعته﴾ ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما . أو شايعه على التصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين . ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق فى أكثر الأشياء . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من أهل دينه وعلى سنته ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان : هود ، وصالح . وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة . فإن قلت : بم تعلق الظرف ؟ قلت : بما فى الشيعة من معنى المشايعة ، يعنى : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم . أو بمحذوف وهو : اذكر ﴿بقلب سليم﴾ من جميع آفات القلوب . وقيل : من الشرك ، ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق ، فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها . فإن قلت : مامعنى المجىء بقلبه ربه ؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب

المجىء مثلا لذلك (أإفكا) مفعول له ، تقديره : أتريدون آلهة من دون الله إفكا ، وإنما قدم المفعول على الفعل للعناية ، وقدم المفعول له على المفعول به ؛ لأنه كان الأهمّ عنده أن يكالحهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم . ويجوز أن يكون إفكا مفعولا ، يعنى : أتريدون به إفكا . ثم فسر الإفك بقوله (آلهة من دون الله) على أنها إفك فى أنفسها . ويجوز أن يكون حالا ، بمعنى : أتريدون آلهة من دون الله آفكين ﴿فما ظنكم﴾ بمن هو الحقيق بالعبادة ، لأنّ من كان رباً للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه ، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام : والمعنى : أنه لا يقدر فى وهم ولا ظنّ ما يصدّ عن عبادته . أو فما ظنكم به أى شىء هو من الأشياء ، حتى جعلتم الأصنام له أنداداً . أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره ؟

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

﴿فى النجوم﴾ فى علم النجوم أو فى كتابها أو فى أحكامها ، وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال : حبيب أنظر إليه ، ومحتاج أنظر له ، وكتاب أنظر فيه . كان القوم نجامين ، فأوهمهم أنه استدل بأمارة فى علم النجوم على أنه يسقم ﴿فقال إنى سقيم﴾ إنى مشارف للسقم وهو الطاعون ، وكان أغلب الأسقام عليهم ، وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه ، فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه فى بيت الأصنام ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل . فإن قلت : كيف جاز له أن يكذب ؟ قلت : قد جوزه بعض الناس فى المكيدة فى الحرب والتقية ، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين . والصحيح : أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى ، والذى قاله إبراهيم عليه السلام : معراض من الكلام ، ولقد نوى به أن من فى عنقه الموت سقيم . ومنه المثل : كفى بالسلامة داء . وقول لبيد :

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ [1]

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح ، فقال أعرابى : أصحيح من الموت فى عنقه . وقيل : أراد : إنى سقيم النفس لكفركم .

---

(١) كانت قناتى لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء
فدعوت ربى بالسلامة جاهداً ليصحنى فإذا السلامة داء

للبيد بن ربيعة العامرى ، والقناة : الرمح ، استعارها لاقامته أو قوته على طريق التصريح ، والليونة والغمز : ترشيح . والغمزى : الحبى باليد . ويجوز أن الاستعارة تمثيلية فى المركب ، يصف قوته زمن الشباب ، ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه ، وأنه تطلب فسحة الأجل ، فكانت سبب اضمحلاله .

فَرَاغَ إِلَى ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾
فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾

﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ فذهب إليها فى خفية، من روغة الثعلب، إلى آلهتهم: إلى أصنامهم التى هى فى زعمهم آلهة، كقوله تعالى: أين شركائى؟ ﴿ألا تأكلون! مالكم لا تنطقون﴾ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها ﴿فراغ عليهم﴾ فأقبل عليهم مستخفيا، كأنه قال: فضربهم ﴿ضربا﴾ لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم. أو فراغ عليهم يضربهم ضربا. أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا. وقرئ: صفقا وسفقا، ومعناهما: الضرب. ومعنى ضربا ﴿باليمين﴾ ضربا شديداً قويا؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما. وقيل: بالقوة والمتانة: وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله (تالله لأكيدنّ أصنامكم).

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾

﴿يزفون﴾ يسرعون، من زفيف النعام. ويزفون: من أزفّ، إذا دخل فى الزفيف. أو من أزفه، إذا حمله على الزفيف، أى: يزفّ بعضهم بعضا. ويزفون، على البناء للمفعول، أى: يحملون على الزفيف. ويزفون، من وزف يزف إذا أسرع. ويزفون: من زفاه إذا حداه[1]، كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم إليه، فإن قلت: بين هذا وبين قوله تعالى (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) كالتناقض حيث ذكر ههنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى، فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به، وذكر ثم أنهم سألوا عن الكاسر، حتى قيل لهم: سمعنا إبراهيم يذمهم، فلعله هو الكاسر؛ ففى أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها، وفى الآخر: أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفراً منهم دون جمهورهم وكبرائهم، فلما رجع الجمهور والعلية[2] من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذى وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك، وسألوا: من فعل هذا بها؟ ثم لم ينم عليه أولئك النفر نميمة صريحة، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم «سمعنا فتى يذكرهم» لبعض الصوارف. والثانى: أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر. وقولهم: قالوا فأتوا به على أعين الناس.

(١) قوله «إذا حداه» أى ساقه. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله «والعلية» أى العظماء. (ع)

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ يعنى خلقكم وخلق ماتعملونه من الأصنام، كقوله (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى فطر الأصنام. فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا لله معمولا لهم، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعا؟ قلت: هذا كما يقال: عمل النجار الباب[1] والكرسى، وعمل الصائغ السوار والخلخال، والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها، والأصنام جواهر وأشكال، فخالق جواهرها الله، وعاملو أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها، حتى يستوى التشكيل الذى يريدونه. فإن قلت: فما أنكرت[2] أن تكون ما مصدرية لا موصولة، ويكون المعنى: والله خلقكم وعملكم، كما تقول المجبرة[3]؟ قلت: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه

---

(١) قال محمود: «يعنى خلقكم وما تعملون من الأصنام، كقوله (بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) فان قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا لله تعالى معمولا لهم؟ وأجاب بأن هذا كما يقال: عمل النجار الباب ... إلى أن قال: ... وفى ذلك فك للنظم وتبتير كما لو جعلتها مصدرية» اهـ كلامه. قال أحمد: إذا جاء سيل الله ذهب سيل معقل، فنقول: يتعين حملها على المصدرية، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة، فلو كان كذلك لم يتماونوا فى تصويرها، ولا اختصوا بعبادتهم حجراً دون حجر، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التى هى أثر عملهم، ففى الحقيقة أنهم عبدوا عملهم، وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله، مع أن المعبود كسب العابد وعمله، فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما مصدرية أوضح قيام وأبلغه، فاذا أثبت ذلك فليتتبع كلامه بالابطال. أما قوله أنها موصولة، وأن المراد بعملهم لها عمل أشكالها فمخالف للظاهر، فانه مفتقر إلى حذف مضاف فى موضع اليأس يكون تقديره: والله خلقكم وما تعملون شكله وصورته، بخلاف توجيه أهل السنة فانه غير مفتقر إلى حذف البتة، ثم إذا جعل المعبود نفس الجوهر، فكيف يطابق توبيخهم ببيان أن المعبود من عمل العابد، مع موافقته على أن جواهر الأصنام ليست من عملهم؟ فما هو من عملهم وهو الشكل ليس معبوداً لهم على هذا التأويل، وما هو معبودهم وهو جوهر الصنم ليس من عملهم، فلم يستقر له قرار فى أن المعبود على تأويله من عمل العابد، وعلى ماقررناه يتضح. وأما قوله: إن المطابقة تنفك على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح، فان لنا أن نحمل الأولى على أنها مصدرية وأنهم فى الحقيقة إنما عبدوا نحتهم؛ لأن هذه الأصنام وهى حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها، فلما عملوا فيها النحت عبدوها، ففى الحقيقة ماعبدوا سوى نحتهم الذى هو عملهم، فالمطابقة إذاً حاصلة، والالزام على هذا أبلغ وأمتن، ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة، ولقالوا كما يقول الزمخشرى مكافحين لقوله (والله خلقكم وما تعملون) بأن يقولوا: لا ولا كرامة، ولا يخلق الله ما نعمل نحن، لأنا إنما عملنا التشكيل والتصوير وهذا لم يخلقه الله، وكانوا يجدون الذريعة إلى اقتحام الحجة، ويأبى الله إلا أن تكون لنا الحجة البالغة ولهم الأكاذيب الفارغة، فهذا إلزام بل إلجام لمن خالف السنة، وغل بعنقه، وعقر بكتفه، وضرب على يده، حتى يرجع إلى الحق آيبا، ويعترف بخطئه تائبا.

(٢) قوله «فان قلت فما أنكرت»؟ لعله: لم أنكرت. (ع)

(٣) قوله «كما تقول المجبرة» يريد أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه لاخالق إلا الله، فهو الخالق لعمل العبد ═

بحجج العقل والكتاب : أن معنى الاية يأباه إباء جلياً ، وينبو عنه نبوّاً ظاهراً ، وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعاً خلق الله ، فكيف يعبد المخلوق المخلوق ، على أن العابد منهما هو الذى عمل صورة المعبود وشكله ، ولولاه لما قدر أن يصور نفسه ويشكلها ، ولو قلت : والله خلقكم وخلق عملكم ، ولم يكن محتجا عليهم[1] ولا كان لكلامك طباق . وشيء آخر : وهو أن قوله (ماتعملون) ترجمة عن قوله (ماتنحتون) و (ما) فى (ماتنحتون) موصولة لامقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه ، من غير نظر فى علم البيان ، ولاتبصر لنظم القرآن . فإن قلت : اجعلها موصولة حتى لايلزمنى ما ألزمت ، وأريد : وماتعملونه من أعمالكم . قلت : بل الإلزامان فى عنقك لايفكهما إلا الإذعان للحق ، وذلك أنك وإن جعلتها موصولة ، فإنك فى إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين ، كحالك وقد جعلتها مصدرية ، وأيضاً فإنك قاطع بذلك الصلة بين ماتعملون وما تنحتون ، حيث تخالف بين المرادين بهما ؛ فتريد بما تنحتون : الأعيان التى هى الأصنام ، وبما تعملون : المعانى التى هى الأعمال ؛ وفى ذلك فك النظم وتبتيره ؛ كما إذا جعلتها مصدرية .

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الوقود ، وقيل : كل نار على نار وجمر فوق جمر ، فهى جحيم . والمعنى : أن الله تعالى غلبه عليهم فى المقامين جميعا ، وأذلهم بين يديه : أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر ، وقهرهم فمالوا إلى المكر ، فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدروا عليه .

وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾

أراد بذهابه إلى ربه : مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام ؛ كما قال :

ـــ والمعتزلة يقولون : إن العبد هو الخالق لعمل نفسه ، فجعلوا العبد شريكا لله فى الخالقية ، مع أنهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، قالوا : لو كان الله هو الخالق لفعل العبد لكان تعذيبه للعبد على المعاصى ظلماً لا عدلا ، قال أهل السنة : يعذبه عليها كما يثيبه على الطاعة ، لما له فيهما من الكسب والاختيار ، فلا ظلم ، لكن المعتزلة لم ينظروا فى التوحيد تمام النظر ، ولم يتبصروا فى أدلته تمام التبصر . (ع)

(١) قوله «ولم يكن محتجاً عليهم» يكفى فى الاحتجاج أن الله هو الخالق لهم ولأعمالهم فى الأصنام وغيرها ، والأصنام لاتخلق شيئاً ، بل الانفراد بالخالقية أدل على الانفراد بالالهية . (ع)

إنى مهاجر إلى ربى. ﴿سيهدين﴾ سيرشدنى إلى ما فيه صلاحى فى دينى ويعصمنى ويوفقنى، كما قال موسى عليه السلام (كلا إنّ معى ربى سيهدين) كأن الله وعده وقال له: سأهديك، فأجرى كلامه على سنن موعد ربه. أو بناء على عادة الله تعالى معه فى هدايته وإرشاده. أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى الله. ولو قصد الرجاء والطمع لقال، كما قال موسى عليه السلام (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل). ﴿هب لى من الصالحين﴾ هب لى بعض الصالحين، يريد الولد، لأنّ لفظ الهبة غلب فى الولد وإن كان قد جاء فى الأخ فى قوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا) قال عزّ وجل (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) (ووهبنا له يحيى) وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهم ـ حين هنأه بولده علىّ أبى الأملاك ـ: شكرت الواهب، وبورك لك فى الموهوب. ولذلك وقعت التسمية بهبة الله، وبموهوب، ووهب، وموهب. وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليما، وأى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح، فقال: ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، ثم استسلم لذلك. وقيل: ما نعت الله الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم، وذلك لعزة وجوده. ولقد نعت الله به إبراهيم فى قوله (إنّ إبراهيم لأواه حليم)، (إنّ إبراهيم لحليم أوّاه منيب) لأنّ الحادثة شهدت بحلمهما جميعا.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه. فإن قلت: ﴿معه﴾ بم يتعلق؟ قلت: لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ، أو بالسعى، أو بمحذوف، فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حدّ السعى، ولا بالسعى لأنّ صلة المصدر لا تتقدم عليه، فبقى أن يكون بيانا، كأنه لما قال: فلما بلغ السعى أى الحدّ الذى يقدر فيه على السعى قيل: مع من؟ فقال مع أبيه. والمعنى فى اختصاص الأب أنه أرفق الناس به، وأعطفهم عليه، وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله، لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. والمراد: أنه على غضاضة سنه وتقلبه فى حد الطفولة، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم: أتى فى المنام فقيل له: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى اليقظة، فلهذا قال ﴿إنى أرى فى المنام أنى أذبحك﴾ فذكر تأويل الرؤيا، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب فى سفينة: رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة، وقيل: رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح

ابنك هذا ، فلما أصبح روى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن الله هذا الحلم أو من الشيطان؟ فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من الله ، فمن ثم سمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر . وقيل : إنّ الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال : هو إذن ذبيح الله . فلما ولد و بلغ حد السعى معه قيل له : أوف بنذرك ﴿فانظر ماذا ترى﴾ من الرأى على وجه المشاورة . وقرئ : ماذا ترى [1] ، أى : ماذا تبصر من رأيك وتبديه . وماذا ترى ، على البناء للمفعول ، أى : ماذا تريك نفسك من الرأى ﴿افعل ماتؤمر﴾ أى ماتؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله :

* أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ ماأُمِرْتَ بِهِ * [2]

أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول ، وتسمية المأمور به أمراً . وقرئ : ماتؤمر به . فإن قلت : لم شاوره فى أمر هو حتم من الله ؟ قلت : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ماعنده فيما نزل به من بلاء الله ، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله : ولأنّ المغافصة [3] بالذبح مما يستسمج ، وليكون سنة فى المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة فى أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك .
فإن قلت : لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة ؟ قلت : كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له فى المنام من غير وحى إلى أبيه ، وكما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول المسجد الحرام فى المنام ، وماسوى ذلك من منامات الأنبياء ، وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين ، لأنّ الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما .

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)

(١) قوله «وقرئ ماذا ترى» لعله بضم التاء وكسر الراء ، من أراه يريه ، فليحرر . (ع)
(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٥٩٠ فراجعه إن شئت اه مصححه
(٣) قوله «المغافصة» فى الصحاح : غافصت الرجل ، أى : أخذته على غرة . (ع)

يقال : سلم لأمر الله ، وأسلم ، واستسلم بمعنى واحد . وقد قرئ بهن جميعا إذا انقاد له ، وخضع ، وأصلها من قولك : سلم هذا لفلان إذا خلص له . ومعناه : سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم : سلم لأمر الله ، وأسلم له منقولان منه ، وحقيقة معناهما : أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى : استسلم : استخلص نفسه لله . وعن قتادة في ﴿أسلما﴾ أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿وتله للجبين﴾ صرعه على شقه ، فوقع أحد جبينيه على الأرض تواضعا [١] على مباشرة الأمر بصبر وجلد ، ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان . وروى أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى ، وعن الحسن : في الموضع المشرف على مسجد منى . وعن الضحاك : في المنحر الذي ينحر فيه اليوم . فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما ، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب ، وقوله ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة ، والظفر بالبغية بعد اليأس ﴿البلاء المبين﴾ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم . أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها . الذبح : اسم ما يذبح . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الكبش الذي قربه هابيل فقبل منه ، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسمعيل . وعن الحسن : فدى بوعل [٢] أهبط عليه من ثبير . وعن ابن عباس : لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم [٣] ﴿عظيم﴾ ضخم الجثة سمين ، وهي السنة في الأضاحي . وقوله عليه السلام «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصراط مطاياكم» وقيل : لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم . وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه ، فبقيت سنة في الرمي . وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده : وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر ، فقال الذبيح : لا إله إلا الله والله أكبر ، فقال إبراهيم عليه السلام : الله أكبر ولله الحمد [٤] ، فبقي سنة : وحكى في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال : يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر ، فقال : اشدد رباطي لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك

(١) قوله «تواضعا على مباشرة الأمر» أي توفقا . (ع)
(٢) قوله «بوعل» في الصحاح : الوعل : الأروى اه ، ويقال : التيس الجبلي . (ع)
(٣) لم أجده .
(٤) لم أجده .

لا ينتضح عليها شيء من دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن ، واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقى حتى تجهز علىّ ، ليكون أهون فإنّ الموت شديد ، واقرأ على أمى سلامى ، وإن رأيت أن تردّ قميصى على أمى فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بنىّ على أمر الله ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه ، وهما يبكيان ، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل . لأنّ الله ضرب صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال له : كبنى على وجهى فإنك إذا نظرت وجهى رحمتنى وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله ، ففعل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودى : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح ، فكبر جبريل والكبش ، وإبراهيم وابنه ، وأتى المنحر من منى فذبحه : وقيل : لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج . وقد استشهد أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده : أنه يلزمه ذبح شاة ، فإن قلت : من كان الذبيح من ولديه ؟ قلت : قد اختلف فيه ؛ فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى وجماعة من التابعين : أنه إسماعيل . والحجة فيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا ابن الذبيحين » وقال له أعرابى : يا ابن الذبيحين ، فتبسم ، فسئل عن ذلك فقال : إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله : لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده ، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له أفد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثانى إسماعيل »[1] وعن محمد بن كعب القرظى قال : كان مجتهد بنى إسرائيل يقول إذا دعا : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، فقال موسى عليه السلام : يارب ، ما لمجتهد بنى إسرائيل إذا دعا قال : اللهم إله إبراهيم وإسمعيل وإسرائيل ، وأنا بين أظهرهم فقد أسمعتنى كلامك واصطفيتنى برسالتك ؟ قال : ياموسى ، لم يحبنى أحد حب إبراهيم قط ، ولا خير بينى وبين شيء قط إلا اختارنى . وأمّا إسماعيل فإنه جاد بدم نفسه . وأمّا إسرائيل ، فإنه لم ييأس من روحى فى شدّة نزلت به قط . ويدل عليه أنّ الله تعالى لما أتم قصة الذبيح قال : (وبشرناه بإسحاق نبيا) وعن محمد بن كعب أنه قال لعمر بن عبد العزيز : هو إسمعيل ، فقال عمر : إنّ هذا شيء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى يهودى قد أسلم فسأله ، فقال : إن اليهود لتعلم أنه إسمعيل ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، ويدل عليه أن قرنى الكبش كانا منوطين فى الكعبة فى أيدى بنى إسماعيل إلى أن احترق البيت . وعن الأصمعى قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعى أين عزب عنك عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة ، وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذى بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة .

(١) أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية الصنابحى عن معاوية رضى الله عنه وفيه قصة .

ومما يدل عليه أنّ الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق فى قوله (واسماعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين) وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد فى قوله (إنه كان صادق الوعد) لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ، ولأن الله بشره بإسحاق وولده يعقوب فى قوله (فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فلو كان الذبيح إسحق لكان خلفا للموعد فى يعقوب . وعن على بن أبى طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين : أنه إسحق . والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولدا ، ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم ، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به . ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله [1] . فإن قلت : قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه فى المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا ، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح [2]

(١) أخرجه الترمذى فى النوادر فى الحادى والعشرين بعد المائتين : حدثنا عمر بن أبى عمر حدثنا عصام بن المثنى الحمصى عن أبيه عن وهب بن منبه قال «كتب يعقوب كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . من يعقوب نبى الله إلى آخره» وأخرج الدارقطنى فى غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسى عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه «أوحى إلى ملك الموت أن ائت يعقوب فسلم عليه فذكر الحديث - وفيه فقال : اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت فذكره مطولا . قال الدارقطنى : هذا موضوع . وإسحاق كان يضع الحديث على ابن وهب . وقد تقدم فى يوسف من وجه آخر .

(٢) قال محمود : «فان قلت قد أوحى إلى إبراهيم فى المنام أن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح . فأجاب بأنه قد بذل وسعه وفعل ما يفعله الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله سبحانه منع الشفرة أن تمضى فيه وهذا لا يقدح فى فعل إبراهيم ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصياً ولا مفرطاً بل يسمى مطيعاً ومجتهداً ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قبل أوان الفعل فى شىء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام عليه . انتهى كلامه» قال أحمد : كل ماذكر دندنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل ، وتلك قاعدة المعتزلة . وأما أهل السنة فيثبتون جوازه ، لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل ، لجاز رفعه كالموت . وأيضاً فكل نسخ كذلك ؛ لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة ، ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية . ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل (افعل ماتؤمر) ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء ، فمن ثم تحوم الزمخشرى على أنه فعل غاية وسعه من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، وإنما امتنعت بأمر من الله تعالى ، وغرضه بذلك أحد أمرين : إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح وقد حصلت لا بنفس الذبح ، أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه ، ولكن لم يتمكن . وكلا الأمرين لا يخلصه . أما قوله : أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك) وقوله (افعل ما تؤمر) وأما قوله : لم يتمكن لأن الشفرة منعت بأمر من الله تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح ، فحاصله أنه لم يتمكن من الذبح المأمور به ، فكان النسخ إذاً قبل التمكن ، وهو عين ما أنكره المعتزلة ، ولما لم يكن فى هذين الجوابين لهم خلاص : لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح ، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتحم ، وهو باطل لا ثبوت له . وسياق الآية يخل دعواه ويفل ثنباه ،

قلت . قد بذل وسعه وفعل مايفعل الذابح : من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه ، وهذا لايقدح فى فعل إبراهيم عليه السلام ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولامفرطا ، بل يسمى مطيعا ومجتهداً ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ، ولا قبل أوان الفعل فى شىء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام ، حتى يشتغل بالكلام فيه . فإن قلت : الله تعالى هو المفتدى منه : لأنه الآمر بالذبح ، فكيف يكون فاديا حتى قال (وفديناه) ؟ قلت : الفادى هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والله عز وجل وهب له الكبش ليفدى به وإنما قال (وفديناه) إسناداً للفداء إلى السبب الذى هو الممكن من الفداء بهبته . فإن قلت : فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة فى حكم الذبح . فما معنى الفداء ، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل ؟ قلت : قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وإنهار الدم ، فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لاتحصل تلك الحقيقة فى نفس إسماعيل ، ولكن فى نفس الكبش بدلا منه . فإن قلت : فأى فائدة فى تحصيل تلك الحقيقة ، وقد استغنى عنها بقيام ماوجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان ؟ قلت : الفائدة فى ذلك أن يوجد مامنع منه فى بدله حتى يكمل منه الوفاء بالمنذور وإيجاد المأمور به من كل وجه . فإن قلت : لم قيل ههنا ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ وفى غيرها من القصص : إنا كذلك ؟ قلت : قد سبقه فى هذه القصة : إنا كذلك ، فكأنما استخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية .

وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَٰقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)

﴿ نبيا ﴾ حال مقدرة ، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) . فإن قلت : فرق بين هذا وبين قوله (فادخلوها خالدين) وذلك أنّ المدخول موجود مع وجود الدخول ، والخلود غير موجود معهما ، فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيما ، وليس كذلك المبشر به ، فإنه معدوم وقت وجود البشارة ، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لامحالة ؛ لأنّ الحال حلية ، والحلية لاتقوم إلا بالمحلى ، وهذا المبشر به الذى هو إسحق حين وجد لم توجد النبوّة أيضاً بوجوده ، بل تراخت عنه مدّة متطاولة ، فكيف يجعل نبيا حالا مقدّرة ، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أوبه ؛ فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة ، فتقديرها[1] صفتهم ؛ لأنّ المعنى مقدّرين

(١) قوله « فتقديرها صفتهم » لعله : فتقديره . (ع)

الخلود ، وليس كذلك النبوة ؛ فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدرة وقت وجود البشارة بإسحق لعدم إسحق . قلت : هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك ، والذى يحل الإشكال : أنه لابد من تقدير مضاف محذوف . وذلك قولك : وبشرناه بوجود إسحق نبيا ، أى بأن يوجد مقدرة نبوته ؛ فالعامل فى الحال الوجود لا فعل البشارة ، وبذلك يرجع ، نظير قوله تعالى (فادخلوها خالدين) . ﴿من الصالحين﴾ حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ ، لأنّ كل نبى لابد أن يكون من الصالحين . وعن قتادة : بشره الله بنبوة إسحق بعد ما امتحنه بذبحه ، وهذا جواب من يقول الذبيح إسحق لصاحبه عن تعلقه بقوله (وبشرناه بإسحق) قالوا : ولا يجوز أن يبشره الله بمولده ونبوته معا ؛ لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبياً ﴿وباركنا عليه وعلى إسحق﴾ وقرئ : وبركنا ، أى : أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، كقوله (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وقيل : باركنا على إبراهيم فى أولاده ، وعلى إسحق بأن أخرجنا أنبياء بنى إسرائيل من صلبه . وقوله ﴿وظالم لنفسه﴾ نظيره : (قال ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين) وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر ، والفاجر البر . وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وعلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وأنّ المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجترحت يداه ، لا على ما وجد من أصله أو فرعه .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٣٧﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

﴿من الكرب العظيم﴾ من الغرق . أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم[1] ﴿ونصرناهم﴾ الضمير لهما ولقومهما فى قوله (ونجيناهما وقومهما) . ﴿الكتاب المستبين﴾ البليغ فى بيانه وهو التوراة ، كما قال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) وقال : من جوز أن تكون التوراة

(١) قوله « وغشمهم » فى الصحاح « الغشم » : الظلم . (ع)

عربيةأن تشتق(١) من ورى الزند، فوعلة، منه، على أنّ التاء مبدلة من واو ﴿الصراط المستقيم﴾ صراط أهل الإسلام، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

قرئ إلياس، بكسر الهمزة، والياس: على لفظ الوصل: وقيل: هو إدريس النبي. وقرأ ابن مسعود: وإنّ إدريس، في موضع إلياس. وقرئ: إدراس: وقيل: هو إلياس بن ياسين، من ولد هرون أخي موسى ﴿أتدعون بعلا﴾ أتعبدون بعلا، وهو علم لصنم كان لهم كناة وهبل. وقيل: كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعا، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياءه، فكان الشيطان يدخل في جوف ـ بعل ـ ويتكلم بشريعة الضلالة، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام، وبه سميت مدينتهم بعلبك. وقيل: البعل الرب: بلغة اليمن، يقال: من بعل هذه الدار، أي: من ربها؟ والمعنى: أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله ﴿الله ربكم ورب آبائكم﴾ قرئ بالرفع على الابتداء، وبالنصب على البدل، وكان حمزة إذا وصل نصب، وإذا وقف رفع: وقرئ: على الياسين. وإدريسين. وأدراسين. وإدرسين، على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. وقرئ: على الياسين بالوصل، على أنه جمع يراد به إلياس وقومه، كقولهم: الخبيبون والمهلبون. فإن قلت: فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع وأخواته؟ قلت: لو كان جمعا لعرف بالألف واللام. وأما من قرأ: على آل ياسين، فعلى أنّ ياسين اسم أبي الياس، أضيف إليه الآل.

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي

(٢) قوله «أن تشتق» لعله: يجوز أن تشتق. (ع)

الْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿مصبحين﴾ داخلين فى الصباح ، يعنى : تمرون على منازلهم فى متاجركم إلى الشام ليلا ونهاراً ، فما فيكم عقول تعتبرون بها .

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قرئ : يونس ، بضم النون وكسرها . وسمى هربه من قومه بغير إذن ربه : إباقا على طريقة المجاز . والمساهمة : المقارعة . ويقال: استهم القوم ،إذا اقترعوا . والمدحض: المغلوب المقروع . وحقيقته : المزلق عن مقام الظفر والغلبة . روى أنه حين ركب فى السفينة وقفت ، فقالوا : ههنا عبد أبق من سيده ، وفيما يزعم البحارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقترعوا ، فخرجت القرعة على يونس فقال : أنا الآبق ، وزجّ بنفسه فى الماء ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾ داخل فى الملامة . يقال : ربّ لائم مليم ، أى يلوم غيره وهو أحق منه باللوم . وقرئ : مليم ، بفتح الميم ، من ليم فهو مليم ، كما جاء : مشيب فى مشوب ، مبنيا على شيب . ونحوه : مدعى ، بناء على دعى ﴿من المسبحين﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح والتقديس . وقيل : هو قوله فى بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) وقيل : من المصلين . وعن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة .[1] وعن قتادة : كان كثير الصلاة فى الرخاء . قال : وكان يقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر ، وإذا صرع وجد متكأ . وهذا ترغيب من الله عز وجل فى إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله ، وإقباله على عبادته، وجمع همه لتقييد

(١) أخرجه الطبرى وابن مردويه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قوله ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة موقوفا

نعمته بالشكر فى وقت المهلة والفسحة ، لينفعه ذلك عنده تعالى فى المضايق والشدائد ﴿ للبث فى بطنه ﴾ الظاهر لبثه فيه حيا إلى يوم البعث . وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة . وروى أنه حين ابتلعه أوحى الله إلى الحوت : إنى جعلت بطنك له سجنا ، ولم أجعله لك طعاما . واختلف فى مقدار لبثه ، فعن الكلبي : أربعون يوما ، وعن الضحاك : عشرون يوما. وعن عطاء سبعة . وعن بعضهم : ثلاثة . وعن الحسن : لم يلبث إلا قليلا ، ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه . وروى أنّ الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالما لم يتغير منه شيء ، فأسلموا : وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل . والعراء : المكان الخالى لا شجر فيه ولا شيء يغطيه ﴿ وهو سقيم ﴾ اعتلّ مما حلّ به . وروى أنه عاد بدنه كبدن الصبىّ حين يولد . واليقطين : كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل ، وهو يفعيل، من قطن بالمكان إذا أقام به . وقيل : هو الدباء . وفائدة الدباء أن الذباب لا يجتمع عنده . وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لتحب القرع . قال « أجل هى شجرة أخى يونس »[1] وقيل : هى التين ، وقيل : شجرة الموز ، تغطى بورقها ، واستظلّ بأغصانها ، وأفطر على ثمارها. وقيل : كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة [2] تختلف إليه ، فيشرب من لبنها . وروى أنه مرّ زمان على الشجرة فيبست ، فبكى جزعا ، فأوحى الله إليه : بكيت على شجرة ولا تبكى على مائة ألف فى يد الكافر ، فإن قلت : ما معنى (وأنبتنا عليه شجرة) ؟ قلت : أنبتناها فوقه مظلة له ; كما يطنب البيت على الإنسان ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف ﴾ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى . وقيل : هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين . أو إلى غيرهم وقيل : أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى ، لأن النبىّ إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيما فيهم ، وقال لهم : إن الله باعث إليكم نبيا ﴿ أو يزيدون ﴾ فى مرأى الناظر ؛ أى . إذا رآها الرائى قال : هى مائة ألف أو أكثر ؛ والغرض : الوصف بالكثرة ﴿ إلى حين ﴾ إلى أجل مسمى وقرئ: ويزيدون ، بالواو . وحتى حين .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ

---

(٢) لم أجده . وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود فى قصة يونس قال عبد الله : قال النبي صلى الله عليه وسلم ... واليقطين القرع .

(٣) قوله « وكانت وعلة » يقال : هى شاة جبلية . (ع)

لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

﴿فاستفتهم﴾ معطوف على مثله فى أول السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة: أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا، ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور فى قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدهم، واستنكافهم من ذكرهن. ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر، أحدها: التجسيم، لأن الولادة مختصة بالأجسام والثانى: تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم، كما قال (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم)، (أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) والثالث: أنهم استهانوا بأكرم خلق الله عليه وأقربهم إليه، حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم: فيك أنوثة. أو شكلك شكل النساء، للبس لقائله جلد النمر، ولانقلبت حماليقه[1] وذلك فى أهاجيهم بين مكشوف، فكرر الله سبحانه الأنواع كلها فى كتابه مرات، ودل على فظاعتها فى آيات: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا. لقد جئتم شيئا إدا. تكاد السموات يتفطرن منه) (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون)، (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموات والأرض)، (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد)، (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله)، (وجعلوا له من عباده جزءا)، (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)، (أم له البنات ولكم البنون)، (ويجعلون لله ما يكرهون)، (أصطفى البنات على البنين)، (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين)، (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا. ﴿أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون﴾. فإن قلت. لم قال و(هم شاهدون) فخصّ علم المشاهدة؟ قلت: ماهو إلا استهزاء بهم وتجهيل، وكذلك قوله (أشهدوا خلقهم) ونحوه قوله (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه فى قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك، كالقائل قولا عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم، كأنهم قد شاهدوا خلقهم. وقرئ: ولد الله، أى الملائكة ولده. والولد

(١) قوله «ولانقلبت حماليقه» فى الصحاح «حملاق العين»: باطن أجفانها الذى يسوده الكحل اه. (ع)

«فعل» بمعنى مفعول، يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. تقول: هذه ولدى، وهؤلاء ولدى. فإن قلت: ﴿أصطفى البنات﴾ بفتح الهمزة: استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد، فكيف صحت قراءة أبي جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت: جعله من كلام الكفرة بدلا عن قولهم (ولد الله) وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضى الله عنهما. وهذه القراءة ـ وإن كان هذا محملها ـ فهى ضعيفة، والذى أضعفها: أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله (وإنهم لكاذبون). (مالكم كيف تحكمون)؟ فمن جعلها للإثبات، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين. وقرئ تذكرون، من ذكر ﴿أم لكم سلطان﴾ أى حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله ﴿فأتوا بكتابكم﴾ الذى أنزل عليكم فى ذلك، كقوله تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقاويلهم شديد؛ وما الأساليب التى وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء وتهكم وتعجيب، من أن يخطر مثل ذلك على بال ويحدّث به نفساً؛ فضلا أن يجعله معتقداً ويتظاهر به مذهبا.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

﴿وجعلوا﴾ بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة ﴿نسباً﴾ وهو زعمهم أنهم بناته، والمعنى: وجعلوا بما قالوا نسبة بين الله وبينهم، وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة. فإن قلت: لم سمى الملائكة جنة؟ قلت: قالوا الجنس واحد، ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شراً كله فهو شيطان، ومن طهر منهم ونسك وكان خيراً كله فهو ملك؛ فذكرهم فى هذا الموضع باسم جنسهم، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعاً منهم وتقصيراً بهم. وإن كانوا معظمين فى أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار، وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك. ومثاله: أن تسوّى بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه، فيقول لك: أتسوّى بينى وبين عبدى. وإذا ذكره فى غير هذا المقام وقره وكناه. والضمير فى ﴿إنهم لمحضرون﴾ للكفرة. والمعنى: أنهم يقولون ما يقولون فى الملائكة، وقد علم الملائكة أنهم فى ذلك كاذبون مفترون، وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون، والمراد المبالغة فى التكذيب. حيث أضيف إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة. وقيل: قالوا إنّ الله صاهر الجن فخرجت الملائكة. وقيل: قالوا. إنّ الله والشيطان أخوان.

وعن الحسن : أشركوا الجن فى طاعة الله . ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين : أن يكون الضمير فى (إنهم لمحضرون) لهم ، والمعنى أن الشياطين عالمون بأنّ الله يحضرهم النار ويعذبهم ، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء فى وجوب الطاعة لما عذبهم ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع من المحضرين : معناه ولكن المخلصين ناجون . وسبحان الله : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه . ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو فى يصفون ، أى : يصفه هؤلاء بذلك ، ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

والضمير فى ﴿عليه﴾ لله عز وجلّ ومعناه : فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعاً بفاتنين على الله إلا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها . فإن قلت : كيف يفتنونهم على الله؟ قلت . يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم ، من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها عليه وخببها عليه . ويجوز أن يكون الواو فى (وما تعبدون) بمعنى مع ، مثلها فى قولهم : كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، وأنّ كل رجل وضيعته ؛ جاز أن يسكت على قوله (فإنكم وما تعبدون) لأن قوله (وما تعبدون) سادّ مسدّ الخبر ؛ لأن معناه : فإنكم مع ما تعبدون . والمعنى : فإنكم مع آلهتكم . أى : فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ، ثم قال : ما أنتم عليه ، أى على ما تعبدون ﴿بفاتنين﴾ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال ﴿إلا من هو﴾ ضال مثلكم . أو يكون فى أسلوب قوله :

فَإِنَّكَ وَالْكِتَابُ إِلَى عَلِيٍّ كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ (١)

وقرأ الحسن : صالُ الجحيم ، بضم اللام . وفيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هى ولام التعريف (فإن قلت) كيف استقام الجمع مع قوله (من هو) ؟ قلت من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه كما حمل فى مواضع من التنزيل

(١) لعمرو بن العاص . وقيل للوليد بن عقبة بن أبى معيط ، يحرض معاوية على حرب على بن أبى طالب ، وحلم الجلد حلماً ، كتعب تعباً : إذا فسد ودود وتنقب . وحلم بالضم ، حلماً بالكسر : عفى مع القدرة . وحلم بالفتح ، حلماً بالضم : رأى فى منامه شيئاً . يقول : فانك وكتابك الواصل إلى على ترجو به استقامته ، كرجل كثير الدبغ للجلد ، أو كامرأة دابغة له والحال أنه قد فسد ولم ينفع فيه الدبغ . والمقصود : تشبيه حالة بأخرى . ويجوز أن الواو للمعية لا للعطف ، فالمعنى تشبيه معاوية بالدابغة .

على لفظ من ومعناه فى آية واحدة . والثانى أن يكون أصله صائل على القلب ، ثم يقال صال فى صائل ، كقولهم شاك فى شائك . والثالث أن تحذف لام صال تخفيفا ويجرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة ، وأصلها بالية من بالى ، كعافية من عافى . ونظيره قراءة من قرأ : (وجنى الجنتين دان) (وله الجوار المنشآت) بإجراء الإعراب على العين .

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)

(ومامنا) أحد (إلا له مقام معلوم) فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه . كقوله :

* أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا * (١)

***

* بِكَفَّىْ كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَرْ * (٢)

مقام معلوم فى العبادة ، والانتهاء إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوزه ، كما روى : فمنهم راكع لا يقيم صلبه ، وساجد لا يرفع رأسه ﴿لنحن الصافون﴾ نصف أقدامنا فى الصلاة ، أو أجنحتنا فى الهواء . منتظرين ما نؤمر . وقيل : نصف أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين . وقيل : إنّ المسلمين إنما اصطفوا فى الصلاة منذ نزلت هذه الآية . وليس يصطف أحد من أهل الملل فى صلاتهم غير المسلمين ﴿المسبحون﴾ المنزهون أو المصلون . والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله (سبحان الله عما يصفون) من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم فى قوله (ولقد علمت الجنة) كأنه قيل : ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم فى مناسبة رب العزة وقالوا : سبحان الله ، فنزهوه عن ذلك ، واستثنوا عباد الله المخلصين وبرؤهم منه ، وقالوا للكفرة فإذا صحّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحدا من خلقه وتضلوه ، إلا من كان مثلكم ممن علم الله ــ لكفرهم ، لا لتقديره وإرادته (٣)، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً ــ أنهم من أهل النار ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة ؟ وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه ، لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفرا ، خشوعا لعظمته

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٣٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٦١٦ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله « لا لتقديره وإرادته تعالى » مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يقدر الشر ولا يريده . وقال أهل السنة : إن كل كائن فهو بقضاء الله وقدره كما بين فى علم التوحيد . (ع)

وتواضعا لجلاله ، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا ، مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين ، وكما يجب على العباد [١] لربهم . وقيل : هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى : ومامن المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله ، من قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون فى الصلاة يسبحون الله وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه .

وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

هم مشركو قريش كانوا يقولون ﴿لو أن عندنا ذكرا﴾ أى كتابا ﴿من﴾ كتب ﴿الأولين﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، لأخلصنا العبادة لله ، ولما كذبنا كما كذبوا ، ولما خالفنا كما خالفوا ، فجاءهم الذكر الذى هو سيد الأذكار ، والكتاب الذى هو معجز من بين الكتب ، فكفروا به . ونحوه (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً) فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام . وإن : هى المخففة من الثقيلة ، واللام هى الفارقة . وفى ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه ، فكم بين أول أمرهم وآخره .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾

الكلمة : قوله : ﴿إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وإنما سماها كلمة وهى كلمات عدة ، لأنها لما انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة . وقرئ : كلماتنا : والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم فى مقاوم الحجاج وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلوهم عليهم فى الآخرة ، كما قال (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة) ولا يلزم انهزامهم [٢] فى بعض المشاهد ، وماجرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم فى العاقبة ، وكفى بمشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين مثلا يحتذى عليها وعبرا يعتبر بها . وعن الحسن رحمه الله : ماغلب نبىّ فى حرب ولا قتل فيها ، ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه : الظفر والنصرة ـ وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة ـ والحكم للغالب . وعن ابن عباس رضى الله

---

(١) قوله «وكما يجب على العباد لربهم» لعله كما يجب . كعبارة النسفى . (ع)

(٢) قوله «ولا يلزم انهزامهم» أى لايرد نقضاً للغلبة والنصر . (ع)

عنهما : إن لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة . وفى قراءة ابن مسعود : على عبادنا ، على تضمين سبقت معنى حقت .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

﴿فتول عنهم﴾ فأعرض عنهم وأغض [1] على أذاهم ﴿حتى حين﴾ إلى مدة يسيرة وهى مدّة الكف عن القتال . وعن السدى : إلى يوم بدر . وقيل إلى الموت . وقيل : إلى يوم القيامة ﴿وأبصرهم﴾ وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب فى الآخرة ، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب فى العاقبة . والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لامحالة ، وأنّ كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك . وفى ذلك تسلية له وتنفيس عنه . وقوله ﴿فسوف يبصرون﴾ للوعيد كما سلف لا للتبعيد .

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تدبيراً ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة ، فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا ، فسميت الغارة صباحا وإن وقعت فى وقت آخر ، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التى تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل ، وقرأ ابن مسعود : فبئس صباح . وقرئ : نزل بساحتهم ، على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك : ذهب بزيد ونزل ، على : ونزل العذاب . والمعنى : فساء صباح المنذرين صباحهم ، واللام فى المنذرين مبهم فى جنس من أنذروا ، لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك . وقيل : هو نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بمكة . وعن أنس رضى الله عنه : لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ـ وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى ـ قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصنهم . فقال عليه الصلاة والسلام : «الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» [2] وإنما ثنى ﴿وتول عنهم﴾ ليكون تسلية على تسلية . وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد . وفيه فائدة زائدة وهى إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول ، وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف

(١) قوله «وأغض على أذاهم» فى الصحاح «الاغضاء» : إدناء الجفون . (ع)
(٢) متفق عليه

المسرة وأنواع المساءة . وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة .

سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذو العزة ، كما تقول : صاحب صدق ، لاختصاصه بالصدق . ويجوز أن يراد أنه مامن عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها ، كقوله تعالى (تعز من تشاء) : اشتملت السورة على ذكر ماقاله المشركون فى الله ونسبوا إليه ماهو منزه عنه ، وماعاناه المرسلون من جهتهم ، وماخولوه فى العاقبة من النصرة عليهم : فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون ، والتسليم على المرسلين ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ على ماقيض لهم من حسن العواقب ، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد . وعن على رضى الله عنه : « من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين »[١]

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين »[٢] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق والثعلبي من رواية الأصبغ بن نباتة عن على موقوفا . ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من طرف عن أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة ص

مكية ، وهى ست وثمانون آية ، وقيل ثمان وثمانون آية

[نزلت بعد القمر]

بسم الله الرحمن الرحيم

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾

﴿صٓ﴾ على الوقف وهى أكثر القراءة . وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ، ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله ، كقولهم : الله لأفعلن ، كذا بالنصب ، أو بإضمار حرف القسم ، والفتح فى موضع الجر ، كقولهم : الله لأفعلن ، بالجر وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث ، لأنها بمعنى السورة ، وقد صرفها من قرأ (ص) بالجر والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل : وقيل : فيمن كسر هو من المصاداة وهى المعارضة والمعادلة . ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت فى الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه : ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه . فإن قلت : قوله : ص ﴿والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق﴾ كلام ظاهره متنافر غير منتظم ، فما وجه انتظامه ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدى والتنبيه على الإعجاز كما مرّ فى أول الكتاب ، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدى عليه ، كأنه قال (والقرآن ذى الذكر) إنه لكلام معجز . والثانى: أن يكون (ص) خبر مبتدأ محذوف ، على أنها اسم للسورة ، كأنه قال : هذه ص ، يعنى : هذه السورة التى أعجزت العرب ، والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد : هذا هو المشهور بالسخاء والله ؛ وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال : أقسمت بص والقرآن ذى الذكر إنه لمعجز ، ثم قال : بل الذين كفروا فى عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق لله ورسوله ، وإذا جعلتها مقسما بها وعطفت عليها (والقرآن ذى الذكر) جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله ، وأن تريد السورة بعينها . ومعناه : أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ، ولا تريد بالنسمة غير الرجل . والذكر : الشرف والشهرة ، من قولك : فلان مذكور ، وإنه

لذكر لك ولقومك .أو الذكرى والموعظة ، أو ذكر مايحتاج إليه فى الدين من الشرائع وغيرها ، كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد . والتنكير فى (عزة وشقاق) للدلالة على شدتهما وتفاقمهما . وقرئ : فى غرة ، أى : فى غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق .

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

﴿ كم أهلكنا ﴾ وعيد لذوى العزة والشقاق ﴿ فنادوا ﴾ فدعوا واستغاثوا ، وعن الحسن . فنادوا بالتوبة ﴿ ولات ﴾ هى لا المشبهة بليس ، زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب ، وثم للتوكيد ، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيها : إما الاسم وإما الخبر ، وامتنع بروزهما جميعا ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه . وعند الأخفش : أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفى الأحيان . و ﴿ حين مناص ﴾ منصوب بها ، كأنك قلت : ولاحين مناص لهم . وعنه : أن ماينتصب بعده بفعل مضمر ، أى : ولا أرى حين مناص ، ويرتفع بالابتداء : أى ولاحين مناص كائن لهم ، وعندهما أن النصب على : ولات الحين حين مناص أى وليس حين مناص ، والرفع على ولات حين مناص حاصلا لهم . وقرئ : حين مناص ، بالكسر ، ومثله قول أبى زبيد الطائى :

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلَاتَ أَوَانٍ فَأَجَبْنَا أَنْ لَاتَ حِينَ بَقَاءِ [1]

فإن قلت : ما وجه الكسر فى أوان ؟ قلت : شبه بإذ فى قوله : وأنت إذ صحيح ، فى أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين : لأن الأصل : ولات أوان صلح . فإن قلت : فما تقول فى حين مناص والمضاف إليه قائم ؟ قلت : نزل قطع المضاف إليه من مناص ؛ لأن

---

(١) بعثوا حربنا عليهم وكانوا فى مقام لو أبصروا ورخاء
ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كريه الصلاء
طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

لأبى زبيد الطائى ، استعار البعث للتسبب . وتنوين مقام ورخاء للتعظيم . والتشذر : التهيؤ للقتال ، والتشمر بأطراف الثوب ، والتطاول ، والوعيد ، والركوب من خلف المركوب . والانافة : الارتفاع ، وكل هذا ترشيح لاستعارة البعث . ويجوز أنه شبه الحرب بفارس على طريق المكنية . والبعث والتشذر والانافة : تخييل . وشبهها بالنار أيضاً فأثبت لها التصلى وهو التدفؤ بالنار تخييلا . أو استعار التصلى لاقتحام المكاره تصريحية ، وطلبوا : جواب لما ، أى : لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحنا ، والحال أنه ليس الأوان أوان صلح ، فأجبناهم بأن هذا ليس وقت بقاء ، بل وقت فناء . وأوان : مبنى على الكسر لنية الاضافة . وقيل : إنه مبنى على الكسر أيضاً لنية الاضافة ، ونون للضرورة . وشبهه بنزال فى الوزن . وقيل : مجرور على إضمار «من» الاستغراقية الزائدة . وزعم الفراء أن لات هنا حرف جر ، وعليها فتنوين أوان للتمكين . وزعم الزمخشرى أنه على البناء تنوين عوض ، ورد بأنه لو كان كذلك لأعرب ، وحين نصب على أنه خبر لات فى بقاء ، ثم تنزيلها منزلة نيتها فى حين ، لأن التقدير : أن لات حين بقائكم ، وهو بعيد عن المعنى الجزل .

أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين ، لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، وجعل تنوينه عوضاً من الضمير المحذوف ، ثم بنى الحين لكونه مضافا إلى غير متمكن . وقرئ : ولات بكسر التاء على البناء ، كجير . فإن قلت : كيف يوقف على لات ؟ قلت : يوقف عليها بالتاء ، كما يوقف على الفعل الذى يتصل به تاء التأنيث . وأما الكسائى فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة . وأما قول أبى عبيد : إنّ التاء داخلة على حين فلا وجه له . واستشهاده بأنّ التاء ملتزقة بحين فى الإمام لامتشبث به ، فكم وقعت فى المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط . والمناص : المنجا والفوت . يقال : ناصه ينوصه إذا فاته . واستناص : طلب المناص . قال حارثة بن بدر :

غَمْرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرْتُ عِنَانَهُ ... بِيَدِى اسْتَنَاصَ وَرَامَ جَرْيَ الْمُسْحِلِ [(1)]

✿✿✿✿

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)

﴿منذر منهم﴾ رسول من أنفسهم ﴿وقال الكافرون﴾ ولم يقل : وقالوا ، إظهاراً للغضب عليهم ، ودلالة على أنّ هذا القول لايجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون فى الكفر المنهمكون فى الغىّ الذين قال فيهم (أولئك هم الكافرون حقاً) وهل ترى كفراً أعظم وجهلا أبلغ من أن يسموا من صدّقه الله بوحيه كاذباً ، ويتعجبوا من التوحيد ، وهو الحق الذى لايصح غيره ، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذى لاوجه لصحته . روى أنّ إسلام عمر رضى الله تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحا شديداً ، وشق على قريش وبلغ منهم ، فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا[(2)] ، وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء ، يريدون : الذين دخلوا فى الإسلام ، وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا ابن أخى ، هؤلاء قومك يسألونك السؤال[(3)] فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا يسألوننى ؟ قالوا ارفضنا

---

(١) لحارثة بن بدر ، يصف فرساً بأنه كثير المجاراة لغيره من الأفراس ، إذا قصرت : أى جذبت عنانه ، استناص : أى طلب النوص والهرب والنجاء من الأعداء . وشبه الفرس بمن تصح منه الارادة على طريق المكنية ، والروم تخييل ، أى : أراد جريا كجرى المسحل وهو حمار الوحش ، سمي به لكثرة سحاله ، أى شهيقه .

(٢) ذكره الثعلبي بغير سند . وروى الترمذى والنسائى وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبرى وابن أبى حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال «مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي صلى الله عليه وسلم ...... الحديث» نحوه ، وليس فيه أوله .

(٣) قوله «يسألونك السؤال فلا تمل» لعله السواء ، كما فى عبارة النسفى . (ع)

وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال عليه السلام : أرأيتم إن أعطيتكم ماسألتم أمعطىّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ؟ فقالوا : نعم وعشراً ، أى نعطيكها وعشر كلمات معها ، فقال : قولوا لاإله إلا الله فقاموا وقالوا ﴿أجعل الآلهة إلهـا واحداً إن هـذا لشيء عجاب﴾ أى : بليـغ فى العجب . وقرئ : عجّاب ، بالتشديد ، كقوله تعالى (مكراً كبارا) وهو أبلغ من المخفف . ونظيره : كريم وكرام وكرّام : وقوله (أجعل الآلهة إلها واحداً) مثل قوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً) فى أن معنى الجعل التصيير فى القول على سبيل الدعوى والزعم ، كأنه قال : أجعل الجماعة واحداً فى قوله ، لأنّ ذلك فى الفعل محال .

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَاسَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)

﴿الملأ﴾ أشراف قريش ، يريد : وانطلقوا عن مجلس أبى طالب بعد مابكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض ﴿امشوا واصبروا﴾ فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ﴿إن هذا﴾ الأمر ﴿لشيء يراد﴾ أى يريده الله تعالى ويحكم بإمضائه ، وما أراد الله كونه فلا مردّ له ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه : أو أن دينكم لشيء يراد ، أى : يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه . و (أن) بمعنى أى ؛ لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول . ويجوز أن يراد بالانطلاق : الاندفاع فى القول ، وأنهم قالوا : امشوا ، أى أكثروا واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها . ومنه : الماشية ، للتفاؤل ، كما قيل لها : الفاشية : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « ضموا فواشيكم »[2] ومعنى (واصبروا على آلهتكم) : واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها ، وقرئ : وانطلق الملأ منهم امشوا ، بغير (أن) على إضمار القول . وعن ابن مسعود : وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا ﴿فى الملة الآخرة﴾ فى ملة عيسى التى هى آخر الملل ؛ لأنّ النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة . أو فى ملة قريش التى أدركنا عليها آباءنا . أو ماسمعنا بهذا كائناً فى الملة الآخرة ، على أن يجعل فى الملة الآخرة حالا من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما فى الوجهين . والمعنى : أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث فى الملة الآخرة توحيد الله . ما ﴿هذا إلا اختلاق﴾ أى : افتعال وكذب .

(١) أخرجه ابن حبان من حديث جابر رضى الله عنه بلفظ « كفوا » وأصله فى مسلم .
(٢) قوله « ضموا فواشيكم » بقيته فى الصحاح : « حتى تذهب فحمة العشاء » (ع)

أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، كما قالوا: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم ﴿بل هم فى شك﴾ من القرآن، يقولون فى أنفسهم: إما وإما. وقولهم (إن هذا إلا اختلاق) كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد[1] حينئذ، يعنى: أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ يعنى ما هم بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم، ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام. وإنما الذى يملك الرحمة وخزائنها: العزيز القاهر على خلقه، الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها، الذى يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله، كما قال (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا) ثم رشح هذا المعنى فقال ﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ حتى يتكلموا فى الأمور الربانية والتدابير الإلهية التى يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف فى قسمة الرحمة، وكانت عندهم الحكمة التى يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا تحق له ﴿فليرتقوا فى الأسباب﴾ فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله، وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون، ثم خسأهم خساءة[2] عن ذلك بقوله

---

(١) قال محمود: «معناه لم يذوقوه بعد. فاذا ذاقوه زال عنهم ما بهم ... الخ» قلت: ويؤخذ منه أن لما لائقة بالجواب، وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده، كما يقول سيبويه، وفرق بينها وبين لم بأن لم نفى لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته قد، ولما نفى لما يتوقع وجوده أدخل على مثبته قد، وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث فى قوله عليه الصلاة والسلام «الشفعة فيما لم يقسم» فانى استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة، فقيل لى: إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة، فاما أنها لا تقبل قسمة، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة، فأبطلت ذلك بأن آلة النفى المذكورة «لم» ومقتضاها قبول المحل الفعل المنفى وتوقع وجوده. ألا تراك تقول: الحجر لا يتكلم، ولو قلت: الحجر لم يتكلم، لكان ركيكا من القول، لافهامه قبوله للكلام.

(٢) قوله «ثم خسأهم خساءة» فى الصحاح: خسأت الكلب خسأ: طردته. وخسأ بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع)

﴿جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب﴾ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله، مهزوم مكسور عما قريب[1] فلا تبال بما يقولون، ولا تكترث لما به يهذون. و(ما) مزيدة، وفيها معنى الاستعظام، كما فى قول امرئ القيس:

* وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصَرِهْ * [2]

إلا أنه على سبيل الهزء، و(هنالك) إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله: لست هنالك.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

(ذو الأوتاد) أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده، قال:

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا عَلَى عَمَدٍ ... وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ [3]

---

(١) قال محمود: «ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال: إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف فى قسمة الرحمة فكانت عندهم المعرفة التى يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا يستحق، فليرتقوا فى المعارج والطرق الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله تعالى، وينزلوا الوحى على من يختارونه. قال: ثم خسأهم بقوله (جند ماهنالك مهزوم من الأحزاب) معناه: إن هؤلاء إلا جند متحزبون على النبى صلى الله عليه وسلم عما قليل يهزمون ويولون الأدبار» قال أحمد: الاستواء المنسوب لله: ليس مما يتوصل إليه بالصعود فى المعارج والوصول إلى العرش والاستقرار عليه والتمكن فوقه، لأن الاستواء المنسوب إلى الله تعالى ليس استواء استقرار بجسم ـ تعالى الله عن ذلك ـ وإنما هو صفة فعل، أى فعل فيه فعلا سماه استواء، هذا تأويل القاضى أبى بكر. وليست عبارة الزمخشرى فى هذا الفصل مطابقة للمفصل على جارى عاداته فى تحرير العبارة على مراده.

(٢) جد بالوفاق لمشتاق إلى سهره ... إن لم تجد لحديث ما على قصره

المراد بالوفاق: الوصال. وضمير «سهره» للمشتاق أو للوفاق. وحديث: مبتدأ خبره محذوف، أى: تجود به. وما زائدة للتعميم. ويجوز أنها للتعظيم. لكن الأول أوفق بالمقام. وعلى بمعنى مع، وضمير «قصره»: للحديث.

(٣) والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أسباب وأعمدة ... وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا

للرافدة الأودى، يقول: لا ينال الأمر إلا بتوافر أسبابه، فالبيت من باب التمثيل: شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه على أسبابها، بتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة، وتوقف انتصابها على إثبات الأوتاد المهدودة بالحبال، ثم قال: فإن اجتمعت الحبال المشدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده، وهو بمعنى الجمع، فصح جمع ضميره، وكاده كيداً عالجه علاجا، أى: بلغوا الأمر الذى كادوه، أى عالجوه لتحصيله.

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر، كما قال الأسود:

* فِي ظِـلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ * (١)

وقيل: كان يشبح(٢) المعذب بين أربع سوار: كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد، ويتركه حتى يموت. وقيل: كان يمده بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه ﴿أولئك الأحزاب﴾ قصد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم: هم هم، وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب(٣). ولقد ذكر تكذيبهم أولا في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها: بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل، لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أولا وبالاستثنائية ثانيا، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص: أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه، ثم قال ﴿فحق عقاب﴾ أي فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم ﴿هؤلاء﴾ أهل مكة. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب

---

(١)
ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد أياد
جرت الرياح على مقر ديارهم ... فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهي به ... يوما يصير إلى بلى ونفاد

للأسود بن يعفر. يقول: لا أتمنى شيئاً بعدهم من الدنيا. ومحرق: هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي. والاياد ـ في الأصل ـ: تراب يجمع حول الحوض والبيت، يحفظه عن المطر والسيول، من الأيدي: وهو القوة. وإياد: علم على ابن نزار بن معد، فهو أخو مضر وربيعة. والمراد به هنا القبيلة. وروى: وآل إياد، عطفاً على آل محرق. وغنى بالمكان، كرضي: أقام به. والبلى: الانمحاق. والنفاد: الفناء. يقول: تركوا منازلهم: جملة مستأنفة لبيان نفي التأميل، واعتراضية بين المتعاطفين. وقوله «جرت الرياح» مستأنف لبيان حال القبيلتين، يقول: تفانوا فجرت الرياح على محل ديارهم، وجريان الرياح على مقر الديار، لانهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح، وذلك كناية عن موتهم. وأفاد أن فناءهم كان سريعاً كأنه دفعة واحدة بقوله: فكأنهم كانوا على ميعاد واحد. ولقد أقاموا بأرغد عيشة، وشبه الملك الذي به عزهم وصونهم بخيمة مضروبة عليهم. والظل: الترشيح، والأوتاد تخييل. وإذا معناها المفاجأة. أي فظهر بغتة أن كل نعيم لامحالة زائل، أي: فأدركهم المحاق والفناء.

(٢) قوله «وقيل كان يشبح المعذب» أي يمده. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قال محمود: «قصد بهذه الاشارة الاعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم، وأنهم الذين وجد التكذيب منهم» قال أحمد: وفي تكرار تكذيبهم فائدة أخرى: وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم، كرر ذلك مصحوباً بالزيادة المذكورة، ليلي قوله تعالى (فحق عقاب) على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام وهو كما قدمته في قوله (وكذب موسى) حيث كرر الفعل ليقترن بقوله (فأمليت للكافرين).

لاستحضارهم بالذكر . أو لأنهم كالحضور عند الله . والصيحة : النفخة ﴿ مالها من فواق ﴾ وقرئ بالضم : مالها من توقف مقدار فواق ، وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتي الراضع . يعني : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان ، كقوله تعالى (فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة) وعن ابن عباس : مالها من رجوع ، وترداد ، من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة . وفواق الناقة : ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها ، يريد : أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

القط : القسط من الشيء ؛ لأنه قطعة منه ، من قطه إذا قطعه . ويقال لصحيفة الجائزة : قط ، لأنها قطعة من القرطاس ، وقد فسر بهما قوله تعالى ﴿ عجل لنا قطنا ﴾ أى نصيبنا من العذاب الذى وعدته ، كقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) وقيل : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله المؤمنين الجنة ، فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها . أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها .

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

فإن قلت : كيف تطابق قوله ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ وقوله ﴿ واذكر عبدنا داود ﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه ؟ قلت : كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : اصبر على ما يقولون ، وعظم أمر معصية الله فى أعينهم بذكر قصة داود ، وهو أنه نبىّ من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوّة والملك ، لكرامته عليه وزلفته لديه ، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها . على طريق التمثيل والتعريض ، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب ، ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب [١] ، ونقش جنايته فى بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظنّ بكم مع كفركم ومعاصيكم ؟ أو قال له صلى الله عليه وسلم : اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلّ تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ الله وتظليمه ونسبته إلى البغى ما لقى ﴿ ذا الأيد ﴾ ذا القوة فى الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه ، كان على نهوضه بأعباء

---

(١) قوله «وغمه الواصب» أى : الدائم . (ع)

النبوّة والملك يصوم يوما ويفطر يوما وهو أشدّ الصوم، ويقوم نصف الليـل . يقال : فلان أيد، وذو أيد، وذو آد . وأياد كل شيء : مايتقوى به ﴿أوّاب﴾ توّاب رجاع إلى مرضاة الله فإن قلت : مادلك على أنّ الأيد القوة فى الدين ؟ قلت : قوله تعالى (إنه أوّاب) لأنه تعليل لذى الأيد ﴿والإشراق﴾ وقت الإشراق، وهو حين تشرق الشمس، أى : تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى . وأماشروقها فطلوعها ، يقال : شرقت الشمس ، ولمـا تشرق [(١)] . وعن أمّ هانئ : دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال : ياأمّ هانئ هذه صلاة الإشراق [(٢)] . وعن طاووس عن ابن عباس قال : هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن ؟ قالوا لا ، فقرأ : إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق وقال : كانت صلاة يصليها داود عليه السلام . وعنـه : ماعرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية . وعنه : لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية (يسبحن بالعشىّ والإشراق) وكان لايصلى صلاة الضحى ، ثم صلاها بعد . وعن كعب أنه قال لابن عباس : إنى لأجد فى كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس ، فقال : أنا أوجدك ذلك فى كتاب الله تعالى ، يعنى هذه الآية . ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا فى الشروق ، ومنه قوله تعـالى (فأخذتهم الصيحة مشرقين) وقول أهل الجاهلية : أشرق [(٣)] ثبير ، ويراد وقت صـلاة الفجر لانتهائه بالشروق . ويسبحن : فى معنى ومسبحات على الحال . فإن قلت : هل من فرق بين يسبحن ومسبحات [(٤)] ؟ قلت : نعم ، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك ، وهو الدلالة

---

(١) قال محمود : «والاشراق حين تشرق الشمس ، أى يصفو نورها وهو وقت الضحى . وأما شروقها فطلوعها . يقال : شرقت الشمس ولمـا تشرق . ومنه أخذ ابن عباس صلاة الضحى . قال : ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا فى وقت الشروق ، ويكون المراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بشروق الشمس» قال أحمد : الوجه الثانى يفرق بين العشى والاشراق ، فان العشى ظرف بلا إشكال ، فلو حمل الاشراق على الدخول فى وقت الشروق لـكان مصدراً ، مع أن المراد به الظرف ، لأنه فعل الشمس وصفتها التى تستعمل ظرفاً كالطلوع والغروب وشبههما .

(٢) أخرجه ابن مردويه والثعلبى والواحدى والبغوى والطبرانى كلهم من رواية أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس : حدثتنى أم هانئ . ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس «كان لايصلى الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها : أخبرى ابن عباس قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى فصلى صلاة الضحى ثمـانِ ركعات . قال : فخرج ابن عباس وهو يقول : هذه صلاة الاشراق» هذا موقوف وهو أصح .

(٣) قوله «أشرق ثبير» كانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير ، كما فى الصحاح . (ع)

(٤) قال محمود : «إن قلت لم اختار يسبحن على مسبحات وأيهما وقع كان حالا ، وأجاب بأن اختيارهما لمعنى وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئاً بعد شيء كأن السـامع حاضر لها فيسمعها تسبح . ومنه قول الأعشى :

• إلى ضوء نار فى يفاع تحرق •

ولو قال : محرقة لم يكن شيئاً . قال أحمد : ولهذه النكتة فرق محنون من أصحابنا بين : أنا محرم يوم أفعل كذا ، وبصيغة ـــ

على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال ، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح . ومثله قول الأعشى :

* إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفَاعٍ تَحْرِقُ * [1]

ولو قال : محرقة ، لم يكن شيئا . وقوله ﴿محشورة﴾ في مقابلة : يسبحن ؛ إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئاً بعد شيء ، جيء به اسما لا فعلا . وذلك أنه لو قيل : وسخرنا الطير يحشرن ـ على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئاً بعد شيء . والحاشر هو الله عز وجل ـ لكان خلفاً ، لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت ، فذلك حشرها . وقرئ : والطير محشورة . بالرفع ﴿كل له أوّاب﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود ، أي : لأجل تسبيحه مسبح ، لأنها كانت تسبح بتسبيحه . ووضع الأوّاب موضع المسبح : إمّا لأنها كانت ترجع التسبيح ، والمرجع رجاع ؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع وإمّا لأن الأواب ـ وهو التوّاب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته ـ من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه . وقيل : الضمير لله ، أي : كل من داود والجبال والطير لله أوّاب ، أي مسبح مرجع للتسبيح ﴿وشددنا ملكه﴾ قوّيناه ، قال تعالى (سنشد عضدك) وقرئ شدّدنا على المبالغة . قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم [2] يحرسونه وقيل : الذي شدّ الله به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة : أنّ رجلا ادّعى عنده على آخر بقرة ، وعجز عن إقامة البينة ، فأوحى الله تعالى إليه في المنام : أن اقتل المدّعى عليه ، فقال : هذا منام ، فأعيد الوحي في اليقظة ، فأعلم الرجل فقال : إنّ الله عزّ وجلّ لم يأخذني بهذا الذنب ، ولكن بأني قتلت أبا هذا غيلة ، فقتله . فقال الناس : إن أذنب أحد ذنباً أظهره الله عليه ، فقتله ،

ـــ اسم الفاعل . وبين أحرم بصيغة المضارع . فرأى أن المعلق بصيغة اسم الفاعل يكون محرما بوجود صيغة التعليق ، ولا كذلك المعلق بصيغة الفعل المضارع ، فانه لا يكون محرما حتى يحرم ويقال له أحرم ، فكأنه رأى أن صيغة الفعل خصوصية في الدلالة على حدوثه ، ولا كذلك اسم الفاعل وإن كان متأخراً . وأصحابنا اختلفوا في معنى قول سحنون في اسم الفاعل يكون محرماً يوم يفعل ، فمنهم من قال : أراد الفور فينشىء إحراما ، ومنهم من قال : يكون محرما في الحال بالتعليق الأول ولا يجدد شيئاً . ومذهب مالك : التسوية بين صيغتي اسم الفاعل والفعل في هذا المقام والله أعلم . وحقق الزمخشري هذا الفرق بين اسم الفاعل والفعل في قوله (والطير محشورة كل له أواب) فقال : لما كان الواقع حشر الطير دفعة واحدة ، وكان ذلك أدل على القدرة ، لم يكن لاستعمال الفعل الدال على الحدوث شيئاً فشيئاً معنى ، فاستعمل فيه اسم المفعول على خلاف استعمال الفعل في الأول .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثالث صفحة ٤٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «مستلئم» أي : لابس اللأمة ، وهي الدرع . أفاده الصحاح . (ع)

فهابوه ﴿الحكمة﴾ الزبور وعلم الشرائع . وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة . الفصل : التمييز بين الشيئين . وقيل للكلام البين : فصل ، بمعنى المفصول كضرب الأمير ، لأنهم قالوا : كلام ملتبس ، وفى كلامه لبس . والملتبس : المختلط ، فقيل فى نقيضه : فصل ، أى مفصول بعضه من بعض ، فمعنى فصل الخطاب : البين من الكلام الملخص الذى يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ، ومن فصل الخطاب وملخصه : أن لا يخطئ صاحبه مظانّ الفصل والوصل ، فلا يقف فى كلمة الشهادة على المستثنى منه ، ولا يتلو قوله (فويل للمصلين) إلا موصولا بما بعده ، ولا (والله يعلم وأنتم) حتى يصله بقوله (لا تعلمون) ونحو ذلك ، وكذلك مظانّ العطف وتركه ، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ، وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل ، كالصوم والزور ، وأردت بفصل الخطاب : الفاصل من الخطاب الذى يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، وهو كلامه فى القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات . وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . هو قوله : البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه ، وهو من الفصل بين الحق والباطل ، ويدخل فيه قول بعضهم : هو قوله «أمّا بعد» لأنه يفتتح إذا تكلم فى الأمر الذى له شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه : فصل بينه وبين ذكر الله بقوله : أمّا بعد . ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذى ليس فيه اختصار مخلّ ولا إشباع مملّ . ومنه ما جاء فى صفة كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : فصل لا نذر ولا هذر .[1]

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها . وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك ، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا ، فأحبها ، فسأله النزول له عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها وهى أم سليمان ، فقيل له : إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك : لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول ، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر

---

(١) هو حديث أم معبد . وقد تقدم فى سورة الأعراف ؛ وفى الأدب لأبى داود من حديث عائشة «كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلا يفهمه من سمعه» .

على ما امتحنت به . وقيل : خطبها أوريا ثم خطبها داود ، فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، مع كثرة نسائه . وأمّا ما يذكر أنّ داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب فقال : يا رب إنّ آبائى قد ذهبوا بالخير كله ، فأوحى إليه : إنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها : قد ابتلى ابراهيم بنمروذ وذبح ولده ، وإسحق بذبحه وذهاب بصره ، ويعقوب بالحزن على يوسف . فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه : إنك لمبتلى فى يوم كذا وكذا ، فاحترس، فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فجاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب ، فمدّ يده ليأخذها لابن له صغير، فطارت ، فامتدّ إليها ، فطارت فوقعت فى كوّة ، فتبعها ، فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها ، وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء ، [1] فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء . أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت ، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ، ففتح الله على يده وسلم ، فأمر بردّه مرة أخرى ، وثالثة ، حتى قتل ، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء ، وتزوج امرأته . فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ، [2] فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وعن سعيد ابن المسيب والحرث الأعور : أنّ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء . [3] وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق ، فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك . وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه فما ينبغى إظهارها عليه . فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس . والذى يدل عليه المثل الذى ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب . فإن قلت : لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟ قلت : لكونها أبلغ فى التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع فى نفسه ، وأشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطإ فيه من أن يبادره به صريحا، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة . ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا فى سياسة الولد إذا

(١) قوله «من غزاة البلقاء» فى الصحاح : مدينة بالشام . (ع)

(٢) قوله «من أفناء المسلمين» فى الصحاح : يقال : هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو . وعبارة النسفى بدل قوله : فهذا ونحوه ... الخ : فلا يليق من المتسمين ... الخ . (ع)

(٣) لم أجده

وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح. وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه ، وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه ، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة ، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة . فإن قلت : فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟ قلت : ليحكم بما حكم به من قوله (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) حتى يكون محجوجا بحكمه ومعترفا على نفسه بظلمه ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ ظاهره الاستفهام . ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد ، والتشويق إلى استماعه. والخصم : الخصماء ، وهو يقع على الواحد والجمع ؛ كالضيف . قال الله تعالى (حديث ضيف إبراهيم المكرمين) لأنه مصدر فى أصله ، تقول : خصمه خصما ؛ كما تقول : ضافه ضيفا . فإن قلت : هذا جمع . وقوله (خصمان) تثنية فكيف استقام ذلك؟ قلت : معنى خصمان : فريقان خصمان ، والدليل عليه قراءة من قرأ : خصمان بغى بعضهم على بعض : ونحوه قوله تعالى (هذا خصمان اختصموا فى ربهم) . فإن قلت : فما تصنع بقوله (إن هذا أخى) وهو دليل على اثنين؟ قلت : هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض . فإن قلت : فقد جاء فى الرواية أنه بعث إليه ملكان . قلت : معناه أن التحاكم كان بين ملكين ، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون . فإن قلت : فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعا خصما فى قوله (نبأ الخصم) و (خصمان) ؟ قلت : لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين فى صورة الخصم صحت التسمية به . فإن قلت : بم انتصب ﴿إذ﴾ ؟ قلت : لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك ، أو بالنبأ ، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك ؛ لأن إتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقع إلا فى عهده لا فى عهد داود ، ولا بالنبأ ؛ لأن النبأ الواقع فى عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن أردت بالنبأ : القصة فى نفسها لم يكن ناصبا ، فبقى أن ينتصب بمحذوف ، وتقديره : وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم . ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل . وأما إذ الثانية فبدل من الأولى ﴿تسوروا المحراب﴾ تصعدوا سوره ونزلوا إليه . والسور : الحائط المرتفع ونظيره فى الأبنية : تسنمه ، إذ علا سنامه ، وتذرّاه : إذا علا ذروته . روى أنّ الله تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان ﴿ففزع منهم﴾ قال ابن عباس : إنّ داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للاشتغال بخواص أموره ، ويوما يجمع بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ؛ فجاءوه فى غير يوم القضاء ففزع منهم ، ولأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفى يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه ﴿خصمان﴾

خبر مبتدإ محذوف ، أي : نحن خصمان ﴿ ولا تشطط ﴾ ولاتجر . وقرئ : ولاتشطط ، أى : ولاتبعد عن الحق . وقرئ : ولاتشطط . ولاتشاطط ، وكلها من معنى الشطط : وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق . و﴿ سواء الصراط ﴾ وسطه ومحجته : ضربه مثلا لعين الحق ومحضه .

إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾

﴿ أخى ﴾ بدل من هذا أو خبر لإنّ . والمراد أخوة الدين ، أو أخوّة الصداقة والألفة ، أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى ﴿ وإنّ كثيراً من الخلطاء ﴾ كل واحدة من هذه الأخوات تدلى بحق مانع من الاعتداء والظلم . وقرئ : تسع وتسعون ، بفتح التاء . و نعجة ، بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات ، نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة [1] ﴿ أكفلنيها ﴾ ملكنيها . وحقيقته : اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت يدى ﴿ وعزنى ﴾ وغلبنى . يقال : عزه يعزه . قال :

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ، تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ [2]

يريد : جاءنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ماأردّه به . وأراد بالخطاب : مخاطبة المحاج المجادل : أو أراد : خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطابا ، أى : غالبنى فى الخطبة فغلبنى ، حيث زوّجها دونى . وقرئ : وعازنى ، من المعازة وهى المغالبة . وقرأ أبو حيوة : وعزنى ، بتخفيف الزاى طلباً للخفة ، وهو تخفيف غريب ، وكأنه قاسه على نحو : ظلت ، ومست . فإن قلت : مامعنى ذكر النعاج ؟ قلت : كأن تحاكمهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا ؛ لأنّ التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه ، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به ، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته . ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع فى نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه ، وحاجه فى ذلك محاجة حريص على بلوغ

---

(١) قوله « نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة » فى الصحاح : « النطع » فيه أربع لغات . وفيه « اللقوة » : داء فى الوجه ، والناقة السريعة اللقاح ، والعقاب : الأنثى ، واللقوة ـ بالكسر ـ : مثله . (ع)

(٢)
كأن القلب ليلة قيل يغدى ... بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت ... تعالجه وقد علق الجناح

لقيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية ، وقطاة : خبر كأن . وعزها : بمهملة فمعجمة ، بمعنى : غلبها وحبسها ، يقال : عز يعز بالكسر : تعظم ، وبالفتح : قوى . وعزه يعزه ـ بالضم ـ : غلبه ، وما هنا من الثالث : شبه قلبه حين سمع برحيلها بهامة أمسك الشرك جناحها فى كثرة الخفقان والاضطراب .

مراده . والدليل عليه قوله (وإن كثيراً من الخلطاء) وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة . فإن قلت : إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال ، فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم . قلت : الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة ، كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله :

* يَاشَاةُ مَا قَنَصٌ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ (١) *

****

* فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ (٢) *

وشبهها بالنعجة من قال :

* كَنِعَاجِ الْمَلَا تَعَسَّفْنَ رَمْلاَ * (٣)

---

(١) يا شاة ما قنص لمن حلت له   حرمت علىّ وليتها لم تحرم

لعنترة من معلقته يتذكر محبوبته بعد وقوع الحرب بينه وبين قبيلتها ، فلذلك حرمت عليه . وقيل : كان تزوجها أبوه فحرمت عليه ، شبهها بالشاة الوحشية في الحسن والجمال والنفرة عن الرجال ، وأن كلا يصطاد بالاحتيال على طريق الاستعارة التصريحية ، وذكر القنص ترشيح ، لأنه يلائم الشاة . وما زائدة ، أى يا شاة القنص تعالى ، فهذا وقت التفكر في شأنك . وقيل : المنادى محذوف ، أى : ياقوم أحضروا شاة قنص ، وتعجبوا من حالها . والقنص : الصيد . والقنص ـ بالتحريك ـ والقنيص : المصيد . ويروى : ياشاة من قنص ، فقيل : من زائدة ، بناء على مذهب الكوفيين ، من جواز زيادة الأسماء . وقيل : نكرة موصوفة . وقنص صفتها من باب الوصف بالمصدر ، أى : يا شاة إنسان قانص . ولمن حلت : متعلق بمحذوف صفة لها ، وحرمت على : التفات على القول بندائها ، وهو صفة لها ، أو استئناف بين به شأنها ، وتمنى عدم حرمتها : ندم على ماوقع من سبب الحرمة .

(٢) قد كنت رائدها وشاة محاذر   حذر يقل بعينه إغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها   حتى دنوت إذا الظلام دنا لها
فرميت غفلة عينه عن شاته   فأصبت حبة قلبها وطحالها

للأعشى . وقيل : لعمر بن أبي ربيعة . وضمير رائدها مرجعه في البيت قبله كامرأة أو مفازة ، ثم قال : ورب شاة رجل محاذر ، فاستعار الشاة للمرأة الجميلة على طريق التصريحية . والمحاذر : الذي يحاذر غيره ويخاف مكره . والحذر : كثير الحذر مستمره ، يقل : بضم أوله ، من أقل الرباعي . وإغفالها ، أى : إغفال عينه . فظللت أراقب الشاة وظل هو يحفظها ، حتى قربت لها حين قرب الظلام ودخل الليل ، فرميت شاته حين غفلة عينه عن شاته التي كان يحفظها وفيه نوع تهكم به . وأضاف الغفلة إلى العين دون الشخص لأنها المذكورة أولا ، وللدلالة على قصر الزمن وسرعة الظفر ، ولأن القلب لا يغفل عنها لعزتها عنده ، بل يذكرها في النوم . وأما العين فتغفل ، فأصبت حبة قلبها أى وسطه ، وأصبت طحالها ، والرمى ترشيح للاستعارة ؛ لأنه من ملائمات الشاة . ويصح أن يكون هذا البيت استعارة تمثيلية ، حيث شبه حالة ظفره بمراده على حين غفلة من الرقيب وإصابة أحشاء المرأة بالحب ، بحال من ظفر برمى الشاة بالسهم على غفلة من الراعي ، بل يصح أن يكون قوله : وشاة محاذر ... إلى آخر الأبيات : استعارة تمثيلية لتلك الحال ، ولا استعارة في الشاة وحدها على هذا .

(٣) قلت إذا أقبلت وزهر تهادى   كنعاج الفلا تعسفن رملا
وتنقبن بالحرير وأبدين   عيونا حور المدامع نجلا

=

لولا أن الخلطاء تأباه ، إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلا لهم ولقصتهم [١] . فإن قلت . الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولاهو من شأنهم ؟ قلت : هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوّروها فى أنفسهم وكانوا فى صورة الأناسى ، كما تقول فى تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمرو له أربعون ، وأنت تشير إليهما ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد [٢] وتقول أيضاً فى تصويرها : لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها . ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعها فإن قلت : ما وجه قراءة ابن مسعود : ولى نعجة أنثى [٣] ؟ قلت : يقال إمرأة أنثى للحسناء الجميلة . والمعنى : وصفها بالعراقة فى لين الأنوثة وفتورها ، وذلك أملح لها وأزيد فى تكسرها وتثنيها . ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال . وقوله :

= لعمر بن أبى ربيعة . وزهر : عطف على ضمير الفاعل المتصل ، ومجيئه بلا فصل قليل . وتهادى : أصله تتهادى ، حذف منه إحدى التاءين ، وهو صفة زهر . وشبههن بالنعاج الوحشية فى حسن المشية وسعة العيون وسوادها . والزهر : جمع زهراء ، أى : بيضاء ، والفلا : القفر الخالى . والتعسف : الميل عن سواء السبيل ، وهو حال من النعاج . ورملا : نصب على نزع الخافض ، أى : تمايلن فى رمل . وتنقبت المرأة : لبست النقاب . وحور : جمع حوراء ، أى : صافيات . والمداعج : الحدقات ، من الدعج وهو اتساع سواد العين . والنجل : جمع نجلاء ، أى : واسعات .

(١) قال محمود : «فإن قلت : طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة ، فإن كان من الخطبة فما وجهه ؟ قال : الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة ، كما استعاروا لها الشاة فى قوله :

* يا شاة ما قنص لمن حلت له *

إلا أن لفظ الخلطاء يأباه : اللهم إلا أن يكون ابتداء مثل من داود عليه السلام» قال أحمد : والفرق بين التمثيل والاستعارة : أنه على التمثيل ، يكون الذى سبق إلى فهم داود عليه السلام : أن التحاكم على ظاهره ، وهو التخاصم فى النعاج التى هى البهائم ، ثم انتقل بواسطة التنبيه إلى فهم أنه تمثيل لحاله . وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما : التحاكم فى النساء المعبر عنهن بالنعاج كناية ، ثم استشعر أنه هو المراد بذلك .

(٢) قوله «وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد» فى الصحاح : ما له سبد ولا لبد ، أى : لا قليل ولا كثير . والسبد : من الشعر ، واللبد : من الصوف . (ع)

(٣) قال محمود : «فإن قلت : فما وجه قراءة ابن مسعود : ولى نعجة أنثى . وأجاب بأنه يقال : امرأة أنثى للحسناء الجميلة ، ومعناه : وصفها بالعراقة فى لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد فى تكسرها وتثنيها . ألا ترى إلى وصفهم إياها بالكسول والمكسال ، كقوله : * فتور القيام قطيع الكلام * قال أحمد : ولكن قوله (ولى نعجة) إنما أورده على سبيل التقليل لما عنده والتحقير ، ليستجل على خصمه بالبغى لطلبه هذا القليل الحقير وعنده الجم الغفير ، فكيف يليق وصف ماعنده والمراد تقليله بصفة الحسن التى توجب إقامة عذر ما لخصمه ، ولذلك جاءت القراءة المشهورة على الاقتصار على ذكر النعجة ، وتأكيد قلتها بقوله (واحدة) فهذا إشكال على قراءة ابن مسعود ، يمكن الجواب عنه بأن القصة الواقعة لما كانت امرأة أوريا الممثلة بالنعجة فيها مشهورة بالحسن ، وصف مثالها فى قصة الخصمين بالحسن زيادة فى التطبيق ، لتأكيد التنبيه على أنه هو المراد بالتمثيل .

* فَتُورُ الْقِيَامِ قَطِيعُ الْكَلَامِ * [1]

وقوله : * تَمْشِي رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْغَرِفُ * [2]

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)

﴿لقد ظلمك﴾ جواب قسم محذوف . وفى ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه . والسؤال : مصدر مضاف إلى المفعول ، كقوله تعالى (من دعاء الخير) وقد ضمن معنى الإضافة فعدّى تعديتها ، كأنه قيل بإضافة ﴿نعجتك إلى نعاجه﴾ على وجه السؤال والطلب . فإن قلت : كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه[3] ؟ قلت : ماقال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك فى القرآن لأنه معلوم . ويروى أنه قال : أنا أريد أن

(١) فتور القيام قطوع الكلام لعوب العشاء إذا لم تنم
تبذ النساء بحسن الحديث ودل رخيم وخلق عمم

الفترة : ضعف حركة الأعضاء فى العمل ، فهى كثيرة الفترة فى القيام . وقطوع الكلام : أى قليلته ، أو كأنها لاتقدر على إتمام الألفاظ للينها واستحيائها ، فكأنها تقطعها تقطيعاً ، كثيرة اللعب فى وقت العشاء مع زوجها ، وإذا لم تنم : إشارة إلى أنها قد تنام من أول الليل ، وهو وصف لها بالكسل الذى هو من توابع اللين والأنوثة . وبذ الرجل : إذا ساء خلقه ورث حاله وبذه الرجل : إذا غلبه ، أى تغلبهن بحسن الحديث ، والدل والدلال ، والتيه ، والتغنج ، والتشكل ، والتكسر ، والرخاوة ، والرخامة ، ورقة الصوت ولينه ، والتمنع مع الرضاء . واعتم النبت : طال ، واعتم الشىء : تم ، وجسم عميم : تام ، والجمع عمم ، كسرير وسرر ، ورجل عمم ـ بالافراد ـ : أى تام ، فالمراد أن خلقها أى جسمها تام حسن .

(٢) ما أنس سلمى غداة تنصرف تمشى رويداً تكاد تنغرف

حذف ألف أنس للوزن ، أى : لا أنساها ، بل أتذكرها وقت انصرافها ، وتمشى : بدل مما قبله . وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة المستحسنة . ورويداً : نصب بتمش ، أى : مشياً بتؤدة وأناة ، تكاد تنغرف : أى تنقطع وتنكسر . وغرفته فانغرف . قطعته فانقطع ، أو تكاد تؤخذ من الأرض ، كما يغرف الماء باليد ، فكأنها ماء لتثنكلها وتقطعها فى تبخترها . وفرس غروف : كثير الأخذ من الأرض بقوائمه .

(٣) قال محمود : «فان قلت كيف سارع بتصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر ، وأجاب بأن ذلك كان بعد اعتراف خصمه ولكنه لم يحك فى القرآن لأنه معلوم» قال أحمد : ويحتمل أن يكون ذلك من داود على سبيل الفرض والتقدير ، أى : إن صح ذلك فقد ظلمك .

آخذها منه وأكمل نعاجي مائة ، فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ، فقال : ياداود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت ، ثم نظر داود فلم ير أحدا ، فعرف ماوقع فيه و﴿الخلطاء﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، الواحد : خليط ، وهى الخلطة ، وقد غلبت فى الماشية ؛ والشافعى رحمه الله يعتبرها ، فإذا كان الرجلان خليطين فى ماشية بينهما غير مقسومة ، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أنّ مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعى والكلب واحد والفحولة مختلطة : فهما يزكيان زكاة الواحد ؛ فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة . وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد وأربعون ، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد . وعند أبى حنيفة : لا تعتبر الخلطة ، والخليط والمنفرد عنده واحد ، ففى أربعين بين خليطين : لاشىء عنده ، وفى مائة وعشرين بين ثلاثة : ثلاث شياه . فإن قلت : فهذه الخلطة ماتقول فيها ؟ قلت : عليهما شاة واحدة ، فيجب على ذى النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعى رحمه الله ، وعند أبى حنيفة لا شىء عليه ، فإن قلت : ماذا أراد بذكر حال الخلطاء فى ذلك المقام ؟ قلت : قصد به الموعظة الحسنة والترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة ، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذى عليه أكثرهم ، مع التأسف على حالهم ، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه ، وأنّ له فى أكثر الخلطاء أسوة . وقرئ : ليبغى بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة ، وحذفها كقوله :

* اَضْرِبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا * (١)

وهو جواب قسم محذوف . وليبغ : بحذف الياء ، اكتفاء منها بالكسرة ، و(ما) فى ﴿وقليل ماهم﴾ للإبهام . وفيه تعجب من قلتهم . وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها ، من قول امرئ القيس :

* وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصَرِهْ * (٢)

---

(١) اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس

لطرفة بن العبد ، وقال أبو حاتم وابن برى : هو مصنوع عليه . واضرب فعل أمر بنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة تقديراً ، وحذفها لغير وقف ولا لالتقاء الساكنين قليل . وقيل ضرورة كما هنا . والمعنى : ادفع عنك الهموم ، فهو استعارة مصرحة . وضربك بالسوط ، أى : كضربك به ترشيح ، وطارقها : بدل من الهموم ، أى الفاجئ لك منها ، والسوط : معمول من جلد تساق به الفرس . ويروى : بالسيف ، لكنه غير ملائم للفرس ، بل للفارس . وقونسها : أعلى رأسها . وقيل : شعر عنقها . ويجوز تشبيه الهموم بحيوان يصح ضربه على طريق المكنية . والضرب تخييل ، والطروق ترشيح .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٧٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وانظر هل بقي له معنى قط . لما كان الظن الغالب يدانى العلم ، استعير له . ومعناه : وعلم داود وأيقن ﴿أنما فتناه﴾ أنا ابتليناه لامحالة بامرأة أوريا ، هل يثبت أو يزل ؟ وقرئ : فتناه ، بالتشديد للمبالغة . وأفتناه ، من قوله :

* لَئِنْ فَتَنَتْنِي لَهِيَ بِالأَمْسِ أَفْتَنَتْ *[1]

وفتناه وفتناه ، على أن الألف ضمير الملكين . وعبر بالراكع عن الساجد ، لأنه ينحنى ويخضع كالساجد . وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه فى سجدة التلاوة ، على أن الركوع يقوم مقام السجود . وعن الحسن : لأنه لا يكون ساجداً حتى يركع ، ويجوز أن يكون قد استغفر الله لذنبه وأحرم بركعتى الاستغفار والإنابة . فيكون المعنى : وخر للسجود راكعاً أى مصلياً ؛ لأن الركوع يجعل عبارة عن الصلاة ﴿وأناب﴾ ورجع إلى الله تعالى بالتوبة والتنصل . وروى أنه بقى ساجداً أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو مالابد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه ، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع ، وجهد نفسه راغباً إلى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك ، واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه ، واجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل ، فلما غفر له حاربه فهزمه . وروى أنه نقش خطيئته فى كفه حتى لا ينساها . وقيل : إن الخصمين كانا من الإنس ، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما : إما كانا خليطين فى الغنم ، وإما كان أحدهما موسراً وله نسوان كثيرة من المهائر والسرارى ، والثانى معسراً ماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزله عنها وإنما فزع لدخولهما عليه فى غير وقت الحكومة أن يكونا مغتالين ، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر وظلمه قبل مسئلته[2]

---

(١) لئن فتنتنى لهى بالأمس أفتنت سعيداً فأمسى قد قلى كل مسلم
وألقى مصابيح القراءة واشترى وصال الغوانى بالكتاب المنمنم

للأعشى الهمدانى . وفتنته المرأة ـ بالتخفيف والتشديد ـ وأفتنته : دلهته وحيرته . و «لهى بالأمس أفتنت» جواب القسم المدلول عليه باللام فى قوله : لئن فتنتنى . وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم . والمعنى : إن فتنتنى فلا أحزن ولا أتعجب ، فان تلك عادتها من قبل ، فالمراد بالأمس : الزمن الماضى . وسعيد : هو ابن جبير ، كان عالما تقيا . وقلى كل مسلم ، أى : بغض كل مسلم سواها . وعبر بالمسلم ؛ لأنه يبعد بغضه . والمصابيح : يجوز أنها حقيقة ، وأنها مجاز عن الكتب . والغوانى : الجميلات . والمنمنم : المحسن بنقوش الكتابة .

(٢) قال محمود : «ونقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلا وإنما كانت من البشر إما خليطين فى الغنم حقيقة ، وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهائر والسرارى والثانى معسراً وماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزله عنها ، وفزع داود ، وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه فى غير وقت القضاء ، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسألته» قال أحمد : مقصود هذا القائل =

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)

﴿خليفة فى الأرض﴾ أى استخلفناك على الملك فى الارض ، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها . ومنه قولهم : خلفاء الله فى أرضه . وجعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق . وفيه دليل على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ أى بحكم الله تعالى إذ كنت خليفته ﴿ولا تتبع﴾ هوى النفس فى قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا ﴿فيضلك﴾ الهوى فيكون سبباً لضلالك ﴿عن سبيل الله﴾ عن دلائله التى نصبها فى العقول ، وعن شرائعه التى شرعها وأوحى بها . و﴿يوم الحساب﴾ متعلق بنسوا ، أى : بنسيانهم يوم الحساب ، أو بقوله لهم ، أى : لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل الله . وعن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبدالعزيز أو للزهرى : هل سمعت ما بلغنا ؟ قال : وماهو ؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا تكتب عليه معصية . فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا هذه الآية.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧)

﴿باطلا﴾ خلقاً باطلا ، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة . أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) وتقديره : ذوى باطل . أو عبثاً ، فوضع باطلا موضعه ، كما وضعوا هنيئاً موضع المدر ، وهو صفة ، أى ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ، ولكن للحق المبين ، وهو أن خلقناها نفوسا[1] أودعناها العقل

ـــــــــ

= تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء ، فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب إلى العجلة فى نسبة الظلم إلى المدعى عليه ، لأن الباعث على ذلك فى الغالب إنما هو التهاب الغضب وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى ، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه فى الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام : (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى) فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذى صدر منه أولا وبان منه من قبيل ماوقع له فى الحكم بين الناس ، وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : داود وغيره ـ منزهون من الوقوع فى صغائر الذنوب مبرؤن من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة ، وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء الله تعالى .

(١) قوله «وهو أن خلقنا نفوسا» عبارة النسفى : وهو أنا خلقنا نفوسا . (ع)

والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف. وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى خلقها باطلا، والظن: بمعنى المظنون، أى: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وما بينهما بدليل قوله: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة. قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب، مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه، لأن الجزاء هو الذى سبقت إليه الحكمة فى خلق العالم من رأسها، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها، ومن جحد الحكمة فى خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقاً كلا إقرار.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾

﴿أم﴾ منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، واتقى وفجر، ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾

وقرئ: مباركا، وليتدبروا: على الأصل، ولتدبروا: على الخطاب. وتدبر الآيات: التفكر فيها، والتأمل الذى يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعانى الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ، لم يحل منه بكثير طائل،[1] وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها. وعن الحسن: قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة،[2] لا كثر

(١) قوله «لم يحل منه بكثير طائل» فى الصحاح: قولهم «لم يحل منه بطائل» أى: لم يستفد منه كبير فائدة. وفيه: اللقح ـ بالكسر ـ: الابل بأعيانها، الواحدة: لقوح، وهى الحلوب، مثل: قلوص وقلاص: واللقحة: اللقوح، والجمع لقح مثل قربة وقرب، وفيه: ناقة درور، أى: كثيرة اللبن. وفيه: النثور، أى: كثيرة الولد.

(٢) قوله «ولا الوزعة» جمع وازع، وهو الذى يكف عن الضرر، والذى يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير. أفاده الصحاح. (ع)

الله فى الناس مثل هؤلاء . اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِىِّ الصَّـٰفِنَـٰتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)

وقرئ : نعم العبد ، على الأصل ، [1] والمخصوص بالمدح محذوف . وعلل كونه ممدوحا بكونه أوّابا رجاعا إليه بالتوبة . أو مسبحاً مؤوبا للتسبيح مرجعاً له ، لأن كل مؤوب أوّاب . والصافن : الذى فى قوله :

أَلِفَ الصُّفُونَ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرَا [2]

وقيل : الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل : هو المتخيم . وأما الصافن : فالذى يجمع بين يديه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوّأ مقعده من النار » [3] أى : واقفين كما خدم الجبابرة . فإن قلت : ما معنى وصفها بالصفون ؟ قلت : الصفون لا يكاد يكون فى الهجن ، وإنما هو فى العراب الخلص . وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى : إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها . وروى أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، فأصاب ألف فرس . وقيل : ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة . وقيل : خرجت من البحر لها أجنحة ، فقعد يوما بعد ما صلى الأولى على كرسيه [4] واستعرضها ، فلم

(١) قوله «وقرئ نعم العبد على الأصل» لعله بفتح النون وكسر العين ، كما يفيده الصحاح . (ع)

(٢) لامرئ القيس . وقيل : للعجاج يصف فرسا . والصفون ـ بالمهملة ـ : الوقوف على سنبك يد أو رجل . والسنبك : طرف حافر الفرس . والصفون ـ بالمعجمة ـ : الجمع بين اليدين فى الوقوف ، ومما يقوم : خبر كان ، أى : أحب الصفون ، كأنه من الجنس الذى يقوم على ثلاث قوائم . أو كأنه مخلوق من القيام على ثلاثة كخلق الانسان من عجل ، حال كونه مكسور القائمة الرابعة ، أو كاسرها أى ثانيها ، فما موصولة أو مصدرية . وكسيراً : حال ، والجملة : خبر يزال ، وهذا ما استقر عليه رأى ابن الحاجب فى الأمالى بعد كلام طويل ، ولو جعلت ما مصدرية ، وكسيراً : خبر كأن ، كان حقه الرفع ، ولو جعلته خبر يزال كما اختاره ابن هشام ، لكان المعنى : فلا يزال كسيراً ، كأنه مما يقوم على الثلاث على ما مر . ويجوز أن يكون المعنى : فلا يزال كسيراً من قيامه على الثلاث ، وكأنه اعتراض ، وخبره محذوف ، أى كأنه كسير . وفائدته الاحتراس .

(٣) لم أجده هكذا وفى السنن حديث معاوية «من سره أن يتمثل الناس له قياما» وفى الغريب لأبى عبيد من حديث البراء رضى الله عنه «كنا إذا صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه قمنا معه صفوفا» .

(٤) قوله «بعد ما صلى الأولى على كرسيه» عبارة النسفى . صلى الظهر . (ع)

نزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشى ، وتهيبوه فلم يعلموه ، فاغتم لما فاته ، فاستردها وعقرها مقربا[1] لله ، وبقى مائة ، فما بقى فى أيدى الناس من الجياد فمن نسلها ، وقيل : لما عقرها أبدله الله خيراً منها ، وهى الريح تجرى بأمره . فإن قلت : ما معنى ﴿أحببت حب الخير عن ذكر ربى﴾ ؟ قلت : أحببت : مضمن معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل : أنبت حب الخير عن ذكر ربى . أو جعلت حب الخير مجزيا أو مغنيا عن ذكر ربى . وذكر أبو الفتح الهمدانى فى كتاب التبيان : أن «أحببت» بمعنى : لزمت، من قوله :

* مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذْ أَحَبَّا *[2]

وليس بذاك . والخير : المال ، كقوله (إن ترك خيرا) وقوله (وإنه لحب الخير لشديد) والمال : الخيل التى شغلته . أو سمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعاق الخير بها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة »[3] ، وقال فى زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : « ما وُصف لى رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغنى إلا زيد الخيل »[4] وسماه زيد الخير . وسأل رجل بلالا رضى الله عنه عن قوم يستبقون : من السابق ؟ فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له الرجل : أردت الخيل . فقال : وأنا أردت الخير .[5]

---

(١) قوله «وعقرها مقربا لله» عبارة النسفى : تقربا . (ع)

(٢)
كيف قربت عمك القرشبا حين أتاك لاغبا مخبا
حلت عليه بالقفيل ضربا تبا لمن بالهون قد ألبا
مثل بعير السوء إذ أحبا

لأبى محمد الفقعسى . والقرشب ـ بكسر أوله وفتح ثالثه ـ : المسن ، واللاغب ، من اللغوب : وهو التعب . والمخب من أخبه : إذا حمله على الخبب ، وهو نوع من السير . أومن أخب : إذا لزم المكان كما قبل . وحلت : أى قمت ووثبت عليه . والقفيل : السوط . وضربا : بمعنى ضاربا . أوتضربه ضربا . والتب : الهلاك ، وهو دعاء عليه ، وفعله محذوف وجوبا . والهون ـ بالضم ـ : الهوان . وألب بالمكان : أقام به ، ورواه الأصمعى هكذا :

كيف قربت شيخك الأذبا لما أتاك يابسا قرشبا
قمت عليه بالقفيل ضربا مثل بعير السوء إذ أحبا

والذبب : كثرة الشعر وطوله . والأذب : البعير الذى نبت على حاجبيه شعيرات ، فإذا ضربته الريح نفر وماج . وقال الجوهرى : الاحباب : البروك . وهو فى الابل كالحران فى الخيل .

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما

(٤) ذكره ابن إسحاق فى المغازى بغير سند ، والبيهقى فى الدلائل من طريقه . وذكره ابن سعد عن الواقدى بأسانيد له مقطوعة

(٥) أخرجه ابراهيم الحربى من رواية مغيرة عن الشعبى قال «كان رهان . فقال رجل لبلال : من سبق ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فمن صلى ؟ قال : أبو بكر . قال : إنما أعنى فى الخيل . قال : وأنا أعنى فى الخير»

والتوارى بالحجاب : مجاز فى غروب الشمس عن توارى الملك . أو المخبأة بحجابهما . والذى دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشى ، ولا بد للمضمر من جرى ذكر أو دليل ذكر . وقيل : الضمير للصافنات ، أى : حتى توارت بحجاب الليل يعنى الظلام . ومن بدع التفاسير : أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه ﴿فطفق مسحا﴾ فجعل يمسح مسحا ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى : يقطعها . يقال : مسح علاوته ، إذا ضرب عنقه . ومسح المسفر الكتاب [1] إذا قطع أطرافه بسيفه . وعن الحسن: كسف عراقيبها وضرب أعناقها ، أراد بالكسف : القطع ، ومنه : الكسف فى ألقاب الزحاف فى العروض . ومن قاله بالشين المعجمة فصحف . وقيل : مسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها . فإن قلت : بم اتصل قوله (ردّوها علىّ) ؟ قلت : بمحذوف تقديره : قال ردّوها علىّ ، فأضمر وأضمر ما هو جواب له ، كأن قائلا قال : فماذا قال سليمان ؟ لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهرا ، وهو اشتغال نبىّ من أنبياء الله بأمر الدنيا ، حتى تفوته الصلاة عن وقتها . وقرئ : بالسؤوق ، بهمز الواو لضمتها ، كما فى أدؤر . ونظيره : الغؤور ، فى مصدر غارت الشمس . وأما من قرأ بالسؤق فقد جعل الضمة فى السين كأنها فى الواو للتلاصق ، كما قيل : مؤسى : ونظير ساق وسوق : أسد وأسد . وقرئ : بالساق ، اكتفاء بالواحد عن الجمع ، لأمن الإلباس .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)

قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة . وملك بعد الفتنة عشرين سنة . وكان من فتنته : أنه ولد له ابن ، فقالت الشياطين : إن عاش لم ننفك من السخرة ، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله ، فعلم ذلك ، فكان يغذوه فى السحابة [2] فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتا ، فتنبه على خطئه فى أن لم يتوكل فيه على ربه ، فاستغفر ربه وتاب إليه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهنّ فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفسى بيده ، لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون [3] ، فذلك قوله تعالى ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ . وهذا ونحوه مما لا بأس به . وأما ما يروى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة

(١) قوله «ومسح المسفر الكتاب» الذى فى الصحاح : سفرت الكتاب أسفره سفرا . وسفرت المرأة : كشفت عن وجهها . وأسفر الصبح : أى أضاء . وأسفر وجهه حسنا ، أى : أشرق ، فليحرر . (ع)

(٢) قوله «فكان يغذوه» فى الصحاح : غذوت الصبى باللبن ، أى ربيته به فاغتذى . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

الوثن فى بيت سليمان ، فالله أعلم بصحته[1]. حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهى مدينة فى بعض الجزائر ، وأن بها ملكا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر ، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس ، فقتل ملكها وأصاب بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً ، فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها ، وكانت لا يرقأ دمعها حزناً على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها ، فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهن فى ملكه ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد ، فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعا ، وكانت له أم ولد يقال لها أمينة ، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها ، وكان ملكه فى خاتمه ، فوضعه عندها يوما وأتاها الشيطان صاحب البحر ـ وهو الذى دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر ـ على صورة سليمان فقال : يا أمينة خاتمى ، فتختم به وجلس على كرسى سليمان ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف ، فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين ، فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن فى بيته ، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان ، وسأل آصف نساء سليمان فقلنا : ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة. وقيل : بل نفذ حكمه فى كل شىء إلا فيهن ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر ، فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان ، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم ، فتختم به ووقع ساجداً ، ورجع إليه ملكه ، وجاب صخرة لصخر[2] فجعله فيها ، وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر. وقيل : لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها ، فقال له آصف : إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقر فى يدك ، فتب إلى الله عز وجل. ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل . وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا فى تغيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن : قبيح . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع . ألا ترى إلى قوله (من محاريب وتماثيل) وأما السجود للصورة فلا يظن بنبى الله أن يأذن فيه ، وإذا كان بغير علمه فلا عليه . وقوله ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوّاً ظاهراً .

---

(١) أخرجه النسائى فى التفسير من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وإسناده قوى وأخرجه ابن أبى حاتم من حديث ابن عباس قريباً مما أورده المصنف .

(٢) قوله «وجاب صخرة لصخر» أى : خرق أو قطع أفاده الصحاح . (ع)

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

قدم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء والصالحين فى تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ﴿لا ينبغى﴾ لا يتسهل ولا يكون. ومعنى ﴿من بعدى﴾ دونى. فإن قلت: اما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطى الله مالا يعطيه غيره؟ قلت: كان سليمان عليه السلام ناشئا فى بيت الملك والنبوة ووارثا لها، فأراد أن يطلب من ربه معجزة، فطلب على حسب ألفه ملكا زائداً على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز، ليكون ذلك دليلا على نبوته قاهراً للمبعوث إليهم، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات، فذلك معنى قوله (لا ينبغى لأحد من بعدى) وقيل: كان ملكا عظيما، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله فيه، كما قالت الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) وقيل: ملكا لا أسلبه ولا يقوم غيرى فيه مقامى، كما سلبته مرة وأقيم مقامى غيرى. ويجوز أن يقال: علم الله فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح فى الدين، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره، وأوجبت الحكمة استيهابه، فأمره أن يستوهبه إياه، فاستوهبه بأمر من الله على الصفة التى علم الله أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده. أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال (لا ينبغى لأحد من بعدى)، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول: لفلان ماليس لأحد من الفضل والمال، وربما كان للناس أمثال ذلك، ولكنك تريد تعظيم ماعنده. وعن الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: أحسد منى من قال (هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) وهذا من جرأته على الله وشيطنته، كما حكى عنه: طاعتنا أوجب من طاعة الله، لأنه شرط فى طاعته فقال (فاتقوا الله ما استطعتم) وأطلق طاعتنا فقال (وأولى الأمر منكم).

فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾

قرئ: الريح والرياح ﴿رخاء﴾ لينة طيبة لا تزعزع. وقيل: طيعة له لا تمتنع عليه ﴿حيث أصاب﴾ حيث قصد وأراد. حكى الأصمعى عن العرب: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. وعن

رؤبة أنّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة ،فخرج إليهما فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ، ويقال : أصاب الله بك خيراً ﴿والشياطين﴾ عطف على الريح ﴿كل بناء﴾ بدل من الشياطين ﴿وآخرين﴾ عطف على كل داخل فى حكم البدل ، وهو بدل الكل من الكل : كانوا يبنون له ماشاء من الأبنية ، ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وهو أوّل من استخرج الدرّ من البحر ، وكان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض فى القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد . وعن السدى : كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين فى الجوامع[1] . والصفد القيد ، وسمى به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه . ومنه قول علىّ رضى الله عنه : من برّك فقد أسرك ، ومن جفاك فقد أطلقك . ومنه قول القائل : غل يدا مطلقها ، وأرقّ رقبة معتقها . وقال حبيب : إنّ العطاء إسار ؛ وتبعه من قال :

* وَمَنْ وَجَـدَ الإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا * [2]

وفرقوا بين الفعلين فقالوا : صفده قيده ، وأصفده أعطاه ، كوعده وأوعده ، أى ﴿هذا﴾ الذى أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عطاؤنا﴾ بغير حساب ، يعنى : جما كثيراً لا يكاد يقدر على حسبه وحصره ﴿فامنن﴾ من المنة وهى العطاء ، أى : فأعط منه ماشئت ﴿أو أمسك﴾ مفوّضا إليك التصرف فيه . وفى قراءة ابن مسعود : هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب ، أو هذا التسخير عطاؤنا ، فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق ، وأمسك من شئت منهم فى الوثاق بغير حساب ، أى لا حساب عليك فى ذلك .

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم

(١) قوله «فى الجوامع» فى الصحاح «الجامعة» : الغل ، لأنها تجمع اليدين إلى العنق . (ع)

(٢) وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

للمتنبي ، يقول : تركت سير الليل وراء ظهرى ، أى : بالغت فى تركه لمن قل ماله ، لأنه لا زال يبتغيه ، واكتفيت بنعمتك العظمى ، وشبه الآمال التى امتدت إليه وبلغت مناها ، بأفراس منعلة بالذهب على طريق التصريحية والانعال ترشيح . ويجوز أن ذلك كناية عن عظم النعمة ، واستعار التقييد للمنع عن التطلع لغير الممدوح وقصر المدح عليه . ويجوز أنه شبه نفسه بحيوان ، والتقييد : تخييل . والذرا - بالفتح - : كل ما ستر الشىء ، يقال : أنا فى ظل الجبل وفى ذراه ، أو فى ظل فلان وفى ذراه ، أى : فى كنفه وحماه ، ومحبة : مفعول لأجله ، وشبه الاحسان بالقيد لأنه سبب استملاك النفس .

مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

﴿أيوب﴾ عطف بيان . و﴿إذ﴾ بدل اشتمال منه ﴿أنى مسنى﴾ بأنى مسنى : حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه : لأنه غائب . وقرئ (بنصب) بضم النون وفتحها مع سكون الصاد ، وبفتحهما ، وضمهما ، فالنصب والنصب : كالرشد والرشد ، والنصب : على أصل المصدر ، والنصب : تثقيل نصب ، والمعنى واحد ، وهو التعب والمشقة . والعذاب : الألم ، يريد مرضه وما كان يقاسى فيه من أنواع الوصب[1] . وقيل : الضرّ فى البدن ، والعذاب فى ذهاب الأهل والمال فإن قلت : لم نسبه إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه الله على أنبيائه ليقضى من أتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر فى القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب ؟ قلت : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من النصب والعذاب ، نسبه إليه ، وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو . وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجميل . وروى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين ، فارتد أحدهم ، فسأل عنه فقيل ألقى إليه الشيطان : إن الله لا يبتلى الأنبياء والصالحين ، وذكر فى سبب بلائه أنّ رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه . وقيل : كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر ، فداهنه ولم يغزه . وقيل : أعجب بكثرة ماله ﴿اركض برجلك﴾ حكاية ما أجيب به أيوب ، أى : اضرب برجلك الأرض . وعن قتادة : هى أرض الجابية[2] فضربها ، فنبعت عين فقيل ﴿هذا مغتسل بارد وشراب﴾ أى هذا ماء تغتسل به وتشرب منه ، فيبرأ باطنك وظاهرك ، وتنقلب ما بك قلبة[3] . وقيل : نبعت له عينان ، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله ، وقيل : ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها ﴿رحمة منا وذكرى﴾ مفعول لهما . والمعنى : أنّ الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب ، لأنهم إذا سمعوا بما

(١) قوله «من أنواع الوصب» فى الصحاح «الوصب» : المرض . (ع)

(٢) قوله «هى أرض الجابية» مدينة بالشام كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وتنقلب ما بك قلبة» فى الصحاح «القلاب» داء يأخذ البعير . وقولهم : ما به قلبة ، أى : ليست به علة . (ع)

أنعمنا به عليه لصبره ، رغبهم فى الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل الله بهم ﴿وخذ﴾ معطوف على اركض . والضغث : الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك . وعن ابن عباس : قبضة من الشجر ، كان حاف فى مرضه ليضربنّ امرأته مائة إذا برأ ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وهذه الرخصة باقية . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه أتى بمخدج [1] قد خبث بأمة ، فقال : «خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة» [2] ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة ، إمّا أطرافها قائمة ، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب ، وكان السبب فى يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة فى حاجة فحرج صدره ، وقيل : باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام . وقيل : قال لها الشيطان اسجدى لى سجدة فأردّ عليكم مالكم وأولادكم، فهمت بذلك فأدركتها العصمة، فذكرت ذلك له ، فحلف . وقيل: أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ ، فعرضت له بذلك . وقيل : سألته أن يقرب للشيطان بعناق ﴿وجدناه صابراً﴾ علمناه صابرا . فإن قلت : كيف وجده صابراً وقد شكا إليه ما به واسترحمه ؟ قلت : الشكوى إلى الله عز وعلا لا تسمى جزعا ، ولقد قال يعقوب عليه السلام : (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب ، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها ، فإذا صحّ أن يسمى صابراً مع تمنى العافية وطلب الشفاء ، فليسم صابراً مع اللجإ إلى الله تعالى ، والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء ، على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة . حيث كان الشيطان يوسوس إليهم كما كان يوسوس اليه أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به ، وإرادة القوة على الطاعة ، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان . ويروى أنه قال فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يهبنى ما ملكت يمينى ، [3] ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان ؛ فكشف الله عنه .

---

(١) قوله «إنه أتى بمخدج» الخداج : النقصان ، وأخدجت الناقة : إذا جاءت بولدها ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة فهى مخدج ، والولد مخدج ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه النسائى وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والبزار والطبرانى من رواية أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن عبادة . قال «كان بين أبياتنا رجل ضعيف مخدج ، فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها ـ الحديث» قال البزار : لم يرد إلا هذا ، واختلف فى إسناده . فقيل هكذا . وقيل عن أبى الزناد عن أبى أمامة مرسلا ورواه أبو داود من وجه آخر عن أبى أمامة أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) قوله «ولم يهبنى ما ملكت يمينى» أى لم ينشطنى ولم يهيجنى ، من هبت الريح : أى هاجت ، وهب البعير : أى نشط ، كما فى الصحاح . (ع)

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

﴿إبراهيم وإسحق ويعقوب﴾ عطف بيان لعبادنا . ومن قرأ : عبدنا ، جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا ، وهى إسحق ويعقوب ، كقراءة ابن عباس : وإله أبيك إبراهيم وإسمعيل وإسحق . لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدى غلبت ، فقيل فى كل عمل هذا مما عملت أيديهم ، وإن كان عملا لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدى. أو كان العمال جذما لا ايدى لهم ، وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا ﴿أولى الأيدى والأبصار﴾ يريد : أولى الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون فى الله، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون فى حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين فى دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما . وقرئ : أولى الأيادى ، على جمع الجمع . وفى قراءة ابن مسعود : أولى الأيد ، على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة .وتفسيره بالأيد - من التأييد - : قلق غير متمكن ﴿أخلصناهم﴾ جعلناهم خالصين ﴿بخالصة﴾ بخصلة خالصة لا شوب فيها ، ثم فسرها بذكرى الدار ، شهادة لذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها . وقرئ على الإضافة . والمعنى : بما خلص من ذكرى الدار ، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهم آخر ، إنما همهم ذكرى الدار لا غير . ومعنى ﴿ذكرى الدار﴾ : ذكراهم الآخرة دائبا ، ونسيانهم إليها ذكر الدنيا . أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها ، وتزهيدهم فى الدنيا ؛ كما هو شأن الأنبياء وديدنهم . وقيل . ذكرى الدار . الثناء الجميل فى الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم . فإن قلت : ما معنى (أخلصناهم بخالصة)؟ قلت : معناه : أخلصناهم بسبب هذه الخصلة ، وبأنهم من أهلها . أو أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللطف بهم فى اختيارها . وتعضد الأول قراءة من قرأ : بخالصتهم ﴿المصطفين﴾ المختارين من أبناء جنسهم . و﴿الأخيار﴾ جمع خير ، أو خير ، على التخفيف ؛ كالأموات فى جمع ميت أو ميت .

وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

﴿واليسع﴾ كأن حرف التعريف دخل على يسع . وقرئ : والليسع ، كأن حرف التعريف

دخل على ليسع ، فيعل من اللسع . والتنوين فى ﴿وكل﴾ عوض من المضاف اليه ، معناه : وكلهم من الأخيار .

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢)﴾

﴿هذا ذكر﴾ أى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن . لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه ، وهو باب من أبواب التنزيل ؛ ونوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، (١) قال : هذا ذكر ، ثم قال ﴿وإن للمتقين﴾ كما يقول الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع فى باب آخر ، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر : هذا وقد كان كيت وكيت ؛ والدليل عليه : أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار . قال : هذا وإن للطاغين . وقيل : معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبدا . وعن ابن عباس رضى الله عنه : هذا ذكر من مضى من الأنبياء ﴿جنات عدن﴾ معرفة لقوله (جنات عدن التى وعد الرحمن) وانتصابها على أنها عطف بيان لحسن مآب . و﴿مفتحة﴾ حال ، والعامل فيها ما فى (للمتقين) من معنى الفعل . وفى (مفتحة) ضمير الجنات . والأبواب بدل من الضمير ، تقديره : مفتحة هى الأبواب ، كقولهم : ضرب زيد اليد والرجل ، وهو من بدل الاشتمال . وقرئ : جنات عدن مفتحة ، بالرفع ، على أن جنات عدن مبتدأ ، ومفتحة خبره . أو كلاهما خبر مبتدإ محذوف ، أى : هو جنات عدن هى مفتحة لهم ؛ كأن اللدات سمين أترابا ، لأن التراب مسهن فى وقت واحد ، وانما جعلن على سنّ واحدة ، لأن التحاب بين الأقران أثبت . وقيل : هنّ أتراب لأزواجهن ، أسنانهنّ كأسنانهم :

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾

قرئ : يوعدون ، بالتاء والياء ﴿ليوم الحساب﴾ لأجل يوم الحساب ، كما تقول : هذا ما تدخرونه ليوم الحساب ، أى : ليوم تجزى كل نفس ما عملت .

---

(١) قال محمود : «إنما قال : هذا ذكر ليذكر عقبه ذكرا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، كما يقول الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع فى باب آخر» قال أحمد : وكما مايقول الفقيه إذا ذكر أدلة المسئلة عند تمام الدليل الأول : هذا دليل ثان كذا وكذا إلى آخر مافى نفسه ، ويدل عليه أنه عند انقضاء ذكر أهل الجنة قال : (هذا وإن للطاغين لشر مآب) فذكر أهل النار .

هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

﴿هذا﴾ أى الأمر هذا : أو هذا كما ذكر ﴿فبئس المهاد﴾ كقوله (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم ، أى : هذا حميم فليذوقوه . أو العذاب هذا فليذوقوه ، ثم ابتدأ فقال : هو ﴿حميم وغساق﴾ أو : هذا فليذوقوه بمنزلة (وإياى فارهبون) أى ليذوقوا هذا فليذوقوه ، والغساق ـ بالتخفيف والتشديد ـ : ما يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين ، إذا سال دمعها . وقيل : الحميم يحرق بحره ، والغساق يحرق ببرده . وقيل : لو قطرت منه قطرة فى المشرق لنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لنتنت أهل المشرق . وعن الحسن رضى الله عنه . الغساق : عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى . إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا فى قوله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة ﴿وأخر﴾ ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله فى الشدة والفظاعة ﴿أزواج﴾ أجناس . وقرئ : وآخر ، أى : وعذاب آخر . أو مذوق آخر . وأزواج : صفة لآخر ، لأنه يجوز أن يكون ضروبا . أو صفة للثلاثة وهى حميم وغساق وآخر من شكله . وقرئ : من شكله ، بالكسر [1] وهى لغة . وأما الغنج [2] فبالكسر لا غير ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، أى دخل النار فى صحبتكم وقرانكم ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . والقحمة : الشدة . وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض ، أى : يقولون هذا . والمراد بالفوج : أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة ، فيقتحمون معهم العذاب ﴿لا مرحبا بهم﴾ دعاء منهم على أتباعهم . تقول لمن تدعو له : مرحبا ، أى : أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا : أو رحبت بلادك رحبا ، ثم تدخل عليه «لا» فى دعاء السوء .

(١) قوله وقرئ «من شكله بالكسر وهى لغة» أى فى الشكل بمعنى المثل . (ع)

(٢) «وأما الغنج فبالكسر لا غير» فى الصحاح : الغنج والغنج : الشكل ، وقد غنجت الجارية وتغنجت ، فهى غنجة . وفيه : الشكل ـ بالفتح ـ : المثل ، وبالكسر : الدل ، يقال : امرأة ذات شكل . (ع)

و (بهم) بيان للدعو عليهم ﴿إنهم صالو النار﴾ تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم . ونحوه قوله تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقيل: هذا فوج مقتحم معكم: كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى أتباعهم. و(لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار) كلام الرؤساء. وقيل: هذا كله كلام الخزنة ﴿قالوا﴾ أى الأتباع ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ يريدون الدعاء الذى دعوتم به علينا أنتم أحق به ، وعللوا ذلك بقولهم ﴿أنتم قدمتموه لنا﴾ والضمير للعذاب أو لصليهم . فإن قلت : ما معنى تقديمهم العذاب لهم ؟ قلت : المقدم هو عمل السوء . قال الله تعالى (ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم) ولكن الرؤساء لما كانوا السبب فيه بإغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه : قيل أنتم قدمتموه لنا ، فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم ، فجمع بين مجازين ؛ لأن العاملين هم المقدمون فى الحقيقة لا رؤساؤهم ، والعمل هو المقدم لا جزاؤه . فإن قلت : فالذى جعل قوله (لا مرحبا بهم) من كلام الخزنة ما يصنع بقوله (بل أنتم لا مرحباً بكم) والمخاطبون - أعنى رؤساءهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جواباً لهم ؟ قلت : كأنه قيل : هذا الذى دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا وتسببكم فيما نحن فيه من العذاب ، وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوى فارتكبوه فقيل للمزينين : أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم ؟ فقال المزين لهم للمزينين : بل أنتم أولى بالخزى منا ، فلولا أنتم لم نرتكب ذلك ﴿قالوا﴾ هم الأتباع أيضاً ﴿فزده عذابا ضعفا﴾ أى مضاعفا ، ومعناه : ذا ضعف : ونحوه قوله تعالى (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً) وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين ، كقوله عز وجل (ربنا آتهم ضعفين من العذاب)[1] وجاء فى التفسير (عذاباً ضعفا) : حيات وأفاعى .[2]

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾

﴿وقالوا﴾ الضمير للطاغين ﴿رجالا﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم ﴿من الأشرار﴾ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم ، فكانوا عندهم أشراراً ﴿أتخذناهم سخريا﴾ قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالا ، مثل قوله (كنا نعدهم من

(١) قوله تعالى (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً) وقال فى موضع آخر (آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) والقصة واحدة . قال أحمد : وفيه دليل على أن الضعفين اثنان من شىء واحد ، خلافا لمن قال غير ذلك ؛ لأنه فى موضع قال (فزده عذاباً ضعفا) والمراد : مثل عذابه ، فيكونا عذابين . وقال فى موضعين (ضعفين) والمراد : ذا عذابين .

(٢) قوله «وجاء فى التفسير ... الخ» عبارة الخازن : قال ابن عباس : حيات وأفاعى (ع)

الأشرار) وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها[1] فى الاستسخار منهم . وقوله ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ له وجهان من الاتصال ، أحدهما : أن يتصل بقوله (مالنا) أى : مالنا لانراهم فى النار ؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلانراهم وهم فيها : قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة ، وبين أن يكونوا من أهل النار . إلا أنه خفى عليهم مكانهم . والوجه الثانى : أن يتصل باتخذناهم سخريا ، إما أن تكون أم متصلة على معنى : أى الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم ، وعن الحسن : كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم . وإما أن تكون منقطعة بعد مضى اتخذناهم سخريا على الخبر أو الاستفهام ، كقولك : إنها إبل أم شاء ، وأزيد عندك أم عندك عمرو : ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته ، لأنّ «أم» تدل عليها ، فلا تفترق القراءتان : إثبات همزة الاستفهام وحذفها . وقيل : الضمير فى (وقالوا) لصناديد قريش كأبى جهل والوليد وأضرابهما ، والرجال : عمار وصهيب وبلال وأشباههم . وقرئ : سخريا ، بالضم والكسر .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

﴿إنّ ذلك﴾ أى الذى حكينا عنهم ﴿لحق﴾ لابد أن يتكلموا به ، ثم بين ما هو فقال هو ﴿تخاصم أهل النار﴾ وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس . فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك[2] ولأنّ قول الرؤساء : لامرحبا بهم ، وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة ، فسمى التقاول كله تخاصما لأجل اشتماله على ذلك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾

---

(١) قوله «وتأنيب لها» أى : تعنيف ولوم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «وإن قلت لم سمي ذلك تخاصما ؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك ، ولأن قول الرؤساء : لا مرحبا بهم ، وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة» قال أحمد : هذا يحقق أن ماتقدم من قوله (لا مرحبا بهم إنهم صالو النار) من قول المتكبرين الكفار ، وقوله تعالى (بل أنتم لا مرحبا بكم) من قول الأتباع ، فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين ، فيتحقق التخاصم ، خلافا لمن قال : إن الأول من كلام خزنة جهنم ، والثانى : من كلام الأتباع ، فانه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين فالتفسير الأول أمكن وأثبت .

﴿قل﴾ يا محمد لمشركى مكة : ما أنا إلا رسول ﴿منذر﴾ أنذركم عذاب الله للمشركين ، وأقول لكم : إنّ دين الحق توحيد الله ، وأن يعتقد أن لا إله إلا الله ﴿الواحد﴾ بلا ند ولا شريك ﴿القهار﴾ لكل شىء ، وأنّ الملك والربوبية له فى العالم كله وهو ﴿العزيز﴾ الذى لا يغلب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك ﴿الغفار﴾ لذنوب من التجأ إليه . أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم ، وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته ، فإنّ مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه .

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿قل هو نبأ عظيم﴾ أى هذا الذى أنبأتكم به من كونى رسولا منذراً وأن الله واحد لا شريك له : نبأ عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة . ثم احتج لصحة نبوّته بأنّ ما ينبئ به عن الملإ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذى يسلكه الناس فى علم مالم يعلموا ، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب ، فعلم أنّ ذلك لم يحصل إلا بالوحى من الله ﴿إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير﴾ أى لأنما أنا نذير . ومعناه : ما يوحى إلىّ إلا للإنذار ، فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه . ويجوز أن يرتفع على معنى : ما يوحى إلىّ إلا هذا ، وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط فى ذلك ، أى ما أومر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس إلىّ غير ذلك . وقرئ إنما بالكسر على الحكاية ، أى : إلا هذا القول ، وهو أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين ولا أدعى شيئاً آخر . وقيل : النبأ العظيم : قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد . وعن ابن عباس : القرآن . وعن الحسن : يوم القيامة . فإن قلت : بم يتعلق (إذ يختصمون) ؟ قلت : بمحذوف ؛ لأن المعنى : ما كان لى من علم بكلام الملإ الأعلى وقت اختصامهم ، و﴿إذ قال﴾ بدل من (إذ يختصمون) . فإن قلت : ما المراد بالملإ الأعلى؟ قلت : أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا فى السماء وكان التقاول بينهم : فإن قلت : ما كان التقاول بينهم إنما كان بين الله تعالى وبينهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى قال لهم وقالوا له ، فأنت بين أمرين : إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء ، وكان التقاول بينهم ولم يكن التقاول بينهم وإما أن تقول : التقاول كان بين الله وبينهم ، فقد جعلته من الملإ الأعلى . قلت : كانت مقاولة الله سبحانه بواسطة ملك ، فكان المقاول فى الحقيقة هو الملك المتوسط ، فصح أن التقاول كان

بين الملائكة وآدم وإبليس ، وهم الملأ الأعلى . والمراد بالاختصام : التقاول على ماسبق .

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤)

فإن قلت : كيف صح أن يقول لهم ﴿إنى خالق بشرا﴾ وماعرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل ؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إنى خالق خلقا من صفته كيت وكيت ، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم ﴿فإذا سويته﴾ فإذا أتممت خلقه وعدلته ﴿ونفخت فيه من روحى﴾ وأحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿فقعوا﴾ فخروا . كل: للإحاطة . وأجمعون: للاجتماع ، فأفادا معاً أنهم سجدوا عن آخرهم مابقى منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعاً فى وقت واحد غير متفرقين فى أوقات . فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ؟ قلت : الذى لايسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة ، فأما على وجه التكرمة والتبجيل فلا يأباه العقل ، إلا أن يعلم الله فيه مفسدة فينهى عنه . فإن قلت : كيف استثنى إبليس من الملائكة وهو من الجن ؟ قلت : قد أمر بالسجود معهم فغلبوا عليه فى قوله (فسجد الملائكة) ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلا ﴿وكان من الكافرين﴾ أريد وجود كفره ذلك الوقت وإن لم يكن قبله كافراً ؛ لأن (كان) مطلق فى جنس الأوقات الماضية ، فهو صالح لأيها شئت . ويجوز أن يراد : وكان من الكافرين فى الأزمنة الماضية فى علم الله .

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)

فإن قلت : ماوجه قوله ﴿خلقت بيدىّ﴾ : قلت : قد سبق لنا أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه ، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التى تباشر بغيرهما ، حتى قيل فى عمل القلب : هو مما عملت يداك ، وحتى قيل لمن لايدى له : يداك أوكتا [1] وفوك نفخ ، وحتى لم يبق فرق بين قولك : هذا مما عملته ، وهذا مما عملته يداك . ومنه قوله تعالى (مما عملت

---

(١) قوله «يداك أوكتا» فى الصحاح : أوكى على ماف سقائه : إذا شده بالوكاء . (ع)

أيدينا) و (لما خلقت بيدىّ) . فإن قلت : فما معنى قوله (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ) ؟ قلت : الوجه الذى استنكر له إبليس السجود لآدم ، واستنكف منه أنه سجود لمخلوق ، فذهب بنفسه ، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق . وانضم إلى ذلك أنّ آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار . ورأى للنار فضلا على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه فى المنصب ، وزلّ عنه أنّ الله سبحانه حين أمر به أعزَّ عباده عليه [1] وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة ، وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم ، ثم لم يفعلوا وتبعوا امر الله وجعلوه قدام أعينهم ، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له ، تعظيما لأمر ربهم وإجلالا لخطابه : كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرى بأن يقتدى بهم ويقتفى أثرهم ، ويعلم أنهم فى السجود لمن هو دونهم بأمر الله ، أوغل فى عبادته منهم فى السجود له ، لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح ، فقيل له : مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ ، أى : مامنعك من السجود لشىء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدى ـ لاشكّ فى كونه مخلوقا ـ امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ، فذكر له ماتركه من السجود مع ذكر العلة التى تشبث بها فى تركه ، وقيل له : لم تركته مع وجود هذه العلة ، وقد أمرك الله به ، يعنى : كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتباراً لسقوطه ، فيقول له : مامنعك أن تتواضع لمن لايخفى علىّ سقوطه [2] ، يريد : هلا اعتبرت أمرى وخطابى وتركت

---

(١) قوله «حين أمر به أعز عباده» مبنى على مذهب المعتزلة : أن الملك أفضل من البشر . وعند أهل السنة : البشر أفضل من الملك . (ع)

(٢) قال محمود : «لما كان ذو اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه : غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التى تباشر بغير اليدين ، حتى قيل فى عمل القلب : هذا مما عملت يداك . قال ومعناه أن الوجه الذى استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف بسببه : أنه سجود لمخلوق ، مع أنه دون الساجد ؛ لأن آدم من طين ، وإبليس من نار ، فرأى للنار فضلا على الطين ، وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر أعز عباده عليه وأقربهم منه وهم الملائكة أن يسجدوا لهذا البشر : لم يمتنعوا ولم يذهبوا بأنفسهم إلى التكبر ، مع انحطاطه عن مراتبهم ، فقيل له : مامنعك أن تسجد لهذا الذى هو مخلوق بيدى كما وقع لك ، مع أنه لاشك أن فى ذلك امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ، فذكر له العلة التى منعته من السجود ، وقيل له : ماحملك على اعتبار هذه العلة دون اعتبار أمرى ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم ، فيمتنع اعتباراً لسقوطه . فيقول له : مامنعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه ، يريد : هلا اعتبرت أمرى وخطابى وتركت اعتبار سقوطه ، انتهى المقصود من الآية بعد تطويل وإطناب وإكثار وإسهاب . قال أحمد : إنما أطال القول هنا ليفر من معتقدين لأهل السنة تشتمل عليهما هذه الآية : أحدهما : أن اليدين من صفات الذات أثبتهما السمع ، هذا مذهب أبى الحسن والقاضى . بعد إبطالهما حمل اليدين على القدرة ، فان قدرة الله تعالى واحدة ، واليدان مذكورتان بصيغة التثنية ، وأبطلا حملهما على النعمة بأن نعم الله =

اعتبار سقوطه، وفيه: أنى خلقته بيدى، فأنا أعلم بحاله، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعى حكمة دعانى إليه: من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له، مالم يصرفنى عن الأمر بالسجود له. وقيل: معنى (لما خلقت بيدىّ) لما خلقت بغير واسطة. وقرئ: بيدىّ، كما قرئ: بمصرخىّ. وقرئ: بيدى، على التوحيد ﴿من العالين﴾ ممن علوت وفقت. فأجاب بأنه من العالين حيث ﴿قال أنا خير منه﴾ وقيل: استكبرت الآن، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين. ومعنى الهمزة: التقرير. وقرئ: استكبرت بحذف حرف الاستفهام؛ لأنّ أم تدل عليه. أو بمعنى الإخبار. هذا على سبيل الأولى، أى: لوكان مخلوقا من نار لما سجدت له، لأنه مخلوق مثلى، فكيف أسجد لمن هو دونى لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهى ﴿خلقتنى من نار﴾ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه فى البيان والإيضاح.

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾

﴿منها﴾ من الجنة. وقيل: من السموات. وقيل: من الخلقة التى أنت فيها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته، فاسودّ بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسناً، وأظلم بعد ما كان نورانياً. والرجيم: المرجوم. ومعناه: المطرود، كما قيل له: المدحور والملعون؛ لأنّ من طرد رمى بالحجارة على أثره. والرجم: الرمى بالحجارة. أو لأنّ الشياطين يرجمون بالشهب.

ـــ لا تحصى، فكيف تحصر بالتثنية. وغيرهما من أهل السنة كامام الحرمين وغيره يجوز حملهما على القدرة والنعمة، ويجيب عما ذكراه بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة، وهذا مما يحقق تفضيله على إبليس، إذ لم يخلق إبليس لنعمة الآخرة، وعلى أن المراد القدرة، فالتثنية تعظيم، ومثل ذلك يوجد فى اللغة كثيراً. المعتقد الثانى: أن النبى أفضل من الملك، والزمخشرى شديد العصبية فى هذه المسئلة والانكار على من قال بذلك من أهل السنة. لاجرم أنه أجرم فى بسط كلامه على آدم عليه السلام، فمثل قصته فى انحطاط مرتبته على زعمه عن مرتبة الملائكة بقول الملك لوزيره: زر بعض سقاط الحشم، فجعل سقاط حشم الملك مثالا لآدم الذى هو عنصر الأنبياء عليهم السلام، وأقام لابليس عذره وصوب اعتقاده. أنه أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين، وإنما غلطه من جهة أخرى. وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة، وجعل قوله تعالى (لما خلقت بيدى) إنما ذكر تقريراً للعلة التى منعت إبليس من السجود، وهو كونه دونه، وهذا ـ نسأل الله العصمة ـ المراد منه ضد مافهم الزمخشرى، وإنما ذكر ذلك تعظيما لمعصية إبليس، إذ امتنع من تعظيم من عظمه الله إذ خلقه بيده، وذلك تعظيم لآدم لا تحقير منه. ويدل عليه الحديث الوارد فى الشفاعة، إذ يقول له الناس عند مايقصدونه فيها: أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته، فانما يذكرون ذلك فى سياق تعديد كراماته وخصائصه، لا فيما يحط منه، معاذ الله وإياه نسأل أن يعصمنا من مهاوى الهوى ومهالكه، وأن يرشدنا إلى سبيل الحق ومسالكه، إنه ولى التوفيق، وبالاجابة حقيق.

فإن قلت : قوله ﴿لعنتى إلى يوم الدين﴾ كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع ؟ قلت : كيف تنقطع وقد قال الله تعالى (فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين) ولكن المعنى : أن عليه اللعنة فى الدنيا ، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة ، فكأنها انقطعت .

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾

فإن قلت : ما الوقت المعلوم الذى أضيف إليه اليوم ؟ قلت : الوقت الذى تقع فيه النفخة الأولى . ويومه : اليوم الذى وقت النفخة جزء من أجزائه . ومعنى المعلوم : أنه معلوم عند الله معين ، لا يستقدم ولا يستأخر .

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فبعزتك﴾ إقسام بعزة الله تعالى وهى سلطانه وقهره .

قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

قرئ : فالحق والحق ، منصوبين على أن الأول مقسم به كالله فى ٭ إن عليك الله أن تبايعا ٭ وجوابه ﴿لأملأن﴾ والحق أقول : اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ، ومعناه : ولا أقول إلا الحق . والمراد بالحق : إما اسمه عزّ وعلا الذى فى قوله (إنّ الله هو الحق المبين) أو الحق الذى هو نقيض الباطل : عظمه الله بإقسامه به . ومرفوعين على أن الأوّل مبتدأ محذوف الخبر ، كقوله (لعمرك) أى : فالحق قسمى لأملأنّ . والحق أقول ، أى : أقوله كقوله كله لم أصنع ، ومجرورين : على أن الأوّل مقسم به قد أضمر حرف قسمه ، كقولك : الله لأفعلنّ . والحق أقول ، أى : ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به . ومعناه : التوكيد والتشديد . وهذا الوجه جائز فى المنصوب والمرفوع أيضاً . وهو وجه دقيق حسن . وقرئ برفع الأوّل وجرّه مع نصب الثانى ، وتخريجه على ما ذكرنا ﴿منك﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وممن تبعك منهم﴾ من ذرّية آدم . فإن قلت : ﴿أجمعين﴾ تأكيد لماذا ؟ قلت : لا يخلو أن يؤكد به الضمير فى منهم ، أو الكاف فى منك مع من تبعك . ومعناه : لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحداً . أو لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت فى ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)

﴿عليه من أجر﴾ الضمير للقرآن أو للوحى ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدعياً ماليس عندى ، حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن ﴿إن هو إلا ذكر﴾ من الله ﴿للعالمين﴾ للثقلين . أوحى إلىّ فأنا أبلغه . وعن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لاينال ، ويقول ما لايعلم»[1] . ﴿ولتعلمنّ نبأه﴾ أى ما يأتيكم عند الموت ، أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وفشوه ، من صحة خبره ، وأنه الحق والصدق . وفيه تهديد .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة صٓ كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير»[2] .

---

(١) أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عون حدثنا محمد بن المصلى حدثنا حيوة بن شريح عن أرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل مرفوعا به . ورواه البيهقى فى الشعب فى الثالث والثلاثين من رواية بقية عن أرطاة قوله ورواه أبو نعيم عن وهب بن منبه قوله .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبى رضى الله عنه .

سورة الزمر

مكية ، إلا قوله (قل ياعبادى الذين أسرفوا ... الآية) وتسمى سورة الغرف
وهى خمس وسبعون آية . وقيل ثنتان وسبعون آية

[نزلت بعد سورة سبإ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)

﴿ تنزيل الكتاب ﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف . أو خبر مبتدإ محذوف والجار صلة التنزيل ، كما تقول : نزل من عند الله . أو غير صلة ، كقولك : هذا الكتاب من فلان إلى فلان ، فهو على هذا خبر بعد خبر . أو خبر مبتدإ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، هذا من الله ، أوحال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة ، وبالنصب على إضمار فعل ، نحو : اقرأ ، والزم . فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن ، وعلى الثانى : أنه السورة ﴿ مخلصا له الدين ﴾ ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر . وقرئ : الدين ، بالرفع . وحق من رفعه أن يقرأ مخلصا - بفتح اللام - كقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله) حتى يطابق قوله (ألا لله الدين الخالص) والخالص والمخلص : واحد ، إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازى ، كقولهم :

شعر شاعر . وأما من جعل (مخلصا) حالا من العابد ، و (له الدين) مبتدأ وخبرا ، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك : لله الدين (ألا لله الدين الخالص) أى : هو الذى وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر ، لاطلاعه على الغيوب والأسرار ، ولأنه الحقيق بذلك ، لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها . وعن قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله . وعن الحسن : الإسلام ﴿ والذين اتخذوا ﴾ يحتمل المتخذين وهم الكفرة ، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى : عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فالضمير فى (اتخذوا) على الأول راجع إلى الذين ، وعلى الثانى إلى المشركين ، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوما ، والراجع إلى الذين محذوف والمعنى : والذين اتخذهم المشركون أولياء ، (والذين اتخذوا) فى موضع الرفع على الابتداء . فإن قلت : فالخبر ما هو ؟ قلت : هو على الأول إما ﴿ إن الله يحكم بينهم ﴾ أو ما أضمر من القول قبل قوله (ما نعبدهم) . وعلى الثانى : أن الله يحكم بينهم . فإن قلت : فإذا كان (إن الله يحكم بينهم) الخبر ، فما موضع القول المضمر ؟ قلت : يجوز أن يكون فى موضع الحال ، أى : قائلين ذلك . ويجوز أن يكون بدلا من الصلة فلا يكون له محل ، كما أنّ المبدل منه كذلك . وقرأ ابن مسعود بإظهار القول (قالوا ما نعبدهم) وفى قراءة أبىّ : ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب ، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم . وقرئ : نعبدهم ، بضم النون اتباعا للعين كما تتبعها الهمزة فى الأمر ، والتنوين فى (عذابٌ اركض) والضمير فى (بينهم) لهم ولأوليائهم . والمعنى : أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكةً وعيسى الجنة ، ويدخلهم النار مع الحجارة التى نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم . واختلافهم : أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون ، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم ، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى . وقيل : كان المسلمون إذا قالوا لهم : من خلق السموات والأرض ، أقروا وقالوا : الله ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام ؟ قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ؛ فالضمير فى (بينهم) عائد إليهم وإلى المسلمين . والمعنى : أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين . والمراد بمنع الهداية : منع اللطف تسجيلا عليهم بأن لا لطف لهم ، وأنهم فى علم الله من الهالكين[1] . وقرئ : كذاب وكذوب . وكذبهم : قولهم فى بعض من اتخذوا من دون الله أولياء : بنات الله ، ولذلك عقبه محتجا عليهم بقوله ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما

(١) قال محمود : « والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلا عليهم بأن لا يلطف بهم ، وأنه فى علمه من الهالكين » قال أحمد : مذهب أهل السنة حمل هذه الآية وأمثالها على الظاهر ، فان معتقدهم أن معنى هداية الله تعالى للمؤمن خلق الهدى فيه ، ومعنى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له ، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق الله تعالى للكافر لطفاً يؤمن عنده طائعاً ، خلافا للقدرية . وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره .

بخلق مايشاء﴾ يعنى : لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح ، لكونه محالا ؛ ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم ، كما يختص الرجل ولده ويقربه . وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم ، فزعمتم أنهم أولاده ، جهلا منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض ، كأنه قال : لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على مافعل من اصطفاء مايشاء من خلقه وهم الملائكة ، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا ، ثم تماديتم فى جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات ، فكنتم كذابين كفارين متبالغين فى الافتراء[1] على الله وملائكته ، غالبين[2] فى الكفر ، ثم قال ﴿سبحانه﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد مانسبوا إليه من الأولاد والأولياء . ودلّ على ذلك بما ينافيه ، وهو أنه واحد ، فلا يجوز أن يكون له صاحبة ؛ لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له : وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد ، وهو معنى قوله (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) . وقهار غلاب لكل شىء ، ومن الأشياء آلهتهم ، فهو يغلبهم ، فكيف يكونون له أولياء وشركاء ؟

خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)

ثم دلّ بخلق السموات والأرض ، وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر ، وتسخير النيرين ، وجريهما لأجل مسمى ، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة ، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك ، قهار لا يغالب . والتكوير : اللف واللىّ ، يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها . وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس . ومنه قول ذى الرمة فى وصف السراب :

تَلْوِى الثَّنَايَا بِأَحْقِيهَا حَوَاشِيهُ   لَىَّ الْمُلَاءِ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيجِ [3]

---

(١) قوله «متبالغين فى الافتراء» لعله : مبالغين . (ع)

(٢) قوله «غالبين فى الكفر» لعله : غالين . (ع)

(٣)
وراكد الشمس أجاج نصب له   قواضب القوم بالمهرية العوج
إذا تنازع حالا مجهل قذف   أطراف مطره بالخز منسوج
تلوى الثنايا بحقويها حواشيه   لى الملاء بأبواب التفاريج
كأنه والرهاة الموت يركضه   أعراف أزهر تحت الريح منتوج

لذى الرمة يصف السراب . وراكد الشمس : مايتساقط منها على الأرض . والأجاج : صفة مبالغة ، أى : كثير الأجيج ، يقال : أجت النار أجيجا : اشتعلت ، والحر : اشتد . وأج الظليم أجا : أسرع وله حفيف . وأج الأمر : اختلط . والأج : طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام . ويرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير ، فيجوز =

ومنها أنّ كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه فى تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ماغيبه عن مطامح الأبصار . ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿ألا هو العزيز﴾ الغالب القادر على عقاب المصرين ﴿الغفار﴾ لذنوب التائبين [١] . أو الغالب الذى يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى ، فسمى الحلم عنهم : مغفرة .

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦)

فإن قلت : ماوجه قوله ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وما يعطيه من معنى التراخى ؟ قلت : هما آيتان [٢] من جملة الآيات التى عددها دالا على وحدانيته وقدرته : تشعيب هذا الخلق الفائت

= أنه من الأولين . ويجوز أنه منسوب للأخير ، لأنه يشبهه ، واللام للتوقيت . والقواضب : السيوف القواطع . والمهرية : الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبى قبيلة من اليمن ، خيلها أنجب الخيل . والعوج : جمع عوجاء نوع جيد منها أيضاً . والحالان : ارتفاع الأرض وانخفاضها . والمجهل : الموضع الذى يجهله المسافر . والقذف ـ كسبب ـ : الذى يقذف مافيه فلا أحد فيه . والمطرد : السراب المستوى ، شبه بالخز المنسوج فى الاستواء والبياض . والثنايا : العقبات . والحقو : الخصر والإزار ، وشده عليه استعارة لجانب العقبة ، وحواشى السراب : جوانبه . والملاء بالضم والمد : اسم جمع ملاءة وهى الجلباب . والتفراج : الباب الصغير والثوب من الديباج . والرهاة ـ جمع رهو ـ : المكان المرتفع ، ويطلق على المنخفض أيضاً . وقيل : اسم موضع . والموت : القفر . والركض : ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقاً ، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية . والأعراف : جمع عرف . وعرف الديك والفرس : أعلى شعر العنق وأعرف البحر والسيل : إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف ، والأزهر : السحاب الأبيض والماء الأبيض ، وهو الأنسب بكونه تحت الريح ، لأن ظاهر الأول يخالف قوله تعالى (أقلت سحابا) والمنتوج : الذى تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر ، يقول : ورب راكد من الشمس ، يعنى السراب شديد الحر أو السير ، نصبت مستقبلا لوقته سيوف قوى مع الخيل الجياد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض القفرة أطراف الآل وهو السراب ، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه فى جوانب العقبة بلى الجلباب فى أبواب التفاريج ، وتلوى : يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرد وجوابها ، دل عليه ماقبلها وأسند اللى للثنايا لأنها سبب الالتواء ، ولى الملا : مفعول مطلق ، وأعراف : خبر كأنه ، والرهاة : جملة حالية ، وفاعل يركض إما ضمير الآل ، أو ضمير الرهاة ، لأنهما كأنهما يتضاربان . وروى : تطرده ، وفاعله ضمير الرهاة جزما ، لأن الآل هو المطرود ، وبيت الكشاف : يلوى الثنايا بأحقيها . والحقو : جمعه أحق ، وأصل وزنه : أفعل .

(١) قال محمود : «أى لذنوب التائبين» قال أحمد : الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصرين على مادون الشرك وقنوطهم من رحمة الله تعالى . ولقد قيد الزمخشرى الآية بما ترى .

(٢) قال محمود : «فان قلت : ماوجه العطف بثم فى قوله (ثم جعل) وأجاب بأنهما آيتان . . . الخ» قال أحمد إنما منعه من حل ثم على التراخى فى الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم ، وخلق حواء منه ، وهو متقدم =

للحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قصيراه ؛ إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة ، والأخرى لم تجربها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل فى كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخى فى الحال والمنزلة ، لا من التراخى فى الوجود . وقيل : ثم متعلق بمعنى واحدة ، كأنه قيل : خلقكم من نفس وحدت ، ثم شفعها الله بزوج . وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ، ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وأنزل لكم﴾ وقضى لكم وقسم ؛ لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول [١] من السماء ، حيث كتب فى اللوح : كل كائن يكون . وقيل : لا تعيش الأنعام إلا بالنبات . والنبات لا يقوم إلا بالماء . وقد أنزل الماء ، فكأنه أنزلها . وقيل : خلقها فى الجنة ثم أنزلها . ﴿ثمانية أزواج﴾ ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز . والزوج : اسم لواحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد ووتر . قال الله تعالى : (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) . ﴿خلقا من بعد خلق﴾ حيوانا سويا ، من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ ، من بعد علق ، من بعد نطف . والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة . وقيل : الصلب والرحم والبطن ﴿ذلكم﴾ الذى هذه أفعاله هو ﴿الله ربكم ... ... فأنى تصرفون﴾ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)

﴿فإنّ الله غنى عنكم﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه ، لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ رحمة لهم ؛ لأنه يوقعهم فى الهلكة ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أى يرض الشكر لكم ، لأنه سبب فوزكم وفلاحكم ؛ فإذن ما كره كفركم ولا رضى شكركم

ـــ على الذرية فضلا عن كونه متراخيا عن خلق الذرية ، فلم يستقم حملها على تراخى الوجود لما جعلها فى الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة ، على تقدير : خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، يعنى : شفعها بزوجها ، فكانت ههنا على بابها لتراخى الوجود ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) قال محمود : «إنما جعلها منزلة لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول ... الخ» قال أحمد : ومن هذا النمط بعينه قول الراجز : « أسنمة الآبال فى سحابة » .

إلا لكم ولصلاحكم[١] ، لا لأنّ منفعة ترجع إليه ؛ لأنه الغنى الذى لايجوز عليه الحاجة . ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى[٢] مانفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال : هذامن العام الذى أريد به الخاص ، وما أراد إلاعباده الذين عناهم فى قوله (إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان) يريد المعصومين ، كقوله تعالى (عينا يشرب بها عباد الله) ، تعالى الله عما يقول الظالمون وقرئ (يرضه) بضم الهاء بوصل وبغير وصل ، وبسكونها (خوله) أعطاه . قال أبو النجم :

أعطى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ كُومَ الذُّرَى مِنْ خَوَلِ الْمُخَوِّلِ[٣]

وفى حقيقته وجهان ، أحدهما : جعله خائل مال ، من قولهم : هو خائل مال ، وخال مال : إذا كان متعهداً له حسن القيام به . ومنه : ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان

(١) «حمل الزمخشرى الرضا على الارادة ، والعباد على العموم ... الخ» قال أحمد : إن المصر على هذا المعتقد على قلبه رين ، أوفى ميزان عقله غين ، أليس يدعى أويدعى له أنه الخريت فى مغاثر العبارات ، وبديع الزمان فى صناعة البديع ، فكيف نبا عن جادة الاجادة فهما ، وأعار منادى الحذاقة أذنا صما ، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقا ، وغطى سنى مكشوف العبارة فسحقا سحقا . أليس مقتضى العربية فضلا عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط ، لايتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلا ، ولامضيه واستقبال الشرط لغة وعقلا ، واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيعة البدعة : أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلا مقدمة على وجود الشكر منهم ، فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الارادة ، وقد جعل فى الآية مشروطا وجزاء ، وجعل وقوع الشكر شرطا ومجزيا ، واللازم من ذلك عقلا : تقدم المراد وهو الشكر ، على الارادة وهى الرضا ، ولغة : تقدم المشروط على الشرط . والزمخشرى أخص من قال : إن المشروط متى كان ماضياً محضا لزمته الفاء وقد ، كقولك : إن تكرمنى فقد أكرمتك قبل ، وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين ، على أنه لابد من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك فاذا ثبت بطلان حمل الرضا على الارادة عقلا ونقلا ، تعين التماس المحمل الصحيح له ، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة ، فيكون معنى الآية ـ والله أعلم ـ : وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه ، ولاشك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر ، فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة ، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الارادة عقلا ، ومثل هذا يقدر فى قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) أى لايجازى غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة .

(٢) قوله «ليثبت لله تعالى ... الخ» إنما يتم لو كان الرضاء بمعنى الارادة ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : هو غيرها ، فكفر الكافر مراد غير مرضى ، وعند المعتزلة : غير مراد ولامرضى . (ع)

(٣) الحمد لله الوهوب المجزل أعطى فلم يبخل ولم يبخل
كوم الذرى من خول المخول

الوهوب : الوهاب . والمجزل : المكثر العطاء ، وبينه بقوله : أعطى السائلين فلم يبخل عليهم ، ولم يبخل : مشدد مبنى للمجهول ، أى : لم يتهم بالبخل . وقيل : هو توكيد . ويروى بناؤه للفاعل ، أى لم يجعل من أعطاهم بخلاء ، بل جعلهم كرماء . وكوم الذرى : نصب بأعطى ، أى : نوقا عظيمات السنام . والكوم : جمع كوماء . والذرى : جمع ذروة . والمخول بالتشديد المعطى ، وهو الله عز وجل .

يتخول أصحابه بالموعظة(١) والثانى : جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر، وفى معناه قول العرب :

* إِنَّ الْغَنِيَّ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَيَّاسُ *

****

وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)

﴿ما كان يدعوا إليه﴾ أى نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه . وقيل : نسى ربه الذى كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من ، كقوله تعالى (وما خلق الذكر والأنثى) وقرئ : ليضل ، بفتح الياء وضمها ، بمعنى أن نتيجة جعله لله أندادا ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله . والنتيجة : قد تكون غرضا فى الفعل ، وقد تكون غير غرض . وقوله ﴿تمتع بكفرك﴾ من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قيل له : إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك ، وتؤمر بتركه : مبالغة فى خذلانه وتخليته وشأنه . لأنه لا مبالغة فى الخذلان ؛ لأن أشد من أن يبعث على عكس ما أمر به . ونظيره فى المعنى قوله (متاع قليل ثم مأواهم جهنم) .

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (٩)

قرئ . أمن هو قانت بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من ، وبالتشديد على إدخال «أم» عليه . ومن مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : أمن هو قانت كغيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه ، وهو جرى ذكر الكافر قبله . وقوله بعده (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقيل : معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر . أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل . والقانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل الصلاة طول القنوت»(٢) وهو القيام فيها . ومنه القنوت فى الوتر ؛ لأنه دعاء المصلى

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود وأتم منه .

(٢) أخرجه مسلم من طريق أبى الزبير عن جابر . ورواه الطحاوى من هذا الوجه بلفظ «طول القيام» وكذا هو فى حديث عبدالله بن جعفر بلفظ «سئل أى الصلاة أفضل ؟ قال : طول القيام» .

قائما ﴿ساجداً﴾ حال. وقرئ: ساجد وقائم، على أنه خبر بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. وقرئ: ويحذر عذاب الآخرة. وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أى: كما لا يستوى العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوى القانتون والعاصون. وقيل نزلت فى عمار بن ياسر رضى الله عنه وأبى حذيفة بن المغيرة المخزومى. وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى فى المعاصى ويرجو [1]، فقال: هذا تمنّ، وإنما الرجاء قوله. وتلا هذه الآية. وقرئ: إنما يذكر، بالإدغام.

قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

﴿فى هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة، معناه: الذين أحسنوا فى هذه الدنيا فلهم حسنة فى الآخرة. وهى دخول الجنة، أى: حسنة غير مكتنهة بالوصف. وقد علقه السدى بحسنة، ففسر الحسنة بالصحة والعافية. فإن قلت: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر، فما معنى تعليقه بحسنة؟ ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه. قلت: هو صفة لها إذا تأخر، فإذا تقدم كان بيانا لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق، وإن لم يكن التعلق وصفا ومعنى ﴿وأرض الله واسعة﴾ أن لا عذر للمفرطين فى الإحسان البتة؛ حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز، وتحولوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم. وقيل: هو الذين كانوا فى بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه، كقوله تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقيل: هى أرض الجنة. و﴿الصابرون﴾ الذين صبروا على مفارقة

---

(١) قال محمود: «مثل الحسن عمن يتمادى على المعاصى ويرجو ... الخ» قال أحمد: كلام الحسن رضى الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشرى بقرينة حاله، فان الحسن أراد أن المتمادى على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنياً، لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاؤه، ولم يرد الحسن إقناط هذا من رحمة الله تعالى وحاشاه، وأما قرينة حال الزمخشرى فانها تم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة، فان معتقده أن مثل هذا العاصى وإن كان موحداً يجب خلوده فى نار جهنم، ولا معنى لرجائه، ولتتميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالتزام إلى تتميم هذه النزعة، وعما قليل يقرع سمعه ما فى أنباء هذه السورة.

أوطانهم وعشائرهم ، وعلى غيرها . من تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله وازدياد الخير ﴿ بغير حساب ﴾ لا يحاسبون عليه . وقيل : بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفا ، وهو تمثيل للتكثير . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين . ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً ، قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل »[1] .

قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥)

﴿ قل إنى أمرت ﴾ بإخلاص الدين ﴿ وأمرت ﴾ بذلك لأجل ﴿ أن أكون أول المسلمين ﴾ أى مقدمهم وسابقهم فى الدنيا والآخرة . والمعنى : أن الإخلاص له السبقة فى الدين ، فمن أخلص كان سابقاً . فإن قلت : كيف عطف (أمرت) على (أمرت) وهما واحد[2] ؟ قلت : ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما ، وذلك أن الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء ، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق فى الدين شيء ، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه ، من حديث أنس رضى الله عنه . وإسناده ضعيف جداً . وأورده أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني . وهو فى معجمه باسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله عنهما مختصراً .

(٢) قال محمود : «فان قلت : كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد ، وأجاب بأنه ليس بتكرير ... الخ» قال أحمد : ولقد أحسن فى تقوية هذا المعنى فى هذه الآية بقوله (فاعبدوا ماشئتم من) دونه فان مقابلته بعدم الحصر توجب كونه للحصر ، والله أعلم . وما أحسن ما بين وجوه المبالغة فى وصف الله تعالى لفظاعة خسرانهم فقال : استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدإ والخبر ، وعرف الخسران ونعته بالمبين ، وبين فى تسمية الشيطان طاغوتا وجوها ثلاثة من المبالغة ، أحدها : تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان . الثانى : بناؤه على فعلوت وهى صيغة مبالغة كالرحموت ، وهى الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه . الثالث : تقديم لامه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية .

ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها فى أردت لأن أفعل ، ولاتزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح ،كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى مايقوم مقامه ،كما عوّض السين فى اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذى هو اطوع ، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام فى قوله (وأمرت أن أكون من المسلمين) (وأمرت أن أكون من المؤمنين) ، (وأمرت أن أكون أوّل من أسلم) وفى معناه أوجه : أن أكون أوّل من أسلم فى زمانى ومن قومى ، لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها . وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما . وأن أكون أول من دعا نفسه إلى مادعا إليه غيره ، لأكون مقتدى بى فى قولى وفعلى جميعا ، ولا تكون صفتى صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ماأستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعنى : أن الله أمرنى أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب ، بدليل العقل والوحى. فإن عصيت ربى بمخالفة الدليلين ، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم ، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه . فإن قلت : مامعنى التكرير فى قوله (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين) وقوله ﴿قل الله أعبد مخلصاً له دينى﴾ قلت : ليس بتكرير ؛ لأنّ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص . والثانى : إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره فى الأوّل فالكلام أوّلا واقع فى الفعل نفسه وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله ، ولذلك رتب عليه قوله ﴿فاعبدوا ماشئتم من دونه﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير : المبالغة فى الخذلان والتخلية ، على ماحققت فيه القول مرتين . قل إنّ الكاملين فى الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه : هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ لوقوعها فى هلكة لاهلكة بعدها ﴿و﴾ خسروا ﴿أهليهم﴾ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده إليهم . وقيل : وخسروهم [1] لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل فى الجنة ، يعنى : وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة فى قوله ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر ، وعرف الخسران ونعته بالمبين .

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَـٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)

(١) قوله «وخسروهم» لعله «خسروهم» بدون واو . (ع)

﴿ومن تحتهم﴾ أطباق من النار هى ﴿ظلل﴾ لآخرين ﴿ذلك﴾ العذاب هو الذى يتوعد الله ﴿به عباده﴾ ويخوفهم، ليجتنبوا مايوقعهم فيه ﴿ياعباد فاتقون﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة. وقرئ: ياعبادى.

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّـٰغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ (١٨)

﴿الطاغوت﴾ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين، أطلقت على الشيطان أو الشياطين، لكونها مصدراً وفيها مبالغات، وهى التسمية بالمصدر، كأن عين الشيطان طغيان، وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب وهو للاختصاص، إذ لاتطلق على غير الشيطان، والمراد بها ههنا الجمع. وقرئ: الطواغيت ﴿أن يعبدوها﴾ بدل من الطاغوت بدل الاشتمال ﴿لهم البشرى﴾ هى البشارة بالثواب، كقوله تعالى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الاخرة) الله عزّ وجل يبشرهم بذلك فى وحيه على ألسنة رسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون. قال الله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات) وأراد بعباده ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ الذين اجتنبوا وأنابوا لاغيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وأراد أن يكونوا نقاداً فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فاذا اعترضهم أمران: واجب وندب، اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حرّاصا على ماهو أقرب عند الله وأكثر ثوابا، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر[1]، وأبينها دليلا أو أمارة، وأن لاتكون فى مذهبك، كما قال القائل:

* وَلَا تَكُنْ مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا * [2]

---

(١) قال محمود: «ويدخل تحت هذا المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر ... الخ» قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكنا من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

(٢) شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

للزمخشرى. تشمير الثياب عن الساعد: كناية عن ترك الكسل، ثم قال: واجتهد فى أحكام الدين ولا تقلد غيرك، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهه. ويحتمل أن المعنى: اجتهد فى العمل ولا تطع الشيطان.

يريد المقلد ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن . وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها ، نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء ، والإبداء والإخفاء لقوله تعالى (وأن تعفوا أقرب للتقوى) ، (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهوخير لكم) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو ، فيحدّث بأحسن ماسمع ويكف عما سواه . ومن الوقفة من يقف على : فبشر عبادى ، ويبتدئ : الذين يستمعون ، يرفعه على الابتداء ، وخبره ﴿أولئك﴾ .

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾

أصل الكلام : أمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ، ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هى الأولى ، كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع (من فى النار) موضع الضمير ، فالآية على هذا جملة واحدة . ووجه آخر : وهو أن تكون الآية جملتين : أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه ؟ أفأنت تنقذ من فى النار ؟ وإنما جاز حذف : فأنت تخلصه ؛ لأن (أفأنت تنقذ) يدل عليه : نزل استحقاقهم العذاب وهم فى الدنيا منزلة دخولهم النار ، حتى نزل اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكدّه نفسه فى دعائهم إلى الإيمان : منزلة إنقاذهم من النار . وقوله (أفأنت تنقذ) يفيد أنّ الله تعالى هو الذى يقدر على الإنقاذ من النار وحده ، لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل فى النار من النار ، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه .

لَـٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

﴿غرف من فوقها غرف﴾ علالى بعضها فوق بعض . فإن قلت : مامعنى قوله ﴿مبنية﴾ ؟ قلت : معناه ـ والله أعلم ـ : أنها بنيت بناء المنازل التى على الأرض وسوّيت تسويتها ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾ كما تجرى من تحت المنازل ، من غير تفاوت بين العلو والسفل ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد ؛ لأنّ قوله لهم غرف فى معنى ؛ وعدهم الله ذلك .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَـٰبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَـٰمًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾

﴿أنزل من السماء ماء﴾ هو المطر . وقيل : كل ماء فى الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ، ثم يقسمه الله ﴿فسلكه﴾ فأدخله ونظمه ﴿ينابيع فى الأرض﴾ عيوناً ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجساد ﴿مختلفاً ألوانه﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، وأصنافه من بر وشعير وسمسم وغيرها ﴿يهيج﴾ يتم جفافه ، عن الأصمعى ؛ لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿حطاما﴾ فتاتا ودرينا[1] ﴿إن فى ذلك لذكرى﴾ لتذكيراً وتنبيها ، على أنه لابد من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال . ويجوز أن يكون مثلا للدنيا ، كقوله تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا) ، (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا) . وقرئ : مصفارا .

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾

(أفمن) عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسى القلب ، ونور الله : هو لطفه ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقيل يا رسول الله : كيف انشراح الصدر ؟ قال « إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح »[2] فقيل : يارسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال « الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت » وهو نظير قوله : (أمن هو قانت) فى حذف الخبر ﴿من ذكر الله﴾ من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله تعالى (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) وقرئ : عن ذكر الله . فإن قلت : ما الفرق بين من وعن فى هذا ؟ (قلت) : إذا قلت : قسا قلبه من ذكر الله ؛ فالمعنى ماذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه ، وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاه من العيمة ، أى من أجل عطشه . وسقاه عن العيمة : إذا أرواه حتى أبعده عن العطش .

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

(١) قوله «فتاتا ودرينا» فى الصحاح «الدرين» : حطام المرعى إذا قدم ، وهو مابلى من الحشيش . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى والحاكم والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود . وفيه أبو فروة الرهاوى فيه كلام . ورواه الترمذى الحكيم فى النوادر فى الأصل السادس والثمانين . وفى إسناده إبراهيم بن (*) وهو ضعيف .

(*) بياض بالأصل .

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

عن ابن مسعود رضى الله عنه : أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة ، فقالوا له : حدثنا فنزلت ، وايقاع اسم الله مبتدأ وبناء (نزّل) عليه : فيه تفخيم لأحسن الحديث ، ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده ، وأن مثله لايجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث . و ﴿ كتابا ﴾ بدل من أحسن الحديث . ويحتمل أن يكون حالا منه ﴿ ومتشابها ﴾ مطلق فى مشابهة بعضه بعضا ، فكان متناولا لتشابه معانيه فى الصحة والإحكام ، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ، وتناسب ألفاظه وتناصفها فى التخير والإصابة ، وتجاوب نظمه وتأليفه فى الإعجاز والتبكيت ، ويجوز أن يكون ﴿ مثانى ﴾ بيانا لكونه متشابها ؛ لأن القصص المكررة لاتكون إلا متشابهة . والمثانى جمع مثنى بمعنى مردّد ومكرّر . ولما ثنى من قصصه وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه . وقيل : لأنه يثنى فى التلاوة ، فلا يمل كما جاء فى وصفه لا يتفه ولا يتشان[1] ولايخلق على كثرة الرّد . ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل ، من التثنية بمعنى التكرير . والإعادة كما كان قوله تعالى (ثم ارجع البصر كرّتين) بمعنى كرّة بعد كرّة ، وكذلك : لبيك وسعديك ، وحنانيك . فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع ؟ قلت : إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هى جملته لاغير . ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس ، وسور وآيات ، وكذلك تقول : أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك : الإنسان عظام وعروق وأعصاب . إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة ؛ وأصله : كتابا متشابها فصولا مثانى . ويجوز أن يكون كقولك : برمة أعشار ، وثوب أخلاق . ويجوز أن لا يكون مثانى صفة ، ويكون منتصبا على التميز من متشابها ، كما تقول : رأيت رجلا حسنا شمائل ، والمعنى : متشابهة مثانيه . فإن قلت : مافائدة التثنية والتكرير ؟ قلت ، النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فالم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ،[2] ليركزه فى قلوبهم

(١) قوله « لا يتفه ولا يتشان » فى الصحاح « التافه » : الحقير اليسير : وفيه تشانت القربة : أخلقت ، وتشان الجلد : يبس وتشنج . (ع)

(٢) لم أجده . وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه « كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ـ الحديث » وزاد أحمد « وكان يستأذن ثلاثا » .

ويغرسه فى صدورهم. اقشعر الجلد: إذا تقبض تقبضا شديدا، وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس، مضموما إليها حرف رابع وهو الراء، ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد. يقال: اقشعر جلده من الخوف وقف شعره، [1] وهو مثل فى شدة الخوف، فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل، تصويراً لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق. والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده: أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة: لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. فإن قلت: ما وجه تعدية «لان» بإلى؟ قلت: ضمن معنى فعل متعد بإلى، كأنه قيل: سكنت. أو اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير متقبضة، راجية غير خاشية. فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؟ قلت: لأن أصل أمره الرحمة والرأفة، ورحمته هى سابقة غضبه. فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شىء من صفاته إلا كونه رؤفا رحيما. فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أولا، ثم قرنت بها القلوب ثانيا؟ قلت: إذا ذكرت الخشية التى محلها القلوب، فقد ذكرت القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد، وتخشى قلوبهم فى أول وهلة، فاذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة: استبدلوا بالخشية رجاء فى قلوبهم، وبالقشعريرة لينا فى جلودهم ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الكتاب، وهو ﴿هدى الله يهدى به﴾ يوفق به من يشاء، يعنى: عباده المتقين، حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء، كما قال: هدى للمتقين ﴿ومن يضلل الله﴾ ومن يخذله من الفساق [2] والفجرة ﴿فما له من هاد﴾ أو ذلك السكائن من الخشية والرجاء هدى الله، أى: أثر هداه وهو لطفه، فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى (يهدى به) بهذا الأثر من يشاء من عباده، يعنى: من صحب أولئك ورآهم خاشين راجين، فكان ذلك مرغبا لهم فى الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم (ومن يضلل الله): ومن لم يؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره، (فما له من هاد) من مؤثر فيه بشىء قط.

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)

---

(١) قوله «وقف شعره» أى: قام من الفزع، كذا فى الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ومن يخذله من الفساق» تأويل الضلال بذلك مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: أنه يخلقه كالخير، فالاضلال: خلق الضلال فى القلب. (ع)

يقال : اتقاه بدرقته : استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده. وتقديره : ﴿أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب﴾ كمن أمن العذاب . فحذف الخبر كما حذف فى نظائره(١). وسوء العذاب : شدّته . ومعناه : أن الإنسان إذا لقى مخوفا من المخاوف استقبله بيده ، وطلب أن يقى بها وجهه، لأنه أعز أعضائه عليه والذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه الذى كان يتقى المخاوف بغيره . وقاية له ومحاماة عليه . وقيل : المراد بالوجه الجملة ، وقيل : نزلت فى أبى جهل . وقال لهم خزنة النار ﴿ذوقوا﴾ وبال ﴿ما كنتم تكسبون ...... من حيث لا يشعرون﴾ من الجهة التى لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم . والخزى : الذل والصغار ، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ، وما أشبه ذلك من نكال الله .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧)
قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)

﴿قرآنا عربيا﴾ حال مؤكدة كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا وإنسانا عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح ﴿غير ذى عوج﴾ مستقيما بريئاً من التناقض والاختلاف . فإن قلت : فهلا قيل : مستقيما : أو غير معوج ؟ قلت : فيه فائدتان ، إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : (ولم يجعل له عوجا) والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الأعيان . وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس . وأنشد :

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِنَ الإِلٰهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ(٢)

*****

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)

واضرب لقومك مثلا ، وقل لهم : ما تقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم

---

(١) قال محمود : «معناه كمن هو آمن ، فحذف الخبر أسوة أمثاله ... الخ» قال أحمد : الملقى فى النار والعياذ بالله ، لم يقصد الاتقاء بوجهه ، ولكنه لم يجد مايتقى به النار غير وجهه ، ولو وجد لفعل ، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقى بوجهه ، فعبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلى ، والله أعلم .

(٢) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد باليقين والقول : القرآن . أو اليقين : الأسرار ، والقول : القرآن . أو اليقين : القرآن ، والقول : ماعداه من الأوامر والنواهى ، و «من الإله» متعلق بأتاك . والمعنى : أن ذاك من الشك واللبس ، ومن الكذب ؛ فالعوج : استعارة تصريحية .

اختلاف وتنازع: كل واحد منهم يدعى أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهن شتى ومشاده، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير فى أمره سادر، [1] قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته. وفى آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له، فهو معتنق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع، أىّ هذين العبدين أحسن حالا وأجمل شأنا؟ والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا فى ذلك ويتغالبوا، كما قال تعالى (ولعلا بعضهم على بعض) ويبقى هو متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع، [2] وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه فى عاجله، مؤمل للثواب فى آجله. و﴿فيه﴾ صلة شركاء، كما تقول: اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخس: الاختلاف، تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسنانه ﴿سالما لرجل﴾ خالصا. وقرئ: سلما، بفتح الفاء والعين، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين، وهى مصادر سلم. والمعنى: ذا سلامة لرجل، أى: ذا خلوص له من الشركة، من قولهم: سلمت له الضيعة. وقرئ بالرفع على الابتداء، أى: وهناك رجل سالم لرجل، وإنما جعله رجلا ليكون أفطن لما شقى به أو سعد، فإن المرأة والصبى قد يغفلان عن ذلك ﴿هل يستويان مثلا﴾ هل يستويان: صفة على التميز. والمعنى: هل يستوى صفتاهما وحالاهما، وإنما اقتصر فى التميز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: مثلين، كقوله تعالى (وأكثر أموالا وأولادا) مع قوله (أشدّ منهم قوة) ويجوز فيمن قرأ: مثلين، أن يكون الضمير فى (يستويان) للمثلين، لأن التقدير: مثل رجل ومثل رجل. والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿الحمد لله﴾ الواحد الذى لا شريك له دون كل معبود سواه، أى: يجب أن يكون الحمد متوجها إليه وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون به غيره.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَـٰفِرِينَ (٣٢)

(١) قوله «فى أمره سادر» فى الصحاح «السادر»: المتحير. (ع)

(٢) قوله «فهمه شعاع ... الخ» بالفتح أى متفرق. وقولهم: بها أوزاع من الناس، أى: جماعات كذا فى الصحاح. (ع)

كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته ، فأخبر أن الموت يعمهم ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الباقي بالفاني . وعن قتادة : نعى إلى نبيه نفسه ، ونعى إليكم أنفسكم : [١] وقرئ : مائت ومائتون . [٢] والفرق بين الميت والمائت : أن الميت صفة لازمة كالسيد . وأما المائت ، فصفة حادثة . تقول : زيد مائت غدا ، كما تقول : سائد غدا ، أي سيموت وسيسود . وإذا قلت : زيد ميت ، فكما تقول : حي في نقيضه ، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت . والمعنى في قوله ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى ؛ لأن ماهو كائن فكأن قد كان ﴿ثم إنكم﴾ ثم إنك وإياهم ، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تختصمون﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا ، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ، ويعتذرون بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، وتقول السادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون ؛ وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضا ، حتى يقال لهم : لا تختصموا لدىّ ؛ والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج ، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام . قال عبدالله بن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب ؟ قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد ؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا [٣] وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد ، فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا [٤] . وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة : ماخصومتنا ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان رضى الله عنه قالوا : هذه خصومتنا [٥] . وعن أبي العالية : نزلت في أهل القبلة . والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولا . ألا ترى إلى قوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) وقوله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به) وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة ﴿كذب على الله﴾ افترى عليه بإضافة

---

(١) قوله «ونعى إليكم أنفسكم» لعله : إليهم أنفسهم . (ع)

(٢) قال محمود : «قرئ : إنك ميت ومائت ... الخ ، قال أحمد : فاستعمال ميت مجاز ، إذ الخطاب مع الأحياء واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطى اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب . ونظيره قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعني : توفى الموت (والتي لم تمت في منامها) أي يتوفاها حين المنام ، تشبيها للنوم بالموت ، كقوله (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي ، أي : لا يردها في وقتها حية (ويرسل الأخرى) أي النائمة إلى الأجل الذي سماه ، أي قدره لموتها الحقيقي . هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية ، والله أعلم .

(٣) أخرجه الحاكم من رواية القاسم بن عوف عن ابن عمر رضى الله عنهما

(٤) ذكره الثعلبي . قال : وروى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن الخدري .

(٥) أخرجه عبد الرزاق والطبري والثعلبي من رواية عبد الله بن عوف عن إبراهيم بهذا .

الولد والشريك إليه ﴿وكذب بالصدق﴾ بالأمر الذى هو الصدق بعينه ، وهو ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إذ جاءه﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة ، لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل ، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ﴿مثوى للكافرين﴾ أى لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق ، واللام فى (للكافرين) إشارة إليهم .

وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿والذى جاء بالصدق وصدق به﴾ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . جاء بالصدق وآمن به ، وأراد به إياه ومن تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومه فى قوله (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) فلذلك قال ﴿أولئك هم المتقون﴾ إلا أن هذا فى الصفة وذاك فى الاسم . ويجوز أن يريد : والفوج أو الفريق الذى جاء بالصدق وصدق به ، وهم الرسول الذى جاء بالصدق ، وصحابته الذين صدقوا به . وفى قراءة ابن مسعود : والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به . وقرئ : وصدق به . بالتخفيف ، أى : صدق به الناس ولم يكذبهم به ، يعنى : أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف . وقيل : صار صادقا به ، أى : بسببه ؛ لأن القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق ، فيصير لذلك صادقا بالمعجزة ، وقرئ : وصدّق به . فإن قلت : مامعنى إضافة الأسوإ والأحسن إلى الذى عملوا ، ومامعنى التفضيل فيهما ؟ قلت : أما الإضافة فما هى من إضافة أفعل إلى الجملة التى يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشىء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل ، كقولك : الأشج أعدل بنى مروان . وأما التفضيل فإيذان بأن السيئ الذى يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذى يعملونه هو عند الله الأحسن ، لحسن إخلاصهم فيه ؛ فلذلك ذكر سيئهم بالأسوإ وحسنهم بالأحسن . وقرئ : أسواء الذى عملوا جمع سوء .

أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفى ، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها . وقرئ : بكاف عبده ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبكاف عباده وهم الأنبياء ؛ وذلك أن قريشا قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وإنا نخشى عليك معرتها [1] لعيبك إياها . ويروى : أنه بعث خالدا إلى العزى ليكسرها ، فقال له سادنها : أحذركها يا خالد ، إن لها لشدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إليها فهشم أنفها . فقال الله عز وجل : أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء فى مواطن الخوف . وفى هذا تهكم بهم ؛ لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضر . أو أليس الله بكاف أنبياءه ولقد قالت أممهم نحو ذلك ، فكفاهم الله وذلك قول قوم هود (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ويجوز أن يريد : العبد والعباد على الإطلاق ، لأنه كافيهم فى الشدائد وكافل مصالحهم . وقرئ : بكافى عباده ، على الإضافة . ويكافى عباده . ويكافى : يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية ، كقولك : يجازى فى يجزى ، وهو أبلغ من كفى ، لبنائه على لفظ المبالغة . والمباراة : أن يكون مهموزا ، من المكافأة وهى المجازاة ، لما تقدم من قوله (ويجزيهم أجرهم) . ﴿بالذين من دونه﴾ أراد : الأوثان التى اتخذوها آلهة من دونه ﴿بعزيز﴾ بغالب منيع ﴿ذى انتقام﴾ ينتقم من أعدائه ، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم ، وينصرهم عليهم .

وَلَـئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨)

قرئ : كاشفاتٌ ضرَّه ، وممسكاتٌ رحمتَه بالتنوين على الأصل ، وبالإضافة للتخفيف . فإن قلت : لم فرض المسئلة فى نفسه دونهم ؟ قلت : لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم أولا بأن خالق العالم هو الله وحده . ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذى أقررتم به بضرٍّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل . أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما ، هل هؤلاء اللاتى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره أو ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفة قال ﴿حسبى الله﴾ كافيا لمعرة أوثانكم ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ وفيه تهكم . ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سألهم فسكتوا ، فنزل (قل

(١) قوله «معرتها» أى : إثمها . أفاده الصحاح . (ع)

حسبي الله) فإن قلت . لم قيل : كاشفات ، وممسكات ، على التأنيث بعد قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) ؟ قلت : أنثهن وكن إناثا وهن اللات والعزى ومناة . قال الله تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى) ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة ، لأنّ الأنوثة من باب اللين والرخاوة ، كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة ، كأنه قال : الإناث اللاتى هنّ اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز . وفيه تهكم أيضا .

قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿على مكانتكم﴾ على حالكم التى أنتم عليها وجهتكم من العداوة التى تمكنتم منها . والمكانة بمعنى المكان ، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا . وحيث للزمان ، وهما للمكان . فإن قلت : حق الكلام : فإنى عامل على مكانتى . فلم حذف ؟ قلت : للاختصار ، ولما فيه من زيادة الوعيد ، والإيذان بأنّ حاله لا تقف ، وتزداد كل يوم قوة وشدّة ، لأنّ الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله . ألا ترى إلى قوله ﴿فسوف تعلمون من يأتيه﴾ كيف توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم إذا أتاهم الخزى والعذاب فذاك عزه وغلبته ، من حيث أن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه ، وبذل ذليل من أعدائه ﴿يخزيه﴾ مثل مقيم فى وقوعه صفة للعذاب ، أى : عذاب مخزٍ له ، وهو يوم بدر ، وعذاب دائم وهو عذاب النار . وقرئ : مكاناتكم .

إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

﴿للناس﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ؛ ليبشروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية . ولا حاجة لى إلى ذلك فأنا الغنى ، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ، ومن اختار الضلالة فقد ضرها . وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى ، فإنّ التكليف مبنى على الاختيار دون الإجبار .

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

﴿الأنفس﴾ الجمل كما هى . وتوفيها : إماتتها ، وهو أن يسلب ماهى به حية حساسة درّاكة: من صحة أجزائها وسلامتها ؛ لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت ﴿والتى لم تمت فى منامها﴾ يريد ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، أى : يتوفاها حين تنام ، تشبيها للنائمين بالموتى . ومنه قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل) حيث لايميزون ولا يتصرفون ، كما أنّ الموتى كذلك ﴿فيمسك﴾ الأنفس ﴿التى قضى عليها الموت﴾ الحقيق ، أى : لا يردّها فى وقتها حية ﴿ويرسل الأخرى﴾ النائمة ﴿إلى أجل مسمى﴾ إلى وقت ضربه لموتها . وقيل : يتوفى الأنفس يستوفيها ويقبضها ، وهى الأنفس التى تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها ، وهى أنفس التميز . قالوا : فالتى تتوفى فى النوم هى نفس التميز لا نفس الحياة ؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس . ورووا عن ابن عباس رضى الله عنهما فى ابن آدم « نفس وروح ، بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتميز والروح التى بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه »[1] والصحيح ماذكرت أوّلا ، لأنّ الله عز وعلا علق التوفى والموت والمنام جميعا بالأنفس ، وماعنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتميز غير متصف بالموت والنوم ، وإنما الجملة هى التى تموت وهى التى تنام ﴿إنّ فى ذلك﴾ إن فى توفى الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه ، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون . وقرئ : قضى عليها الموت ، على البناء للمفعول .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

﴿أم اتخذوا﴾ بل اتخذ قريش ، والهمزة للإنكار ﴿من دون الله﴾ من دون إذنه ﴿شفعاء﴾ حين قالوا : (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ولايشفع عنده أحد إلا بإذنه . ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿قل لله الشفاعة جميعا﴾ أى هو مالكها ، فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين : أن يكون المشفوع له مرتضى ، وأن يكون الشفيع مأذونا له . وههنا الشرطان مفقودان جميعا ﴿أولو كانوا﴾ معناه : أيشفعون ولو كانوا ﴿لا يملكون شيأ ولا يعقلون﴾ أى : ولو كانوا على هذه الصفة لايملكون شيأ قط ، حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم ﴿له ملك السموات والأرض﴾

(١) لم أجده .

تقرير لقوله تعالى (لله الشفاعة جميعا) لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك ، كان مالكا لها . فإن قلت : بم يتصل قوله ﴿ثم إليه ترجعون﴾ ؟ قلت: بما يليه ، معناه : له ملك السموات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة ، فلا يكون الملك فى ذلك اليوم إلا له . فله ملك الدنيا والآخرة .

وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥)

مدار المعنى على قوله وحده ، أى : إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا ، أى : نفروا وانقبضوا ﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا ، لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها . وقيل : إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا ؛ لأن فيه نفياً لآلهتهم . وقيل : أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر آلهتهم حين قرأ (والنجم) عند باب الكعبة ، فسجدوا معه لفرحهم ، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز ؛ إذ كل واحد منهما غاية فى بابه ؛ لأن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل . والاشمئزاز : أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض فى أديم وجهه . فإن قلت : ما العامل فى (إذا ذكر) ؟ قلت : العامل فى إذا المفاجأة ، تقديره وقت ذكر الذين من دونه ، فاجأوا وقت الاستبشار .

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)

بعل[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وبشدة شكيمتهم فى الكفر والعناد ، فقيل له : ادع الله بأسمائه العظمى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى و بينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم . وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ووعيد لهم . وعن الربيع بن خثيم[2] وكان قليل الكلام . أنه أخبر بقتل الحسين ـ رضى الله عنه ، وسخط على قاتله ـ وقالوا : الآن يتكلم ، فما زاد على أن قال : آه أوقد فعلوا ؟ وقرأ هذه الآية . وروى أنه قال على أثره : قتل من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه فى حجره ويضع فاه على فيه .

(١) قوله «بعل رسول الله» فى الصحاح : «بعل الرجل» بالكسر ، أى : دهش . (ع)

(٢) قوله «وعن الربيع بن خثيم» فى النسفى : خيثم . (ع)

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨)

﴿وبدا لهم من الله﴾ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته، وهو نظير قوله تعالى فى الوعد (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه مالم يكن قط فى حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هى سيآت. وعن سفيان الثورى أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها. فأنا أخشى أن يبدو لى من الله مالم أحتسبه ﴿وبدا لهم سيآت ما كسبوا﴾ أى سيآت أعمالهم التى كسبوها. أو سيآت كسبهم، حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله تعالى (أحصاه الله ونسوه) أو أراد بالسيآت: أنواع العذاب التى يجازون بها على ما كسبوا، فسماها سيآت، كما قال (وجزاء سيئة سيئة مثلها). ﴿وحاق بهم﴾ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)

التخويل: مختص بالتفضل. يقال: خولنى، إذا أعطاك على غير جزاء ﴿على علم﴾ أى على علم منى أنى سأعطاه، لما فىّ من فضل واستحقاق. أو على علم من الله بى وباستحقاق[1] أو على علم منى بوجوه الكسب، كما قال قارون (على علم عندى). فإن قلت: لم ذكر الضمير فى (أوتيته) وهو للنعمة؟ قلت: ذهاباً به إلى المعنى؛ لأنّ قوله (نعمة منا) شيئاً من النعم وقسماً منها. ويحتمل أن تكون (ما) فى إنما موصولة لا كافة، فيرجع إليها الضمير. على معنى: أن الذى أوتيته على علم ﴿بل هى فتنة﴾ إنكار لقوله كأنه قال: ماخولناك من النعمة لما تقول،

(١) قال محمود: «معناه على علم من الله بى وباستحقاق ... الخ» قال أحمد: كذلك يقول على قدرى تمنى على الله أن يثيبه فى الآخرة: أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد: لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه، لأنه على نعمة واجبة على الله عز وجل، ولقد صدق الله إذ يقول: وهى فتنة إنما سلم منها أهل السنة؛ إذ يعتقدون أن الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون فى ذلك قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم: لا يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته، فما أحمق من منى نفسه وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

بل هى فتنة ، أى : ابتلاء وامتحان لك ، أتشكر أم تكفر ؟ فإن قلت : كيف ذكر الضمير ثم أنثه ؟ قلت : حملا على المعنى أولا ، وعلى اللفظ آخراً ؛ ولأن الخبر لما كان مؤنثاً أعنى (فتنة) : ساغ تأنيث المبتدإ لأجله لأنه فى معناه ، كقولهم : ماجاءت حاجتك . وقرئ : بل هو فتنة على وفق (إنما أوتيته) . فإن قلت : ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها فى أول السورة بالواو ؟ قلت : السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله (وإذا ذكر الله[1] وحده اشمأزت) على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الآى اعتراض . فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه[2] . قلت : ما فى الاعتراض من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بأمر منه وقوله (أنت تحكم بينهم) ثم ماعقبه من الوعيد العظيم : تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله فى الشدائد دون آلهتهم ، كأنه قيل : قل يارب لا يحكم بينى وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة ، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت . وقوله (ولو أن للذين ظلموا) متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً . أو إياهم خاصة إن عنيتهم به ، كأنه قيل : ولو أن لهؤلاء الظالمين مافى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به . حين أحكم عليهم بسوء العذاب ، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم ، وإلا بقيت محتجبة فى أكمامها . وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وماهى إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو ، كقولك : قام زيد وقعد عمرو . فإن قلت : من أى وجه وقعت مسببة ؟ والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه ، بل هو مقتض لصدوفهم[3] عنه . قلت : فى هذا التسبيب لطف ، وبيانه أنك تقول : زيد مؤمن بالله ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه ، ثم تقول : زيد كافر بالله ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فتجىء بالفاء مجيئك به ثمة ، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه ، مقيم كفره مقام الإيمان ، ومجريه مجراه فى جعله سبباً فى الالتجاء ، فأنت تحكى ما عكس فيه الكافر . ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله ؟

قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ

---

(١) قال محمود : «فان قلت : لم عطفت هذه الآية على التى قبلها بالفاء ، والآية التى قبلها فى أول السورة بالواو ؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله وإذا ذكر الله ... الخ» قال أحمد : كلام جليل فافهمه ، فضلا عن مشبه قليل .

(٢) قوله «المعترض بينه وبينه» لعل قوله «وبينه» مزيد من بعض الناسخين . (ع)

(٣) قوله «لصدوفهم عنه» أى : إعراضهم . أفاده الصحاح . (ع)

مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

الضمير فى ﴿قالها﴾ راجع إلى قوله (إنما أوتيته على علم) لأنها كلمة أو جملة من القول . وقرئ : قد قاله على معنى القول والكلام ، وذلك والذين من قبلهم : هم قارون وقومه ، حيث قال : إنما أوتيته على علم عندى وقومه راضون بها ، فكأنهم قالوها . ويجوز أن يكون فى الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه ﴿من هؤلاء﴾ من مشركى قومك ﴿سيصيبهم﴾ مثل ما أصاب أولئك ، فقتل صناديدهم ببدر ، وحبس عنهم الرزق ، فقحطوا سبع سنين ، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين ، فقيل لهم ﴿أو لم يعلموا﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلا الله عزّ وجلّ .

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

﴿أسرفوا على أنفسهم﴾ جنوا عليها بالإسراف فى المعاصى والغلو فيها ﴿لا تقنطوا﴾ قرئ بفتح النون وكسرها وضمها ﴿إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ يعنى بشرط التوبة ، [١] وقد تكرر ذكر هذا الشرط فى القرآن ، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه ؛ لأنّ القرآن فى حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض . وفى قراءة ابن عباس وابن مسعود : يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ، والمراد بمن يشاء : من تاب ؛ لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله ، لا لملكه وجبروته . وقيل فى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضى الله عنها : يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى . ونظير نفى المبالاة نفى الخوف فى قوله تعالى (ولا يخاف عقباها) وقيل : قال أهل مكة : يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرّم الله لم يغفر له ، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التى حرّم الله فنزلت . وروى أنه أسلم عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ، ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل الله لهم صرفا ولا عدلا أبداً ، فنزلت . فكتب بها عمر رضى الله عنه إليهم ، فأسلموا وهاجروا . وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أحب أنّ لى

---

(١) قوله «يعنى بشرط التوبة» عند التوبة فالعموم شامل للشرك ، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة . ويجوز بالشفاعة وبمجرد الفضل عند أهل السنة (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) كما تقرر فى علم التوحيد ؛ فارجع إليه . (ع)

الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل : يارسول الله ، ومن أشرك ؟ فسكت ساعة ثم قال : «ألا ومن أشرك» [١] ثلاث مرّات .

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩)

﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ وتوبوا إليه ﴿وأسلموا له﴾ وأخلصوا له العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع فى حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لاتحصل بدونه ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مثل قوله (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) . ﴿وأنتم لاتشعرون﴾ أى يفجؤكم وأنتم غافلون ، كأنكم لاتخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهوكم ﴿أن تقول نفس﴾ كراهة أن تقول . فإن قلت : لم نكرت ؟ قلت : لأنّ المراد بها بعض الأنفس ، وهى نفس الكافر . ويجوز أن يراد : نفس متميزة من الانفس : إما بلجاج فى الكفر شديد . أو بعذاب عظيم . ويجوز أن يراد التكسير ، كما قال الأعشى :

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ   أَتَانِى كَرِيمٌ يَنفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا [٢]

---

(١) أخرجه الطبرى والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب فى السابع والأربعين من حديث ثوبان . وفيه ابن لهيعة عن أبى قبيل وهما ضعيفان .

(٢) دعا قومه حولى فجاؤا لنصره   وناديت قوما بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بجوه   أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا

للأعشى وقيل : لأبى عمرو بن العلاء ، يصف قومه بالجبن حتى كأنهم أموات مقبورون ، صارت الأحجار مسناة فوقهم . وسنيت الشيء سهلته ، أى : منعمة مملسة . أو بالية مفتتة . ويجوز أن أصله مسننة ، فقلبت النون الثانية ألفا . وسننت الحجر حددته وملسته . وفى وصف القبور بذلك مبالغة فى وصف قومه بالجبن ، بل هم دون ذلك =

وهو يريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحداً . ونظيره : ربّ بلد قطعت ، ورب بطل قارعت . وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلا التكسير . وقرئ : ياحسرتى ، على الأصل . وياحسرتاى ، على الجمع بين العوض والمعوض منه . والجنب : الجانب ، يقال : أنا فى جنب فلان وجانبه وناحيته ، وفلان لين الجنب والجانب ، ثم قالوا : فرّط فى جنبه وفى جانبه ، يريدون فى حقه . قال سابق البربرى :

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِى جَنْبِ وَامِقٍ ... لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ (١)

وهذا من باب الكناية ، لأنك إذا أثبت الأمر فى مكان الرجل وحيزه ، فقد أثبته فيه . ألا ترى إلى قوله :

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِى قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ (٢)

ومنه قول الناس : لمكانك فعلت كذا ، يريدون : لأجلك . وفى الحديث : «من الشرك الخفىّ أن يصلى الرجل لمكان الرجل» (٣) وكذلك : فعلت هذا من جهتك . فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه : قيل ﴿فرّطت فى جنب الله﴾ على معنى : فرطت فى ذات الله . فإن قلت : فرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها ، فكأنه قيل : فرّطت فى الله . فما معنى فرّطت فى الله ؟ قلت : لا بدّ من تقدير مضاف محذوف ، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر : والمعنى : فرّطت فى طاعة الله

=الأموات ، فرب بقيع : أى موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى ، والمراد مقبرة ، لا بقيع الغرقد بالغين وهو مقبرة المدينة بعينها ، لو هتفت بحوه ، أى : ناديت شجاعهم لجاءنى كريم ينفض رأسه من تراب القبر . أو من الغضب لما نالنى من المكروه ، وليس المراد كريماً واحداً ، بل كرماء كثيرة بمعونة المقام . والحو - بالمهملة - : الشجاع ، وبالمعجمة : العسل ، وبالجيم : ما غلظ وارتفع من الأرض .

(١)
أما تتقين الله فى جنب وامق ... له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بادكاركم ... وكل غريب الدار بالشوق مولع

لجميل بن معمر يستعطف صاحبته بثينة ويتوجع إليها عا نابه فيها ، أى : أما تخافين الله فى جنب وامق ، أى : فى حقه الواجب عليك ، فالجنب : كناية عن ذلك . والوامق : الشديد المحبة ، يعنى نفسه . وحرى : أى ذات حر واحتراق ، وتقطع : أصله تتقطع ، والادكار : أصله الاذتكار ، قلبت تاؤه دالا مهملة ، وأدغمت الذال المعجمة فيها ، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيما . وفى البيت رد العجز على الصدر ، وهو من بديع الكلام .

(٢) لزيادة الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور ، وهو من باب الكناية التى قصد بها النسبة ، يعنى أنه مختص بهذه الصفات لا توجد فى غيره ، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلا .

(٣) أخرجه أحمد وإسحاق والبزار والحاكم والبيهقى . من رواية ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه عن جده قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما . ونحن نتذاكر الدجال . فقال غير الدجال أخوف عليكم : الشرك الخفى : أن يعمل الرجل لمكان الرجل» لفظ الحاكم .

وعبادة الله، وماأشبه ذلك. وفى حرف عبدالله وحفصة: فى ذكر الله. ومافى مافرطت مصدرية مثلها فى (بما رحبت)، ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها، ومحل (وإن كنت) النصب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أى: فرّطت فى حال سخريتى. وروى أنه كان فى بنى إسرائيل عالم ترك علمه وفسق. وأتاه إبليس وقال له: تمتع من الدنيا ثم تب، فأطاعه، وكان له مال فأنفقه فى الفجور، فأتاه ملك الموت فى ألذ ما كان فقال: ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله، ذهب عمرى فى طاعة الشيطان، وأسخطت ربى فندم حين لم ينفعه الندم، فأنزل الله خبره فى القرآن ﴿لو أن الله هدانى﴾ لايخلو: إما أن يريد الهداية[1] بالإلجاء أو بالألطاف أو بالوحى، فالإلجاء خارج عن الحكمة، ولم يكن من أهل الألطاف فيلطف به. وأما الوحى فقد كان، ولكنه عرض ولم يتبعه حتى يهتدى، وإنما يقول هذا تحيرا فى أمره وتعللا بما لا يجدى عليه، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحو ذلك ونحوه (لو هدانا الله لهديناكم) وقوله ﴿بلى قد جاءتك آياتى﴾ ردّ من الله عليه، معناه: بلى قد هديت بالوحى فكذبت به واستكبرت عن قبوله، وآثرت الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى. وقرئ بكسر التاء[2] على مخاطبة النفس. فإن قلت: هلا قرن الجواب بما هو جواب له، وهو قوله (لو أن الله هدانى) ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت: لأنه لايخلو: إما أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن. وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن. وأما الثانى فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط فى الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ماجاء عليه، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب. فإن قلت: كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفى؟ قلت: (لو أنّ الله هدانى) فيه معنى: ماهُديت.

وَيَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿كذبوا على الله﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال[3] عنه، فأضافوا إليه

---

(١) قوله «لايخلو إما أن يريد به الهداية» تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة، ولكن خلق الهداية لايصل إلى حد الالجاء؛ لأنه لايسلب الاختيار عند أهل السنة، كخلق التقوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية، لما أثبتوه للعبد من الكسب فيها وإن كان فاعلها فى الحقيقة هو الله تعالى، كما تقرر فى علم التوحيد. (ع)

(٢) قوله «وقرئ بكسر التاء» لعل من كسرها كسر الكاف أيضا. (ع)

(٣) قال محمود: «يعنى الذين وصفوه تعالى بما لايجوز عليه وهو متعال عنه ... الخ» قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض فى قلبه لادواء له إلا التوفيق الذى حرمه، ولا يعافيه منه إلا الذى قدر عليه هذا الضلال وحتمه، ═══

الولد والشريك ، وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا ، وقالوا :﴿لو شاء الرحمن ماعبدناهم﴾ ، وقالوا (والله أمرنا بها) ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح (١) ، وتجويز أن يخلق خلقا لا لغرض ، ويؤلم

═وسنقيم عليه حد الرد ؛ لأنه قد أبدى صفحته ، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحا ولوينا عن الالتفات إليه كشحا ، وبالله التوفيق فنقول : أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى ، فيرجه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) أما الزمخشري وإخوانه القدرية ، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون : ليس خالق كل شيء ؛ لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له ، فاعتقدوا أنهم نزهوا ، وإنما أشركوا . وأما تعريضه لهم فى أنهم يجوزون أن يخلق خلقا لا لغرض ، فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل ؛ لأنه الفعال لما يشاء . وعند القدرية ليس فعالا لما يشاء ؛ لأن الفعل إما منطو على حكمة ومصلحة ، فيجب عليه أن يفعله عندهم ؛ وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فأين أثر المشيئة إذاً . وأما اعتقاده أن فى تكليف مالا يطاق تظلما لله تعالى ، فاعتقاد باطل ؛ لأن ذلك إنما ثبت لازما لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عبيده ، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقا لهم ، والقاعدة الأولى حق ، ولازم الحق حق ، ولا معنى للظلم إلا التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، والعباد ملك الله تعالى ، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض ، فيقال له : ما قولك أيها الظنين فى إيلام البهائم والأطفال ، ولا أعواض لها ، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدرية إذ يقولون : لابد فى الألم من استحقاق سابق أو عوض . وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية ، فانه اغترار فى اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك ، مع البراءة من اعتقاد الجسمية ، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام : «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لاتضامون فى رؤيته» فهذا النص الذى ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل . وأما قوله إنهم يتسترون بالبلكفة ، فيعني به قولهم «بلا كيف» أجل إنها لستر لاتهتكه يد الباطل البتراء ، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء . وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أندادا باثباتهم معه قدماء ، فنى لاثباتهم صفات الكمال ، كلا والله ، إنما جعل لله أنداداً القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون مايريدون ويشتهون على خلاف مراد ربهم ، حتى قالوا : إن ما شاؤه كان وما شاء الله لا يكون . وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أن لله تعالى علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً وكلاما وحياة ، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع وأى مخلص للقدرى إذا سمع قوله تعالى (وسع ربنا كل شيء علما) إلا اعتقاد أن لله تعالى علماً أو جحد آيات الله وإطفاء نوره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وأما قوله : إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدما ووجها ، فذلك فرية ما فيها مرية ، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة . وإنما أثبت القاضى أبو بكر صفات سمعية وردت فى القرآن : اليدان والعينان والوجه ، ولم يتجاوز فى إثباتها ما وردت عليه فى كتاب الله العزيز ، على أن غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة والنعمة ، والوجه على الذات ؛ وقد مر ذلك فى مواضع من الكتاب ، فقد اتصف فى هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه على حتفه ، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره وكشفه ، وإنما حملنى على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وأهل سنته ، فانه قد أساء عليهم الأدب ، ونسبهم بكذبه إلى الكذب ، والله الموفق .

(١) قوله «قوم يسفهونه بفعل القبائح» يريد بهم أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاصى ، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة ، وإيلام الأطفال لايستوجب عليه عوضا ، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجويز تكليف المحال كما فى علم الأصول ، وجوزوا عليه الرؤية وهى غير مختصة بالأجسام عندهم ، وجوز السلف أن يكون له يد ونحوها ، لكن لا كالأيدى . وأراد بالقدماء صفات المعانى : كالقدرة والارادة ، حيث قال أهل السنة : إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات ، وتحقيق ذلك فى التوحيد والأصول ، فانظره . والبلكفة : قولهم «بلا كيف» . (ع)

لا لعوض ، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق، ويجسمونه بكونه مرئيا معاينا مدركا بالحاسة ، ويثبتون له يداً وقدما وجنبا متسترين بالبلكفة . ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماء ﴿وجوههم مسودة﴾ جملة فى موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب .

وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

قرئ : ينجى وينجى ﴿بمفازتهم﴾ بفلاحهم . يقال : فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه . وتفسير المفازة قوله ﴿لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾ كأنه قيل : ما مفازتهم ؟ فقيل : لا يمسهم السوء ، أى ينجيهم بنفى السوء والحزن عنهم . أو بسبب منجاتهم ، من قوله تعالى (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) أى بمنجاة منه ؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضى الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة ، ويجوز : بسبب فلاحهم ؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة . ويجوز أن يسمى العمل الصالح فى نفسه : مفازة ؛ لأنه سببها . وقرئ : بمفازاتهم ، على أن لكل متق مفازة . فإن قلت :(لا يمسهم) ما محله من الإعراب على التفسيرين ؟ قلت : أما على التفسير الأوّل فلا محل له ؛ لأنه كلام مستأنف . وأما على الثانى فمحله النصب على الحال .

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أى هو مالك أمرها وحافظها ، وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهى مفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها . وقيل : مقليد . ويقال : إقليد ، وأقاليد ، والكلمة أصلها فارسية . فإن قلت . ما للكتاب العربى المبين وللفارسية ؟ قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملا . فإن قلت : بما اتصل قوله ﴿والذين كفروا﴾ قلت : بقوله(وينجى الله الذين اتقوا) أى ينجى الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها ، وهو مهيمن عليها ، فلا يخفى عليه شىء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء ، وقد جعل متصلا بما يليه على أن كل شىء فى السموات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل : سأل عثمان رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) ، فقال: «يا عثمان ، ما سألنى عنها أحد قبلك ، تفسيرها : لا إله إلا الله والله

أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير »[٢] وتأويله على هذا : أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض : من تكلم بها من المتقين أصابه، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده، أولئك هم الخاسرون .

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾

﴿أفغير الله﴾ منصوب بأعبد . و﴿تأمروني﴾ اعتراض . ومعناه : أفغير الله أعبد بأمركم، وذلك حين قال له المشركون : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك . أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله (تأمروني أعبد) لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لي : اعبد، والأصل : تأمرونني أن أعبد، فحذف « أن » ورفع الفعل، كما في قوله :

* أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَى * [١]

ألا تراك تقول : أفغير الله تقولون لي أعبده، وأفغير الله تقولون لي أعبد، فكذلك أفغير الله تأمرونني أن أعبده . وأفغير الله تأمرونني أن أعبد، والدليل على صحة هذا الوجه : قراءة من قرأ (أعبد) بالنصب . وقرئ : تأمرونني، على الأصل . وتأمروني، على إدغام النون أو حذفها .

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾

قرئ : ليحبطنّ عملك، وليحبطنّ : على البناء للمفعول . ولنحبطنّ، بالنون والياء، أي : ليحبطنّ الله . أو الشرك . فإن قلت : الموحى إليهم جماعة، فكيف قال ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد ؟ قلت : معناه أوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، أو أوحي إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت كما تقول كسانا حلة، أي : كل واحد منا : فإن قلت : ما الفرق بين اللامين ؟ قلت : الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب، وهذا الجواب ساد مسد الجوابين، أعني : جوابي القسم والشرط . فإن قلت : كيف صح هذا

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم والعقيلي والبيهقي في الأسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بن تميم حدثنا مخلد أبو الهذيل عن عبد الرحيم . وعبد الرحمن بن عدي عن عبد الله بن عمر به ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه . وله وجه آخر عند ابن مردويه . من طريق كلب بن وائل عن عمر ورواه ابن مردويه عن الطبراني باسناد آخر إلى ابن عباس « أن عثمان ـ فذكره » وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ولا أعرفهما .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٩ فراجعه إن شئت اه مصححه .

الكلام مع علم الله تعالى أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم ؟ قلت: هو على سبيل الفرض، والمحالات يصح فرضها لأغراض ، فكيف بما ليس بمحال . ألا ترى إلى قوله (ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعاً) يعنى على سبيل الإلجاء ، ولن يكون ذلك لامتناع الداعى إليه ووجود الصارف عنه . فإن قلت : مامعنى قوله (ولتكونن من الخاسرين) ؟ قلت: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل . ويحتمل : ولتكونن فى الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة . ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشد ، فلا يمهله بعد الردة : ألا ترى إلى قوله تعالى (إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) ﴿ بل الله فاعبد ﴾ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم ، كأنه قال : لاتعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت عاقلا فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا منه [1] ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ على ما أنعم به عليك ، من أن جعلك سيد ولد آدم . وجوز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه ، تقديره : بل الله أعبد فاعبد .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره فى نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وقرئ بالتشديد على معنى : وما عظموه كنه تعظيمه ، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال ﴿ والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لاغير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين [2]

---

(١) قال محمود : «أصل الكلام : إن كنت عابداً فاعبد الله ، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه . اهـ كلامه» قال أحمد : مقتضى كلام سيبويه فى أمثال هذه الآية : أن الأصل فيه فاعبد الله ، ثم حذفوا الفعل الأول اختصاراً ، فلما وقعت الفاء أولا استنكروا الابتداء بها ، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه ، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظاً ودالة على أن ثم محذوفاً اقتضى وجودها ، والتعطف عليه مابعدها وينضاف إلى هذه الغاية فى التقديم فائدة الحصر ، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص .

(٢) قال محمود : «والغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن حبراً جاء إليه فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجب مما قال الحبر ثم قرأ هذه الآية تصديقاً له ، فإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا مافهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا هز ولاشىء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شىء وآخره على الزبدة والخلاصة التى=

إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل [(١)] جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا أبا القاسم ، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك [(٢)] فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال ثم قرأ تصديقا له (وما قدروا الله حق قدره ... الآية) وإنما ضحك أفصح العرب صلى الله عليه وسلم وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه ، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليته [(٣)] تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديما ، وما أتي الزالون [(٤)] إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره ، لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه ، إذ لا يحل عقدها المورية ولا يفك قيودها المكربة إلا هو ، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول ، قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة [(٥)] والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ، ولا يعرف قبيلا منه من دبير .[(٦)] والمراد بالأرض : الأرضون السبع ، يشهد لذلك شاهدان : قوله (جميعا) وقوله

= هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلا إجراء العبارة على مثل هذه الطريقة من التخييل ، ثم قال : وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليتها تخييل قد زلت فيه الأقدام قديماً . اه كلامه ، قال أحمد : إنما عنى بما أجراه ههنا من لفظ التخييل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام لا تليق به بوجه من الوجوه ، والله أعلم .

(١) قوله «أن جبريل جاء إلى رسول الله» قيل : الصواب أنه حبر من أحبار اليهود لا جبريل . ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي ، كذا بهامش . ويؤيده أن «يا أبا القاسم» عادة اليهود في ندائه صلى الله عليه وسلم . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود . (تنبيه) وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف . والذي في الصحيح «جاء حبر من اليهود» وفي رواية «أن يهوديا» وفي رواية «أن رجلا من أهل الكتاب» .

(٣) قوله «وعليته» أي معظمه . (ع)

(٤) قوله «وما أتي الزالون» أي أجيبوا (ع)

(٥) قوله «بالتأويلات الغثة» في الصحاح «الغث» نبت يختبز حبه ويؤكل في الجوع ، وتكون خبزته غليظة شبيهة بخبز الملة . (ع)

(٦) قوله «قبيلا منه من دبير» في الصحاح «القبيل» : ما أقبل به المرأة من غزلها حين تفتله . وفيه «الدبير» : ما تدبره به المرأة من غزلها حين تفتله . ومنه قيل : فلان ما يعرف قبيلا من دبير . (ع)

(والسموات) ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم ، فهو مقتض للمبالغة ، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكده قبل مجيء الخبر ، ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذى يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن الأراضى كلهن . والقبضة : المرة من القبض (فقبضت قبضة من أثر الرسول) والقبضة ـ بالضم ـ : المقدار المقبوض بالكف ، ويقال أيضا : أعطنى قبضة من كذا : تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، كما روى : [1] أنه نهى عن خطفة السبع ، [2] وكلا المعنيين محتمل . والمعنى : والأرضون جميعا قبضته ، أى : ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة ، يعنى أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة ، كما تقول : الجزور أكلة لقمان ، والقلة جرعته ، أى : ذات أكلته وذات جرعته ؛ تريد : أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته ، وجرعة فردة من جرعاته . وإذا أريد معنى القبضة فظاهر ، لأن المعنى : أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن قلت . ما وجه قراءة من قرأ (قبضته) بالنصب ؟ قلت : جعلها ظرفا مشبها للمؤقت بالمبهم: (مطويات) من الطى الذى هو ضدّ النشر ، كما قال تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه . وقيل : قبضته : ملكه بلا مدافع ولا منازع ، وبيمينه : بقدرته . وقيل : مطويات بيمينه مفنيات بقسمه ؛ لأنه أقسم أن يفنيها ، ومن اشتم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله ، ثم يبكى حمية لكلام الله المعجز بفصاحته ، وما منى [3] به من أمثاله ؛ وأثقل منه على الروح ، وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله ، واستحسانهم له ، وحكايته على فروع المنابر ، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين . وقرئ : مطويات على نظم السموات فى حكم الأرض ، ودخولها تحت القبضة ، ونصب مطويات على الحال ﴿سبحانه وتعالى﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته ، وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾

---

(١) لم أجده هكذا . وروى أحمد وإسحاق وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد الله بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد ابن المسيب أنه سمع أبا الدرداء يقول «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل خطفة ونهبة والمجثمة وكل ذى ناب من السباع» ورواه أبو يعلى من رواية الافريقى ورواه الدارمى والطبرانى والنسائى فى الكنى من رواية أبى أوس عن الزهرى عن أبى إدريس عن أبى ثعلبة ، بلفظ «نهي عن الخطفة والمجثمة والنهبة . وكل ذى ناب من السباع» .

(٢) قوله «نهى عن خطفة السبع» أى : والمراد مخطوفه . (ع)

(٣) قوله «وما منى به» أى ابتلى . (ع)

فإن قلت: ﴿أخرى﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: يحتمل الرفع والنصب: أما الرفع فعلى قوله (فإذا نفخ[1] فى الصور نفخة واحدة) وأما النصب فعلى قراءة من قرأ (نفخة واحدة) والمعنى: ونفخ فى الصور نفخة واحدة، ثم نفخ فيه أخرى. وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بذكرها فى غير مكان. وقرئ: قياما ينظرون: يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب. وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم. ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود فى مكان لتحيرهم.

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان فى مواضع من التنزيل، وهذا من ذاك. والمعنى ﴿وأشرقت الأرض﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط فى الحساب ووزن الحسنات والسيئات، وينادى عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه: لأنه هو الحق العدل. وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. وفى هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذى يعدل فيها، وإنما يجور فيها غير ربها، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجىء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور. وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2] وكما فتح الآية بإثبات العدل، ختمها بنفى الظلم. وقرئ: وأشرقت على البناء للمفعول، من شرقت بالضوء تشرق: إذا امتلأت به واغتصت. وأشرقها الله، كما تقول: ملأ الأرض عدلا وطبقها عدلا. و﴿الكتاب﴾ صحائف الأعمال، ولكنه اكتفى باسم الجنس، وقيل: اللوح المحفوظ ﴿الشهداء﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار. وقيل: المستشهدون فى سبيل الله

(١) قوله «وأما الرفع فعلى قوله فاذا نفخ» أى فى الحاقة. وقوله «من قرأ» أى: هناك. وقوله «حذفت» أى هنا. (ع)

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر. ولمسلم عن جابر والنسائى وأبى داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)

الزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى أثر بعض ، وقد تزمروا [1] : قال :

* حَتَّى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بَعْدَ زُمَرْ * [2]

وقيل فى زمر الذين اتقوا : هى الطبقات المختلفة : الشهداء ، والزهاد ، والعلماء ، والقراء وغيرهم وقرئ: نذر منكم . فإن قلت : لم أضيف إليهم اليوم ؟ قلت : أرادوا لقاء وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة . وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً فى أوقات الشدة ﴿قالوا بلى﴾ أتونا وتلوا علينا ، ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأن جهنم ، لسوء أعمالنا ، كما قالوا : غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال . واللام فى المتكبرين للجنس ؛ لأن ﴿مثوى المتكبرين﴾ فاعل بئس ، وبئس فاعلها : اسم معرف بلام الجنس . أو مضاف إلى مثله ، والمخصوص بالذم محذوف ، تقديره : فبئس مثوى المتكبرين جهنم .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)

---

(١) قوله «وقد تزمروا» وفى نسخة أخرى : تزامروا . وفى الصحاح : احزألت الابل فى السير : ارتفعت . (ع)

(٢) إن العفاة بالسيوب قد غمر ... حتى احزألت زمر بعد زمر

«السيوب» فى الأصل : السيول ، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريحية . والغمر : ترشيح ، أى : أن طلاب الرزق قد عمهم الممدوح بالعطايا . واحزألت : ارتفعت سائرة من عنده «زمر» : أى أفواج بعد أفواج . ويروى : زمراً ، على الحال ، أى : احزألت العفاة حال كونها أفواجا متتابعة . وعلى الأول ففيه إظهار فى موضع الإضمار ، دلالة على التكثير .

﴿حتى﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية ، إلا أنّ جزاءها محذوف ، وإنما حذف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، وحق موقعه مابعد خالدين . وقيل : حتى إذا جاؤها ، جاؤها وفتحت أبوابها ، أى مع فتح أبوابها . وقيل : أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها . وأما أبواب الجنة فتقدّم فتحها ، بدليل قوله (جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) فلذلك جيء بالواو ، كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها . فإن قلت : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق ؟ قلت : المراد بسوق أهل النار : طردهم إليها بالهوان والعنف ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل . والمراد بسوق أهل الجنة : سوق مراكبهم ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين ﴿طبتم﴾ من دنس المعاصى ، وطهرتم من خبث الخطايا ﴿فادخلوها﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة ، فما هى إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين ؛ لأنها دار طهرها الله من كل دنس ، وطيبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها ، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة ، وما أضعف سعينا فى اكتساب تلك الصفة ، إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا ، تنقى أنفسنا من درن الذنوب ، وتميط وضر هذه القلوب ﴿خالدين﴾ مقدرين الخلود ﴿الأرض﴾ عبارة عن المكان الذى أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبوأ ، وقد أورثوها : أى ملكوها وجعلوا ملوكها ، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤن ، تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه ، وذهابه فى إنفاقه طولا وعرضا . فإن قلت : مامعنى قوله ﴿حيث نشاء﴾ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره ؟ قلت : يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة ، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره .

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿حافين﴾ محدقين من حوله ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ يقولون : سبحان الله والحمد لله ، متلذذين لا متعبدين . فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله ﴿بينهم﴾ ؟ قلت : يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم ، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل ، وأن يرجع إلى الملائكة ، على أن ثوابهم ـ وإن كانوا معصومين جميعاً ـ لا يكون على سنن واحد ، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم فى أعمالهم ، فهو القضاء بينهم بالحق . فإن قلت :

قوله ﴿وقيل الحمد لله﴾ من القائل ذلك؟ قلت: المقضى بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه.

عن عائشة رضى الله عنها: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر [1]

سورة المؤمن

مكية. قال الحسن: إلا قوله وسبح بحمد ربك؛ لأن الصلوات نزلت بالمدينة
وقد قيل فى الحواميم كلها: أنها مكيات: عن ابن عباس وابن الحنفية
وهى خمس وثمانون آية، وقيل ثنتان وثمانون [نزلت بعد الزمر]

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَـٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

قرئ بإمالة ألف «حا» وتفخيمها، وبتسكين الميم وفتحها. ووجه الفتح: التحريك لالتقاء الساكنين، وإيثار أخف الحركات، نحو أين وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتأنيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنة أعجمى نحو قابيل وهابيل. التوب والثوب والأوب: أخوات فى معنى الرجوع والطول والفضل والزياد. يقال: لفلان على فلان طول، والإفضال. يقال: طال عليه وتطول، إذا تفضل. فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً، والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف؟ قلت: أمّا غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان؛ لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن. أو غداً حتى يكونا فى

(١) أخرجه النسائى من رواية حماد بن زيد عن أبى أمامة عن عائشة فى أثناء حديث، وأخرجه أحمد وإسحاق وأبويعلى والترمذى والحاكم والبيهقى فى الشعب فى التاسع عشر من هذا الوجه.

تقدير الانفصال ، فتكون إضافتهما غير حقيقية ؛ وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش . وأما شديد العقاب فأمره مشكل ، لأنه فى تقدير : شديد عقابه لاينفك من هذا التقدير ، وقد جعله الزجاج بدلا . وفى كونه بدلا وحده بين الصفات نبو ظاهر . والوجه أن يقال : لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة ، فقد آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن ، فهى محكوم عليها بأنها من بحر الرجز ، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل [1] ولقائل أن يقول : هى صفات ، وإنما حذف الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً ، فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج ، حتى قالوا : مايعرف سحادليه من عناديله ، فثنوا ماهو وتر لأجل ماهو شفع ؛ على أن الخليل قال فى قولهم ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك ، ومايحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام . ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف . ويجوز أن يقال : قد تعمد تنكيره ، وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى مالا شىء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار . ويجوز أن يقال : هذه النكتة هى الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال . فإن قلت : مابال الواو فى قوله (وقابل التوب) ؟ قلت : فيها نكتة جليلة ، وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات . وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول . وروى أن عمر رضى الله عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع فى هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر إلى فلان : سلام عليك ، وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : بسم الله الرحمن الرحيم : حم إلى قوله إليه المصير . وختم الكتاب وقال لرسوله : لاتدفعه إليه حتى تجده صاحياً ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما أتته الصحيفة

---

(١) قال محمود : «فإن قلت لما اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف ؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفان ؛ لأنهما صفتان لازمتان ، وليستا لحدوث الفعل حتى يكونا حالا أو استقبالا ، بل إضافتهما حقيقة . وأما شديد العقاب فلا شك فى أن إضافته غير حقيقية ، يريد : لأنه من الصفات المشبهة ، ولا تكون إضافتها محضة أبداً . عاد كلامه قال : وجعله الزجاج بدلا وحده ، وانفراد البدل من بين الصفات فيه نبو ظاهر . والوجه أن يقال : إن جميعها أبدال غير أوصاف . لوقوع هذه النكرة التى لا يصح أن تكون صفة كما لو جاءت قصيدة تفاعيلها كلها على مستفعل ، قضى عليها بأنها من بحر الرجز ، فان وقع فيها جزء واحد على متفاعلن : كانت من الكامل» قال أحمد : وهذا لأن دخول مستفعلن فى الكامل ممكن ، لأن متفاعلن يصير بالاضمار إلى مستفعلن ، وليس وقوع متفاعلن فى الرجز ممكناً ؛ إذ لا يصير إليه مستفعلن البتة ، فما يفضى إلى الجمع بينهما فانه يتعين ، وهذا كما يقضى الفقهاء بالخاص على العام لأنه الطريق فى الجمع بين الدليلين .

جعل يقرؤها ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته . فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسددوه ووقفوه ، وادعوا له الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه (١) .

مَا يُجَٰدِلُ فِي ءَايَٰتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾

سجل على المجادلين فى آيات الله بالكفر : والمراد : الجدال بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله ، وقد دلّ على ذلك (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم فى استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «إنّ جدالا فى القرآن كفر» (٢) وإيراده منكراً ، وإن لم يقل : إنّ الجدال ، تمييز منه بين جدال وجدال . فإن قلت : من أين تسبب لقوله ﴿فلا يغررك﴾ ماقبله ؟ قلت : من حيث إنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله بالكفر ، والكافر لا أحد أشقى منه عند الله : وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم فى عينه ، ولا يغره إقبالهم فى دنياهم وتقلبهم فى البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة ، وكانت قريش كذلك يتقلبون فى بلاد الشام واليمن ، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون ، فانّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ، ووراءه شقاوة الأبد . ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم بالباطل وما ادّخر لهم من سوء العاقبة مثلا : ما كان من نحو ذلك من الأمم ، وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه . وقرئ : فلا يغرّك .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

﴿الأحزاب﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿وهمت

(١) أخرجه أبو نعيم فى ترجمة يزيد الأصم من رواية كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن يزيد الأصم «أن رجلا كان ذا بأس - فذكره بتمامه» ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن كثير بن هشام باختصار . وكذا ابن أبى حاتم والثعلبى .

(٢) أخرجه الطيالسى . ومن طريقه البيهقى فى الشعب فى التاسع عشر من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما بلفظ «لا تجادلوا فى القرآن فان جدالا فيه كفر» وفى الباب عن أبى هريرة بلفظ «مراء فى القرآن كفر» فى الصحيح والسنن

كل أمة﴾ من هذه الأمم التى هى قوم نوح والأحزاب ﴿برسولهم﴾ وقرئ برسولها ﴿ليأخذوه﴾ ليتمكنوا منه، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير: أخيذ ﴿فأخذتهم﴾ يعنى أنهم قصدوا أخذه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك. وهذا تقرير فيه معنى التعجيب

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ النَّارِ ﴿٦﴾

﴿أنهم أصحاب النار﴾ فى محل الرفع بدل من (كلمة ربك) أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه: كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بالعذاب المستأصل، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار فى الآخرة. أو فى محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. والذين كفروا: قريش، ومعناه. كما وجب إهلاك أولئك الأمم، كذلك وجب إهلاك هؤلاء؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار. قرئ: كلمات.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

روى أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «لا تتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة»[1] فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل: زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سموات، وإنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع[2]. وفى الحديث: إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا

(١) أخرجه الثعلبى. وروى شهر بن حوشب: أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقا، وهو فى كتاب العظمة لأبى الفتح.

(٢) قوله «كأنه الوصع» طائر أصغر من العصفور. (ع)

ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة [١] . وقيل : خلق الله العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام . وقيل حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة ، يطوفون به مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر . وقرأ ابن عباس : العرش بضم العين . فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ ويؤمنون به ﴾ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون ؟ [٢] قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله . والترغيب فيه كما وصف الأنبياء فى غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) فأبان بذلك فضل الإيمان . وفائدة أخرى : وهى التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة [٣] ، لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين . ولما وصفوا بالإيمان ؛ لأنه إنما يوصف بالإيمان : الغائب ، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم ، علم أن إيمانهم وإيمان من فى الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء : فى أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، إلا هذا ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا ، وأنه منزه عن صفات الأجرام . وقد روعى التناسب فى قوله (ويؤمنون به) ﴿ ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن فى مثل حالهم وصفتهم . وفيه تنبيه على أن الاشتراك فى الإيمان يجب أن يكون أدعى شىء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن . فإنه

---

(١) لم أجده .

(٢) قال محمود : «إن قلت . ما فائدة قوله (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون بالله تعالى ... الخ» قال أحمد : كلام حسن إلا استدلاله بقوله (ويؤمنون به) على أنهم ليسوا مشاهدين ، فهذا لا يدل ؛ لأن الايمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به ، بدليل صحة إطلاق الايمان بالآيات مع أنها مشاهدة ، كانشقاق القمر وقلب العصا حية . وإنما نقب الزمخشرى بهذا التكلف عما فى قلبه من مرض ، لكنه ظاح بعيداً عن الغرض ، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين ، بدليل قوله تعالى (ويؤمنون) لأن معنى الايمان عنده التصديق بالغائب . ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين : أن البارى عز وجل لو صحت رؤيته لرأوه ، فحيث لم يروه لزم أن تكون رؤيته تعالى مما لا يصححه العقل ، وقد أبطلنا ما ادعاه من أن الايمان مستلزم عدم الرؤية ، ولو سلمناه فلا نسلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة ، وقوله : ولو كانت صحيحة لرأوه : شرطية عقيمة الانتاج ؛ لأن الرؤية عبارة عن إدراك : يخلق الله تعالى هذا الادراك لحملة العرش ، إلا أن يذهب بالزمخشرى الوهم إلى أن مصححى الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش ، فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى الله عن ذلك ، وحاشى أهل السنة ومصححى الرؤية من ذلك .

(٣) قوله «كما تقول المجسمة» يريد أهل السنة ؛ لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة : لزمهم القول بأنه تعالى جسم ، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية ، خلافا للمعتزلة ، كما بين فى علم التوحيد . (ع)

لاتجانس بين ملك وإنسان ، ولا بين سماوى وأرضى قط ، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلى والتناسب الحقيقى ، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض . قال الله تعالى (ويستغفرون لمن فى الأرض) . أى يقولون ﴿ربنا﴾ وهذا المضمر يحتمل أن يكون بيانا ليستغفرون مرفوع المحل مثله ، وأن يكون حالا . فإن قلت : تعالى الله عن المكان ، فكيف صح أن يقال : وسع كل شىء ؟ قلت : الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شىء فى المعنى . والأصل : وسع كل شىء رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق فى وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شىء . فإن قلت : قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون مابعد الفاء مشتملا على حديثهما جميعا ، وما ذكر إلا الغفران وحده ؟ قلت : معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك [1] . وسبيل الله : سبيل الحق التى نهجها [2] لعباده ودعا إليها ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أى الملك الذى لايغلب : وأنت مع ملكك وعزتك لاتفعل شيئاً إلا بداعى الحكمة وموجب حكمتك أن تفى بوعدك ﴿وقهم السيآت﴾ أى العقوبات . أوجزاء السيآت . فحذف المضاف على أن السيآت هى الصغائر أوالكبائر المتوب عنها . والوقاية منها : التكفير أوقبول التوبة : فإن قلت : ما الفائدة فى استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لايخلف الميعاد ؟ قلت : هذا بمنزلة الشفاعة ، وفائدته زيادة الكرامة والثواب . وقرئ : جنة عدن . وصلح ، بضم اللام ، والفتح أفصح . يقال : صلح فهو صالح ، وصلح فهو صليح ، وذريتهم ،

---

(١) قال محمود : «فان قلت قد ذكر أولا الرحمة والعلم ، ثم ذكر ماتوجبه الرحمة وهو الغفران ، فأين موجب العلم ؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك ... الخ» قال أحمد : كلامه ههنا محشو بأنواع الاعتزال : منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعى الحكم على الله تعالى . ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوبا وإن لم يكن توبة . ومنها اعتقاد امتناع غفران الله تعالى للكبائر التى لم يتب عنها . ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على الله تعالى . ومنها جحد الشفاعة ، واعتقاد أهل السنة أن الله تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة ، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنب الكبائر ، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ماعدا الشرك وإن لم يتب منها ، وأن قبول التوبة بفضله ورحمته ، لابالوجوب عليه ، وأنها تنال أهل الكبائر المصرين من الموحدين ، فهذه جواهر خمسة نسأل الله تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة ، وأن لايحرمنا ألطافه ومراحمه آمين . وجميع مايحتاج إلى تزييفه مما ذكره على قواعد الاعتزال فى هذا الموضع قد تقدم ، غير أنه جدد ههنا قوله : إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة ، وذلك مزيد الكرامة لاغير ، يريد : أن المغفرة للتائب واجبة على الله فلا تسئل ، وهذا الذى قاله مما يجعل لنفسه فيه الفضيحة ، زادت على بطلانه هذه الآية بالألسن الفصيحة ، كيف يجعل المسئول مزيدة الكرامة لاغير . ونص الآية : فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، فهى ناطقة بأنهم يسألون من الله تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم ، وهو الذى أنكر الزمخشرى كونه مسئولا .

(٢) قوله «التى نهجها» أى : أبانها وأوضحها . أفاده الصحاح . (ع)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾

أى ينادون يوم القيامة ، فيقال لهم : ﴿لمقت الله أكبر﴾ والتقدير : لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فاستغنى بذكرها مرة . و ﴿إذ تدعون﴾ منصوب بالمقت الأول . والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان الله يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر ، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان ، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم فى النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ . وعن الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثه مقتوا أنفسهم ، فنودوا لمقت الله . وقيل : معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض ، كقوله تعالى (يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) و (إذ تدعون) : تعليل . والمقت : أشدّ البغض ، فوضع فى موضع أبلغ الإنكار وأشده ﴿اثنتين﴾ إماتتين وإحياءتين . أو موتتين وحياتين . وأراد بالإماتتين : خلقهم أمواتا أوّلا ، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالإحياءة الإحياءة الأولى وإحياءة البعث . وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما . فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا : إماتة ؟ قلت : كما صح أن تقول : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ! وقولك للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر . ولا من ضيق إلى سعة ، ولا من سعة إلى ضيق . وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب فى صحته أن الصغر والكبر جائزان معا على المصنوع الواحد ، من غير ترجح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة . فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما [1] على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله

(١) قال محمود : «إحدى الاماتتين خلقهم أمواتا أولا ، والأخرى إماتتهم عند انقضاء آجالهم ، ثم قال : فان قلت كيف سمى خلقه لهم أمواتا إماتة ، وأجاب بأنه كما يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وكما يقال للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه ، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه . وإنما أردت الانشاء على تلك الصفات . والسبب فى صحته أن الكبر والصغر جائزان معاً على المصنوع الواحد ، وكذلك الضيق والسعة ، فاذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن من الآخر ، جعل صرفا عن الآخر وهو متمكن منه» قال أحمد : ما أسد كلامه ههنا حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه الله فى مسألة ما إذا باعه إحدى وزنتين معينتين على اللزوم لاحداهما والخيرة فى عينها ، فانه منع من ذلك ، لأن المشترى لما كان =

منه ، ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياآت ، وهو خلاف ما في القرآن ، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتد بها . أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور ، وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها ، ويعدهم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى (إلا من شاء الله) . فإن قلت : كيف تسبب هذا لقوله تعالى ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ ؟ قلت : قد أنكروا البعث فكفروا ، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى ؛ لأن من لم يخش العاقبة تخرق [1] في المعاصي ، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم ، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿فهل إلى خروج﴾ أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطىء ﴿من سبيل﴾ قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه . وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط . وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيراً ؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله ﴿ذلكم﴾ أي ذلكم الذي أنتم فيه ، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك [2] به ﴿فالحكم لله﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد : وقوله ﴿العلى الكبير﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة ، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك ، وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته . وقيل : كأن الحرورية [3] أخذوا قولهم : لا حكم إلا لله ، من هذا .

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

ـــ متمكنا من تعيين كل واحدة منهما على سواء ، فاذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى ، وقد كان متمكنا منها منزلة اختيارها أولا ، ثم الانتقال عنها إلى هذه ، فاذا آل إلى بيع إحداهما بالأخرى غير معلومتى التماثل ، وهو الذي لخصه أصحابنا في قولهم : إن من خير بين شيئين فاختار أحدهما : عد متنقلا ، وقد سبقت هذه القاعدة لغير هذا الغرض فيما تقدم .

(١) قوله «تخرق في المعاصي» في الصحاح : يقال : هو يتخرق في السخاء ، إذا توسع فيه . (ع)

(٢) قال محمود : «أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطىء من سبيل قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه ، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيراً ؛ ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم) معناه : أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد الله تعالى ، وإيمانكم بالاشراك» قال أحمد : وعلى هذا النمط بنى الشعراء مثل قولهم :

هل إلى نجد وصول وعلى الخيف نزول وإنما قصدهم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع

(٣) قوله «الحرورية» في الصحاح : أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرور» اسم قرية ، وكأنه يريد أهل السنة ، فانهم الذين اشتهر عنهم هذا القول ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع ، كما بين في الأصول . (ع)

رَفِيعُ الدَّرَجَٰتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَٰحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

﴿يريكم آياته﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها . والرزق : المطر، لأنه سببه ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله ، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه ، ثم قال للمنيبين ﴿فادعوا الله﴾ أى اعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ من الشرك . وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم . ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح﴾ ثلاثة أخبار ، لقوله «هو» مترتبة على قوله (الذى يريكم) أو أخبار مبتدإ محذوف ، وهى مختلفة تعريفا وتنكيرا . وقرئ : رفيع الدرجات بالنصب على المدح . ورفيع الدرجات ، كقوله تعالى (ذى المعارج) وهى مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، وهى دليل على عزته وملكوته . وعن ابن جبير: سماء فوق سماء . والعرش فوقهن . ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه ، كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه . وقيل : هى درجات ثوابه التى ينزلها أولياءه فى الجنة ﴿الروح من أمره﴾ الذى هو سبب الحياة من أمره ، يريد : الوحى الذى هو أمر بالخير وبعث عليه ، فاستعار له الروح ، كما قال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه) ﴿لينذر﴾ الله . أو الملقى عليه : وهو الرسول أو الروح . وقرئ : لتنذر ، أى : لتنذر الروح لأنها تؤنث ، أو على خطاب الرسول . وقرئ : لينذر يوم التلاق ، على البناء للمفعول ﴿ويوم التلاق﴾ يوم القيامة ، لأن الخلائق تلتقى فيه . وقيل : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: المعبود والعابد ﴿يوم هم بارزون﴾ ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قاع صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء فى الحديث «يحشرون عراة حفاة غرلا»[1] ﴿لا يخفى على الله منهم شىء﴾ أى من أعمالهم وأحوالهم . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : لا يخفى عليه منهم شىء . فإن قلت : قوله (لا يخفى على الله منهم شىء) : بيان وتقرير لبروزهم ، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شىء برزوا أو لم يبرزوا ، فما معناه ؟ قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب : أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه . قال الله تعالى : ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وقال تعالى: (يستخفون

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها .

من الناس ولا يستخفون من الله) وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم ؛ وظنهم أن الله لا يبصرهم، وهو معنى قوله (وبرزوا لله الواحد القهار) ، ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ حكاية لما يسئل عنه فى ذلك اليوم ولما يجاب به . ومعناه : أنه ينادى مناد فيقول : لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر : لله الواحد القهار . وقيل : يجمع الله الخلائق يوم القيامة فى صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأوّل ما يتكلم به أن ينادى مناد : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس ... الآية) فهذا يقتضى أن يكون المنادى هو المجيب .

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

لما قرّر أن الملك لله وحده فى ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك ، وهى أنّ كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون ، لأن الله ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطئ ، لأن الله لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كله فى وقت واحد وهو أسرع الحاسبين . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إذا أخذ فى حسابهم لم يقل [1] أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها .

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

الآزفة : القيامة ، سميت بذلك لأزوفها ، أى : لقربها . ويجوز أن يريد بيوم الآزفة : وقت الخطة الآزفة ، وهى مشارفتهم دخول النار ، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلصق بحناجرهم ، فلا هى تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا ، ولكنها معترضة كالشجا ، كما قال تعالى (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) . فإن قلت : ﴿كاظمين﴾ بم انتصب ؟ قلت : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ، كما قال تعالى (رأيتهم لى ساجدين) وقال (فظلت أعناقهم لها خاضعين) وتعضده قراءة من قرأ : كاظمون . ويجوز أن يكون حالا عن قوله : وأنذرهم ، أى : وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم ، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) الحميم : المحب المشفق . والمطاع : مجاز فى المشفع ، لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر فى أنها لا تكون إلا لمن فوقك . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى :

---

(١) قوله «لم يقل أهل الجنة إلا فيها» من قال يقيل قيلولة . (ع)

﴿ولا شفيع يطاع﴾ ؟ قلت : يحتمل أن يتناول النفى الشفاعة والطاعة معا ، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة ،[1] كما تقول : ما عندى كتاب يباع ، فهو محتمل نفى البيع وحده ، وأن عندك كتابا إلا أنك لا تبيعه ، ونفيهما جميعا ، وأن لا كتاب عندك ، ولا كونه مبيعا . ونحوه :

* وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ *[2]

يريد : نفى الضب وانجحاره . فإن قلت : فعلى أى الاحتمالين يجب حمله ؟ قلت : على نفى الأمرين جميعا ، من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله ، وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه ، وأن الله لا يحب الظالمين . فلا يحبونهم ، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم : قال الله تعالى (وما للظالمين من أنصار) وقال : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) ولأن الشفاعة لا تكون إلا فى زيادة التفضل ،[3] وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب ، بدليل قوله تعالى (ويزيدهم من فضله) وعن الحسن رضى الله عنه : والله ما يكون لهم شفيع البتة ، فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة فى ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت : فى ذكرها فائدة جليلة ، وهى أنها ضمت إليه ، ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة ، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف . بيانه : أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت : ما لى فرس أركبه ، ولا معى سلاح أحارب به ، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة ، كأنك تقول : كيف يتأتى منى الركوب والمحاربة ولا فرس لى ولا سلاح معى ، فكذلك قوله (ولا شفيع يطاع) معناه : كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع ، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع : وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف[4] غير المنكر الذى لا ينبغى أن يتوهم خلافه .

---

(١) قال محمود : «يحتمل أن يكون المنفى الشفيع الذى هو الموصوف وصفته وهى الطاعة ، ويحتمل أن يكون المنفى الصفة وهى الطاعة والشفيع ثابت» قال أحمد : إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفى على مجموع الموصوف والصفة . ونفى المجموع ، كما يكون بنفى كل واحد من جزئيه ، وكذلك يكون بنفى أحدهما ، على أن المراد هنا ـ كما قال ـ : نفى الأمرين جميعاً . قال : وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفى الصفة ؛ لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعاً ، قلت : فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٢٦ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «ولا تكون إلا فى زيادة التفضل» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فتكون فى الخروج من النار أيضاً ، كما تقرر فى التوحيد . وحديث الشفاعة مشهور ، نعم الكفار لا خروج لهم من النار . (ع)

(٤) قوله «موضع الأمر المعروف» أى الذى يعرفه السامع ويسلمه ، كما هو شأن الشاهد على الدعوى ، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفا فلا ينتفى أن يتوهم وجوده ، وبهذا يتبين قوله فيما سبق ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف . (ع)

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾

الخائنة : صفة للنظرة . أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق النظر إلى ما لا يحل ، كما يفعل أهل الريب ، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله (وما تخفي الصدور) لا يساعد عليه .[1] فإن قلت : بم اتصل قوله ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ ؟ قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله (هو الذي يريكم) مثل (يلقي الروح) ولكن (يلقي الروح) قد علل بقوله (لينذر يوم التلاق) ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله (ولا شفيع يطاع) فبعد لذلك عن أخواته .

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

﴿والله يقضي بالحق﴾ يعني : والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل . لاستغنائه عن الظلم . وآلهتكم لا يقضون بشيء ، وهذا تهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه : يقضي ، أو لا يقضي ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لقوله (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر مايعملون ، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله ، وأنها لاتسمع ولا تبصر . وقرئ : يدعون ، بالتاء والياء .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

(هم) في ﴿كانوا هم أشد منهم﴾ فصل . فإن قلت . من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين ، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة ؟ وهو أشد منهم . قلت: قد ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام ، فأجرى مجراها . وقرئ : منكم ، وهي في مصاحف أهل الشأم ﴿وآثارا﴾

---

(١) قال محمود : «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال : «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى (وما تخفي الصدور) قال أحمد : إنما لم يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه الأعين الخائنة ، وإنما يقابل الأعين الصدور ، لا ما تخفيه الصدور ، بخلاف التأويل الأول ، فان المراد به نظرات الأعين فيطابق خفيات الصدور .

يريد حصونهم وقصورهم وعددهم، وما يوصف بالشدة من آثارهم. أو أرادوا: أكثر آثارا، كقوله: * مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا * [1]

****

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥)

﴿وسلطان مبين﴾ وحجة ظاهرة وهى المعجزات، فقالوا: هو ساحر كذاب، فسموا السلطان المبين سحرا وكذابا ﴿فلما جاءهم بالحق﴾: بالنبوّة: فإن قلت: أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أن يولد المولود الذى أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت: قد كان ذلك القتل حينئذ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (قالوا اقتلوا) أعيدوا عليهم القتل كالذى كان أولا، يريد أن هذا قتل غير القتل الاول ﴿فى ضلال﴾ فى ضياع وذهاب، باطلا لم يجد عليهم، يعنى. أنهم باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه، فما يغنى عنهم هذا القتل الثانى، وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان، فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع: أعاده عليهم غيظاً وحنقا، وظنا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى، وما علم أنّ كيده ضائع فى الكرتين جميعا.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)

﴿ذرونى أقتل موسى﴾ كانوا إذا همّ بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذى تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحرا مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ، وأنّ ماجاء به آيات وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة، وكان قتالا سفاكا للدماء فى أهون شىء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذى يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك. وقوله

---

(١) ورأيت زوجك فى الوغى متقلداً سيفاً ورمحا

الوغى: الحرب. ورمحا: نصب بمحذوف يناسبه، أى: متقلداً سيفاً وحاملا رمحا. وروى بدل الشطر الاول:

* ياليت زوجك قد غدا * أى ذهب إلى الحرب غدوة لابساً سلاحه.

﴿ وليدع ربه ﴾ شاهدصدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، وكان قوله (ذرونى أقتل موسى) تمويها [1] على قومه ، وإيهاما أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا مافى نفسه من هول الفزع ﴿ أن يبدل دينكم ﴾ أن يغير ماأنتم عليه ، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ، بدليل قوله (ويذرك وآلهتك) والفساد فى الأرض : التفاتن والتهارج الذى يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ، ويهلك الناس قتلا وضياعا ، كأنه قال : إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه . أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه . وفى مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو ، ومعناه . إنى أخاف فساد دينكم ودنياكم معا . وقرئ : يظهر ،من أظهر [2] ، والفساد منصوب ، أى : يظهر موسى الفساد . وقرئ يظهر ، بتشديد الظاء والهاء ، من تظهر بمعنى تظاهر ، أى : تتابع وتعاون .

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله : قال لقومه ﴿ إنى عذت ﴾ بالله الذى هو ربى وربكم ، وقوله (وربكم) فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال ﴿ من كل متكبر ﴾ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ؛ فيكون أبلغ ، وأراد بالتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه ، وقال ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ لأنه إذا اجتمع فى الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها : وعذت ولذت : أخوان . وقرئ : عت ، بالإدغام .

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ

---

(١) قال محمود : « كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم : ليس هذا ممن يخاف ، وإنما هو ساحر لا يقاومه إلا مثله ، وقتله يوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلته خوفا ، وكان فرعون لعنه الله فى ظاهر أمره ـ والله أعلم ـ عالما أنه نبى خائفا من قتله مع رغبته فى ذلك لولا الجزع ، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم : ذرونى أقتله ، ليكفوه عنه فينسب الانكفاف عن قتله إليهم ، لا إلى جزعه وخوفه . ويدل على خوفه منه لكونه نبيا قوله (وليدع ربه) وهذا من تمويهاته المعروفة » قال أحمد : هو من جنس قوله (إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون) فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم ، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفا منهم ، ولكن غيظا عليهم ، وكان من عادته الحذر والتحصن وحماية الذريعة فى المحافظة على حوزة المملكة ، لا أن ذلك خوف وهلع ، ولقد كذب ، إنما كان فؤاده مملوءا رعبا .

(٢) قوله « وقرئ يظهر من أظهر » يفيد أن القراءة المشهورة : يظهر من ظهر ، والفساد مرفوع . (ع)

رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

﴿رجل مؤمن﴾ وقرئ: رجل، بسكون الجيم كما يقال: عضد، فى عضد وكان قبطيا ابن عم لفرعون: آمن بموسى سرا وقيل كان إسرائيليا و﴿من آل فرعون﴾ صفة لرجل. أوصلة ليكتم، أى: يكتم إيمانه من آل فرعون، واسمه: سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل، أو حزبيل. والظاهر: أنه كان من آل فرعون، فإنّ المؤمنين من بنى إسرائيل لم يقلوا ولم يعزوا. والدليل عليه قول فرعون: (أبناء الذين آمنوا معه). وقول المؤمن (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) دليل ظاهر على أنه يتنصح لقومه ﴿أن يقول﴾ لأن يقول. وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة، وما لكم علة قط فى ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى قوله ﴿ربى الله﴾ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به، وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم [1]، ولك أن تقدر مضافا محذوفا، أى: وقت أن تقول. والمعنى. أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر فى أمره. وقوله ﴿بالبينات﴾ يريد بالبينات العظيمة التى عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا، ﴿فإن يك كاذبا فعليه كذبه﴾ أى يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وإنْ يك صادقا يصبكم بعض﴾ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت: لم قال: بعض ﴿الذى يعدكم﴾ وهو نبىّ صادق، لابد لما يعدهم أن يصيبهم

---

(١) قال محمود: «والظاهر أن الرجل من آل فرعون، وقيل: إنه من بنى إسرائيل. ومن آل فرعون: متعلق بيكتم، تقديره: يكتم إيمانه من آل فرعون، وهو بعيد؛ لأن بنى إسرائيل كان إيمانهم ظاهراً فاشياً، ولقد استدرجهم هذا المؤمن فى الإيمان باستشهاده على صدق موسى باحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ببينات عدة لا بينة واحدة، وأتى بها معرفة، معناه: البينات العظيمة التى شهدتموها وعرفتموها على ذلك، ليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم ... الخ» قال أحمد: لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول، ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هذا قوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف، وإن كان الصادق هو يوسف دونها؛ لرفع التهمة وإبعاد الظن؛ وإدلالا بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة. وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ما فى قصة يوسف مع أخيه، إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، حتى قيل: إنه لما انتهى إليه قال: اللهم ماسرق هذا ولا هو بوجه سارق، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن يكون قصد ذلك، فقالوا: والله لنفتشنه، فاستخرجها من وعائه.

كله لا بعضه ؟ قلت : لأنه احتاج فى مقاولة خصوم موسى ومنا كريه إلى أن يلاوصهم [١] ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف فى القول ، ويأتيهم من وجهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال (وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) وهو كلام المنصف فى مقاله غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد ، ولكنه أردفه (يصبكم بعض الذى يعدكم) ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً ، فضلا أن يتعصب له ، أو يرمى بالحصا من ورائه ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل ، وكذلك قوله (إنّ الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) . فإن قلت : فعن أبى عبيدة أنه فسر البعض بالكل ، وأنشد بيت لبيد :

تَرَّاكُ أمْكِنَةٍ إذَا لَمْ أرْضَهَا ... أوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا [٢]

قلت : إن صحت الرواية عنه ، فقد حق فيه قول المازنى فى مسألة العلق : كان أجفى من أن يفقه ما أقول له ﴿إنّ الله لا يهدى من هو مسرف﴾ يحتمل أنه كان مسرفا كذابا خذله الله وأهلكه ولم يستقم له أمر ، فيتخلصون منه ، وأنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوّة ، ولما عضده بالبينات . وقيل : ماتولى أبو بكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أشدّ من ذلك طاف صلى الله عليه وسلم بالبيت ، فلقوه حين فرغ ، فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له : أنت الذى تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ، فقال : أنا ذاك ، فقام أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه فالتزمه من ورائه وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، رافعاً صوته بذلك ، وعيناه تسفحان ، حتى أرسلوه [٣] . وعن جعفر الصادق : أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سراً ، وأبو بكر قاله ظاهراً .

يَـٰقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)

﴿ظاهرين فى الأرض﴾ فى أرض مصر عالين فيها على بنى إسرائيل ، يعنى : أنّ لكم ملك

(١) قوله «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» فى الصحاح : فلان يلاوص الشجر ، أى : ينظر كيف يأتيها لقلعها . (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٤١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) أخرجه النسائى من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص . وابن حبان من طريق يحيى ابن عروة عن عروة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أتم منه . قلت : علقه البخارى نحوهما .

لمصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه ، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد . وقال ﴿ ينصرنا ﴾ وجاءنا ؛ لأنه منهم فى القرابة ، وليعلمهم بأنّ الذى ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أى : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، يعنى : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذى تقولونه غير صواب ﴿ وما أهديكم ﴾ بهذا الرأى ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ يريد : سبيل الصواب والصلاح . أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، ولا أدّخر منه شيئاً ، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر يعنى أنّ لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب : فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة . وقرئ : الرشاد ، فعال من رشد بالكسر ، كعلام . أو من رشد بالفتح ، كعباد . وقيل : هو من أرشد كجبار من أجبر ، وليس بذلك ؛ لأنّ فعالا من أفعل لم يجئ إلا فى عدّة أحرف ، نحو : درّاك وسآر وقصار وحبار ، ولا يصح القياس على القليل . ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد ، كعواج وبتات[1] ، غير منظور فيه إلى فعل .

وَقَالَ الَّذِى ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

﴿ مثل يوم الأحزاب ﴾ مثل أيامهم ، لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار ، اقتصر على الواحد من الجمع ؛ لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله :

* كُلُوا فِى بَعْضِ بَطْنِكُمُو تَعِفُّوا *[2]

وقال الزجاج : مثل يوم حزب حزب ، ودأب هؤلاء : دؤبهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصى ، وكون ذلك دائبا دائما منهم لا يفترون عنه ، ولا بدّ من حذف مضاف ، يريد : مثل جزاء دأبهم . فإن قلت : بم انتصب مثل الثانى ؟ قلت : بأنه عطف بيان لمثل الأوّل ؛ لأنّ

(١) قوله «كعواج وبتات» أى : صاحب العاج ، والعاج : عظم الفيل . والبتات : الذى يبيع البتوت ، أو يعملها . والبت : الطيلسان من الخز ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) كلوا فى بعض بطنكم تعفوا فان زمانكم زمن خميص

أى كلوا فى بعض بطونكم . وأفرد البطن لأمن اللبس ، أى : لا تملؤوها ، فان أطعمتمونى عففتم عن الطعام . وعف يعف ـ بكسر عين المضارع ، من باب ضرب يضرب ، ثم قال : فان زمانكم ، أى أمرتكم بذلك لأن زمانكم مجدب . والخميص : الضامر البطن ، فشبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية ، ووصفه بالخمص تخييل لذلك .

آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ، ولو قلت أهلك الله الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود ، لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام . فسرى ذلك الحكم إلى أوّل ما تناولته الإضافة ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ يعني أن تدميرهم كان عدلا وقسطا ، لأنهم استوجبوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله تعالى ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ حيث جعل المنفي إرادة الظلم ؛ لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيداً ، كان عن الظلم أبعد . وحيث نكر الظلم ، كأنه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده[1] . ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) أي لا يريد لهم أن يظلموا ؛ يعني أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين[2] .

وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

التنادى . ماحكى الله تعالى فى سورة الأعراف من قوله (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) ، (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة) ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور . وقرئ بالتشديد : وهو أن يند بعضهم من بعض ؛ كقوله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه) وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا ، فبيناهم يموج بعضهم فى بعض . إذ سمعوا منادياً : أقبلوا إلى الحساب ﴿تولون مدبرين﴾ عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار . وعن مجاهد : فارّين عن النار غير معجزين .

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ

(١) قوله «كأنه نفى أن يريد ظلما ما لعباده» هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وأن الارادة بمعنى الرضا . وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر ، فالرضا غير الارادة عندهم ، كما تقرر فى التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «ويجوز أن يكون معناه معنى : وما ربك بظلام للعبيد . وهذا أبلغ ؛ لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد ، وحيث نكر الظلم أيضا ، كأنه نفى أن يريد ظلما ما لعباده . قال : ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله (ولا يرضى لعباده الكفر) فيكون المعنى : أن الله لا يريد لعباده أن يظلموا ؛ لأنه ذمهم على كونهم ظالمين» قال أحمد : هذا من الطراز الأول ، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بارادة الله تعالى خلافا لهذا وأشياعه .

مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام . وقيل : هو يوسف بن إبراهيم[1] بن يوسف بن يعقوب : أقام فيهم نبياً عشرين سنة . وقيل : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عمر إلى زمنه . وقيل : هو فرعون آخر . وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين ﴿حتى إذا﴾ قبض ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ حكما من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل ، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذى أسستموه ، وليس قولهم (لن يبعث الله من بعده رسولا) بتصديق لرسالة يوسف ، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها ، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته . وقرئ : ألن يبعث الله ، على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفى ، كأن بعضهم يقرّر بعضاً بنفى البعث . ثم قال ﴿كذلك يضل الله﴾ أى مثل هذا الخذلان المبين[2] يخذل الله كل مسرف فى عصيانه مرتاب فى دينه ﴿الذين يجادلون﴾ بدل من (من هو مسرف) فإن قلت : كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد ؟ قلت : لأنه لا يريد مسرفاً واحداً ، فكأنه قال : كل مسرف . فإن قلت : فما فاعل ﴿كبر﴾ ؟ قلت : ضمير من هو مسرف . فإن قلت : أما قلت هو جمع ، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون ؟ قلت : بلى هو جمع فى المعنى . وأما اللفظ فموحد ، فحمل البدل على معناه ، والضمير الراجع إليه على لفظه ، وليس ببدع[3] أن يحمل على

---

(١) قوله «وقيل هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسفى : أفرائيم . (ع)

(٢) قوله « أى مثل هذا الخذلان المبين» المعتزلة يؤولون الاضلال بالخذلان والترك ، بناء على مذهبهم : أن الله لا يخلق الشر . وأهل السنة يفسرونه بخلق الضلال فى القلب ، بناء على أنه تعالى يخلق الشر كالخير كما بين فى التوحيد . (ع)

(٣) قال محمود : « الذين يجادلون بدل من من هو مسرف ؛ لأن المراد كل مسرف . وجاز إبداله على معنى من ، لا على لفظها . قال : فان قلت ما فاعل كبر ؟ وأجاب بأنه ضمير من هو مسرف ، لحمل البدل على المعنى ، والضمير على اللفظ ، وليس ببدع » اهـ كلامه . قال أحمد : فيما ذكره معاملة لفظ من بعد معاملة معناها ، وهذا مما قدمت أن أهل العربية يستغربونه ، والأولى أن يجتنب فى إعراب القرآن ، فان فيه إبهاما بعد إيضاح ، والمعهود فى قراءة البلاغة عكسه ، والصواب أن يجعل الضمير فى قوله (كبر) راجعا إلى مصدر الفعل المتقدم ، وهو قوله (يجادلون) تقديره : كبر جدالهم مقتا ، ويجعل (الذين) مبتدأ ، على تأويل حذف المضاف ، تقديره : جدال الذين يجادلون فى آيات الله ، والضمير فى قوله (كبر مقتا) عائد إلى الجدال المحذوف ، والجملة مبتدأ وخبر . ومثله فى حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه : قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله) على أحد تأويله ، ومثله كثير . وفيه سوى ذلك من الوجوه السالمة عما يتطرق إلى الوجه المتقدم ، فالوجه المعدول عنه

اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى ، وله نظائر ، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ، ولا بد فى هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير فى كبر ، تقديره : جدال الذين يجادلون كبر مقتاً ، ويحتمل أن يكون (الذين يجادلون) مبتدأ ؛ و(بغير سلطان أتاهم) خبراً ، وفاعل كبر قوله ﴿ كذلك ﴾ أى كبر مقتاً مثل ذلك الجدال ، و (يطبع الله) كلام مستأنف ، ومن قال : كبر مقتاً عند الله جدالهم ، فقد حذف الفاعل ، والفاعل لا يصح حذفه . وفى (كبر مقتاً) : ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم ، والشهادة على خروجه من حدّ إشكاله من الكبائر . وقرئ : سلطان بضم اللام . وقرئ : قلب ، بالتنوين . ووصف القلب بالتكبر والتجبر ، لأنه مركزهما ومنبعهما ، كما تقول : رأت العين ، وسمعت الأذن . ونحوه قوله عز وجل (فإنه آثم قلبه) وإن كان الآثم هو الجملة . ويجوز أن يكون على حذف المضاف ، أى : على كل ذى قلب متكبر ، تجعل الصفة لصاحب القلب .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

قيل : الصرح : البناء الظاهر الذى لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشىء إذا ظهر ، و﴿أسباب السموات﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها ، وكل ما أداك إلى شىء فهو سبب إليه ، كالرشاء ونحوه ، فإن قلت : ما فائدة هذا التكرير ؟ ولو قيل : لعلى أبلغ أسباب السموات لأجزأ ؟ قلت : إذا أبهم الشىء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ، ليعطيه السامع حقه من التعجب ، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه . وقرئ : فأطلع بالنصب[1] على جواب الترجى ، تشبيها للترجى بالتمنى . ومثل ذلك التزيين وذلك الصد ﴿زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ والمزين : إما الشيطان بوسوسته ، كقوله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) أو الله تعالى على وجه التسبيب ، لأنه مكن[2] الشيطان وأمهله . ومثله زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) وقرئ : وزين له سوء عمله[3] ،

(١) «وقرئ فأطلع بالنصب» يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على العطف . (ع)

(٢) قوله «على وجه التسبيب لأنه مكن» أول بهذا ؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فيخلقه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل ، وتبقى الآية على ظاهرها . (ع)

(٣) قوله «وقرئ وزين له سوء عمله» أى بدل قوله تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله) . (ع)

على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ، دلّ عليه قوله (إلى إله موسى) وصدّ، بفتح الصاد وضمها وكسرها، على نقل حركة العين إلى الفاء، كما قيل: قيل. والتباب الخسران والهلاك. وصدّ: مصدر معطوف على سوء عمله. وصدّوا هو وقومه.

وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)

قال ﴿أهدكم سبيل الرشاد﴾ فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشر كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط الله ويجلب الشقاوة فى العاقبة. وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هى الوطن والمستقر، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين: دعوة إلى دين الله الذى ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذى عاقبته النار، وحذر، وأنذر، واجتهد فى ذلك واحتشد، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين، وهو قوله تعالى (فوقاه الله سيآت ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) وفى هذا أيضاً دليل بين على أنّ الرجل كان من آل فرعون. والرشاد نقيض الغى. وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ماعليه فرعون وقومه هو سبيل الغى.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة، لأنها ظلم. وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة؛ لأنها فضل. قرئ: يدخلون ويدخلون ﴿بغير حساب﴾ واقع فى مقابلة إلا مثلها، يعنى: أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ماشئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة

وَيَـٰقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّـٰرِ (٤٢)

فإن قلت: لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى؟ قلت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه: أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم،

وهو يعلم وجه خلاصهم، ونصيحتهم عليه واجبة، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم، ويستدعى بذلك أن لايتهموه، فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وينزلوا على تنصيحه لهم، كما كرر إبراهيم عليه السلام فى نصيحة أبيه: يا أبت. وأما المجىء بالواو العاطفة، فلأن الثانى داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له، فأعطى الداخل عليه حكمه فى امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له، كما تقول: هداه إلى الطريق وهداه له ﴿ماليس لى به علم﴾ أى بربوبيته، والمراد بنفى العلم: نفى المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ماليس بإله، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها [1]

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾

﴿لاجرم﴾ سياقه على مذهب البصريين: أن يجعل (لا) ردا لما دعاه إليه قومه. وجرم: فعل بمعنى حق، وأن مع ما فى حيزه فاعله، أى: حق ووجب بطلان دعوته. أو بمعنى: كسب، من قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) أى: كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته، على معنى، أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته. ويجوز أن يقال: أن لاجرم، نظير: لابد، فعل من الجرم، وهو القطع، كما أن بدا فعل من التبديد وهو التفريق، فكما أن معنى: لابد أنك تفعل كذا، بمعنى: لابعد لك من فعله، فكذلك لاجرم أن لهم النار، أى: لاقطع لذلك، بمعنى أنهم أبداً يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولاقطع، لبطلان دعوة الأصنام، أى لا تزال باطلة لاينقطع ذلك فينقلب حقاً. وروى عن العرب: لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء، بزنة بد، وفعل وفعل: أخوان. كرشد ورشد، وعدم وعدم ﴿ليس له دعوة﴾ معناه: أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط، أى: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته، ثم يدعو العباد إليها إظهاراً لدعوة ربهم وما تدعون إليه وإلى عبادته، لايدعو هو إلى ذلك ولا يدعى الربوبية، ولو كان حيوانا ناطقاً لضج من دعائكم. وقوله ﴿فى الدنيا ولا فى الآخرة﴾ يعنى أنه فى الدنيا جماد لايستطيع شيئاً

(١) قال محمود: المراد بنفى العلم نفى المعلوم، كأنه قال: وأشرك به ماليس بإله، وماليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها. قال أحمد: وهذا من قبيل ☼ على لاحب لايهتدى بمناره ☼ أى: لامنار له فيهتدى به، وكلام الزمخشرى ههنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون (ماعلمت لكم من إله غيرى).

من دعاء وغيره ، وفى الآخرة : إذا أنشأه الله حيوانا ، تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته . وقيل معناه ليس له استجابة دعوة تنفع فى الدنيا ولا فى الآخرة . أودعوة مستجابة ، جعلت الدعوة التى لااستجابة لها ولامنفعة فيها كلا دعوة . أو سميت الاستجابة باسم الدعوة ، كما سمى الفعل المجازى عليه باسم الجزاء فى قولهم : كما تدين تدان . قال الله تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء) . ﴿المسرفين﴾ عن قتادة : المشركين . وعن مجاهد : السفاكين للدماء بغير حلها . وقيل : الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون . وقرىء : فستذكرون ، أى : فسيذكر بعضكم بعضاً ﴿وأفوض أمرى إلى الله﴾ لأنهم توعدوه .

فَوَقَـٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

﴿فوقاه الله سيئات ماكروا﴾ شدائد مكرهم وماهموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم . وقيل : نجا مع موسى ﴿وحاق بآل فرعون﴾ ماهموا به من تعذيب المسلمين، ورجع عليهم كيدهم ﴿النار﴾ بدل من سوء العذاب . أو خبر مبتدإ محذوف ، كأن قائلا قال : ماسوء العذاب ؟ فقيل : هو النار . أو مبتدأ خبره ﴿يعرضون عليها﴾ وفى هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها، وعرضهم عليها : إحراقهم بها . يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به ، وقرئ : النار ، بالنصب ، وهى تعضد الوجه الأخير . وتقديره : يدخلون النار يعرضون عليها . ويجوز أن ينتصب على الاختصاص ﴿غدواً وعشيا﴾ فى هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم ، فإمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب ، أو ينفس عنهم. ويجوز أن يكون (غدواً وعشيا) : عبارة عن الدوام ، هذا مادامت الدنيا ، فإذا قامت الساعه قيل لهم ﴿ادخلوا﴾ يا ﴿آل فرعون أشدّ﴾ عذاب جهنم. وقرئ : أدخلوا آل فرعون ، أى : يقال لخزنة جهنم : أدخلوهم . فإن قلت : قوله (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) معناه : أنه رجع عليهم ماهموا به من المكر بالمسلمين ، كقول العرب : من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكبا ، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم : لم يكن مكرهم راجعا عليهم ، لأنهم لايعذبون بجهنم . قلت : يجوز أن يهم الإنسان بأن يغرق قوما فيحرق بالنار، ويسمى ذلك حيقا ؛ لأنه همّ بسوء فأصابه مايقع عليه اسم السوء . ولا يشترط فى الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه ، ويجوز أن يهمّ فرعون - لما سمع إنذار المسلمين بالنار ، وقول المؤمن (وأن المسرفين هم أصحاب النار) - فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار ، فحاق به مثل ما أضمره وهمّ بفعله . ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر .

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾

واذكر وقت يتحاجون ﴿تبعا﴾ تباعا ، كخدم فى جمع خادم . أو ذوى تبع ، أى : أتباع ، أو وصفاً بالمصدر .

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾

وقرئ . كلا ، على التأكيد لاسم إن ، وهو معرفة ، والتنوين عوض من المضاف إليه ، يريد : إنا كلنا . أو كلنا فيها . فإن قلت : هل يجوز أن يكون «كلا» حالا قد عمل (فيها) فيها ؟ قلت : لا لأن الظرف لايعمل فى الحال متقدمة كما يعمل فىالظرف متقدما تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول قائما فى الدار زيد (قد حكم بين العباد) قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَٰؤُا الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

(لخزنة جهنم) للقوام بتعذيب أهلها . فإن قلت : هلا قيل : الذين فى النار لخزنتها ؟ قلت : لأن فى ذكر جهنم تهويلا و تفظيعاً ويحتمل أن جهنم هىأبعد النار قعراً ، من قولهم : بئر جهنام بعيدة القعر[1] ، وقولهم فى النابغة : جهنام ، تسمية بها ، لزعمهم أنه يلقى الشعر على لسان المنتسب إليه ، فهوبعيد الغور فى علمه بالشعر[2] ، كما قال أبو نواس فى خلف الأحمر :

* قُلَيْذَمٌ مِنَ الْعَيَالِيمِ الْخُسُفْ *[3]

(١) قوله «بئر جهنام بعيدة القعر ... الخ» فى الصحاح : بكسر الجيم والهاء . (ع)

(٢) قال محمود : «فان قلت : فهلا قيل لخزنتها ، وأجاب أن فى ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعراً من قولهم : بئر جهنام ، أى : بعيدة القعر ، وكان النابغة يسمى الجهنام لبعد غوره فى الشعر» قال أحمد : الأول أظهر ، والتفخيم فيه من وجهين ، أحدهما : وضع الظاهرموضع المضمر ، وهو الذى أشار إليه والثانى : ذكره وهو شىء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه ؛ لأن جهنم أفظع من النار ، إذ النار مطلقة ، وجهنم أشدها .

(٣) أودى جميع العلم مذ أودى خلف ... من لايعد العلم إلا ماعرف
راوية لايجتنى من الصحف ... قليذم من العياليم الخسف

وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم ﴿أو لم تك تأتيكم﴾ إلزام للحجة وتوبيخ ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع ، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات ﴿قالوا فادعوا﴾ أنتم ، فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم ، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها ، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين ، وليس قولهم (فادعوا) لرجاء المنفعة ، ولكن للدلالة على الخيبة ؛ فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه ، فكيف يسمع دعاء الكافر .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي في الدنيا والآخرة ، يعني أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من يقتص [١] من أعدائهم ولو بعد حين : والأشهاد . جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، يريد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم (لتكونوا شهداء على الناس) . واليوم الثاني بدل من الأول ، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة ، وأنهم لو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة [٢] لقوله تعالى (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، ﴿ولهم اللعنة﴾ البعد من رحمة الله ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي سوء دار الآخرة وهو عذابها . وقرئ : تقوم . ولا تنفع ، بالتاء والياء .

ـــ لأبي نواس يرثي خلف الأحمر بن أحمد . وأودى : هلك . ومن لا يعد العلم صفة خلف ، أي : لا يعتبر من العلم إلا ما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين . أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين ، فهو راوية ، أي : كثير الرواية لا يأخذ من الكتب ، شبهها بالروضة المثمرة على طريق المكنية ، والاجتناء تخييل . والخِضَمّ : البئر الغزيرة الماء . والعيلم : الحفرة الكثيرة الماء . والخسف : البعيدة الغور العميقة ، شبهه بذلك تشبيها بليغا . لكثرة علمه ومعرفته للمعاني البعيدة الخفية .

(١) قوله «من يقتص» أي : يقدر . (ع)

(٢) قال محمود : «يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم ، لأنها باطلة . ويحتمل أنهم لا يعتذرون ، ولو جاؤا بمعذرة لم تكن مقبولة قال أحمد : وهما الاحتمالان في قوله تعالى (ولا شفيع يطاع) ولكن بين الموضعين فرقا يصير أحدهما معه عكس الآخر ، وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة ، يكون قد نفي صفة المعذرة وهي المنفعة التي لها تراد المعذرة ، قطعا لرجائهم كي لا يعتذروا البتة ، كأنه قيل إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع ما لا ثمرة له وفي الآية المتقدمة جعل نفي الموصوف بتا لنفي الصفة ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل ، وفي المتقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ الْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ (٥٤)

يريد بالهدى : جميع ما آتاه فى باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع ﴿وأورثنا﴾ وتركنا على بنى إسرائيل من بعده ﴿الكتاب﴾ أى التوراة ﴿هدى وذكرى﴾ إرشادا وتذكرة ، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال . وأولو الألباب : المؤمنون به العاملون بما فيه .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ (٥٥)

﴿فاصبر إنّ وعد الله حق﴾ يعنى أنّ نصرة الرسل فى ضمان الله ؛ وضمان الله لا يخلف ، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده ، وإبقاء آثار هداه فى بنى إسرائيل ، والله ناصرك كما نصرهم ، ومظهرك على الدين كله ، ومبلغ ملك أمّتك مشارق الأرض ومغاربها ، فاصبر على ما يجرعك قومك من الغصص ، فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ، وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار ؛ ودم على عبادة ربك والثناء عليه ﴿بالعشى والإبكار﴾ وقيل : هما صلاتا العصر والفجر .

إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)

﴿إن فى صدورهم إلا كبر﴾ إلا تكبر وتعظم ، وهو إرادة التقدم والرياسة ، وأن لا يكون أحد فوقهم ، ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ، لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة . أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسدا وبغيا . ويدل عليه قوله تعالى (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أو إرادة دفع الآيات بالجدال ﴿ما هم ببالغيه﴾ أى ببالغى موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات . وقيل : المجادلون هم اليهود ، وكانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح بن داود ، يريدون الدجّال ، ويبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك ، فسمى الله تمنيهم ذلك كبراً ، ونفى أن يبلغوا متمناهم ﴿فاستعذ بالله﴾ فالتجئ إليه من كيد من

يحسدك ويبغى عليك ﴿إنه هو السميع﴾ لما تقول ويقولون ﴿البصير﴾ بما تعمل ويعملون، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

فإن قلت. كيف اتصل قوله ﴿لخلق السموات والأرض﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجادلتهم فى آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شىء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله[1] ﴿لا يعلمون﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَلَا الْمُسِىءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

ضرب الأعمى والبصير مثلا للمحسن والمسىء. وقرئ: يتذكرون بالياء والتاء، والتاء أعم.

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

﴿لاريب فيها﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة، وليس بمرتاب فيها، لأنه لا بد من جزاء ﴿لا يؤمنون﴾ لا يصدقون بها.

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف اتصل قوله (لخلق السموات والأرض) بما قبله؟ وأجاب بأن مجادلتهم فى آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها، وبأنها خلق عظيم، فخلق الناس بالقياس إليه شىء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الانسان الضعيف أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله» قال أحمد: الأولوية فى هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين، أحدهما ماذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر. الثانية: أن مجادلتهم كانت فى البعث وهو الاعادة ولاشك أن الابتداء أعظم وأبهر من الاعادة، فاذا كان ابتداء خلق العظيم يعنى السموات والأرض داخلا تحت القدرة فابتداء خلق الحقير: يعنى الناس أدخل تحتها، وإعادته أدخل من ابتدائه، فهو أولى بأن يكون مقدورا عليه مما اعترفوا به من خلق السموات والأرض بدرجتين، وإلى هذا الترتيب وقعت الاشارة بقوله تعالى فى (الم غلبت الروم): (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره، أى: خلقها من آياته، فكيف بما هو أحط من قيامها بدرجتين وهو إعادة البشر أهون عليه من الابتداء ليتحقق الدرجتان المذكورتان، فقال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وإذا تأملت الذى ذكرته منسوبا لما ذكره الزمخشرى: علمت أن ماذكره هو لباب المراد فجدد عهدا به إن لم تعلم ذلك.

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)

﴿ادعونى﴾ اعبدونى، والدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن، ويدل عليه قوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى) والاستجابة: الإثابة؛ وفى تفسير مجاهد: اعبدونى أثبكم. وعن الحسن ـ وقد سئل عنها ـ: اعملوا وأبشروا، فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثورى أنه قيل له: ادع الله، فقال. إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفى الحديث «إذا شغل عبدى طاعتى عن الدعاء. أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» [1] وروى النعمان بن بشير رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدعاء هو العبادة» [2] وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما، ويريد بعبادتى: دعائى، لأنّ الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها، يصدقه قول ابن عباس رضى الله عنهما: أفضل العبادة الدعاء. [3] وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبيا. رسلا: كان يقول لكل نبيّ أنت شاهدى على خلقى، وقال لهذه الأمة (لتكونوا شهداء على الناس)؛ وكان يقول: ما عليك من حرج، وقال لنا (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) وكان يقول: ادعنى أستجب لك؛ وقال لنا (ادعونى أستجب لكم). وعن ابن عباس: وحدونى أغفر لكم، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد ﴿داخرين﴾ صاغرين.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١)

﴿مبصرا﴾ من الإسناد المجازى، لأن الإبصار فى الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت: لم قرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل:

(١) أخرجه عبدالرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحرث قال «يقول الله: إذا اشتغل عبدى بثنائه عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وهذا مرسل، وفى الترمذى عن أبى سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

(٢) أخرجه أصحاب السنن، وتقدم فى مريم

(٣) أخرجه الحاكم فى الدعاء من وجهين عنه.

لتبصروا فيه ، فاتت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا ـ والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج ، وساكن لا ريح فيه ـ لم تتميز الحقيقة من المجاز . فإن قلت : فهلا قيل : لمفضل ، أو لمتفضل ؟ قلت : لأن الغرض تنكير الفضل ، وأن يجعل فضلا لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يستوى بالإضافة . فإن قلت: فلو قيل: ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس ؟ قلت : فى هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه ، كقوله : (إن الإنسان لكفور) ، (إن الإنسان لربه لكنود) ، (إن الإنسان لظلوم كفار) .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

﴿ذلكم﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التى لا يشاركه فيها أحد هو ﴿الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو﴾ أخبار مترادفة ، أى : هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شىء وإنشائه لا يمتنع عليه شىء ، والوحدانية : لا ثانى له ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان . ثم ذكر أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة : أفك كما أفكوا . وقرئ : خالق كل شىء ، نصبا على الاختصاص . وتؤفكون : بالتاء والياء .

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

هذه أيضا دلالة أخرى على تميزه بأفعال خاصة ، وهى أنه جعل الأرض مستقرا ﴿والسماء بناء﴾ أى قبة . ومنه : أبنية العرب لمضاربهم ؛ لأن السماء فى منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض ﴿فأحسن صوركم﴾ وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد . قيل : لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان : وقيل لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ، كقوله تعالى (فى أحسن تقويم) ﴿فادعوه﴾ فاعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أى الطاعة من الشرك والرياء ، قائلين ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من قال لا إله إلا الله . فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين [1] .

(١) أخرجه الطبرى ، والحاكم أيضا ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)

فإن قلت: أما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه؟ قلت: بلى ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون) وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل ـ كان ذكر البينات ذكرا لأدلة العقل والسمع جميعا، وإنما ذكر مايدل على الأمرين جميعا؛ لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى فى إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية. (١)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧)

﴿لتبلغوا أشدكم﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا. وكذلك لتكونوا. وأما ﴿ولتبلغوا أجلا مسمى﴾ فمعناه: ونفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى، وهو وقت الموت. وقيل: يوم القيامة. وقرئ: شيوخا، بكسر الشين. وشيخا، على التوحيد، كقوله (طفلا) والمعنى: كل واحد منكم. أو اقتصر على الواحد؛ لأن الغرض بيان الجنس ﴿من قبل﴾ من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا ﴿ولعلكم تعقلون﴾ ما فى ذلك من العبر والحجج.

(١) قال محمود: «فإن قلت: النبي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجيء الوحي، فعلام تحمل الآية؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البينات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومتضمنة ذكرها، نحو قوله (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون) وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعا، وإنما ذكر مايدل على الأمرين جميعا لأن ذكر الأمرين أقوى فى إبطال مذهبهم، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية» قال أحمد: اللائق بقواعد السنة أن يقال: أما معرفة الله تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة، فستفاد من أدلة العقول، وقد ترد الأدلة العقلية فى مضامين السمعيات. وأما وجوب عبادة الله تعالى وتحريم عبادة الأصنام، فحكم شرعى لايستفاد إلا من السمع؛ فعلى هذا يترك الجواب عن هذا السؤال. وقوله تعالى (إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) إنما أريد به ـ والله أعلم ـ: تحريم عبادة غير الله، فهذا لايستفاد إلا من نهى الله تعالى عن ذلك، لا من العقل، لكن قاعدة الزمخشرى تقتضى أن تحريم عبادة غير الله تعالى تلقى من العقل قبل ورود الشرع، إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتقبيح، ولهذا أورد الاشكال عليه، واحتاج إلى الجواب عنه، ثم قوله فى الجواب أن أدلة الشرع مقوية لأدلة العقل ضعيف، مع اعتقاده أن العقل يدل على الحكم قطعا، ومادل قطعا كيف يحتمل الزيادة والتأكيد، والقطعيات لاتفاوت فى ثبوتها.

هُوَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿فإذا قضى أمراً فإنما﴾ يكونه من غير كلفة ولا معاناة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة، وسائر ماذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدوراً لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شيء وأسرعه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى ءَايَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُم قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿بالكتاب﴾ بالقرآن ﴿وبما أرسلنا به رسلنا﴾ من الكتب. فإن قلت: وهل قوله ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم﴾ إلى مثل قولك: سوف أصوم أمس؟ قلت: المعنى على إذا: إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها: عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال. وعن ابن عباس: والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء، على عطف الجملة الفعلية على الإسمية. وعنه: والسلاسل يسحبون بجر السلاسل. ووجهه أنه لو قيل: إذ أعناقهم فى الأغلال مكان قوله (إذ الأغلال فى أعناقهم) لكان صحيحا مستقيما، فلما كانتا عبارتين معتقبتين: حمل قوله (والسلاسل) على العبارة الأخرى. ونظيره:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً ... وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَيْنٍ غُرَابُهَا [1]

كأنه قيل: بمصلحين. وقرئ: وبالسلاسل يسحبون ﴿فى النار يسجرون﴾ من سجر التنور إذا

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٨١ فراجعه إن شئت اه مصححه.

ملأه بالوقود . ومنه : السجير[١] ، كأنه سجر بالحب ، أى : ملئ . ومعناه : أنهم فى النار فهى محيطة بهم ، وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم . ومنه قوله تعالى (نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة) اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك ﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عن عيوننا ، فلا نراهم ولا ننتفع بهم . فإن قلت : أما ذكرت فى تفسير قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) : أنهم مقرونون بآلهتهم ، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم ؟ قلت : يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم : أينما كنتم تشركون من دون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم ، وأن يكونوا معهم فى سائر الأوقات[٢] ، وأن يكونوا معهم فى جميع أوقاتهم ؛ إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول : حسبت أن فلانا شىء فإذا هو ليس بشىء إذا خبرته فلم تر عنده خيراً ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا ﴿ذلكم﴾ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح ﴿بغير الحق﴾ وهو الشرك وعبادة الأوثان ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ السبعة المقسومة لكم . قال الله تعالى (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) . ﴿خالدين﴾ مقدرين الخلود ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم . فإن قلت : أليس قياس النظم أن يقال : فبئس مدخل المتكبرين ، كما تقول : زر بيت الله فنعم المزار ، وصل فى المسجد الحرام فنعم المصلى ؟ قلت : الدخول المؤقت بالخلود فى معنى الثواء .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

﴿فإما نرينك﴾ أصله : فإن نرك . و(ما) مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك ألحقت النون بالفعل[٣] . ألا تراك لا تقول . إن تكرمنى أكرمك ، ولكن : إما تكرمنى أكرمك . فإن قلت : لا يخلو إما أن تعطف ﴿أو نتوفينك﴾ على نرينك وتشركهما فى جزاء واحد وهو قوله تعالى ﴿فإلينا يرجعون﴾ فقولك : فإما نرينك بعض الذى نعدهم فإلينا يرجعون : غير صحيح ، وإن

---

(١) قوله «ومنه السجير» فى الصحاح : «سجير الرجل» : صفيه وخليله ، والجمع السجراء . (ع)

(٢) قوله «فى سائر الأوقات» أى باقى الأوقات بعد وقت التوبيخ . (ع)

(٣) قال محمود : «الصحيح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط . ولولا (ما) لم يجز دخولها» قال أحمد : وإنما كان كذلك لأن النون المؤكدة حقها أن تدخل فى غير الواجب ، والشرط من قبيل الواجب ، إلا أنه إذا أكد قوى إبهامه فقربته قوة الابهام من غير الواجب ، فيساغ دخول النون فيه .

جعلت (فإلينا يرجعون) مختصاً بالمعطوف الذي هو نتوفينك ، بقي المعطوف عليه بغير جزاء . قلت : (فإلينا يرجعون) متعلق بنتوفينك ، وجزاء (نرينك) محذوف ، تقديره : فإما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك . أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم[1] منهم أشدّ الانتقام ونحوه قوله تعالى (فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)

﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ قيل : بعث الله ثمانية آلاف نبيّ : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس . وعن عليّ رضى الله عنه : أنّ الله تعالى بعث نبياً أسود[2] ، فهو ممن لم يقصص عليه . وهذا فى اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عناداً ، يعنى : إنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم ﴿أن يأتى بآية إلا بإذن الله﴾ فمن لى بأن آتى بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن فى الإتيان بها ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات . وأمر الله : القيامة ﴿المبطلون﴾ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحراً .

اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا

---

(١) قال محمود : « إما أن يشرك مع الأول فى الشرط ويكون قوله (فالينا يرجعون) جزاء مشركا بينهما فلا يستقيم المعنى ، على : فاما نرينك بعض الذى نعدهم .. فالينا يرجعون وإن جعل الجزاء مختصا بالثانى بقى الأول بغير جزاء . وأجاب بأنه مختص بالثانى ، وجزاء الأول محذوف ، تقديره : فاما نرينك بعض الذى نعدهم وهو ما حل بهم يوم بدر ، فذاك . أو نتوفينك ، فالينا يرجعون فننتقم منهم » قال أحمد : وإنما حذف جواب الأول دون الثانى لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل فى إنكائهم ، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم ، وهو حصول المراد على التمام . وأما إن لم يقع ووقع الثانى وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم ، فهذا هو الذى يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس ، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم فى الآخرة ولا بد منه . قال : ومثله قوله تعالى (فاما نذهبنّ بك فانا منهم منتقمون ، أو نرينك الذى وعدناهم فانا عليهم مقتدرون) : كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية

(٢) أخرجه الطبرى والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه من رواية جابر الجعفى عن عبد الله بن يحيى عن على رضى الله عنه فى قوله (ومنهم من لم نقصص عليك) قال أرسل الله عبدا حبشيا ، فهو الذى لم نقصص عليك ، وروى الثعلبي من وجه آخر عن جابر عن أبى الطفيل عن على ، كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشى . بعث نبى من الحبشة إلى قومه . ثم قرأ (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ـ الآية) .

مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

الأنعام: الإبل خاصة. فإن قلت: لم قال ﴿لتركبوا منها﴾ ولتبلغوا عليها، ولم يقل، لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال: منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون[1] عليها حاجة فى صدوركم؟ قلت: فى الركوب: الركوب فى الحج والغزو، وفى بلوغ الحاجة: الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم، وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع: فمن جنس المباح الذى لا يتعلق[2] به إرادته: ومعنى قوله ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون، ولكن عليها وعلى الفلك فى البر والبحر. فإن قلت: هلا قيل: وفى الفلك، كما قال (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين)؟ قلت: معنى الإيعاء[3] ومعنى الاستعلاء: كلاهما مستقيم؛ لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها، فلما صح المعنيان صحت العبارتان. وأيضا فليطابق قوله (وعليها) ويزاوجه ﴿فأى آيات الله﴾ جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك: فأية آيات الله قليل، لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب، وهى فى (أى) أغرب لإبهامه.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

(١) قال محمود: «فان قلت: هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا، ومنها تركبون ومنها تأكلون، وعليها تبلغون؟ وأجاب بأن فى الركوب الركوب فى الغزو والحج، وفى بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لاقامة دين أو علم، وهذه أغراض دينية: إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذى لا يتعلق به الارادة» قال أحمد: جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية، وهى أن الأمر راجع إلى الارادة، فالواجب والمندوب مرادان؛ لأنهما مندرجان فى الأمر، والمباح غير مراد، لأنه غير مأمور به، وهذا من هنيات المعتزلة فى إنكار كلام النفس، فلا نطيل فيه النفس. وقاعدة أهل الحق أنه لا ربط بين الأمر والارادة، فقد يأمر بخلاف مايريد، ويريد خلاف مايأمر به، فالجواب الصحيح إذاً أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هى الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال فى ابتغاء الأوطار، فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض. وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجرى مجراها فهى وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك، بل الأكل بالغنم خصوصاً الضأن أشهر، فلذلك اختيرت الضحايا منها على النعم، فلذلك جردت هذه المنافع بالاخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود.

(٢) قوله «المباح الذى لا يتعلق به» مبنى على مذهب المعتزلة: أن الارادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلا بالمطلوب. وعند أهل السنة: هى صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فتتعلق بجميع الممكنات، كما تقرر فى علم التوحيد. (ع)

(٣) قوله «معنى الايعاء» فى الصحاح: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته فى الوعاء. (ع)

كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣)

﴿وآثاراً﴾ قصورهم ومصانعهم. وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم ﴿فما أغنى عنهم﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام، ومحلها النصب، والثانية موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع، يعنى أى شىء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ فيه وجوه: منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم فى قوله تعالى (بل ادارك علمهم فى الآخرة): وعلمهم فى الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب، (وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى)، (وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا) وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء، كما قال عز وجل (كل حزب بما لديهم فرحون) ومنها: أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بنى يونان، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله: دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط: أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه، وقيل له. لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. ومنها: أن يوضع قوله (فرحوا بما عندهم من العلم) ولا علم عندهم البتة، موضع قوله: يفرحوا بما جاءهم من العلم، مبالغة فى نفى فرحهم بالوحى الموجب لأقصى الفرح والمسرة، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء. ومنها أن يراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به، كأنه قال: استهزؤا بالبينات وبما جاؤا به من علم الوحى فرحين مرحين. ويدل عليه قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) ومنها: أن يجعل الفرح للرسل. ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزائهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم: فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم. ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم: علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)، (ذلك مبلغهم من العلم) فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات ــ وهى أبعد شىء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف [1] عن الملاذ والشهوات ــ لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم، ففرحوا به.

---

(١) قوله «والظلف» فى الصحاح: ظلفت نفسى عن كذا ــ بالكسر ــ تظلف ظلفا، أى: كفت. (ع)

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

البأس : شدّة العذاب . ومنه قوله تعالى (بعذاب بئيس) . فإن قلت : أى فرق بين قوله تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ وبينه لو قيل : فلم ينفعهم إيمانهم ؟ قلت : هو من كان فى نحو قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) والمعنى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم[1] . فإن قلت : كيف ترادفت هذه الفاآت ؟ قلت : أما قوله تعالى (فما أغنى عنهم) فهو نتيجة قوله (كانوا أكثر منهم) وأما قوله (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) فجار مجرى البيان والتفسير، لقوله تعالى (فما أغنى عنهم) كقولك : رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء . وقوله ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ تابع لقوله (فلما جاءتهم) كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، وكذلك : (فلم يك ينفعهم إيمانهم) تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ﴿سنت الله﴾ بمنزلة (وعد الله) وما أشبهه من المصادر المؤكدة . و﴿هنالك﴾ مكان مستعار للزمان ، أى : وخسروا وقت رؤية البأس ، وكذلك قوله (وخسر هنالك المبطلون) بعد قوله (فإذا جاء أمر الله قضى بالحق) أى : وخسروا وقت مجيء أمر الله ، أو وقت القضاء بالحق .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له »[2]

---

(١) قال محمود : « فإن قلت : أى فرق بين قوله : فلم يك ينفعهم إيمانهم . وبينه لو قيل : فلم ينفعهم ، وأجاب بأن معنى (كان) هنا معناها فى قوله (ما كان لله أن يتخذ من ولد) بمعنى : فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم » قال أحمد : كان الذى ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هى (كان) الكثير استعمالها ، المكرر دورانها فى الكلام . وأما (كان) هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف ، بل هى مثل : صان ، وحان ، فى القلة ، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف ، وفائدة دخولها فى هذه الآية وأمثالها : المبالغة فى نفى الفعل الداخلة عليه بتعديد جهتى نفيه عموما باعتبار الكون ، وخصوصاً باعتباره فى هذه الآية مثلا ، فكأنه نفى مرتين ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبي بن كعب رضى الله عنه .

سورة [فصلت ، وتسمى] السجدة

مكية ، وآياتها ٥٤ وقيل ٥٣ آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤)

إن جعلت ﴿حم﴾ اسما للسورة كانت فى موضع المبتدأ . و ﴿تنزيل﴾ خبره . وإن جعلتها تعديدا للحروف كان (تنزيل) خبراً لمبتدأ محذوف و ﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل . أو خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف . وجوز الزجاج أن يكون (تنزيل) مبتدأ ، و (كتاب) خبره . ووجهه أن تنزيلا تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ ﴿فصلت آياته﴾ ميزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة : من أحكام وأمثال ومواعظ ، ووعد ووعيد ، وغير ذلك . وقرئ : فصلت ، أى : فرقت بين الحق والباطل . أوفصل بعضها من بعض باختلاف معانيها ، من قولك : فصل من البلد ﴿قرآنا عربياً﴾ نصب على الاختصاص والمدح ، أى : أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت . وقيل : هو نصب على الحال ، أى : فصلت آياته فى حال كونه قرآنا عربيا ﴿لقوم يعلمون﴾ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى المبين ، لا يلتبس عليهم شىء منه . فإن قلت : بم يتعلق قوله (لقوم يعلمون) ؟ قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم . أو فصلت آياته لهم . والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله ومابعده ، أى قرآنا عربيا كائناً لقوم عرب ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات . وقرئ : بشير ونذير ، صفة للكتاب . أو خبر مبتدأ محذوف ﴿فهم لايسمعون﴾ لايقبلون ولايطيعون ، من قولك : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى ، ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه ، فكأنه لم يسمعه .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾

والأكنة: جمع كنان، وهو الغطاء. والوقر ـ بالفتح ـ الثقل. وقرئ بالكسر. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، كقوله تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) ومج أسماعهم له كأن بها صمما عنه، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وماهم عليه، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وماهو عليه: حجابا ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه، فلا تلاقي ولا ترائي ﴿فاعمل﴾ على دينك ﴿إننا عاملون﴾ على ديننا. أو فاعمل في إبطال أمرنا، إننا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ إنا عاملون. فإن قلت: هل لزيادة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب) فائدة؟ قلت: نعم، لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب: لكان المعنى: أن حجابا حاصل وسط الجهتين، وأما بزيادة (من) فالمعنى: أن حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لافراغ[1]

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: ما فائدة (من) في قوله (ومن بيننا وبينك حجاب) وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب، ومن جهته أيضاً ابتدأ حجاب، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها، ولو لا ذكر من فيها لكان المعنى: على أن في المسافة بينهما حجاباً فقط». قال أحمد: ولا ينفك المعنى بدخول (من) عما كان عليه قبل، ولو كان الأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية، لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى، فيكون التقدير إذاً: ومن بيننا ومن بينك حجاب، وهذا يخل بمعنى (بين) إخلالا بينا، فانها تأبى تكرار العامل معها، حتى لو قال القائل: جلست بين زيد، وجلست بين عمرو: لم يكن مستقيما؛ لأن تكرار العامل يصيرها داخلة على مفرد فقط، ويقطعه عن قرينه المتقدم. ومن شأنها الدخول على متعدد، لأن في ضمن معناها التوسط. وزاد الزمخشري على هذا فجعل (بين) الثانية غير الأولى لأنه جعل الأولى بجهتهم والثانية بجهته، وليس الأمر كما ظنه، بل (بين) الأولى هي الثانية بعينها، وهي عبارة عن الجهة المتوسطة بين المضافين، وتكرارها إنما كان لأن المعطوف مضمر مخفوض، فوجب تكرار خافضه وهو بين، والدليل على هذا: أنه لا تفاوت باتفاق بين أن تقول: جلست بين زيد وعمرو؛ وبين أن تقول: جلست بين زيد وبين عمرو. وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازاً ومع المضمر وجوباً لما بيناه؛ فاذا وضح ذلك فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن موقع من هاهنا كموقعها في قوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً) وذلك للاشعار بأن الجهة المتوسطة مثلا بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير، ووجود من قريب من عدمها، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من، وهي قوله تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا. وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه: تبين ضعفه، والله الموفق. وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في درر الكتاب العزيز، فانها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية: كل واحد منها كاف في فنه، فأولها الحجاب الحائل الخارج، ويليه حجاب الصمم. وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ بالله، فلم تدع هذه الآية حجاباً مرتخياً إلا أسبلته ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعاً ولا صريخاً الا استلبته، فنسأل الله كفايته.

فيها . فإن قلت : هلا قيل : على قلوبنا أكنة ، كما قيل : وفى آذاننا وقر ؛ ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد ؛ لأنه لافرق فى المعنى بين قولك : قلوبنا فى أكنة . وعلى قلوبنا أكنة . والدليل عليه قوله تعالى (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) ولو قيل : إنا جعلنا قلوبهم فى أكنة : لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لايراعون الطباق والملاحظة[1] إلا فى المعانى .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)

فإن قلت : من أين كان قوله ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ﴾ جوابا لقولهم (قلوبنا فى أكنة)[2] ؟ قلت : من حيث أنه قال لهم : إنى لست بملك ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحى إلىّ دونكم فصحت ـ بالوحى إلىّ وأنا بشر ـ نبوّتى ، وإذا صحت نبوّتى : وجب عليكم اتباعى ، وفيما يوحى إلىّ : أن إلهكم إله واحد ﴿فاستقيموا إليه﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينا ولا شمالا ، ولا ملتفتين إلى مايسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك ﴿واستغفروه﴾ . وقرئ : قال إنما أنا بشر . فإن قلت : لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ؟ قلت : لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته . ألا ترى إلى قوله عز وجل (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم) أى : يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وماخدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة[3] من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردّة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحرب ،

(١) قوله «والملاحظة» لعله : والملاحة . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت : كيف كان هذا جوابا لما تقدمه» قال أحمد : وأجاب بما نلخصه فنقول : لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الاباء ، بدأهم بإقامة الحجة على وجوب القبول منه ، فانه بشر مثلهم لاقدرة له على إظهار المعجزات التى ظهرت ، وإنما القادر على إظهارها هو الله تعالى تصديقاً له عليه الصلاة والسلام ، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد ، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل .

(٣) قوله «إلا بلمظة من الدنيا» فى الصحاح «لمظ» إذا تتبع بلسانه بقية الطعام فى فمه اه فلمظة : بمعنى ملموظ كمضغة بمعنى ممضوغ . (ع)

وجوهدوا[1] . وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة . وقيل : كانت قريش يطعمون الحاج ، ويحرمون من آمن منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الإيمان .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

الممنون : المقطوع . وقيل : لا يمنّ عليهم لأنه إنما يمنّ التفضل . فأما الأجر فحق أداؤه . وقيل : نزلت في المرضى والزمنى والهرمى : إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر ، كأصح ما كانوا يعملون .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَـٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

﴿أئنكم﴾ بهمزتين[2]: الثانية بين بين . وءائنكم ، بألف بين همزتين ﴿ذلك﴾ الذى قدر على خلق الأرض فى مدة يومين . هو ﴿رب العالمين ... ... رواسى﴾ جبالا ثوابت . فإن قلت : مامعنى قوله ﴿من فوقها﴾ وهل اختصر على قوله (وجعل فيها رواسى) كقوله تعالى (وجعلنا فيها رواسى شامخات) ، (وجعلنا فى الأرض رواسى) ، (وجعل لها رواسى) ؟ قلت : لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها ، أو مركوزة فيها كالمسامير : لمنعت من الميدان أيضا ، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض ،

---

(١) قال محمود : «فان قلت : لم خص الزكاة وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الانسان ماله وهو شقيق روحه ، فبذله مصداق لاستقامته ونصوع طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، وأهل الردة ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا» قال أحمد : كلام حسن بعد تبديل قوله : وما خدع المؤلفة ، فان استعماله الخداع غير لائق ، لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الايمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة وما نحا هذا النحو .

(٢) قوله «أئنكم بهمزتين» لعله : قرئ بهمزتين... الخ . (ع)

لتكون المنافع فى الجبال معرضة لطالبيها ، حاضرة محصليها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه ، وهو ممسكها عز وعلا بقدرته ﴿وبارك فيها﴾ وأكثر خيرها وأنماه ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم . وفى قراءة ابن مسعود : وقسم فيها أقواتها ﴿فى أربعة أيام سواء﴾ فذلكة لمدة خلق الله الأرض وما فيها ، كأنه قال : كل ذلك فى أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان . قيل : خلق الله الأرض فى يوم الأحد ويوم الاثنين ، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء . وقال الزجاج : فى أربعة أيام فى تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة اليومين . وقرئ : سواء ، بالحركات الثلاث : الجر على الوصف والنصب على : استوت سواء ، أى : استواء : والرفع على : هى سواء . فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿للسائلين﴾ ؟ قلت : بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل : فى كم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو يقدر : أى : قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين . وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج .[1] فإن قلت : هلا قيل فى يومين ؟ وأى فائدة فى هذه الفذلكة ؟ قلت : إذا قال فى أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت فى يومين ، علم أن ما فيها خلق فى يومين ، فبقيت المخايرة بين أن تقول فى يومين وأن تقول فى أربعة أيام سواء ، فكانت فى أربعة أيام سواء فائدة ليست فى يومين ، وهى الدلالة على أنها كانت أياما كاملة بغير زيادة ولا نقصان . ولو قال : فى يومين ـ وقد يطلق اليومان على أكثرهما ـ لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ من قولك :

---

(١) قال محمود : «إن قوله (فى أربعة أيام) فذلكة بمدة خلق الله الأرض وما فيها ، كأنه قال : وقدر فيها أقواتها فى يومين آخرين ، فذلك أربعة أيام سواء . وقال : ومعنى سواء : كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان ، ونقل عن الزجاج أن معنى الآية فى تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة : اليومين ، ثم قال : فان قلت بم تعلق قوله (للسائلين) ؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل : فى كم خلقت الأرض وما فيها ؟ أو يقدر ، أى : قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين ، ثم قال : وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد : لم يبين امتناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول : مقتضى التفسير الأول أن قوله فى أربعة أيام فذلكة ، ومن شأنها الوقوع فى طرف الكلام بعد تمامه ، فلو جعل قوله (للسائلين) متعلقاً بمقدر : لزم وقوع الفذلكة فى حشو الكلام ، ولا كذلك على تفسير الزجاج ؛ فان الأربعة على قوله من تتمة الأول ، وهى متعلقة بمقدر على تأويل حذف التتمة تعلق الظرف بالمظروف ، ليلائم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها . وتفسير الزجاج ـ والله أعلم ـ أرجح ؛ فانه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذى قدره ، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة ، إذ ذكر جملة العدد الذى هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها ، وعلى تفسير الزمخشرى تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها ، فانه لم يذكر منها سوى يومين خاصة ، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة ، ثم تأتى هى على الجملة كقوله (فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) .

استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه توجها لا يلوى على شيء ، وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج ، ونحوه قولهم : استقام إليه وامتد إليه . ومنه قوله تعالى (فاستقيموا إليه) والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك . قيل : كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء ، فأخرج من الماء دخانا ، فارتفع فوق الماء وعلا عليه ، فأيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع . ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالها : أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع ،[1] وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه ، فقالتا : أتينا على الطوع لا على الكره . والغرض تصوير[2] أثر قدرته فى المقدورات لا غير ؛ من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب . ونحوه قول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقنى ؟ قال الوتد : اسأل من يدقنى ، فلم يتركنى ، ورائى الحجر الذى ورائى .[3] فإن قلت : لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها فى الأمر بالاتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت : قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة ، ثم دحاها بعد خلق السماء ، كما قال تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى . ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف : ائتى يا أرض مدحوّة قرارا ومهادا لأهلك ، وائتى يا سماء مقببة سقفا لهم . ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع ، كما تقول : أتى عمله مرضيا ، وجاء مقبولا . ويجوز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذى أريده وتقتضيه الحكمة والتدبير : من كون الأرض قراراً للسماء ، وكون السماء سقفا للأرض . وتنصره قراءة من قرأ : آتيا ، وآتينا : من المؤاتاة وهى الموافقة : أى : لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها . قالتا ؛ وافقنا وساعدنا . ويحتمل وافقا أمرى ومشيئتى ولا تمتنعا . فإن قلت : ما معنى طوعا أو كرها ؟ قلت : هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما

---

(١) قوله «فعل الآمر المطاع» لعله : أمر الآمر . (ع)

(٢) قوله «تصوير أثر قدرته» لعله : تأثير . (ع)

(٣) قال محمود : «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع اذا ورد عليه الأمر المطاع ، فهذا وجه . واما أن يكون تخييلا فيبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السموات والارض فأجاباه ، والغرض منه تصوير أثر القدرة فى المقدور من غير أن يحقق شيئا من الخطاب والجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائط للوتد لم تشقنى ؟ فقال الوتد : اسأل من يدقنى لم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى» قال أحمد : قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل على كلام الله تعالى . فان معنى هذا الاطلاق لوكان صحيحا والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة ، لما فيها من إيهام وسوء أدب ، والله أعلم .

من تأثير قدرته محال ؛ كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعا أو كرها . وانتصابهما على الحال ، بمعنى : طائعتين أو مكرهتين . فإن قلت : هلا قيل : طائعتين على اللفظ ؟ أو طائعات على المعنى ؟ لأنها سموات وأرضون . قلت: لما جعلن مخاطبات ومجيبات ، ووصفن بالطوع والكره قيل :طائعين ، في موضع: طائعات، نحو قوله (ساجدين).[1] ﴿فقضاهن﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال (طائعين) ونحوه (أعجاز نخل خاوية) ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات ، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال ، والثاني على التمييز . قيل خلق الله السموات وما فيها في يومين: في يوم الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة . فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة . وفي هذا دليل على ماذكرت ، من أنه لو قيل : في يومين في موضع أربعة أيام سواء ، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان[2] . فإن قلت : فلو قيل : خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها

(١) قال محمود : فإن قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالاتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين ؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة ، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال (والأرض بعد ذلك دحاها) فالمعنى : ائتيا على ما ينبغي من الشكل : ائتي يا أرض مدحوة وقرارا ومهادا ، وائتي يا سماء سقفا مقبية . ثم قال : فإن قلت مامعنى طوعا أو كرها . وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : افعل هذا شئت أو أبيت . ثم قال : فإن قلت : هلا قيل طائعتين ، على اللفظ . وطائعات ، على المعنى ؛ لأنها سموات وأرضون . وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره . قيل : طائعين في موضع طائعات ، نحو قوله ساجدين» قال أحمد : لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر ، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين : أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة ، وهذا هو السؤال الذي أورده . الثاني أتى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل ، وهذا لم يذكره ، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره ، ولهذا نظره بقوله (ساجدين) فإن تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء . فأما السؤال الآخر فلا ؛ لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة ، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في الكلام المذكر على المؤنث على المنهاج المعروف ؛ فأما هذه الآية فتزيد على تلك بهذا السؤال الآخر : وهو أن جميع ماتقدم ذكره من السموات والأرض مؤنثة ، فيقال أولا : لم ذكرها ، وثانيا : لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء ، ليتحقق نسبة السؤال والجواب ، والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها ، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه ، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السموات والأرض بالأفلاك مثلا وما في معناه من المذكر ، ثم يغلب المذكر على المؤنث ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضاً .

(٢) قال محمود : «وقيل : إن الله تعالى خلق السموات ومافيها في يوم الخميس ويوم الجمعة ، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة ، وخلق آدم في تتمة اليوم ، وفيه تقوم القيامة ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال : في يومين ، في موضع أربعة أيام سواء ، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان» قال أحمد : كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد ، حيث لم يكن خلق السموات بما فيها في جملة اليومين ، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها ؛ لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها ، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر ، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر ، وهذا لا يتم له منه غرض ، فإن للقائل أن يقول : إنما كان خلق السموات بما فيها في يومين كاملين ؛ لأن آدم لم يكن في السموات حينئذ وبخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله ، فتأمله .

فى يومين كاملين . أو قيل بعد ذكر اليومين : تلك أربعة سواء ؟ قلت : الذى أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقا لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك الركب ،[1] ليتميز الفاضل من الناقص ، والمتقدم من الناكص ، وترتفع الدرجات ، ويتضاعف الثواب ﴿أمرها﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك . أو شأنها وما يصلحها ﴿وحفظا﴾ وحفظناها حفظا ، يعنى من المسترقة بالثواقب . ويجوز أن يكون مفعولا له على المعنى ، كأنه قال : وخلقنا المصابيح زينة وحفظا .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾

﴿فإن أعرضوا﴾ بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته ، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة : أى عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة . وقرئ : صعقة (مثل) صعقة عاد وثمود : وهى المرة من الصعق أو الصعق . يقال : صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا ، وهو من باب : فعلته ففعل ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان (لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة ، وتقول : استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لى فيه حيلة . وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ؛ لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضى وما جرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم . وقيل : معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم . فإن قلت : الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم ، وكيف يخاطبونهم بقولهم (إنا بما أرسلتم به كافرون) ؟ قلت : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم ، أى من قبلهم وممن يجىء من خلفهم ، أى من بعدهم ؛ فكان الرسل جميعاً قد جاءوهم . وقولهم (إنا بما أرسلتم به كافرون) خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم . أن فى ﴿أن لاتعبدوا﴾ بمعنى أى ، أو مخففة من الثقيلة ، أصله : بأنه لاتعبدوا ، أى : بأنّ الشأن والحديث قولنا لكم لاتعبدوا ، ومفعول شاء محذوف أى ﴿لو شاء

(١) قوله «من مغاصاة القرائح ومصاك الركب» أى أمكنة الغوص على اللؤلؤ ، وأمكنة اصطكاك الركب . (ع)

ربنا﴾ إرسال الرسل ﴿لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون﴾ معناه : فإذ أنتم بشر ولستم بملائكة ، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به ، وقولهم (أرسلتم به) ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم ، كما قال فرعون (إنّ رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) . روى أنّ أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره [1] ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفى علىّ ، فأتاه فقال : أنت يا محمد خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبدالله ؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكت ؛ فلما فرغ قال : (بسم الله الرحمن الرحيم حم ... إلى قوله ... صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود : أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦)

﴿فاستكبروا فى الأرض﴾ أى تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوة وعظم الأجرام . أو استعلوا فى الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية ﴿من أشد منا قوة﴾ كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم ، وبلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة

(١) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة : حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلا ، ووصله ابن أبى شيبة ، وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل ، كلهم من رواية الأجلح الكندى عن الزيال ابن حرملة عن جابر مطولا .

من الجبل فيقتلعها بيده . فإن قلت : القوّة هى الشدّة والصلابة فى البنية ، وهى نقيضة الضعف . وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية[1] وهى نقيضة العجز والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوّة إلا على معنى القدرة ، فكيف صحّ قوله ﴿هو أشدّ منهم قوّة﴾ وإنما يصح إذا أريد بالقوّة فى الموضعين شيء واحد ؟ قلت : القدرة فى الإنسان هى صحة البنية والاعتدال والقوّة والشدّة والصلابة فى البنية ، وحقيقتها : زيادة القدرة[2] ، فكما صحّ أن يقال : الله أقدر منهم ، جاز أن يقال : أقوى منهم ، على معنى : أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم ﴿يجحدون﴾ كانوا يعرفون أنها حق ، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة ، وهو معطوف[3] على فاستكبروا ، أى كانوا كفرة فسقة . الصرصر : العاصفة التى تصرصر ، أى : تصوّت فى هبوبها . وقيل : الباردة التى تحرق بشدّة بردها ، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذى يصر أى يجمع ويقبض ﴿نحسات﴾ قرئ بكسر الحاء وسكونها . ونحس نحساً : نقيض سعد سعداً ، وهو نحس . وأما نحس ، فإمّا مخفف نحس ، أو صفة على فعل ، كالضخم وشبهه . أو وصف بمصدر . وقرئ : لنذيقهم ، على أنّ الإذاقه للريح أو للأيام النحسات . وأضاف العذاب إلى الخزى وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزى ، كما تقول : فعل السوء ، تريد : الفعل السيئ ، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ولعذاب الآخرة أخزى﴾ وهو من الإسناد المجازى ، ووصف العذاب بالخزى : أبلغ من وصفهم به .

---

(١) قوله « من تميز بذات أو لصحة بنية » هذا كقوله الآتى : إنه يقدر لذاته ، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته ؛ لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته ، وكذا بقية الصفات كما فى التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : « القوة : الشدة فى البنية ونقيضها الضعف ، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل ، وهي نقيضة العجز ، فان وصف الله تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها ، فكيف صح قوله (هو أشد منهم قوة) ولابد أن يراد بالقوة فى الموضعين شيء واحد ، وأجاب عنه بأن القدرة فى الانسان صحة البنية والاعتدال والشدة ، والقوة زيادة فى القدرة ، فكما صح أن يقال : أقدر منهم ، صح أن يقال : أقوى منهم ، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم » قال أحمد : فسر القدرة على خلاف ما هي فى اعتقاد المتكلمين ، فان سلم له من حيث اللغة فقد نكص عنه إلى حمل القدرة فى الآية على مقتضاها فى فن الكلام ، وجعل التفضيل من حيث أن الله تعالى قادر لذاته ، أى : بلا قدرة ، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرية ، ونظير هذا التفسير فى الفساد تفسير قول القائل : زيد أعلم من عمرو ، باثبات صفة العلم للمفضول ، وسلبها بالكلية عن الأفضل . وهل هذا إلا عنه وعمى فى اتباع الهوى وعمه ؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله ، معلومة قبله وبعده ، مفقودة غير مؤثرة فى العقل الراجح فى محلها ، فضلا عن تجاوزها إلى غيره ، وقدرة الله جلت قدرته مؤثرة فى المقدورات ، موجودة أزلا وأبدا ، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات ، فهذا هو النور الذى لا يلوح إلا من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من الله المنة ،

(٣) قوله « وهو معطوف على فاستكبروا » أى : قوله تعالى (وكانوا ... الخ) (ع)

ألا ترى إلى البون بين قوليك : هو شاعر ، وله شعر شاعر .

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

وقرئ : ثمود ، بالرفع والنصب منونا وغير منون ، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء . وقرئ بضم الثاء ﴿فهديناهم﴾ فدللناهم على طريقى الضلالة والرشد ، كقوله تعالى (وهديناه النجدين) . ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فاختاروا الدخول فى الضلالة على الدخول فى الرشد . فإن قلت : أليس معنى هديته : حصلت فيه الهدى ، والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ، بمعنى : تحصيل البغية وحصولها ، كما تقول : ردعته فارتدع ، فكيف ساغ استعماله فى الدلالة المجردة ؟ قلت : للدلالة على أنه مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق له عذراً ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل مايوجبها ويقتضيها ﴿صاعقة العذاب﴾ داهية العذاب وقارعة العذاب . و ﴿الهون﴾ الهوان ، وصف به العذاب مبالغة . أو أبدله منه ، ولو لم يكن فى القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة[1] بشهادة نبيها صلى الله عليه وسلم ـ وكفى به شاهداً ـ إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة[2] .

---

(١) قوله «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة ، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم : جميع الحوادث ـ خيرا كانت أوشراً من أفعال العباد الاختيارية أوغيرها ـ فهى بقضاء الله تعالى وقدره ، خلافا للمعتزلة : حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره ، ولاتأثير له فيها أصلا . وهذا أحق بالتنقيص الذى يفيده الحديث . وفسروا الاضلال والهدى فى قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) بخلق الضلال وخلق الاهتداء ، خلافا للمعتزلة : حيث فسروا الاضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه ، والهدى بالبيان ونقل النسفى عن أبى منصور الماتريدى : أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان كما فى هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما فى قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط ، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم . وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة ، ثم كفروا وعقروها اهـ (ع)

(٢) قال محمود : «فدللناهم على طريقى الضلالة والرشد ، ثم قال : فان قلت أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ، فكيف ساغ استعماله فى الدلالة المجردة ؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح عللهم ، ولم يبق لهم عذراً ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بحصول موجبها ، ثم قال : ولولم يكن فى القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام ـ وكفى به شهيداً ـ إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة» قال أحمد : قد أنطقه الله الذى أنطق كل شىء ، فان القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الزمخشرى أثرهم القدرية المتمجسة ، الذين أديانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط فى هذا السلك ، ومنهبط فى مهواة هذا الملك ، ولنرجع إلى أصل الكلام فنقول : الهدى من الله تعالى عند أهل السنة حقيقة : هو خلق الهدى فى قلوب المؤمنين ، والاضلال : خلق الضلال فى قلوب الكافرين ، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازاً واتساعا ، نحو هذه الآية ، فان المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)

قرئ يحشر على البناء للمفعول. ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها ، ويحشر : على البناء للفاعل ، أى : يحشر الله عز وجل ﴿أعداء الله﴾ الكفار من الأولين والآخرين ﴿يوزعون﴾ أى يحبس أولهم على آخرهم ، أى : يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهى عبارة عن كثرة أهل النار ، نسأل الله أن يجيرنا منها بسعة رحمته : فإن قلت : (ما) فى قوله ﴿حتى إذا ما جاؤها﴾ ماهى ؟ قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولاوجه لأن يخلو منها . ومثله قوله تعالى (أثم إذا ماوقع آمنتم به) أى لابدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام ، وماأشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرمات . فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق ؟ قلت: الله عزوجل ينطقها كما أنطق الشجرة [1] بأن يخلق فيها كلاما . وقيل: المراد بالجلود : الجوارح. وقيل : هى كناية عن الفروج ، أراد بكل شيء : كل شيء من الحيوان ، كما أراد به فى قوله تعالى (والله على كل شيء قدير) كل شيء من المقدورات ، والمعنى : أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذى قدر على إنطاق كل حيوان ، وعلى خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه . وإنما قالوا لهم : ﴿لم شهدتم علينا﴾ لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم .

وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)

= فسره الزمخشرى . وقد اتفق الفريقان : أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى ههنا مجاز ، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز فى جميع موارده فى الشرع ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، وأى دليل فى هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة ، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره ، ويذيقه وبال أمره .

(١) قوله «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام هو خلقه الكلام فى الشجرة التى كانت عند الطور . وعند أهل السنة : هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين فى محله . (ع)

والمعنى : أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عاملين بشهادتها عليكم، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا، ولكنكم إنما استترتم لظنكم ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما﴾ كنتم ﴿تعملون﴾ وهو الخفيات من أعمالكم، وذلك [1] الظن هو الذى أهلككم. وفى هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله عينا كالئة ورقيباً مهيمناً، حتى يكون فى أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملأ، ولا يتبسط فى سره مراقبة [2] من التشبه بهؤلاء الظانين. وقرئ : ولكن زعمتم ﴿وذلكم﴾ رفع بالابتداء، و﴿ظنكم﴾ و﴿أرداكم﴾ خبران، ويجوز أن يكون (ظنكم) بدلا من (ذلكم) و (أرداكم) الخبر.

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥)

﴿فإن يصبروا﴾ لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء فى النار، (وإن يستعتبوا) وإن يسألوا العتبى وهى الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه : لم يعتبوا : لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها، ونحوه قوله عز وعلا (أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) وقرئ : وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين، أى : إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون، أى : لا سبيل لهم إلى ذلك ﴿وقيضنا لهم﴾ وقدرنا لهم، يعنى لمشركى مكة : يقال : هذان ثوبان قيضان : إذا كانا متكافئين. والمقايضة : المعاوضة ﴿قرناء﴾ أخدانا [3] من الشياطين جمع قرين، كقوله تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) فإن قلت : كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت : معناه أنه خذلهم [4] ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين [5]. والدليل عليه (ومن يعش) نقيض ﴿ما بين

---

(١) قوله «وذلك الظن هو الذى أهلككم» لعله. وذلكم. (ع)

(٢) قوله «فى سره مراقبة من التشبه» أى مخافة، كما أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «قرناء أخدانا» أى أصدقاء. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) قوله «قلت معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر. أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير، فلا داعى إلى هذا التكلف. قال تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) الخ. (ع)

(٥) قال محمود : «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ وأجاب بأن

أيديهم وماخلفهم ﴾ ماتقدم من أعمالهم وماهم عازمون عليها . أو بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات ، وماخلفهم : من أمر العاقبة ، وأن لابعث ولاحساب ﴿ وحق عليهم القول ﴾ يعنى كلمة العذاب ﴿ فى أمم ﴾ فى جملة أمم . ومثل فى هذه مافى قوله :

إنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ فُوكًا فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا [1]

يريد : فأنت فى جملة آخرين ، وأنت فى عداد آخرين لست فى ذلك بأوحد . فإن قلت : (فى أمم) ما محله ؟ قلت : محله النصب على الحال من الضمير فى عليهم القول كائنين فى جملة أمم ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لهم وللأمم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾

قرئ : والغوا فيه ، بفتح الغين وضمها . يقال : لغى يلغى ، ولغا يلغو . واللغو : الساقط من الكلام الذى لاطائل تحته . قال : من اللغا ورفث التكلم . والمعنى : لاتسمعوا له إذا قرئ ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل [2] وما أشبه ذلك ، حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوه على قراءته . كانت قريش يوصى بذلك بعضهم

--- معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين . والدليل عليه قوله تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن ... الآية) قال أحمد : جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة : أن الأمر على ظاهره ، فان قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه ، ويأمر بما لايريد حصوله ، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها ، وإنما تأولها الزمخشرى ليتبعها هواه الفاسد فى اعتقاده أن الله تعالى لاينهى عما يريد . وإن وقع النهى عنه فعلى خلاف الارادة ـ تعالى الله عن ذلك وبه نستعيذ من جعل القرآن تبعا للهوى ، وحينئذ فنقول : لو لم يكن فى القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية ، لكفى بها ؛ فهذا موضع هذه المقالة التى أنطقه الله بها الذى أنطق كل شىء فى الآية التى قبل هذه .

(١) لعروة بن أذينة ، يقول : إن تك مأفوكا ـ أى : مصروفا ومنقلبا عن أحسن العطاء ـ فلا عجب ، فأنت فى جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الاحسان . ومنه : المؤتفكات ، وهى المدن المنقلبة على قوم لوط وتقول العرب : إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض ، يعنون : الرياح المختلفة المهاب .

(٢) قوله «والزمل» الذى فى الصحاح «الأزمل» الصوت : والأزمولة ـ بالضم ـ : المصوت من الوعول وغيرها . (ع)

بعضا ﴿ فلنذيقنّ الذين كفروا ﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا : هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة ، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم . قد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته . وعن ابن‌عباس ﴿ عذابا شديداً ﴾ يوم بدر . و ﴿ أسوأ الذى كانوا يعملون ﴾ فى الآخرة ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الأسوإ ، ويجب أن يكون التقدير : أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون ، حتى تستقيم هذه الإشارة . و ﴿ النار ﴾ عطف بيان للجزاء . أو خبر مبتدإ محذوف . فإن قلت : مامعنى قوله تعالى ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ ؟ قلت : معناه أن النار فى نفسها دار الخلد ، كقوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) والمعنى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وتقول : لك فى هذه الدار دار السرور . وأنت تعنى الدار بعينها ﴿ جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ أى جزاء بما كانوا يلغون فيها ، فذكر الجحود الذى هو سبب اللغو .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ اللذين أضلانا ﴾ أى الشيطانين اللذين أضلانا ﴿ من الجن والإنس ﴾ لأنّ الشيطان على ضربين : جنى وإنسى . قال الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن) وقال تعالى (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) وقيل : هما إبليس وقابيل ؛ لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق . وقرئ : أرنا ، بسكون الراء لثقل الكسرة ، كما قالوا فى فخذ : فخذ . وقيل : معناه أعطنا للذين أضلانا . وحكوا عن الخليل : أنك إذا قلت : أرنى ثوبك بالكسر ، فالمعنى : بصرنيه . وإذا قلته بالسكون ، فهو استعطاء ، معناه : أعطنى ثوبك : ونظيره : اشتهار الإيتاء فى معنى الإعطاء . وأصله : الإحضار

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿ ثم ﴾ لتراخى الاستقامة عن الإقرار فى المرتبة . وفضلها عليه : لأنّ الاستقامة لها الشأن كله . ونحوه قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : استقاموا فعلا كما استقاموا قولا .

وعنه : أنه تلاها ثم قال : ماتقولون فيها ؟ قالوا : لم يذنبوا . قال حملتم الأمر على أشدّه . قالوا : فما تقول ؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان . وعن عمر رضى الله عنه : استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب . وعن عثمان رضى الله عنه : أخلصوا العمل . وعن على رضى الله عنه : أدّوا الفرائض . وقال سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه : قلت يارسول الله ، أخبرنى بأمر أعتصم به . قال : « قل ربى الله ، ثم استقم » قال فقلت : ماأخوف ماتخاف علىّ ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه فقال « هذا »[1] ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ عند الموت بالبشرى . وقيل البشرى فى ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفى القبر ، وإذا قاموا من قبورهم ﴿ألا تخافوا﴾ أن بمعنى أى . أو مخففة من الثقيلة . وأصله : بأنه لا تخافوا ، والهاء ضمير الشأن . وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : لا تخافوا ، أى : يقولون لا تخافوا ؛ والخوف : غم يلحق لتوقع المكروه ، والحزن : غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضارّ . والمعنى : أنّ الله كتب لكم الأمن من كل غم ، فلن تذوقوه أبداً . وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ماخلفتم . كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم ، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم فى الدارين ﴿تدعون﴾ تتمنون : والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

﴿ممن دعا إلى الله﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام ﴿وعمل صالحاً﴾ فيما بينه وبين ربه ، وجعل الإسلام نحلة له . وعنه : أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عائشة رضى الله عنها : ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت فى المؤذنين ، وهى عامة فى كل من جمع بين هذه الثلاث : أن يكون موحداً معتقداً لدين الإسلام ، عاملا بالخير داعياً إليه ؛ وماهم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد ، الدعاة إلى دين الله[2] وقوله ﴿وقال إننى من المسلمين﴾ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام ، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده ، كما تقول : هذا قول أبى حنيفة ، تريد مذهبه .

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد وابن حبان بتمامه ؛ وأصله فى مسلم .

(٢) قوله «العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك ، فلا وجه للتخصيص . (ع)

يعنى أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها ـ إذا اعترضتك حسنتان ـ فادفع بها السيئة التى ترد عليك من بعض أعدائك . ومثال ذلك : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تعفو عنه ، والتى هى أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الولى الحميم مصافاة لك . ثم قال : وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر ، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير . فإن قلت : فهلا قيل : فادفع بالتى هى أحسن ؟ قلت : هو على تقدير قائل قال : فكيف أصنع ؟ فقيل : ادفع بالتى هى أحسن . وقيل (لا) مزيدة . والمعنى : ولا تستوى الحسنة والسيئة ، فإن قلت : فكان القياس على هذا التفسير أن يقال : ادفع بالتى هى حسنة : قلت : أجل ، ولكن وضع التى هى أحسن موضع الحسنة ، ليكون أبلغ فى الدفع بالحسنة ؛ لأنّ من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما هو دونها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : (بالتى هى أحسن) الصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، وفسر الحظ بالثواب . وعن الحسن رحمه الله : والله ماعظم حظ دون الجنة ، وقيل : نزلت فى أبى سفيان بن حرب وكان عدواً مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصار ولياً مصافيا .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

النزغ والنسغ بمعنى ، وهو شبه النخس . والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه يبعثه على مالا ينبغى . وجعل النزغ نازغا ، كما قيل : جد جدّه . أو أريد : وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر . أو لتسويله . والمعنى : وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن ﴿فاستعذ بالله﴾ من شرّه ، وامض على شأنك ولا تطعه .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾

الضمير فى ﴿خلقهنّ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر ؛ لأنّ حكم جماعة مالا يعقل حكم الأنثى أوالإناث . يقال : الأقلام بريتها وبريتهنّ : أو لما قال (ومن آياته) كن فى معنى الآيات ، فقيل : خلقهن . فإن قلت . أين موضع السجدة ؟ قلت : عند الشافعى رحمه الله تعالى ﴿تعبدون﴾ وهى رواية مسروق عن عبد الله لذكر لفظ السجدة قبلها . وعند أبى حنيفة رحمه الله : يسأمون ؛

لأنها تمام المعنى ، وهى عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب: لعل ناساً منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله ، فنهوا عن هذه الواسطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً ، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين ﴿فان استكبروا﴾ ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة ، فدعهم وشأنهم فإن الله عز سلطانه لا يعدم عابداً ولا ساجداً بالإخلاص ، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد ، وقوله ﴿عند ربك﴾ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة . وقرئ : لا يسأمون ، بكسر الياء .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

الخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود فى قوله تعالى (وترى الأرض هامدة) وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو وهو الانتفاخ : إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال فى زيه ، وهى قبل ذلك كالذليل الكاسف البال فى الأطمار الرثة[1] . وقرئ : وربأت ، أى ارتفعت لأن النبت إذا هم أن يظهر : ارتفعت له الأرض .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾

يقال : ألحد الحافر ولحد ، إذا مال عن الاستقامة ، فحفر فى شق ، فاستعير للانحراف فى تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة . وقرئ : يلحدون ويلحدون ، على اللغتين . وقوله ﴿لا يخفون علينا﴾ وعيد لهم على التحريف .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

فإن قلت : بم اتصل قوله ﴿إن الذين كفروا بالذكر﴾ ؟ قلت : هو بدل من قوله (إن الذين يلحدون فى آياتنا) والذكر : القرآن ، لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا تأويله ﴿وإنه لكتاب عزيز﴾ أى منيع محمى بحماية الله تعالى ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

(١) قوله «فى الأطمار الرثة» فى الصحاح «الطمر» الثوب الخلق ، والجمع : الأطمار . (ع)

خلفه﴾ مثل كأن الباطل لايتطرق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به . فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوّله المبطلون ؟ قلت : بلى ، ولكن الله قد تقدّم فى حمايته عن تعلق الباطل به : بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم ، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقاً ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا . ونحوه قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

ما يقال لك أى : مايقول لك كفار قومك إلا مثل ماقال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة ﴿إنّ ربك لذو مغفرة﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وذو عقاب﴾ لأعدائهم . ويجوز أن يكون : مايقول لك الله إلا مثل ماقال للرسل من قبلك ، والمقول : هو قوله تعالى (إنّ ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، والغرض : تخويف العصاة .

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، فقيل : لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا ﴿لولا فصلت آياته﴾ أى بينت ولخصت بلسان نفقهه ﴿أأعجمى وعربى﴾ الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى ، أو مرسل إليه عربى ، وقرئ : أعجمى ، والأعجمى : الذى لا يفصح ولايفهم كلامه من أى جنس كان ، والعجمى : منسوب إلى أمة العجم . وفى قراءة الحسن : أعجمى بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمى ، والمرسل أو المرسل إليه عربى . والمعنى : أن آيات الله على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتاً ؛ لأنّ القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم . ويجوز فى قراءة الحسن : هلا فصلت آياته تفصيلا ، فجعل بعضها بيانا للعجم ، وبعضها بيانا للعرب . فإن قلت : كيف يصح أن يراد بالعربى المرسل إليهم وهم أمة العرب ؟ قلت : هو على مايجب أن يقع فى إنكار المنكر لو رأى كتابا أعجميا كتب إلى قوم من العرب يقول : كتاب أعجمى ومكتوب

إليه عربى ، وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتى الكتاب والمكتوب إليه ، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة ، فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض ، ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر . ألا تراك تقول ـ وقد رأيت لباساً طويلا على امرأة قصيرة : ـ اللباس طويل واللابس قصير . ولو قلت : واللابسة قصيرة ، جئت بما هو لكنة وفضول قول ، لأنّ الكلام لم يقع فى ذكورة اللابس وأنوثته ، إنما وقع فى غرض وراءهما ﴿هو﴾ أى القرآن ﴿هدى وشفاء﴾ إرشاد إلى الحق وشفاء ﴿لما فى الصدور﴾ من الظن والشك . فإن قلت : ﴿والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر﴾ منقطع عن ذكر القرآن ، فما وجه اتصاله به ؟ قلت : لا يخلو إما أن يكون (الذين لا يؤمنون) فى موضع الجر معطوفا على قوله تعالى (للذين آمنوا) على معنى قولك : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، وهو للذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ؛ إلا أنّ فيه عطفا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه . وإمّا أن يكون مرفوعا على تقدير : والذين لا يؤمنون هو فى آذانهم وقر [1] على حذف المبتدإ . أو فى آذانهم منه وقر . وقرئ : وهو عليهم عم . وعمى ، كقوله تعالى (فعميت عليكم) . ﴿ينادون من مكان بعيد﴾ يعنى : أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم ، فمثلهم فى ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥)

﴿فاختلف فيه﴾ فقال بعضهم : هو حق ، وقال بعضهم : هو باطل . والكلمة السابقة : هى العدة بالقيامة ، وأنّ الخصومات تفصل فى ذلك اليوم ، ولولا ذلك لقضى بينهم فى الدنيا . قال الله تعالى (بل الساعة موعدهم) ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)

﴿فلنفسه﴾ فنفسه نفع ﴿فعليها﴾ فنفسه ضرّ ﴿وما ربك بظلام﴾ فيعذب غير المسىء .

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ

(١) أجاز الزمخشرى فى الواو فى هذه الآية وجهين ، أحدهما : أن تكون الواو لعطف الذين على الذين ، ووقر على هدى وشفاء ، ويكون من العطف على عاملين . قال : وإما أن يكون (والذين) مرفوعا على تقدير : والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، على حذف المبتدإ . أو فى آذانهم منه وقر اه قال أحمد : أى وبتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المبتدإ .

أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨)

﴿إليه يرد علم الساعة﴾ أى إذا سئل عنها قيل: الله يعلم. أو لا يعلمها إلا الله. وقرئ: من ثمرات من أكامهن [1]. والكم ـ بكسر الكاف ـ وعاء الثمرة، كجف الطلعة، أى: وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به. يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله: من الخداج [2] والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح وغير ذلك ﴿أين شركائى﴾ أضافهم إليه تعالى على زعمهم، وبيانه فى قوله تعالى (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) وفيه تهكم وتقريع ﴿آذناك﴾ أعلمناك ﴿ما منا من شهيد﴾ أى ما منا أحد اليوم ـ وقد أبصرنا وسمعنا ـ يشهد بأنهم شركاؤك، أى: ما منا إلا من هو موحد لك: أو ما منا من أحد يشاهدهم، لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم، لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ وقيل: هو كلام الشركاء، أى: ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة. ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير: أنهم لا ينفعونهم، فكأنهم ضلوا عنهم ﴿وظنوا﴾ وأيقنوا. والمحيص: المهرب. فإن قلت: (آذناك) إخبار بإيذان كان منهم، فإذ قد آذنوا فلم سئلوا؟ قلت: يجوز أن يعاد عليهم (أين شركائى)؟ إعادة للتوبيخ، وإعادته فى القرآن على سبيل الحكاية: دليل على إعادة المحكى. ويجوز أن يكون المعنى: أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة، لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه. ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخبارا بإيذان قد كان، كما تقول: أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)

(١) قوله «وقرئ من ثمرات من أكامهن» يفيد أن القراءة المشهورة: من ثمرة من أكامها. والذى فى النسفى: من ثمرات من أكامها. ومن ثمرة من أكامها. وأما: من ثمرات من أكامهن. فهى المزيدة هنا، لحرر. (ع)

(٢) قوله «من الخداج» أى النقصان، كما فى الصحاح. (ع)

﴿من دعاء الخير﴾ من طلب السعة فى المال والنعمة. وقرأ ابن مسعود: من دعاء بالخير ﴿وإن مسه الشر﴾ أى الضيقة والفقر ﴿فيئوس قنوط﴾ بولغ فيه من طريقين: من طريق بناء فعول، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، أى: يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال ﴿هذا لى﴾ أى هذا حق وصل إلىّ؛ لأنى استوجبته بما عندى من خير وفضل وأعمال برّ. أو هذا لى لا يزول عنى، ونحوه قوله تعالى (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه) ونحوه قوله تعالى ﴿وما أظنّ الساعة قائمة﴾ (إن نظنّ إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) يريد: وما أظنها تكون، فإن كانت على طريق التوهم ﴿إن لى﴾ عند الله الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة، قائسا أمر الاخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم: للكافر أمنيتان، يقول فى الدنيا: ولئن رجعت إلى ربى إنّ لى عنده للحسنى. ويقول فى الآخرة: يا ليتنى كنت ترابا. وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة. فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند الله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا) وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلبا للافتخار والاستكبار لا غير، وكانوا يحسبون أنّ ما هم عليه سبب الغنى والصحة، وأنهم محقوقون بذلك.

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

هذا أيضا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة، وكأنه لم يلق بؤسا قط فنسى المنعم وأعرض عن شكره ﴿ونأى بجانبه﴾ أى ذهب بنفسه وتكبر وتعظم. وإن مسه الضرّ والفقر: أقبل على دوام الدعاء وأخذ فى الابتهال والتضرع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام، ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ بشدّة العذاب. وقرئ: ونأى بجانبه، بإمالة الألف وكسر النون للإتباع. وناء على القلب، كما قالوا: راء فى رأى. فإن قلت: حقق لى معنى قوله تعالى (ونأى بجانبه) قلت: فيه وجهان: أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا فى قوله تعالى (على ما فرطت فى جنب الله) أن مكان الشىء وجهته ينزل منزلة الشىء نفسه، ومنه قوله:

... ... وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّئْبِ ... ... (١)

(١) وماء قد وردت لأجل أروى عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذيب كالرجل اللعين

يريد: ونفيت عنه الذئب. ومنه: ولمن خاف مقام ربه. ومنه قول الكتاب: حضرت فلان ومجلسه، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز، يريدون نفسه وذاته، فكأنه قال: ونأى بنفسه، كقولهم فى المتكبر: ذهب بنفسه، وذهبت به الخيلاء كل مذهب، وعصفت به الخيلاء، وأن يراد بجانبه: عطفه، ويكون عبارة عن الانحراف والازورار؛ كما قالوا: ثنى عطفه، وتولى بركنه.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

﴿أرأيتم﴾ أخبرونى ﴿إن كان﴾ القرآن ﴿من عند الله﴾ يعنى أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل، يجوز أن يكون من عند الله وأن لا يكون من عنده، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا، فما أنكرتم أن يكون حقاً وقد كفرتم به، فأخبرونى من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط فى مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم؟ وقوله تعالى ﴿ممن هو فى شقاق بعيد﴾ موضوع موضع منكم، بيانا لحالهم وصفتهم.

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٤﴾

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم﴾ يعنى ما يسر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء من بعده ونصار دينه فى آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما وفى باحة العرب [1]

= للشماخ: وأروى، اسم محبوبته. واللجين ـ بفتح اللام وكسر الجيم ـ: ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق، لأنه يضربه الهوى أو الراعى، فيسقط من الشجر. وذعرت ـ بفتحتين، أى: أخفت فيه القطا، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء. ومقام الذيب: إقامته أو محلها، وعبر به كناية عن ذاته، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلا. والرجل اللعين: هو الصورة التى تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام، يقول: ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتى، عسى أن تجىء عنده فأراها. ويروى: لوصل أروى، فلعله كان موعداً بينهما. وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط فى الكدرة والكثرة والانتشار، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده، فيصلح موعداً للوصل. وذعرت ـ إلى آخره: كناية عن وروده ليلا، وكالرجل اللعين: حال من ضمير الشاعر، فيفيد أنه سبق القطا والذيب وقعد هنالك، أو حال من الذيب، أى: على هيئة مفزعة. وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته

(١) قوله «وفى باحة العرب» أى ساحتهم. أفاده الصحاح. (غ)

خصوصا : من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة ، وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعافهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة من المعهود خارقة للعادات ، ؛ ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة ، وبسط دولته في أقاصيها ، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدونة في مشاهد أهله وأيامهم : على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام الله وآية من آياته ، يقوى معها اليقين ، ويزداد بها الإيمان ، ويتبين أن دين الاسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه ؛ وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق ، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور ؛ وأن للباطل ريحا تخفق ثم تسكن ، ودولة تظهر ثم تضمحل ﴿بربك﴾ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى . و ﴿أنه على كل شيء شهيد﴾ بدل منه ، تقديره . أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد . ومعناه : أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد ، أي : مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته ، فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ، ولو لم يكن كذلك لما قوي هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة . وقرئ : في مرية ،بالضم وهي الشك ﴿محيط﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، فلا تخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات » . [1]

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي .

سورة الشورى

مكية [إلا الآيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ فمدنية]

وآياتها ٥٣ [نزلت بعد سورة فصلت]

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥)

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما : حم سق ﴿ كذلك يوحى إليك ﴾ أى مثل ذلك الوحى . أومثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل ﴿ من قبلك الله ﴾ يعنى أن ما تضمنته هذه السورة من المعانى قد أوحى الله إليك مثله فى غيرها من السور ، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، على معنى : أن الله تعالى كرر هذه المعانى فى القرآن فى جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأولين والآخرين ، ولم يقل : أوحى إليك ؛ ولكن على لفظ المضارع ، ليدل على أن إيحاء مثله عادته . وقرئ : يوحى إليك ، على البناء للمفعول . فإن قلت : فما رافع اسم الله على هذه القراءة ؟ قلت : ما دل عليه يوحى ، كأن قائلا قال : من الموحى ؟ فقيل : الله ، كقراءة السلمى : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم ، على معنى : زينه لهم شركاؤهم . فإن قلت : فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون ؟ قلت : يرتفع بالابتداء . والعزيز ومابعده : أخبار ، أوالعزيز الحكيم : صفتان؛ والظرف خبر . قرئ : تكاد ، بالتاء والياء . وينفطرن ، ويتفطرن . وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة : تتفطرن بتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى فى نوادر ابن الأعرابى : الإبل تشممن . ومعناه : يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته ، يدل عليه مجيئه بعد العلى العظيم . وقيل : من دعائهم له ولدا ، كقوله تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه) .

فإن قلت : لم قال (من فوقهنّ) ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السموات ، وهي : العرش ، والكرسي ، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال ﴿ ينفطرن من فوقهنّ ﴾ أي يبتدئ الانفطار من جهتهنّ الفوقانية . أو : لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السموات ، فكان القياس أن يقال : ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك ، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق ،كأنه قيل : يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهنّ ، ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا (يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به مافي بطونهم) فجعل الحميم مؤثرا في أجزائهم الباطنة . وقيل : من فوقهنّ : من فوق الأرضين . فإن قلت : كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله ؟ وقد قال الله تعالى (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم ؟ قلت : قوله ﴿ لمن في الأرض ﴾ يدل على جنس أهل الأرض ، وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم ؛ فيجوز أن يراد به هذا وهذا . وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون ، فما أراد الله إلا إياهم . ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن (ويستغفرون للذين آمنوا) وحكايته عنهم (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعا في استغفارهم ، فكيف للكفرة . ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار : طلب الحلم والغفران في قوله تعالى (إنّ الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) إلى أن قال (إنه كان حليما غفورا) وقوله تعالى (إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) والمراد : الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاما . فإن قلت : قد فسرت قوله تعالى (تكاد السموات ينفطرن) بتفسيرين . فما وجه طباق ما بعده لهما ؟ قلت : أما على أحدهما فكأنه قيل : تكاد السموات ينفطرن هيبة من جلاله واحتشاما من كبريائه ، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفا بعد صفوف يداومون ـ خضوعا لعظمته ـ على عبادته وتسبيحه وتحميده ، ويستغفرون لمن في الأرض خوفا عليهم من سطواته . وأما على الثاني فكأنه قيل : يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء ، والملائكة يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون ، مختارين غير ملجئين ، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرؤا من تلك الكلمة ومن أهلها . أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم ، لما عرفوا في ذلك من المصالح ، وحرصا على نجاة الخلق ، وطمعا في توبة الكفار والفساق منهم .

وَالَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ جعلوا له شركاء وأندادا ﴿الله حفيظ عليهم﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم، لا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وما أنت﴾ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان، إنما أنت منذر فحسب.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَارَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾

ومثل ذلك ﴿أوحينا إليك﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم: لأنّ هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمة، والكاف مفعول به لأوحينا. و﴿قرآنا عربيا﴾ حال من المفعول به، أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بين، لا لبس فيه عليك، لتفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حد الإنذار. ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا، أي: ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا بلسانك ﴿لتنذر﴾ يقال أنذرته كذا وأنذرته بكذا. وقد عدى الأوّل، أعنى: لتنذر أم القرى إلى المفعول الأوّل والثاني، وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني ﴿أم القرى﴾ أهل أم القرى، كقوله تعالى (واسئل القرية). ﴿ومن حولها﴾ من العرب. وقرئ: لينذر بالياء والفعل للقرآن ﴿يوم الجمع﴾ يوم القيامة، لأنّ الخلائق تجمع فيه. قال الله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع) وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد. وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله. و﴿لاريب فيه﴾ اعتراض لا محل له[1]. قرئ: فريق وفريق: بالرفع والنصب، فالرفع على: منهم فريق، ومنهم فريق. والضمير للمجموعين؛ لأن المعنى: يوم جمع الخلائق. والنصب على الحال منهم، أي: متفرّقين، كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون). فإن قلت: كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة؟ قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم، مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين. وإن أريد بالجمع: جمعهم في الموقف، فالتفرق على معنى مشارفتهم للتفرق.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّٰلِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

---

(١) قوله «لا محل له» لعله. لا محل له من الاعراب. (ع)

﴿لجعلهم أمّة واحدة﴾ أى مؤمنين كلهم على القسر والإكراه ، كقوله تعالى (ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها) وقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان : قوله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقوله تعالى (أفأنت تكره) بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله . دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره . والمعنى : ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان[1] ، ولكنه شاء مشيئة حكمة ، فكلفهم وبنى أمرهم على مايختارون ، ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بمن يشاء . ألاترى إلى وضعهم فى مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولى ولانصير فى عذابه .

أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

معنى الهمزة فى ﴿أم﴾ الإنكار ﴿فالله هو الولى﴾ هوالذى يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء فى قوله (فالله هو الولى) جواب شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فالله هو الولى بالحق ، لاولىّ سواه ﴿وهو يحيى﴾ أى : ومن شأن هذا الولى أنه يحيى ﴿الموتى وهو على كل شىء قدير﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لايقدر على شىء .

وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

﴿وما اختلفتم فيه من شىء﴾ حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين . أى : ماخالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين ، فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين ، فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى الله تعالى ، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ﴿ذلكم﴾ الحاكم بينكم هو ﴿الله ربى عليه توكلت﴾ فى ردّ كيد أعداء الدين ﴿وإليه﴾

(١) قوله «ولقسرهم جميعاً على الايمان» هذا عند المعتزلة : أما عند أهل السنة ، فالارادة تستلزم وجود المراد ، لكن لا تستلزم القسر والجبر للعباد ؛ لأنها لا تنافى الاختيار ، لما لهم فى أعمالهم من الكسب . وإن كانت مخلوقة له تعالى . وأما التى لاتستلزم المراد وهى التى سماها مشيئة الحكمة ، فهى التى بمعنى الأمر عند المعتزلة ، ولا يثبتها أهل السنة ، كما تقرر فى التوحيد ؛ فمعنى الآية : ولو شاء ربك إيمان الكل لآمن الكل ، ولكن شاء إيمان البعض ، فآمن من شاء إيمانه . (ع)

أرجع فى كفاية شرهم . وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره ، كقوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم ، فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : وماوقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لاتتصل بتكليفكم ولاطريق لكم إلى علمه ، فقولوا : الله أعلم ، كمعرفة الروح . قال الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) : فإن قلت : هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين فى أحكام الشريعة ؟ قلت : لا ، لأنّ الاجتهاد لايجوز بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فَاطِرُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)

﴿فاطر السموات﴾ قرئ بالرفع والجر ، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم . أو خبر مبتدإ محذوف ، والجرّ على : فحكمه إلى الله فاطر السموات ، و (ذلكم) إلى (أنيب) اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جعل لكم﴾ خلق لكم ﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم من الناس ﴿أزواجا ومن الأنعام أزواجا﴾ أى : خلق من الأنعام أزواجا . ومعناه : وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجا ﴿يذرؤكم﴾ يكثركم . يقال : ذرأ الله الخلق : بثهم وكثرهم . والذر ، والذرو ، والذرء : أخوات ﴿فيه﴾ فى هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل . والضمير فى (يذرؤكم) يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لايعقل ، وهى من الأحكام ذات العلتين[1] ، فإن قلت : مامعنى يذرؤكم فى هذا التدبير ؟ وهلا قيل : يذرؤكم به ؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ، ألا تراك تقول . للحيوان فى خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى (ولكم فى القصاص حياة) قالوا : مثلك لايبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه . ونظيره قولك للعربى : العرب لاتخفر الذمم : كان أبلغ[2] من قولك :

---

(١) قال محمود : «إن الضمير المتصل بيذرؤ عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لايعقل ، وهى من الأحكام ذات العلتين» قال أحمد : الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين ، أحدهما : مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أو غائباً . والثانى : مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب ، فالأول لتغليب العقل ، والثانى لتغليب الخطاب .

(٢) قوله «لاتخفر الذمم كان أبلغ» فى الصحاح : أخفرته ، إذا نقضت عهده وغدرت به . وفيه : «وأيفع ==

أنت لا تخفر . ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أترابه ، يريدون : إيفاعه وبلوغه . وفى حديث رقيقة بنت صيفى فى سقيا عبد المطلب : «ألا وفيهم الطيب الطاهر[1] لداته» والقصد إلى طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كالله شيء ، وبين قوله (ليس كمثله شيء) إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد : وهو نفى المماثلة عن ذاته ، ونحوه قوله عز وجل (بل يداه مبسوطتان) فإنّ معناه : بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها : لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر ، حتى أنهم استعملو ا فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل[2] له ، ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد ، كما كرّرها من قال :

* وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفَيْنْ * [3]

ـــ الغلام» أى : ارتفع : وهو يافع ، ولا تقول : موفع . وقوله «كان أبلغ» لعل تقديره : فان قلت له ذلك كان أبلغ . (ع)

(١) قال محمود : «وتقول العرب : مثلك لا يبخل ، فينفون البخل عن مثله ، والمراد نفسه . ونظيره قولك للعربى : العرب لا تخفر الذمم . ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أترابه . وفى حديث رقيقة بنت صيفى فى سقيا عبد المطلب : ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته ، تريد طهارته وطيبه . فاذا علم أنه من باب الكناية : لم يكن فرق بين قولك ليس كالله شيء وبين قوله ليس كمثله شيء ، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها . ونحوه قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) فان معناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط ؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئاً آخر ، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا يد له ؛ فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ، وفيمن لا مثل له ، ثم قال : ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررت فى قول من قال : * وصاليات ككما يؤثفين * ومن قال : * فأصبحت مثل كعصف مأكول * انتهى كلامه . قال أحمد : هذا الوجه الثانى مردود على ما فيه من الاخلال بالمعنى ، وذلك أن الذى يليق هنا تأكيد نفى المماثلة ، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية ، وبين تأكيد نفى المماثلة ، فان نفى المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد فى المعنى من نفى المماثلة المقترنة بالتأكيد : إذ يلزم من نفى المماثلة الغير المؤكدة نفى كل مماثلة . ولا يلزم من نفى مماثلة محققة متأكدة بالغة نفى مماثلة دونها فى التحقيق والتأكيد . وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت فى الاثبات فأكدته . فليس النظر فى الآية بهذين النظرين مستقيما والله أعلم . ومما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن للقائل أن يقول : ليس زيد شبيها بعمرو ؛ لكن مشبهاً له ، ولو عكس هذا لم يكن صحيحاً ، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفى أدنى المشابهة نفى أعلاها ، ولا يلزم من نفى أعلاها نفى أدناها ، فمن أكد التشبيه قصر عن المبالغة . والوجه الأول الذى ذكره هو الوجه فى الآية عنده ، وأتى بمطية الضعف فى هذا الوجه الثانى بقوله : ولك أن تزعم ، فافهم .

(٢) رواه ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بنى زهرة عن أبيه : حدثنى مخرمة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لداته ورواه الطبرانى وأبو نعيم فى الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن مخرمة ابن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم ، وكانت لدة عبد المطلب . قالت «تتابعت على قريش سنون - الحديث بطوله» ورويناه فى جزء أبى السكين . ﴿تنبيه﴾ وقع رقيقة بنت صيفى والصواب بنت أبى صيفى .

(٣)
لم يبق من آى بها يحلين غير رماد وعظام كنفين
وغير ود جازل أو ودين وصاليات ككما يؤثفين ـــ

ومن قال : * فَأُصْبِحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ * (١)

ــ لخطام المجاشعي . والآي : واحده آية ، أي : علامة . ويحلين : مضارع مبنى للمجهول ، من حليته تحلية : إذا وصفت حليته وصفته . يقول : لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكبين . والكثف ـ بالتحريك ـ : كسبب : المجتمع ، فلعله سكنه للوزن . وروى : غير رماد وخطام كثفين . والخطام : الزمام . ويروى بالمهملة ، وهو ماتحطم وتكسر من الحطب اليابس . والكثف ـ كحمل ـ : وعاء الرعى فكثفين على حذف العاطف . وقيل بدل مما قبله . والأوجه روايته وخطام كثفين بالاضافة ، لأجل موافقة القوافى أى : ورباط وعامين ، وكرر أداة الاستثناء للتوكيد . والود : أصله وتد ، فقلبت التاء دالا وأدغمت فى الأخرى عند تميم شذوذا . والجادل : المنتصب والغليظ ، أى : لم يبق غير وتد منتصب بها أو وتدين لاغير ، حيث لم يشك إلا فى ذلك . والصاليات صفة للاثافى . وقيل : صفة للنساء الموقدات للنار : وقيل : صفة للخيل الصاليات للحرب كالأثافى الصاليات للنار ، لكنهما لايناسبان وصف الدار بالخلو . والأثفية : حجر الكانون ، وزنها : أفعولة فى الأصل ، وجمعها أثافى . وأثفيت للقدر : وضعت الأثافى لها . وثفيتها تثفية : وضعتها على الأثافى . وقوله : يؤثفين مضارع مبنى للمجهول ، جاء على الأصل مهموزا ، كيؤكرمن بالهمزة ، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للاحجار الملازمات للنار المحترقات بها ؛ فلعله شبه النساء بالأثافى لدمامتهن وسوادهن ، بكثرة الدخان وملازمتهن النار . وعليه فالمعنى : ونساء صاليات كالأحجار تثفى وتوضع للقدر ؛ فما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة ؛ وكرر كاف التشبيه للتوكيد ، لكن الثانية اسم بمعنى مثل ؛ لأن حرف الجر لا يدخل على مثله . ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذاً . ويروى بعد قوله وصاليات ... الخ

لا يشتكين عملا ما أنقين ما دام مخ فى سلامى أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق . والانقاء : كثرة النقى بالكسر وهو المخ . يقال : أنقت الابل إذا سمنت وكثر مخها ، أى : لايشتكين عملا مدة إنقائهن وسمنهن ، وفسر ذلك بقوله : مادام مخ ... الخ والسلاميات : عظام الأصابع وهى والعين آخر ما يبقى فيه المخ . ويروى أيضاً هكذا :

أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين

والغريان : بناءان طويلان ، يقال : هما قبرا مالك وعقيل : نديمى جذيمة الأبرش ؛ سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بمن يريد قتله إذا خرج يوم بؤسه . والأشبه أن ذلك من تخليط الراوى ، وأن الصاليات : الأحجار . وقوله « لا يشتكين ... الخ » ليس من هذا الرجز ، فلا ينبغى روايته معه ، وهو الذى من صفة الخيل ، أو أصل النساء لا الصاليات . ويجوز أن الرجز هكذا :

أهل عرفت الدار بالغريين لم يبق من آى بها يحلين

وأن قوله « لا يشتكين ... الخ » من موضع آخر من ذلك الرجز فى صفة الخيل ، كما رواه صاحب الكافى شاهداً على الأكفاء فى القافية هكذا :

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملا ما أنقين

لاختلاف حرف الروى . والوطاء ـ بالضم والتشديد ـ : من الوطء على الأرض . وخد الليل : طريقه الذى لا يسلك إلا فيه . وقال بعضهم : إن هذا فى صفة الخيل ، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف . وعلى أنه فى صفة أجل ، أى : فلك المطايا بنات نوق أو فحول ، وطاء : جمع واطىء أو واطئة ، على خد الليل : كناية عن قوتهن فى السير ، حتى كأنهن يغلبن الليل ، فيصرعنه ويطأن على خده ، فهن لا يبالين به .

(١) بالأمس كانت فى رخاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

يروى لرؤبة بدله :

لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

وقرئ : ويقدّر . ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣)

﴿شرع لكم من الدين﴾ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ، ثم فسر المشروع الذى اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ والمراد : إقامة دين الإسلام الذى هو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه ، وبيوم الجزاء ، وسائر مايكون الرجل بإقامته مسلماً ، ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة . قال الله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ومحل (أن أقيموا) إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه ، وإما رفع على الاستئناف ، كأنه قيل : وماذلك المشروع ؟ فقيل : هو إقامة الدين . ونحوه قوله تعالى (إنّ هذه أمّتكم أمة واحدة). ﴿كبر على المشركين﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ماتدعوهم إليه﴾ من إقامة دين الله والتوحيد ﴿يجتبى إليه﴾ يجتلب إليه ويجمع . والضمير للدين بالتوفيق والتسديد ﴿من يشاء﴾ من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفاً .

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)

= ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول

يقول : بالأمس ، أى : فى الزمن الماضى القريب ، كانت تلك الديار مثلا فى رخاء ، أى : خصب وسعة من الثروة والغنى ، مأمول ذلك ، أى : متمنى للناس ، وكرر كلمة التشبيه للتوكيد ، والعصف : ما على الحب وعلى ساق الزرع من التبن والورق اليابس ، مأكول : أى أصابه الأكال ، وهو الدود . وأكلته الدواب ثم راثته . وأبابيل ، بمعنى جماعات متفرقة ، صفة طير ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه . وقيل : واحده أبول كعجول . وقيل : إبال كمفتاح . وقيل إبيل كسكين . وقول رؤبة «صيروا» بالتشديد والبناء للمجهول ، ولعل هذا رجز غير ذاك .

﴿ وما تفرّقوا ﴾ يعنى أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿ إلا من بعد ﴾ أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد ، وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهى عدة التأخير إلى يوم القيامة ﴿ لقضى بينهم ﴾ حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿ وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ وهم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لفى شك ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان . وقيل : كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان ، فلما مات الاباء اختلف الأبناء فيما بينهم ، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم . وإنما اختلفوا للبغى بينهم . وقيل : وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقوله تعالى (وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وإنّ الذين أورثوا الكتاب من من بعدهم هم المشركون : أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل . وقرئ : ورّثوا ، وورثوا .

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿ فلذلك ﴾ فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿ فادع ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة ﴿ واستقم ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب ، أىّ كتاب صحّ أنّ الله أنزله ، يعنى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ؛ لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، كقوله تعالى (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) إلى قوله (أولئك هم الكافرون حقاً) ﴿ لأعدل بينكم ﴾ فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلىّ ﴿ لاحجة بيننا وبينكم ﴾ أى لا خصومة ؛ لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة . ومعناه : لا إيراد حجة بيننا ؛ لأنّ المتحاجين : يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم ؛ وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والالزام . فإن قلت : كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء ؟ قلت : المراد محاجزتهم فى مواقف المقاولة لا المقاتلة .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

﴿يحاجون فى الله﴾ يخاصمون فى دينه ﴿من بعد﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا فى الإسلام، ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً) كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم[1] وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام ﴿داحضة﴾ باطلة زالة.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨)

﴿أنزل الكتاب﴾ أى جنس الكتاب ﴿والميزان﴾ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله فى كتبه المنزلة. وقيل: الذى يوزن به. بالحق: ملتبسا بالحق، مقترنا به، بعيداً من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك ﴿الساعة﴾ فى تأويل البعث، فلذلك قيل ﴿قريب﴾ أو لعل مجىء الساعة قريب. فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذى يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف. المماراة: الملاجة[2] لأنّ كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه ﴿لفى ضلال بعيد﴾ من الحق: لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لاريب فيها، ولشهادة العقول على أنه لابدّ من دار الجزاء.

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)

﴿لطيف بعباده﴾ برّ بليغ البرّ بهم، قد توصل برّه إلى جميعهم، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لايبلغه، وهم أحد من كلياته وجزئياته. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿يرزق من يشاء﴾

---

(١) قوله «ونحن خير منكم» لعله: «فنحن» كعبارة النسفى. (ع)
(٢) قوله «الملاجة» بالجيم: التمادى فى الخصومة، ويمرى: أى يستخرج، كذا فى الصحاح. (ع)

بعد توصل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أنّ البرّ أصناف، وله أوصاف. والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه؛ فمن قسم له منهم مالا يقسم للآخر فقد رزقه، وهو الذى أراد بقوله تعالى (يرزق من يشاء) كما يرزق أحد الأخوين ولداً دون الآخر، على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد ﴿وهو القوىّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء ﴿العزيز﴾ المنيع الذى لا يغلب.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠)

سمى ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز. وفرق بين عملى العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق فى عمله وضوعفت حسناته، ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه. وهو رزقه الذى قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط فى الآخرة، ولم يذكر فى معنى عامل الآخرة وله فى الدنيا نصيب، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه فى المآب.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰؤُا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)

معنى الهمزة فى ﴿أم﴾ التقرير والتقريع. وشركاؤهم: شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا؛ لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذى شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به وقيل شركاؤهم: أوثانهم. وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله، فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة. وتارة إلى الله؛ ولما كانت سببا لضلالتهم وافتتانهم: جعلت شارعة لدين الكفر، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه ﴿إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾. ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ أى القضاء السابق بتأجيل الجزاء. أى: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ أى بين الكافرين والمؤمنين. أو بين المشركين وشركائهم. وقرأ مسلم بن جندب: وأنّ الظالمين، بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل، يعنى: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين فى الآخرة، لقضى بينهم فى الدنيا.

تَرَى الظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)

﴿ترى الظالمين﴾ فى الآخرة ﴿مشفقين﴾ خائفين خوفا شديداً أرق قلوبهم ﴿مما كسبوا﴾ من السيئات ﴿وهو واقع بهم﴾ يريد: ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه، أشفقوا أو لم يشفقوا. كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿عند ربهم﴾ منصوب بالظرف لا بيشاؤن قرئ: يبشر، من بشره. ويبشر من أبشره. ويبشر، من بشره. والأصل: ذلك الثواب الذى يبشر الله به عباده، لحذف الجار، كقوله تعالى (واختار موسى قومه) ثم حذف الراجع إلى الموصول، كقوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) أو ذلك التبشير الذى يبشره الله عباده. روى أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على مايتعاطاه أجراً؟ فنزلت الآية ﴿إلا المودة فى القربى﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلا، أى: لاأسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتى؛ ولم يكن هذا أجراً فى الحقيقة؛ لأنّ قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم فى المروءة. ويجوز أن يكون منقطعاً، أى: لا أسألكم أجراً قط ولكننى أسألكم أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. فإن قلت: هلا قيل: إلا مودّة القربى: أو إلا المودة للقربى. وما معنى قوله (إلا المودة فى القربى)؟ قلت: جعلوا مكانا للمودة ومقراً لها، كقولك: لى فى آل فلان مودّة. ولى فيهم هوى وحب شديد، تريد: أحبهم وهم مكان حبى ومحله، وليست (فى) بصلة للمودّة، كاللام إذا قلت: إلا المودّة للقربى، إنما هى متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به فى قولك: المال فى الكيس. وتقديره: إلا المودّة ثابتة فى القربى ومتمكنة [1] فيها. والقربى: مصدر كالزلفى والبشرى، بمعنى: قرابة. والمراد فى أهل القربى. وروى أنها لما نزلت قيل: يارسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا

---

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل: إلا مودة القربى. أو: إلا المودة للقربى. وأجاب بأنهم جعلوا مكانا للمودة ومقراً لها، كقولك: لى فى آل فلان هوى وحب شديد، وليس (فى) صلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى؛ وإنما هى متعلقة بمحذوف تقديره: إلا المودة ثابتة فى القربى ومتمكنة فيها» قال أحمد: وهذا المعنى هو الذى قصد بقوله فى الآية التي تقدمت: إن قوله يذرؤكم فيه، إنما جاء عوضا من قوله: يذرؤكم به، فافهمه.

مودّتهم ؟ قال : « عليّ وفاطمة وابناهما [١] » ويدل عليه ماروى عن على رضى الله عنه : شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى . فقال « أما ترضى أن تكون رابع أربعة : أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين ، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا ، وذريتنا خلف أزواجنا » [٢] وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتى وآذانى فى عترتى . ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقينى يوم القيامة » [٣] وروى . أنّ الأنصار قالوا : فعلنا وفعلنا ، كأنهم افتخروا ، فقال عباس أو ابن عباس رضى الله عنهما : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فى مجالسهم فقال : « يامعشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بى » ؟ قالوا بلى يارسول الله . قال : « ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بى » ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : « أفلا تجيبونى » [٤] ؟ قالوا : مانقول يارسول الله ؟ قال : « ألا تقولون : ألم يخرجك قومك فآويناك ، أولم يكذبوك فصدقناك ، أولم يخذلوك فنصرناك » قال : فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا : أموالنا وما فى أيدينا لله ولرسوله . فنزلت الآية . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً [٥] ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله

---

(١) أخرجه الطبرانى وابن أبى حاتم والحاكم فى مناقب الشافعى من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وحسين ضعيف ساقط . وقد عارضه ماهو أولى منه . فى البخارى من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية . فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال ابن عباس : عجلت . إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ـ الحديث » قلت وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال « أكثروا علينا فى هذه الآية . فكتبنا الى ابن عباس فكتب ـ فذكر نحوه » وابن طاوس أتم منه .

(٢) أخرجه الكريمى عن ابن عائشة بسنده عن على رضى الله عنه ورواه الطبرانى من حديث أبى رافع « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلى « إن أول أربعة يدخلون الجنة ـ فذكره » وسنده واه ..

(٣) أخرجه الثعلبي من حديث على رضى الله عنه . وفيه عبدالله بن أحمد بن عامر الطائى عن أبيه . وهو كذاب

(٤) أخرجه الطبرى وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى فى الأوسط ، كلهم من حديث ابن عباس . وفيه يزيد بن زياد وهو ضعيف

(٥) أخرجه الثعلبي : أخبرنا عبدالله بن محمد بن على البلخى حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق حدثنا محمد بن أسلم حدثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير ـ بطوله . وآثار الوضع عليه لائحة . ومحمد ومن فوقه أثبات . والآفة فيه مابين الثعلبي ومحمد .

قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب[1] بين عينيه : آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة ، وقيل : لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قربى ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت . والمعنى : إلا أن تودونى فى القربى ، أى : فى حق القربى ومن أجلها ، كما تقول : الحب فى الله والبغض فى الله ، بمعنى : فى حقه ومن أجله ، يعنى : أنكم قومى وأحق من أجابنى وأطاعنى ، فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى ولا تهيجوا علىّ . وقيل : أتت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال جمعوه وقالوا : يارسول الله ، قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة ، فاستعن بهذا على ماينوبك[2] ، فنزلت ورده . وقيل (القربى) : التقرب إلى الله تعالى ، أى : إلا أن تحبوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح . وقرئ : إلا مودة فى القربى ﴿من يقترف حسنة﴾ عن السدى أنها المودة فى آل رسول الله صلى الله عليه وسلم : نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ومودته فيهم . والظاهر : العموم فى أى حسنة كانت ؛ إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى : دل ذلك على أنها تناولت المودة تناولا أولياً ، كأن سائر الحسنات لها توابع . وقرئ : يزد ، أى : يزد الله . وزيادة حسنها من جهة الله مضاعفتها ، كقوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) وقرئ : حسنى ، وهى مصدر كالبشرى ، الشكور فى صفة الله : مجاز للاعتداد بالطاعة ، وتوفية ثوابها ، والتفضل على المثاب .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤)

﴿أم﴾ منقطعة . ومعنى الهمزة فيه التوبيخ[3] ، كأنه قيل : أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ، ثم إلى الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأفحشها ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب فإنه لايجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حالهم ، وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ،

(١) قوله «مكتوب بين عينيه» لعله : مكتوبا . (ع)

(٢) ذكره الثعلبى والواحدى فى الأسباب عن ابن عباس بغير سند . ويشبه أن يكون عن الكلبى عن أبى صالح عنه . وروى الطبرانى من طريق عثمان بن القطان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وأخرجه ابن مردويه عنه .

(٣) قوله «ومعنى الهمزة فيه التوبيخ» لعله : فيها . (ع)

وأنه فى البعد مثل الشرك بالله والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم . ومثال هذا : أن يخون بعض الأمناء فيقول لعل الله خذلنى ، لعل الله أعمى قلبى ، وهو لايريد إثبات الخذلان وعمى القلب . وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، ثم قال : ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق ﴿ بكلماته ﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) يعنى : لو كان مفتريا كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه . ويجوز أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت[1] والتكذيب ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذى لامردّ له من نصرتك عليهم ، إنّ الله عليم بما فى صدرك وصدورهم ، فيجرى الأمر على حسب ذلك . وعن قتادة (يختم على قلبك) : ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى ، يعنى : لوافترى على الله الكذب لفعل به ذلك ، وقيل (يختم على قلبك) : يربط عليه بالصبر ، حتى لا يشق عليك أذاهم . فإن قلت : إن كان قوله (ويمح الله الباطل) كلاما مبتدأ غير معطوف على يختم ، فما بال الواو ساقطة فى الخط ؟ قلت : كما سقطت فى قوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر) وقوله تعالى (سندع الزبانية) على أنها مثبتة فى بعض المصاحف .

وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

يقال : قبلت منه الشيء ، وقبلته عنه . فمعنى قبلته منه : أخذته منه وجعلته مبدأ قبولى ومنشأه . ومعنى : قبلته عنه : عزلته عنه وأبنته عنه . والتوبة : أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لايعاود ؛ لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب . وإن كان فيه لعبد حق : لم يكن بد من التفصى على طريقه ، وروى جابر أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه : يا هذا ، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة . فقال : يا أمير المؤمنين ، وما التوبة ؟ قال : اسم يقع على ستة معان : على الماضى من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابه النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ﴿ ويعفو عن السيآت ﴾ عن الكبائر إذا تيب عنها ، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ . قرئ بالتاء والياء : أى : يعلمه فيثيب على حسناته ، ويعاقب على سيئاته .

(١) قوله «من البهت» أى : اتهام الانسان بما ليس فيه . (ع)

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَالْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾ أى يستجيب لهم ، فحذف اللام كما حذف فى قوله تعالى (وإذا كالوهم) أى يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم . وقيل : الاستجابة : فعلهم ، أى يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها ﴿ويزيدهم﴾ هو ﴿من فضله﴾ على ثوابهم . وعن سعيد بن جبير : هذا من فعلهم : يجيبونه إذا دعاهم . وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له : ما بالنا ندعو فلا نجاب ؟ قال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ، ثم قرأ (والله يدعو إلى دار السلام) ، (ويستجيب الذين آمنوا) .

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

﴿لبغوا﴾ من البغى وهو الظلم ، أى : لبغى هذا على ذاك ، وذاك على هذا ، لأنّ الغنى مبطرة مأشرة [1] ، وكفى بحال قارون عبرة . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «أخوف ما أخاف على أمّتى زهرة الدنيا وكثرتها» [2] ولبعض العرب :

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِىُّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِى رُومَانَ نَبْعًا وَشَوْحَطَا [3]

يعنى : أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغى والتفانى . أو من البغى وهو البذخ والكبر ، أى : لتكبروا فى الأرض ، وفعلوا ما يتبع الكبر من الغلو فيها والفساد . وقيل : نزلت فى قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى . قال خباب ابن الأرت : فينا نزلت ، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها ﴿بقدر﴾ بتقدير . يقال قدره قدراً

---

(١) قوله «مبطرة مأشرة» فى الصحاح : الأشر : البطر . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال . ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بهذا ـ وزاد «وكان يقال خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك» وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى . بلفظ «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا»

(٣) يروى : وقد جعل الوسمى أول مطر السنة ، لأنه يسم الأرض بالنبات . والنبع : شجر تتخذ منه القسى . والشوحط مثله ، أى : قد يشرع المطر فى إنبات الأشجار بيننا وبينهم . والمعنى : أنهم يطلبون الاقامة حتى تعظم الأشجار بينهم لأنهم أغنياء لا يكثرون الارتحال كغيرهم . أو المعنى : أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت تلك الأشجار يتخذون منها الرماح والقسى ، ويتحاربون . فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين ، وهذا هو الذى يعطيه السياق ، وذكر البينية ، وتخصيص ذلك الشجر .

وقدرا . ﴿خبير بصير﴾ يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ماهو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية . ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا . فإن قلت : قد نرى الناس يبغى بعضهم على بعض ، ومنهم مبسوط لهم ، ومنهم مقبوض عنهم ؛ فإن كان المبسوط لهم يبغون ، فلم بسط لهم : وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغى بدون البسط ، فلم شرطه ؟ قلت : لا شبهة فى أنّ البغى مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغى والإحجام عنه ، فلو عم البسط لغلب البغى حتى ينقلب الأمر إلى عكس ماعليه[1] الآن .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَاقَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾

قرئ : قنطوا بفتح النون وكسرها ﴿وينشر رحمته﴾ أى : بركات الغيث ومنافعه ومايحصل به من الخصب . وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له : اشتدّ القحط وقنط الناس[2] فقال : مطروا إذاً : أراد هذه الآية . ويجوز أن يريد رحمته فى كل شىء ، كأنه قال : ينزل الرحمة التى هى الغيث ، وينشر غيرها من رحمته الواسعة ﴿الولى﴾ الذى يتولى عباده بإحسانه ﴿الحميد﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته .

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

﴿وما بث﴾ يجوز أن يكون مرفوعا ومجرورا يحمل على المضاف إليه أو المضاف . فإن قلت : لم جاز ﴿فيهما من دابة﴾ والدواب فى الأرض وحدها ؟ قلت : يجوز أن ينسب الشىء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسا ببعضه ، كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل ، وإنما هو فى فخذ[3] من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم ، وبنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله نويس

---

(١) قوله «عكس ما عليه الآن» لعله : ماهو عليه . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال «ذكر لنا» فذكره بتمامه . ورواه باختصار عبدالرزاق عن معمرعن قتادة قال «ذكر لنا أن رجلا أتى عمر بن الخطاب فقال : ياأمير المؤمنين . قحط المطر وقنط الناس . فقال : مطروا إذن» .

(٣) قوله «فخذ» العشائر أقلها الفخذ ، وفوقه البطن ، ثم العمارة ، ثم الفصيلة ، ثم القبيلة ، ثم الشعب . فهو أكثرها . أفاده الصحاح . (ع)

منهم. ومنه قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح.[1] ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران. فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسى. ولا يبعد أن يخلق فى السموات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسى على الأرض، سبحان الذى خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق. (إذا) يدخل على المضارع كما يدخل على الماضى. قال الله تعالى (والليل إذا يغشى) ومنه ﴿إذا يشاء﴾ وقال الشاعر:

وَإِذَا مَاأَشَاءُ أَبْعَثُ مِنْهَا آخِرَ اللَّيْلِ نَاشِطًا مَذْعُورًا [2]

*** ***

وَمَا أَصَٰبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٣١)

فى مصاحف أهل العراق ﴿فبما كسبت﴾ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشرط. وفى مصاحف أهل المدينة (بما كسبت) بغير فاء، على أن (ما) مبتدأة، وبما كسبت: خبرها من غير تضمين معنى الشرط. والآية مخصوصة بالمجرمين،[3] ولا يمتنع أن يستوفى الله بعض عقاب المجرم ويعفو

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم جاز فيهما من دابة والدواب فى الأرض وحدها؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشىء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه، كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح... الخ» قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسى بعيد من عرف اللغة، فكيف فى إطلاقه على الملائكة. والصواب ـ والله أعلم ـ: هو الوجه الأول، وقد جاء مفسرا فى غير ما آية، كقوله (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) ثم قال (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة) فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

(٢) إذا: ظرف للمستقبل، فاذا دخل عليه الماضى كان مستقبلا؛ أو المضارع كان نصا فى الاستقبال، وجرد من الناقة أمرا آخر لشدة سيرها، فلذلك قال: منها. وأصل المعنى: أبعثها فى آخر الليل كالناشط، وهو الثور الوحشى يخرج من أرض إلى أخرى، والمذعور: الخائف وهو كناية عن سريع السير جداً.

(٣) قال محمود: «والآية مخصوصة بالمجرمين... الخ» قال أحمد: هذه الآية تنكسر عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة فى صرفها عن مقتضى نصها، فانهم حملوا قوله تعالى (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب، وهو غير ممكن لهم ههنا؛ فانه قد أثبت التبعيض فى العفو، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقرونا بالتوبة، فانه يلزم تبعيض التوبة أيضا. وهى عندهم لا تتبعض. وكذلك نقل الامام عن أبى هاشم وهو رأس الاعتزال والذى تولى كبره منهم. فلا محمل لها إلا الحق الذى لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وقول الزمخشرى إن الآلام التى تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض، إنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ على الأصل والفرع؛ لأن المعتزلة وإن أخطأت فى إيجاب العوض، فلم تقل بإيجابه فى الأطفال والمجانين. ألا ترى أن القاضى أبا بكر ألزمهم قبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال: لا أعواض لها، وليس مترتبا على استحقاق سابق فيحسن، فانما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها.

عن بعض. فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفو الله عنه أكثر»[1] وعن بعضهم: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه، وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر: كان قليل النظر فى إحسان ربه إليه. وعن آخر: العبد ملازم للجنايات فى كل أوان؛ وجناياته فى طاعاته أكثر من جناياته فى معاصيه، لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله فى القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك فى أوّل خطوة: وعن على رضى الله عنه وقد رفعه: من «عفى عنه فى الدنيا عفى عنه فى الآخرة[2] ومن عوقب فى الدنيا لم تثن عليه العقوبة فى الآخرة» وعنه رضى الله عنه: هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن ﴿بمعجزين﴾ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿من ولى﴾ من متول بالرحمة.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

﴿الجوارى﴾: السفن. وقرئ: الجوار ﴿كالأعلام﴾ كالجبال. قالت الخنساء:

* كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِى رَأْسِهِ نَارُ *[3]

---

(١) أخرجه عبدالرزاق وابن أبى حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبرى والبيهقى فى أواخر الشعب. عن قتادة كلاهما مرسل. ووصله عبدالرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبى وائل عن البراء رضى الله عنه

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية أبى جحيفة عن على رفعه. بلفظ: من أصاب ذنبا فى الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثنى على عبد عقوبته. ومن أذنب ذنبا فستر الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود فى شيء عفا عنه» ورواه أحمد والبزار والحاكم والدارقطنى والبيهقى فى الشعب فى السابع والأربعين. وقال إسحاق فى مسنده: أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبدالملك بن أبى الصفراء عن يونس بن حبان عن على نحوه وفيه انقطاع

(٣) وإن صخرا لمولانا وسيدنا ... وإن صخرا إذا يشتو لنحار
أغر أبلج تأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

للخنساء ترثى أخاها. ويشتو: أى يدخل فى الشتاء، وهو حكاية حال ماضية. ونحار: كثير نحر الابل للضيفان كناية عن كثرة كرمه. والأغر: الأبيض. والأبلج: الطلق الوجه المعروف. والهداة: جمع هاد: من يتقدم غيره ليدله. والعلم: الجبل: وفى رأسه نار: صفة علم جاءت لترشيح التشبيه وتقريره، والمبالغة فى توضيح المشبه ═

وقرئ: الرياح فيظللن بفتح اللام وكسرها ؛ من ظل يظل ويظل ، نحو : ضل يضل ويضل ﴿رواكد﴾ ثوابت لا تجرى ﴿على ظهره﴾ على ظهر البحر [1] ﴿لكل صبار﴾ على بلاء الله ﴿شكور﴾ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن المخلص ، فجعلهما كناية عنه ، وهو الذى وكل همته بالنظر فى آيات الله ، فهو يستملى منها العبر ﴿يوبقهن﴾ يهلكهن . والمعنى : أنه إن يشأ يبتلى المسافرين فى البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فيركد الجوارى على متن البحر ويمنعهن من الجرى ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب ﴿ويعف عن كثير﴾ منها ، فإن قلت : علام عطف يوبقهن ؟ قلت : على يسكن ، لأنّ المعنى : إن يشأ يسكن الريح فيركدن . أو يعصفها فيغرقن بعصفها . فإن قلت : فما معنى إدخال العفو فى حكم الإيباق حيث جزم جزمه ؟ قلت : معناه : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم . فإن قلت : فمن قرأ (ويعفو) ؟ قلت : قد استأنف الكلام .

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث فى ﴿ويعلم﴾ ؟ قلت : أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف . وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون ونحوه فى العطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن ، منه قوله تعالى (ولنجعله آية للناس) وقوله تعالى (وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأنّ قبلها جزاء ، تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمك . وإن شئت وأكرمك ، على : وأنا أكرمك . وإن شئت وأكرمك جزما ، ففيه نظر لما أورده سيبويه فى كتابه . قال : واعلم أنّ النصب بالفاء والواو فى قوله : إن تأتنى آتك وأعطيك : ضعيف ، وهو نحو من قوله :

* وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا * [2]

فهذا يجوز ، وليس بحدّ الكلام ولا وجهه ، إلا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا : لأنه ليس بواجب

وتشهيره ، وعادة دليل الركب : الاهتداء إلى الطريق بالجبال الشامخة ، فاذا كان فوقها نار : علم أن أهلها كرام .
ويروى : * وإن صخرا لتأتم الهداة به *

(١) قال محمود : «معناه ثوابت لا تجرى على ظهر البحر» قال أحمد : وهم يقولون : إن الريح لم ترد فى القرآن إلا عذابا ، بخلاف الرياح . وهذه الآية تخرم الاطلاق ، فان الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة . إذ بواسطتها يسير الله السفن فى البحر حتى لو سكنت لركدت السفن ، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه . وأما اطراده فلا . وما ورد فى الحديث : اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا ؛ فلأجل الغالب فى الاطلاق ، والله أعلم .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٥٧ فراجعه إن شئت اه مصححه .

أنه يفعل . إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما ضارع الذى لا يوجبه كالاستفهام ونحوه :أجازوا فيه هذا على ضعفه اه. ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة . فإن قلت : فكيف يصح المعنى على جزم (ويعلم) ؟ قلت : كأنه قال : أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين ﴿من محيص﴾ من محيد عن عقابه .

فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾

(ما) الأولى ضمنت معنى الشرط ، فجاءت الفاء فى جوابها بخلاف الثانية . عن على رضى الله عنه : اجتمع لأبى بكر رضى الله عنه مال فتصدق به كله فى سبيل الله والخير ، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون ، فنزلت .

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿والذين يجتنبون﴾ عطف على الذين آمنوا ، وكذلك ما بعده . ومعنى ﴿كبائر الإثم﴾ الكبائر من هذا الجنس . وقرئ : كبير الاثم . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه: كبير الإثم هو الشرك ﴿هم يغفرون﴾ أى هم الأخصاء بالغفران فى حال الغضب ، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس ، والمجىء بهم وإيقاعه مبتدأ ، وإسناد (يغفرون) إليه لهذه الفائدة، ومثله : (هم ينتصرون) .

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

﴿والذين استجابوا لربهم﴾ نزلت فى الأنصار : دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته ، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وأقاموا الصلوة﴾ وأتموا الصلوات الخمس . وكانوا قبل الاسلام وقبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة : إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ، فأثنى الله عليهم ، أى : لا ينفردون برأى حتى يجتمعوا عليه . وعن الحسن : ماتشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم [1] والشورى : مصدر كالفتيا ، بمعنى التشاور . ومعنى

(١) أخرجه ابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب وعبد الله بن أحمد فى زيادات الزهد . وقد ذكره المصنف مرفوعا فى آل عمران .

قوله ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أى ذو شورى ، وكذلك قولهم : ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة شورى .

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾

هو أن يقتصروا فى الانتصار على ماجعله الله لهم ولا يعتدوا . وعن النخعى أنه كان إذا قرأها قال : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق . فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم ؛ لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به فلم يسرف فى القتل إن كان ولى دم أورد على سفيه ، محاماة على عرضه وردعا له ، فهو مطيع . وكل مطيع محمود .

وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة ، لأنها تسوء من تنزل به . قال الله تعالى : (وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) : يريد مايسوءهم من المصائب والبلايا . والمعنى : أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، فإذا قال أخزاك الله قال : أخزاك الله ﴿فمن عفا وأصلح﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ، كما قال تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ، ﴿فأجره على الله﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها فى العظم . وقوله ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة [1] والاعتداء خصوصا فى حال الحرد [2] والتهاب الحمية فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على الله أجر فليقم . قال : فيقوم خلق ، فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله . [3]

(١) قال محمود : « فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه ... الخ » قال أحمد : معنى حسن يجاب به عن قول القائل : لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم ؛ فيشفى غليل السائل ويحصل منه على كل طائل . ومن هذا النمط والله الموفق : قوله تعالى : (وإذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) .

(٢) قوله « والحرد » فى الصحاح : « الحرد » بالتحريك : الغضب . (ع)

(٣) أخرجه العقيلى والطبرانى فى مكارم الأخلاق وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب فى السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن الحسن بن أنس رفعه . قال « وإذا وقف العبد للحساب ينادى مناد : من كان أجره على الله فليدخل الجنة . الحديث » وله طريق أخرى عند الثعلبى من رواية زهير بن عباد عن =

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿بعدظلمه﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، وتفسره قراءة من قرأ : بعد ماظلم ﴿فأولئك﴾ إشارة إلى معنى (من) دون لفظه ﴿ماعليهم من سبيل﴾ للمعاقب ولا للعاتب والعائب ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿ويبغون فى الأرض﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون .

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

﴿ولمن صبر﴾ على الظلم والأذى ﴿وغفر﴾ ولم ينتصر وفوض أمره إلى الله ﴿إنذلك﴾ منه ﴿لمن عزم الأمور﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم ، كما حذف من قولهم : السمن منوان بدرهم . ويحكى أن رجلا سب رجلا فى مجلس الحسن رحمه الله ، فكان المسبوب يكظم ، ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن : عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون . وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد ينعكس فى بعض الأحوال ، فيرجع ترك العفو مندوبا إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغى ، وقطع مادة الأذى . وعن النبى صلى الله عليه وسلم مايدل عليه : وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته ، وكان ينهاها فلا تنتهى ، فقال لعائشة : « دونك فانتصرى »[1] .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

= ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس . وأخرى عن البيهقى من رواية الثورى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتم منه ـ قال البيهقى : المتن غريب ـ والاسناد ضعيف .

(١) أخرجه النسائى من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت : ماعلمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهى بمعنى (*) فذكر نحوه . ولم يذكر فيه النهى . ولفظه ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش ـ إلى أن قال : فأقبلت زينب تقحم لعائشة فنهاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبت أن تنتهى . قال : لعائشة سبيها فسبتها فغلبتها » .

(*) بياض بالأصل .

﴿ومن يضلل الله﴾ ومن يخذل الله[1] ﴿فما له من ولىّ من بعده﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَـٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

﴿خاشعين﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿من الذل﴾ وقد يعلق من الذل بينظرون، ويوقف على خاشعين ﴿ينظرون من طرف خفى﴾ أى يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف[2]. وهكذا نظر الناظر إلى المكاره: لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها، كما يفعل فى نظره إلى المحاب. وقيل: يحشرون عميا فلا ينظرون إلا بقلوبهم. وذلك نظر من طرف خفى. وفيه تعسف ﴿يوم القيامة﴾ إما أن يتعلق بخسروا، ويكون قول المؤمنين واقعا فى الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أى: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾

﴿من الله﴾ من صلة لا مرد، أى: لا يرده الله بعدما حكم به. أو من صلة يأتى، أى: من قبل أن يأتى من الله يوم لا يقدر أحد على رده. والنكير: الإنكار، أى: ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيأ مما اقترفتموه ودون فى صحائف أعمالكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَـٰغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

---

(١) قوله «ومن يخذل الله فما له من ولى» تأويل على مذهب المعتزلة: أنه تعالى لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: يخلقه كالخير، فالاضلال خلق الضلال. ومن بعده: أى من بعد إضلاله. (ع)

(٢) قوله «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أى: المحبوس للقتل. أفاده الصحاح. (ع)

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد ، لقوله (وإن تصبهم سيئة) ولم يرد إلا المجرمين ؛ لأن إصابة السيئه بما قدمت أيديهم إنما تستقيم فيهم . والرحمة : النعمة من الصحة والغنى والأمن . والسيئة: البلاء من المرض والفقر والمخاوف . والكفور : البليغ الكفران ، ولم يقل : فإنه كفور ؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم [١] ، كما قال (إن الإنسان لظلوم كفار) ، (إن الإنسان لربه لكنود) والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها [٢] .

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها : أتبع ذلك أن له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته ، فيخص بعضا بالإناث وبعضا بالذكور ، وبعضا بالصنفين جميعا ، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط . فإن قلت :لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم ، ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟ قلت . لأنه ذكر البلاء فى آخر الآية الأولى وكفران الانسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلى الجنس الذى كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، وأخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير . كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتض آخر فقال ﴿ذكرانا وإناثا﴾ كما قال (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) ، (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) وقيل : نزلت فى الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، حيث وهب لشعيب ولوط إناثا ، ولإبراهيم ذكوراً ، ولمحمد ذكوراً وإناثا ، وجعل يحيى وعيسى عقيمين ﴿إنه عليم﴾ بمصالح العباد ﴿قدير﴾ على تكوين ما يصلحهم .

---

(١) قال محمود : «لم يقل : فانه كفور ؛ ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم ... الخ» قال أحمد : وقد أغفل هذه النكتة بعينها فى الآية التى قبل هذه ، وهى قوله تعالى (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) فوضع الظالمين موضع الضمير الذى كان من حقه أن يعود على اسم إن ، فيقال : ألا إنهم فى عذاب مقيم ، فأتى هذا الظاهر تسجيلا عليهم بلسان ظلمهم

(٢) قوله «وينسى النعم ويغمطها» يبطرها ويحقرها . أفاده الصحاح . (ع)

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)

(وما كان لبشر) وماصح لأحد من البشر (أن يكلمه الله إلا) على ثلاثة أوجه: إما على طريق الوحى وهو الإلهام والقذف فى القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام فى ذبح ولده. وعن مجاهد: أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام فى صدره. قال عبيد بن الأبرص:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَأَمَّرُوا بِإِبْلِ أَبِي أَوْفَى فَقُمْتُ عَلَى رِجْلِ [1]

أى: ألهمنى وقذف فى قلبى. وإما على أن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الأجرام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه، لأنه فى ذاته غير مرئى[2]. وقوله (من وراء حجاب) مثل أى، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحى الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى. وقيل: وحيا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة (أو يرسل رسولا) أى نبياً كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. ووحيا، وأن يرسل: مصدران واقعان موقع الحال؛ لأنّ: أن يرسل، فى معنى إرسالا. ومن وراء حجاب: ظرف واقع موقع الحال أيضاً، كقوله تعالى (وعلى جنوبهم) والتقدير: وماصح أن يكلم أحداً إلا موحيا، أو مسمعا من وراء حجاب، أو مرسلا. ويجوز أن يكون: وحيا، موضوعا موضع: كلاما؛ لأنّ الوحى كلام خفى فى سرعة، كما تقول: لا أكلمه إلا جهراً وإلا خفاتا؛ لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالا: جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة. تقول: قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أورسولك. وقوله (أو من وراء حجاب) معناه: أو إسماعا من وراء حجاب؛ ومن جعل (وحيا) فى معنى: أن يوحى، وعطف يرسل عليه، على معنى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا) أى: إلا بأن يوحى. أو بأن يرسل،

---

(١) أى ألهمنى الله وألقى فى قلبى: أنهم تآمروا. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير القوم أو الحال والشأن. واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت؛ لأنها مهملة. وإن ضمن «أوحى» معنى: قال، فأن تفسيرية، أى. قد تآمروا بوزن تفاعلوا، أى: تشاوروا فى الأمر، أو أجمعوا أمرهم. ومنه (يأتمرون بك ليقتلوك) بإبل أبى أوفى ليغتصبوها، فقمت فى طلبهم لأردها على رجل، أى: لم أصبر حتى أركب. أو على رجل واحدة، أى: بسرعة، فلا أضع رجلى معاً فى الأرض.

(٢) قوله «لأنه فى ذاته غير مرئى» أى: لا تجوز رؤيته، وهذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فتجوز كما تقرر فى محله. (ع)

فعليه أن يقدر قوله (أو من وراء حجاب) تقديراً يطابقهما عليه، نحو: أو أن يسمع[1] من وراء حجاب. وقرئ: أو يرسل رسولا فيوحى بالرفع، على: أو هو يرسل. أو بمعنى مرسلا عطفاً على وحيا في معنى موحيا. وروى أن اليهود قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فقال: لم ينظر موسى إلى الله[2]، فنزلت. وعن عائشة رضى الله عنها: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية[3]، ثم قالت: أولم تسمعوا ربكم يقول: فتلت هذه الآية. ﴿إنه على﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حكيم﴾ يجرى أفعاله على موجب الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بغير واسطة: إما إلهاما، وإما خطابا.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿روحا من أمرنا﴾ يريد: ما أوحى إليه، لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح. فإن قلت: قد علم أن رسول الله[4] صلى الله عليه وسلم: ما كان يدرى ما القرآن قبل

---

(١) قوله «وأن يسمع من وراء حجاب» لعله: أو بأن. (ع)

(٢) لم أجده.

(٣) متفق عليه، وقد تقدم طرف منه في الأنعام.

(٤) قال محمود: «فإن قلت: قد علم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يدرى الكتاب قبل الوحى ... الخ» قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري أن الايمان اسم التصديق مضافا إليه كثير من الطاعات فعلا وتركا حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الايمان ولا يناله وعد المؤمنين، وتفطن لامكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية: عدها فرصة لينتهزها وغنيمة، ليحرزها، وأبعد الظن بايراده مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكأنه يقول: لو كان الايمان وهو مجرد التوحيد والتصديق كما تقول أهل السنة، للزم أن ينفى عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقا، ولما كان التصديق ثابتاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين: لزم أن لا يكون الايمان المنفى في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء: من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحى، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث، وهذا الذى طمع فيه: يخرط القتاد، ولا يبلغ منه ما أراد. وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: إن الايمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد وإن كان فاسقاً ـ يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الايمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه، ولا شك أنه

نزوله عليه؛ فما معنى قوله ﴿ولا الإيمان﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ قلت: الإيمان اسم يتناول أشياء: بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل؛ وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي. ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) بالصلاة: لأنها بعض ما يتناوله الإيمان ﴿من نشاء من عبادنا﴾ من له لطف ومن لا لطف له، فلا هداية تجدى عليه ﴿صراط الله﴾ بدل. وقرئ: لتهدى، أى: يهديك الله. وقرئ: لتدعو.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له». (١)

سورة الزخرف

مكية. وقال مقاتل: إلا قوله (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا)

وهى تسع وثمانون آية [نزلت بعد الشورى]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ الْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله (إنا جعلناه قرآنا عربيا) جوابا للقسم (٢)

= قبل الوحى لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحى، وإذا كان الايمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحى، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة: استقام نفى الايمان قبل الوحى على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسنادهما إلى أبى بن كعب.

(٢) قال محمود: «أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله (إنا جعلناه قرآناً عربياً) جواباً للقسم... الخ» قال أحمد: تنبيه حسن جداً. ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربى =

وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد . ونظيره قول أبي تمـام :

* وَثَنَايَاكِ إِنَّهَا إِغْرِيضُ * (١)

﴿المبين﴾ البين للذين أنزل عليهم ؛ لأنه بلغتهم وأساليبهم . وقيل : الواضح للمتدبرين . وقيل (المبين) الذى أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان ماتحتاج إليه الأمة فى أبواب الديانة ﴿جعلناه﴾ بمعنى صيرناه معدّى إلى مفعولين . أو بمعنى خلقناه معدّى إلى واحد ، كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) . و ﴿قرآنا عربيا﴾ حال . ولعلّ : مستعار لمعنى الإرادة(٢) ؛ لتلاحظ(٣) معناها ومعنى الترجى(٤) ، أى : خلقناه عربياً غير عجمى : إرادة أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته . وقرئ : أمّ الكتاب بالكسر وهو اللوح ، كقوله تعالى (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) سمى بأم الكتاب ؛ لأنه الأصل الذى أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ . على رفيع الشأن فى الكتب ؛ لكونه معجزاً من بينها ﴿حكيم﴾ ذو حكمة بالغة ، أى : منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه ، وهو مثبت فى أم الكتاب هكذا .

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥)

= مرجو به أن يعقل به العالمون ، أى : يتعقلوا آيات الله تعالى فكان جواب القسم مصححاً للقسم ، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا ، وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا الاشعار بأنه فى غاية الحسن ، ثم جعل المقسم عليه كونها فى نهاية الحسن ، لا أنها هى أغريض ، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا ، لجعل المقسم عليه مصححاً للقسم والله أعلم .

(١) وثنـاياك إنهـا إغريض ولآل نوار أرض وميض
وأقاح منور فى بطاح هزه فى الصباح روض أريض

لأبى تمـام . والاغريض : البرد . والطلع والنوار : كرمان نور الشجر ، واحده نوارة . والوميض : شديد البريق واللمعان . والأقاح : نور أبيض طيب الرائحة . والأريض : طيب الأرض ، فيكون نضراً بهيجاً : أقسم بثناياها أى : مقدم أسنانها ، إنها : أى ثناياها إغريض . فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد ، وشبهها بالبرد وبنوار الأرض الشبيه باللآلىء ، فاضافتها إليه للتشبيه . ووميض : نعت مقطوع للنوار . أو تابع للاغريض ؛ لكن الأول أجزل ، وشبهه بالأقاح الذى نور فى البطاح ؛ لأنه أنضر وأزهى . وهزه فى الصباح من صفة الأقاح ، وخص الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى ، فيكون فى غاية النضرة والزهو . وفيه إيماء لتشبيه قوام محبوبته بأغصان الروض فى التمايل وظهور الزهور فى أعلى كل منهما ، ولك أن تجعل «وميض» صفة للآلىء ، وإن كانت جمعا ، لأن فعيل بمعنى فاعل قد يعامل معاملته فعيل بمعنى مفعول ، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكرا ومؤنثا . ويروى بدل الشطر الثانى : ولآل توم ورق وميض . والتوم : واحده تومة ، وهى حبة تعمل من الفضة كالدرة ، ولا إشكال فى إعرابه .

(٢) قال محمود : «ولعل مستعار لمعنى الارادة» (فسره بالارادة) قال أحمد : قد بينا فساد ذلك غير مامرة .

(٣) قوله «لتلاحظ معناها» لعله : ليلاحظ . (ع)

(٤) قوله «ومعنى الترجى» لعله : أومعنى . (ع)

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾ بمعنى: أفننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وقال طرفة:

أَضْرِبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ[1]

والفاء للعطف على محذوف. تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر، إنكاراً لأن يكون الأمر على خلاف ماقدم من إنزاله الكتاب. وخلقه قرآنا عربيا؛ ليعقلوه ويعملوا بمواجبه. وصفحاً على وجهين. إما مصدر من صفح عنه: إذا أعرض، منتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضاً عنكم. وإمّا بمعنى الجانب من قولهم: نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه، على معنى: أفننحيه عنكم جانبا، فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانبا، وامش جانباً. وتعضده قراءة من قرأ: صفحا بالضم. وفى هذه القراءة وجه آخر: وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح، وينتصب على الحال، أى: صافحين معرضين ﴿أن كنتم﴾ أى: لأن كنتم. وقرئ: إن كنتم، وإذ كنتم. فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية، وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ قلت: هو من الشرط الذى ذكرت أنه يصدر عن المدل[2] بصحة الأمر، المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفنى حقى، وهو عالم بذلك؛ ولكنه يخيل فى كلامه أن تفريطك فى الخروج عن الحق: فعل من له شك فى الاستحقاق، مع وضوحه استجهالا له.

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

﴿وما يأتيهم﴾ حكاية حال ماضية مستمرة، أى: كانوا على ذلك. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزاء قومه. الضمير فى ﴿أشد منهم﴾ للقوم المسرفين، لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره عنهم ﴿ومضى مثل الأولين﴾ أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التى حقها أن تسير مسير المثل، وهذا وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ووعيد لهم.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٨٧ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٢) قوله «عن المدل» أى: المواثق. أفاده الصحاح. (ع)

الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)
وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)

فإن قلت : قوله ﴿ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم[1] ، فما تصنع بقوله ﴿فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون﴾ وإن كان من قول الله ، فما وجهه ؟ قلت : هو من قول الله لا من قولهم . ومعنى قوله (ليقولن خلقهنّ العزيز العليم) الذى من صفته كيت وكيت ، لينسبنّ خلقها إلى الذى هذه أوصافه وليسندنه إليه . ﴿بقدر﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ، ولم يكن طوفانا .

وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)

و﴿الأزواج﴾ الأصناف ﴿ماتركبون﴾ أى تركبونه . فإن قلت : يقال : ركبوا الأنعام وركبوا فى الفلك[2] . وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه ؟ قلت : غلب المتعدّى بغير

---

(١) قال محمود : «فإن قلت : قوله (ليقولن خلقهن العزيز العليم) وماسرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم ... الخ» قال أحمد : الذى يظهر أن الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم ، وبعضه من قول الله تعالى ، فالذى هو من قولهم (خلقهن) ، ومابعده من قول الله عز وجل ، وأصل الكلام أنهم قالوا : خلقهن الله ؛ ويدل عليه قوله فى الآية الأخرى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ثم لما قالوا : خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات ، ولما سيق الكلام كله سياقه وأخذه ، حذف الموصوف من كلامهم ، وأقيمت الصفات المذكورة فى كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد . ونظير هذا أن تقول للرجل : من أكرمك من القوم ؟ فيقول أكرمنى زيد ، فتقول أنت واصفا للمذكور : الكريم الجواد الذى من صفته كذا وكذا ، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل ، جرى كلامه عز وجل على ماعرف من الافتنان فى البلاغة ، فجاء أوله على لفظ الغيبة وآخره على الانتقال منها ، إلى التكلم فى قوله (فأنشرنا) كل ذلك افتنان فى أفنان البلاغة . ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى (قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولاينسى الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فجاء أول الكلام حكاية عن موسى ، إلى قوله (ولاينسى) ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى ، فوصف ذاته أوصافا متصلة بكلام موسى ، حتى كأنه كلام واحد . وابتدأ فى ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله (فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين تر العجب ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «يقال ركبت الدابة وركبت فى الفلك ... الخ» قال أحمد : لم يحرر العبارة فى هذا الموضع فان قوله «غلب المتعدى بغير واسطة على المتعدى بنفسه» يوهم أن بين الفعلين تباينا وليس =

واسطة ، لقوته على المتعدّى بواسطة ، فقيل : تركبونه ﴿على ظهوره﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام . ومعنى ذكر نعمة الله عليهم : أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ، ثم يحمدوا عليها بألسنتهم ، وهو ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : « بسم الله » فإذا استوى على الدابة قال : « الحمد لله على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا . . . إلى قوله . . . لمنقلبون ، وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا[1] . وقالوا : إذا ركب[2] في السفينة قال : (بسم الله مجراها ومرساها إنّ ربى لغفور رحيم) وعن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه رأى رجلا يركب دابة فقال : سبحان الذى سخر لنا هذا . فقال : أبهذا أمرتم؟ فقال: وبم أمرنا؟ قال : أن تذكروا نعمة[3] ربكم : كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه . وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقها وجليلها . جعلنا الله من المقتدين بهم ، والسائرين بسيرتهم ، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات ، فكيف بالنظر في لطائف الديانات ؟ ﴿مقرنين﴾ مطيقين . يقال : أقرن الشيء ، إذا أطاقه . قال ابن هرمة :

= كذلك ، فان المتعدى إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدى إلى السفن غاية ما ، ثم إن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة ، وباعتبار بعضها بالتعدى بنفسه ، والاختلاف بالتعدى والقصور . أو باختلاف آلات التعدى . وباختلاف أعداد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى ، فمن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة ، مثل : سكرت وأخواته ، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة ، مثل دعوت وصليت ، فانك تقول : صلى النبي على آل أبي أوفى ، ولو قلت : دعا على آل أبي أوفى : لأفهم عكس المقصود ، ولكن دعا لآل أبي أوفى ، ويعدون بعضها إلى مفعولين ، ومرادفه إلى مفعول واحد ، كعلم وعرف ، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدى والقصور : الاختلاف في المعنى ، فالذى يحرر من هذا : أن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد ، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها ، فالصواب أحد الأمرين : إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا ، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه ، والأقرب تعليله باعتبار التعدى بنفسه ، ويكون هذا من تغليب أحد اعتبارى الفعل على الآخر ، وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) على أحد التأويلين فيه : فان التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى ، أعنى : أجمع على الأمر وجمع الشركاء ، ولكن لما تقاربا : غلب أحدهما على الآخر ، ثم جعل المغلب هو المتعدى بنفسه ، والله أعلم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم من حديث على . وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا . ولمسلم من طريق على الأزدى عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا الآية) .

(٢) لم أجده من فعله صلى الله عليه وسلم . وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا : بسم الله ، وماقدروا الله حق قدره ـ الآية بسم الله مجريها ومرساها » ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن على رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه الطبرى والطبرانى في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن على فذكره .

وَأَقْرَنْتُ مَاحَمَّلْتَنِي وَلَقَلَّمَا يُطَاقُ احْتِمَالُ الصَّدِّ يَادَعْدُ وَالْهَجْرُ [١]

وحقيقة «أقرنه» : وجده قرينته ومايقرن به ؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف . ألا ترى إلى قولهم في الضعيف : لايقرن به الصعبة . وقرئ : مقرنين ، والمعنى واحد . فإن قلت : كيف اتصل بذلك قوله (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ؟ قلت : كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت [٢] أو طاح من ظهرها فهلك ، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا ؛ فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر ، واتصالا بسبب من أسباب التلف : كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه ، وأنه هالك لامحالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدا للقاء الله بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه ، ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف ، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم [٣] وهم على ظهور الدواب ، أو في بطون السفن وهي تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره . وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يصح إلا بعدمااطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره الله به في هذه الآية . وقيل : يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة .

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾

---

(١) لابن هرمة . وأقرنت الشيء : إذا وجدته قرينا لك لايزيد عنك ، ثم استعمل في الإطاقة توسعا . ولقلما اللام للقسم . وقل : فعل . وما : كافة ، ركبت معه فصار المراد منه النفي ولافاعل له ، وشبه المعقول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية والحمل تخييل . يقول : أطقت ماحملتني إياه من صدك عنى وهجرك لى ، والحال أنه لايطاق احتمالها . وفي الاعتراض بندائها : نوع استعطاف .

(٢) قوله «أوشمست أوتقحمت» في الصحاح : شمس الفرس شموسا وشماسا : منع ظهره . وفيه «القحمة» بالضم : المهلكة . وقحم الطريق : مصاعبه اه ، فتقحم الدابة براكبها : خوضها به في قحمته . (ع)

(٣) قوله «حتى تميل طلاهم» في الصحاح «الطلى» الأعناق . قال الأصمعي : واحدتها طلية . وقال أبو عمرو والفراء : واحدتها طلاة . (ع)

﴿وجعلوا له من عباده جزءا﴾ متصل بقوله (ولئن سألتهم) أى : ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به ، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءا فوصفوه بصفات المخلوقين . ومعنى (من عباده جزءا) أن قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءا له وبعضا منه ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا له . ومن بدع التفاسير : تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أن الجزء فى لغة العرب : اسم الإناث ، وماهو إلا كذب على العرب ، ووضع مستحدث منحول ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتا وبيتا :

* إنْ أجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ * (١)

** **

* زُوِّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً * (٢)

وقرئ : جزؤا ، بضمتين ﴿لكفور مبين﴾ لجحود للنعمة ظاهر جحوده ؛ لأن نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله ﴿أم اتخذ﴾ بل اتخذ . والهمزة للإنكار : تجهيلا لهم وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين : وهو الإناث دون الذكور ، على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهن ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهن ، كأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ؟ ومن ادعائكم (٣) أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين

---

(١) إن أجزأت حرة يوما فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار أحيانا

قيل : «الجزؤ» اسم للأنثى ، واشتقوا منه : أجزأت المرأة ، إذا ولدت جزءا : أى أنثى . وأنكره الزمخشرى وقال إنه اصطناع لالغة . والمعنى : إن ولدت امرأة حرة أنثى فى بعض الأحيان فلا عجب ؛ فان الحرة التى تلد الذكور كثيرا قد تلد أنثى فى بعض الأوقات . وقيل : حرة الأولى اسم امرأة ، والثانية صفة .

(٢) زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن فى أبياتها زجل

قيل : «المجزئة» التى تلد البنات . والجزؤ : البنت . وأنكره الزمخشرى وقال : إنه مصنوع لالغة . والعوسج : ضرب من الشوك . والمراد به : عود المغزل المتخذ منه . واللدن : اللين . والزجل : صوت دوران المغزل ونحوه : وزوجتها ، مبنى للمجهول . وروى : «نكحتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة سميت باسمه ، تلد تلك المرأة البنات . وجعل العوسج لدنا ؛ لأنه أكثر دويا ورنينا فى دورانه .

(٣) قال محمود : «كأنه قيل : هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط فى القسمة ؟ ومن ادعاء أنه آثركم على نفسه ... الخ» قال أحمد : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شىء بمشيئة الله تعالى ، حتى الضلالة والهدى : اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل فى أمثال قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وآية الزخرف هذه لاتزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولاتفيده إلا تصويبا وتسديدا ، فنقول : إذا قال الكافر : لوشاء الله ما كفرت ، فهذه كلمة حق أراد بها باطلا . أما كونها كلمة حق فلما مهدناه . وأما كونه أراد بها باطلا ، فراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله ، توهما أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل : أن =

وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما ؟ وتنكير (بنات) وتعريف (البنين) وتقديمهن في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور). ﴿بما ضرب للرحمن مثلا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلا ، أي : شبهاً لأنه إذا جعل الملائكة جزءا لله وبعضا منه ، فقد جعله من جنسه ومماثلا له ؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، يعني : أنهم نسبوا إليه هذا الجنس . ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت اغتم واربد وجهه [1] غيظاً وتأسفاً وهو مملوء من الكرب . وعن بعض العرب : أن امرأته وضعت أنثى ، فهجر البيت الذي فيه المرأة ، فقالت :

=لايعاقبه على ذلك ، لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك ، فأشركوا بربهم ، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق ، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة ؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا ، فاذا وضح ما قلناه فانما رد الله عليهم مقالتهم هذه ، لأنهم توهموا أنها حجة على الله ، فدحض الله حجتهم ، وأكذب أمنيتهم ، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال : (مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون) ، (وإن هم إلا يظنون) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير ، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل والاشراك بالله : اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم (لو شاء الله ما أشركنا) فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم ، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال (إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله : أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله (فلله الحجة البالغة) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك ، لا لأن المقالة في نفسها كذب فقال (فلو شاء لهداكم أجمعين) وهو معنى قولهم (لو شاء الله ما أشركنا) من حيث أن لو مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة ، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم ، بل شاء ضلالتهم . ولو شاء هدايتهم لما ضلوا ؛ فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم ، والنور اللائح والمنهج الواضح . والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم : هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسراً للهداية وغيرها من الأفعال الكسبية . حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف ؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية ؛ فهذه الآية أقامت الحجة ، ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة ؛ ولما كانت تفرقة دقيقة . لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة ؛ فلا جرم أن أفهامهم تبددت ، وأفكارهم تبدلت ؛ فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه ، وجارت الجبرية فاعتقدت أن لاقدرة للعبد البتة ولا اختيار ، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار . أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطاً ، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى ؛ فانتهجوا سبل السلام ، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام ، مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة ، لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة ، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير ، وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير ، فهذا هو التحقيق ، والله ولي التوفيق .

(١) قوله «واربد وجهه غيظا» تغير إلى الغبرة من الغضب . أفاده الصحاح . (ع)

مَالأَبِى حَمْــزَةَ لاَيَأْتِينَا يَظَلُّ فِى الْبَيْتِ الَّذِى يَلِينَا
غَضْبَانُ أَنْ لاَنَــلِدَ الْبَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَا
* وَإِنَّمَا نَأْخُــذُ مَاأُعْطِينَا * (١)

والظلول بمعنى الصيرورة، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها. وقرئ: مسوذّ ومسوادّ، على أن فى (ظلّ) ضمير المبشر، و (وجهه مسودا) جملة واقعة موقع الخبر، ثم قال: أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته. وهو أنه ﴿ينشأ فى الحلية﴾ أى يتربى فى الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم (٢) ومجاراة الرجال: كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتى ببرهان يحتج به من يخاصمه، (٣) وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال، يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وفيه. أنه جعل النشء فى الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضى الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا. (٤) وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى. وقرئ: ينشأ؛ وينشأ، ويناشأ. ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء: المغالاة بمعنى الإغلاء.

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)

قد جمعوا فى كفرة ثلاث كفرات، وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخس

(١)
ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة ربى ذى الجلال فينا

لامرأة ولدت أنثى، فهجر زوجها بيتها والاستفهام إنكارى. ويظل: استئناف، أى يصير دائما فى البيت الذى يقرب منا، ولا يأوى إلى بيتنا. وغضبان: أى هو غضبان. فهو على تقدير الاستفهام. ويحتمل أنه إخبار، أى: هو غضبان من عدم ولادتنا البنين، ثم ترضته واستعطفته بقولها: ليس لنا من أمرنا ما نشاء، فخفف همزة شئنا للقافية، ولا نأخذ إلا ما أعطانا الله إياه؛ لأن الأمر كله لله، تلك حكمته فينا معاشر الخلق.

(٢) قوله «إلى مجاثاة الخصوم» مفاعلة من «جثا يجثو» إذا برك على ركبتيه. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «يحتج به من يخاصمه» لعله: على من يخاصمه. أو لعله: يحج به من يخاصمه، أى: يغلبه فى الحجاج (ع)

(٤) أخرجه أبو عبيد فى الغريب: حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى الدمس الأسدى عن عمر رضى الله عنه أنه قال. ذكر هذا وزاد: واجعلوا الرأس رأسين ـ الحديث» موقوفا. ورواه ابن حبان من طريق أبى عثمان. قال: أتانا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا.

النوعين : وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله ، [١] فاستخفوا بهم واحتقروهم. وقرئ : عباد الرحمن ، وعبيد الرحمن ، وعبد الرحمن ، وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم . وإناثا ، وأنثا : جمع الجمع . ومعنى جعلوا : سموا وقالوا إنهم إناث . وقرئ : أشهدوا وأشهدوا ، بهمزتين مفتوحة ومضمومة . وآأشهدوا بألف بينهما ، وهذا تهكم بهم . بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك ، ولا تطرقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم ، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم ، فأخبروا عن هذه المشاهدة ﴿ستكتب شهادتهم﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿ويسئلون﴾ وهذا وعيد . وقرئ : سيكتب ، وسنكتب : بالياء والنون . وشهادتهم ، وشهاداتهم . ويساءلون ، على : يفاعلون.

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)

﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ هما كفرتان أيضا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث، وهما : عبادتهم الملائكة من دون الله ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله ، كما يقول إخوانهم المجبرة . [٢] فإن قلت : ما أنكرت على من يقول : قالوا ذلك على وجه الاستهزاء ، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين ؟ قلت : لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين ، وادعاء ما لا دليل عليه باطل، على أن الله تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر : أنهم جعلوا له من عباده جزءا ، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين ، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا ، وأنهم عبدوهم وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء : لكان النطق بالمحكيات [٣] ـ قبل هذا المحكى الذى هو إيمان عنده لو جدّوا فى النطق به ـ مدحا لهم ، من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء ؛ فبقى أن يكونوا جادين ، وتشترك كلها فى أنها كلمات كفر ، فإن قالوا : نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله ؛ فما بهم إلا تعويج

(١) قوله «هم أكرم عباد الله على الله» هذا عند المعتزلة . أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملك . (ع)

(٢) قوله «المجبرة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إنه تعالى يريد الشر كالخير ، لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافى اختيار العبد ، لما له فى أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى فى الحقيقة ، بل الجبر إنما يكون لو كان العبد لا دخل له فى أفعاله أصلا ، كالريشة فى الهواء ، كما قالت المجبرة الحقيقية . وإنما ذم الله تلك المقالة من الكفار لأنهم قالوها استهزاء وعنادا ، لا إقرارا واعتقادا . والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . (ع)

(٣) قوله : «لكان النطق بالمحكيات ... الخ» ممنوع ، وكذا ما بعده ، والمعتزلة قالوا : لا يريد الشر بناء على أن الارادة هى الأمر ، وهو ممنوع ، وعفا الله عن صاحب الكتاب فى بذاءة لسانه على أهل السنة ، وجعلهم إخوان الكفار . (ع)

كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لتسوية مذهبهم الباطل . ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءا لم يكن لقوله تعالى ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون﴾ معنى ، لأن من قال لا إله إلا الله على طريق الهزء : كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب ، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جادا كان أو هازئا . فإن قلت : ماقولك فيمن يفسر ما لهم ـ بقولهم : [(١)] إن الملائكة بنات الله ـ من علم إن هم إلا يخرصون فى ذلك القول لا فى تعليق عبادتهم بمشيئة الله ؟ قلت : تمحل مبطل وتحريف مكابر . ونحوه قوله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم.

أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

الضمير فى ﴿من قبله﴾ للقرآن أو الرسول . والمعنى : أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله: قولا قالوه غير مستند إلى علم ، ثم قال : أم آتيناهم كتابا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا ، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحى ، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به . بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ على دين . وقرئ : على إمة ، بالكسر ، وكلتاهما من الأم وهو القصد ، فالأمة : الطريقة التى تؤم ، أى : تقصد ، كالرحلة للمرحول إليه . والإمة : الحالة التى يكون عليها الآم وهو القاصد . وقيل : على نعمة وحالة حسنة ﴿على آثارهم مهتدون﴾ خبر إن . أو الظرف صلة لمهتدون .

وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾

﴿مترفوها﴾ الذين أترفتهم النعمة ، أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهى ، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه .

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

قرئ : قل ، وقال ، وجئتكم ، وجئناكم ، يعنى ، أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من

---

(١) قوله «ماقولك فيمن يفسر مالهم بقولهم» لعله : «يفسر مالهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم . الخ» (ع)

دين آبائكم ؟ قالوا : إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه ، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

قرئ : براء ، بفتح الباء وضمها . وبرىء ، فبرىء وبراء ، نحو كريم وكرام :[1] وبراء : مصدر كظماء ، ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة ، والمذكر والمؤنث . يقال : نحن البراء منك ، والخلاء منك ﴿الذى فطرنى﴾ فيه غير وجه : أن يكون منصوبا على أنه استثناء منقطع، كأنه قال : لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وأن يكون مجرورا بدلا من المجرور بمن : كأنه قال : إننى براء مما تعبدون إلا من الذى فطرنى . فإن قلت: كيف تجعله بدلا وليس من جنس ما يعبدون من وجهين ، أحدهما : أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات ، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون . والثانى ، أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة ؟ قلت : قالوا : كانوا يعبدون الله مع أوثانهم ، وأن تكون (إلا) صفة بمعنى غير ، على أن (ما) فى ما تعبدون موصوفة . تقديره : إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى ، فهو نظير قوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿سيهدين﴾ على التسويف ؟ قلت : قال مرة (فهو يهدين) ومرة (فإنه سيهدين) فاجمع بينهما وقدر ، كأنه قال . فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال ﴿وجعلها﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى) ﴿كلمة باقية فى عقبه﴾ فى ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم . ونحوه (ووصى بها إبراهيم بنيه) وقيل : وجعلها الله . وقرئ : كلمة على التخفيف وفى عقبه كذلك ، وفى عاقبه ، أى : فيمن عقبه ، أى : خلفه .

بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾

﴿بل متعت هؤلاء﴾ يعنى : أهل مكة ،وهم من عقب إبراهيم بالمد فى العمر والنعمة ، فاغتروا بالمهلة ، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حتى جاءهم الحق﴾ وهو القرآن ﴿ورسول مبين﴾ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة ، فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا ولم يوجد منهم مارجاه إبراهيم . وقرئ : بل متعنا . فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ (متعت) بفتح التاء ؟ قلت : كأن الله تعالى اعترض على ذاته فى قوله (وجعلها كلمة

---

(١) قوله «نحو كريم وكرام» فى الصحاح : الكرام - بالضم - : مثل الكريم . (ع)

باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة فى الرزق ، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد . وأراد بذلك الإطناب فى تعييرهم ؛ لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً فى زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً . فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول . أنت السبب فى ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسىء لا تقبيح فعله .

وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)

فإن قلت : قد جعل مجىء الحق والرسول غاية التمتيع ، ثم أردفه[1] قوله ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت : المراد بالتمتيع ماهو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته . فقال : بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجىء الحق فقال : ولما جاءهم الحق جاؤا بما هو شر من غفلتهم التى كانوا عليها : وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ، ومعاداته ، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله فى تخير محمد من أهل زمانه بقولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ وهى الغاية فى تشويه صورة أمرهم . قرئ على رجل ، بسكون الجيم من القريتين : من إحدى القريتين ، كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أى من أحدهما . والقريتان : مكة والطائف . وقيل : من رجلى القريتين ، وهما : الوليد بن المغيرة المخزومى وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى ، عن ابن عباس . وعن مجاهد : عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل . وعن قتادة : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود

---

(١) قال محمود : «فان قلت : قد جعل مجىء الحق والرسول غاية التمتيع ، ثم أردفه ... الخ» قال أحمد : كلام نفيس لا مزيد عليه ، إلا أن قوله : «خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها» إطلاق ينبغى اجتنابه ، والله أعلم وما أحسن مجىء الغاية على هذا النحو مجىء الاضراب فى بعض التارات ، فكما جاءت الغاية هنا ـ وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها ، بل المراد استمراره وزيادته ، فكأن تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها ـ كذلك الاضراب فى مثل قوله تعالى (بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) وهذه الاضرابات ليست على معنى أن الثانى منها رد للأول ، بل ثانيها آكد من أولها . وجاء الاضراب مع التوافق والزيادة للاشعار بأن الثانى لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول كأنهما شيآن متنافيان يضرب عن أولها ويثبت آخرهما ، ومثله كثير وبالله التوفيق .

الثقفى ، وكان الوليد يقول : لو كان حقاً مايقول محمد لنزل هذا القرآن علىّ أوعلى أبى مسعود الثقفى ، وأبومسعود : كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرا رسولا ، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالا من أهل القرى ، جاؤا بالإنكار من وجه آخر ، وهوتحكمهم أن يكون أحد هذين ، وقولهم : هذا القرآن ذكرله على وجه الاستهانة به ، وأرادوا بعظم الرجل : رياسته وتقدمه فى الدنيا ، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيما .

أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)

﴿أم يقسمون رحمت ربك﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم ، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها ، والمتولين لقسمة رحمة الله التى لايتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم فى دنياهم ، وأنّ الله عزّ وعلا هو الذى قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها ، فلم يسو بينهم ولكن فاوت بينهم فى أسباب العيش ، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالى وخدما، ليصرف بعضهم بعضاً فى حوائجهم ويستخدموهم فى مهنهم ويتسخروهم فى أشغالهم ، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم ؛ ولووكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم ، لضاعوا وهلكوا . وإذا كانوا فى تدبير المعيشة الدنية فى الحياة الدنيا على هذه الصفة ، فما ظنك بهم فى تدبير أمور الدين الذى هو رحمة الله الكبرى ورأفته العظمى ؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة والسلم إلى حلول دار السلام ؟ ثم قال ﴿ورحمت ربك﴾ يريد : وهذه الرحمة وهى دين الله ومايتبعه من الفوز فى المآب : خير مما يجمع هؤلاء من حطام الدنيا . فان قلت : معيشتهم مايعيشون به من المنافع [١] ، ومنهم من يعيش بالحلال ، ومنهم من يعيش بالحرام ؛ فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال . قلت : الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهى مطاعمه ومشاربه ومايصلحه من المنافع وأذن له فى تناولها ، ولكن شرط عليه

(١) قال محمود : «فان قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ... الخ» قال أحمد : قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالا كان أو حراما ، وهذه الآية معضدة ، والزمخشرى بنى على أصله وقد تقدم .

وكلفه أن يسلك فى تناولها الطريق التى شرعها ؛ فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا ، وسماها رزق الله : وإذا لم يسلكها تناولها حراما ، وليس له أن يسميها رزق الله[1] ؛ فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم ، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى مالم يشرعه .

وَلَوْلَآ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

﴿لبيوتهم﴾ بدل اشتمال من قوله (لمن يكفر) ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين فى قولك : وهبت له ثوبا لقميصه . وقرئ : سقفاً ، بفتح السين وسكون القاف . وبضمها وسكون القاف وبضمها : جمع سقف ، كرهن ورهن ورهن . وعن الفراء : جمع سقيفة وسقفا بفتحتين ، كأنه لغة فى سقف وسقوفا ، ومعارج ومعاريج . والمعارج : جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج : وهى المصاعد إلى العلالى ﴿عليها يظهرون﴾ أى على المعارج ، يظهرون السطوح يعلونها ، فما اسطاعوا أن يظهروه . وسرراً ، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفى التضعيف ﴿لما متاع الحياة﴾ اللام هى الفارقة بين إن المخففة والنافية . وقرئ بكسر اللام ، أى : الذى هو متاع الحياة ، كقوله تعالى (مثلا ما بعوضة) ولما بالتشديد بمعنى إلا ، وإن نافية . وقرئ : إلا . وقرئ : وما كل ذلك إلا . لما قال (خير مما يجمعون) فقلل أمر الدنيا وصغرها : أردفه ما يقرر قلة الدنيا عنده من قوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) أى : ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه ، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا[2] عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسرراً كلها

---

(١) قوله «وليس له أن يسميها رزق الله» هذا على مذهب المعتزلة . وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراما . والمصنف يريد أن الله لا ييسر الحرام ؛ لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة . ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى . (ع)

(٢) قال محمود : «ومعناه لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفا من فضة أى لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد : «لولا» هنا أخت «لولا» فى قوله (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم... الآية) فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفا كما قدمته ، فيكون وجه الكلام ههنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا . وهذا هو معنى لولا المطرد أنها بعدها أبداً مانع من جوابها ، ولكن قد يكون المانع موجوداً تحقيقاً فيمتنع الجواب بلا إشكال ، كقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من =

من فضة وزخرف ، وجعلنا لهم زخرفا ، أى : زينة من كل شيء . والزخرف : الزينة والذهب . ويجوز أن يكون الأصل : سقفا من فضة وزخرف ، يعنى : بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، فنصب عطفا على محل (من فضة) وفى معناه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء» [١] فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدّى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدى إليه من الدخول فى الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول فى الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين [٢] ، فكانت الحكمة فيما دبر : حيث جعل فى الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

قرئ : ومن يعش ، بضم الشين وفتحها . والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى بصره قيل : عشى . وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا . ونظيره : عرج ، لمن به الآفة [٣] .

= الخاسرين) وهو الأكثر . وقد يكون وجوده تقديراً معه وعلى ذلك الآية ، أى : لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدراً ، لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدراً معه ، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد .

(١) فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور . وقال الترمذى : وفى الباب عن أبى هريرة . وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه . ولفظه «ما أعطي كافراً منها شيئا» ورواه البيهقى فى الشعب فى الحادى والسبعين من رواية أبى معشر عن المقبرى عنه وفى الباب عن ابن عباس . أخرجه أبو نعيم فى الحلية . وفيه الحسن ابن عمارة وهو ضعيف جداً . وأخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر ، بلفظ المصنف قال ابن طاهر : فيه على بن محمد بن أحمد بن أبى عوف عن أبى مصعب عنه ، لا أصل له من حديث مالك

(٢) قال محمود : «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التى كان يؤدى إليها التوسعة من الاطباق على الكفر ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الايمان ؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما يؤدى إليه من الدخول فى الاسلام لأجل الدنيا ، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد : سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين ، إحداهما : تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى : أن الله تعالى أراد الاسلام من الخلق أجمعين . أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون) وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) .

(٣) قال محمود : «ويقال عشى بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة ...» قال أحمد : فى هذه الآية نكتتان بديعتان ، إحداهما : الدلالة على أن النكرة الواقعة فى سياق الشرط تفيد العموم ، وهى مسئلة اضطرب فيها الأصوليون =

وعرج ، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج . قال الحطيئة :

* مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ * (١)

أى : تنظر إليها نظر العشىّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء . وهو بين فى قول حاتم :

أَعْشُو إِذَا مَاجَارَتِى بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِىَ جَارَتِى الْخِدْرُ (٢)

ـــ وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم ، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة فى سياق الاثبات تخص ، وقال : إن الشرط يعم ، والنكرة فى سياقه تعم . وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن على الأنبارى شارح كتابه ردا عنيفا . وفى هذه الآية للامام ومن قال بقوله كفاية ؛ وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا فى سياق شرط ، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدا لوجهين ، أحدهما : أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا ، فكيف بالعاشى عن ذكر الله . والآخر : يؤخذ من الآية : وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعا فى قوله (وإنهم) فانه عائد إلى الشيطان قولا واحدا ، ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال ، فهذه نكتة تجد عند إسماعها مخالفى هذا الرأى سكتة . النكتة الثانية : أن فى هذه الآية ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك . واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير ، وهو خلاف المعهود من الفصاحة . وقد نقض الكندى هذا بقوله تعالى (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) ونقض غيره بقوله (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه ... الآية) وكان جدى رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك ، لأنه أعاد على اللفظ فى قوله : (يعش) و (له) مرتين ، ثم على المعنى فى قوله (ليصدونهم) ثم على اللفظ بقوله (حتى إذا جاءنا) وقد قدمت أن الذى منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجىء ذلك فى جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشرى فى قوله تعالى (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) فان الجملة واحدة ، فانظره فى موضعه .

(١) كسوب ومتلاف إذا ما سألته ... تهلل واهتز اهتزاز المهند
وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلا ... بكفيه لم يمنعك من نائل الغد
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد

للحطيئة ، يقول : هو كثير الكسب وكثير الاتلاف ، وبينهما طباق التضاد : إذا سألته أجابك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله : تهلل واهتز كاهتزاز السيف المطاق من حديد الهند ، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معا كناية عن كثرة العطاء ، وسألته فى غد أعطاك أيضا . وعشى يعشى كرضى يرضى : إذا كان ببصره آفة . وعشى يعشو : إذا تعاشى بغير آفة . والمعنى : متى تأته على هيئة الأعشى ـ مجاز عن إظهار الفاقة ـ تجده أكرم الناس ، عبر عنه بذلك على طريق الكناية .

(٢) نارى ونار الجار واحدة ... وإليه قبلى تنزل القدر
ماضرنى جار أجاوره ... ألا يكون لبابه ستر
أعشو إذا ما جارتى برزت ... حتى يوارى جارتى الخدر

لحاتم الطائى : وعشى يعشى كرضى يرضى : صار لا يبصر ليلا . وعشا يعشو كدعا يدعو : إذا نظر كنظر الأعشى .

وقرئ : يعشوا ، على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط . وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض . ومعنى القراءة بالفتح : ومن يعم ﴿عن ذكر الرحمن﴾ وهو القرآن ، كقوله تعالى (صم بكم عمى) وأما القراءة بالضم فمعناها : ومن يتعام عن ذكره ، أى : يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى ، كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) . ﴿نقيض له شيطانا﴾ نخذله[1] ونخل بينه وبين الشياطين ، كقوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء) ، (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) وقرئ : يقيض ، أى : يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان . فإن قلت : لم جمع ضمير من وضمير الشيطان فى قوله ﴿وإنهم ليصدونهم﴾ ؟ قلت : لأنّ (من) مبهم فى جنس العاشى ، وقد قيض له شيطان مبهم فى جنسه ، فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين : جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا ﴿حتى إذا جاءنا﴾ العاشى . وقرئ : جاآنا ، على أنّ الفعل له ولشيطانه . ﴿قال﴾ لشيطانه ﴿ياليت بينى وبينك بعد المشرقين﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلب. كما قيل : العمران والقمران . فإن قلت : فما بعد المشرقين ؟ قلت: تباعدهما ، والأصل : بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق . فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية : أضاف البعد إليهما ﴿إنكم﴾ فى محل الرفع على الفاعلية ، يعنى : ولن ينفعكم كونكم مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر الصعب اشتراكهم فيه ، لتعاونهم فى تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه ، وذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب مالا تبلغه طاقته ، ولك أن تجعل الفعل للتمنى فى قوله (ياليت بينى وبينك) على معنى : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين . وقوله ﴿إنكم فى العذاب مشتركون﴾ تعليل ، أى : لن ينفعكم تمنيكم ؛ لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه وهو الكفر . وتقويه قراءة من قرأ : إنكم بالكسر . وقيل : إذا رأى الممنوّ بشدّة[2] من منى بمثلها : روّحه ذلك ونفس بعض كربه ، وهو التأسى الذى ذكرته الخنساء :

ـــــ يقول : إن نارى هى نار جارى ، وتنزل قدرى إليه ليأكل منها قبلى أو نارى ونار جارى واحدة فى الزمن والقوة ومع ذلك تنزل قدره إليه قبلى ليأكلها سريعا خوف اطلاع أحد عليه . لكن يبعد هذا أن المقام ليس لذم الجار بل للمدح . ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره ، ثم وصف نفسه بالعفة بقوله : ماضرنى جار من جيرانى بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لبابه حجاب يستر أهله ، فانى أتغافل وأغض بصرى إذا خرجت جارتى ، حتى يسترها بيتها . وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغى مراعاة حق الجوار . والاحتمال الأول أقعد ؛ لأن معناه أنه يبره ويعف عن محارمه . وأما الثانى ففيه ذم جاره ، وهو لايلائم ما بعده .

(١) قوله «نقيض له شيطانا : نخذله» تأويله بذلك مبنى على أنه تعالى لايفعل القبيح ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها ، فالآيات على ظاهرها (ع)

(٢) قوله «إذا رأى الممنو بشدة» أى المبتلى . ومنى : أى ابتلى . أفاده الصحاح (ع)

* أُعَزِّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّى *[(١)]

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم؛ لعظم ما هم فيه . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى (إذ ظلمتم)؟ قلت : معناه : إذ صح ظلمكم و تبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة . وإذ : بدل من اليوم . ونظيره :

* إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِى لَئِيمَةٌ *[(٢)]

أى : تبين أنى ولد كريمة .

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠)

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد ويجتهد ويكد روحه فى دعاء قومه، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميا على الكفر وتماديا فى الغىّ، فأنكر عليه بقوله (أفأنت تسمع الصم) إنكار تعجيب من أن يكون هو الذى يقدر على هدايتهم، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر، كقوله تعالى (إنّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور)

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣)

---

(١)
يذكرنى طلوع الشمس صخرا ... وأذكره بكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلت نفسى
ومايكون مثل أخى ولكن ... أعزى النفس عنه بالتأسى

للخنساء ترثى أخاها . وإسناد التذكير للطلوع : مجاز عقلى؛ لأنه سبب فى تذكيرها إياه، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثانى عادة . أولأنه يذهب فى الأول للغارات، ويجلس فى الثانى مع الضيفان . أولأن طلوعها يشبه طلعته، وغروبها : يشبه موته . وفيه نوع من البديع يسمى التسكيت : وهو الاتيان بلفظ يسد غيره مسده، لولا نكتة فيه ترجح اختصاصه بالذكر : لكان اختصاصه خطأ، كما فى اختصاص الوقتين هنا . أفاده السيوطى فى شرح عقود الجمان . وفيه أيضاً نوع آخر يسمى الادماج : وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر، كما ضمن الكلام المسوق هنا لمعنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم . أو بحسن الطلعة . والباء فى «بكل» سببية . ويحتمل أن الاسناد للأول من باب الاسناد للزمان، فتكون الباء فى الثانى بمعنى «فى» أو «مع» وذكر الشمس ثانياً فى آخر المصراع الثانى من باب رد العجز على الصدر . وأعزى النفس : أسليها وأصبرها عنه بالتأسى، أى : الاقتداء بغيرى من أهل المصائب وفى اقتدائها بالباكين من الرجال : إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم . وروى «على أمواتهم» بدل : «على إخوانهم»، و «أسلى» بدل «أعزى» .

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٤٠ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(ما) فى قوله ﴿فإما نذهبنّ بك﴾ بمنزلة لام القسم : فى أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة ، والمعنى : فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفى صدور المؤمنين منهم ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ أشد الانتقام فى الآخرة ، كقوله تعالى : (أو نتوفينك فإلينا يرجعون) وإن أردنا أن ننجز فى حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر ، فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا : وصفهم بشدة الشكيمة فى الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة. وقرئ : نرينك ، بالنون الخفيفة . وقرئ : بالذى أوحى إليك ، على البناء للفاعل ، وهو الله عز وجل والمعنى : وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر . فكن مستمسكا بما أوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذى لا يحيد عنه إلا ضال شقى ، وزد كل يوم صلابة فى المحاماة على دين الله ، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شىء من اللين والرخاوة فى أمرك ، ولكن كما يفعل الثابت[1] الذى لا ينشطه تعجيل ظفر ، ولا يثبطه تأخيره .

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)

﴿وإنه﴾ وإنّ الذى أوحى إليك ﴿لذكر﴾ لشرف ﴿لك ولقومك ، و﴾ لسوف ﴿تسئلون﴾ عنه يوم القيامة ، وعن قيامكم بحقه ، وعن تعظيمكم له ، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته ، ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء ؟ وكفاه نظراً وفحصاً[2] : نظره فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه ، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا . وهذه الآية فى نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها ، والسؤال الواقع مجازاً عن النظر ، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة : كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال . وقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك ؟ فإنها إن لم تجبك حواراً[3] أجابتك اعتباراً . وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس فأمهم . وقيل له : سلهم ، فلم يشكك ولم يسأل . وقيل : معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل . وعن

---

(١) قوله «ولكن كما يفعل الثابت» لعله : وكن . أو لعله : ولكن كن . (ع)

(٢) قال محمود : «سؤال الرسل مجاز عن الفحص فى شرائعهم والنظر فى مللهم ... الخ» قال أحمد : ويشهد لارادة سؤال الأمم (فاسئل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) والله أعلم .

(٣) قوله «تجبك حواراً» أى مخاطبة بالنطق . فى الصحاح : استحاره ، أى : استنطقه . (ع)

الفراء : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)

ما أجابوه به عند قوله : ﴿إنى رسول رب العالمين﴾ محذوف ، دل عليه قوله : ﴿فلما جاءهم بآياتنا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إذا هم منها يضحكون﴾ أى يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحراً ، وإذا للمفاجأة . فإن قلت : كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة ؟ قلت : لأنّ فعل المفاجأة معها مقدر ، وهو عامل النصب[1] فى محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم .

وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨)

فإن قلت : إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التى فضلت عليها فى الكبر من بقية الآيات ؟ قلت : أختها التى هى آية مثلها . وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيته ، تريد : تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلا رجلا[2] ، فإن قلت : هو كلام متناقض ، لأنّ معناه : ما من آية من التسع إلا هى أكبر من كل واحدة منها ، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة فى حالة واحدة . قلت : الغرض بهذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة فى الأشياء التى تتلاقى فى الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس فى تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل

(١) قال محمود : «جازت فيه إجابة لما بإذا التى للمفاجأة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو العامل فيها النصب ... الخ» قال أحمد : الظاهر فى تسويغ هذا الاطلاق ـ والله أعلم : أن كل واحدة من هذه الآى إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته ، حتى يجزم أنها النهاية ، وأن كل آية دونها . فاذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضاً فكره بعظمها ، وذهل عن الأولى لجزم بأن هذه النهاية ، وأن كل آية دونها . والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ؛ ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة ، بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية . وعلى هذا التقدير يجرى جميع ما يرد من أمثاله ، والله أعلم .

(٢) قوله «إذا قروتهم رجلا رجلا» أى تتبعتهم . (ع)

الواحد فيها، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك . ومنه بيت الحماسة :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ   مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي [1]

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها، ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت . ثكلتهم[2] إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان[3] . فإن قلت لو أراد رجوعهم لكان . قلت : إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به[4] ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ،

---

(١)
هينون لينون أيسار ذوو كرم   سواس مكرمة أبناء أيسار
إن يسئلوا الخير يعطوه وإن جهدوا   فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وإن توددتهم لانوا وإن شهموا   كشفت أذمار شرّ غير أشرار
لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا   ولا يمارون من مارى بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم   مثل النجوم التي يسرى بها السارى

لعبيد بن الأبرص . وقيل للعرندس . وهينون لينون : جمع هين ولين : تخفيف هين ولين بالتشديد ، على فيعل . وأيسار : جمع يسر ، كقطب وأقطاب ، وهو في الأصل ضد العسر ، سمى به الرجل مبالغة . أو جمع يسرة كقصبة ، وهي في الأصل : الخط في باطن الكف ، أطلقت على الرجل إشعاراً بالكرم . وسواس : جمع سائس ، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة ، وبمعنى الولى المصلح ؛ وجهده الطعام : إذا اشتاق إليه واشتهاه . وجهد الرجل فهو مجهود : أصابه القحوط والمشقة . وقوله « فالجهد يخرج منهم » جواب الشرط . ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله . وإن جهدوا : جوابه دل عليه ما قبله . والشهامة : الخشونة ، وشهمت الفرس حركته ليسرع . وأذمار شر : أى شجعان حرب : جمع ذمر ككبد ، من ذمر الرجل : عبس وغضب . وذمر الأسد زأر بصوته ، أى : إن حملتهم على الحرب أظهرت منهم شجعان حرب غير أشرار . وضمن النطق معنى الاخبار ، فعداه بعن . ويجوز أنها بمعنى الباء . والمماراة : الجدال . وبإكثار : متعلق بمارى ، أو بيمارون . من تلقه منهم تقل فيه : لاقيت أشرفهم لتساويهم في الشرف ، فهم مثل النجوم في التساوى في الشرف والاهتداء . والاستضاءة بكل . فكما أن النجم يهتدى به المسافر ، كذلك هم يهتدى بهم المختبط الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل . ويروى بدل « وإن جهدوا ... الخ » : « ... وإن خبروا في الجهد أدرك منهم طيب أخبار » أى : إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم .

(٢) قوله « ثكلتهم » الثكل : فقدان المرأة ولدها . (ع)

(٣) قال محمود : « معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الايمان ... الخ » قال أحمد : تقدم في غير موضع أن « لعل » حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين ، أى : ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك ، هذا هو الحق . وعليه تأول سيبويه ما ورد . وأما الزمخشري فيحمل « لعل » على الارادة ؛ لأنه لا يتحاشى مع اعتقاد أن الله يريد شيئاً ويريد العبد خلافه ، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ـ فما أشنعها زلة وأبشعها خلة . ولقد أساء الأدب في هذا الموضع ، حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم بنقل ما هذى به وما اهتدى . وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الارادة وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه ، وأن مراد العبد يقع ، ومراد الرب لا يقع ؛ فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض ؛ نعوذ بالله من هذه الغواية : (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) .

(٤) قوله « ليس إلا أن يأمره به » هذا مذهب المعتزلة . أما مذهب أهل السنة : فارادته غير الأمر ، سواء =

وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع لأنّ الإرادة لم تكن قسرا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب: السنون، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾

وقرئ: يا أيه الساحر، بضم الهاء، وقد سبق وجهه. فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم ﴿إننا لمهتدون﴾؟ قلت: قولهم (إننا لمهتدون): وعد منوى إخلافه، وعهد معزوم على نكثه، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذاهم ينكثون﴾ فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: (إننا لمهتدون) وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر: (بما عهد عندك) بعهده عندك: من أن دعوتك مستجابة. أو بعهده عندك وهو النبوّة. أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن اهتدى.

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ونادى فرعون فى قومه﴾ جعلهم محلا لندائه وموقعا له. والمعنى: أنه أمر بالنداء فى مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللص، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه فى جموع القبط، فكأنه نودى به بينهم فقال ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار﴾ يعنى أنهار النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس: قيل: كانت تجرى تحت قصره. وقيل: تحت سريره لارتفاعه. وقيل: بين يدى فى جنانى وبساتينى. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجرى: نصب على الحال منها، وأن تكون الواو

ـــ كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره، ولا يلزم تأويل الآية بالارادة؛ لجواز أن يكون معناها: ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجي رجوعهم. (ع)

للحال، واسم الإشارة مبتدأ، والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجرى خبر للمبتدإ وليت شعرى كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر، وعجب الناس من مدي عظمته، وأمر فنودى بها فى أسواق مصر وأزقتها؛ لئلا تخفى تلك الأبهة [1] والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع فى صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس عبيدى، فولاها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: أهى القرية التى افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لى ملك مصر، والله لهى أقل عندى من أن أدخلها، فثنى عنانه ﴿أم أنا خير﴾ أم هذه متصلة، لأنّ المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون، إلا أنه وضع قوله (أنا خير) موضع: تبصرون؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بصراء. وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب. ويجوز أن تكون منقطعة على: بل أأنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر وجرى الأنهار تحته، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم، ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أنى أنا خير وهذه حالى ﴿من هذا الذى هو مهين﴾ أى ضعيف حقير. وقرئ: أما أنا خير ﴿ولا يكاد يبين﴾ الكلام لما به من الرتة [2]، يريد: أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به، وهو فى نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة، وكانت الأنبياء كلهم أبيناء [3] بلغاء. وأراد بإلقاء الأسورة عليه: إلقاء مقاليد الملك إليه، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب ﴿مقترنين﴾ إما مقترنين به من قولك: قرنته فاقترن [4] به، وإما من: اقترنوا، بمعنى تقارنوا؛ لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقا ملكه ربه وسوده وسوره، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره. وقرئ: أساور جمع أسورة، وأساوير جمع أسوار وهو السوار. وأساورة على تعويض التاء من ياء أساوير. وقرئ: ألقى عليه أسورة وأساور، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) قوله «تلك الأبهة» كسكرة، كذا بهامش الصحاح. وفى الصحاح: «دهماء الناس»: جماعتهم. (ع)

(٢) قوله «لما به من الرتة» بالضم: العجمة فى الكلام، كذا فى الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وكانت الأنبياء كلهم أبيناء» فى الصحاح: بان الشىء بيانا: اتضح، فهو بين، والجمع أبيناء، مثل هين وأهيناء. (ع)

(٤) قوله «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن (ع)

﴿فاستخف قومه﴾ فاستفزهم . وحقيقته : حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم ، وكذلك : استفز ، من قولهم للخفيف : فز .

فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

﴿آسفونا﴾ منقول من أسف أسفا إذا اشتد غضبه . ومنه الحديث فى موت الفجأة : رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر[1] . ومعناه : أنهم أفرطوا فى المعاصى وعدوا طورهم ، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا ، وأن لا نحلم عنهم . وقرئ : سلفا جمع سالف ، كخادم وخدم . وسلفا ـ بضمتين ـ جمع سليف ، أى : فريق قد سلف . وسلفا : جمع سلفة ، أى : ثلة قد سلفت . ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار ، يقتدون بهم فى استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم ، لإتيانهم بمثل أفعالهم . وحديثاً عجيب الشأن سائراً مسير المثل ، يحدثون به ويقال لهم : مثلكم مثل قوم فرعون .

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾

لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) امتعضوا[2] من ذلك امتعاضا شديداً ، فقال عبد الله بن الزبعرى : يا محمد ، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبىّ وتثنى عليه خيراً وعلى أمه ، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما . وعزير يعبد . والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا . وسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى (إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى) ونزلت هذه الآية . والمعنى : ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا ، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه ﴿إذا قومك﴾

---

(١) تقدم فى طه .

(٢) قوله «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) تقدم فى أواخر الأنبياء .

قريش من هذا المثل ﴿يصدّون﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج[1] فرحا وجزلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله صلى الله عليه وسلم بجدله، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم. وأمّا من قرأ: يصدّون ـ بالضم ـ فمن الصدود، أى: من أجل هـذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجلبة، وأنهما لغتان نحو: يعكف ويعكف ونظائر لهما ﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا ﴿ماضربوه﴾ أى ماضربوا هـذا المثل ﴿لك إلا جدلا﴾ إلا لأجل الجـدل والغلبة فى القول، لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بل هم قوم خصمون﴾ لدّ شداد الخصومة دأبهم اللجاج، كقوله تعالى (قوما لدّا) وذلك أنّ قوله تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله) ما أريد به إلا الأصنام، وكذلك قوله عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، إنمـا قصد به الأصنام، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة، إلا أن ابن الزبعرى بخبه وخداعه وخبث دخلته[2]، لمـا رأى كلام الله ورسوله محتملا لفظه وجه العموم، مع علمه بأنّ المراد به أصنامهم لاغير، وجد للحيلة مساغا، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريقة المحك والجدال[3] وحب المغالبة والمكابرة، وتوقح فى ذلك فتوقر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه: (إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى) فدل به على أنّ الآية خاصة فى الأصنام، على أنّ الظاهر قوله (وماتعبدون) لغير العقلاء. وقيل: لمـا سمعوا قوله تعالى (إنّ مثل عيسى عندالله كمثل آدم) قالوا: نحن أهدى من النصارى؛ لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. وقوله (أآلهتنا خير أم هو) على هذا القول: تفضيل لآلهتهم على عيسى؛ لأنّ المراد بهم الملائكة وماضربوه لك إلا جدلا. معناه: وماقالوا هذا القول، يعنى: «أآلهتنا خير أم هو». إلا للجدال، وقرئ: آآلهتنا خير، بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها، لدلالة أم العديلة عليها. وفى حرف ابن مسعود: خير أم هـذا. ويجوز أن يكون جدلا حالا، أى: جدلين. وقيل: لمـا نزلت (إن مثل عيسى عندالله) قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر. ومعنى (يصدّون) يضجون ويضجرون. والضمير فى (أم هو) لمحمد صلى الله عليه وسلم، وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم: السخرية به والاستهزاء. ويجوز أن يقولوا ـ لمـا أنكر عليهم قولهم: الملائكة بنات الله وعبدوهم ـ ماقلنا بدعا من القول،

(١) قوله «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أى صياح وكذا اللجب. أفاده الصحاح. (ع)
(٢) قوله «وخبث دخلته» بالضم: باطن أمره. أفاده الصحاح. (ع)
(٣) قوله «على طريقة المحك» أى: اللجاج، كما فى الصحاح. (ع)

ولا فعلنا نكراً من الفعل؛ فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه، ونحن أشف[1] منهم قولا وفعلا. فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى، فقيل لهم: مذهب النصارى شرك بالله، ومذهبكم شرك مثله، وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل، وماعيسى ﴿إلا عبد﴾ كسائر العبيد ﴿أنعمنا عليه﴾ حيث جعلناه آية: بأن خلقناه من غير سبب، كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنى إسرائيل.

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ولو نشاء﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر ﴿لجعلنا منكم﴾ لولدنا منكم يارجال ﴿ملائكة﴾ يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لاتتولد إلا من أجسام، وذات القديم متعالية عن ذلك.

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

﴿وإنه﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لعلم للساعة﴾ أى شرط من أشراطها تعلم به، فسمى الشرط علما لحصول العلم به. وقرأ ابن عباس: لعلم، وهو العلامة. وقرئ: للعلم. وقرأ أبىّ: لذكر، على تسمية مايذكر به ذكرا، كما سمى مايعلم به علما. وفى الحديث: أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة: يقال لها أفيق وعليه ممصرتان، وشعر رأسه دهين، وبيده حربة، وبها يقتل الدجال، فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن[1] به. وعن الحسن: أن الضمير للقرآن، وأن القرآن به تعلم الساعة، لأن فيه الإعلان بها ﴿فلا تمترنّ بها﴾ من المرية وهى الشك ﴿واتبعون﴾ واتبعوا هداى وشرعى. أو رسولى. وقيل: هذا أمر لرسول الله أن يقوله ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه. أو هذا القرآن إن جعل الضمير فى (وإنه) للقرآن.

---

(١) قوله «ونحن أشف منهم» أى: أرق. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى بغير سند. وهو موجود فى أحاديث متفرقة. فقوله «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبى العاص. وقوله «وعليه ممصرتان» عند أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة. وقوله والناس فى صلاة الصبح» عند ابن ماجه من حديث أبى أسامة. وقوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» فى الصحيح من حديث أبى هريرة.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَـٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢)

﴿عدو مبين﴾ قد بانت عداوته لكم[1] : إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور .

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥)

﴿بالبينات﴾ المعجزات . أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿بالحكمة﴾ يعنى الإنجيل والشرائع . فإن قلت : هلا بين لهم كل الذى يختلفون فيه ولكن بعضه ؟ قلت : كانوا يختلفون فى الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم ﴿الأحزاب﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل : اليهود والنصارى ﴿فويل للذين ظلموا﴾ وعيد للأحزاب . فإن قلت : (من بينهم) إلى من يرجع الضمير فيه ؟ قلت : إلى الذين خاطبهم عيسى فى قوله (قد جئتكم بالحكمه) وهم قومه المبعوث إليهم .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)

---

(١) قوله «قد بانت عداوته لكم» فى الصحاح «بان الشيء بيانا» : اتضح فهو بين ، كذلك أبان فهو مبين . (ع)

﴿أن تأتيهم﴾ بدل من الساعة . والمعنى : هل ينظرون إلا إتيان الساعة . فإن قلت : أما أدى قوله ﴿بغتة﴾ مؤدّى قوله ﴿وهم لا يشعرون﴾ فيستغنى عنه ؟ قلت : لا ، لأنّ معنى قوله تعالى ﴿وهم لا يشعرون﴾ : وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم ، كقوله تعالى (تأخذهم وهم يخصمون) ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون ﴿يومئذ﴾ منصوب بعدو ، أى : تنقطع فى ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين فى غير ذات الله ، وتنقلب عداوة ومقتا ، إلا خلة المتصادقين فى الله ، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب فى الله تعالى والتباغض فى الله . وقيل ﴿إلا المتقين﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء . وقيل : نزلت فى أبىّ بن خلف وعقبة ابن أبى معيط ﴿يا عبادى﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ ، و ﴿الذين آمنوا﴾ منصوب المحل صفة لعبادى ، لأنه منادى مضاف . أى : الذين صدّقوا ﴿بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ مخلصين وجوههم لنا ، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا . وقيل : إذا بعث الله الناس فزع كل أحد ، فينادى مناد : يا عبادى فيرجوها الناس كلهم ، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين . وقرئ : يا عباد ﴿تحبرون﴾ تسرون سروراً يظهر حباره ـ أى : أثره ـ على وجوهكم ، كقوله تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) وقال الزجاج : تكرمون إكراما يبالغ فيه . والحبرة : المبالغة فيما وصف بجميل . والكوب : الكوز لا عروة له ﴿وفيها﴾ الضمير للجنة . وقرئ : تشتهى وتشتهيه . وهذا حصر لأنواع النعم ، لأنها إما مشتهاة فى القلوب ، وإما مستلذة فى العيون. ﴿وتلك﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة . وهى مبتدأ ، و ﴿الجنة﴾ خبر . و ﴿التى أورثتموها﴾ صفة الجنة . أو الجنة صفة للمبتدإ الذى هو اسم الإشارة . والتى أورثتموها : خبر المبتدإ . أو التى أورثتموها : صفة ، و ﴿بما كنتم تعملون﴾ الخبر ، والباء تتعلق بمحذوف كما فى الظروف التى تقع أخبار . وفى الوجه الأول تتعلق بأورثتموها . وشبهت فى بقائها على أهلها بالميراث الباقى على الورثة . وقرئ : ورثتموها ﴿منها تأكلون﴾ من للتبعيض ، أى : لا تأكلون إلا بعضها ، وأعقابها باقية فى شجرها ، فهى مزينة بالثمار أبداً موقرة بها ، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما فى الدنيا . وعن النبى صلى الله عليه وسلم « لا ينزع رجل فى الجنة من ثمرها [1] إلا نبت مكانها مثلاها . [2] »

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ

(١) قوله «من ثمرها إلا نبت مكانها» فى الخازن : ورد فى الحديث «أنه لا ينزع أحد فى الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها» . (ع)

(٢) أخرجه البزار عن ثوبان . وقد تقدم فى البقرة .

مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾

﴿لا يفتر عنهم﴾ لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلا ونقص حرها. والمبلس: اليائس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك: يجعل المجرم فى تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالداً: لا يرى ولا يرى ﴿هم﴾ فصل عند البصريين، عماد عند الكوفيين. وقرئ: وهم فيها، أى: فى النار [١] وقرأ على وابن مسعود رضى الله عنهما: يا مال، بحذف الكاف للترخيم، كقول القائل:

* وَالْحَقُّ يَامَالِ غَيْرَ مَاتَصِفُ * [٢]

وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ: ونادوا يامال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم.[٣] وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه. وقرأ أبو السرار الغنوى: يا مال، بالرفع كما يقال: يا حار [٤] ﴿ليقض علينا ربك﴾ من قضى عليه إذا أماته (فوكزه موسى فقضى عليه) والمعنى: سل ربك أن يقضى علينا. فإن قلت: كيف قال (ونادوا يا مالك) بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويغوثون [٥] أوقاتا لشدة ما بهم ﴿ماكثون﴾ لابثون. وفيه استهزاء. والمراد: خالدون. عن ابن عباس رضى الله عنهما: إنما يجيبهم بعد ألف سنة. [٦] وعن النبي صلى الله عليه وسلم «يلقى على أهل

---

(١) قوله «وقرئ (وهم فيها) أى فى النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ. لأنه مخالف لترتيب التلاوة. (ع)

(٢) يحيى رفات العظام بالية والحق يامال غير ماتصف

أى: يحيى الله المتفتت من العظام حال كونها بالية، يقال: رفته رفتا، إذا فتته. والرفات: اسم منه كالفتات، قال: والحق غير ماتذكره يامالك، فرخمه بحذف الكاف، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته.

(٣) لم أجده باسناد. وفى البخارى عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذلك».

(٤) قوله «كما يقال ياحار» فى نداء حارث. (ع)

(٥) قوله «ويغوثون» فى الصحاح «غوث الرجل»: قال واغوثاه. (ع)

(٦) أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ونادوا يامالك) قال: مكث عنهم ألف سنة ثم يقول: إنكم ماكثون، وروى الترمذى من رواية قطبة بن عبدالعزيز عن =

النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيقولون : ادعوا مالكا ، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك [١] » . ﴿لقد جئناكم بالحق﴾ كلام الله عز وجل : بدليل قراءة من قرأ : لقد جئتكم . ويجب أن يكون فى قال ضمير الله عز وجل . لما سألوا مالكا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم : أجابهم الله بذلك ﴿كارهون﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه ؛ لأنّ مع الباطل الدعة ، ومع الحق التعب .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

﴿أم﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أمراً﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فإنا مبرمون﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم ؛ كقوله تعالى (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون)؟ وكانوا يتنادون فيتناجون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : ما المراد بالسر والنجوى ؟ قلت : السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره فى مكان خال. والنجوى : ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بلى﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿ورسلنا﴾ يريد الحفظة عندهم ﴿يكتبون﴾ ذلك . وعن يحيى بن معاذ الرازى : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذى لا يخفى عليه شىء فى السموات فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من علامات النفاق .

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾

﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فأنا أول﴾ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له [٢] كما يعظم الرجل

= الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون . فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ـ الحديث : وفيه قال الأعمش بين أن يتزل عليهم وإجابة مالك ألف عام، وقال الترمذى : قطبة ثقة . وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا . وهذا أخرجه الطبرانى والبيهقى فى الشعب ورواه الطبرى من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير . ثم رواه من طريق قطبة مرفوعا ؛ ولم يفصل أيضا

(١) هو فى الحديث الذى قبله .

(٢) قال محمود : « معناه إن صح وثبت برهان قاطع ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ...الخ» قال أحمد : لقد اجترأ عظيما وافتحم مهلكة فى تمثيله ذلك بقول من سماه عدليا : إن كان الله خالقا للكفر فى القلوب ومعذبا عليه فأنا أول القائلين إنه شيطان وليس بإله . فلينتقم عليه ذلك بقول القائل : قد =

ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة فى نفى الولد والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم فى باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها، فكان المعلق بها محالا مثلها، فهو فى صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدلى للمجبر[1]: إن كان الله تعالى خالقا للكفر فى القلوب ومعذبا عليه عذابا سرمداً، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله؛ فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون الله تعالى خالقا للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذى ذكرنا، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه. ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له -: أما والله[2] لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى -: لو عرفت أن ذلك إليك ماعبدت إلها غيرك. وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف الملىء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقيل: إن كان للرحمن ولد فى زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد: إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم: العبدين. وقيل: هى إن النافية، أى: ما كان للرحمن ولد، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد. وروى أنّ النضر بن عبد الدار بن قصى قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت، فقال النضر: ألاترون أنه قد صدقنى. فقال له الوليد بن المغيرة: ماصدقك ولكن قال: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة: أن لا ولد له. وقرئ: ولد، بضم الواو. ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السموات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد، ليدل على أنه من صفة الأجسام.

—— ثبت قطعا عقلا وشرعا أنه تعالى خالق لذلك فى القلوب كما خلق الايمان، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لاخالق إلا الله، وتصديقا بمضمون قوله تعالى (هل من خالق غير الله) وقوله (الله خالق كل شىء) وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلا ونقلا: لزمه فرك أذنه وغل عنقه، إذ يلحد فى الله إلحاداً لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة. ومن خالف فى كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ فقال هذه المقالة واقتحم هذه الضلالة بلا محالة، فانه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها: والله المسئول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) قوله «ونظيره أن يقول العدلى للمجبر» يريد: أحد المعتزلة لأحد أهل السنة، وفى هذا التنظير من سوء الأدب فى حقه تعالى ما لايخفى. (ع)

(٢) قوله «قال له: أما والله» فى الصحاح: «وأما» مخفف تحقيق الكلام الذى يتلوه اهـ. ولعل حذف الألف لغة، فليحرر. (ع)

ولو كان جسما لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره .

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

﴿فذرهم يخوضوا﴾ فى باطلهم ﴿ويلعبوا﴾ فى دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم﴾ وهذا دليل على أنّ مايقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ، وإعلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة ، وإن ركب فى دعوتهم كل صعب وذلول ، وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان . كقوله تبارك تعالى (اعملوا ما شئتم) وإيعاد بالشقاء فى العاقبة ،

وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

ضمن اسمه تعالى معنى وصف ، فلذلك علق به الظرف فى قوله (فى السماء) (وفى الأرض)[١] كما تقول ، هو حاتم فى طيّ حاتم فى تغلب ، على تضمين معنى الجواد الذى شهر به ، كأنك قلت: هو جواد فى طى جواد فى تغلب . وقرئ : وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله . ومثله قوله تعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض) كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك . والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام . كقولهم : ما أنا بالذى قائل لك شيئاً ، وزاده طولا أنّ المعطوف داخل فى حيز الصلة . ويحتمل أن يكون (فى السماء) صلة الذى وإله خبر مبتدإ محذوف ، على أنّ الجملة بيان للصلة . وأنّ كونه فى السماء على سبيل الإلهية والربوبية ، لا على معنى الاستقرار . وفيه نفى الآلهة التى كانت تعبد فى الأرض ﴿ترجعون﴾ قرئ بضم التاء وفتحها . ويرجعون ، بياء مضمومة . وقرئ : تحشرون ، بالتاء .

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

(١) قال محمود : «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف ، فعلق به الظرف ، وهو قوله (فى السماء) ... الخ» قال أحمد : ومما سهل حذف الراجع مضافا إلى الطول الذى ذكره : وقوع الموصول خبرا عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكره ، إذ كان أصل الكلام : وهو الذى هو فى السماء إله . ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل ، وأن الراجع إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد ، فانه لم يرد فى الكتاب العزيز إلا فى قوله (تماما على الذى أحسن) ومع أى فى موضعين على رأى .

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة ، كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، ولكن من ﴿شهد بالحق﴾ وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص : هو الذى يملك الشفاعة ، وهو استثناء منقطع . ويجوز أن يكون متصلا ؛ لأنّ فى جملة الذين يدعون من دون الله: الملائكة ، وقرئ : تدعون بالتاء . وتدّعون، بالتاء وتشديد الدال .

وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿وقيله﴾ قرئ بالحركات الثلاث ، وذكر فى النصب عن الأخفش أنه حمله على : أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله : وعنه : وقال قيله . وعطفه الزجاج على محل الساعة ، كما تقول : عجبت من ضرب زيد وعمراً . وحمل الجرّ على لفظ الساعة ، والرفع على الابتداء ، والخبر ما بعده : وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف . معناه : عنده علم الساعة وعلم قيله . والذى قالوه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضاً ، ومع تنافر النظم . وأقوى من ذلك وأوجه : أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : أيمن الله ، وأمانة الله ، ويمين الله ، ولعمرك : ويكون قوله ﴿إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ جواب القسم ، كأنه قيل : وأقسم بقيله يارب . أو وقيله يارب قسمى إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴿فاصفح عنهم﴾ فأعرض عن دعوتهم يائساً عن إيمانهم ، وودعهم وتاركهم ، ﴿وقل﴾ لهم ﴿سلام﴾ أى تسلم منكم ومتاركة ﴿فسوف يعلمون﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم . والضمير فى (وقيله) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه .

عن النبى صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . ادخلوا الجنة بغير حساب»[1]

---

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه .

ســــورة الدخان

مكية ، إلا قوله (إنا كاشفو العذاب قليلا ... الآية)

وهى سبع وخمسون آية . وقيل تسع وخمسون [نزلت بعد سورة الزخرف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)

الواو فى ﴿والكتاب﴾ واو القسم ، إن جعلت حمٓ تعديداً للحروف أو اسما للسورة ، مرفوعا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حمٓ مقسما بها . وقوله ﴿إنا أنزلناه﴾ جواب القسم ، والكتاب المبين القرآن . والليلة المباركة : ليلة القدر . وقيل : ليلة النصف من شعبان ، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصكّ ، وليلة الرحمة وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة . وقيل فى تسميتها : ليلة البراءة . والصكّ : أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ، كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة فى هذه الليلة . وقيل : هى مختصة بخمس خصال : تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى فى هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك : ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا . وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان[1] » . ونزول الرحمة : قال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الله يرحم أمتى[2] فى هذه

(١) ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن عمر هكذا وأخرجه أبو الفتح سليم بن أيوب فى الترغيب له من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن على موقوفا . وأخرجه ابن الأخضر من رواية جعفر المدائنى عن أبى يحيى العتابى حدثنى بضعة وثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ـ فذكره

(٢) قوله « يرحم أمتى فى هذه الليلة » لعله : من أمتى . (ع)

الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب[١] ، وحصول المغفرة : قال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الله تعالى يغفر لجميع المسلمين فى تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين ، أو مصرّ على الزنا » [٢] وما أعطى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تمام الشفاعة ، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان فى أمّته . فأعطى الثلث منها ، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع ، إلا من شرد عن الله شراد البعير . ومن عادة الله فى هذه الليلة : أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة . والقول الأكثر : أنّ المراد بالليلة المباركة : ليلة القدر ، لقوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ولمطابقة قوله : ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ لقوله : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) وقوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وليلة القدر فى أكثر الأقاويل فى شهر رمضان . فإن قلت : ما معنى إنزال القرآن فى هذه الليلة ؟ قلت : قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ، وأمر السفرة الكرام بانتساخه فى ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما نجوما . فإن قلت : ﴿إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم﴾ ما موقع هاتين الجملتين ؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان[٣] . فسر بهما جواب القسم الذى هو قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه فى هذه الليلة خصوصاً ؛ لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم . والمباركة : الكثيرة الخير لما يتيح[٤] الله فيها من الأمور التى يتعلق بها منافع العباد فى دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة . ومعنى (يفرق) يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم منها إلى

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث عائشة مرفوعا « إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا . فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب . قال الترمذى : لا نعرفه إلا من حديث الحجاج ؟ وسمعت محمدا يضعفه . وقال : ابن يحيى لم يسمع من عروة ، والحجاج لم يسمع من يحيى ، وفى الباب عن أنس عن عائشة فى الدعوات للبيهقى . وفى روايته مجاهيل . ومن وجه آخر عن عائشة فى الافراد للدارقطنى . وفيه عطاء بن عجلان ، وهو متروك .

(٢) لم أجده هكذا . وفى ابن حبان من حديث معاذ بن جبل وقال يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن » وفى ابن ماجه من حديث أبى موسى كذلك . والبزار من حديث أبى بكر وفى إسناده ضعف والبزار أيضاً من حديث عوف بن مالك . وفيه ابن لهيعة . ومن حديث أبى هريرة وفيه من لا يعرف . ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد عن عائشة . وفيها لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى عاق ولا إلى مدمن خمر وفى رواية أنس عن عائشة التى ذكرناها فى التى قبلها والمدمن والعاق والمصر على الزنا وزادوا : ولا مصور ولا قتار .

(٣) قوله « ملفوفتان » لعله من اللف والنشر المقرر فى البيان ، وبيانه ما بعده . (ع)

(٤) قوله « لما يتيح الله فيها » أى يقدر . (ع)

الأخرى القابلة . وقيل : يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ، ويقع الفراغ فى ليلة القدر ، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخة الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت . وعن بعضهم : يعطى كل عامل بركات أعماله ، فيلقى على ألسنة الخلق مدحه ، وعلى قلوبهم هيبته . وقرئ : (يفرق) بالتشديد . و (يفرق) كل على بنائه للفاعل ونصب كل ، والفارق : الله عزّ وجلّ ، وقرأ زيد بن على رضى الله عنه : نفرق ، بالنون . كل أمر حكيم : كل شأن ذى حكمة ، أى : مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازى ؛ لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف الأمر به مجاز ﴿أمراً من عندنا﴾ نصب على الاختصاص . جعل كل أمر جزلا فخما بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمراً حاصلا من عندنا ، كائناً من لدنا ، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا . ويجوز أن يراد به الأمر الذى هو ضد النهى ، ثم إما أن يوضع موضع فرقانا الذى هو مصدر يفرق ، لأنّ معنى الأمر والفرقان واحد ، من حيث أنه إذا حكم بالشىء وكتبه فقد أمر به وأوجبه . أو يكون حالا من أحد الضميرين فى أنزلناه : إما من ضمير الفاعل ، أى : أنزلناه آمرين أمرا . أو من ضمير المفعول أى أنزلناه فى حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل. فإن قلت : ﴿إنا كنا مرسلين رحمة من ربك﴾ بم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يكون بدلا من قوله (إنا كنا منذرين) و (رحمة من ربك) مفعولا له ، على معنى : إنا أنزلنا القرآن ؛ لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، وأن يكون تعليلا ليفرق . أو لقوله (أمرا من عندنا) ورحمة : مفعولا به ، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به فى قوله تعالى (وما يمسك فلا مرسل له من بعده) أى يفصل فى هذه الليلة كل أمر . أو تصدر الأوامر من عندنا ؛ لأنّ من عادتنا أن نرسل رحمتنا . وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة ؛ وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا ؛ لأنّ الغرض فى تكليف العباد تعريضهم للمنافع . والأصل : إنا كنا مرسلين رحمة منا ، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانا بأنّ الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين ، وفى قراءة زيد بن على : أمر من عندنا ، على : هو أمر ، وهى تنصر انتصابه على الاختصاص . وقرأ الحسن : رحمة من ربك ، على : تلك رحمة ، وهى تنصر انتصابها بأنها مفعول له ﴿إنه هو السميع العليم﴾ وما بعده تحقيق لربوبيته ، وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه . وقرئ : رب السموات ... ربكم ورب آبائكم ، بالجر بدلا من ربك . فإن قلت : ما معنى الشرط الذى هو قوله ﴿إن كنتم موقنين﴾ ؟ قلت : كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربا وخالقا ، فقيل لهم : إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، ثم قيل : إن هذا

الرب هو السميع العليم الذى أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢)﴾

ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله ﴿بل هم فى شك يلعبون﴾ وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن، ولا عن جدّ وحقيقة: بل قول مخلوط بهزء ولعب ﴿يوم تأتى السماء﴾ مفعول به مرتقب. يقال: رقبته وارتقبته. نحو: نظرته وانتظرته. واختلف فى الدخان؛ فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه وبه أخذ الحسن: أنه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة يدخل فى أسماع الكفرة، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ [1]، ويعترى المؤمن منه كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص [2]. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أوّل الآيات: الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين [3] تسوق الناس إلى المحشر [4]» قال حذيفة: يارسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة. أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» وعن ابن مسعود رضى الله عنه: خمس قد مضت: الروم، والدخان، والقمر، والبطشة، واللزام. ويروى أنه قيل لابن مسعود: إن قاصا عند أبواب كندة يقول: إنه دخان يأتى يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق، فقال: من علم علما فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه: الله أعلم، ثم قال: ألا وسأحدثكم أنّ قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر» [5]

(١) قوله «كالرأس الحنيذ» أى المشوى، كما فى الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ليس فيه خصاص» أى: فرج. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «أبين» فى الصحاح: «أبين»: اسم رجل نسب إليه عدن. (ع)

(٤) هذا أولى. وفى إسناده رواه ابن الجراح وهو متروك. وقد اعترف بأنه لم يسمع هذا الحديث.

(٥) متفق عليه دون قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» وقد رواه النسائى والحاكم والطبرانى من حديث ابن عباس قال «جاء أبو سفيان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: أنشدك الله والرحم لقد أكلنا العلهز يعنى الوبر والدم فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب ـ الآية).

واجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف [1] والعلهز ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدث الرجل [2] فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم ﴿بدخان مبين﴾ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان ﴿يغشى الناس﴾ يشملهم ويلبسهم ، وهو في محل الجر صفة لدخان . و ﴿هذا عذاب﴾ إلى قوله (مؤمنون) منصوب المحل بفعل مضمر ، وهو : يقولون . ويقولون : منصوب على الحال ، أي : قائلين ذلك . ﴿إنا مؤمنون﴾ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب .

أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

﴿أنى لهم الذكرى﴾ كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وقد جاءهم﴾ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادكار من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات، فلم يذكروا وتولوا عنه ، وبهتوه [3] بأن عداسا غلاما أعجميا لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون ، ثم قال ﴿إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون﴾ أي ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال . فإن قلت : كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله (إنا كاشفوا العذاب قليلا) ؟ قلت : إذا أتت السماء بالدخان تضور [4] المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) منيبون ، فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوما ، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون ، ثم قال : ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يريد

(١) قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» في الصحاح «العلهز» - بالكسر - : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة . (ع)

(٢) قوله «وكان يحدث الرجل فيسمع» لعله : يحدث الرجل الرجل ، ويمكن أن يجعل الفاعل ضميراً يعود على الرجل السابق . (ع)

(٣) قوله «وتولوا عنه وبهتوه» رموه بما ليس فيه والتغويث قولها : واغوثاه ، كما في الصحاح أيضاً . (ع)

(٤) قوله «تضور المعذبون به» التضور : الصياح والتلوي عند الألم . أفاده الصحاح . (ع)

يوم القيامة ، كقوله تعالى (فإذا جاءت الطامة الكبرى) . ﴿ إنا منتقمون ﴾ أى ننتقم منهم فى ذلك اليوم . فإن قلت : بم انتصب يوم نبطش ؟ قلت : بما دل عليه (إنا منتقمون) وهو ننتقم . ولا يصح أن ينتصب بمنتقمون ، لأن « إن » تحجب عن ذلك . وقرئ : نبطش ، بضم الطاء . وقرأ الحسن : نبطش بضم النون ، كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى . أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم . وقيل (البطشة الكبرى) : يوم بدر .

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١)

وقرئ : ولقد فتنا ، بالتشديد للتأكيد . أو لوقوعه على القوم . ومعنى الفتنة : أنه أمهلهم ووسع عليهم فى الرزق ، فكان ذلك سببا فى ارتكابهم المعاصى واقترافهم الآثام . أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا ، فاختاروا الكفر على الإيمان . أو سلبهم ملكهم وأغرقهم ﴿ كريم ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين . أو كريم فى نفسه ، لأن الله لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم ﴿ أن أدوا إلىّ ﴾ هى أن المفسرة ، لأن مجىء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله . أو المخففة من الثقيلة ومعناه : وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلىّ ﴿ وعباد الله ﴾ مفعول به وهم بنو إسرائيل ، يقول : أدوهم إلىّ وأرسلوهم معى ، كقوله تعالى (أرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) ويجوز أن يكون نداء لهم على : أدوا إلىّ يا عباد الله ما هو واجب لى عليكم من الإيمان لى وقبول دعوتى واتباع سبيلى ، وعلل ذلك بأنه ﴿ رسول أمين ﴾ غير ظنين قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته ﴿ وأن لا تعلوا ﴾ أن هذه مثل الأولى فى وجهيها ، أى : لا تستكبروا ﴿ على الله ﴾ بالاستهانة برسوله ووحيه . أو لا تستكبروا على نبىّ الله ﴿ بسلطان مبين ﴾ بحجة واضحة ﴿ أن ترجمون ﴾ أن تقتلون . وقرئ : عت ، بالإدغام . ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل ﴿ فاعتزلون ﴾ يريد : إن لم تؤمنوا لى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمنوا ، فتنحوا عنى واقطعوا أسباب الوصلة عنى ، أى : خلونى كفافا لا لى ولا علىّ ، ولا تتعرضوا لى بشركم وأذاكم ؛ فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك .

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

﴿أن هؤلاء﴾ بأن هؤلاء ، أى : دعا ربه بذلك . قيل : كان دعاؤه : اللهم عجل لهم مايستحقونه بإجرامهم : وقيل هو قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) وإنما ذكر الله تعالى السبب الذى استوجبوا به الهلاك ، وهو كونهم مجرمين . وقرئ : إنّ هؤلاء ، بالكسر على إضمار القول ، أى : فدعا ربه فقال: إن هؤلاء ﴿فأسر﴾ قرئ بقطع الهمزة من أسرى ، ووصلها من سرى . وفيه وجهان : إضمار القول بعد الفاء ، فقال : أسر بعبادى . وأن يكون جواب شرط محذوف ، كأنه قيل : قال إن كان الأمر كما تقول فأسر ﴿بعبادى﴾ يعنى : فأسر ببنى إسرائيل ، فقد دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده ، فينجى المتقدمين ويغرق التابعين . الرهو فيه وجهان ، أحدهما : أنه الساكن . قال الأعشى :

يَمْشِينَ رَهْوًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ ... وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[1]

أى مشياً ساكنا على هينة . أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق ، كما ضربه فانفلق ، فأمر بأن يتركه ساكنا على هيئته ، قاراً على حاله : من انتصاب الماء ، وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا ليدخله القبط ، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم . والثانى :

---

(١)
يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة ... ولا الصدور على الأعجاز تتكل
فهن معترضات والحصى رمض ... والريح ساكنة والظل معتدل
يتبعن سامية العينين تحسبها ... مجنونة أو ترى ما لا ترى الابل
تهدى لنا كلما كانت علاوتنا ... ريح الخزامى جرى فيها الندى الخضل

للقطامى ، يصف إبلا يمشين مشيا رهوا على هينة وسكينة ، فلا أعجازها خاذلة أى تاركة لصدورها متكلة عليها بحيث تضعف من ورائها ، ولا صدورها تتكل على أعجازها بأن تضعف من قدامها ، فأطلق الخذلان والاتكال وأراد لازمهما ، وهو الضعف : مجازا مرسلا . وأصل تتكل توتكل ، فقلبت الواو تاء وأدغمت فيما بعدها ، فهن سائرات فى عرض الفلوات . والحال أن الحصى حار من شدة وقع الشمس عليه . ورمض الحصى والرمل رمضا كتعب تعبا : اشتد حره من الشمس ، فأطلق المصدر على اسم الفاعل مبالغة . ويجوز أنه رمض ككذر والريح ساكنة ، فلا نسيم يأتى بالبرودة . أو فلا غبار يضر بالسفر والظل معتدل : كناية عن اشتداد الحر : لأنه لا يعتدل إلا بتوسط الشمس فى كبد السماء يتبعن تلك المطايا ناقة حديدة البصر رافعة طرفها لتبصر أمامها ، تظنها يامن تراها مجنونة . أو رائية شيئاً لا تراه بقية الابل . أو شيئاً لا تراه الابل عادة ؛ فلذلك استغربته ، تهدى لنا تلك الناقة أو الابل بمشيها كلما وجد ارتفاعنا فى الطريق ريح الخزامى . والعلاوة ــ بالضم ــ : ضد السفالة . وأما بالكسر فهى ما يعلق على البعير بعد حمله . والخزامى : نبت طيب الرائحة . والخضل : الرطب والمبتل والناعم . وضمير فيها عائد على الخزامى ، أو على الريح ، لكن هذا يفيد أن السفر كان صباحا .

أن الرهو الفجوة الواسعة . وعن بعض العرب : أنه رأى جملا فالجا [1] فقال : سبحان الله ، رهوٌ بين سنامين ، أى : اتركه مفتوحا على حاله منفرجا ﴿إنهم جند مغرقون﴾ وقرئ بالفتح، بمعنى : لأنهم .

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾

والمقام الكريم : ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة . وقيل : المنابر . والنعمة ـ بالفتح ـ من التنعم ، وبالكسر ـ من الإنعام . وقرئ : فاكهين وفكهين .

كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿كذلك﴾ الكاف منصوبة على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ﴿وأورثناها﴾ أو فى موضع الرفع على الأمر كذلك ﴿قوما آخرين﴾ ليسوا منهم فى شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل : كانوا متسخرين مستعبدين فى أيديهم ، فأهلكهم الله على أيديهم، وأورثهم ملكهم وديارهم . إذا مات رجل خطير قالت العرب فى تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس . وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مؤمن مات فى غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » [2] وقال جرير :

* تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا [3]

---

(١) قوله «أنه رأى جملا فالجاً» فى الصحاح «الفالج» : الضخم ذو السنامين . (ع)

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب فى السبعين منه والطبرى والثعلبى من حديث شريح بن عبيد الحضرمى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الاسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريباً إلا غربة على مؤمن . ما مات مؤمن فى غربة غائب عنه فيها بواكيه ـ الحديث»

(٣)
نعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيما فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

لجرير ، يرثى عمر بن عبد العزيز . والنعى : النداء بالموت . وقوله «ياخير» حكاية قول النعاة ، أى : قائلين ياخير ، ويحتمل أنه من كلام الشاعر ، ففيه التفات . والأمر العظيم : الخلافة ومشاقها : شبهها بالمحسوس على طريق المكنية . والتحميل : تخييل . وأمر الله : شرعه . أو اكتفى به عن ذكر النهى لدلالته عليه . وعمرا : منادى مندوب ، وألف =

وقالت الخارجية :

أَيَا شَجَــرَ الْخَابُورِ مَالَكَ مُورِقًا ... كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفِ (١)

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه ، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : من بكاء مصلى المؤمن ، وآثاره فى الأرض ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه فى السماء : تمثيل ، ونفى ذلك عنهم فى قوله تعالى ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده : فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض .وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين ، يعنى: فما بكى عليهم

= الندبة منعت ضمةوجلبت فتحة . واستعمال «يا» فى الندبة مع أن الأصل فيها «وا» لعدم اللبس فى النداء بعد ذكر النعى . ويقال : كسفت الشمس كسوفاً ، وكسفها الله كسفاً ، وبكى على زيد وبكاه ، وباكاه فبكاه ، أى غلبه فى البكاء ، كفاخره ففخره إذا غلبه فى الفخر ، فسكسف ، وبكى : متعديان ولازمان ، وطالعة : خبر الشمس . وليست بكاسفة : خبر ثان . وتبكى عليك : حال أو خبر ثالث . ونجوم الليل : مفعول كاسفة ، أى : لم تكسفه الشمس نجوم الليل لانطماسها وقلة ضوئها من كثرة بكائها ، فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور . ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكى . أى : تغلب نجوم الليل فى البكاء عليك . وقيل : روايته هكذا وهم ، والرواية : الشمس كاسفة ليست بطالعة : أى لا تطلع أبداً من حينئذ ، فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكى . وقيل : ظرف له ، أى : مدة نجوم ... الخ . وقيل «نجوم» مرفوع على الفاعلية ، والقمر : مفعول معه ، ثم إن المراد بهذا حزن جميع المخلوقات عليه ، لا سيما للناس العقلاء .

(١)
أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى ... فإن مات لم يرض الندى بحليف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا ... فديناه من ساداتنا بألوف

لليلى بنت طريف ترثى أخاها الوليد . وأيا : حرف نداء . والخابور : موضع كثير الشجر ، نزلت شجرة منزلة العاقل ، فنادته واستفهمته عن سبب إخراجه الورق ، من باب تجاهل العارف ساقت المعلوم مساق المجهول ، واستفهمت عنه لفرط مابها من الجزع تيقنت أن كل الأشياء جزعت عليه حتى الشجر ، فخاطبته بقولها : كأنك لم تجزع على أخى ، وذكرته بكنيته تعظيما لقدره وتنويهاً بذكره . ومورقا : حال من كاف الخطاب ، ثم قالت : هو فتى لا يحب أن يتزود إلا من التقى ، ولا يحب المال إلا من الغنائم بالحرب ، فقولها «إلا من قنا وسيوف» : كناية عن ذلك . والقناة : الرماح ، واحده : قناة . حليف الندى : أى ملازم له تلازم المتحالفين على الاجتماع ، فهو استعارة مصرحة ، ثم قالت : يرضى به أى بصحبته الندى : مدة حياته وإن طالت . وهذا ترشيح للاستعارة . وقولها : فإن مات «إن» فيه بمعنى إذ ، فهى لمجرد الربط لا للشك ، كما ذهب إليه الكوفيون فى نحو قوله تعالى ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ وهذا على أنه كان قد مات كما هو ظاهر قولها فقدناه . ويحتمل أنه كان فى مرض الموت ، أى : شارفنا فقده مجازاً ، كأنه قد حصل . وشبهه بالربيع فى ضمن تشبيه فقدانه فقدان الربيع بجامع عموم نفع كل: مدحته بالتقوى والشجاعة والكرم وعموم النفع والسيادة ، وتنكير ألوف للتكثير ، ويروى : دهماتنا ، بدل ساداتنا . والدهماء : السواد العظيم . وظاهر التمنى يدل أيضاً على أنه كان قد مات ، إلا أن يكون المعنى : ليتنا فديناه مما أصابه فأمرضه . وتكرير «حليف» من باب رد العجز على الصدر

أهل السماء وأهل الأرض ﴿وما كانوا منظرين﴾ لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر، ولم يمهلوا إلى الآخرة، بل عجل لهم فى الدنيا.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿من فرعون﴾ بدل من العذاب المهين، كأنه فى نفسه كان عذابا مهينا، لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم. ويجوز أن يكون المعنى: من العذاب المهين واقعاً من جهة فرعون. وقرئ: من عذاب المهين. ووجهه أن يكون تقدير قوله (من فرعون): من عذاب فرعون، حتى يكون المهين هو فرعون. وفى قراءة ابن عباس: من فرعون، لما وصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال: من فرعون، على معنى: هل تعرفونه من هو فى عتوه وشيطنته، ثم عرف حاله فى ذلك بقوله ﴿إنه كان عاليا من المسرفين﴾ أى كبيراً رفيع الطبقة، ومن بينهم فائقا لهم، بليغا فى إسرافه. أو عاليا متكبراً، كقوله تعالى (إن فرعون علا فى الأرض). و (من المسرفين) خبر ثان، كأنه قيل: إنه كان متكبرا مسرفا.

وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاؤٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾

الضمير فى ﴿اخترناهم﴾ لبنى إسرائيل. و ﴿على علم﴾ فى موضع الحال، أى: عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا. ويجوز أن يكون المعنى: مع علم منا بأنهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات فى بعض الأحوال ﴿على العالمين﴾ على عالمى زمانهم. وقيل: على الناس جميعا لكثرة الأنبياء منهم ﴿من الآيات﴾ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات العظام التى لم يظهر الله فى غيرهم مثلها ﴿بلاء مبين﴾ نعمة ظاهرة؛ لأن الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة. أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون، كقوله تعالى (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم).

إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿هؤلاء﴾ إشارة إلى كفار قريش فإن قلت : كان الكلام واقعا فى الحياة الثانية [١] لا فى الموت [٢] ، فهلا قيل : إن هى إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين ؟ كما قيل : إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ؟ وما معنى قوله ﴿إن هى إلا موتتنا الأولى﴾ ؟ وما معنى ذكر الأولى ؟ كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى ؟ قلت : معناه ـ والله الموفق للصواب ـ : أنه قيل لهم : إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة ، كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة ، وذلك قوله عزّ وجل (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فقالوا (إن هى إلا موتتنا الأولى) يريدون : ما الموتة التى من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التى تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذاً بين هذا وبين قوله (إن هى إلا حياتنا الدنيا) فى المعنى . يقال : أنشر الله الموتى ونشرهم : إذا بعثهم ﴿فأتوا بآبائنا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور : من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أى : إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلا على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق ، وقيل كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله وينشر لهم قصىّ بن كلاب ليشاوروه ، فإنه كان كبيرهم ومشاورهم فى النوازل ومعاظم الشئون .

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧)

هو تبع الحميرى : كان مؤمنا وقومه كافرين ؛ ولذلك ذمّ الله قومه ولم يذمه ، وهو الذى سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند . وقيل : هدمها وكان إذا كتب قال : بسم الله الذى ملك براً وبحراً . وعن النبى صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» [٣] وعنه عليه الصلاة

(١) قوله «واقعاً فى الحياة الثانية» أى التى ينكرونها . (ع)

(٢) قال محمود : «فان قلت : كان الكلام معهم واقعا فى الحياة الثانية لا فى الموت ... الخ» قال أحمد : وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين : الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث : أثبتوا الحالة الأولى وهى الموت ، ونفوا ما بعدها ، وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها ؛ لأنهم نزلوا جحدهم على الاثبات لجعلوها أولى على ماذكرت لهم ، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين ، أحدهما : أن الاقتصار عليها لا يعتقدونه ، لأنهم يثبتون الموت الذى يعقب حياة الدنيا ، وحمل الحصر المباشر الموت فى كلامهم على صفة لم تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم : فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة . الثانى : أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة ، فان الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان . والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طرأ عليها هذا ، مع أن فى بقية السورة قوله تعالى (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وإنما عنى بالموتة الأولى هنا : الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط ، ففيه إرشاد لما ذكرته ، والله أعلم .

(٣) أخرجه أحمد والطبرانى والطبرى وابن أبى حاتم من حديث سهل بن سعد وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر . وهما ضعيفان . وروى حبيب عن مالك عن أبى حازم عن سهل مثله قال الدارقطنى : تفرد به حبيب وهو

والسلام «ماأدرى أكان تبع نبياً أوغير[1] نبى» وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان نبيا . وقيل : نظر إلى قبرين بناحية حمير قال : هذا قبر رضوى وقبر حبى بنت تبع لاتشركان بالله شيئا . وقيل: هو الذى كسا البيت . وقيل لملوك اليمن : التبابعة ، لأنهم يتبعون ، كما قيل : الأقيال ، لأنهم يتقيلون[2] . وسمى الظل «تبعا» لأنه يتبع الشمس . فإن قلت : مامعنى قوله تعالى ﴿أهم خير﴾ ولاخير فى الفريقين ؟ قلت : معناه أهم خير فى القوة والمنعة ، كقوله تعالى (أكفاركم خير من أولئكم) بعد ذكر آل فرعون . وفى تفسير ابن عباس رضى الله عنهما : أهم أشد أم قوم تبع .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَاخَلَقْنَٰهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿وما بينهما﴾ وما بين الجنسين . وقرأ عبيد بن عمير : وما بينهن . وقرأ : ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ، ويوم الفصل : خبرها ، أى : إنّ ميعاد حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل ﴿لايغنى مولى﴾ أىّ مولى كان من قرابة أو غيرها ﴿عن مولى﴾ عن أى مولى كان ﴿شيئا﴾ من إغناء ، أى : قليلا منه ﴿ولاهم ينصرون﴾ الضمير للموالى ؛ لأنهم فى المعنى كثير ، لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى ﴿إلا من رحم الله﴾ فى محل الرفع على البدل من الواو فى (ينصرون) أى : لايمنع من العذاب إلامن رحمه الله . ويجوز أن ينتصب على الاستثناء ﴿إنه هو العزيز﴾ لاينصر منه من عصاه ﴿الرحيم﴾ لمن أطاعه .

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ

متروك . وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبرانى فى معجمه وابن مردويه قال محمد بن زكريا . عن أبى حذيفة عن سفيان .

(١) أخرجه الثعلبى من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى هريرة بهذا . والمعروف بهذا الاسناد «ماأدرى العينى هو أم لا ، وما أدرى أعزير نبى أم لا» أخرجه أبوداود . وكذا الحاكم لكن قال : ذو القرنين بدل «عزير» قال الدارقطنى تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله .

(٢) قوله «لأنهم يتقيلون» فى الصحاح : تقيل شرب نصف النهار ، وتقيل فلان أباه : تبعه . (ع)

مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قرئ : إنّ شجرت الزقوم ، بكسر الشين ، وفيها ثلاث لغات : شجرة ، بفتح الشين وكسرها وشيرة ، بالياء . وروى أنه لما نزل (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) قال ابن الزبعرى : إنّ أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر : التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال : تزقموا فإنّ هذا هو الذى يخوفكم به محمد ، فنزل ﴿إن شجرت الزقوم طعام الأثيم﴾ وهو الفاجر الكثير الآثام . وعن أبى الدرداء أنه كان يقرئ رجلا فكان يقول طعام اليثيم ، فقال : قل طعام الفاجر [1] ياهذا . وبهذا يستدل على أنّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها . ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهى : أن يؤدى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا . قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ؛ لأنّ فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعانى والأغراض مالا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر وروى على بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية ﴿كالمهل﴾ قرئ بضم الميم وفتحها ، وهو دردى [2] الزيت . ويدل عليه قوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) مع قوله (فكانت وردة كالدهان) وقيل : هو ذائب الفضة والنحاس ، والكاف رفع خبر بعد خبر ، وكذلك ﴿يغلى﴾ وقرئ بالتاء للشجرة ، وبالياء للطعام . و ﴿الحميم﴾ الماء الحار الذى انتهى غليانه : يقال للزبانية ﴿خذوه فاعتلوه﴾ فقودوه بعنف وغلظة ، وهو أن يؤخذ بتلبيب [3] الرجل فيجر إلى حبس أو قتل . ومنه : العتلّ وهو الغليظ الجافى . وقرئ بكسر التاء وضمها ﴿إلى سواء الجحيم﴾ إلى وسطها ومعظمها . فإن قلت : هلا قيل : صبوا فوق رأسه من الحميم ، كقوله تعالى (يصب من فوق رءوسهم الحميم) لأنّ الحميم هو المصبوب لاعذابه ؟ قلت : إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدّته ، إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة ، كقوله :

---

(١) قال محمود : « نقل أن أبا الدرداء أقرأها رجلا فلم يقم النطق بالأثيم وجعل يقول طعام اليثيم ... الخ » قال أحمد : لا دليل فيه لذلك . وقول أبى الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتى بالقراءة كما أنزلت . على هذا حمله القاضى أبو بكر فى كتاب الانتصار ، وهو الوجه ، والله أعلم .

(٢) قوله « وهو دردى الزيت » لعله : ردى الزيت كعبارة النسفى . (ع)

(٣) قوله « وهو أن يؤخذ بتلبيب الرجل » الذى فى الصحاح : لببت الرجل تلبيبا ، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره فى الخصومة ، ثم جررته اه ويجوز أنه أراد بتلبيب الرجل : ثيابه من عند صدره ونحره . (ع)

* صُبَّتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ صَبَبِ * (١)

وكقوله تعالى (أفرغ علينا صبرا) فذكر العذاب معلقا به الصب، مستعارا له، ليكون أهول وأهيب يقال ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه. وروى أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى، فوالله ماتستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا. وقرئ: إنك، بمعنى: لأنك. وعن الحسن ابن على رضى الله عنهما أنه قرأ به على المنبر ﴿إن هذا﴾ العذاب. أو إن هذا الأمر هو ﴿ما كنتم به تمترون﴾ أى تشكون. أو تتمارون وتتلاجون.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)

قرئ: فى مقام، بالفتح: وهو موضع القيام، والمراد المكان، وهو من الخاص الذى وقع مستعملا فى معنى العموم. وبالضم: وهو موضع الإقامة. و(الأمين) من قولك: أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة؛ لأنّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره. قيل: السندس: مارق من الديباج. والإستبرق: ما غلظ منه وهو تعريب استبر. فإن قلت: كيف ساغ أن يقع فى القرآن العربى المبين لفظ أعجمى؟ قلت: إذا عرب خرج من أن يكون عجميا؛ لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب ﴿كذلك﴾ الكاف مرفوعة على: الأمر كذلك. أو منصوب على: مثل ذلك أثبناهم ﴿وزوجناهم﴾ وقرأ عكرمة: بحور عين، على الإضافة: والمعنى: بالحور من العين؛ لأن العين إما أن تكون حوراً أو غير حور، فهؤلاء

(١) كم امرئ كان فى خفض وفى دعة صبت عليه صروف الدهر من صبب

الصبب: مكان انصباب الماء وانحداره. يقول: كثير من الناس كان فى لين عيش وفى راحة، توالت عليه حوادث الدهر كأنها سيل منحدر من صبب، فاستعار الصب لنزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكنية. والصبب: تخييل. والصب: ترشيح. والصروف: جمع صرف، كحروف جمع حرف: مكاره الزمن ومصائبه.

من الحور العين [١] لا من شهلهن مثلا . وفى قراءة عبد الله : بعيس عين : والعيساء : البيضاء تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير : لا يذاقون فيها الموت . وقرأ عبد الله : لا يذوقون فيها طعم الموت . فإن قلت : كيف استثنيت الموتة الأولى ـ المذوقة قبل دخول الجنة ـ من الموت المنفى ذوقه فيها ؟ قلت : أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله (إلا الموتة الأولى) موضع ذلك : لأن الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل ، فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فإنهم يذوقونها [٢] . وقرئ ووقاهم بالتشديد ﴿فضلا من ربك﴾ عطاء من ربك وثوابا ، يعنى : كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار . وقرئ : فضل ، أى . ذلك فضل .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾ فذلكة للسورة . ومعناها : ذكرهم بالكتاب المبين (فإنما يسرناه) أى : سهلناه ، حيث أنزلناه عربيا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا ﴿فارتقب﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يحل بك متربصون الدوائر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » [٣] وعنه عليه السلام : « من قرأ حم التى يذكر فيها الدخان فى ليلة جمعة أصبح مغفورا له » . [٤]

---

(١) قوله « من الحور العين » لعله : من حور العين . (ع)

(٢) قال محمود : « إنما استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفى ذوقه فيها ... الخ » قال أحمد : هذا الذى ذكره مبنى على أن الموتة بدل ، على طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس . وأما على طريقة الحجازيين ، فانتصبت الموتة استثناء منقطعا . وسر اللغة التميمية : بناء النفى المراد على وجه لا يبق للسامع مطمعاً فى الاثبات ، فيقولون : ما فيها أحد إلا حمار ، على معنى : إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد ، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتما بالنفى . وعليه حمل الزمخشرى (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله) أى إن كان الله ممن فى السموات والأرض ، ففى السموات والأرض من يعلم الغيب ، فاذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت النفرة إلى ثبوت الثانى ، فجزمت بالنفى ، والله أعلم .

(٣) أخرجه الترمذى أيضاً وابن عدى والثعلبى والبيهقى فى الشعب من رواية عمر بن خثعم عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وقال : غريب ، وعمر يضعف . قال محمد : إنه منكر الحديث . قلت : وهو بمعنى الذى قبله .

(٤) أخرجه الترمذى وأبو يعلى وابن السنى فى اليوم والليلة » والبيهقى فى الشعب وقال تفرد به أبو المقدام . وهو ضعيف . وعن الحسن عن أبى هريرة وقال الترمذى : أبو المقدام ضعيف والحسن لم يسمع من أبى هريرة .

سورة الجاثية

مكية [إلا آية ١٤ فمدنية]

وآياتها ٣٧ وقيل ٣٦ آية [نزلت بعد الدخان]

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)

﴿حم﴾ إن جعلتها اسما مبتدأ مخبرا عنه بـ ﴿تنزيل الكتاب﴾ لم يكن بدمن حذف مضاف، تقديره: تنزيل حم تنزيل الكتاب. و ﴿من الله﴾ صلة للتنزيل، وإن جعلتها تعديدا للحروف كان (تنزيل الكتاب) مبتدأ، والظرف خبرا ﴿إن فى السموات والأرض﴾ يجوز أن يكون على ظاهره، وأن يكون المعنى: إن فى خلق السموات لقوله ﴿وفى خلقكم﴾ فإن قلت: علام عطف ﴿ومايبث﴾ أعلى الخلق المضاف؟أم على الضمير المضاف إليه؟ قلت: بل على المضاف، لأن المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه: استقبحوا أن يقال: مررت بك وزيد، وهذا أبوك وعمرو، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا: مررت بك أنت وزيد. قرئ: آيات لقوم يوقنون، بالنصب والرفع، على قولك: إن زيدا فى الدار وعمرا فى السوق. أو عمرو فى السوق. وأما قوله (آيات لقوم[1] يعقلون) فمن العطف على عاملين، سواء نصبت أو رفعت، فالعاملان إذا نصبت هما: إن، وفى: أقيمت الواو مقامهما، فعملت[2] الجر فى (اختلاف الليل والنهار)،

(١) قوله «وأما قوله: آيات لقوم» أى مع قوله (واختلاف). (ع)

(٢) قوله «فعملت» أى: الواو. (ع)

والنصب فى (آيات). وإذا رفعت فالعاملان: الابتداء وفى: عملت الرفع فى (آيات)، والجر فى (واختلاف) وقرأ ابن مسعود: وفى اختلاف الليل والنهار. فإن قلت: العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقال فيه. وقد أباه سيبويه، فما وجه تخريج الآية عنده؟ قلت: فيه وجهان عنده. أحدهما: أن يكون على إضمار فى. والذى حسنه تقدّم ذكره فى الآيتين قبلها. ويعضده قراءة ابن مسعود. والثانى: أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفا على ماقبله أو على التكرير، ورفعها بإضمارهى: وقرئ: واختلاف الليل والنهار بالرفع. وقرئ: آية. وكذلك ومايبث من دابة آية. وقرئ وتصريف الريح. والمعنى: إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا فى السموات والأرض النظر الصحيح، علموا أنها مصنوعة، وأنه لابدّ لها من صانع، فآمنوا بالله وأقروا. فإذا نظروا فى خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة، وفى خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان: ازدادوا إيمانا، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس؛ فإذا نظروا فى سائر الحوادث التى تتجدّد فى كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها ﴿وتصريف الرياح﴾ جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا: عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم، وسمى المطر رزقا، لأنه سبب الرزق ﴿تلك﴾ إشارة إلى الآيات المتقدّمة، أى: تلك الآيات آيات الله. و﴿نتلوها﴾ فى محل الحال، أى: متلوة ﴿عليك بالحق﴾ والعامل مادل عليه تلك من معنى الإشارة. ونحوه: (هذا بعلى شيخا) وقرئ: يتلوها، بالياء ﴿بعد الله وآياته﴾ أى بعد آيات الله كقولهم: أعجبنى زيد وكرمه، يريدون: أعجبنى كرم زيد. ويجوز أن يراد: بعد حديث الله، وهو كتابه وقرآنه، كقوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث). وقرئ ﴿يؤمنون﴾ بالتاء والياء.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

الأفاك: الكذاب، والأثيم: المتبالغ فى اقتراف الآثام ﴿يصر﴾ يقبل على كفره ويقيم

عليه. وأصله من إصرار الحمار على العانة[1] وهو أن ينحى عليها صازا أذنيه ﴿مستكبرا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق، مزدريا لها معجبا بما عنده. قيل: نزلت فى النضر بن الحرث وما كان يشترى من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن. والآية عامّة فى كل ما كان مضارّا لدين الله. فإن قلت: ما معنى ثم فى قوله (ثم يصر مستكبرا)؟ قلت: كمعناه فى قول القائل:

* يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُها *[2]

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها. فأمر مستبعد، فمعنى ثم: الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعاينها؛ شيء يستبعد فى العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها: كان مستبعدا فى العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها ﴿كأن﴾ مخففة، والأصل كأنه لم يسمعها: والضمير ضمير الشأن، كما فى قوله:

* كَأَنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إِلَى نَاضِرِ السَّلَمْ *[3]

ومحل الجملة النصب على الحال. أى: يصير مثل غير السامع ﴿وإذا﴾ بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتخذها﴾ أى اتخذ الآيات ﴿هزوا﴾ ولم يقل: اتخذه، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم: خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات. ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، ويحتمل: وإذا علم من آياتنا شيئا

---

(١) قوله «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما فى الصحاح. وفيه أيضا: صر الفرس أذنيه: ضمها إلى رأسه، فاذا لم يوقعوا قالوا: أصر الفرس، بالألف. (ع)

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٥٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٣) فيوما توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم
ويوما تريد مالنا مع مالها فان لم ننلها لم تنمنا ولم تنم

الباعث بن صريم اليشكرى يذكر حال امرأته. ويوما: ظرف مقدم. ويروى: ويوم، أى: ورب يوم تقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم. وقسم قساما وقسامة، كجمل جمالا. وظرف ظرافة. والمقسم: الحسن. وكأن: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير المرأة، أو ضمير الشأن. وظبية: بالرفع على الأول خبر. وعلى الثانى: مبتدأ، وهو مع خبره خبر كان. وتعطو: صفة على الأول، وهو الخبر على الثانى. ويروى: ظبية، بالنصب؛ فهو الاسم وإن كان عملها مخففة قليلا. ويروى: مجرورا بالكاف، وإن: زائدة بين الجار والمجرور: وتعطو: تأخذ وتتناول، مائلة إلى وارق السلم. ومن النوادر: أورق فهو وارق. وأينع فهو يانع. والقياس: مورق، أى: كثير الورق. ويروى: ناضر، بدل: وارق. والسلم: شجر العضاه، هذا شأنها فى يوم. وفى يوم آخر تؤذينا فتريد مالنا منضما إلى مالها، فان نعطها لم تتركنا ننام من كثرة كلامها وإيذائها، ولم تنم هى أيضا. واليوم هنا: مطلق الزمن.

يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا يتسلق به على الطعن والغميزة : افترصه واتخذ آيات الله هزواً ، وذلك نحو افتراص ابن الزبعرى قوله عز وجل (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) ومغالطته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله : خصمتك . ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ؛ لأنه فى معنى الآية كقول أبى العتاهية :

نَفْسِى بِشَىْءٍ مِنَ الدُّنْيَا مُعَلَّقَةٌ ... ٱللهُ وَالقَائِمُ الْمَهْدِيُّ يَكْفِيهَا (١)

حيث أراد عتبة . وقرئ : علم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم ، لشموله الأفاكين . والوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أوقدام . قال :

أَلَيْسَ وَرَائِى أَنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِى ... أَدِبُّ مَعَ الْوِلْدَانِ أَزْحَفُ كَالنَّسْرِ (٢)

ومنه قوله عز وجل ﴿من ورائهم﴾ أى من قدامهم ﴿ما كسبوا﴾ من الأموال فى رحلهم ومتاجرهم ﴿ولا مااتخذوا من دون الله﴾ من الأوثان .

هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

﴿هذا﴾ إشارة إلى القرآن ، يدل عليه قوله تعالى (والذين كفروا بآيات ربهم) لأن آيات ربهم هى القرآن ، أى هذا القرآن كامل فى الهداية ، كما تقول : زيد رجل ، تريد كامل فى الرجولية . وأيما رجل . والرجز : أشد العذاب . وقرئ بجر أليم ورفعه .

---

(١) نفسى بشىء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدى يكفيها
إنى لأيأس منها ثم يطمعنى ... فيها احتقارك للدنيا وما فيها
لأبى العتاهية . وكنى بالشىء عن جارية من حظايا المهدى اسمها عتبة ، ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثا . وقوله «من الدنيا» معناه : أنه لا يريد من الدنيا غيره . والقائم : أى بأمر الشرع . ويكفيها ، أى : يكفينى تلك الحاجة . أو يكفى نفسى ما تريد ، وألله : بقطع الهمزة ؛ لأن أول المصراع محل ابتداء فى الجملة ، إنى لأيأس أى أقطع طمعى منها ، ثم أطمع فيها ثانياً بسبب احتقارك للدنيا وما فيها . وهو مدح بنهاية الكرم . وروى أنه كتب ذلك فى ثوب ، وأدرجه فى برنية وأهداها للمهدى ، فهم بدفعها إليه فقالت : أتدفعنى إلى رجل متكسب بالتعشق ، فأمر بملء البرنية مالا ودفعها إليه ، فقال للخزان : إنما أمر لى بدنانير ، فقال له : نعطيك دراهم ونراجعه . واختلفوا فى ذلك سنة ، فقالت : لو كان عاشقاً لما فرق بينهما .

(٢) لبيد ، والهمزة للتقرير . وورائى هنا بمعنى : أمامى ، وهو فى الأصل : الجهة التى يواريها الشخص ، لكن يكثر فى الجهة التى خلفه ، وتوسع فيه حتى استعمل فى كل غيب . ومنه : المستقبل . وتراخت : تباعدت وتأخرت . وأدب : أمشى بهينة وتؤدة . وأن المصدرية مقدرة قبله ؛ لأنه اسم ليس ، وإن كان لفظه مرفوعا . وأزحف : يحتمل أنه بدل ، وأنه حال . وكالنسر : حال . أو معناه : كزحف النسر فى الأرض ، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس ؛ لأنه يتوهم من قوله «مع الولدان» نقص عقله ، فدل على أن المراد الضعف كالولدان . والشيب كالنسر ؛ لأنه أبيض ، مع كونه رئيس الطيور وكلها تخشاه .

اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطرى وغير ذلك من منافع البحر . فإن قلت : ما معنى (منه) فى قوله ﴿جميعا منه﴾ وما موقعها من الإعراب ، قلت : هى واقعة موقع الحال ، والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده ، يعنى : أنه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ، ثم مسخرها لخلقه . ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، تقديره : هى جميعاً منه ، وأن يكون (وسخر لكم) تأكيداً لقوله تعالى (سخر لكم) ثم ابتدئ قوله : (ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) وأن يكون (ما فى الأرض) مبتدأ ، و(منه) خبره . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : منة ، وقرأ سلمة بن محارب : منه ، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازى . أو على أنه خبر مبتدإ محذوف ، أى : ذلك . أو هو منه .

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

حذف المقول لأن الجواب دال عليه . والمعنى : قل لهم اغفروا يغفروا ﴿لا يرجون أيام الله﴾ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه ، من قولهم لوقائع العرب : أيام العرب . وقيل : لا يأملون الأوقات التى وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها . قيل : نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها . وقيل : نزولها فى عمر رضى الله عنه ـ وقد شتمه رجل من غفار فهم أن يبطش به . وعن سعيد بن المسيب : كنا بين يدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقرأ قارئ هذه الآية ، فقال عمر : ليجزى عمر بما صنع ﴿لنجزى﴾ تعليل الأمر بالمغفرة ، أى : إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة . فإن قلت : قوله ﴿قوما﴾ ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف ؟ قلت : هو مدح لهم وثناء عليهم ، كأنه قيل . ليجزى أيما قوم وقوما [١] مخصوصين ، لصبرهم وإغضائهم على أذى أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا

---

(١) قوله «وأيما قوم وقوما مخصوصين» لعله : أو قوما . (ع)

يجرعونهم من الغصص ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قول عمر : ليجزى عمر بما صنع : ليجزى بصبره واحتماله . وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية : والذى بعثك بالحق لاترى الغضب فى وجهى . وقرئ : ليجزى قوما ، أى : الله عز وجل . وليجزى قوم . وليجزى قوما ، على معنى : وليجزى الجزاء قوما .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ الْكِتَٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿والحكم﴾ الحكمة والفقه . أو فصل الخصومات بين الناس ؛ لأنّ الملك كان فيهم والنبوة ﴿من الطيبات﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم ﴿بينات﴾ آيات ومعجزات ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين ، فما وقع بينهم الخلاف فى الدين ﴿إلا من بعد ما جاءهم﴾ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم . وإنما اختلفوا لبغى حدث بينهم ، أو لعداوة وحسد .

ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

﴿على شريعة﴾ على طريقة ومنهاج ﴿من الأمر﴾ من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ، ولا تتبع مالاحجة عليه من أهواء الجهال . ودينهم المبنى على هوى وبدعة ، وهم رؤساء قريش حين قالوا . ارجع إلى دين آبائك . ولا توالهم ، إنما يوالى الظالمين من هو ظالم مثلهم ، وأما المتقون : فوليهم الله وهم موالوه . وماأبين الفصل بين الولايتين .

هَٰذَا بَصَٰائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿هذا﴾ القرآن ﴿بصائر للناس﴾ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب . كما جعل روحا وحياة وهو هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن . وقرئ : هذه بصائر ، أى : هذه الآيات .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

﴿أم﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح: الاكتساب. ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله، أى: كاسبهم ﴿أن نجعلهم﴾ أن نصيرهم. وهو من جعل المتعدى إلى مفعولين فأوّلها الضمير، والثانى: الكاف، والجملة التى هى ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ بدل من الكاف؛ لأنّ الجملة تقع مفعولا ثانياً، فكانت فى حكم المفرد. ألا تراك لو قلت: أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم: كان سديداً، كما تقول: ظننت زيداً أبوه منطلق. ومن قرأ (سواء) بالنصب: أجرى سواء مجرى مستويا، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية، وكان مفردا غير جملة. ومن قرأ: ومماتهم بالنصب، جعل محياهم ومماتهم: ظرفين، كمقدم الحاج وخفوق النجم. أى: سواء فى محياهم وفى مماتهم. والمعنى: إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيا، وأن يستووا مماتا؛ لافتراق أحوالهم أحياء. حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات، وأولئك على ركوب المعاصى. ومماتا، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه، وأولئك على اليأس من رحمة الله والوصول إلى هول ما أعدّ لهم. وقيل: معناه إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة، لأنّ المسيئين والمحسنين مستو محياهم فى الرزق والصحة، وإنما يفترقون فى الممات، وقيل: سواء محياهم ومماتهم: كلام مستأنف على معنى: أن محيا المسيئين ومماتهم سواء، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم: كل يموت على حسب ما عاش عليه. وعن تميم الدارى رضى الله عنه أنه كان يصلى ذات ليلة عند المقام، فبلغ هذه الآية، فجعل يبكى ويردد إلى الصباح: ساء ما يحكمون. وعن الفضيل: أنه بلغها فجعل يرددها ويبكى ويقول: يا فضيل، ليت شعرى من أى الفريقين أنت.

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ولتجزى﴾ معطوف على بالحق، لأنّ فيه معنى التعليل. أو على معلل محذوف تقديره: خلق الله السموات والأرض، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

أى : هو مطواع لهوى النفس يتبع ماتدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه . وقرئ : آلهة هواه ؛ لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى : يعبد كل وقت واحداً منها ﴿وأضله الله على علم﴾ وتركه عن الهداية [١] واللطف وخذله على علم ، عالما بأنّ ذلك لا يجدى عليه ، وأنه ممن لا لطف له . أومع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقربة [٢] ﴿فمن يهديه من بعد﴾ إضلال ﴿الله﴾ وقرىء : غشاوة ، بالحركات الثلاث . وغشوة ، بالكسر والفتح . وقرئ : تتذكرون

وَقَالُوا مَاهِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

﴿نموت ونحيا﴾ نموت نحن ويحيا أولادنا . أو يموت بعض ويحيا بعض . أو نكون مواتا نطفا فى الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك . أو يصيبنا الأمران : الموت والحياة ، يريدون : الحياة فى الدنيا والموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة . وقرئ : نحيا ، بضم النون . وقرىء : إلا دهر يمرّ ، وما يقولون ذلك عن علم ، ولكن عن ظنّ وتخمين : كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله ، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان . ومنه قوله عليه السلام : « لا تسبوا الدهر ، فإنّ الله هو الدهر » [٣] أى : فإنّ الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

وقرئ : حجتهم بالنصب والرفع ، على تقديم خبر كان وتأخيره . فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة ؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها ، فسميت حجة

(١) قوله « وتركه عن الهداية » تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة : أنه لا يريد الشر ولا يفعله . وعند أهل السنة : لا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، والله خالق كل شىء ، فالاضلال : خلقه الضلال فى القلب . (ع)

(٢) قوله «المحصلة والمقربة» يعنى . للهداية . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، واللفظ لمسلم .

على سبيل التهكم . أو لأنه فى حسبانهم وتقديرهم حجة . أو لأنه فى أسلوب قوله :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ * [1]

كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة . والمراد : نفى أن تكون لهم حجة البتة . فإن قلت: كيف وقع قوله ﴿قل الله يحييكم﴾ جوابا لقولهم (ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أنّ ما قالوه قول مبكت . ألزموا ما هم مقرون به : من أنّ الله عز وجل هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعى الحق ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن كان قادراً على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم ، وكان أهون شىء عليه .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١)

عامل النصب فى ﴿يوم تقوم﴾ يخسر ، و﴿يومئذ﴾ بدل من (يوم تقوم) ﴿جاثية﴾ باركة مستوفزة على الركب . وقرئ : جاذية . والجذوّ : أشد استيفازا من الجثوّ ؛ لأن الجاذى هو الذى يجلس على أطراف أصابعه : وعن ابن عباس رضى الله عنهما : جاثية مجتمعة . وعن قتادة: جماعات من الجثوة ، وهى الجماعة ، وجمعها : جثى . وفى الحديث [2] «من جثى جهنم» [3] وقرئ

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٠ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من دعا بدعوى الجاهلية فانه من جثى جهنم ... الحديث» أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم ، وأحمد وأبو يعلى ﴿تنبيه﴾ احتج به المصنف على أن جثى جمع جثوة : وهى الجماعة . وفى البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما رفعه «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا ، كل أمة تتبع نبيها .

(٣) قوله «من جثى جهنم» فى الصحاح «الجثوة» مثلثه : الحجارة المجموعة . وجثى الحرم ، بالضم وبالكسر : ما اجتمع فيه من حجارة الجمار . (ع)

﴿كل أمة﴾ على الابتداء : وكل أمة : على الإبدال من كل أمة ﴿إلى كتابها﴾ إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس ، كقوله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه). ﴿اليوم تجزون﴾ محمول على القول . فإن قلت : كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عزّ وجل ؟ قلت : الإضافة تكون للملابسة ، وقد لابسهم ولابسه ، أما ملابسته إياهم ، فلأن أعمالهم مثبتة فيه . وأما ملابسته إياه ، فلأنه مالكه ، والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده ﴿ينطق عليكم﴾ يشهد عليكم بما عملتم ﴿بالحق﴾ من غير زيادة ولا نقصان ﴿إنا كنا نستنسخ﴾ الملائكة ﴿ما كنتم تعملون﴾ أى نستكتبهم أعمالكم ﴿فى رحمته﴾ فى جنته .وجواب أما محذوف تقديره : وأما الذين كفروا فيقال لهم ﴿أفلم تكن آياتى تتلى عليكم﴾ والمعنى ألم يأتكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه .

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَارَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَانَدْرِى مَاالسَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاعَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣)

وقرئ : والساعة ، بالنصب عطفا على الوعد ، وبالرفع عطفا على محل إن واسمها ﴿ماالساعة﴾ أىّ شيء الساعة ؟ فإن قلت : مامعنى (إن نظن إلا ظنا) ؟ قلت : أصله نظن ظنا. ومعناه : إثبات الظن فحسب . فأدخل حرفا النفى والاستثناء ، ليفاد إثبات الظن مع نفى ماسواه وزيد نفى ما سوى الظن توكيداً بقوله ﴿وما نحن بمستيقنين ... ... سيئات ما عملوا﴾ أى قبائح أعمالهم . أو عقوبات أعمالهم السيئات ، كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)

﴿ننساكم﴾ نترككم فى العذاب كما تركتم عدة ﴿لقاء يومكم هذا﴾ وهى الطاعة ، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسى غير المبالى به ، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال ، كالشيء الذى يطرح نسيا منسيا . فإن قلت : فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم ؟ قلت : كمعنى إضافة المكر فى قوله تعالى (بل مكر الليل والنهار) أى نسيتم لقاء الله فى يومكم هذا ولقاء جزائه .وقرئ : لايخرجون ، بفتح الياء .﴿ولاهم يستعتبون﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه .

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿فلله الحمد﴾ فاحمدوا الله الذي هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين، فان مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب، وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته ﴿في السموات والأرض﴾ وحق مثله أن يكبر ويعظم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب». (١)

سورة الأحقاف

مكية [إلا الآيات ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنية]

وآياتها ٣٤ وقيل ٣٥ آية [نزلت بعد الجاثية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقا ملتبسا بالحكمة والغرض الصحيح ﴿و﴾ بتقدير ﴿أجل مسمى﴾ ينتهي إليه وهو يوم القيامة ﴿والذين كفروا عما أنذروا﴾ من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه ﴿معرضون﴾ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له. ويجوز أن تكون ما مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَاتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

﴿بكتاب من قبل هذا﴾ أى من قبل هذا الكتاب وهو القرآن، يعنى: أنّ هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أو أثارة من علم﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين، من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من شحم، أى: على بقية شحم كانت بها من شحم ذاهب. وقرئ: أثرة، أى: من شىء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ: أثرة بالحركات الثلاث فى الهمزة مع سكون الثاء، فالإثرة بالكسر بمعنى الأثرة. وأما الأثرة فالمرّة من مصدر: أثر الحديث إذا رواه. وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر، كالخطبة: اسم ما يخطب به

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

﴿ومن أضل﴾ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام،[1] حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كلّ بغية ومرام، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة، وإذا قامت القيامة وحشر الناس: كانوا لهم أعداء، وكانوا عليهم ضدا، فليسوا فى الدارين إلا على نكد ومضرّة، لا تتولاهم فى الدنيا بالاستجابة؛ وفى الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم. وإنما قيل (من) و (هم) لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتميز جهلا وغباوة. ويجوز أن يريد: كلّ معبود من دون الله من الجن

(١) قال محمود: «استفهام معناه إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام ... الخ» قال أحمد: وفى قوله إلى يوم القيامة: نكتة حسنة، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها. لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية؛ لأنهم فى القيامة أيضا لا يستجيبون لهم، فالوجه والله أعلم: أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحداً لتفاوت ما بينهما كالشىء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التى جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التى فى القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادى ما تقدم آنفاً فى سورة الزخرف فى قوله (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون)

والإنس والأوثان ، فغلب غير الأوثان عليها . قرئ : ما لا يستجيب .وقرئ : يدعو غير الله من لا يستجيب ، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها . ونحوه قوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) .

وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

﴿بينات﴾ جمع بينة : وهى الحجة والشاهد . أو واضحات مبينات . واللام فى ﴿للحق﴾ مثلها فى قوله (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً) أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا .[1] والمراد بالحق : الآيات ، وبالذين كفروا : المتلو عليهم ، فوضع الظاهران موضع الضميرين ؛ للتسجيل عليهم بالكفر ، والمتلوّ بالحق ﴿لما جاءهم﴾ أى : بادهوه بالجحود ساعة أتاهم ، وأول ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر . ومن عنادهم وظلمهم : أنهم سموه سحراً مبيناً ظاهراً أمره فى البطلان لا شبهة فيه .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم : إن محمداً افتراه . ومعنى الهمزة فى أم : الإنكار والتعجيب ،كأنه قيل : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضى منه العجب ، وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على الله ، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة ، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا . والضمير للحق ، والمراد به الآيات ﴿قل إن افتريته﴾ على سبيل الفرض عاجلنى الله تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه . فلا تقدرون

(١) قال محمود : « اللام فى قوله تعالى للحق نحو اللام فى قوله (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقونا إليه) أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا ... الخ » قال أحمد : هذا الاضراب فى بابه مثل الغاية التى قدمتها آنفاً فى بابها فانه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين ، كالنفى والاثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر ، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر ، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ماهو أغرب منه .

على كفه عن معاجلتى ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنى ، فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه . يقال : فلان لا يملك إذا غضب ، ولا يملك عنانه إذا صمم ، ومثله (فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم) ، (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) ومنه قوله عليه السلام « لا أملك لكم من الله شيئا » [1] ثم قال ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أى تندفعون فيه من القدح فى وحى الله تعالى ، والطعن فى آياته ، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ﴿ كفى به شهيداً بينى وبينكم ﴾ يشهد لى بالصدق والبلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود . ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا ، وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم ما ارتكبوا . فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إليهم [2] فى قوله تعالى فلا تملكون لى ؟ قلت : كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم ، فكأنه قال لهم : إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة الله ، فما تغنون عنى أيها المنصوحون إن أخذنى الله بعقوبة الافتراء عليه .

قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾

البدع ، بمعنى : البديع ، كالخف بمعنى الخفيف . وقرئ : بدعا ، بفتح الدال ، أى : ذا بدع

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا النبى صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا . فعم وخص . فقال : يابنى كعب بن لؤى يابنى مرة بن كعب : يابنى عبد شمس يابنى عبدمناف ، يابنى هاشم ، يابنى عبدالمطلب ، إنى لا أملك لكم من الله شيئا ـ الحديث »

(٢) قال محمود : فان قلت : مامعنى إسناد الفعل إليهم ... الخ » قال أحمد : فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى فرضاً وتقديراً . ومتى فرض الافتراء لايتصور على تقديره نصح ، فان النصح عبارة عن الدعاء إلى مافيه نفع ، ولاينفع المكلف فى عمل ظاهر أو باطن إلا أن يكون مأموراً به من الله تعالى ، ولاسبيل الى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لاغير ، فاذاً لايتصور نصح مع الافتراء ، وإنما يتم هذا الذى قرره على قاعدة المعتزلة القائلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم الله تعالى ؛ لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالتوحيد مثلا وقال : إن الله حتم عليكم وجوب التوحيد ، وأنا رسول الله إليكم . ولم يكن متعوقا : فانه محق فى الأمر بالتوحيد ؛ لأن العقل دل على وجوبه عندهم ، وإن كان مفتريا فى دعوى كونه رسولا من الله عز وجل . وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة ، فيحتمل فى إجراء الآية على مذهب أهل السنة : أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشيء على مقابله بطريق المفهوم ، فالمعنى إذاً إن كنت مفتريا فالعقوبة واقعة بى لاتدفعونها عنى ، فمفهومه : وإن كنت محقا وأنتم مفترون فالعقوبة واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم . ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى (قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون) وأمثاله كثيرة والله أعلم .

ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ، ولحم زيم [١] : كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب ، فقيل له : ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل﴾ فآتيكم بكل ما تقترحونه ، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات ؛ فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم الله من آياته ، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم . ولقد أجاب موسى صلوات الله عليه عن قول فرعون : فما بال القرون الأولى ؟ بقوله : علمها عند ربى ﴿وما أدرى﴾ لأنه لا علم لى بالغيب ـ ما يفعل الله بى وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ، ويقدر لى ولكم من قضاياه ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ﴾ وعن الحسن : وما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا ، ومن الغالب منا والمغلوب . وعن الكلبى : قال له أصحابه ـ وقد ضجروا من أذى المشركين ـ : حتى متى نكون على هذا ؟ فقال : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لى ورأيتها ـ يعنى فى منامه ـ ذات نخيل وشجر ؟ وعن ابن عباس : ما يفعل بى ولا بكم فى الآخرة ، وقال : هى منسوخة بقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ويجوز أن يكون نفيا للدراية المفصلة [٢] . وقرئ : ما يفعل ، بفتح الياء ، أى : يفعل الله عز وجل . فإن قلت : إنّ (يفعل) مثبت غير منفى ، فكان وجه الكلام : ما يفعل بى وبكم . قلت : أجل ، ولكن النفى فى ما أدرى لما كان مشتملا عليه لتناوله (ما) وما فى حيزه : صح ذلك وحسن . ألا ترى إلى قوله (أولم يروا أنّ الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهنّ بقادر) كيف دخلت الباء فى حيز أنّ وذلك لتناول النفى إياها مع ما فى حيزها . و(ما) فى (ما يفعل) يجوز أن تكون موصولة منصوبة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة . وقرئ : يوحى ، أى الله عز وجل .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾

---

(١) قوله «ولحم زيم» فى الصحاح «اللحم الزيم» المتفرق ليس بمجتمع فى مكان فيبدن . وفيه أيضاً : بدن الرجل يبدن ، إذا ضخم وسمن . (ع)

(٢) قال محمود : «أجود ما ذكر فيه حمله على الدراية المفصلة ، يريد بذلك أن تفصيل ما يصير إليه من خير ويصيرون إليه من شر ... الخ» قال أحمد : «بنى على أن المجرور معطوف على مثله ، وأنهما جميعا فى صلة موصول واحد ، ولو قيل : إن المجرور الثانى من صلة موصول محذوف معطوف على مثله ، حتى يكون التقدير : وما أدرى ما يفعل بى ولا ما يفعل بكم : لكانت (لا) واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل ، وحذف الموصول المعطوف وتفاصيله كثيرة . ومنه

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

يريد حسان رضى الله عنه : فمن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يمدحه سواء .

جواب الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين . ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى (إن الله لايهدى القوم الظالمين) والشاهد من بنى إسرائيل : عبدالله بن سلام ، لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب . وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له : إنى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبيّ : ماأوّل أشراط الساعة ؟ وماأوّل طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام . [1] أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب . وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته . فقال : أشهد أنك رسول الله حقا ، ثم قال : يارسول الله ، إن اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى [2] عندك . فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أى رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يارسول الله وأحذر . قال سعد بن أبى وقاص ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام [3] ، وفيه نزل ﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله﴾ [4] الضمير للقرآن ، أى : على مثله فى المعنى ، وهو مافى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك . ويدل عليه قوله تعالى (وإنه لفى زبر الأوّلين) ، (إنّ هذا لفى الصحف الأولى) ، (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك) ويجوز أن يكون المعنى : إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك ، يعنى كونه من عند الله . فإن قلت : أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة [5] النظم . قلت : الواو الأولى عاطفة

---

(١) أخرجه البخارى من رواية حميد عن أنس ، وأتم منه» .

(٢) قوله «بهتونى» أى : رمونى بما ليس فىّ . (ع)

(٣) متفق عليه

(٤) عند البخارى وشك فى إدراجها . وروى الطبرى من رواية محمد بن يوسف بن عبدالله بن سلام قال قال عبدالله بن سلام «فىّ نزلت هذه الآية . ثم روى عن الشعبي أنه أنكر ذلك لكون السورة مكية . كذا أخرجه ابن أبى شيبة عن الشعبى .

(٥) قال محمود : «وإن قلت : أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف عليه من جهة النظم ... الخ» قال أحمد : إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة ؛ لأن التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفرادت كل منهما والآية من هذا النمط ، ومثلها قوله تعالى (ومايستوى الأعمى والبصير ولاالظلمات ولاالنور) وقوله (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الآية) ، وقد تقدم تقرير ذلك فى الآيتين فجدد به عهدا) .

لكفرتم على فعل الشرط ، كما عطفته (ثم) فى قوله تعالى (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به) وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد ، وأما الواو فى (وشهد شاهد) فقد عطفت جملة قوله . شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم : على جملة قوله (كان من عند الله وكفرتم به) ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأسأت ، وأقبلت عليك وأعرضت عنى ، لم نتفق فى أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما ، والمعنى : قل أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به ، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ، ألستم أضل الناس وأظلمهم ؟ وقد جعل الإيمان فى قوله (فآمن) مسببا عن الشهادة على مثله ؛ لأنه لما علم أن مثله أنزل على موسى صلوات الله عليه ، وأنه من جنس الوحى وليس من كلام البشر ، وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

﴿للذين آمنوا﴾ لأجلهم وهو كلام كفار مكة ، قالوا : عامة من يتبع محمدا السقاط ، يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، فلو كان ما جاء به خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء . وقيل : لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار : قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : لو كان خيرا ما سبقنا إليه رعاء البهم . وقيل : إن أمة لعمر أسلمت ، فكان عمر يضربها حتى يفتر ثم يقول لولا أنى فترت لزدتك ضربا ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان ما يدعو إليه محمد حقا ما سبقتنا إليه فلانة . وقيل : كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه . فإن قلت : لا بد من عامل فى الظرف [1] فى قوله ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ ومن متعلق لقوله ﴿فسيقولون﴾ وغير

(١) قال محمود : «ولا بد من عامل الظرف وغير مستقيم أن يعمل فيه ... الخ» قال أحمد : إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون فى الظرف ألا تنافى دلالتى المضى والاستقبال ، فهذا غير مانع ، فان الاستقبال ههنا إنما خرج مخرج الاشعار بدوام ما وقع ومضى ؛ لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا : هذا إفك قديم ، وأساطير الأولين

مستقيم أن يكون (فسيقولون) هو العامل فى الظرف ، لتدافع دلالتى المضى والاستقبال ، فما وجه هذا الكلام ؟ قلت : العامل فى إذ محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، كما حذف من قوله (فلما ذهبوا به) وقولهم : حينئذ الآن ، وتقديره : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، فسيقولون هذا إفك قديم ، فهذا المضمر صحّ به الكلام ، حيث انتصب به الظرف وكان قوله (فسيقولون) مسبباً عنه كما صحّ بإضمار أنّ قوله (حتى يقول الرسول) لمصادفة (حتى) مجرورها ، والمضارع ناصبه . وقولهم ﴿إفك قديم﴾ كقولهم : أساطير الأولين ﴿كتاب موسى﴾ مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبراً مقدما عليه ، وهو ناصب ﴿إماما﴾ على الحال ، كقولك : فى الدار زيد قائما . وقرئ : ومن قبله كتاب موسى ، على : وآتينا الذين قبله التوراة . ومعنى (إماما) : قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام ﴿ورحمة﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وهذا﴾ القرآن ﴿كتاب مصدّق﴾ لكتاب موسى . أو لما بين يديه وتقدّمه من جميع الكتب . وقرئ : مصدق لما بين يديه . و﴿لسانا عربياً﴾ حال من ضمير الكتاب فى مصدق، والعامل فيه (مصدق) ويجوز أن ينتصب حالا عن كتاب[1] لتخصصه بالصفة ، ويعمل فيه معنى الإشارة . وجوّز أن يكون مفعولا لمصدق، أى : يصدق ذا لسان عربى وهو الرسول . وقرئ : لينذر بالياء والتاء ، ولينذر : من نذر ينذر إذا حذر ﴿وبشرى﴾ فى محل النصب معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ

ـــــ وغير ذلك ؛ فمعنى الآية إذاً : وقالوا إذ لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك وأصروا عليه ، فعبر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال ، كما قال إبراهيم (إلا الذى فطرنى فانه سيهدين) وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها ، ثم دوامها فعبر بصيغة الاستقبال ، وهذا طريق الجمع بين قوله (سيهدين) وقوله فى الأخرى (فهو يهدين) ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذى ذكرته هو الوجه ، ولكن الفاء المسببة داعية بدخولها على محذوف هو السبب ، وقطعت الفعل عن الظرف المتقدم ؛ فوجب تقدير المحذوف عاملا فيه لينتظم بتقديره عاملا أمران : مصادفة الظرف للعامل والفعل المعلل لعلته ، فتعين ماذكره الزمخشرى لأجل الفاء لالتنافى الدلالتين . والله أعلم .

(١) أجاز محمود فى نصبه أن يكون حالا عن كتاب لتخصصه بالصفة ... الخ . قال أحمد : وجهان حسنان أعزهما بثالث : وهو النصب على الاختصاص ، وهذه الوجوه فى قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا) ، والله أعلم .

وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

قرئ: حسنا، بضم الحاء وسكون السين. وبضمهما. وبفتحهما. وإحسانا. وكرها، بالفتح والضم، وهما لغتان فى معنى المشقة، كالفقر والفقر. وانتصابه على الحال: أى: ذات كره. أو على أنه صفة للمصدر، أى: حملا ذا كره ﴿وحمله وفصاله﴾ ومدة حمله وفصاله ﴿ثلاثون شهرا﴾ وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل (حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) بقيت للحمل ستة أشهر. وقرئ: وفصله. والفصل والفصال: كالفطم والفطام، بناء ومعنى. فإن قلت: المراد بيان مدة الرضاع لا الفطام، فكيف عبر عنه بالفصال؟ قلت: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهى به ويتم: سمى فصالا، كما سمى المدة بالأمد من قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمْـــرِ وَمُودٍ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهْ (١)

وفيه فائدة وهى الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته. وقرئ: حتى إذا استوى وبلغ أشده. وبلوغ الأشد: أن يكتهل ويستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وتمييزه، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة: ثلاث وثلاثون سنة، ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد، وغايته الأربعين. وقيل: لم يبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. والمراد بالنعمة التى استوزع الشكر عليها: نعمة التوحيد والإسلام، وجمع بين شكرى النعمة عليه وعلى والديه، لأن النعمة عليهما نعمة عليه. وقيل فى العمل المرضى: هو الصلوات الخمس. فإن قلت: ما معنى (فى) فى قوله ﴿وأصلح لى فى ذريتى﴾؟ قلت: معناه: أن يجعل ذريته موقعا للصلاح[2] ومظنة له كأنه قال: هب لى الصلاح فى ذريتى وأوقعه فيهم ونحوه:

* يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي * (٣)

﴿من المسلمين﴾ من المخلصين. وقرئ: يتقبل، ويتجاوز، بفتح الياء، والضمير فيهما لله عز

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٧٧ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما معنى فى ههنا، وأجاب بأن المراد جعل ذريته ... الخ» قال أحمد: ومثله قوله تعالى (إلا المودة فى القربى) عدولا عن قوله: إلا مودة القربى. أو المودة للقربى، والله أعلم.

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٥٧٨ فراجعه إن شئت اه مصححه.

وجل. وقرئا بالنون. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿فى أصحاب الجنة﴾؟ قلت: هو نحو قولك: أكرمنى الأمير فى ناس من أصحابه، تريد: أكرمنى فى جملة من أكرم منهم، ونظمنى فى عدادهم، ومحله النصب على الحال، على معنى: كائنين فى أصحاب الجنة ومعدودين فيهم ﴿وعد الصدق﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله: يتقبل، ويتجاوز: وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز. وقيل: نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه وفى أبيه أبى قحافة وأمه أم الخير وفى أولاده، واستجابة دعائه فيهم. وقيل: لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبى بكر.

وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

﴿والذى قال لوالديه﴾ مبتدأ خبره: أولئك الذين حق عليهم القول. والمراد بالذى قال: الجنس القائل ذلك القول، ولذلك وقع الخبر مجموعا. وعن الحسن: هو فى الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث. وعن قتادة: هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه. وقيل: نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر[1] قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام، فأفف بهما وقال: ابعثوا لى جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو، وهما من أجداده حتى أسألهما

(١) قال محمود: «زعم بعضهم أن المعنى بالآية عبد الرحمن بن أبى بكر ... الخ» قال أحمد: ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبى بكر، ولكنا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه، فان له أن يقول: أراد عبد الرحمن وأمته، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) نخاطبها وخاطب أمتها، والمقصودة هي، وقد عاد إلى خطابها خصوصاً بقوله (واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن: ما ذكره الزمخشرى ثانيا فقال (إن الذين حق عليهم القول) هم المخلدون فى النار فى علم الله تعالى، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. ونقل أن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد فقال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم فقال مروان أيها الناس: إن هذا هو الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه...الآية) فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه فأنت فضض من لعنة الله» قال أحمد: وفى هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسى لا يعم؛ لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا فى الصفة ولا فى الخبر، فلا يجوز أن تقول: الدينار الصفر خير من الدرهم البيض، وهذا مردود بأن خبر الذى الواقع جنساً جاء على نعت خبر المجموع كما رأيت، والله أعلم.

عما يقول محمد، ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذى قال: جنس القائلين ذلك، وأنّ قوله الذين حق عليهم القول: هم أصحاب النار، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن: لقد جئتم بها هرقلية: تبايعون لأبنائكم، فقال مروان: يا أيها الناس، هو الذى قال الله فيه (والذى قال لوالديه أف لكما) فسمعت عائشة فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته[1] ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه، فأنت فضض من لعنة الله.[2] وقرئ: أف، بالكسر والفتح بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين. وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال: حس، علم منه أنه متوجع. واللام للبيان، معناه: هذا التأفيف لكما خاصة، ولأجلكما دون غيركما. وقرئ: أتعدانني: بنونين. وأتعدانى: بأحدهما. وأتعدانى: بالإدغام. وقد قرأ بعضهم: أتعدانَنى بفتح النون، كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء، ففتح الأولى تحريا للتخفيف، كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما ﴿أن أخرج﴾ أن ابعث وأخرج من الأرض. وقرئ: أخرج ﴿وقد خلت القرون من قبلى﴾ يعنى: ولم يبعث منهم أحد ﴿يستغيثان الله﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله ﴿ويلك﴾ دعاء عليه بالثبور: والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿فى أمم﴾ نحو قوله (فى أصحاب الجنة) وقرئ: أن، بالفتح. على معنى: آمن بأن وعد الله حق.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

﴿ولكل﴾ من الجنسين المذكورين ﴿درجات مما عملوا﴾ أى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، ومن أجل ما عملوا منهما.[3] فإن قلت: كيف قيل: درجات، وقد جاء: الجنة درجات والنار دركات؟ قلت: يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب، لاشتمال كل على الفريقين ﴿وليوفيهم﴾ وقرئ: بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه، كأنه قيل:

---

(١) أخرجه النسائى، واللفظ له وابن أبى خيثمة والحاكم وابن مردويه من رواية محمد بن زياد. وقال «لما بايع معاوية لابنه قال مروان: سنة أبى بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: سنة هرقل وقيصر قال مروان: هذا الذى أنزل ـ فذكر الآية فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب والله. ما هو به. فذكره. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان فى صلبه إلى آخره. ولفظ ابن أبى خيثمة «إن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم أن يبايع الناس ليزيد بن معاوية. فقال عبد الرحمن لقد جئتم بها هرقلية ـ إلى آخر لفظ المصنف. قلت: أصله فى البخارى من رواية يوسف بن ماهك عن عائشة دون ما فى آخره.

(٢) قوله «فأنت فضض من لعنة الله» فى الصحاح كل شىء تفرق فهو فضض. وفى الحديث: أنت فضض من لعنة الله، يعنى: ما انفض من نطفة الرجل وتردد فى صلبه. (ع)

(٣) قوله «ومن أجل ما عملوا منهما» لعله: أو من أجل. (ع)

وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم: قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

ناصب الظرف هو القول المضمر قبل ﴿أذهبتم﴾ وعرضهم على النار: تعذيبهم بها، من قولهم: عرض بنو فلان على السيف [1] إذا قتلوا به. ومنه قوله تعالى (النار يعرضون عليها) ويجوز أن يراد: عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون: عرض الحوض عليها فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس رضى الله عنه: يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها ﴿أذهبتم طيباتكم﴾ أى: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه فى دنياكم، وقد ذهبتم به وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شىء منها. وعن عمر رضى الله عنه: لو شئت لدعوت بصلائق وصناب [2] وكراكر وأسنمة، ولكنى رأيت الله تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال: أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا. [3] وعنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا، ولكنى أستبقى طيباتى: [4] وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعا، فقال: أأنتم اليوم خير أم يوم

---

(١) قال محمود: «عرضهم على النار إما من قولهم عرض بنو فلان على السيف ... الخ» قال أحمد: وإن كان قولهم: عرضت الناقة على الحوض مقلوباً، فليس قوله: يعرض الذين كفروا على النار مقلوباً؛ لأن الملجىء ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له، والناقة هى المدركة، فهى التى يعرض عليها الحوض حقيقة. وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدركة إدراك الحيوانات بل إدراك أولى العلم؛ فالأمر فى الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير، والله أعلم.

(٢) قوله «بصلائق وصناب» فى الصحاح: الصلائق: الخبز الرقاق. والصناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. والكركرة: رحى زور البعير: والزور: أعلى الصدر اه أخذا من مواضع. (ع)

(٣) أخرجه ابن المبارك فى الزهد أخبرنا جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول «قدم على أمير المؤمنين عمر وفد أهل البصرة مع أبى موسى الأشعرى قال لو كنا ندخل وأنه كل يوم خبز بيت. فذكر الحديث. وفيه «وأما والله ما أجهل من كراكر وأسنمة وصلا وصناب وقال جرير: الصلا هو الشواء والصناب الخردل، والصلائق الخبز الرقاق. ولكن سمعت الله عير أقواما بأمر فعلوه. فقال: (أذهبتم طيباتكم) الآية. وأخرجه أبو عبيدة فى الغريب. وابن سعد وأحمد فى الزهد. وأبو نعيم فى الحلية كلهم من طريق جرير به.

(٤) أخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال ذكر لنا عمر قال: فذكره.

يغدو أحدكم فى حلة ويروح فى أخرى ، ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ، ويستر بيته كما تستر الكعبة . قالوا : نحن يومئذ خير . قال. بل أنتم اليوم خير[1] وقرئ : أذهبتم بهمزة الاستفهام. وآ أذهبتم بألف بين همزتين : الهون. والهوان: وقرئ عذاب الهوان . وقرئ يفسقون بضم السين وكسرها.

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)

الأحقاف : جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشيء إذا اعوج ، وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن . وقيل : بين عمان ومهرة . و﴿النذر﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿من بين يديه﴾ من قبله ﴿ومن خلفه﴾ ومن بعده . وقرئ : من بين يديه ومن بعده . والمعنى : أنّ هوداً عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم : لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم العذاب ؛ وأعلمهم أنّ الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضى الله عنه : يعنى الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا فى زمانه . ومعنى (ومن خلفه) على هذا التفسير ومن بعد إنذاره ، هذا إذا علقت ، وقد خلت النذر بقوله : أنذر قومه ، ولك أن تجعل قوله تعالى (وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) اعتراضا بين أنذر قومه وبين ﴿ألا تعبدوا﴾ ويكون المعنى : واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم : وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ، فاذكرهم .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ (٢٢)

الإفك : الصرف . يقال أفكه عن رأيه ﴿عن آلهتنا﴾ عن عبادتها ﴿بما تعدنا﴾ من معاجلة العذاب على الشرك (إن كنت) صادقا فى وعدك .

قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَاأُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)

فإن قلت : من أين طابق قوله تعالى ﴿إنما العلم عند الله﴾ جوابا لقولهم (فأتنا بما تعدنا) ؟

---

(١) أخرجه الطبرى من رواية سعد عن قتادة قال : ذكر لنا . فذكره . ومن طريقه الشعبى . ورواه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أهل الصفة من طريق الحسن قال « حسب أضعاف المسلمين » فذكر نحوه مطولا وفى الترمذى من طريق محمد بن كعب القرظى : حدثنى من سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : بينا نحن جلوس فى المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه من النعمة . ثم قال : كيف بكم ... الحديث نحوه » .

قلت : من حيث إنّ قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب . ألا ترى إلى قوله تعالى (بل هو ما استعجلتم به) فقال لهم : لا علم عندى بالوقت الذى يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا ، إنما علم ذلك عند الله ، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه فى وقت عاجل تقترحونه أنتم ؟ ومعنى : ﴿وأبلغكم ما أرسلت به﴾ وقرئ بالتخفيف : أن الذى هو شأنى وشرطى: أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرضكم لسخط الله بجهدى ، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه .

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

﴿فلما رأوه﴾ فى الضمير وجهان : أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهماً قد وضح أمره بقوله ﴿عارضا﴾ إما تمييزاً وإما حالا . وهذا الوجه أعرب وأفصح . والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء . ومثله : الحبى والعنان ، من حبا وعنّ : إذا عرض . وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة : بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفاً للنكرة ﴿بل هو﴾ القول قبله مضمر ، والقائل : هود عليه السلام ، والدليل عليه قراءة من قرأ : قال هود، بل هو . وقرئ : قل بل ما استعجلتم به هى ريح ، أى قال الله تعالى : قل ﴿تدمر كل شيء﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير ، فعبر عن الكثرة بالكلية . وقرئ يدمر كل شيء من دمر دماراً إذا هلك ﴿لا ترى﴾ الخطاب للرائى من كان . وقرئ : لا يرى ، على البناء للمفعول بالياء والتاء ، وتأويل القراءة بالتاء وهى عن الحسن رضى الله عنه : لا ترى بقايا ولا أشياء منهم إلا مساكنهم . ومنه بيت ذى الرمة :

* وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ * (١)

وليست بالقوية . وقرئ : لاترى إلا مسكنهم ، ولا يرى إلا مسكنهم . وروى أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها فى الجو حتى ترى كأنها جرادة . وقيل : أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار . وروى : أوّل ما عرفوا به أنه عذاب : أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض ، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم : فقلعت الريح

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ١٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

الأبواب وصرعتهم ، وأمال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم كشفت الريح عنهم ، فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر . وروى أنّ هوداً لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : اعتزل هود ومن معه فى حظيرة مايصيبهم من الريح إلا ما يابن على الجلود وتلذه الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت [1] به ، وإذا رأى مخيلة : قام وقعد ، وجاء وذهب ، وتغير لونه ، فيقال له : يارسول الله ماتخاف ؟ فيقول : إنى أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا : « هذا عارض ممطرنا » . فإن قلت: مافائدة إضافة الرب إلى الريح؟ قلت : الدلالة على أن الريح وتصريفها أعنتها مما يشهد لعظم قدرته ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده . وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل : يعضد ذلك ويقويه .

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

﴿إن﴾ نافية ، أى : فيما ما مكنا كم فيه ، إلا أنّ (إن) أحسن فى اللفظ ؛ لما فيه مجامعة (ما) مثلها من التكرير المستبشع . ومثله مجتنب ، ألا ترى أن الأصل فى « مهما » : (ماما) فلبشاعة التكرير : قلبوا الألف هاء . ولقد أغث [2] أبو الطيب فى قوله :

* لَعَمْرُكَ ماما بَانَ مِنْكَ لِضَارِبِ * [3]

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال : لعمرك ما إن بان منك لضارب [4]

(١) أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والبزار وأبو يعلى والبخارى فى الأدب المفرد ، كلهم من رواية عطاء عن عائشة ، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب .

(٢) قوله « ولقد أغث أبو الطيب » فى الصحاح « أغث » : أى ردؤ وفسد ، تقول : أغث الرجل فى منطقه .(ع)

(٣) لعمرك ماما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

لأبى الطيب . يقول : وحياتك ليس الذى ظهر منك للضارب يعنى السنان ، أقتل : أى أسرع قتلا من الذى ظهر منك للعائب ، يعنى : اللسان ، بل هما سواء فى الحدة . ويجوز أنه استعار القتل للضرب تصريحاً .

(٤) قال أحمد : بيت المتنبى ليس كما أنشده ، وإنما هو كما يروى :

لعمرك إن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

وقد جعلت إن صلة ، مثلها فيما أنشده الأخفش :

يُرَجِّى الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ (١)

وتؤول بإنا مكناهم فى مثل ما مكناكم فيه : والوجه هو الأول ، ولقد جاء عليه غير آية فى القرآن (هم أحسن أثاثا ورئيا) ، (كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً) وهو أبلغ فى التوبيخ ، وأدخل فى الحث على الاعتبار ﴿من شىء﴾ أى من شىء من الإغناء ، وهو القليل منه . فإن قلت بم انتصب ﴿إذ كانوا يجحدون﴾ ؟ قلت : بقوله تعالى (فما أغنى) . فإن قلت : لم جرى مجرى التعليل ؟ قلت : لاستواء مؤدى التعليل والظرف فى قولك : ضربته لإساءته وضربته إذا أساء ؛ لأنك إذا ضربته فى وقت إساءته ؛ فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ؛ إلا أن «إذ» و«حيث» غلبتادون سائر الظروف فى ذلك .

ـــ ولايستقيم إلا كذلك لأن قبله : هو ابن رسول الله وابن صفيه وشبههما شبهت بعد التجارب من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوى ، ولوأتى أبو الطيب عوض «ما» بـ «إن» لجاء البيت :

يرى أن إن مابان منك لضارب

وهذا التكرار أثقل من تكرار «ما» بلا مراء . وإنما فنده الزمخشرى وألزمه استعمال «إن» عوض «ما» لاعتقاده أن البيت كما أنشده :

لعمرك ما مابان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب

ولوعوض «إن» عوض «ما» كما أصلحه الزمخشرى : لزم دخول الباء فى خبر «ما» وإنما تدخل الباء فى خبر «ما» الحجازية العاملة ، و«إن» لاتعمل عمل «ما» على الصحيح ، فلا يستقيم دخول الباء فى خبرها ، فما عدل المتنبى عن ذلك إلا لتعذره عليه من كل وجه . على أنى لا أبرىء المتنبى من التعجرف ، فانه كان مغرى به ، مغرما بالغريب من النظم . ونقل الزمخشرى فى الآية وجهاً آخر : وهو جعلها صلة مثلها فى قوله :

يرجى المرء ما إن لايراه وتعرض دون أدناه الخطوب

قال : ويكون معناه على هذا مكناهم فى مثل مامكناكم ... الخ» قلت : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى (وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وقوله (مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم) .

(١) فان أمسك فان العيش حلو إلى كأنه عسل مشوب
يرجي المرء ما إن لايراه وتعرض دون أدناه الخطوب
ومايدرى الحريص علام يلقى شراشره أيخطىء أم يصيب

لجابر بن رالان الطائى . وقيل : لاياس بن الأرت . والشراشر : جمع شرشر ، وهى أطراف الشىء المشرشرة ، أى : المفرقة المنشورة ، وتطلق على الجسد وعلى الثقل ويكنى بها عن النفس كما هنا . وقيل : هى حبال الصيد . يقول : إن أبخل فالعيش حلو عنده كحلاوة العسل الممزوج بالماء لتزول حرارته وضمن «حلو» معنى محبوب ، فعداه بالى . ثم قال : ولكن لاخير فى الامساك ؛ فان المرء يرتجى الأمر الغائب عنه . وتحول أهوال الموت أوشدائد الدهر بينه وبين أدنى شىء منه . وإن : زائدة بعد ماالموصولة حملا على ما النافية ، وما يدرى الذى وجه نفسه بكليتها للدنيا عواقب أمره ، أيربح أم يخسر ، وعلى أنها حبال الصيد ففى الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال من أخذ فى أسباب الأمر جاهلا عاقبته ؛ بحال من نصب الحبال للصيد ، فقد وقد .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧)

﴿ماحولكم﴾ يا أهل مكة ﴿من القرى﴾ من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرهما. والمراد: أهل القرى. ولذلك قال ﴿لعلهم يرجعون﴾

فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

القربان: ما تقرب به إلى الله تعالى، أي: اتخذوهم شفعاء متقربا بهم إلى الله، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وأحد مفعولى اتخذ الراجع إلى الذين[1] المحذوف[2]، والثانى: آلهة. وقربانا: حال ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى. وقرئ قربانا بضم الراء. والمعنى: فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم ﴿بل ضلوا عنهم﴾ أى غابوا عن نصرتهم ﴿وذلك﴾ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم، أى: وذلك أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء. وقرئ: إفكهم: والأفك والإفك: كالحذر والحذر. وقرئ: وذلك إفكهم، أى: وذلك الاتخاذ الذى هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق. وقرئ: أفكهم على التشديد للمبالغة. وآفكهم: جعلهم آفكين. وآفكهم، أى: قولهم الآفك ذو الإفك، كما تقول قول كاذب، وذلك إفك مما كانوا يفترون، أى: بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ

---

(١) قال محمود: «وأحد مفعولى اتخذ الراجع إلى الموصول محذوف ... الخ» قال أحمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الاعراب. ونحن نبينه فنقول: لو كان قربانا مفعولا ثانياً ومعناه متقربا بهم: لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ الله متقرباً به، لأن السيد إذا وبخ عبده وقال: اتخذت فلاناً سيداً دونى، فإنما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره، وليس هذا المقصد؛ فإن الله تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره؛ فإنما وقع التوبيخ على نسبة الالهية إلى غير الله تعالى، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثانى لاغير.

(٢) قوله «اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف» هو الذى أبرزه فى قوله: أى اتخذوهم. (ع)

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢)

﴿صرفنا إليك نفراً﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك. وقرئ: صرفنا بالتشديد؛ لأنهم جماعة. والنفر: دون العشرة. ويجمع أنفارا. وفى حديث أبى ذر رضى الله عنه: لو كان ههنا أحد من أنفارنا [١] ﴿فلما حضروه﴾ الضمير للقرآن. أى: فلما كان بمسمع منهم. أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وتعضده قراءة من قرأ (فلما قضى) أى أتم قراءته وفرغ منها ﴿قالوا﴾ قال بعضهم لبعض ﴿أنصتوا﴾ اسكتوا مستمعين. يقال: أنصت لكذا واستنصت له. روى أن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ماهذا إلا لنبإ حدث، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى: منهم زوبعة، فضربوا حتى بلغوا تهامة، ثم اندفعوا إلى وادى نخلة، فوافقوا [٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم فى جوف الليل يصلى أو فى صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف [٣]. وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه: ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم، وإنما كان يتلو فى صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم [٤]. وقيل: بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرا منهم جمعهم له فقال: إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى: قالها ثلاثا، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون فخط لى خطا وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت

---

(١) هذا طرف من قصة إسلام أبى ذر رضى الله عنه من رواية عبد الله بن الصامت عن أبى ذر ذكره مطولا. وفيه: فبينا أنا فى ليلة قمراء ختموانية وقد ضرب الله على أهل مكة فما يطوف غير امرأتين، فأتيا على فذكر القصة. وفيه ثم انطلقتا يولولان. ويقولان لو كان ههنا أحد من أنصارنا» أخرجه مسلم مطولا.

(٢) قوله «فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعله: فوافوا. (ع)

(٣) متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله. ودون قوله «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله «فى جوف الليل يصلى» ودون قوله «من نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره» وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية ذر عن ابن مسعود قال «هبطوا - يعنى الجن - على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا أنصتوا. وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله (وإذ صرفنا إليك - الآية) وقوله «نينوى» أخرجه الطبرى من رواية قتادة فى هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث».

(٤) متفق عليه من رواية سعيد بن جبير، وهو فى الذى قبله.

على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت شيئا؟ قلت: نعم رجالا سودا مستثفرى ثياب بيض[1]، فقال: أولئك جنّ نصيبين[2] وكانوا اثنى عشر ألفا، والسورة التي قرأها عليهم (اقرأ باسم ربك). فإن قلت: كيف قالوا ﴿من بعد موسى﴾؟ قلت: عن عطاء رضى الله عنه: أنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام، فلذلك قالت: من بعد موسى. فإن قلت: لم بعّض فى قوله ﴿من ذنوبكم﴾؟ قلت: لأن من الذنوب مالا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم[3] ونحوها. ونحوه قوله عزّ وجل (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم). فإن قلت: هل للجنّ ثواب كما للإنس؟ قلت: اختلف فيه فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، لقوله تعالى ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه الله. والصحيح أنهم فى حكم بنى آدم، لأنهم مكلفون مثلهم ﴿فليس بمعجز فى الأرض﴾ أى: لا ينجى منه مهرب، ولا يسبق قضاءه سابق. ونحوه قوله تعالى (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا).

---

(١) قوله «مستثفرى ثياب بيض» فى القاموس «الاستثفار»: أن يدخل إزاره بين فخذيه ملويا وإدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه اه (ع)

(٢) لم أجده بتمامه فى سياق واحد. بل وجدته مفرقا. فروى الطبرى من رواية قتادة ذكر لنا النبي صلى الله عليه وسلم قال «إنى أمرت أن أقرأ على الجن. فأيكم يتبعنى فأطرقوا ثلاثا إلا ابن مسعود فاتبعه حتى دخل شعبا يقال له شعب الحجون قال: وخط على ابن مسعود خطا. فذكر أى قوله حتى خفت عليه ـ وزاد فيه: فقلت ماهذا اللغط؟ فقال: اختصموا إلى فى جبل قضيت بينهم بالحق» وروى الحاكم والطبرانى والدارقطنى من طريق أبى عثمان ابن شيبة الخزاعى وكان رجلا من أهل الشام أنه سمع عبد الله بن مسعود يقول «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه وهو بمكة: من أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل. فلم يحضر منهم أحد غيرى. قال: فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا ثم أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام. فافتتح القرآن ـ الحديث» ولم يذكر قوله «رجالا سودا إلى آخره» وروى الطبرى من رواية عمرو بن غيلان الثقفى أنه سأل ابن مسعود فذكر القصة. وفيها فقال «رأيت شيئا؟ قلت: نعم. قد رأيت رجالا سودا مستشعرين بثياب بيض. فقال: أولئك جن نصيبين سألونى المتاع ـ فذكر الحديث» وليس فيه عددهم ولا اسم السورة. وروى ابن أبى حاتم من رواية عكرمة فى هذه الآية قال «كانوا من جن نصيبين جاؤا من جزيرة الموصل. وكانوا اثنى عشر ألفا. فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة.

(٣) قال محمود: «إنما بعض المغفرة لأن من الذنوب مالا يغفره الايمان كذنوب المظالم» قال أحمد: ليس ماأطلقه من أن الايمان لا يغفر المظالم بصحيح، لأن الحربى لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة ثم حسن إسلامه: جب الاسلام عنه إثم ماتقدم بلا إشكال. ويقال: إنه ماوعد المغفرة الكافر على تقدير الايمان فى كتاب الله تعالى إلا مبعضة، وهذا منه. فان لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافر قبض لا بسط، فلذلك لم يبسط رجاءه فى مغفرة جملة الذنوب. وقد ورد فى حق المؤمنين مثله كثيرا، والله أعلم.

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)

﴿بقادر﴾ محله الرفع ؛ لأنه خبر أن ، يدل عليه قراءة عبدالله : قادر ؛ وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي فى أول الآية على أن وما فى حيزها . وقال الزجاج : لوقلت : ماظننت أنّ زيدا بقائم : جاز ، كأنه قيل : أليس الله بقادر . ألا ترى إلى وقوع بلى مقرّرة للقدرة على كل شىء من البعث وغيره ، لا لرؤيتهم . وقرئ : يقدر . ويقال : عييت بالأمر ، إذا لم تعرف وجهه . ومنه (أفعيينا بالخلق الأوّل) .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)

﴿أليس هذا بالحق﴾ محكى بعد قول مضمر ، وهذا المضمر هو ناصب الظرف . وهذا إشارة إلى العذاب ، بدليل قوله تعالى (فذوقوا العذاب) والمعنى : التهكم بهم ، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده ، وقولهم (ومانحن بمعذبين) .

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَـٰسِقُونَ (٣٥)

﴿أولو العزم﴾ أولوا الجد والثبات والصبر . و﴿من﴾ يجوز أن تكون للتبعيض ، ويراد بأولى العزم : بعض الأنبياء . قيل : هم نوح ، صبر على أذى قومه : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح ولده ، وإسحق على الذبح ، ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضرّ ، وموسى قال له قومه : إنا لمدركون ، قال : كلا إنّ معى ربى سيهدين ، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها . وقال الله تعالى فى آدم (ولم نجد له عزما) وفى يونس (ولا تكن كصاحب الحوت) ويجوز أن تكون للبيان ، فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم ﴿ولا تستعجل﴾ لكفار قريش بالعذاب ، أى : لاتدع لهم بتعجيله ؛ فإنه نازل بهم لامحالة ، وإن تأخر ، وأنهم مستقصرون حينئذ مدّة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوها ﴿ساعة من نهار بلاغ﴾

أى هذا الذى وعظتم به كفاية فى الموعظة . أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام ﴿فهل يهلك﴾ إلا الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه . ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ : بلغ فهل يهلك : وقرئ : بلاغاً ، أى بلغوا بلاغا : وقرئ : يهلك ، بفتح الياء وكسر اللام وفتحها ، من هلك وهلك . ونهلك بالنون ﴿إلا القوم الفاسقون﴾ .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا »[1] .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

مدنية عند مجاهد . وقال الضحاك وسعيد بن جبير : مكية . وهى سورة القتال

وهى تسع وثلاثون آية . وقيل ثمان وثلاثون [نزلت بعد الحديد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾

﴿وصدّوا﴾ . وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام : أو صدوا غيرهم عنه . قال ابن عباس رضى الله عنه : هم المطعمون يوم بدر . وعن مقاتل : كانوا اثنى عشر رجلا من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر . وقيل : هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل فى الإسلام . وقيل : هو عامّ فى كل من كفر وصدّ ﴿أضلّ أعمالهم﴾ أبطلها وأحبطها . وحقيقته : جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها

---

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

ويثيب عليها، كالضالة من الإبل[1] التي هي بمضيعة لارب لها يحفظها ويعتنى بأمرها . أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها ، كما يضل الماء في اللبن . وأعمالهم : ماعملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم : من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار . وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصد عن سبيل الله : بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله

﴿والذين آمنوا﴾ قال مقاتل : هم ناس من قريش . وقيل : من الأنصار . وقيل : هم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هو عام . وقوله ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين ما يجب به الإيمان تعظيما لشأنه وتعليما ، لأنه لايصح الإيمان ولايتم إلا به . وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله ﴿وهو الحق من ربهم﴾ وقيل : معناها إن دين محمد هو الحق ، إذ لايرد عليه النسخ ، وهو ناسخ لغيره . وقرئ : نزل وأنزل ، على البناء للمفعول . ونزّل على البناء للفاعل ، ونزل بالتخفيف ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وأصلح بالهم﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

﴿ذلك﴾ مبتدأ ومابعده خبره ، أي : ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني : كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق . ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدإ محذوف ، أي : الأمر كما ذكر بهذا السبب ، فيكون محل الجار والمجرور منصوبا على هذا ، ومرفوعا على الأول و﴿الباطل﴾ مالاينتفع به . وعن مجاهد : الباطل الشيطان : وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ والضمير راجع إلى الناس ، أو إلى المذكورين من الفريقين ، على معنى : أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس

(١) قال محمود : «معناه جعلها كالضالة من الابل ... الخ» قال أحمد : هذا المعنى الثاني حسن متمكن ملء بمقابلة قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ثم قال (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي ، حتى صار صالحهم مستهلكا في غمار سيئهم ، ومقابله في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الايمان والطاعة ، حتى صار سيئهم مكفراً ممحقاً في جنب صالح أعمالهم ، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيء أعمال المؤمنين وقعت الاشارة بقوله تعالى (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) والله أعلم .

ليعتبروا بهم . فإن قلت : أين ضرب الأمثال ؟ قلت : فى أن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين . أو فى أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)

﴿لقيتم﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فضرب الرقاب﴾ أصله : فاضربوا الرقاب ضربا، فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافا إلى المفعول . وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التى فيه . وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، لأن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه وعلاوته ، وضرب ما فيه عيناه [1] إذا قتله ، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا فى قوله (بما كسبت أيديكم) على أن فى هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ، لما فيه [2] من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه . ولقد زاد فى هذه الغلظة فى قوله تعالى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) . ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ، من الشىء الثخين : وهو الغليظ . أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿فشدوا الوثاق﴾ فأسروهم . والوثاق بالفتح والكسر :ـ اسم ما يوثق به (منا) و (فداء) منصوبان بفعلهما مضمرين ، أى : فإما تمنون منا ، وإما تفدون فداء . والمعنى : التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم ، وبين أن يفادوهم . فإن قلت : كيف حكم أسارى المشركين ؟ قلت : أما عند أبى حنيفة وأصحابه فأحد أمرين : إما قتلهم وإما استرقاقهم : أيهما رأى الإمام ، ويقولون فى المن والفداء المذكورين فى الآية : نزل ذلك فى يوم بدر ثم نسخ . وعن مجاهد : ليس اليوم من ولا فداء ، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق . ويجوز أن يراد بالمن : أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا .

---

(١) قوله «وضرب ما فيه عيناه» لعله كناية عن رأسه أو عن وجهه . (ع)
(٢) قوله «لما فيه من تصوير القتل» لعله لما فيها . (ع)

أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية، وكونهم من أهل الذمّة. وبالفداء أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين، فقد رواه الطحاوى مذهبا عن أبى حنيفة، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره، خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين، وأما الشافعى فيقول: للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين، وهو: القتل، والاسترقاق[1]، والفداء بأسارى المسلمين، والمن. ويحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منّ على أبى عروة الحجبى[2]، وعلى ثمامة بن أثال الحنفى،[3] وفادى رجل برجلين من المشركين[4]: وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأى. وقرئ: فدى، بالقصر مع فتح الفاء. أوزار الحرب: آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع. قال الأعشى:

وَأَعْـدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا ... رِمَاحًا طِوَالاً وَخَيْلاً ذُكُورَا[5]

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكأنها وضعتها. وقيل: أوزارها آثامها، يعنى: حتى يترك أهل الحرب. هم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا. فإن قلت: (حتى) بم تعلقت؟ قلت: لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشد: أو بالمن والفداء، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعى رضى الله عنه: أنهم لا يزالون على ذلك أبدا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وعند أبى حنيفة رحمه الله: إذا علق بالضرب والشد: فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للشركين. وإذا علق بالمن والفداء، فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها

---

(١) قوله «وهو القتل والاسترقاق» لعله: وهي ... (ع)

(٢) هو مذكور فى المغازى لابن إسحق وغيره «وأنه أسر يوم بدر. فمن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير فداء. ثم أسره يوم أحد فقتله صبرا» ورواه الواقدى عن ابن أخى الزهرى عن عمه عن سعيد بن المسيب.

(٣) قوله «وعلى ثمامة بن أثال الحنفى» هو فى حديث أبى هريرة عند الشيخين مطولا

(٤) قوله «وفادى رجلا برجلين من المشركين»: هذا طرف من حديث أخرجه مسلم والترمذى وغيرهما من حديث عمران، ولكن فيه «أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسروا رجلا من بنى عقيل، وكانت ثقيف أسرت رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففداه النبي صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف» وروى البيهقى فى المعرفة عن الشافعى من هذا الوجه مثل لفظ الكتاب. ثم قال: أظنه من الكاتب، والصحيح الأول.

(٥) للأعشى، واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية، ويحتمل أنه شبه الحرب بمطايا ذات أوزار، أى: أحمال ثقال على طريق المكنية، وإثبات الأوزار تخييل، ورماحا: بدل.

إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذلك﴾ أى الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك ﴿لانتصر منهم﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك : من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب ، أو غرق . أو موت جارف ، ﴿ولكن﴾ أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين : أن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ماوجب لهم من العذاب . وقرئ : قتلوا ، بالتخفيف والتشديد : وقتلوا . وقاتلوا . وقرئ : فلن يضل أعمالهم ، وتضل أعمالهم : على البناء للمفعول . ويضل أعمالهم من ضل . وعن قتادة : أنها نزلت فى يوم أحد ﴿عرفها لهم﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة . قال مجاهد : يهتدى أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها . وعن مقاتل : إن الملك الذى وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله . أو طيبها لهم ، من العرف : وهو طيب الرائحة . وفى كلام بعضهم : عزف كنوح القمارى [1] ، وعرف كفوح القمارى . أو حددها لهم : فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها ، من : عرف الدار وارفها . والعرف والارف ، الحدود .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾

﴿إن تنصروا﴾ دين ﴿الله﴾ ورسوله ﴿ينصركم﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ فى مواطن الحرب أو على محجة الإسلام .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره ﴿فتعسا لهم﴾ كأنه قال : أتعس الذين كفروا . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وأضل أعمالهم﴾ ؟ قلت : على الفعل الذى نصب تعسا ؛ لأن المعنى فقال : تعسا لهم ، أو فقضى تعسا لهم . وتعسا له : نقيض «لعاله» قال الأعشى :

* فَالتَّعْسُ أَوْلَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ لَعَا * [2]

---

(١) قوله « عزف كنوح القمارى » العزف : الغناء . والقمارى : جمع قمرى ، اسم طير . والعود القمارى : منسوب إلى موضع ببلاد الهند . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغى الشيما
كلفت مجهولها نفسى وشايعنى همى عليها إذا ما آلها لمعا

يريد : فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يريد فى الدنيا القتل ، وفى الآخرة التردى فى النار ﴿ كرهوا ﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام ، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان فى الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾

دمره : أهلكه ، ودمر عليه : أهلك عليه ما يختص به . والمعنى : دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة ؛ لأن التدمير يدل عليها . أو للسنة ، لقوله عزّ وعلا (سنة الله فى الذين خلوا) .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

﴿ مولى الذين آمنوا ﴾ وليهم وناصرهم . وفى قراءة ابن مسعود : ولى الذين آمنوا . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات ، وفيه نزلت ، فنادى المشركون : اعل هبل : فنادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فنادى المشركون : يوم بيوم والحرب سجال ، إن لنا عزى ولا عزى لكم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففى النار يعذبون»[1] . فإن قلت : قوله تعالى (وردوا إلى الله مولاهم الحق) مناقض لهذه الآية . قلت : لا تناقض بينهما ، لأن الله مولى عباده جميعا على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم ؛ وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة .

= بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن يقال لعا

للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعتها بالسير . والمدلجة من دلج وأدلج ، وزن افتعل . وأدلج وزن أكرم : إذا سار ليلا . والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا ، حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسى سير المجهول منها ، وعاونتى عزمى على سيرها وقت لمعان آلها وهو السراب الذى يرى عند شدة الحر ، كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل ، ثم قال : مع ناقة صاحبة قوة . ويطلق اللوث على الضعف أيضا ، فهو من الأضداد . عفرناة : غليظة . ويقال للعاثر : لعالك : دعاء له بالانتعاش . وتعسا له : دعاء عليه بالسقوط ، يريد أنها لا تعثر ، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها .

(١) أخرجه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال ، ذكر لنا أن هذه الآية . يعنى (إن الله مولى الذين آمنوا) نزلت يوم أحد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب وقد فشت فيهم الجراحات . الخ ، سواء . وله شاهد فى البخارى من حديث البراء بن عازب .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

﴿يتمتعون﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ويأكلون﴾ غافلين غير مفكرين فى العاقبة ﴿كما تأكل الأنعام﴾ فى مسارحها ومعالفها، غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ﴿مثوى لهم﴾ منزل ومقام.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

وقرئ: وكائن، بوزن كاعن[1]. وأراد بالقرية أهلها، ولذلك قال ﴿أهلكناهم﴾ كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم. ومعنى أخرجوك: كانوا سبب خروجك. فإن قلت: كيف قال ﴿فلا ناصر لهم﴾؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت: مجراه مجرى الحال المحكية، كأنه قال أهلكناهم فهم لا ينصرون.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

من زين له: هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله، ومن كان على بينة من ربه أى على حجة من عنده وبرهان: وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقرئ: أمن كان على بينة من ربه. وقال تعالى ﴿سوء عمله واتبعوا﴾ للحمل على لفظ (من) ومعناه.

مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

---

(١) قوله «وكائن بوزن كاعن» فى الصحاح «كائن»: معناها معنى كم فى الخبر والاستفهام، وفيها لغتان: كأين. مثال كعين وكائن: مثال كاعن اه. (ع)

فإن قلت : مامعنى قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار ﴾ كمن هو خالد فى النار ؟ قلت : هو كلام فى صورة الإثبات ومعنى النفى والإنكار[1] ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، ودخوله فى حيزه ، وانخراطه فى سلكه ، وهو قوله تعالى (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله) فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار ، أى كمثل جزاء من هو خالد فى النار . فإن قلت : فلم عرى فى حرف الإنكار ؟ وما فائدة التعرية ؟ قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم . ونظيره قول القائل :

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذُودًا شَصَائِصًا نَبَلاَ[2]

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود ، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال : أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله ، والذى طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزن به[3] فكأنه قال له : نعم مثلى يفرح بمرزأة الكرام وبأن يستبدل منهم ذوداً يقل طائله[4] ، وهو من التسليم الذى تحته كل إنكار ، ومثل الجنة : صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ ، وخبره . كمن هو خالد . وقوله : فيها أنهار ، داخل فى حكم الصلة كالتكرير لها . ألا ترى إلى صحة قولك : التي فيها أنهار . ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف هى فيها[5]

---

(١) قال محمود : «هو كلام فى صورة الاثبات ومعناه النفى ... الخ» قال أحمد : كم ذكر الناس فى تأويل هذه الآية ، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها ، لا يعوزها إلا التنبيه على أن فى الكلام محذوفا لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين فى النار إلا على تقدير مثل ما كن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه . ومن هذا النمط قوله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله) فانه لابد من تقدير محذوف مع الأول أو الثانى ، ليتعادل القسمان . وبهذا الذى قدرته فى الآية ينطبق آخر الكلام على أوله ، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالبينة والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم فى الجنة والمعذب فى النار على الصفات المتقابلة المذكورة فى الجهتين . وهو من وادى تنظير الشيء بنفسه ، باعتبار حالتين إحداهما أوضح فى البيان من الأخرى : فان المتمسك بالسنة هو المنعم فى الجنة الموصوفة . والمتبع للهوى : هو المعذب فى النار المنعوتة ، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا ، وأوضح ذلك بانكار التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا ، وأوضح ذلك بانكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانيا .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٢٦٤ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «ما أزن» أى اتهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله «يقل طائله» لأن الشصائص قليلات اللبن . والنبل : الكبار من الابل ، والصغار منها أيضا ، فهو من الأضداد . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) قوله «هى فيها» لعله : أى هي فيها . (ع)

أنهار ، وكأن قائلا قال : ومامثلها ؟ فقيل : فيها أنهار ، وأن يكون فى موضع الحال ، أى : مستقرة فيها أنهار ، وفى قراءة على رضى الله عنه : أمثال الجنة ، أى : ماصفاتها كصفات النار . وقرئ: أسن . يقال : أسن الماء وأجن : إذا تغير طعمه وريحه . وأنشد ليزيد بن معاوية :

لَقَدْ سَقَتْنِي رُضَابًا غَيْرَ ذِي اسَنٍ كَالْمِسْكِ فُتَّ عَلَى مَاءِ الْعَنَاقِيدِ [1]

﴿من لبن لم يتغير طعمه﴾ كما تتغير ألبان الدنيا ، فلا يعود قارصاً ولا حاذراً[2] . ولا مايكره من الطعوم ﴿لذة﴾ تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ ، أو وصف بمصدر . وقرئ بالحركات الثلاث ، فالجر على صفة الخمر ، والرفع على صفة الأنهار ، والنصب على العلة ، أى : لأجل لذة الشاربين . والمعنى : ما هو إلا التلذذ الخالص ، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر ﴿مصفى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ماء حميا﴾ قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم ، وانمازت فروة رءوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾

هم المنافقون : كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالا تهاوناً منهم ، فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ، ماذا قال الساعة ؟ على جهة الاستهزاء . وقيل : كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء . وقيل : قالوه لعبدالله بن مسعود . وعن ابن عباس : أنا منهم ، وقد سميت فيمن سئل ﴿آنفا﴾ وقرئ : أنفا على فعل ، نصب على الظرف[3] قال الزجاج : هو من استأنفت الشىء : إذا ابتدأته . والمعنى : ماذا قال فى أوّل وقت يقرب منا .

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾

﴿زادهم﴾ الله ﴿هدى﴾ بالتوفيق ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أعانهم عليها . أو آتاهم جزاء تقواهم .

---

(١) ليزيد بن معاوية . وترضب الرجل ريق المرأة : إذا ترشفه . وأسن أسنا كتعب تعبا : تغير طعمه أو ريحه أو لونه . لطول مدته . يقول : سقتنى ريقها الذى لم يتغير . وماء العناقيد : كناية عن الخمر ، واستعاره لريقها على التصريحية ، وناولتنى المسك حال كونه تفتت على ريقها الشبيه بالخمر ، أى : كأنه كذلك لطيبه . ويروى : كالمسك وهى الظاهرة ، والتشبيه من قبيل تشبيه المفرد بالمركب ، لأنه لايريد تشبيه الرضاب بالمسك فقط .

(٢) قوله «ولا حاذراً ولا مايكره» لعله محذوف ، وأصله : حازر بالزاى ، وفى الصحاح : الحاذر : اللبن الحامض

(٣) قوله «وقرئ أنفا على فعل نصب على الظرف» لعله : بالضم . (ع)

وعن السدى : بين لهم ما يتقون . وقرئ : وأعطاهم . وقيل : الضمير فى زادهم ، لقول الرسول أو لاستهزاء المنافقين .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)

﴿أن تأتيهم﴾ بدل اشتمال من الساعة ، نحو : أن تطؤهم من قوله (رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) وقرئ : أن تأتهم ، بالوقف على الساعة واستئناف الشرط ، وهى فى مصاحف أهل مكة كذلك : فإن قلت : فما جزاء الشرط ؟ قلت : قوله فأنى لهم . ومعناه : إن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم ، أى تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة ، يعنى لا تنفعهم الذكرى حينئذ ، كقوله تعالى (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) . فإن قلت : بم يتصل قوله ﴿فقد جاء أشراطها﴾ على القراءتين ؟ قلت : بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول ، كقولك : إن أكرمنى زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه . والأشراط : العلامات . قال أبو الأسود :

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ بِالصَّرْمِ بَيْنَنَا ... فَقَدْ جَعَلَتْ أَشْرَاطُ أَوَّلِهِ تَبْدُو [1]

وقيل : مبعث محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم وعليهم منها ، وانشقاق القمر ، والدخان . وعن الكلبى : كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام . وقرئ : بغتة بوزن جربة[2] ، وهى غريبة لم ترد فى المصادر أختها ، وهى مروية عن أبى عمرو ، وما أخوفنى أن تكون غلطة من الراوى على أبى عمرو ، وأن يكون الصواب : بغتة ، بفتح الغين من غير تشديد ، كقراءة الحسن فيما تقدم .

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)

لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله ، وعلى التواضع وهضم النفس :

---

(١) لأبى الأسود . يقول : إن كنت جزمت بقطع المودة بيننا فلا تكتميه ؛ لأن علامات ابتدائه شرعت فى الظهور .

(٢) قوله «بغتة بوزن جربة وهى غريبة» فى القاموس «الجربة» محركة مشددة : جماعة الحمر . وفى الصحاح «الجربة» بالفتح : بغتة ، وتشديد الباء : العانة من الحمير . وفيه أيضا «العانة» القطيع من حمر الوحش . (ع)

باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك . والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم فى معايشكم ومتاجركم ، ويعلم حيث تستقرون فى منازلكم أو متقلبكم فى حياتكم ومثواكم فى القبور . أو متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار . ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى ، وأن يستغفر ويسترحم . وعن سفيان بن عيينة : أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) فأمر بالعمل بعد العلم وقال : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو) إلى قوله (سابقوا إلى مغفرة من ربكم) وقال: (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) ثم قال بعد (فاحذروهم) وقال : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) ثم أمر بالعمل بعد.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١)

كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون ﴿لولا نزلت سورة﴾ فى معنى الجهاد ﴿فإذا أنزلت﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا[1] وشق عليهم ، وسقطوا فى أيديهم . كقوله تعالى (فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس) . ﴿محكمة﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال . وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين . وقيل لها ، محكمة ، لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة . وقيل : هى المحدثة ؛ لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ، ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة . وفى قراءة عبد الله : سورة محدثة . وقرئ : فإذا نزلت سورة وذكر فيها القتال : على البناء للفاعل ونصب القتال ﴿الذين فى قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتى الأقدام ﴿نظر المغشى عليه من الموت﴾ أى تشخص أبصارهم جبنا وهلعاً وغيظاً ، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فأولى لهم﴾ وعيد بمعنى : فويل لهم . وهو أفعل : من الولى وهو القرب . ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ﴿طاعة وقول معروف﴾ كلام مستأنف ، أى : طاعة وقول معروف خير لهم . وقيل : هى حكاية قولهم ، أى قالوا طاعة وقول معروف ،

---

(١) قوله « كاعوا » فى الصحاح : كاع الكلب يكوع ، أى : مشى على كوعه فى الرمل من شدة الحر . (ع)

بمعنى : أمرنا طاعة وقول معروف . وتشهد له قراءة أبىّ : يقولون طاعة وقول معروف ﴿فإذا عزم الأمر﴾ أى جدّ . والعزم والجد لأصحاب الأمر . وإنما يسندان إلى الأمر إسناداً مجازياً . ومنه قوله تعالى (إن ذلك لمن عزم الأمور) . ﴿فلوصدقوا الله﴾ فيما زعموا من الحرص على الجهاد . أو : فلوصدقوا فى إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)

عسيت وعسيتم : لغة أهل الحجاز . وأما بنو تميم فيقولون : عسى أن تفعل ، وعسى أن تفعلوا ، ولا يلحقون الضمائر : وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب ، وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ؛ ليكون أبلغ فى التوكيد . فإن قلت : ما معنى : فهل عسيتم ... أن تفسدوا فى الأرض ؟ قلت : معناه : هل يتوقع منكم الإفساد ؟ فإن قلت : فكيف يصح هذا فى كلام الله عزوعلا وهو عالم بما كان ومايكون ؟ قلت : معناه إنكم ـ لما عهد منكم ـ أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم فى الإيمان : يا هؤلاء ، ماترون ؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل ﴿أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا ؟ وقيل : إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض : بالتغاور والتناهب ، وقطع الأرحام : بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً ووأد البنات ؟ وقرئ : وليتم[١] . وفى قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه : توليتم ، أى : إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم ؟ وقرئ : وتقطعوا ، وتقطعوا ، من التقطيع والتقطع ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿لعنهم الله﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام ، فمنعهم ألطافه وخذلهم ، حتى صموا عن استماع الموعظة ، وعموا عن إبصار طريق الهدى . ويجوز أن يريد بالذين آمنوا : المؤمنين الخلص الثابتين ، وأنهم يتشوفون إلى الوحى إذا أبطأ عليهم ، فإذا أنزلت سورة فى معنى الجهاد : رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)

---

(١) قوله « وقرئ وليتم » لعله بالبناء للمجهول ، وكذا توليتم فى قراءة على . (ع)

(أفلا يتدبرون القرآن) ويتصفحونه ومافيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة ، حتى لايجسروا على المعاصى ، ثم قال (أم على قلوب أقفالها) وأم بمعنى بل وهمزة التقرير ، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لايتوصل إليها ذكر . وعن قتادة : إذاً والله يجدوا فى القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبروه ، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا . فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟ قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك . أو يراد على بعض القلوب : وهى قلوب المنافقين . وأما إضافة الأقفال ؛ فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح . وقرئ : إقفالها ، على المصدر .

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)

(الشيطان سوّل لهم) جملة من مبتدإ وخبر وقعت خبراً لإنّ ، كقولك : إنّ زيداً عمرو مرّ به . سوّل لهم : سهل لهم ركوب العظائم ، من السول وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لاعلم له بالتصريف والاشتقاق جميعا[1] (وأملى لهم) ومدّ لهم فى الآمال والأمانى . وقرئ وأملى لهم ، يعنى : إنّ الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم ، كقوله تعالى (إنما نملى لهم) وقرئ : وأملى لهم على البناء للمفعول ، أى : أمهلوا ومدّ فى عمرهم . وقرئ : سوّل لهم[2] ، ومعناه : كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف . فإن قلت : من هؤلاء ؟ قلت : اليهود كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهو نعته فى التوراة . وقيل : هم المنافقون . الذين قالوا القائلون : اليهود . والذين كرهوا مانزل الله : المنافقون . وقيل عكسه ، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير : لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم . وقيل (بعض الأمر) : التكذيب برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بلا إله إلا الله ، أو ترك القتال معه . وقيل : هو قول أحد الفريقين

---

(١) قال محمود : « هو مشتق من السول وهو الاسترخاء ، أى : سهل لهم ركوب العظائم . قال : وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا » قلت : لأن السؤل مهموز ، وسول معتل .

(٢) قوله « وقرئ سول لهم » لعله بالبناء للمجهول . (ع)

للمشركين : سنطيعكم فى التظافر على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الجهاد معه . ومعنى ﴿فى بعض الأمر﴾ فى بعض ما تأمرون به . أو فى بعض الأمر الذى يهمكم ﴿والله يعلم أسرارهم﴾ وقرئ : إسرارهم على المصدر ، قالوا ذلك سراً فيما بينهم ، فأفشاه الله عليهم . فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ ؟ وقرئ : توفاهم ، ويحتمل أن يكون ماضياً ، ومضارعا قد حذفت إحدى تاءيه ، كقوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة فى وجهه ودبره ﴿ذلك﴾ إشارة إلى التوفى الموصوف ﴿ما أسخط الله﴾ من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . و﴿رضوانه﴾ : الإيمان برسول الله .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)

﴿أضغانهم﴾ أحقادهم وإخراجها : إبرازها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم ، وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم ﴿لأريناكهم﴾ لعرفناكهم ودللناك عليهم . حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم : وهو أن يسمعهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها . وعن أنس رضى الله عنه : ماخفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من المنافقين : كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس ، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب : هذا منافق[1] . فإن قلت : أى فرق بين اللامين فى (فلعرفتهم) و (لتعرفنهم) ؟ قلت : الأولى هى الداخلة فى جواب «لو» كالتى فى (لأريناكهم) كررت فى المعطوف ، وأما اللام فى (ولتعرفنهم) فواقعة مع النون فى جواب قسم محذوف ﴿فى لحن القول﴾ فى نحوه وأسلوبه . وعن ابن عباس : هو قولهم : مالنا إن أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون : ماعلينا إن عصينا من العقاب . وقيل : اللحن : أن تلحن بكلامك ، أى : تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية . قال :

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْما تَفْقَهُوا   وَاللَّحْنُ يَعْرِفُهُ ذَوُو الأَلْبَابِ[2]

---

(١) ذكره الثعلبى بغير سند ، ولم أجده .

(٢) اللحن : العدول بالكلام عن الظاهر ، كالتعريض والتورية ، والمخطىء لاحن ، لعدوله عن الصواب =

وقيل للمخطئ : لاحن ؛ لأنه يعدل بالكلام عن الصواب .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

﴿أخباركم﴾ ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ، ليعلم حسنها من قبيحها ؛ لأن الخبر على حسب المخبر عنه : إن حسنا فحسن ، وإن قبيحا فقبيح ، وقرأ يعقوب : ونبلو ، بسكون الواو على معنى : ونحن نبلو أخباركم . وقرئ : وليبلونكم ويعلم ، ويبلو بالياء . وعن الفضيل : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبلنا ، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب ؛ لأنها مع كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم باطلة ، وهم قريظة والنضير . أو سيحبط أعمالهم التي عملوها ، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول ، أي : سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم ، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم . وقيل هم رؤساء قريش ، والمطعمون يوم بدر .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر [1] ، كقوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى أن قال (أن تحبط أعمالكم) وعن أبي العالية : كان أصحاب

= أي : لكي تفهموا دون غيركم ، فان اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم . والألباب : العقول اه .

(١) قال محمود : «ومعناه : لا تحبطوا الطاعات بالكبائر ... الخ» قال أحمد : قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة ؛ لأن الله (لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) نعم يقولون : إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جل وعلا . وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زبد البحر ، لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار ، وسلب سمة الايمان عنه ، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه ؛ فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده ، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل ؛ لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعاً بأدلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها ، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل ، فان كان نصاً لا يقبل التأويل فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه ، والتوريك بالغلط على النقلة ، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله ، وأما محل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الاخلال بشرط من شروط العمل وبركن يقتضي إبطاله من أصله ، لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك [١] عمل ، حتى نزلت (ولا تبطلوا أعمالكم) فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم . وعن حذيفة : فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم . وعن ابن عمر : كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا ، حتى نزل (ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات [٢] والفواحش ، حتى نزل (إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فكففنا عن القول فى ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها [٣] . وعن قتادة رحمه الله : رحم الله عبداً لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء . وقيل : لا تبطلوها بمعصيتهما . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا تبطلوها بالرياء والسمعة ، وعنه : بالشك والنفاق : وقيل : بالعجب ؛ فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . وقيل : ولا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤)

﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ قيل : هم أصحاب القليب ، والظاهر العموم .

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)

﴿فلا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدوّ ﴿و﴾ لا ﴿تدعوا إلى السلم﴾ وقرئ : السلم وهما المسالمة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أى الأغلبون الأقهرون ﴿والله معكم﴾ أى ناصركم . وعن قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة . وقرئ : ولا تدّعوا ، من ادّعى القوم وتداعوا : إذا دعوا . نحو قولك : ارتموا الصيد وتراموه . وتدعوا : مجزوم لدخوله

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزى فى كتاب قدر الصلاة له . قال حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس بهذا وزاد : فنزلت (ولا تبطلوا أعمالكم) وفى الكتاب حديث مرفوع . أخرجه إسحاق وأبو يعلى وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود . قال أبو نعيم : تفرد به يحيى بن يمان عن سفيان اه . ويحيى ضعيف . وفيه عن عمر أيضاً أخرجه العقيلى . وابن عدى من رواية حجاج بن نصير عن منذر بن زياد وهما ضعيفان .

(٢) قوله « فقلنا الكبائر الموجبات » عبارة الخازن : الكبائر والفواحش . (ع)

(٣) أخرجه ابن مردويه . من طريق عبد الله بن المبارك عن بكير بن معروف . عن مقاتل بن حيان . عن نافع . عن ابن عمر بهذا . وأخرجه محمد بن نصر أيضاً . من هذا الوجه .

فى حكم النهى. أو منصوب لإضمار إن. ونحو قوله تعالى (وأنتم الأعلون): قوله تعالى (إنك أنت الأعلى). ﴿ولن يتركم﴾ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم، أو حربته، وحقيقته: أفردته من قريبه أو ماله، من الوتر وهو الفرد؛ فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر، وهو من فصيح الكلام. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله»[1] أى أفرد عنهما قتلا ونهباً.

إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾

﴿يؤتكم أجوركم﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ولا يسألكم﴾ أى ولا يسألكم جميعها، إنما يقتصر منكم على ربع العشر، ثم قال ﴿إن يسئلكموها فيحفكم﴾ أى يجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شيء، يقال: أحفاه فى المسئلة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح. وأحفى شاربه: إذا استأصله ﴿تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أى تضطغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]، وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، والضمير فى (يخرج) لله عز وجل، أى يضغنكم بطلب أموالكم. أو للبخل؛ لأنه سبب الاضطغان. وقرئ: نخرج. بالنون. ويخرج، بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم ﴿هؤلاء﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿تدعون﴾ أى أنتم الذين تدعون. أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون، ثم استأنف وصفهم، كأنهم قالوا: وما وصفنا؟ فقيل: تدعون ﴿لتنفقوا فى سبيل الله﴾ قيل: هى النفقة فى الغزو. وقيل: الزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر، فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال ﴿ومن يبخل﴾ بالصدقة وأداء الفريضة. فلا يتعداه ضرر بخله، وإنما ﴿يبخل عن نفسه﴾ يقال بخلت عليه وعنه، وكذلك

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) قوله «أى تضطغنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم» فى الصحاح: «الضغن، الحقد. وتضاغن القوم واضطغنوا: انطووا على الأحقاد». (ع)

ضننت عليه وعنه. ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو اليه لحاجته إليه، فهو الغنى الذى تستحيل عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وإن تتولوا﴾ معطوف على: وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يستبدل قوما غيركم﴾ يخلق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين فى الإيمان والتقوى، غير متولين عنهما، كقوله تعالى (ويأت بخلق جديد) وقيل: هم الملائكة. وقيل: الأنصار. وعن ابن عباس: كندة والنخع. وعن الحسن: العجم وعن عكرمة: فارس والروم. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القوم وكان سلمان إلى جنبه، فضرب على فخذه وقال: «هذا وقومه، والذى نفسى بيده، لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس»[1].

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة محمد صلى الله عليه وسلم كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة»[2]

سورة الفتح

مدنية [نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية]

وآياتها ٢٩ [نزلت بعد الجمعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)

هو فتح مكة، وقد نزلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له

(١) أخرجه الترمذى وابن حبان والحاكم. والطبرى وابن أبى حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبى هريرة وله طرق عنه وعن غيره.

(٢) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى. بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.

بالفتح ، وجىء به على لفظ الماضى على عادة رب العزة سبحانه فى أخباره ؛ لأنها فى تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر[1] مالا يخفى .[2] فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة : وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوك ، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل . ويجوز أن يكون فتح مكة ـ من حيث إنه جهاد للعدو ـ سبباً للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب ، لأنه منغلق ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل فى اليد فقد فتح . وقيل : هو فتح الحديبية ، ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم . وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح . فإن قلت : كيف يكون فتحا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية ؟ قلت : كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحا مبينا . وعن موسى بن عقبة : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية راجعا ، فقال رجل من أصحابه : ما هذا بفتح ، لقد صدّونا عن البيت وصد هدينا ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ،[3] ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا »[4] وعن الشعبي : نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة ما لم يصب فى غزوة أصاب : أن بويع بيعة الرضوان ، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على فارس ؛ وبلغ الهدى محله ، وأطعموا نخل خيبر ، وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة . وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها ، فدرت بالماء حتى

---

(١) قوله «علو شأن المخبر» لعله : المخبر به . وعبارة النسفى : المخبر عنه . (ع)

(٢) قال محمود : «جاء الاخبار بالفتح على لفظ الماضى وإن لم يقع بعد ؛ لأن المراد فتح مكة ، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح ، وذلك على عادة رب العزة فى أخباره ؛ لأنها كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة ، وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر مالا يخفى» قال أحمد : ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة .

(٣) قوله «عن بلادهم بالراح» فى الصحاح «الراح» : الخمر . والراح : جمع راحة وهى الكف . والراح : الارتياح اه والظاهر هنا الثالث . (ع)

(٤) هكذا هو فى مغازى موسى بن عقبة عن الزهرى وأخرجه البيهقى فى الدلائل من طريقه ومن طريق أبى الأسود عن عروة أيضا نحوه مطولا

شرب جميع من كان معه . وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها [1] بعد ـ وقيل : هو فتح خيبر ، وقيل : فتح الروم . وقيل : فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه . وقيل : معناه قضينا لك قضاء بيناً على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل ؛ لتطوفوا بالبيت : من الفتاحة وهى الحكومة ، وكذا عن قتادة ﴿ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ يريد : جميع ما فرط منك . وعن مقاتل : ما تقدم فى الجاهلية وما بعدها . وقيل : ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ﴿نصراً عزيزاً﴾ فيه عز ومنعة ـ أو وصف بصفة المنصور إسناداً مجازيا أو عزيزاً صاحبه .

هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَـٰنًا مَعَ إِيمَـٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزًا عَظِيماً ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَـٰفِقِينَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَـٰتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً ﴿٧﴾

﴿السكينة﴾ السكون كالبهيتة للبهتان ، أى : أنزل الله فى قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب

(١) متفق عليه . من حديث البراء مطولا باللفظ الأول . ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع . قال «قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لاترويها . فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنب الركية فاما دعا وإما بصق ، قال فجاشت . فسقينا واستقينا . وعند البخارى فى الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء . فلم يلبث الناس أن نزحوه . وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه . فوالله مازال يجيش لهم بالرى» ولا مخالفة فى هذا لحديث البراء . لما رواه الواقدى من طريق عطاء بن أبى مروان . عن أبيه . حدثنى أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة . أن ناجية بن الأعجم . قال «دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم . حين شكى إليه من قلة الماء فدفع إلى سهما من كنانته وأمر بدلو من مائها . فمضمض فاه منه ثم مجه فى الدلو . وقال لى : انزل الماء فصبه فى البئر وفتحت الماء بالسهم . ففعلت . فوالذى بعثه بالحق . ما كدت أخرج حتى كاد يغمرنى» . وروى أيضاً من حديث قتادة . قال : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل . فنزل بالسهم وتوضأ . ومج فاه منه ، ثم رده فى البئر : جاشت بالرواء .

الصلح والأمن ، ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة غب القتال ، فيزدادوا يقينا إلى يقينهم ، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ﴿ليزدادوا إيمانا﴾ بالشرائع مقرونا إلى إيمانهم وهو التوحيد . عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أوّل ما أتاهم به النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد ، فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج ، ثم الجهاد ، فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم . أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عزّ وجل ولرسوله ، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم . وقيل : أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب ، فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه . وقع السوء : عبارة عن رداءة الشيء وفساده ؛ والصدق عن جودته وصلاحه ، فقيل فى المرضى الصالح من الأفعال : فعل صدق ، وفى المسخوط الفاسد منها : فعل سوء . ومعنى ﴿ظنّ السوء﴾ ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهراً ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أى : ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم . والسوء : الهلاك والدمار . وقرئ : دائرة السوء[1] بالفتح ، أى . الدائرة التى يذمونها ويسخطونها ، فهى عندهم دائرة سوء ، وعند المؤمنين دائرة صدق . فإن قلت : هل من فرق بين السوء والسوء ؟ قلت : هما كالكره والكره والضعف والضعف ، من ساء ، إلا أنّ المفتوح غلب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء . وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير . يقال : أراد به السوء وأراد به الخير ؛ ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموما ؛ وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذى ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم ، فلأن الذى أصابهم مكروه وشدة ، فصح أن يقع عليه اسم السوء ، كقوله عزّ وعلا (إن أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

﴿شاهدا﴾ تشهد على أمتك ، كقوله تعالى (ويكون الرسول عليكم شهيداً) . ﴿ليؤمنوا﴾ الضمير للناس ﴿ويعزروه﴾ ويقووه بالنصرة ﴿ويوقروه﴾ ويعظموه ﴿ويسبحوه﴾ من التسبيح . أو من

(١) قوله « وقرئ دائرة السوء بالفتح ، يفيد أن القراءة المشهورة . دائرة السوء . بالضم . (ع)

السبحة ، والضمائر لله عز وجل والمراد بتعزير الله : تعزير دينه ورسوله صلى الله عليه وسلم . ومن فرق الضمائر فقد أبعد . وقرئ : لتؤمنوا وتعزروه[1] وتوقروه وتسبحوه ، بالتاء ؛ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته . وقرئ : وتعزروه بضم الزاى وكسرها . وتعزروه بضم التاء والتخفيف ، وتعززوه بالزايين . وتوقروه من أوقره بمعنى وقره . وتسبحوا الله ﴿بكرة وأصيلا﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر .

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

لما قال ﴿إنما يبايعون الله﴾ أكده تأكيداً على طريق التخييل[2] فقال ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يريد أن يد رسول الله التى تعلو أيدى المبايعين : هى يد الله ، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) والمراد : بيعة الرضوان ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه . قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفر ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقاً ، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم[3] . وقرئ : إنما يبايعون لله ، أى : لأجل الله ولوجهه ، وقرئ : ينكث بضم الكاف وكسرها ، وبما عاهد وعهد ﴿فسنؤتيه﴾ بالنون والياء ، يقال : وفيت بالعهد وأوفيت به ، وهى لغة تهامة . ومنها قوله تعالى (أوفوا بالعقود) ، (والموفون بعهدهم) .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ

---

(١) قوله «وقرئ لتؤمنوا وتعزروه» يفيد أن قراءة الياء هى المشهورة ، وقد تشير إلى تفريق الضمائر قراءة : وتسبحوا الله ... الآية . (ع)

(٢) قال محمود : «لما قال إنما يبايعون الله أكده تأكيدا على طريق التخييل ... الخ» قال أحمد : كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل ، وقد تقدمت أمثاله .

(٣) لم أجده هكذا بل فى حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية ؟ قال : كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة . وهى سمرة . فبايعناه . وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره» أخرجه مسلم . ولأبى يعلى من هذا الوجه «لم نبايعه على الموت وإنما بايعناه على أن لا نفر ، بايعناه كلنا . إلا الجد بن قيس ، فانه اختبأ تحت بطن بعيره» فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث ، بل فيه أنه لم يبايع أصلا .

أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

هم الذين خلفوا عن الحديبية ، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل . وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادى ليخرجوا معه حذراً من قريش[1] أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو صلى الله عليه وسلم وساق معه الهدى ، ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر[2] داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ، فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم . وقرئ : شغلتنا ، بالتشديد ﴿يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم﴾ تكذيب لهم فى اعتذارهم . وأن الذى خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك فى الله والنفاق ؛ وطلبهم للاستغفار أيضاً ليس بصادر عن حقيقة ﴿فمن يملك لكم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إن أراد بكم﴾ مايضركم من قتل أوهزيمة ﴿أو أراد بكم نفعا﴾ من ظفر وغنيمة[3] وقرئ : ضراً ، بالفتح والضم . الأهلون : جمع أهل . ويقال : أهلات ، على تقدير تاء التأنيث . كأرض وأرضات ، وقد جاء أهلة . وأمّا أهال ، فاسم جمع ، كليال .

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل من رواية آدم عن ورقاء . عن ابن نجيح عن مجاهد نحوه

(٢) قوله «قد غزوه فى عقر داره» فى المصباح : عقر الدار أصلها ، وهو محلة القوم . وأهل المدينة يقولون : عقر الدار ، بالضم . (ع)

(٣) قال محمود : «أى قتلا وهزيمة أوأراد بكم نفعا أى ظفرا وغنيمة» قال أحمد : لاتخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف ، وكان الأصل ـ والله أعلم ـ : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعا ؛ لأن مثل هذا النظم يستعمل فى الضر ، وكذلك ورد فى الكتاب العزيز مطردا ، كقوله (فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم) . (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) (فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه) ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى بعض الحديث «إنى لاأملك لكم شيئا» يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة ، وسر اختصاصه بدفع المضرة : أن الملك مضاف فى هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه ، وليس كذلك حرمان المنفعة ، فانه ضرر عائد عليه لا له ، فاذا ظهر ذلك فانما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان فى أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما فى عبارة واحدة ، وخص عبارة دفع الضر ؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء ؛ إذ الآية فى سياق التهديد أوالوعيد الشديد ، وهى نظير قوله (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوأ أوأراد بكم رحمة) فان العصمة إنما تكون من السوء لامن الرحمة . فهاتان الآيتان يرامان فى التقرير الذى ذكرته . والله أعلم .

وقرئ : إلى أهلهم . وزين ، على البناء للفاعل وهو الشيطان ، أو الله عز وجل ، وكلاهما جاء في القرآن (وزين لهم الشيطان أعمالهم) ، (وزينا لهم أعمالهم) والبور : من بار ، كالهلك : من هلك ، بناء ومعنى ؛ ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ . والمعنى : وكنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لاخير فيكم . أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه .

وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

﴿للكافرين﴾ مقام مقام لهم ، للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر ، ونكر ﴿سعيرا﴾ لأنها نار مخصوصة ، كما نكر (ناراً تلظى) .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته[1] ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ﴿وكان الله غفوراً رحيما﴾ رحمته سابقة لغضبه ، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر ، ويغفر الكبائر بالتوبة .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

﴿سيقول المخلفون﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أن يبدلوا كلام الله﴾ وقرئ كلم الله ، أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية ، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر[2] إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم شيئاً . وقيل:

(١) قال محمود : «يغفر ويعذب بمشيئته ... الخ» قال أحمد : قد تقدمت أمثالها ، والقول بأن موجب الحكمة ماذكر تحكم . هذا وأدلة الشرع القاطعة تأتى على مايعتقده فلا تبق ولا تذر ، فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة ، وكم يروم إتباع القرآن للرأى الفاسد فيقيد مطلقا ويحجر واسعا ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «والمراد بكلام الله وعده أهل الحديبية بغنائم خيبر عوضاعما يفوتهم من غنائم مكة ... الخ» قال أحمد : فالاضراب الأول إذاً هو المعروف ، والثانى هو المستغرب المستعذب الذى ليس فيه مباينة بين الأول والثانى ، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة ، وإنما كان المنسوب إليهم ثانيا أشد من المنسوب إليهم أولا ؛ لأن الأول نسبة إلى جهل في شيء مخصوص ، وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين ، والثانى يعتبر بجهل على الاطلاق ، وقلة فهم على الاسترسال .

هو قوله تعالى (لن تخرجوا معى أبداً) . ﴿تحسدوننا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم . قرئ بضم السين وكسرها ﴿لا يفقهون﴾ لا يفهمون إلا فهما ﴿قليلا﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين . كقوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) فإن قلت : ما الفرق بين حرفى الإضراب ؟ قلت : الأوّل إضراب معناه : ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد . والثانى إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

﴿قل للمخلفين﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إلى قوم أولى بأس شديد﴾ يعنى بنى حنيفة قوم مسيلمة ، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ؛ لأن مشركى العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبى حنيفة ومن عداهم من مشركى العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية ، وعند الشافعى لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركى العجم والعرب . وهذا دليل على إمامة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فإنهم لم يدعوا إلى حرب فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن بعد وفاته . وكيف يدعوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى (فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوّا) وقيل : هم فارس والروم . ومعنى ﴿يسلمون﴾ ينقادون ، لأنّ الروم نصارى ، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية . فإن قلت : عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن ، وكان ذلك فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : إن صح ذلك فالمعنى : لن تخرجوا معى أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب فى الدين . أو على قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم فى المغنم ﴿كما توليتم من قبل﴾ يريد فى غزوة الحديبية . أو يسلمون . معطوف على تقاتلونهم ، أى : يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام ، لا ثالث لهما . وفى قراءة أبىّ : أو يسلموا ، بمعنى : إلى أن يسلموا .

لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ

يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوى العاهات فى التخلف عن الغزو. وقرئ: ندخله ونعذبه، بالنون.

لَقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾

هى بيعة الرضوان، سميت بهذه الآية، وقصتها: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزل الحديبية بعث جواس [1] بن أمية الخزاعى رسولا إلى أهل مكة، فهموا به فمنعه الأحابيش، فلما رجع دعا بعمر رضى الله عنه ليبعثه فقال: إنى أخافهم على نفسى، لما عرف من عداوتى إياهم وما بمكة عدوىّ يمنعنى، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم: عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة. قال جابر ابن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها [1]. وقيل: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائما

(١) «جواس» الذى فى أبى السعود وفى الشهاب: خراش. بالخاء والراء والشين اه ملخصا من هامش، وكذا فى النسفى والخازن. (ع)

(٢) أخرجه أحمد من رواية عروة عن المسور ومروان. قالا: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت» فذكر الحديث مطولا. وفيه هذه القصة دون قصة جابر وروى الطبرى من رواية عكرمة مولى ابن عباس قال «دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم جواس بن أمية الخزاعى فذكره ومن طريق أبى إسحاق حدثنى عبد الله بن أبى بكر «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان قتل فقال: لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت، وجابر يقول: لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، إلى أن قال: وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل» وقوله وكانت سمرة. رواه مسلم من حديث جابر قال «فبايعناه وأخذ عمر بيده تحت الشجرة وكانت سمرة» وقول جابر: لو كنت أبصر الخ: متفق عليه من حديثه.

على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه. فرفعت الغصن عن ظهره فبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم اليوم خير أهل الأرض» [١] وكان عدد المبايعين ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين [٢] وقيل: ألفاً وأربعمائة: وقيل: ألفاً وثلثمائة ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فأنزل السكينة﴾ أي: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وأثابهم فتحا قريبا﴾ وقرئ: وآتاهم، وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة. وعن الحسن: فتح هجر، وهو أجلّ فتح: اتسعوا بثمرها زمانا ﴿ومغانم كثيرة تأخذونها﴾ هي مغانم خيبر، وكانت أرضاً ذات عقار [٣] وأموال، فقسمها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عليهم، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فعجل لكم هذه﴾ المغانم يعني مغانم خيبر ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفاؤهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا. وقيل: أيدي أهل مكة بالصلح ﴿ولتكون﴾ هذه الكفة ﴿آية للمؤمنين﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان،

(١) قوله «وقيل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد الله بن مغفل: كنت قائماً على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه، فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه، وعلى أن لا يفروا، فقال لهم: أنتم اليوم خير أهل الأرض «أخرجه النسائي من رواية ثابت عن عبد الله بن مغفل. قال «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة وعلى رأسه غصن إلى قوله عن ظهره». وفي حديث معقل بن يسار «لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها ـ الحديث». وأما قوله «بايعوه ... الخ» فهو في حديث جابر.

(٢) أما الأولى فتفق عليها من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر. دون قوله «وخمساً وعشرين» وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين. وفي رواية أبي الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة. قلت: لسعيد ابن المسيب «كم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة قال: قلت: فان جابراً قال: كانوا أربع عشرة مائة قال: رحمه الله لقد وهم، هو والله حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة» قال البيهقي في الدلائل: كأن جابراً رجع عن رواية خمس عشرة. إلى ألف وأربعمائة. وكذلك قال البراء ومعقل بن يسار. وسلمة بن الأكوع. انتهى. والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد الله بن أبي أوفى. قال «كان أصحاب الشجرة ألفاً وثلثمائة وكان من أسلم من المهاجرين. قلت والرواية التي فيها ألفا وخمسمائة وخمسا وعشرين. أخرجها ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفا. وفي عددهم أقوال غير هذه بسطتها في شرح البخاري

(٣) قوله «ذات عقار» في الصحاح «العقار» بالفتح: الأرض والضياع والنخل. (ع)

وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم . وقيل : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة فى منامه ، ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحى ، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة . فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة ﴿ويهديكم صراطا مستقيما﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينا ، وثقة بفضل الله .

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

﴿وأخرى﴾ معطوفة على هذه ، أى : فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لم تقدروا عليها﴾ وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين ، وقال : لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قد أحاط الله بها﴾ أى قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها . ويجوز فى (أخرى) النصب بفعل مضمر ، يفسره (قد أحاط الله بها) تقديره : وقضى الله أخرى قد أحاط بها . وأما (لم تقدروا عليها) فصفة لأخرى ، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا ، وقد أحاط الله بها : خبر المبتدإ ، والجر بإضمار رب . فإن قلت : قوله تعالى (ولتكون آية للمؤمنين) كيف موقعه ؟ قلت : هو كلام معترض . ومعناه : ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك . ويجوز أن يكون المعنى : وعدكم المغانم ، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها ، ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقا ، لأن صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية ، ويزيدكم بذلك هداية وإيقانا .

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا . وقيل : من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا ﴿سنة الله﴾ فى موضع المصدر المؤكد ، أى : سن الله غلبة أنبيائه سنه ، وهو قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) .

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

﴿أيديهم﴾ أيدى أهل مكة ، أى : قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الفتح . وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله ، على أن مكة فتحت عنوة لا صلحا . وقيل : كان ذلك فى غزوة الحديبية لما روى أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من هزمه وأدخله حيطان [1] مكة . وعن ابن

(١) أخرجه الطبرى عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمى عن جعفر هو ابن أبى المغيرة عن ابن أبزى . =

عباس رضى الله عنه : أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت . وقرئ : تعملون ، بالتاء والياء .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)

وقرئ : والهدى ، والهدىّ : بتخفيف الياء وتشديدها ، وهو ما يهدى إلى الكعبة : بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى صدّوكم . أى : صدّوكم وصدّوا الهدى وبالجر عطفا على المسجد الحرام ، بمعنى : وصدّوكم عن نحر الهدى ﴿معكوفا أن يبلغ محله﴾ محبوسا عن أن يباع ، وبالرفع على : وصدّ الهدى . ومحله : مكانه الذى يحل فيه نحره ، أى يجب . وهذا دليل لأبى حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم . فإن قلت : فكيف حل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية ؟ قلت : بعض الحديبية من الحرم [1] . وروى أن مضارب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى الحل ، ومصلاه فى الحرم [2] . فإن قلت : فإذن قد نحر فى الحرم ، فلم قيل : (معكوفا أن يبلغ محله) ؟ قلت : المراد المحل المعهود وهو منى ﴿لم تعلموهم﴾ صفة للرجال والنساء جميعا . و ﴿أن تطؤهم﴾ بدل اشتمال منهم أو من الضمير

═ قال «ولما خرج النبى صلى الله عليه وسلم بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة : قال له عمر : يا نبى الله تدخل على حرب قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع . قال : فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حمله . فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها . فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبى جهل ، قد خرج عليه فى خمسمائة . فقال لخالد بن الوليد : ياخالد هذا ابن عمك قد أتاك فى الخيل . فقال خالد : أنا سيف الله ورسوله فيومئذ سمى سيف الله ، يا رسول الله ارم بى أين شئت ، فبعثه على خيل ، فلقى عكرمة فى الشعب ، فهزمه ، حتى أدخله حيطان مكة - الحديث» وأخرجه ابن أبى حاتم من هذا الوجه وفى صحته نظر؛ لأن خالداً لم يكن أسلم فى الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت فى الحديبية . فلو كانت فى عمرة القضية لأمكن ، مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه .

(١) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمراً فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان «أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخارى : والحديبية خارج الحرم .

(٢) أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان . فى أثناء الحديث الطويل . قال «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى الحرم . وهو مضطرب فى الحل»

المنصوب فى تعلموهم . والمعرة : مفعلة ، من عره بمعنى عراه إذا دهاه[١] ما يكره ويشق عليه . و ﴿بغير علم﴾ متعلق بأن تطئوهم ، يعنى : أن تطئوهم غير عالمين بهم . والوطء والدوس : عبارة عن الإيقاع والإبادة . قال :

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ وَطْأَ الْمُقَيَّدِ نَابِتَ الْهَرْمِ[٢]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وأن آخر وطأة وطئها الله بوج»[٣] والمعنى : أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفى الأماكن : فقيل : ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة : لما كف أيديكم عنهم ، وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه[٤] . ويجوز أن يكون (لو تزيلوا) كالتكرير للولا رجال مؤمنون ، لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون (لعذبنا) هو الجواب . فإن قلت : أى معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون . قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير . فإن قلت : قوله تعالى ﴿ليدخل الله فى رحمته من يشاء﴾ تعليل لماذا ؟ قلت : لما دلت عليه الآية وسيقت له :

---

(١) قوله «بمعنى عراه إذا دهاه» عبارة الصحاح بلفظها : هو يعرفومه : أى يدخل عليهم مكروها يلطخهم به . والمعرة : الإثم . (ع)

(٢)
ووطئتنا وطأ على حنق وطأ المقيد نابت الهرم
وتركتنا لحما على وضم لوكنت تستبق من اللحم

للحرث بن وعلة الذهلى . والوطؤ : وضع القدم فوق الشىء بشدة . وهو كناية عن الاهلال . والحنق ـ كسبب ؛ الحقد والغيظ . والهرم ـ بالسكون ـ : ضرب من الحمض ترعاه الابل ، وبعير هارم : يرعى الهرم . يقول : أتيتنا مرتفعا علينا بقوتك وشدة بطشك كوطء الجمل المقيد للهرم النابت : أى الحديث النبات . ويروى : يابس الهرم فيهلكه لعظمه وقوته ، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه ، أو مع يبسه فيتفتت . فجعله مقيدا لتكون بطشته قوية ، حيث يرفع رجليه معا ويضربها عند الوثوب . أو جعله مقيدا ؛ لأن الذليل إذا قدر لا يعفو . والوضم : خوان الجزار الذى يقطع عليه اللحم . و «لو» شرطية ، جوابها دل عليه قوله «تركتنا» أى : على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذى يهيأ للأكل . وفى التعبير بلو : دلالة على أنه لم يستبق منهم .

(٣) تقدم فى آخر براءة .

(٤) قال محمود : «ويجوز أن يكون جواب لولا محذوفا ... الخ» قال أحمد : وإنما كان مرجعهما ههنا واحدا وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود ، و «لو» تدل على امتناع لامتناع ، وبين هذين تناف ظاهر ، لأن لولا ههنا دخلت على وجود ، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود ، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه . وكان جدى رحمه الله يختار هذا الوجه الثانى ويسميه تطرية ، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فمرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه . وقد تقدمت لها أمثال ، والله أعلم . وهو الموفق .

من كف الأيدى عن أهل مكة ، والمنع من قتلهم ؛ صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين ، كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله فى رحمته ؛ أى : فى توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم . أو ليدخل فى الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لو تزيلوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض : من زاله يزيله . وقرئ : لو تزايلوا .

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)

﴿إذ﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله . أى : لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام فى ذلك الوقت ، وأن ينتصب بإضمار اذكر . والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين ـ والحمية الأنفة والسكينة الوقار ـ ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف ، على أن يعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، [1] وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب ، هذا ما صالح عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة ، فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة . فقال عليه الصلاة والسلام : اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أنى رسول الله وأنا محمد بن عبد الله ، فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه ، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا . و ﴿كلمة التقوى﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله : قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم . وقيل : هى كلمة الشهادة . وعن الحسن رضى الله عنه : كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد . ومعنى إضافتها إلى التقوى : أنها سبب التقوى وأساسها . وقيل : كلمة أهل التقوى . وفى مصحف الحرث بن سويد صاحب عبدالله : وكانوا أهلها وأحق بها ، وهو الذى دفن مصحفه أيام الحجاج .

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل من رواية عروة فى قصة الحديبية . وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الخ مطولا . والقصة فى الصحيح من رواية البراء بن عازب ومن رواية مروان والمسور . وفى النسائى مختصرة من رواية ثابت البنانى عن عبدالله بن مغفل .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧)

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبيـة كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقصّ الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبىّ وعبدالله بن نفيل ورفاعة بن الحرث : والله ماحلقنا ولاقصرنا ولارأينا المسجد الحرام[٢] فنزلت . ومعنى ﴿صدق الله رسوله الرؤيا﴾ صدقه فى رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب وعن كل قبيح علواً كبيراً ـ فحذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله تعالى : صدقوا ماعاهدوا الله عليه . فإن قلت : بم تعلق ﴿بالحق﴾ ؟ قلت : إمّا بصدق ، أى : صدقه فيما رأى ، وفى كونه وحصوله صدقا ملتبساً بالحق : أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وذلك مافيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص ، وبين من فى قلبه مرض . ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالا منها أى : صدقه الرؤيا ملتبساً[٢] بالحق ، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام . ويجوز أن يكون (بالحق) قسما : إمّا بالحق الذى هو نقيض الباطل . أو بالحق الذى هو من أسمائه . و ﴿لتدخلنّ﴾ جوابه . وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف . فإن قلت : ما وجه دخول ﴿إن شاء الله﴾ فى أخبار الله عز وجل ؟ قلت : فيه وجوه : أن يعلق عدته بالمشيئة تعليما لعباده أن يقولوا فى عداتهم مثل ذلك ، متأدّبين بأدب الله ، ومقتدين بسنته . وأن يريد : لتدخلنّ جميعاً إن شاء الله ولم يمت منكم أحدا ، أوكان ذلك على لسان ملك ، فأدخل الملك إن شاء الله . أو هى حكاية ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقصّ عليهم . وقيل : هو متعلق بآمنين ﴿فعلم مالم تعلموا﴾ من الحكمة والصواب فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فجعل من

(١) لم أجده هكذا مفسرا وروى الطبرى من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ـ الآية) فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم «إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤسكم ومقصرين . فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون فى ذلك . فقالوا : أين رؤياه ، فقال الله (لقد صدق الله رسوله الرؤيا ـ الآية) وروى الطبرى من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال «أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل فى أهل مكة هو وأصحابه محلقين فلما نحر الهدى وهو بالحديبية قال أصحابه : أين رؤياك يارسول الله ؟ فنزلت » وبه قال وقوله (فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا) قال : النحر بالحديبية ، فرجعوا ففتحوا خيبراً . وقال : ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه فى السنة المقبلة» .

(٢) قوله «أى صدقه الرؤيا ملتبساً» لعله : ملتبسة . (ع)

دون ذلك﴾ أى من دون فتح مكة ﴿فتحاً قريباً﴾ وهو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود .

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿بالهدى ودين الحق﴾ بدين الإسلام ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الدين كله﴾ على جنس الدين كله ، يريد : الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب : ولقد حقق ذلك سبحانه ، فإنك لا ترى ديناً قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة . وقيل : هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر . وقيل : هو إظهاره بالحجج والآيات . وفى هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أن الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ على أن ماوعده كائن . وعن الحسن رضى الله عنه : شهد على نفسه أنه سيظهر دينك(١)

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿محمد﴾ إما خبر مبتدإ ، أى : هو محمد لتقدم قوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله) وإما مبتدأ ، ورسول الله : عطف بيان . وعن ابن عامر أنه قرأ : رسول الله ، بالنصب على المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم . ونحوه (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) ، (واغلظ عليهم) . (بالمؤمنين رؤف رحيم) وعن الحسن رضى الله عنه : بلغ من تشددهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ؛ وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمناً إلا صافحه وعانقه ، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء . وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله ، وكذلك

(١) قوله «أنه سيظهر دينك» لعله : دينه ، كعبارة النسفى . (ع)

التقبيل . قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئاً من جسده . وقد رخص أبو يوسف فى المعانقة . ومن حق المسلمين فى كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهـذا التعطف : فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ، ويعاشروا إخوتهم فى الإسلام متعطفين بالبر والصلة . وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة[1] . ووجه من قرأ: أشداء ، ورحماء ـ بالنصب ـ : أن ينصبهما على المدح ، أو على الحال بالمقدّر فى (معه) ، ويجعل (تراهم) الخبر ﴿سيماهم﴾ علامتهم . وقرئ سيماؤهم، وفيها ثلاث لغات : هاتان . والسيمياء ، والمراد بها السمة التى تحدث فى جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله تعالى ﴿من أثر السجود﴾ يفسرها ، أى : من التأثير الذى يؤثره السجود ، وكان كل من العليين : علىّ بن الحسين زين العابدين ، وعلىّ بن عبدالله بن عباس أبى الأملاك ، يقال له : ذو الثفنات ؛ لأنّ كثرة سجودهما أحدثت فى مواقعه منهما أشباه ثفنات[2] البعير . وقرئ : من أثر السجود ، ومن آثار السجود ، وكذا عن سعيد ابن جبير : هى السمة فى الوجه . فإن قلت : فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا تعلبوا[3] صوركم[4] » ، وعن ابن عمر رضى الله عنه أنه رأى رجلا قد أثر فى وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك . فلا تعلب وجهك . ولا تشن صورتك[5] . قلت : ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة . وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ، ونحن فيما حدث فى جبهة السجاد الذى لا يسجد إلا خالصاً لوجه الله تعالى . وعن بعض المتقدّمين : كنا نصلى فلا يرى بين أعيننا شيء ، ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق . وقيل : هو صفرة الوجه من خشية الله . وعن الضحاك : ليس بالندب[6] فى الوجوه ، ولكنه صفرة . وعن سعيد بن المسيب : ندى الطهور وتراب الأرض . وعن عطاء رحمه الله : استنارت وجوههم من طول

---

(١) قوله « والأخلاق السجيحة » أى السهلة . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « ثفنات البعير » فى الصحاح : هى ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ . (ع)

(٣) قوله « لا تعلبوا صوركم » فى الصحاح : علبته أعلبه ـ بالضم ـ : إذا وسمته أو خدشته ، أو أثرت فيه . (ع)

(٤) لم أجده مرفوعا وهو فى الذى بعده موقوف .

(٥) أخرجه عبد الرزاق عن الثورى . عن الأعمش عن حبيب عن أبى الشعثاء . عن ابن عمر « أنه رأى رجلا يتحز إذا سجد فقال : لا تقلب صورتك ، يقول لا تؤثرها . قلت : ما تقلب صورتك ؟ قال : لا تغير لا تشن » ورواه إبراهيم الحربى من رواية أبى معاوية عن الأعمش عن حبيب عن عطاء عن عمر « أنه رأى رجلا قد أثر السجود بوجهه فقال : لا تقلب صورتك . ثم قال : قلبت الشيء إذا أثرت فيه .

(٦) قوله « ليس بالندب فى الوجوه » فى الصحاح « الندب » : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . (ع)

ماصلوا بالليل، كقوله «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[1] ﴿ذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أى وصفهم العجيب الشأن فى الكتابين جميعاً، ثم ابتدأ فقال ﴿كزرع﴾ يريد: هم كزرع. وقيل: تم الكلام عند قوله (ذلك مثلهم فى التوراة) ثم ابتدئ (ومثلهم فى الإنجيل كزرع) ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله (كزرع أخرج شطأه) كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين). وقرئ: الأنجيل، بفتح الهمزة ﴿شطأه﴾ فراخه. يقال: أشطأ الزرع إذا فرخ. وقرئ: شطأه، بفتح الطاء. وشطاه، بتخفيف الهمزة: وشطاءه، بالمد. وشطه، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى ماقبلها. وشطوه، بقلبها واواً ﴿فآزره﴾ من المؤازرة وهى المعاونة. وعن الأخفش: أنه أفعل. وقرئ: فأزره بالتخفيف والتشديد، أى: فشد أزره وقواه. ومن جعل (آزر) أفعل، فهو فى معنى القراءتين ﴿فاستغلظ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق. وقيل: مكتوب فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبى بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعلى. وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم، لأن النبى صلى الله عليه وسلم، قام وحده. ثم قواه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع مايحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع. فإن قلت: قوله ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ تعليل لماذا؟ قلت: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم فى الزيادة والقوة، ويجوز أن يعلل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم فى الآخرة مع مايعزهم به فى الدنيا غاظهم ذلك. ومعنى ﴿منهم﴾ البيان، كقوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة»[2].

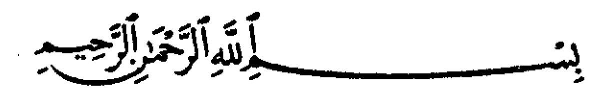
---

(١) أخرجه ابن ماجه عن اسماعيل الطلحى عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا بهذا واتفق أئمة الحديث وابن عدى والدارقطنى والعقيلى وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدى سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكى وعبد الحميد بن بحر وغيرهما وأورده صاحب مسند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثورى وابن جريج عن أبى الزبير عن جابر وهو موضوع على هذا الاسناد. وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثورى عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك. ومن طرق أخرى واهية. قال ابن طاهر: ظن القضاعى أن الحديث صحيح، لكثرة طرقه. وهو معذور لأنه لم يكن حافظاً. وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع فى معجمه من حديث أنس وابن الجوزى من وجه آخر عنه وهو باطل أيضا من الوجهين.

(٢) أخرجه ابن مردويه والواحدى بالاسناد إلى أبى بن كعب.

سورة الحجرات

مدنية ، وآياتها ١٨ [نزلت بعد المجادلة]



يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

قدمه وأقدمه : منقولان بتثقيل الحشو والهمزة ، من قدمه إذا تقدّمه [١] فى قوله تعالى (يقدم قومه) ونظيرهما معنى ونقلا : سلفه وأسلفه . وفى قوله تعالى ﴿لا تقدّموا﴾ من غير ذكر مفعول : وجهان ، أحدهما : أن يحذف ليتناول كل مايقع فى النفس مما يقدّم . والثانى : أن لا يقصد قصد [٢] مفعول ولا حذفه ، ويتوجه بالنهى إلى نفس التقدمة ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوه منكم بسبيل [٣] ، كقوله تعالى (هو الذى يحيي ويميت) ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم ، كوجه وبين . ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته ، وهى الجماعة المتقدّمة منه . وتعضده قراءة من قرأ : لا تقدموا ، بحذف إحدى تاءى تتقدموا ، إلا أن الأوّل أملأ بالحسن وأوجه ، وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن ، والعلماء له أقبل . وقرئ : لا تقدموا من القدوم ، أى لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليهما . وحقيقة قولهم : جلست بين يدى فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه ،

(١) قوله « إذا تقدمه فى قوله تعالى » لعله كما فى قوله تعالى . (ع)

(٢) قوله « أن لا يقصد قصد ... الخ » عبارة النسفى : أن لا يقصد مفعول . والنهى متوجه إلى نفس التقدمة . (ع)

(٣) ذكر الزمخشرى من النكت : « أنه تعالى ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذى ينتهى إلى الله ورسوله متقدما على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص » قال أحمد : يريد أنه لم يذكر المفعول الذى يتقاضاه تقدموا ، باطراح ذلك المفعول كقوله (يحيي ويميت) وحلى الكلام بمجاز التمثيل فى قوله (بين يدى الله ورسوله) بفائدة ليست فى الكلام العريان ، وهو تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الاقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وجعل صورة ذلك المنهى عنه مثل أن يجلس العبد فى الجهتين المسامتتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره ، ومعناه : أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن الله ورسوله فيه فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب الله وسنة نبيه .

فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعا ، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع ، وقد جرت هذه العبارة ههنا على سنن ضرب من المجاز ، وهو الذى يسميه أهل البيان تمثيلا . ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان : وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة : والمعنى : أن لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحى المنزل . وإما مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعليه يدور تفسير ابن عباس رضى الله عنه . وعن مجاهد : لا تفتاتوا على الله شيئا حتى يقصه [1] على لسان رسوله . ويجوز أن يجرى مجرى قولك : سرني زيد وحسن حاله ، وأعجبت بعمرو وكرمه . وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوة الاختصاص ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بالمكان الذى لا يخفى : سلك به ذلك المسلك . وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته : لأن من أحظاه الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوى : كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت . ويخافت لديه بالكلام . وقيل : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلا وعليهم المنذر بن عمرو الساعدى ، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل . إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بنى سليم قرب المدينة ، فاعتزيا لهم إلى بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم ، فقتلوهما وسلبوهما ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بئسما صنعتم كانا من سليم ، والسلب ما كسوتهما » فوداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ونزلت ، أى : لا تعملوا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن مسروق : دخلت على عائشة في اليوم الذى يشك فيه ، فقالت للجارية : اسقه عسلا ، فقلت : إنى صائم ، فقالت : قد نهى الله عن صوم هذا اليوم [3] . وفيه نزلت . وعن الحسن أن أناسا ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيدوا ذبحاً [4] آخر . وهذا مذهب أبى حنيفة رحمه

---

(١) قوله « حتى يقصه على لسان رسوله » لعله : يقضيه . (ع)

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان قال « بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية واستعمل عليهم المنذر بن عمرو ـ فذكر قصة بئر معونة مطولا . وفيه هذا اللفظ . وروى الدلائل من طريق ابن إسحاق ، ومن طريق موسى بن عقبة : هذه القصة على غير هذا السياق وأن المقتولين بنى كلاب ، وأن الثلاثة قتل منهم واحد . وهو المحفوظ والمشهور في المغازى

(٣) هكذا ذكره الثعلبي بغير سند . وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة والراء . عن مسروق قال « دخلت على عائشة رضى الله عنها في اليوم الذى يشك فيه أنه يوم عرفة » ... الحديث

(٤) أخرجه عبدالرزاق . حدثنا معمر عن الحسن في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى =

الله ، إلا أن تزول الشمس . وعند الشافعي : يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة . وعن الحسن أيضا : لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل ، فنهوا أن يبتدؤه بالمسئلة حتى يكون هو المبتدئ .[1] وعن قتادة : ذكر لنا أنّ ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فيه كذا لكان كذا ، فكره الله ذلك منهم وأنزلها . وقيل : هي عامة في كل قول وفعل ؛ ويدخل فيه أنه إذا جرت مسئلة في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسبقوه بالجواب ، وأن لا يمشي بين يديه إلا لحاجة ، وأن يستأني[2] في الافتتاح بالطعام ﴿ واتقوا الله ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة الله تجنبه ، فإن التقيّ حذر لا يشافه أمرا[3] إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه ، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل : لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار ، فتنهاه أوّلا عن عين ما قارفه ، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها ﴿ إنّ الله سميع ﴾ لما تقولون ﴿ عليم ﴾ بما تعملون ، وحق مثله أن يتقي ويراقب .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

إعادة النداء عليهم : استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم . وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به ، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملا بما يحدوه[4] عليه ، وارتداعا عما يصده عنه ، وانتهاء إلى كل خير ، والمراد بقوله ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن

= الله ورسوله) قال : هم قوم ذبحوا قبل أن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم . فأمرهم أن يعيدوا الذبح » وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة . قال « وذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل كذا . لو صنع كذا ، لو قيل كذا » قال : وقال الحسن هم أناس ، فذكره .

(١) لم أجده .

(٢) قوله « وأن يستأني في الافتتاح » أي : ينتظر . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « لا يشافه أمرا » أي : لا يتشاغل بأمر ، وفي الصحاح : « الشفه » : الشغل ، يقال : شفهني عن كذا ، أي : شغلني . (ع)

(٤) قوله « بما يحدوه عليه » أي : يحضه . (ع)

لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم، وجهره باهرا لجهركم؛ حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق [1] غير خاف، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم. وبقوله: ولا تجهروا له بالقول: إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم، وأن تتعمدوا فى مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذى يضاد الجهر، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم، عاملين بقوله عز اسمه (وتعزروه وتوقروه) وقيل معنى ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ لا تقولوا له: يا محمد، يا أحمد، وخاطبوه بالنبوة. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر رضى الله عنه: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله، [2] وعن عمر رضى الله عنه: انه كان يكلم النبى صلى الله عليه وسلم كأخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه [3]، وكان أبو بكر إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد: أرسل إليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، [4] وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر: ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو فى نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه، ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير، ولم يتناول النهى أيضا رفع الصوت الذى لا يتأذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ما كان منهم فى حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك، ففى الحديث: أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين:

---

(١) قوله «كشية الأبلق» فى الصحاح «الشية»: لون يخالف معظم لون الفرس وغيره. وفيه أيضا: اللغط الصوت والجلبة. وفيه الصخب: الصياح والجلبة. (ع)

(٢) ذكره الواحدى عن عطاء عن ابن عباس. ولم يسق سنده إليه. وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبى بكر. قال لما نزل (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) قلت: يا رسول الله آليت ألا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله» وأخرجه الحاكم والبيهقى فى المدخل من حديث أبى هريرة. قال «لما نزلت (إن الذين يغضون ـ الآية) قال أبو بكر. والذى أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى الله عز وجل» وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) أخرجه البخارى من حديث أبى الزبير. قال «لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ـ الآية) كان عمر بعد ذلك إذا حدث النبى صلى الله عليه وسلم حدثه كأخى السرار. لم يسمعه حتى يستفهمه.

(٤) لم أجده

« اصرخ بالناس [١] » وكان العباس أجهر الناس صوتا [٢]. يروى: أنّ غارة أتتهم يوما فصاح العباس يا صباحاه، فأسقطت الحوامل لشدّة صوته. [٣] وفيه يقول نابغة بنى جعدة:

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بِالْغَنَمِ [٤]

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع فى جوفه. [٥] وفى قراءة ابن مسعود: لا ترفعوا بأصواتكم والباء مزيدة محذوّ بها حذو التشديد فى قول الأعلم الهذلى:

رَفَعْتُ عَيْـــنِي بِالْحِجَا زِ إِلَى أُنَاسٍ بِالْمَنَاقِبْ [٦]

وليس المعنى فى هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد، تخيلا أن يكون مادون الشديد مسوغا لهم، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس: نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس، وكان فى أذنه وقر، وكان جهورى الصوت، فكان إذا تكلم رفع صوته، وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته [٧]. وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت: فقد ثابت. فتفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر بشأنه، فدعاه، فسأله فقال: يا رسول الله، لقد أنزلت إليك هذه الآية، وإنى رجل جهير الصوت. فأخاف أن يكون عملى قد حبط، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة. [٨]. وأمّا ما يروى عن الحسن: أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمحمله والخطاب للمؤمنين: على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهى، ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم، فيقتدى بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه فى محل النصب،

(١) لم أجده، وقد تقدم أن ذلك كان يوم حنين، والعباس لم يشهد أحدا.
(٢) لم أجده
(٣) لم أجده
(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٣٨ فراجعه إن شئت اه مصححه.
(٥) لم أجده
(٦) للأعلم الهذلى، يقول: نظرت وأنا فى الحجاز إلى من فى المناقب. وهذان الموضعان بينهما مسافة بعيدة، وهذا من شدة الشوق إلى من فى المناقب.
(٧) لم أجده
(٨) متفق عليه من حديث أنس دون قوله « لست هناك »، وزاد أحمد والطبرانى فيه: فقال أنس: فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة».

أى : لا تجهروا له جهراً مثل جهر بعضكم لبعض . وفى هذا : أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً ، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة . أعنى : الجهر المنعوت بمماثلة ماقد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها ﴿أن تحبط أعمالكم﴾ منصوب الموضع ، على أنه مفعول له ، وفى متعلقه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بمعنى النهى ، فيكون المعنى : انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم ، أى : لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف ، كقوله تعالى (يبين الله لكم أن تضلوا) والثانى : أن يتعلق بنفس الفعل ، ويكون المعنى : أنهم نهوا عن الفعل الذى فعلوه لأجل الحبوط ، لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط : جعل كأنه فعل لأجله ، وكأنه العلة والسبب فى إيجاده على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى (ليكون لهم عدوا) . فإن قلت : لخص الفرق بين الوجهين . قلت : تلخيصه أن يقدر الفعل فى الثانى مضموما إليه المفعول له ، كأنهما شىء واحد[1] ، ثم يصب النهى عليهما جميعاً صبا . وفى الأوّل يقدر النهى

(١) قال محمود : «إنه مفعول له ومتعلقه إمامعنى النهى ، كأنه قال : انتهوا كراهية حبوط أعمالكم على حذف مضاف ، كقوله (يبين الله لكم أن تضلوا) وأما نفس الفعل فهو المنهى عنه ، على معنى تنزيل صيرورة الجهر المنهى عنه إلى الحبوط . منزلة جعل الحبوط علة فى الجهر على التمثيل ، من وادى (ليكون لهم عدوا وحزنا) قال : وتلخيص الفرق بينهما أنه على الثانى يقدر انضمام المفعول من أجله إلى الفعل الأول ... الخ» قال أحمد : هو يحوم على شرعة وبيئة إياك ورودها : وذلك أنه يعتقد أن مادون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود فى العذاب المقيم ، وتخرج المؤمن من اسم الايمان ورسمه ، ومعاذ الله من هذا المعتقد ، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة فى مواضع من هذا المجموع ، لجدد العهد بها : وهى اعتقاد أن المؤمن لا يخلد فى النار ، وأن الجنة له بوعد الله حتم ولو كانت خطاياه مادون الشرك أومايؤدى إليه كزبد البحر ، وأنه لاتحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك . والزمخشرى اغتنم الفرصة فى ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها فيما يدعيه : أن رفع الصوت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية لاتبلغ الشرك ، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها ، ولو كان الاحباط مقطوعا بنفيه : لم تستقم الاخافة به ، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله ، ونظم الكلام يأباه عند البصر بمعناه ، فنقول : المراد فى الآية النهى عن رفع الصوت على الاطلاق ، ومعلوم أن حكم النهي : الحذر مما يتوقع فى ذلك من إيذاء النبى عليه السلام ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق ، فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبى عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أولا ، حماية للذريعة وحسما للمادة ، ثم لما كان هذا المنهى عنه وهو رفع الصوت منقسما إلى مايبلغ ذلك المبلغ أولا ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر : لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقا ، وخوف أن يقع فيما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الايذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه ، وإن كان فلا يتفق تمييزه فى كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الاشارة بقوله (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشرى : لم يكن لقوله (وأنتم لا تشعرون) موقع ؛ إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيا فيكون كفراً محبطا قطعا ، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة على رأيه قطعا ، فعلى كلا حاليه الاحباط به محقق ، إذاً فلا موقع لادعام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الاحباط ثابت مطلقا ، والله أعلم وهذا التقرير الذى ذكرته يدور على مقدمتين كلتاهما صحيحة =

موجهاً على الفعل على حياله ، ثم يعلل له منهياً عنه . فإن قلت : بأي النهيين تعلق المفعول له ؟ قلت : بالثاني عند البصريين ، مقدراً إضماره عند الأول ، كقوله تعالى (آتوني أفرغ عليه قطراً) وبالعكس عند الكوفيين . وأيهما كان فرجع المعنى إلى أن الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل : وقراءة ابن مسعود : فتحبط أعمالكم ، أظهر نصاً بذلك ؛ لأن ما بعد الفاء لا يكون إلا مسبباً عما قبله ، فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى (فيحل عليكم غضبي) والحبوط من حبطت الإبل : إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها ، وربما هلكت . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم »[1] ومن أخواته : حبجت الإبل، إذا أكلت العرفج[2] فأصابها ذلك . وأحبض عمله : مثل أحبطه . وحبط الجرح وحبر : إذا غفر ، وهو نكسه وترامیه إلى الفساد : جعل العمل السيء في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض[3] لمن يصاب به ، أعاذنا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال . وقد دلت الآية على أمرين هائلين ، أحدهما : أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله . والثاني : أن في آثامه مالا يدري أنه محبط ، ولعله عند الله كذلك ؛ فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشي في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

﴿ امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ، ودرب للنهوض به . فهو مضطلع به غير وان عنه . والمعنى أنهم صبر على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها . أو وضع الامتحان موضع المعرفة : لأن تحقق الشيء باختباره ، كما يوضع الخبر موضعها ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم للتقوى ، وتكون اللام متعلقة بمحذوف ، واللام هي التي في قولك : أنت لهذا الأمر ، أي كائن له ومختص به قال :

* أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرْ *[4]

═ إحداهما : أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء . وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه ، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام . المقدمة الأخرى : أن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم كفر ، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفراً ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق .

(١) أخرجه مسلم وغيره .

(٢) قوله «إذا أكلت العرفج» في الصحاح : شجر ينبت في السهل ، الواحدة : عرفجة . (ع)

(٣) قوله «كالداء والحرض» أي الفساد . أفاده الصحاح .

(٤) رائعة : خالية من الحشو والتعقيد ؛ وصوغتها ـ بالتشديد ـ : للمبالغة ؛ وأنت لها : أي أهل لها وكفؤ ؛ وأحمد : منادى ؛ ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أي : منتخبا من بينهم . ويجوز أن «أحمد» أفعل تفضيل ، كذا قيل .

* أَعَـدَّاءُ مَنْ لِلْيَعْمُلاتِ عَلَى الْوَجَى * [1]

وهى مع معمولها منصوبة على الحال . أوضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى ، أى لتثبت وتظهر تقواها ، ويعلم أنهم متقون : لأن حقيقة التقوى لاتعلم إلاعند المحن والشدائد والاصطبار عليها . وقيل أخلصها للتقوى . من قولهم : امتحن الذهب وفتنه . إذا أذابه فخلص إبريزه من خبثه ونقاه . وعن عمر رضى الله عنه : أذهب الشهوات عنها . والامتحان : افتعال ، من محنه ، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد . قال أبو عمرو : كل شىء جهدته فقد محنته . وأنشد :

أَتَتْ رَذَايَا بَادِيًا كِلاَلُهَا   قَدْ مُحِنَتْ وَاَضْطَرَبَتْ آطَالُهَا [2]

قيل : أنزلت فى الشيخين رضى الله عنهما ، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار . وهذه الآية بنظمها الذى رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لإن المؤكدة . وتصيير خبرها جملة من مبتدإ وخبر معرفتين معا . والمبتدأ : اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ماهو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة : مبهما أمره ناظرة فى الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خفض أصواتهم ، وفى الإعلام بمبلغ عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء .

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

(١)
أعداء من لليعملات على الوجا   وأضياف بيت بيتوا لنزول
أعداء ما للعيش بعدك لذة   ولا لخليل بهجة بخليـــل
أعداء ما وجدى عليك بهين   ولا الصبر إن أعطيته بجميل

لعتبة بن مالك العقيلى ، يرثى عداء صاحبه . والهمزة للنداء . وعداء ـ كفعال ـ : على صيغة المبالغة ، أى : يا من كان معدا لاغاثة المطايا الكثيرات العمل ، والسفر مع الوجاء وهو الحفاء فى أخفافها من كثرة السير ، واليعملات : جمع يعملة ، والبعير يعمل ، ومن كان معدا لأضياف بيته الذين يبيتون للنزول والاستراحة عنده . والعيش : الحياة ، أو ما يعاش به . والبهجة : السرور . والوجد : الحزن . وإن أعطيته : اعتراض ، دل على أنه لم يصبر . ونفى جمال الصبر مبالغة فى عظم عداء عنده وحبه إياه ، وكرر النداء لاظهار التفجع .

(٢) الرذايا جمع رذية وهى الناقة المهزولة الضعيفة . ومحنته : بلوته . ويقال : محنت ناقتى أجهدتها فى السير . ومحنت الجلد : مددته ووسعته . والآطال : جمع أطل وهو الخاصرة ، كأسباب وسبب . يقول : أتت المطايا مهازيل ظاهراً ملالها وتعبها من السير ، قد أجهدت تلك النوق بالسير . أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع ويروى : أوصالها ، أى : أعضاؤها .

والوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام [1]. ومن لابتداء الغاية، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. فإن قلت: فرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه. قلت: الفرق بينهما أنّ المنادى والمنادي في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء، وفي الثاني: لا يجوز لأنّ الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد، والذي يقول: ناداني فلان من وراء الدار. لا يريد وجه الدار ولا دبرها، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرّ [2] والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض، من غير قصد إلى جهة دون جهة. والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فعلة بمعنى مفعولة، كالغرفة والقبضة، وجمعها: الحجرات ـ بضمتين، والحجرات ـ بفتح الجيم، والحجرات بتسكينها. وقرئ بهنّ جميعا، والمراد: حجرات نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له، فناداه بعض من وراء هذه، وبعض من وراء تلك، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها، ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمكان حرمته. والفعل وإن كان مسندا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين، فكأنهم تولوه جميعا، فقد ذكر الأصم أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون: يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة. ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدا إلى نفي أن يكون فيهم من يعقل، فإنّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. وروى أنّ وفد بني تميم أتوا رسول الله صلى الله

---

(١) قال محمود: «الوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ... الخ» قال أحمد: ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بني تميم بما لا تساعده عليه الآية، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له. وقد سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال: هم جفاة بني تميم، وعلى الجملة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوء في حق أمة عظيمة لأن واحدا منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء، فقد ورد أن المنادى له عليه السلام: هو الأقرع، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه الكتب الصحاح.

(٢) قوله «أنهم نادوه من البر والخارج» الظاهر أن تفسيره ما بعده. وفي الصحاح «في مادة برر» أن البرية هي الصحراء. وفي مادة ضحن: في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام في بعض كتبه: «إن لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل» ما نصه: فالضاحية: هي الظاهرة التي في البر من النخل، والضامنة: ما تضمنها أمصارهم وقرامهم. (ع)

عليه وسلم وقت الظهيرة وهو راقد، فجعلوا ينادونه: محمد اخرج إلينا، فاستيقظ فخرج [١] ونزلت. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فقال: «هم جفاة بنى تميم، لو لا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم» [٢] فورود الآية على النمط الذى وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر: من بينات إكبار محل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلاله: منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل، لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته. ومقيله مع بعض نسائه. ومنها: المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى تبين به ما استنكر عليهم. ومنها: التعريف باللام دون الإضافة. ومنها: أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات، تهوينا للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتسلية له، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم، وهلم جرا: من أول السورة إلى آخر هذه الآية، فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد، ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر. كأن الأوّل بساط للثانى ووطاء لذكره ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم، دلالة على عظيم موقعه عند الله، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم: من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر، كما يصاح بأهون الناس قدرا. لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه. لأنّ من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين [٣] والأنصار بأخى السرار. كان صنيع هؤلاء من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغا؛ ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب

(١) أخرجه ابن اسحق فى السيرة قال: «قدمت وفود العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر القصة قال: ولما قدم وفد بنى تميم دخلوا المسجد. فنادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات يا محمد اخرج إلينا ـ فذكره إلى آخره» وأخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال «لما قدم وفد بنى تميم وهم سبعون رجلا ـ فذكره مطولا. وأخرجه ابن منده فى المعرفة. وأورده الثعلبى من طريق يعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن شمر بن الحكم عن جابر قال «جاءت بنو تميم فدخلوا المسجد فنادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم. فذكره مطولا.

(٢) أخرجه الثعلبى من رواية هاشم بن القاسم الحرانى عن يعلى بن الأشدق حدثنا سعد بن عبدالله: أن النبى صلى الله عليه وسلم ـ فذكره: ولمسلم من حديث أبى هريرة «لا أزال أحب بنى تميم لثلاث ـ فذكر فيه «وهم أشد أمتى على الدجال».

(٣) قوله «حتى خاطبه جلة المهاجرين» معظم المهاجرين. (ع)

وتقتبس محاسن الآداب، كما يحكى عن أبي عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج فى وقت خروجه ﴿أنهم صبروا﴾ فى موضع الرفع على الفاعلية : لأنّ المعنى : ولو ثبت صبرهم . والصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها . قال الله تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقولهم : صبر عن كذا ، محذوف منه المفعول ، وهو النفس ، وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس ، فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل : صبر . وفى كلام بعضهم : الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ . فإن قلت : هل من فرق بين ﴿حتى تخرج﴾ وإلى أن تخرج ؟ قلت : إنّ «حتى» مختصة بالغاية المضروبة . تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها : لم يجز ، و«إلى» عامة فى كل غاية ، فقد أفادت «حتى» بوضعها : أنّ خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمراً دون الانتهاء إليه . فإن قلت : فأى فائدة فى قوله ﴿إليهم﴾ ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم ﴿لكان خيراً لهم﴾ فى (كان) إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو ، وإما ضمير مصدر (صبروا)، كقولهم: من كذب كان شراً له ﴿والله غفور رحيم﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما ، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه - وهو الذى ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعا ، ثم قال : هل أزيدكم ، فعزله عثمان[1] عنهم - مصدّقا إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم إحنة . فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له ، فحسبهم مقاتليه . فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) أخرجه مسلم من طريق أبى ساسان حصين بن منذر قال شهدت عثمان أخى الوليد بن عقبة وقد صلى الغداة بالكوفة أربعا - الحديث بطوله» وأخرجه ابن إسحق والنسائى من هذا الوجه وقالوا فيه «وقد صلى الغداة أربعا»

قد ارتدوا ومنعوا الزكاة [١]، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهمّ أن يغزوهم. فبلغ القوم فوردوا وقالوا: نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم فقال: «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلا هو عندي كنفسى يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف على رضى الله عنه. وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلوات متهجدين، فسلموا إليه الصدقات [٢]، فرجع. وفى تنكير الفاسق والنبأ: شياع فى الفساق والأنباء، كأنه قال: أىّ فاسق جاءكم بأىّ نبإ [٣]. فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق، لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه. والفسوق: الخروج من الشيء والانسلاخ منه. يقال: فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه: فقست البيضة، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضاً: قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصباً له عليه، ثم استعمل فى الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق. قال رؤبة:

* فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرَا * [٤]

وقرأ ابن مسعود: فتثبتوا. والتثبت والتبين: متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرف، ولما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم والذين معه بالمنزلة التى لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا فى الندرة. قيل: إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق فى مخاطبتهم بكلمة زور ﴿أن تصيبوا﴾ مفعول له، أى: كراهة إصابتكم ﴿قوما بجهالة﴾ حال، كقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا بغيظهم) يعنى جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة. والإصباح: بمعنى الصيرورة. والندم: ضرب من الغم، وهو: أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب

---

(١) أخرجه إسحق والطبرانى من حديث أم سلمة. دون قوله «فاتهمهم فقال لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا هو عندى كنفسى يقاتل مقاتلتكم الخ» وعندهما بدل ذلك «فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية» وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف ونحوه رواه أحمد والطبرانى أيضا من حديث الحارث بن دثار الخزاعى أخرجه ابن مردويه من طريق عبدالله بن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد. عن جابر قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة ـ فذكر الحديث بنحوه وزاد فقال عليه الصلاة والسلام: لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا ـ فذكره.

(٢) لم أره.

(٣) قال محمود: «نكر فاسقاً ونبأ لقصد الشياع، فكأنه قيل أىّ فاسق جاء بأى نبأ» قال أحمد: تسامح بلفظ الشياع والمراد الشمول، لأن النكرة إذا وقعت فى سياق الشرط تعم، كما إذا وقعت فى سياق النفى، والله أعلم.

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١١٩ فراجعه إن شئت اه مصححه.

الإنسان صحبة لها دوام ولزام ، لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه من الندام : وهو لزام الشريب ودوام صحبته . ومن مقلوباته : أدمن الأمر أدامه . ومدن بالمكان : أقام به . ومنه : المدينةوقد تراهم يجعلون الهم صاحباً ونجياً وسميراً وضجيعاً ، وموصوفا بأنه لا يفارق صاحبه . الجملة المصدرة بلولا تكون كلاما مستأنفاً ، لأدائه إلى تنافر النظم[1] ، ولكن متصلا بما قبله حالا من أحد الضميرين فى فيكم المستتر المرفوع ، أو البارز المجرور . وكلاهما مذهب سديد . والمعنى : أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها . أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها : وهى أنكم تحاولون منه أن يعمل فى الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم من رأى ، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه ، المحتذى على أمثلته ؛ ولو فعل ذلك ﴿لعنتم﴾ أى لوقعتم فى العنت والهلاك . يقال : فلان يتعنت فلانا ، أى : يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك . وقد أعنت العظم : إذا هيض[2] بعد الجبر . وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببنى المصطلق وتصديق قول الوليد . وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾ أى إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض : صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة ، التى لا يفطن لها إلا الخواص . وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . وقوله ﴿أولئك هم الراشدون﴾ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى : أولئك المستثنون هم الراشدون يصدق ما قلته . فإن قلت : مافائدة تقديم خبر إن على اسمها ؟ قلت : القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه . فإن قلت : فلم قيل (يطيعكم) دون : أطاعكم ؟ قلت : للدلالة على أنه كان فى إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه . وأنه كلما عنّ لهم رأى فى أمر كان

---

(١) قال محمود : « الجملة المصدرة بلولا تكون مستأنفة ، لأدائه إلى تنافر النظم ... الخ » قال أحمد : من جملة هنات المعتزلة : ثلبهم على عثمان رضى الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته ، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه : ما أورده الزمخشرى فى هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضاً عن سعد بن أبى وقاص أحد الصحابة ، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات ، فمنها مطالبتهم النبى صلى الله عليه وسلم باتباع آرائهم التى من جملتها تصديق الوليد فى الإيقاع ببنى المصطلق ، فاذا ضممت هذه النبذة التى ذكرها إرسالا إلى ما علمت من معتقده : تبين لك من حاله ـ أعنى الزمخشرى ـ مالا أطيق التصريح به ، لأنه لم يصرح وإنما سلكنا معه سبيل الانصاف ومحجة الانتصاف : نص بنص ، وتلويح بتلويح ؛ فنسأل الله العظيم ـ بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين ـ أن يرضى عن أصحابه أجمعين ، وعنا بهم آمين .

(٢) قوله « إذا هيض بعد الجبر » فى الصحاح : هاض العظم يهيضه هيضا : كسره بعد الجبر . وفيه أيضا : جبرت العظم جبرا ، وجبر العظم بنفسه جبورا ، أى : انجبر . (ع)

معمولا عليه ، بدليل قوله (فى كثير من الأمر) كقولك : فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم ، تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّاً . فإن قلت : كيف موقع (لكنّ) وشريطتها مفقودة : من مخالفة مابعدها لما قبلها نفياً وإثباتا ؟ قلت : هى مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ؛ لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدّم ذكرهم ، فوقعت ، لكنّ فى حاق موقعها من الاستدراك . ومعنى تحبيب الله وتكريهه (اللطف والإمداد بالتوفيق [1]) ، وسبيله الكناية كما سبق ، وكل ذى لب وراجع إلى بصيرة وذهن لايغبى عليه أن الرجل لايمدح بغير فعله ؛ وحمل الآية على ظاهرها يؤدى إلى أن يثنى عليهم بفعل الله ، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) فإن قلت : فإنّ العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه ، وذلك فعل الله ، وهو مدح مقبول عند الناس غير مردود . قلت : الذى سوّغ ذلك لهم أنهم رأوا حسن الرواء [2] ووسامة المنظر فى الغالب، يسفر عن مخبر مرضى وأخلاق محمودة ومن ثم قالوا : أحسن مافى الدميم وجهه [3] ، فلم يجعلوه من صفات المدح لذاته ، ولكن لدلالته على غيره . على أن من محققة الثقات وعلماء المعانى من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به ، وقصر المدح على النعت بأمّهات الخير : وهى الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة ، وما يتشعب منها ويرجع إليها ، وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاد وغير ذلك مما ليس

---

(١) عاد كلامه . قال : « ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والامداد بالتوفيق ... الخ » قال أحمد : تلجلج والحق أبلج ، وزاغ والسبيل منهج ، وقاس الخالق بالواحد الحق ؛ وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر ، اغتراراً بمحال اعتقد اطراده فى الشاهد . وهو أن الانسان لا يمدح بفعل غيره ، وقاس الغائب على الشاهد تحكما ، وتغلغل باتباع هوى معجبا ، بجره ذلك بل جرأه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الايمان إلى الله تعالى على حقيقته . وجعله مجازاً لانه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الايمان مضافا إلى الله تعالى ، والعبد إذاً ممدوح بما ليس من فعله . وهذا عنده محال ، فأتبع الآية رأيه الفاسد ؛ فاذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوحدانية ، والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء ، وطولب بابقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل ، فانه يتمسك فى تأويلها بالحبال المذكورة فى التحكم بقياس الغائب على الشاهد ، بما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فالذى نعتقده ـ ثبتنا الله على الحق ـ أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن : فلا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله . غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلا لبعض ، فسمى المحل فاعلا والحال فعلا ؛ فهذا هو التوحيد الذى لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد ، ولا بد أن أطارحه القول فأقول : أخبرنى عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم : هل بمكتسب أم بغير مكتسب ، فلا يسعه أن يقول إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه ، بل بما وهبه إياهم فاتهبوه . وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة ، فقد خرج عن أهل الملة ، وانحرف عن أهل القبلة ، وهذه النبذة كفاية إن شاء الله تعالى .

(٢) قوله « حسن الرواء » فى الصحاح : الرواء ـ بالضم ـ : المنظر . (ع)

(٣) قوله « ما فى الدميم وجهه » فى الصحاح « الدميم » : القبيح . (ع)

للإنسان فيه عمل غلطا ومخالفة عن المعقول و﴿الكفر﴾ تغطية نعم الله تعالى وغمطها بالجحود. و﴿الفسوق﴾ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر ﴿والعصيان﴾ ترك الانقياد والمضى لما أمر به الشارع. والعرق العاصى: العانذ[1]. واعتصت النواة: اشتدّت. والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهى الصخرة. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وَغَيْرُ مُقَلَّدٍ وَمُوَشَّمَاتٍ صَلِينَ الضَّوْءَ مِنْ صُمِّ الرَّشَادِ[2]

و﴿فضلا﴾ مفعول له، أو مصدر من غير فعله[3]. فإن قلت: من أين جاز وقوعه مفعولا له، والرشد فعل القوم، والفضل فعل الله تعالى، والشرط أن يتحد الفاعل. قلت: لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه: صار الرشد كأنه فعله، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى، والجملة التى هى (أولئك هم الراشدون) اعتراض. أو عن فعل مقدر، كأنه قيل: جرى ذلك، أو كان ذلك فضلا من الله. وأما كونه مصدراً من غير فعله، فأن يوضع موضع رشداً؛ لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام ﴿والله عليم﴾

---

(١) قوله «والعرق العاصى: العانذ» فى الصحاح: عنذ العرق: سال ولم يرقأ، فهو عرق عانذ. (ع)

(٢) الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل، وغير الأثافى المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أى: التى احترقت بضوءها أى حرها. ومن صم الرشاد: بيان لها. والصم: جمع صماء، أى: صلبة. والرشاد الصخر. واحده رشادة. وقيل: يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة للزمام، وأنها غيرها أثر السير قوية، بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب.

(٣) أعرب الزمخشرى فضلا فى الآية مفعولا لأجله، منصبا عن قوله: الراشدون ... الخ. قال أحمد: أورد الاشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده، ونحن بنينا على ما بينا: أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له، وهو اتحاد فاعل الفعلين، على أن الاشكال وارد نصا على تقريرنا على غير الحد الذى أورده عليه الزمخشرى، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم. ومما يعهدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل؛ وسواء كان ذلك حقيقة أو مجازا حتى يكون زيد فاعلا وانقض الحائط وأشباهه كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه فلك فى الجواب عنه طريقان: إما جواب الزمخشرى، وإما أمكن منه وأبين: وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشدا؛ إذ هو مطاوعه؛ لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا. وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة وهو عكس قوله (يريكم البرق خوفاً وطمعا) فان الاشكال بعينه وارد فيها، إذ الخوف والطمع فعلهم، أى: منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون، والفعل الأول لله تعالى؛ لأنه مريهم ذلك، والجواب عنه: أنهم مفعولون فى معنى الفاعلين، بواسطة استلزام المطاوعة؛ لأنه إذا أراهم فقد رأوا. وقد سلف هذا الجواب مكانه، فصححت الكلام ههنا بتقدير المفعول فاعلا وعكسه آية الحجرات، إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولا. وهذا من دقائق العربية فتأمله، والله الموفق.

بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حكيم﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار، فأمسك عبد الله ابن أبىّ بأنفه وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه. فقال عبدالله بن رواحة: والله إنّ بول حماره لأطيب من مسكك[1] وروى: حماره أفضل منك، وبول حماره أطيب من مسكك[2]؛ ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج، فتجالدوا بالعصى، وقيل بالأيدى والنعال والسعف، فرجع إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصلح بينهم، ونزلت. وعن مقاتل: قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغى: الاستطالة والظلم وإباء الصلح. والفىء: الرجوع، وقد سمى به الظل والغنيمة؛ لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس، والغنيمة: ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين، وعن أبى عمرو: حتى تفى، بغير همز؛ ووجهه أنّ أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوى تلك الخلسة[3]، فظنه قد طرحها. فإن قلت: ما وجه قوله (اقتتلوا) والقياس اقتتلتا[4]، كما قرأ ابن أبى عبلة. أو اقتتلا، كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قلت: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ؛ لأنّ الطائفتين فى معنى القوم والناس. وفى قراءة عبدالله: حتى يفيئوا إلى أمر الله، فإن فاؤا فخذوا بينهم بالقسط. وحكم الفئة الباغية: وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر: ما وجدت فى نفسى من شىء ما وجدته

---

(١) لم أره عن ابن عباس. وهو فى الصحيحين من حديث أنس. وفيه «فبلغنا أنها أنزلت (وإن طائفتان من المؤمنين ... الآية)». دون بول الحمار. وقوله «والله إن بول حماره لأطيب من مسكك» وليس فيه أيضا «وإنه صلى الله عليه وسلم مضى. ثم نزلت الآية.

(٢) لم أره هكذا وحديث أنس فى الصحيحين «والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك».

(٣) قوله «تلك الخلسة» فى الصحاح: خلست الشىء واختلسته، إذا استلبته، والاسم الخلسة ـ بالضم. (ع)

(٤) قال محمود: «لم قال اقتتلوا عدولا ... الخ» قال أحمد: قد تقدم فى مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ «من»، بعد الحمل على معناها، وفى هذه الآية حمل على المعنى بقوله (اقتتلوا) ثم على اللفظ بقوله (بينهما) فلا يعتقد أن المقول فى «من» مطرد فى هذا؛ لأن المانع لزوم الاجمال والابهام بعد التفسير، وههنا لا يلزم ذلك: إذ لا إبهام فى الطائفة، بل لفظها مفرد أبدا، ومعناها جمع أبدا، وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعا ومرة مفرده، فتأمله، والله الموفق.

من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى الله عز وجل . قاله بعد أن اعتزل ، فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ، وإذا تولت عمل بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يا ابن أم عبد ، هل تدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمّة ؟ قال : الله ورسوله أعلم قال : لايجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولايطلب هاربها ولا يقسم فيؤها »[1] ولاتخلو الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما : إما أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعاً ، فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة ، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغى : صير إلى مقاتلتهما . وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما . وكلتاهما عند أنفسهما محقة . فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، واطلاعهما على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ماهديتا إليه ونصحتا من اتباع الحق بعد وضوحه لهما ، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين . وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى ؛ فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكف وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغى عليها بالقسط والعدل ، وفى ذلك تفاصيل : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لامنعة لها : ضمنت بعد الفيئة ماجنت ؛ وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة ، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله ؛ فإنه كان يفتى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت . وأمّا قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع ، فحمل الإصلاح بالعدل فى قوله تعالى ﴿فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل ، وعلى قول غيره : وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد ، والذى ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات : ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط . فإن قلت : فلم قرن بالإصلاح الثانى العدل دون الأوّل ؟ قلت : لأنّ المراد بالاقتتال فى أول الآية أن يقتتلا باغيتين معاً أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت ؛ فالذى يجب على المسلمين أن يأخذوا به فى شأنهما : إصلاح ذات البين ، وتسكين الدهماء[2] بإراءة الحق والمواعظ الشافية ، ونفى الشبهة ؛ إلا إذا أصرتا ، فحينئذ تجب المقاتلة . وأما الضمان فلايتجه ، وليس كذلك إذا بغت إحداهما ؛ فإنّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين ﴿وأقسطوا﴾ أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به فى إصلاح ذات البين ، والقول فيه مثله فى

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك والبزار والحارث . وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع عن نافع عن ابن عمر . وكوثر متروك ، قال فيه أحمد : أحاديثه أباطيل .

(٢) قوله «الدهماء» اى الجماعة . (ع)

الأمر باتقاء الله على عقب النهى عن التقديم بين يديه . والقسط ـ بالفتح ـ : الجور من القسط : وهو اعوجاج فى الرجلين[1] . وعود قاسط : يابس . وأقسطته الرياح . وأمّا القسط بمعنى العدل ، فالفعل منه : أقسط ، وهمزته للسلب ، أى : أزال القسط وهو الجور .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق : ما إن لم يفضل الأخوة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها ، ثم قدجرت عادة الناس على أنه إذا نشب مثل ذلك بين اثنين من إخوة الولاد ، لزم السائر أن يتناهضوا فى رفعه وإزاحته ، ويركبوا الصعب والذلول مشياً بالصلح وبثاً للسفراء[2] بينهما ، إلى أن يصادف ما وهى من الوفاق من يرقعه ، وما استشن[3] من الوصال من يبله : فالأخوة فى الدين أحق بذلك وبأشدّ منه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره »[4] ثم قال « احفظوا ، ولا يحفظ منكم إلا قليل »[5] . فإن قلت : فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع ؟ قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ؛ فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ؛ لأنّ الفساد فى شقاق الجمع أكثر منه فى شقاق الاثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرئ : بين إخوتكم وإخوانكم . والمعنى : ليس المؤمنون إلا إخوة ، وأنهم خلص لذلك متمحضون ، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية ، وأبى لطف حالهم فى التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع ، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه ﴿ واتقوا الله ﴾ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف ، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه ، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم ، واشتمال رأفته عليكم حقيقاً بأن تعقدوا به رجاءكم .

---

(١) قوله « وهو اعوجاج فى الرجلين » فى الصحاح : القسط ـ بالتحريك ـ : انتصاب فى رجلى الدابة ، وذلك عيب ، لأنه يستحب فيهما الانحناء والتوتير اه . (ع)

(٢) قوله « وبثا السفراء بينهما ... الخ » جمع سفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم . (ع)

(٣) قوله « استشن » فى الصحاح : تشنن الجلد يبس ، واستشن الرجل : هزل . (ع)

(٤) قوله « بقتار قدره » فى الصحاح : « القتار » : ريح الشواء . (ع)

(٥) أخرجه الثعلبي من رواية اسماعيل بن رافع عن سعيد عن أبى هريرة به سواء وزاد فيه « ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له منها . ولا يشترى لبنيه الفاكهة ، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ثم لا يطعمونهم منها » قلت : وإسناده ضعيف وأول الحديث فى الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة : وسيأتى فى آخر تفسير سورة الواقعة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾

القوم: الرجال خاصة؛ لأنهم القوّام بأمور النساء. قال الله تعالى (الرجال قوّامون على النساء) وقال عليه الصلاة والسلام: «النساء لحم على وضم[1] إلا ما ذب[2] عنه» والذابون هم الرجال، وهو في الأصل جمع قائم، كصوّم وزوّر: في جمع صائم وزائر. أو تسمية بالمصدر. عن بعض العرب: إذا أكلت طعاما أحببت نوما وأبغضت قوما. أي قياما. واختصاص القوم بالرجال: صريح في الآية وفي قول زهير:

* أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ * [3]

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد: هم الذكور والإناث، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن، وتنكير القوم والنساء

---

(١) قوله «على وضم» الوضم: ما يوضع تحت اللحم من خشب وغيره يوقى به من الأرض. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) لم أره عن علي، وأخرجه ابن المبارك في البر والصلة من قول عمر بن الخطاب، وكذلك رواه أبو عبيد وابراهيم الحربي في الغريب.

(٣)
وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
فان تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة اهتداء

لزهير يهجو حصن بن حذيفة الفزاري. والقوم: الرجال فقط، حتى قيل: إنه جمع قائم، كصوم وزور، في صائم وزائر. وقيل إنه في الأصل مصدر، والهمزة لطلب التعيين، ولكن الكلام من تجاهل العارف. ونساء: عطف على قوم الواقع خبراً من آل حصن، أو خبرا لمبتدأ محذوف، والعطف من عطف الجمل. ويجوز أن الهمزة للتسوية كالواقعة بعد سواء، كأنه. قال: ما أبالي منهم، سواء أكانوا رجالا أو نساء، فيتعين أنه من عطف الجمل لأجل التسوية، ولكن المقام يؤيد الأول، وفي البيت الاعتراض بين سوف ومدخلها بالفعل الملغى عند المفعول، والاعتراض أيضاً بين ما أدري وبين الاستفهام بجملة التسويف، لأن «أدري» طالب لمفعولين وجملة «أقوم» سادة مسدهما، وانظر كيف خطر بباله أن ينفي الدراية بحال الآل. ثم قبل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف يدري، ثم قبل أن يكمل ذلك قال: إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيل والظن، فحكى حال النفس عند ترددها في شأنه، فلله در العرب ما ألطفهم في حكاية الحال بأبلغ مقال. وروى لست بدل سوف. وفيه نظر؛ واسم تكن ضمير القوم، والنساء خبرها ومخبآت حال، أي: فان كن محصنات فحق لهن أن يهدين إلى أزواجهن، وهدى المرأة إلى زوجها وأهداها إليه إهداء، بمعنى.

يحتمل معنيين : أن يراد : لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات [١] من بعض : وأن تقصد إفادة الشياع ، وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية ، وإنما لم يقل : رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة على التوحيد ، [٢] إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية ، واستفظاعا للشأن الذى كانوا عليه ، ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله ، ولا يأتى ما عليه من النهى [٣] والإنكار ، فيكون شريك الساخر وتلوه فى تحمل الوزر ، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به ، فيؤدى ذلك ـ وإن أوجده واحد ـ إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما . وقوله تعالى ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر [٤] عن العلة الموجبة لما جاء النهى [٥] عنه ، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء . والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيراً من الساخر ، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات ، وإنما الذى يزن [٦] عند الله : خلوص الضمائر وتقوى القلوب ، وعلمهم من ذلك بمعزل ، فينبغى أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة فى بدنه ، أو غير لبيق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهانة بمن عظمه الله . ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزاً فضحكت منه : خشيت أن أصنع مثل الذى صنعه . [٧] وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا . [٨] وفى قراءة عبد الله : عسوا أن يكونوا ، وعسين

---

(١) قال محمود : «لم يقل لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات ... الخ» قال أحمد : ولو عرف فقال : لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض : لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهى ، ولكن أورد الزمخشرى هذا ، وإنما أراد أن فى التنكير فائدة : أن كل جماعة منهية على التفصيل فى الجماعات والتعرض بالنهى لكل جماعة على الخصوص ، ومع التعريف تحصيل النهى ، لكن لا على التفصيل بل على الشمول ، والنهى على التفصيل أبلغ وأوقع .

(٢) عاد كلامه . قال : «وإنما لم يقل رجل من رجل ولا امرأة من امرأة للاشعار ... الخ» قال أحمد : وهو فى غاية الحسن لا مزيد عليه .

(٣) قوله «ولا يأتى ما عليه من النهى» أى يتلهى ولا يفعل ما عليه من نهى الساخر والانكار عليه . (ع)

(٤) قال محمود : «وقوله عسى أن يكونوا خيراً منهم جواب للمستخبر عن علة النهى ... الخ» قال أحمد : وهو من الطراز الأول .

(٥) قوله «لما جاء النهى عنه» لعل ما مصدرية ، ولفظ عنه مزيد من ناسخ الأصل ، أى : لمجىء النهى ، وإلا : أى وإلا يكن مستأنفاً . (ع)

(٦) قوله «وإنما الذى يزن عند الله» لعله يزين . (ع)

(٧) لم أره عنه ، وفى ابن أبى شيبة عن أبى موسى من قوله نحوه .

(٨) أخرجه ابن أبى شيبة فى الأدب المفرد من رواية إبراهيم عن ابن مسعود بهذا .

أن يكن ، فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى (فهل عسيتم) وعلى الأولى التي لا خبر لها كقوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا) . واللمز : الطعن والضرب باللسان . وقرئ : ولا تلمزوا ـ بالضم . والمعنى : وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها ، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم ، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»[1] وعن الحسن رضي الله عنه في ذكر الحجاج : أخرج إلى بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : يا أبا سعيد يا أبا سعيد ، وقال لما مات : اللهم أنت أمته فاقطع سنته ، فإنه أتانا أخيفش أعيمش[2] يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة ، لا من الله يتقي ولا من الناس يستحي : فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون ، لا يقول له قائل : الصلاة أيها الرجل الصلاة أيها الرجل ، هيهات دون ذلك السيف والسوط . وقيل : معناه لا يعب بعضكم بعضا ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه . وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به ، لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة. والتنابز بالألقاب: التداعي بها : تفاعل من نبزه ، وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون ويقال : النبز[3] والنزب : لقب السوء والتلقيب المنهي عنه ، وهو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيراً به وذماً له وشيناً ، فأما ما يحبه مما يزينه وينوه به فلا بأس به . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه»[4] ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن .

---

(١) أخرجه أبو يعلى والترمذي الحكيم في النوادر في الثامن والستين والعقيلي وابن عدي وابن حبان كلهم من رواية الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم . عن أبيه عن جده مرفوعا أترعوون عن ذكر الفاجر ؟ اذكره بما فيه ، كي يحذره الناس» واتفقوا على أن الجارود غير ثقة ، وقال الدارقطني : هو من وضع الجارود ثم سرقه منه جماعة منهم عمرو بن الأزهر ، وسليمان بن عيسى عن الثوري عن بهز وسليمان وعمرو كذابان وقد رواه العلاء بن بشر عن ابن عيينة عن بهز : قال الدارقطني : وابن عيينة لم يسمع من بهز وغير لفظه فقال : «ليس للفاسق غيبة» انتهى وهذا أورده البيهقي في الشعب عن الحاكم بسنده إلى العلاء وقال : قال الحاكم : هذا غير صحيح ولا معتمد . وقال ابن طاهر : روى عن معمر عن بهز أيضاً أخرجه عبدالوهاب أخو عبدالرزاق . وعبدالوهاب كذاب وأخرجه الطبراني في الأوسط وقال لم يروه عن معمر غيره ، قال : وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب رواه يوسف بن أبان حدثنا الأبرد بن حاتم أخبرني منهال السراج عن عمر .

(٢) قوله «فإنه أتانا أخيفش أعيمش» في الصحاح «الخفش» : صغر في العين ، وضعف في البصر خلقة والرجل أخفش . وفيه : العمش في العين : ضعف الرؤية مع سيلان الدمع . والرجل أعمش اهـ . وأخيفش وأعيمش تصغير : أخفش وأعمش . (ع)

(٣) قوله «ويقال النبز» في الصحاح «النبز» بالتحريك : اللقب ؛ وبالتسكين : المصدر . (ع)

(٤) لم أجده هكذا ، وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين عن عثمان بن طلحة الحجبي رفعه قال «ثلاث مصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجالس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن

قال عمر رضى الله عنه : أشيعوا الكنى فإنها منبهة . ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله . وقلّ من المشاهير فى الجاهلية والإسلام من ليس له لقب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلها من العرب والعجم تجرى فى مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير . روى عن الضحاك أن قوما من بنى تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبى ذر وسالم مولى حذيفة . فنزلت . وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة . وعن ابن عباس أن أم سلمة ربطت حقويها بسبيبة ، [1] وسدلت طرفها خلفها وكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة : انظرى ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب . وعن أنس : عيرت نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة بالقصر . وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حيىّ أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يعيرننى ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هلا قلت إن أبى هرون وإن عمى موسى وإن زوجى محمد » [2] وروى أنها نزلت فى ثابت بن قيس وكان به وقر ، وكانوا يوسعون له فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع ؛ فأتى يوما وهو يقول : تفسحوا لى ، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فقال لرجل : تنح ، فلم يفعل، فقال : من هذا ؟ فقال الرجل . أنا فلان ، فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد : أمّا كان يعير بها فى الجاهلية ، فخجل الرجل فنزلت ، فقال ثابت : لا أفخر على أحد فى الحسب بعدها أبدا [3] ﴿الاسم﴾ ههنا بمعنى الذكر ، من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته . وحقيقته : ما سما من ذكره وارتفع بين الناس . ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ؛ كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين [4] بسبب ارتكاب

═ عبدالملك بن عمير وهو ضعيف . وروى أبو يعلى والطبرانى من حديث ذيال بن عبيد بن حنظلة حدثنى جدى حنظلة بن جذيم قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه» .

(١) قوله «حقويها بسبيبة» فى الصحاح «السب» : شقة كتان : والسبيبة : مثله . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي عن عكرمة ، عن ابن عباس بغير إسناد وفى الترمذى من رواية هاشم بن سعيد الكوفى : حدثنا كنانة حدثتنا صفية بنت حيي قالت «دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد بلغنى عن عائشة وحفصة كلام . فذكرت ذلك له فقال : ألا قلت : وكيف تكونا خيراً منى وزوجى محمد صلى الله عليه وسلم وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام . وكان الذى بلغها أنهن قلن نحن أكرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وخير منها نحن أزواجه وبنات عمه» وقال : غريب . وليس إسناده بذاك . وروى الترمذى وابن حبان وأحمد والطبرانى من رواية معمر عن ثابت عن أنس قال . «بلغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودى فبكت ... فذكر معناه .

(٣) ذكره الثعلبي ، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند .

(٤) قال محمود : «والاسم ههنا الذكر ، من قولهم : طار اسمه فى الناس بالكرم . كأنه قال : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين ... الخ، قال أحمد : أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاها : هو أولها ، ولكن بعد ═

هذه الجرائر [١] أن يذكروا بالفسق . وفى قوله ﴿ بعد الإيمان ﴾ ثلاثة أوجه : أحدها استقباح الجمع بين الايمان وبين الفسق الذى يأباه الإيمان ويحظره ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة . [٢] والثانى : أنه كان فى شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى يا فاسق ، فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنابز . والثالث : أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يقال : جنبه الشر إذا أبعده عنه ، وحقيقته : جعله منه فى جانب ، فيعدى إلى مفعولين . قال الله عز وجل (واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام) ثم يقال فى مطاوعه : اجتنب الشر فتنقص المطاوعة مفعولا . والمأمور باجتنابه هو بعض الظن ، وذلك البعض موصوف بالكثرة : ألا ترى إلى قوله ﴿ إن بعض الظن إثم ﴾ ؟ فإن قلت : بَيِّن الفصل بَيْنَ (كثيراً) ، حيث جاء نكرة وبينه لو جاء معرفة . قلت : مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية ، وإنّ فى الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين . لئلا يجترئ أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل ، وتمييز بين حقه و باطله بأمارة بينة ، مع استشعار للتقوى والحذر ؛ ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطا بما يكثر منه دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبا ، وما اتصف منه بالقلة مرخصا فى تظننه . والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها : أنّ كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر : كان حراما واجب الاجتناب ؛ وذلك إذا كان المظنون

ـــ صرف الذم إلى نفس الفسق ، وهو مستقيم لأن الاسم هو المسمى . ولكن الزمخشرى لم يستطع ذلك : انحرافا إلى قاعدة : يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن ، تحوما على أن الاسم التسمية ، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى . وأما الوجه الثانى ، فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحا . وأما الثالث فليتم له أن الفاسق غير مؤمن ، وكلا القاعدتين مخالف للسنة فاحذرهما ، وبالله التوفيق . ولقد كشف الله لى عن مقاصده ، حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة إلا إذا أدركها الحق فكلمها ، ولله الحمد .

(١) قوله «هذه الجرائر» جمع جريرة ، وهى الجناية . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «بعد الكبرة الصبوة» الكبرة ـ بالفتح ـ : اسم للكبر فى السن . والصبوة : الميل إلى الجهل والفتوة . أفاده الصحاح . (ع)

به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث . عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء »[١] وعن الحسن : كنا فى زمان الظنّ بالناس حرام ، وأنت اليوم فى زمان اعمل واسكت ، وظنّ بالناس ما شئت . وعنه : لا حرمة لفاجر . وعنه : إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله ، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب . وقد روى : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له[٢] . والإثم : الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب . ومنه قيل لعقوبته : الأثام ، فعال منه : كالنكال والعذاب والوبال . قال :

لَقَدْ فَعَلَتْ هٰـذِى النَّوَى بِىَ فَعْلَةً أَصَابَ النَّوَى قَبْلَ المَمَاتِ أَثَامُهَا[٣]

والهمزة فيه عن الواو ، كأنه يثم الأعمال : أى يكسرها بإحباطه . وقرئ : ولا تحسسوا بالحاء والمعنيان متقاربان . يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه : تفعل من الجس ، كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس ، لما فى اللمس من الطلب . وقد جاء بمعنى الطلب فى قوله تعالى (وأنا لمسنا السماء) والتحسس : التعرف من الحس ، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان : الحواس بالحاء والجيم ، والمراد النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعايبهم والاستكشاف عما ستروه . وعن مجاهد . خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى خدورهنّ . قال : يامعشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين : فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه

---

(١) أخرجه ابن ماجه . من حديث ابن عمر باسناد فيه لين ، ولفظه «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول : ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك : ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا» وروى ابن أبى شيبة من طريق مجالد عن الشعبى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمسلم أعظم حرمة منك . حرم الله دمه وماله وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء» وروى البيهقى فى الشعب من طريق مجاهد عن ابن عباس نحوه . وفيه حفص بن عبد الرحمن .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب فى التاسع والستين والقضاعى فى مسند الشهاب من طريق رواد بن الجراح عن أبى سعد الساعدى عن أنس وإسناده ضعيف . وأخرجه ابن عدى من رواية الربيع بن بدر عن أبان عن أنس وإسناده أضعف من الأول .

(٣) النوى : نية المسافر من قرب أو بعد ، فهى مؤنثة ، وتستعمل اسم جمع نية ، فيذكر : أى لقد فعلت فى هذه النية فعلة مسيئة ، فى بمعنى فى ، ثم دعا عليها بقوله : أصاب النوى التى أذتنى أثامها ، أى : جزاء تلك الفعلة . أو جزاء النوى التى تستحقه . وقد يسمى الذنب إثما وأثاما ، من إطلاق المسبب على السبب ، وقال قبل الممات ، أى : قبل موته ليتشفى فيها ، فكأنه شبهها بعدو ، ثم دعا عليها .

ولو في جوف بيته [١] . وعن زيد بن وهب : قلنا لابن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط تقطر لحيته خمرا ؟ فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به [٢] . غابه واغتابه : كغاله واغتاله . والغيبة من الاغتياب ، كالغيلة من [٣] الاغتيال : وهي ذكر السوء في الغيبة . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره . فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » [٤] وعن ابن عباس رضى الله عنهما : الغيبة إدام كلاب الناس ﴿أيحب أحدكم﴾ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه . وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير . ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة . ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك . ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا . ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا . وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي . وانتصب ﴿ميتا﴾ على الحال من اللحم . ويجوز أن ينتصب عن الأخ . وقرئ : ميّتا . ولما قرّرهم عز وجل بأنّ أحداً منهم لا يحب أكل جيفة أخيه ، عقب ذلك بقوله تعالى ﴿فكرهتموه﴾ معناه : فقد كرهتموه واستقرّ ذلك . وفيه معنى الشرط ، أى : إن صحّ هذا فكرهتموه ، وهي الفاء الفصيحة ،

---

(١) أخرجه الطبراني والعقيلي . وابن عدى من رواية قدامة بن محمد الأشجعي عن إسماعيل بن شبيب الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بهذا وفي الباب عن ابن عمر رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ولفظه « صعد النبي صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع : قال يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ، ولو في جوف رحله » وعن أبي بردة عند أبي داود وأحمد والطبراني وأبي يعلى وعن البراء بن عازب عند أبي يعلى والبيهقي في الشعب في التاسع والستين من رواية مصعب بن سلام عن أبي إسحاق عن البراء . وعن ثوبان عند أحمد بلفظ « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته » وعن بريدة عند الطبراني وابن مردويه ولفظه « صلينا الظهر خلف النبي صلى الله عليه وسلم فلما انفتل أقبل علينا غضبان فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الخدور فذكر نحوه .

(٢) أخرجه أبو داود وابن أبي شيبة وعبد الرزاق والطبراني والبيهقي في الشعب في الثاني والخمسين من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال « أتى ابن مسعود قيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا » لفظ أبي داود والباقين نحوه . ورواه الحاكم والبزار من رواية أسباط عن الأعمش فقال فيه « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن التجسس » قال البزار تفرد به أسباط وقال ابن أبي حاتم عن أبي زرعة والترمذي عن البخاري : أخطأ فيه أسباط . والصحيح من رواية أبي معاوية وغيره عن الأعمش « إن الله نهانا »

(٣) قوله « كالغيلة من الاغتيال » كذا في الصحاح . وفيه يقال : قتله غيلة ، وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله فيه . (ع)

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

أى : فتحققت ـ بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره : لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه ـ كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن فى أعراض المسلمين . وقرئ : فكرهتموه . أى : جبلتم على كراهته . فإن قلت : هلا عدّى بإلى كما عدّى فى قوله (وكرّه إليكم الكفر) وأيهما القياس ؟ قلت : القياس تعدّيه بنفسه ، لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه ، تقول : كرهت الشىء ، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول . وأما تعدّيه بإلى ، فتأول وإجراء لكره مجرى بغض ، لأنّ بغض منقول من بغض إليه الشىء فهو بغيض إليه ، كقولك : حب إليه الشىء فهو حبيب إليه . والمبالغة فى التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفواً عنه بالتوبة . أو لأنه بليغ فى قبول التوبة ، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ، لسعة كرمه . والمعنى : واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين . وعن ابن عباس : أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوى لهما طعامهما ، فنام عن شأنه يوماً ، فبعثاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغى لهما إداماً ، وكان أسامة على طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندى شىء ، فأخبرهما سلمان بذلك ، فعند ذلك قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، فلما راحا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما ، فقالا : ما تناولنا لحماً فقال : إنكما قد اغتبتما [1] فنزلت .

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

﴿من ذكر وأنثى﴾ من آدم وحوّاء . وقيل : خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل فى النسب . والشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب ، وهى : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ؛ فالشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة . وسميت الشعوب ؛

(١) هكذا ذكره الثعلبى ورريمة بغير سند ولا راو . وفى الترغيب لأبى القاسم الأصبهانى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبى ليلة نحوه .

لأنّ القبائل تشعبت منها . وقرئ : لتتعارفوا . ولتعارفوا بالإدغام . ولتعرفوا ، أى لتعلموا كيف تتناسبون . ولتتعرفوا . والمعنى : أنّ الحكمة التى من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هى أن يعرف بعضكم نسب بعض . فلا يعتزى إلى غير آبائه، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد، وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الأنساب . ثم بين الخصلة التى بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله تعالى فقال : ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقرئ : أنّ ، بالفتح ، كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب ؟ فقيل : لأنّ أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه طاف يوم فتح مكة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « الحمد الله الذى أذهب عنكم عبية [١] الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس ، إنما الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على الله ، وفاجر شقىّ هين على الله » [٢] ثم قرأ الآية . وعنه عليه السلام : من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله [٣] . وعن ابن عباس : كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقوى . وعن يزيد بن شجرة : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق المدينة فرأى غلاماً أسود يقول: من اشترانى فعلى شرط لا يمنعنى عن الصلوات الخمس خلف رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فاشتراه رجل فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يراه عند كل صلاة ، ففقده يوماً فسأل عنه صاحبه ، فقال : محموم ، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال : هو لما به ، فجاءه وهو فى ذمائه [٤] ، فتولى غسله ودفنه ، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر [٥] عظيم ، فنزلت .

(١) قوله «عبية الجاهلية» فى الصحاح : رجل فيه عبية ، أى : كبر وتجبر . وعبية الجاهلية : نخوتها . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم من رواية عبدالله بن دينار عن ابن عمر . وفى الباب عن أبى هريرة أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد والبزار وابن المبارك فى البر والصلة من رواية سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عنه نحوه . ومنهم من قال عن سعيد عن أبى هريرة : وعن عبدالملك بن قدامة الحاطبى . حدثنى أبى أن النبى صلى الله عليه وسلم عام فتح مكة . صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا أيها الناس» فذكر نحوه وأخرجه .

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقى وأبو يعلى وإسحاق وعبد والطبرانى وأبو نعيم فى الحلية كلهم من طريق هشام ابن زياد أبى المقدام عن محمد بن كعب عن ابن عباس وأتم منه ، قال البيهقى فى الزهد : تكلموا فى هشام بسبب هذا الحديث ، وأنه كان يقول : حدثنى عن محمد بن كعب ثم ادعى أنه سمعه من محمد ، ثم أخرجه البيهقى من طريق عبدالجبار بن محمد العطاردى والد أحمد عن عبدالرحمن الطيبى بن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه .

(٤) قوله «وهو فى ذمائه» فى الصحاح «الذماء» : ممدود بقية الروح فى المذبوح . (ع)

(٥) هكذا ذكره الثعلبي والواحدى بغير سند .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَـٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾

الإيمان: هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس. والإسلام: الدخول في السلم. والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله تعالى (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. فإن قلت: ما وجه قوله تعالى ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ والذى يقتضيه نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا، ولكن قولوا أسلمنا. أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت: أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولا، ودفع ما انتحلوه[1]، فقيل: قل لم تؤمنوا. وروعى فى هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه، فلم يقل: كذبتم. ووضع (لم تؤمنوا) الذى هو نفى ما ادعوا إثباته موضعه، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم فى قوله فى صفة المخلصين (أولئك هم الصادقون) تعريضاً بأن هؤلاء هم الكاذبون، ورب تعريض لا يقاومه التصريح، واستغنى بالجملة التى هى لم (تؤمنوا) عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهى عن القول بالإيمان، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى، ولم يقل: ولكن أسلمتم. ليكون خارجا مخرج الزعم والدعوى، كما كان قولهم (آمنا) كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم، لكان خروجه فى معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به. فإن قلت: قوله ﴿ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾ بعد قوله تعالى (قل لم تؤمنوا) يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة. قلت: ليس كذلك، فإن فائدة قوله (لم تؤمنوا) هو تكذيب دعواهم، وقوله (ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم (ولكن قولوا أسلمنا) حين

---

(١) قال محمود: «وجه هذا النظم تكذيب دعواهم أولا الخ» قال أحمد: ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة قوله تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) ثم قال: (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم فى شهادتهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوائبه، فقال بين الكلامين، (والله يعلم إنك لرسوله)، ثم قال بعد ذلك: (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة قلوبهم بالحق؛ لأن ذلك حقيقة الشهادة، لا أنهم كذبوا فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول من الله وكان المخلص من ذلك قوله جل وعلا (والله يعلم إنك لرسوله).

لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى (قولوا) وما فى (لما) من معنى التوقع : دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد ﴿لا يلتكم﴾ لا ينقصكم ولا يظلمكم. يقال : ألته السلطان حقه أشد الألت ، وهى لغة غطفان . ولغة أسد وأهل الحجاز : لاته ليتا . وحكى الأصمعى عن أم هشام السلولية أنها قالت : الحمد لله الذى لا يفات ولا يلات ، ولا تصمه الأصوات[1] . وقرئ باللغتين : لا يلتكم ، ولا يألتكم . ونحوه فى المعنى (فلا تظلم نفس شيئاً) . ومعنى طاعة الله ورسوله : أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ويعملوا بمقتضياته ، فإن فعلوا ذلك تقبل الله توبتهم ، ووهب لهم مغفرته . وأنعم عليهم بجزيل ثوابه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن نفراً من بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدبة ، فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وهم يغدون ويروحون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأثقال والذرارى ، يريدون الصدقة ويمنون عليه ، فنزلت .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

ارتاب : مطاوع رابه إذا أوقعه فى الشك مع التهمة . والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به ، ولا اتهام لمن صدقوه واعترفوا بأن الحق منه . فإن قلت : مامعنى ثم ههنا وهى للتراخى وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب ؟ قلت : الجواب على طريقين ، أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلين بعد ثلج الصدر فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه ، أو نظر هو نظراً غير سديد يسقط به على الشك ثم يستمر على ذلك راكباً رأسه لا يطلب له مخرجا ، فوصف المؤمنون حقاً بالبعد عن هذه الموبقات . ونظيره قوله (ثم استقاموا) والثانى : أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيها على مكانه ؛ وعطف على الإيمان بكلمة التراخى إشعاراً باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضاً جديداً ﴿وجاهدوا﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويا وهو العدو المحارب أو الشيطان أو الهوى ، وأن يكون جاهد مبالغة فى جهد . ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس : الغزو ، وأن يتناول العبادات بأجمعها ، وبالمجاهدة بالمال : نحو

(١) قوله «ولا تصمه الأصوات» إن كان من الوصم فالمعنى : لا تصدعه الأصوات ولا تعيبه ، وإن كان من الصمم فالمعنى : لا تجد أصم . وفى الصحاح «الوصم» : الصدع والعيب . وفيه «أصممته» : وجدته أصم . (ع)

ماصنع عثمان رضى الله عنه فى جيش العسرة ، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التى يتحامل فيها الرجل على مالهلوجه الله تعالى ﴿أولئك هم الصادقون﴾ الذين صدقوا فى قولهم آمنا ، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بنى أسد . أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات .

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦)

يقال : ماعلمت بقدومك ، أى : ما شعرت به ولا أحطت به . ومنه قوله تعالى ﴿أتعلمون الله بدينكم﴾ وفيه تجهيل لهم .

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

يقال : منّ عليه بيد أسداها إليه ، كقولك : أنعم عليه وأفضل عليه . والمنة : النعمة التى لايستثيب مسديها من يزلها إليه[1] ؛ واشتقاقها من المنّ الذى هو القطع ، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لاغير ، من غير أن يعمد لطلب مثوبة . ثم يقال : منّ عليه صنعه ، إذا اعتده عليه منة وإنعاما . وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أنّ الكائن من الأعاريب قد سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا ؛ فلما منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام : إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديراً بالاعتداد به من حدثهم الذى حق تسميته أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لاتعتدّوا علىّ إسلامكم ، أى حدثكم المسمى إسلاما عندى لا إيمانا . ثم قال : بل الله يعتدّ عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على مازعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم ، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافه . وفى إضافة الإسلام إليهم وإيراد الايمان غير مضاف : مالايخفى على المتأمل ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه ، تقديره : إن كنتم صادقين فى ادعائكم الإيمان ، فلله المنة عليكم . وقرئ : إن هداكم، بكسر الهمزة .

---

(١) قوله «من يزلها إليه» فى الصحاح : أزللت إليه نعمته ، أى : أسديتها إليه . وفى الحديث «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» وأزللت شيئاً من حقه ، أى : أعطيت اه . (ع)

وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه : إذ هداكم . وقرئ : تعلمون ، بالتاء والياء ، وهذا بيان لكونهم غير صادقين فى دعواهم ، يعنى أنه عزّ وجل يعلم كل مستتر فى العالم ويبصر كل عمل تعملونه فى سركم وعلانيتكم ، لايخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه مافى ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أنّ حاله مع كل معلوم واحدة لاتختلف .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه»[1] .

سورة ق

مكية [إلا آية ٣٨ فمدنية]

وآياتها ٤٥ [نزلت بعد المرسلات]

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

الكلام فى ﴿قٓ والقرآن المجيد بل عجبوا﴾ نحوه فى (صٓ والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا) سواء بسواء، لالتقائهما فى أسلوب واحد . والمجيد: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ، ومن أحاط علماً بمعانيه وعمل بما فيه : مجد عند الله وعند الناس ، وهو بسبب من الله المجيد ، فجاز اتصافه بصفته . قوله بل عجبوا ﴿أن جاءهم منذر منهم﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته ، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحاً لقومه مترفرفا[2] عليهم ، خائفاً أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه ، وإذا علم أنّ مخوفاً أظلهم ، لزمه أن

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من طرق عن أبي بن كعب به .

(٢) قوله «مترفرفا عليهم» فى الصحاح : فلان يرفنا ، أى : يحوطنا . ورفرف الطائر : إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . ورف لونه بالفاء رفا ورفيفا : برق وتلألأ . وثوب رفيف وشجر رفيف : إذا تدانت أوراقه . وفيه أيضا : ترقرق الشيء بالقاف : تلألأ . (ع)

ينذرهم ويحذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير . وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث ، مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما ، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ، ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء . ثم عوّل على أحد الإنكارين بقوله تعالى ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا﴾ دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل فى الاستبعاد وأحق بالإنكار ، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم فى قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم . وهذا إشارة إلى الرجع ؛ وإذا منصوب بمضمر ؛ معناه : أحين نموت ونبلى نرجع؟ ﴿ذلك رجع بعيد﴾ مستبعد مستنكر ، كقولك : هذا قول بعيد . وقد أبعد فلان فى قوله . ومعناه : بعيد من الوهم والعادة . ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع . وهو الجواب ، ويكون من كلام الله تعالى استبعاداً لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن . وقرئ: إذا متنا ، على لفظ الخبر ، ومعناه : إذا متنا بعد أن نرجع ، والدال عليه (ذلك رجع بعيد) . فإن قلت : فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ؟ قلت : ما دل عليه المنذر من المنذر به ، وهو البعث .

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾

﴿قد علمنا﴾ ردّ لاستبعادهم الرجع ، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم ، كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا . عن النبي صلى الله عليه وسلم «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب»[1] وعن السدى ﴿ما تنقص الأرض منهم﴾ ما يموت فيدفن فى الأرض منهم ﴿كتاب حفيظ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغير ، وهو اللوح المحفوظ . أو حافظ لما أودعه وكتب فيه .

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾

﴿بل كذبوا﴾ إضراب أتبع الإضراب الأوّل ، للدلالة على أنهم جاؤا بما هو أفظع من تعجبهم ؛ وهو التكذيب بالحق الذى هو النبوّة الثابتة بالمعجزات فى أوّل وهلة من غير تفكر ولا تدبر ﴿فهم فى أمر مريج﴾ مضطرب . يقال : مرج الخاتم فى أصبعه وجرج ؛ فيقولون تارة : شاعر ، وتارة : ساحر ، وتارة : كاهن ، لا يثبتون على شيء واحد : وقرئ : لما جاءهم ، بكسر اللام وما المصدرية ، واللام هى التى فى قولهم لخمس خلون ، أى : عند مجيئه إياهم ، وقيل (الحق) : القرآن . وقيل : الإخبار بالبعث .

---

(١) متفق عليه من حديث أبى صالح عن أبى هريرة وأخرجه الحاكم من حديث أبى سعيد ، وزاد «قالوا : ما هو يا رسول الله ؟ قال : هو مثل حبة الخردل ، منه ينبتون» .

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾

﴿أفلم ينظروا﴾ حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله فى خلق العالم ﴿بنيناها﴾ رفعناها بغير عمد (من فروج) من فتوق : يعنى أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتوق فيها ولا صدع ولا خلل، كقوله تعالى : (هل ترى من فطور) .

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾

﴿مددناها﴾ دحوناها ﴿رواسى﴾ جبالا ثوابت لولا هى لتكفأت ﴿من كل زوج﴾ من كل صنف ﴿بهيج﴾ يبتهج به لحسنه ﴿تبصرة وذكرى﴾ لتبصر به وتذكر كل ﴿عبد منيب﴾ راجع إلى ربه، مفكر فى بدائع خلقه . وقرئ : تبصرة وذكرى بالرفع، أى : خلقها تبصرة .

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

﴿ماء مباركا﴾ كثير المنافع ﴿وحب الحصيد﴾ وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما ﴿باسقات﴾ طوالا فى السماء : وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : باصقات . بإبدال السين صادا لأجل القاف ﴿نضيد﴾ منضود بعضه فوق بعض : إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه ؛ أو كثرة ما فيه من الثمر ﴿رزقا﴾ على أنبتناها رزقا، لأنّ الإنبات فى معنى الرزق . أو على أنه مفعول له، أى : أنبتناها لنرزقهم ﴿كذلك الخروج﴾ كما حييت هذه البلدة الميتة . كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، والكاف فى محل الرفع على الابتداء :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى (من فرعون وملئهم) لأنّ المعطوف عليه قوم نوح، والمعطوفات جماعات ﴿كل﴾ يجوز أن يراد به كل واحد منهم، وأن يراد جميعهم، إلا أنه وحد

الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى ﴿فحق وعيد﴾ فوجب وحل وعيدى ، وهو كلمة العذاب . وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتهديد لهم .

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

عيى بالأمر : إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للإنكار . والمعنى : أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول ، حتى نعجز عن الثانى ، ثم قال : هم لا ينكرون [1] قدرتنا على الخلق الأول ، واعترافهم بذلك فى طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة ﴿بل هم فى لبس﴾ أى فى خلط وشبهة. قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم . ومنه قول على رضى الله عنه : يا حار [2] إنه لملبوس عليك، اعرف الحق تعرف أهله . ولبس الشيطان عليهم : تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح : أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر . فإن قلت : لم نكر الخلق الجديد ، [3] وهلا عرّف كما عرّف الخلق الأول ؟ قلت : قصد فى تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد ، حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث عنه ولا يقعد على لبس فى مثله .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾

---

(١) قوله «ثم قال هم لا ينكرون» يعنى كأنه قال ذلك بمعونة الاضراب . وقوله «فى طيه ... الخ» أى يلزمه ذلك وإن لم يقع منهم اللبس . (ع)

(٢) قوله «ياحار إنه لملبوس» لعله ترخيم حارث . (ع)

(٣) وقع فى النسخة ما أحكيه وصورته : «فإن قلت لم نكر الخلق الجديد ... الخ» قال أحمد : هذا كلام كما تراه غير منتظم ، والظاهر أنه لفساد فى النسخة ، والذى يتحرر فى الآية ـ وهو مقتضى تفسير الزمخشرى : أن فيها أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول ونكر اللبس والخلق الجديد ؟ فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور فى قوله (ويهب لمن يشاء الذكور) ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ؛ لأن الغرض جعله دليلا على إمكان الخلق الثانى بطريق الأولى أى إذا لم يعى تعالى بالخلق الأول على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيا به ؛ فهذا سر تعريف الخلق الأول . وأما التنكير فأمره منقسم : فمرة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الابهام ، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة ؛ ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه ، وعلى الأول (سلام قولا من رب رحيم) وقوله (لهم مغفرة وأجر عظيم) و (إن المتقين فى جنات ونعيم) وقوله (بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) وهو أكثر من أن يحصى . والثانى : هو الأصل فى التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله ، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : فى لبس أىّ لبس : وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، ويحتمل أن يكون للتفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الانسان بكونه ملتبساً عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته ، ولعل إشارة الزمخشرى إلى هذا والله أعلم ، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة ، فان يكن هو ما أراده الزمخشرى فذاك ، وإلا فالحق العسل ولا تسل .

الوسوسة: الصوت الخفى. ومنها: وسواس الحلى. ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهجس فى ضميره من حديث النفس. والباء مثلها فى قولك: صوت بكذا وهمس به. ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان، أى: ما تجعله موسوسا، وما مصدرية، لأنهم يقولون: حدّث نفسه بكذا، كما يقولون: حدثته به نفسه. قال:

* وَاكْذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا * (١)

﴿ونحن أقرب إليه﴾ مجاز، والمراد: قرب علمه منه، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شىء من خفياته، فكأن ذاته قريبة منه، كما يقال: الله فى كل مكان، وقد جل عن الأمكنة. وحبل الوريد: مثل فى فرط القرب، كقولهم: هو منى مقعد القابلة ومعقد الإزار. وقال ذو الرمة:

* وَالْمَوْتُ أَدْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ * (٢)

والحبل: العرق، شبه بواحد الحبال. ألا ترى إلى قوله:

---

(١) واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل
غير أن لا تكذبنها فى التقى واخزها بالبر لله الأجل

للبيد بن ربيعة، وسئل بشار: أى بيت قاله العرب أشعر؟ فقال تفضيل بيت واحد على الشعر كله غير سديد، ولكنه أحسن لبيد فى قوله: واكذب النفس. يقال: كذبه وصدقه مخففاً ومشدداً، بمعنى. وما هنا من الاول للوزن، أى: لا تصدقها إذا حدثتك بأمر وحدثتها فيه؛ لأنها مثبطة عن نيل الفضائل. طامحة إلى الرذائل، وهذا معنى «إن صدق النفس» أى: تصديقها، يزرى بالأمل. يقال: زراه، إذا عابه. وأزرى به: إذا أوقع به العيب، غير أنه الحال والشأن لا تكذبها فى تحديثها إياك بالتقى. والخوف من الله، فان مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ويجوز أنه ضمير المخاطب، ولا ناهية، وإجراء الكلام على الاستثناء يحتاج إلى تكلف فى بيان المستثنى والمستثنى منه، ويمكن إجراؤه على الاستدراك؛ لكن نصب «غير» يحتاج إلى الحمل على الاستثناء، ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية «ولا» نافية أو زائدة، لكن تأكيد الفعل بالنون بعد النهى كثير، وبعد النفى قليل، ومع الاثبات فى هذا شاذ أو ضرورة، ولا بد من إجراء الكلام بهذا الوجه على الاستثناء معنى ولفظا. وقد قال القسطلانى فى شرح صحيح البخارى باحتمال النهى والزيادة. وبعضهم باحتمال النفى فى قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة حين حاضت فى الحج: «فاقضى ما يقضى الحاج غير أن لا تطوفى بالبيت» وخزاه يخزوه: قهره وغلبه، أى: واقهرها بالخير لله الأجل الأعظم، وكأن فى البر قهرا لها لمشقته عليها عادة.

(٢) هل أغدون فى عيشة رغيد والموت أدنى لى من الوريد

لذى الرمة. والاستفهام إنكارى، أى: لا أكون فى عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إلىّ من الوريد. وروى: أوفى. والمعنى واحد. والوريدان: عرقان فى مقدم صفحتى العنق، سميا بذلك لأنهما يردان من الرأس. أو لأن الروح تردهما. وقال: عيشة رغيد، كقول الله تعالى (إن رحمة الله قريب) وإن كان قليلا فى فعيل بمعنى فاعل.

* كَأَنْ وَرِيدَيْهِ رِشَاءَا خُلُبِ * [١]

والوريدان : عرقان مكتنفان لصفحتى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه . وقيل : سمى وريدا لأنّ الروح ترده . فإن قلت : ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد، والشيء لا يضاف إلى نفسه ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن تكون الاضافة للبيان ، كقولهم : بعير سانية . والثانى : أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما فى عضو واحد ، كما لو قيل : حبل العلباء [٢] مثلا .

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

﴿إذ﴾ منصوب بأقرب ، وساغ ذلك لأنّ المعانى تعمل فى الظرف متقدمة ومتأخرة : والمعنى : أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب من الإنسان [٣] من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به ، إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه ؛ وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات ؟ وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك : وهى ما فى كتبة الملكين وحفظهما ، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله : من زيادة لطف له فى الانتهاء عن السيئات والرغبة فى الحسنات . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إنّ مقعد ملكيك على ثنيتيك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحى من الله تعالى ولا منهما» [٤] ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب ، يعنى : ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه ، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به ، والتلقى : التلقن بالحفظ والكتبة . والقعيد : القاعد ،

---

(١) غضنفر تلقاه عند الغضب كأن وريديه رشاءا خلب

لرؤبة . والغضنفر : الأسد . والوريدان : عرقان يردان من الرأس يكتنفان الحلقوم . وقيل : تردهما الروح . والرشاءان : حبلان للاستقاء . والخلب - بضمتين ، وقد يسكن - : اللب والماء المخلوط بالطين . ويجوز أن يراد به هنا البئر الكدرة : شبه الشجاع بالأسد ، وشبه وريديه عند الغضب بالرشاءين ، وكأن هنا عاملة ، وهى مخففة ، وهو قليل ، والكثير إهمالها .

(٢) قوله «لو قيل حبل العلباء» هى عصب العنق ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «وهو أقرب من الانسان» يقال : قرب من الشيء كما يقال : قرب إليه . (ع)

(٤) أخرجه الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطاة بن الأشعث العدوى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مقعد ملكيك» فذكره .

كالجليس بمعنى الجالس ، وتقديره : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين ، فترك أحدهما لدلالة الثانى عليه ، كقوله :

... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِى بَرِيًّا ... ... (١)

﴿ رقيب ﴾ ملك يرقب عمله ﴿ عتيد ﴾ حاضر ، واختلف فيما يكتب الملكان ، فقيل: يكتبان كل شيء حتى أنينه فى مرضه . وقيل : لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به . ويدل عليه قوله عليه السلام « كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » (٢) وقيل : إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه . وقرئ : ما يلفظ ، على البناء للمفعول .

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه ، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لا قوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضى . وهو قوله ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ ونفخ فى الصور ، وسكرة الموت : شدّته الذاهبة بالعقل . والباء فى بالحق للتعدية ، يعنى : وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذى أنطق الله به كتبه وبعث به رسله . أو حقيقة الأمر وجلية الحال : من سعادة الميت وشقاوته . وقيل : الحق الذى خلق له الإنسان ، من أن كل نفس ذائقة الموت . ويجوز أن تكون الباء مثلها فى قوله (تنبت بالدهن) أى وجاءت ملتبسة بالحق ، أى : بحقيقة الأمر . أو

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٥٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) أخرجه الثعلبي والبغوى من طريق جعفر عن القاسم عن أبى أمامة . ومن هذا الوجه أخرجه الطبرانى . وأخرجه البيهق من هذا الوجه . ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه . وأخرجه الطبرانى من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه . وروى أبو نعيم فى الحلية وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء عن عروة بن رديم ، عن القاسم عن أبى أمامة وعند الطبرى من طريق على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة ، قال « دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ، كم مع العبد ملك ؟ - الحديث »

بالحكمة والغرض الصحيح ، كقوله تعالى (خلق السموات والأرض بالحق) وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضى الله عنهما : سكرة الحق بالموت ، على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التى كتبت على الإنسان وأوجبت له ، وأنها حكمة ، والباء للتعدية ؛ لأنها سبب زهوق الروح لشدتها ، أو لأنّ الموت يعقبها ؛ فكأنها جاءت به . ويجوز أن يكون المعنى : جاءت ومعها الموت . وقيل سكرة الحق سكرة الله ، أضيفت إليه تفظيعا لشأنها وتهويلا . وقرئ : سكرات الموت ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الموت ، والخطاب للإنسان فى قوله (ولقد خلقنا الإنسان) على طريق الالتفات . أو إلى الحق والخطاب للفاجر ﴿تحيد﴾ تنفر وتهرب . وعن بعضهم : أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فحكاه لصالح بن كيسان فقال : والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب ، هو للكافر . ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال : أخالفهما جميعاً : هو للبر والفاجر ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ على تقدير حذف المضاف ، أى : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ ﴿سائق وشهيد﴾ ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله . أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : معها ملك يسوقها ويشهد عليها ؛ ومحل (معها سائق) النصب على الحال من كل لتعرّفه بالإضافة إلى ما هو فى حكم المعرفة . قرئ : لقد كنتِ عنكِ غطاءكِ فبصركِ ، بالكسر على خطاب النفس ، أى : يقال لها لقد كنتِ . جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئاً ؛ فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق . ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته : حديداً لتيقظه .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾

﴿وقال قرينه﴾ هو الشيطان الذى قيض له فى قوله (نقيض له شيطانا فهو له قرين) يشهد له قوله تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته) . ﴿هذا ما لدىّ عتيد﴾ هذا شىء لدىّ وفى ملكتى عتيد لجهنم . والمعنى : أن ملكا يسوقه وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به ، يقول : قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى . فإن قلت : كيف إعراب هذا الكلام ؟ قلت : إن جعلت (ما) موصوفة ، فعتيد : صفة لها : وإن جعلتها موصولة ، فهو بدل ، أو خبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف .

أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾
الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾

﴿ألقيا﴾ خطاب من الله تعالى للملكين السابقين : السائق والشهيد : ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد : أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لاتحادهما، كأنه قيل : ألق ألق : للتأكيد . والثانى : أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليلىّ وصاحبىّ ، وقفا وأسعدا ، حتى خاطبوا الواحد خطاب الاثنين عن الحجاج أنه كان يقول : ياحرسى ، اضربا عنقه . وقرأ الحسن : ألقين ، بالنون الخفيفة . ويجوز أن تكون الألف فى (ألقيا) بدلا من النون : إجراء للوصل مجرى الوقف ﴿عنيد﴾ معاند مجانب للحق معاد لأهله ﴿مناع للخير﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه ، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئا قط . أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم . قيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يمنع بنى أخيه من الإسلام ، وكان يقول : من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت ﴿معتد﴾ ظالم متخط للحق ﴿مريب﴾ شاك فى الله وفى دينه ﴿الذى جعل﴾ مبتدأ مضمن معنى الشرط ، ولذلك أجيب بالفاء . ويجوز أن يكون (الذى جعل) منصوبا بدلا من (كل كفار) ويكون ﴿فألقياه﴾ تكريرا للتوكيد .

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾

فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول كما رأيت فى حكاية المقاولة بين موسى وفرعون . فإن قلت : فأين التقاول ههنا ؟ قلت : لما قال قرينه (هذا مالدى عتيد) وتبعه قوله (قال قرينه ربنا ما أطغيته) وتلاه (لا تختصموا لدىّ) : علم أنّ ثم مقاولة من الكافر، لكنها طرحت لما يدل عليها ، كأنه قال : رب هو أطغانى ، فقال قرينه : ربنا ما أطغيته . وأمّا الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول ، أعنى مجىء كل نفس مع الملكين : وقول قرينه ما قال له ﴿ما أطغيته﴾ ما جعلته طاغيا ، وما أوقعته فى الطغيان ، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى : (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) .

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

﴿قال لا تختصموا﴾ استئناف مثل قوله (قال قرينه) كأن قائلا قال : فماذا قال الله ؟ فقيل : قال لا تختصموا . والمعنى : لا تختصموا فى دار الجزاء وموقف الحساب ، فلا فائدة فى اختصامكم ولا طائل تحته ، وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى ، فما تركت لكم

حجة علىّ ، ثم قال : لاتطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى فأعفيكم عما أوعدتكم به ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب . والباء فى (بالوعيد) مزيدة مثلها فى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أومعدية ، على أن « قدّم » مطاوع بمعنى « تقدّم » ، ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله (مايبدّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) ويكون (بالوعيد) حالا ، أى : قدّمت إليكم هذا ملتبساً بالوعيد مقترنا به . أوقدّمته إليكم موعدا لكم به . فإن قلت : إنّ قوله (وقد قدّمت إليكم) واقع موقع الحال من (لا تختصموا) والتقديم بالوعيد فى الدنيا والخصومة فى الآخرة واجتماعها فى زمان واحد واجب . قلت : معناه ولا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد ، وصحة ذلك عندهم فى الآخرة . فإن قلت : كيف قال (بظلام) على لفظ المبالغة [١] ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من قولك : هو ظالم لعبده ، وظلام لعبيده . والثانى : أن يراد لو عذبت من لايستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم ، فنفى ذلك .

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

قرئ : نقول ، بالنون والياء . وعن سعيد بن جبير : يوم يقول الله لجهنم . وعن ابن مسعود والحسن : يقال . وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر ، نحو : أذكر وأنذر . ويجوز أن ينتصب بنفخ ، كأنه قيل . ونفخ فى الصور يوم نقول لجهنم . وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ، ولا يقدّر حذف المضاف . وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل [٢] الذى يقصد به تصوير

(١) قال محمود : « إن قلت كيف جاء على لفظ المبالغة ... الخ » قال أحمد : وذكر فيه وجهان آخران ، أحدهما أن فعالا قد ورد بمعنى فاعل ، فهذا منه . الثانى : أن المنسوب فى المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم : إن عظيما فعظيم ، وإن قليلا فقليل ، فلما كان ملك الله تعالى على كل شىء ملكه قدس ذاته عما يتوهم مخذول والعياذ بالله أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود ؛ ولقد بدل القدرية فتوهموا أن الله تعالى لم يأمر إلا بما أراده وبما هو من خلق العبد ، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفا بما لايطاق ، واعتقدوا أن ذلك ظلم فى الشاهد ، فلو ثبت فى الغائب لكان كما هو فى الشاهد ظلما ، والله تعالى مبرأ من الظلم . ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون الله تعالى ظلاما لعبيده ، تعالى الله عن ذلك ؛ لأن الحق الذى قامت بصحته البراهين : هو عين ما اعتقدوه ظلما فنفوه ، فلمثلهم وردت هذه الآية وأشباهها ، لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، والله الموفق للصواب .

(٢) قال محمود : « وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى ... الخ » قال أحمد : قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل فى غير ماموضع ، والنكير ههنا أشد عليه ؛ فان إطلاق التخييل قد مضى له فى مثل قوله (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) وفى مثل قوله (بل يداه مبسوطتان) وإنما أراد به حمل الأيدى على نوع من المجاز ، فمعنى كلامه صحيح ؛ لأنا نعتقد فيهما المجاز ، وندين الله بتقديسه عن المفهوم الحقيق ، فلا بأس عليه فى معنى إطلاقه ، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة فى حق جلال الله تعالى وإن كانت معانيها صحيحة ، وأى إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل . ألا ترى كيف استعمله الله فيما أخبر أنه سحر وباطل فى قوله (يخيل إليه من سحرهم =

المعنى فى القلب وتثبيته ، وفيه معنيان ، أحدهما : أنها تمتلىء مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لايسعها شىء[1] ولا يزاد على امتلائها ، لقوله تعالى (لأملأن جهنم) والثانى : أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد . ويجوز أن يكون (هل من مزيد) استكثاراً للداخلين فيها واستبداعا للزيادة[2] عليهم لفرط كثرتهم . أو طلباً للزيادة غيظاً على العصاة . والمزيد : إما مصدر كالمحيد والمميد ، وإما اسم مفعول كالمبيع .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)

﴿غير بعيد﴾ نصب على الظرف ، أى : مكانا غير بعيد . أو على الحال ، وتذكيره لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل : والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث . أو على حذف الموصوف ، أى : شيئاً غير بعيد ، ومعناه التوكيد ، كما تقول : هو قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل . وقرئ : توعدون بالتاء والياء ، وهى جملة اعتراضية . و﴿لكل أوّاب﴾ بدل من قوله للمتقين ، بتكرير الجار كقوله تعالى (للذين استضعفوا لمن آمن منهم) ، وهذا إشارة إلى الثواب . أو إلى مصدر أزلفت . والأوّاب : الرجاع إلى ذكر الله تعالى ، والحفيظ : الحافظ لحدوده تعالى . و﴿من خشى﴾ بدل بعد بدل تابع لكل . ويجوز أن يكون بدلا عن موصوف أوّاب وحفيظ ، ولايجوز أن يكون فى حكم أوّاب وحفيظ ؛ لأنّ من لايوصف به

أنها تسعى) فلا يشك فى وجوب اجتنابه ، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه ههنا فنقول : هو منكر لفظا ومعنى . أما اللفظ فقد تقدم ، وأما المعنى فلأنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأن الله تعالى يخلق فيها الادراك بذلك بشرطه ، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك : منها هذا : ومنها : لجاج الجنة والنار . ومنها : اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها فى نفسين . وهذه وإن لم تكن نصوصا فظواهر يجب حملها على حقائقها ؛ لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر مالم يمنع مانع . ولامانع ههنا ، فان القدرة صالحة ، والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع ماصوره العقل ، وقد وقع مثل هذا قطعا فى الدنيا ، كتسليم الشجر وتسبيح الحصا فى كف النبى صلى الله عليه وسلم وفى يد أصحابه ، ولوفتح باب المجاز والعدول عن الظواهر فى تفاصيل المقالة لاتسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق ، وليس هذا كالظواهر الواردة فى الالهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فان العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق . فاشدد يدك بما فصل فى هذا الفصل ، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل ، والله الموفق .

(١) قوله «حتى لايسعها شىء» كأن فيه قلبا . (ع)

(٢) قوله «واستبداعا للزيادة» لعله واستبعادا . (ع)

ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذى وحده . ويجوز أن يكون مبتدأ خبره : يقال لهم ادخلوها بسلام ، لأنّ (من) فى معنى الجمع . ويجوز أن يكون منادى كقولهم : من لايزال محسناً أحسن إلىّ ، وحذف حرف النداء للتقريب ﴿ بالغيب ﴾ حال من المفعول ، أى : خشيه وهو غائب لم يعرفه ، وكونه معاقباً إلا بطريق الاستدلال . أو صفة لمصدر خشى ، أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشى عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذى أوعده به من عذابه . وقيل : فى الخلوة حيث لايراه أحد . فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة ؟[1] قلت : للثناء البليغ على الخاشى وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة . كما أثنى عليه بأنه خاش ، مع أنّ المخشى منه غائب ، ونحوه (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات . وصف القلب بالإنابة وهى الرجوع إلى الله تعالى ؛ لأنّ الاعتبار بما ثبت منها فى القلب . يقال لهم ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أى سالمين من العذاب وزوال النعم . أو مسلماً عليكم يسلم عليكم الله وملائكته ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أى يوم تقدير الخلود ، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) أى مقدرين الخلود ﴿ ولدينا مزيد ﴾ هو مالم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيهم ، حتى يشاؤه . وقيل : إن السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الحور ، فتقول : نحن المزيد الذى قال الله عز وجل : (ولدينا مزيد) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦)

﴿ فنقبوا ﴾ وقرئ بالتخفيف : نخرقوا فى البلاد ودوّخوا[2] . والتنقيب : التنقير عن الأمر والبحث والطلب . قال الحرث بن حلزة :

نَقَّبُوا فِى الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْ تِ وَجَالُوا فِى الأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ[3]

ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله (هم أشدّ منهم بطشاً) أى : شدّة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه . ويجوز أن يراد : فنقب أهل مكة فى أسفارهم ومسايرهم فى بلاد القرون ،

---

(١) قال محمود : «إن قلت : كيف قرن الخشية باسمه الدال على سعة الرحمة ... الخ» قال أحمد : ومن هذا الوادى بالغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثناء على صهيب بقوله : «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه» .

(٢) قوله «ودوخوا» الذى فى الصحاح : أن دوخ البلاد بمعنى قهرها واستولى على أهلها . (ع)

(٣) للحرث بن كلدة . والنقب : الطريق . ونقبوا ، أى : ساروا فى طرق البلاد ونقروا وفتشوا على مهرب وملجأ ، لأجل حذرهم من الموت . وجالوا ، أى : ذهبوا فى الأرض . والجول : الناحية والجانب ، أى : ساروا فى نواحى الأرض وجوانبها ، كل مجال ، أى : كل طريق ، أو كل جولان ؛ لأن مفعل صالح للمكان والحدث .

فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ، والدليل على صحته قراءة من قرأ (فنقبوا) على الأمر ، كقوله تعالى (فسيحوا فى الأرض) وقرئ بكسر القاف مخففة من النقب وهو أن يتنقب خف البعير . قال :

* مَامَسَّهَا مِنْ نَقَبٍ وَلاَ دَبَرْ * (١)

والمعنى : فنقبت أخفاف إبلهم . أو : حفيت أقدامهم ونقبت ، كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم فى البلاد ﴿هل من محيص﴾ من الله ، أو من الموت .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)

﴿لمن كان له قلب﴾ أى قلب واع ؛ لأنّ من لا يعى قلبه فكأنه لاقلب له . وإلقاء السمع : الإصغاء ﴿وهو شهيد﴾ أى حاضر بفطنته ، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، وقد ملح الإمام عبد القاهر فى قوله لبعض من يأخذ عنه :

مَاشِئْتَ مِنْ زَهْزَهَةٍ وَالْفَتَى ... بِمَصْقِلاَبَاذٍ لِسَقْىِ الزُّرُوعِ (٢)

---

(١) أقسم بالله أبو حفص عمر ... ما مسها من نقب ولا دبر
اغفر له اللهم إن كان فجر

لأعرابى : شكا إلى عمر رضى الله عنه ضعف ناقته ، فأعطاه شيئا من الدقيق ولم يعطه مطية ، فولى يقول ذلك ، فأعطاه مراده . ومن زائدة فى للفاعل ، مفيدة للمبالغة فى الاستغراق . والنقب ـ كالتعب ـ : ضرر خف البعير من الحفا ، ويطلق على الجرب والحكة ورقة الجلد . والدبر كالتعب أيضا : انجراح مؤخر الظهر من الحمل ونحوه ، ووقوع ألف الوصل أول المصراع سائغ ، لأنها محل ابتداء ، كما نص عليه الخليل ، والمراد بالفجور : الحنث .

(٢) يجىء فى فضلة وقت له ... مجىء من شاب الهوى بالنزوع
ثم يرى جبلة مشبوبة ... قد شددت أحماله بالنسوع
ما شئت من زهزهة والفتى ... بمصقلاباذ لسقى الزروع

ملح ولمح به الامام عبد القاهر فى بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه ، وهو أبو عامر الجرجانى ، أى : يجىء فى بقية وقت له مع تعلق فكره بغير ما جاء له ، كمجىء من خلط الهوى بالنزوع ، أى الرجوع ويطلق النزوع على الشوق أيضاً ، ثم يرى خلقة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب . والجبلة ـ بكسرتين فتشديد ، وبتثليث أوله وسكون ثانيه ـ : الخلقة والطبيعة ؛ ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفته . ويقال : شب يشب ويشب شبابا وشبيبا : قص ولعب . وشببت النار شبا وشبوبا : أوقدتها . وشببته : أظهرته . وأشببته : هيجته . ويروى : ثم ترى جلسة مستوفز ، أى : مستعجل متهيء للقيام . وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى . والنسع : حزام عريض يوضع تحت صدر المطية ، وستر الهودج ، واسترخاء لحم الأسنان ، وريح الشمال ، والذهاب ، وسرعة الانبات . وجمعه : أنساع ونسوع ونسع . أى : والحال أنه قد شددت أحماله بالنسوع ، كناية عن الرحيل . ويقول الفارسى عند استحسان الأمر : زهازه ، فأخذ منه الزهزهة ، أى : ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير ، والخطاب لغير معين ، والحال أن الفتى فى مصقلاباد ، وهى محلة بجرجان ، ويروى بالذال المعجمة ، أى : كأن =

أو : وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله ، أو وهو بعض الشهداء فى قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدى وجماعة : ألقى السمع ، على البناء للمفعول . ومعناه : لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن . وقيل : ألقى سمعه أو السمع منه .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾

اللغوب : الإعياء . وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع . قيل : نزلت فى اليهود لعنت تكذيباً لقولهم : خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت واستلقى على العرش . وقالوا : إنّ الذى وقع من التشبيه فى هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ .

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾

﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أى اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه . وقيل : فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث ؛ فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم . وقيل : هى منسوخة بآية السيف . وقيل : الصبر مأمور به فى كل حال ﴿بحمد ربك﴾ حامداً ربك ، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة ، فالصلاة ﴿قبل طلوع الشمس﴾ الفجر ﴿وقبل الغروب﴾ الظهر والعصر ﴿ومن الليل﴾ العشاآن . وقيل التهجد ﴿وأدبار السجود﴾ التسبيح فى آثار الصلوات ، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة . وقيل النوافل بعد المكتوبات . وعن على رضى الله عنه : الركعتان بعد المغرب . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم «من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته فى عليين»[1] وعن ابن عباس رضى الله

= هناك لسقى زروعه . لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان ، كان جسمه كأنه هناك ، ولقد ترقى فى التشبيه حيث شبهه بمن خلط الهوى بغيره تشبيها بليغاً . ثم بمن تهيأ للرحيل على سبيل التمثيل ، ثم بمن سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيها بليغا ، فلله دره بليغا .

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية عبد العزيز بن عمر : سمعت مكحولا يقول : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبتا — أو قال رفعتا — فى عليين» هذا =

عنهما: الوتر بعد العشاء. والأدبار: جمع دبر. وقرئ: وأدبار، من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت. ومعناه: ووقت انقضاء السجود، كقولهم: آتيك خفوق النجم ﴿واستمع﴾ يعني واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدث عنه، كما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل: «يا معاذ اسمع ما أقول لك»، ثم حدثه بعد ذلك[1]. فإن قلت: بم انتصب اليوم؟ قلت: بما دل عليه (ذلك يوم الخروج) أي: يوم ينادى المنادى يخرجون من القبور. ويوم يسمعون: بدل من ﴿يوم ينادى﴾ و ﴿المنادى﴾ إسرافيل ينفخ في الصور وينادى: أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر ﴿من مكان قريب﴾ من صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا، وهي وسط الأرض. وقيل: من تحت أقدامهم. وقيل: من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة: أيتها العظام البالية. و ﴿الصيحة﴾ النفخة الثانية ﴿بالحق﴾ متعلق بالصيحة، والمراد به البعث والحشر للجزاء.

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)

وقرئ: تشقق، وتشقق بإدغام التاء في الشين، وتشقق على البناء للمفعول، وتنشق ﴿سراعا﴾ حال من المجرور ﴿علينا يسير﴾ تقديم الظرف يدل على الاختصاص، يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ تهديد لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿بجبار﴾ كقوله تعالى (بمسيطر) حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت داع وباعث[2]. وقيل: أريد التحلم عنهم وترك الغلظة عليهم. ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه، أي: ما أنت

=مرسل. وقد روى موصولا عن أنس عن عائشة رضي الله عنهما. أما حديث أنس فرواه الدارقطني في غرائب مالك، من رواية أحمد بن سليمان الأسدى عنه عن الزهرى عن أنس به وأتم منه. وقال. هذا موضوع على مالك. وأما حديث عائشة فرواه ابن شاهين في الترغيب. وفي إسناده جعفر بن جبع

(١) لم أجده.

(٢) قوله «إنما أنت داع وباعث» أي: تبعث الناس على الايمان. (ع)

بوال عليهم تجبرهم على الإيمان. وعلى بمنزلته فى قولك: هو عليهم، إذا كان واليهم ومالك أمرهم ﴿من يخاف وعيد﴾ كقوله تعالى (إنما أنت منذر من يخشاها) لأنه لاينفع إلا فيه دون المصر على الكفر.

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «من قرأ سورة قۤ هوّن الله عليه تارات[1] الموت وسكراته»[2].

سـورة الذاريات

مكية وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾

﴿والذاريات﴾ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره. قال الله تعالى: (تذروه الرياح) وقرئ بإدغام التاء فى الذال ﴿فالحاملات وقرا﴾ السحاب، لأنها تحمل المطر. وقرئ: وقراً، بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر. أو على إيقاعه موقع حملا ﴿فالجاريات يسراً﴾ الفلك. ومعنى (يسراً): جريا ذا يسر، أى ذا سهولة ﴿فالمقسمات أمراً﴾ الملائكة، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد: تتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة. وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن علىّ رضى الله عنه أنه قال وهو على المنبر: سلونى قبل أن لاتسألونى، ولن تسألوا بعدى مثلى، فقام ابن الكوّاء فقال: ما الذاريات ذروا؟ قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرا؟

---

(١) قوله «هون الله عليه تارات الموت» فى الصحاح: فعل ذلك الأمر تارة بعد تارة، أى: مرة بعد مرة. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه.

قال السحاب . قال: فالجاريات يسراً ؟ قال : الفلك . قال فالمقسمات أمراً ؟ قال : الملائكة[١] وكذا عن ابن عباس .وعن الحسن (المقسمات) السحاب ، يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة ، ويجوز أن يراد : الرياح لا غير ؛ لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه ، وتجرى في الجوّ جرياً سهلا ، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب . فإن قلت : مامعنى الفاء على التفسيرين ؟ قلت : أمّا على الأوّل فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب الذى تسوقه ، فبالفلك التى تجريها بهبوبها ، فبالملائكة التى تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه . وأمّا على الثانى ، فلأنها تبتدئ بالهبوب[٢] ، فتذرو التراب والحصباء ، فتنقل السحاب ، فتجرى فى الجوّ باسطة له فتقسم المطر ﴿إنّ ما توعدون﴾ جواب القسم ، وما موصولة أو مصدرية ، والموعود : البعث.ووعد صادق : كعيشة راضية . والدين: الجزاء. والواقع : الحاصل .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾

﴿الحبك﴾ الطرائق ، مثل حبك الرمل والماء : إذا ضربته الريح ، وكذلك حبك الشعر : آثار تثنيه وتكسره . قال زهير :

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُهُ ... رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ[٣]

---

(١) أخرجه الحاكم والطبرى . وغيرهما من رواية أبى الطفيل قال : رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه على المنبر فذكره وزاد فيه : قال «فمن الذين بدلوا نعمة الله كفراً ؟ قال : هم منافقو قريش» وفى الباب عن عمر مرفوعا أخرجه البزار ، وفيه قصة منيع ، وقال ابن أبى سبرة : لين الحديث ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث اه ولم ينفرد به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبى سبرة أيضا .

(٢) قوله «فلأنها تبتدئ بالهبوب» لعله : فانها . (ع)

(٣)
حتى استغاثت بماء لا رشاء له ... من الأباطح فى حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ... ريح خريق لضاحى مائه حبك
كما استغاث بسيء فز غيطلة ... خاف العيون ولم ينظر به الحشك

لزهير : يصف قطاة فرت من صقر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له ، أى : لا حبل يستق به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح ، أى : فى الأمكنة المتسعة المستوية ؛ فان أراد من الماء مكانه ؛ فمن بيانية ، فى حافاته أى جوانبه البرك جمع بركة ، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم ، أى : النبات الذى لا ساق له . وروى بعميم النجم ، أى : طويله ، تنسجه : أى تثنيه تثنيا منتظما كالنسج ، فهو استعارة مصرحة . والخريق - بالقاف - : الباردة والشديدة السير . والضاحى : الظاهر . والحبك : الطريق فى وجه الماء إذا ضربته الريح . جمع حباك أو حبيكة . والسيء بالفتح وبالكسر : اللبن فى طرف الثدى . والفز : ولد البقرة الوحشية . والغيطلة : الشجر الملتف ؛ فاضافة الفز إليها لأنه فيها . وقيل : هى البقرة الوحشية . والعيون هنا : رقباء الصيد =

والدرع محبوكة: لأنّ حلقها مطرق طرائق. ويقال: إنّ خلقة السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى. وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم: فرس محبوك المعاقم، [1] أى محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه، وهو جمع حباك، كمثال ومثل. أو حبيكة، كطريقة وطرق. وقرئ: الحبك، بوزن القفل. والحبك، بوزن السلك. والحبك، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل ﴿إنكم لفى قول مختلف﴾ قولهم فى الرسول: ساحر وشاعر ومجنون، وفى القرآن: شعر وسحر وأساطير الأولين. وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويا، إنما هو متناقض مختلف. وعن قتادة: منكم مصدق ومكذب، ومقر ومنكر ﴿يؤفك عنه﴾ الضمير للقرآن أو للرسول، أى: يصرف عنه، من صرف الصرف الذى لا صرف أشد منه [2] وأعظم، كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف فى سابق علم الله، أى: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوى. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين: أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه، فمنهم شاك، ومنهم جاحد. ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر: وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله فى قوله:

* يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُرْبِ * [3]

أى: يتناهون فى السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته: يصدر تناهيهم فى السمن عنهما،

وجواسيسه. وحشكت الدرة باللبن حشكا وحشوكا: امتلأت به. وحرك الحشك هنا للضرورة، أى: لم ينتظر به امتلاء الدرة، ولعمرى نعمت هذه الاستغاثة. وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنة.

(١) قوله «فرس محبوك المعاقم» فى الصحاح: المعاقم من الخيل: المفاصل، فالرسغ عند الحافر معقم، والركبة معقم، والعرقوب معقم. اه (ع)

(٢) قال محمود: «يصرف عنه من صرف الصرف الذى لا صرف أشد منه ... الخ» قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذى ذكر من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغنى عن قولك من صرف، لأنه بمجرده كالتكرار الأول، لولا مايستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارا، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذى صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، فكأنك قلت: لا يثبت الصرف فى الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلا صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(٣) ينهون عن أكل وعن شرب   مثل المها يرتعن فى خصب

يقال: نهى الجمل فهو ناه، إذا فرط فى السمن. والمها: جمع مهاة وهى البقرة الوحشية. ويقال: أخصب المكان فهو مخصب، وأخصبه الله. وخصب خصبا، كتعب تعبا، وعلم علما: إذا كثر كلؤه ونباته. يصف أضيافا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتى يرتعن فى الكلأ، فالخصب فى الأصل: مصدر سمى به الكلأ.

وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف . وقرأ سعيد بن جبير : يؤفك عنه من أفك ، على البناء للفاعل . أى : من أفك الناس عنه وهم قريش ، وذلك أن الحى كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأى ليسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون له : احذره ، فيرجع فيخبرهم. وعن زيد بن على : يأفك عنه من أفك ، أى : يصرف الناس عنه من هو مأفوك فى نفسه. وعنه أيضا : يأفك عنه من أفك ؛ أى : يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب . وقرئ : يؤفن عنه من أفن ، أى : يحرمه من حرم ، من أفن الضرع إذا نهكه حلبا .

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم ، كقوله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره) وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى : لعن وقبح . والخراصون : الكذابون المقدرون ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف ، واللام إشارة إليهم ، كأنه قيل : قتل هؤلاء الخراصون . وقرئ : قتل الخراصين ، أى : قتل الله ﴿فى غمرة﴾ فى جهل يغمرهم ﴿ساهون﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يسئلون﴾ فيقولون ﴿أيان يوم الدين﴾ أى متى يوم الجزاء . وقرئ بكسر الهمزة وهى لغة . فإن قلت : كيف وقع أيان ظرفا لليوم ، وإنما تقع الأحيان ظروفا للحدثان ؟ قلت : معناه : أيان وقوع يوم الدين . فإن قلت : فبم انتصب اليوم الواقع فى الجواب ؟ قلت : بفعل مضمر دل عليه السؤال ، أى : يقع يوم هم على النار يفتنون . ويجوز أن يكون مفتوحا لإضافته إلى غير متمكن وهى الجملة . فإن قلت : فما محله مفتوحا ؟ قلت : يجوز أن يكون محله نصبا بالمضمر الذى هو يقع ؛ ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون . وقرأ ابن أبى عيلة بالرفع ﴿يفتنون﴾ يحرقون ويعذبون . ومنه الفتين : وهى الحرة ؛ لأن حجارتها كأنها محرقة ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ فى محل الحال ، أى : مقولا لهم هذا القول ﴿هذا﴾ مبتدأ ، و﴿الذى﴾ خبره ، أى : هذا العذاب هو الذى ﴿كنتم به تستعجلون﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم ؛ أى : ذوقوا هذا العذاب .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم راضين به ، يعنى أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلق بالقبول مرضى غير مسخوط ، لأن جميعه حسن طيب . ومنه قوله تعالى (ويأخذ الصدقات) أى يقبلها ويرضاها ﴿ محسنين ﴾ قد أحسنوا أعمالهم ، وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿ ما ﴾ مزيدة . والمعنى : كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلا ظرفا ، ولك أن تجعله صفة للمصدر ، أى : كانوا يهجعون هجوعا قليلا . ويجوز أن تكون (ما) مصدرية أو موصولة ؛ على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ، أو ما يهجعون فيه . وارتفاعه بقليلا على الفاعلية . [1] وفيه مبالغات لفظ الهجوع ، وهو الفرار من النوم . [2] قال :

قَدْ حَصَتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِى فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ [3]

وقوله (قليلا) و (من الليل) لأن الليل وقت السبات والراحة ، وزيادة (ما) المؤكدة لذلك :

---

(١) ذكر الزمخشرى فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلا ظرف منتصب بيهجعون ، أى : كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل . أو تكون (ما) مصدرية أو موصولة على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . أو ما يهجعون فيه ، وارتفاعه بقليلا على الفاعلية ، قال أحمد : وجوه مستقيمة خلا جعل (ما) مصدرية ، فان قليلا حينئذ واقع على الهجوع ، لأنه فاعله . وقوله (من الليل) لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بيانا له ، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه ، ولا كذلك على أنها موصولة ؛ فان قليلا حينئذ واقع على الليل ، كأنه قال : قليلا المقدار الذى كانوا يهجعون فيه من الليل ، فلا مانع أن يكون (من الليل) بيانا للقليل على هذا الوجه ، وهذا الذى ذكره إنما تبع فيه الزجاج . وقد رد الزمخشرى أن تكون ما نافيا وقليلا منصوب بيهجعون على تقدير : كانوا ما يهجعون قليلا من الليل ، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما فى حيز النفى عليه . قلت : وفيه خلل من حيث المعنى ، فان طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت فى الشرع ولا معهود . ثم قال : وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فاذا أسحروا شرعوا فى الاستغفار . كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم . قال : وقوله (هم) معناه : هم الأحقاء بالاستغفار دون المصرين . قال : وفى الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم . قال : وقوله : (قليلا) وقوله (من الليل) لأنه وقت السبات . قال : ومنها زيادة ما فى بعض الوجوه . قلت : وفى عدها من المبالغة نظر ؛ فانها تؤكد الهجوع وتحققه ، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل .

(٢) قوله «وهو الفرار من النوم» فى الصحاح : الفرار بالكسر : النوم القليل اه . (ع)

(٣) قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع
أسعى على جل بنى مالك كل امرئ فى شأنه ساع

لقيس بن الأسلت . وحصت : أهلكت أو حلقت ، البيضة التى تلبس على الرأس فى الحرب ، أى حلقت شعر رأسى من دوام لبسها للحرب . وشبه النوم بالمطعوم لاستلذاذ مباديه على طريق المكنية ، وأطعم : أى أتناول تخييل لذلك والتهجاع : التغافل قليلا لطرد النوم ؛ فالاستثناء منقطع . وجلهم : مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم . وروى : على حبل بنى مالك ، وعليه فشبه العهد بالحبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية ، أى : أسعى فى شأنى متمسكا بعهدهم ، وعلى الأول فقوله « كل امرئ فى شأنه ساع » فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم ، وأنه شأنه

وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار ، كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم . وقوله ﴿هم يستغفرون﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه . فإن قلت : هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم ، وأن يكون المعنى : أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ، ويحيونه كله ؟ قلت : لا ، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . تقول : زيدا لم أضرب ، ولا تقول . زيدا ما ضربت : السائل : الذى يستجدى ﴿والمحروم﴾ الذى يحسب غنيا فيحرم الصدقة لتعففه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين الذى ترده الأكلة والأكلتان واللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان » قالوا : فما هو ؟ قال « الذى لا يجد ولا يتصدق عليه » [1] وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المحارف [2] الذى لا يكاد يكسب .

وَفِى الْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

﴿وفى الأرض آيات﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هى مدحوة كالبساط لما فوقها كما قال (الذى جعل لكم الأرض مهادا) وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين فى مناكبها ، وهى مجزأة : فمن سهل وجبل وبر وبحر : وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وعذاة [3] وسبخة؛ وهى كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم ، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدواب المنبثة فى برها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال : من الوحشى والإنسى والهوام ، وغير ذلك ﴿للموقنين﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصل إلى المعرفة ، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها ، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وإيقانا إلى إيقانهم ﴿وفى أنفسكم﴾ فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق : ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعانى ، وبالألسن ، والنطق ، ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر ، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له ، وما سوى فى الأعضاء

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة .
(٢) قوله « وقيل المحارف » فى الصحاح : رجل محارف ، بفتح الراء : أى محدود محروم ، خلاف قولك : مبارك اه . (ع)
(٣) قوله «وعذاة» فى الصحاح «العذاة» : الأرض الطيبة التربة ، والجمع عذوات . (ع)

من المفاصل للانعطاف والتثنى . فإنه إذا جسا[1] شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿وفى السماء رزقكم﴾ هو المطر ؛ لأنه سبب الأقوات . وعن سعيد بن جبير : هو الثلج وكل عين دائمة منه . وعن الحسن : أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم ﴿وماتوعدون﴾ الجنة : هى على ظهر السماء السابعة تحت العرش . أو أراد : أن ما ترزقونه فى الدنيا وما توعدون به فى العقبى كله مقدر مكتوب فى السماء . قرئ : مثل ما بالرفع صفة للحق ، أى حق مثل نطقكم ، وبالنصب على : إنه لحق حقاً مثل نطقكم . ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن . وما مزيدة بنص الخليل ، وهذا كقول الناس : إن هذا الحق ، كما أنك ترى وتسمع ، ومثل ما إنك ههنا . وهذا الضمير إشارة إلى ماذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أو إلى ماتوعدون . وعن الأصمعى : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن . فقال : اتل علىّ ، فتلوت (والذاريات) فلما بلغت قوله تعالى : (وفى السماء رزقكم) قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر ، فسلم علىّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحق ، فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ، قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ

(١) قوله «إذا جسا شيء منها» فى الصحاح : جست اليد وغيرها جسوا وجساء : يبست اهـ . (ع)

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

﴿هل أتاك﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما عرفه بالوحى. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم؛ لأنه فى الأصل مصدر ضافه، وكانوا اثنى عشر ملكا. وقيل: تسعة عاشرهم جبريل. وقيل ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملك معهما. وجعلهم ضيفاً؛ لأنهم كانوا فى صورة الضيف: حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا فى حسبانه كذلك. وإكرامهم: أنّ إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القرى أو أنهم فى أنفسهم مكرمون. قال الله تعالى (بل عباد مكرمون). ﴿إذ دخلوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم؛ وإلا فبما فى ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذكر ﴿سلاما﴾ مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلاما، وأمّا ﴿سلام﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب الله تعالى. وهذا أيضاً من إكرامه لهم. وقرئا مرفوعين. وقرئ: سلاما قال سلما. والسلم: السلام. وقرئ: سلاما قال سلم ﴿قوم منكرون﴾ أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام. أو أراد: أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، كما لو أبصر العرب قوما من الخزر[1] أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالا لهم، كأنه قال: أنتم قوم منكرون، فعرفونى من أنتم ﴿فراغ إلى أهله﴾ فذهب إليهم فى خفية من ضيوفه؛ ومن أدب المضيف أن يخفى أمره[2]، وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه ويعذره. قال قتادة: كان عامة مال نبى الله إبراهيم: البقر ﴿فجاء بعجل سمين﴾. والهمزة فى ﴿ألا تأكلون﴾ للإنكار: أنكر عليهم ترك الأكل. أو حثهم عليه ﴿فأوجس﴾ فأضمر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحرموا بطعامه[3]

(١) قوله «قوما من الخزر» فى الصحاح: الخزر: جيل من الناس. والأخزر: ضيق العين صغيرها، كما أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفى أمره ... الخ» قال أحمد: معنى حسن، وقد نقل أبو عبيد أنه لايقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد فى قوله عليه السلام: «إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعده معه، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد: يقال روغ اللقمة وسغبلها وصغسغها ومرغها: إذا غمسها فرويت سمنا. قلت: وهو من هذا المعنى، لأنها تذهب مغموسة فى السمن حتى تخفى ومن مقلوبه: غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

(٣) قوله «لأنهم لم يتحرموا بطعامه» فى الصحاح «الحرمة»: مالايحل انتهاكه، وقد تحرم بصحبته اه. وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

فظن أنهم يريدون به سوءا . وعن ابن عباس : وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب . وعن عون بن شداد : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه ﴿بغلام عليم﴾ أى يبلغ ويعلم . وعن الحسن : عليم : نبيّ ، والمبشر به إسحاق ، وهو أكثر الأقاويل وأصحها : لأن الصفة صفة سارة لا هاجر ، وهى امرأة إبراهيم وهو بعلها . وعن مجاهد : هو إسماعيل ﴿فى صرة﴾ فى صيحة ، من : صر الجندب ، وصرّ القلم والباب ، ومحله النصب على الحال ، أى : فجاءت صارة . قال الحسن : أقبلت إلى بيتها وكانت فى زاوية تنظر إليهم ، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل : فأخذت فى صرة ، كما تقول : أقبل يشتمنى . وقيل : صرتها قولها : أوه . وقيل : يا ويلتا . وعن عكرمة : رنتها[1] ﴿فصكت﴾ فلطمت ببسط يديها . وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عجوز﴾ أنا عجوز ، فكيف ألد ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الذى قلنا وأخبرنا به ﴿قال ربك﴾ أى إنما نخبرك عن الله ، والله قادر على ما تستبعدين . وروى أنّ جبريل قال لها : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلا فى بعض الأمور ﴿قال فما خطبكم﴾ أى : فما شأنكم وما طلبكم ﴿إلى قوم مجرمين﴾ إلى قوم لوط ﴿حجارة من طين﴾ يريد : السجيل ، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر ، حتى صار فى صلابة الحجارة ﴿مسوّمة﴾ معلمة ، من السومة وهى العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به . وقيل : أعلمت بأنها من حجارة العذاب . وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا . سماهم مسرفين ، كما سماهم عادين ، لإسرافهم وعدوانهم فى عملهم : حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم . الضمير فى ﴿فيها﴾ للقرية ، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة . وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد ، وأنهما صفتا مدح . قيل : هم لوط وابنتاه . وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر . وعن قتادة : لو كان فيها

(١) قوله «ورنتها» فى الصحاح «الرنة» الصوت» ، يقال : رنت المرأة رنينا وأرنت أيضا : صاحت . (ع)

أكثر من ذلك لأنجاهم، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لاضيعة على أهله عند الله ﴿آية﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هى صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود منتن.

وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿وفى موسى﴾ عطف على (وفى الأرض آيات) أو على قوله (وتركنا فيها آية) على معنى: وجعلنا فى موسى آية كقوله:

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا *

﴿فتولى بركنه﴾ فازور وأعرض، كقوله تعالى (ونأى بجانبه) وقيل: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. وقرئ: بركنه، بضم الكاف ﴿وقال ساحر﴾ أى هو ساحر ﴿مليم﴾ آت بما يلام عليه من كفره وعناده، والجملة مع الواو حال من الضمير فى فأخذناه. فإن قلت: كيف وصف نبى الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون فى قوله تعالى (فالتقمه الحوت وهو مليم)؟ قلت: موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى (وعصوا رسله)، (وعصى آدم ربه) لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

﴿العقيم﴾ التى لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهى ريح الهلاك. واختلف فيها: فعن على رضى الله عنه: النكباء. وعن ابن عباس: الدبور. وعن ابن المسيب: الجنوب. الرميم: كل مارم أى بلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

﴿حتى حين﴾ تفسيره قوله (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام). ﴿فعتوا عن أمر ربهم﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: الصعقة وهى المرة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة النازلة نفسها ﴿وهم ينظرون﴾ كانت نهارا يعاينونها. وروى أن العمالقة كانوا معهم فى الوادى ينظرون إليهم وما ضرتهم ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ كقوله تعالى (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به، إذا عجز عن دفعه ﴿منتصرين﴾ ممتنعين من العذاب.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وقوم﴾ قرئ بالجر على معنى: وفى قوم نوح وتقويه قراءة عبد الله: وفى قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح؛ لأن ماقبله يدل عليه. أو واذكر قوم نوح.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْـدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾

﴿بأيد﴾ بقوة. والأيد والآد: القوة. وقد آد يئيد وهو أيد ﴿وإنا لموسعون﴾ لقادرون، من الوسع وهو الطاقة. والموسع: القوى على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة ﴿فنعم الماهدون﴾ فنعم الماهدون نحن.

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ومن كل شيء﴾ أى من كل شيء من الحيوان ﴿خلقنا زوجين﴾ ذكراً وأنثى. وعن الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة؛ فعدد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لعلكم تذكرون﴾ أى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

﴿ففروا إلى الله﴾ أى إلى طاعته وثوابه [1] من معصيته وعقابه، ووحدوه ولا تشركوا به

---

(١) قال محمود: «معنى ففروا إلى الله، أى: إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه ... الخ» قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله، لأنه لا يكاد يخلى سورة حتى يدس فى تفسيرها بيده إلى معتقده، فدس ههنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتمل الآية لما ذكر؛ فان العناية فى قوله (ففروا إلى الله) الفرار إلى عبادة الله =

شيئا، وكرر قوله ﴿إنى لكم منه نذير مبين﴾ عند الأمر بالطاعة والنهى عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألاترى إلى قوله تعالى (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا) والمعنى: قل يا محمد: ففرّوا إلى الله.

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

﴿كذلك﴾ الأمر، أى مثل ذلك، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحرا ومجنونا، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿ما أتى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتى؛ لأنّ ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت، لكان صحيحا، على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا ﴿أتواصوا به﴾ الضمير للقول، يعنى: أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه ﴿بل هم قوم طاغون﴾ أى لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا فى زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهى الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿فتول عنهم﴾ فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت عنهم العناد واللجاج، فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك فى البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله ﴿فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾ أى تؤثر فى الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون فى الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيمانا. وروى أنه لما نزلت (فتول عنهم) حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أنّ الوحى قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر، فأنزل الله. وذكر.

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

ـــ فتوعد من لم يعبد الله، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الاشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشرى: المأمور به فى الأول الطاعة الموظفة بعد الايمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود. وعلى هذا لا يكون تكراراً على اختلاف الوعيدين، فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها، ليتم الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

أى : وماخلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها [١] . فإن قلت : لو كان مريدا [٢] للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا ؟ قلت : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم .

مَاأُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)

يريد : أنّ شأنى مع عبادى ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنّ ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم، فإمّا مجهز فى تجارة ليفى ربحا . أو مرتب فى فلاحة ليغتلّ أرضا . أو مسلم فى حرفة لينتفع بأجرته . أو محتطب . أو محتش . أو طابخ . أو خابز ، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التى هى تصرف فى أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأمّا مالك ملك العبيد وقال لهم :اشتغلوا بما يسعدكم فى أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم فى تحصيل رزقى ولا رزقكم ، وأناغنىّ عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندى ، فما هو إلا أنا وحدى ﴿المتين﴾ الشديد القوة . قرئ بالرفع صفة لذو ، وبالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار ، والمعنى فى وصفه بالقوة والمتانة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شىء . وقرئ : الرازق . وفى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : إنى أنا الرازق .

---

(١) قال محمود : «إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها ... الخ» قال أحمد : من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهراً موافق لمعتقده نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالا ، وإيراد معتقده جوابا ؛ فكذلك صنع ههنا ، فنقول : السؤال الذى أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره ؛ فانه سؤال مقدماته قطعية عقلية ، فيجب تنزيل الآية عليه ، وهى أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة ، فانها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لايقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فان عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم . والله تعالى لا يطلب من عباده رزقا ولا إطعاما ، وإنما يطلب منهم عبادته لاغير ، وزائد على كونه لايطلب منهم رزقا أنه هو الذى يرزقهم ، فهذا المعنى الشريف هو الذى تحلى تحت راية هذه الآية ، وله سيقت ، وبه نطقت ، ولكن الهوى يعمى ويصم ؛ فحاصله : وما خلقت الجن والانس إلا لأدعوهم إلى عبادتى ، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة ، فانه وافق معتقدهم وبالله التوفيق .

(٢) قوله «لو كان مريدا للعبادة» قد يقال : لا يلزم من خلقهم للعبادة أن يريدها من جميعهم . وقوله «مع كونه مريدا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر . وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده الله كان ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، وتحقيقه فى علم التوحيد . (ع)

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩)
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

الذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل ، أصله فى السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . قال :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَا القَلِيبُ (١)

ولما قال عمرو بن شاس :

وَفِى كُلِّ حَىٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لِشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ (٢)

قال الملك : نعم وأذنبه . والمعنى : فإنّ الذين ظلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون . وعن قتادة : سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ﴿من يومهم﴾ من يوم القيامة . وقيل : من يوم بدر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا . (٣)

---

(١) إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب
فان أبى كان له القليب

الشريب من يشرب معك . والذنوب : الدلو الممتلئة ماء ، والنصيب من الماء . والذنابة : مسيل الماء . والقليب البئر لقلب ترابه . يقول : إنا كرام نشاطر شريبنا ، فان لم يرض بالمناوبة أعطيناه الجميع . وروى بدل المصراعين الأخيرين : لنا ذنوب ولكم ذنوب فان أبيتم فلنا القليب
ولعل الصواب : فان أبى أو فان أبيتم فلنا ؛ لئلا ينكر البيت . والمعنى : نقول لمن يشرب معنا ذلك ، ففيه دلالة على الشجاعة والغلبة . والشريب كالعشير : يطلق على الواحد والمتعدد .

(٢) وأنت الذى آثاره فى عدوه من البؤس والنعمى لهن ندوب
وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب

لشاس أخى علقمة بن عبيدة ، يخاطب الحرث بن أبى شمر الغسانى وكان أسيراً عنده . والندوب - فى الأصل - : آثار الجراح بعد برئها . ومن بيانية ، أى : آثاره التى هى البؤس والنعمى . أو ابتدائية ، أى : الناشئة منهما ، لهن بقايا فى عدوه . والبؤس : الشدة . والنعمى : الرخاء . والخابط : الذى يخبط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص ، ثم قيل لكل طالب : خابط ومختبط . ويجوز أن يكون من قولهم : خبط الشجرة ؛ ليسقط ورقها للابل والغنم فاستعار فى نفسه الورق للأموال ، والخبط تخييل والمعنى أنه شجاع كريم ، بأسه أوهن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشاس من وضع الظاهر موضع المضمر لاظهار المسكنة والاستعطاف . وقيل : إن القائل عمرو بن شاس ، فوضع الظاهر فى موضعه . ولما سمع الحرث ذلك قال : نعم وأذنبته ، وكسا شاسا ومن معه ، وأركبهم وأطلقهم ، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب : وهو الدلو الممتلئة .

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة الطور

مكية ، وهى تسع وأربعون ، وقيل : ثمان وأربعون آية

[نزلت بعد السجدة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)

الطور : الجبل الذى كلم الله عليه موسى وهو بمدين . والكتاب المسطور فى الرق المنشور ، والرق : الصحيفة . وقيل : الجلد الذى يكتب فيه الكتاب الذى يكتب فيه الأعمال . قال الله تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً) وقيل : هو ما كتبه الله لموسى وهو يسمع صرير القلم . وقيل : اللوح المحفوظ . وقيل القرآن ، ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب ، كقوله تعالى (ونفس وما سوّاها) . ﴿والبيت المعمور﴾ الضراح [1] فى السماء الرابعة . وعمرانه : كثرة غاشيته من الملائكة . وقيل : الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين ﴿والسقف المرفوع﴾ السماء ﴿والبحر المسجور﴾ المملوء . وقيل : الموقد ، من قوله تعالى ﴿وإذا البحار سجرت) وروى أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها ناراً تسجر بها نار جهنم . وعن على رضى الله عنه أنه سأل يهوديا : أين موضع النار فى كتابكم؟ قال : فى البحر . قال على : ما أراه إلا صادقا ، [2] لقوله تعالى (والبحر المسجور) . ﴿لواقع﴾ لنازل . قال

---

(١) قوله «والبيت المعمور الضراح فى السماء» فى الصحاح «الضراح» بالضم : بيت فى السماء ، وهو البيت المعمور . عن ابن عباس . (ع)

(٢) أخرجه الطبرى من رواية داود بن أبى هند عن سعيد بن المسيب قال : قال على لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . قال . ما أراه إلا صادقا : (والبحر المسجور) ، (وإذا البحار سجرت) .

جبير بن مطعم: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلمه فى الأسارى فألفيته فى صلاة الفجر يقرأ سورة الطور، فلما بلغ: إن عذاب ربك لواقع: أسلمت خوفا من أن ينزل العذاب [١] ﴿تمور السماء﴾ تضطرب وتجىء وتذهب. وقيل: المور تحرك فى تموج، وهو الشىء يتردد فى عرض كالداغصة فى الركبة. [٢]

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

غلب الخوض فى الاندفاع فى الباطل والكذب. ومنه قوله تعالى ﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾، (وخضتم كالذى خاضوا) الدع: الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزخا فى أقفيتهم. [٣] وقرأ زيد بن علىّ: يدعون، من الدعاء أى يقال لهم: هلموا إلى النار، وادخلوا النار ﴿دعا﴾ مدعوعين، يقال لهم: هذه النار ﴿أفسحر هذا﴾ يعنى كنتم تقولون للوحى هذا سحر، أفسحر هذا؟ يريد: أهذا المصداق أيضا سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أم أنتم لا تبصرون﴾ كما كنتم لا تبصرون فى الدنيا، يعنى: أم أنتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر، وهذا تقريع وتهكم ﴿سواء﴾ خبر محذوف، أى: سواء عليكم الأمران: الصبر وعدمه. فإن قلت: لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾؟ قلت: لأنّ الصبر إنما يكون له مزية على الجزع، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة، فلا مزية له على الجزع.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ

(١) لم أجده هكذا. والذى جاء فى الصحيح «أن ذلك فى صلاة المغرب» وأنه قال لما سمع (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون) ـ إلى آخره: كاد قلبى يطير».

(٢) قوله «كالداغصة فى الركبة» هى العظم المدور الذى يتحرك على رأس الركبة، كما فى الصحاح. (ع)

(٣) قوله «وزخا فى أقفيتهم» فى الصحاح «زخه» أى: دفعه فى وهدة اهـ. (ع)

رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

﴿في جنات ونعيم﴾ في أية جنات وأي نعيم، بمعنى الكمال في الصفة. أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة. وقرئ: فاكهين وفكهين وفاكهون: من نصبه حالا جعل الظرف مستقرا، ومن رفعه خبرا جعل الظرف لغوا، أي: متلذذين ﴿بما آتاهم ربهم﴾. فإن قلت: علام عطف قوله ﴿ووقاهم ربهم﴾؟ قلت: على قوله (في جنات) أو على (آتاهم ربهم) على أن تجعل ما مصدرية؛ والمعنى: فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة. يقال لهم ﴿كلوا واشربوا﴾ أكلا وشربا ﴿هنيئا﴾ أو طعاما وشرابا هنيئا، وهو الذي لا تنغيص فيه. ويجوز أن يكون مثله في قوله:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ [1]

أعني: صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعا به ما استحلت كما يرتفع بالفعل، كأنه قيل: هناء عزة المستحل من أعراضنا، وكذلك معنى (هنيئا) ههنا: هناكم الأكل والشرب. أو هناكم ما كنتم تعملون؛ أي: جزاء ما كنتم تعملون. والباء مزيدة كما في (كفى بالله) والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب. وقرئ: بعيس [2] عين.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ

---

(١) يكلفها الخنزير شتمي وما بها ... هواني ولكن للمليك استذلت
هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

لكثير بن صخر صاحب عزة، كان ينشد أشعاره في حلقة البصرة، فمرت به مع زوجها فقال لها: لتغضبنه أو لأضربنك، فقالت: كذا وكذا بفم الشاعر، فقال ذلك. وقيل: خرجت تطلب سمنا فصادفها كثير فتحادثا، وسكب من أداوة معه في إنائها حتى بل ثوبها، وأنكر ذلك زوجها، فقصت عليه القصص، فأمرها بشتمه فقال ذلك. والمليك: مالك أمرها. وما بها هواني: أي ليست مريدة له. وهنيئا مريئا: صفتان مستعملتان استعمال المصدر النائب عن فعله، وما استحلت: مرفوع محلا بأحدهما على التنازع، وغير نصب على الحال. ومن أعراضنا بيان لما بعده. والهنيء والمريء: الذي لا تنغيص فيه، المحمود العاقبة، والمخامر: المخالط، وشبه عرضه بالشراب السائغ على طريق المكنية. وهنيئا مريئا: تخييل. ويجوز أن التجوز فيهما على طريق التصريحية.

(٢) قوله «وقرئ بعيس» في الصحاح: العيس - بالكسر -: الابل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة، واحدها: أعيس، والأنثى: عيساء، ويقال: هي كرائم الابل اه ولعله هنا استعارة للنساء. (ع)

وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)

﴿والذين آمنوا﴾ معطوف على (حور عين) أى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا ، أى : بالرفقاء والجلساء منهم ، كقوله تعالى (إخوانا على سرر متقابلين) فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين ﴿وأتبعناهم ذرياتهم﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه لتقرّ بهم [1] عينه » ثم تلا هذه الآية . فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم فى أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم . ثم قال ﴿بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم﴾ أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها ، تفضلا عليهم وعلى آبائهم ، لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم . فإن قلت : ما معنى تنكير الإيمان ؟ قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة . ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الدانى المحل ، كأنه قال : بشىء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم . وقرئ : وأتبعتهم ذريتهم وأتبعتهم ذريتهم . وذرياتهم : وقرئ : ذرياتهم ، بكسر الذال . ووجه آخر : وهو أن يكون (والذين آمنوا) مبتدأ خبره (بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم) وما بينهما اعتراض ﴿وما ألتناهم﴾ وما نقصناهم ، يعنى : وفرنا عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل ، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شىء . وقيل معناه : وما نقصناهم من ثوابهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم ، إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل . قرئ : ألتناهم ، وهو من بابين : من ألت يألت ، ومن ألات يليت ، كأمات يميت . وآلتناهم ، من آلت يؤلت ، كآمن يؤمن . ولتناهم ، من لات يليت . وولتناهم ، من ولت يلت . ومعناهنّ واحد ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أى مرهون ، كأن نفس العبد رهن عند الله بالعمل الصالح الذى هو مطالب به ، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحا فكها وخلصها ، وإلا أوبقها ﴿وأمددناهم﴾ وزدناهم فى وقت بعد وقت ﴿يتنازعون﴾ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم ﴿كأسا﴾ خمراً ﴿لا لغو فيها﴾ فى شربها ﴿ولا تأثيم﴾ أى لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين فى الدنيا على الشراب فى سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم

(١) أخرجه البزار وابن عدى . وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه . والثعلبى من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا . قال البزار تفرد قيس برفعه . ورواه الثورى موقوفا ورواه الحاكم والبيهقى فى الاعتقاد والطبرى وابن أبى حاتم من طريق الثورى عن عمرو بن مرة به موقوفا

لو فعله فى دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك، لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة، وهم حكماء علماء. وقرئ: لا لغو فيها ولا تأثيم ﴿غلمان لهم﴾ أى مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿مكنون﴾ فى الصدف، لأنه رطبا أحسن وأصفى. أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالى القيمة. وقيل لقتادة: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[1] وعنه عليه السلام: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه: لبيك لبيك»[2].

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

﴿يتساءلون﴾ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند الله ﴿مشفقين﴾ أرقاء القلوب من خشية الله. وقرئ: ووقانا، بالتشديد ﴿عذاب السموم﴾ عذاب النار ووهجها ولمحها. والسموم: الريح الحارّة التى تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة ﴿من قبل﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه، يعنون فى الدنيا ﴿ندعوه﴾ نعبده ونسأله الوقاية ﴿إنه هو البر﴾ المحسن ﴿الرحيم﴾ العظيم الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب. وقرئ: أنه بالفتح، بمعنى: لأنه.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

﴿فذكر﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبطنك قولهم: كاهن أو مجنون، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض: لأنّ الكاهن يحتاج فى كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله. وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوّة ورجاحة العقل أحد هذين.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ

(١) أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به قال فذكره، وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلا

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية عمر بن عبد العزيز البصرى عن يوسف بن أبي طيبة عن وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه.

مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَـٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

وقرئ: يتربص به ريب المنون، على البناء للمفعول. وريب المنون. ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال:

* أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَيْبِهِ أَتَوَجَّعُ *[1]

وقيل: المنون الموت، وهو في الأصل فعول؛ من منه إذا قطعه: لأن الموت قطوع؛ ولذلك سميت شعوب. قالوا: ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة ﴿من المتربصين﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي ﴿أحلامهم﴾ عقولهم وألبابهم. ومنه قولهم: أحلام عاد. والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهن وشاعر، مع قولهم مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى ﴿أم هم قوم طاغون﴾ مجاوزون الحد في العناد مع ظهور الحق لهم. فإن قلت: ما معنى كون الأحلام آمرة؟ قلت:

---

(١) أمن المنون وريبه أتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأبي ذويب مطلع مرثية بنيه، والاستفهام للانكار. وريب المنون: ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر. والمنون: الموت، كالمنية؛ لأنه مقدر، فهو من منى إذا قدر. وقوله «والدهر ... الخ» جملة حالية. ويقال: أعتبه، إذا قبل عتابه وأزال شكواه؛ فشبه الدهر بانسان مسيء على طريق المكنية، وإسناد الاعتاب تخييل. والجزع: شدة الحزن.

هو مجاز لأدائها إلى ذلك ، كقوله تعالى (أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) وقرئ : بل هم قوم طاغون . ﴿تقوله﴾ اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بل لا يؤمنون﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن ، مع علمهم ببطلان قولهم ، وأنه ليس بمتقول لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب . وقرئ بحديث مثله على الإضافة ، والضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعناه : أن مثل محمد فى فصاحته ليس بمعوز فى العرب ، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادرا عليه ، فليأتوا بحديث ذلك المثل : ﴿أم خلقوا﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذى عليه فطرتهم ﴿من غير شيء﴾ من غير مقدر ﴿أم هم﴾ الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق ﴿بل لا يوقنون﴾ أى : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا : الله ، وهم شاكون فيما يقولون ، لا يوقنون . وقيل : أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب ؟ وقيل: أخلقوا من غير أب وأم ؟ ﴿أم عندهم خزائن﴾ الرزق حتى يرزقوا النبوة من شاؤا . أو : أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة ؟ ﴿أم هم المسيطرون﴾ الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم؟ وقرئ: المصيطرون بالصاد ﴿أم لهم سلم﴾ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم فى العاقبة دونه كما يزعمون ؟ ﴿بسلطان مبين﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم . المغرم : أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، أى : لزمهم مغرم ثقيل فدحهم [1] فزهدهم ذلك فى اتباعك ؟ ﴿أم عندهم الغيب﴾ أى اللوح المحفوظ ﴿فهم يكتبون﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث . وإن بعثنا لم نعذب [2] ﴿أم يريدون كيداً﴾ وهو كيدهم فى دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين ﴿فالذين كفروا﴾ إشارة إليهم أو أريد بهم كل من كفر بالله ﴿هم المكيدون﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم . وذلك أنهم قتلوا يوم بدر . أو المغلوبون فى الكيد ، من كايدته فكدته .

وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

---

(١) قوله «فدحهم فزهدهم» أى : أثقلهم وبهظهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وإن بعثنا لم نعذب» لعله : لا نعذب . (ع)

الكسف : القطعة ، وهو جواب قولهم (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) يريد : أنهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا : هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب . وقرئ : حتى يلقوا ويلقوا ﴿يصعقون﴾ يموتون . وقرئ : يصعقون . يقال . صعقه فصعق ، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿وإنّ للذين ظلموا﴾ وإن . لهؤلاء الظلمة ﴿عذابا دون ذلك﴾ دون يوم القيامة : وهو القتل ببدر ، والقحط سبع سنين ، وعذاب القبر . وفى مصحف عبد الله : دون ذلك قريبا .

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)

﴿لحكم ربك﴾ بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة ﴿فإنك بأعيننا﴾ مثل ، أى : بحيث نراك ونكلؤك . وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة . ألا ترى إلى قوله تعالى (ولتصنع على عينى) . وقرئ : وبأعينا ، بالإدغام ﴿حين تقوم﴾ من أى مكان قمت . وقيل : من منامك ﴿وإدبار النجوم﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل . وقرئ : وأدبار ، بالفتح بمعنى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت . والمراد الأمر بقول : سبحان الله وبحمده فى هذه الأوقات . وقيل التسبيح : الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل : صلاة العشاءين ، وأدبار النجوم : صلاة الفجر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الطور كان حقا على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه فى جنته »[1] .

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة النجم

مكية [إلا آية ٣٢ فمدنية] وآياتها ٦٢ وقيل ٦١ آية

[نزلت بعد الإخلاص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

النجم : الثريا ، وهو اسم غالب لها . قال :

إِذَا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءَ ابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءَ [1]

(١) هذا تقوله العرب عند الشتاء ، وتقول عند الصيف : « طلع النجم غدية وابتغى الراعى شكية » والنجم : اسم غالب على الثريا ؛ قيل : إنها تخفى فى السنة أربعين يوما يسترها ضوء الشمس ، وتظهر عند دخول الشتاء عشاء ، وعند دخول الصيف صباحا . والكساء : ثوب سابغ . والغدية : تصغير غدوة : وهى أول النهار . والشكية : تصغير شكوة ، وهي قربة صغيرة جرداء ؛ لأنه فى الشتاء يطلب كساء بدنية لكثرة البرد ، وفى الصيف يطلب قربة يشرب منها لكثرة الحر ؛ والأول كناية عن دخول البرد ، والثانى كناية عن دخول الحر .

أو جنس النجوم . قال :

﴿ فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِى مُسْتَحِيرَةٍ ﴾ (١)

يريد النجوم ﴿إذا هوى﴾ إذا غرب أو انتثر يوم القيامة . أو النجم الذى يرجم به إذا هوى : إذا انقض . أو النجم من نجوم القرآن ، وقد نزل منجما فى عشرين سنة ، إذا هوى : إذا نزل . أو النبات إذا هوى : إذا سقط على الأرض . وعن عروة بن الزبير أنّ عتبة بن أبى لهب وكانت تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمداً فلأوذينه ؛ فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذى دنا فتدلى ، ثم تفل فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم (٢) لها وقال : ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة ! فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر

(١)
فقد علموا أنى وفيت لربها ... فراح على عنس بأخرى يقودها
قريت الكلابى الذى يبتغى القرى ... وأمك إذ يحدى إلينا قعودها
فباتت تعد النجم فى مستحيرة ... سريع بأيدى الآكلين جمودها
فلما سقيناها العكيس تملأت ... مذاخرها وارفض منها وريدها
ولما قضت من ذى الاناء لبانة ... أرادت إلينا حاجة لا نريدها

للراعى النميرى من بنى قطن بن ربيعة : نزل به أضياف من بنى كلاب وقد غابت إبله ، فنحر لهم ناقة من ركابهم ، فلما أصبح أقبلت عليه إبله ، فأعطى صاحب الناقة مثلها ، وأعطاه ثنية زيادة عليها ، ندمه خنزر بن أرقم من بنى بدر ابن ربيعة على ذبحها ، فأجابه الراعى بقصيدة منها ذلك . والعنس : الناقة الصلبة . وأمك : عطف على الكلابى . ويحدى : مبنى للمجهول ، أى : يساق بالغناء له . والقعود ـ كصبور ـ : البكر من الابل ؛ لأنه لا يمكن الراكب من القعود على ظهره . وروى : إذ يحدى إليك ، بدل إلينا . ولعله بعد الضيافة الآتية أو تحريف ؛ فباتت أمك تعد النجم ، أى : تحسب صور النجوم ، أو تحسب فقاقيع المرق فى الجفنة ؛ فاستعار لها النجم على سبيل التصريحية . أو تحسب الثريا ؛ لأن النجم اسم غالب عليها ، وهى سبعة نجوم : ترى صورتها فى ليالى الشتاء . وقيل : المراد بالعد هنا : الظن ، أى باتت تظنها فيها . والمستحيرة : المتحيرة بامتلائها من المرق . وروى : مستجرة لأنها تجر الناس للأكل منها والعكس : المرق الممزوج باللبن الحليب . وتملأت : امتلأت . وروى : تمدحت ، بالدال المهملة ، أى : اتسعت من الشبع . وروى بالمعجمة ، أى : اصطكت واضطربت . والمذاخر : مواضع الذخائر : والمراد بها المعدة والأمعاء . وروى : خواصرها ، أى : جوانبها . وارفض : رشح وترشرش وارتعد ونفر ، وروى : وازداد رشحا وريدها . أى : باتت تنظر النجوم فى جفنة كثيرة المرق والدسم ، سريع جمود دسمها على أيدى الآكلين من برد الشتاء ، حتى إذا امتلأت بطنها ونفرت عروق عنقها وقضت لبانة ، أى : حاجة من صاحب الاناء وهو المرق واللبن : طلبت منا حاجة لا نريدها ولا نرضاها ؛ لأنها فاحشة وكأنه ضمن أرادت معنى التضرع أو الميل أو النسبة فعداه بالى . ويجوز أنها بمعنى من ، كما أوضحناه فى آخر حرف الباء .

(٢) قوله «فوجم لها» أى اشتد حزنه . أفاده الصحاح . (ع)

قريش هذه الليلة ، فإني أخاف على ابنى دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ؛ وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم ، حتى ضرب عتبة فقتله .[1] وقال حسان :

مَنْ يَرْجِعُ الْعَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ [2]

﴿ما ضل صاحبكم﴾ يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم : والخطاب لقريش ، وهو جواب القسم ، والضلال : نقيض الهدى ، والغى نقيض الرشد ، أى : هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى ، وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه ، وإنما هو وحى من عند الله يوحى إليه . ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجاب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى ﴿شديد القوى﴾ ملك شديد قواه ، والإضافة غير حقيقية ، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهو جبريل عليه السلام ، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود ، وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده فى أوحى من رجعة الطرف[3] ، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله . إلا أنه قال «فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فمات مكانه» ورواه البيهقى فى الدلائل والطبرانى من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه . لكن قال عنبسة : ورواه الحاكم والبيهقى فى الدلائل أيضا . من رواية أبى نوفل بن أبى عقرب عن أبيه . قال «وكان لهب بن أبى لهب» فذكره مختصراً . وقال البيهقى : هكذا قال عباس بن الفضل الأزرق . وليس بالقوى . وأهل المغازى يقولونه عتبة أو عتيبة

(٢)
لا يرفع الرحمن مصروعكم ... ولا يوهن قوة الصارع
وكان فيه لكم عبرة ... للسيد المتبوع والتابع
من يرجع العام إلى أهله ... فما أكيل السبع بالراجع
من عاد فالليث له عائد ... أعظم به من خبر شائع

لحسان بن ثابت . روى عن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبى لهب كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه وقال : إنه كافر بالنجم إذا هوى وبالذى دنا فتدلى ثم تفل فى وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام فقال صلى الله عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فبينما هم يحرسونه ذات ليلة فى سفر ، إذ جاء أسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله ، فقال حسان ذلك ؛ والفعلان مجزومان بلا الدعائية . ويوهن بالتشديد ؛ والمعنى الدعاء على القتيل والدعاء للقاتل . والمصروع : المطروح . والعبرة : الاعتبار أو ما يعتبر به . والتابع عطف على السيد . من يرجع فى هذا العام إلى أهله فلن يوجب رجوع غيره ؛ لأن من أكله السبع لا يرجع فلا يتمن أهله رجوعه ، لاستحالته وسكون السبع لغة ، ثم قال : من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد عائد له ، وأعظم به : صيغة تعجب ، من خبر : تمييز مقترن بمن ، شائع : ذائع منتشر .

(٣) قوله « فى أوحى من رجعة الطرف » أى : أسرع من الوحى وهو السرعة ، يمد ويقصر ، كذا فى الصحاح . وفيه أيضا : نفحت الناقة : ضربت برجلها ، ونفحه بالسيف : تناوله . (ع)

بعض عقاب الأرض المقدّسة ، فنفحه بجناحه نفحة فألقاه فى أقصى جبل بالهند ﴿ذو مرة﴾ ذو حصافة فى عقله [١] ورأيه ومتانة فى دينه ﴿فاستوى﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ؛ وكان ينزل فى صورة دحية ، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه فى صورته التى جبل عليها ، فاستوى له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق . [٢] وقيل : ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته الحقيقية غير محمد صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة فى الأرض ، ومرة فى السماء [٣] ﴿ثم دنا﴾ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فتدلى﴾ فتعلق عليه فى الهواء . ومنه : تدلت الثمرة ، ودلى رجليه من السرير . والدوالى : الثمر المعلق . قال :

* تَدَلَّى عَلَيْهَا بَيْنَ سِبٍّ وَخَيْطَةٍ * [٤]

ويقال : هو مثل القرلى : إن رأى خيراً تدلى ، وإن لم يره تولى ﴿قاب قوسين﴾ مقدار قوسين عربيتين : والقاب والقيب ؛ والقاد والقيد ، والقيس : المقدار . وقرأ زيد بن على : قاد . وقرئ : قيد ، وقدر . وقد جاء التقدير بالقوس والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة ، والشبر ، والفتر ، والأصبع . ومنه « لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين » [٥] . وفى الحديث « لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها [٦] » والقدّ : السوط . ويقال : بينهما خطوات يسيرة . وقال :

(١) قوله « ذو حصافة فى عقله » أى : استحكام ، أفاده الصحاح . (ع)

(٢) لم أجده هكذا . وفى الصحيحين من رواية مسروق عن عائشة « وأنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التى رأيته عليها غير هاتين المرتين : رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض » وللترمذى وابن حبان « ولكنه رأى جبريل ، لم يره فى صورته إلا مرتين : مرة عند سدرة المنتهى . ومرة فى أجياد ، له ستمائة جناح ، وقد سد الأفق » .

(٣) لم أجده . هكذا . وذكر المرتين ، تقدم فى الذى قبله .

(٤) تدلى عليها بين سب وخيطة ... تدلى دلو المائح المتشمر

يروى لأبى ذؤيب بدل الشطر الثانى : بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها . والسب - بالكسر - : الحبل ، والخمار ، والعمامة ، والخيطة كذلك الوتد ونحوه : فى لغة هذيل . والمائح : مالىء الدلو من أسفل البئر . والماتح - بالتاء - : المستق ، يصف جانى العسل بأنه تدلى على النحل أو العسل ؛ لأنه يؤنث أيضا ، أى : نزل متمسكا بحبل مشدود فى وتد ، كتدلى دلو المائل النشيط . والجرداء : فرس قليلة الشعر . والوكف : النطع . وكبا الجواد يكبو : سقط على وجهه . وغراب الدابة : أعلى ظهرها ، أى : كأن غرابها ينحدر لسرعة سيرها .

(٥) أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن عبسة فى حديث طويل ورواه إسحاق والدارقطنى من حديث كعب بن مرة نحوه فى حديث ، ورواه الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن عوف مختصراً .

(٦) أخرجه البخارى من طريق حميد عن أنس أتم من هذا .

* وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ حَزِيمَةَ أُصْبُعَا *[1]

فإن قلت : كيف تقدير قوله (فكان قاب قوسين) ؟ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين[2] ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو على فى قوله : * وقد جعلتنى من حزيمة أصبعا * أى : ذا مقدار مسافة أصبع ﴿ أو أدنى ﴾ أى على تقديركم ، كقوله تعالى (أو يزيدون) . ﴿ إلى عبده ﴾ إلى عبد الله ، وإن لم يجر لاسمه عزّ وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ؛ كقوله (على ظهرها) . ﴿ ما أوحى ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى[3] إليه : قيل أوحى إليه : إنّ الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك . ﴿ ما كذب ﴾ فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام ، أى : ما قال فؤاده لما رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا ، لأنه عرفه ، يعنى : أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك فى أنّ ما رآه حق وقرئ : ما كذب ، أى صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته ﴿ أفتمارونه ﴾ من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة[4] ؛ كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه . وقرئ : أفتمرونه : أفتغلبونه فى المراء ، من ماريته فمريته ، ولما فيه من معنى الغلبة عدّى بعلى ، كما تقول : غلبته على كذا : وقيل : أفتمرونه : أفتجحدونه . وأنشدوا :

لَئِنْ هَجَوْتَ أَخَا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ ... لَقَدْ مَرَيْتَ أَخًا مَا كَانَ يَمْرِيكَا[5]

---

(١) فأدرك إبقاء العراوة ظلعها ... وقد جعلتنى من حزيمة أصبعاً

للكلحبة ، وهو لقب لعبد الله بن هبيرة . وقيل : جرير بن هبيرة . وقيل : هبيرة بن عبد مناف . وقيل : هو للأسود بن يعفر . وقيل : لرؤية وليس بشىء . والابقاء : ما تبقيه الفرس من الهمة لتبذله قرب بلوغ المقصد . والعراوة كجرادة . وقيل : بالكسر اسم فرسه . والظلع ـ بالفتح ـ : غمز فى المشية من وجع الرجل ، أى : أدرك الظلع ما أبقته الفرس فلم تقدر على بذله ، والحال أنها جعلتنى قريباً من عدوى حزيمة بمهملة مفتوحة فمعجمة مكسورة : رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه . وقيل : قبيلته وليس بذاك . ويروى : فأدرك إرقال العراوة . والارقال : الاسراع فى السير ، أى : أبطل إسراعها العرج ؛ ولا بد من تأويل قوله : جعلتنى أصبعا أى : جعلتنى ذا مسافة أصبع . أو جعلت مسافتى مقدار أصبع .

(٢) قال محمود : « تقديره : فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين إلى آخره » قال أحمد : وقد قال بعضهم : إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة ؛ لأن الحليفين فى عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألصقا وترى قوسيهما » قال أحمد : وفيه ميل لقوله (أو أدنى) .

(٣) قال محمود : « هذا تفخيم للوحى الذى أوحى الله إليه » قال أحمد : التفخيم لما فيه من الابهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) وقوله (فغشيهم من اليم ما غشيهم) .

(٤) قوله « من مرى الناقة » فى الصحاح : مريت الناقة ، إذا مسحت ضرعها لتدر . (ع)

(٥) يقول لصاحبه : لئن ذممت أخا صدق ومكرمة ، يعنى : نفسه . ويقال : مرى الناقة ، أى : حلبها . ومنه المماراة . كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه . ومنه : فقد مريت أخا صدق ، أى : غلبته فى الجدال وأنفذت ═

وقالوا : يقال مريته حقه إذا جحدته . وتعديته بعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين ﴿نزلة أخرى﴾ مرة أخرى من النزول ، نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة ، لأنّ الفعلة اسم للمرّة من الفعل ، فكانت فى حكمها ، أى : نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى فى صورة نفسه ، فرآه عليها ، وذلك ليلة المعراج . قيل فى سدرة المنتهى : هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش : ثمرها كقلال هجر ، وورقها كآذان الفيول ، تنبع من أصلها الأنهار التى ذكرها الله فى كتابه . يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها . والمنتهى : بمعنى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء . كأنها فى منتهى الجنة وآخرها . وقيل: لم يجاوزها أحد ، وإليها ينتهى علم الملائكة وغيرهم ، ولا يعلم أحد ما وراءها . وقيل: تنتهى إليها أرواح الشهداء ﴿جنة المأوى﴾ الجنة التى يصير إليها المتقون : عن الحسن . وقيل : تأوى إليها أرواح الشهداء. وقرأ على وابن الزبير وجماعة : جنة المأوى ، أى ستره بظلاله ودخل فيه . وعن عائشة : أنها أنكرته وقالت : من قرأ به فأجنه الله ﴿ما يغشى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها ، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله : أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف . وقد قيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائما يسبح الله» [1] . وعنه عليه السلام : يغشاها رفرف من طير خضر [2] . وعن ابن مسعود وغيره : يغشاها فراش من ذهب [3] ﴿مازاغ﴾ بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وما طغى﴾ أى أثبت ما رآه إثباتا مستيقنا صحيحا ، من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزه ، أو ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، وما طغى : وما جاوز ما أمر برؤيته ﴿لقد رأى﴾ والله لقد رأى ﴿من آيات ربه﴾ الآيات التى هى كبراها وعظماها [4] ، يعنى : حين رقى به إلى السماء فأرى عجائب الملكوت .

ـــ ما عنده ، لأن من حلب الناقة يتركها يابسة الضرع ؛ أو جحدت حقه كأنك أخذته منه ، أو تسببت فى إخراج ما عنده ، فيذمك كما ذممته . ما كان يمريك ، أى : ما كان يفعل بك كذلك .

(١) أخرجه الطبرى من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال قيل له : يارسول الله ، أى شىء رأيت يغشى تلك الشجرة ؟ فذكره وأتم منه» وعبدالرحمن ضعيف وهذا معضل .

(٢) لم أجده .

(٣) أما حديث ابن مسعود فرواه إسحاق بن راهويه من طريق مرة عنه بهذا وأتم منه وأما غيره فرواه (*)

(٤) قال محمود : «معناه قد رأى من آيات ربه الآيات التى ... الخ» قال أحمد : ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه ، لا مفعولا به ، ويكون المرئى محذوفا لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لقد رأى من آيات ربه ـــ

(*) بياض بالأصل .

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣)

﴿اللات والعزى ومناة﴾ أصنام كانت لهم، وهي مؤنثات: فاللات كانت لثقيف بالطائف. وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش، وهي فعلة من لوى؛ لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة. أو يلتوون عليها [1]: أي يطوفون. وقرئ: اللاتّ، بالتشديد. وزعموا أنه سمي برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج. وعن مجاهد: كان رجل يلت السويق بالطائف، وكانوا يعكفون على قبره، فجعلوه وثناً. والعزى كانت لغطفان وهي سمرة، وأصلها تأنيث الأعز، وبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها، واضعة يدها على رأسها، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول:

يَا عُزَّ كُفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكْ ... إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكْ [2]

= الكبرى أموراً عظاما لا يحيط بها الوصف، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول، وهذا ـ والله أعلم ـ أولى من الأول، لأن فيه تفخيما لآيات الله الكبرى، وأن فيها مارآه وفيها مالم يره، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم، وفيه بعد؛ فإن آيات الله تعالى لا يحيط أحد علما بجملتها. فإن قال: عام أريد به خاص، فقد رجع إلى الوجه الذي ذكرناه والله أعلم.

(١) قال محمود: «واشتقاق اللات من لوى على كذا إذا قام عليه لأنهم كانوا ... الخ» قال أحمد: الأخرى تأنيث آخر، ولاشك أنه في الأصل مشتق من التأخير الوجودي؛ إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير، حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلي، بخلاف آخر وآخرة، على وزن فاعل وفاعلة؛ فإن إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير. ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا: ربيع الآخر، على وزن الأفعل، وجمادى الأخرى: إلى ربيع الآخر، على وزن فاعل، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة؛ لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي، لأن الأفعل والفعلى من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة، والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته، وهو الحق إن شاء الله تعالى، وحينئذ يكون المراد الاشعار بتقدم مغاير في الذكر، مع ما انتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية، والله أعلم.

(٢) لخالد بن الوليد رضي الله عنه. وعز: مرخم عزى. وترخيمه شاذ؛ لأنه ليس رباعيا ولا مؤنثا بالهاء، وهي شجرة كانت تعبدها الجاهلية، فضربها بسيفه فخرجت منها جنية صارخة، فقال لها ذلك البيت. وقيل: ضربها =

ورجع فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام تلك العزى ولن تعبد أبداً [١]. ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لثقيف. وقرئ: ومناءة، وكأنها سميت مناة لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها، أى: تراق، ومناءة مفعلة من النوء، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها. و ﴿الأخرى﴾ ذم، وهى المتأخرة الوضيعة المقدار، كقوله تعالى (وقالت أخراهم لأولاهم) أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم. ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدم عندهم للات والعزى. كانوا يقولون إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى مع وأدهم البنات، فقيل لهم ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ ويجوز أن يراد: أنّ اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهنّ لله شركاء، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أنداداً لله وتسمونهنّ آلهة ﴿قسمة ضيزى﴾ جائرة، من ضازه يضيزه إذا ضامه، والأصل: ضوزى [٢]. ففعل بها مافعل ببيض؛ لتسلم الياء. وقرئ: ضئزى، من ضأزه بالهمز. وضيز: بفتح الضاد ﴿هى﴾ ضمير الأصنام، أى ما هى ﴿إلا أسماء﴾ ليس تحتها فى الحقيقة مسميات، لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشده منافاة لها. ونحوه قوله تعالى (ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) أوضمير الأسماء وهى قولهم، اللات والعزى ومناة، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة، يعنى: ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم، ليس لكم من الله على صحة تسميتها برهان تتعلقون به. ومعنى ﴿سميتموها﴾ سميتم بها، يقال: سميته زيداً، وسميته بزيد ﴿إن يتبعون﴾ وقرئ بالتاء ﴿إلا الظنّ﴾ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق، وأنّ آلهتهم شفعاؤهم، وما تشتهيه أنفسهم، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل.

--- بالفأس حتى قطعها وقتل الجنية. وكفرانك: نصب بمحذوف وجوبا، كسبحان، أى: أكفر كفرانا بك، لأنزه تنزيها لك؛ فهما مصدران مغنيان عن اللفظ بفعليهما. والاهانة: الاذلال.

(١) أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب الكلبي عن أبى صالح وعن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها. وكانت بنخلة عليها سادن فجاءها خالد فهدمها فذكر نحوه إلى آخره ورواه الواقدى فى المغازى والأزرقى فى التاريخ من طريقه عن عبدالله بن يزيد الهذلى عن سعيد بن عمرو الهذلى قال «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فذكر القصة وفيها: فبعث خالد ابن الوليد إلى العزى يهدمها فذكر القصة. وكذا ذكره ابن سعد فى الطبقات فى السرايا وأصل هذه القصة رواها النسائى وأبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم فى الدلائل من حديث أبى الطفيل قال «لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة - بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها للعزى فأتاها خالد، وكانت على ثلاث شجرات فقطع الشجرات».

(٢) قوله «والأصل قوله ضوزى» لعل صوابه «ضيزى» بكسر الضاد. ويؤيده ماقبله ومابعده اه ملخصاً من هامش. (ع)

أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِـرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥)

﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي: ليس للإنسان ما تمنى، والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة، وهو تمنّ على الله في غاية البعد. وقيل: هو قولهم: (ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى) وقيل: هو قول الوليد بن المغيرة «لأوتين مالا وولداً» وقيل هو تمني بعضهم أن يكون هو النبي صلى الله عليه وسلم فلله الآخرة والأولى أي هو مالكهما، فهو يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)

يعنى: أنّ أمر الشفاعة ضيق وذلك أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السموات بجموعهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئا قط ولم تنفع، إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم[1].

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَـٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)

﴿ليسمون الملائكة﴾ أي كل واحد منهم ﴿تسمية الأنثى﴾ لأنهم إذا قالوا: الملائكة بنات الله، فقد سموا كل واحد منهم بنتا وهي تسمية الأنثى ﴿به من علم﴾ أي بذلك وبما يقولون[2]. وفي قراءة أبيّ: بها، أي: بالملائكة. أو التسمية ﴿لا يغني من الحق شيئا﴾ يعني إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم ﴿فأعرض﴾ عن دعوة من رأيته معرضا عن ذكر الله عن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا، ولا تتهالك على إسلامه، ثم قال ﴿إنّ

(١) قوله «بعبدتهم» لعله لعبدتهم، كعبارة النسفي. (ع)
(٢) قوله «وبما يقولون» لعله أوبما يقولون. (ع)

ربك هو أعلم﴾ أى إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب ، وأنت لا تعلم ، فخفض على نفسك ولا تتعبها ، فإنك لا تهدى من أحببت ، وما عليك إلا البلاغ . وقوله تعالى (ذلك مبلغهم من العلم) اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله ، إنّ ربك هو أعلم بالضال والمهتدى ، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء .

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

قرئ : ليجزى . ويجزى ، بالياء والنون فيهما . ومعناه : أنّ الله عز وجل إنما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض : وهو أن يجازى المحسن من المكلفين والمسىء منهم . ويجوز أن يتعلق بقوله (هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) لأنّ نتيجة العلم بالضال والمهتدى جزاؤهما ﴿بما عملوا﴾ بعقاب ما عملوا من السوء . و﴿بالحسنى﴾ بالمثوبة الحسنى وهى الجنة . أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى ﴿كبائر الإثم﴾ أى الكبائر من الإثم ، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر : الذنوب التى لا يسقط عقابها إلا بالتوبة . وقيل : التى يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها ﴿والفواحش﴾ ما فحش من الكبائر ، كأنه قال : والفواحش منها خاصة : وقرئ : كبير الإثم ، أى : النوع الكبير منه وقيل : هو الشرك بالله . واللمم : ما قل وصغر . ومنه : اللمم المس من الجنون ، واللوثة منه . وألم بالمكان إذا قل فيه لبثه . وألم بالطعام : قل منه أكله : ومنه :

* لِقَاءُ أَخِلَّاءِ الصَّفَاءِ لِمَامُ * (١)

---

(١) لقاء أخلاء الصفاء لمام وكل وصال الغانيات ذمام

أى : لقاء الأحباب الذين صفت مودتهم لمام ، أى : قليل فهو مفاعلة من الالمام وهو الزيارة بلا تلبث ولا تمكث وكل وصال النساء المستغنيات بجمالهن عن التحلى بالحلى أو المخدرات المقيمات فى بيوتهن ، من غنى بالمكان كرضى : أقام به ذمام أى شىء قليل من حقوق الحرمة والذمة . وإطلاقه على ذلك مجاز ، وحقيقته : الحرمة والذمة والمعاهدة والعهد الذى يتعاهد به المتعاهدان وما يذم الشخص على إضاعته من العهد ، فهو إما مفاعلة من الذمة ، وإما اسم آلة : كالحزام والوثاق ، وقد يستعمل صفة لبئر قليلة الماء ، ويستعمل جمع ذمة . والمعنى أن رؤية الأحباب قليلة ===

والمراد الصغائر من الذنوب . ولا يخلو قوله تعالى ﴿إلا اللمم﴾ من أن يكون استثناء منقطعا أو صفة ، كقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة إلا الله) كأنه قيل : كبائر الإثم غير اللمم ، وآلهة غير الله : وعن أبي سعيد الخدري : اللمم هي النظرة ، والغمزة ، والقبلة : وعن السدي : الخطرة من الذنب : وعن الكلبي : كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا : وعن عطاء : عادة النفس الحين بعد الحين ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، [1] والكبائر بالتوبة ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات : أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي ، ولا تثنوا عليها واهضموها ، فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم . وقيل : كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجنا ، فنزلت : وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء : فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح : لم يكن من المزكين أنفسهم ، لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

أَفَرَءَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَيْسَ لِلإِنْسَٰنِ إِلاَّ مَاسَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ

= إما حقيقة في العادة ، وإما ادعاء واستقلالا لها . ورؤية غيرهم كثيرة . وفيه معنى التحزن . ويجوز أن يقرأ : الدمام بالمهملة ، وهو ما يطلى به الوجه ليحسن . والمعنى : أن وصالهن مجرد تمويه لا حقيقة له . والمعنى على التشبيه .

(١) قوله «يكفر الصغائر باجتناب الكبائر» هذا عند المعتزلة . وعند أهل السنة بذلك . أو بمجرد الفضل . وكذا ما بعده .. (ع)

فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾

﴿أكدى﴾ قطع عطيته وأمسك، وأصله: إكداء الحافر، وهو أن تلقاه كدية: وهى صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر، ونحوه: أجبل الحافر، ثم استعير فقيل: أجبل الشاعر إذا أفحم. روى أن عثمان رضى الله عنه كان يعطى ماله فى الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاعة: يوشك أن لا يبقى لك شىء، فقال عثمان: إن لى ذنوبا وخطايا، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال عبد الله: أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء. فنزلت. ومعنى (تولى) ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل ﴿فهو يرى﴾ فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق ﴿وفى﴾ قرئ مخففا ومشدّدا، والتشديد مبالغة فى الوفاء. أو بمعنى: وفر وأتم، كقوله تعالى (فأتمهنّ) وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك: تبليغه الرسالة، واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمروذ، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشى فرسخا يرتاد ضيفا، فإن وافقه أكرمه، وإلا نوى الصوم. وعن الحسن: ما أمره الله بشىء إلا وفى به. وعن الهزيل بن شرحبيل[1]: كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره، ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله، والزوج بامرأته، والعبد بسيده؛ فأوّل من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب: عهد أن لا يسأل مخلوقا، فلما قذف فى النار قال له جبريل وميكائيل: ألك حاجة؟ فقال. أمّا إليكما فلا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: وفى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر[2] النهار، وهى: صلاة الضحى. وروى: ألا أخبركم لم سمى الله خليله (الذى وفى)؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى: (فسبحان الله حين تمسون ... إلى ... حين تظهرون)[3] وقيل: وفى سهام الإسلام: وهى ثلاثون: عشرة فى التوبة (التائبون ...) وعشرة فى الأحزاب: (إن المسلمين ...) وعشرة فى المؤمنين (قد أفلح المؤمنون ...) وقرئ: فى صحف، بالتخفيف ﴿ألا تزر﴾ أن مخففة من الثقيلة. والمعنى: أنه

(١) قوله «وعن الهزيل بن شرحبيل» لعله: الهذيل. (ع)

(٢) أخرجه الطبرى وابن أبى حاتم وغيرهما من رواية جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبى أمامة مرفوعا به وأتم منه.

(٣) أخرجه أحمد والطبرانى وابن السنى والطبرى وابن أبى حاتم من رواية ابن لهيعة عن زباد عن زبان عن ابن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه به.

لا تزر ، والضمير ضمير الشأن ، ومحل أن ومابعدها : الجر بدلا من ما فى صحف موسى. أو الرفع على : هو أن لا تزر ، كأن قائلا قال : وما فى صحف موسى وإبرهيم ، فقيل : أن لا تزر ﴿إلا ما سعى﴾ إلا سعيه . فإن قلت : أما صح فى الأخبار : الصدقة عن الميت ، والحج عنه ، وله الإضعاف ؟ قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنيا على سعى نفسه ـ وهو أن يكون مؤمنا صالحا وكذلك الإضعاف ـ كأن سعى غيره كأنه سعى نفسه، لكونه تابعا له وقائما بقيامه . والثانى : أن سعى غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ﴿ثم يجزاه﴾ ثم يجزى العبد سعيه ، يقال : جزاه الله عمله وجزاه على عمله ، بحذف الجار وإيصال الفعل . ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسره بقوله ﴿الجزاء الأوفى﴾ أو أبدله عنه ، كقوله تعالى : (وأسروا النجوى الذين ظلموا)، ﴿وأنّ إلى ربك المنتهى﴾ قرئ بالفتح على معنى : أن هذا كله فى الصحف ، وبالكسر على الابتداء ، وكذلك ما بعده . والمنتهى : مصدر بمعنى الانتهاء ، أى : ينتهى إليه الخلق ويرجعون إليه ، كقوله تعالى (إلى الله المصير) . ﴿أضحك وأبكى﴾ خلق قوتى الضحك والبكاء [1] ﴿إذا تمنى﴾ إذا تدفق فى الرحم ، يقال : منى وأمنى . وعن الأخفش : تخلق من منى المانى ، أى قدر المقدّر : قرئ : النشأة والنشاءة بالمد . وقال (عليه) لأنها واجبة [2] عليه فى الحكمة [3] ، ليجازى على الإحسان والإساءة ﴿وأقنى﴾ وأعطى القنية وهى المال الذى تأثلته وعزمت أن لا تخرجه من يدك ﴿الشعرى﴾ مرزم الجوزاء [4] : وهى التى تطلع وراءها ، وتسمى كلب الجبار ، وهما شعريان الغميصاء والعبور وأراد العبور . وكانت خزاعة تعبدها ، سنّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم ،

---

(١) قال محمود : « أى خلق قوتى الضحك والبكاء » قال أحمد : وخلق أيضا فعلى الضحك والبكاء على قواعد السنة ، وعليه دلت الآية غير مثابرة لتحريفه ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «إنما قال عليه لأنها واجبة عليه ... الخ» قال أحمد : هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذى يسمونه مراعاة للصلاح والحكمة ، وأى فساد أعظم مما يؤدى إلى اعتقاد المعتزلة الإيجاب على رب الأرباب ، تعالى الله عن ذلك . ومثل هذه القاعدة التى عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفى فيها كلمة محتملة : هى لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع ، والذى حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى : وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته ، كما يقال : دارت قضية فلان على يدى . وقول المحدثين . على يدى دار الحديث ، أى هو الأصل فيه والسند ، والله أعلم .

(٣) قوله «لأنها واجبة عليه فى الحكمة» هذا عند المعتزلة لا عند أهل السنة . (ع)

(٤) قوله «مرزم الجوزاء» فى الصحاح «المرزمان» مرزما الشعريين ، وهما نجمان : أحدهما فى الشعرى ، والآخر فى الذراع اهـ . (ع)

وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو كبشة ، تشبيها له به لمخالفته إياهم فى دينهم [1] ، يريد : أنه رب معبودهم هذا. عاد الأولى : قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم . وقيل: الأولى القدما ؛ لأنهم أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، أو المتقدمون فى الدنيا الأشراف. وقرئ: عادا لولى. وعادلولى ، بإدغام التنوين فى اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف ﴿ وثمودا ﴾ وقرئ : وثمود ﴿أظلم وأطغى﴾ [2] لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك ، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه ، وما أثر فيهم دعاؤه [3] قريبا من ألف سنة ﴿ والمؤتفكة ﴾ والقرى التى ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت ، وهم قوم لوط ، يقال : أفكه فائتفك : وقرئ : والمؤتفكات ﴿ أهوى ﴾ رفعها إلى السماء على جناح جبريل ، ثم أهواها إلى الأرض أى : أسقطها ﴿ ماغشى ﴾ تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود .

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾
أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ تتشكك ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو للإنسان على الإطلاق ، وقد عدد نعما ونقما وسماها كلها آلاء من قبل ما فى نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين ﴿ هذا ﴾ القرآن ﴿ نذير من النذر الأولى ﴾ أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم . أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأولين ، وقال : الأولى على تأويل الجماعة ﴿ أزفت الآزفة ﴾ قربت الموصوفة بالقرب فى قوله تعالى (اقتربت الساعة) ، ﴿ ليس لها ﴾ نفس ﴿ كاشفة ﴾ أى مبينة متى تقوم ، كقوله تعالى (لا يجليها لوقتها إلا هو) أو ليس لها نفس كاشفة ، أى : قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله ، غير أنه لا يكشفها . أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف : كالعافية. وقرأ طلحة: ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة ، وهى على الظالمين ساءت الغاشية .

أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾
وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾

---

(١) هذا وهم ، والمعروف أنهم كانوا يقولون له : ابن أبى كبشة ، كما فى حديث أبى سفيان الطويل فى الصحيحين حيث قال : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر . يعنى هرقل .

(٢) قوله «وقرئ وثمود أظلم وأطغى» يفيد أن قراءة التنوين أشهر . (ع)

(٣) قوله «وما أثر فيهم دعاؤه» أى دعاؤه إياهم إلى الاسلام . (ع)

﴿أفمن هذا الحديث﴾ وهو القرآن ﴿تعجبون﴾ إنكارا ﴿وتضحكون﴾ استهزاء ﴿ولا تبكون﴾ والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لم ير ضاحكا بعد نزولها. [1] وقرئ: تعجبون تضحكون، بغير واو ﴿وأنتم سامدون﴾ شامخون مبرطمون. [2] وقيل: لاهون لاعبون. وقال بعضهم لجاريته: اسمدى لنا، أى غنى لنا ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ ولا تعبدوا الآلهة.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة» [3]

سورة القمر

مكية [إلا الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمدنية]

وآياتها ٥٥ [نزلت بعد الطارق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾

انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيرة. عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين. [4]

---

(١) أخرجه أحمد فى الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبى الخليل. ورواه ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس باسناد ضعيف.

(٢) قوله «شامخون مبرطمون» فى الصحاح «البرطمة» الانتفاخ من الغضب اه. وفيه «السامد»: رافع رأسه تكبرا، واللاهى، والمغنى، والقائم، والساكت، والحزين الخاشع، واسمأد الرجل بالهمز اسمئدادا: أى ورم غضبا. (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من حديث أبى بن كعب رضى الله عنه.

(٤) متفق عليه من رواية قتادة عن أنس رضى الله عنه.

وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما ، قال ابن عباس : انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت .[١] وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتى القمر .[٢] وعن بعض الناس : أن معناه ينشق يوم القيامة ، وقوله ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ يرده ، وكفى به رادا ، وفى قراءة حذيفة : وقد انشق القمر ، أى : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم .[٣] مستمر : دائم مطرد ، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله ، قيل فيه : قد استمر . لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات : قالوا : هذا سحر مستمر . وقيل : مستمر قوى محكم ، من قولهم : استمر مريره .[٤] وقيل : هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته ، أى : مستبشع عندنا ، مر على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر .[٥] وقيل : مستمر مار ، ذاهب يزول ولا يبقى ، تمنية لأنفسهم وتعليلا . وقرئ : وإن يروا ﴿واتبعوا أهواءهم﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿وكل أمر مستقر﴾ أى كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقر عليها ، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق ، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته . أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أى : سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة فى الدنيا ، وشقاوة أو سعادة فى الآخرة . وقرئ بفتح القاف ، يعنى : كل أمر ذو مستقر ، أى : ذو استقرار . أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار . وعن أبى جعفر : مستقر ، بكسر القاف والجر عطفاً على الساعة ، أى : اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل ، من رواية الكلبي عن أبى صالح عنه ، وفى الصحيحين عنه : «انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : «ولقد رأيت والله حراء بين الشقتين» وفى الصحيحين عن أبى معمر عنه «بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى إذا انفلق القمر فلقتين وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه . فقال : اشهدوا» وفى الباب عن ابن عمر فى مسلم . وعن جبير بن مطعم عن الحاكم فى المستدرك ، وعن أحمد أيضاً .

(٣) أخرجه الحاكم والطبرانى وأبو نعيم من رواية ابن علية عن عطاء بن السائب عن ابن عبد الرحمن بهذا وأتم . ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عطاء ، وكذا أخرجه أحمد من رواية شعبة عن عطاء .

(٤) قوله «استمر مريره» فى الصحاح «المرير» : الفريعة وما لطف وطال واشتد فتله من الحبال . (ع)

(٥) قوله «كما يساغ المر الممقر» فى الصحاح . مقر الشيء وأمقر ، أى : صار مراً . (ع)

النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾

﴿من الأنباء﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة، وما وصف من عذاب الكفار ﴿مزدجر﴾ ازدجار أو موضع ازدجار. والمعنى: هو فى نفسه موضع الازدجار ومظنة له، كقوله تعالى (لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى هو أسوة. وقرئ مزدجر بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاى فيها ﴿حكمة بالغة﴾ بدل من ما. أو على: هو حكمة. وقرئ بالنصب حالا من ما. فإن قلت: إن كانت ما موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالا، فكيف تعمل إن كانت موصوفة؟ وهو الظاهر. قلت: تخصصها الصفة: فيحسن نصب الحال عنها ﴿فما تغنى النذر﴾ نفى أو إنكار. وما منصوبة، أى: فأى غناء تغنى النذر ﴿فتول عنهم﴾ لعلمك أن الإنذار لا يغنى فيهم. نصب ﴿يوم يدع الداعى﴾ بيخرجون. أو بإضمار اذكر. وقرئ بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها، والداعى إسرافيل أو جبريل، كقوله تعالى (يوم يناد المنادى). ﴿إلى شىء نكر﴾ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ: نكر بالتخفيف: ونكر بمعنى أنكر ﴿خاشعا أبصارهم﴾ حال من الخارجين فعل الأبصار وذكر، كما تقول: يخشع أبصارهم. وقرئ: خاشعة، على: تخشع أبصارهم. وخشعا، على: يخشعن أبصارهم، وهى لغة من يقول: أكلونى البراغيث. وهم طيئ. ويجوز أن يكون فى (خشعا) ضميرهم، وتقع (أبصارهم) بدلا عنه. وقرئ. خشع أبصارهم، على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله:

* وَجَدْتُهُ حَاضِرَاهُ الْجُودُ وَالْكَرَمُ * [1]

وخشوع الأبصار: كناية عن الذلة والانخزال، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران فى عيونهما. وقرئ: يخرجون من الأجداث: من القبور ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ الجراد مثل فى الكثرة والتموج. يقال فى الجيش الكثير المائج بعضه فى بعض: جاؤا كالجراد، وكالدبا [2] منتشر فى كل مكان لكثرته ﴿مهطعين إلى الداعى﴾ مسرعين مادى أعناقهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم. قال:

(١) إن الذى كنت أرجو فضل نائله وجدته حاضراه الجود والكرم

يقول: إن الذى كنت أرجو بقية عطائه أو زيادة عطائه: وجدته مصاحبا للجود والكرم. وهما مبتدأ خبره حاضراه، والجملة محلها نصب مفعول ثان، وحضورهما: كناية عن قيامهما به.

(٢) قوله «كالجراد وكالدبا» فى الصحاح «الدبا» الجراد قبل أن يطير، والواحدة دباة. (ع)

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وَقَدْ أَرَى ... وَنِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ [1]

****

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

﴿قبلهم﴾ قبل أهل مكة ﴿فكذبوا عبدنا﴾ يعنى نوحا . فإن قلت : ما معنى قوله تعالى (فكذبوا) بعد قوله (كذبت)[2]؟ قلت : معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا أى : كذبوه تكذيباً على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب . أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأساً : كذبوا نوحا ؛ لأنه من جملة الرسل ﴿مجنون﴾ هو مجنون ﴿وازدجر﴾ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم فى قولهم (لتكونن من المرجومين) وقيل : هو من جملة قيلهم ، أى : قالوا هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه . قرئ : أنى ، بمعنى : فدعا بأنى مغلوب . وإنى : على إرادة

(١) الكلام على حذف حرف الاستفهام الانكارى ، أى : أيتخذنى عبداً هذا الرجل ، وحذف مفعول أرى لدلالة الحال عليه ، وهو قوله : ونمر بن سعد مطيع لى ومهطع ، أى : منتظر أمرى ليمتثله . أو مسرع إلى امتثاله ، وأظهر فى مقام الاضمار تعجباً منه واستخفافاً بشأنه ، ونمر : بسكون الميم .

(٢) قال محمود : « إن قلت : مافائدة كذبوا بعد قوله كذبت قبلهم قوم نوح ... الخ » قال أحمد : قد تقدم كلامه على قوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى) وأجاب عنه بجوابين ، أحدهما متعذر ههنا ، والآخر : ممكن وهو أن ذلك كقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد مضى لى جوابان ، أحدهما : يمكن إجراؤه هنا ، وحاصله منع ورود السؤال ؛ لأن الأول مطلق والثانى مقيد ؛ فليس تكراراً . وهو كقوله فى هذه السورة (فتعاطى فعقر) فان تعاطيه هو نفس عقره ، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهابا ، وهو بمثابة ذكره مرتين ، وجواب آخر هنا : وهو أن المكذب أولا محذوف دل عليه ذكر نوح ، فكأنه قال : كذبت قوم نوح نوحا ، ثم جاء بتكذيبهم ثانيا مضافا إلى قوله (عبدنا) فوصف نوحا بخصوص العبودية ، وأضافه إليه إضافة تشريف ؛ فالتكذيب المخبر عنه ثانياً أبشع عليهم من المذكور أولا لتلك اللمحة ، والله أعلم .

القول ، فدعا فقال : إنى مغلوب[١] غلبنى قومى ، فلم يسمعوا منى واستحكم اليأس من إجابتهم لى ﴿فانتصر﴾ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم ، وإنما دعا بذلك بعد ماطم عليه الأمر وبلغ السيل الربا[٢] ، فقد روى : أنّ الواحد من أمته كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه . فيفيق وهو يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . وقرئ : ففتحنا مخففاً ومشدداً ، وكذلك وفجرنا ﴿منهمر﴾ منصب فى كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما ﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ونظيره فى النظم (واشتعل الرأس شيبا) . ﴿فالتقى الماء﴾ يعنى مياه السماء والأرض . وقرئ : الماآن ، أى : النوعان من الماء السماوى والأرضى . ونحوه قولك : عندى تمران ، تريد : ضربان من التمر : برنى ومعقلى . قال :

* لَنَا إِبْلَانِ فِيهِمَا مَاعَلِمْتُمُ * [٣]

وقرأ الحسن : الماوان ، بقلب الهمزة واواً ، كقولهم : علباوان ﴿على أمر قد قدر﴾ على حال قدرها الله كيف شاء . وقيل : على حال جاءت مقدّرة مستوية : وهى أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء . وقيل : على أمر قد قدر فى اللوح أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ﴿على ذات ألواح ودسر﴾ أراد السفينة ، وهى من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتودى مؤداها . بحيث لا يفصل بينها وبينها . ونحوه :

... ... وَلَـٰكِنْ قَمِيصِى مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدِ [٤]

---

(١) قوله «فدعا فقال إنى مغلوب» لعله : أى فدعا فقال . (ع)

(٢) قوله «وبلغ السيل الربا» لعله جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض كالرابية . أفاده الصحاح ؛ لكن فيه فى حرف الزاى : والزبية الرابية لا يعلوها الماء . وفى المثل : قد بلغ السيل الزبى . والزبية : حفرة تحفر للأسد فى موضع عال لأجل صيده . اه ملخصا . (ع)

(٣) لنا إبلان فيهما ما علمتم فمن أيهما ما شئتم فتنكبوا

يقول : لنا قطيعان من الابل فيهما قرى الأضياف وصلة الفقراء ، فاحملوا ما شئتم منهما على مناكبكم ، أى : خذوه وافصلوه عن الباقى . أو المعنى : اعدلوا عنهما وانصرفوا عما أردتموه منهما فى مناكب الأرض ، فاننا حماته . وأيهما : بالسكون لغة فى أى المشددة . وما شئتم : بدل منه . ويجوز أن «ما» زائدة ، أى : فنى أيهما شئتم فانصرفوا فى مناكب الأرض وطرقها مبعدين عنهما . ويجوز أن «ما شئتم» مفعول به ، أو مفعول مطلق مقدم على عامله ، والفاء الثانية تكرير للأولى . ويجوز أنها إشارة إلى ما فى المعمول من معنى الشرط ، أى : فاما عن أيهما . أو فاما ما شئتم فتنكبوا ، أى : تجنبوا .

(٤) مفرشى صهوة الحصان ولكن قميصى مسرودة من حديد

الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس . يقول : مفرشى ظهر حصانى . وقميصى : درع من حديد متتابعة النسج ، =

أراد : ولكن قميصي درع ، وكذلك :

* وَلَوْ فِى عُيُونِ النَّازِبَاتِ بِأَكْرُعِ * (١)

أراد : ولو فى عيون الجراد . ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هـذه الصفة ، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين : لم يصح ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه . والدسر : جمع دسار : وهو المسمار ، فعال من دسره إذا دفعه : لأنه يدسر به منفذه ﴿جزاء﴾ مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء ومابعده ، أى فعلنا ذلك جزاء ﴿لمن كان كفر﴾ وهو نوح عليه السلام ، وجعله مكفوراً لأنّ النبي نعمة من الله ورحمة . قال الله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة . ومن هذا المعنى مايحكى أنّ رجلا قال للرشيد : الحمد لله عليك ، فقال : ما معنى هـذا الكلام ؟ قال : أنت نعمة حمدت الله عليها . ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل . وقرأ قتادة : كفر : أى جزاء للكافرين . وقرأ الحسن : جزاء ، بالكسر : أى مجازاة . الضمير فى ﴿تركناها﴾ للسفينة . أوللفعلة ، أى : جعلناها آية يعتبر بها . وعن قتادة : أبقاها الله بأرض الجزيرة . وقيل : على الجودى دهراً طويلا ، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة . والمدكر : المعتبر . وقرئ : مذتكر ، على الأصل . ومذكر ، بقلب التاء ذالا وإدغام الذال فيها . وهـذا نحو : مذجر . والنذر : جمع نذير وهو الإنذار ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ أى سهلناه للادكار والاتعاظ ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فهل من﴾ متعظ . وقيل : ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه . ويجوز أن يكون المعنى : ولقد هيأناه للذكر ، من يسر ناقته للسفر : إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو : إذا أسرجه وألجمه . قال :

وَقُمْتُ إِلَيْـــهِ بِاللِّجَامِ مُيَسِّرًا هُنَالِكَ يَجْزِينِى الَّذِى كُنْتُ أَصْنَعُ (٢)

ـــــ يعنى أنه ليس من أهل التنعم ، بل من أهل البدو والغزو . والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم ، مبالغة فى المدح .

(١) وإنى لأستوفى حقوقى جاهداً ولو فى عيون النازبات بأكرع

يقول : ولا بد من الاجتهاد فى تخليص حقوقى وأخذها ، ولو كانت فى أخفى مكان وأبعده كعيون الجراد النازبات الواثبات بأكرع ، أى أرجل دقيقة جمع كراع : لحذف الموصوف وكنى عنه بالنازبات صفته لجريانها مجرى الاسم . وقيل : المعنى لا بد من أخذ إبلى ولو كانت هزالا جداً بحيث ترى فى عيون الجراد لصغرها ، أى : ولو كانت كأنها كذلك

(٢) أرى أم سهل لا تزال تفجع تلوم وما أدرى علام توجع
تلوم على أن أمنح الورد لقحة وماتستوى والورد ساعة تفزع
إذا هى قامت حاسراً مشمعلة نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع
وقمت إليه باللجام ميسراً هنالك يجزينى الذى كنت أصنع

ـــــ

ويروى : أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظراً ولا يحفظونها ظاهراً كما القرآن .

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

﴿ونذر﴾ وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله . أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم ﴿في يوم نحس﴾ في يوم شؤم . وقرئ : في يوم نحس ، كقوله (في أيام نحسات) . ﴿مستمر﴾ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم . أو استمر عليهم جميعاً كبيرهم وصغيرهم ، حتى لم يبق منهم نسمة ، وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور . ويجوز أن يريد بالمستمر : الشديد المرارة والبشاعة ﴿تنزع الناس﴾ تقلعهم عن أماكنهم ، وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدي بعض[1] ، ويتدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام ، كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع ، منقعر : منقلع : عن مغارسه . وقيل : شبهوا بأعجاز النخل ، لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس . وذكر صفة (نخل) على اللفظ ، ولو حملها على المعنى لأنث ، كما قال (أعجاز نخل خاوية) .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾

= للأعرج المعنى الخارجي . وتفجع وتوجع : أصلها بتاءين حذفت إحداهما تخفيفاً . وعلام : استفهام عن علة التوجع . وأمنح : أعطي والورد : اسم فرسه . واللقحة : اللبن الحليب . والحاسر : العريانة الوجه . والمشمعلة : السريعة الجري . والنخيب : الخالية الجوفة . والمراد : التي ذهب عقلها ورأسها ، ما يقنع : أي ما يستر بالقناع لدهشتها وخجلتها . وقوله «والورد الأول» مفعول به ، والثاني مفعول معه : هذا حال أم سهل . وأما حال مهره ، فبينها في قوله : وقت إليه مهيئا ومعداً له باللجام . أو مسهلا له به ، دلالة على أنه كان صعبا لولا اللجام . وهنالك إشارة إلى مكان الحرب ، أو إلى زمانها . يجزيني : أي يعطيني جزاء صنعي معه ، وشبهه بمن تصح منه المجازاة على طريق المكنية ، وصنعه : هو سقيه اللبن .

(١) قوله «آخذين أيديهم بأيدي بعض» عبارة النسفي : آخذين بعضهم بأيدي بعض . (ع)

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

﴿أبشرا منا واحداً﴾ نصب بفعل مضمر يفسره ﴿نتبعه﴾ وقرئ: أبشر منا واحد، على الابتداء. ونتبعه: خبره، والأوّل أوجه للاستفهام. كان يقول: إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق، وسعر: ونيران. جمع سعير، فعكسوا عليه فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون. يقال: ناقة مسعورة. قال:

كَأَنَّ بِهَا سُعْرًا إِذَا الْعِيسُ هَزَّهَا ذَمِيلٌ وَإِرْخَاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعِبُ [1]

فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشراً منهم واحداً؟ قلت: قالوا أبشراً: إنكاراً لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة[2]، وقالوا (منا) لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى، وقالوا (واحداً) إنكاراً لأن تتبع الأمّة رجلا واحداً. أو أرادوا واحداً من أفنائهم[3] ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه قولهم ﴿أألقى الذكر عليه من بيننا﴾ أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿أشر﴾ بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك ﴿سيعلمون غداً﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة ﴿من الكذاب الأشر﴾ أصالح أم من كذبه. وقرئ: ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبا لهم. أو هو كلام

---

(١) السعر: الجنون، والمسعور: المجنون والذى ضربته السموم. يقول: كأن بناقتى جنون لقوة سيرها؛ فالعيس: جمع عيساء. وهى النوق البيض. حركها ذميل وإرخاء: وهما نوعان من السير متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلى من باب الاسناد للسبب؛ وإن أريد بالهز التسيير فيكون من الاسناد للمصدر. كجد جده؛ لكن المسند هنا من المتعدى، والمسند إليه من اللازم.

(٢) قوله «وأعلى من جنس البشر وهم الملائكة» تفضيل الملك على البشر مذهب المعتزلة. وأهل السنة يفضلون البشر على الملك. (ع)

(٣) قوله «واحداً من أفنائهم» وفى الصحاح: يقال هو من أفناء الناس، إذا لم يعلم عن هو. اه، ولم يذكر له واحداً. (ع)

الله تعالى على سبيل الالتفات. وقرئ: الأشر، بضم الشين، كقولهم حدث وحدث. وحذر وحذر، وأخوات لها. وقرئ: الأشر، وهو الأبلغ في الشرارة. والأخير والأشر: أصل قولهم: هو خير منه وشر منه، وهو أصل مرفوض، وقد حكى ابن الأنبارى قول العرب: هو أخير وأشر، وما أخيره وما أشره ﴿مرسلو الناقة﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة [1] كما سألوا ﴿فتنة لهم﴾ امتحانا لهم وابتلاء ﴿فارتقبهم﴾ فانتظرهم وتبصر ماهم صانعون ﴿واصطبر﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمرى ﴿قسمة بينهم﴾ مقسوم بينهم: لها شرب يوم ولهم شرب يوم. وإنما قال: بينهم، تغليبا للعقلاء. ﴿محتضر﴾ محضور لهم أو للناقة. وقيل: يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها ﴿صاحبهم﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فتعاطى﴾ فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة. وقيل فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف ﴿صيحة واحدة﴾ صيحة جبريل. والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذى يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء، وهو موضع الاحتظار، أى: الحظيرة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

﴿حاصبا﴾ ريحا تحصبهم بالحجارة، أى: ترميهم ﴿بسحر﴾ بقطع من الليل، وهو السدس الأخير منه. وقيل: هما سحران، فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر، والآخر عند انصداعه. وأنشد:

* مَرَّتْ بِأَعْلَى السَّحَرَيْنِ تَذْأَلُ * [2]

---

(١) قوله «ومخرجوها من الهضبة» فى الصحاح «الهضبة» الجبل المنبسط على وجه الأرض. (ع)

(٢) ياسائلى إن كنت عنها تسأل مرت بأعلى السحرين تذأل

يقول: يامن تسألنى إن كنت تسألنى عن الحمر الوحشية لا غير، فقد مرت بأعلى السحرين وهو السحر الذى قبل =

وصرف لأنه نكرة . ويقال : لقيته سحر : إذا لقيته فى سحر يومه ﴿ نعمة ﴾ إنعاما ، مفعول له ﴿ من شكر ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته ﴿ ولقد أنذرهم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بطشتنا ﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿ فتماروا ﴾ فكذبوا ﴿ بالنذر ﴾ متشاكين ﴿ فطمسنا أعينهم ﴾ فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق . روى أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة خلهم يدخلوا ، (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط ﴿ فذوقوا ﴾ فقلت لهم : ذوقوا على ألسنة الملائكة ﴿ بكرة ﴾ أول النهار وباكره ، كقوله : مشرقين ، ومصبحين . وقرأ زيد بن على رضى الله عنهما : بكرة ، غير منصرفة ، تقول : أتيته بكرة وغدوة بالتنوين . إذا أردت التنكير ، وبغيره إذا عرفت وقصدت بكرة نهارك وغدوته ﴿ عذاب مستقر ﴾ ثابت قد استقر عليهم إلى أن يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله ﴿ فذوقوا عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ ؟ قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبإ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن [١] تارات ؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير ، كقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) عند كل نعمة عدّها فى سورة الرحمن ، وقوله (ويل يومئذ للمكذبين) عند كل آية أوردها فى سورة والمرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان .

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)

﴿ النذر ﴾ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون . أو جمع نذير وهو الإنذار ﴿ بآياتنا كلها ﴾ بالآيات التسع ﴿ أخذ عزيز ﴾ لا يغالب ﴿ مقتدر ﴾ لا يعجزه شىء .

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ

= انصداع الفجر . والأدنى : هو الذى عند انصداعه ، أى مرت فى السحر الأول تذأل بالمهر ، أى : تسرع فى المشى من ذأل كمنع : إذا مشى فى خفة . ومنه : ذؤالة الذئب ، وبين تسأل وتذأل الجناس المضارع .

(١) قوله «ويقعقع لهم الشن» القربة الخلق ، كذا فى الصحاح . (ع)

نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

﴿أكفاركم﴾ يا أهل مكة ﴿خير من أولئكم﴾ الكفار المعدودين: قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، أى أهم خير قوة وآلة ومكانة فى الدنيا، أو أقل كفراً وعناداً يعنى: أنّ كفاركم مثل أولئك بل شر منهم ﴿أم﴾ أنزلت عليكم يا أهل مكة ﴿براءة﴾ فى الكتب المتقدّمة. أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمناً من عذاب الله، فأمنتم بتلك البراءة ﴿نحن جميع﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿منتصر﴾ ممتنع لانرام ولا نضام. وعن أبى جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر، فتقدّم فى الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت ﴿سيهزم الجمع﴾ عن عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال عمر: أى جمع يهزم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب فى الدرع ويقول: «سيهزم الجمع» عرف تأويلها [1] ﴿ويولون الدبر﴾ أى الأدبار كما قال:

* كُلُوا فِى بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا * [2]

وقرئ: الأدبار ﴿أدهى﴾ أشدّ وأفظع. والداهية: الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه ﴿وأمر﴾ من الهزيمة والقتل والأسر. وقرئ: سنهزم الجمع.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾

﴿فى ضلال وسعر﴾ فى هلاك ونيران. أو فى ضلال عن الحق فى الدنيا، ونيران فى الآخرة ﴿مس سقر﴾ كقولك: وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب؛ لأنّ النار إذا أصابتهم بحرها ولفحتهم بإيلامها، فكأنها تمسهم مساً بذلك، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم. وذوقوا: على إرادة القول. وسقر: علم لجهنم. من سقرته النار وصقرته إذا لوحته. قال ذو الرمة:

---

(١) أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر. فذكره» وأتم منه. ورواه من هذا الوجه إسحاق والطبرى وابن أبى حاتم. ورواه الطبرى فى الأوسط من رواية عبدالمجيد بن أبى رواد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولا.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٧٩ فراجعه إن شئت اه مصححه.

إِذَا ذَابَتِ الشَّمْسُ اتَّقَى صَقَرَاتِهَا بِأَفْنَانِ مَرْبُوعِ الصَّرِيمَةِ مُعْبِلِ [1]

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث ﴿كل شيء﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر [2]. وقرئ: كل شيء بالرفع. والقدر والقدر: التقدير. وقرئ بهما، أى: خلقنا كل شيء مقدّراً محكما مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة. أو مقدّراً مكتوبا فى اللوح معلوما قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه ﴿وما أمرنا إلا واحدة﴾ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين ﴿كلمح بالبصر﴾ أراد قوله كن، يعنى أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)

﴿أشياعكم﴾ أشباهكم فى الكفر من الأمم ﴿فى الزبر﴾ فى دواوين الحفظة ﴿وكل صغير وكبير﴾ من الأعمال ومن كل ماهو كائن ﴿مستطر﴾ مسطور فى اللوح.

---

(١) لذى الرمة يصف بقر الوحش، يقال: ذابت الشمس إذا اشتد حرها حتى يتساقط من شعاعها مثل اللعاب، وصقر الصخرة بالمصقر: ضربها بالمعول ليكسرها. وصقرته الشمس: إذا ضربته فغيرت لونه. وصقرة الشمس: اشتداد وقعها على الأرض. والأفنان، جمع فنن وهو مجتمع الورق الملتف المتكاثف فى الغصن. والمربوع: الذى أصابه مطر الربيع. والصريمة: الرملة المنصرمة من الرمال. والمعبل: كثير الورق مفتوله. يقول: إذا اشتد حر الشمس توقى شدائده بأغصان شجر سقاه الربيع فى هذا الموضع من الرمال. والمعبل: كثير الورق. ومعبل: بدل من مربوع، كأنه جامد. ويجوز أنه نعت له، على أن إضافته من إضافة الوصف إلى الظرف، فلا تفيده التعريف، فيصح وصفه بالنكرة.

(٢) قال محمود: «منصوب بمضمر يفسره الظاهر» قال أحمد: كان قياس مامهده النحاة: اختيار رفع (كل) لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة، وإنما كان كذلك؛ لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة، ومع النصب جملتان، فالرفع أخصر، مع أنه لامقتضى للنصب ههنا من أحد الأصناف الستة، أعنى: الأمر، والنهى ... إلى آخرها، ولاأجد هنا مناسب عطف ولاغيره مما يعدونه من محال اختيارهم للنصب. فاذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعا لسر لطيف يعين اختيار النصب: وهو أنه لورفع لوقعت الجملة التى هى (خلقناه) صفة لشيء، ورفع قوله (بقدر) خبراً عن كل شيء المقيد بالصفة، ويحصل الكلام على تقدير: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فأفهم ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر، وعلى النصب يصير الكلام: إنا خلقنا كل شيء بقدر، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى، فلما كانت هذه الفائدة لاتوازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع مافى الرفع من نقصان المعنى ومع ما فى هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاما واضحاً كفلق الصبح، لاجرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب، لكن الزمخشرى لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله، فيقولون: هذا لله بزعمهم، وهذا لنا: فغرت هذه الآية فاه، وقام إجماع القراء حجة عليه، فأخذ يستروح إلى الشقاء، وينقل قراءتها بالرفع: فليراجعله ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية، مع أنها هى الأولى فى العربية، لولا ماذكرناه، أيجوز فى حكمه حينئذ الاجماع على خلاف الأولى لفظاً ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا؟ وهو المخير فيما يحكم به، فالى الله ترجع الأمور.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

﴿ونهر﴾ وأنهار، اكتفى باسم الجنس. وقيل: هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء. ونهر: جمع نهر، كأسد وأسد ﴿في مقعد صدق﴾ في مكان مرضى. وقرئ: في مقاعد صدق ﴿عند مليك مقتدر﴾ مقربين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة القمر في كل غب[1] بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[2]

سورة الرحمن

مدنية وآياتها ٧٨ [نزلت بعد الرعد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)

---

(١) قوله «في كل غب بعثه الله» في الصحاح «الغب»: أن ترد الابل الماء يوما وتدعه يوما. والغب في الزيارة: قال الحسن: في كل أسبوع. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

عدد الله عز وعلا آلاءه ، فأراد أن يقدم أول شيء ماهو أسبق قدما من ضروب آلائه[1] وأصناف نعمائه ، وهى نعمة الدين ، فقدم من نعمة الدين ماهو فى أعلى مراتبها وأقصى مراقيها : وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه فى أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه : ليعلم أنه إنما خلقه للدين ، وليحيط علماً بوحيه وكتبه وماخلق الإنسان من أجله ، وكأن الغرض فى إنشائه كان مقدما عليه وسابقاً له ، ثم ذكر ماتميز به من سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح[2] المعرب عما فى الضمير و ﴿الرحمن﴾ مبتدأ ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ؟ ﴿بحسبان﴾ بحساب معلوم وتقدير سوى ﴿يجريان﴾ فى بروجهما ومنازلهما . وفى ذلك منافع للناس عظيمة : منها علم السنين والحساب ﴿والنجم﴾ والنبات الذى ينجم من الأرض لاساق له كالبقول ﴿والشجر﴾ الذى له ساق . وسجودهما : انقيادهما لله فيما خلقا له ، وأنهما لا يمتنعان ، تشبيها بالساجد من المكلفين فى انقياده . فإن قلت : كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن ؟ قلت : استغنى فيهما عن الوصل اللفظى بالوصل المعنوى ، لما علم أن الحسبان حسبانه ، والسجود له لا لغيره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له . فإن قلت : كيف أخل بالعاطف فى الجمل الأول ، ثم جىء به بعد ؟ قلت : بكت بتلك الجمل الأول واردة على سنن التعديد ، ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة فى تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه ، كما يبكت منكر أيادى المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فى المثال الذى قدمته ، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت فى وصل مايجب وصله للتناسب والتقارب

(١) قال محمود : «عدد الله عز وجل آلاءه فأراد أن يقدم أول شىء ماهو أسبق قدما فى ضروب آلائه ... الخ» قال أحمد : نغير من هذا الكلام قوله : أن خلق الانسان كان الغرض فيه ، أى المراد منه : أن يحيط علما بالكتب والوحى ، ونعوض بأن المراد بخلقه : أن يدعى إلى ذلك ، لا أن يقع ذلك منه ، فهذا هو المراد العام ، ثم منهم من أراد الله منه أن يحيط علما بالدين فيسر له ذلك ، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فبعد عنه ولم يوفق ، والله الموفق للصواب .

(٢) قال محمود : «ثم ذكر ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب ... الخ» قال أحمد : وإنما خص الجمل الأول بذكرها تبكيتاً للانسان لأجل التصاق معانيها به ، ألا ترى أنه مذكور فيها نطقا وإضماراً وحذفا مدلولا عليه فى الكلام ، فهو منطوق به مظهراً فى قوله (خلق الانسان) ومضمراً فى قوله (علمه البيان) ومدلولا على حذفه فى قوله (علم القرآن) فانه المفعول الثانى . أما قوله (الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان) فليس للانسان فيهما ذكر البتة ، وجل المقصود من سياقهما التنبيه على عظمة الله تعالى .

بالعاطف. فإن قلت : أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف ؟ قلت : إنّ الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل ، وأنّ السماء والأرض لاتزالان تذكران قرينتين ، وأن جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر . وقيل : (علم القرآن) جعله علامة وآية . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الإنسان آدم . وعنه أيضاً : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن مجاهد النجم : نجوم السماء ﴿والسماء رفعها﴾ خلقها مرفوعة مسموكة ، حيث جعلها منشأ أحكامه ، ومصدر قضاياه ، ومتنزل أوامره ونواهيه ، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه ؛ ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه ﴿ووضع الميزان﴾ وفى قراءة عبد الله : وخفض الميزان ، وأراد به كل ماتوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيال ومقياس ، أى خلقه موضوعا مخفوضا على الأرض : حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل فى أخذهم وإعطائهم ﴿ألا تطغوا﴾ لئلا تطغوا . أو هى أن المفسرة . وقرأ عبد الله : لاتطغوا بغير أن ، على إرادة القول ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ وقوموا وزنكم بالعدل ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ ولا تنقصوه : أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان . وكرر لفظ الميزان : تشديداً للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه . وقرئ : والسماء . بالرفع . ولاتخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها وفتحها . يقال : خسر الميزان يخسره ويخسره ، وأمّا الفتح فعلى أن الأصل : ولا تخسروا فى الميزان ، فحذف الجار وأوصل الفعل . و﴿وضعها﴾ خفضها مدحوة على الماء ﴿للأنام﴾ للخلق ، وهو كل ماعلى ظهر الأرض من دابة . وعن الحسن : الإنس والجنّ ، فهى كالمهاد لهم يتصرفون فوقها ﴿فاكهة﴾ ضروب مما يتفكه به ، و﴿الأكمام﴾ كل مايكم أى يغطى من ليفة وسعفة وكفراة[1] وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه . وقيل الأكمام أوعية التمر : الواحد كم . بكسر الكاف . و﴿العصف﴾ ورق الزرع ، وقيل التبن ﴿والريحان﴾ الرزق وهو اللب : أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغذى وهو ثمر النخل ، ومايتغذى به وهو الحب . وقرئ : والريحان ، بالكسر . ومعناه : والحب ذوالعصف الذى هو علف الأنعام ، والريحان الذى هو مطعم الناس . وبالضم على : وذو الريحان ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

(١) قوله «وسعفة وكفراة» الذى فى الصحاح «الكفرى» بلا تاء ، وأنها وعاء الطلع اه ؛ فلعل عبارة المفسر من ليفه وسعفه وكفراه بإضافة كل إلى ضمير النخل ، كما سيأتى فى ثمره وجماره وجذوعه ، والناسخ توهم أنها هاء التأنيث فنقطها فوق . (ع)

وقيل : معناه وفيها الريحان الذى يشم ، وفى مصاحف أهل الشأم : والحب ذوالعصف والريحان ، أى : وخلق الحب والريحان : أو وأخص الحب والريحان . ويجوز أن يراد : وذا الريحان ، فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه . والخطاب فى ﴿ربكما تكذبان﴾ للثقلين بدلالة الأنام عليهما . وقوله (سنفرغ لكم أيها الثقلان) .

خَلَقَ الْإِنْسَٰنَ مِنْ صَلْصَٰلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

الصلصال : الطين اليابس له صلصلة . والفخار : الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف . فإن قلت : قد اختلف التنزيل فى هذا . وذلك قوله عزّ وجل (من حمأ مسنون) ، (من طين لازب) ، (من تراب) . قلت : هو متفق فى المعنى ، ومفيد أنه خلقه من تراب : جعله طينا ، ثم حمأ مسنونا ، ثم صلصالا . و ﴿الجانّ﴾ أبو الجن . وقيل : هو إبليس . والمارج : اللهب الصافى الذى لا دخان فيه . وقيل : المختلط بسواد النار ، من مرج الشىء إذا اضطرب واختلط . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿من نار﴾ ؟ قلت : هو بيان لمارج ، كأنه قيل : من صاف من نار . أو مختلط من نار أو أراد من نار مخصوصة ، كقوله تعالى (فأنذرتكم ناراً تلظى) .

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

قرئ : رب المشرقين ورب المغربين ، بالجر بدلا من (ربكما) وأراد : مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

﴿مرج البحرين﴾ أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، لا فصل بين الماءين فى مرأى العين ﴿بينهما برزخ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لا يبغيان﴾ لا يتجاوزان حديهما ولا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة. قرئ يُخرَج ويَخرُج من أخرج. وخرج. ويُخرِج: أى الله عز وجل اللؤلؤَ والمرجانَ بالنصب . ونخرج ، بالنون . واللؤلؤ : الدر. والمرجان : هذا الخرز الأحمر وهو البسذ . وقيل : اللؤلؤ كبار الدر . والمرجان : صغاره . فإن قلت : لم قال

(منهما) وإنما يخرجان من الملح [١] ؟ قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد : جاز أن يقال: يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه . وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره . وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب .

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)

﴿الجوارى﴾ السفن . وقرئ : الجوار بحذف الياء ورفع الراء ، ونحوه :

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٌ حِسَانُ وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَانُ [٢]

و ﴿المنشآت﴾ المرفوعات الشرع [٣] . وقرئ بكسر الشين : وهى الرافعات الشرع أو اللاتى ينشئن الأمواج بجريهن . والأعلام : جمع علم ، وهو الجبل الطويل .

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)

﴿عليها﴾ على الأرض ﴿وجه ربك﴾ ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات [٤]، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان . و ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ صفة الوجه . وقرأ عبد الله : ذى ، على : صفة ربك . ومعناه : الذى يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم [٥] .

---

(١) قال محمود : «إن قلت لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح ... الخ» قال أحمد : هذا القول الثانى مردود بالمشاهدة ، والصواب هو الأول ، ومثله (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وإنما أريد إحدى القريتين ، هذا هو الصحيح الظاهر ، وكما تقول : فلان من أهل ديار مصر ، وإنما بلده محلة واحدة منها .

(٢) الثنايا : مقدم الأسنان ، وظاهر البيت أنها أربع من فوق وأربع من تحت ، فكل ثناياها ثمان . وروى : فثغرها ثمان ، وهذه الرواية تناسب ما اشتهر من أن الثنايا اثنان من فوق واثنان من تحت فهى أربع ، ويليها مثلها رباعيات ، ويليها مثلها أنياب ، ويليها مثلها ضواحك ، وما بقى أضراس . ثم نواجذ . وعامل المنقوص معاملة الصحيح ، فرفع ثمان خبرا للمبتدأ ، وصارت الياء المحذوفة نسيا منسيا .

(٣) قوله «والمنشآت المرفوعات الشرع» فى الصحاح «الشراع» : شراع السفينة اه ، فالشرع جمعه ، ككتاب وكتب . (ع)

(٤) قال محمود : «والوجه يعبر به عن الذات ومساكين مكة يقولون ... الخ» قال أحمد : المعتزلة ينكرون الصفات الالهية التى دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية : على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر ، ولم ير بيانها صفات سمعية .

(٥) قوله «وعن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم» إجلاله عن أفعال الخلق مبنى على مذهب المعتزلة : أنه لا يخلق أفعال العباد . ومذهب أهل السنة : أنه هو الخالق لها . (ع)

أو الذى يقال له : ما أجلك وأكرمك . أو من عنده الجلال والإكرام المخلصين من عباده ، وهذه الصفة من عظيم صفات الله ؛ ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألظوا [1] بياذا الجلال والإكرام » [2] وعنه عليه الصلاة والسلام : أنه مر برجل وهو يصلى ويقول : ياذا الجلال والإكرام ، فقال : « قد استجيب [3] لك » . فإن قلت : ما النعمة فى ذلك ؟ قلت : أعظم النعمة وهو مجىء وقت الجزاء عقيب ذلك .

يَسْئَلُهُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم ﴿كل يوم هو فى شأن﴾ أى كل وقت وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا ، كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : « من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » [4] وعن ابن عيينة : الدهر عند الله تعالى يومان ، أحدهما : اليوم الذى هو مدة عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع . والآخر : يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء والحساب . وقيل : نزلت فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شيئاً . وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيبا يفكر فيها ، فقال غلام له أسود : يامولاى ، أخبرنى ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدى ، فأخبره فقال له : أنا أفسرها للملك فأعلمه ، فقال : أيها الملك شأن الله أن يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى

(١) قوله « ألظوا بياذا الجلال » أى : الزموا ذلك . اه صحاح . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى من رواية يزيد الرقاشى . عن أنس ويزيد ضعيف ، ومن رواية مؤمل عن حماد بن حميد عن أنس مرفوعا ، وقال غيره محفوظاً وإنما هو عن حماد عن حميد عن الحسن مرسلا وهو أصح ، وأخرجه من رواية مؤمل إسحاق وابن أبى شيبة ، وبالثانى أبو يعلى والبزار قال ابن أبى حاتم عن أبيه : أخطأ فيه مؤمل ، والصحيح ما رواه أبو سلمة عن حماد عن ثابت . وحميد عن الحسن مرسلا ورواه ابن مردويه من رواية روح بن عبادة عن حماد عن حميد عن أنس موصولا أيضا ، وهذه متابعة قوية لمؤمل ، وفى الباب عن ربيعة بن عامر بن بجاد أخرجه الحاكم ، وفيه رشيد بن سعد ، وهو ضعيف وعن ابن عمر أخرجه ابن مردويه وإسناده ضعيف

(٣) أخرجه الترمذى والبخارى فى الأدب المفرد وأحمد والبزار والطبرانى من طريق أبى الدرداء عن اللجلاج عن معاذ بن جبل فذكره .

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والطبرانى والبزار وأبو يعلى من حديث أبى الدرداء ، وفى الباب عن ابن عمر أخرجه البزار باسناد ضعيف . وعن عبدالله بن حبيب الأزدى . أخرجه البزار والطبرانى وابن أبى حاتم قال البزار : لا أعلم أسند عبدالله بن حبيب إلا هذا الحديث .

من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويشفى سقيما ويسقم سليما ، ويبتلى معافا ويعافى مبتلى ، ويعز ذليلا ويذل عزيزاً ويفقر غنياً ويغنى فقيراً ؛ فقال الأمير : أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال : يا مولاى هذا من شأن الله . وعن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين ابن الفضل وقال له : أشكلت علىّ ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لى : قوله تعالى (فأصبح من النادمين) وقد صح أنّ الندم توبة وقوله تعالى (كل يوم هو فى شأن) وقد صح أنّ القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الأمة . ويكون توبة فى هذه الأمة ؛ لأنّ الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فمعناه : ليس له إلا ما سعى عدلا ، ولى أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلا ، وأما قوله (كل يوم هو فى شأن) فإنها شؤن يبديها لا شؤن يبتدئها ؛ فقام عبد الله وقبل رأسه وسوغ خراجه ،

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

﴿سنفرغ لكم﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد : سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنك ، حتى لا يكون لى شغل سواه ، والمراد : التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ، ويجوز أن يراد : ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهى عند ذلك شؤون الخلق التى أرادها بقوله (كل يوم هو فى شأن) فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل ، وقرئ : سيفرغ لكم ، أى : الله تعالى ، وسأفرغ لكم ، وسنفرغ بالنون ، مفتوحا ومكسوراً وفتح الراء ، وسيفرغ بالياء مفتوحا ومضموما مع فتح الراء ، وفى قراءة أبىّ : سنفرغ إليكم ، بمعنى : سنقصد إليكم ، والثقلان : الإنس والجن ، سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض ،

يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

﴿ يامعشر الجن والإنس ﴾ كالترجمة لقوله : أيها الثقلان ﴿ إن استطعتم ﴾ أن تهربوا من قضائى وتخرجوا من ملكوتى ومن سمائى وأرضى ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرون على

النفوذ ﴿ إلا بسلطان ﴾ يعنى بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) وروى : أنّ الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا ، فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به . قرئ : شواظ ونحاس ، كلاهما بالضم والكسر ؛ والشواظ : اللهب الخالص . والنحاس : الدخان ؛ وأنشد :

تُضِىءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيــطِ لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ فِيهِ نُحَاسَا (١)

وقيل : الصفر المذاب يصب على رءوسهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر . وقرئ : ونحاس ، مرفوعا عطفاً على شواظ . ومجروراً عطفاً على نار . وقرئ : ونحس : جمع نحاس ، وهو الدخان ، نحو لحاف ولحف . وقرئ : ونحس : أى : ونقتل بالعذاب . وقرئ : نرسل عليكما شواظا من نار ونحاسا ﴿ فلا تنتصران ﴾ فلا تمتنعان .

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

﴿ وردة ﴾ حمراء ﴿ كالدهان ﴾ كدهن الزيت ، كما قال : كالمهل ، وهو دردىّ الزيت ، وهو جمع دهن . أو اسم ما يدهن به كالحزام والإدام . قال :

كَأَنَّهُمَا مَزَادَتَا مُتَعَجِّلٍ فَرِيَّانِ لَمَّا تُدْهَنَا بِدِهَانِ (٢)

(١) النابغة الجعدى . والسليط : الشيرج ، ولم يجعل : جملة حالية من السراج . والنحاس : الدخان . وشرط مجىء الحال من المضاف إليه موجود ؛ لأن الضوء مثل جزئه ، ولعله يصف وجه محبوبته التى قال فيها :
إذا ما الضجيع ثنى عطفها ... البيت : شبهه بالسراج فى الاضاءة ، بقيد أن لا يكون فيه دخان ؛ لأن ضوء وجهها كذلك . فهو من التشبيه المقيد .

(٢) لامرئ القيس . والمزادة : قربة صغيرة يتزود فيها الماء للسفر . والفرى . وزن فعيل بمعنى مفعول ، من فريت الجلد إذا شققته . ولما : حرف جزم ونفى كلم ، إلا أنه يختص بتوقع منفيه . ويروى : لما تسلقا ، أى : تدهنا ، من سلقت الجلد إذا دهنته . والدهان : ما يدهن به ، كالادام ما يؤتدم به ؛ شبه عينيه من كثرة البكاء بقربتى رجل متعجل ، وهو من يأتى أهله بالاعجالة : وهى ما يعجله الراعى إلى أهله من اللبن قبل وقت الحلب . ويمكن أن المعنى أنه مستعجل لم يصبر حتى يدبغهما ويدهنهما ، فريان : مشقوقتان ، أى على حالة سلخهما لم يدهنا بدهن قط . وقيل : معنى التعجل أنه لم يحكم ربطهما . فهما يذرفان ماء من فمهما لا من ثقوبهما .

وقيل : الدهان الأديم الأحمر . وقرأ عمرو بن عبيد . وردة بالرفع ، بمعنى : فحصلت سماء وردة ، وهو من الكلام الذي يسمى التجريد ، كقوله :

فَلَئِنْ بَقِيتُ لَأَرْحَلَنَّ بِغَزْوَةٍ تَحْوِى الْغَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمُ(١)

﴿إنس﴾ بعض من الإنس ﴿ولا جان﴾ أريد به : ولا جن : أى : ولا بعض من الجن ، فوضع الجان الذي هو أبو الجن موضع الجن ، كما يقال : هاشم ، ويراد ولده. وإنما وحد ضمير الإنس فى قوله (عن ذنبه) لكونه فى معنى البعض . والمعنى : لا يسألون لأنهم يعرفون بسيما المجرمين وهى سواد الوجوه وزرقة العيون . فإن قلت : هذا خلاف قوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين) وقوله (وقفوهم إنهم مسئولون) . قلت : ذلك يوم طويل وفيه مواطن ، فيسألون فى موطن ولا يسألون فى آخر : قال قتادة : قد كانت مسئلة ، ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . وقيل لا يسأل عن ذنبه ليعلم من جهته ، ولكن يسأل سؤال توبيخ . وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد : ولا جأن : فرارا من التقاء الساكنين ، وإن كان على حده .

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِى وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ

(١) ومعى أسود من حنيفة فى الوغى للبيض فوق رؤسهم توسيم
قوم إذا لبسوا الحديد كأنهم فى البيض والحلق الدلاص نجوم
فلئن بقيت لأرحلن بغزوة نحو الغنائم أو يموت كريم

لقتادة بن مسلم الحنفى . والدلاص : اللينة الملساء . واستعار الأسود للشجعان على طريق التصريح ، ثم قال : إنهم موسومون فى الحرب بالمغافر حال كونها فوق رؤسهم . والمراد بالحديد : الدروع والمغافر والحلق الدروع وكانت بيضاء . فشبههم فيها بالنجوم للمعانها . أو كانت سوداء ، فشبه وجوههم فيها بالنجوم فى السماء ، فالجامع مركب حسى ، والفاء فى قوله «فلئن بقيت» تدل على أن مابعدها مسبب عما قبلها من توفر رجاله وشجاعتهم ومنعتهم ، أى : والله لئن طال عمرى لأرجعن إلى الأعداء بغزوة أخرى تجمع الغنائم ونحوها ، فنحو بالنون : فعل مضارع مجزوم فى جواب شرط مقدر ، أى : إن رجعنا إليهم بغزوة نجمع الغنائم منهم . وأما جواب إن المذكورة فمحذوف ، دل عليه جواب القسم . وروى : لأرحلن بغزوة ، أى : لأسافرن بغزوة ، تحوى بالتاء وزيادة الياء ، أى تجمع الغنائم وتحوزها . وإسناد الفعل للغزوة ، لأنها سبب الجمع والحيازة . ويجوز أن معناها الكتيبة ، مبالغة فى غزوها . وروى نحوى بالنون مع الياء ، أى : نجمع نحن ونحوز فى تلك الغزوة ، فالجملة صفة لغزوة . ويجوز أنه استئناف : جواب لسؤال مصدر . وروى : نحو الغنائم بالنصب على الظرفية ، أى جهة الغنائم . وأو بمعنى إلا ، أى إلا أن يموت كريم يعنى نفسه ، فهو من باب التجريد ، كأنه انتزع من نفسه شخصا مثله فى الشجاعة فأخبر عنه ، والكرم هنا الشجاعة ؛ لأنه فى كل باب بحسبه ؛ فليس خاصا بمقابل البخل . ومعنى الاستثناء راجع إلى معنى الجمع والحيازة ، ولا يلزم من اشتراط البقاء فى الذهاب اشتراط فيما يوجد عقبه فلا تكرار .

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

﴿فيؤخذ بالنواصى والأقدام﴾ عن الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدمه فى سلسلة من وراء ظهره وقيل تسحبهم الملائكة : تارة تأخذ بالنواصى ؛ وتارة تأخذ بالأقدام ﴿حميم آن﴾ ماء حار قد انتهى حره ونضجه ، أى : يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم . وقيل : إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم . وقيل : إن واديا من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم فى الأغلال ، فيغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم ؛ ثم يخرجون منه وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا . وقرىء : يطوفون من التطويف . ويطوفون ، أى : يتطوفون ويطافون . وفى قراءة عبد الله : هذه جهنم التى كنتما بها تكذبان تصليان لا تموتان فيها ولا تحييان يطوفون بينها . ونعمة الله فيما ذكره من هول العذاب : نجاة الناجى منه برحمته وفضله ، وما فى الإنذار به من اللطف .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

﴿مقام ربه﴾ موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ونحوه (لمن خاف مقامى) ويجوز أن يراد بمقام ربه : أن الله قائم عليه : أى حافظ مهيمن من قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته . وقيل : هو مقحم كما تقول : أخاف جانب فلان ، وفعلت هذا لمكانك . وأنشد :

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ ... مَقَامَ الذئبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ [1]

(١) قوله «كالرجل اللعين» : هو شىء ينصب وسط الزرع لطرد الوحوش ، كذا فى الصحاح . اه عليان . قلت : وتقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

يريد : ونفيت عنه الذئب . فإن قلت : لم قال ﴿جنتان﴾ ؟ قلت : الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان : جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى . ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصى ؛ لأنّ التكليف دائر عليهما وأن يقال : جنة يثاب بها ، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) خص الأفنان بالذكر : وهى الغصنة [1] التى تتشعب من فروع الشجرة ؛ لأنها هى التى تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجتنى الثمار . وقيل : الأفنان ألوان النعم ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين . قال :

وَمِنْ كُلِّ أَفْنَانِ اللَّذَاذَةِ وَالصِّبَا لَهَوْتُ بِهِ وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ نَاضِرُ [2]

﴿عينان تجريان﴾ حيث شاءوا فى الأعالى والأسافل . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال : إحداهما التسنيم ، والأخرى : السلسبيل ﴿زوجان﴾ صنفان : قيل : صنف معروف وصنف غريب ﴿متكئين﴾ نصب على المدح للخائفين . أو حال منهم ، لأنّ من خاف فى معنى الجمع ﴿بطائنها من إستبرق﴾ من ديباج ثخين ، وإذا كانت البطائن من الإستبرق ، فما ظنك بالظهائر؟ وقيل : ظهائرها من سندس . وقيل : من نور ﴿دان﴾ قريب يناله القائم والقاعد والنائم . وقرئ : وجنى ، بكسر الجيم .

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

---

(١) قوله «وهى الغصنة» جمع غصن ، كقرطة جمع قرط . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) الأفنان : جمع فنن ، وهو الغصن كثير الورق ، فيكون شبه اللذات والصبا : بروضة أو شجرة ذات أفنان على طريق المكنية . وإثبات الأفنان : تخييل . ويجوز أنه جمع فن ، أى : نوع وصنف على غير قياس ، كصحب وأصحاب . واللذاذات : جمع لذاذة ، وهى اللذة . ويروى : اللذاذة بالافراد . والصبا : الشباب أو هوى النفس . ومن بمعنى بعض على طريقة الزمخشرى ، أى : وبعض الأفنان لهوت ، أى : تمتعت به . والجمهور يجعلون نحو هذا مما حذف فيه الموصوف ، كقولهم : منا ظعن ومنا أقام ، لتقدم مجرور يدل عليه ، فمن كل : خبر مقدم ، ولهوت : صفة لمحذوف مبتدأ مؤخر ، أى : صنف لهوت به ؛ لكن المعنى على الاخبار باللهو ، فلا بد من المصير إلى رأى الزمخشرى . أو جعل الجار والمجرور صفة للمبتدأ ، ولهوت خبرا وإن لم يتقدم المجرور على الصفة . ويجوز أن «من كل» معمول لمحذوف يفسره المذكور ، أى : تمتعت من كل الأفنان لهوت به ، والواو للحال ، أى : والحال أن العيش أخضر ، أى رطب لون ناضر حسن ، نضبه العيش بروض يانع . والخضرة تخييل .

﴿فيهن﴾ فى هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى. أو فى الجنتين، لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس ﴿قاصرات الطرف﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن: لا ينظرن إلى غيرهم. لم يطمث الإنسيات منهن أحد من الإنس، ولا الجنيات أحدمن الجن[1] وهذا دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس، وقرئ: لم يطمثهن، بضم الميم. قيل: هن فى صفاء الياقوت وبياض المرجان وصغار الدر: أنصع بياضا. قيل: إنّ الحوراء تلبس سبعين حلة، فيرى مخ ساقها من ورائها كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء ﴿هل جزاء الإحسان﴾ فى العمل ﴿إلا الإحسان﴾ فى الثواب. وعن محمد بن الحنفية: هى مسجلة للبر والفاجر. أى: مرسلة، يعنى: أنّ كل من أحسن أحسن إليه، وكل من أساء أسيء إليه.

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

﴿ومن دونهما﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للمقربين ﴿جنتان﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين ﴿مدهامتان﴾ قد ادهامتا من شدّة الخضرة ﴿نضاختان﴾ فوارتان بالماء. والنضخ أكثر من النضح، لأنّ النضح غير معجمة مثل الرش، فإن قلت: لم عطف النخل والرمان على الفاكهة وهما منها؟ قلت: اختصاصا لهما وبيانا لفضلهما، كأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران، كقوله تعالى (وجبريل وميكائيل) أو لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه. ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا: لم يحنث، وخالفه صاحباه.

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

(١) قال محمود: «لم يطمث الانسية إنسى ولا الجنية جنى ... الخ» قال أحمد: يشير إلى الرد على من زعم أن الجن المؤمنين لا ثواب لهم، وإنما جزاؤهم ترك العقوبة وجعلهم ترابا

قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿خيرات﴾ خيرات نخففت، كقوله عليه السلام «هينون لينون»[1] وأما «خير» الذى هو بمعنى أخير، فلا يقال فيه خيرون ولا خيرات. وقرئ: خيرات على الأصل. والمعنى: فاضلات الأخلاق حسان الخلق ﴿مقصورات﴾ قصرن فى خدورهن. يقال: امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة مخدرة. وقيل: إنّ الخيمة من خيامهنّ درّة مجوّفة ﴿قبلهم﴾ قبل أصحاب الجنتين، دل عليهم ذكر الجنتين ﴿متكئين﴾ نصب على الاختصاص. والرفرف: ضرب من البسط. وقيل البسط وقيل الوسائد، وقيل كل ثوب عريض رفرف. ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط: رفارف. ورفرف السحاب: هيدبه[2] والعبقرى: منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه بلد الجن؛ فينسبون إليه كل شيء عجيب. وقرئ: رفارف خضر، بضمتين. وعباقرى، كمدائنى: نسبة إلى عباقر فى اسم البلد: وروى أبو حاتم: عباقرى، بفتح القاف ومنع الصرف، وهذا لا وجه لصحته. فإن قلت: كيف تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل: ومن دونهما؟ قلت: مدهامّتان، دون ذواتا أفنان. ونضاختان دون: تجريان. وفاكهة دون: كل فاكهة. وكذلك صفة الحور والمتكأ. وقرئ: ذو الجلال صفة، للاسم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الرحمن أدّى شكر ما أنعم الله عليه»[3]

---

(١) قوله «هينون لينون» لعله ورد فى صفة المؤمنين ومثله قال الشاعر:
* هينون لينون أيسار ذوو كرم * (ع)

(٢) قوله «ورفرف السحاب هيدبه» فى الصحاح: هيدب السحاب: ما تهدب منه، إذا أراد الودق كأنه خيوط. (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب.

ســـورة الواقعة

مكية [إلا آيتى ٨١ و ٨٢ فمدنيتان]

وآياتها ٩٦ وقيـل ٩٧ آية [نزلت بعد طه]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧)

﴿وقعت الواقعة﴾ كقولك: كانت الكائنة، وحدثت الحادثة، والمراد القيامة: وصفت بالوقوع لأنها تقع لامحالة، فكأنه قيل: إذا وقعت التى لا بدّ من وقوعها، ووقوع الأمر: نزوله. يقال: وقع ما كنت أتوقعه، أى: نزل ما كنت أترقب نزوله. فإن قلت: بم انتصب إذا؟ قلت: بليس. كقولك يوم الجمعة ليس لى شغل. أو بمحذوف، يعنى: إذا وقعت كان كيت وكيت: أو بإضمار اذكر ﴿كاذبة﴾ نفس كاذبة، أى: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب فى تكذيب الغيب: لأنّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات، كقوله تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده)، (لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم)، (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة) واللام مثلها فى قوله تعالى (ياليتنى قدّمت لحياتى) أو: ليس لها نفس تكذبها وتقول لها: لم تكونى كما لها اليوم نفوس كثيرة يكذبنها، يقلن لها: لن تكونى. أو هى من قولهم: كذبت فلانا نفسه فى الخطب العظيم، إذا شجعته على مباشرته وقالت له: إنك تطيقه ومافوقه فتعرض له ولا تبال به، على معنى: أنها وقعة لا تطاق شدّة وفظاعة. وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدّثه به عند عظائم الأمور وتزين له احتمالها وإطاقتها، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل. ألا ترى إلى قوله تعالى (كالفراش المبثوث) والفراش مثل فى الضعف. وقيل (كاذبة) مصدر كالعاقبة بمعنى التكذيب، من قولك: حمل على قرنه فما كذب، أى: فما جبن وما تثبط. وحقيقته:

فما كذب نفسه فيما حدثته به . من إطاقته له وإقدامه عليه . قال زهير :

... ... إِذَا مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا [1]

أى : إذا وقعت لم تكن لها رجعة ولا ارتداد ﴿خافضة رافعة﴾ على : هى خافضة رافعة ، ترفع أقواما وتضع آخرين : إما وصفاً لها بالشدّة ؛ لأنّ الواقعات العظام كذلك : يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس ، وإما لأنّ الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يرفعون إلى الدرجات ؛ وإما أنها تزلزل الأشياء وتزيلها عن مقارّها ، فتخفض بعضاً وترفع بعضا : حيث تسقط السماء كسفا وتنتثر الكواكب وتنكدر وتسير الجبال فتمرّ فى الجو مرّ السحاب ، وقرئ : خافضة رافعة بالنصب على الحال ﴿رجت﴾ حركت تحريكا شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء ﴿وبست الجبال﴾ وفتت [2] حتى تعود كالسويق . أو سيقت من بس الغنم إذا ساقها . كقوله ﴿وسيرت الجبال﴾ ، ﴿منبثا﴾ متفرقا . وقرئ بالتاء أى : منقطعا . وقرئ : رجت وبست ، أى : ارتجت وذهبت . وفى كلام بنت الخس [3] : عينها هاج ، وصلاها راج . وهى تمشى وتفاج . فإن قلت : بم انتصب إذا رجت ؟ قلت : هو بدل من إذا وقعت . ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة . أى : تخفض وترفع وقت رج الأرض ، وبس الجبال لأنه عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض ﴿أزواجا﴾ أصنافا ، يقال للأصناف التى بعضها مع بعض أو يذكر بعضها مع بعض : أزواج .

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾

﴿فأصحاب الميمنة﴾ الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿وأصحاب المشأمة﴾ الذين يؤتونها بشمائلهم . أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية ، من قولك : فلان منى باليمين ، فلان منى بالشمال : إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة ؛ وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل ،

---

(١) ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

لزهير يمدح شجاعا ، فاستعار له اسم الأسد على طريق التصريحية ، والاصطياد ترشيح . وعثر : اسم موضع . أى شجاع فى عثر يقتل الرجال إذا كذب أى جبن وضعف الفارس الشديد عن أقرانه فى الحرب ، صدق هو ونفذ عزمه وقتل قرنه ، وفى البيت الطباق بين الصدق والكذب ، وهو من بديع الكلام .

(٢) قوله «وفتت حتى تعود كالسويق» عبارة النسفى : وفتتت . (ع)

(٣) قوله «وفى كلام بنت الخس» فى الصحاح : الخس بالفتح : بقلة . والخس بالضم : اسم رجل . ومنه : هند بنت الخس . وعين هاجة : أى غائرة . والصلا : ما عن يمين الذنب ويساره . وفجت ما بين رجلى أفجهما : إذا فتحت . يقال : هو يمشى مفاجا . (ع)

ولتفاؤلهم بالسانح [1] وتطيرهم من البارح ، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن ، وسموا الشمال الشؤمى . وقيل : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة : أصحاب اليمن والشؤم ؛ لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم ، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم . وقيل : يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين وبأهل النار ذات الشمال .

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾

﴿ والسابقون ﴾ المخلصون الذين سبقوا إلى مادعاهم الله إليه وشقوا الغبار فى طلب مرضاة الله عز وجل وقيل : الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ، ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا ؛ فهذا السابق المقرّب ، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ، ثم تراجع بتوبة ؛ فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر فى حداثة سنه ، ثم يزل عليه حتى خرج من الدنيا ، فهذا صاحب الشمال ما أصحاب الميمنة . ما أصحاب المشأمة ؟ تعجيب من حال الفريقين فى السعادة و الشقاوة [2].

---

(١) قوله «ولتفاؤلهم بالسانح» هو مامر من يسارك إلى يمينك من ظبي أو طائر . والبارح : عكسه . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «ما» تعجيب من حال الفريقين ... الخ» قال أحمد : اختار ماهو المختار ؛ لأنه أقعد بالفصاحة ، لكن بقي التنبيه على المخالفة بين المذكورين فى السابقين وفى أصحاب اليمين ، مع أن كل واحد منهما إنما أريد به التعظيم والتهويل لحال المذكورين ، فنقول : التعظيم المؤدى بقوله (والسابقون) أبلغ من قرينه ، وذلك أن مؤدى هذا : أن أمر السابقين وعظمة شأنه مالا يكاد يخفى ، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور . وأما المذكور فى قوله (وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) فانه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق . ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله (أولئك المقربون) فجمع بين اسم الاشارة المشار به إلى معروف ، وبين الاخبار عنه بقوله (المقربون) معرفا بالألف واللام العهدية ، وليس مثل هذا مذكوراً فى بسط حال أصحاب اليمين ، فانه مصدر بقوله (فى سدر مخضود) .

والمعنى : أى شىء هم ؟ والسابقون السابقون ، يريد : والسابقون من عرفت حالهم وبلغك وصفهم ، كقوله وعبد الله عبد الله . وقول أبى النجم : وشعرى شعرى[١] ؛ كأنه قال : وشعرى ما انتهى إليك وسمعت بفصاحته وبراعته ، وقد جعل السابقون تأكيداً . وأولئك المقرّبون : خبراً وليس بذاك . ووقف بعضهم على : والسابقون ؛ وابتدأ السابقون أولئك المقربون ، والصواب أن يوقف على الثانى ، لأنه تمام الجملة ، وهو فى مقابلة : ما أصحاب الميمنة ، وما أصحاب المشأمة ﴿المقرّبون فى جنات النعيم﴾ الذين قربت درجاتهم فى الجنة من العرش وأعليت مراتبهم . وقرئ : فى جنة النعيم . والثلة : الأمة من الناس الكثيرة . قال :

وَجَاءَتْ إِلَيْهِمْ ثُـلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ بِجَيْشٍ كَتَيَّارٍ مِنَ السَّيْلِ مُزْبِدِ[٢]

وقوله عز وجل (وقليل من الآخرين) كفى به دليلا على الكثرة ، وهى من الثل وهو الكسر ، كما أنّ الأمة من الأمّ وهو الشج ، كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم . والمعنى : أنّ السابقين من الأوّلين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل (من الأولين) من متقدمى هذه الأمة ، و (من الآخرين) من متأخريها . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « الثلثان جميعا من أمتى »[٣] . فإن قلت : كيف قال : وقليل من الآخرين ، ثم قال : (وثلة من الآخرين) ؟

---

(١) أنا أبو النجم وشعرى شعرى لله درى ما أجن صدرى
تنام عينى وفؤادى يسرى مع العفاريت بأرض قفر
لأبى النجم العجلى . يريد : أنا المعروف بالبلاغة بين الناس كالعلم المشهور . وشعرى : هو البليغ المعروف بأنه شعر أبى النجم ، لأنه إذا اتحد المبتدأ والخبر أو الشرط والجزاء : دل الكلام على المبالغة فى التعظيم أو فى التحقير . وماهنا من الأول بدليل السياق . وفيه ادعاء أن نهاية العظمة فى الرجل المسمى بأبى النجم ، ونهاية البلاغة فى الشعر المنسوب إليه . والدر : اللبن ؛ لكن المراد به العمل والصنع ، أى : لله صنيعى ، يعنى : أنه عظيم . وجن الليل : أظلم . والنبت : طال والتف . والذباب : كثرت أصواته . وجنه الليل : ستره ، وأجنه الصدر : أكنه . وماتعجبية . وأجن : فعل تعجب ، أى : شىء عظيم جعل صدرى محيطا بالمعانى الغريبة ؛ ويحتمل أن « ما » يدل من درى . وأجن : فعل ماض صلة أو صفة له ، وفؤادى : قلبى أو عقلى . يسرى : يسير ليلا . أى : يبيت فكرى كأنه ذاهب مع العفاريت بأرض فضاء لانبات بها ، لابعاده فى المعانى . والبيت الثانى بيان للأول .

(٢) وجاءت إليهم ثلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزبد
يقول : وجاءت إليهم جماعة من الناس منسوبة إلى خندف امرأة إلياس بن مضر . وقوله « بجيش » من باب التجريد ، كأنه انتزع من الثلة جيشا غيرها مبالغة فى الكثرة . ويحتمل أن الباء بمعنى مع ، أوفق ؛ لأن الجيش أوسع من الثلة ، وهو من جاش إذا تحرك واضطرب ، كأنه يغلى ، والتيار : الماء الشديد الجرى ، ومن بيانية أو تبعيضية . والمزبد : المرتفع زبده على وجهه لكثرته وفورانه .

(٣) أخرجه الطبرى وابن عدى من رواية أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال فى هذه الآية (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هما جميعا من أمتى » وأبان هو ابن أبى عياش =

قلت : هذا فى السابقين وذلك فى أصحاب اليمين ؛ وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا . فإن قلت : فقد روى أنها لما نزلت شق ذلك على المسلمين ، فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجع ربه حتى نزلت (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) . قلت: هذا لا يصح لأمرين، أحدهما : أنّ هذه الآية واردة فى السابقين وروداً ظاهراً ، وكذلك الثانية فى أصحاب [1] اليمين . ألا ترى كيف عطف أصحاب اليمين ووعدهم ، على السابقين ووعدهم ، والثانى : أنّ النسخ فى الأخبار غير جائز . وعن الحسن رضى الله عنه : سابقو الأمم أكثر من سابقى أمّتنا ، وتابعو الأمم مثل تابعى هذه الأمّة . وثلة : خبر مبتدإ محذوف ، أى : هم ثلة ﴿موضونة﴾ مرمولة بالذهب ، [2] مشبكة بالدرّ والياقوت ، قد دوخل بعضها فى بعض كما توضن حلق الدرع . قال الأعشى :

* وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٌ * [3]

وقيل : متواصلة ، أدنى بعضها من بعض . ﴿متكئين﴾ حال من الضمير فى على ، وهو العامل فيها ، أى : استقرّوا عليها متكئين ﴿متقابلين﴾ لا ينظر بعضهم فى أقفاء بعض . وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب ﴿مخلدون﴾ مبقون أبداً على شكل الولدان وحدّ الوصافة، [4] لا يتحولون عنه . وقيل : مقرطون ، والخلدة : القرط . وقيل : هم أولاد أهل الدنيا : لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها . روى عن على رضى الله عنه وعن الحسن. وفى الحديث : « أولاد الكفار خدام أهل الجنة » [5] . الأكواب : أوان بلا عرى وخراطيم ،

ـــــــــــــــــــ

= متروك . ورواه إسحاق وسنده إلى الطيالسى وإبراهيم الحربى والطبرانى من رواية زيد بن صهبان عن أبى بكرة مرفوعا وموقوفا . والموقوف أولى بالصواب . وعلى ضعيف .

(١) قوله « وكذلك الثانية فى أصحاب اليمين » أى ظاهرة الورود . (ع)

(٢) قوله « مرمولة بالذهب » فى الصحاح : رملت الحصير ، أى : سففته . وفيه أيضا : سففت الخوص : أى نسجته . (ع)

(٣) ومن نسج داود موضونة تساق مع الحى عيراً فعيرا

للأعشى ، يصف الدروع ، وجعلها من نسج سيدنا داود مبالغة فى حسن صنعتها ؛ لأنه نسجها بأمر من الله وتعليمه له . موضونة : أى مدخل بعضها فى بعض ، فهى محكمة النسج لتساق ، أى : أصحابها مع الحى . والعير بالفتح : السيد ، أى سيداً بعد سيد مترتبين ، ويطلق العير على طائر يطير فوق القافلة السائرة ، وتبعد إرادته هنا .

(٤) قوله « وحد الوصافة » هى بلوغ الغلام حد الخدمة . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط من رواية عباد بن منصور عن أبى رجاء العطاردى عن سمرة بن جندب قال « سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدم أهل الجنة » ورواه البزار من رواية على بن زيد بن جدعان والطيالسى والطبرانى وأبو يعلى من رواية يزيد الرقاشى كلاهما عن أنس بهذا وأتم منه قلت : قد يعارضه حديث سمرة فى صحيح البخاري . ففيه أنه رأى أولاد الناس تحت شجرة يكفلهم إبراهيم عليه =

والأباريق، ذوات الخراطيم ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي بسببها، وحقيقته: لا يصدر صداعهم عنها. أو لا يفرّقون عنها. وقرأ مجاهد: لا يصدعون، بمعنى: لا يتصدعون لا يتفرقون، كقوله (يومئذ يصدعون) ويصدعون، أي: لا يصدع بعضهم بعضا، لا يفرّقونهم ﴿يتخيرون﴾ يأخذون خيره وأفضله ﴿يشتهون﴾ يتمنون. وقرئ: ولحوم طير. قرئ: وحور عين، بالرفع على: وفيها حور عين، كبيت الكتاب:

إلاّ رَوَاكِدُ جَمْرُهُنَّ هَبَاءٌ وَمُشَجَّجٌ ... ...(١)

أو للعطف على ولدان، وبالجر: عطفا على جنات النعيم، كأنه قال: هم في جنات النعيم، وفاكهة ولحم وحور. أو على أكواب، لأن معنى (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب) ينعمون بأكواب، وبالنصب على: ويؤتون حورا ﴿جزاء﴾ مفعول له، أي: يفعل بهم ذلك كله جزاء بأعمالهم ﴿سلاما سلاما﴾ إما بدل من (قيلا) بدليل قوله (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما) وإما مفعول به لقيلا، بمعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما. والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم، فيسلمون سلاما بعد سلام. وقرئ سلام سلام، على الحكاية.

وَأَصْحَٰبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَٰبُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

= السلام قال فقلنا: وأولاد المشركين؟ قال: وأولاد المشركين، أخرجه بهذا اللفظ. ويمكن الجمع بينهما بأن لا منافاة بينهما لاحتمال أن يكونوا في البرزخ كذلك، ثم بعد الاستقرار يستقرون في الجنة خدما لأهلها.

(١) بادت وغير آيهن مع البلى إلا رواكد جمرهن هباء
ومشجج إما سواء قذاله فبدا وغير ساره المعزاء

للشماخ، وقيل: لذي الرمة، وهي من أبيات الكتاب. وباد يبيد: هلك. والآى: اسم جمع آية وهي علامة. والرواكد: الأثافي. وهي الأحجار التي توضع عليها القدر. والهباء: الرماد المختلط بالتراب. والمشجج: صفة جرت مجرى الاسم لوتد الخباء الذي تشجج رأسه من الدق. فبرز حول رأسه أطراف تشبه القذال، وهو شعر جوانب الرأس. وسواء الشيء. وسطه. ويروى: غيب، بدل: غير. والسار بالهمز وتركه: البقية. والمعزاء: أرض يخالط ترابها حجارة وحصى، يقول: هلكت تلك الديار وبليت آثارها، ولم يبق إلا محل النار وبقية وتد الخباء. ويروى: رواكد بالنصب، فعطف المرفوع على المنصوب اعتماداً على المعنى.

السدر : شجر النبق . والمخضود : الذى لا شوك له ، كأنما خضد شوكه .[1] وعن مجاهد : الموقر الذى تثنى أغصانه كثرة حمله ، من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب . والطلح : شجر الموز . وقيل : هو شجر أم غيلان ، وله نوار كثير طيب الرائحة . وعن السدى: شجر يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل . وعن على رضى الله عنه أنه قرأ : وطلع ، وما شأن الطلح ،[2] وقرأ[3] قوله (لها طلع نضيد) فقيل له : أو نحولها ؟ فقال : آى القرآن لا تهاج اليوم ولا تحول . وعن ابن عباس نحوه . والمنضود : الذى نضد[4] بالحمل من أسفله إلى أعلاه؛ فليست له ساق بارزة ﴿وظلّ ممدود﴾ ممتدّ منبسط لا يتقلص ، كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ﴿مسكوب﴾ يسكب لهم أين شاؤا وكيف شاؤا لا يتعنون فيه . وقيل : دائم الجرية لا ينقطع . وقيل : مصبوب يجرى على الأرض فى غير أخدود ﴿لا مقطوعة﴾ هى دائمة لا تنقطع فى بعض الأوقات كفواكه الدنيا ﴿ولا ممنوعة﴾ لا تمنع عن متناولها بوجه ، ولا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا . وقرئ : وفاكهة كثيرة ، بالرفع على : وهناك فاكهة ، كقوله : وحور عين ﴿وفرش﴾ جمع فراش . وقرئ : وفرش ، بالتخفيف ﴿مرفوعة﴾ نضدت حتى ارتفعت . أو مرفوعة على الأسرة . وقيل : هى النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك . قال الله تعالى (هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿إنا أنشأناهنّ إنشاء﴾ وعلى التفسير الأول أضمر لهنّ ، لأنّ ذكر الفرش وهى المضاجع دلّ عليهن (أنشأناهن إنشاء) أى ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، فإما أن يراد . اللاتى ابتدئ إنشاؤهن ؛ أو اللاتى أعيد إنشاؤهن . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] . أن أم سلمة رضى الله عنها سألته عن قول الله تعالى . (إنا أنشأناهن) فقال : يا أم سلمة

---

(١) قوله «وكأنما خضد شوكه» فى الصحاح «خضدت الشجر» قطعت شوكه ، وخضدت العود ، أى : ثنيته من غير كسر . (ع)

(٢) قوله «وماشأن الطلح» لعله : وقال ماشأن الطلح . (ع)

(٣) قوله «وقرأ» أى : استشهادا على قراءته . (ع)

(٤) قوله «والمنضود الذى نضد» فى الصحاح : أنه المرصوص بعضه فوق بعض . (ع)

(٥) أخرجه الثعلبي بتمامه من طريق الحسن بن علوية القطان عن إسماعيل بن عيسى عن المسيب بن شريك فذكره ولم يرفع إلا قصة عائشة . ومن طريق غنجار حدثنا إسماعيل بن أبى الباد عن يونس عن الحسن عن أم سلمة مرفوعا دون قصة عائشة . وروى الطبرى والطبرانى وابن مردويه من طريق عمر بن هاشم البيروتى عن سليمان بن أبى كريمة عن هشام عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت : قلت يارسول الله ، أخبرنى عن قوله تعالى (عربا أترابا) فذكره . وفيه «جعلهن عذارى عربا متعشقات متحببات إلى أزواجهن ، أترابا على ميلاد واحد» وروى الترمذى من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشى طرفا منه واستضعفه .

هنّ اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز شمطا رمصا [١]، جعلهنّ الله بعد الكبر ﴿أترابا﴾ على ميلاد واحد فى الاستواء [٢]، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا؛ فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: واوجعاه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هناك وجع. وقالت عجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يدخلنى الجنة، فقال: إنّ الجنة لا تدخلها العجائز، فولت وهى تبكى، فقال عليه الصلاة السلام: «أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز» [٣] وقرأ الآية ﴿عربا﴾ وقرئ: عربا، بالتخفيف جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ﴿أترابا﴾ مستويات فى السن بنات ثلاث وثلاثين، وأزواجهنّ أيضا كذلك. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يدخل أهل الجنة الجنة جردا مردا بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين» [٤] واللام فى (لأصحاب اليمين) من صلة أنشأنا وجعلنا.

﴿وَأَصْحَٰبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَٰبُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ﴾

(١) قوله «عجائز شمطا رمصا» فى الصحاح «الشمط»: بياض شعر الرأس يخالط سواده، والرجل أشمط، والمرأة شمطاء. وفيه: الرمص: وسخ يجتمع فى الموق. وقد رمصت عينه، والرجل أرمص اه، أى: والمرأة رمصاء، والجمع شمط ورمص. (ع)

(٢) قوله «ميلاد واحد فى الاستواء» لعله متعلق بمعنى التشبيه، أى: كأنهن على ميلاد واحد فى استواء الخلق. (ع)

(٣) أخرجه الترمذى فى الشمائل من رواية مبارك بن فضالة عن الحسن بهذا مرسلا وسياقه أتم. وله طرق أخرى. منها فى البعث للبيهقى من رواية ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عائشة. ومنها فى الأوسط من رواية مسعدة ابن اليسع عن سعيد عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة. ورواه خارجة بن مصعب عن سعيد عن قتادة عن أنس. وكلها ضعيفة.

(٤) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة بهذا. وزاد على خلق آدم ستون ذراعا عرض سبعة أذرع. وذكر ابن أبى حاتم فى العلل أن أباه قال: رواه أبو سلمة عن حماد مرسلا ولم يذكر فيه أبا هريرة وكذا أخرجه ابن سعد عن يحيى بن السكن عن حماد. وعلى بن زيد ضعيف. وفى الباب عن معاذ بن جبل. أخرجه الترمذى وقال: غريب. وبعض أصحاب قتادة أرسلوه. وأخرجه البيهقى موصولا، ثم أخرجه موقوفا على قتادة.

الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)

﴿فى سموم﴾ فى حر نار ينفذ فى المسام ﴿وحميم﴾ وماء حار متناه فى الحرارة ﴿وظل من يحموم﴾ من دخان أسود بهيم ﴿لا بارد ولا كريم﴾ نفى لصفتى الظل عنه، يريد: أنه ظل، ولكن لا كسائر الظلال: سماه ظلا، ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما فى مدلول الظل من الاسترواح إليه. والمعنى أنه ظل حار ضار إلا أن للنفى فى نحو هذا شأنا ليس للإثبات. وفيه تهكم بأصحاب المشأمة، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم الذى هو لأضدادهم فى الجنة. وقرئ: لا بارد ولا كريم بالرفع، أى: لا هو كذلك. و﴿الحنث﴾ الذنب العظيم. ومنه قولهم: بلغ الغلام الحنث، أى: الحلم ووقت المؤاخذة بالمآثم. ومنه: حنث فى يمينه، خلاف: برّ فيها. ويقال: تحنث إذا تأثم وتحرج ﴿أو آباؤنا﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف. فإن قلت: كيف حسن العطف على المضمر فى (لمبعوثون) من غير تأكيد بنحن؟ قلت: حسن للفاصل الذى هو الهمزة، كما حسن فى قوله تعالى (ما أشركنا ولا آباؤنا) لفصل (لا) المؤكدة للنفى. وقرئ: أو آباؤنا. وقرئ: لمجمعون[1] ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم. والإضافة بمعنى من، كخاتم فضة. والميقات: ما وقت به الشيء، أى: حدّ. ومنه مواقيت الإحرام: وهى الحدود التى لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما ﴿أيها الضالون﴾ عن الهدى ﴿المكذبون﴾ بالبعث، وهم أهل مكة ومن فى مثل حالهم ﴿من شجر من زقوم﴾ من الأولى لابتداء الغاية، والثانية لبيان الشجر وتفسيره. وأنث ضمير الشجر على المعنى، وذكره على اللفظ فى قوله (منها) و(عليه) ومن قرأ (من شجرة من زقوم) فقد جعل الضميرين للشجرة، وإنما ذكر الثانى على تأويل الزقوم، لأنه تفسيرها وهى فى معناه ﴿شرب الهيم﴾ قرئ بالحركات الثلاث، فالفتح والضم: مصدران. وعن جعفر الصادق رضى الله عنه: أيام أكل وشرب، بفتح الشين. وأما المكسور فبمعنى المشروب، أى: ما يشربه الهيم وهى الإبل التى بها الهيام، وهو داء تشرب منه فلا تروى: جمع أهيم وهيماء. قال ذو الرمة:

(١) قوله «وقرئ: لمجمعون إلى ميقات» فى الصحاح: أجمعت الشيء: جعلته جميعا. (ع)

فَأَصْبَحْتُ كَالْهَيْمَاءِ لَا الْمَاءُ مُبْرِدٌ صَدَاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هُيَامُهَا (١)

وقيل الهيم : الرمال . ووجهه أن يكون جمع الهيام بفتح الهاء وهو الرمل الذى لا يتماسك ، جمع على فعل كسحاب وسحب ، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض . والمعنى : أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرّهم إلى أكل الزقوم الذى هو كالمهل ؛ فإذا ملؤوا منه البطون يسلط عليهم من العطش ما يضطرّهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهيم . فإن قلت : كيف صحّ عطف الشاربين على الشاربين ، وهما لذوات متفقة ، وصفتان متفقتان ، فكان عطفاً للشيء على نفسه ؟ قلت : ليستا بمتفقتين ، من حيث إنّ كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه : من تناهى الحرارة وقطع الأمعاء : أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم الماء : أمر عجيب أيضاً ، فكانتا صفتين مختلفتين . النزل : الرزق الذى يعدّ للنازل تكرما له . وفيه تهكم ، كما فى قوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) وكقول أبى الشعر الضبى .

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلَا (٢)

وقرئ نزلهم بالتخفيف .

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)

---

(١) وقد زودت مى على النأى قبلة علاقات حاجات طويل سقامها
فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد صداها ولا يقضى عليها هيامها

لذى الرمة ، يقول : وقد زودتنا ، أى جعلت زادنا مى عند الرحيل قبلة ، فكانت القبلة علاقات الحاجات وأسباب التطلع إلى الوصال ، فعلاقات : خبر مرفوع ، أو بدل منصوب . والسقام ككلام ، وسقم كتعب ، وسقم كبخل : مصدر سقم كتعب تعبا ، أى : عناؤها طويل المدة لا يبرأ . ويقال للجمل : أهيم ، وللناقة هيماء ، إذا أصابهما الهيام بالضم : وهو داء تغلى منه قلوب الابل كالعطش الشديد ، أى : فأصبحت كالناقة الهيماء . وقوله « لا الماء مبرد » استئناف مبين لوجه الشبه فيها . أو حال منها ، أى : لا يبرد الماء ظمأها ولا يقضى عليها ، أى : لا يميتها هيامها ، فأنا كذلك لا وصال فيشفينى ، ولا التلف يميتنى . ويروى : ولا يقضى على هيامها ، ولعل معناه : لا الماء يبرد الحرقة التى حصلت لى منها ، ولا يميتنى الهيام الذى حصل لى منها ؛ ولكن الأولى أقعد وأجود معنى .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٥٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

﴿فلولا تصدّقون﴾ تحضيض على التصديق : إما بالخلق لأنهم وإن كانوا مصدّقين به ، إلا أنهم لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق ، فكأنهم مكذبون به . وإما بالبعث ؛ لأنّ من خلق أولا لم يمتنع عليه أن يخلق ثانياً ﴿ما تمنون﴾ ما تمنونه ، أى : تقذفونه فى الأرحام من النطف . وقرأ أبو السمال بفتح التاء ، يقال : أمنى النطفة ومناها . قال الله تعالى (من نطفة إذا تمنى) . ﴿تخلقونه﴾ تقدرونه وتصوّرونه ﴿قدرنا بينكم الموت﴾ تقديراً وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا ، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط . وقرئ : قدرنا بالتخفيف . سبقته على الشيء : إذا أعجزته عنه وغلبته عليه ولم تمكنه منه ، فمعنى قوله ﴿وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم﴾ أنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه ، وأمثالكم جمع مثل : أى على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ، وعلى أن ﴿ننشئكم﴾ فى خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها ، يعنى : أنا نقدر على الأمرين جميعاً : على خلق ما يماثلكم ، وما لا يماثلكم ؛ فكيف نعجز عن إعادتكم . ويجوز أن يكون (أمثالكم) جمع مثل ، أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التى أنتم عليها فى خلقكم وأخلاقكم ، وننشئكم فى صفات لا تعلمونها . قرئ النشأة والنشاءة . وفى هذا دليل على صحة القياس حيث جهّلهم فى ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى .

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)

﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ه من الطعام ، أى : تبذرون حبه وتعملون فى أرضه ﴿أأنتم تزرعونه﴾ تنبتونه وتردونه نباتا ، يرف وينمى [1] إلى أن يبلغ الغاية . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم : زرعت ، وليقل : حرثت » [2] قال أبو هريرة : أرأيتم إلى [3] قوله :

(١) قوله « ونباتا يرف وينمى » فى الصحاح : رف لونه يرف ـ بالكسر ـ برق وتلألأ . وشجر رفيف : إذا تندت أوراقه . (ع)

(٢) أخرجه ابن حبان والبزار والطبرانى من طريق مخلد بن حسين عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة بهذا قال : ثم قرأ أبو هريرة (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه) .

(٣) قوله « قال أبو هريرة : أرأيتم » أى استشهد على الحديث بالآية ، وهى قوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون) وقوله « أرأيتم » خطاب لمن يسمع منه ، وأراد معنى النظر ، فعداه بإلى كقوله (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء) . (ع)

(افرأيتم . . الآية) . والحطام : من حطم ، كالفتات والجذاذ من فت وجذ : وهو ما صار هشيما وتحطم ﴿فظلتم﴾ وقرئ بالكسر . وفظللتم على الأصل ﴿تفكهون﴾ تعجبون . وعن الحسن رضى الله عنه : تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه . أو على ما اقترفتم من المعاصى التى أصبتم بذلك من أجلها . وقرئ : تفكنون . ومنه الحديث « مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء [1] ويتركها القرباء فبينا هم إذ غار ماؤها فانتفع بها قوم وبقى قوم يتفكنون »[2] أى : يتندمون ﴿إنا لمغرمون﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا . ومهلكون لهلاك رزقنا ، من الغرام : وهو الهلاك ﴿بل نحن﴾ قوم ﴿محرومون﴾ محارفون محدودون ، لا حظ لنا ولا بخت لنا ؛ ولو كنا مجدودين ، لما جرى علينا هذا . وقرئ : أئنا .

أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿الماء الذى تشربون﴾ يريد : الماء العذب الصالح للشرب . و﴿المزن﴾ السحاب : الواحدة مزنة . وقيل : هو السحاب الأبيض خاصة ، وهو أعذب ماء ﴿أجاجا﴾ ملحا زعاقا [3] لا يقدر على شربه . فإن قلت : لم أدخلت اللام على جواب (لو) فى قوله (لجعلناه حطاما) ونزعت منه ههنا ؟ قلت : إنّ « لو » لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ، ولم تكن مخلصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها ، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها فى مضمونى جملتيها أنّ الثانى امتنع لامتناع الأوّل : افتقرت فى جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق ، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك ، فإذا حذفت بعد ما صارت علما مشهورا مكانه ، فلأن الشىء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به : لم يبال بإسقاطه عن اللفظ ، استغناء بمعرفة السامع . ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول : خير ، لمن قال له : كيف أصبحت ؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه . وتساوى حالى حذفه وإثباته لشهرة أمره . وناهيك بقول أوس :

حَتَّى إِذَا الْكَلَّابُ قَالَ لَهَا كَالْيَوْمِ مَطْلُوبًا وَلَا طَلَبَا [4]

---

(١) قوله « كمثل الحمة يأتيها البعداء » فى الصحاح « الحمة » : العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى . وفى الحديث : « العالم كالحمة » اه . (ع)

(٢) لم أجده

(٣) قوله « ملحا زعاقا » فى الصحاح « الماء الزعاق » : الملح . وطعام مزعوق : إذا كثر ملحه . (ع)

(٤) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٢٨٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وحذفه «لم أر» فإذن حذفها اختصار لفظى، وهى ثابتة فى المعنى. فاستوى الموضعان بلا فرق بينهما؛ على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية ونائب عنه. ويجوز أن يقال: إنّ هذه اللام مفيدة معنى التوكيد لا محالة، فأدخلت فى آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن أمر المطعوم مقدّم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب، من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم. ألا ترى أنك إنما تسقى ضيفك بعد أن تطعمه. ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء:

إِذَا سُقِيَتْ ضُيُوفُ النَّاسِ مَحْضًا سَقَوْا أَضْيَافَهُمْ شَبَماً زَلَالَا [1]

وسقى بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة؛ ولهذا قدّمت آية المطعوم على آية المشروب.

أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿تورون﴾ تقدحونها وتستخرجونها من الزناد والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى: الزند، والأسفل: الزندة؛ شبهوهما بالفحل والطروقة [2] ﴿شجرتها﴾ التى منها الزناد ﴿تذكرة﴾ تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعايش كلها، وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به. أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ناركم هذه التى يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزأ من حرّ جهنم» [3] ﴿ومتاعا﴾ ومنفعة ﴿للمقوين﴾ الذين ينزلون القواء وهى القفر. أو الذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام. يقال: أقويت من

---

(١) لأبى العلاء يمدح سعد الدولة أبا الفضائل، وعيب عليه حيث مدح بسقى الضيوف الماء قبل ذكر الطعام. والمحض - بمعجمتين -: اللبن المنزوع زبده، فهو بمعنى الممخوض. ويروى: محضا، بالحاء المهملة، أى: خالصا حلوا أو حامضا. والشبم - كحذر -: البارد. والزلال: العذب. هذا وحيث جعل علماء البلاغة للمقام مدخلا فى الدلالة على المراد فنقول: إن معنى البيت: إذا عجلت الناس اللبن لأضيافهم واكتفوا به عن الاسراع بالطعام: عجلوا هم بالطعام لضيوفهم لاستعدادهم للضيفان، فيحتاجون لشرب الماء، فيسقونهم ماء قبل إطعام غيرهم الضيفان، فسقيهم الماء يفيد تعجيل الطعام قبله بمعونة المقام، لأنه يلزمه عادة فلا عيب فيه.

(٢) قوله «بالفحل والطروقة» أنثى الفحل، كما فى الصحاح. (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة.

أيام، أى لم آكل شيئا ﴿فسبح باسم ربك﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك، أو أراد بالاسم: الذكر، أى: بذكر ربك. و ﴿العظيم﴾ صفة المضاف أو للمضاف إليه. والمعنى: أنه لما ذكر مادل على قدرته وإنعامه على عباده قال: فأحدث التسبيح وهو أن يقول: سبحان الله، إمّا تنزيها له عما يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ويكفرون نعمته، وإما تعجبا من أمرهم فى غمط آلائه [1] وأياديه الظاهرة، وإما شكراً لله على النعم التى عدّها ونبّه عليها.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿فلا أقسم﴾ معناه فأقسم. ولا مزيدة مؤكدة مثلها فى قوله (لئلا يعلم أهل الكتاب) وقرأ الحسن: فلأقسم. ومعناه: فلأنا أقسم: اللام لام الابتداء [2] دخلت على جملة من مبتدإ وخبر، وهى: أنا أقسم، كقولك «لزيد منطلق» ثم حذف المبتدأ، ولا يصح أن تكون اللام لام القسم لأمرين، أحدهما: أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة، والإخلال بها ضعيف قبيح. والثانى: أن «لأفعلن» فى جواب القسم للاستقبال، وفعل القسم يجب أن يكون للحال ﴿بمواقع النجوم﴾ بمساقطها ومغاربها، لعل لله تعالى فى آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة، أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لأنه وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إليه من عباده الصالحين، ونزول الرحمة والرضوان عليهم: فلذلك أقسم بمواقعها، واستعظم ذلك بقوله ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ أو أراد بمواقعها: منازلها ومساريها، وله تعالى فى ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف. وقوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) اعتراض فى اعتراض؛ لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم [3] عليه، وهو قوله ﴿إنه لقرآن كريم﴾ واعترض بـ (لو تعلمون) بين الموصوف وصفته.

---

(١) قوله «فى غمط آلائه» أى تحقير نعمه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «ولا زائدة مؤكدة مثلها فى قوله (لئلا يعلم أهل الكتاب) قال: وقرأ الحسن فلأقسم، واللام فى هذه للابتداء ... الخ» قلت: تلخيص الرد بهذا الوجه الثانى: أن سياق الآية يرشد إلى أن القسم بمواقع النجوم واقع، ويدل عليه القراءة الأخرى على زيادة لا: ومقتضى جعلها جواباً لقسم محذوف أن لا يكون القسم بمواقع النجوم واقعا، بل مستقبلا، فتتنافى القراءتان إذاً، والله الموفق للصواب.

(٣) قال محمود: «قوله وإنه لقسم لو تعلمون عظيم: اعتراض فى اعتراض فالجملة الكبرى اعتراض بين القسم والجواب ... الخ» قال أحمد: وعلى هذا التفسير يكون جواب القسم مناسبا للمقسم، مثل قوله (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً) ومن واديه: * وثناياك إنها إغريض * كما تقدم.

وقيل : مواقع النجوم : أوقات وقوع نجوم القرآن ، أي : أوقات نزولها كريم حسن مرضى فى جنسه من الكتب . أو نفاع جم المنافع . أو كريم على الله ﴿فى كتاب مكنون﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة ، لا يطلع عليه من سواهم ، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها : إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح . وإن جعلتها صفة للقرآن ؛ فالمعنى لا ينبغى أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس ، يعنى مس المكتوب منه . ومن الناس من حمله على القراءة أيضاً ، وعن ابن عمر أحب إلىَّ أن لا يقرأ إلا وهو طاهر ، وعن ابن عباس فى رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب ، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »[1] أى لا ينبغى له أن يظلمه أو يسلمه . وقرئ : المتطهرون ، والمطهرون بالإدغام . والمطهرون . من اطهره بمعنى طهره . والمطهرون بمعنى : يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحى الذى ينزلونه ﴿تنزيل﴾ صفة رابعة للقرآن ، اى : منزل من رب العالمين . أو وصف بالمصدر ؛ لأنه نزل نجوما من بين سائر كتب الله تعالى ، فكأنه فى نفسه تنزيل ؛ ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه ، فقيل : جاء فى التنزيل كذا ، ونطق به التنزيل . أو هو تنزيل على حذف المبتدإ . وقرئ : تنزيلا ، على : نزل تنزيلا ،

أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿أفبهذا الحديث﴾ يعنى القرآن ﴿أنتم مدهنون﴾ اى : متهاونون به ، كمن يدهن فى الأمر ، أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ على حذف المضاف . يعنى : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أى : وضعتم التكذيب موضع الشكر . وقرأ على رضى الله عنه : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون . وقيل : هى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمعنى وتجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به . وقيل : نزلت فى الأنواء ونسبتهم السقيا إليها . والرزق : المطر ، يعنى : وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله ، حيث تنسبونه إلى النجوم . وقرئ : تكذبون وهو قولهم فى القرآن : شعر وسحر وافتراء . وفى المطر : وهو من الأنواء ، ولأنّ كل مكذب بالحق كاذب .

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر . ولمسلم من طريق أبى هريرة بعضه .

مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ترتيب الآية: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين. و(فلولا) الثانية مكررة للتوكيد، والضمير فى (ترجعونها) للنفس وهى الروح، وفى (أقرب إليه) للمحتضر ﴿غير مدينين﴾ غير مربوبين، من دان السلطان الرعية إذا ساسهم. (ونحن أقرب إليه منكم)[1] يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا، أو بملائكة الموت. والمعنى: إنكم فى جحودكم أفعال الله تعالى وآياته فى كل شيء إن أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم: سحر وافتراء. وإن أرسل إليكم رسولا قلتم: ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرا يحييكم به قلتم: صدق نوء كذا، على مذهب يؤدى إلى الإهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالمحيي المميت المبدئ المعيد ﴿فأما إن كان﴾ المتوفى ﴿من المقربين﴾ من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة فى أول السورة ﴿فروح﴾ فله استراحة. وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فروح،[2] بالضم. وقرأ به الحسن وقال: الروح الرحمة، لأنها كالحياة للمرحوم. وقيل: البقاء، أى: فهذان له معا، وهو الخلود مع الرزق[3] والنعيم. والريحان: الرزق ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ أى: فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، أى: يسلمون عليك، كقوله تعالى (إلا قيلا سلاما سلاما). ﴿فنزل من حميم﴾ كقوله تعالى (هذا نزلهم يوم الدين) وقرئ بالتخفيف ﴿وتصلية جحيم﴾ قرئت بالرفع والجر عطفاً على نزل وحميم ﴿إن هذا﴾ الذى أنزل فى هذه السورة ﴿لهو حق اليقين﴾ أى الحق الثابت من اليقين.

(١) قوله «ونحن أقرب إليه منكم» لم يظهر وجه لتأخير هذا عما قبله إلا بالنظر للترتيب الذى ذكره فليحرر. (ع)

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى وإسحاق والحاكم من رواية بديل بن ميسرة عن عبدالله بن شقيق عن عائشة. زاد إسحاق «برفع الراء».

(٣) قوله «وهو الخلود مع الرزق» لعله: وهما. (ع)

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا »[(١)] .

سورة الحديد

مدنية ، وهى تسع وعشرون آية [نزلت بعد الزلزلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

---

(١) أخرجه ابن وهب فى جامعه حدثنى السرى بن يحيى أن شجاعا حدثه عن أبى ظبية عن عبدالله بن مسعود تابعه يزيد بن أبى حكيم وعباس بن الفضل البصرى كلاهما عن السرى . أخرجه البيهقى فى الشعب من طريقهما . وكذا رواه أبويعلى من رواية محمد بن حبيب عن السرى . ورواه البيهقى فى الشعب من رواية حجاج بن منهال عن السرى فقال : عن شجاع عن ابن فاطمة عن ابن مسعود . وكذا رواه أبوعبيد فى فضائل القرآن من رواية السرى فقال : عن أبى ظبية ، فاختلف أصحاب السرى . هل شيخه شجاع أو أبوشجاع . وكذا اختلفوا فى شيخ شجاع هل هو أبو فاطمة أو أبوظبية . ثم اختلفوا فى ضبط أبى ظبية فعند الدارقطنى بالطاء المهملة بعدها تحتانية ، ثم موحدة وإنه عيسى بن سليمان الجرجانى . وأن روايته عن ابن مسعود منقطعة . ويؤيده أن الثعلبى أخرجه من طريق أبى بكر العطاردى عن السرى عن شجاع عن أبى طيبة الجرجانى . وعند البيهقى أنه بالمعجمة بعدها موحدة ، ثم تحتانية ، وأنه مجهول . وقال أحمد بن حنبل : هذا حديث منكر . وشجاع لا أعرفه .

جاء فى بعض الفواتح (سبح) على لفظ الماضى ، وفى بعضها على لفظ المضارع ، وكل واحد منهما معناه : أنّ من شأن من أسند إليه التسبيح أن يسبحه ، وذلك هجيراه وديدنه ، وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى فى قوله تعالى (وتسبحوه) وأصله : التعدى بنفسه ، لأنّ معنى سبحته : بعدته عن السوء ، منقول من سبح إذا ذهب وبعد ، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام فى : نصحته ، ونصحت له . وإما أن يراد بسبح لله : أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً ، (ما فى السموات والأرض) ما يتأتى منه التسبيح ويصح . فإن قلت : ما محل ﴿يحيي﴾ ؟ قلت : يجوز أن لا يكون له محل ، ويكون جملة برأسها ؛ كقوله (له ملك السموات) وأن يكون مرفوعا على : هو يحيي ويميت ، ومنصوبا حالا من المجرور فى (له) والجار عاملا فيها . ومعناه : يحيي النطف والبيض والموتى يوم القيامة ويميت الأحياء ﴿هو الأول﴾ هو القديم الذى كان قبل كل شىء ﴿والآخر﴾ الذى يبقى بعد هلاك كل شىء ﴿والظاهر﴾ بالأدلة الدالة عليه ﴿والباطن﴾ لكونه غير مدرك بالحواس . فإن قلت : فما معنى الواو ؟[1] قلت الواو الأولى معناها الدلالة[2] على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية ، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء . وأما الوسطى ، فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين ، فهو المستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والآتية ، وهو فى جميعها ظاهر وباطن : جامع للظهور بالأدلة والخفاء ، فلا يدرك بالحواس . وفى هذا حجة على من جوز إدراكه[3] فى الآخرة بالحاسة . وقيل : الظاهر العالى على كل شىء الغالب له ، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه . والباطن الذى بطن كل شىء ، أى علم باطنه : وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم .

---

(١) قال محمود : «وإن قلت : ما معنى الواو وأجاب بأن المتوسطة بين الأول والآخر الجمع بين معنى الأولية والبقاء الخ . قال : ومعنى الظاهر أى بالأدلة والباطن أى عن الحواس . وقيل : وفيه دليل الرد على من زعم أنه تعالى يرى فى الآخرة بالحاسة» قال أحمد : «لا دليل فيه على ذلك ؛ فان لنا أن نقول : إن المراد عدم الادراك بالحاسة فى الدنيا لا فى الآخرة . ونحن نقول به ، أو فى الآخرة . والمراد : الكفار والجاحدون للرؤية كالقدرية ألا ترى إلى قوله (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فانه قيل : تقييد وتخصيص على خلاف الظاهر . قلنا والمسئلة قطعية ، فيكفى الاحتمال . وأيضا فقسيمه لا بد فيه من تخصيص ؛ فانه تعالى لم يظهر جميع خلقه على الأدلة الموصلة إلى معرفته ، بل أخفاها عن كثير منهم وحرمهم الفوز بالايمان به عز وجل ؛ فالظاهر إذاً معناها فى التخصيص كالثانى طبقا بينه وبين الأول .

(٢) قوله «قلت الواو الأولى معناها الدلالة» الأولى إنما دلت على اجتماع الصفتين الأوليين ، والثالثة على اجتماع الأخريين . والثانية على اجتماع المجموعين . (ع)

(٣) قوله «وحجة على من جوز إدراكه» يريد أهل السنة ، وهم قد جوزوا رؤيته مطلقا ، وقالوا : لا تدركه الأبصار ، أى : لا تحيط به ؛ والمعتزلة أحالوا رؤيته تعالى ؛ وتفصيله فى التوحيد . (ع)

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

﴿مستخلفين فيه﴾ يعنى أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما موّلكم إياها، وخوّلكم الاستمتاع بها، وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها، فليست هى بأموالكم فى الحقيقة. وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنوّاب، فأنفقوا منها فى حقوق الله، وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه. أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما فى أيديكم: بتوريثه إياكم، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم، وسينقل منكم إلى من بعدكم؛ فلا تبخلوا به، وانفعوا بالإنفاق منها أنفسكم ﴿لا تؤمنون﴾ حال من معنى الفعل فى مالكم، كما تقول: مالك قائما، بمعنى: ما تصنع قائما، أى: وما لكم كافرين بالله. والواو فى ﴿والرسول يدعوكم﴾ واو الحال، فهما حالان متداخلتان. وقرئ: (وما لكم لا تؤمنون بالله ورسوله والرسول يدعوكم) والمعنى: وأى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان: حيث ركب فيكم العقول،[1] ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر، وأزاح عللكم، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول، فما لكم لا تؤمنون ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ لموجب ما، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه. وقرئ: أخذ ميثاقكم؛[2] على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

﴿ليخرجكم﴾ الله بآياته من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. أو ليخرجكم الرسول بدعوته

(١) قال محمود: «أخذ الميثاق عبارة عن تركيب العقول فيهم ... الخ» قال أحمد: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله فى آية غير هذه، إذ يقول تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) ولقد يريبنى منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلا ووقوعها بالسمع قطعا إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلا، فالقاعدة التى تعتمد عليها كى لا يضرك ما يومئ إليه أن ما كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع وجب حمله على ظاهره والله الموفق.

(٢) قوله «وقرئ: أخذ ميثاقكم» يفيد أن القراءة على البناء للمفعول أشهر. (ع)

﴿ لرؤف ﴾ وقرئ لرؤوف .[١]

وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُولَـٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

﴿ وما لكم ألا تنفقوا ﴾ فى أن لا تنفقوا ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره ، يعنى : وأى غرض لكم فى ترك الإنفاق فى سبيل الله والجهاد مع رسوله والله مهلككم فوارث أموالكم ، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق فى سبيل الله . ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال ﴿ لايستوى منكم من أنفق ﴾ قبل فتح مكة قبل عز الاسلام وقوة أهله ودخول الناس فى دين الله أفواجا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ، ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة ﴿ أولئك ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : « لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »[٢] ﴿ أعظم درجة ﴾ . وقرئ : قبل الفتح ﴿ وكلا ﴾ وكل واحد من الفريقين ﴿ وعد الله الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرئ بالرفع على : وكل وعده الله . وقيل : نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، لأنه أول من أسلم وأول من أنفق فى سبيل الله . القرض الحسن : الانفاق فى سبيله . شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز ، لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه ﴿ فيضاعفه له ﴾ أى يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفا ﴿ أضعافا ﴾ من فضله ﴿ وله أجر كريم ﴾ يعنى : وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم فى نفسه . وقرئ : فيضعفه . وقرئا منصوبين على جواب[٣] الاستفهام ، والرفع عطف على (يقرض) ، أو على (فهو يضاعفه) .

---

(١) قوله وقرئ « لرؤوف » يفيد أن القراءة بالقصر أشهر ، وفيه نظر فلينظر . وفى الصحاح : رؤف به ـ بالضم ، ورأف به ـ بالفتح ، ورئف به ـ بالكسر ، فهو رؤف على فعول . قال كعب بن مالك الأنصارى :

نطيع نبينا ونطيع ربا هو الرحمن كان بنا رؤفا

ورؤف أيضا على فعل . قال جرير :

يرى للمسلمين عليه حقا كفعل الوالد الرؤف الرحيم

والظاهر أن رسمه بواو واحدة حال المد والقصر ، فيكون الأشهر قراءة المد ، كما هو الأشهر فى الاستعمال اللغوى . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) قوله « وقرئا منصوبين على جواب » أى قوله : فيضاعفه ، وقوله فيضعفه . (ع)

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)

﴿يوم ترى﴾ ظرف لقوله: وله أجر كريم. أو منصوب بإضمار «اذكر» تعظيما لذلك اليوم. وإنما قال ﴿بين أيديهم وبأيمانهم﴾ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين؛ كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم، فجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية: لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون: سعى بسعيهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما. ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة. ﴿بشراكم اليوم﴾. وقرئ: ذلك الفوز.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

﴿يوم يقول﴾ بدل من يوم ترى ﴿انظرونا﴾ انتظرونا، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف[1] بهم. وهؤلاء مشاة. وانظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به. وقرئ: أنظرونا من النظرة وهي الإمهال: جعل اتئادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظاراً لهم ﴿نقتبس من نوركم﴾ نصب منه؛ وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا﴾ طرد لهم وتهكم بهم، أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمن ثم يقتبس. أو ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الإيمان. أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا،

(١) قوله «تزف بهم» أي: تسرع. أفاده الصحاح. (ع)

فالتمسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور ، وقد علموا أن لا نور وراءهم ؛ وإنما هو تخييب وإقناط لهم ﴿فضرب بينهم بسور﴾ بين المؤمنين والمنافقين بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار . وقيل : هو الأعراف لذلك السور ﴿باب﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿باطنه﴾ باطن السور أو الباب ، وهو الشق الذى يلى الجنة ﴿وظاهره﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿من قبله﴾ من عنده ومن جهته ﴿العذاب﴾ وهو الظلمة والنار . وقرأ زيد بن على رضى الله عنهما : فضرب بينهم على البناء للفاعل ﴿ألم نكن معكم﴾ يريدون موافقتهم فى الظاهر ﴿فتنتم أنفسكم﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وتربصتم﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وغرتكم الأمانى﴾ طول الآمال والطمع فى امتداد الأعمار ﴿حتى جاء أمر الله﴾ وهو الموت ﴿وغركم بالله الغرور﴾ وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم . وقرئ : الغرور ، بالضم ﴿فدية﴾ ما يفتدى به ﴿هى مولاكم﴾ قيل : هى أولى بكم ، وأنشد قول لبيد :

فَغَدَتْ كِلاَ الْفَرْجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ ... مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفَهَا وَأَمَامَهَا (١)

وحقيقة مولاكم : محراكم ومقمنكم (٢) . أى : مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم ، كما قيل : هو مئنة للكرم ، أى مكان ؛ لقول القائل : إنه لكريم . ويجوز أن يراد : هى ناصركم ، أى لا ناصر لكم غيرها . والمراد : نفى الناصر على البتات . ونحوه قولهم : أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع (٣) . ومنه قوله تعالى (يغاثوا بماء كالمهل) وقيل : تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار .

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ

---

(١) وتوجست رز الأنيس فراعها ... عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه ... مولى المخافة خلفها وأمامها

للبيد من معلقته . يصف بقرة وحشية ، توجست : أى تسمعت البقرة . والتوجس : التسمع . ويقال : رزت السماء رزاً ، بتقديم الراء إذا صوتت عند المطر : فالرز بالفتح : التصويت الخفى ، وبالكسر : اسم للصوت الخفى . ورز : أى صوت الأنيس ، وهم الصياد ، فأفزعها بظهر الغيب . وإقحام الظهر فى مثل هذا التركيب : مبالغة فى الخفاء ؛ لأن ماوراء الظهر لايعلم ولايدرى ماهو . وسمى الصياد أنيسا بالنسبة إلينا لا إليها ، لأنه عناؤها وسبب خوفها ، فجعله نفس السقام مبالغة . وكلا الفرجين : مبتدأ . وتحسب أنه مولى المخافة : خبر ، أى أنه الأولى بالخوف من جهته . وخلفها وأمامها : خبر لمبتدإ محذوف ، أو بدل من كلا الفرجين للتوضيح والتبيين ، أى : لها مابين رجليها ومابين يديها ، وبعضهم فسرهما بفرتين فى الجبل ؛ وعليه فلا معنى للام العهد فيهما .

(٢) قوله «محراكم ومقمنكم» يقال : هو حرى أن يفعل كذا ، وهو قمن أن يفعله ، أى : جدير بذلك وحقيق به . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «فاستنصر الجزع» لعله : الجزع ، أى : نقيض الصبر . (ع)

وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

﴿ألم يأن﴾ من أنى الأمر يأنى ، إذا جاء إناه ، أى . وقته . وقرئ : ألم يئن ، من آن يئين بمعنى : أنى يأنى ، ولما يأن . قيل : كانوا مجدبين بمكة ، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه ، فنزلت . وعن ابن مسعود : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين [1] . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن . وعن الحسن رضى الله عنه : أما والله لقد استبطأهم وهم يقرؤن من القرآن أقل مما تقرؤن . فانظروا فى طول ما قرأتم منه وما ظهر فيكم من الفسق . وعن أبى بكر رضى الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديداً ، فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . وقرئ : نزّل ونزل . وأنزل ﴿ولا يكونوا﴾ عطف على تخشع ، وقرئ بالتاء على الالتفات . ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد أن وبخوا ، وذلك أنّ بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره . فإن قلت : ما معنى (لذكر الله وما نزل من الحق) ؟ قلت : يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق : القرآن ؛ لأنه جامع للأمرين : للذكر والموعظة ، وأنه حق نازل من السماء ، وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله وإذا تلى القرآن كقوله تعالى (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) أراد بالأمد : الأجل ، كقوله :

* ... ... إِذَا ٱنْتَهَى أَمَدُهْ * [1]

وقرئ : الأمدّ ، أى : الوقت الأطول ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما فى الكتابين .

ٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

(١) أخرجه مسلم بلفظ «وبين أن عاتبنا الله» ووهم الحاكم فاستدركه .

(٢) قوله «كقوله إذا انتهى أمده» البيت من أوله :

كل حى مستكمل مدة العمر ومود إذا انتهى أمده اهـ عليان

قلت : قد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٧٧ فراجعه إن شئت . اهـ مصححه .

﴿اعلموا أنّ الله يحي الأرض بعد موتها﴾ قيل : هذا تمثيل لأثر الذكر فى القلوب ، وأنه يحييها كما يحي الغيث الأرض

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿المصدّقين﴾ المتصدّقين . وقرئ على الأصل . والمصدِّقين من صدق ، وهم الذين صدقوا الله ورسوله يعنى المؤمنين . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وأقرضوا﴾ ؟ قلت : على معنى الفعل فى المصدّقين ؛ لأنّ اللام بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى اصدقوا ، كأنه قيل : إنّ الذين اصدقوا وأقرضوا . والقرض الحسن : أن يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة . وقرئ : يضعف ، ويضاعف ، بكسر العين ، أى : يضاعف الله .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَٰتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

يريد أنّ المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء : وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ أى : مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم . فإن قلت : كيف يسوى بينهم فى الأجر ولابدّ من التفاوت ؟ قلت : المعنى أنّ الله يعطى المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله ، حتى يساوى أجرهم مع إضعافه أجر أولئك . ويجوز أن يكون (والشهداء) مبتدأ ، و(لهم أجرهم) خبره .

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

أراد أنّ الدنيا ليست إلامحقرات من الأمور وهى اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر . وأما الآخرة فما هى إلا أمور عظام ، وهى : العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله . وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل[1] وأعجب به

(١) قوله «فاستوى واكتهل» فى الصحاح : اكتهل النبات ، أى : تم طوله وظهر نوره . (ع)

الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم ، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين . وقيل (الكفار) : الزراع . وقرئ : مصفاراً .

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

﴿سابقوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم فى المضمار ، إلى جنة ﴿عرضها كعرض السماء والارض﴾ قال السدى : كعرض سبع السموات وسبع الأرضين ، وذكر العرض دون الطول ؛ لأنّ كل ماله عرض وطول فإنّ عرضه أقل من طوله ، فإذا وصف عرضه بالبسطة : عرف أنّ طوله أبسط وأمدّ . ويجوز أن يراد بالعرض : البسطة ، كقوله تعالى (فذو دعاء عريض) لما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة : بعث عباده على المسارعة إلى نيل ماوعد من ذلك : وهى المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة ﴿ذلك﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فضل الله﴾ عطاؤه ﴿يؤتيه من يشاء﴾ وهم المؤمنون .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

المصيبة فى الارض : نحو الجدب وآفات الزروع والثمار . وفى الأنفس : نحو الادواء والموت ﴿فى كتاب﴾ فى اللوح ﴿من قبل أن نبرأها﴾ يعنى الأنفس أو المصائب ﴿إنّ ذلك﴾ إنّ تقدير ذلك وإثباته فى كتاب ﴿على الله يسير﴾ وإن كان عسيراً على العباد ، ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه فقال ﴿لكيلا تأسوا ... ولا تفرحوا﴾ يعنى أنكم إذا علمتم أنّ كل شىء مقدر مكتوب عند الله قلّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتى ؛ لأنّ من علم أن ما عنده مفقود لامحالة : لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أنّ بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لايفوته بحال : لم يعظم فرحه عند نيله (والله لايحب كل مختال

فخور﴾ لأنّ من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه: اختال وافتخر به وتكبر على الناس. قرئ: بما آتاكم. وأتاكم، من الإيتاء والإتيان. وفي قراءة ابن مسعود: بما أوتيتم. فإن قلت: فلا أحد يملك نفسه ـ عند مضرة تنزل به، ولا عند منفعة ينالها ـ أن لايحزن ولايفرح. قلت: المراد: الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغى الملهى عن الشكر؛ فأما الحزن الذى لايكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر: فلا بأس بهما ﴿الذين يبخلون﴾ بدل من قوله (كل مختال فخور) كأنه قال: لايحب الذين يبخلون، يريد: الذين يفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظاً من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم وعظمه في عيونهم: يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به، ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبوهم في الإمساك ويزينوه لهم، وذلك كله نتيجة فرحهم به وبطرهم عند إصابته ﴿ومن يتول﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتى: فإنّ الله غنى عنه. وقرئ: بالبخل. وقرأ نافع: فإنّ الله الغنى، وهو في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

﴿لقد أرسلنا رسلنا﴾ يعنى الملائكة إلى الأنبياء ﴿بالبينات﴾ بالحجج والمعجزات ﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ أى الوحى ﴿والميزان﴾ روى أنّ جبريل عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به ﴿وأنزلنا الحديد﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة[1]، والإبرة. وروى: ومعه المر والمسحاة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: أنزل الحديد، والنار، والماء، والملح[2]. وعن الحسن (وأنزلنا الحديد): خلقناه، كقوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام) وذلك أنّ أوامره تنزل من السماء وقضاياه وأحكامه ﴿فيه بأس شديد﴾ وهو القتال به ﴿ومنافع للناس﴾ في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم، فما من صناعة

(١) قوله «والميقعة والمطرقة... الخ» في الصحاح «الميقعة»: المطرقة. والميقعة ـ أيضاً ـ: المسن الطويل. والمر: الحبل، والمسحاة كالمجرفة، إلا أنها من حديد. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من حديث ابن عمر، وفي إسناده من لا أعرفه.

إلا والحديد آلة فيها؛ أو ما يعمل بالحديد ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله ﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح فى مجاهدة أعداء الدين ﴿ بالغيب ﴾ غائباً عنهم، قال ابن عباس رضى الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه ﴿ إنّ الله قوى عزيز ﴾ غنى بقدرته وعزته فى إهلاك من يريد هلاكه عنهم، وإنما كلفهم الجهاد لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

﴿ والكتاب ﴾ والوحى. وعن ابن عباس: الخط بالقلم، يقال: كتب كتاباً وكتابة ﴿ فمنهم ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين. وهذا تفصيل لحالهم، أى: فمنهم مهتد ومنهم فاسق، والغلبة للفساق.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

قرأ الحسن: الأنجيل، بفتح الهمزة، وأمره أهون من أمر البرطيل والسكينة فيمن رواهما بفتح الفاء، لأنّ الكلمة أعجمية لا يلزم فيها حفظ أبنية العرب. وقرئ: رآفة، على: فعالة، أى: وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم. ونحوه فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (رحماء بينهم). والرهبانية: ترهبهم فى الجبال فارّين من الفتنة فى الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة، وذلك أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى، فقاتلوهم ثلاث مرات، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا فى دينهم، فاختاروا الرهبانية: ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان،[1] وهو الخائف: فعلان من رهب، كخشيان من خشى. وقرئ: ورهبانية بالضم، كأنها نسبة إلى الرهبان: وهو جمع راهب كراكب وركبان، وانتصابها بفعل مضمر[2] يفسره

---

(١) قال محمود: «والرهبانية: الفعلة المنسوبة للرهبان ... الخ» قال أحمد: وفيه إشكال، فان النسب إلى الجمع على صيغته غير مقبول عندهم حتى يرد إلى مفرده، إلا أن يقال: إنه لما صار الرهبان طائفة مخصوصة صار هذا الاسم - وإن كان جمعا - كالعلم لهم، فلحق بأنصارى ومدائنى وأعرابى.

(٢) قال محمود: «وهى منصوبة بفعل مضمر ... الخ» قال أحمد: فى إعراب هذه الآية تورط أبو على الفارسى وتحيز إلى فئة الفتنة وطائفة البدعة، فأعرب رهبانية على أنها منصوبة بفعل مضمر يفسره الظاهر، وعلل امتناع =

الظاهر : تقديره . وابتدعوا رهبانية ﴿ابتدعوها﴾ يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿ما كتبناها عليهم﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع ، أي : ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره ؛ لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه ﴿فآتينا الذين آمنوا﴾ يريد : أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ الذين لم يحافظوا على نذرهم . ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها ، وابتدعوها : صفة لها في محل النصب ، أي : وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم ، بمعنى : وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها ، ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب . على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه . فما رعوها جميعاً حق رعايتها ؛ ولكن بعضهم ، فآتينا المؤمنين المراعين منهم للرهبانية أجرهم ، وكثير منهم فاسقون . وهم الذين لم يرعوها .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يجوز أن يكون خطاباً للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا[1] من غيرهم ، فإن كان خطاباً لمؤمني أهل الكتاب . فالمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿يؤتكم﴾ الله ﴿كفلين﴾ أي نصيبين ﴿من رحمته﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله ﴿ويجعل لكم﴾ يوم القيامة ﴿نوراً تمشون به﴾ وهو النور المذكور في قوله ﴿يسعى نورهم﴾ . ﴿ويغفر لكم﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي .

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٩﴾

--- العطف فقال : ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على (جعلنا) مع وصفها بقوله (ابتدعوها) لأن ما يجعله هو تعالى لا يبتدعونه هم ، والزمخشري ورد أيضاً مورده الذميم ، وأسلمه شيطانه الرجيم ، فلما أجاز ما منعه أبو علي من جعلها معطوفة : أعذر لذلك بتحريف الجعل إلى التوفيق ، فراراً مما فر منه أبو علي : من اعتقاد أن ذلك مخلوق لله تعالى ، وجنوحاً إلى الاشراك واعتقاد أن ما يفعلونه هم لا يفعله الله تعالى ولا يخلقه ، وكفى بما في هذه الآية دليلاً بعد الأدلة القطعية والبراهين العقلية على بطلان ما اعتقداه ؛ فانه ذكر محل الرحمة والرأفة مع العلم بأن محلها القلب ، فجعل قوله (في قلوب الذين اتبعوه) تأكيداً لخلقه هذه المعاني وتصويراً لمعنى الخلق بذكر محله ؛ ولو كان المراد أمراً غير مخلوق في قلوبهم لله تعالى كما زعما : لم يبق لقوله في قلوب الذين اتبعوه موقع ، ويأبى الله أن يحتمل كتابه الكريم على ما لا موقع له ، ألهمنا الله الحجة ونهج بنا واضح المحجة ، إنه ولي التوفيق وواهب التحقيق .

(١) قوله «والذين آمنوا» لعله «وللذين آمنوا» . (ع)

﴿لئلا يعلم﴾ ليعلم ﴿أهل الكتاب﴾ الذين لم يسلموا . ولا مزيدة ﴿ألا يقدرون﴾ أن مخففة من الثقيلة ، أصله : أنه لا يقدرون ، يعنى : أنّ الشأن لا يقدرون ﴿على شىء من فضل الله﴾ أى : لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله من الكفلين : والنور والمغفرة ، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ، ولم يكسبهم فضلا قط . وإن كان خطابا لغيرهم ، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين فى قوله (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) ولا ينقصكم من مثل أجرهم ، لأنكم مثلهم فى الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله . روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جعفراً رضى الله عنه فى سبعين راكباً إلى النجاشى يدعوه ، فقدم جعفر عليه فدعاه فاستجاب له ، فقال ناس ممن آمن من أهل مملكته وهم أربعون رجلا . ائذن لنا فى الوفادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لهم فقدموا مع جعفر وقد تهيأ لوقعة أحد ، فلما رأوا ما بالمسلمين من خصاصة : استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجعوا وقدموا بأموال لهم فآسوا بها المسلمين [1] ، فأنزل الله (الذين آتيناهم الكتاب ... إلى قوله ... ومما رزقناهم ينفقون) فلما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله (يؤتون أجرهم مرّتين) فخروا على المسلمين وقالوا : أما من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجره مرّتين ، وأما من لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجركم ، فما فضلكم علينا ؟ فنزلت . وروى أنّ مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرّتين ، وادعوا الفضل عليهم ، فنزلت . وقرئ : لكى يعلم . ولكيلا يعلم . وليعلم . ولأن يعلم : بإدغام النون فى الياء . ولين يعلم : بقلب الهمزة ياء وإدغام النون فى الياء . وعن الحسن : ليلا يعلم ، بفتح اللام وسكون الياء . ورواه قطرب بكسر اللام . وقيل فى وجهها : حذفت همزة أن ، وأدغمت نونها فى لام لا ؛ فصار « للا » ثم أبدلت من اللام المدغمة ياء ، كقولهم : ديوان ، وقيراط . ومن فتح اللام فعلى أن أصل لام الجرّ الفتح ، كما أنشد :

* أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا ... * [2]

---

(١) المعروف أن جعفر إنما قدم بعد أحد بزمان ، قدم عند فتح خيبر .

(٢) أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثل لى ليلى بكل سبيل

لقيس بن الملوح مجنون ليلى العامرية . وقيل : لكثير صاحب عزة ، وكنى عنها بليلى تستراً . وقيل : سرقه كثير من شعر جميل صاحب بثينة . وقوله : لأنسى بفتح لام الجر على الأصل فى الحروف المفردة ، وتلك : لغة عكل ، ويتعين فيها إذا دخلت على فعل منصوب بأن مضمرة كما هنا . وتروى بالكسر على اللغة المشهورة ، أى : أريد لنسيان تذكرها ، واللام زائدة ، لكنها هى التى أشمرت بحذف « إن » ، وتمثل : أصله تتمثل ، أى تتشكل وتتخيل أمامى ليلى بكل طريق ، إما الحسى وإما طريق الذكر ، والأول أوجه ، بدليل قوله « كأنما » وتمثلها له يوجب تذكرها . وما زائدة بعد كان ، كافة لها عن العمل فلذلك دخلت على الفعل .

وقرئ : أن لا يقدروا ﴿ بيد الله ﴾ فى ملكه وتصرفه . واليد مثل ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ ولا يشاء إلا إيتاء من يستحقه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسله»[1] .

ســـــورة المجادلة

مدنية ، وآياتها ٢٢ [نزلت بعد المنافقون]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾

﴿ قد سمع الله ﴾ قالت عائشة رضى الله عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات :[2] لقد كلمت المجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جانب البيت وأنا عنده لا أسمع، وقد سمع[3] لها. وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال : قد سمع الله لها . وقرئ : تحاورك ، أى : تراجعك الكلام . وتحاولك ، أى : تسائلك ، وهى خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة : رآها وهى تصلى وكانت حسنة الجسم ، فلما سلمت راودها فأبت ، فغضب وكان به خفة ولمم[4]، فظاهر منها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أوسا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى ـ أى : كثر ولدى ـ جعلنى عليه[5] كأمه . وروى أنها قالت له :

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى كعب .

(٢) قال محمود : «قالت عائشة رضى الله عنها : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ... الخ» قال أحمد : ولقد استدل به بعضهم على عدم لزوم ظهار الذمى ، وليس بقوى ؛ لأنه غير المقصود .

(٣) أخرجه النسائى وابن ماجه والطبرى وأحمد وإسحاق والبزار من طريق الأعمش عن تميم بن سلمة عن عروة عن عائشة . وعلقه البخارى ، وأخرجه الحاكم أتم سياقا منه ، وفيه تسميتها وتسمية زوجها .

(٤) قوله «ولمم» أى طرف من الجنون ، أومس من الجن . أفاده الصحاح (ع)

(٥) أخرجه الدارقطنى والبيهقى .

إنّ لى صبية صغاراً ، إن ضممتهم إليه ضاعوا . وإن ضممتهم إلىّ جاعوا . فقال : ما عندى فى أمرك شيء . وروى أنه قال لها : حرمت عليه ، فقالت : يا رسول الله ، ماذكر طلاقا وإنما هو أبو ولدى وأحب الناس إلىّ ، فقال : حرمت عليه ، فقالت : أشكو إلى الله فاقتى ووجدى ، كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه . هتفت وشكت إلى الله [1] ، فنزلت ﴿فى زوجها﴾ فى شأنه ومعناه ﴿إن الله سميع بصير﴾ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر . فإن قلت : مامعنى (قد) فى قوله (قد سمع) ؟ قلت : معناه التوقع ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل فى ذلك ما يفرج عنها .

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾

﴿الذين يظاهرون منكم﴾ فى (منكم) توبيخ للعرب وتهجين لعادتهم فى الظهار ، لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ﴿ماهنّ أمهاتهم﴾ وقرئ بالرفع على اللغتين الحجازية والتميمية . وفى قراءة ابن مسعود : بأمّهاتهم ، وزيادة الباء فى لغة من ينصب . والمعنى أن من يقول لامرأته أنت علىّ كظهر أمى : ملحق فى كلامه هذا للزوج بالأم ، وجاعلها مثلها . وهذا تشبيه باطل لتباين الحالين ﴿إن أمّهاتهم إلا اللائى ولدنهم﴾ يريد أن الأمهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ فى حكمهنّ ، فالمرضعات أمّهات ؛ لأنهن

---

(١) هذه الرواية الثانية أخرجها الطبرى من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى قال : كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت . وكان رجلا به لمم . فقال فى بعض هجراته : أنت على كظهر أمى ، قال : ماأظنك إلا قد حرمت على فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يانبى الله ، إن أوس بن الصامت أبو ولدى ، وأحب الناس إلى . والذى أنزل عليك الكتاب ماذكر طلاقا قال : ما أراك إلا حرمت عليه ، فقالت : يارسول الله لاتقل كذلك والله ماذكر طلاقا . فراودت النبى صلى الله عليه وسلم مراراً ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك فاقتى ووحدتى ومايشق على من فراقه ـ الحديث ، ومن طريق أبى العالية قال : فجعلت كلما قال لها : حرمت عليه ، هتفت وقالت : أشكو إلى الله ، فلم ترم مكانها حتى نزلت الآية .

لما أرضعن دخلن بالرضاع فى حكم الأمهات ، وكذلك أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ؛ لأن الله حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك فى حكم الأمهات . وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمهات على الحقيقة ، ولا بداخلات فى حكم الأمهات ، فكان قول المظاهر : منكراً من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزوراً وكذبا باطلا منحرفا عن الحق ﴿وإن الله لعفو غفور﴾ لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه ، ثم قال : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا﴾ يعنى : والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول[1] المنكر فقطعوه بالإسلام ، ثم يعودون لمثله ، فكفارة من عاد أن يحرّر رقبة ثم يماس المظاهر منها لا تحل له مماستها إلا بعد تقديم الكفارة . ووجه آخر : ثم يعودون لما قالوا : ثم يتداركون ماقالوا[2] ؛ لأن المتدارك للأمر عائد إليه . ومنه المثل : عاد غيث على ماأفسد ، أى : تداركه بالإصلاح . والمعنى : أن تدارك هذا القول وتلافيه بأن يكفر حتى ترجع حالها كما كانت قبل الظهار . ووجه ثالث : وهو أن يراد بما قالوا : ماحرّموه[3]

(١) قال محمود : «يعنى والذين كانت عادتهم أن يقولوا هذا القول ... الخ» قال أحمد : وهذا الوجه يلزم الكفارة لمجرد قول الظهار فى الاسلام لاغير ، والقول بوجوبها بمجرد الظهار : قول مجاهد من التابعين وسفيان من الفقهاء .

(٢) قال محمود : «ووجه ثان ثم يعودون لما قالوا ثم يتداركون ماقالوا ... الخ» قال أحمد : وهذا التفسير منزل على أن وجوب الكفارة مشروط بالعود بعد الظهار وهو القول المشهور لفقهاء الأمصار ولايخص هذا التفسير وجهاً من وجوه العود التى ذكرها العلماء .

(٣) قال محمود : «ووجه ثالث : وهو أن يكون المراد بما قالوه ... الخ» قال أحمد : وهذا التفسير يقوى القول بأن العود الوطء نفسه ؛ لأن حاصله : ثم يعودون للوطء . وظاهر قولك : عاد للوطء فعله ، وحمل العود على الوطء : من جملة أقوال مالك رحمه الله ، فقد تلخص أن كلام المختلفين فى العود له مآخذ من هذه الآية ، فأما من لم يقف وجوب الكفارة عنده إلاعلى مجرد الظهار ، فحمل العود على الظهار . وتسميته عوداً والحالة هذه باعتبار أنه كان فى الجاهلية وانقطع فى الاسلام ، فايقاعه بعد الاسلام عود إليه . وأما من أوقفها على العود وجعل العود أن يعيد لفظ الظهار وهو قول داود فاعتبر ظاهر اللفظ ، وأمامن حمل العود على العزم على الوطء فرأى أن العود إلى القول الأول عود بالتدارك لابالتكرار ، وتدارك بعضه ببعضه ، وهل نقيضه العزم على الوطء لأن الأول امتناع منه أو العزم على الامساك ؛ لأن العصمة تقتضى الحل وعدم الامتناع ، فيكون محل خلاف . وأما من حمله على الوطء نفسه فرأى أن المراد بالقول المقول فيه ، ويحمل قوله (من قبل أن يتماسا) أى مرة ثانية . وقداختلف العلماء أيضاً فيما إذا قدم الوطء على الكفارة ، فالمذهب المشهور للعلماء أن ذلك لايسقط الكفارة ولا يوجب أخرى . وذهب مجاهد إلى إيجاب أخرى به ، وذهبت طائفة إلى إسقاط الكفارة به أصلا ورأساً ، وكأن منشأ خلافهم النظر إلى قوله (من قبل أن يتماسا) فرآه أكثر العلماء منعاً من الوطء قبل التكفير ، حتى كأنه قال : لاتماس حتى تكفر ، ورآته الطائفة المسقطة للكفارة بالوطء شرطاً فى الوجوب ، فلا جرم إذا مسها ، فقد فقد الشرط الذى هو عدم التماس فسقط الوجوب . ورآه مجاهد فى إيجاب الكفارة ، فاذا تماسا قبل الكفارة تعددت ، ثم فيه نظر آخر : وهو أنه ذكر عدم التماس فى كفارتى العتق والصوم ، وأسقطه فى كفارة الاطعام ، فتلق أبوحنيفة بذلك الفرق بين الاطعام وبين الأخريين ، حتى أنه لو وطئ فى حال الاطعام لم يجب عليه استئناف كفارة ، بخلاف ==

على أنفسهم بلفظ الظهار ، تنزيلا للقول منزلة المقول فيه نحو ماذكرنا فى قوله تعالى (ونرثه مايقول) ويكون المعنى : ثم يريدون العود للتماس . والمماسة : الاستمتاع بها من جماع ، أولمس بشهوة ، أو نظر إلى فرجها لشهوة[1] ﴿ذلكم﴾ الحكم ﴿توعظون به﴾ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه . فإن قلت : هل يصح الظهار بغير هذا اللفظ ؟ قلت : نعم إذا وضع مكان أنت عضواً منها يعبر به عن الجملة كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أومكان الظهر عضواً آخر يحرم النظر إليه من الأم كالبطن والفخذ . ومكان الأم ذات رحم محرم منه من نسب أورضاع أوصهر أوجماع . نحو أن يقول : أنت علىّ كظهر أختى من الرضاع

= الأخريين فان الوطء فى خلال كل واحدة منهما يوجب إبطالها واستئناف أخرى ، على أن أبا حنيفة سوى بين الثلاث فى تحريم المساس قبل حصولها كاملة ، كذا نقل الزمخشرى عنه . ولقائل أن يقول على أبى حنيفة : إذا جعلت الفائدة فى ذكر عدم التماس فى بعضها وإسقاطه من بعضها الفرق بين أنواعها ، فلم صرفت الفرق إلى أحد الحكمين وهو إيجاب الاستئناف بالوطء فى خلال الكفارة فى بعضها دون البعض دون الحكم الآخر وهو تحريم التماس قبل الشروع فى الكفارة ، فما تخصيص أحد الحكمين دون الآخر إلا نوع من التحكم . وله أن يقول : اتفقنا على التسوية فيه فتعين صرفه إلى الآخر هذا منتهى النظر مع أبى حنيفة ؛ ورأى القائلون بأن الطعام يبطل بتخلل الوطء فى أثنائه كالصيام : أن فائدة ذكره عدم المماسة ، ثم إسقاطه للتنبيه على التسوية بين التكفير قبل وبعد . وتقريره : أن ذكره مع الاثنين كذكره مع الثالث ، وإطلاق الثالث كاطلاق الاثنين ، فكأنه قال فى الجميع : من قبل أن يتماسا ومن بعد . وانطوى إيراد الآية على هذا الوجه على إبطال قول من قال : إن الأمر يختلف بين ماقبل التماس ومابعده فيجب قبل ويسقط بعد ، وعلى قول من قال : يجب قبل كفارة وبعد كفارتان ، وههنا نظر آخر : فى أنه لم ذكر عدم التماس مع نوعين منها ، وقد كان ذكره مع واحد منها مفيداً لهذه الفائدة على التقرير المذكور . والجواب عنه : أن ذكره مع العتق مقتصر على إفادة تحريم الوطء قبل العتق ، ولايتصور فى العتق الوطء فى أثنائه ، إذ لايتبعض ولايتفرق ، فاحتيج إلى ذكره مع الصيام الواقع على التوالى ليفيد تحريم الوطء قبل الشروع فيه وبعد الشروع إلى التمام ، إذ لو لم يذكره هنا لتوهم أن الوطء إنما يحرم قبل الشروع خاصة لابعد ، لأنها هى الحالة التى دل عليها التقييد فى العتق ، فلما ذكره مع الصيام الواقع متواليا : استغنى عن ذكره مع الطعام لأنه مثله فى التعدد والتوالى وإمكان الوطء فى خلاله ، وهذا التقرير منزل على أن العتق لايتجزأ ولايتبعض ، وهذا هو المرضى . وقد نقل العبقى عن ابن القاسم أن من أعتق شقصا من عبد يملك جميعه ثم أعتق بقيته عن الظهار : أن ذلك يجزيه ، وهو خلاف أصله فى المدونة ، وعابه عليه أصبغ وسحنون وابنه . ﴿تنبيه﴾ إن قال قائل بارتفاع التحريم بالكفارة لايخلو ، إما أن يكون مشروطا فيلزم أن لايرتفع التحريم بالكفارة التى تقدم على الشروع فيها مساس ، وإن لم يكن مشروطا لزم ارتفاع التحريم بالكفارة التى تخللها المساس ، وكلاهما غير مقول به عندكم ؛ فالجواب : أن المساس مناف لصحة الكفارة واعتبارها فى رفع التحريم ، فان وقع قبل الشروع فى الكفارة تعذر الحكم ببطلان الكفارة ؛ لأن المحل لم يوجد ، وتعذر ذلك لايبطل الحكم ككونه منافيا : أما إن وقع فى أثنائها : فالمحل المحكوم فيه بعدم الصحة قائم ، فوجب إعمال المنافى ، وهذا كالحدث مناف لصحة الصلاة ؛ فان وقع فى أثنائها أثر فى إبطالها ، والله تعالى الموفق للصواب .

(١) قوله «أو نظر إلى فرجها لشهوة» عبارة النسفى بشهوة . (ع)

أو عمتى من النسب أو امرأة ابنى أو أبى أو أم امرأتى أو بنتها ، فهو مظاهر . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . وعن الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى وغيرهم نحوه . وقال الشافعى : لا يكون الظهار إلا بالأم وحدها وهو قول قتادة والشعبى . وعن الشعبى : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعمات والخالات ؛ إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات الوالدات دون المرضعات . وعن بعضهم : لابد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً . فإن قلت : فإذا امتنع المظاهر من الكفارة ، هل للمرأة أن ترافعه ؟ قلت : لها ذلك . وعلى القاضى أن يجبره على أن يكفر ، وأن يحبسه ؛ ولا شىء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار وحدها ، لأنه يضرّ بها فى ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع ، فيلزم إيفاء حقها . فإن قلت : فإن مسّ قبل أن يكفر ؟ قلت : عليه أن يستغفر ولا يعود حتى يكفر ، لما روى أن سلمة بن صخر البياضى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ظاهرت من امرأتى ثم أبصرت خلخالها فى ليلة قمراء فواقعتها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر »[1] فإن قلت : أى رقبة تجزئ فى كفارة الظهار ؟ قلت : المسلمة والكافرة جميعا ، لأنها فى الآية مطلقة . وعند الشافعى لا تجزى إلا المؤمنة . لقوله تعالى فى كفارة القتل (فتحرير رقبة مؤمنة) ولا تجزى أم الولد والمدبر والمكاتب الذى أدى شيئاً ، فإن لم يؤد شيئا جاز . وعند الشافعى : لا يجوز : فإن قلت : فإن أعتق بعض الرقبة أو صام بعض الصيام ثم مس ؟ قلت : عليه أن يستأنف - نهارا مس - أو ليلا - ناسيا أو عامداً - عند أبى حنيفة ، وعند أبى يوسف ومحمد : عتق بعض الرقبة عتق كلها فيجزيه ، وإن كان المسّ يفسد الصوم استقبل ، وإلا بنى . فإن قلت : كم يعطى المسكين فى الإطعام ؟ قلت : نصف صاع من بر أو صاعا من غيره عند أبى حنيفة ، وعند الشافعى مدّا من طعام بلده الذى يقتات فيه . فإن قلت : ما بال التماس لم يذكر عند الكفارة بالإطعام كما ذكر عند الكفارتين ؟ قلت : اختلف فى ذلك ، فعند أبى حنيفة : أنه لا فرق بين الكفارات الثلاث فى وجوب تقديمها على المساس ، وإنما ترك ذكره عند الإطعام دلالة على أنه إذا وجد فى خلال الإطعام لم يستأنف كما يستأنف الصوم إذا وقع فى خلاله . وعند غيره : لم يذكر للدلالة على أن

---

(١) لم أره بهذا اللفظ وهو فى السنن الأربعة من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس « أن رجلا ظاهر من امرأته ، ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : رأيت بياض ساقها فى القمر . قال : فاعتزلها حتى تكفر عنك » وللترمذى « قال : رأيت خلخالها فى القمر . قال : فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله » أخرجوه من رواية الفضل بن موسى عن معمر عنه موصولا ، وأبو داود والنسائى من رواية عبد الرزاق عن معمر مرسلا . قال النسائى : هذا أولى بالصواب ولأبى داود والترمذى من حديث سلمة بن صخر البياضى قال : كنت امرأ أستكثر من النساء . فذكر القصة مطولة ، وليس فيها « استغفر الله » إلى آخره .

التكفير قبله وبعده سواء . فإن قلت : الضمير فى أن يتماسا إلام يرجع ؟ قلت : إلى مادلّ عليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها ﴿ذلك﴾ البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا ﴿بالله ورسوله﴾ فى العمل بشرائعه التى شرعها من الظهار وغيره ، ورفض ما كنتم عليه فى جاهليتكم ﴿وتلك حدود الله﴾ التى لايجوز تعدّيها ﴿وللكافرين﴾ الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها ﴿عذاب أليم﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

﴿يحادّون﴾ يعادون ويشاقون ﴿كبتوا﴾ أخزوا وأهلكوا ﴿كما كبت﴾ من قبلهم من أعداء الرسل . قيل : أريد كبتهم يوم الخندق ﴿وقد أنزلنا آيات بينات﴾ تدل على صدق الرسول وصحة ماجاء به ﴿وللكافرين﴾ بهذه الآيات ﴿عذاب مهين﴾ يذهب بعزهم وكبرهم ﴿يوم يبعثهم﴾ منصوب بلهم . أو بمهين . أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم ﴿جميعا﴾ كلهم لايترك منهم أحد غير مبعوث . أو مجتمعين فى حال واحدة ، كما تقول : حى جميع ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ تخجيلا لهم وتوبيخا وتشهيرا بحالهم ، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار ، لما يلحقهم من الخزى على رؤوس الأشهاد ﴿أحصاه الله﴾ أحاط به عددا لم يفته منه شىء ﴿ونسوه﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه لم يبالوا به لضراوتهم بالمعاصى ، وإنما تحفظ معظمات الأمور .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ما يكون﴾ من كان التامة . وقرئ بالياء والتاء ، والياء على أنّ النجوى تأنيثها غير حقيقى ومن فاصلة . أو على أنّ المعنى مايكون شىء من النجوى . والنجوى : التناجى ، فلا تخلو إما أن تكون مضافة إلى ثلاثة ، أى : من نجوى ثلاثة نفر . أو موصوفة بها ، أى : من أهل نجوى ثلاثة ، فحذف الأهل . أو جعلوا نجوى فى أنفسهم مبالغة ، كقوله تعالى : خلصوا نجيا . وقرأ ابن أبى عيلة : ثلاثة وخمسة ، بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه . أو

على تأويل نجوى بمتناجين، ونصبها من المستكن فيه. فإن قلت: ما الداعي إلى تخصيص الثلاثة والخمسة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن قوما من المنافقين تحلقوا للتناجي مغايظة للمؤمنين على هذين العددين: ثلاثة وخمسة، فقيل: مايتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة كما ترونهم يتناجون كذلك ﴿ولا أدنى من﴾ عددهم ﴿ولا أكثر إلا﴾ والله معهم يسمع مايقولون، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه: أنها نزلت في ربيعة وحبيب ابنى عمرو وصفوان بن أمية: كانوا يوما يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم مانقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضا ولا يعلم بعضا. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كله؛ وصدق. لأن من علم بعض الأشياء بغير سبب فقد علمها كلها لأن كونه عالما بغير سبب ثابت له مع كل معلوم، والثاني: أنه قصد أن يذكر ماجرت عليه العادة من أعداد أهل النجوى والمتخالين للشورى والمندبون[1] لذلك ليسوا بكل أحد وإنما هم طائفة مجتباة من أولى النهى والأحلام، ورهط من أهل الرأى والتجارب، وأول عددهم الاثنان فصاعداً إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال وحكم الاستصواب. ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف ترك الأمر شورى بين ستة ولم يتجاوز بها إلى سابع، فذكر عز وعلا الثلاثة والخمسة وقال (ولا أدنى من ذلك) فدلّ على الاثنين والأربعة وقال (ولا أكثر) فدلّ على مايلي هذا العدد ويقاربه. وفي مصحف عبد الله: إلا الله رابعهم، ولا أربعة إلا الله خامسهم، ولا خمسة إلا الله سادسهم، ولا أقل من ذلك ولا أكثر إلا الله معهم إذا انتجوا. وقرئ: ولا أدنى من ذلك ولا أكثر، بالنصب على أن لا لنفي الجنس. ويجوز أن يكون: ولا أكثر، بالرفع معطوفا على محل (لا) مع أدنى، كقولك: لا حول ولاقوة إلا بالله، بفتح الحول ورفع القوة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء، كقولك: لاحول ولاقوة إلا بالله، وأن يكون ارتفاعهما عطفا على محل (من نجوى) كأنه قيل: مايكون أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين[2] عطفا على نجوى، كأنه قيل: ما يكون من أدنى ولا أكثر إلا هو معهم. وقرئ: ولا أكبر، بالباء. ومعنى كونه معهم: أنه يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ما هم فيه، فكأنه مشاهدهم ومحاضرهم، وقد تعالى عن المكان والمشاهدة. وقرئ: ثم ينبئهم، على التخفيف.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ

(١) قوله «والمندبون لذلك» لعل أصله: (المنتدبون)، فأدغم. (ع)
(٢) قوله «ويجوز أن يكونا مجرورين» على قراءة (أكثر) بفتح الراء. (ع)

وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾

كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، يريدون أن يغيظوهم، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعادوا لمثل فعلهم، وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته. وقرئ: ينتجون بالإثم والعدوان، بكسر العين، ومعصيات الرسول ﴿حيوك بما لم يحيك به الله﴾ يعنى أنهم يقولون فى تحيتك: السام عليك يا محمد؛ والسام: الموت؛ والله تعالى يقول (وسلام على عباده الذين اصطفى) و (يا أيها الرسول) و (يا أيها النبى): ﴿لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ كانوا يقولون: ماله إن كان نبياً لا يدعو علينا حتى يعذبنا الله بما نقول، فقال الله تعالى ﴿حسبهم جهنم﴾ عذاباً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم. ويجوز أن يكون للمؤمنين، أى: إذا تناجيتم فلا تتشبهوا بأولئك فى تناجيهم بالشر ﴿وتناجوا بالبر والتقوى﴾ وعن النبى صلى الله عليه وسلم: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه»[1] وروى «دون الثالث». وقرئ فلا تناجوا. وعن ابن مسعود: إذا انتجيتم فلا تنتجوا ﴿إنما النجوى﴾ اللام إشارة إلى النجوى بالإثم والعدوان، بدليل قوله تعالى ﴿ليحزن الذين آمنوا﴾ والمعنى: أن الشيطان يزينها لهم، فكأنها منه ليغيظ الذين آمنوا ويحزنهم ﴿وليس﴾ الشيطان أو الحزن ﴿بضارهم شيئا إلا بإذن الله﴾. فإن قلت: كيف لا يضرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين فى نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا، فقال: لا يضرهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله، أى: بمشيئته، وهو أن يقضى الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة. وقرئ: ليحزن، وليحزن.

(١) متفق عليه وهذا اللفظ لمسلم من حديث ابن مسعود. وقوله: «وروى دون الثالث» هذا اللفظ للبخارى ﴿فائدة﴾ أخرج البزار من حديث ابن عمر نحوه. وزاد «إلا بإذنه» قلت: فان كانوا أربعة؟ قال: لا بأس به».

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

﴿تفسحوا فى المجلس﴾ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : أفسح عنى ، أى : تنح ؛ ولا تتضاموا . وقرئ : تفاسحوا . والمراد : مجلس رسول الله ، وكانوا يتضامون فيه تنافسا على القرب منه ، وحرصا على استماع كلامه . وقيل : هو المجلس من مجالس القتال ، وهى مراكز الغزاة ، كقوله تعالى (مقاعد للقتال)وقرئ : فى المجالس . قيل : كان الرجل يأتى الصف فيقول : تفسحوا ، فيأبون لحرصهم على الشهادة . وقرئ : فى المجلس ـ بفتح اللام : وهو الجلوس ، أى : توسعوا فى جلوسكم ولا تتضايقوا فيه ﴿يفسح الله لكم﴾ مطلق فى كل ما يبتغى الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك ﴿انشزوا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين . أو انهضوا عن مجلس رسول الله إذا أمرتم بالنهوض عنه ، ولا تملوا رسول الله بالارتكاز فيه : أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير إذا استنهضتم ، ولا تثبطوا ولا تفرطوا ﴿يرفع الله﴾ المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة[1] ﴿درجات والله بما تعملون﴾ قرئ بالتاء والياء . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أنه كان إذا قرأها قال يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر[2] سبعين سنة[3] . وعنه عليه السلام « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[4] وعنه

---

(١) قال محمود : « فيه تعميم ثم تخصيص للعلماء ... الخ » قال أحمد : فى الجزاء برفع الدرجات ههنا مناسبة للعمل لأن المأمور به تفسيح المجلس كيلا يتنافسوا فى القرب من المكان الرفيع حوله عليه الصلاة والسلام فيتضايقوا ؛ فلما كان الممتثل لذلك يخفض نفسه عما يتنافس فيه من الرفعة امتثالا وتواضعا : جوزى على تواضعه برفع الدرجات كقوله : « من تواضع لله رفعه الله » ؛ ثم لما علم أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك مالهم من الرفعة فى المجلس تواضعا لله تعالى .

(٢) قوله « حضر الجواد المضمر » الذى فى الصحاح : أحضر الفرس إحضارا ، واحتضر : أى عدا ، واستحضرته : أعديته ، وفرس محضير : أى كثير العدو اه (ع)

(٣) أخرجه أبو يعلى وابن عدى من رواية عبدالله بن محرز عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وعبدالله ابن محرز ـ بمهملات ـ : ساقط الحديث ، وذكر ابن عبدالبر فى العلم أن ابن عون رواه عن ابن سيرين عن أبى هريرة ، فينظر من خرجه . وفى الباب عن ابن عمرو بن العاص فى الترغيب للأصبهانى .

(٤) أخرجه أصحاب السنن الأربعة من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

عليه السلام «يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء »[١] فأعظم بمرتبة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله . وعن ابن عباس : خير سليمان بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم فأعطى المال والملك معه[٢] . وقال عليه السلام «أوحى الله إلى إبراهيم . يا إبراهيم ، إنى عليم أحب كل عليم »[٣] وعن بعض الحكماء : ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم ، وأى شىء فات من أدرك العلم . وعن الأحنف : كاد العلماء يكونون أربابا ، وكل عز لم يوطد[٤] بعلم فإلى ذل ما يصير . وعن الزبيرى[٥] العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿بين يدى نجواكم﴾ استعارة ممن له يدان . والمعنى : قبل نجواكم كقول عمر : من أفضل ما أوتيت العرب الشعر ، يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به[٦] اللئيم ، يريد : قبل حاجته ﴿ذلكم﴾ التقديم ﴿خير لكم﴾ فى دينكم ﴿وأطهر﴾ لأن الصدقة طهرة . روى أن الناس أكثروا مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريدون حتى أملوه وأبرموه[٧] ، فأريد أن يكفوا عن ذلك ، فأمروا بأن من أراد أن يناجيه قدم قبل مناجاته صدقة . قال على رضى الله عنه : لما نزلت دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما تقول فى دينار ؟

(١) أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى وابن عدى والعقيلى والبيهقى فى الشعب من حديث عثمان . وفيه عنبسة بن عبدالرحمن القرشى ، وهو متروك .

(٢) ذكره صاحب الفردوس هكذا ، وذكره قبله ابن عبد البر فى كتاب العلم بلا إسناد .

(٣) أخرجه ابن عبدالبر فى العلم قال : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ فذكره بغير إسناد .

(٤) قوله «وكل عز لم يوطد بعلم» فى الصحاح : وطدت الشىء ، أى : أثبته وثقلته . (ع)

(٥) قوله « وعن الزبيرى : العلم ذكر» قوله الزبيرى : هو أبوأحمد محمد بن عبدالله بن الزبير مولى لبنى أسد ، وليس من ولد الزبير بن العوام ، كذا فى الهداية والارشاد اه من هامش . (ع)

(٦) لم أجده .

(٧) قوله «حتى أملوه وأبرموه» فى الصحاح : أبرمه ، أى : أمله وأضجره اه . (ع)

قلت : لا يطيقونه . قال : كم ؟ قلت : حبة أو شعيرة ؛ قال : إنك لزهيد . فلما رأوا ذلك : اشتدّ عليهم فارتدعوا وكفوا . أما الفقير فلعسرته ، وأما الغنىّ فلشحه[١] . وقيل : كان ذلك عشر ليال ثم نسخ . وقيل : ما كان إلا ساعة من نهار . وعن على رضى الله عنه : إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى : كان لى دينار فصرفته ، فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم[٢] . قال الكلبى : تصدق به فى عشر كلمات سألهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] . وعن ابن عمر : كان لعلىّ ثلاث : لو كانت لى واحدة منهنّ كانت أحب إلىّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى . قال ابن عباس : هى منسوخة بالآية التى بعدها ، وقيل : هى منسوخة بالزكاة ﴿أأشفقتم﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذى تكرهونه ، وأنّ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴿فإذا لم تفعلوا﴾ ما أمرتم به وشق عليكم ، و﴿تاب الله عليكم﴾ وعذركم ورخص لكم فى أن لا تفعلوه ، فلا تفرطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿بما تعملون﴾ قرئ بالتاء والياء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ

---

(١) قلت : هذا ملفق من حديثين . فمن قوله «قال على إنك لزهيد» أخرجه الترمذى وابن حبان وأبو يعلى والبزار من رواية علقمة الانمارى عن على به وأتم منه . وقال بعد قوله «إنك لزهيد : نزلت أأشفقتم الآية» قال : فبى خفف الله عن هذه الأمة ، قال الترمذى : حسن غريب : إنما نعرفه من هذا الوجه . وقال البزار : لا يحفظ إلا عن على بهذا الاسناد . وأما أوله وآخره فأخرجه الطبرى وابن مردويه من رواية على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية قال «إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه . فأراد الله أن يخفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك ضن كثير من الناس بأموالهم . فكف كثير من الناس عن المسألة . فأنزل الله تعالى بعد هذا (فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ـ الآية) فوسع الله عليهم .

(٢) أخرجه الحاكم من طريق عبدالرحمن بن أبى ليلى عن على به وأتم منه . وأخرجه ابن أبى شيبة من رواية ليث بن أبى سليم عن على بلفظ المصنف .

(٣) لم أجده .

عَلَيْهِمُ الشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَـٰنِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَـٰنِ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم فى قوله تعالى (من لعنه الله وغضب عليه) ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿ما هم منكم﴾ يا مسلمون ﴿ولا منهم﴾ ولا من اليهود، كقوله تعالى (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء). ﴿ويحلفون على الكذب﴾ أى يقولون: والله إنا لمسلمون، فيحلفون على الكذب الذى هو ادعاء الإسلام ﴿وهم يعلمون﴾ أن المحلوف عليه كذب بحت. فإن قلت: فما فائدة قوله (وهم يعلمون)؟ قلت: الكذب: أن يكون الخبر لا على وفاق المخبر عنه، سواء علم المخبر أو لم يعلم، فالمعنى: أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه، وهم عالمون بذلك متعمدون له، كمن يحلف بالغموس.[١] وقيل: كان عبدالله بن نبتل المنافق يجالس رسول الله[٢] صلى الله عليه وسلم، ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا رسول الله فى حجرة من حجره إذ قال لأصحابه: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان، فدخل ابن نبتل وكان أزرق، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: «علام تشتمنى أنت وأصحابك»؟ فحلف بالله ما فعل، فقال عليه السلام: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبوه، فنزلت ﴿عذابا شديدا﴾ نوعا من العذاب متفاقما ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ يعنى أنهم كانوا فى الزمان الماضى المتطاول على سوء العمل مصرين عليه. أو هى حكاية ما يقال لهم فى الآخرة. وقرئ: إيمانهم؛ بالكسر، أى: اتخذوا أيمانهم التى حلفوا بها. أو إيمانهم الذى أظهروه ﴿جنة﴾ أى سترة يتسترون بها من المؤمنين ومن قتلهم ﴿فصدوا﴾ الناس فى خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عن سبيل الله﴾ وكانوا يثبطون من لقوا عن الدخول فى الإسلام ويضعفون أمر المسلمين عندهم. وإنما وعدهم الله العذاب المهين المخزى لكفرهم وصدهم، كقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب). ﴿من الله﴾ من عذاب الله ﴿شيئا﴾ قليلا من الإغناء. وروى أن رجلا منهم قال:

---

(١) قوله «كمن يحلف بالغموس» فى الصحاح: الأمر الغموس: الشديد. واليمين الغموس: التى تغمس صاحبها فى الإثم. (ع)

(٢) لم أجده هكذا. وروى أحمد والبزار والطبرانى والطبرى وابن أبى حاتم والحاكم من رواية سماك عن ابن جبير عن ابن عباس قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل حجرة وقد كاد الظل أن يتقاص، فقال: إنه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعين شيطان. فاذا جاءكم فلا تكلموه. فلم يلبث أن طلع عليهم رجل أزرق أعور فقال حين رآه: علام تشتمنى أنت وأصحابك؟ فقال: ذرنى آتيك بهم فانطلق فدعاهم فحلفوا ما قالوا وما فعلوا. فأنزل الله تعالى الآية» لفظ الحاكم.

لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا ﴿فيحلفون﴾ لله تعالى على أنهم مسلمون فى الآخرة ﴿كما يحلفون لكم﴾ فى الدنيا على ذلك ﴿ويحسبون أنهم على شيء﴾ من النفع، يعنى: ليس العجب من حلفهم لكم، فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر، وأن لهم نفعاً فى ذلك دفعاً عن أرواحهم واستجرار فوائد دنيوية، وأنهم يفعلونه فى دار لا يضطرون فيها إلى علم مايوعدون، ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة مع عدم النفع والاضطرار إلى علم ما أنذرتهم الرسل، والمراد: وصفهم بالتوغل فى نفاقهم ومرونهم عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل، كما قال (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) وقد اختلف العلماء فى كذبهم فى الآخرة، والقرآن ناطق بثباته نطقاً مكشوفا. كما ترى فى هذه الآية وفى قوله تعالى (والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) ونحو حسبانهم أنهم على شيء من النفع إذا حلفوا استنظارهم المؤمنين ليقتبسوا من نورهم، لحسبان أن الإيمان الظاهر مما ينفعهم. وقيل عند ذلك: يختم على أفواههم ﴿ألا إنهم هم الكاذبون﴾ يعنى أنهم الغاية التى لا مطمح وراءها فى قول الكذب، حيث استوت حالهم فيه فى الدنيا والآخرة ﴿استحوذ عليهم﴾ استولى عليهم. من حاذ الحمار العانة [1] إذا جمعها وساقها غالبا لها. ومنه: كان أحوذيا نسيج وحده، وهو أحد ما جاء على الأصل، نحو: استصوب واستنوق، أى: ملكهم ﴿الشيطان﴾ لطاعتهم له فى كل ما يريده منهم، حتى جعلهم رعيته وحزبه ﴿فأنساهم﴾ أن يذكروا الله أصلا لا بقلوبهم ولا بألسنتهم. قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جنده.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾

﴿فى الأذلين﴾ فى جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحدا أذل منهم.

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

﴿كتب الله﴾ فى اللوح ﴿لأغلبن أنا ورسلى﴾ بالحجة والسيف. أو بأحدهما.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَـٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ

(١) قوله «العانة» هى القطيع من حمر الوحش، كما فى الصحاح. (ع)

خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

﴿لا تجد قوما﴾ من باب التخييل . خيل أن من الممتنع المحال : أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين . والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة فى النهى عنه والزجر عن ملابسته ، والتوصية بالتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم . وزاد ذلك تأكيدا وتشديداً بقوله ﴿ولو كانوا آباءهم﴾ وبقوله (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) وبمقابلة قوله (أولئك حزب الشيطان) بقوله (أولئك حزب الله) فلا تجد شيئا أدخل فى الإخلاص من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه ، بل هو الإخلاص بعينه ﴿كتب فى قلوبهم الإيمان﴾ أثبته فيها بما وفقهم فيه وشرح له صدورهم ﴿وأيدهم بروح منه﴾ بلطف من عنده حييت به قلوبهم . ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أى : بروح من الإيمان ، على أنه فى نفسه روح لحياة القلوب به . وعن الثورى أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبى رواد : أنه لقيه المنصور فى الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان يقول : اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى نعمة ، [١] فإنى وجدت فيما أوحيت إلىّ : لا تجد قوما . وروى أنها نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، وذلك أنّ أبا قحافة سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصكه صكة سقط منها . فقال له رسول الله « أو فعلته » ؟ قال : نعم ، قال : « لا تعد » قال : والله لو كان السيف قريبا منى لقتلته . [٢] وقيل فى أبى عبيدة بن الجراح : قتل أباه عبد الله الجراح يوم أحد . وفى أبى بكر : دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، وقال لرسول الله : دعنى أكن فى الرعلة [٣] الأولى ؛ قال : متعنا بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى . [٤] وفى مصعب بن عمير : قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد . وفى عمر : قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر . وفى على وحمزة وعبيدة بن الحرث : قتلوا عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة » [٥]

---

(١) ذكره صاحب الفردوس من حديث معاذ . وأورده ابن مردويه من رواية جعفر الأحمر عن كثير بن عطية عن رجل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يذكر ولا لفاسق .

(٢) نقله الثعلبى عن ابن جريج قال « حدثت أن أبا قحافة ... فذكره .

(٣) قوله « دعنى أكر فى الرعلة » هى القطعة من الخيل ، كما فى الصحاح . (ع)

(٤) هو فى تفسير مقاتل بن حيان عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود ، وذكره الثعلبى عن تفسير مقاتل .

(٥) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة الحشر

مدنية ، وهى أربع وعشرون آية [نزلت بعد البينة]

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)

صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : هو النبي الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة فأمر عليه السلام محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ، ثم صبحهم بالكتائب وهو على حمار مخطوم بليف فقال لهم : اخرجوا من المدينة ، فقالوا : الموت أحب إلينا من ذاك ، فتنادوا بالحرب .[1] وقيل : استمهلوا رسول الله عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدس عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه إليهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فدربوا على الأزقة[2] وحصنوها فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فلما قذف الله الرعب فى قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين : طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء : على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاؤا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات ، إلا أهل بيتين منهم : آل

(١) لم أجد له إسنادا ، بل ذكره الثعلبي هكذا بغير سند .

(٢) قوله «فدربوا على الأزقة» أى ضيقوا أفواهها بالخشب والحجارة كما يؤخذ مما سيأتى فى تخريبهم بيوتهم بأيديهم . وفى الصحاح «الدرب» : المضيق فى الجبل . (ع)

أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة . اللام فى (لأول الحشر) تتعلق بأخرج . وهى اللام فى قوله تعالى (ياليتنى قدمت لحياتى)[1] وقولك : جئته لوقت كذا . والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر . ومعنى أول الحشر : أن هذا أول حشرهم إلى الشأم ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام . أو هذا أوّل حشرهم ، وآخر حشرهم : إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام. وقيل : آخر حشرهم حشر يوم القيامة ؛ لأنّ المحشر يكون بالشام . وعن عكرمة : من شك أنّ المحشر ههنا ــ يعنى الشام ــ فليقرأ هذه الآية . وقيل : معناه أخرجهم من ديارهم لأوّل ما حشر لقتالهم : لأنه أوّل قتال قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ما ظننتم أن يخرجوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ، ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعدتهم ، وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله ﴿فأتاهم﴾ أمر الله ﴿من حيث لم يحتسبوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم : وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرّة على يد أخيه . وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب ، وألهمهم أن يوافقوا المؤمنين فى تخريب بيوتهم ويعينوا على أنفسهم ، وثبط المنافقين الذين كانوا يتولونهم عن مظاهرتهم . وهذا كله لم يكن فى حسبانهم . ومنه أتاهم الهلاك . فإن قلت : أى فرق بين قولك : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم ، وبين النظم الذى جاء عليه ؟ قلت : فى تقديم الخبر على المبتدإ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ؛ وفى تصيير ضميرهم اسما لأن وإسناد الجملة إليه : دليل على اعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى معازتهم[2] ؛ وليس ذلك فى قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم . وقرئ : فآتاهم الله ، أى : فآتاهم الهلاك . والرعب : الخوف الذى يرعب الصدر ، أى يملؤه ؛ وقذفه : إثباته وركزه . ومنه قالوا فى صفة الأسد : مقذف ، كأنما قذف باللحم قذفا لاكتنازه وتداخل أجزائه . وقرئ: يخرّبون ويخربون ، مثقلا ومخففاً . والتخريب والإخراب : الإفساد بالنقض والهدم. والخربة: الفساد، كانوا يخربون بواطنها والمسلمون ظواهرها : لما اراد الله من استئصال شأفتهم[3] وأن لا يبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديار ، والذى دعاهم إلى التخريب : حاجتهم إلى الخشب والحجارة

---

(١) قال محمود : «اللام فى قوله (لأول الحشر) كاللام فى قوله (قدمت لحياتى) قال أحمد : كأنه يريد أنها اللام التى تصحب التاريخ ، كقوله : كتبت لعام كذا ولشهر كذا .

(٢) قوله «أو يطمع فى معازتهم» أى مغالبتهم ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «من استئصال شأفتهم» فى الصحاح «الشأفة» : قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، يقال فى المثل : استأصل الله شأفته ، أى : أذهبه الله كما أذهب تلك القرحة بالكى اهـ . (ع)

ليسدّوا بها أفواه الأزقة . وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان فى أبنيتهم من جيد الخشب والساج المليح . وأما المؤمنون فداعيهم إزالة متحصنهم ومتمنعهم ، وأن يتسع لهم مجال الحرب . فإن قلت : ما معنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين ؟ قلت : لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه ﴿فاعتبروا﴾ بما دبر الله ويسر من أمر إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال . وقيل : وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يورثهم الله أرضهم وأموالهم بغير قتال ، فكان كما قال .

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)

يعنى : أنّ الله قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم ، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت ﴿لعذبهم فى الدنيا﴾ بالقتل كما فعل بإخوانهم بنى قريظة ﴿ولهم﴾ سواء أجلوا أو قتلوا ﴿عذاب النار﴾ يعنى : إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة .

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

﴿من لينة﴾ بيان لما قطعتم . ومحل (ما) نصب بقطعتم ، كأنه قال : أى شىء قطعتم ، وأنث الضمير الراجع إلى ما فى قوله ﴿أو تركتموها﴾ لأنه فى معنى اللينة . واللينة : النخلة من الألوان ، ضروب النخل ما خلا العجوة [١] والبرنية ، وهما أجود النخيل ، وياؤها عن واو ، قلبت لكسرة ما قبلها ، كالديمة . وقيل : «اللينة» النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين . قال ذو الرمة :

---

(١) ذكر الزمخشرى فيه تفسيرين أحدهما أنه النخل ماعدا العجوة والبرنى وهما خير النخل ... الخ . قال أحمد : والظاهر أن الاذن عام فى القطع والترك ؛ لأنه جواب الشرط المضمر لهما جميعاً ويكون التعليل بإجزاء الفاسقين لهما جميعاً ، وأن القطع بحسرهم على ذهابها والترك بحسرهم على بقائها للمسلمين ينتفعون بها . فهم فى حسرتين من الأمرين جميعا .

كَأَنَّ قُتُودِى فَوْقَهَا عُشُّ طَائِرٍ عَلَى لِينَةٍ سَوْقَاءَ تَهْفُو جُنُوبُهَا (١)

وجمعها لين . وقرئ : قوما ، على أصلها . وفيه وجهان : أنه جمع أصل كرهن ورهن . أو اكتفى فيه بالضمة عن الواو . وقرئ : قائما على أصوله ذهابا إلى لفظ ما ﴿فبإذن الله﴾ فقطعها بإذن الله وأمره ﴿وليخزى الفاسقين﴾ وليذل اليهود ويغيظهم إذن فى قطعها ، وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمر أن تقطع نخلهم وتحرق قالوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فكان فى نفس المؤمنين من ذلك شىء (٢) . فنزلت ، يعنى : أنّ الله أذن لهم فى قطعها ليزيدكم غيظاً ويضاعف لكم حسرة إذا رأيتموهم يتحكمون فى أموالكم كيف أحبوا ويتصرفون فيها ما شاؤا . واتفق العلماء أنّ حصون الكفرة وديارهم لا بأس بأن تهدم وتحرق وتغرق وترمى بالمجانيق ، وكذلك أشجارهم لا بأس بقلعها مثمرة كانت أو غير مثمرة . وعن ابن مسعود : قطعوا منها ما كان موضعا للقتال . فإن قلت : لم خصت اللينة بالقطع ؟ قلت : إن كانت من الألوان فليستبقوا لأنفسهم العجوة والبرنية ، وإن كانت من كرام النخل فليكون غيظ اليهود أشد وأشق . وروى أن رجلين كانا يقطعان : أحدهما العجوة ، والآخر اللون ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذا : تركتها لرسول الله ، وقال هذا : قطعتها غيظا للكفار (٣) . وقد استدل به على جواز الاجتهاد ، وعلى جوازه بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهما بالاجتهاد فعلا ذلك ،

---

(١) لذى الرمة يصف ناقته : والقتود عيدان الرحل بلا أداته . تتخذ من القتاد وهو شجر صلب ذو شوك . واللينة : النخلة . والسوقاء : طويلة الساق . وهفا الريح والبصير يهفو : عدا بسرعة . والجنوب : نوع من الريح ، والضمير للينة : شبه عيدان الرحل فوق الناقة بعش الطائر فوق النخلة ، ويلزم من ذلك تشبيه الناقة بالنخلة فى الطول والنجابة . وهو المقصود . فلو قيل : إن استعمال التشبيه الأول فى الثانى من باب المجاز ، أو إرادة الثانى من الأول من باب الكناية لم يكن بعيدا . وفى ذلك إشارة لتشبيهه بالطائر فى الحذر والتيقظ . وفى قوله «تهفو جنوبها» دلالة على سرعة سير الناقة ، واختراقها الرياح كسرعة سير الريح على النخلة ، فهي مخترقة له ، كأنها سائرة فيه بسرعة .

(٢) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى والطبرى من طريقه : حدثنا يزيد بن رومان فذكره . وذكره ابن هشام عن ابن إسحاق من غير ذكر شيخه : ورواه ابن مردويه من طريق ابن اسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس . وذكر الواقدى فى المغازى «أن الذى أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو حيي بن أخطب» وروى أبو داود فى المراسيل من طريق عبدالله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم نحوه مختصرا .

(٣) لم أجده بهذا السياق لكن للبخارى فى الواقدى ، واستعمل على قطع النخل وحرقها رجلين من أصحابه : أبا ليلى المازنى وعبدالله بن سلام فكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان الآخر يقطع اللون . فقيل لهما فى ذلك . فقال أبو ليلى : كانت العجوة أحرق لهم وقال ابن سلام : قد عرف أن الله سيغنمهم أموالهم ، وكانت العجوة خير أموالهم فأنزل الله الآية . وروى البيهقى فى الدلائل من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال «نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا : إنما هو من مغانم المسلمين . وقال الذين قطعوا : بل هو غيظ للعدو . فنزل القرآن .

واحتج به من يقول : كل مجتهد مصيب .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

﴿أفاء الله على رسوله﴾ جعله له فيئا خاصة . والإيجاف من الوجيف . وهو السير السريع . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام فى الإفاضة من عرفات «ليس البرّ بإيجاف الخيل ولا إيضاع الإبل [١] على هينتكم» [٢] ومعنى ﴿فما أوجفتم عليه﴾ فما أوجفتم على تحصيله وتغنمه خيلا ولا ركابا ، ولا تعبتم فى القتال عليه ، وإنما مشيتم إليه على أرجلكم . والمعنى : أنّ ما خوّل الله رسوله من أموال بنى النضير شىء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ، ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما فى أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم ، فالأمر فيه مفوّض إليه يضعه حيث يشاء ، يعنى : أنه لا يقسم قسمة الغنائم التى قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً ، وذلك أنهم طلبوا القسمة فنزلت . لم يدخل العاطف على هذه الجملة : لأنها بيان للأولى . فهى منها غير أجنبية عنها . بين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصنع بما أفاء الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوما على الأقسام الخمسة . والدولة والدولة ـ بالفتح والضم ـ وقد قرئ بهما ما يدول للإنسان ، أى يدور من الجد . يقال : دالت له الدولة . وأديل لفلان . ومعنى قوله تعالى : ﴿كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ كيلا يكون الفيء الذى حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به . أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم . ومعنى الدولة الجاهلية : أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة ، وكانوا يقولون من عزّ بزّ . والمعنى : كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية . ومنه قول الحسن : اتخذوا عباد الله

---

(١) قوله «ولا إيضاع الابل» فى الصحاح : وضع البعير وغيره . أى : أسرع فى سيره وأوضعه راكبه اه أى : جعله مسرعا فى سيره . (ع)

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد وإسحاق والبزار والحاكم من رواية مقسم عن ابن عباس نحوه والبخارى من وجه آخر عن ابن عباس بعضه ..

خولا ، ومال الله دولا ، يريد : من غلب منهم أخذه واستأثر به . وقيل: «الدولة» ما يتداول ، كالغرفة : اسم ما يغترف ، يعني : كيلا يكون الفيء شيئاً يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه ، فلا يصيب الفقراء . والدولة ـ بالفتح ـ : بمعنى التداول ، أي : كيلا يكون ذا تداول بينهم . أو كيلا يكون إمساكه تداولا بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء . وقرئ دولة بالرفع على «كان» التامة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة، يعني كيلا يقع دولة جاهلية ولينقطع أثرها أو كيلا يكون تداول له بينهم . أو كيلا يكون شيء متعاور بينهم غير مخرج إلى الفقراء ﴿وما آتاكم الرسول﴾ من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فخذوه وما نهاكم﴾ عن أخذه منها ﴿فانتهوا﴾ عنه ولا تتبعه أنفسكم ﴿واتقوا الله﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إنّ الله شديد العقاب﴾ لمن خالف رسوله ، والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه ، وأمر الفيء داخل في عمومه . وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أنه لقي رجلا محرما وعليه ثيابه فقال له : انزع عنك هذا [1] فقال الرجل: اقرأ عليّ في هذا آية من كتاب الله . قال : نعم ، فقرأها عليه .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَـٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾

﴿للفقراء﴾ بدل من قوله (لذى القربى) والمعطوف عليه [2] والذى منع الإبدال من : لله

(١) أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا معاوية بن هشام حدثنا الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الرحمن ابن يزيد عن ابن مسعود به ، وأخرجه ابن عبد البر في العلم من طريق يحيى بن آدم عن عطية وأبي بكر بن عباس عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن زيد قال «لقي عبد الله بن مسعود» فذكره .

(٢) قال محمود : «هو بدل من قوله لذى القربى وما بعده والذى منع الابدال من لله وللرسول ... الخ » قال أحمد : مذهب أبي حنيفة أن استحقاق ذوي القربى أسهمهم من الفيء موقوف على الفقراء حتى لا يستحقه أغنياؤهم ، وقد أغلظ الشافعي رضى الله عنه فيما نقله عنه إمام الحرمين الرد على هذا المذهب بأن الله تعالى علق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة ، وعدم اعتبار القرابة مضادة ومحادة ، واعتذر إمام الحرمين لأبي حنيفة بأن الصدقات لما حرمت عليهم كان فائدة ذكرهم في خمس الفيء والغنيمة أنه لا يمنع صرف ذلك إليهم امتناع صرف الصدقات ، ثم أتبع هذا العذر بأن قال : لا ينبغي أن يعبر به ، فإن صيغة الآية ناصة على تعين الاستحقاق لهم تشريفا لهم وتنبيها على عظم أقدارهم ، فمن حمل ذلك على جواز الصرف إليهم مع معارضة هذا الجواز بجواز حرمانهم فقد عطل فحوى الآية ، ثم استعظم الامام وقع ذلك عليهم لأنهم يذهبون إلى اشتراط الايمان في رقبة الظهار زيادة على النص ، فيأتون في إثبات ذلك بالقياس لأنه يستنتج ، وليس من شأنه الثبوت بالقياس . قال : فكذلك يلزمهم أن يعتقدوا أن اشتراط الفقر في القرابة واشتراط الحاجة لقرب ماذكروه بفرض القرب ؛ فأما وإن أصلهم المخصوصون من نسب الرسول عليه الصلاة والسلام والثابتون من شجرته كالمجمة ، فلا يبقى مع هذا لمذهبهم وجه انتهى كلام الامام وإنما أوردته ليعلم أن معارضته لأبي حنيفة على أن اشتراط الحاجة عند أبي حنيفة مستند إلى قياس أو نحوه من الأسباب الخارجة من الآية . فلذلك ألزمه أن يكون زيادة على النص ؛ فأما وقد تلقى أبو حنيفة اعتبار الحاجة

وللرسول والمعطوف عليهما ، وإن كان المعنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عزّ وجل أخرج رسوله من الفقراء فى قوله (وينصرون الله ورسوله) وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير ، وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب فى تعظيم الله عزّ وجل ﴿أولئك هم الصادقون﴾ فى إيمانهم وجهادهم .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

﴿والذين تبوّؤوا﴾ معطوف على المهاجرين . وهم الأنصار . فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوّؤا الإيمان؟ قلت : معناه تبوّؤا الدار وأخلصوا الإيمان ، كقوله :

* عَلَفْتُهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدًا *

أو : وجعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لهم لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك . أو : أراد دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف فى الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ووضع المضاف إليه مقامه . أو سمى المدينة لأنها دار الهجرة

ـــــــــــــــــــ

= من تقييد هذا البدل المذكور فى الآية ، فأما يسلك معه فى واد غير هذا فيقول : هو بدل من المساكين لا غيره . وتقريره أنه سبحانه أراد أن يصف المساكين بصفات تؤكد استحقاقهم ويحمل الأغنياء على إيثارهم وأن لا يجدوا فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، فلما قصد ذلك وقد فصل بين ذكرهم وبين مايقصد من ذكر صفاتهم بقوله (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) إلى قوله (شديد العقاب) طرى ذكرهم ليكون توطئة للصفات المتتالية بعده ، فذكر بصفة أخرى مناسبة للصفة الأولى مبدلة منها وهى الفقر ، لتشهد التطرية على فائدة الجمع لهم بين صفتى المسكنة والفقر ثم تليت صفاتهم على أثر ذلك وهى إخراجهم من ديارهم وأموالهم مهاجرين ، وابتغاؤهم الفضل والرضوان من الله ، ونصرهم لله ورسوله ، وصدقهم فى نياتهم ، إلى آخر ذلك ، فهذا هو الذى يرشد إليه السياق مؤيدا بالأصل فان ذوى القربى ذكروا بصفة الاطلاق : فالأصل بقاؤهم على ذلك حتى يتحقق أنهم مرادون بالتقييد ، وماذكرناه من صرف ذلك إلى المساكين يكفى فى إقامة وزن الكلام ، فيبقى ذوو القربى على أصل الاطلاق ، وتلك قاعدة لا يسع الحنفية مدافعتها ؛ فانهم يرون الاستثناء المتعقب للجمل يختص بالجملة الأخيرة ؛ لأن عوده إليها يقيم وزن الكلام ويبقى ماتقدمها على الأصل ، ولا فرق بين التعقيب بالاستثناء والبدل وكل ماسوى هذا ، مع أنه لو جعل بدلا من ذوى القربى مع مابعده : لم يكن إبداله من ذوى القربى إلا بدل بعض من كل ؛ فان ذوى القربى منقسمون إلى فقراء وأغنياء ولم يكن إبداله من المساكين إلا بدلا للشىء من الشىء ، وهما لعين واحدة ، فيلزم أن يكون هذا البدل مخصوصا بالنوعين المذكورين فى حالة واحدة ، وذلك متعذر لما بين النوعين من الاختلاف والتباين ، وكل منهما يتقاضى ما يأباه الآخر ، فهذا القدر كاف إن شاء الله تعالى ، وعليه أعرب الزجاج الآية فجعله بدلا من المساكين خاصة ، والله تعالى الموفق للصواب .

ومكان ظهور الإيمان بالإيمان ﴿من قبلهم﴾ من قبل المهاجرين ؛ لأنهم سبقوهم فى تبوئ دار الهجرة والإيمان . وقيل : من قبل هجرتهم ﴿ولا يجدون﴾ ولا يعلمون فى أنفسهم ﴿حاجة مما أوتوا﴾ أى طلب محتاج إليه مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره ، والمحتاج إليه يسمى حاجة ؛ يقال : خذ منه حاجتك ، وأعطاه من ماله حاجته ، يعنى : أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شىء منه يحتاج إليه ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ أى خلة ، وأصلها : خصاص البيت ، وهى فروجه ؛ والجملة فى موضع الحال ، أى : مفروضة خصاصتهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين : أبا دجانة سماك بن خرشة ، وسهل بن حنيف ، والحرث بن الصمة [1] . وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فنزلت . الشح ـ بالضم والكسر ، وقد قرئ بهما ـ : اللؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزة حريصة على المنع ، كما قال :

يُمَارِسُ نَفْسًا بَيْنَ جَنْبَيْهِ كَزَّةً ... إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا [2]

وقد أضيف إلى النفس ؛ لأنه غريزة فيها . وأما البخل فهو المنع نفسه . ومنه قوله تعالى (وأحضرت الأنفس الشح) . ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ ومن غلب ما أمرته به منه وخالف هواها بمعونة الله وتوفيقه ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ الظافرون بما أرادوا . وقرئ : ومن يوقّ .

وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)

(١) ذكره الثعلبى هكذا بغير سند . وروى الواقدى عن معمر عن الزهرى عن خارجة بن زيد عن أم العلاء قالت « لما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير قال لثابت بن قيس بن شماس : ادع لى الأنصار كلهم . فقال : إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين . وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم . فقال السعدان : بل تقسمه للمهاجرين ويكونون فى دورنا . فرضيت الأنصار . فأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار ، إلا رجلين محتاجين سهل ابن حنيف وأبا دجانة ونفل سيف بن أبى الحقيق سعد بن معاذ . وكان له ذكر عندهم . وعند أبى داود من رواية عبدالرزاق عن معمر طرف منه وأبهم اسم الأنصاريين . وعند ابن إسحاق فى المغازى : حدثنى عبدالله بن أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بنى النضير على المهاجرين الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة ذكرا فقرا فأعطاهما » .

(٢) يصف رجلا بالبخل ، وأنه يعالج نفسه التى بين جنبيه ، كزة ـ بالفتح ـ : شحيحة منقبضة عن فعل الخير إذا غلبها ، وأراد المعروف دعته ثانيا إلى البخل وحجبته عن البذل ، فكأنها قالت له : أمهل فيطاوعها . ومهلا : مصدر حذف فعله وجوبا . وقولها : ذلك ، استعارة تصريحية لوسوستها بالبخل .

﴿والذين جاؤا من بعدهم﴾ عطف أيضاً على المهاجرين : وهم الذين هاجروا من بعد . وقيل : التابعون بإحسان ﴿غلا﴾ وقرئ : غمرا ، وهما الحقد .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾

﴿لإخوانهم﴾ الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر ، ولأنهم كانوا يوالونهم ويواخونهم ، وكانوا معهم على المؤمنين فى السر ﴿ولا نطيع فيكم﴾ فى قتالكم أحداً من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه . أوفى خذلانكم وإخلاف ماوعدناكم من النصرة ﴿لكاذبون﴾ أى فى مواعيدهم لليهود . وفيه دليل على صحة النبوة : لأنه إخبار بالغيوب . فإن قلت : كيف قيل ﴿ولئن نصروهم﴾ بعد الإخبار بأنهم لاينصرونهم ؟ قلت : معناه : ولئن نصروهم على الفرض والتقدير ، كقوله تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) وكما يعلم مايكون ، فهو يعلم مالا يكون لوكان كيف يكون . والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لاينصرون بعد ذلك ، أى : يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم . أو لينهزمن اليهود ثم لاينفعهم نصرة المنافقين .

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

﴿رهبة﴾ مصدر رهب المبنى للمفعول، كأنه قيل: أشد مرهوبية. وقوله ﴿فى صدورهم﴾ دلالة على نفاقهم، يعنى أنهم يظهرون لكم فى العلانية خوف الله وأنتم أهيب فى صدورهم من الله. فإن قلت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشدّ. قلت: معناه أن رهبتهم فى السر منكم أشدّ من رهبتهم من الله التى يظهرونها لكم ـ وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله ـ ويجوز أن يريد أنّ اليهود يخافونكم فى صدورهم أشدّ من خوفهم من الله؛ لأنهم كانوا قوما أولى بأس ونجدة، فكانوا يتشجعون لهم مع إضمار الخيفة فى صدورهم ﴿لا يفقهون﴾ لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته ﴿لا يقاتلونكم﴾ لا يقدرون على مقاتلتكم ﴿جميعا﴾ مجتمعين متساندين، يعنى اليهود والمنافقين ﴿إلا﴾ كائنين ﴿فى قرى محصنة﴾ بالخنادق والدروب ﴿أو من وراء جدر﴾ دون أن يصحروا لكم [1] ويبارزوكم، لقذف الله الرعب فى قلوبهم، وأن تأييد الله تعالى ونصرته معكم. وقرئ: جدر، بالتخفيف. وجدار. وجدر وجدر، وهما: الجدار ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ يعنى أنّ البأس الشديد الذى يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا؛ ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدّة؛ لأنّ الشجاع يجبن والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله ﴿تحسبهم جميعا﴾ مجتمعين ذوى ألفة واتحاد ﴿وقلوبهم شتى﴾ متفرقة لا ألفة بينها، يعنى أنّ بينهم إحنا وعداوات، فلا يتعاضدون حق التعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة. وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿قوم لا يعقلون﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم [2] ﴿كمثل الذين من قبلهم﴾ أى مثلهم كمثل أهل بدر فى زمان قريب. فإن قلت: بم انتصب ﴿قريبا﴾؟ قلت: بمثل، على: كوجود مثل أهل بدر قريبا ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. من قولهم كلأ وبيل: وخيم سيئ العاقبة، يعنى ذاقوا عذاب القتل فى الدنيا ﴿ولهم﴾ فى الآخرة عذاب النار. مثل المنافقين فى إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم ﴿كمثل الشيطان﴾ إذا استغوى الإنسان [3] بكيده ثم تبرأ منه فى العاقبة، والمراد استغواؤه قريشا يوم بدر، وقوله لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم، إلى قوله: إنى برىء منكم. وقرأ ابن مسعود: خالدان فيها، على أنه خبر أنّ، و(فى النار) لغو. وعلى القراءة المشهورة: الظرف مستقر، وخالدين فيها: حال. وقرئ: أنا برىء. وعاقبتهما بالرفع.

---

(١) قوله «دون أن يصحروا لكم» فى الصحاح «أصحر الرجل»: خرج إلى الصحراء اه. (ع)

(٢) قوله «ويعين على أرواحهم» كذا عبارة النسفى أيضا. (ع)

(٣) قوله «إذا استغوى الانسان» لعله: إذ، كعبارة النسفى. (ع)

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَـٰهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾

كرر الأمر بالتقوى تأكيدا : واتقوا الله فى أداء الواجبات : لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا الله فى ترك المعاصى لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد . والغد : يوم القيامة ، سماه باليوم الذى يلى يومك تقريبا له [(١)] وعن الحسن : لم يزل يقربه حتى جعله كالغد . ونحوه قوله تعالى (كأن لم تغن بالأمس) يريد : تقريب الزمان الماضى . وقيل : عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران : يوم وغد . فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة ، كأنه قال فلتنظر نفس واحدة فى ذلك . وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه . وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، ربحنا ما قدمنا . خسرنا ما خلفنا ﴿نسوا الله﴾ نسوا حقه ، فجعلهم ناسين حق أنفسهم بالخذلان [(٢)] ، حتى لم يسعوا لها بما ينفعهم عنده . أو فأراهم يوم القيامة من الأهوال ما نسوا فيه أنفسهم ، كقوله تعالى (لا يرتد إليهم طرفهم) .

لَا يَسْتَوِى أَصْحَـٰبُ النَّارِ وَأَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم فى العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز مع أصحاب الجنة ؛ فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه : هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبهه بذلك على حق الأبوة الذى يقتضى البر والتعطف.

---

(١) قال محمود : «سمى يوم القيامة غدا تقريبا له ... الخ» قال أحمد : وقد قيل فى قوله تعالى (علمت نفس ما أحضرت) كقوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) حتى قيل : إنه من عكس الكلام الذى يقصد به الافراط فيما يعكس عنه ، كقوله (ربما يود الذين كفروا) فمعنى رب ههنا هو معنى كم ، وأبلغ منه قول القائل :

« قد أترك القرن مصفرا أنامله » إلا أن الزمخشرى فر من هذا المعنى ، لأن الواقع قلة النفوس الناظرة فى أمر المعاد ، فنزله على معنى يطابق الواقع ، ويمكن أن يلاحظ الأمر فيسوغ حمله على التكثير للنفوس المأمورات بالنظر فى المعاد ، وأنه ما من نفس إلا ومن حقها أن تمتثل هذا الأمر ، وهو نظر حسن ؛ فان الفعل المسند إلى النفس ههنا ليس وقوع النظر حتى يستقل ، وإنما هو طلب النظر وهو عام التعلق بكل نفس . والانصاف : أن ما ذكره الزمخشرى أمكن وأحسن ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «جعلهم ناسين بالخذلان» قال أحمد : بل خلق فيهم النسيان .

وقد استدل أصحاب الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر ، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَـلٍ لَرَأَيْتَهُ خَـٰشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢)

هذا تمثيل وتخييل [1] ، كما مرّ في قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة) وقد دل عليه قوله (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره . وقرئ : مصدّعا على الإدغام ﴿وتلك الأمثال﴾ إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل .

هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَـٰمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَـٰلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)

﴿الغيب﴾ المعدوم ﴿والشهادة﴾ الموجود المدرك كأنه يشاهده . وقيل : ما غاب عن العباد وما شاهدوه . وقيل : السر والعلانية . وقيل : الدنيا والآخرة ﴿القدوس﴾ بالضم والفتح - وقد قرئ بهما - البليغ في النزاهة عما يستقبح . ونظيره : السبوح ، وفي تسبيح الملائكة : سبوح قدوس رب الملائكة والروح . و﴿السلام﴾ بمعنى السلامة . ومنه (دار السلام) و(سلام عليكم) وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النقائص . أو في إعطائه السلامة ﴿والمؤمن﴾ واهب الأمن . وقرئ بفتح الميم بمعنى المؤمن به على حذف الجار ، كما تقول في قوم موسى من قوله تعالى (واختار موسى قومه) المختارون بلفظ صفة السبعين . و﴿المهيمن﴾ الرقيب على كل شيء ، الحافظ له ، مفيعل من الأمن ؛ إلا أن همزته قلبت هاء . و ﴿الجبار﴾ القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد، أي أجبره . و ﴿المتكبر﴾ البليغ الكبرياء والعظمة . وقيل : المتكبر عن ظلم عباده . و ﴿الخالق﴾ المقدر لما يوجده ﴿والبارئ﴾ المميز بعضه من بعض بالأشكال

(١) قال محمود : «هذا تخييل وتمثيل كما تقدم الخ» قال أحمد : وهذا مما تقدم إنكاري عليه فيه ، أفلا كان يتأدب بأدب الآية : حيث سمى الله هذا مثلا ولم يقل : وتلك الخيالات نضربها للناس ، ألهمنا الله حسن الأدب معه والله الموفق .

المختلفة. و﴿المصور﴾ الممثل. وعن حاطب بن أبى بلتعة أنه قرأ: البارئ المصوَّر، بفتح الواو ونصب الراء، أى: الذى يبرأ المصوَّر أى: يميز مايصوره بتفاوت الهيئات. وقرأ ابن مسعود: وما فى الأرض.

عن أبى هريرة رضى الله عنه: سألت حبيبى صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته»[١] فأعدت عليه فأعاد علىّ. فأعدت عليه فأعاد علىّ. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٢]

سورة الممتحنة

مدنية، وهى ثلاث عشرة آية[٣] [نزلت بعد الأحزاب]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)

---

(١) أخرجه الثعلبي من رواية على بن رزيق عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عنه. وفى الواحدى من حديث ابن عباس رفعه «اسم الله الأعظم فى ست آيات من آخر سورة الحشر».

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس بهذا.

(٣) قوله «مدنية وهى ثلاث عشرة آية» لفظ مكية ومدنية ساقط من النسخة المنقول منها، ولعله من سهو الناسخ. وفى المصاحف وفى كتب التفسير: أنها مدنية، ولذا وضعناه فى هذه النسخة كما ترى، ثم رأيت فى بعض المصاحف أنها مكية، لكن آياتها وسبب نزولها يفيدان أنها مدنية. فليحرر. (ع)

روى أن مولاة لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها سارة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتجهز للفتح ، فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا . قال : أفمهاجرة جئت ؟ قالت : لا . قال : فما جاء بك ؟ قالت : كنتم الأهل والموالى والعشيرة ، وقد ذهبت الموالى ، تعنى : قتلوا يوم بدر ، فاحتجت حاجة شديدة [1] فحث عليها بنى عبدالمطلب فكسوها وحملوها وزودوها ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وكساها برداً ، واستحملها كتاباً إلى أهل مكة نسخته : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة ، اعلموا أنّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وعماراً وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد ـ وكانوا فرساناً ـ وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها ، فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع فقال على رضى الله عنه : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ، وسل سيفه ، وقال : أخرجي الكتاب أو تضعى رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة : هي أحدهم [2] ، فاستحضر رسول الله حاطباً وقال :

---

(١) هكذا ذكره الثعلبي والبغوي والواحدي بغير إسناد . وفيه مخالفة شديدة لما في الصحيحين وهو مخرج فيهما من طريق عبدالله بن أبي رافع عن على ومن طريق أبي عبدالرحمن السلمي عن على . وفي رواية لابن حبان عن على خرجت أنا والزبير وطلحة والمقداد ، وأخرجه ابن إسحاق في السيرة قال : حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا . قال ولما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم السير إلى مكة كتب حاطب ابن أبي بلتعة إلى قريش كتابا يخبرهم فيه بأمره ، ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة . وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا . فجعلته في رأسها . ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما فعل حاطب، فذكر القصة ، وذكر الواقدي من طريق يزيد بن رومان ، وسماها كنود وذكر أن الجعل كان عشرة دنانير . وروى الطبري وابن أبي حاتم وأبو يعلى من طريق أبي البختري عن الحرث عن على قال ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة . فيهم حاطب ابن أبي بلتعة : وأفشى في الناس أنه يريد خيبر ـ فكتب حاطب ـ فذكره، وفيه فأخرجته من قبلها .

(٢) هكذا رواه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق الحاكم بن عبدالملك عن قتادة عن أنس . وسماهم : عبدالعزيز بن حنظل ، ومقيس بن صبابة ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وأم سارة مولاة لقريش ولفظه قريب من لفظ الكتاب وفي الدارقطني من طريق عمر بن عثمان بن عبدالرحمن بن سعيد المخزومي عن أبيه عن جده قال «أمن رسول الله صلى عليه وسلم الناس إلا أربعة وسماهم ، إلا أنه قال «الحويرث بن نقيذ وسارة» وذكره ابن إسحاق بغير إسناد فذكر الخمسة ، وقال فيه : وسارة مولاة لبعض بني عبدالمطلب» ورواه الدارقطني أيضا والحاكم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه ، وجعل عوض سارة عكرمة بن أبي جهل . وقال الواقدي في المغازي ، وتبعه ابن سعد «أمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بقتل ستة نفر وأربع نسوة : عكرمة وهبار بن الأسود ، وعبدالله بن حنظل وابن أبي سرح ، ومصعب بن صبابة . والحويرث بن نقيل ، وهند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمر بن هاشم ومرينا ومرينة . فقتل منهم ابن حنظل ومقيسا والحويرث» .

ماحملك عليه؟ فقال: يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم؛ ولكنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش. وروى: عزيزاً فيهم، أى: غريباً، ولم أكن من أنفسها، وكل من معكم من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيرى، فخشيت على أهلى، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله تعالى ينزل عليهم بأسه. وأن كتابى لايغنى عنهم شيئاً. فصدقه وقبل عذره، فقال عمر: دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؛ فقال: «ومايدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ماشئتم فقدغفرت لكم» ففاضت عينا عمر وقال: اللهورسولهأعلم، فنزلت. عدى «اتخذ» إلى مفعوليه، وهما عدوى، أولياء. والعدو: فعول، من عدا؛ كعفو من عفا؛ ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. فإن قلت: ﴿تلقون﴾ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يتعلق بلاتتخذوا حالا من ضميره: وبأولياء صفة له. ويجوز أن يكون استئنافا. فإن قلت: إذا جعلته صفة لأولياء وقد جرى على غير من هوله، فأين الضمير البارز وهو قولك: تلقون إليهم أنتم بالمودة؟ قلت: ذلك إنما اشترطوه فى الأسماء دون الأفعال، لوقيل: أولياء ملقين إليهم بالمودة على الوصف. لما كان بد من الضمير البارز: والإلقاء عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم: يقال ألقى إليه خراشى صدره[1]، وأفضى إليه بقشوره. والباء فى ﴿بالمودة﴾ إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها فى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف، معناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التى بينكم وبينهم. وكذلك قوله (تسرون إليهم بالمودة) أى: تفضون إليهم بمودتكم سراً. أو تسرون إليهم إسرار رسول الله بسبب المودة. فإن قلت: ﴿وقد كفروا﴾ حال مماذا؟ قلت: إما من (لاتتخذوا) وإما من (تلقون) أى: لاتتولوهم أو توادونهم وهذه حالهم. و﴿يخرجون﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم. أو حال من كفروا. و﴿أن تؤمنوا﴾ تعليل ليخرجون، أى يخرجونكم لإيمانكم. و﴿إن كنتم خرجتم﴾ متعلق بلا تتخذوا، يعنى: لاتتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى. وقول النحويين فى مثله: هو شرط جوابه محذوف لدلالة ماقبله عليه. و﴿تسرون﴾ استئناف، ومعناه: أى طائل لكم فى إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان فى علمى لاتفاوت بينهما، وأنا مطلع رسولى على ماتسرون ﴿ومن يفعله﴾ ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وقرأ الجحدرى: لما جاءكم، أى: كفروا لأجل ماجاءكم، بمعنى: أن ما كان يجب

---

(١) قوله «يقال ألقى إليه خراشى صدره» فى الصحاح «الخرشاء» مثل الحرباء: جلد الحية وقشرة البيضة بعد أن يخرج ماقبلها، ثم يشبه به كل شىء فيه انتفاخ وتفتق كالرغوة، وقد يسمى البلغم خراشاء. يقال: ألقى خراشى صدره، اه. (ع)

أن يكون سبب إيمانهم جعلوه سبباً لكفرهم . ﴿إن يثقفوكم﴾ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يكونوا لكم أعداء﴾ خالصى العداوة ، ولايكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ بالقتال والشتم ، وتمنوا لو ترتدون عن دينكم ، فإذن موده أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم ونحوه قوله تعالى (لايألونكم خبالا) فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال ﴿وودّوا﴾ بلفظ الماضى ؟ قلت : الماضى وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الإعراب ، فإن فيه نكتة ، كأنه قيل : وودّوا قبل كل شىء كفركم وارتدادكم ، يعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً : من قتل الأنفس ، وتمزيق الأعراض ، وردّكم كفارا ؛ وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأوّلها ؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذّالون لها دونه ، والعدو أهم شىء عنده أن يقصد أعز شىء عند صاحبه .

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

﴿لن تنفعكم أرحامكم﴾ أى قراباتكم ﴿ولا أولادكم﴾ الذى توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم ، ثم قال ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ وبين أقاربكم وأولادكم (يوم يفرّ المرء من أخيه ... الآية) فمالكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرّ منكم غدا : خطأ رأيهم فى موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أوّلا ، ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاة ثانيا ؛ ليريهم أن ما أقدموا عليه من أى جهة نظرت فيه وجدته باطلا . قرئ : يُفصَل ويُفصَّل ، على البناء للمفعول . ويَفصِل ويُفصِّل ، على البناء للفاعل وهو الله عزّ وجل . ونفصل ونفصّل ، بالنون .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)

وقرئ . أسوة وإسوة . وهو اسم المؤتسى به ، أى كان فيهم مذهب حسن مرضى بأن يؤتسى به ويتبع أثره ، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفوهم بالعداوة وقشروا لهم العصا ، وأظهروا البغضاء والمقت ، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله ؛ وما دام هذا السبب قائما كانت العداوة قائمة ، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء محبة ، والمقت مقة [١] ، فأفصحوا عن محض الإخلاص . ومعنى ﴿كفرنا بكم﴾ وبما تعبدون من دون الله : أنا لا نعتدّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم ، وما أنتم عندنا على شيء . فإن قلت : مم استثنى قوله ﴿إلا قول إبراهيم﴾ ؟ قلت : من قوله (أسوة حسنة) لأنه أراد بالأسوة الحسنة : قولهم الذى حق عليهم أن يأتسوا به ويتخذونه سنة يستنون بها . فإن قلت : فإن كان قوله ﴿لأستغفرنّ لك﴾ مستثنى من القول الذى هو أسوة حسنة ، فما بال قوله ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ وهو غير حقيق بالاستثناء . ألا ترى إلى قوله (قل فمن يملك من الله شيئا) ؟ قلت : أراد استثناء جملة قوله لأبيه ، والقصد إلى موعد الاستغفار له ، وما بعده مبنىّ عليه وتابع له ، كأنه قال : أنا أستغفر لك وما فى طاقتى إلا الاستغفار . فإن قلت : بم اتصل قوله ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ ؟ قلت : بما قبل الاستثناء ، وهو من جملة الأسوة الحسنة . ويجوز أن يكون المعنى : قولوا ربنا ، أمراً من الله تعالى المؤمنين بأن يقولوه ، وتعليما منه لهم تتميما لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار ، والائتساء بإبراهيم وقومه فى البراءة منهم ، وتنبيهاً على الإنابة إلى الله والاستعاذة به من فتنة أهل الكفر ، والاستغفار مما فرط منهم . وقرئ : برآء كشركاء . وبراء كظراف . وبراء على إبدال الضم من الكسر ، كرخال ورباب . وبراء [٢] على الوصف بالمصدر . والبراء والبراءة كالظماء والظماءة .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

ثم كرّر الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه تقريراً وتأكيداً عليهم ، ولذلك جاء به مصدراً بالقسم لأنه الغاية فى التأكيد ، وأبدل عن قوله ﴿لكم﴾ قوله ﴿لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر﴾ وعقبه بقوله ﴿ومن يتول فإنّ الله هو الغنىّ الحميد﴾ فلم يترك نوعا من التأكيد إلا جاء به .

(١) قوله «والمقت مقة» أى : محبة . (ع)

(٢) قوله «كرخال ورباب» فى الصحاح : الرخل ـ بكسر الخاء ـ : الأنثى من أولاد الضأن . والذكر حمل ، والجمع رخال ورخال أيضاً بالضم . وفيه أيضاً : «الربى» بالضم على فعلى : الشاة التى وضعت حديثا . وجمعها رباب بالضم . (ع)

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾

ولما نزلت هذه الآيات : تشدّد المؤمنون فى عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم ، فلما رأى الله عز وجل منهم الجدّ والصبر على الوجه الشديد وطول التمنى للسبب الذى يبيح لهم الموالاة والمواصلة : رحمهم فوعدهم تيسير ما تمنوه ، فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم ، فأسلم قومهم ، وتمّ بينهم من التحاب والتصافى ما تمّ . وقيل : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ، فلانت عند ذلك عريكة أبى سفيان واسترخت شكيمته فى العداوة ، وكانت أم حبيبة قد أسلمت وهاجرت مع زوجها عبد الله بن أبى جحش إلى الحبشة ، فتنصر وأرادها على النصرانية ، فأبت وصبرت على دينها ، ومات زوجها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى فخطبها عليه [1] ، وساق عنه إليها مهرها أربعمائة دينار ، وبلغ ذلك أباها فقال : ذلك الفحل لا يقدع أنفه [2] . و﴿عسى﴾ وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون فى بعض الحوائج : عسى أو لعل : فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك . أو قصد به إطماع المؤمنين، والله قدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿والله غفور رحيم﴾ لمن أسلم من المشركين .

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

(١) هكذا ذكره الثعلبى بغير سند . ومجموعه مفرق فى أحاديث . وروى أبو داود والحاكم من رواية الزهرى عن عروة عن أم حبيبة «أنها كانت تحت عبد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة . فزوجها النجاشى النبي صلى الله عليه وسلم وأمهرها عنه أربعة آلاف . وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة» وروى الحاكم عن الزهرى قال «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان . وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش الأسدى . وكان قد هاجر بها من مكة إلى الحبشة ثم افتتن وتنصر ومات نصرانيا وأثبت الله الاسلام لأم حبيبة حتى رجعت إلى المدينة فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه عثمان بن عفان» قال الزهرى وزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى النجاشى فزوجها إياه وساق عنه أربعين أوقية» وروى الواقدى فى المغازى ومن طريقه الحاكم من رواية جعفر بن محمد عن أبيه قال «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية إلى النجاشى خطب عليه أم حبيبة ، وأصدقها من عنده أربعمائة دينار» قال الواقدى : حدثنى عبد الله بن جعفر عن عبد الواحد بن أبى عون قال : لما بلغ أبا سفيان بن حرب نكاح النبي صلى الله عليه وسلم ابنته قال : ذاك الفحل لا يقدع أنفه» وقال أبو نعيم فى الدلائل «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان وأصدقها عنه أربعمائة دينار ، وبعث بها إليه» وقال : وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة بعد رجوعه من خيبر ولا أعلم فى ذلك خلافا» .

(٢) قوله «ذلك الفحل لا يقدع أنفه» أى لا يضرب أنفه ولا يكف وذلك لكونه كريما . أفاده الصحاح . (ع)

أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

﴿أن تبروهم﴾ بدل من الذين لم يقاتلوكم. وكذلك (أن تولوهم) من الذين قاتلوكم: والمعنى: لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء، وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء. وهذا أيضاً رحمة لهم لتشدّدهم وجدّهم فى العداوة متقدّمة لرحمته بتيسير إسلام قومهم، حيث رخص لهم فى صلة من لم يجاهر منهم بقتال المؤمنين وإخراجهم من ديارهم. وقيل: أرادبهم خزاعة وكانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه. وعن مجاهد: هم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا. وقيل: هم النساء والصبيان. وقيل قدمت على أسماء بنت أبى بكر أمّها قتيلة بنت عبد العزى وهى مشركة بهدايا فلم تقبلها ولم تأذن لها فى الدخول، فنزلت، فأمرها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن إليها [1]. وعن قتادة: نسختها آية القتال ﴿وتقسطوا إليهم﴾ وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم. وناهيك بتوصية الله المؤمنين أن يستعملوا القسط مع المشركين به ويتحاموا ظلمهم، مترجمة عن حال مسلم يجترئ على ظلم أخيه المسلم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

---

(١) أخرجه الحاكم من طريق المبارك عن مصعب بن ثابت عن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده قال «قدمت قتيلة بنت عبدالعزى على ابنتها أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما . وكان أبو بكر طلقها» فذكره وساقه أتم . ومن هذا الوجه أحمد والبزار وأبوداود وأبويعلى والطبرى والطبرانى وابن أبى حاتم وغيرهم . وحديث أسماء فى الصحيحين عن عروة عنها بغير هذا السياق .

﴿إذا جاءكم المؤمنات﴾ سماهنّ مؤمنات لتصديقهنّ بألسنتهنّ ونطقهنّ بكلمة الشهادة ولم يظهر منهنّ ما ينافي ذلك. أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿فامتحنوهن﴾ فابتلوهن بالحلف والنظر فى الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة: «بالله الذى لا إله إلا هو ما خرجت من بغض زوج، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، بالله ما خرجت التماس دنيا، بالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله» [1] ﴿الله أعلم بإيمانهن﴾ منكم لأنكم لا تكسبون فيه علما تطمئن معه نفوسكم، وإن استحلفتموهن ورزتم أحوالهن، وعند الله حقيقة العلم به ﴿فإن علمتموهن مؤمنات﴾ العلم الذى تبلغه طاقتكم وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين، لأنه لا حل بين المؤمنة والمشرك [2] ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ وأعطوا أزواجهنّ مثل ما دفعوا إليهنّ من المهور، وذلك أن صلح الحديبية كان على أن من

---

(١) أخرجه الطبرانى والطبرى من رواية الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن أبى بهز الأسدى. قال سئل ابن عباس - فذكره أتم سياقا منه. قال البزار لا نعلمه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مرسلا.

(٢) قال محمود: «معناه لا حل بين المؤمنة والمشرك» قال أحمد: هذه الآية مما استدل بها على خطاب الكفار بالفروع لأنه تعالى قال (لاهن حل لهم) والضمير الأول للمؤمنات، والثانى للكفار، والمراد به يحرمن على الكفار لأن قسيمه متفق على أن المراد به تحريم الكفار على المؤمنات، فيكون كل من القبيلين المؤمنات والكفار مخاطبا بالحرمة، ولما كان المذهب المعزى إلى أصحاب أبى حنيفة أن الكفار غير مخاطبين سلك الزمخشرى بتفسير الآية مايوافق ذلك، فحملها على أن المراد نفى الحل بين المؤمنة والكافر على الاجمال، حتى لا يتمحض نسبة الحرمة إلى الكافر، وهذا لا متخلص فيه؛ فان الحل المنفى بين المؤمنة والكافر إلى الحرمة، لابد وأن يتعلق بفعل أحدهما أو كليهما، إذ هو حكم فان تعلق بفعل كل واحد منهما أعنى التمكين من المرأة والفعل من الرجل: تحقق خطاب الكافر بالحرمة؛ وتعليقه بفعل المرأة دون فعل الرجل: يأباه نظم الآية، فانه نفى الحل من الجهتين جميعاً ولو كان كذلك، لكفى قوله (ولاهم يحلون لهن) والتحقيق الممتحن على قواعد الأصول: هو ما نذكره إن شاء الله تعالى فنقول: كل من فعلى المؤمنة والكافر ينفى عنه الحل بالتفسير اللائق؛ فأما فعل المؤمنة وهو التمكين فلا شك فى تعلق الحرمة للشرع. باعتبار أنها مخاطبة بأن لا يحصل فى الوجود على وجه لو حصل لكانت متوعدة على حصوله وأما فعل الكافر وهو الوطء مثلا، فنفى حله باعتبار أن الشرع قصد إلى أن لا يحصل الوطء، لما يشتمل عليه من المفسدة، وللشرع قصد فى أن لا تقع المفاسد، وليس الكافر مورداً للخطاب، ولكن الأئمة مثلا أو من يقوم مقامهم. مخاطبون بأن يمنعوا الكافر كى لا يقع هذا الفعل المنطوى على المفسدة فى نظر الشرع، فكلا الفعلين إذاً من جانب المرأة والرجل غرض فى أن لا يقع، لكن مورد الخطاب المنطوى على السلامة من المفسدة فى حق المرأة هى وفى حق الكافر الأئمة مثلا، ويتفق المختلفون فيه فى خطاب الكفار على أن للشرع غرضا فى أن لا تحصل المفاسد فى الوجود. ألا ترى أن الكافر إذا جهر بالفساد بين المسلمين يتفق على وجوب ردعه عن ذلك ومنعه عنه، وما ذاك إلا لما فهم عن الشرع من طلب سلامة الوجود عن المفاسد، ومورد الخطاب بردع الكافر كى لا يجهر بالفساد يعم الأئمة، والله الموفق.

أتاكم من أهل مكة ردّ إليهم، ومن أتى منكم مكة لم يردّ إليكم؛ وكتبوا بذلك كتابا وختموه، فجاءت سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة والنبي صلى الله عليه وسلم بالحديبية، فأقبل زوجها مسافر المخزومي. وقيل صيفي بن الراهب فقال: يا محمد، اردد علىّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف، فنزلت بيانا لأن الشرط إنما كان فى الرجال دون النساء.[1] وعن الضحاك: كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد: أن لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا. فإن دخلت فى دينك ولها زوج أن تردّ على زوجها الذى أنفق عليها، وللنبي صلى الله عليه وسلم من الشرط مثل ذلك. وعن قتادة: ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد براءة، فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها عمر. فإن قلت: كيف سمى الظنّ علما فى قوله (فإن علمتموهن)؟ قلت: إيذانا بأن الظن الغالب وما يفضى إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم، وأن صاحبه غير داخل فى قوله (ولا تقف ما ليس لك به علم) فإن قلت: فما فائدة قوله (الله أعلم بإيمانهن) وذلك معلوم لا شبهة فيه؟ قلت: فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن، فإنّ ذلك مما استأثر به علام الغيوب، وأن ما يؤدى إليه الامتحان من العلم كاف فى ذلك، وأن تكليفكم لا يعدوه؛ ثم نفى عنهم الجناح فى تزوج هؤلاء المهاجرات إذا آتوهنّ أجورهنّ أى مهورهنّ، لأن المهر أجر البضع، ولا يخلو إما أن يراد بها ما كان يدفع إليهنّ ليدفعنه إلى أزواجهنّ فيشترط فى إباحة تزوجهنّ تقديم أدائه، وإما أن يراد أن ذلك إذا دفع إليهنّ على سبيل القرض ثم تزوجن على ذلك لم يكن به بأس، وإما أن يبين لهم أن ما أعطى أزواجهنّ لا يقوم مقام المهر وأنه لابد من إصداق، وبه احتج أبو حنيفة على أن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلما أو بذمة وبقى الآخر حربيا: وقعت الفرقة، ولا يرى العدة على المهاجرة ويبيح نكاحها إلا أن تكون حاملا ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب. يعنى: إياكم وإياهنّ، ولا تكن بينكم وبينهنّ عصمة ولا علقة زوجية. قال ابن عباس: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدنّ بها من نسائه، لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. وعن النخعى: هى المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهد: أمرهم بطلاق الباقيات مع الكفار ومفارقتهن ﴿واسئلوا ما أنفقتم﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ﴿وليسئلوا ما أنفقوا﴾ من مهور نسائهم المهاجرات. وقرئ: ولا تمسكوا بالتخفيف. ولا تمسكوا بالتثقيل. ولا تمسكوا. أى: ولا تتمسكوا ﴿ذلكم حكم الله﴾ يعنى جميع ما ذكر فى هذه الآية ﴿يحكم بينكم﴾ كلام مستأنف. أو حال من حكم الله على

(١) هكذا ذكره البغوى عن ابن عباس بغير سند.

حذف الضمير ، أي : يحكمه الله . أو جعل الحكم حاكما على المبالغة . روى أنها لما نزلت هذه الآية أدى المؤمنون ما أمروا به من أداء مهور المهاجرات إلى أزواجهن المشركين ، وأبى المشركون أن يؤدوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله ﴿وإن فاتكم﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم ﴿شيء﴾ من أزواجكم : أحد منهن إلى الكفار ، وهو فى قراءة ابن مسعود : أحد . فإن قلت : هل لإيقاع شيء فى هذا الموقع فائدة ؟ قلت : نعم ، الفائدة فيه : أن لا يغادر شيء من هذا الجنس وإن قل وحقر ، غير معوض منه تغليظا فى هذا الحكم وتشديداً فيه ﴿فعاقبتم﴾ من العقبة وهى التوبة : شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره . ومعناه : فجاءت عقبتكم من أداء المهر ، فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثل مهرها من مهر المهاجرة ، ولا تؤتوه زوجها الكافر ، وهكذا عن الزهري : يعطى من صداق من لحق بهم . وقرئ : فأعقبتم . فعقبتم بالتشديد . فعقبتم بالتخفيف ، بفتح القاف وكسرها ، فمعنى أعقبتم : دخلتم فى العقبة ، وعقبتم : من عقبه إذا قفاه ، لأن كل واحد من المتعاقبين يقفى صاحبه ، وكذلك عقبتم بالتخفيف ، يقال : عقبه يعقبه . وعقبتم نحو تبعتم . وقال الزجاج : فعاقبتم فأصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم ، والذى ذهبت زوجته كان يعطى من الغنيمة المهر ، وفسر غيرها من القراآت فكانت العقبى لكم ، أى : فكانت الغلبة لكم حتى غنمتم . وقيل : جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين راجعة عن الإسلام ست نسوة : أم الحكم بنت أبى سفيان كانت تحت عياض بن شداد الفهري . وفاطمة بنت أبى أمية كانت تحت عمر بن الخطاب وهى أخت أم سلمة ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن نضلة وزوجها عمرو بن عبد ود ، وهند بنت أبى جهل كانت تحت هشام بن العاص . وكلثوم بنت جرول كانت تحت عمر ، فأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة .[1]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

(١) هكذا ذكره الثعلبى ثم البغوى عن ابن عباس بلا إسناد .

﴿ولا يقتلن أولادهنّ﴾ وقرئ: يقتلن، بالتشديد، يريد: وأد البنات ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهنّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدى منك. كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذبا، لأنّ بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ﴿ولا يعصينك فى معروف﴾ فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهاهنّ عنه من المقبحات. وقيل: كل ما وافق طاعة الله فهو معروف. فإن قلت: لو اقتصر على قوله (ولا يعصينك) فقد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بمعروف؟ قلت: نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق فى معصية الخالق جديرة بغاية التوقى والاجتناب. وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال: أخذ فى بيعة النساء وهو على الصفا [1] وعمر بن الخطاب رضى الله عنه أسفل منه يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها [2] فقال عليه الصلاة والسلام: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا فرفعت هند رأسها وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام وإنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيناك أخذته على الرجال تبايع الرجال على الإسلام والجهاد، فقال عليه الصلاة والسلام: و«لا يسرقن» [3] فقالت: إنّ أبا سفيان رجل شحيح، وإنى أصبت من ماله هنات، فما أدرى، أتحل لى أم لا. فقال أبو سفيان: ما أصبت من شىء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك. فقال: «ولا يزنين»: فقالت: أو تزنى الحرة؟ وفى رواية: ما زنت منهن امرأة قط، فقال عليه الصلاة والسلام «ولا يقتلن أولادهن» فقالت: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ولا يأتين ببهتان» فقالت: والله إنّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصينك فى معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء. وقيل فى كيفية

(١) لم أره بسياقه لكن أخرجه الطبرى بمعناه وأخص منه من طريق العوفى عن ابن عباس. وأخرجه ابن أبى حاتم من طريق مقاتل بن حيان. وفيه قول هند: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، فضحك عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى استلقى.

(٢) قوله «خوفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرفها» لما صنعت بحمزة، كذا فى النسفى، وذلك فى غزوة أحد. (ع)

(٣) قوله «فقال عليه السلام ولا يسرقن» فى النسفى قبل هذا: فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا. (ع)

المبايعة : دعا بقدح من ماء فغمس فيه يده ، ثم غمسن أيديهن[١] . وقيل صافحهن وكان على يده ثوب قطرى[٢] . وقيل كان عمر يصافحهن عنه[٣]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

روى أنّ بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم[٤] . فقيل لهم ﴿لا تتولوا قوما﴾ مغضوباً عليهم ﴿قد يئسوا﴾ من أن يكون لهم حظ فى الآخرة لعنادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت فى التوراة ﴿كما يئس الكفار﴾ من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء . وقيل ﴿من أصحاب القبور﴾ بيان للكفار ، أى : كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة ؛ لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة »[٥] .

---

(١) أخرجه ابن سعد عن الواقدى عن أسامة بن زيد عن عمرو بن شعيب نحوه ، وله شاهد فى الطبرانى عن عروة بن مسعود ، وآخر فى تاريخ أصبهان لأبى نعيم فى حرف الحاء من حديث أسماء بنت يزيد .

(٢) رواه أبو داود فى المراسيل عن الشعبى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بايع النساء أتى ببرد قطرى فوضعه على يده . وقال : لا أصافح النساء» وروى عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن إبراهيم النخعى قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصافح النساء على يده ثوب قطرى» .

(٣) أخرجه ابن حبان والطبرانى والبزار وأبو يعلى والطبرى وغيرهم من حديث أم عطية قالت «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أمر نساء الأنصار فجمعهن فى بيت ثم أرسل إلينا عمر . فجاء عمر فسلم ـ فذكر القصة ـ وفيها : ثم مد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت .

(٤) قال محمود «كان طائفة من ضعفاء المسلمين قد والوا اليهود ليصيبوا من أثمارهم ، فنزلت هذه الآية ، والمراد بالكفار المشركون ... الخ» قال أحمد : قد كان الزمخشرى ذكر فى قوله (وما يستوى البحران) إلى قوله (ومن كل تأكلون لحما طريا) أن آخر الآية استطراد ، وهو فن من فنون البيان مبوب عليه عند أهله ، وآية الممتحنة هذه ممكنة أن تكون من هذا الفن جدا ، فانه ذم اليهود واستطرد ذمهم بذم المشركين على نوع حسن من النسبة ، وهذا لا يمكن أن يوجد للفصحاء فى الاستطراد أحسن ولا أمكن منه ، ومما صدروا هذا الفن به قوله :

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه ... فليس به بأس وإن كان من جرم

وقوله :

إن كنت كاذبة التى حدثتنى ... فنجوت منجى الحرث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

(٥) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة الصف

مدنية ، وآياتها ١٤ [نزلت بعد التغابن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)

﴿ لم ﴾ هى لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر فى قولك : بم ، وفيم ، ومم ، وعم ، وإلام ، وعلام . وإنما حذفت الألف ؛ لأن ما والحرف كشىء واحد ، ووقع استعمالها كثيراً فى كلام المستفهم ؛ وقد جاء استعمال الأصل قليلا والوقف على زيادة هاء السكت أو الإسكان ، ومن أسكن فى الوصل فلإجرائه مجرى الوقف ، كما سمع : ثلاثة ، أربعة : بالهاء وإلقاء حركة الهمزة عليها محذوفة . وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلاف الموعد . وروى أنّ المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلهم الله تعالى على الجهاد فى سبيله ، فولوا يوم أحد فعيرهم . وقيل : لما أخبر الله بثواب شهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ، ففروا يوم أحد ولم يفوا . وقيل : كان الرجل يقول : قتلت ولم يقتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقيل : كان قد أذى المسلمين رجل ونكى فيهم ، فقتله صهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصهيب : أخبر النبى عليه السلام أنك قتلته ، فقال : إنما قتلته لله ولرسوله ، فقال عمر : يارسول الله قتله صهيب ، قال : كذلك يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فنزلت [1] فى المنتحل . وعن الحسن : نزلت فى المنافقين . ونداؤهم بالإيمان : تهكم بهم

(١) أخرجه الثعلبي من حديث صهيب قال «كان رجل يوم بدر قد آذى المسلمين ونكأ فيهم فقتله صهيب . فقال رجل : يارسول الله قتلت فلانا . ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمرو بن عبد الرحمن صهيب أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ـ الحديث»

وبإيمانهم ؛ هذا من أفصح كلام وأبلغه[١] فى معناه قصد فى ﴿ كبر ﴾ التعجب من غير لفظه كقوله :

* غَلَتْ نَابُ كُلَيْبٌ بَوَاؤُهَا * [٢]

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر فى قلوب السامعين ؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شىء خارج عن نظائره وأشكاله ، وأسند إلى أن تقولوا . ونصب ﴿ مقتاً ﴾ على تفسيره ، دلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لاشوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه ؛ واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه . ومنه قيل : نكاح المقت، للعقد على الرابة[٣]، ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيراً ، حتى جعل أشده وأفحشه . و ﴿ عند الله ﴾ أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك . وعن بعض السلف أنه قيل له : حدثنا ، فسكت ثم قيل له حدثنا؛ فقال : تأمرونى أن أقول مالا أفعل فأستعجل مقت الله. فى قوله ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله ﴾ عقيب ذكر مقت المخلف : دليل [٤] على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات فى قتال الكفار فلم يفوا . وقرأ زيد بن على : يقاتلون بفتح التاء . وقرئ : يقتلون ﴿ صفاً ﴾ صافين أنفسهم أو مصفوفين ﴿ كأنهم ﴾ فى تراصهم من غير فرجة ولا خلل ﴿ بنيان ﴾ رص بعضه إلى بعض ورصف . وقيل : يجوز أن يريد استواء نياتهم فى الثبات حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص . وعن بعضهم : فيه دليل على فضل القتال راجلا ؛ لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة . وقوله ﴿ صفاً كأنهم بنيان ﴾ حالان متداخلتان[٥] .

---

(١) قال محمود : «هذا من أفصح الكلام وأبلغه ، فى معناه قصد إلى التعجب بغير صيغة التعجب لتعظيم الأمر ... الخ» قال أحمد : وزائد على هذه الوجوه الأربعة وجه خامس : وهو تكراره لقوله (مالا تفعلون) وهو لفظ واحد فى كلام واحد ومن فوائد التكرار : التهويل والاعظام ، وإلا فقد كان الكلام مستقلا لو قيل : كبر مقتا عند الله ذلك ، فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة الثانية ، والله أعلم .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٢٧٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «على الرابة» هى بتشديد الباء كالدابة . وفى الصحاح : نكاح المقت كان فى الجاهلية : أن يتزوج الرجل امرأة أبيه اه . (ع)

(٤) قال محمود : «وذكره لهذا عقيب ذكر مقت المخلف دليل ... الخ» قال أحمد : صدق ، والأول كالبسطة العامة لهذه القصة الخاصة ، كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم . ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) فالنهى العام ورد أولا ؛ والمقصود اندراج هذا الخاص فيه كما تقول للمقترف جرما معينا : لاتفعل مايلصق العار بك ولاتشاتم زيدا ، وفائدة مثل هذا النظم : النهى عن الشىء الواحد مرتين مندرجا فى العموم ومفردا بالخصوص ، وهو أولى من النهى عنه على الخصوص مرتين فان ذلك معدود فى حين التكرار ، وهذا يتكرر مع مافى التعميم من التعظيم والتهويل ، والله أعلم .

(٥) قال محمود : «وقوله (صفا كأنهم بنيان مرصوص) : حالان متداخلتان» قال أحمد : يريد أن معنى الأولى مشتمل على معنى الثانية ؛ لأن التراص هيئة للاصطفاف ، والله أعلم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾

﴿وإذ﴾ منصوب بإضمار اذكر . أو : وحين قال لهم ماقال كان كذا وكذا ﴿تؤذوننى﴾ كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه فى نفسه ، وجحود آياته ، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، والتكذيب الذى هو تضييع حق الله وحقه ﴿وقد تعلمون﴾ فى موضع الحال ، أى : تؤذوننى عالمين علماً يقيناً[1] ﴿أنى رسول الله إليكم﴾ وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمى وتوقيرى ، لا أن تؤذونى وتستهينوا بى : لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ، علماً بأن تعظيمه فى تعظيم رسوله ، ولأن من آذاه كان وعيدالله لاحقاً به ﴿فلما زاغوا﴾ عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ بأن منع ألطافه عنهم[2] ﴿والله لايهدى القوم الفاسقين﴾ لايلطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف . فإن قلت : مامعنى (قد) فى قوله (قد تعلمون) ؟ قلت : معناه التوكيد كأنه قال : وتعلمون علما يقينا لاشبهة لكم فيه .

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِي إِسْرَاءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

---

(١) قال محمود : «بين أنهم على عكس الصواب حيث قال : تؤذوننى عالمين ... الخ» قال أحمد : أهل العربية تقول : إن «قد» تصحب الماضى لتقريبه من الحال . ومنه قول المؤذن : قد قامت الصلاة ، وتشتمل المصاحبة للماضى أيضاً على معنى التوقع ، فلذلك قال سيبويه «قد فعل» جواب لما يفعل ، وقال الخليل : هذا الخبر لقوم ينتظرونه ، وأما مع المضارع فانها تفيد التقليل مثل : ربما ، كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، فاذا كان معناها مع المضارع التقليل وقد دخلت فى الآية على مضارع ، فالوجه ـ والله أعلم ـ أن يكون هذا من الكلام الذى يقصدون به الافراط فيما ينعكس عنه ، وتكون «قد» فى هذا المعنى نظيرة «ربما» فى قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) فانها فى هذا الموضع أبلغ من كم فى التكثير ، فلما أوردت «ربما» فى التكثير على عكس معناها الأصلى فى التقليل ، فكذلك إيراد «قد» ههنا لتكثير علمهم ، أى : تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلى فى تقليل الأصل ؛ وعليه : « قد أترك القرن مصفراً أنامله » وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلى ، ولايقال : إن حملها فى الآية على التكثير متعذر ؛ لأن العلم معلوم التعلق لايتكثر ولايتقلل ؛ لأنا نقول : يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية فى نوعه بما يعبر به عن التكثير ، وهو تعبير صحيح . ألا ترى أن قوله (ربما يود الذين كفروا) هو من هذا القبيل ، فان المراد شدة ودهم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لاغير ، والله الموفق .

(٢) قوله «بأن منع ألطافه عنهم» فسر الازاغة بذلك بناء على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لايريد الشر . ومذهب أهل السنة : أنه تعالى يريد الشر والخير ، كما تقرر فى محله . (ع)

قيل : إنما قال : يا بنى إسرائيل ، ولم يقل : يا قوم كما قال موسى ؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه[1] . والمعنى : أرسلت إليكم فى حال تصديق ما تقدمنى ﴿من التوراة﴾ وفى حال تبشيرى ﴿برسول يأتى من بعدى﴾ يعنى : أن دينى التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر . وقرئ : من بعدى ، بسكون الياء وفتحها ، والخليل وسيبويه يختاران الفتح . وعن كعب : أن الحواريين قالوا لعيسى : ياروح الله ، هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم باليسير من العمل . فإن قلت : بم انتصب مصدقا ومبشراً ؟ أبما فى الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم ؟ قلت : بل بمعنى الإرسال ؛ لأن (إليكم) صلة للرسول ، فلايجوز أن تعمل شيئا لأن حروف الجر لاتعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ؛ فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل ، فمن أين تعمل ؟ وقرئ : هذا ساحر مبين .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾

وأى الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذى له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذى هو دعاء عباده إلى الحق : هذا سحر ، لأن السحر كذب وتمويه . وقرأ طلحة بن مصرف : وهو يدعى ، بمعنى يدعى. دعاه وادعاه ، نحو : لمسه والتمسه . وعنه : يدّعى ، بمعنى يدعو ، وهو الله عز وجل .

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾

أصله : يريدون أن يطفؤا كما جاء فى سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيداً له ، لما فيها من معنى الإرادة فى قولك : جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام فى : لاأبالك ، تأكيداً لمعنى الإضافة فى : لا أباك ، وإطفاء نور الله بأفواههم : تهكم بهم فى إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم فى القرآن : هذا سحر . مثلت حالهم بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه ﴿والله متمّ نوره﴾ أى متمّ الحق ومبلغه غايته . وقرئ بالإضافة .

---

(١) قال الزمخشرى : « وإنما قال (يابنى إسرائيل) ولم يقل : ياقوم ؛ لأنه لم يكن له ـ صلوات الله على نبينا وعليه ـ نسب فيهم » قال أحمد : وهذا نظير قوله تعالى (إذ قال لهم شعيب) لأن شعيبا لم يكن من قوم من أرسل إليهم .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

﴿ودين الحق﴾ الملة الحنيفية ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الدين كله﴾ على جميع الأديان المخالفة له ؛ ولعمرى لقد فعل ، فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام . وعن مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض إلا دين الإسلام . وقرئ : أرسل نبيه .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿تنجيكم﴾ قرئ مخففاً ومثقلا . و ﴿تؤمنون﴾ استئناف ، كأنهم قالوا : كيف نعمل ؟ فقال : تؤمنون[1] . وهو خبر فى معنى الأمر ؛ ولهذا أجيب بقوله ﴿يغفر لكم﴾ وتدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا . فإن قلت : لم جيء به على لفظ الخبر ؟ قلت : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين . ونظيره قول

(١) قال محمود : قوله (تؤمنون) استئناف كلام كأنه لما قال الكلام الأول قيل : كيف نفعل ؟ فقيل : تؤمنون ... الخ » قال أحمد : إنما وجه إعراب الفراء بما ذكر ، لأنه لو جعله جوابا لقوله (هل أدلكم) فانكم إن أدلكم على كذا وكذا أغفر لكم ، فتكون المغفرة حينئذ مترتبة على مجرد دلالته إيام على الخير ؛ وليس كذلك ، إنما تترتب المغفرة على فعلهم لما دلهم عليه لا على نفس الدلالة . فلذلك أول (هل أدلكم على تجارة) بتأويل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد حتى تكون المغفرة مترتبة على فعل الإيمان والجهاد لا على الدلالة ، وهذا التأويل غير محتاج إليه ؛ فان حاصل الكلام إذا صار إلى : هل أدلكم أغفر لكم ، التحق ذلك بأمثال قوله تعالى (قل لعبادى الذى آمنوا يقيموا الصلاة) فانه رتب فعل الصلاة على الأمر بها ، حتى كأنه قال ، فانك إن تقل لهم أقيموا يقيموها . وللقائل أن يقول : قد قيل لبعضهم : أقم الصلاة فتركها ؟ فالجواب عنه : أن الأمر الموجه على المؤمن الراسخ فى الإيمان لما كان مظنة لحصول الامتثال ، جعل كالمحقق وقوعه مرتبا عليه ؛ وكذلك مهنا لما كانت دلالة الذين آمنوا على فعل الخير مظنة لامتثالهم . وامتثالهم سببا فى المغفرة محققا : عومل معاملة تحقق الامتثال والمغفرة مرتبين على الدلالة ، والله أعلم .

الداعي : غفر الله لك ، ويغفر الله لك : جعلت المغفرة لقوة الرجاء ، كأنها كانت ووجدت . فإن قلت : هل لقول الفراء أنه جواب (هل أدلكم) وجه ؟ قلت : وجهه أن متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد ؛ فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ؟ فإن قلت : فما وجه قراءة زيد بن علي رضي الله عنهما (تؤمنوا ... وتجاهدوا) ؟ قلت : وجهها أن تكون على إضمار لام الأمر ، كقوله :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إِذَا مَاخِفْتَ مِنْ أَمْرٍ تَبَالاَ [1]

وعن ابن عباس أنهم قالوا : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، فنزلت هذه الآية ، فمكثوا ماشاء الله يقولون : ليتنا نعلم ما هي ، فدلهم الله عليها بقوله (تؤمنون) وهذا دليل على أن (تؤمنون) كلام مستأنف ، وعلى أن الأمر الوارد على النفوس بعد تشوف وتطلع منها إليه : أوقع فيها وأقرب من قبولها له مما فوجئت به ﴿ذلكم﴾ يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خير لكم﴾ من أموالكم وأنفسكم . فإن قلت : مامعنى قوله (إن كنتم تعلمون) ؟ قلت : معناه إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم [2] حينئذ ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم ، فتخلصون وتفلحون ﴿وأخرى تحبونها﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب في الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم ، ثم فسرها بقوله ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾ أي عاجل وهو فتح مكة . وقال الحسن : فتح فارس والروم . وفي (تحبونها) شيء من التوبيخ على محبة العاجل . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وبشر المؤمنين﴾ ؟ قلت : على (تؤمنون) لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم ، وبشر يارسول الله المؤمنين بذلك . فإن قلت : لم نصب من قرأ نصراً من

(١) لأبي طالب . وقيل : للأعشى ، يقول : يارسول الله ، تفد ، أي لتفد ، فحذف لام الدعاء الجازمة للفعل لضرورة الشعر ، وسوغ حذفها قرينة مقام الطلب ؛ وإلا فحروف الجزم كحروف الجر لاتعمل وهي محذوفة إلا شذوذاً ، كما صرح به السكاكي . هذا والحذف في نحو قوله تعالى (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة) أسهل لأن قرينته لفظية ، وهي لفظ (قل) الدال على الطلب . وقيل : هو خبر بمعنى الدعاء ، وخفف بحذف الياء ؛ وقيل : إن ذلك في غير الفواصل والقوافي غير سديد ، أي : فدى الله نفسك بكل نفس إذا خفت تبالا من شيء . والتبال : هو الوبال ، قلبت واوه تاء . ويروى بالجر ، على أنه صفة أمر وليس بجيد .

(٢) قال محمود : «معناه : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم ... الخ» قال أحمد : كأنه يجرى الشرط على حقيقته وليس بالظاهر ؛ لأن علمهم لذلك محقق . إذ الخطاب مع المؤمنين ، والظاهر أنه من وادي قوله (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين) والمقصود بهذا الشرط : التنبيه على المعنى الذي يقتضي الامتثال وإلهاب الحمية للطاعة ، كما تقول لمن تأمره بالانتصاف من عدوه : إن كنت حرا فانتصر ، تريد أن تثير منه حمية الانتصار لاغير ، والله أعلم .

الله وفتحاً قريباً ؟ قلت : يجوز أن ينصب على الاختصاص . أو على تنصرون نصرا ، ويفتح لكم فتحاً . أو على : يغفر لكم ويدخلكم جنات ، ويؤتكم أخرى نصراً من الله وفتحاً .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوٓا أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

قرىء : كونوا أنصار الله وأنصاراً لله . وقرأ ابن مسعود : كونوا أنتم أنصار الله . وفيه زيادة حتم للنصرة عليهم . فإن قلت : ماوجه صحة التشبيه ـ وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى صلوات الله عليه : ﴿من أنصارى إلى الله﴾[1] ؟ قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح . والمراد : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم (من أنصارى إلى الله) . فإن قلت : ما معنى قوله (من أنصارى إلى الله) ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين ﴿نحن أنصار الله﴾ والذى يطابقه أن يكون المعنى : من جندى متوجها إلى نصرة الله ، وإضافة (أنصارى) خلاف إضافة (أنصار الله) فإن معنى (نحن أنصار الله) : نحن الذين ينصرون الله . ومعنى (من أنصارى) من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معى فى نصرة الله ؛ ولا يصح أن يكون معناه : من ينصرنى مع الله ؛ لأنه لا يطابق الجواب . والدليل عليه : قراءة من قرأ : من أنصار الله . والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا ؛ وحوارى الرجل : صفيه وخلصانه[2] من الحور وهو البياض الخالص . والحوارى : الدرمك . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « الزبير ابن عمتى وحواريى من أمتى »[3] وقيل : كانوا قصارين يحوّرون الثياب يبيضونها . ونظير الحوارى فى زنته : الحوالى : الكثير الحيل ﴿فآمنت طائفة﴾ منهم بعيسى ﴿وكفرت﴾ به ﴿طائفة فأيدنا﴾ مؤمنيهم على كفارهم ، فظهروا

(١) قال محمود : « إن قلت ماوجه التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصارا ... الخ » قال أحمد : كلام حسن وتمام على الذى أحسن : أن يميز بين الاضافتين المذكورتين : بأن الأولى محضة والثانية غير محضة ، فتنبه لها ، والله الموفق .

(٢) قوله « وخلصانه » أى خالصته ، يستوى فيه الواحد والكثير ، كذا فى الصحاح . وفيه : الدرمك : دقيق الحوارى . وفيه أيضا : والحوارى ماحور من الطعام ، أى بيض . وهذا دقيق حوارى ، وكل هذه بالضم كما أفاده الصحاح . (ع)

(٣) أخرجه النسائى من حديث جابر . وهو فى الصحيحين بلفظ « لكل نبى حوارى وحواريى الزبير » .

عليهم . وعن زيد بن علي : كان ظهورهم بالحجة .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الصف كان عيسى مصليا عليه مستغفراً له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه»[1] .

سورة الجمعة

مدنية ، وآياتها ١١ [نزلت بعد الصف]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾

قرئت صفات الله عزّ وعلا بالرفع على المدح ، كأنه قيل : هو الملك القدوس ، ولو قرئت منصوبة لكان وجها ، كقول العرب : الحمد لله أهل الحمد . الأمي : منسوب إلى أمة العرب ، لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤن من بين الأمم . وقيل : بدأت الكتابة بالطائف ، أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار . ومعنى ﴿بعث في الأميين رسولا منهم﴾ بعث رجلا أميا في قوم أميين ، كما جاء في حديث شعياء : أني أبعث أعمى في عميان ، وأميا في أميين[2] وقيل منهم ، كقوله تعالى (من أنفسكم) يعلمون نسبه وأحواله . وقرئ : في الأمين ، بحذف ياءي النسب

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبونعيم في الدلائل من طريق عبد الصمد بن معقل ، سمعت وهب بن منبه يقول «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعياء فذكره مطولا .

﴿يتلو عليهم آياته﴾ يقرؤها عليهم مع كونه أمّيا مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم، وقراءة أمى بغير تعلم آية بينة ﴿ويزكيهم﴾ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ القرآن والسنة . وإن فى ﴿وإن كانوا﴾ هى المخففة من الثقيلة واللام دليل عليها ، أى : كانوا فى ضلال لا ترى ضلالا أعظم منه ﴿وآخرين﴾ مجرور عطف على الأميين ، يعنى : أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضى الله عنهم . وقيل : لما نزلت قيل : من هم يا رسول الله ، فوضع يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء » ، وقيل : هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة ، ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب فى (ويعلمهم) أى : يعلمهم ويعلم آخرين ؛ لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أوله ، فكأنه هو الذى تولى كل ما وجد منه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ فى تمكينه رجلا أميا من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده عليه ، واختياره إياه من بين كافة البشر ﴿ذلك﴾ الفضل الذى أعطاه محمداً وهو أن يكون نبى أبناء عصره ، ونبى أبناء العصور الغوابر . هو ﴿فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ إعطاءه وتقتضيه حكمته .

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

شبه اليهود ـ فى أنهم حملة التوراة وقرّاؤها وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها ، وذلك أنّ فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ولم يؤمنوا به ـ بالحمار حمل أسفاراً ، أى كتبا كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب . وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ، وبئس المثل ﴿بئس﴾ مثلا ﴿مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله﴾ وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى (حملوا التوراة) : كلفوا علمها والعمل بها ، (ثم لم يحملوها) ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها . وقرىء : حملوا التوراة ، أى حملوها ثم لم يحملوها فى الحقيقة لفقد العمل . وقرىء : يحمل الأسفار . فإن قلت : (يحمل) ما محله ؟ قلت : النصب على الحال[1] ، أو الجر على الوصف ؛ لأنّ الحمار كاللئيم فى قوله :

* وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي * [2]

(١) قال محمود : « إما أن يكون قوله (يحمل) حالا ، كقوله :
* ولقد أمر على اللئيم يسبنى * قال أحمد : يريد أن المراد فيها الجنس ، فتعريفه وتنكيره سواء .
(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٦ فراجعه إن شئت اه مصححه .

قُلْ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

هاد يهود : إذا تهود[1] ﴿أولياء الله﴾ كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، أى : إن كان قولكم حقا وكنتم على ثقة ﴿فتمنوا﴾ على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى دار كرامته التى أعدّها لأوليائه ، ثم قال ﴿ولا يتمنونه أبداً﴾ بسبب ما قدّموا من الكفر ، وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه » فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لتمنوا ، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد . فما تمالك أحد منهم أن يتمنى ؛ وهى إحدى المعجزات . وقرئ: فتمنوا الموت ، بكسر الواو ، تشبيها بلو استطعنا . ولا فرق بين « لا » و « لن » فى أن كل واحدة منهما نفى للمستقبل . إلا أن فى « لن » تأكيدا وتشديدا ليس فى « لا » ، فأتى مرة بلفظ التأكيد (ولن يتمنوه) ومرة بغير لفظه (ولا يتمنونه) ثم قيل لهم :﴿إن الموت الذى تفرون منه﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم : لا تفوتونه وهو ملاقيكم لا محالة ﴿ثم تردون﴾ إلى الله فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب . وقرأ زيد بن على رضى الله عنه : إنه ملاقيكم . وفى قراءة ابن مسعود : تفرون منه ملاقيكم ، وهى ظاهرة . وأما التى بالفاء ، فلتضمن الذى معنى الشرط ، وقد جعل (إن الموت الذى تفرون منه) كلاما برأسه فى قراءة زيد ، أى : إن الموت هو الشىء الذى تفرون منه ، ثم استؤنف : إنه ملاقيكم .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

(١) قوله « هاد يهود إذا تهود » فى الصحاح : هاد يهود : تاب ورجع إلى الحق ، وهاد وتهود : إذا صار يهوديا . (ع)

يوم الجمعة: يوم الفوج المجموع، كقولهم: ضحكة، للمضحوك منه. ويوم الجمعة، بفتح الميم: يوم الوقت الجامع، كقولهم: ضحكة، ولعنة، ولعبة: ويوم الجمعة تثقيل للجمعة، كما قيل: عسرة فى عسر. وقرئ بهن جميعا. فإن قلت: من فى قوله ﴿من يوم الجمعة﴾ ماهى؟ قلت: هى بيان لإذا وتفسير له. والنداء: الأذان. وقالوا: المراد به الأذان عند قعود الإمام على المنبر، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن واحد، فكان إذا جلس على المنبر أذن على باب المسجد؛ فإذا نزل أقام للصلاة [1]، ثم كان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما على ذلك؛ حتى إذا كان عثمان وكثر الناس وتباعدت المنازل زاد مؤذنا آخر، فأمر بالتأذين الأول على داره التى تسمى زوراء، فإذا جلس على المنبر: أذن المؤذن الثانى، فإذا نزل أقام للصلاة، فلم يعب ذلك عليه. وقيل: أول من سماها «جمعة» كعب بن لؤى، وكان يقال لها: العروبة. وقيل: إن الأنصار قالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك؛ فهلموا نجعل لنا يوما نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونصلى. فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، فأنزل الله آية الجمعة، فهى أول جمعة كانت فى الإسلام [2] وأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهى: أنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل قباء على بنى عمرو بن عوف، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة عامداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم، فخطب وصلى الجمعة [3]. وعن بعضهم: قد أبطل الله قول اليهود فى ثلاث: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه، فكذبهم فى قوله (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم فشبههم بالحمار يحمل أسفاراً؛ وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط إلى الأرض، وفيه تقوم الساعة، وهو عند الله يوم المزيد. وعنه عليه السلام: «أتانى جبريل وفى كفه مرآة بيضاء وقال: هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن

---

(١) متفق عليه من حديث السائب بن يزيد بغير هذا السياق، وليس فيه على باب المسجد.

(٢) أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين بهذا مطولا. وأخرجه الثعلبى من طريقه. وروى الطبرانى من حديث كعب بن مالك نحوه باختصار.

(٣) أخرجه ابن إسحاق فى المغازى عن محمد بن جعفر عن عروة بن عبدالرحمن بن عويم أخبرنى بعض قومى قال قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين. ذكر ذلك مطولا. ومن طريقه البيهقى فى الدلائل. وذكره ابن هشام فى مختصره عن ابن إسحاق بغير إسناد

ندعوه إلى الآخرة يوم المزيد »[١] . وعنه صلى الله عليه وسلم : « إنّ لله تعالى فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار »[٢] . وعن كعب : إنّ الله فضل من البلدان : مكة ، ومن الشهور : رمضان، ومن الأيام : الجمعة . وقال عليه الصلاة والسلام « من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ، ووقى فتنة القبر »[٣] وفى الحديث : « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد[٤] بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب ، يكتبون الأوّل فالأوّل على مراتبهم »[٥] وكانت الطرقات فى أيام السلف وقت السحر وبعد الفجر مغتصة بالمبكرين إلى الجمعة يمشون بالسرج .

---

(١) متفق عليه دون قوله « وهو عند الله يوم المزيد » للبزار والطبرى من طريق جهضم بن عبدالله بن الطفيل عن أبى طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا . ولفظه « ونحن ندعوه فى الآخرة » وهو الصواب وفى رواية الطبرى فى تفسير ق حدثنا جهضم بن عبدالله بن الطفيل عن أبى طيبة عن عثمان بن عمير عن أنس بهذا مطولا ولفظه « ونحن ندعوه فى الآخرة » وهو الصواب . وفى رواية الطبرى فى تفسير ق حدثنى أبو طيبة عن معاوية العبسى عن عثمان . ورواه ابن مردويه من رواية على بن الحكم البنانى وعنبسة بن سعيد ، كلاهما عن عثمان بن عمير عن أنس به . وطريق على بن الحكم عن أبى يعلى وأخرجه ابن أبى شيبة وإسحاق من رواية ليث بن أبى سليم عن عثمان ابن عمير به . ورواه الشافعى باسناد واه قال: أخبرنى إبراهيم بن أبى يحيى حدثنى موسى بن عبيدة حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبدالله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك نحوه . وله طريق أخرى عن أنس أخرجه الطبرانى فى الأوسط . من رواية ثابت بن ثوبان عن سالم بن عبدالله عن أنس . وقال إسحاق بن راهويه : أخبرنا محمد بن شعيب حدثنى عمر مولى عفرة عن أنس . وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البزار من رواية القاسم بن مطيب عن الأعمش عن أبى وائل عنه .

(٢) أخرجه أبو يعلى والبيهقى فى الشعب وابن عدى وابن حبان من رواية أزور بن غالب عن سليمان التيمى عن ثابت عن أنس والأزور . قال الدارقطنى : متروك . رواه أبو يعلى من رواية المعتمر بن نافع عن عبدالله العمرى عن ثابت حدثنى أنس ، وأخرجه البخارى وفى التاريخ فى ترجمة المعتمر . وأخرجه الدارقطنى فى الأفراد من رواية عبدالواحد بن زيد بن ثابت .

(٣) قال عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج عن رجل عن ابن شهاب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقى فتنة القبر وكتب له أجر شهيد » وقال أبو مرة فى السنن : ذكر ابن جريج أخبرنى سفيان عن ربيعة بن سيف عن عبدالله بن عمرو مرفوعا مثله . ومن طريق ربيعة أخرجه الترمذى ولم يذكر الشهادة وقال : غريب وليس لربيعة سماع من عبدالله بن عمرو انتهى . وقد وصله الطبرانى وأبو يعلى من حديث ربيعة عن عياض عن عقبة المزى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما . وله طريق أخرى أخرجها أحمد وإسحاق والطبرانى من رواية بقية : حدثنى معاوية عن سعيد سمعت أبا قبيل سمعت عبدالله بن عمرو نحوه . ورواه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة ابن المنكدر من طريق عمر بن موسى بن الوجيه عن جابر ، بلفظ « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجير من عذاب القبر ، وجاء يوم القيامة عليه طابع الشهداء » .

(٤) قوله « على أبواب المسجد » لعله « المساجد » . وفى الخازن : إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المساجد ملائكة يكتبون ... الخ » . (ع)

(٥) أخرجه ابن مردويه من طريق عمرو بن سمرة عن سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة عن على وإسناده ضعيف جداً . وهو فى الصحيح من حديث أبى هريرة دون قوله بأيديهم صحاف من فضة وأقلام من ذهب » .

وقيل : أوّل بدعة أحدثت فى الإسلام : ترك البكور إلى الجمعة . وعن ابن مسعود : أنه بكر فرأى ثلاثة نفر سبقوه ، فاغتم وأخذ يعاتب نفسه يقول : أراك رابع أربعة وما رابع أربعة بسعيد [١] . ولا تقام الجمعة عند أبى حنيفة رضى الله عنه إلا فى مصر جامع ، لقوله عليه السلام : «لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا فى مصر جامع» [٢] والمصر الجامع : ما أقيمت فيه الحدود ونفذت فيه الأحكام ، ومن شروطها الإمام أو من يقوم مقامه ، لقوله عليه السلام «فمن تركها وله إمام عادل أو جائر ... الحديث» [٣] وقوله صلى الله عليه وسلم : «أربع إلى الولاة : الفىء ، والصدقات ، والحدود ، والجمعات» [٤] . فإن أم رجل بغير إذن الإمام أو من ولاه من قاض أو صاحب شرطة : لم يجز ؛ فإن لم يكن الاستئذان فاجتمعوا على واحد فصلى بهم : جاز ، وهى تنعقد بثلاثة سوى الإمام . وعند الشافعى بأربعين . ولا جمعة على المسافرين والعبيد والنساء والمرضى والزمنى ، ولا على الأعمى عند أبى حنيفة ، ولا على الشيخ الذى لا يمشى إلا بقائد . وقرأ عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم : فامضوا . وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقرأ : فاسعوا . فقال : من أقرأك هذا ؟ قال أبىّ بن كعب ، فقال : لا يزال يقرأ بالمنسوخ ، لو كانت (فاسعوا) لسعيت حتى يسقط ردائى . وقيل : المراد بالسعى القصد دون

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبزار من رواية الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال «خرجت مع عبدالله بن مسعود إلى الجمعة ، فوجد ثلاثة قد سبقوه - فذكره . وليس فيه فاغتم وأخذ يعاتب نفسه . وزاد «إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس يجلسون من الله يوم القيامة على قدر رواحهم إلى الجمعات» واختلفا فى الراوى عن الأعمش مع اتفاقهما على أنه من رواية عبدالمجيد بن أبى رواد . ففى ابن ماجه بينهما معمر وفى البزار بينهما مروان بن سالم . وذكره ابن أبى حاتم فى العلل روى عن عبدالمجيد عن الثورى عن الأعمش . وهذا لا يصح عن الثورى .

(٢) لم أره مرفوعا . ورواه ابن أبى شيبة عن على . وإسناده ضعيف .

(٣) أخرجه ابن ماجه من رواية عبدالله بن محمد العدوى عن على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن جابر قال «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا - الحديث بطوله» وفيه هذا وغيره أخرجه ابن عدى . وروى عن وكيع أن العدوى كان يضع الحديث . وله طريق أخرى عند أبى يعلى من رواية فضيل بن مرزوق : أخبرنى الوليد بن بكير عن عمر بن على عن سعيد بن المسيب . وفى إسناده نظر . فقال : رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية موسى بن عطية الباهلى عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد . وقال : تفرد به يحيى بن حبيب عن موسى بن عطية . وقال : رواه أحمد بن موسى وعبدالله بن صالح العجلى عن فضيل بن مرزوق عن الوليد بن بكير عن عبدالله بن محمد العدوى عن على بن زيد عن سعيد عن جابر . قلت : فرجعت الرواية الأخرى إلى العدوى وقال ابن حبان فى الضعفاء : أخبرنا ابن خزيمة حدثنا محمد بن عبدالرحمن بن غزوان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد ، وقال محمد بن عبدالرحمن يروى العجائب . ورواه فى الضعفاء أيضا من طريق خالد بن عبدالدائم حدثنا نافع بن يزيد عن زهرة بن معبد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة وأعله بخالد بن عبدالدائم . وقال الدارقطنى فى العلل : اختلف زهرة وعلى فى صحته . وكلاهما غير ثابت .

(٤) لم أره مرفوعا .

العدو ، والسعى : التصرف فى كل عمل . ومنه قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى) ، (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وعن الحسن : ليس السعى على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب .
وذكر محمد بن الحسن رحمه الله فى موطئه : أن عمر سمع الإقامة وهو بالبقيع فأسرع المشى . قال محمد : وهذا لا بأس به ما لم يجهد نفسه ﴿إلى ذكر الله﴾ إلى الخطبة والصلاة ، ولتسمية الله الخطبة ذكراً له قال أبو حنيفة رحمه الله : إن اقتصر الخطيب على مقدار يسمى ذكراً لله كقوله: الحمد لله ، سبحان الله : جاز [1] . وعن عثمان أنه صعد المنبر فقال : الحمد لله وأرتج عليه ، فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم [2] الخطب ، ثم نزل ، وكان ذلك بحضرة الصحابة ولم ينكر عليه أحد . وعند صاحبيه والشافعى : لا بد من كلام يسمى خطبة . فإن قلت : كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها ذكر غير الله ؟ [3] قلت : ما كان من ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو فى حكم ذكر الله ، فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم ، وهم أحقاء بعكس ذلك ؛ فمن ذكر الشيطان وهو من ذكر الله على مراحل ، وإذا قال المنصت للخطبة لصاحبه « صه » فقد لغا ، أفلا يكون الخطيب الغالى فى ذلك لاغيا ، نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام . أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا ، وإنما خص البيع من بينها لأن يوم

---

(١) قال : محمود « استدل بذلك على مذهب أبى حنيفة رحمه الله ... الخ » قال أحمد : ولا دليل فيه ؛ فان العرب تسمى الشىء باسم بعض ما يشتمل عليه ، كما سميت الصلاة مرة قرآنا ومرة سجوداً ومرة ركوعا ؛ لأنها مشتملة على ذلك ؛ فكذلك الخطبة لما كانت مشتملة على ذكر الله سميت به ، ولا يلزم أن يكون كذلك كل ما اشتملت عليه . لاسيما والمسمى خطبة عند العرب لابد وأن يزيد على القدر الذى اكتفى به أبو حنيفة . قال بعض أصحاب مالك رحمه الله : أقلها حمد الله والصلاة على نبيه وتحذير وتبشير وقرآن .

(٢) أتبع الزمخشرى الاستدلال على مذهب أبى حنيفة بالآية ، بأثر عن عثمان : وهو أنه صعد المنبر فقال إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب ثم نزل وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد » قال أحمد : ساقه بلا اشتباه ، فان عثمان لم يصدر ذلك منه فى خطبة الجمعة ، وإنما كان ذلك فى ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة ، وكانت عادة العرب الخطب فى المهمات . ألا ترى إلى قوله : وستأتيكم بعد ذلك الخطب ؛ فان ذلك يحقق أن مقالته هذه ليست بخطبة ، ولو كان فى الجمعة لكان تاركا للخطبة بالكلية ، وهى منقولة فى التاريخ أنه أرتج عليه فقال : سيجعل الله بعد عسر يسراً وبعد عى بيانا ، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال ، وستأتيكم الخطب .

(٣) قال محمود : « وإن قلت : كيف فسر ذكر الله بالخطبة وفيه ذكر غير الله ، وأجاب بأن ذكر رسول الله والصحابة والخلفاء الراشدين ... الخ » قال أحمد : الدعاء للسلطان الواجب الطاعة مشروع بكل حال . وقد نقل عن بعض السلف أنه دعا لسلطان ظالم فقيل له : أتدعو له وهو ظالم ؟ فقال : إى والله أدعو ، له إن ما يدفع الله ببقائه أعظم مما يندفع بزواله ؛ لاسيما إذا ضمن ذلك الدعاء بصلاحه وسداده وتوفيقه ، والله الموفق .

الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبواديهم، وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار (١) وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة، وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضي إلى المسجد، قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح ﴿وذروا البيع﴾ الذي نفعه يسير وربحه مقارب. فإن قلت: فإذا كان البيع في هذا الوقت مأموراً بتركه محرما، فهل هو فاسد؟ قلت: عامة العلماء على أن ذلك لا يوجب فساد البيع. قالوا: لأنّ البيع لم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصوب، وعن بعض الناس: أنه فاسد. ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح، مع التوصية بإكثار الذكر، وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه، وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا ينفضون عنه، لأنّ فلاحهم فيه وفوزهم منوط به: وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة أخ في الله: وعن الحسن وسعيد بن المسيب: طلب العلم، وقيل: صلاة التطوع: وعن بعض السلف أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظراً في هذه الآية.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد، فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة، فقاموا إليه، خشوا أن يسبقوا إليه، فما بقي معه إلا يسير. قيل: ثمانية، وأحد عشر، واثنا عشر، وأربعون، فقال عليه السلام: «والذي نفس محمد بيده، لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي (٢) ناراً، وكانوا إذا

(١) قوله «إذا انتفخ النهار» أي علا. وقوله «تحر» أي تعطش أو يشتد حرها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) هكذا ذكره الواحدي عن المفسرين. وذكره الثعلبي ثم البغوي عن الحسن بغير إسناد. ولفظ الحسن أخرجه عبد الرزاق عن معمر عنه قال «أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر. فقدمت عير والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها وخرجوا إليها والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يخطب كما هو، فأنزل الله تعالى (وتركوك قائماً) فقال: لو اتبع آخرهم أولهم لالتهب الوادي عليهم ناراً» وفي رواية أبي سفيان الآتية عند ابن حبان نحوه قال «والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال الوادي عليكم ناراً: ونزلت هذه الآية» وتعيين دحية في قوله «خشوا أن يسبقوا إليه» رواه الطبري مختصراً من رواية السدي عن ابن مالك قال: =

أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، فهو المراد باللّهو : وعن قتادة : فعلوا ذلك ثلاث مرات فى كل مقدم عير . فإن قلت : فإن اتفق تفرق الناس عن الإمام فى صلاة الجمعة كيف يصنع ؟ قلت : إن بقى وحده أو مع أقل من ثلاثة ، فعند أبى حنيفة : يستأنف الظهر إذا نفروا عنه قبل الركوع . وعند صاحبيه : إذا كبر وهم معه مضى فيها . وعند زفر : إذا نفروا قبل التشهد بطلت . فإن قلت : كيف قال ﴿إليها﴾ وقد ذكر شيئين ؟ قلت : تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها ، أو لهوا انفضوا إليه : فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وكذلك قراءة من قرأ : انفضوا إليه . وقراءة من قرأ : لهوا أو تجارة انفضوا إليها . وقرئ : إليهما .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الجمعة أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة وبعدد من لم يأتها فى أمصار المسلمين »[١] .

= قدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة . فلما رأوه قاموا خشية أن يسبقوا إليه فنزلت (وإذا رأوا تجارة - الآية) وروى البزار من طريق عكرمة عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فجاء دحية يبيع سلعة فما بقى فى المسجد أحد إلا خرج - إلا نفر - والنبي صلى الله عليه وسلم قائم فنزلت . وأصل هذه القصة فى الصحيحين من رواية حصين عن سالم بن أبى الجعد عن جابر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل الناس حتى لم يبق إلا اثنى عشر رجلا فأنزلت » وفى لفظ مسلم « منهم أبو بكر وعمر » وفى رواية له « وأنا فيهم » وفى رواية البخارى « بينما نحن نصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ أقبلت عير » قال البيهقى : المراد بقوله نصلى أى نسمع الخطبة ، جمعاً بين الروايتين انتهى . وقد أخرجه ابن حبان من رواية أبى سفيان عن جابر كذلك . ولفظه « بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة . فقدمت عير من الشام إلى المدينة فابتدرها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق معه إلا اثنى عشر رجلا - الحديث » ويؤيده حديث كعب بن عجرة عند مسلم « أنه أنكر على عبد الرحمن بن أم الحكم أن يخطب قاعداً . فقال : انظروا إلى هذا يخطب قاعداً . والله يقول : وتركوك قائما » ويدل أيضاً على أنه كان فى الخطبة ما رواه أبو داود فى المراسيل من رواية بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى يوم الجمعة قبل الخطبة حتى إذا كان ذات يوم وهو يخطب وقد صلى الجمعة فدخل رجل فقال : إن دحية قد قدم . وكان إذا قدم تلقوه بالدفاف فخرج الناس ، لم يظنوا إلا أنه ليس فى ترك الخطبة شىء فأنزل الله الآية . فقدم النبي صلى الله عليه وسلم الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة » ﴿تنبيه﴾ لم أقف على رواية أنهم كانوا ثمانية ولا أحد عشر ، وأما رواية اثنى عشر فهي المشهورة الصحيحة . ورواية الأربعين أخرجها الدارقطني من طريق على بن عاصم عن حصين : وقال : لم يقل أحد من أصحاب حصين أربعون إلا على بن عاصم . والكل قالوا : اثنى عشر رجلا . وكذلك قال أبو سفيان عن جابر كما تقدم عند ابن حبان .

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه .

سورة المنافقون

مدنية ، وهى إحدى عشرة آية [نزلت بعد الحج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)

أرادوا بقولهم ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾ شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم.[١] فقال الله عزّ وجلّ: قالوا ذلك ﴿والله يعلم﴾ أن الأمر كما يدل عليه قولهم: إنك لرسول الله، والله يشهد إنهم لكاذبون فى قولهم: نشهد؛ وادعائهم فيه المواطأة. أو إنهم لكاذبون فيه، لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة؛ فهم كاذبون فى تسميته شهادة. أو أراد: والله يشهد إنهم لكاذبون عند أنفسهم: لأنهم كانوا يعتقدون أنّ قولهم (إنك لرسول الله) كذب وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه. فإن قلت: أى فائدة فى قوله تعالى (والله يعلم إنك لرسوله)؟ قلت: لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم الكاذبون، لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب؛ فوسط بينهما قوله (والله يعلم إنك لرسوله) ليميط هذا الإيهام ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ يجوز أن يراد أنّ قولهم نشهد إنك لرسول الله يمين من أيمانهم الكاذبة، لأنّ الشهادة تجرى مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد، يقول الرجل: أشهد وأشهد بالله، وأعزم وأعزم

(١) قال محمود: «إنما كذبهم لأنهم ادعوا أن شهادتهم بألسنتهم تواطىء لقلوبهم ... الخ» قال أحمد: ومثل هذا من نمطه المليح قوله (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وقد كان المطابق لقوله (ولكن قولوا أسلمنا) أن يقال لهم: لاتقولوا آمنا، ولكنه لما كان موهما للنهى عن قول الايمان عدل عنه على مافيه من الطباق إلى ماسلم الكلام فيه من الوهم، وذلك أجل وأعظم من فائدة المطابقة، لاسيما فى مخاطبة هؤلاء الذين كانوا يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة. ألاتراهم كيف غالطوا أنفسهم متغابين، ولبسوا على ضعفهم متجاهلين عندما أنزل قوله (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم).

بالله فى موضع أقسم وأولى . وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن « أشهد » يمين .[١] ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين فى استجنانهم بالأيمان . وقرأ الحسن البصرى : إيمانهم ، أى : ماأظهروه من الإيمان بألسنتهم . ويعضده قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا) . ﴿ساء ما كانوا يعملون﴾ من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله . وفى (ساء) معنى التعجب الذى هو تعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذلك﴾ إشارة إلى قوله (ساء ما كانوا يعملون) أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالا ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم آمنوا ثم كفروا﴾ أو إلى ما وصف من حالهم فى النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان ، أى : ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا ﴿فطبع على قلوبهم﴾ لجسروا على كل عظيمة . فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ،[٢] فما معنى قوله (آمنوا ثم كفروا) ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : آمنوا ، أى : نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم : إن كان ما يقوله محمد حقاً فنحن حمير ، وقولهم فى غزوة تبوك : أيطمع هذا الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات . ونحوه قوله تعالى (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) أى : وظهر كفرهم بعد أن أسلموا . ونحوه قوله تعالى (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) والثانى آمنوا : أى نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا) إلى قوله تعالى (إنما نحن مستهزؤن) والثالث : أن يراد أهل الردة منهم . وقرئ : فطبع على قلوبهم . وقرأ زيد بن على : فطبع الله .

---

(١) قال محمود : « واستدل لأبى حنيفة على أن قول القائل « أشهد » يمين بقوله (اتخذوا أيمانهم جنة) ولم يصدر منهم إلا قولهم (نشهد إنك لرسول الله) فجعله يمينا » قال أحمد : أحد القولين عند مالك رحمه الله إذا قال أشهد وأحلف وأقسم ولم ينو بالله ولا بغيره ، كما نقل عن أبى حنيفة أنه يمين وليس بالمشهور . أما لو نوى بالله وإن لم يتلفظ فيمين بلا إشكال ، وليس فيما ذكره دليل على ماذكره ، فان قوله (اتخذوا أيمانهم جنة) غايته أن ماذكروه يسمى يمينا ، وليس الخلاف فى تسميته يمينا ؛ وإنما الخلاف هل يكون يمينا منعقدة يلزم بالحنث فيها كفارة أم لا ؟ وليس كل مايسمى حلفا أو قسما يوجب حكما ، ألا ترى أنه لو قال : « أحلف » ولم يقل « بالله » ولا بغيره ، فهو من محال الخلاف فى وجوب الكفارة به ، وإن كان حلفا لغة باتفاق ، لأنه فعل مشتق منه .

(٢) قال محمود : « المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ... الخ . قال أحمد : ويحتمل وجها رابعا وهو أنهم آمنوا به قبل مبعثه على الصفة المذكورة فى التوراة ، لأنهم كانوا يسمعونها من جيرانهم اليهود ، ثم كفروا به بعد مبعثه وموافقة الصفة ، ولعل فى المنافقين يهودا ، وإن لم يكن فقد كان الايمان قبل مبعثه من الفريقين : اليهود وعبدة الأوثان من العرب ، إلى نزول قوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) كيف حكى الله تعالى عن الفريقين ما كانوا يقولونه . والبينة : النبي صلى الله عليه وسلم .

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤)

كان عبدالله بن أبىّ رجلا جسيما صبيحا ، فصيحا ، ذلق اللسان[١] وقوم من المنافقين فى مثل صفته ، وهم رؤساء المدينة ، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن[٢] ؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم ومن حضر يعجبون بهيا كلهم ويسمعون إلى كلامهم . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ ؟ قلت : شبهوا فى استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بالخشب المسندة إلى الحائط ؛ ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فشبهوا به فى عدم الانتفاع . ويجوز أن يراد بالخشب المسندة : الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان ؛ شبهوا بها فى حسن صورهم وقلة جدواهم ؛ والخطاب فى (رأيتهم تعجبك) لرسول الله ، أو لكل من يخاطب . وقرئ : يُسمع ، على البناء للمفعول ، وموضع (كأنهم خشب) رفع على : هم كأنهم خشب . أو هو كلام مستأنف لا محل له . وقرئ : خشب جمع خشبة ، كبدنة وبدن . وخشب ، كثمرة وثمر . وخشب ، كمدرة ومدر ، وهى فى قراءة ابن عباس . وعن اليزيدى أنه قال فى (خشب) : جمع خشباء ، والخشباء : الخشبة التى دعر جوفها[٣] : شبهوا بها فى نفاقهم وفساد بواطنهم ﴿ عليهم ﴾ ثانى مفعولى يحسبون[٤] ، أى : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم ، لجبنهم وهلعهم وما فى قلوبهم من الرعب : إذا نادى مناد فى العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة : ظنوه إيقاعا بهم . وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم . ومنه أخذ الأخطل :

---

(١) قوله « فصيحا ذلق اللسان » أى طلق اللسان ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : « كانوا يجالسون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستندون فى المجلس ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن ... الخ » : قال أحمد : وفيما قال اليزيدى نظر من حيث مقتضى العربية ، وإلا فهو متمكن المعنى ، وذلك أنها قرئت بضم الشين وسكونها قراءتين مستفيضتين ، ففيه دليل أن أصلها الضم ، والسكون إنما هو طارئ عليه تخفيفاً ، وهذا يبعد كونها جمع خشباء على وزن فعلاء ؛ لأن قياس جمعه فعل بسكون العين كحمراء وحمر ، ولا يطرأ الضم ، فلو كان كما قال لم تضم شينها ، والله تعالى أعلم .

(٣) قوله « التى دعر جوفها » أى فسد . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قال محمود : « المفعول الثانى (عليهم) تقديره : واقعة عليهم ... الخ » قال أحمد : وغلا المتنبى فى المعنى فقال :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

مَازِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تَكِرُّ عَلَيْهِمْ وَرِجَالاً [1]

يوقف على (عليهم) ويبتدأ ﴿هم العدو﴾ أى الكاملون فى العداوة : لأنّ أعدى الأعداء العدو المداجى[2] ، الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوىّ ﴿فاحذرهم﴾ ولا تغترر بظاهرهم . ويجوز أن يكون ﴿هم العدو﴾ المفعول الثانى ، كما لو طرحت الضمير . فإن قلت : فحقه أن يقال : هى العدو . قلت : منظور فيه إلى الخبر ، كما ذكر فى (هذا ربى) وأن يقدر مضاف محذوف على : يحسبون كل أهل صيحة ﴿قاتلهم الله﴾ دعاء عليهم ، وطلب من ذاته أن يلعنهم ويخزيهم . أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أنى يؤفكون﴾ كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم[3] وضلالتهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)

﴿لووا رؤسهم﴾ عطفوها وأمالوها إعراضا عن ذلك واستكباراً . وقرئ بالتخفيف والتشديد للتكثير .

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)

روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتل منهم : ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر يقود فرسه ،

---

(١) للأخطل ، يقول : لازلت ياجرير تظن كل شىء بعدهم ، أى : بعد خذلان قومك . ويجوز أن بعدهم بمعنى غيرهم ، خيلا تكر : أى ترجع بسرعة عليهم ورجالا لكثرة ماقام بقلبك من الخوف .

(٢) قوله «العدو المداجى الذى يكاشرك» أى المدارى . والكشر : التبسم تبدو منه الأسنان . والدوى - مقصور - المرض ، تقول : دوى الرجل - بالكسر : مرض ودوى صدره أيضا : ضغن . ودوىّ الريح : حفيفها ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله «تعجبا من جهلهم» لعله تعجب ، بل لعله : تعجيب . (ع)

وسنان الجهنى حليف لعبد الله بن أبى، واقتتلا، فصرخ جهجاه: ياللمهاجرين: وسنان: ياللأنصار؛ فأعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولطم سنانا. فقال عبدالله لجعال. وأنت هناك، وقال: ماصحبنا محمداً إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، عنى بالأعز: نفسه، وبالأذل: رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال لقومه: ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم؛ أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فسمع بذلك زيد بن أرقم وهو حدث. فقال: أنت والله الذليل القليل المبغض فى قومك. ومحمد فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين، فقال عبد الله: اسكت فإنما كنت ألعب، فأخبر زيد رسول الله فقال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق يارسول الله، فقال: إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب. قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجرى. فأمر به أنصاريا فقال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؛ وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذى بلغنى؟ قال: والله الذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك. وإن زيداً لكاذب. وهو قوله تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة) فقال الحاضرون: يارسول الله: شيخنا وكبيرنا لاتصدق عليه كلام غلام، عسى أن يكون قد وهم. وروى أن رسول الله قال له: لعلك غضبت عليه؛ قال: لا؛ قال: فلعله أخطأ سمعك؛ قال: لا؛ قال: فلعله شبه عليك؛ قال: لا. فلما نزلت: لحق رسول الله زيدا من خلفه فعرك أذنه وقال: وفت أذنك يا غلام، إن الله قد صدقك وكذب المنافقين[1]. ولما أراد عبد الله أن يدخل المدينة: اعترضه ابنه حباب، وهو عبد الله بن عبدالله غير رسول الله اسمه، وقال: إن حبابا اسم شيطان. وكان مخلصا وقال: وراءك، والله؛ لاتدخلها حتى تقول رسول الله الأعز وأنا الأذل، فلم يزل حبيسا فى يده حتى أمره رسول الله بتخليته[2]. وروى أنه قال له:

---

(١) هكذا ذكره الواقدى فى المغازى بغير إسناد وعزاه إلى الثعلبي والواحدى ولأصحاب السير، وأخرجه ابن إسحاق فى السيرة: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة، وعبدالله بن أبى بكر ومحمد بن يحيى بن حبان كل قد حدثنى بعض حديث بنى المصطلق ـ فذكر الغزوة بطولها والقصة المذكورة باختلاف يسير. وكذا أخرجه الطبرى من طريقه وأصل القصة فى الصحيحين من طريق أبى إسحاق عن زيد بن أرقم قال «كنت مع عمى فسمعت عبدالله بن أبى يقول ـ الحديث» وأوله عندهما أيضا من طريق عمرو بن دينار عن جابر قال «كنا فى غزوة بنى المصطلق فتبع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار» ورواه الترمذى والنسائى والحاكم من طريق أبى سعد الأودى حدثنا زيد بن أرقم قال «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا فسبق أعرابى. فملأ الحوض» فذكر القصة بطولها. وفى سياقها اختلاف.

(٢) هكذا ذكره الثعلبي موصولا بالذى قبله، وروى الزبيدى من طريق عمرو بن دينار عن جابر أصل القصة وقال بعد عمر: دعنى أضرب عنقه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لايتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، قال وقال =

لئن لم تقرّ لله ورسوله بالعز لأضربن عنقك ، فقال : ويحك ، أفاعل أنت ؟ قالْ : نعم . فلما رأى منه الجدّ قال : أشهد أنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فقال رسول الله لابنه : جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً [١] : فلما بان كذب عبدالله قيل له : قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك . فاوى رأسه ثم قال : أمرتمونى أن أومن فآمنت ، وأمرتمونى أن أزكى مالى فزكيت . فما بقى إلا أن أسجد لمحمد ، فنزلت (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله) ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى اشتكى ومات [٢] ﴿سواء عليهم﴾ الاستغفار وعدمه ، لأنهم لايلتفتون إليه ولايعتدون به لكفرهم . أو لأن الله لايغفر لهم . وقرئ : استغفرت ، على حذف حرف الاستفهام : لأنّ «أم» المعادلة تدل عليه . وقرأ أبوجعفر : آستغفرت ، إشباعا لهمزة الاستفهام للإظهار والبيان ، لاقلبا لهمزة الوصل ألفا ، كما فى : آلسحر ، وآلله ﴿ينفضوا﴾ يتفرقوا . وقرئ : ينفضوا ، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم . وحقيقته : حان لهم أن ينفضوا مزاودهم ﴿ولله خزائن السموات والأرض﴾ وبيده الأرزاق والقسم ، فهو رازقهم منها ؛ وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ، ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون ﴿لايفقهون﴾ ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان . وقرئ : ليخرجنّ الأعز منها الأذل بفتح الياء . وليخرجنّ ، على البناء للمفعول . قرأ الحسن وابن أبى عبلة : لنخرجنّ ، بالنون ونصب الأعز والأذل . ومعناه : خروج الأذل . أو إخراج الأذل . أو مثل الأذل ﴿ولله العزة﴾ الغلبة والقوة ، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء بذلك ، كما أنّ المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين . وعن بعض الصالحات ـ وكانت فى هيئة رثة ـ ألست على الإسلام ؟ وهو العز الذى لا ذل معه ، والغنى الذى لافقر معه . وعن الحسن بن على رضى الله عنهما : أنّ رجلا قال له : إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيها ؛ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية .

يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾

ـــ غير عمر وقال له ابنه عبدالله بن عبدالله «والله لاتنفلت حتى تقول إنك الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل» قلت : وأصل حديث جابر فى الصحيح .

(١) هكذا أورده الثعلبى موصولا بالحديث الذى قبله .

(٢) ذكره الثعلبى موصولا بالذى قبله . وأخرجه الطبرى من رواية إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن بشر بن مسلم «أنه قيل لعبدالله بن أبى : يا أبا الحباب : إنه أنزل آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فذكره أخصر منه .

﴿لاتلهكم﴾ لاتشغلكم ﴿أموالكم﴾ والتصرف فيها : والسعى فى تدبير أمرها : والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال ، وابتغاء النتاج والتلذذ بها : والاستمتاع بمنافعها ﴿ولا أولادكم﴾ وسروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والقيام بمؤنهم ، وتسوية ما يصلحهم من معايشهم فى حياتكم وبعد مماتكم ، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد ، وأنه أهون شىء وأدونه فى جنب ما عند الله ﴿عن ذكر الله﴾ وإيثاره عليها ﴿ومن يفعل ذلك﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ فى تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقى بالحقير الفانى . وقيل : ذكر الله الصلوات الخمس . وعن الحسن : جميع الفرائض ، كأنه قال : عن طاعة الله . وقيل : القرآن . وعن الكلبي : الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وَأَنْفِقُوا مِن مَّارَزَقْنَـٰكُمْ مِنْ قَبْـلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَـدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَـلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَـلُونَ (١١)

من فى ﴿مما رزقناكم﴾ للتبعيض ، والمراد : الإنفاق الواجب ﴿من قبل أن يأتى أحدكم الموت﴾ من قبل أن يرى دلائل الموت ، ويعاين ما ييأس معه من الإمهال ، ويضيق به الخناق ، ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول ، فيتحسر على المنع ، ويعضّ أنامله على فقد ما كان متمكنا منه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : تصدّقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ، ولا ينفع عمل . وعنه : ما يمنع أحدكم إذا كان له مال أن يزكى ، وإذا أطاق الحج أن يحج من قبل أن يأتيه الموت ، فيسأل ربه الكرة فلا يعطاها . وعنه : أنها نزلت فى ما نعى الزكاة ، ووالله لو رأى خيراً لما سأل الرجعة ، فقيل له : أما تتقى الله ، يسأل المؤمنون الكرة ؟ قال : نعم ، أنا أقرأ عليكم به قرآنا ، يعنى : أنها نزلت فى المؤمنين وهم المخاطبون بها ، وكذا عن الحسن : ما من أحد لم يزك ولم يصم ولم يحج إلا سأل الرجعة . وعن عكرمة أنها نزلت فى أهل القبلة ﴿لولا أخرتنى﴾ . وقرئ : أخرتن ، يريد : هلا أخرت موتى ﴿إلى أجل قريب﴾ إلى زمان قليل ﴿فأصدق﴾ وقرأ أبىّ : فأتصدق على الأصل . وقرئ : وأكن ، عطفا على محل (فأصدق) كأنه قيل . إن أخرتنى أصدّق وأكن . ومن قرأ : وأكون على النصب ، فعلى اللفظ . وقرأ عبيد بن عمير : وأكون ، على : وأنا أكون عدة منه بالصلاح ﴿ولن يؤخر الله﴾ نفى للتأخير على وجه التأكيد الذى معناه منافاة المنفى الحكمة . والمعنى : إنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه . وأنه هاجم لا محالة ، وأنّ الله عليم بأعمالكم فمجاز

عليها ، من منع واجب وغيره : لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله . وقرئ : تعملون ، بالتاء والياء . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة المنافقين برئ من النفاق»[1] .

سورة التغابن

مختلف فيها ، وهى ثمان عشرة آية [نزلت بعد التحريم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)

قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأن الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه ، والقائم به ، والمهيمن عليه ؛ وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه . وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء ، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده ﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ يعنى : فمنكم آت بالكفر وفاعل له[2]

---

(١) أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(٢) قوله «فمنكم آت بالكفر وفاعل له» قد أول الآية بمذهب المعتزلة : من أن العبد هو الخالق لفعله الاختيارى ، ومذهب أهل السنة : أن العبد ليس له فى فعله إلا الكسب ، وخالقه فى الحقيقة هو الله عز وجل ، بدليل قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) خيراً كان أو شراً ، وكما أن خلق الكافر لا يستوجب الذم كما سيقول فخلق كفره لا يستوجب الذم لأنه لحكمة وإن خفيت علينا . (ع)

ومنكم آت بالإيمان[1] وفاعل له ، كقوله تعالى (وجعلنا فى ذريتهما النبوّة والكتاب) ، (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) والدليل عليه قوله تعالى (والله بما تعملون بصير) أى عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم . والمعنى : هو الذى تفضل عليكم بأصل النعم الذى هو الخلق والإيجاد عن العدم ، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح ، وتكونوا بأجمعكم عباداً شاكرين ، فما فعلتم مع تمكنكم ، بل تشعبتم شعبا ، وتفرقتم أمما ؛ فمنكم كافر ومنكم مؤمن . وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم . وقيل : هو الذى خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية ، ومنكم مؤمن به . فإن قلت : نعم ، إن العباد هم الفاعلون للكفر ، ولكن قد سبق فى علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره ، فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم ؟ وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفا باترا لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرمة فقتل به مؤمنا ؟ أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق فى فروته[2] كما يذمون القاتل ؟ بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد ؟ قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح فعله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ؛ وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح فى حسنه ، كما لا يقدح فى حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعى الحكمة إلى خلقها (بالحق) بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وهو أن جعلها مقارّ المكلفين ليعملوا فيجازيهم (وصوركم فأحسن صوركم) وقرئ : صوركم بالكسر ، لتشكروا . وإليه مصيركم فجزاؤكم على الشكر والتفريط فيه . فإن قلت . كيف أحسن صورهم ؟ قلت : جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور . ومن حسن صورته

---

(١) قال محمود : « معناه : فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان ... الخ » قال أحمد : لقد ركب عمياء وخبط خبط عشواء ، واقتحم وعراً : السالك فيه هالك ، والعابر فيه عاثر ؛ وإنما ينصب إلى مهاوى الأراك ، ويحوم حول مراتع الاشراك ؛ ويبحث ولكن على حتفه بظلفه ، ويتحذق وما هو إلا يتشدق ، ويتحقق وما هو إلا يتفسق ؛ وهب أنه أعرض عن الأدلة العقلية والنصوص النقلية المتظافرة على أن الله تعالى خالق كل شىء ، واطرد له فى الشاهد ما ادعاه . ومن مذهبه قياس الغائب على الشاهد ، قد التجأ إلى الاعتراف بأن الله خالق العبد الفاعل للقبيح ، وأن خلق العبد الفاعل للقبيح بمثابة إعطاء السيف الباتر للرجل الفاجر ، وأن هذا قبيح شاهدا ، ولا يلزم أن يكون مثله قبيحاً فى خلق الله تعالى ، أفلا يجوز أن يكون منطويا على حكمة استأثر الله تعالى بعلمها ، فما يؤمنه من دعوى أن أفعال العبد وإن استقبحها العقلاء مخلوقة لله تعالى ، وفى خلقها حكمة استأثر الله بعلمها ، وهل الفرق إذا إلا عين التحكم ، ونفس اتباع الهوى . هذا ودون تمكنه من اتباع هذه القواعد : أن يمكن من القتاد اخترط ، ومن الجمل أن يلج فى سم الخياط .

(٢) قوله « والدق فى فروته » فى الصحاح « الفروة » : جلدة الرأس . والفروة : قطعة نبات مجتمعة يابسة اه . (ع)

أنه خلق منتصبا غير منكب، كما قال عز وجل (في أحسن تقويم). فإن قلت: فكم من دميم مشوه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون؟ قلت: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطاً بيناً وإضافتها إلى الموفى [1] عليها لا تستملح، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حده. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها. وقالت الحكماء: شيآن لا غاية لهما: الجمال، والبيان. نبه بعلمه ما في السموات والأرض، ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم بعلمه ذوات الصدور: أن شيئاً من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ولا عازب عنه، فحقه أن يتقى ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه. وتكرير العلم في معنى تكرير الوعيد، وكل ما ذكره بعد قوله تعالى (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) كما ترى في معنى الوعيد على الكفر، وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق [2] ويجعله من جملته، والخلق: أعظم نعمة من الله على عباده، والكفر: أعظم كفران من العباد لربهم.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

﴿ألم يأتكم﴾ الخطاب لكفار مكة. و﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوبال الذي ذاقوه في الدنيا وما أعد لهم من العذاب في الآخرة ﴿بأنه﴾ بأن الشأن والحديث ﴿كانت تأتيهم رسلهم ... ... أبشر يهدوننا﴾ أنكروا أن تكون الرسل بشراً، ولم ينكروا أن يكون الله حجراً ﴿واستغنى الله﴾ أطلق ليتناول كل شيء، ومن جملته إيمانهم وطاعتهم. فإن قلت: قوله (وتولوا واستغنى الله) يوهم وجود التولي والاستغناء معا [3]، والله تعالى لم يزل غنياً. قلت: معناه: وظهر استغناء الله حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته على ذلك.

(١) قوله «وإضافتها إلى الموفى عليها» يعني إلى المتفوق عليها من الصور. (ع)

(٢) قوله «فما أجهل من يمزج الكفر بالخلق» يريد أهل السنة، حيث يقولون أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد حتى الكفر وغيره من المعاصي، ولا وجه لتجهيلهم مع استنادهم إلى قوله تعالى «والله خلقكم وما تعملون». (ع)

(٣) قال محمود: «أطلقه ليتناول كل شيء» ثم قال «فان قلت كان التولي فيهم ... الخ». قال أحمد: إنما الحق أنه لم يخلق لهم إيمانا ولا قدرة عليه، فكان قادراً أن يخلق لهم الايمان والقدرة عليه، وإنما حرفها الزمخشري إلى قاعدته.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾

الزعم : ادعاء العلم : ومنه قوله عليه السلام « زعموا مطية الكذب »[1] وعن شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب « زعموا » ويتعدى إلى المفعولين تعدى العلم . قال :

* ... وَلَمْ أَزْعُمْكِ عَنْ ذَاكَ مَعْزِلاً *[2]

وإن مع ما فى حيزه قائم مقامهما . و لذين كفروا . أهل مكة . و﴿ بلى ﴾ إثبات لما بعد لن ، وهو البعث ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ أي لا يصرفه عنه صارف . وعنى برسوله والنور : محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن .

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

وقرئ : نجمعكم . ونكفر . وندخله ، بالياء والنون . فإن قلت : بم انتصب الظرف ؟ قلت بقوله : لتنبؤن ، أو بخبير ، لما فيه من معنى الوعيد ، كأنه قيل : والله معاقبكم يوم يجمعكم . أو بإضمار « اذكر » ، ﴿ ليوم الجمع ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون . التغابن : مستعار من تغابن القوم فى التجارة ؛ وهو أن يغبن بعضهم بعضاً ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء . وفيه تهكم بالأشقياء ؛ لأن نزولهم ليس بغبن . وفى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً . وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من

---

(١) لم أجده مرفوعا بهذا اللفظ وقد تقدم فى أوائل البقرة بلفظ « بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا » وقد تقدم عن شريح « زعموا كنية الكذب » .

(٢) وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

يقول : وإن كل حي وإن طال عمره يموت ، ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم أو الموت . والمعزل : مكان العزلة والانفراد ، أي : لم أظنك فى معزل عنه أو ذات معزل أو معتزلة . أو نفس المعزول مبالغة .

الجنة لو أحسن، ليزداد حسرة»[1] ومعنى ﴿ذلك يوم التغابن﴾ ـ وقد يتغابن الناس فى غير ذلك اليوم ـ: استعظام له وأن تغابنه هو التغابن فى الحقيقة، لا التغابن فى أمور الدنيا وإن جلت وعظمت ﴿صالحاً﴾ صفة للمصدر، أى: عملا صالحاً.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾

﴿إلا بإذن الله﴾ إلا بتقديره ومشيئته، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه ﴿يهد قلبه﴾ يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة. وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن ظلم غفر. وقرئ. يهد قلبه، على البناء للمفعول، والقلب: مرفوع أو منصوب. ووجه النصب: أن يكون مثل سفه نفسه، أى: يهد فى قلبه. ويجوز أن يكون المعنى: أنّ الكافر ضال عن قلبه بعيد منه، والمؤمن واجد له مهتد إليه، كقوله تعالى (لمن كان له قلب) وقرئ: نهد قلبه، بالنون. ويهد قلبه، بمعنى: يهتد. ويهدأ قلبه: يطمئن. ويهد. ويهدا على التخفيف ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.

وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

﴿فإن توليتم﴾ فلا عليه إذا توليتم، لأنه لم يكتب عليه طاعتكم، إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ بعث لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على التوكل عليه والتقوى به فى أمره، حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه.

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

---

(١) رواه البخارى من رواية الأعرج عن أبى هريرة: وفى المتفق عليه من حديث أنس فى قصة المؤمن «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة. قال نبي الله: فيراهما جميعاً، ولهما عن ابن عمر «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ـ الحديث».

إنّ من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم ، ومن الأولاد أولاداً يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى ﴿فاحذروهم﴾ الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعا ، أى : لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ ، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ﴿وإن تعفوا﴾ عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ، فإن الله يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم . وقيل : إنّ ناسا أرادوا الهجرة عن مكة ، فثبطهم أزواجهم وأولادهم وقالوا : تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا ، فلما هاجروا بعد ذلك ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا فى الدين : أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فزين لهم العفو . وقيل : قالوا لهم : أين تذهبون وتدعون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم ، فغضبوا عليهم وقالوا : لئن جمعنا الله فى دار الهجرة لم نصبكم بخير ، فلما هاجروا منعوهم الخير ، فحثوا أن يعفوا عنهم ويردوا إليهم البر والصلة . وقيل : كان عوف بن مالك الأشجعى ذا أهل وولد ، فإذا أراد أن يغزو تعلقوا به وبكوا إليه ورققوه ، فكأنه همّ بأذاهم ، فنزلت ﴿فتنة﴾ بلاء ومحنة ، لأنهم يوقعون فى الإثم والعقوبة ، ولا بلاء أعظم منهما ؛ ألا ترى إلى قوله ﴿والله عنده أجر عظيم﴾ وفى الحديث «يؤتى برجل يوم القيامة فيقال : أكل عياله حسناته»[1] وعن بعض السلف : العيال سوس الطاعات . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل إليهما فأخذهما[2] ووضعهما فى حجره على المنبر فقال : «صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما» ، ثم أخذ فى خطبته . وقيل : إذا أمكنكم الجهاد والهجرة فلا يفتننكم الميل إلى الأموال والأولاد عنهما .

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾

﴿ما استطعتم﴾ جهدكم ووسعكم ، أى : ابذلوا فيها استطاعتكم ﴿واسمعوا﴾ ما توعظون به ﴿وأطيعوا﴾ فيما تأمرون به وتنهون عنه ﴿وأنفقوا﴾ فى الوجوه التى وجبت عليكم النفقة فيها

(١) لم أره مرفوعا : وأخرجه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة سفيان الثورى من قوله . وروى على بن معبد فى الطاعة والمعصية عن إسحاق بن أبى يحيى عن عبد الملك عن بكير قال «ينادى مناد يوم القيامة : أين الذين أكلت عيالهم حسناتهم قوموا فان قبلكم الانبعاث» .

(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من رواية حسين بن واقد عن ابن بريدة عن أبيه . قال البزار لا نعلم له طريقا إلا هذا .

﴿خيراً لأنفسكم﴾ نصب بمحذوف، تقديره: ائتوا خيراً لأنفسكم، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع؛ وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر. وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا.

إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

وذكرُ القرض: تلطف فى الاستدعاء ﴿يضاعفه لكم﴾ يكتب لكم بالواحدة عشراً، أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة. وقرئ: يضعفه ﴿شكور﴾ مجاز، أى: يفعل بكم ما يفعل المبالغ فى الشكر من عظيم الثواب، وكذلك ﴿حليم﴾ يفعل بكم ما يفعل من يحلم عن المسىء، فلا يعاجلكم بالعقاب مع كثرة ذنوبكم.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة»[1].

سورة الطلاق

مدنية، وهى إحدى عشرة، أو اثنتا عشرة، أو ثلاث عشرة آية

[نزلت بعد الإنسان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى الله عنه.

بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)

خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب [١] ؛ لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يافلان افعلوا كيت وكيت ، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه ، وأنه مدرة قومه [٢] ولسانهم ، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه ، فكان هو وحده في حكم كلهم ، وسادّاً مسدّ جميعهم . ومعنى ﴿إذا طلقتم النساء﴾ إذا أردتم تطليقهن وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه : كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه» [٣] ومنه كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المصلي ﴿فطلقوهن لعدّتهن﴾ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن [٤] . كقولك : أتيته لليلة بقيت من المحرم ، أى : مستقبلا لها . وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : في قبل عدّتهنّ ، وإذا طلقت المرأة في الطهر المتقدم للقرء الأوّل من أقرائها ، فقد طلقت مستقبلة لعدتها . والمراد : أن يطلقن في طهر لم يجامعن فيه [٥] ، ثم يخلين حتى تنقضي عدّتهن . وهذا أحسن الطلاق وأدخله في السنة وأبعده

---

(١) قال محمود : «خص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب ... الخ» قال أحمد : وعلى هذا الفرق جرى قوله تعالى حكاية عن فرعون : (قال فمن ربكما ياموسى) فأفرد موسى عليه السلام بالنداء ، لأنه كان أجل الاثنين عليهما السلام وعمهما بالخطاب . وقد تقدم فيه وجه آخر .

(٢) قوله «وأنه مدرة قومه» في الصحاح العرب تسمى القرية مدرة اه ، فالمعنى أنه بمنزلة القرية لقومه . (ع)

(٣) متفق عليه . وقد تقدم في أوائل البقرة .

(٤) قال محمود : «ومعنى فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ... الخ» قال أحمد : حمل القراءتين المستفيضة والشاذة على أن وقت الطلاق هو الوقت الذى تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وادعى أن ذلك معنى المستقبل فيها ، ونظر اللام فيها باللام في قولك مؤرخا الليلة . لليلة بقيت من المحرم . وإنما يعني أن العدة بالحيض : كل ذلك تحامل لمذهب أبي حنيفة في أن الأقراء الحيض ، ولا يتم له ذلك ؛ فقد استدل أصحابنا بالقراءة المستفيضة ، وأكدوا الدلالة بالشاذة على أن الأقراء الأطهار . ووجه الاستدلال لها على ذلك : أن الله تعالى جعل العدة ـ وإن كانت في الأصل مصدراً ـ ظرفا للطلاق المأمور به ، وكثيراً ماتستعمل العرب المصادر ظرفا ، مثل خفوق النجم ومقدم الحاج . وإذا كانت العدة ظرفا للطلاق المأمور به ، وزمانه هو الطهر وفاقا ؛ فالطهر عدة إذاً . ونظير اللام هنا على التحقيق : اللام في قوله (ياليتني قدمت لحياتي) وإنما تمنى أن لو عمل عملا في حياته ؛ وقراءته عليه السلام : في قبل عدتهن ، تحقق ذلك . فان قبل . الشيء جزء منه وداخل فيه وفى صفة مسح الرأس فأقبل بهما وأدبر ، أى مسح قبل الرأس وهو مقدمها ، فحينئذ قبل العدة جزء منها وهو الطهر .

(٥) قال محمود : «والمراد أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ... الخ» قال أحمد : الأمر كما نقله ، وضابط =

من الندم ، ويدل عليه ماروى عن إبراهيم النخعي أنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون أن لايطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضي العدّة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرّجل ثلاثا في ثلاثة أطهار . وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة. وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا مازاد على الواحدة في طهر واحد ، فأما مفرقا في الأطهار فلا ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض: ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، وتطلقها لكل قرء تطليقة [1] وروى أنه قال لعمر : مر ابنك فليراجعها ، ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ؛ فتلك العدّة التي أمر الله أن تطلق لها النساء [2] . وعند الشافعي رضي الله عنه : لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف في عدد الطلاق سنة ولا بدعة وهو مباح . فمالك تراعى في طلاق السنة الواحدة والوقت ؛ وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت ؛ والشافعي يراعى الوقت وحده . فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ قلت : نعم ، وهو آثم ؛ لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّ رجلا طلق امرأته ثلاثا بين يديه ، فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم [3]. وفي حديث ابن عمر أنه قال : يا رسول الله ، أرأيت لو طلقتها ثلاثا ، فقال له : إذن عصيت وبانت منك امرأتك [4] . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتى برجل طلق امرأته

ـــ السنة عند مالك : أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه واحدة وهي غير معتدة . والآية تدل لمذهبه على تأويل المتقدمين جميعا ؛ أما على تأويل الزمخشري وتفسيره المقيد بالاستقبال ، فلأن الطلاق المأمور به أي المأذون فيه في الآية : مقيد بوقت تكون العدة مستقبلة بالنسبة إليه ، وهذا يأبى وقوع الطلاق في أثناء العدة الماضي بعضها . وأما على تأويلنا فلأنه مقيد بزمان يكون أولا للعدة وقبلا لها ، وهذا يأبى من وقوعه مرادفا في الطهر الثاني والثالث ، غير أن البدعة عند مالك تتفاوت ، فلا جرم قال إن طلقها في الحيض أجبر على الرجعة ، فان أبى ارتجع عليه الحاكم ؛ وإن طلقها في طهر مسها فيه أو أردف الطلاق لم يجبره ،

(١) أخرجه الدارقطني من رواية عطاء الخراساني عن الحسن عن ابن عمر به ، وأتم منه .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) لم أره هكذا . وإنما رواه النسائي من رواية مخرمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا . فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال : يارسول الله ، ألا نقتله ؟ » .

(٤) هو في آخر الحديث الثاني عند الدارقطني ولفظه «فقلت : يارسول الله ، أفرأيت لو طلقتها ثلاثا أكان يحل لي أن أراجعها ؟ قال : لا . كانت تبين منك ، وكانت معصية» والفظ الذي في الكتاب موقوف .. في الصحيح على ابن عمر رضي الله عنهما .

ثلاثا إلا أوجعه ضربا . وأجاز ذلك عليه [1] . وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين : أنّ من خالف السنة فى الطلاق فأوقعه فى حيض أو ثلث لم يقع ، وشبهوه بمن وكل غيره بطلاق السنة فخالف . فإن قلت : كيف تطلق للسنة التى لا تحيض لصغر أو كبر أو حمل وغير المدخول بها ؟ قلت : الصغيرة والآيسة والحامل كلهن عند أبى حنيفة وأبى يوسف يفرق عليهن الثلاث فى الأشهر ، وخالفهما محمد وزفر فى الحامل فقالا : لا تطلق للسنة إلا واحدة . وأما غير المدخول بها فلا تطلق للسنة إلا واحدة ، ولا يراعى الوقت . فإن قلت : هل يكره أن تطلق المدخول بها واحدة بائنة ؟ قلت : اختلفت الرواية فيه عن أصحابنا . والظاهر الكراهة . فإن قلت : قوله إذا طلقتم النساء عام يتناول المدخول بهن وغير المدخول بهن من ذوات الأقراء والآيسات والصغائر والحوامل ، فكيف صحّ تخصيصه بذوات الأقراء المدخول بهن ؟ قلت : لا عموم ثم ولا خصوص ، ولكن النساء اسم جنس للإناث من الإنس . وهذه الجنسية معنى قائم فى كلهن وفى بعضهن ، فجاز أن يراد بالنساء هذا وذاك ، فلما قيل (فطلقوهنّ لعدّتهنّ) علم أنه أطلق على بعضهنّ وهنّ المدخول بهن من المعتدات بالحيض ﴿وأحصوا العدّة﴾ واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن [2] ﴿ولا تخرجوهنّ﴾ حتى تنقضى عدّتهنّ ﴿من بيوتهنّ﴾ من مساكنهنّ التى يسكنها قبل العدة ، وهى بيوت الأزواج ؛ وأضيفت إليهنّ لاختصاصها بهنّ من حيث السكنى . فإن قلت : ما معنى الجمع بين إخراجهم أو خروجهن [3] ؟ قلت : معنى الإخراج [4] : أن لا يخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن ، أو لحاجة لهم إلى المساكن ، وأن لا يأذنوا لهنّ فى الخروج إذا طلبن ذلك ، إيذانا بأنّ إذنهم لا أثر له فى رفع الحظر ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ذلك ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قرئ بفتح الياء وكسرها . قيل : هى الزنا ، يعنى إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن . وقيل : إلا أن يطلقن على النشوز ، والنشوز يسقط حقهنّ فى السكنى . وقيل : إلا أن يبذون [5]

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية شقيق بن عبد الله عن أنس قال : كان عمر رضى الله عنه إذا أتى برجل طلق امرأته ثلاثا فى مجلس أوجعه ضربا . وفرق بينهما » .

(٢) قال محمود : «ومعناه أكملوا العدة أقراء ثلاثة مستوفاة» قال أحمد : وقوله (واتقوا الله ربكم) توطئة لقوله (لا تخرجوهن من بيوتهن) حتى كأنه نهى عن الاخراج مرتين : مندرجا فى العموم ، ومفردا بالخصوص . وقد تقدمت أمثاله .

(٣) قوله «بين إخراجهم أو خروجهن» لعله : وخروجهن . (ع)

(٤) قوله «قلت : معنى الاخراج» الأولى : معنى الجمع بينهما ، وإلا فالأولى فيما يأتى ، ومعنى الخروج : أن لا يخرجن بأنفسهن . (ع)

(٥) قوله «وقيل إلا أن يبذون» فى الصحاح : البذاءة ـ بالمد : الفحش ، تقول : بذوت على القوم وأبذيت ، وقد بذو الرجل . (ع)

فيحل إخراجهنّ لبذائهن ؛ وتؤكده قراءة أبىّ : إلا أن يفحشن عليكم . وقيل : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة فى نفسه . الأمر الذى يحدثه الله : أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها . والمعنى : فطلقوهنّ لعدتهن وأحصوا العدة ، لعلكم ترغبون وتندمون فتراجعون ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ وهو آخر العدة وشارفنه ، فأنتم بالخيار : إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار وهو أن يراجعها فى آخر عدتها ثم يطلقها تطويلا للعدة عليها وتعذيباً لها ﴿وأشهدوا﴾ يعنى عند الرجعة والفرقة جميعا . وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبى حنيفة كقوله (وأشهدوا إذا تبايعتم) وعند الشافعى : هو واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة . وقيل : فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد ، وأن لا يتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث ﴿منكم﴾ قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة : من أحراركم ﴿لله﴾ لوجهه خالصا ، وذلك أن تقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه . ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الظلم ، كقوله تعالى (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) أى ﴿ذلكم﴾ الحث على إقامة الشهادة لوجه الله ولأجل القيام بالقسط ﴿يوعظ به . . . . . . ومن يتق الله﴾ يجوز أن تكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة ، وطريقه الأحسن والأبعد من الندم ، ويكون المعنى : ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد ﴿يجعل﴾ الله ﴿له مخرجا﴾ مما فى شأن الأزواج من الغموم والوقوع فى المضايق ، ويفرج عنه وينفس ويعطه الخلاص ﴿ويرزقه﴾ من وجه لا يخطره بباله ولا يحتسبه إن أوفى المهر وأدى الحقوق والنفقات وقل ماله . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا ، هل له من مخرج ؟ فتلاها[1] . وعن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال : لم تتق الله فلم يجعل لك مخرجا ، بانت منك بثلاث والزيادة إثم فى عنقك . ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله (ذلكم يوعظ به) يعنى : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال : مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد

---

(١) أخرجه الدارقطنى والطبرانى وابن مردويه من طريق عبيد الله بن الوليد وغيره عن إبراهيم بن عبد الله ابن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده . قال «طلق بعض آبائى امرأته ألفا فانطلق بنوه ، فقالوا : يا رسول الله إن أبانا طلق أمنا ألفا . فهل له مخرج . فقال : إن أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجا ـ الحديث» وفى إسناده جماعة من الضعفاء . رواه إسحق فى مسنده عن ابن إدريس عن عبيد الله بن الوليد عن داود بن إبراهيم عن عبادة بن الصامت كذا قال .

يوم القيامة[١] . وقال عليه السلام : إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم (ومن يتق الله . . .) فما زال يقرؤها ويعيدها[٢] . وروى أنّ عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابناً له يسمى سالما . فأتى رسول الله فقال : أسر ابنى وشكا إليه الفاقة ؛ فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مدّ فاتق الله واصبر وأكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله ، ففعل فبينا هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها ، فنزلت هذه الآية[٣] ﴿ بالغ أمره ﴾ أي يبلغ ما يريد لا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب . وقرئ : بالغ أمره بالإضافة ، وبالغ أمره : بالرفع ، أى : نافذ أمره وقرأ المفضل : بالغا أمره ، على أنّ قوله ﴿ قد جعل الله ﴾ خبر إن ، وبالغا حال ﴿ قدرا ﴾ تقديراً وتوقيتا . وهذا بيان لوجوب التوكل على الله[٤] ، وتفويض الأمر إليه ؛ لأنه إذا علم أنّ كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته : لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل .

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي من رواية سعيد بن راشد عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن زيد بن أسلم عن عطاء عن ابن عباس به مرفوعا . ورواه أبو نعيم موقوفا على قتادة في ترجمته في الحلية .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد وابن ماجه وابن حبان والحاكم من طريق ابن السليل حزيب بن مغير عن أبي ذر مرفوعا

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال «جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكره نحوه . ولم يسم الابن ، لكن قال : أنه أحضر أربعة آلاف شاة ورواه البيهقي في الدلائل من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه نحوه . وفيه فلم يلبث الرجل أن رد الله عليه ابنه وإبله أوفر ما كانت . فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمرهم بمسألة الله والرغبة إليه . وقرأ عليهم (ومن يتق الله ـ الآية) وروى الحاكم من طريق سالم بن الجعد عن جابر قال « نزلت هذه الآية في رجل من أشجع كان فقيراً خفيف ذات اليد كثير العيال ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله . فقال : اتق الله واصبر ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم كان العدو أصابها . فذكره مختصراً . وفيه عبيد بن كثير تركه الأزدي وعباد عن يعقوب . وهو رافضي .

(٤) قال محمود : «قوله (بالغ أمره) بيان لوجوب التوكل على الله ، وتفويض الأمر إليه ... الخ» قال أحمد : ليس بعشك فادرجي أيراه القدري ، وأين التسليم للقدر وليس هذا دينه ولا معتقده من تقسيم الحوادث ثلاثة أقسام : فنها ما يريد الله تعالى وجوده وهو المأمورات ولا يقع أكثر مراده منها ، ومنها ما يريد عدمه وهو المنهيات فيوجد أكثرها على خلاف مراده ، ومنها ما لا يريد عدمه ولا وجوده فان وجد فبغير إرادته عز وجل وإن عدم فكذلك فيتحصل من هذا الهذيان الذى لا يتصور أن الكائنات إنما تتبع إرادة الخلق لأنها لا تقع إلا بها ، فان وافقت إرادة الله تعالى فليس وقوعها تابعاً لها ؛ لأنها وقعت بدونها ؛ وإن خالفت إرادة الله تعالى لم يكن لمخالفتها للارادة الربانية تأثير في منع وقوعها ، فمن يتوغل في أدغال هذا الضلال كيف له بالتوكل الذى يتوقف على اعتقاد أن الكائنات جميعها إنما تتوقف على إرادة الله عز وجل ، فمهما أراده وقع ، ومهما لم يرده لم يقع ، شاء العبد أو أبى ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، والعبد مجرى لحدوث الكائنات الواقعة بقدرة الله تعالى وإرادته لاغير ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، فما القدرى من هذا المقام الشريف إلا على مراحل لا يقربه إليها إلا راحلة الانصاف وزاد التقوى ودليل التوفيق ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)

روى أنّ ناسا قالوا : قد عرفنا عدة ذوات الأقراء ، فما عدة اللائي لا يحضن ؛ فنزلت : فمعنى ﴿إن ارتبتم﴾ : إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن فهذا حكمهنّ ، وقيل : إن ارتبتم فى دم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين ، أهو دم حيض أو استحاضة ؟ ﴿فعدتهنّ ثلاثة أشهر﴾ وإذا كانت هذه عدة المرتاب بها ، فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿واللائى لم يحضن﴾ هن الصغائر . والمعنى : فعدتهن ثلاثة أشهر ، فحذف لدلالة المذكور عليه . اللفظ مطلق فى أولات الأحمال ، فاشتمل على المطلقات والمتوفى عنهن . وكان ابن مسعود وأبىّ وأبو هريرة وغيرهم لا يفرقون . وعن على وابن عباس : عدة الحامل المتوفى عنها أبعد الأجلين[١] . وعن عبدالله : من شاء لاعنته أنّ سورة النساء القصرى نزلت بعد التى فى البقرة[٢] ، يعنى : أنّ هذا اللفظ مطلق فى الحوامل . وروت أم سلمة أنّ سبيعة الأسلمية ولدت بعد وفاة زوجها بليال ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : قد حللت فأنكحى[٣] ﴿يجعل له من أمره يسرا﴾ ييسر له من أمره ويحلل له من عقده بسبب التقوى ﴿ذلك أمر الله﴾ يريد ما علم من حكم هؤلاء المعتدات . والمعنى : ومن يتق الله فى العمل بما أنزل الله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه مما ذكر من الإسكان وترك الضرار والنفقة على الحوامل وإيتاء أجر المرضعات وغير ذلك : استوجب تكفير السيئات والأجر العظيم .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ

(١) رواه البخارى فى صحيحه قال : «جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة عنده . فقال : أفتنى فى امرأة ولدت بعد وفاة زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس آخر الأجلين وفيه قصة سبيعة . وفيه مخالفة أبى هريرة له فى ذلك رواه ابن أبى شيبة عن وكيع عن إسماعيل عن الشعبى قال قال عبد الله «أجل كل حامل حتى تضع» وكان على يقول «آخر الأجلين» وله طريق أخرى عنده موصولة من طريق عبيد بن الحسن عن عبد الرحمن بن معقل قال «شهدت عليا رضى الله عنه ... فذكره نحوه .

(٢) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه من طريق مسروق لم يذكر البخارى أوله . وزاد عبد الرزاق أنه قال ذلك لما بلغه أن عليا قال «هى فى آخر الأجلين» .

(٣) متفق عليه وله طرق وألفاظ . وفى رواية البخارى «فوضعت بعد موته بأربعين ليلة» .

وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

﴿أسكنوهن﴾ ومابعده : بيان لما شرط من التقوى فى قوله (ومن يتق الله) كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ؟ فقيل : أسكنوهن . فإن قلت : من فى ﴿من حيث سكنتم﴾ ماهى ؟ قلت : هى من التبعيضية مبعضها محذوف[1] معناه : أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم ، أى بعض مكان سكناكم ، كقوله تعالى (يغضوا من أبصارهم) أى بعض أبصارهم . قال قتادة : إن لم يكن إلا بيت واحد، فأسكنها فى بعض جوانبه . فإن قلت:فقوله ﴿من وجدكم﴾ ؟[2] قلت : هو عطف بيان لقوله (من حيث سكنتم) وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه . والوجد : الوسع والطاقة . وقرئ بالحركات الثلاث . والسكنى والنفقة : واجبتان لكل مطلقة . وعند مالك والشافعى : ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها . وعن الحسن وحماد : لانفقة لها ولا سكنى ؛ لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبت طلاقها[3] ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاسكنى لك ولا نفقة[4] . وعن عمر رضى الله عنه : لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها نسيت أو شبه لها : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «لها السكنى والنفقة»[5] ﴿ولا تضاروهن﴾ ولاتستعملوا معهن الضرار ﴿لتضيقوا عليهن﴾ فى المسكن ببعض الأسباب : من إنزال من لا يوافقهن ، أو يشغل مكانهن ، أو غير ذلك ، حتى تضطروهن إلى الخروج . وقيل : هو أن يراجعها إذا بقى من عدتها يومان ليضيق

---

(١) قوله «مبعضها محذوف معناه» قد يقال : مبعضها هو مدخولها ، وهو (حيث سكنتم) بمعنى مكان سكناكم فلا حذف ، إلا أن يراد بمبعضها البعض المدلول عليه بها . (ع)

(٢) قوله «فإن قلت فقوله من وجدكم» لعل عقبه سقطا تقديره . ما موقعه ؟ (ع)

(٣) قوله «أن زوجها أبت طلاقها» لعله «بت» كما فى النسفى . (ع)

(٤) أخرجه مسلم من طرق عنها . وفى رواية «فلم يجعل لها سكنى ولا نفقة» وفى رواية «لا نفقة لك ولا سكنى» وفى رواية «طلقنى زوجى ثلاثا» .

(٥) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى من طريق أبى إسحاق قال «كنت مع الأسود ومعنا الشعبى فى المسجد إذ حدث الشعبى بحديث فاطمة بنت قيس . فأخذ الأسود كفاً من حصا فحصبه به وقال : ياويلك تحدث بمثل هذا ؟ قال عمر : لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لعلها حفظت أو نسيت .

عليها أمرها . وقيل : هو أن يلجئها إلى أن تفتدى منه . فإن قلت : فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة ، فما فائدة الشرط فى قوله ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن ﴾[1] قلت : فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظانّ أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل ، فنفى ذلك الوهم . فإن قلت : فما تقول فى الحامل المتوفى عنها ؟ قلت : مختلف فيها ؛ فأكثرهم على أنه لا نفقة لها ، لوقوع الإجماع على أنّ من أجبر الرجل على النفقة عليه من امرأة أو ولد صغير لا يجب أن ينفق عليه من ماله بعد موته ، فكذلك الحامل . وعن على وعبدالله وجماعة : أنهم أوجبوا نفقتها ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ يعنى هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولداً من غيرهنّ أو منهنّ بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿ فآتوهنّ أجورهنّ ﴾ حكمهنّ فى ذلك حكم الأظآر[2] ، ولا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه رضى الله عنهم الاستئجار إذا كان الولد منهن مالم يبنّ . ويجوز عند الشافعى . الائتمار بمعنى التآمر ، كالاشتوار بمعنى التشاور . يقال : ائتمر القوم وتآمروا ، إذا أمر بعضهم بعضاً . والمعنى : وليأمر بعضكم بعضا ، والخطاب للآباء والأمهات ﴿ بمعروف ﴾ بجميل وهو المسامحة ، وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم ؛ لأنه ولدهما معا ، وهما شريكان فيه وفى وجوب الإشفاق[3] عليه ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ؛ وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك[4] ، تريد : لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم ، وقوله (له) أى للأب . أى : سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه ﴿ لينفق ﴾ كل واحد من

(١) قوله تعالى : (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم) إلى قوله : (وإن كن أولات حمل ... الآية) . قال أحمد : لا يخفى على المتأمل لهذه الآى أن المبتوتة غير الحامل لا نفقة لها ، لأن الآى سيقت لبيان الواجب ، فأوجب السكنى لكل معتدة تقدم ذكرها ولم يوجب سواها ، ثم استثنى الحوامل فخصهن بإيجاب النفقة لهن حتى يضعن حملهن ، وليس بعد هذا البيان بيان ، والقول بعد ذلك بوجوب النفقة لكل معتدة مبتوتة حاملا أو غير حامل لا يخفى منافرته لنظم الآية ، والزمخشرى نصر مذهب أبى حنيفة فقال : فائدة تخصيص الحوامل بالذكر : أن الحمل ربما طال أمده فيتوهم متوهم أن النفقة لا تجب بطوله ، فخصت بالذكر تنبيها على قطع هذا الوهم ؛ وغرض الزمخشرى بذلك أن يحمل التخصيص على هذه الفائدة ، كيلا يكون له مفهوم فى إسقاط النفقة لغير الحوامل ؛ لأن أبا حنيفة يسوى بين الجميع فى وجوب النفقة .

(٢) قوله « فى ذلك حكم الأظآر » الظئر : المرضع لولد غيرها ، والجمع : ظؤار ، بالضم . وظؤور وأظآر ، كما فى الصحاح . (ع)

(٣) قوله « وفى وجوب الاشفاق » كذا عبارة النسفى . (ع)

(٤) قال محمود : « وفى قوله (وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) معاتبة للأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة ... الخ » قال أحمد : وخص الأم بالمعاتبة لأن المبذول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو غير متمول ولا مضنون به فى العرف ، وخصوصا فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ؛ فإنه المال المضنون به عادة ، فالأم إذاً أجدى باللوم وأحق بالعتب ، والله أعلم .

الموسر والمعسر مابلغه وسعه يريد : ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، كما قال (ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) وقرئ لينفق بالنصب ، أى شرعنا ذلك لينفق . وقرأ ابن أبى عبلة : قدر ﴿سيجعل الله﴾ موعد لفقراء ذلك الوقت بفتح أبواب الرزق عليهم ، أو لفقراء الأزواج إن أنفقوا ماقدروا عليه ولم يقصروا .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾

﴿عتت عن أمر ربها﴾ أعرضت عنه على وجه العتو والعناد ﴿حسابا شديدا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿عذابا نكرا﴾ وقرئ : نكرا منكرا عظيما ، والمراد : حساب الآخرة وعذابها مايذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر ، وجيء به على لفظ الماضى ، كقوله تعالى (ونادى أصحاب الجنة) ، (ونادى أصحاب النار) ونحو ذلك ؛ لأنّ المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى فى الحقيقة ، وماهو كائن فكان قد . وقوله ﴿أعد الله لهم عذابا شديدا﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقبا ، كأنه قال : أعد الله لهم هذا العذاب فليكن لكم ذلك ﴿يا أولى الألباب﴾ من المؤمنين لطفا فى تقوى الله وحذر عقابه . ويجوز أن يراد إحصاء السيئات ، واستقصاؤها عليهم فى الدنيا ، وإثباتها فى صحائف الحفظة ، وما أصيبوا به من العذاب فى العاجل ؛ وأن يكون (عتت) وما عطف عليه : صفة للقرية . وأعد الله لهم : جوابا لكأين ﴿رسولا﴾ هو جبريل صلوات الله عليه : أبدل من ذكرا ، لأنه وصف بتلاوة آيات الله ، فكان إنزاله فى معنى إنزال الذكر[1] فصح إبداله منه . أوأريد بالذكر : الشرف ، من قوله (وإنه لذكر لك ولقومك) فأبدل

(١) قوله تعالى (رسولا) ذكر الزمخشرى فيه ستة أوجه : إبدال الرسول من الذكر لأن إنزاله فى معنى إنزال الذكر ... الخ) قال أحمد : وعلى هذين الوجهين الأخيرين يكون مفعولا ، إما بالفعل المحذوف أو بالمصدر . وعلى الأربعة المتقدمة بدلا . والله سبحانه وتعالى أعلم .

منه ، كأنه فى نفسه شرف : إما لأنه شرف المنزل عليه ، وإما لأنه ذو مجد وشرف عند الله ، كقوله تعالى (عند ذى العرش مكين) أو جعل لكثرة ذكره لله وعبادته كأنه ذكر . أو أريد : ذا ذكر ، أى ملكا مذكورا فى السموات وفى الأمم كلها . أو دل قوله (أنزل الله إليكم ذكرا) على : أرسل فكأنه قيل : أرسل رسولا ؛ أو أعمل ذكراً فى رسولا إعمال المصدر فى المفاعيل ، أى : أنزل الله أن ذكر رسولا أو ذكره رسولا . وقرئ : رسول ، على : هو رسول . أنزله ﴿ليخرج الذين آمنوا﴾ بعد إنزاله ، أى : ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح : لأنهم كانوا وقت إنزاله غير مؤمنين ، وإنما آمنوا بعد الإنزال والتبليغ . أو ليخرج الذين عرف منهم أنهم يؤمنون . قرئ : يدخله ، بالياء والنون ﴿قد أحسن الله له رزقا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم ، لما رزق المؤمن من الثواب .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

﴿الله الذى خلق﴾ مبتدأ وخبر . وقرئ : مثلهن بالنصب ، عطفا على سبع سموات ؛ وبالرفع على الابتداء ، وخبره : من الأرض . قيل : ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه . وقيل : بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء كذلك ، والأرضون مثل السموات ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾ أى يجرى أمر الله وحكمه بينهن ، وملكه ينفذ فيهن . وعن قتادة : فى كل سماء وفى كل أرض خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه . وقيل : هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره . وقرئ : ينزل الأمر . وعن ابن عباس : أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق ؟ قال : نعم . قال : فما الخلق ؟ قال : إما ملائكة أو جنّ ﴿لتعلموا﴾ قرئ بالتاء والياء .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم »[1]

---

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

سورة التحريم

مدنية ، وتسمى سورة النبي صلى الله عليه وسلم
وهى ثنتا عشرة آية [نزلت بعد الحجرات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بمارية فى يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمى علىّ ، وقد حرمت مارية على نفسى [(١)] ، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان

(١) « نقل الزمخشري فى سبب نزولها أنه عليه السلام خلا بمارية فى يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : اكتمى علىّ وقد حرمت مارية على نفسى ... الخ » قال أحمد : ما أطلقه الزمخشري فى حق النبي صلى الله عليه وسلم تقول وافتراء ، والنبي صلى الله عليه وسلم منه براء ؛ وذلك أن تحريم ما أحله الله على وجهين : اعتقاد ثبوت حكم التحريم فيه ، فهذا بمثابة اعتقاد حكم التحليل فيما حرمه الله عز وجل ، وكلاهما محظور لا يصدر من المتسمين بسمة الايمان ؛ وإن صدر سلب المؤمن حكم الايمان واسمه . الثانى : الامتناع مما أحله عز وجل ، وحمل التحريم بمجرده صحيح ، لقوله (وحرمنا عليه المراضع من قبل) أى منعنا لا غير ، وقد يكون مؤكداً باليمين مع اعتقاد حله ، وهذا مباح صرف وحلال محض ، ولو كان على المنع ترك المباح والامتناع منه غير مباح استحالت حقيقة الحال بلا إشكال ، فاذا علمت بون ما بين القسمين ، فعلى القسم الثانى تحمل الآية ، والتفسير الصحيح يعضده ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم حلف بالله لا أقرب مارية ، ولما نزلت الآية كفر عن يمينه ، ويدل عليه : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) وقال مالك فى المدونة : عن زيد بن أسلم إنما كفر النبي صلى الله عليه وسلم فى تحريمه أم ولده ، لانه حلف أن لا يقربها . ومثله عن الشعبي ، وهذا المقدار مباح ليس فى ارتكابه جناح ، وإنما قيل له : لم تحرم ما أحل الله لك ، رفقاً به وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه صلى الله عليه وسلم : أن يراعى مرضات أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف الله تعالى بنبيه ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه ومن أجله خلقوا ، ليظهر الله كمال نبوته بظهور نقصانهم عنه ، والزمخشري قطعا لم يحمل التحريم على هذا الوجه ، لأنه جعله زلة ، فيلزمه أن يحمله على المحمل الأول ، ومعاذ الله وحاش لله وإن آحاد المؤمنين يحاشى عن أن يعتقد تحريم ما أحل الله له ، فكيف لا يربأ بمنصب النبي عليه السلام عما يرتفع عنه منصب عامة الأمة ، وما هذه من الزمخشري إلا جراءة على الله ورسوله ، وإطلاق القول من غير تحرير ، وإبراز الرأى الفاسد بلا تخمير ؛ نعوذ بالله من ذلك ، وهو المسئول أن يجعل وسيلتنا إليه تعظيما لنبينا صلوات الله عليه ، وأن يجنبنا خطوات الشيطان ، ويقيلنا من عثرات اللسان ، آمين .

بعدى أمر أمتى . فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين (١) . وقيل : خلا بها فى يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم (٢) ، فطلقها واعتزل نساءه : ومكث تسعاً وعشرين ليلة فى بيت مارية . وروى أن عمر قال لها : لو كان فى آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : راجعها فإنها صوامة قوّامة ، وإنها لمن نسائك فى الجنة (٣) . وروى أنه شرب عسلا فى بيت زينب بنت جحش . فتواطأت عائشة وحفصة فقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره التفل ، فحرّم العسل (٤) . فمعناه ﴿لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ من ملك اليمين أو العسل . و﴿تبتغى﴾ إما تفسير لتحرم . أو حال : أو

---

(١) لم أقف فى شىء من الطرق على أن ذلك كان فى بيت عائشة رضى الله عنها ، إلا فيما رواه ابن سعد عن الواقدى عن عمر بن عقبة عن شعبة هو مولى ابن عباس سمعت ابن عباس يقول «خرجت حفصة من بيتها . وكان يوم عائشة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة ، فجاءت حفصة والباب مجاف فدفعته حتى خرجت الجارية . فقالت حفصة : أما إنى قد رأيت ما صنعت . فقال لها : اكتمى على وهى على حرام ، فانطلقت حفصة إلى عائشة فأخبرتها فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) فأمر فكفر عن يمينه وحبس نساءه» وروى الطبرانى فى عشرة النساء وابن مردويه فى التفسير عنه من طريق موسى بن جعفر بن أبى كثير بن عبد الرحمن عن عمر عن أبى بكر بن عبد الرحمن عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية بيت حفصة بنت عمر فوجدتها معه . فقالت : يا رسول الله فى بيتى وتفعل هذا بى من دون نسائك قال : فإنها على حرام أن أمسها يا حفصة ، ألا أبشرك ؟ فقالت : بلى . قال : يلى هذا الأمر من بعدى أبو بكر ويليه من بعده أبوك واكتمى هذا على ، فخرجت حتى أتت عائشة فذكرت ذلك كله . وفيه قوله : وكان أدى السرور أن حرمها على نفسه ، فأنزل الله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) وروى الطبرانى من طريق الضحاك عن ابن عباس قال «دخلت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم فى بيتها وهو يطأ مارية ، فقال لها لا تخبرى عائشة حتى أبشرك ببشارة . فإن أباك يلى من بعد أبى بكر إذا أنا مت ، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة . فقالت عائشة رضى الله عنها : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية فحرمها . فأنزل الله الآية» .

(٢) أخرجه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبى خيثمة قال : أخبرنى بعض آل عمر قال «أصاب النبي صلى الله عليه وسلم جاريته القبطية أم ابراهيم فى بيت حفصة وفى يومها . فعثرت حفصة على ذلك . فقالت : يا رسول الله ، لقد جئت أمرا ما جئته إلى أحد من نسائك فى بيتى وعلى فراشى ، وفى دولتى ؟ قال : أيرضيك أن أحرمها فلا أمسها أبداً ؟ قالت : نعم . فحرمها على نفسه . وقال لا تذكريه لأحد من الناس ، وكانت حفصة لا تكتم عائشة شيئا ، فلما خرجت ذهبت إلى عائشة فأخبرتها . فأنزل الله تعالى «يا أيها النبي لم تحرم ، فكفر عن يمينه ، وقرب جاريته» وقوله «وطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعة وعشرين ليلة فى بيت مارية» : لم أر هذا .

(٣) لم أره هكذا ، وهو عند الحاكم وغيره بغير ذكر سببه ، وقال ابن سعد : أخبرنا زيد» وقال الحرث أخبرنا عفان قال : عن حماد عن أبى عمران الجونى عن قيس بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ، فقال : إن جبريل أتانى فقال لى : راجع حفصة فإنها صوامة قوامة ، وهى زوجتك فى الجنة» وروى الحاكم من طريق الحسن بن أبى جعفر عن ثابت عن أنس نحوه وزاد تطليقة ، والحسن ضعيف . واختلف عليه فيه ، ورواه الطبرانى والبزار من رواية الحسن المذكور عن عاصم عن عمار رضى الله عنه .

(٤) متفق عليه من حديث عمر بدون قوله «يكره التفل» فعندهما «وكان يشتد عليه أن يوجد منه الريح» .

استئناف . وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله لأن الله عزّ وجل إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله ، فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رَحِيمٌ﴾ قد رحمك فلم يؤاخذك به ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ فيه معنيان ، أحدهما : قد شرع الله لكم الاستثناء في أيمانكم ، من قولك : حلل فلان في يمينه . إذا استثنى فيها . ومنه : حلا أبيت اللعن [1] ، بمعنى : استثن في يمينك إذا أطلقها ؛ وذلك أن يقول « إن شاء الله » عقيبها ، حتى لا يحنث . والثاني : قد شرع الله لكم تحلتها بالكفارة . ومنه قوله عليه السلام : « لا يموت لرجل ثلاثة أولاد فتمسه النار إلا تحلة القسم » [2] وقول ذي الرمة :

* قَلِيلاً كَتَحْلِيلِ الأُلِيِّ * [3]

فإن قلت : ما حكم تحريم الحلال ؟ قلت : قد اختلف فيه ، فأبو حنيفة يراه يميناً في كل شيء ، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرّمه ؛ فإذا حرّم طعاما فقد حلف على أكله ، أو أمة فعلى وطئها ، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن له نية ؛ وإن نوى الظهار فظهار ؛ وإن نوى الطلاق فطلاق بائن ، وكذلك إن نوى ثنتين وإن نوى ثلاثا فكما نوى ، وإن قال : نويت الكذب دُيِّن فيما بينه وبين الله تعالى ، ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء . وإن قال : كل حلال عليّ حرام فعلى الطعام والشراب إذا لم ينو ، وإلا فعلى ما نوى ، ولا يراه الشافعي يميناً . ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهنّ . وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده . وعن أبي بكر وعمر وابن عباس وابن مسعود وزيد رضي الله عنهم : أنّ الحرام يمين [4] وعن عمر : إذا نوى الطلاق فرجعي . وعن علي رضي الله عنه : ثلاث [5] . وعن زيد : واحدة بائنة . وعن عثمان : ظهار .

---

(١) قوله « ومنه : حلا أبيت اللعن » في الصحاح : يقال حلا ، أي استثنى . ويا حالف اذكر حلا ، وهو بالكسر أفاده الصحاح أيضا . (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) قوله « كتحليل الألى » في الصحاح « الألية » : اليمين على فعيلة ، وكذلك الألوه والألوه ؛ فأما الألوة بالتشديد : فهو العود الذي يتبخر به اه ؛ فالألى في كلام ذي الرمة جمع الألوة بالتخفيف « كالمدية والمدى ، والخطوة والخطى . (ع)

(٤) حديث أبي بكر رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة من رواية جويبر عن الضحاك : أن أبا بكر وعمر وابن مسعود قالوا : من قال لامرأته : هي علي حرام ، فليست بحرام وعليه كفارة يمين . وإسناده ضعيف ومنقطع . وحديث عمر رضي الله عنه مثله ، وله طريق أخرى أخرجها ابن أبي شيبة أيضا من رواية خالد الحذاء عن عكرمة عنه قال « الحرام يمين » وهذا منقطع وحديث ابن عباس رضي الله عنهما مثله متفق عليه من رواية ابن جبير عنه قال : الحرام يمين يكفرها . وفي رواية لمسلم « إذا حرم الرجل امرأته فهي يمين يكفرها » . وحديث ابن مسعود مثله ، وله طريق أخرى أخرجها عبد الرزاق من طريق الطبراني عن ابن عقبة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عنه ، قال : في الحرام يمين يكفرها . ورجاله ثقات مع انقطاعه . وحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه مثله .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن علي في قول الرجل لامرأته : أنت علي حرام ، هي ثلاث . وهذا منقطع أيضا .

وكان مسروق لا يراه شيئا ويقول : ما أبالي أحرمتها أم قصعة من ثريد . وكذلك عن الشعبي قال : ليس بشيء ، محتجاً بقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) وقوله تعالى(لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم) وما لم يحرمه الله تعالى فليس لأحد أن يحرمه ولا أن يصير بتحريمه حراما ، ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أحله الله : هو حرام عليّ ، وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه ، وهو قوله عليه السلام : والله لا أقربها بعد اليوم ، فقيل له : (لم تحرّم ما أحل الله لك) أى لم تمتنع منه بسبب اليمين ، يعنى : أقدم على ما حلفت عليه ، وكفر عن يمينك . ونحوه قوله تعالى (وحرّمنا عليه المراضع) أي : منعناه منها . وظاهر قوله تعالى (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أنه كانت منه يمين . فإن قلت : هل كفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك ؟ قلت : عن الحسن: أنه لم يكفر ؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر [1] ، وإنما هو تعليم للمؤمنين . وعن مقاتل : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعتق رقبة فى تحريم مارية ﴿ والله مولاكم ﴾ سيدكم ومتولى أموركم ﴿ وهو العليم ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿ الحكيم ﴾ فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا بما توجبه الحكمة . وقيل : مولاكم أولى بكم من أنفسكم ، فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم لأنفسكم .

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾

﴿ بعض أزواجه ﴾ حفصة . والحديث الذى أسر إليها : حديث مارية وإمامة الشيخين ﴿ نبأت به ﴾ أفشته إلى عائشة . وقرئ : أنبأت به ﴿ وأظهره ﴾ وأطلع النبي عليه السلام ﴿ عليه ﴾ على الحديث ، أى : على إفشائه على لسان جبريل . وقيل : أظهر الله الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم من الظهور ﴿ عرف بعضه ﴾ أعلم ببعض الحديث تكرما . قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام . وقرئ : عرف بعضه ، أى : جاز عليه ، من قولك للمسيء : لأعرفن لك ذلك ، وقد عرفت ما صنعت . ومنه : أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، وهو كثير فى القرآن ؛ وكان جزاؤه تطليقه إياها . وقيل : المعرف : حديث الإمامة ، والمعرض عنه : حديث مارية : وروى

---

(١) لم أجده . وفى المراسيل لأبى داود عنه خلاف ذلك ، أخرجه من طريق قتادة عنه فى تحريم أم إبراهيم . قال : نأمر أن يكفر عن يمينه ، وكذا ذكره ابن اسحق كما تقدم أنه كفر عن يمينه .

أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : ألم أقل لك اكتمى علىّ ، قالت: والذى بعثك بالحق ماملكت نفسى فرحا بالكرامة التى خص الله بها أباها . فإن قلت : هلا قيل : فلما نبأت به بعضهن وعرفها بعضه ؟ قلت : ليس الغرض بيان من المذاع إليه ومن المعرف ، وإنما هو ذكر جناية حفصة فى وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرمه وحلمه ، لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه ، وهو حديث الإمامة . ألا ترى أنه لما كان المقصود فى قوله ﴿فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا﴾ ذكر المنبأ ، كيف أتى بضميره .

إِنْ تَتُوبَا إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

﴿إن تتوبا﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات ، ليكون أبلغ فى معاتبتهما . وعن ابن عباس : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عنهما حتى حج وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل وعدلت معه بالإداوة ، فسكبت الماء على يده فتوضأ ، فقلت : من هما ؟ فقال: عجباً يا ابن عباس ـ كأنه كره ماسألته عنه ـ ثم قال : هما حفصة وعائشة[1] ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ فقد وجد منكما مايوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب فى مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حب مايحبه وكراهة مايكرهه . وقرأ ابن مسعود : فقد زاغت ﴿وإن تظاهرا﴾ وإن تعاونا ﴿عليه﴾ بما يسوءه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره ، فلن يعدم هو من يظاهره ، وكيف يعدم المظاهر من الله مولاه أى وليه وناصره ؛ وزيادة (هو) إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه ، وأنه يتولى ذلك بذاته ﴿وجبريل﴾ رأس الكروبيين ؛ وقرن ذكره بذكره مفرداً له من بين الملائكة تعظيما له وإظهاراً لمكانته عنده ﴿وصالح المؤمنين﴾ ومن صلح من المؤمنين ، يعنى : كل من آمن وعمل صالحا . وعن سعيد بن جبير : من برئ منهم من النفاق . وقيل : الأنبياء وقيل : الصحابة . وقيل : الخلفاء منهم . فإن قلت : صالح المؤمنين واحد أم جمع ؟ قلت : هو واحد أريد به الجمع ، كقولك : لايفعل هذا الصالح من الناس ، تريد الجنس ، كقولك : لا يفعله من صلح منهم . ومثله قولك : كنت فى السامر والحاضر . ويجوز أن يكون أصله : صالحوا المؤمنين بالواو ، فكتب بغير واو على اللفظ ؛ لأنّ لفظ الواحد والجمع واحد فيه ، كما جاءت أشياء فى المصحف متبوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط ﴿والملائكة﴾ على تكاثر عددهم ، وامتلاء السموات من جموعهم ﴿بعد ذلك﴾ بعد نصرة الله وناموسه وصالحى المؤمنين ﴿ظهير﴾ فوج مظاهر له ، كأنهم يد واحدة على من يعاديه ، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء

---

(١) متفق عليه .

ظهراؤه ؟ فإن قلت : قوله (بعد ذلك) تعظيم للملائكة ومظاهرتهم . وقد تقدمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله تعالى أعظم وأعظم . قلت : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله ، فكأنه فضل نصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته تعالى ، لفضلهم على جميع خلقه[1] . وقرئ : تظاهرا . وتتظاهرا . وتظهرا .

عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

قرئ : يبدله ، بالتخفيف والتشديد للكثرة ﴿مسلمات مؤمنات﴾ مقرات مخلصات ﴿سائحات﴾ صائمات . وقرئ : سيحات ، وهى أبلغ . وقيل للصائم : سائح ؛ لأن السائح لازاد معه ، فلايزال ممسكا إلى أن يجد ما يطعمه ، فشبه به الصائم فى إمساكه إلى أن يجيء وقت إفطاره . وقيل : سائحات مهاجرات ، وعن زيد بن أسلم : لم تكن فى هذه الأمة سياحة إلا الهجرة . فإن قلت : كيف تكون المبدلات خيراً منهن ، ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟[2] قلت : إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه ، لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والنزول على هواه ورضاه خيراً منهن ، وقد عرض بذلك فى قوله (قانتات) لأن القنوت هو القيام بطاعة الله ، وطاعة الله فى طاعة رسوله . فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها عن العاطف[3] ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لايجتمعن فيهما اجتماعهن[4] فى سائر الصفات ،

---

(١) قوله «لفضلهم على جميع خلقه» مذهب المعتزلة تفضيل الملك على البشر ، وأهل السنة على تفضيل بعض البشر على الملائكة . (ع)

(٢) قوله «نساء خير من أمهات المؤمنين» لعله خيرا . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت لم أخليت هذه الصفات من العاطف ... الخ» قال أحمد : وقد ذكر لى الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : أن القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى الكاتب رحمه الله كان يعتقد أن الواو فى الآية هى الواو التى سماها بعض ضعفة النحاة واو الثمانية ، لأنها ذكرت مع الصفة الثامنة ، فكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة صلة ، أحدها التى فى الصفة الثامنة من قوله (التائبون العابدون) عند قوله (والناهون عن المنكر) والثانية فى قوله (وثامنهم كلبهم) والثالثة فى قوله (وفتحت أبوابها) قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب : ولم يزل الفاضل يستحسن ذلك من نفسه إلى أن ذكره يوما بحضرة أبى الجود النحوى المقرى فبين له أنه واهم فى عدها من ذلك القبيل ، وأحال البيان على المعنى الذى ذكره الزمخشرى من دعاء الضرورة إلى الاتيان بها ههنا ، لامتناع اجتماع الصفتين فى موصوف واحد ، وواو الثمانية إن ثبتت فانما ترد بحيث لاحاجة إليها إلا الاشعار بتمام نهاية العدد الذى هو السبعة ، فأنصفه الفاضل رحمه الله ، واستحسن ذلك منه وقال : أرشدتنا يا أبا الجود .

(٤) قوله «لايجتمعن فيهما اجتماعهن» لعل فيه قلبا ، والأصل : لايجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن . (ع)

فلم يكن بد من الواو .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

﴿قوا أنفسكم﴾ بترك المعاصى وفعل الطاعات ﴿وأهليكم﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم . وفى الحديث «رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ الله يجمعهم معه فى الجنة»[1] وقيل : إنّ أشد الناس عذاباً يوم القيامة من جهل أهله . وقرئ : وأهلوكم[2] ، عطفا على واو (قوا) وحسن العطف للفاصل . فإن قلت : أليس التقدير : قوا أنفسكم ، وليق أهلوكم أنفسهم ؟ قلت : لا ، ولكن المعطوف مقارن فى التقدير للواو ، وأنفسكم واقع بعده ، فكأنه قيل : قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه ، فجعلت ضميرهما معا على لفظ المخاطب ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ نوعا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة ، كما يتقد غيرها من النيران بالحطب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هى حجارة الكبريت ، وهى أشدّ الأشياء حراً إذا أوقد عليها . وقرئ : وقودها بالضم ، أى ذو وقودها ﴿عليها﴾ يلى أمرها وتعذيب أهلها ﴿ملائكة﴾ يعنى الزبانية التسعة عشر وأعوانهم ﴿غلاظ شداد﴾ فى أجرامهم غلظة وشدّة ، أى : جفاء وقوة . أو فى أفعالهم جفاء وخشونة ، لا تأخذهم رأفة فى تنفيذ أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه ﴿ما أمرهم﴾ فى محل النصب على البدل ، أى : لا يعصون ما أمر الله . أى : أمره ، كقوله تعالى (أفعصيت أمرى) أو لا يعصونه فيما أمرهم . فإن قلت : أليست الجملتان فى معنى واحد ؟ قلت : لا ، فإنّ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها . ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون

---

(١) لم أجده .

(٢) قال محمود فى قوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) : قرئ وأهلوكم . قال أحمد : ولكن المعطوف مقارن فى التقدير للواو ، وأنفسكم واقع بعده ، كأنه قال : قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم ، ولكن لما اجتمع ضمير المخاطب والغائبين : غلب ضمير الخطاب على ضمير الغيبة . ثم قال : فان قلت قوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) أليس الجملتان فى معنى واحد ؟ وأجاب بأن معنى الأولى أنهم يلتزمون الأوامر ولا يأتونها ... الخ . قال أحمد : جوابه الأول مفرع على قاعدته الفاسدة فى اعتقاد خلود الفساق فى جهنم ؛ ولعله إنما أورد السؤال ليتكلف عنه بجواب ينفس عما فى نفسه مما لا يطيق كتمانه من هذا الباطل نعوذ بالله منه ؛ وإلا فالسؤال غير وارد ؛ فانه لا يمتنع أن المؤمن يحذر من عذاب الكافر أن يناله على الايمان ، كقوله فى آل عمران خطابا للمؤمنين (واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) .

به لايتثاقلون عنه ولايتوانون فيه . فإن قلت : قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحى بهذا بعينه فى قوله تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة) وقال (أعدت للكافرين) فجعلها معدّة للكافرين ، فما معنى مخاطبته به المؤمنين ؟ قلت : الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار ، فإنهم مساكنون الكفار فى دار واحدة فقيل الذين آمنوا : قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدت لهم هذه النار الموصوفة . ويجوز أن يأمرهم بالتوقى من الارتداد ، والندم على الدخول فى الإسلام ، وأن يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ، ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره ﴿يا أيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أى : يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لاتعتذروا ، لأنه لاعذر لكم . أو لأنه لاينفعكم الاعتذار .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

﴿توبة نصوحا﴾ وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازى : والنصح : صفة التائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم ، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيآت ، وذلك : أن يتوبوا عن القبائح لقبحها ، نادمين عليها ، مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون فى قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن فى الضرع ، موطنين أنفسهم على ذلك. وعن على رضى الله تعالى عنه : أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : يا هذا ، إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين . قال : وماالتوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب : الندامة ، وللفرائض : الإعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك فى طاعة الله ، كما ربيتها فى المعصية ، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصى . وعن حذيفة : بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه . وعن شهر بن حوشب : أن لايعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار . وعن ابن السماك : أن تنصب الذنب الذى أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك . وقيل : توبة لا يتاب منها . وعن السدى : لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين ، لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله . وقيل : نصوحا من نصاحة الثوب ، أى : توبة ترفو

خروقك فى دينك، وترم خلك.[1] وقيل: خالصة، من قولهم: عسل ناصح إذا خلص من الشمع. ويجوز أن يراد: توبة تنصح الناس. أى: تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها فى صاحبها، واستعماله الجد والعزيمة فى العمل على مقتضياتها. وقرأ زيد بن على: توبا نصوحا. وقرئ: نصوحا بالضم، وهو مصدر نصح. والنصح والنصوح، كالشكر والشكور، والكفر والكفور أى: ذات نصوح. أو تنصح نصوحا. أو توبوا لنصح أنفسكم على أنه مفعول له ﴿عسى ربكم﴾ إطماع من الله لعباده، وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل. ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت. والثانى: أن يجيء به تعليما للعباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء، والذى يدل على المعنى الأول وأنه فى معنى البت: قراءة ابن أبى عبلة: ويدخلكم بالجزم، عطفاً على محل (عسى أن يكفر) كأنه قيل: توبوا يوجب لكم تكفير سيآتكم ويدخلكم ﴿يوم لا يخزى الله﴾ نصب بيدخلكم. ولا يخزى: تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر والفسوق، واستحماد إلى المؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم ﴿يسعى نورهم﴾ على الصراط ﴿أتمم لنا نورنا﴾ قال ابن عباس: يقولون ذلك إذا طفئ نور المنافقين إشفاقا. وعن الحسن: الله متممه لهم ولكنهم يدعون تقربا إلى الله، كقوله تعالى (واستغفر لذنبك) وهو مغفور له. وقيل: يقوله أدناهم منزلة، لأنهم يعطون من النور قدر ما يبصرون به مواطئ أقدامهم، لأن النور على قدر الأعمال فيسألون إتمامه تفضلا. وقيل: السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط، وبعضهم كالريح، وبعضهم حبوا وزحفاً؛ فأولئك الذين يقولون (ربنا أتمم لنا نورنا) فإن قلت: كيف يشفقون والمؤمنون آمنون، (أم من يأتى آمنا يوم القيامة). (لا خوف عليهم)، (لا يحزنهم الفزع الأكبر) أو كيف[2] يتقربون وليست الدار دار تقرب؟ قلت: أما الإشفاق فيجوز أن يكون على عادة البشرية وإن كانوا معتقدين الأمن. وأما التقرب فلما كانت حالهم كحال المتقربين حيث يطلبون ما هو حاصل لهم من الرحمة: سماه تقربا.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالاحتجاج؛ واستعمل الغلظة والخشونة على

---

(١) قوله «وترم خلك» فى الصحاح «الخل» الثوب البالى. وعبارة النسفى: خللك. وفى الصحاح «الخلل» بالتحريك: الفرجة بين الشيئين، وفساد فى الأمر. (ع)

(٢) قوله «أو كيف» لعله: وكيف. (ع)

الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة. وعن قتادة: مجاهدة المنافقين لإقامة الحدود عليهم. وعن مجاهد: بالوعيد. وقيل: بإفشاء أسرارهم.

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠)

مثل الله عز وجل حال الكفار ـ فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم [١] من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله ـ بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء ما من عذاب الله ﴿وقيل﴾ لهما عند موتهما أو يوم القيامة: ﴿ادخلا النار مع﴾ سائر ﴿الداخلين﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين ـ فى أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله ـ بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أنّ قومها كانوا كفارا. وفى طىّ هذين التمثيلين تعريض بأمّى المؤمنين المذكورتين فى أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده، لما فى التمثيل من ذكر الكفر. ونحوه فى التغليظ قوله تعالى (ومن كفر فإنّ الله غنى عن العالمين) وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره.

---

(١) قوله «حال الكفار فى أنهم يعاقبون على كفرهم» أى الذين بينهم وبين المؤمنين علاقة. وقوله «مثلهم» أى ممن لا علاقة بينهم وبين المؤمنين. (ع)

(٢) قوله «على التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم» لعله من التظاهر، كعبارة النسفى. (ع)

فإن قلت ، ما فائدة قوله (من عبادنا) ؟ قلت : لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح فى الإنسان كائنا من كان ، وأنه وحده هو الذى يبلغ به الفوز وينال ما عند الله : قال عبدين من عبادنا صالحين ، فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا ، من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانة ، لأن عبدا من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير ، وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده . فإن قلت : ما كانت خيانتهما ؟ قلت : نفاقهما وإبطانهما الكفر ، وتظاهرهما على الرسولين ، فامرأة نوح قالت لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط دلت على ضيفانه . ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج فى الطباع نقيصة عند كل أحد ، بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقا ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما «ما بغت امرأة نبى قط»[1] .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

وامرأة فرعون : آسية بنت مزاحم . وقيل : هى عمة موسى عليه السلام آمنت حين سمعت بتلقف عصا موسى الإفك ، فعذبها فرعون . عن أبى هريرة : أن فرعون وتد امرأته بأربعة أوتاد ، واستقبل بها الشمس ، وأضجعها على ظهرها ، ووضع رحى على صدرها . وقيل : أمر بأن تلقى عليها صخرة عظيمة فدعت الله فرقى بروحها ، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه . وعن الحسن : فنجاها الله أكرم نجاة ؛ فرفعها إلى الجنة فهى تأكل وتشرب وتتنعم فيها . وقيل : لما قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة : أريت بيتها فى الجنة يبنى . وقيل : إنه من درة . وقيل : كانت تعذب فى الشمس فتظلها الملائكة . فإن قلت : ما معنى الجمع بين عندك وفى الجنة ؟ قلت طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه ، ثم بينت مكان القرب بقولها (فى الجنة) أو أرادت ارتفاع الدرجة فى الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التى هى أقرب إلى العرش وهى جنات المأوى ، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها (عندك) . ﴿من فرعون وعمله﴾ من عمل فرعون . أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم ، وخصوصا

(١) أخرجه عبدالرزاق والطبرى وابن مردويه من طريق عنه فى تفسير هود وهنا .

من عمله وهو : الكفر ، وعبادة الأصنام ، والظلم ، والتعذيب بغير جرم ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾ من القبط كلهم . وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسئلة الخلاص منه عند المحن والنوازل : من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين : (فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين) ، (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) . ﴿فيه﴾ في الفرج . وقرأ ابن مسعود : فيها ، كما قرئ في سورة الأنبياء ، والضمير للجملة ، وقد مرّ لي في هذا الظرف كلام . ومن بدع التفاسير : أنّ الفرج هو جيب الدرع ، ومعنى أحصنته : منعته جبريل ، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها ، تسلية للأرامل وتطييبا لأنفسهنّ ﴿وصدّقت﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة ، يعني : وصفتها بالصدق ، وهو معنى التصديق بعينه . فإن قلت : فما كلمات الله وكتبه ؟ قلت : يجوز أن يراد بكلماته : صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره ، سماها كلمات لقصرها [1] ، وبكتبه : الكتب الأربعة [2] ، وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم ، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره . وقرئ: بكلمة الله وكتابه . أي : بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل . فإن قلت: لم قيل ﴿من القانتين﴾ على التذكير ؟ قلت : لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين ، فغلب ذكوره على إناثه . و(من) للتبعيض . ويجوز أن يكون لابتداء الغاية ، على أنها ولدت من القانتين ؛ لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد . وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » [3] وأما ماروى أنّ عائشة سألت

---

(١) قال محمود : « يجوز أن يراد بالكلمات الصحف التي أنزلها الله تعالى على إدريس وغيره : سماها كلمات لقصرها ... الخ » قال أحمد : هو يعتقد حدوث كلام الله ويجحد الكلام القديم . فلا جرم أن كلامه لا يعدو الاشعار بأن كلمات الله متناهية ؛ لأنه في الوجه الأول جعلها بمجموعة جمع قلة لقصرها ، وفي الثاني حصرها بقوله « جميع » وأين وصفه لها بالقصر والحصر من الآيتين التوأمتين اللتين إحداهما قوله (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) والأخرى قوله (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ... الآية) وماهو في الحقيقة إلا غير مؤمن بكلمات الله تعالى ؛ فالحق أن كلام الله تعالى صفة من صفات كماله أزلية أبدية غير متناهية ، فهكذا آمنت امرأة فرعون المتلو ثناؤها في كتاب الله العزيز ، ثبتنا الله على الايمان ، ووقانا الخذلان ، والله المستعان .

(٢) قوله « وبكتبه الكتب الأربعة » لعلها علمت بالانجيل والقرآن نزولها . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق عمرو بن مرزوق عن شعبة عن عمرو بن مرة سمع مرة عن أبي موسى بهذا . وأخرجه أبو نعيم في الحلية في ترجمة عمرو بن مرة من هذا الوجه . قال : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا يوسف القاضي حدثنا عمرو بن مرزوق بهذا . وهو في البخاري من رواية مرة عن أبي موسى دون ذكر خديجة وفاطمة ==

رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف سمى الله المسلمة ؟ تعنى مريم ، ولم يسم الكافرة ؟ فقال : بغضالها : قالت : وما اسمها ؟ قال : اسم امرأة نوح « واعلة » واسم امرأة لوط « واهلة » لحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بين ، ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ، ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمى آسية . وقد قرن بينها وبين مريم فى التمثيل للمؤمنين ، وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارة تنم عليه ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم وأسلم من ذلك .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحا »[1]

سورة الملك

مكية ، وهى ثلاثون آية [نزلت بعد الطور]

وتسمى : الواقية ، والمنجية ؛ لأنها تقى وتنجى قارئها من عذاب القبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)

﴿ تبارك ﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿ الذى بيده الملك ﴾ على كل موجود ﴿ وهو

= رضى الله عنهما . وفى ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما رفعه « أفضل نساء العالمين أربع ... فذكره » .

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه باسنادهما إلى أبى بن كعب .

على كل ﴾مالم يوجد مما يدخل تحت القدرة ﴿قدير﴾ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة: ما يصح بوجوده الإحساس. وقيل: مايوجب كون الشيء حيا، وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر. والموت عدم ذلك [1] فيه، ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿ليبلوكم﴾ وسمى علم الواقع منهم باختيارهم «بلوى» وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر. ونحوه قوله تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم). فإن قلت: من أين تعلق قوله ﴿أيكم أحسن عملا﴾ بفعل البلوى [2]؟ قلت: من حيث أنه تضمن معنى العلم، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملا؛ وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملا أم هو؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه، كما تقول: علمته هو أحسن عملا. فإن قلت: أتسمى هذا تعليقا؟ قلت: لا، إنما التعليق أن توقع بعده ما يسد مسد المفعولين جميعا، كقولك: علمت أيهما عمرو، وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقا لافترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق. وعلمت زيدا منطلقا. (أحسن عملا). قيل: أخلصه وأصوبه؛ لأنه إذا كان خالصا غير صواب لم يقبل، وكذلك إذا كان صوابا غير خالص؛ فالخالص: أن يكون لوجه الله تعالى؛ والصواب: أن يكون على السنة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلاها، فلما بلغ قوله (أيكم أحسن عملا) قال: «أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله» [3] يعني: أيكم أتم عقلا عن الله وفهما لأغراضه؛ والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح، لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه. وقدم الموت على الحياة، لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم ﴿وهو العزيز﴾

---

(١) قال محمود: «أي مايوجب كون الشيء حيا أو مايصح بوجوده الاحساس والموت عدم ذلك ... الخ» قال أحمد: أخطأ في تفسير الموت ديدنه المعروف أن يفسر ويتبع التفسير آراء القدرية، ومنها قطع الله ذكرها: أن الموت عدم، وهو خطأ صراح. ومعتقد أهل السنة أنه أمر وجودي يضاد الحياة، وكيف يكون العدم بهذه المثابة، ولو كان العدم مخلوقا حادثا وعدم الحوادث مقرر أزلا: للزم قطع الحوادث أزلا، وذلك أبشم من القول بقدم العالم؛ فانظر إلى هذا الهوى أين مؤداه. وكيف أهوى بصاحبه فأرداه، نعوذ بالله من الزلل والخطل.

(٢) قال محمود: «أين تعلق قوله (أيكم أحسن عملا) بفعل البلوى؟ وأجاب بأن معناه ليعلمكم أيكم أحسن عملا؛ لأن البلوى تتضمن العلم ... الخ» قال أحمد: التعليق عن أحد المفعولين مختلف فيه بين النحاة، والأصح ماأجازه، وهو في هذا الفن يمشي وفيه يدرج ويدري كيف يدخل فيه ويخرج.

(٣) تقدم الكلام عليه في أول سورة هود.

الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل ﴿الغفور﴾ لمن تاب من أهل الإساءة ﴿طباقا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض، من طابق النعل: إذا خصفها طبقا على طبق، وهذا وصف بالمصدر. أو على ذات طباق، أو على: طوبقت طباقا ﴿من تفاوت﴾ وقرئ: من تفوت. ومعنى البناءين واحد، كقولهم: تظاهروا من نسائهم. وتظهروا. وتعاهدته وتعهدته، أي: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض؛ إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت. وفي نقيضه: متناصف. فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ قلت: هي صفة مشايعة لقوله (طباقا) وأصلها: ما ترى فيهن من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله (خلق الرحمن) تعظيما لخلقهن. وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت: وهو أنه خلق الرحمن، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب، والخطاب في ما ترى للرسول أو لكل مخاطب. وقوله تعالى ﴿فارجع البصر﴾ متعلق به على معنى التسبيب؛ أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهن، ثم قال (فارجع البصر) حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة، ولا تبق معك شبهة فيه ﴿هل ترى من فطور﴾ من صدوع وشقوق: جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر. ومنه: فطر ناب البعير، كما يقال: شق وبزل. ومعناه: شق اللحم فطلع. وأمره بتكرير البصر فيهن متصفحا ومتتبعا يلتمس عيبا وخللا ﴿ينقلب إليك﴾ أي إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل يرجع إليك بالخسوء والحسور، أي: بالبعد عن إصابة الملتمس، كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة[1]، وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد. فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين؟ قلت: معنى التثنية التكرير بكثرة[2]، كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهدرين سعد القين[3] من ذلك. أي: باطلا بعد باطل. فإن قلت: فما معنى ثم ارجع؟ قلت: أمره برجع

(١) قوله «وبالصغار والقماءة» أي: الصغر والذل، كما في الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «لم خص الكرتين؟ فأجاب بأن معنى التثنية ههنا التكثير ... الخ» قال أحمد: وفي قوله (ينقلب إليك البصر) وضع للظاهر موضع المضمر. وفيه من الفائدة: التنبيه على أن الذي يرجع خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور: هو الآلة التي يلتمس بها إدراك ما هو كائن، فإذا لم يدرك شيء دل على أنه لا شيء. ومن هذا القبيل قوله (خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وأصله: ما ترى في خلقهن من تفاوت، ولكنه ذكر من منسوبات لخلق الرحمن، تنبيها على السبب الذي ربأ بهن على الفطور والتفاوت.

(٣) قوله «دهدرين ... الخ» في القاموس بضم الدالين وفتح الراء المشددة: اسم لبطل، وللباطل والكذب كالدهدر. ودهدرين سعد القين: أي بطل سعد الحداد. أو أن قينا ادعى أن اسمه سعد زمانا، ثم تبين كذبه، فقيل له ذلك، أي: جمعت باطلا إلى باطل يا سعد الحداد. ويروى منفصلا «ده» أمر من الدهاء؛ و «درين» من در: أي تتابع، أي: بالغ في الكذب يا سعد. وفيه غير ذلك، فراجعه؛ كذا بهامش الأصل. (ع)

البصر ، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء ، وأن يتوقف بعدها ويجم بصره ، ثم يعاود ويعاود ، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة ، فإنه لا يعثر على شيء من فطور .

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

﴿الدنيا﴾ القربى : لأنها أقرب السموات إلى الناس ، ومعناها : السماء الدنيا منكم . والمصابيح السرج ، سميت بها الكواكب ، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بأثقاب المصابيح[1] ، فقيل : ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها ﴿بمصابيح﴾ أي بأي مصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة ، وضممنا إلى ذلك منافع أخر : أنا ﴿جعلناها رجوما لـ﴾ أعدائكم : لـ﴿لشياطين﴾ الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات وتهتدون بها في ظلمات البر والبحر . قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف مالا علم له به وعن محمد بن كعب : في السماء والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم ، ولكنهم يبتغون الكهانة ويتخذون النجوم علة . والرجوم : جمع رجم : وهو مصدر سمى به ما يرجم به . ومعنى كونها مراجم للشياطين : أنّ الشهب التي تنقض لرمى المسترقة منهم منفصلة من نار الكواكب ، لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها ؛ لأنها قارة في الفلك على حالها . وماذاك إلا كقبس يؤخذ من نار ، والنار ثابتة كاملة لا تنقص . وقيل : من الشياطين المرجومة من يقتله الشهاب . ومنهم من يخبله . وقيل : معناه وجعلناها ظنونا ورجوما بالغيب لشياطين الإنس وهم النجامون[2] ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ في الآخرة بعد عذاب الإحراق بالشهب في الدنيا .

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا

(١) قوله «ودورهم بأثقاب المصابيح» في الصحاح «ثقبت النار» : اتقدت . وأثقبتها أنا . وشهاب ثاقب ، أى : مضيء . (ع)

(٢) حمل الزمخشري الشياطين على ظاهره ، ونقل عن بعضهم أن معناه : وجعلناها ظنونا ورجوماً بالغيب ... الخ . قال أحمد : وهذا من الاستطراد . لما ذكر وعيد الشياطين استطرد ذلك وعيد الكافرين عموما والله أعلم .

وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

﴿وللذين كفروا بربهم﴾ أى : ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عذاب جهنم﴾ ليس الشياطين المرجومين مخصوصين بذلك . وقرئ عذاب جهنم بالنصب عطفا على عذاب السعير ﴿إذا ألقوا فيها﴾ أى طرحوا كما يطرح الحطب فى النار العظيمة ، ويرمى به . ومثله قوله تعالى (حصب جهنم) . ﴿سمعوا لها شهيقا﴾ إمّا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها . أو من أنفسهم ، كقوله (لهم فيها زفير وشهيق) وإما للنار تشبيها لحسيسها[1] المنكر الفظيع بالشهيق ﴿وهى تفور﴾ تغلى بهم غليان المرجل بما فيه . وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ، ويقولون : فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا ، وغضب فطارت منه شقة فى الأرض وشقة فى السماء : إذا وصفوه بالإفراط فيه . ويجوز أن يراد : غيظ الزبانية ﴿ألم يأتكم نذير﴾ توبيخ يزدادون به عذابا إلى عذابهم وحسرة إلى حسرتهم . وخزنتها : مالك وأعوانه من الزبانية ﴿قالوا بلى﴾ اعتراف منهم بعدل الله ، وإقرار بأن الله عز وعلا أزاح عللهم ببعثة الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ، وأنهم لم يؤتوا من قدره كما تزعم المجبرة[2] ؛ وإنما أتوا من قبل أنفسهم ، واختيارهم خلاف ما اختار الله وأمر به وأوعد على ضده . فإن قلت : ﴿إن أنتم إلا فى ضلال كبير﴾ من المخاطبون به ؟ قلت : هو من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين ، على أنّ النذير بمعنى الإنذار . والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير . أو وصف منذروهم لغلوهم فى الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذاراً ؛ وكذلك (قد جاءنا نذير) ونظيره قوله تعالى (إنا رسول رب العالمين) أى حاملا رسالته . ويجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول : أرادوا حكاية ما كانوا عليه من ضلالهم فى الدنيا . أو أرادوا بالضلال : الهلاك . أو سموا عقاب الضلال باسمه . أو من كلام الرسل لهم حكوه للخزنة ، أى قالوا لنا هذا فلم نقبله ﴿لو كنا نسمع﴾

---

(١) قوله «تشبيهاً لحسيسها» فى الصحاح : الحس والحسيس : الصوت ، والخفى . (ع)

(٢) قوله «كما تزعم المجبرة» إن كان مراده أهل السنة كعادته لقولهم : إنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ، وأنها بقضائه تعالى وقدره ، بل من جهة مالهم فيها من الكسب والاختيار كما تقرر فى محله وإن كان مراده القائلين بالجبر المحض وأن العبد كالريشة المعلقة فى الهواء لادخل له فى عمله أصلا ، فقد أصاب للفرق الضرورى بين حركة اليد فى البطش وحركتها فى الارتعاش ، كما تقرر فى علم التوحيد ، فارجع إليه . (ع)

الإنذار سماع طالبين للحق[١] . أو نعقله عقل متأملين . وقيل : إنما جمع بين السمع والعقل ؛ لأنّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل . ومن بدع التفاسير : أنّ المراد لوكنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب[٢] الرأى ، كأنّ هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين المذهبين ، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم ، وكأن من كان من هؤلاء فهو من من الناجين لامحالة ؛ وعدة المبشرين من الصحابة : عشرة ، لم يضم إليهم حادى عشر ، وكأن من يجوز على الصراط أكثرهم لم يسمعوا باسم هذين الفريقين ﴿بذنبهم﴾ بكفرهم فى تكذيبهم الرسل ﴿فسحقاً﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل ، أى : فبعداً لهم ، اعترفوا أو جحدوا ؛ فإنّ ذلك لا ينفعهم .

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

ظاهره الأمر بأحد الأمرين : الإسرار والإجهار . ومعناه : ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم[٣] فى علم الله بهما ، ثم أنه علله بـ﴿أنه عليم بذات الصدور﴾ أى بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها ، فكيف لا يعلم ما تكلم به . ثم أنكر أن لا يحيط علماً بالمضمر والمسر والمجهر ﴿من خلق﴾ الأشياء[٤] ، وحاله أنه اللطيف الخبير ، المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه

---

(١) قال محمود : «معناه لوكنا نسمع للانذار سماع طالبين للحق ... الخ» قال أحمد : إن عنى أن الأحكام الشرعية تستفاد من العقل كما تستفاد من السمع بناء على قاعدة التحسين والتقبيح ، فهو غير بعيد من أصحاب السعير . وإن عنى أن العقل يرشد إلى العقائد الصحيحة والسمع يختص بالأحكام الشرعية : فهو مع أهل السنة .

(٢) قال محمود : «ومن بدع التفاسير أن المراد : لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأى ... الخ» قال أحمد : ولو تفطن نبيه لهذه الآية لعدها دليلا على تفضيل السمع على البصر ، فانه قد استدل على ذلك بأخفى منها .

(٣) قوله «إسراركم وإجهاركم» فى الصحاح «إجهار الكلام» : إعلانه . (ع)

(٤) قال محمود : «أنكر أن لا يحيط علما بالسر أو الجهر من خلق ذلك ... الخ» قال أحمد : هذه الآية رد على المعتزلة وتصحيح الطريق التى يسلكها أهل السنة فى الرد عليهم ؛ فان أهل السنة يستدلون على أن العبد لا يخلق أفعاله بأنه لا يعلمها ، وهو استدلال بنفى اللازم الذى هو العلم على نفى الملزوم الذى هو الخلق ، وبهذه الملازمة دلت الآية ؛ فان الله تعالى أرشد إلى الاستدلال على ثبوت العلم له عز وجل بثبوت الخلق ، وهو استدلال بوجود الملزوم على وجود اللازم ، فهو نور واحد يقتبس منه ثبوت العلم للبارى عز وجل ، وإبطال خلق العبد لأفعاله ؛ وإعراب الآية ينزل على هذا المعنى ، فان الوجه فيها أن يكون (من) فاعلا مراداً به الخالق ، ومفعول العلم محذوف تقديره : ذلك إشارة إلى السر والجهر ومفعول خلق محذوف ضميره عائد إلى ذلك . والتقدير فى الجميع : ألا يعلم السر والجهر من خلقهما . ومتى حذونا غير هذا الوجه من الاعراب ألقانا إلى مضايق التكلف والتعسف ؛ فن المحتمل أن يكون من مفعولة واقعة على فاعل السر والجهر ، والتقدير : ألا يعلم الله المسرين والجاهرين ؛ وليس مطابقا =

ومابطن . ويجوز أن يكون (من خلق) منصوباً بمعنى : ألا يعلم مخلوقه وهذه حاله . وروى أنّ المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء ، فيظهر الله رسوله عليها ، فيقولون : أسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد ، فنبه الله على جهلهم . فإن قلت : قدرت فى (ألا يعلم) مفعولا على معنى : ألا يعلم ذلك المذكور مما أضمر فى القلب وأظهر باللسان من خلق ، فهلا جعلته مثل قولهم : هو يعطى ويمنع ؛ وهلا كان المعنى : ألا يكون عالما من هو خالق ؛ لأنّ الخلق لا يصح إلا مع العلم ؟ قلت : أبت ذلك الحال التى هى قوله (وهو اللطيف الخبير) لأنك لو قلت : ألا يكون عالما من هو خالق وهو اللطيف الخبير : لم يكن معنى صحيحاً ؛ لأنّ ألا يعلم معتمد على الحال . والشىء لا يوقت بنفسه ، فلا يقال : ألا يعلم وهو عالم ، ولكن ألا يعلم كذا وهو عالم بكل شىء .

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)

المشى فى مناكبها : مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ؛ لأنّ المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شىء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه ، فإذا جعلها فى الذل بحيث يمشى فى مناكبها لم يترك[1] . وقيل : مناكبها جبالها . قال الزجاج : معناه سهل لكم السلوك فى جبالها ، فإذا أمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ التذليل . وقيل جوانبها . والمعنى : وإليه نشوركم ، فهو مسائلكم[2] عن شكر ما أنعم به عليكم .

ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ (١٩)

﴿من فى السماء﴾ فيه وجهان : أحدهما من ملكوته فى السماء ؛ لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه . والثانى : أنهم

ـــ للمفصل ، فانه لم يقع ذوات الفاعلين ، وإنما وقع على أفعالهم من السر والجهر . وعليه وقع الاستدلال . ويحتمل غير ذلك أبعد منه . والأول هو الأولى لفظا ومعنى . والله الموفق .

(١) قوله «لم يترك» لعل هنا سقطا تقديره : لم يترك شيئا منها إلا قد ذلله . (ع)

(٢) قوله «فهو مسائلكم» عبارة النسفى : سائلكم . (ع)

كانوا يعتقدون التشبيه، وأنه فى السماء، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه، وكانوا يدعونه من جهتها، فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون أنه فى السماء، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة: أما تخاف مَن فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل، إذا رأيته يركب بعض المعاصى ﴿فستعلمون﴾ قرئ بالتاء والياء ﴿كيف نذير﴾ أى إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذارى حين لا ينفعكم العلم ﴿صافات﴾ باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها[1] صفا ﴿ويقبضن﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة؛ لأنّ الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مدّ الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح ﴿ما يمسكهنّ إلا الرحمن﴾ بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافى[2]، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتى منها الجرى فى الجو ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

﴿أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ إِنِ الْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿أمّن﴾ يشار إليه من الجموع ويقال ﴿هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون﴾ الله إن أرسل عليكم عذابه ﴿أمّن﴾ يشار إليه ويقال ﴿هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ وهذا على التقدير. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجند الناصر والرازق. ونحوه قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا). ﴿بل لجوا فى عتو ونفور﴾ بل تمادوا فى عناد وشراد عن الحق لثقله عليهم فلم يتبعوه.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) قال محمود: «معناه: باسطات أجنحتها؛ لأنها إذا بسطتها صفت قوادمها... الخ» قال أحمد: ويلاحظ هذا المعنى فى قوله (والطير محشورة) بعد قوله (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن) ولم يقل مسبحات، مثل محشورة لقربه من هذا التفسير؛ ولقد أحسن فيه كل الاحسان.

(٢) قوله «من القوادم والخوافى» فى الصحاح «قوادم الطير»: مقاديم ريشه، وهى عشر ريشات فى كل جناح. والخوافى ما دون الريشات العشر من مقدم الجناح. (ع)

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

يجعل «أكب» مطاوع «كبه» يقال: كببته فأكب، من الغرائب والشواذ. ونحوه: قشعت الريح السحاب فأقشع، وماهو كذلك: ولاشيء من بناء أفعل مطاوعا. ولا يتقن نحو هذا إلا حملة كتاب سيبويه؛ وإنما «أكب» من باب «انفض، وألأم»[1] ومعناه: دخل في الكب، وصار ذا كب؛ وكذلك أقشع السحاب: دخل في القشع. ومطاوع كب وقشع: انكب وانقشع. فإن قلت: مامعنى ﴿يمشي مكبا على وجهه﴾؟ وكيف قابل (يمشي سويا على صراط مستقيم)؟ قلت: معناه: يمشي معتسفا في مكان معتاد غير مستو فيه انخفاض وارتفاع، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبا، فحاله نقيض حال من يمشي سويا، أي: قائما سالما من العثور والخرور. أومستوى الجهة قليل الانحراف خلاف المعتسف الذي ينحرف هكذا وهكذا على طريق مستو. ويجوز أن يراد الأعمى الذي لايهتدي إلى الطريق فيعتسف، فلا يزال ينكب على وجهه، وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المهتدي له، وهو مثل للمؤمن والكافر. وعن قتادة: الكافر أكب على معاصي الله تعالى فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وعن الكلبي: عني به أبو جهل بن هشام. وبالسوي: رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وقيل: حمزة بن عبدالمطلب.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

﴿فلما رأوه﴾ الضمير للوعد. والزلفة: القرب، وانتصابها على الحال أو الظرف، أي: رأوه ذا زلفة أومكانا ذا زلفة ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي ساءت رؤية الوعد وجوههم: بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة، وكلحوا، وكما يكون[2] وجه من يقاد إلى القتل أويعرض على بعض العذاب ﴿وقيل﴾ القائلون: الزبانية ﴿تدعون﴾ تفتعلون من الدعاء،

(١) قوله «من باب انفض وألأم» في الصحاح «انفض القوم» هلكت أموالهم. وانفضوا أيضا: مثل أرملوا في زادهم. وفيه أيضا: ألأم الرجل إذا صنع ما يدعوه الناس عليه لئيما. (ع)

(٢) قوله «وكما يكون» لعله كما بدون واو. (ع)

أى: تطلبون وتستعجلون به. وقيل: هو من الدعوى، أى: كنتم بسببه تدعون أنكم لا تبعثون. وقرئ: تدعون. وعن بعض الزهاد: أنه تلاها فى أول الليل فى صلاته، فبقى يكررها وهو يبكى إلى أن نودى لصلاة الفجر؛ ولعمرى إنها لوقاذة[1] لمن تصور تلك الحالة وتأملها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

كان كفار مكة يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك. فأمر بأن يقول لهم: نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين: إما أن نهلك كما تتمنون فننقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة والإدالة للإسلام كما نرجو، فأنتم ما تصنعون؟ من يجيركم ـ وأنتم كافرون ـ من عذاب النار؟ لابدّ لكم منه، يعنى: إنكم تطلبون لنا الهلاك الذى هو استعجال للفوز والسعادة، وأنتم فى أمر هو الهلاك الذى لاهلاك بعده، وأنتم غافلون لاتطلبون الخلاص منه. أو إن أهلكنا الله بالموت فمن يجيركم بعد موت هداتكم، والآخذين بحجزكم من النار، وإن رحمنا بالإمهال والغلبة عليكم وقتلكم فمن يجيركم؛ فإنّ المقتول على أيدينا هالك. أو إن أهلكنا الله فى الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون، فمن يجير الكافرين وهم أولى بالهلاك لكفرهم؛ وإن رحمنا بالإيمان فمن يجير من لا إيمان له.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

فإن قلت: لم أخر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا؟ قلت: لوقوع آمنا تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم، كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: وعليه توكلنا خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿غورا﴾ غائرا ذاهبا فى الأرض. وعن الكلبى لا تناله الدلاء، وهو وصف بالمصدر كعدل ورضا. وعن بعض الشطار أنها تليت عنده فقال: تجىء به الفؤوس والمعاول، فذهب ماء عينيه؛ نعوذ بالله من الجراءة على الله وعلى آياته.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيا ليلة القدر»[2].

---

(١) قوله «إنها لوقاذة لمن تصور» فى الصحاح «وقذه» ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه عن أبى بن كعب رضى الله عنه.

سورة ن

مكية ، وهى اثنان وخمسون آية [نزلت بعد العلق]

بسم الله الرحمن الرحيم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)

قرئ : نۤ والقلم بالبيان والإدغام . وبسكون النون وفتحها وكسرها ، كما فى ص . والمراد هذا الحرف من حروف المعجم : وأمّا قولهم : هو الدواة فما أدرى أهو وضع لغوى أم شرعى ؟ ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة من أن يكون جنسا أو علما ، فإن كان جنسا فأين الإعراب والتنوين ، وإن كان علما فأين الإعراب ، وأيهما كان فلا بد له من موقع فى تأليف الكلام . فإن قلت : هو مقسم به وجب إن كان جنسا أن تجره وتنونه . ويكون القسم بدواة منكرة مجهولة ، كأنه قيل : ودواة والقلم . وإن كان علما أن تصرفه وتجره . أو لا تصرفه وتفتحه للعلمية والتأنيث ، وكذلك التفسير بالحوت : إما أن يراد نون من النينان . أو يجعل علما لليهموت[1] الذى يزعمون ، والتفسير باللوح من نور أو ذهب ، والنهر فى الجنة نحو ذلك . وأقسم بالقلم : تعظيما له . لما فى خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة . ولما فيه من المنافع والفوائد التى لا يحيط بها الوصف ﴿وما يسطرون﴾ وما يكتب من كتب . وقيل : ما يستره الحفظة : وما موصولة أو مصدرية . ويجوز أن يراد بالقلم أصحابه ، فيكون الضمير فى (يسطرون) لهم كأنه قيل : وأصحاب القلم ومسطوراتهم . أو وسطرهم ، ويراد بهم كل ما يسطر ، أو الحفظة .

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)

فإن قلت : بم يتعلق الباء فى ﴿ بنعمة ربك ﴾ وما محله ؟ قلت : يتعلق بمجنون منفيا[2] ، كما يتعلق بعاقل مثبتا فى قولك : أنت بنعمة الله عاقل ، مستويا فى ذلك الإثبات والنفى استواءهما فى قولك : ضرب زيد عمراً ، وما ضرب زيد عمراً : تعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحداً ؛

(١) قوله «أو يجعل علماً لليهموت» لعله بالبهموت بالموحدة كعبارة غيره ، فليحرر . (ع)
(٢) قوله «يتعلق بمجنون منفياً» فى النسفى تتعلق بمحذوف ، ومحله النصب على الحال . والعامل فيهما (بمجنون) . (ع)

ومحله النصب على الحال ، كأنه قال : ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك[١] ؛ ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله ، لأنها زائدة لتأكيد النفي . والمعنى : استبعاد ما كان ينسبه إليه كفار مكة عداوة وحسداً ، وأنه من إنعام الله عليه بحصافة العقل[٢] والشهامة التي يقتضيها التأهيل للنبوّة ، بمعزل ﴿وإنّ لك﴾ على احتمال ذلك وإساغة الغصة فيه والصبر عليه ﴿لأجرا﴾ لثوابا ﴿غير ممنون﴾ غير مقطوع كقوله (عطاءا غير مجذوذ) أو غير ممنون عليك به[٣] . لأنه ثواب تستوجبه[٤] على عملك ، وليس بتفضل ابتداء ؛ وإنما تمنّ الفواضل لا الأجور على الأعمال .

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾

استعظم خلقه لفرط احتماله الممضات[٥] من قومه وحسن مخالقته ومداراته لهم . وقيل : هو الخلق الذي أمره الله تعالى به في قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وعن عائشة رضي الله عنها : أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن : قد أفلح المؤمنون[٦] .

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾

﴿المفتون﴾ المجنون ، لأنه فتن : أي محن بالجنون . أو لأن العرب يزعمون أنه من تخبيل الجن ، وهم الفتان للفتاك منهم ، والباء مزيدة . أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود ، أي : بأيكم

---

(١) قوله «منعما عليك بذلك» كذا في النسفي بعد ماسبق فيه (ما أنت بنعمة ربك) أي بإنعامه عليك بالنبوة وغيرها . وهذا مرجع الإشارة . (ع)

(٢) قوله «وإنه من إنعام الله بحصافة» لعله من إنعام الله عليه بحصافة العقل أي استحكامه . كما أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : «معناه غير مقطوع ، كقوله (عطاء غير مجذوذ) ... الخ» قال أحمد : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرضى من الزمخشري بتفسير الآية هكذا . وهو صلى الله عليه وسلم يقول «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله قيل : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة» ولقد بلغ بالزمخشري سوء الأدب إلى حد يوجب الحد ، وحاصل قوله : أن الله لا منة له على أحد ولا فضل في دخول الجنة لأنه قام بواجب عليه ، نعوذ بالله من الجراءة عليه .

(٤) قوله «لأنه ثواب تستوجبه على عملك» وجوب الثواب عليه تعالى مذهب المعتزلة ، ولا يجب عليه شيء عند أهل السنة . (ع)

(٥) قوله «احتماله الممضات» أي : الموجعات . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) أخرجه مسلم من رواية زرارة ابن أبي أوفى عن سعد بن هشام عنه ، وفيه قصة ؛ وأخرجه الحاكم مختصرا بلفظ المصنف .

الجنون . أو بأى الفريقين منكم الجنون[1] ، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين ؟ أى : فى أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم : وهو تعريض بأبى جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما ، وهذا كقوله تعالى (سيعلمون غداً من الكذاب الأشر) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)

﴿إن ربك هو أعلم﴾ بالمجانين على الحقيقة ، وهم الذين ضلوا عن سبيله ﴿وهو أعلم﴾ بالعقلاء وهم المهتدون . أو يكون وعيداً ووعداً ، وأنه أعلم بجزاء الفريقين ﴿فلا تطع المكذبين﴾ تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد أرادوه على أن يعبد الله مدة ، وآلهتهم مدة ، ويكفوا عنه غوائلهم ﴿لو تدهن﴾ لو تلين وتصانع ﴿فيدهنون﴾ . فإن قلت : لم رفع (فيدهنون) ولم ينصب بإضمار (أن) وهو جواب التمنى ؟ قلت : قد عدل به إلى طريق آخر : وهو أن جعل خبر مبتدإ محذوف ، أى : فهم يدهنون ، كقوله تعالى (فمن يؤمن بربه فلا يخاف) على معنى : ودوا لو تدهن فهم يدهنون حينئذ . أو ودوا إدهانك فهم الآن يدهنون ؛ لطمعهم فى إدهانك . قال سيبويه : وزعم هرون أنها فى بعض المصاحف ودوا لو تدهن فيدهنوا .

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)

﴿حلاف﴾ كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف . ومثله قوله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) . ﴿مهين﴾ من المهانة وهى القلة والحقارة ، يريد القلة فى الرأى والتمييز . أو أراد الكذاب لأنه حقير عند الناس ﴿هماز﴾ عياب طعان . وعن الحسن . يلوى شدقيه فى أقفية الناس ﴿مشاء بنميم﴾ مضرب[2] نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم . والنميم والنميمة : السعاية ، وأنشدنى بعض العرب :

---

(١) قوله «أو بأى الفريقين منكم الجنون» لعله المجنون . وفى النسفى . قال الزجاج : الباء بمعنى فى . تقول : كنت ببلد كذا ، أى : فى بلد كذا ، وتقديره : فى أيكم المفتون ، أى : فى أى الفريقين منكم المجنون . (ع)

(٢) قوله «مضرب نقال» فى الصحاح «التضريب بين القوم» : الاغراء . (ع)

تَشَبَّبِي تَشَبُّبَ النَّمِيمَهْ تَمْشِي بِهَا زَهْرَا إِلَى تَمِيمَهْ (١)

﴿مناع للخير﴾ بخيل. والخير: المال. أو مناع أهله الخير وهو الإسلام، فذكر الممنوع منه دون الممنوع، كأنه قال: مناع من الخير. قيل: هو الوليد بن المغيرة المخزومي: كان موسرا، وكان له عشرة من البنين، فكان يقول لهم وللحمته: (٢) من أسلم منكم منعته رفدى عن ابن عباس. وعنه: أنه أبو جهل. وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث. وعن السدى: الأخنس ابن شريق، أصله فى ثقيف وعداده فى زهرة، ولذلك قيل: زنيم ﴿معتد﴾ مجاوز فى الظلم حده ﴿أثيم﴾ كثير الآثام ﴿عتل﴾ غليظ جاف، من عتله: إذا قاده بعنف وغلظة ﴿بعد ذلك﴾ بعد ما عدّ له من المثالب والنقائص ﴿زنيم﴾ دعى. (٣) قال حسان:

وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ (٤)

وكان الوليد دعيا فى قريش ليس من سنخهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده. وقيل: بغت أمه ولم يعرف، حتى نزلت هذه الآية، جعل جفاءه ودعوته أشد معايبه، لأنه إذا جفا وغلظ طبعه قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها. ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده» (٥) و(بعد ذلك) نظير (ثم) فى قوله (ثم كان من الذين آمنوا) وقرأ الحسن: عتل،

---

(١) لأعرابى يخاطب النار. والتشبب: التوقد. والنميمة: تزوير الكلام وتزويقه للافساد بين الناس. وثوب منمم ومنمنم: منقش محسن. وزهرا ـ بالفتح ـ: اسم امرأة نمامة. وتميمة: قبيلة تميم، ونزل النار منزلة العاقل فأمرها وقال: اشتعلى كاشتعال النميمة حال كونها تمشى بها هذه المرأة إلى بنى تميم، وكانت كثيرة الافساد بين العرب، حتى ضرب بها المثل؛ وجعل اشتعال نميمتها أبلغ من اشتعال النار، فأمرها أن تتوقد كتوقدها، وبين تميمة وتميمة الجناس اللاحق.

(٢) قوله «يقول لهم وللحمته» فى الصحاح «اللحمة» بالضم: القرابة. (ع)

(٣) قال محمود: «العتل الجافى، والزنيم الداعى، وكذلك كان الوليد بن المخزومى استلحقه المغيرة بعد ثمان عشر من مولده ... الخ» قال أحمد: وإنما أخذ كون هذين أشد معايبه من قوله بعد ذلك، فانه يعطى تراخى المرتبة فيما بين المذكور أولا والمذكور بعده فى الشر والخير. ونظيره فى الخير قوله تعالى (والملائكة بعد ذلك ظهير) ومن ثم استعملت ثم لتراخى المراتب، وإن أعطت عكس الترتيب الوجودى.

(٤) لحسان بن ثابت يخاطب الوليد بن المغيرة، يقول: إنه زنيم، أى معلق فى آل هاشم كالزنمة فى الاهاب وهى قطعة جلد صغيرة تترك معلقة بطرفه، فشبهه بها وشبهه بالقدح المنفرد الفارغ المعلق خلف الراكب.

(٥) أخرجه أبو نعيم فى ترجمة مجاهد من رواية عبدالله بن حسن فى ترجمة يوسف بن أسباط من رواية بركة بن محمد عن يوسف بن أسباط عن أبى إسرائيل الملائى عن إسماعيل بن إسحاق عن قبيصة بن عمرو عن مجاهد عن بنى عمر عن أبى هريرة. ثم رواه من طريق إسحاق بن منصور عن أبى إسرائيل به وأبو إسحاق ضعيف جداً. وقد ادعى ابن طاهر وابن الجوزى أن هذا الحديث موضوع. وقد خولف عن مجاهد. رواه النسائى من طريق إبراهيم بن =

رفعا على الذم وهذه القراءة تقوية لما يدل عليه بعد ذلك . والزنيم : من الزنمة وهى الهنة من جلد الماعزة تقطع فتخلى معلقة فى حلقها ، لأنه زيادة معلقة بغير أهله ﴿أن كان ذا مال﴾ متعلق بقوله (ولا تطع) يعنى ولا تطعه مع هذه المثالب ، لأن كان ذا مال . أى : ليساره وحظه من الدنيا . ويجوز أن يتعلق بما بعده على معنى : لكونه متمولا مستظهراً بالبنين كذب آياتنا [١] ولا يعمل فيه (قال) الذى هو جواب إذا ، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله ، ولكن ما دلت عليه الجملة من معنى التكذيب . وقرئ : أأن كان ؟ على الاستفهام على : إلا لأن كان ذا مال وبنين ، كذب . أو أتطيعه لأن كان ذا مال . وروى الزبيرى عن نافع : إن كان ، بالكسر والشرط للمخاطب ، أى : لا تطع كل حلاف شارطا يساره ، لأنه إذا أطاع الكافر لغناه فكأنه اشترط فى الطاعة الغنى ، ونحو صرف الشرط إلى المخاطب صرف الترجى إليه فى قوله تعالى (لعله يتذكر) الوجه : أكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لتقدمه له ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية ، واشتقوا منه الأنفة . وقالوا الأنف فى الأنف ، وحمى أنفه ، وفلان شامخ العرنين . وقالوا فى الذليل : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين وإذالة ، [٢] فكيف بها على أكرم موضع منه ، ولقد وسم العباس أباعر [٣] فى وجوهها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكرموا الوجوه » [٤] فوسمها فى جواعرها [٥] وفى لفظ الخرطوم : استخفاف به واستهانة . وقيل معناه : سنعلمه يوم القيامة بعلامة مشوهة يبين بها عن سائر الكفرة ، كما

ـــ مجاهد عن مجاهد عن محمد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة بلفظ «لا يدخل الجنة ولد زنا . ولا شىء من نسله إلى سبعة آباء» وإبراهيم فيه ضعف . ورواه أيضاً من رواية يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن أبى سعيد نحو حديث منصور الآتى . ويزيد ضعيف وروى النسائى أيضاً من رواية شعبة عن منصور عن سالم بن أبى الجعد عن عبد الله بن شريك عن جابان عن عبد الله بن عمر بلفظ «لا يدخل ولد زانية الجنة» ومن رواية سفيان عن منصور بإسقاط عبد الله بن شريك . وأخرجه ابن حبان من الوجهين . وقال الطريقان محفوظان . إلا أن الثورى أعرف بحديث منو .

(١) قوله «كذب آياتنا» عبارة النسفى : كذب بآياتنا . (ع)

(٢) قوله «وإذالة» فى القاموس «أذلته» أهنته اه . (ع)

(٣) قوله «أباعر» لعله أباعره بالاضافة إلى الضمير ، لأن الجمع أبعرة وأباعر ، كما فى الصحاح . (ع)

(٤) لم أره هكذا . وفى ابن حبان من حديث ابن عباس «أن العباس وسم بعيراً له . ودابة فى وجهها فرآه النبى صلى الله عليه وسلم فغضب : فقال العباس : لا أسمه إلا فى آخره فوسمه فى جاعرتيه» وأصله فى مسلم بلفظ «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حماراً موسوم الوجه ، فأنكر ذلك فقال الرجل : والله لا أسمه إلا فى أقصى شىء من الوجه . فأمر بحمار له فكوى فى جاعرتيه . فهو أول من كوى فى الجاعرتين» زاد الطبرانى «وكان الرجل الذى كوى : العباس بن عبد المطلب»

(٥) قوله «فوسمها فى جواعرها» الجاعرة : ما حول الدبر . أفاده الصحاح . (ع)

عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة بان بها عنهم . وقيل : خطم يوم بدر بالسيف فبقيت سمة على خرطومه . وقيل : سنشهره بهذه الشتيمة فى الدارين جميعا ، فلا تخفى ، كما لا تخفى السمة على الخرطوم . وعن النضر بن شميل : أن الخرطوم الخمر ، وأن معناه : سنحده على شربها وهو تعسف . وقيل للخمر : الخرطوم ، كما قيل لها : السلافة . وهى ما سلف من عصير العنب . أو لأنها تطير فى الخياشيم .

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣)

إنا بلونا أهل مكة بالقحط والجوع بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ،[1] فكان

(١) قال محمود : « أصحاب الجنة قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنة دون صنعاء بفرسخين ... الخ » قال أحمد : وفائدة التنكير الابهام تعظيما لما أصابها ، ومعنى كالصريم : أى لهلاك ثمرها . وقيل الصريم الليل ، لأنها احترقت واسودت . وقيل : النهار ، أى خالية فارغة من قولهم : بيض الاناء ، إذا فرغه . قلت : ومنه البياض من الأرض ، أى : الخالية من الشجر . ورد فى الحديث ، ويستعمله الفقهاء فى المساقاة ، ومعنى صارمين : حاصدين . قال : وإنما عدل عن « إلى » فى قوله (على حرثكم) لأن غدوهم كان ليصرموه ، فهو غدو عليه ، ومعنى (يتخافتون) يسرون حديثهم خيفة من ظهور المساكين عليهم . وقوله (ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) مثل: لا أرينك ههنا ؛ والحرد من حاردت السنة إذا منعت خيرها . والمعنى : وغدوا على نكد ومنع غير عاجزين عن النفع . وقيل : الحرد =

يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقى ، وكان يترك للمساكين ما أخطأه المنجل ، وما فى أسفل الأكداس ،[1] وما أخطأه القطاف من العنب ، وما بقى على البساط الذى يبسط تحت النخلة إذا صرمت ، فكان يجتمع لهم شىء كثير ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولو عيال ، فحلفوا ليصرمنها مصبحين فى السدف[2] خفية عن المساكين ، ولم يستثنوا فى يمينهم ، فأحرق الله جنتهم . وقيل : كانوا من بنى إسرائيل ﴿مصبحين﴾ داخلين فى الصبح مبكرين ﴿ولا يستثنون﴾ ولا يقولون إن شاء الله . فإن قلت . لم سمى استثناء ، وإنما هو شرط ؟ قلت : لأنه يؤدى مؤدى الاستثناء ، من حيث أن معنى قولك : لأخرجن إن شاء الله ، ولا أخرج إلا أن يشاء الله . واحد ﴿فطاف عليها﴾ بلاء أو هلاك ﴿طائف﴾ كقوله تعالى (وأحيط بثمره) وقرئ : طيف ﴿فأصبحت كالصريم﴾ كالمصرومة لهلاك ثمرها . وقيل : الصريم الليل ، أى . احترقت فاسودت . وقيل : النهار أى : يبست وذهبت خضرتها . أو لم يبق شىء فيها ، من قولهم : بيض الإناء ، إذا فرغه . وقيل الصريم الرمال ﴿صارمين﴾ حاصدين . فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم ؛ وما معنى (على) ؟ قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو . ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح ، أى : فأقبلوا على حرثكم باكرين ﴿يتخافتون﴾ يتسارون فيما بينهم . وخفى ، وخفت ، وخفد : ثلاثتها فى معنى الكتم ؛ ومنه : الخفدود للخفاش ﴿أن لا يدخلنها﴾ أن مفسرة . وقرأ ابن مسعود بطرحها بإضمار القول ، أى يتخافتون يقولون لا يدخلنها ؛ والنهى عن الدخول للمسكين نهى لهم عن تمكينه منه ، أى : لا تمكنوه من الدخول حتى يدخل ؛ كقولك : لا أرينك ههنا . الحرد : من حردت السنة إذا منعت خيرها ؛ وحاردت الإبل إذا منعت درها . والمعنى : وغدوا قادرين على نكد ، لا غير عاجزين عن النفع ، يعنى أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم ، فغدوا بحال فقر وذهاب مال لا يقدرون فيها إلا على النكد والحرمان ، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان والمسكنة . أو وغدوا على محاردة جنتهم وذهاب خيرها قادرين ، بدل كونهم قادرين على إصابة

= السرعة ، أى : غدوا مسارعين نشطين لما عزموا عليه من الحرمان . ومعنى (قادرين) على هذا التأويل : عند أنفسهم . وقيل : حرد اسم الجنة المذكورة ، وقولهم (إنا لضالون) قالوه فى بديهة أمرهم دهشا لما رأوا ما لم يعهدوه فاعتقدوا أنهم ضلوا عنها وأنها ليست هى ؛ ثم لما تبينوا وأيقنوا أنها هي أضربوا عن الأول إلى قولهم (بل نحن محرومون) .

(١) قوله « وما فى أسفل الأكداس » فى الصحاح « الكدس » بالضم : واحد أكداس الطعام . (ع)

(٢) قوله «مصبحين فى السدف خفية» فى الصحاح «السدفة» فى لغة نجد : الظلمة ، وفى لغة غيرهم الضوء . (ع)

خيرها ومنافعها ، أى : غدوا حاصلين على الحرمان مكان الانتفاع ، أو لما قالوا اغدوا على حرثكم وقد خبثت نيتهم : عاقبهم الله بأن حاردت جنتهم وحرموا خيرها . فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد . و ﴿قادرين﴾ من عكس الكلام للتهكم ، أى : قادرين على ماعزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين . وعلى حرد ليس بصلة قادرين ، وقيل : الحرد بمعنى الحرد . وقرئ: على حرد ، أى لم يقدروا إلا على حنق وغضب بعضهم على بعض ، كقوله تعالى (يتلاومون) وقيل : الحرد القصد والسرعة ؛ يقال : حردت حردك . وقال :

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمرِ ٱللهْ   يَحْرُدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّهْ [1]

وقطا حراد : سراع ، يعنى : وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة ونشاط ، قادرين عند أنفسهم ، يقولون : نحن نقدر على صرامها وزى[2] منفعتها عن المساكين . وقيل (حرد) علم للجنة ، أى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم . أو مقدرين أن يتم لهم مرادهم من الصرام والحرمان ﴿قالوا﴾ فى بديهة وصولهم ﴿إنا لضالون﴾ أى ضللنا جنتنا ، وما هى بها لما رأوا من هلاكها ؛ فلما تأملوا وعرفوا أنها هى قالوا ﴿بل نحن محرومون﴾ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا ﴿أوسطهم﴾ أعدلهم وخيرهم ، من قولهم : هو من سطة قومه ، وأعطنى من سطات مالك . ومنه قوله تعالى (أمة وسطا) . ﴿لولا تسبحون﴾ لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم ، كأن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين ، وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم ، وسارعوا إلى حسم شرها قبل حلول النقمة ، فعصوه فعيرهم . والدليل عليه قولهم (سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) فتكلموا بما كان يدعوهم إلى التكلم به على أثر مقارفة الخطيئة ، ولكن بعد خراب البصرة . وقيل : المراد بالتسبيح . الاستثناء لالتقائهما فى معنى التعظيم لله ، لأن الاستثناء تفويض إليه ، والتسبيح تنزيه له ؛ وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم . وعن الحسن : هو الصلاة ، كأنهم كانوا يتوانون فى الصلاة ؛ وإلا لنهتهم عن الفحشاء والمنكر ، ولكانت لهم لطفا فى أن يستثنوا ولا يحرموا ﴿سبحان ربنا﴾ سبحوا الله ونزهوه عن الظلم وعن كل قبيح ، ثم اعترفوا بظلمهم فى منع المعروف وترك الاستثناء ﴿يتلاومون﴾ يلوم بعضهم بعضا ؛ لأن منهم من زين ، ومنهم من قبل ، ومنهم من أمر بالكف وعذر

(١) يصف سيلا بالكثرة ، ولذلك قال : من عند الله . ويروى : من أمر الله ، وحذفت الألف قبل الهاء من لفظ الجلالة لأنه جائز فى الوقف . وحرد يحرد من باب ضرب ، بمعنى قصد وأسرع ، أى : يسرع إسراع الجنة أى البستان المغلة كثير الغلة والخير ، ومعنى إسراع الجنة : ظهور خيرها قبل غيرها فى زمن يسير ، واختارها لأنها تنشأ عن السيل .

(٢) قوله « وزى منفعتها » فى الصحاح : تقول : زوى فلان المال عن وارثه زيا . (ع)

ومنهم من عصى الأمر ، ومنهم من سكت وهو راض ﴿أن يبدلنا﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف ﴿إلى ربنا راغبون﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه ﴿كذلك العذاب﴾ مثل ذلك العذاب الذى بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة عذاب الدنيا ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أشد وأعظم منه ، وسئل قتادة عن أصحاب الجنة : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فقال : لقد كلفتنى تعباً . وعن مجاهد : تابوا فأبدلوا خيراً منها . وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه : بلغنى أنهم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان : فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾

﴿عند ربهم﴾ أى فى الآخرة ﴿جنات النعيم﴾ ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا يشوبه ماينغصه كما يشوب جنان الدنيا .

أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾

كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها ، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا : إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هى فى الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أن يساوونا ، فقيل : أنحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين . ثم قيل لهم على طريقة الالتفات[1] ﴿مالكم كيف تحكمون﴾ هذا الحكم الأعوج ؟ كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم ﴿أم لكم كتاب﴾ من السماء ﴿تدرسون﴾ فى ذلك الكتاب أن ماتختارونه وتشتهونه لكم ، كقوله تعالى (أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم) والأصل تدرسون أن لكم ماتخيرون ، بفتح أن ؛ لأنه مدروس ؛ فلما جاءت اللام كسرت . ويجوز أن تكون حكاية للمدروس ، كما هو ، كقوله (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين) . وتخير الشىء واختاره : أخذ خيره ، ونحوه : تنخله وانتخله : إذا أخذ منخوله . لفلان علىّ يمين بكذا : إذا ضمنته منه وحلفت له[2] على الوفاء به ، يعنى : أم ضمنا منكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد

---

(١) قال محمود : «هذا خطاب على وجه الالتفات لأهل مكة إذ اعتقدوا أنهم فى الآخرة أكثر نعيما من المؤمنين ... الخ» قال أحمد : ولما كان الدرس قولا كسرها .

(٢) قوله «إذا ضمنته منه وحلفت له» لعله : عنه ؛ وكذا قوله «منكم» لعله «عنكم» وفى الصحاح : ضمنته الشىء تضمينا فتضمنه عنى . (ع)

فإن قلت : بم يتعلق ﴿إلى يوم القيامة﴾ ؟ قلت : المقدر فى الظرف ، أى : هى ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لاتخرج عن عهدتها إلا يومئذ إذا حكمناكم وأعطيناكم ماتحكمون . ويجوز أن يتعلق ببالغة ، على أنها تبلغ ذلكم اليوم وتنتهى إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم . وقرأ الحسن : بالغة ، بالنصب على الحال من الضمير فى الظرف ﴿إنّ لكم لما تحكمون﴾ جواب القسم ؛ لأنّ معنى (أم لكم أيمان علينا) أم أقسمنا لكم .

سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

﴿أيهم بذلك﴾ الحكم ﴿زعيم﴾ أى قائم به وبالاحتجاج لصحته ، كما يقوم الزعيم المتكلم عن القوم المتكفل بأمورهم ﴿أم لهم شركاء﴾ أى ناس يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم عليه ويذهبون مذهبهم فيه ﴿فليأتوا﴾ بهم ﴿إن كانوا صادقين﴾ فى دعواهم ، يعنى : أنّ أحداً لايسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنه لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولازعيم لهم يقوم به .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾

الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام[1] : مثل فى شدة الأمر وصعوبة الخطب ، وأصله فى الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهنّ فى الهرب ، وإبداء خدامهن عند ذلك .
قال حاتم :

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا ... وَإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا[2]

---

(١) قوله «والابداء عن الخدام» جمع خدمة ، وهي الخلخال . أفاده الصحاح ، وذلك كرقاب جمع رقبة . (ع)

(٢) لجرير . ويروى بدل الشطر الأول :

ألا رب ساهي الطرف من آل مازن ... إذا شمرت ... ... الخ

وساهي الطرف : فاتر العين . وأخو الحرب : بمعنى أنه يألفها ويلازمها كالأخ . وشبه الحرب بفرس عضوض على طريق الكناية ، فأثبت لها العض . وعضها : أى بلغ منها مراده . أوغلب أهلها ؛ فالعض استعارة لذلك على طريق التصريح . ويجوز أنه ترشيح للأولى . وقوله «به» يدل على أن العض وقع بجزئه . وقوله «عضها» يفيد أنه وقع بها كلها . يعنى : أنه يكافئ أعداءه وزيادة . والتشمير عن الساق : كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته . وأصله : أن يسند للانسان ؛ لأن تشمير الثوب عن الساق لخوض لجة أوجرى أونحوه ، فأسند للحرب المشبهها =

وقال ابن الرقيات :

تُذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِى عَنْ خِـدَامِ الْعَقِيـلَةِ الْعَذْرَاءِ [1]

فمعنى ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ فى معنى : يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل ؛ وإنما هو مثل فى البخل. وأما من شبه فلضيق عطنه [2] وقلة نظره فى علم البيان ، والذى غرّه منه حديث ابن مسعود رضى الله عنه : « يكشف الرحمن عن ساقه ؛ فأمّا المؤمنون فيخرّون سجداً [3] ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً طبقا كأنّ فيها سفافيد » [4] ومعناه : يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله ، وهو الفزع الأكبر يوم القيامة ، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه ، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهى ساق الرحمن . فإن قلت : فلم جاءت منكرة فى التمثيل ؟ قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة منكر خارج عن المألوف ، كقوله (يوم يدع الداع إلى شىء نكر) كأنه قيل : يوم يقع أمر فظيع هائل ؛ ويحكى هذا التشبيه عن مقاتل : وعن أبى عبيدة : خرج من خراسان رجلان ، أحدهما : شبه حتى مثل ، وهو مقاتل بن سليمان ، والآخر نفى حتى عطل

= بالانسان على طريق الكناية . وقوله «شمر» أى عن ساعده لا عن ساقه ؛ لأن تشمير الساعد كناية عن ملاقاة الأمر ومباشرته بنشاط وقوة ، وهو المراد . أوشمر عن ساقه وساعده دليل الاطلاق ، فيكون أبلغ من تشميرها . فان قلت : كان ينبغى ذكر التشمير قبل العض لأنه من باب الاستعداد ، قلت : نعم لو بقى على معناه ، ولكن المراد به هنا شدة الأمر ، وصعوبة الحرب : زيادة على أصلها .

(١) كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء

لعبيد بن قيس الرقيات . وكيف استفهام إنكارى ، بمعنى نفى النوم . ولما بمعنى لم ، إلا أن فيها استمرار النفى إلى زمن التكلم وتوقيع الوقوع بعده . وشبه الغارة وهى الحرب بما له إحاطة وشمول على طريق المكنية ؛ والشمول تخييل ؛ والشعواء الفاشية المنتشرة ؛ وإذهالها الشيخ عن بنيه : كناية عن اشتدادها ، وكذلك كشفها عن خدام العقيلة ، والخدام : الخلخال . وعقيلة كل شىء : أكرمه . ومن النساء المخدرة التى عقلت فى خدرها . والعذراء : التى يتعذر نوالها ويشق وصالها . وفيه الاقواء ، وهو اختلاف الروى بالضم والكسر . ويروى برفع العقيلة العذراء على أنه فاعل تبدى ، وجعله ابن جرير شاهداً على جواز حذف التنوين إذا تلاه ساكن ، وإن كان الكثير تحريكه حينئذ ، وعلى هذا فتحتاج هذه الجملة إلى رابط يعود على المنعوت وهو غارة ؛ والتقدير : وتبدى فيها العقيلة عن خلخال .

(٢) « قوله وأما من شبه فلضيق عطنه » أى من قال بمذهب المشبهة على ما هو مقرر فى علم الكلام ، كما سيشير إليه بعد . (ع)

(٣) أخرجه الحاكم من طريق سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن ابن مسعود فى أثناء حديث طويل ليس فيه تصريح برفعه . ورواه الطبرى مختصراً .

(٤) قوله « كأن فيها السفافيد » واحدها سفود بالتشديد ، وهى حديدة يشوى بها اللحم . أفاده الصحاح . (ع)

وهو جهم بن صفوان؛ ومن أحس بعظم مضار فقد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه. وقرئ: يوم نكشف بالنون. وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعا، والفعل للساعة أو للحال، أى: يوم تشتد الحال أو الساعة، كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز. وقرئ: تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين، من أكشف: إذا دخل فى الكشف. ومنه. أكشف الرجل فهو مكشف، إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف: فليأتوا. أو إضمار «اذكر» أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت، فحذف للتهويل البليغ، وإن ثم من الكوائن مالا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضى الله عنه: تعقم أصلابهم، أى ترد عظاما بلا مفاصل لا تنثنى عند الرفع والخفض. وفى الحديث: وتبقى أصلابهم طبقا واحداً، أى. فقارة واحدة. فإن قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف؟ قلت: لا يدعون إليه تعبداً وتكليفا، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود فى الدنيا، مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرا لهم وتنديما على ما فرطوا فيه حين دعوا إلى السجود، وهم سالمون الأصلاب [1] والمفاصل ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾

يقال: ذرنى وإياه، يريدون كله إلى، فإنى أكفيكه، كأنه يقول: حسبك إيقاعا به أن تكل أمره إلى وتخلى بينى وبينه، فإنى عامل بما يجب أن يفعل به مطيق له، والمراد: حسبي مجازيا [2] لمن يكذب بالقرآن، فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل على فى الانتقام منه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهديداً للمكذبين. استدرجه إلى كذا: إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه. واستدراج الله العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلوا رزق الله ذريعة ومتسلقا إلى ازدياد الكفر والمعاصى ﴿من حيث لا يعلمون﴾ أى: من الجهة التى لا يشعرون أنه استدراج وهو الإنعام عليهم، لأنهم يحسبونه إيثارا لهم وتفضيلا على المؤمنين، وهو سبب لهلاكهم ﴿وأملى لهم﴾ وأمهلهم، كقوله تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) والصحة والرزق والمد فى العمر: إحسان من الله وإفضال يوجب عليهم الشكر والطاعة، ولكنهم يجعلونه سببا فى الكفر باختيارهم، فلما تدرجوا به إلى الهلاك وصف المنعم بالاستدراج. وقيل: كم من مستدرج بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه. وسمى

(١) قوله «وهم سالمون الأصلاب» لعله سالمو الأصلاب بالاضافة. (ع)
(٢) قوله «والمراد حسبي مجازيا» الاستعمال المعروف: حسبك بى مجازيا. أو حسبك الله مجازيا. (ع)

إحسانه وتمكينه كيداً كما سماه استدراجا، لكونه فى صورة الكيد حيث كان سببا للتورط فى الهلكة، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه فى التسبب للهلاك.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

المغرم: الغرامة، أى لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجراً، فيثقل عليهم حمل الغرامات فى أموالهم، فيثبطهم ذلك عن الإيمان ﴿أم عندهم الغيب﴾ أى اللوح ﴿فهم يكتبون﴾ منه ما يحكمون به.

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾

﴿لحكم ربك﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يعنى: يونس عليه السلام ﴿إذ نادى﴾ فى بطن الحوت ﴿وهو مكظوم﴾مملوءغيظا، من كظم السقاء إذا ملأه، والمعنى: لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة، فتبتلى ببلائه. حسن تذكير الفعل لفصل الضمير فى تداركه. وقرأ ابن عباس وابن مسعود: تداركته. وقرأ الحسن: تداركه، أى تتداركه على حكاية الحال الماضية، بمعنى: لو لا أن كان يقال فيه تتداركه، كما يقال: كان زيد سيقوم فمنعه فلان، أى كان يقال فيه سيقوم. والمعنى: كان متوقعا منه القيام. ونعمة ربه: أن أنعم عليه بالتوفيق للتوبة وتاب عليه. وقد اعتمد فى جواب «لولا» على الحال، أعنى قوله ﴿وهو مذموم﴾ يعنى أنّ حاله كانت على خلاف الذمّ حين نبذ بالعراء، ولولا توبته لكانت حاله على الذمّ. روى أنها نزلت بأحد حين حل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما حل به، فأراد أن يدعو على الذين انهزموا. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف. وقرئ: رحمة من ربه ﴿فاجتباه ربه﴾ فجمعه إليه، وقربه بالتوبة عليه، كما قال: (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ﴿فجعله من الصالحين﴾ أى من الأنبياء. وعن ابن عباس: ردّ الله إليه الوحى وشفعه فى نفسه وقومه.

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

إن مخففة من الثقيلة واللام علمها . وقرئ : ليزلقونك بضم الياء وفتحها . وزلقه وأزلقه بمعنى : ويقال : زلق الرأس وأزلقه : حلقه : وقرئ : ليزهقونك ، من زهقت نفسه وأزهقها ، يعنى : أنهم من شدّة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك ، من قولهم : نظر إلىّ نظراً يكاد يصرعنى ، ويكاد يأكلنى ، أى : لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله . قال :

يَتَقَارَضُونَ إِذَا الْتَقَوْا فِى مَوْطِنٍ نَظَرًا يُزِلُّ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ [1]

وقيل : كانت العين فى بنى أسد ، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء ، فيقول فيه : لم أر كاليوم مثله إلا عانه ، فأريد بعض العيانين على أن يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أر كاليوم رجلا فعصمه الله . وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية ﴿لما سمعوا الذكر﴾ أى القرآن لم يملكوا أنفسهم حسدا على ما أوتيت من النبوة ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ حيرة فى أمره وتنفيرا عنه ؛ وإلا فقد علموا أنه أعقلهم . والمعنى : أنهم جننوه لأجل القرآن ﴿وما هو إلا ذكر﴾ وموعظة ﴿للعالمين﴾ فكيف يجنن من جاء بمثله .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم » [2] .

---

(١) يقول : إذا التقوا فى مجلس ـ وروى موطن ـ : يتقارضون ، أى : يقرض بعضهم بعضا بنظره إليه ، كأن أحدهم يعطى خصمه النظر ، والثانى يكافئه بنظره إليه حسداً وغيظاً ؛ وإزلال مواطئ الأقدام : كناية عن الاهلاك ؛ لأن من زلت قدمه سقط على الأرض وربما هلك . أى : ينظر بعضهم بعضا نظر الحسود المغتاظ ، فتسبب عن ذلك زلل الأقدام عن مواطئها ، وإيقاع الازلال على مواضع الأقدام : مجاز عقلى ، لأنه محله ، وفيه مبالغة فى زلل القدم .

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه عن أبى بن كعب .

سورة الحاقة

مكية ، وآياتها ٥٢ [نزلت بعد الملك]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)

﴿الحاقة﴾ الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء ، التي هي آتية لا ريب فيها . أو التي فيها حواق الأمور من الحساب والثواب والعقاب . أو التي تحق فيها الأمور ، أي : تعرف على الحقيقة ، من قولك لا أحق هذا ، أي : لا أعرف حقيقته . جعل الفعل لها وهو لأهلها وارتفاعها على الابتداء وخبرها ﴿ما الحاقة﴾ والأصل : الحاقة ماهى ، أي أي شيء هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها ، فوضع الظاهر موضع المضمر ؛ لأنه أهول لها ﴿وما أدراك﴾ وأي شيء أعلمك ما الحاقة ، يعنى : أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها ، على أنه من العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه ، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك ، و (ما) في موضع الرفع على الابتداء . و (أدراك) معلق عنه لتضمنه معنى الاستفهام . (القارعة) التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال ، والسماء بالانشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجوم بالطمس والانكدار . ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع . في الحاقة : زيادة في وصف شدتها ؛ ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب ، تذكيراً لأهل مكة وتخويفاً لهم من عاقبة تكذيبهم ﴿بالطاغية﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة . واختلف فيها ،

فقيل : الرجفة . وعن ابن عباس : الصاعقة . وعن قتادة : بعث الله عليهم صيحة فأهمدتهم . وقيل : الطاغية مصدر كالعافيـة ، أى : بطغيانهم ؛ وليس بذاك لعدم الطباق بينها وبين قوله ﴿بريح صرصر﴾ والصرصر : الشديدة الصوت لها صرصرة . وقيل : الباردة من الصر ، كأنها التى كرر فيها البرد وكثر : فهى تحرق لشدة بردها ﴿عاتية﴾ شديدة العصف والعتو استعارة . أو عتت على عاد ، فما قدروا على ردها بحيلة . من استتار ببناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء فى حفرة ؛ فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم . وقيل : عتت على خزانها ، فخرجت بلا كيل ولا وزن : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أرسل الله سفينة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من مطر إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح ، فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه السبيل ، ثم قرأ (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) وإن الريح يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم عليها سبيل ثم قرأ (بريح صرصر عاتية)[1] ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها . الحسوم : لا يخلو من أن يكون جمع حاسم كشهود وقعود . أو مصدراً كالشكور والكفور ؛ فإن كان جمعاً فمعنى قوله (حسوما) نحسات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة . أو متتابعة هبوب الرياح : ما خفتت ساعة حتى أتت عليهم تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم فى إعادة الكى على الداء ، كرة بعد أخرى حتى ينحسم . وإن كان مصدراً : فإما أن ينتصب بفعله مضمرا ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا . أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم . أو يكون مفعولا له ، أى : سخرها عليهم للاستئصال . وقال عبدالعزيز ابن زرارة الكلابى :

فَفَرَّقَ بَيْنَ بَيْنِهِمُ زَمَانٌ ... تَتَابَعَ فِيهِ أَعْوَامٌ حُسُومُ[2]

وقرأ السدى : حسوما ، بالفتح حالا من الريح ، أى : سخرها عليهم مستأصلة . وقيل : هى أيام العجوز ؛ وذلك أن عجوزاً من عاد توارت فى سرب ، فانتزعتها الريح فى اليوم الثامن فأهلكتها . وقيل : هى أيام العجز ، وهى آخر الشتاء ؛ وأسماؤها : الصن والصنبر ، والوبر . والآمر ،

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية موسى بن أعين عن الثورى عن موسى بن المسيب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعا . وأخرجه الطبرى من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان موقوفا .

(٢) لعبد العزيز بن زرارة الكلابى ، وأصل الكلام : ففرق بينهم زمان ، فبينهم ظرف للتفريق ، إلا أنه أراد المبالغة بجعل التفريق بين أجزاء هذا الظرف أيضا ، فقال : ففرق بين بينهم زمان ؛ وإذا فرق بين الظرف فقد فرق بين أصحابه بالضرورة ، فهو من باب الكناية . ويمكن أن بين الثانى كناية عن الوصلة التى بينهم ، ولعل أصله : ففرق بين ذات بينهم ؛ وبين سبب تفريق الزمان بينهم بوصفه بأنه تتابع فيه أعوام حسوم ، من الحسم : وهو للقطع ، والكى بالنار مرة بعد أخرى حتى ينقطع الدم . وظاهر كلام الجوهرى أنه مفرد ، لأنه قال : أيام حسوم ، أى : متتابعة . والحسوم : الشؤم . ويجوز أنه جمع حاسم كراكع وركوع ، وساجد وسجود ، أى : حاسمات وقاطعات لأبواب الخيرات .

والمؤتمر ، والمعلل ، ومطفىء الجمر . وقيل : مكفىء الظعن[1] ومعنى ﴿سخرها عليهم﴾ سلطها عليهم كما شاء ﴿فيها﴾ فى مهابها . أو فى الليالى والأيام . وقرئ : أعجاز نخيل ﴿من باقية﴾ من بقية أو من نفس باقية . أو من بقاء ، كالطاغية : بمعنى الطغيان .

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾

﴿ومن قبله﴾ يريد : ومن عنده من تباعه . وقرئ : ومن قبله ، أى : ومن تقدمه . وتعضد الاولى قراءة عبدالله وأبى : ومن معه . وقراءة أبى موسى : ومن تلقاءه ﴿والمؤتفكات﴾ قرى قوم لوط ﴿بالخاطئة﴾ بالخطإ . أو بالفعلة ، أو الأفعال ذات الخطإ العظيم ﴿رابية﴾ شديدة زائدة فى الشدة ، كما زادت قبائحهم فى القبح . يقال : ربا الشيء يربو : إذا زاد (ليربو فى أموال الناس) .

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

﴿حملناكم﴾ حملنا آباءكم ﴿فى الجارية﴾ فى سفينة : لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين ، كان حمل آبائهم منة عليهم ، وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم ﴿لنجعلها﴾ الضمير للفعلة : وهى نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة ﴿تذكرة﴾ عظة وعبرة ﴿أذن واعية﴾ من شأنها أن تعى وتحفظ ما سمعت به ولا تضيعه بترك العمل ، وكل ما حفظته فى نفسك فقد وعيته[2] وما حفظته فى غير نفسك فقد أوعيته كقولك : وعيت الشيء فى الظرف . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضى الله عنه عند نزول هذه الآية « سألت الله أن يجعلها أذنك يا على » قال على رضى الله عنه : فما نسيت شيئاً بعد وما كان لى أن أنسى[3] . فإن قلت : لم قيل : أذن واعية ، على التوحيد والتنكير؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم ؛ وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهى السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالى بهم بالة وإن ملئوا ما بين الخافقين . وقرئ : وتعيها بسكون العين للتخفيف : شبه تعى بكبد .

---

(١) قوله « وقيل مكفىء الظعن » جمع ظعينة وهى الهودج ، أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : « ويقال وعيته أى حفظته فى نفسك ... الخ » قال أحمد : هو مثل قوله (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) وقد ذكر أن فائدة التنكير والتوحيد فيه الاشعار بقلة الناظرين .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور والطبرى من رواية مكحول به مرسلا بتمامه نحوه . وأخرجه الثعلبى من طريق أبى حمزة الثمالى حدثنى عبد الله بن حسن قال : حين نزلت فذكره بلفظ المصنف.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

أسند الفعل إلى المصدر ، وحسن تذكيره للفصل . وقرأ أبو السمال نفخة واحدة بالنصب مسنداً للفعل إلى الجار والمجرور . فإن قلت : هما نفختان ، فلم قيل : واحدة[1] ؟ قلت معناه أنها لا تثنى فى وقتها . فإن قلت : فأى النفختين هى ؟ قلت الأولى لأن عندها فساد العالم ، وهكذا الرواية عن ابن عباس . وقد روى عنه أنها الثانية . فإن قلت : أما قال بعد (يومئذ تعرضون) والعرض إنما هو عند النفخة الثانية ؟ قلت : جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قيل (يومئذ تعرضون) كما تقول : جئته عام كذا ، وإنما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته ﴿وحملت﴾ ورفعت من جهاتها بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال . أو بخلق من الملائكة . أو بقدرة الله من غير سبب . وقرئ : وحملت ، بحذف المحمل وهو أحد الثلاثة ﴿فدكتا﴾ فدكت الجملتان : جملة الأرضين وجملة الجبال ، فضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيباً مهيلا وهباء منبثاً . والدك أبلغ من الدق . وقيل : فبسطتا بسطة واحدة ، فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، من قولك : اندك السنام إذا انفرش . وبعير أدك وناقة دكاء . ومنه : الدكان ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ فحينئذ نزلت النازلة وهى القيامة ﴿واهية﴾ مسترخية ساقطة القوة جدا بعد ما كانت محكمة مستمسكة . يريد : والخلق الذى يقال له الملك ، ورد إليه الضمير مجموعا فى قوله (فوقهم) على المعنى : فإن قلت : ما الفرق بين قوله (والملك) ، وبين أن يقال (والملائكة) ؟ قلت : الملك أعم من الملائكة ، ألا ترى أن قولك : ما من ملك إلا وهو شاهد ، أعم من قولك : ما من ملائكة ﴿على أرجائها﴾ على جوانبها : الواحد رجا مقصور ، يعنى : أنها تنشق ، وهى مسكن الملائكة ، فينضوون[2] إلى أطرافها وما حولها من حافاتها[3] ﴿ثمانية﴾ أى : ثمانية

---

(١) قال محمود : «إن قلت : لم قال واحدة وهما نفختان ... الخ» ؟ قال أحمد : وأما فائدة الاشعار بعظم هذه النفخة : أن المؤثر لدك الأرض والجبال وخراب العالم هى وحدها غير محتاجة إلى أخرى .

(٢) قوله «فينضوون إلى أطرافها» فى الصحاح ضويت إليه : أويت إليه وانضممت . (ع)

(٣) قال محمود : «أى على حافتها لأنها تنشق فتنضوى الملائكة الذين هى مساكنها إلى أذيالها ... الخ» قال أحمد : كلاهما معرف تعريف الجنس ، فالواحد والجمع سواء فى العموم .

منهم . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فيكونون ثمانية[1] » وروى : ثمانية أملاك : أرجلهم فى تخوم الأرض السابعة ، والعرش فوق رؤسهم ، وهم مطرقون مسبحون . وقيل : بعضهم على صورة الإنسان ، وبعضهم على صورة الأسد ، وبعضهم على صورة الثور ، وبعضهم على صورة النسر . وروى : ثمانية أملاك فى خلق الأوعال ، ما بين أظلافها إلى ركبها : مسيرة سبعين عاما . وعن شهر بن حوشب : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ؛ وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وعن الحسن : الله أعلم كم هم ، أثمانية أم ثمانية آلاف ؟ وعن الضحاك : ثمانية صفوف لا يعلم عددهم إلا الله . ويجوز أن تكون الثمانية من الروح ، أو من خلق آخر ، فهو القادر على كل خلق ، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . العرض : عبارة عن المحاسبة والمساءلة . شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله . وروى أنّ فى يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ ، وأما الثالثة ففيها تنشر الكتب فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله ﴿خافية﴾ سريرة وحال كانت تخفى فى الدنيا بستر الله عليكم .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

﴿فأما﴾ تفصيل للعرض . ها : صوت يصوت به فيفهم منه معنى « خذ » كأف وحس ، وما أشبه ذلك .[2] و ﴿كتابيه﴾ منصوب بهاؤم عند الكوفيين ، وعند البصريين باقرؤا ، لأنه أقرب العاملين . وأصله : هاؤم كتابى اقرؤا كتابى ، فحذف الأول لدلالة الثانى عليه . ونظيره (آتونى أفرغ عليه قطرا) قالوا : ولو كان العامل الأول لقيل : اقرؤه وأفرغه . والهاء للسكت فى (كتابيه) ، وكذلك فى (حسابيه) و (ماليه) و (سلطانيه) وحق هذه الهاآت أن

---

(١) أخرجه الطبرى من طريق أبى إسحاق . قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ فذكره . وهو مذكور فى الحديث الطويل الذى يرويه إسماعيل بن رافع عن زيد بن أبى زياد عن القرظى عن رجل عن أبى هريرة . رواه أبو يعلى وغيره وقد تقدم .

(٢) قوله « كأف وحس ، وما أشبه ذلك » يفهم من كل منهما معنى التضجر والتألم . كما يفيده الصحاح . (ع)

تثبت في الوقف وتسقط في الوصل،[1] وقد استحب إيثار الوقف إيثارا لثباتها لثباتها في المصحف. وقيل: لا بأس بالوصل والإسقاط. وقرأ ابن محيصن بإسكان الياء بغير هاء. وقرأ جماعة بإثبات الهاء في الوصل والوقف جميعا لإتباع المصحف ﴿ظننت﴾ علمت. وإنما أجرى الظن مجرى العلم، لأن الظن الغالب يقام مقام العلم في العادات والأحكام. ويقال: أظن ظنا كاليقين أنّ الأمر كيت وكيت ﴿راضية﴾ منسوبة إلى الرضا؛ كالدارع والنابل. والنسبة نسبتان: نسبة بالحرف، ونسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازا وهو لصاحبها ﴿عالية﴾ مرتفعة المكان في السماء. أو رفيعة الدرجات. أو رفيعة المباني والقصور والأشجار ﴿دانية﴾ ينالها القاعد والنائم. يقال لهم ﴿كلوا واشربوا هنيئا﴾[2] أكلا وشربا هنيئا. أو هنيتم هنيئا على المصدر ﴿بما أسلفتم﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿في الأيام الخالية﴾ الماضية من أيام الدنيا. وعن مجاهد: أيام الصيام، أي: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله. وروى. يقول الله عز وجل: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قلصت شفاهكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾

الضمير في ﴿ياليتها﴾ للموتة: يقول: ياليت الموتة التي متها ﴿كانت القاضية﴾ أي القاطعة

(١) قال محمود: «وحق هذه الهاآت يعني في كتابيه وحسابيه وماليه وسلطانيه ... الخ» قال أحمد: تعليل للقراءة باتباع المصحف عجيب مع أن المعتقد الحق أن القراآت السبع بتفاصيلها منقولة تواترا عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، فالذي أثبت الهاء في الوصل إنما أثبتها من التواتر عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم: آيها كذلك قبل أن تكتب في المصحف؛ ومانفس هؤلاء إلا إدخال الاجتهاد في القراآت المستفيضة، واعتقاد أن فيها ما أخذ بالاختيار النظري وهذا خطأ لا ينبغي فتح بابه، فانه ذريعة إلى ماهو أكبر منه؛ ولقد جرت بيني وبين الشيخ أبي عمرو رحمه الله مفاوضة في قوله (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه) على قراءة حفص، انتهت إلى أن ألزم الرد على من أثبت الهاء في الوصل في كلمات سورة الحاقة. لأني حججته باثبات القراء المشاهير لها كذلك، ففهمت من رده لذلك مافهمه من كلام الزمخشري ههنا ولم أقبله منه رحمه الله، فتراجع عنه؛ وكانت هذه المفاوضة بمكاتبة بيني وبينه، وهي آخر ما كتب من العلوم على ماأخبرني به خاصته، وذلك صحيح لأنها كانت في أوائل مرضه رحمه الله، والله أعلم.

(٢) قوله «كلوا واشربوا هنيئا» في الصحاح: هنؤ الطعام وهنيء، أي: صار هنيئا. وهنأني الطعام يهنئني ويهنؤني، ولا نظير له في المهموز هنأ وهناء. وهنئت الطعام، أي: تهنأت به، وكلوه هنيئا مريئا. (ع)

لأمرى ، فلم أبعث بعدها ؛ ولم ألق ما ألق . أو للحالة ، أى : ليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضت علىّ ، لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته ؛ فتمناه عندها ﴿ما أغنى﴾ نفى أو استفهام على وجه الإنكار ، أى : أىّ شىء أغنى عنى ما كان لى من اليسار ﴿هلك عنى سلطانيه﴾ ملكى وتسلطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا . وعن ابن عباس : أنها نزلت فى الأسود بن عبد الأشد . وعن فناخسرة الملقب بالعضد ، أنه لما قال :

عَضُدُ الدَّوْلَةِ وَابْنُ رُكْنِهَا مَلِكُ الأَمْلاكِ غَلاَّبُ القَدَرْ [(١)]

لم يفلح بعده وجنّ فكان لا ينطق لسانه إلا بهذه الآية . وقال ابن عباس : ضلت عنى حجتى . ومعناه : بطلت حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا .

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾

﴿ثم الجحيم صلوه﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظمى ، لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس . يقال : صلى النار وصلاه النار . سلكه فى السلسلة : أن تلوى على جسده حتى تلتف

(١) ليس شرب الكأس إلا فى المطر ... وغناء من جوار فى سحر
غانيات سالبات للنهى ... ناعمات فى تضاعيف الوتر
مبردات الكأس من مطلعها ... ساقيات الكأس من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ... ملك الأملاك غلاب القدر

للحسن بن على الطوسى . وقيل لعضد الدولة نفسه ، يقول : ليس شرب الخمر الكامل اللذة إلا فى حال المطر ، وفى حال غناء الجوارى فى السحر ، غانيات : جميلات مقيمات فى العيون عذرات ، سالبات : ذاهبات للنهى : جمع نهية وهى العقل ؛ ناعمات : أى متنعمات . وفى تضاعيف الوتر : متعلق بغناء . ويروى : ناغمات ، بالمعجمة ، أى : محسنات لأصواتهن فى أثناء صوت الوتر ؛ وهو الخيط المشدود فى آلة اللهو . والراح : الخمر . وعضد الدولة : بدل من الموصول المفعول بساقيات . والعضد فى الأصل : استعارة للممدوح ؛ لأن به قوتها . كالعضد للانسان . والركن كذلك استعارة لأبيه بجامع التقوية أيضا ، وهو أقرب من تشبيه الدولة بالانسان تارة وبالبناء أخرى ، على طريق المكنية ، ولكنهما الآن لقبان للممدوح وأبيه ، وذكر الضمير وإعادته على الدولة مع أنها جزء العلم فى المحلين للمح الأصل كالاستعارة . والقدر : ماقدره الله وقضاه . وفى وصف ممدوحه بأنه غلاب القدر من فجور النساء مالا يخفى . ولذلك روى أنه جن وحبس لسانه حتى مات : وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «أغيظ الناس رجلا على الله يوم القيامة وأخبثهم : رجل تسمى ملك الأملاك ، ولا ملك إلا الله» .

عليه أثناؤها ؛ وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ؛ وجعلها سبعين ذراعا إرادة الوصف بالطول ، كما قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة ، يريد : مرات كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد . والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك : مثله فى تقديم الجحيم على التصلية . أى : لا تسلكوه إلا فى هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق فى الجحيم . ومعنى (ثم) الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ، وما بينها وبين السلك فى السلسلة ، لا على تراخى المدة ﴿أنه﴾ تعليل على طريق الاستئناف ، وهو أبلغ ؛ كأنه قيل : ما له يعذب هذا العذاب الشديد ؟ فأجيب بذلك . وفى قوله ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ دليلان قويان على عظم الجرم فى حرمان المسكين ، أحدهما : عطفه على الكفر ، وجعله قرينة له . والثانى : ذكر الحض دون الفعل ، ليعلم أنّ تارك الحض بهذه المنزلة ، فكيف بتارك الفعل ، وما أحسن قول القائل :

إِذَا نَزَلَ الأَضْيَافُ كَانَ عَذَوَّرًا عَلَى الْحَىِّ حَتَّى تَسْتَقِلَّ مَرَاجِلُهْ [1]

يريد حضهم على القرى واستعجلهم وتشاكس عليهم . [2] وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر ؟ وقيل : هو منع الكفار . وقولهم : (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) والمعنى على بذل طعام المسكين ﴿حميم﴾ قريب يدفع عنه ويحزن عليه ، لأنهم يتحامونه ويفرون منه ،

(١) تركنا فتى قد أيقن الجوع أنه إذا ما ثوى فى أرحل القوم قاتله
فتى قد قد السيف لا متضائل ولا رهل لباته وأباجله
إذا نزل الأضياف كان عذورا على الحى حتى تستقل مراجله

قيل : إنه للمجير السلولى . وقيل : لزينب بنت الطثرية ترثى أخاها يزيد . والثوى الطائر والحائر : يمى . شبه الجوع بانسان عدو للقوم على سبيل المكنية ، وإثبات الايقان له تخييل ، وكذلك قتله ، وهذا مبالغة فى وصف يزيد بالكرم ، وأنه مانع للجوع من دخوله بيوت القوم ولحوقه بهم ، حتى كأن الجوع يخافه ويتيقن أنه إذا دخل بيوت القوم قتله يزيد . ويجوز أن فاعل ثوى : ضمير يزيد ، لكن الأول أبلغ ؛ لأنه يفيد أن الجوع لم يدخل على القوم لخوفه من يزيد ، وقد : فعل مبنى للمجهول ، وقد السيف : مفعول مطلق ، أى خلق على شكل السيف فى المضى فى المكان وتنفيذ العزائم . والمتضائل المتضاعف المتخاشع ، والرهل - كتعب - : الاسترخاء . والرهل - كحذر - : وصف منه ، وجمع اللبة باعتبار ما حولها . والأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق غليظ فى الفخذ والساق وفرس وهن الأباجل سريع الجرى ، والعذور - بالعين المهملة وتشديد الواو - : سيء الخلق قليل الصبر عن مطلوبه ، كأنه يحتاج إلى الاعتذار عن سوء خلقه . والمراجل : القدور العظام يقول : تركنا فى المعركة فتى كريما جوادا سريعا فى قرى الضيفان ، إذا نزلوا به كان سيء الخلق على أهله ، حتى ترتفع قدوره الأثافى ، فيحسن خلقه كما كان .

(٢) قوله «وتشاكس عليهم» فى الصحاح : رجل شكس ، أى : صعب الخلق . (ع)

كقوله (ولا يسأل حميم حميما) . والغسلين : غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ، فعلين من الغسل ﴿الخاطئون﴾ الآثمون أصحاب الخطايا . وخطئ الرجل : إذا تعمد الذنب [1] ، وهم المشركون : عن ابن عباس : وقرئ : الخاطيون ، بإبدال الهمزة ياء ، والخاطون بطرحها . وعن ابن عباس : ما الخاطون ؟ كلنا نخطو . وروى عنه أبو الأسود الدؤلي : ما الخاطون ؟ إنما هو الخاطئون ؛ ما الصابون ؟ إنما هو الصابئون : ويجوز أن يراد : الذين يتخطون الحق إلى الباطل ، ويتعدّون حدود الله .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

هو إقسام بالأشياء كلها على الشمول والإحاطة ، لأنها لا تخرج من قسمين : مبصر وغير مبصر . وقيل : الدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والخلق والخالق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، إن هذا القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ أى يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله ﴿وما هو بقول شاعر﴾ ولا كاهن كما تدعون . والقلة في معنى العدم . أى : لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة . والمعنى : ما أكفركم وما أغفلكم ﴿تنزيل﴾ هو تنزيل ، بيانا لأنه قول رسول نزل عليه ﴿من رب العالمين﴾ وقرأ أبو السمال : تنزيلا ، أى : نزل تنزيلا . وقيل « الرسول الكريم » جبريل عليه السلام . وقوله (وما هو بقول شاعر) دليل على أنه محمد صلى الله عليه وسلم : لأنّ المعنى على إثبات أنه رسول ، لا شاعر ولا كاهن .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

(١) قوله « وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب » فى الصحاح : قال الأموى : المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره . والخاطئ : من تعمد لما لا ينبغى . (ع)

التقوّل : افتعال القول[1] ، كأن فيه تكلفاً من المفتعل . وسمى الأقوال المتقولة « أقاويل » تصغيراً بها وتحقيرا ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول . والمعنى : ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام ، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول : وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف ، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه . ومعنى ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لأخذنا بيمينه ، كما أن قوله ﴿لقطعنا منه الوتين﴾ لقطعنا وتينه ، وهذا بين . والوتين : نياط القلب وهو حبل الوريد : إذا قطع مات صاحبه . وقرئ : ولو تقول على البناء للمفعول . قيل ﴿حاجزين﴾ فى وصف أحد ؛ لأنه فى معنى الجماعة ، وهو اسم يقع فى النفى العام مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ومنه قوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) ، (لستن كأحد من النساء) والضمير فى عنه للقتل ، أى : لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه . أو لرسول الله . أى : لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه ؛ والخطاب للناس ، وكذلك فى قوله تعالى ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ وهو إيعاد على التكذيب . وقيل الخطاب للمسلمين . والمعنى : أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن ﴿وإنه﴾ الضمير للقرآن ﴿لحسرة﴾ على الكافرين به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به . أو للتكذيب ، وأن القرآن اليقين حق اليقين ، كقولك : هو العالم حق العالم ، وجدّ العالم . والمعنى : لعين اليقين ، ومحض اليقين ﴿فسبح﴾ الله بذكر اسمه العظيم . وهو قوله : سبحان الله ؛ واعبده شكراً على ما أهلك له من إيحائه إليك .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابا يسيرا »[2] .

---

(١) قال محمود : « والتقول : افتعال من القول ؛ لأن فيه تكلفا ... الخ » قال أحمد : وبناء أفعولة من القول ، وهو معتل ، كما ترى غيب عن القياس التصريفى . ويحتمل أن تكون الأقاويل جمع الجمع ، كالأناعيم : جمع أقوال وأنعام ؛ وهو الظاهر ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

ســــورة المعارج

مكية ، وآياتها ٤٤ [نزلت بعد الحاقة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨)

ضمن ﴿سأل﴾ معنى دعا ، فعدّى تعديته ، كأنه قيل : دعا داع ﴿بعذاب واقع﴾ من قولك : دعا بكذا ، إذا استدعى وطلبه . ومنه قوله تعالى (يدعون فيها بكل فاكهة) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو النضر بن الحرث : قال إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وقيل : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استعجل بعذاب للكافرين . وقرئ : سال سائل ، وهو على وجهين : إما أن يكون من السؤال وهى لغة قريش ، يقولون : سلت تسال ، وهما يتسايلان ؛ وأن يكون من السيلان . ويؤيده قراءة ابن عباس : سال سيل ، والسيل : مصدر فى معنى السائل ، كالغور بمعنى الغائر . والمعنى : اندفع عليهم وادى عذاب فذهب بهم وأهلكهم . وعن قتادة : سأل سائل عن عذاب الله على من ينزل وبمن يقع ؟ فنزلت ، وسأل على هذا الوجه مضمن معنى : عنى واهتم . فإن قلت : بم يتصل

قوله ﴿للكافرين﴾ ؟ قلت : هو على القول الأول متصل بعذاب صفة له ، أى : بعذاب واقع كائن للكافرين ، أو بالفعل ، أى : دعا للكافرين بعذاب واقع . أو بواقع ؛ أى : بعذاب نازل لأجلهم ، وعلى الثانى : هو كلام مبتدأ جواب للسائل ، أى : هو للكافرين . فإن قلت : فقوله ﴿من الله﴾ بم يتصل ؟ قلت : يتصل بواقع ، أى واقع من عنده ، أو بدافع ؛ بمعنى : ليس له دافع من جهته إذا جاء وقته وأوجبت الحكمة وقوعه ﴿ذى المعارج﴾ ذى المصاعد جمع معرج ، ثم وصف المصاعد وبعد مداها فى العلو والارتفاع فقال: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره ﴿فى يوم كان مقداره﴾ كمقدار مدة ﴿خمسين ألف سنة﴾ مما يعد الناس . والروح . جبريل عليه السلام ، أفرده لتميزه بفضله . وقيل : الروح خلق هم حفظة على الملائكة ، كما أن الملائكة حفظة على الناس . فإن قلت . بم يتعلق قوله ﴿فاصبر﴾ ؟ قلت : بسأل سائل ؛ لأن استعجال النصر بالعذاب إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالوحى ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بالصبر عليه ، وكذلك من سأل عن العذاب لمن هو ، فإنما سأل على طريق التعنت ، وكان من كفار مكة . ومن قرأ : سال سائل ، أو سيل ، فمعناه : جاء العذاب لقرب وقوعه ، فاصبر فقد شارفت الانتقام ، وقد جعل (فى يوم) من صلة (واقع) أى: يقع فى يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم ، وهو يوم القيامة : إما أن يكون استطالة له لشدته على الكفار ، وإما لأنه على الحقيقة كذلك . قيل : فيه خمسون موطناً كل موطن ألف سنة ، وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر . الضمير فى ﴿يرونه﴾ للعذاب الواقع ، أو ليوم القيامة فيمن علق (فى يوم) بواقع ؛ أى : يستبعدونه على جهة الإحالة ﴿و﴾ نحن ﴿نراه قريباً﴾ هيناً فى قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذر ، فالمراد بالبعيد: البعيد من الإمكان، وبالقريب : القريب منه . نصب ﴿يوم تكون﴾ بقريباً ، أى : يمكن ولا يتعذر فى ذلك اليوم . أو بإضمار يقع ، لدلالة (واقع) عليه . أو يوم تكون السماء كالمهل . كان كيت وكيت . أو هو بدل عن (فى يوم) فيمن علقه بواقع ﴿كالمهل﴾ كدردىّ الزيت . وعن ابن مسعود : كالفضة المذابة فى تلونها ﴿كالعهن﴾ كالصوف المصبوغ ألوانا ؛ لأن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . فإذا بست وطيرت فى الجو : أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ﴿ولا يسأل حميم حميا﴾ أى لا يسأله بكيف حالك ولا يكلمه ، لأن بكل أحد ما يشغله عن المساءلة ﴿يبصرونهم﴾ أى يبصر الأحماء الأحماء ، فلا يخفون عليهم ، [1] فما يمنعهم من المساءلة أن

(١) قال محمود : «معناه يبصر الأصدقاء أصدقاءهم فيعرفونهم ... الخ» قال أحمد : وفيه دليل على أن الفاعل والمفعول الواقعين فى سياق النفى يعم ، كما التزم فى : والله لأشرب ماء من إداوة : أنه عام فى المياه والأدوات ، خلافا لبعضهم فى الأدوات .

بعضهم لا يبصر بعضا ، وإنما يمنعهم التشاغل : وقرئ : يبصرونهم . وقرئ : ولا يسئل ، على البناء للمفعول ، أى : لا يقال لحميم أين حميمك ولا يطلب منه ؛ لأنهم يبصرونهم فلا يحتاجون إلى السؤال والطلب . فإن قلت : ما موقع يبصرونهم ؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لما قال (ولا يسأل حميم حميما) قيل : لعله لا يبصره ، فقيل : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم . فإن قلت : لم جمع الضميران فى (يبصرونهم) وهما للحميمين ؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين . ويجوز أن يكون (يبصرونهم) صفة ، أى : حميما مبصرين معرّفين إياهم . قرئ : يومئذ ، بالجرّ والفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكن ، ومن عذاب يومئذ ، بتنوين (عذاب) ونصب (يومئذ) وانتصابه بعذاب ؛ لأنه فى معنى تعذيب ﴿ وفصيلته ﴾ عشيرته الأدنون الذين فصل عنهم ﴿ تؤويه ﴾ تضمه انتماء إليها ، أو لياذاً بها فى النوائب ﴿ ينجيه ﴾ عطف على يفتدى ، أى : يودّ لو يفتدى ، ثم لو ينجيه الافتداء . أو من فى الأرض . وثم : لاستبعاد الإنجاء ، يعنى : تمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم فى فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك وهيهات أن ينجيه ﴿ كلا ﴾ ردّ للمجرم عن الودادة ، وتنبيه على أنه لا ينفعه الافتداء ولا ينجيه من العذاب ، ثم قال ﴿ إنها ﴾ والضمير للنار ، ولم يجر لها ذكر ؛ لأنّ ذكر العذاب دل عليها . ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً ترجم عنه الخبر ، أو ضمير القصة . و﴿ لظى ﴾ علم للنار ، منقول من اللظى : بمعنى اللهب . ويجوز أن يراد اللهب . و﴿ نزاعة ﴾ خبر بعد خبر ؛ لأنّ أو خبر للظى إن كانت الهاء ضمير القصة ، أو صفة له إن أردت اللهب ، والتأنيث لأنه فى معنى النار . أو رفع على التهويل ، أى : هى نزاعة . وقرئ نزاعة ، بالنصب على الحال المؤكدة ، أو على أنها متلظية نزاعة ؛ أو على الاختصاص للتهويل . والشوى : الأطراف . أو جمع شواة : وهى جلدة الرأس تنزعها نزعا فتبتكها [1] ثم تعاد ﴿ تدعو ﴾ مجاز عن إحضارهم ، كأنها تدعوهم فتحضرهم . ونحوه قول ذى الرمّة :

• ... ... تَدْعُو أَنْفَهُ الرِّبَبُ • [2]

(١) قوله «فتبتكها» أى : تقطعها . (ع)

(٢) أمسى بوهبين مجتازاً لمرتعه من ذى الفوارس تدعو أنفه الربب

لذى الرمة يصف ثوراً وحشيا . ووهبين : اسم موضع ، وكذلك ذو الفوارس . والربب ـ بوحدلون ـ : جمع ربة وهى أول ماينبت من الكلا . والدعاء : الطلب ، وهو هنا مجاز عن التسبب فى الأمر ؛ لأن النبات الصغير سبب فى وصول أنفه للأرض ، ليرعاه . ويجوز تشبيه الربب بالداعى ، والدعاء تخييل ، ثم يحتمل أن مرتعه من ذى الفوارس ويحتمل أنه سار من ذى الفوارس إلى وهبين . ويروى : مختاراً ، أى : متخيرا ومتطلبا خير المراتع .

وقوله : * لَيَالِي اللَّهْوِ يُطْبِينِي فَأَتْبَعُهُ * [١]

وقول أبى النجم : * تَقُولُ لِلرَّائِدِ أَعْشَبْتَ انْزِلِ * [٢]

وقيل : تقول لهم : إلىّ إلىّ يا كافر يامنافق . وقيل : تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ، ثم تلتقطهم التقاط الحب ، فيجوز أن يخلق الله فيها كلاما كما يخلقه فى جلودهم وأيديهم وأرجلهم ، وكما خلقه فى الشجرة[٣] ويجوز أن يكون دعاء الزبانية . وقيل : تدعو تهلك ، من قول العرب : دعاك الله ، أى : أهلكك . قال

* دَعَاكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ بِأَفْعَى * [٤]

﴿من أدبر﴾ عن الحق ﴿وتولى﴾ عنه ﴿وجمع﴾ المال لجعله فى وعاء وكنزه ولم يؤد الزكاة والحقوق الواجبة فيه ، وتشاغل به عن الدين ؛ وزهى باقتنائه وتكبر .

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ١٩١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ١٦٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله « وكما خلقه فى الشجرة » على زعم المعتزلة أنه تكليم الله موسى ، كأنه كذلك . وعند أهل السنة أنه أطلعه على كلامه القديم القائم بذاته تعالى . (ع)

(٤) دعاك الله من رجل بأفعى ضئيل تنفث السم الذعافا

دعاك ، أى : أهلكك الله بأفعى ؛ يقال : دعاه الله بالمكروه : أنزله به ، ومن رجل : بيان واقع موقع الحال ؛ أو تمييز مقترن بمن . لأن ماقبله فيه معنى التعجب ، فيحتاج لتمييز جهة التعجب . وقال بعض النحاة : قد يجيء التمييز لمجرد التوكيد ، فيكون هذا منه ؛ بأفعى بالتنوين : اسم للحية . وقيل ممنوع من الصرف ، لأنه صفة للحية الشديدة السم ، والذعاف : أى الشديد القاتل ؛ ضئيل : ضعيفة مهزولة . والنفث : إخراج النفس مع بلل ، وهو هنا إخراج السم الذعاف كغراب : المسرع القتل . ويحتمل أن « دعاك الله » من باب المجاز ، كأن الله نادى قاتله بالأفعى . أوطلبه بأفعى أرسلها إليه لتحضره باهلاكه . وخص المهزولة لأنها أشد إيذاء من غيرها ، وقال ضئيل ، مع أن موصوفه مؤنث على حد : إن رحمة الله قريب ، والمذكر : أفعوان . ويروى « ينفث » على أن الأفعى واحد من الجنس فهو مذكر .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥)

أريد بالإنسان الناس؛ فلذلك استثنى منه إلا المصلين. والهلع: سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم: ناقة هلواع سريعة السير. وعن أحمد بن يحيى قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسره الله، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره، وهو الذى إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس. والخير: المال والغنى؛ والشر: الفقر. أو الصحة والمرض: إذا صح الغنى منع المعروف وشح بماله، وإذا مرض جزع وأخذ يوصى. والمعنى: إن الإنسان لإيثاره الجزع والمنع وتمكنهما منه ورسوخهما فيه، كأنه مجبول عليهما مطبوع[1]، وكأنه أمر خلقى وضرورى غير اختيارى، كقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) والدليل عليه أنه حين كان فى البطن والمهد لم يكن به هلع، ولأنه ذم والله لا يذم فعله، والدليل عليه: استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وظلفوها عن الشهوات، [2] حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين. وعن النبى صلى الله عليه وسلم «شر ما أعطى ابن آدم شح هالع وجبن[3] خالع» فإن قلت: كيف قال ﴿على صلاتهم دائمون﴾ ثم على صلاتهم يحافظون؟ قلت: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل، كما روى عن النبى صلى الله عليه

---

(١) قال محمود: «والمعنى أن الانسان لإيثاره الجزع والمنع ورسوخهما فيه كأنه ... الخ» قال أحمد: هو يشرك باطنا وينزه ظاهراً، فينفى كون الهلع الذى هو موجود للآدمى مخلوقا لله تعالى تنزيها له عن ذلك، ويثبت خالقا مع الله، ويتغافل عن اقتضاء نظم الآية لذلك، فانك إذا قلت: بريت القلم رقيقا، فقد نسبت إليك الحال وهو ترقيقه، كما نسب إليك البرى، وكذلك الآية. وأما قوله: والله لايذم خلقه؛ فالله تعالى له الحمد على كل حال؛ وإنما المذموم العبد بحجة أنه جعل فيه اختياراً يفرق بالضرورة بين الاختياريات والقسريات ألا لله الحجة البالغة والله أعلم.

(٢) قوله: «وظلفوها عن الشهوات» فى الصحاح: ظلف نفسه عن الشىء، أى: منعها من أن تفعله أو تأتيه. (ع)

(٣) أخرجه أبوداود وابن حبان وأحمد وإسحاق والبزار كلهم من طريق عبد العزيز بن مروان: سمعت أبا هريرة بهذا، لكن قال «شر ما فى الرجل»

وسلم « أفضل العمل أدومه وإن قلّ » (١) وقول عائشة : كان عمله ديمة . (٢) ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسنتها وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط (٣) باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها ﴿حق معلوم﴾ هو الزكاة ، لأنها مقدرة معلومة ؛ أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها فى أوقات معلومة . السائل : الذى يسأل ﴿والمحروم﴾ الذى يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم ﴿يصدقون بيوم الدين﴾ تصديقا بأعمالهم واستعدادهم له ، ويشفقون من عذاب ربهم . واعترض بقوله ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أى لا ينبغى لأحد وإن بالغ فى الطاعة والاجتهاد أن يأمنه . وينبغى أن يكون مترجحاً بين الخوف والرجاء . قرئ : بشهادتهم وبشهاداتهم . والشهادة من جملة الأمانات . وخصها من بينها إبانة لفضلها ، لأنّ فى إقامتها إحياء الحقوق وتصحيحها . وفى زيها : تضييعها وإبطالها .

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)

كان المشركون يحتفون حول النبى صلى الله عليه وسلم حلقا حلقا وفرقا فرقا ، يستمعون ويستهزءون بكلامه ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم ، فنزلت ﴿مهطعين﴾ مسرعين نحوك ، مادّى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ﴿عزين﴾ فرقا

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

(٢) متفق عليه من حديثها رضى الله عنها .

(٣) قال محمود : « أى لا يتركونها فى وقت ولا يحبطونها ... الخ » قال أحمد : حفظها من الاحباط نص عند أهل السنة على حفظها من الكفر خاصة ، فلا يحبط ما سواه خلافا للقدرية ، وقد تقدمت أمثاله والله أعلم .

شتى جمع عزة ، وأصلها عزوة ، كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى : فهم مفترقون . قال الكميت :

وَنَحْنُ وَجَنْدَلٌ بَاغٍ تَرَكْنَا   كَتَائِبَ جَنْدَلٍ شَتَّى عِزِينَا [1]

وقيل : كان المستهزءون خمسة أرهط ﴿كلا﴾ ردع لهم عن طمعهم فى دخول الجنة ، ثم علل ذلك بقوله ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ إلى آخر السورة ، وهو كلام دال على إنكارهم البعث ، فكأنه قال : كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء ؛ فمن أين يطمعون فى دخول الجنة ؟ فإن قلت : من أى وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث ؟ قلت : من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم فى مواضع من التنزيل ، وذلك قوله (خلقناهم مما يعلمون) أى من النطف ، وبالقدرة على أن يهلكهم ويبدل ناسا خيرا منهم ، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شىء ، والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة . ويجوز أن يراد : إنا خلقناهم مما يعلمون ، أى : من النطفة المذرة ، وهى منصبهم الذى لا منصب أوضع منه . ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون : لندخلن الجنة قبلهم . وقيل : معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد منهم الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فلم يطمع أن يدخلها من ليس له إيمان وعمل . وقرئ : برب المشرق والمغرب . ويخرجون ، ويخرجون . ومن الأجداث سراعا ، بالإظهار والإدغام . ونصب ، ونصب ، ونصب : وهو كل ما نصب فعبد من دون الله ﴿يوفضون﴾ يسرعون إلى الداعى مستبقين كما كانوا يستبقون إلى أنصابهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة سأل سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . [2]

---

(١) الكميت . والكتائب : جمع كتيبة وهى الجماعة . وشتى : جمع شتيت ، كمرضى ومريض . وعزين : جمع عزة ، أصلها عزو ، فعوضت التاء عن الواو ، من عزاه إلى كذا ، أى : نسبه إليه ؛ لأن بعضها ينتسب إلى بعض . أو لأنها تنتسب إلى رئيسها . أو إلى أصلها الأعلى ، وهذا كناية عن قتله مع كثرة جيشه .

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بإسنادهم إلى أبى بن كعب .

سورة نوح

مكية ، وهي ثمان وعشرون آية [نزلت بعد النحل]

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)

﴿أن أنذر﴾ أصله : بأن أنذر ، فحذف الجار وأوصل الفعل : وهي أن الناصبة للفعل ، والمعنى : أرسلناه بأن قلنا له أنذر ، أي : أرسلناه بالأمر بالإنذار . ويجوز أن تكون مفسّرة ؛ لأنّ الإرسال فيه معنى القول . وقرأ ابن مسعود : أنذر بغير « أن » على إرادة القول . و﴿أن اعبدوا﴾ نحو (أن أنذر) في الوجهين . فإن قلت : كيف قال ﴿ويؤخركم﴾ مع إخباره بامتناع تأخير الأجل ، وهل هذا إلا تناقض ؟ قلت : قضى الله مثلا أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة . فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى ، أي : إلى وقت سماه الله وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه ، وهو الوقت الأطول تمام الألف . ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت ، ولم تكن لكم حيلة ، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ

كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)

﴿ليلا ونهارا﴾ دائبا من غير فتور مستغرقا به الأوقات كلها ﴿فلم يزدهم دعائي﴾ جعل الدعاء فاعل زيادة الفرار . والمعنى على أنهم ازدادوا عنده فراراً ، لأنه سبب الزيادة . ونحوه (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) ، (فزادتهم إيمانا) ﴿لتغفر لهم﴾ ليتوبوا عن كفرهم فتغفر لهم ، فذكر المسبب الذى هو حظهم خالصا ليكون أقبح لإعراضهم عنه . سدّوا مسامعهم عن استماع الدعوة ﴿واستغشوا ثيابهم﴾ وتغطوا بها ، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم ، أو تغشيهم لئلا يبصروه كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى دين الله . وقيل : لئلا يعرفهم ؛ ويعضده قوله تعالى (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم) . الإصرار : من أصر الحمار على العانة [1] إذا صرّ أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها : استعير للإقبال على المعاصى والإكباب عليها ﴿واستكبروا﴾ وأخذتهم العزة من [2] اتباع نوح وطاعته ، وذكر المصدر تأكيد ودلالة على فرط استكبارهم وعتوهم . فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ، ثم دعاهم جهاراً ، ثم دعاهم فى السر والعلن : فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف . قلت : قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: فى الابتداء بالأهون والترقى فى الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة فى السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان . ومعنى (ثم) الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ؛ والجمع بين الأمرين ، أغلظ من إفراد أحدهما . و﴿جهارا﴾

---

(١) قوله « من أصر الحمار على العانة » هى القطيع من حمر الوحش ، والكدم : العض بأدنى الفم . أفاده الصحاح . وفيه : صر الفرس أذنيه ضمها إلى رأسه ؛ فاذا لم يوقعوا قالوا : أصر الفرس بالألف اه ، يعنى : إذا لم يجعلوا الفعل متعدياً إلى مفعول . (ع)

(٢) قوله «وأخذتهم العزة من اتباع نوح» لعله : عن . (ع)

منصوب بدعوتهم ، نصب المصدر لأنّ الدعاء أحد نوعيه الجهار ، فنصب به نصب القرفصاء بقعد ، لكونها أحد أنواع القعود . أو لأنه أراد بدعوتهم جاهرتهم . ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا ، بمعنى دعاء جهارا ، أى : مجاهرا به . أو مصدراً فى موضع الحال ، أى : مجاهراً . أمرهم بالاستغفار الذى هو التوبة عن الكفر والمعاصى ، وقدّم إليهم الموعد بما هو أوقع فى نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة ، ترغيباً فى الإيمان وبركاته والطاعة ونتائجها من خير الدارين ، كما قال (وأخرى تحبونها نصر من الله) ، (ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات) ، (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم) ، (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم) وقيل : لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة : حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة . وروى : سبعين . فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله تعالى الخصب ودفع عنهم ما كانوا فيه . وعن عمر رضى الله عنه : أنه خرج يستسقى ، فما زاد على الاستغفار ، فقيل له : ما رأيناك استسقيت ! فقال : لقد استسقيت بمجاديح السماء التى يستنزل بها القطر[1] . شبه الاستغفار بالأنواء الصادقة التى لا تخطئ . وعن الحسن : أنّ رجلا شكا إليه الجدب فقال . استغفر الله ؛ وشكا إليه آخر الفقر ، وآخر قلة النسل ، وآخر قلة ريع أرضه ، فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون أبوابا ويسألون أنواعا ، فأمرتهم كلهم بالاستغفار ! فتلا له هذه الآية . والسماء : المظلة ؛ لأنّ المطر منها ينزل إلى السحاب ؛ ويجوز أن يراد السحاب أو المطر ، من قوله .

* إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ * [2]

والمدرار : الكثير الدرور ، ومفعال مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كقولهم : رجل أو امرأة معطار ومتفال (جنات) بساتين (لا ترجون لله وقارا) لا تأملون له توقيراً أى تعظيما . والمعنى ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم فى دار الثواب[3] ، و(لله) بيان للموقر ،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وابن أبى شيبة والطبرانى فى الدعاء والطبرى وغيرهم من رواية الشعبى : أن عمر ... بهذا وزاد : ثم قرأ (استغفروا ربكم إنه كان غفارا) ورجاله ثقات ، إلا أنه منقطع .

(٢) إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

تطلق السماء على المظلة ، وعلى السحاب ، وعلى المطر كما هنا ؛ لما فيه من السمو والارتفاع ، وتطلق على النبات مجازا ؛ لأن المطر سببه ؛ فلذلك قال : رعيناه ؛ فى الكلام استخدام ، حيث أطلق السماء بمعنى ، وأعاد عليها الضمير بمعنى آخر ، والغضاب : جمع غضبان والمعنى : أتنا شجعان دون غيرنا .

(٣) قال محمود : «ما لكم لا تكونون على حال يكون فيها تعظيم الله تعالى ... الخ» قال أحمد : وهذا التفسير يبقى الرجاء على بابه الخ .

ولو تأخر لكان صلة للوقار. وقوله ﴿وقد خلقكم أطوارا﴾ فى موضع الحال ، كأنه قال : مالكم لا تؤمنون بالله والحال هذه وهى حال موجبة للإيمان به ، لأنه خلقكم أطوارا : أى تارات: خلقكم أولا ترابا ، ثم خلقكم نطفا ، ثم خلقكم علقا ، ثم خلقكم مضغا ، ثم خلقكم عظاما ولحما ، ثم أنشأكم خلقاً آخر. أو لا تخافون لله حلماً وترك معاجلة العقاب فتؤمنوا؟ وقيل: مالكم لا تخافون لله عظمة ؟ وعن ابن عباس : لا تخافون لله عاقبة ، لأن العاقبة حال استقرار الأمور وثبات الثواب والعقاب ، من «وقر» إذا ثبت واستقر . نبههم على النظر فى أنفسهم أولا ؛ لأنها أقرب منظور فيه منهم ، ثم على النظر فى العالم وما سوّى فيه من العجائب الشاهدة على الصانع الباهر قدرته وعلمه من السموات والأرض والشمس والقمر ﴿فيهنّ﴾ فى السموات ، وهو فى السماء الدنيا ؛ لأنّ بين السموات ملابسة من حيث أنها طباق[1] ، فجاز أن يقال : فيهنّ كذا ، وإن لم يكن فى جميعهنّ ، كما يقال : فى المدينة كذا وهو فى بعض نواحيها . وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما : أنّ الشمس والقمر وجوههما مما يلى السماء وظهورهما مما يلى الأرض[2] ﴿وجعل الشمس سراجا﴾ يبصر أهل الدنيا فى ضوئها كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره ، والقمر ليس كذلك ، إنما هو نور لم يبلغ قوة ضياء الشمس . ومثله قوله تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) والضياء : أقوى من النور . استعير الإنبات للإنشاء ، كما يقال : زرعك الله للخير ، وكانت هذه الاستعارة أدلّ على الحدوث[3] ، لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات : ومنه قيل للحشوية : النابتة والنوابت ، لحدوث مذهبهم فى الإسلام من غير أولية لهم فيه[4] . ومنه قولهم : نجم فلان لبعض المارقة . والمعنى : أنبتكم فنبتم نباتاً . أو نصب بأنبتكم لتضمنه معنى نبتم (ثم يعيدكم فيها) مقبورين ثم (يخرجكم) يوم القيامة ، وأكده بالمصدر كأنه قال يخرجكم حقاً ولا محالة. جعلها بساطاً مبسوطة تتقلبون عليها كما يتقلب الرجل على بساطه (فجاجا) واسعة منفجة .

---

(١) قال محمود : «وإنما هو فى السماء الدنيا لأن بين السموات وبين السماء الدنيا مناسبة» قال أحمد : ويلاحظ (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) .

(٢) حديث ابن عباس موقوف ، أخرجه ابن مردويه فى يونس من رواية حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عنه بهذا . بلفظ «وأقفيتهما إلى الأرض» وروى الحاكم منه ذكر القمر حسب . وحديث ابن عمر رضى الله عنهما مثله» أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال عبد الله بن عمرو : فذكره موقوفا . وروى الطبرى من طريق هشام الدستوائى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو. ﴿تنبيه﴾ وقع فى الأصل ابن عمر مصحف . وإنما هو عمرو رضى الله عنهما .

(٣) قوله «وأدل على الحدوث» لعله : أدل دليل على الحدوث . (ع)

(٤) قوله «من غير أولية لهم فيه» إن كان مراده بالحشوية أهل السنة ، فأوليتهم فى مذهبهم : الكتاب والسنة . (ع)

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤)

﴿واتبعوا﴾ رؤسهم المقدمين أصحاب الأموال والأولاد، وارتسموا ما رسموا لهم من التمسك بعبادة الأصنام، وجعل أموالهم وأولادهم التي لم تزدهم إلا وجاهة ومنفعة فى الدنيا زائدة ﴿خسارا﴾ فى الآخرة، وأجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها، تحقيقاً له وتثبيتاً، وإبطالا لما سواه. وقرئ: وولده بضم الواو وكسرها ﴿ومكروا﴾ معطوف على لم يزده، وجمع الضمير وهو راجع إلى من؛ لأنه فى معنى الجمع والماكرون: هم الرؤساء. ومكرهم: احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدهم عن الميل إليه والاستماع منه. وقولهم لهم: لاتذرون آلهتكم إلى عبادة رب نوح ﴿مكراً كبارا﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل. والكبار: أكبر من الكبير. والكبار: أكبر من الكبار، ونحوه: طوال وطوّال ﴿ولاتذرن وداً﴾ كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصوها بعد قولهم (لاتذرنّ آلهتكم) وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب، فكان ودّ لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير؛ ولذلك سمت العرب بعبد ودّ وعبد يغوث. وقيل هى أسماء رجال صالحين. وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا؛ فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم. وقيل: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر. وقرئ: وداً، بضم الواو. وقرأ الأعمش: ولا يغوثا ويعوقا، بالصرف، وهذه قراءة مشكلة، لأنهما إن كانا عربيين أو عجميين ففيهما سببا منع الصرف: إما التعريف ووزن الفعل، وإما التعريف والعجمة: ولعله قصد الازدواج فصرفهما، لمصادفته أخواتهما منصرفات وداً وسواعا ونسرا، كما قرئ: وضحاها بالإمالة، لوقوعه مع الممالات للازدواج ﴿وقد أضلوا﴾ الضمير للرؤساء. ومعناه: وقد أضلوا ﴿كثيراً﴾ قبل هؤلاء الموصين بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام ليسوا بأول من أضلوهم. أو وقد أضلوا بإضلالهم كثيرا، يعنى أنّ هؤلاء المضلين فيهم كثرة. ويجوز أن يكون للأصنام، كقوله تعالى (إنهنّ أضللن كثيراً من الناس). فإن قلت: علام عطف قوله ﴿ولاتزد

الظالمين﴾ ؟ قلت : على قوله (رب إنهم عصونى) على حكاية كلام نوح عليه السلام بعد (قال) وبعد الواو النائبة عنه : ومعناه : قال رب إنهم عصونى ، وقال : لاتزد الظالمين إلا ضلالا ، أى : قال هذين القولين وهما فى محل النصب ، لأنهما مفعولا «قال» كقولك : قال زيد نودى للصلاة وصل فى المسجد ؛ تحكى قوليه معطوفا أحدهما على صاحبه . فإن قلت : كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته ؟ قلت : المراد بالضلال : أن يخذلوا [1] ويمنعوا الألطاف [2] ، لتصميمهم على الكفر ووقوع اليأس من إيمانهم ، وذلك حسن جميل يجوز الدعاء به ، بل لايحسن الدعاء بخلافه . ويجوز أن يريد بالضلال : الضياع والهلاك ، لقوله تعالى (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) .

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)

تقديم ﴿مما خطيئاتهم﴾ لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان ، فإدخالهم النار إلا من أجل خطيئاتهم ، وأكد هذا المعنى بزيادة «ما» وفى قراءة ابن مسعود : من خطيئاتهم ما أغرقوا ، بتأخير الصلة ، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا ، فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبراهنّ . وقد نعيت عليهم سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ، ولم يفرق بينه وبينهن فى استيجاب العذاب . لئلا يتكل المسلم الخاطئ على إسلامه ، ويعلم أنّ معه مايستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى . وقرئ : خطيئاتهم بالهمزة . وخطياتهم بقلبها ياء وإدغامها . وخطاياهم . وخطيئتهم . بالتوحيد على إرادة الجنس . ويجوز أن يراد الكفر ﴿فأدخلوا نارا﴾ جعل دخولهم النار فى الآخرة كأنه متعقب لإغراقهم ، لاقترابه ، ولأنه كائن لامحالة ، فكأنه قد كان . أو أريد عذاب القبر . ومن مات فى ماء أو فى نار أو أكلته السباع والطير : أصابه مايصيب المقبور من العذاب . وعن الضحاك : كانوا يغرقون من جانب ويحرقون من جانب . وتنكير النار إما لتعظيمها ، أو لأن الله أعد لهم على حسب خطيئاتهم نوعاً من النار ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾ تعريض باتخاذهم آلهة من دون الله وأنها غير قادرة

---

(١) قوله «يخذلوا ويمنعوا مبنى على مذهب المعتزلة أنه تعالى لايريد الشر ولا يفعله ، وأجيب : بأنه إنما دعا عليهم بذلك بعد أن أعلمه الله تعالى أنهم لايؤمنون ، حيث قال له : إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . وهذا على مذهب أهل السنة الذين أجازوا أنه تعالى يفعل الشر كخلق الضلال فى القلب ؛ لأن فعله لا يخلو عن حكمة . (ع)

(٢) قال محمود : «كيف جاز أن يريد الضلال ، وأجاب بأن المراد به منع الألطاف» قلت : هذا على قاعدته .

على نصرهم ، وتهكم بهم ، كأنه قال : فلم يجدوا لهم من دون الله آلهة ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، كقوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) . ﴿ديارا﴾ من الأسماء المستعملة فى النفى العام ، يقال : ما بالدار ديار وديور ، كقيام وقيوم ؛ وهو فيعال من الدور . أو من الدار ؛ أصله ديوار ، ففعل به مافعل بأصل سيد وميت ، ولو كان فعالا لكان دوّاراً . فإن قلت : بم علم أن أولادهم يكفرون ، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة ؟ قلت : لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ، ويقول : احذر هذا ، فإنه كذاب ، وإن أبى حذرنيه فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك ؛ وقد أخبره الله عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ؛ ومعنى ﴿لا يلدوا إلا فاجراً كفارا﴾ لايلدوا إلا من سيفجر ويكفر . فوصفهم بما يصيرون إليه ، كقوله عليه السلام « من قتل قتيلا فله سلبه »[1]

رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

﴿ولوالدى﴾ أبوه لمك بن متوشلخ ، وأمه شمخا بنت أنوش : كانا مؤمنين . وقيل . هما آدم وحواء . وقرأ الحسين بن على : ولولدى ، يريد : ساما وحاما ﴿بيتى﴾ منزلى . وقيل : مسجدى . وقيل : سفينتى : خص أوّلا من يتصل به ؛ لأنهم أولى وأحق بدعائه ، ثم عم المؤمنين والمؤمنات ﴿تبارا﴾ هلاكا . فإن قلت : ما فعل صبيانهم حين أغرقوا ؟ قلت : غرقوا معهم لا على وجه العقاب[2] ، ولكن كما يموتون بالأنواع من أسباب الموت ، وكم منهم من يموت بالغرق والحرق ، وكأن ذلك زيادة فى عذاب الآباء والأمهات إذا أبصروا أطفالهم يغرقون .

---

(١) متفق عليه ، وقد تقدم .

(٢) قال محمود : « ماموجب إغراقهم حين أغرقوا ، وأجاب بأنهم ماأغرقوا لاعلى وجه العقاب ... الخ » قال أحمد : هذا السؤال مفصح عما فى باطنه من وجوب تعليل أفعال الله تعالى ، وعليه يبنى أنه لايجوز الألم من الله تعالى إلا باستحقاق سابق ، أو لأعواض مترقبة ، أو لغير ذلك من المصالح . بناء على القاعدة لهم فى الصلاح والأصلح والصبيان لاجناية سبقت منهم ولاعوض يترقب فيهم ، فيرد السؤال على ذلك . وأما أهل السنة فالله تعالى قد تكفل الجواب عنهم بقوله (لايسئل عما يفعل) وهذا الكلام بالنظر إلى خصوص واقعة قوم نوح ، وينجر الكلام منها إلى حكم الله علينا فى العدو إذا خيف من مقاتلتهم بالآلات على ذراريهم أن ذلك لايوجب الانكفاف عن مقاتلتهم بالآلات المهلكة لهم والمذرية ، ويستدل برمى النبى صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف بالمجانيق . وقيل له فيهم الذرية ، فقال : هم من آبائهم ، وأما رميهم بالنار وفيهم الذرية : فمنعه مالك رحمه الله ، إلا أن يخاف غائلتهم فيرمون بها إن لم يندفعوا بغيرها ، والله تعالى أعلم .

ومنه قوله عليه السلام «يهلكون مهلكا واحداً ويصدرون مصادر شتى»[١] وعن الحسن: أنه سئل عن ذلك فقال: علم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب. وقيل: أعقم الله أرحام نسائهم وأيبس أصلاب آبائهم قبل الطوفان بأربعين أو سبعين سنة، فلم يكن معهم صبي حين أغرقوا.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدركهم دعوة نوح عليه السلام»[٢].

سورة الجنّ

مكية، وآياتها ٢٨ [نزلت بعد الأعراف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥)

قرئ: أحي، وأصله وحي؛ يقال: أوحى إليه ووحى إليه، فقلبت الواو همزة، كما يقال: أعد وأزن (وإذا الرسل أقتت) وهو من القلب المطلق جوازه في كل واو مضمومة: وقد أطلقه المازني في المكسورة أيضا كإشاح وإسادة، وإعاء أخيه، وقرأ ابن أبي عبلة: وحى على الأصل ﴿أنه استمع﴾ بالفتح، لأنه فاعل أوحى. وإنا سمعنا: بالكسر: لأنه مبتدأ محكى بعد القول، ثم تحمل عليهما البواقي، فما كان من الوحي فتح، وما كان من قول الجنّ كسر: وكلهن من قولهم إلا الثنتين الأخريين (وأن المساجد)، (وأنه لما قام) ومن فتح كلهنّ فعطفاً

(١) أخرجه مسلم من طريق ابن الزبير عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

على محل الجار والمجرور فى آمنا به ، كأنه قيل : صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا ، وأنه كان يقول سفيهنا ، وكذلك البواقى ﴿نفر من الجنّ﴾ جماعة منهم مابين الثلاثة إلى العشرة . وقيل : كانوا من الشيصبان ، وهم أكثر الجنّ عدداً وعامة جنود إبليس منهم ﴿فقالوا إنا سمعنا﴾ أى : قالوا لقومهم حين رجعوا إليهم ، كقوله (فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا) ، ﴿عجبا﴾ بديعاً مباينا لسائر الكتب فى حسن نظمه وصحة معانيه ، قائمة فيه دلائل الإعجاز . وعجب مصدر يوضع موضع العجيب . وفيه مبالغة : وهو ما خرج عن حد أشكاله ونظائره ﴿يهدى إلى الرشد﴾ يدعو إلى الصواب . وقيل : إلى التوحيد والإيمان . والضمير فى ﴿به﴾ للقرآن ؛ ولما كان الإيمان به إيمانا بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك : قالوا ﴿ولن نشرك بربنا أحداً﴾ أى : ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به فى طاعة الشيطان . ويجوز أن يكون الضمير لله عز وجل ؛ لأنّ قوله (بربنا) يفسره ﴿جدّ ربنا﴾ عظمته من قولك : جدّ فلان فى عينى ، أى : عظم . وفى حديث عمر رضى الله عنه : كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا . وروى فى أعيننا[1]. أو ملكه وسلطانه . أو غناه ، استعارة من الجد الذى هو الدولة والبخت ؛ لأن الملوك والأغنياء هم المجدودون . والمعنى : وصفه بالتعالى عن الصاحبة والولد لعظمته . أو لسلطانه وملكوته . أو لغناه . وقوله ﴿ما اتخذ صاحبة ولا ولداً﴾ بيان لذلك . وقرئ : جدّا ربنا ، على التمييز . وجدّ ربنا ، بالكسر : أى صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد ، وذلك أنهم لما سمعوا القرآن ووفقوا للتوحيد والإيمان : تنبهوا على الخطإ فيما اعتقده كفرة الجنّ من تشبيه الله بخلقه واتخاذه صاحبة وولدا ، فاستعظموه ونزهوه عنه . سفيههم : إبليس لعنه الله أو غيره من مردة الجن . والشطط : مجاوزة الحدّ فى الظلم وغيره . ومنه : أشط فى السوم ، إذا أبعد فيه ، أى : يقول قولا هو فى نفسه شطط ؛ لفرط ما أشط فيه ، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله ، وكان فى ظننا أنّ أحداً من الثقلين لن يكذب على الله ولن يفترى عليه ما ليس بحق ، فكنا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من ذلك ، حتى تبين لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم (كذبا) قولا كذبا ، أى : مكذوباً فيه . أو نصب نصب المصدر لأنّ الكذب نوع من القول . ومن قرأ : أن لن تقوّل : وضع كذبا موضع تقوّلا ، ولم يجعله صفة ؛ لأنّ التقوّل لا يكون إلا كذبا .

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾
وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

---

(١) لم أره عن عمر ، بل هو عن أنس ، كما مضى فى البقرة .

والرهق : غشيان المحارم . والمعنى : أنّ الإنس باستعاذتهم بهم زادوهم كبراً وكفراً ؛ وذلك أنّ الرجل من العرب كان إذا أمسى فى واد قفر فى بعض مسايره وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ؛ فاذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس ؛ فذلك رهقهم . أو فزاد الجن الإنس رهقا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم ﴿وأنهم﴾ وأنّ الإنس ﴿ظنوا كما ظننتم﴾ وهو من كلام الجن ، يقوله بعضهم لبعض . وقيل : الآيتان من جملة الوحى . والضمير فى (وأنهم ظنوا) للجنّ ، والخطاب فى (ظننتم) لكفار قريش .

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

اللمس : المس ، فاستعير للطلب ؛ لأنّ الماس طالب متعرف . قال :

مَسِسْنَا مِنَ الآبَاءِ شَيْئًا وَكُلُّنَا إِلَى نَسَبٍ فِى قَوْمِهِ غَيْرِ وَاضِعِ (١)

يقال : لمسه والتمسه وتلمسه ، كطلبه وأطلبه وتطلبه ، ونحوه : الجس . وقولهم : جسوه بأعينهم وتجسسوه . والمعنى : طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها . والحرس : اسم مفرد فى معنى الحراس ، كالخدم فى معنى الخدام ؛ ولذلك وصف بشديد . ولو ذهب إلى معناه لقيل : شداداً ؛ ونحوه

* أَخْشَى رُجَيْلاً أَوْ رُكَيْبًا غَادِيًا * (٢)

لأنّ الرجل والركب مفردان فى معنى الرجال والركاب . والرصد : مثل الحرس : اسم جمع

---

(١) مسسنا من الآباء شيئا فكلنا إلى نسب فى قومه غير واضع
فلما بلغنا الأمهات وجدتم بنى عمكم كانوا كرام المضاجع

ليزيد بن الحاكم الكلابى . ومسسنا : أى نلنا ، فالمس مجاز مرسل ، فكل منا ينتمى الى نسب فى قومه غير منخفض ويروى : إلى حسب ، فاستوينا من جهة الآباء فى المفاخر ، فلما بلغنا فيه ذكر الأمهات وجدتم أقاربكم كرام المضاجع كناية عن الأزواج . أو عبر باسم المحل عن الحال فيه ، وعن الأزواج مجازاً مرسلا ، وكرم النساء مذموم ، لأنه كناية عن الخنا ، كما يكنى ببخلهن عن العفة ، فلسنا سواء فى الأمهات .

(٢) أخشى رجيلا أو ركيبا غاديا والذئب أخشاه وكلبا عاويا

الرجيل : تصغير رجل . والركيب : تصغير ركب . غاديا : أى سائرا فى الغداة على العادة . يقول : أخاف لهرمى وضعفى الرجل الصغير والركب القليل . والذئب : نصب بمضمر ، كالمذكور على الاشتغال . أى : وأخشى الذئب وكلبا عطف عليه . أو نصب بمضمر ، أى : وأخشى كلبا عاويا . والجملة معطوفة على جملة «أخشى رجيلا» وقيد الكلب بكونه عاويا ، لئلا يتوهم كذبه فى دعواه .

للراصد ، على معنى : ذوى شهاب راصدين بالرجم . وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ، ويمنعونهم من الاستماع . ويجوز أن يكون صفة للشهاب ، بمعنى الراصد أو كقوله :

* ... ... وَمِعًى جِيَاعًا * (١)

يعني . يجد شهابا راصداً له ولأجله . فإن قلت : كأن الرجم لم يكن فى الجاهلية ، وقد قال الله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) فذكر فائدتين (٢) فى خلق الكواكب: التزيين ، ورجم الشياطين ؟ قلت : قال بعضهم حدث بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو إحدى آياته ، والصحيح أنه كان قبل المبعث ؛ وقد جاء ذكره فى شعر أهل الجاهلية . قال بشر بن أبى خازم :

وَالْعِيرُ يُرْهِقُهَا الْغُبَارُ وَجَحْشُهَا   يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضَ الْكَوْكَبِ (٣)

---

(١) قوله : «ومعى جياعا» فى الصحاح المعى واحد الأمعاء . والجياع جمع الجائع . وأول البيت :

كأن قتود رحلى حين ضمت   حوالب غزرا ومعى جياعا

والقتود : جمع قتد ، وهو خشب الرحل . (ع)

(٢) قال محمود : «وإن قلت كأن الرجم لم يكن فى الجاهلية . وقد قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) فذكر فائدتى الزينة والرجم ... الخ» قال أحمد : ومن عقائدهم أن الرشد والضلال جميعا مرادان لله تعالى بقولهم (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) ولقد أحسنوا الأدب فى ذكر إرادة الشر محذوفة الفاعل ، والمراد بالمريد : هو الله عز وجل ، وإبرازهم لاسمه عند إرادة الخير والرشد ، فجمعوا بين العقيدة الصحيحة والآداب المليحة .

(٣)
والعير يرهقها الخبار وجحشها   ينقض خلفهما انقضاض الكوكب
فعلاهما سبط كأن ضبابه   بحبوب صادات دواجر تنضب
فتجاريا شأواً بطيئا مثله   هيهات شأوهما وشأو التولب

لبشر بن أبى خازم . والعير : الحمار ؛ يرهقها : يكلفها ، أى : الأتان . والخبار - بضم المهملة ، وقيل بفتحها - : الأثر من كل شيء ؛ وبالمعجمة : الأرض اللينة . وروى : الغبار ؛ والانقضاض : الاسراع ؛ والسبط : الغبار الممتد ؛ والضباب : ندى يغشى الأرض بالغدوات . والصاد : الديك الذى ينكت التراب فيثير غباره ، ويطلق على القدر من النحاس ومن البرام ، وعلى داء فى الرأس يداوى بالكى بالنار . قيل : وعلى العلم ، وفسر به هنا . والدواجر : الهواشط ، من دجر إذا نشط سروراً ؛ أو المظلمات . والليل الدجور والديجور : المظلم . وتنضب : اسم شجر دخانه أبيض ، وعلم على قرية قريبة من مكة . والشأو : الطلق ، يقال : شأى كسعى ، إذا سبق غيره . والتولب : الجحش إذا مضى عليه سنة واحدة ، يقول : إن حمار الوحش يكلف أتانه اقتفاء أثره عند الجرى ، وجحشها يسرع خلفها كاسراع شهاب الرجم ، فارتفع فوقهما ممتد من الغبار ، كأن ما أشبه الضباب منه غبار أثارته الديكة لأنها تحبه ، وكأنه مرتفع دخان ذلك الشجر أو مظلمه ؛ لأنه يحجب الضوء وإن كان أبيض ؛ فدواجر خبر بعد خبر . ويجوز أنه على حذف العاطف ، فقد أجازه السيراف وابن عصفور وابن مالك ؛ ومنعه ابن جنى والسهيلى ، وخرجا ما يوهمه على بدل الاضراب ؛ ويجوز ذلك هنا أيضا ، فشبه الغبار بثلاثة أشياء ، ثم قال : فتجاريا شوطا طويلا ==

وقال أوس بن حجر :

وَانْقَضَّ كَالدُّرِّيِّ يَتْبَعُهُ نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُهُ طُنُبَا [(١)]

وقال عوف بن الخرع :

يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعِيرَ مِنْ دُونِ إِلْفِهِ أَوِ الثَّوْرَ كَالدُّرِّيِّ يَتْبَعُهُ الدَّمُ [(٢)]

ولكن الشياطين كانت تسترق فى بعض الأحوال ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم : كثر الرجم وزاد زيادة ظاهرة ؛ حتى تنبه لها الإنس والجن ، ومنع الاستراق أصلا . وعن معمر : قلت للزهرى : أكان يرمى بالنجوم فى الجاهلية ؟ قال : نعم . قلت : أرأيت قوله تعالى (وأنا كنا نقعد) فقال : غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : ما كنتم تقولون فى مثل هذا فى الجاهلية؟ فقالوا : كنا نقول : يموت عظيم أو يولد عظيم .[(٣)] وفى قوله (ملئت) دليل على أن الحادث هو الملء والكثرة ، وكذلك قوله (نقعد منها مقاعد) أى كنا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب ، والآن ملئت المقاعد كلها ، وهذا ذكر ما حملهم على الضرب فى البلاد حتى عثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعوا قراءته .

= مثله ؛ وإثبات البعد للمثل كناية عن إثباته للثأر . ويحتمل أن ضمير مثله للجحش ، فهو بالنصب . ثم قال : بعد ما بين شوطيهما وشوطه كأنه تأخر . ويحتمل أن المعنى : بعد كل من الشوطين وطال .

(١) لأوس بن حجر يصف فرساً بشدة العدو والسرعة ، كالكوكب الدرى نسبة للدر لصفائه ، أو مأخوذ من الدرء لدرئه الظلام ، يتبعه : أى للفرس نقع ، أى غبار ينتشر تظنه طنبا بضمتين ، وهو حبل الخيمة كما يتبع الدرى شعاعه ممتداً عند هويه ، فقد شبه النقع بالطنب تصريحا ، وبشعاع الكوكب : ضمنا .

(٢) لعوف بن الخرع ، يصف فرسا بشدة العدو فى الصيد ، وأنه يرد عليه الحمار الوحشى حال كونه . أى الحمار من دون إلفه أى بقربه أو يرده من دونه ، أى من قربه ، وإذا رده من جنب ألفه كان رده وهو وحده أهون عليه ؛ لأنه إذا كان مع إلفه كان أشد فرارا . ويجوز أن المعنى : حال كون الحمار بدون إلفه أى منفرداً لا إلف معه يوجب ارتباكه . أو يرد علينا الثور الوحشى حال كونه ، أى الثور ، كالدرى . أو حال كون الفرس كالدرى ، أى : كالكوكب نسبة للدر لصفاء جوهره وإضاءته . أو من الدرء ، أى : الدفع ؛ لأنه يدرؤ الظلام حال كون الكوكب يتبعه عند سقوطه من السماء خط أحمر من ضوئه يشبه الدم ، فالدم : استعارة مصرحة .

(٣) أخرجه مسلم من رواية الأوزاعي عن الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس أخبرنى رجال من الأنصار ، وقال « بينا هم جلوس - فذكره مطولا » ورواه الترمذى من رواية معمر عن الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس قال « بينا - فذكره » ولم يقل : أخبرنى رجال .

وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)

يقولون : لما حدث هذا الحادث من كثرة الرجم ومنع الاستراق، قلنا : ما هذا إلا لأمر أراده الله بأهل الأرض ، ولا يخلو من أن يكون شراً أو رشداً ، أى : خيراً ، من عذاب أو رحمة ، أو من خذلان أو توفيق .

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)

﴿منا الصالحون﴾ منا الأبرار المتقون ﴿ومنادون ذلك﴾ ومنا قوم دون ذلك ، فحذف الموصوف ، كقوله (وما منا إلا له مقام معلوم) وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه . أو أرادوا الطالحين ﴿كنا طرائق قددا﴾ بيان للقسمة المذكورة ، أى : كنا ذوى مذاهب مفترقة مختلفة . أو كنا فى اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة . أو كنا فى طرائق مختلفة ، كقوله :

* كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ * (١)

أو كانت طرائقنا طرائق قددا على حذف المضاف الذى هو الطرائق وإقامة الضمير المضاف إليه مقامه ؛ والقدّة من قد . كالقطعة من قطع ، ووصفت الطرائق بالقدد ، لدلالتها على معنى التقطع والتفرق .

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢)

﴿فى الأرض﴾ و ﴿هربا﴾ حالان ، أى : لن نعجزه كائنين فى الأرض أينما كنا فيها ، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء . وقيل : لن نعجزه فى الأرض إن أراد بنا أمراً ، ولن نعجزه هربا إن طلبنا . والظن بمعنى اليقين ؛ وهذه صفة أحوال الجن وماهم عليه من أحوالهم وعقائدهم : منهم أخيار ، وأشرار ، ومقتصدون ؛ وأنهم يعتقدون أن الله عز وجل عزيز غالب لا يفوته مطلب ولا ينجى عنه مهرب .

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)

﴿لما سمعنا الهدى﴾ هو سماعهم القرآن وإيمانهم به ﴿فلا يخاف﴾ فهو لا يخاف ، أى فهو غير خائف ؛ ولأن الكلام فى تقدير مبتدإ وخبر دخلت الفاء ، ولولا ذاك لقيل : لا يخف . فإن

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٩٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

قلت : أى فائدة : فى رفع الفعل وتقدير مبتدإ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء ، وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال : لا يخف ؟ قلت : الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك ، فكأنه قيل : فهو لا يخاف ، فكان دالا على تحقيق أنّ المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره وقرأ الأعمش : فلا يخف، على النهى ﴿بخسا ولا رهقا﴾ أى جزاء بخس ولا رهق ، لأنه لم يبخس أحداً حقا ولا رهق ظلم أحد [1] فلا يخاف جزاءهما . وفيه دلالة على أن من حق من آمن بالله أن يجتنب المظالم . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « المؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم » [2] ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى ، ولا أن ترهقه ذلة ، من قوله عز وجل (وترهقهم ذلة) .

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)

﴿القاسطون﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحق . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : أنّ الحجاج قال له حين أراد قتله : ما تقول فىّ ؟ قال : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ماقال ، حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل ؛ فقال الحجاج : يا جهلة ، إنه سمانى ظالما مشركا ، وتلا لهم قوله تعالى (وأمّا القاسطون) وقوله تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقد زعم من لا يرى للجن ثوابا أنّ الله تعالى أوعد قاسطيهم وماوعد مسلميهم ؛ وكفى به وعداً أن قال (فأولئك تحرّوا رشداً) فذكر سبب الثواب وموجبه ، والله أعدل من أن يعاقب القاسط ولا يثيب الراشد .

وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)

﴿وأن لو استقاموا﴾ أن مخففة من الثقيلة ، وهو من جملة الموحى . والمعنى : وأوحى إلىّ أن الشأن والحديث لو استقام الجن على الطريقة المثلى ، أى : لو ثبت أبوهم الجان على ما كان

(١) قوله « ولا رهق ظلم أحد » فى الصحاح : رهقه بالكسر يرهقه رهقا ، أى : غشيه . (ع)

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد بهذا . وأتم منه . وفى الباب عن أبى هريرة بلفظ « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » وأخرجه الترمذى وابن حبان والحاكم . وعن أنس أخرجه ابن حبان والحاكم أيضا . وعن أبى مالك الأشعرى وواثلة بن الأسقع ، أخرجهما الطبرانى مطولا . وأخرج حديث واثلة أبو يعلى . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه عبد بن حميد .

عليه من عبادة الله والطاعة ولم يستكبر عن السجود لآدم ولم يكفر وتبعه ولده على الإسلام ، لأنعمنا عليهم ولوسعنا رزقهم . وذكر الماء الغدق وهو الكثير بفتح الدال وكسرها . وقرئ بهما ، لأنه أصل المعاش وسعة الرزق ﴿لنفتنهم فيه﴾ لنختبرهم فيه كيف يشكرون ما خولوا منه . ويجوز أن يكون معناه : وأن لو استقام الجن الذين استمعوا على طريقتهم التى كانوا عليها قبل الاسماع ولم ينتقلوا عنها إلى الإسلام لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم ، لنفتنهم فيه : لتكون النعمة سببا فى اتباعهم شهواتهم ، ووقوعهم فى الفتنة ، وازديادهم إثما ؛ أو لنعذبهم فى كفران النعمة ﴿عن ذكر ربه﴾ عن عبادته أو عن موعظته أو عن وحيه ﴿يسلكه﴾ وقرئ بالنون مضمومة ومفتوحة ، أى : ندخله ﴿عذابا﴾ والأصل : نسلكه فى عذاب ، كقوله (ما سلككم فى سقر) فعدى إلى مفعولين : إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله (واختار موسى قومه) وإمّا بتضمينه معنى ، ندخله ، يقال : سلكه وأسلكه . قال :

* حَتَّى إذَا أسْلَكُوهُمْ فِى قَتَائِدَةٍ * [1]

والصعد : مصدر صعد ، يقال : صعد صعداً وصعوداً ، فوصف به العذاب ، لأنه يتصعد المعذب أى يعلوه ويغلبه فلا يطيقه . ومنه قول عمر رضى الله عنه : ما تصعدنى شىء ما تصعدتنى خطبة النكاح [2] ، يريد : ما شق علىّ ولا غلبنى .

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

﴿وأنّ المساجد﴾ من جملة الموحى . وقيل معناه : ولأن المساجد ﴿لله فلا تدعوا﴾ على أنّ اللام متعلقة بلا تدعوا ، أى : فلا تدعوا ﴿مع الله أحداً﴾ فى المساجد ، لأنها لله خاصة ولعبادته . وعن الحسن : يعنى الأرض كلها ؛ لأنها جعلت للنبى صلى الله عليه وسلم مسجداً . وقيل : المراد بها المسجد الحرام ، لأنه قبلة المساجد . ومنه قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) وعن قتادة : كان اليهود والنصارى إذا دخلوا بيعهم وكنائسهم أشركوا بالله ، فأمرنا أن نخلص لله الدعوة إذا دخلنا المساجد . وقيل : المساجد أعضاء السجود السبعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أسجد على سبعة آراب : وهى الجبهة ، والأنف ، واليدان ،

---

(١) قوله « إذا أسلكوهم فى قتائدة » فى الصحاح : « قتائدة » اسم عقبة . قال عبد مناف بن ربع :

حتى إذا أسلكوهم فى قتائدة　　شلا كما تطرد الجمالة الشردا

والشل : الطرد . والشرد : جمع شارد ، كالخدم جمع خادم . (ع)

(٢) حدثنى أبو عبيدة فى الغريب من رواية هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بهذا ، وهو منقطع .

والركبتان ، والقدمان(٢) » ..وقيل : هى جمع مسجد وهو السجود .

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)

﴿عبد الله﴾ النبي صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : هلا قيل : رسول الله أو النبي ؟ قلت : لأن تقديره : وأوحى إلىّ أنه لما قام عبدالله . فلما كان واقعا فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه : جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل . أو لأن المعنى أن عبادة عبدالله لله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبداً . ومعنى (قام يدعوه) قام يعبده ، يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته صلى الله عليه وسلم ﴿كادوا يكونون عليه لبداً﴾ أى يزدحمون عليه متراكبين تعجبا مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به قائما وراكعا وساجداً ، وإعجابا بما تلا من القرآن ، لأنهم رأوا مالم يروا مثله ، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره . وقيل معناه : لما قام رسولا يعبد الله وحده مخالفا للمشركين فى عبادتهم الآلهة من دونه : كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته يزدحمون عليه متراكبين (لبدا) جمع لبدة وهو ماتلبد بعضه على بعض ، ومنها «لبدة الأسد» وقرئ : لبدا واللبدة فى معنى اللبدة ؛ ولبدا : جمع لابد ، كساجد وسجد . ولبدا بضمتين : جمع لبود ، كصبور وصبر . وعن قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه . فأبى الله إلا أن ينصره ويظهره على من ناوأه . ومن قرأ : وإنه ، بالكسر : جعله من كلام الجن : قالوه لقومهم حين رجعوا إليهم حاكين مارأوا من صلاته وازدحام أصحابه عليه فى ائتمامهم به .

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ

(١) أخرجه البزار من حديث العباس بهذا اللفظ ، لكن قال «والوجه عوض الجبهة والأنف» ورواه الأربعة فى السنن من حديثه بلفظ «إذا سجد العبد سجد معه سبعة آراب : وجهه وكفاه وقدماه وركبتاه» وفى الصحيحين عن ابن عباس مرفوعا «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم» وفى لفظ «أعضاء» وعند أبى داود «أمرت» وقال «أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يسجد على سبعة آراب»

رَبِّى أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

﴿قال﴾ للمتظاهرين عليه [1] ﴿إنما أدعوا ربى﴾ يريد : ماأتيتكم بأمر منكر ، إنما أعبد ربى وحده ﴿ولاأشرك به أحدا﴾ وليس ذاك مما يوجب إطباقكم على مقتى وعداوتى . أوقال للجن عند ازدحامهم متعجبين : ليس ماترون من عبادتى الله ورفضى الإشراك به بأمر يتعجب منه ، إنما يتعجب ممن يدعو غير الله ويجعل له شريكا . أوقال الجن لقومهم ذلك حكاية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ولارشدا﴾ ولانفعا . أو أراد بالضر : الغىّ ، ويدل عليه قراءة أبىّ (غيا ولارشدا) والمعنى : لاأستطيع أن أضركم وأن أنفعكم ، إنما الضار والنافع الله [2] . أولا أستطيع أن أقسركم على الغىّ والرشد ، إنما القادر على ذلك الله عز وجل : و﴿إلا بلاغا﴾ استثناء منه . أى لاأملك إلا بلاغا من الله [3] . و﴿قل إنى لن يجيرنى﴾ جملة معترضة اعترض بها لتأكيد نفى الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه ، على معنى أنّ الله إن أراد به سوأ من مرض أو موت أوغيرهما : لم يصح أن يجيره منه أحد أو يجد من دونه ملاذا يأوى إليه : والملتحد الملتجأ ، وأصله المدّخل ، من اللحد . وقيل : محيصا ومعدلا . وقرئ : قال لاأملك ،

---

(١) قوله «قال للمتظاهرين عليه» هذه قراءة غير عاصم وحمزة ، كذا فى النسفى ، وهويفيد أن قراءتهما (قل) بصيغة الأمر ، كأنه سقط من كلام المصنف ذكر هذه القراءة فليحرر .

(٢) قال محمود : «معناه أنى لا أستطيع أن أنفعكم أو أضركم إنما النافع والضار الله عز وجل ... الخ» قال أحمد : فى الآية دليل بين على أن الله تعالى هو الذى يملك لعباده الرشد والغىأى يخلقهما لاغير ، فان النبىصلى الله عليه وسلم إنما سلب ذلك عن قدرته ليمحض إضافته إلى قدرة الله وحده ، وفطن الزمخشرى لذلك فأخذ يعمل الحيل ، فتارة يحمل الرشد على مطلق النفع ، فيضيف ذلك إلى الله تعالى ، وتارة يكنع عنه لأن فيه إبطالالخصوصية الرشد المنصوص عليه فى الآية ، فيثور له من تقليده الرأى الفاسد ثوائر تصرفه عن الحق وعن اعتقاد أن الله تعالى هو الذى يخلق الرشد لعبيده مقارنا لاختيارهم ، فيدخل زيادة القسر ؛ لأن معنى ماورد من إضافة الرشد إلى قدرة الله تعالى عندهم أنه يخلق أن يخضع لها الرقاب ، فيخلق العبد لنفسه عند ظهورها رشدا . فيضاف إلى قدرة الله تعالى ؛ لأنه خلق السبب وهو فى الحقيقة مخلوق بقدرة العبد ، هذه قاعدة القدرية وعقيدتهم ؛ وماالجن بعد هذا إلاأوفر منهم عقلا وأسد منهم نظرا : لأنهم قالوا : وأنا لاندرىأشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، فأضافوا الرشد نفسه إلى إرادة الله عز وجل وقدرته .

(٣) قال محمود : «هو اعتراض . وقوله (إلابلاغا) استثناء من قوله (لا أملك) أى لاأملك لكم إلا بلاغا . وقيل بلاغا بدل من ملتحدا ... الخ» قال أحمد : فيكون تقدير الكلام : بلاغا من الله مستفادا من قوله (قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا) .

أى قال عبدالله للمشركين أوللجن . ويجوز أن يكون من حكاية الجن لقومهم . وقيل (بلاغا) بدل من (ملتحدا) أى : لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى به . وقيل : (إلا) هى «إن لا» ومعناه : أن لا أبلغ بلاغا ، كقولك : إن لاقياما فقعودا ﴿ورسالاته﴾ عطف على بلاغا ، كأنه قيل : لاأملك لكم إلا التبليغ والرسالات . والمعنى : إلا أن أبلغ عن الله فأقول : قال الله كذا ، ناسبا لقوله إليه ، وأن أبلغ رسالاته التى أرسلنى بها من غير زيادة ولا نقصان . فإن قلت : ألا يقال : بلغ عنه . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «بلغوا عنى بلغوا عنى» ؟[1] قلت : من ليست بصلة للتبليغ ، إنما هى بمنزلة من فى قوله (براءة من الله) بمعنى بلاغا كائنا من الله . وقرئ : فأن له نار جهنم ، على : فجزاؤه أنّ له نار جهنم ، كقوله (فأنّ لله خمسه) أى : فحكمه أنّ لله خمسه . وقال ﴿خالدين﴾ حملا على معنى الجمع فى من . فإن قلت : بم تعلق «حتى» ، وجعل مابعده غاية له ؟ قلت : بقوله (يكونون عليه لبدا) على أنهم يتظاهرون عليه بالعداوة ، ويستضعفون أنصاره ويستقلون عددهم ﴿حتى إذا رأوا مايوعدون﴾ من يوم بدر وإظهار الله له عليهم . أومن يوم القيامة ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ أنهم ﴿أضعف ناصرا وأقل عددا﴾ ويجوز أن يتعلق بمحذوف دلت عليه الحال : من استضعاف الكفار له واستقلالهم لعدده ، كأنه قال : لايزالون على ماهم عليه ﴿حتى إذا رأوا مايوعدون﴾ قال المشركون : متى يكون هذا الموعود ؟ إنكارا له ، فقيل ﴿قل﴾ إنه كائن لاريب فيه ، فلا تنكروه ، فإن الله قد وعد ذلك وهو لايخلف الميعاد . وأما وقته فماأدرى متى يكون ؛ لأنّ الله لم يبينه لما رأى فى إخفاء وقته من المصلحة . فإن قلت : مامعنى قوله ﴿أم يجعل له ربى أمدا﴾ والأمد يكون قريبا وبعيدا ألاترى إلى قوله (تودّ لوأنّ بينها وبينه أمداً بعيداً) ؟ قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقرب الموعد ، فكأنه قال : ماأدرى أهو حال متوقع فى كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية أى : هو ﴿عالم الغيب فلا يظهر﴾ فلا يطلع . و﴿من رسول﴾ تبيين لمن ارتضى ، يعنى : أنه لايطلع على الغيب إلا المرتضى الذى هو مصطفى للنبوة خاصة ، لا كل مرتضى . وفى هذا إبطال للكرامات[2] ؛ لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل[3] . وقد

---

(١) أخرجه البخارى من حديث عبدالله بن عمرو بن العاصى بلفظ «بلغوا عنى ولو آية ... الحديث» .

(٢) قوله «وفى هذا إبطال للكرامات» إبطالها مذهب المعتزلة ؛ وإثباتها مذهب أهل السنة ، وهى لاتنحصر فى الاخبار بالغيب . (ع)

(٣) قال محمود : «وإبطال للكرامات ، لأنه حصر ذلك فى المرتضى من الرسل ، والولى وإن كان من المرتضين ... الخ» قال أحمد : ادعى عاما واستدل خاصا ، فان دعواه إبطال الكرامات بجميع أنواعها ، والمدلول عليه بالآية إبطال اطلاع الولى على الغيب خاصة ، ولا يكون كرامة وخارق للعادة إلاالاطلاع على الغيب لاغير ، وما القدرية إلاولهم شبهة فى إبطالها ، وذلك أن الله عز وجل لايتخذ منهم ولياً أبداً وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياعهم

خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم، لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط ﴿فإنه يسلك من بين يديه﴾ يدى من ارتضى للرسالة ﴿ومن خلفه رصدا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم، حتى يبلغ ماأوحى به إليه. وعن الضحاك: مابعث نبيّ إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك ﴿ليعلم﴾ الله ﴿أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ يعني الأنبياء: وحد أولا على اللفظ في قوله (من بين يديه ومن خلفه) ثم جمع على المعنى، كقوله (فإن له نار جهنم خالدين) والمعنى: ليبلغوا رسالات ربهم كما هي، محروسة من الزيادة والنقصان؛ وذكر العلم كذكره في قوله تعالى (حتى نعلم المجاهدين) وقرئ: ليعلم، على البناء للمفعول ﴿وأحاط بما لديهم﴾ بما عند الرسل من الحكم والشرائع، لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفا، فهو مهيمن عليها حافظ لها ﴿وأحصى كل شيء عددا﴾ من القطر والرمل وورق الأشجار، وزبد البحار، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه. وعددا: حال، أي: وضبط كل شيء معدوداً محصورا. أو مصدر في معنى إحصاء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جني صدق محمداً صلى الله عليه وسلم وكذب به عتق رقبة»[1].

= فقط، فلا جرم أنهم يستمرون على الانكار ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية، وهي مسلوبة عنهم اتفاقا. وأما سلب الايمان فمسئلة خلاف. فما أطمع من يكون إيمانه مسئلة خلاف وهو يريد الكرامة لأنه لم يؤتها، والله الموفق.

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبي بن كعب.

سورة المزمل

مكية [إلا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنية]

وآياتها ١٩ وقيل ٢٠ [نزلت بعد القلم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَـٰٓأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤)

﴿المزمّل﴾ المتزمّل ، وهو الذى تزمّل فى ثيابه : أى تلفف بها ، بإدغام التاء فى الزاى : ونحوه : المدثر فى المتدثر . وقرئ : المتزمّل على الأصل : والمزمل بتخفيف الزاى وفتح الميم وكسرها . على أنه اسم فاعل أو مفعول ، من زمله ، وهو الذى زمله غيره أو زمل نفسه ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما بالليل متزملا فى قطيفة ، فنبه ونودى بما يهجن إليه[1] الحالة التى كان عليها من التزمل فى قطيفته واستعداده للاستثقال فى النوم ، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن . ألا ترى إلى قول ذى الرمّة :

وَكَائِنْ تَخَطَّتْ نَاقَتِي مِنْ مَفَازَةٍ ... وَمِنْ نَائِمٍ عَنْ لَيْلِهَا مُتَزَمِّلِ[2]

---

(١) قال محمود : «هو المتلفف فى ثيابه كالمدثر ونودى بما يهجن إليه ... الخ» قال أحمد : أما قوله الأول أن نداءه بذلك تهجين للحالة التى ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة ، فخطأ وسوء أدب . ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له فى الاكرام والاحترام : علم بطلان ما تخيله الزمخشرى ؛ فقد قال العلماء : أنه لم يخاطب باسمه نداء ، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراما له وتشريفاً ، فأين نداؤه بصيغة مهجنة من ندائه باسمه ، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذما فى جفاة حفاة من الرعاء ، فأنا أبرأ إلى الله من ذلك وأربأ به صلى الله عليه وسلم ، ولقد ذكرت بقوله : « أوردها سعد وسعد مشتمل » ما وقفت عليه من كلام ابن خروف النحوى يرد على الزمخشرى ويخطئ رأيه فى تصنيفه المفصل ، وإجحافه فى الاختصار بمعانى كلام سيبويه ، حتى سماه ابن خروف : البرنامج ، وأنشد عليه :

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الابل

وأما ما نقله أن ذلك كان فى مرط عائشة رضى الله عنها فبعيد ، فان السورة مكية ، وبنى النبى صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها بالمدينة . والصحيح فى الآية ما ذكره آخراً ؛ لأن ذلك كان فى بيت خديجة عند ما لقيه جبريل أول مرة ، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة ، والله أعلم .

(٢) لذى الرمة . وكائن : بمعنى كم الخبرية ، والأكثر استعمالها مع «من» كقول : وكائن من كذا . والمتزمل ===

يريد : الكسلان المتقاعس الذى لا ينهض فى معاظم الأمور وكفايات الخطوب ، ولا يحمل نفسه المشاق والمتاعب ، ونحوه :

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مُبَطَّنًا سُهُدًا إِذَا مَانَامَ لَيْلُ الْهَوْجَلِ (١)

وفى أمثالهم :

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ مَاهَكَذَا تُورَدُ يَاسَعْدُ الإِبِلْ (٢)

= المتلفف فى ثيابه عند كثرة النوم ، يقول : كثيراً من المفاوز تخطاه ناقتى وسارته ، وكثيراً من نائم وغافل عن ليلها - أى : المفازة أوالناقة - متكاسل عما فيه من عظائم الأمور ، فالمتزمل كناية عن ذلك .

(٤)
ولقد سريت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقل
ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل
ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
حملت به فى ليلة مزؤودة كرها وعقد نطاقها لم يحلل
فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا إذا مانام ليل الهوجل

لأبى كبير الهذلى يصف تأبط شراً ، واسمه : جابر بن ثابت ، تزوج الهذلى بأمه بعد جابر فخاف منه ، فأغرته على قتله فخرج به متحيلا لذلك فلم يقدر ، فدحه بالشجاعة والفطنة : يقول : سرت ليلا فى الظلمة بمغشم ، أى مع فتى يقدم على الأمر بلا مبالاة ولا تدبير ولا خوف عاقبة ، مع جراءة ، جلد ، أى : صلب صبور غير مثقل ، أى : خفيف فى السير منزه عن كل مايوجب الضعف والتباطؤ ، وبينه بقوله : ممن حملن . أى : هو ممن حملن ، أى جنس النسوة به ؛ أوهو بعض الفتيان الذين حملت بهم النسوة ، وأفرد ضمير «به» مراعاة لفظ «من» وضمن الحمل معنى العلوق ، فعداه بالباء ؛ وإلا فهو يتعدى بنفسه . والحبك : جمع حباك ككتاب . أوجمع حبيك أوحبيكة ؛ وهو الخيوط التى يحبك بها النطاق . والمهبل : المدعو عليه بالهبل ، أى ، الثكل والفقد . والغبر - بالضم فالتشديد - : بقية الحيض وغيره ، وكذلك الغبر - بالضم وبالفتح مع السكون . والغابر : الباقى والذاهب . ويجوز أن غبر : جمع غابر ، وغبر يغبر غبوراً - كدخل - : بقى وذهب ، أى : لم تحمل به أمه فى زمن بقية الحيض . ومرضع : من الصفات المختصة بالمؤنث ؛ والغالب تجريدها من التاء ؛ فما هنا على خلاف الغالب . والغيلة : إحبال الرجل امرأته وهى ترضع ولدها : فيمرض ؛ فالمغيل : الممرض بالغيلة . وفى حديث مسلم : لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم ، وكان القياس فى مغيل إعلاله كمقيم ومبين ومعين ، لكن جاء على الأصل شذوذاً للضرورة . وروى معضل ، أى معى ومعجز للأطباء . وزأده - كذعره : إذا خوفه ، فهو مزؤود ومذعور فالمزؤودة : المخوفة ، وتخويف الليلة مجاز عقلى : كشربت الكوز . والخوف فى الحقيقة المرأة . ويروى بالنصب على الحال ، لكن يضيع ذكر ليلة ، إلا أن يقدر وصفها بظلمة . والنطاق : مايشد به الوسط . وحوش الفؤاد بالضم وحشى القلب لحدته وتوقده ونفوره عن الناس . والرجل الحوش والحوشى : الذى يجانب الناس مبطنا خميص البطن منضمره : سهدا - بضمتين - : كثير السهاد أى السهر : وإسناد النوم إلى الليل مجاز عقلى ؛ وإنما النائم الهوجل : وهو الرجل الطويل الأحمق . ومن تجربة العرب : أن المرأة إذا حملت بولدها كارهة غير مستعدة للوطء : جاء ولدها نجيبا . حكى عن أم تأبط شراً أنها قالت فيه : والله إنه الشيطان ، مارأيته ضاحكا قط ، ولا هم بشىء فى صباه إلا فعله ، ولقد حملت به فى ليلة ظلماء ، وإن نطاقى لمشدود ؛ وذلك يدل على نجابته وشجاعته .

(٢) لمالك بن زيد مناة يخاطب أخاه ، وكان قد بنى على امرأته فلم يحسن سعد القيام بأمر الابل ، فقال : أوردها =

قدمه بالاشتمال بكسائه، وجعل ذلك خلاف الجلد والكيس، وأمر بأن يختار على الهجود التهجد، وعلى التزمل التشمر، والتخفف للعبادة والمجاهدة في الله، لاجرم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تشمر لذلك مع أصحابه حق التشمر، وأقبلوا على إحياء لياليهم، ورفضوا له الرقاد والدعة، وتجاهدوا فيه حتى انتفخت أقدامهم واصفرت ألوانهم، وظهرت السيمى في وجوههم وترامى أمرهم إلى حد رحمهم له ربهم. فخفف عنهم. وقيل: كان متزملا في مرط لعائشة [1] يصلى، فهو على هذا ليس بتهجين، بل هو ثناء عليه وتحسين لحاله التي كان عليها، وأمر بأن يدوم على ذلك ويواظب عليه. وعن عائشة رضى الله عنها: أنها سئلت ما كان تزميله؟ قالت: كان مرطا طوله أربع عشرة ذراعا نصفه علىّ وأنا نائمة ونصفه عليه وهو يصلى، فسئلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خزا ولا قزا ولا مرعزى [2] ولا إبريسما ولا صوفا: كان سداه شعرا ولحمته وبرا [3]. وقيل: دخل على خديجة، وقد جئث فرقا [4] أول ما أتاه جبريل وبوادره ترعد، فقال: زملونى زملونى، وحسب أنه عرض له؛ فبينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل: يا أيها المزمل [5]. وعن عكرمة: أنّ المعنى: يا أيها الذى زمل أمرا عظيما، أى: حمله. والزمل: الحمل. وازدمله: احتمله. وقرئ: قم الليل بضم الميم وفتحها. قال عثمان بن جنى: الغرض بهذه الحركة التبلغ بها هربا من التقاء الساكنين، فبأى الحركات تحرك فقد وقع الغرض ﴿نصفه﴾ بدل من الليل. وإلا قليلا: استثناء من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصف الليل. والضمير في منه وعليه للنصف، والمعنى: التخيير بين أمرين؛ بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه. وإن شئت جعلت

= سعد إلى الماء والحال أنه مشتمل متلفف بثيابه لامتشمر. وذكر الظاهر مكان المضمر: فيه نوع من التوبيخ. ماهكذا تورد، أى: تساق إلى الماء، وكان معرضا عنه فالتفت إليه وناداه نداء البعيد: دلالة على أنه بليد. وحق هاء التنبيه: الدخول على اسم الاشارة، لكن قدمت على كاف التشبيه مبادرة واهتماما بالتنبيه. ويروى بدل الشطر الثانى: ياسعد ماتروى بهذا كالابل. وهذاك اسم إشارة، وصار هذا البيت يضرب مثلا لكل من لم يحسن القيام بشأن ماتولاه.

(١) قوله «وقيل كان متزملا في مرط لعائشة» كيف والسورة مكية. (ع)

(٢) قوله «ولا مرعزى» المرعزى الزغب الذى تحت شعر العنز اه صحاح. (ع)

(٣) لم أره هكذا ومن قوله «ماكان خزا» رواه البيهقى في الدعوات منّ حديثها في ليلة النصف من شعبان وانسل النبي صلى الله عليه وسلم من مرطى. ثم قالت: والله ماكان مرطى من حرير ولا قز. ولا كتان ولا كرسف ولا صوف. فقلنا: من أى شىء كان؟ قالت: إن كان سداه لمن شعر وإن كانت لحمته لمن وبر».

(٤) «قوله وقد جئث فرقا» أى أفزع، فهو مجؤوث: أى مذعور، كذا في الصحاح. وفيه البوادر من الانسان وغيره: اللحمة التى بين المنكب والعنق. (ع)

(٥) لم أره هكذا. وأصله في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها.

نصفه بدلا من قليلا ، وكان تخييرا بين ثلاث : بين قيام النصف بتمامه ، وبين قيام الناقص منه وبين قيام الزائد عليه ؛ وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل ، وإن شئت قلت : لما كان معنى (قم الليل إلا قليلا نصفه) إذا أبدلت النصف من الليل ، قم أقل من نصف الليل ، رجع الضمير فى منه وعليه إلى الأقل من النصف ، فكأنه قيل : قم أقل من نصف الليل . أو : قم أنقص من ذلك الأقل أو أزيد منه قليلا ، فيكون التخيير فيما وراء النصف بينه وبين الثلث . ويجوز إذا أبدلت نصفه من قليلا وفسرته به أن تجعل قليلا الثانى بمعنى نصف النصف : وهو الربع ، كأنه قيل . أو انقص منه قليلا نصفه . وتجعل المزيد على هذا القليل ، أعنى الربع ، نصف الربع كأنه قيل : أوزد عليه قليلا نصفه . ويجوز أن تجعل الزيادة لكونها مطلقة تتمة الثلث ، فيكون تخييرا بين النصف والثلث والربع . فإن قلت : أكان القيام فرضا أم نفلا ؟ قلت : عن عائشة رضى الله عنها أنّ الله جعله تطوّعا بعد أن كان فريضة . وقيل : كان فرضا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، ثم نسخ بهنّ إلا ما تطوّعوا به . وعن الحسن : كان قيام ثلث الليل فريضة ، وكانوا على ذلك سنة . وقيل : كان واجبا ، وإنما وقع التخيير فى المقدار ، ثم نسخ بعد عشر سنين . وعن الكلبي : كان يقوم الرجل حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ ما بين النصف والثلث والثلثين ؛ ومنهم من قال : كان نفلا بدليل التخيير فى المقدار ، ولقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) . ترتيل القرآن : قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوّ منه شبيها بالثغر المرتل : وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان ، وألا يهذه هذا ولا يسرده سردا [1] ، كما قال عمر رضى الله عنه : شر السير الحقحقة . وشر القراءة الهذرمة ، حتى يشبه المتلو فى تتابعه الثغر الألص [2] . وسئلت عائشة رضى الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لا كسردكم هذا ، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها . و﴿ترتيلا﴾ تأكيد فى إيجاب الأمر به ، وأنه مالا بد منه للقارئ .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾

هذه الآية اعتراض ، ويعنى بالقول الثقيل : القرآن وما فيه من الأوامر والنواهى التى هى

---

(١) قوله «وأن لا يهذه هذا ولا يسرده» الهذ : الاسراع . والسرد : التتابع . والحقحقة : شدة السير . والألص : متقارب الأسنان . أفاده الصحاح . وفيه «الهذرمة» سرعة القراءة . (ع)

(٢) لم أره عنه من رواية منصور ، وإنما قال أبو عبيد بن قتيبة فى الغريب قال عمر «شر القراءة الهذرمة» وأخرجه الخطيب فى الجامع من رواية منصور بن جعفر قال : قرأت على أبى محمد بن درستويه . قال : قرأنا على ابن قتيبة بهذا وروى ابن المبارك فى الزهد من رواية الحسن قال «كان يقال : شر السير الحقحقة» ورواه ابن عدى مرفوعا من رواية الحسن بن دينار عن الحسن بن أبى هريرة . والحسن بن دينار ضعيف .

تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين ، خاصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه متحملها بنفسه ومحملها أمته ؛ فهي أثقل عليه وأبهظ له ؛ وأراد بهذا الاعتراض : أن ما كلفه من قيام الليل من جملة التكاليف الثقيلة الصعبة التي وردها القرآن ، لأنّ الليل وقت السبات والراحة والهدوء فلا بد لمن أحياه من مضادة لطبعه ومجاهدة لنفسه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه[١] وتربد له[٢] جلده . وعن عائشة رضى الله عنها : رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليرفض عرقا[٣] . وعن الحسن : ثقيل في الميزان . وقيل : ثقيل على المنافقين . وقيل : كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف .

إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾

﴿ناشئة الليل﴾ النفس الناشئة بالليل ، التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة[٤] ، أى : تنهض وترتفع ، من نشأت السحابة : إذا ارتفعت . ونشأ من مكانه ونشز : إذا نهض ، قال :

نَشَأْنَا إِلَى خُوصٍ بَرَى نَيَّهَا السُّرَى وَأُلْصِقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ الْقَمَاحِدِ[٥]

وقيام الليل ، على أنّ الناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض ، على فاعلة : كالعاقبة . ويدل عليه ما روى عن عبيد بن عمير : قلت لعائشة : رجل قام من أوّل الليل ، أتقولين له قام ناشئة؟ قالت لا ؛ إنما الناشئة القيام بعد النوم . ففسرت الناشئة بالقيام عن المضجع أو العبادة التي تنشأ بالليل ، أى : تحدث ، وترتفع . وقيل : هي ساعات الليل كلها ؛ لأنها تحدث واحدة بعد أخرى . وقيل : الساعات الأول منه . وعن علي بن الحسين رضى الله عنهما أنه كان يصلى بين المغرب والعشاء ويقول : أما سمعتم قول الله تعالى (إنّ ناشئة الليل) هذه ناشئة الليل ﴿هى أشد وطأ﴾ هي خاصة دون ناشئة النهار ، أشدّ مواطأة يواطئ قلبها لسانها : إن أردت النفس . أو يواطئ فيها قلب

(١) أخرجه أحمد من حديث ابن عباس في قصة ابن أمية . قال «وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد جلده» وأبو نعيم في الدلائل «كان إذا نزل عليه الوحي تربد له وجهه وجسده» وفي الباب حديث عبادة بن الصامت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه» .

(٢) قوله «وتربد» أى تعبس . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث عائشة .

(٤) قال محمود : «وقيل الناشئة النفس القائمة بالليل التي تنشأ عن مضجعها ... الخ» قال أحمد : فان حملت الناشئة على النفس فاضافة المواطأة إليها حقيقة ، وإن حملتها على الساعات أو المصدر فهو من الاتساع المجازى

(٥) نشأنا : نهضنا . والخوص ـ جمع خوصاء : الناقة المرتفعة الأعلى ، الضخمة الأسفل . والني : الشحم . والسرى : سير الليل . والقماحد : جمع قمحدوة : وهي أعلى عظم الرأس . يقول : نهضنا إلى نوق عظيمة أذاب شحمها سير الليل ، وألصق عظام رأسها بعضها ببعض ، كناية عن تمرنها على السير واعتيادها له .

القائم لسانه : إن أردت القيام أو العبادة أو الساعات . أو أشد موافقة لما يراد من الخشوع والإخلاص . وعن الحسن : أشد موافقة بين السر والعلانية ، لانقطاع رؤية الخلائق . وقرئ : أشد وطاً بالفتح والكسر . والمعنى : أشد ثبات قدم وأبعد من الزلل . أو أثقل وأغلظ على المصلى من صلاة النهار ، من قوله عليه السلام « اللهم اشدد وطأتك على مضر »[1] ﴿ وأقوم قيلا ﴾ وأسد مقالا وأثبت قراءة لهدو الأصوات . وعن أنس رضى الله عنه أنه قرأ : وأصوب قيلا ، فقيل له : يا أبا حمزة ، إنما هى : وأقوم ؛ فقال : إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد . وروى أبو زيد الأنصارى عن أبى سرار الغنوى أنه كان يقرأ : فحاسوا ، بحاء غير معجمة ، فقيل له : إنما هو (جاسوا) بالجيم ، فقال : وجاسوا وحاسوا واحد .

إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾

﴿ سبحا ﴾ تصرفا وتقلبا فى مهماتك وشواغلك ، ولا تفرغ إلا بالليل ؛ فعليك بمناجاة الله التى تقتضى فراغ البال وانتفاء الشواغل . وأما القراءة بالخاء . فاستعارة من سبخ الصوف : وهو نفشه ونشر أجزائه؛ لانتشار الهم وتفرق القلب بالشواغل : كلفه قيام الليل ، ثم ذكر الحكمة فيما كلفه منه : وهو أن الليل أعون على المواطأة وأشد للقراءة ، لهدو الرجل وخفوت الصوت : وأنه أجمع للقلب وأضم لنشر الهم من النهار ، لأنه وقت تفرق الهموم وتوزع الخواطر والتقلب فى حوائج المعاش والمعاد . وقيل : فراغا وسعة لنومك وتصرفك فى حوائجك . وقيل : إن فاتك من الليل شىء فلك فى النهار فراغ تقدر على تداركه فيه .

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾

﴿ واذكر اسم ربك ﴾ ودم على ذكره فى ليلك ونهارك ، واحرص عليه . وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب : تسبيح ، وتهليل ، وتكبير ، وتمجيد ، وتوحيد ، وصلاة ، وتلاوة قرآن ، ودراسة علم ، وغير ذلك مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغرق به ساعة ليله ونهاره ﴿ وتبتل إليه ﴾ وانقطع إليه . فإن قلت : كيف قيل ﴿ تبتيلا ﴾ مكان تبتلا ؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجىء به على معناه مراعاة لحق الفواصل ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ قرئ مرفوعاً على المدح ، ومجروراً على البدل من ربك . وعن ابن عباس : على القسم بإضمار حرف

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم فى الأنبياء .

القسم ، كقولك : الله لأفعلنّ ، وجوابه ﴿لا إله إلا هو﴾ كما تقول : والله لا أحد فى الدار إلا زيد . وقرأ ابن عباس : رب المشارق والمغارب ﴿فاتخذه وكيلا﴾ مسبب على التهليلة ؛ لأنه هو وحده هو الذى[1] يجب لتوحده بالربوبية أن توكل إليه الأمور . وقيل (وكيلا) : كفيلا بما وعدك من النصر والإظهار . الهجر الجميل : أن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم مع حسن المخالقة والمداراة والإغضاء وترك المكافأة . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : إنا لنكشر فى وجوه قوم ونضحك إليهم ، وإن قلوبنا لتقليهم[2] . وقيل : هو منسوخ بآية السيف .

وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴿١٤﴾

إذا عرف الرجل من صاحبه أنه مستهم بخطب يريد أن يكفاه ، أو بعدوّ يشتهى أن ينتقم له منه وهو مضطلع بذلك مقتدر عليه قال : ذرنى وإياه . أى : لا تحتاج إلى الظفر[3] بمرادك ومشتهاك ، إلا أن تخلى بينى وبينه بأن تكل أمره إلىّ وتستكفينيه . فإنّ فىّ ما يفرغ بالك ويجلى همك ، وليس ثم منع حتى يطلب إليه أن يذره وإياه إلا ترك الاستكفاء والتفويض ، كأنه إذا لم يكل أمره إليه ، فكأنه منعه منه ؛ فإذا وكله إليه فقد أزال المنع وتركه وإياه ، وفيه دليل على الوثوق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما تدور حوله أمنية المخاطب وبما يزيد عليه . النعمة ـ بالفتح ـ التنعم ، وبالكسر : الإنعام ، وبالضم : المسرة ؛ يقال : نعم ، ونعمة عين ، وهم صناديد قريش ، وكانوا أهل تنعم وترفه ﴿إنّ لدينا﴾ ما يضاد تنعمهم من أنكال : وهى القيود الثقال : عن الشعبى ، إذا ارتفعوا استقلت بهم . الواحد : نكل ونكل . ومن جحيم : وهى النار الشديدة الحر والاتقاد . ومن طعام ذى غصة وهو الذى ينشب فى الحلوق فلا يساغ يعنى الضريع وشجر الزقوم . ومن عذاب أليم من سائر العذاب فلا ترى موكولا إليه أمرهم موذوراً بينه وبينهم ينتقم منهم بمثل ذلك الانتقام . وروى أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق[4] . وعن

---

(١) قوله «هو الذى» لعله «الذى» بدون : هو . (ع)

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه تعليقا فى الأدب : ويذكر عن أبى الدرداء . ووصله البيهقى فى الشعب فى السادس والخمسين من طريق أبى الأحوص يعنى ولد أحوص بن حكم عن أبى الزهراء قال قال أبو الدرداء . ورواه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أبى الدرداء من طريق سفيان عن خلف بن حوشب قال قال أبو الدرداء مثل رواية البيهقى .

(٣) قوله «لا تحتاج إلى الظفر» لعله : فى الظفر . (ع)

(٤) أخرجه أحمد فى الزهد والطبرى من طريق وكيع عن حمزة الزيات عن حمران بن أعين «أن النبى صلى الله ==

الحسن : أنه أمسى صائما ، فأتى بطعام ، فعرضت له هذه الآية ؛ فقال : ارفعه ، ووضع عنده الليلة الثانية ، فعرضت له ، فقال : ارفعه ، وكذلك الليلة الثالثة ، فأخبر ثابت البنانى ويزيد الضبي ويحيى البكاء ، فجاؤا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق ﴿يوم ترجف﴾ منصوب بما فى لدينا . والرجفة : الزلزلة والزعزعة الشديدة . والكثيب : الرمل المجتمع من كثب الشيء إذا جمعه ، كأنه فعيل بمعنى مفعول فى أصله . ومنه الكثبة من اللبن ، قالت الضائنة : أجز جفالا وأحلب كثبا[1] عجالا ، أى : كانت مثل رمل مجتمع هيل هيلا ، أى : نثر وأسيل .

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾

الخطاب لأهل مكة ﴿شاهدا عليكم﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم . فإن قلت : لم نكر الرسول ثم عرف ؟ قلت : لأنه أراد : أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل ، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف إشارة إلى المذكور بعينه ﴿وبيلا﴾ ثقيلا غليظا ، من قولهم : كلأ وبيل وخم لا يستمرأ لثقله . والوبيل : العصا الضخمة . ومنه الوابل للمطر العظيم .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾

﴿يوما﴾ مفعول به ، أى : فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهوله ، إن بقيتم على الكفر ولم تؤمنوا وتعملوا صالحا . ويجوز أن يكون ظرفا ، أى : فكيف لكم بالتقوى فى يوم القيامة إن كفرتم فى الدنيا . ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم ، أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء : لأن تقوى الله خوف عقابه ﴿ويجعل الولدان شيبا﴾ مثل فى الشدة يقال فى اليوم الشديد : يوم يشيب نواصى الأطفال . والأصل فيه : أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان . أسرع فيه الشيب . قال أبو الطيب :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ[2]

ـــــــــــــــ

= عليه وسلم بهذا » ورواه ابن عدى من رواية أبى يوسف عن حمزة عن حمدان عن أبى حرب بن أبى الأسود . وقال غيره : أن يوسف يرويه عن حمزة عن حسب عن حمران .

(١) قوله «وأجز جفالا وأحلب كثبا» الجفال : الصوف الكثير . والكثبة من اللبن : قدر حلبة ، والجمع كثب ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) لأبى الطيب ، يقول : ان الهم ينتقص الرجل الجسيم ويقتطعه شيئا فشيئا . ونحف نحافة : هزل هزالا ؛ فنحافة مفعول مطلق ، لأنها تلاقى الاحترام فى المعنى . ويجوز أنها تمييز ، أى : ينتقص الهم العظيم الجسيم من جهة =

وقد مرّ بى فى بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب ، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة ، فقال : أريت القيامة والجنة والنار فى المنام ، ورأيت الناس يقادون فى السلاسل إلى النار ، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون . ويجوز أن يوصف اليوم بالطول . وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب ﴿السماء منفطر به﴾ وصف لليوم بالشدّة أيضاً . وأنّ السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه ، فما ظنك بغيرها من الخلائق . وقرئ : منفطر ومتفطر . والمعنى : ذات انفطار . أو على تأويل السماء بالسقف . أو على تأويل السماء شيء منفطر ، والباء فى(به) مثلها فى قولك : فطرت العود بالقدوم فانفطر به ، يعنى : أنها تنفطر بشدة ذلك اليوم وهوله كما ينفطر الشيء بما يفطر به . ويجوز أن يراد السماء مثقلة به إثقالا يؤدّى إلى انفطارها لعظمه عليها وخشيتها من وقوعه ، كقوله (ثقلت فى السموات والأرض) . ﴿وعده﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول ، والضمير لليوم . ويجوز أن يكون مضافا إلى الفاعل وهو الله عز وعلا ، ولم يجر له ذكر لكونه معلوما .

إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿١٩﴾

﴿إن هذه﴾ الآيات الناطقة بالوعيد الشديد ﴿تذكرة﴾ موعظة ﴿فمن شاء﴾ اتعظ بها . واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى والخشية . ومعنى اتخاذ السبيل إليه : التقرب والتوسل بالطاعة .

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

ـــ النحافة التى تنشأ عنه . ويجوز جعلها مفعولا لأجله على مذهب من لم يشترط اتحاد الفعل والمصدر فى الفاعل . والناصية : مقدم الرأس ، أى : يشيب رأس الصبى . وخص الناصية ؛ لأنها التى تقابل الناظر عند التقابل ، ولا شعر للصبى إلا فى رأسه . ويهرم ، أى : يصير الصبى هرما ضعيفا .

﴿أدنى من ثلثى الليل﴾ أقل منهما ؛ وإنما استعير الأدنى وهو الأقرب للأقل ؛ لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت : قل ما بينهما من الأحياز ؛ وإذا بعدت كثر ذلك . وقرئ : ونصفه وثلثه بالنصب على أنك تقوم أقل من الثلثين ، وتقوم النصف والثلث : وهو مطابق لما مرّ فى أوّل السورة : من التخيير بين قيام النصف بتمامه وبين قيام الناقص منه ـ وهو الثلث ـ وبين قيام الزائد عليه ـ وهو الأدنى من الثلثين . وقرئ : ونصفه ، وثلثه : بالجرّ ، أى : تقوم أقل من الثلثين وأقل من النصف والثلث ، وهو مطابق للتخيير بين النصف : وهو أدنى من الثلثين . والثلث : وهو أدنى من النصف . والربع : وهو أدنى من الثلث ، وهو الوجه الأخير ﴿وطائفة من الذين معك﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده ؛ وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر : هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير ؛ والمعنى : أنكم لا تقدرون عليه ، والضمير فى ﴿لن تحصوه﴾ لمصدر يقدر . أى علم أنه لا يصح منكم ضبط الأوقات ولا يتأتى حسابها بالتعديل والتسوية ، إلا أن تأخذوا بالأوسع للاحتياط : وذلك شاق عليكم بالغ منكم ﴿فتاب عليكم﴾ عبارة عن الترخيص فى ترك القيام المقدر . كقوله (فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) والمعنى : أنه رفع التبعة فى تركه عنكم ، كما يرفع التبعة عن التائب . وعبر عن الصلاة بالقراءة ؛ لأنها بعض أركانها ، كما عبر عنها بالقيام والركوع والسجود . يريد : فصلوا ما تيسر عليكم ، ولم يتعذر من صلاة الليل ؛ وهذا ناسخ للأول ، ثم نسخا جميعا بالصلوات الخمس . وقيل هى قراءة القرآن بعينها ؛ قيل : يقرأ مائة آية . ومن قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن ، وقيل : من قرأ مائة آية كتب من القانتين . وقيل : خمسين آية . وقد بين الحكمة فى النسخ . وهى تعذر القيام على المرضى ، والضاربين فى الأرض للتجارة ، والمجاهدين فى سبيل الله . وقيل : سوّى الله بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أيما رجل جلب شيأ إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسبا ، فباعه بسعر يومه : كان عند الله من الشهداء [(١)] . وعن عبد الله بن عمر : ماخلق الله موتة أموتها بعد القتل فى سبيل الله أحب إلىّ من أن أموت بين شعبتى رحل : أضرب فى الأرض أبتغى من فضل الله [(٢)] . و ﴿علم﴾

---

(١) أخرجه الثعلبي من رواية فرقد السبخى عن إبراهيم عن ابن مسعود موقوفا . وفرقد ضعيف . ووصله ابن مردويه بذكر علقمة بن إبراهيم وعبد الله ورفعه أيضا . وزاد : ثم قرأ (وآخرون يضربون فى الأرض ـ الآية)

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية القاسم بن عبد الله عن أبيه عن نافع عن ابن عمر به . وإسناده ضعيف . ورواه ابن معبد فى الطاعة والمعصية عن ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن نافع أن عمر قال « ماخلق الله موتة أموتها إلا أن أموت مجاهدا فى سبيل الله أحب إلى من أن أموت ـ إلى آخره » والبيهقى فى الشعب فى الثالث عشر =

استئناف على تقدير السؤال عن وجه النسخ ﴿وأقيموا الصلوة﴾ يعنى المفروضة والزكاة الواجبة وقيل: زكاة الفطر؛ لأنه لم يكن بمكة زكاة. وإنما وجبت بعد ذلك. ومن فسرها بالزكاة الواجبة جعل آخر السورة مدنيا ﴿وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾ يجوز أن يريد: سائر الصدقات وأن يريد: أداء الزكاة على أحسن وجه: من إخراج أطيب المال وأعوده على الفقراء، ومراعاة النية وابتغاء وجه الله، والصرف إلى المستحق، وأن يريد: كل شيء يفعل من الخير مما يتعلق بالنفس والمال ﴿خيرا﴾ ثانى مفعولى وجد، وهو فصل. وجاز وإن لم يقع بين معرفتين، لأن أفعل من أشبه فى امتناعه من حرف التعريف المعرفة. وقرأ أبو السمال: هو خير وأعظم أجرا، بالرفع على الابتداء والخبر.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة المزمل دفع الله عنه العسر فى الدنيا والآخرة»[1].

سورة المدثر

مكية، وهى ست وخمسون آية [نزلت بعد المزمل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾

﴿المدثر﴾ لابس الدثار، وهو مافوق الشعار: وهو الثوب الذى يلى الجسد. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «الأنصار شعار والناس دثار»[2] وقيل: هى أول سورة نزلت. وروى جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنت على جبل حراء فنوديت: يا محمد، إنك رسول الله، فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شيأ، فنظرت فوقى فرأيت شيأ»[3]. وفى

= من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عبد الله ذكر عمر أو غيره قال «ماخلق الله إلى آخره».

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بسندهم إلى أبى رضى الله عنه.

(٢) تقدم فى آل عمران.

(٣) متفق عليه من رواية أبى سلمة عنه وأتم منه.

رواية عائشة : « فنظرت فوق فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه - فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت : دثروني دثروني ، فنزل جبريل وقال : «يا أيها المدثر»[1] وعن الزهري : أوّل ما نزل : سورة اقرأ باسم ربك إلى قوله (ما لم يعلم) فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال : إنك نبيّ الله ، فرجع إلى خديجة وقال : دثروني وصبوا عليّ ماء بارداً ، فنزل : يا أيها المدثر .[2] وقيل : سمع من قريش ما كرهه فاغتم ، فتغطى بثوبه مفكراً كما يفعل المغموم . فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه . وعن عكرمة أنه قرأ على لفظ اسم المفعول . من دثره . وقال : دثرت هذا الأمر وعصب بك ، كما قال في المزمّل : قم من مضجعك . أو قم قيام عزم وتصميم ﴿فأنذر﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا . والصحيح أنّ المعنى : فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد ﴿وربك فكبر﴾ واختص ربك بالتكبير : وهو الوصف بالكبرياء ؛ وأن يقال : الله أكبر . ويروى أنه لما نزل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الله أكبر» فكبرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحي ، وقد يحمل على تكبير الصلاة ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط . كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره ﴿وثيابك فطهر﴾ أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ؛ لأنّ طهارة الثياب شرط في الصلاة لا تصح إلا بها ، وهي الأولى والأحب في غير الصلاة ، وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا . وقيل : هو أمر بتقصيرها ، ومخالفة العرب في تطويلهم الثياب وجرهم الذيول ، وذلك ما لا يؤمن معه إصابة النجاسات . وقيل : هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ويستهجن من العادات . يقال : فلان طاهر الثياب وطاهر الجيب والذيل والأردان إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق . وفلان دنس الثياب للغادر ؛ وذلك لأنّ الثوب يلابس الإنسان ويشتمل عليه ، فكنى به عنه . ألا ترى إلى قولهم : أعجبني زيد ثوبه ، كما يقولون : أعجبني زيد عقله وخلقه ، ويقولون : المجد في ثوبه ، والكرم تحت حلته ؛ ولأنّ الغالب أنّ من طهر باطنه ونقاه عني بتطهير الظاهر وتنقيته ، وأبى إلا اجتناب الخبث وإيثار الطهر في كل شيء ﴿والرجز﴾ قرئ بالكسر والضم . وهو العذاب ، ومعناه : اهجر ما يؤدي إليه من عبادة الأوثان وغيرها من المآثم . والمعنى : الثبات على هجره ؛ لأنه كان بريئاً منه .

---

(١) لم أره عن عائشة . وإنما هو قصة حديث جابر . ولعل الزمخشري قصد بقوله «وفي رواية عائشة لفظة منه وإلا فالجميع من حديث جابر رضي الله عنه قلت : يوجد ما ذكره الزمخشري من رواية النعمان بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة عند الطبري .

(٢) أخرجه الطبري من رواية محمد بن ثور عن معمر عن الزهري قال «كان أول شيء نزل على النبي صلى الله عليه وسلم اقرأ - فذكره وأتم منه . ورواه الحاكم من طريق محمد بن سيرين عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها .

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

قرأ الحسن : ولا تمن . وتستكثر ، مرفوع منصوب المحل على الحال ، أى : ولا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً ، أو طالباً للكثير : نهى عن الاستغزار : وهو أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوض من الموهوب له أكثر من الموهوب ، وهذا جائز . ومنه الحديث «المستغزر يثاب من هبته»[1] وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون نهياً خاصاً برسول الله صلى الله عليه وسلم : لأنّ الله تعالى اختار له أشرف الآداب وأحسن الأخلاق . والثانى : أن يكون نهى تنزيه لا تحريم له ولأمته . وقرأ الحسن : تستكثر . بالسكون . وفيه ثلاثة أوجه : الإبدال من تمنن . كأنه قيل : ولا تمنن لا تستكثر ؛ على أنه من المنّ فى قوله عز وجل ﴿ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى﴾ لأنّ من شأن المنان بما يعطى أن يستكثره ، أى : يراه كثيراً ويعتدّ به . وأن يشبه ثرو بعضد ، فيسكن تخفيفاً . وأن يعتبر حال الوقف . وقرأ الأعمش بالنصب بإضمار «أن» كقوله :

* أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرُ الْوَغَى *[2]

وتؤيده قراءة ابن مسعود : ولا تمنن أن تستكثر . ويجوز فى الرفع أن تحذف «أن» ويبطل عملها ، كما روى : أحضر الوغى بالرفع . ﴿ولربك فاصبر﴾ ولوجه الله ، فاستعمل الصبر . وقيل : على أذى المشركين . وقيل : على أداء الفرائض . وعن النخعى : على عطيتك ، كأنه وصله بما قبله ، وجعله صبراً على العطاء من غير استكثار . والوجه أن يكون أمراً بنفس الفعل ، وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه ، ويراد الصبر على أذى الكفار ؛ لأنه أحد ما يتناوله العام .

فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

والفاء فى قوله ﴿فإذا نقر﴾ للتسبيب ، كأنه قال : اصبر على أذاهم ، فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم ، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه . والفاء فى ﴿فذلك﴾ للجزاء . فإن قلت : بم انتصب إذا ، وكيف صح أن يقع ﴿يومئذ﴾ ظرفا ليوم عسير ؟ قلت : انتصب إذا بما دلّ

(١) تقدم فى الروم من قول شريح .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١٥٩ فراجعه إن شئت اه مصححه .

عليه الجزاء، لأنّ المعنى: فاذا نقر فى الناقور عسر الأمر على الكافرين، والذى أجاز وقوع (يومئذ) ظرفا ليوم عسير: أنّ المعنى: فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير، لأنّ يوم القيامة يأتى ويقع حين ينقر فى الناقور. واختلف فى أنها النفخة الأولى أم الثانية. ويجوز أن يكون يومئذ مبنياً مرفوع المحل، بدلا من (ذلك) و(يوم عسير) خبر، كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. فإن قلت: فما فائدة قوله ﴿غير يسير﴾ و(عسير) مغن عنه؟ قلت: لما قال (على الكافرين) فقصر العسر عليهم قال: (غير يسير) ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً، ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم. ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً، كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا.

ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

﴿وحيدا﴾ حال من الله عز وجل على معنيين، أحدهما. ذرنى وحدى معه، فأنا أجزيك فى الانتقام منه عن كل منتقم. والثانى: خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد. أو حال من المخلوق على معنى: خلقته وهو وحيد فريد لا مال له ولا ولد، كقوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة) وقيل: نزلت فى الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يلقب فى قومه بالوحيد، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية: فإن كان ملقباً به قبل فهو تهكم به وبلقبه، وتغيير له عن الغرض الذى كانوا يؤمونه - من مدحه، والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدمه فى الدنيا - إلى وجه الذم والعيب: وهو أنه خلق وحيداً لا مال له ولا ولد، فآتاه الله ذلك، فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه ﴿ممدوداً﴾ مبسوطاً كثيراً: أو ممداً بالنماء، من مدّ النهر ومدّ نهره آخر. قيل: كان له الزرع والضرع والتجارة. وعن ابن عباس: هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال. وقيل: كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفاً وشتاء. وقيل: كان له ألف مثقال. وقيل: أربعة آلاف. وقيل تسعة آلاف. وقيل: ألف ألف. وعن ابن

جريج: غلة شهر بشهر ﴿وبنين شهوداً﴾ حضوراً معه بمكة لا يفارقونه للتصرف فى عمل أو تجارة، لأنهم مكفيون لوفور نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسب وطلب المعاش بأنفسهم، فهو مستأنس بهم لا يشتغل قلبه بغيبتهم، وخوف معاطب السفر عليهم ولا يحزن لفراقهم والاشتياق إليهم. ويجوز أن يكون معناه: أنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل. أو تسمع شهادتهم فيما يتحاكم فيه. وعن مجاهد: كان له عشرة بنين. وقيل: ثلاثة عشر. وقيل: سبعة كلهم رجال: الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاص، وقيس، وعبدشمس: أسلم منهم ثلاثة: خالد، وهشام، وعمارة ﴿ومهدت له تمهيداً﴾ وبسطت له الجاه العريض والرياسة فى قومه. فأتممت عليه نعمتى المال والجاه واجتماعهما: هو الكمال عند أهل الدنيا. ومنه قول الناس: أدام الله تأييدك وتمهيدك، يريدون: زيادة الجاه والحشمة. وكان الوليد من وجهاء قريش وصناديدهم؛ ولذلك لقب الوحيد وريحانة قريش ﴿ثم يطمع﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه [1]، يعنى أنه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة. وقيل: إنه كان يقول: إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى ﴿كلا﴾ ردع له وقطع لرجائه وطمعه ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ تعليل للردع على وجه الاستئناف، كأن قائلا قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته، والكافر لا يستحق المزيد: ويروى: أنه ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله حتى هلك ﴿سأرهقه صعوداً﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد: وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذى لا يطاق. وعن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «يكلف أن يصعد عقبة فى النار كلما وضع عليها يده ذابت [2]، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رجله ذابت، فإذا رفعها عادت» وعنه عليه السلام: الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبداً [3]، ﴿إنه فكر﴾ تعليل للوعيد، كأن الله تعالى عاجله بالفقر بعد الغنى، والذل بعد العز فى الدنيا بعناده، ويعاقب فى الآخرة بأشد العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه فى تفكيره، وتسميته القرآن سحراً. ويجوز أن تكون كلمة الردع متبوعة بقوله (سأرهقه صعوداً)

---

(١) قال محمود: «دخلت ثم استبعاداً لطمعه وحرصه على الزيادة، واستنكاراً لذلك فرد الله طمعه خائبا ... الخ» قال أحمد: لأن الكلمة الشنعاء لما خطرت بباله بعد إمعانه النظر: لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث.

(٢) أخرجه البزار والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب والطبرى وابن أبى حاتم. كلهم من طريق شريك عن عمار الدهنى عن عطية عن أبى سعيد مرفوعا. قال البزار: لا نعلمه رفعه إلا شريك. وبه جزم الطبرانى. ورواه البزار والبيهقى من رواية ابن عيينة عن عمارة مرفوعا.

(٣) أخرجه الترمذى من طريق أبى لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا انتهى. وقد رواه الحاكم والطبرى والبيهقى فى الشعب من رواية عمرو بن الحارث عن دراج. ورواه ابن مردويه من رواية رشدين ابن سعد عن دراج أيضا.

ردّاً لزعمه أن الجنة لم تخلق إلا له ، وإخباراً بأنه من أشدّ أهل النار عذابا ، ويعلل ذلك بعناده ، ويكون قوله (إنه فكر) بدلا من قوله (إنه كان لآياتنا عنيداً) بيانا لكنه عناده . ومعناه فكر ماذا يقول فى القرآن ﴿وقدّر﴾ فى نفسه ما يقول وهيأه ﴿فقتل كيف قدر﴾ تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحز . ورميه الغرض الذى كان تنتحيه قريش . أو ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به . أو هى حكاية لما كرروه من قولهم . قتل كيف قدّر تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله . ومعنى قول القائل : قتله الله ما أشجعه . وأخزاه الله ما أشعره : الإشعار بأنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك . روى أنّ الوليد قال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ومايعلى؛ فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم ؛ فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ، وتقولون إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؛ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؛ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ، فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ماهو إلا ساحر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحا ، وتفرقوا معجبين بقوله متعجبين منه ﴿ثم نظر﴾ فى وجوه الناس[1] ، ثم قطب وجهه[2] ، ثم زحف مدبراً . وتشاوس مستكبراً لما خطرت بباله الكلمة الشنعاء ، وهمّ بأن يرمى بها وصف أشكاله التى تشكل بها حتى استنبط ما استنبط ، استهزاء به . وقيل : قدّر ما يقوله ، ثم نظر فيه . ثم عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر مايقول . وقيل : قطب فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ثم أدبر﴾ عن الحق ﴿واستكبر﴾ عنه فقال ما قال . و (ثم نظر) عطف على (فكر وقدّر) والدعاء : اعتراض بينهما . فإن قلت : ما معنى (ثم) الداخلة فى تكرير الدعاء؟ قلت : الدلالة على أن الكرة الثانية أبلغ من الأولى . ونحوه قوله .

* أَلَا يَا ٱسْلَمِى ثُمَّ ٱسْلَمِى ثُمَّتَ ٱسْلَمِى *

---

(١) قوله « ثم نظر فى وجوه الناس » أى نظر بمؤخر عينه تكبراً أو تغيظا ، كما فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله « ثم قطب وجهه » فى الصحاح : قطب وجهه تقطيبا : عبس . وفيه أيضا : عبس عبوسا كلح ، وبسر بسورا : كلح . يقال : عبس وبسر اه . (ع)

فإن قلت: ما معنى المتوسطة بين الأفعال التي بعدها ؟ قلت : الدلالة على أنه قد تأنى في التأمل وتمهل ، وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخ وتباعد . فإن قلت : فلم قيل ﴿فقال إن هذا﴾ بالفاء بعد عطف ما قبله بثم ؟ قلت : لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث. فإن قلت : فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين ؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد .

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

﴿سأصليه سقر﴾ بدل من (سأرهقه صعوداً) . ﴿لا تبقى﴾ شيئا يلقى فيها إلا أهلكته : وإذا هلك لم تذره هالكا حتى يعاد . أو لا تبقى على شيء ولا تدعه من الهلاك ، بل كل ما يطرح فيها هالك لا محالة ﴿لواحة﴾ من لوح الهجير . قال :

تَقُولُ مَا لَاحَكَ يَا مُسَافِرُ   يَا ابْنَةَ عَمِّي لَاحَنِي الْهَوَاجِرُ [1]

قيل . تلفح الجلد لفحة فتدعه أشد سواداً من الليل . والبشر : أعالي الجلود . وعن الحسن . تلوح للناس ، كقوله (ثم لترونها عين اليقين) وقرئ : لواحة ، نصبا على الاختصاص للتهويل ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي يلي أمرها ويتسلط على أهلها تسعة عشر ملكا . وقيل : صنفا من الملائكة . وقيل : صفة . وقيل: نقيبا . وقرئ : تسعة عشر ، بسكون العين لتوالي الحركات في ما هو في حكم

(١) لاحه الحر لوحا : غيره وسوده . والهاجرة : شدة الحر . وأهجر القوم وهجروا بالتشديد وتهجروا : ساروا في الهاجرة ، وفيه التفات ، كأنه خاطب غيرها أولا . وعجبه من استفهامها عن الشيء الظاهر سببه وهو السفر ، بل هي معترفة أنه مسافر كما قالت ، ومن قساوة قلبها عليه ، ثم التفت إليها بجواب سؤالها . وفي ندائها معنى التنبيه والايقاظ والاستعطاف .

اسم واحد . وقرئ : تسعة أعشر ، جمع عشير ، مثل : يمين وأيمن. جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذبين من الجن والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ، ولا يستروحون إليهم ، ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له ، فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد الخلق بأسا وأقواهم بطشا . عن عمرو بن دينار : واحد منهم يدفع بالدفعة الواحدة في جهنم أكثر من ربيعة ومضر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم . «كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي ،[1] يجرون أشعارهم ، لأحدهم مثل قوة الثقلين ، يسوق أحدهم الأمة وعلى رقبته جبل فيرمى بهم في النار ويرمى بالجبل عليهم»[2] . وروى أنه لما نزلت (عليها تسعة عشر) قال أبو جهل لقريش . ثكلتكم أمهاتكم ، أسمع ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم ، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي وكان شديد البطش . أنا أكفيكم سبعة عشر ، فاكفوني أنتم اثنين ، فأنزل الله ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ أى ما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون . فإن قلت : قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سببا لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين ،[3] فما وجه صحة ذلك ؟ قلت . ما جعل افتتانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سببا ، وذلك أن المراد بقوله ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع (فتنة للذين كفروا) موضع (تسعة عشر) لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من عقد العشرين . أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ ، ولا يذعن إذعان المؤمن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة ، كأنه قيل . ولقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها ، لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان

---

(١) قوله «الصياصي» هي الحصون ، واحدها صيصية . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) لم أجده .

(٣) قال محمود : «إن قلت قد جعل افتتان الكافرين بعدة الزبانية سببا ... الخ» قال أحمد : ما جعل افتتانهم بالعدة سببا لذلك ، وإنما العدة نفسها هي التي جعلت سببا ، لأن المراد : وما جعلنا عدتهم إلا تسعة عشر ، فوضع (فتنة للذين كفروا) موضع ذلك ؛ لأن حال هذه العدة الناقصة واحدا من العشرين : أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ولا يذعن ، وإن خفى عليه وجه الحكمة كأنه قيل : لقد جعلنا عدتهم عدة من شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب . قال أحمد : السائل جعل الفتنة التي هي في تقدير الصفة للعدة ، إذ معنى الكلام ذات فتنة سببا فيما بعدها ، والمجيب جعل العدة التي عرضت لها هذه الصفة سببا لا باعتبار عروض الصفة لها . ويجوز أن يكون (ليستيقن) راجعا إلى ما قبل الاستثناء ، كأنه قيل : جعلنا عدتهم سببا لفتنة الكافرين وسببا ليقين المؤمنين ؛ وهذا الوجه أقرب مما ذكره الزمخشري ؛ وإنما ألجأه إليه اعتقاد أن الله تعالى ما فتنهم ولكنهم فتنوا أنفسهم ، بناء على قاعدة التبعيض في المشيئة وبئست القاعدة فاحذرها .

أهل الكتاب ، لأن عدتهم تسعة عشر فى الكتابين ، فإذا سمعوا بمثلها فى القرآن أيقنوا أنه منزل من الله ، وازدياد المؤمنين إيمانا لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل ، ولما رأوا من تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنه كذلك . فإن قلت : لم قال ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ والاستيقان وازدياد الإيمان دالا على انتفاء الارتياب ؟ قلت . لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك . كان آكد وأبلغ لوصفهم [1] بسكون النفس وثلج الصدر ، ولأن فيه تعريضا بحال من عداهم ، كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكين المرتابين من أهل النفاق والكفر . فإن قلت : كيف ذكر الذين فى قلوبهم مرض وهم المنافقون ، والسورة مكية ، ولم يكن بمكة نفاق ، وإنما نجم بالمدينة ؟ قلت : معناه وليقول المنافقون الذين ينجمون فى مستقبل الزمان بالمدينة بعد الهجرة ﴿والكافرون﴾ بمكة ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ وليس فى ذلك إلا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب ، وذلك لا يخالف كون السورة مكية . ويجوز أن يراد بالمرض : الشك والارتياب ، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين وبعضهم قاطعين بالكذب . فإن قلت : قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا ، فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصح أن يكونا غرضين ، فكيف صح أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضا ؟ قلت : أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب فى العلة أن تكون غرضا ، ألا ترى إلى قولك : خرجت من البلد لمخافة الشر ، فقد جعلت المخافة علة لخروجك وما هى بغرضك . (مثلا) تمييز لهذا ، أو حال منه ، كقوله (هذه ناقة الله لكم آية) . فإن قلت : لم سموه مثلا ؟ قلت : هو استعارة من المثل المضروب . لأنه مما غرب من الكلام وبدع ، استغرابا منهم لهذا العدد واستبداعا له . والمعنى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأى غرض قصد فى أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ، ومرادهم إنكاره من أصله ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص . الكاف فى ﴿كذلك﴾ نصب ، وذلك : إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى ، أى : مثل ذلك المذكور من الاضلال والهدى يضل الكافرين ويهدى المؤمنين ، يعنى : يفعل فعلا حسنا مبنيا على الحكمة والصواب ، فيراه المؤمنون حكمة ويذعنون له لاعتقادهم أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيمانا ، وينكره الكافرون ويشكون فيه فيزيدهم كفرا وضلالا

(١) قال محمود : «وقوله تعالى (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب) بعد قوله (ليستيقن) ليحصل لهم فائدة الجمع بين إثبات اليقين ... الخ» قال أحمد : أطلق الغرض على الله عز وجل ، مع أنه موهم ولم يرد فيه سماع . وأورده السؤال على قاعدته بعد ذلك كله فى أن الله لم يرد من المنافقين والكافرين أقوالهم ، وإنما قالوا على خلاف ما أراد ؛ وقد عرفت فساد القاعدة فأرح فكرك من هذا السؤال . فالكل مراد ، وحسبك تتمة الآية (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) .

﴿وما يعلم جنود ربك﴾ وما عليه . كل جدد من العدد الخاص من كون بعضها على عقد كامل وبعضها على عدد ناقص ، وما فى اختصاص كل جند بعدده من الحكمة ﴿إلا هو﴾ ولا سبيل لأحد إلى معرفة ذلك كما لا يعرف الحكمة فى أعداد السموات والأرضين وأيام السنة والشهور والبروج والكواكب وأعداد النصب والحدود والكفارات والصلوات فى الشريعة . أو : وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن له فى هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وهو يعلمها . وقيل : هو جواب لقول أبى جهل : أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار - إلى قوله - إلا هو : اعتراض . وقوله ﴿وما هى إلا ذكرى﴾ متصل بوصف سقر وهى ضميرها ، أى : وما سقر وصفتها إلا تذكرة ﴿للبشر﴾ أو ضمير الآيات التى ذكرت فيها .

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

﴿كلا﴾ إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى ، لأنهم لا يتذكرون . أو ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر نذيرا . و ﴿دبر﴾ بمعنى أدبر [1] ، كقبل بمعنى أقبل . ومنه صاروا كأمس الدابر . وقيل : هو من دبر الليل النهار إذا خلفه . وقرئ : إذ أدبر ﴿إنها لإحدى الكبر﴾ جواب القسم . أو تعليل لكلا ، والقسم معترض للتوكيد . والكبر : جمع الكبرى ، جعلت ألف التأنيث كتائها [2] ، فلما جمعت فعلة على فعل : جمعت فعلى عليها ، ونظير ذلك : السوافى فى جمع السافياء ، والقواصع فى جمع القاصعاء ، كأنها جمع فاعلة ، أى : لإحدى البلايا أو الدواهى الكبر ، ومعنى كونها إحداهن : أنها من بينهن واحدة فى العظم لا نظيرة لها . كما تقول : هو أحد الرجال ، وهى إحدى النساء . و ﴿نذيرا﴾ تمييز من إحدى ، على معنى : إنها لإحدى الدواهى إنذارا ، كما تقول : هى إحدى النساء عفافا . وقيل : هى حال . وقيل : هو متصل بأول السورة ، يعنى : قم نذيرا ، وهو من بدع التفاسير . وفى قراءة أبى : نذير بالرفع

(١) قوله «ودبر بمعنى أدبر» يعنى فى قراءة : والليل إذ أدبر . وعبارة النسفى : والليل إذ أدبر : نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف وغيرهم إذا دبر ، ودبر بمعنى أدبر . وقوله الآتى : وقرئ : إذ أدبر ، يفيد أن قراءة «دبر» هى المشهورة . (ع)

(٢) قوله «جعلت ألف التأنيث كتائها» لعله كتائه . (ع)

خبر بعد خبر «لأن» أو بحذف المبتدإ (أن يتقدم) فى موضع الرفع بالابتداء . ولمن شاء : خبر مقدّم عليه ، كقولك : لمن توضأ أن يصلى ؛ ومعناه مطلق لمن شاء التقدّم أو التأخر أن يتقدّم أو يتأخر ، والمراد بالتقدّم والتأخر : السبق إلى الخير والتخلف عنه : وهو كقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ويجوز أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للبشر) على أنها منذرة للمكلفين الممكنين : الذين إن شاؤا تقدّموا ففازوا ، وإن شاؤا تأخروا فهلكوا .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَٰبَ الْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّٰفِعِينَ (٤٨)

(رهينة) ليست بتأنيث رهين [1] فى قوله (كل امرئ بما كسب رهين) لتأنيث النفس ؛ لأنه لو قصدت الصفة لقيل : رهين ؛ لأنّ فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هى اسم بمعنى الرهن ، كالشتيمة بمعنى الشتم ، كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهن ، ومنه بيت الحماسة :

أَبَعْدَ الَّذِى بِالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكِبٍ ... رَهِينَةِ رَمْسٍ ذِى تُرَابٍ وَجَنْدَلِ [2]

---

(١) قال محمود : «وليست بتأنيث رهين ... الخ» قال أحمد : لأنه فعيل بمعنى مفعول ، يستوى مذكره ومؤنثه ، كقتيل وجديد .

(٢) أبعد الذى بالنعف نعف كويكب ... رهينة رمس ذى تراب وجندل
أأذكر بالبقيا على من أصابنى ... وبقياى أنى جاهد غير مؤتل

لمسور بن زيادة الحارثى . وقيل : لعبدالرحمن بن زيد ، قتل أبوه زيادة فعرض عليه فيه سبع ديات ، فأبى إلا الثأر . والاستفهام إنكارى . والنعف ـ بالفتح ـ : الجبل والمكان المرتفع . وقيل : ما يستقبلك من الجبل . وكويكب : جبل بعينه . وفى هذا الابدال من التفصيل بعد الاجمال : ماينبىء عن تفخيم المحل والحال ، أى : أبعد قتل أبى المدفون فى ذلك الموضع حال كونه محتبساً فى رمس . وقيل : رهينة بالجر ، بدل من الذى ؛ فهو اسم ملحق بالجوامد بمعنى الرهن . ويقال : رمست الشىء رمساً إذا دفنته فى التراب ، فأطلق المصدر وأريد مكانه ، وهو القبر . والجندل : الحجارة ، وكررت همزة الاستفهام فى قوله «أأذكر» توكيداً للأولى . لأنها داخلة على هذا الفعل تقديرا أيضاً . ويحتمل أنها داخلة على مقدر ، أى : أبعد أبى أفرح بالدية . وروى «أذكر» بالتشديد والبناء للمجهول ، فالهمزة الأولى داخلة عليه ، ولا شاهد فيه حينئذ . والبقيا : الابقاء على الشىء ، أى : لا أذكر

كأنه قال : رهن رمس . والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطابوه من كسبهم ، كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق . وعن على رضى الله عنه أنه فسر أصحاب اليمين بالأطفال ، لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها . وعن ابن عباس رضى الله عنه : هم الملائكة ﴿فى جنات﴾ أى هم فى جنات لا يكتنه وصفها ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾ يسأل بعضهم بعضا عنهم [١] . أو يتساءلون غيرهم عنهم ، كقولك : دعوته وتداعيناه . فإن قلت : كيف طابق قوله ﴿ماسلككم﴾ وهو سؤال للمجرمين : قوله (يتساءلون عن المجرمين) وهو سؤال عنهم ؟ وإنما كان يتطابق ذلك لو قيل : يتساءلون المجرمين ماسلككم قلت : ماسلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسئولين عنهم ؛ لأن المسئولين يلقون إلى السائلين ماجرى بينهم وبين المجرمين ، فيقولون : قلنا لهم ماسلككم ﴿فى سقر قالوا لم نك من المصلين﴾ إلا أن الكلام جيء به على الحذف والاختصار ، كما هو نهج التنزيل فى غرابة نظمه . الخوض : الشروع فى الباطل ومالا ينبغى . فإن قلت : لم يسألونهم وهم عالمون بذلك قلت : توبيخا لهم وتحسيرا ، وليكون حكاية الله ذلك فى كتابه تذكرة للسامعين . وقد عضد بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالأطفال : أنهم [٢] إنما سألوهم لأنهم ولدان لا يعرفون موجب دخول النار . فإن قلت : أيريدون أن كل واحد منهم بمجموع هذه الأربع دخل النار ، أم دخلها بعضهم بهذه وبعضهم بهذه ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعا . فإن قلت : لم أخر التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أرادوا أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيما للتكذيب . كقوله (ثم كان من الذين آمنوا) و ﴿اليقين﴾ الموت ومقدماته ، أى : لو شفع لهم الشافعون جميعا من الملائكة والنبيين وغيرهم : لم تنفعهم شفاعتهم ؛ لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم . وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ ؛ لأنها تزيد فى درجات المرتضين .

= بين الناس بأنى أبقيت على قاتل أبى . والحال أن إبقائى عليه كونى جاهداً ومصمم العزم على الفتك به غير حالف على ذلك ؛ لأنى لا أحتاج إلى الحلف فى تنفيذ أمورى . أو غير مقصر فى الاجتهاد ؛ لأن الائتلاء يجيء بمعنى الحلف وبمعنى التقصير .

(١) قال محمود : «ويتساءلون يعنى يسأل بعضهم بعضا عنهم ... الخ » قال أحمد : إنما أورد السؤال ذريعة وحيلة لتحميل الآية الدلالة على أن فساق المسلمين تاركى الصلاة مثلا ، يسلكون فى النار مخلدين مع الكفار ، فجعل كل واحدة من الخلال الأربع توجب ما توجب الأخرى من الخلود . والصحيح فى معنى الآية أنها خاصة بالكفار . ومعنى قولهم (لم نك من المصلين) : لم نك من أهل الصلاة ، وكذلك إلى آخرها ؛ لأنهم يكذبون بيوم الدين ، والمكذب لا يصح منه طاعة من هذه الطاعات ، ولو فعلها لم تنفعه وقدرت كالعدم ، وإنما يتأسفون على ترك فعل هو نافع لهم .

(٢) قوله «أنهم» لعله : بأنهم . (ع)

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)

﴿عن التذكرة﴾ عن التذكير وهو العظة ، يريد : القرآن أو غيره من المواعظ . و ﴿معرضين﴾ نصب على الحال ، كقولك : مالك قائما . والمستنفرة : الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها فى جمعها له وحملها عليه [1] . وقرئ بالفتح : وهى المنفرة المحمولة على النفار : والقسورة : جماعة الرماة الذين يتصيدونها . وقيل : الأسد . يقال : ليوث قساور وهى فعولة من القسر : وهو القهر والغلبة ، وفى وزنه «الحيدرة» من أسماء الأسد . وعن ابن عباس : ركز الناس وأصواتهم . وعن عكرمة : ظلمة الليل . شبههم فى إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه ، بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها . وفى تشبيههم بالحمر : مذمة ظاهرة وتهجين لحالهم بين . كما فى قوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) وشهادة عليهم بالبله وقلة العقل . ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها فى العدو إذا رابها رائب ؛ ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب فى وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص ﴿صحفا منشرة﴾ قراطيس تنشر وتقرأ كالكتب التى يتكاتب بها . أو كتبا كتبت فى السماء ونزلت بها الملائكة ساعة كتبت منشرة على أيديها غضة رطبة لم تطو بعد ؛ وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، نؤمر فيها باتباعك . ونحوه قوله (وقالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) وقال : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم ... الآية) وقيل : قالوا إن كان محمد صادقا فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار . وقيل : كانوا يقولون : بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوبا على رأسه ذنبه وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك ؛ وهذا من الصحف المنشرة بمعزل . إلا أن يراد بالصحف المنشرة : الكتابات الظاهرة المكشوفة . وقرأ سعيد بن جبير : صحفا منشرة بتخفيفهما ، على أن أنشر الصحف ونشرها : واحد ، كأنزله ونزله . ردعهم بقوله ﴿كلا﴾ عن تلك الإرادة ، وزجرهم عن اقتراح الآيات ، ثم قال ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء

(١) قوله «فى جمعها له وحملها عليه» متعلق بكأنها ؛ لأنه وجه الشبه . (ع)

الصحف ، ثم ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة وقال ﴿إنه تذكرة﴾ يعنى تذكرة بليغة كافية ، مبهم أمرها فى الكفاية ﴿فمن شاء﴾ أن يذكره ولا ينساه ويجعله نصب عينه فعل ، فإنّ نفع ذلك راجع إليه . والضمير فى (إنه) و﴿ذكره﴾ للتذكرة فى قوله (فما لهم عن التذكرة معرضين) وإنما ذكر لأنها فى معنى الذكر أو القرآن ﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله﴾ يعنى : إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه . لأنهم مطبوع على قلوبهم . معلوم أنهم لا يؤمنون اختياراً ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ هو حقيق بأن يتقيه عباده ويخافوا عقابه ، فيؤمنوا ويطيعوا ، وحقيق بأن يغفر لهم إذا آمنوا وأطاعوا . وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هو أهل أن يتق ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه »[1] وقرئ : يذكرون . بالياء والتاء مخففاً ومشدداً .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة »[2] .

ســــورة القيامة

مكية ، وآياتها ٤٠ [نزلت بعد القارعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦)

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه والطبرانى فى الأوسط وابن عدى والحاكم وأحمد وأبو يعلى والبزار كلهم من رواية سهل بن إبراهيم المطلق عن ثابت عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية «قال الله تعالى : أنا أهل أن أتق - إلى آخره» قال الترمذى والطبرانى وابن عدى : تفرد به سهل . ورواه الحكيم الترمذى فى السابع والسبعين بعد المائة ، بلفظ «قال : هو أهل أن يتق . فمن اتق فهو أهل أن يغفر له» وله شاهد من رواية عبد الله قال سمعت ثلاثة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا هريرة وابن عمر وابن عباس رضى الله عنه يقولون : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى فذكره .

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبي بن كعب .

إدخال « لا » النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم . قال امرؤ القيس :

لَا وَأَبِيكِ ٱبْنَةَ ٱلْعَامِرِىِّ لَا يَدَّعِى ٱلْقَوْمُ أَنِّى أَفِرّ[1]

وقال غوثة بن سلمى :

أَلَا نَادَتْ أُمَامَةُ بِٱحْتِمَالِ لِتَحْزُنَنِى فَلَا بِكِ مَا أُبَالِى[2]

وفائدتها توكيد القسم ، وقالوا إنها صلة مثلها فى (لئلا يعلم أهل الكتاب) وفى قوله :

* فِى بِئْرٍ لَاحُورٍ سَرَى وَمَا شَعَرْ *[3]

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوّله ، وأجابوا بأنّ القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ؛ لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد . ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته . والوجه أن يقال : هى للنفى . والمعنى فى ذلك أنه لا يقسم بالشىء إلا إعظاما له يدلك عليه قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) فكأنه بإدخال حرف النفى يقول : إنّ إعظامى له بإقسامى به كلا إعظام ؛ يعنى أنه يستأهل فوق ذلك . وقيل إن « لا » نفى لكلام

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٩٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢)
إذا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلا بك ما أبالى
فسيرى ما بدالك أو أقيمى فأيا ما أتيت فنى نقالى

لغوثة بن سلمى بن ربيعة ، يقول : إذا أظهرت أمامة محبوبتى أمارات الارتحال عنى لتحزننى ، فأطلق النداء على ذلك مجازاً . ويروى « ألا » بدل « إذا » ولا زائدة قبل القسم ؛ لأن المعنى فبحقك وحياتك ما أبالى ولا أحزن ، وحسن زيادتها : أنها فى الغالب مسلطة على دعوى الخصم نافية لها ، وفى القسم بمحبوبته على عدم المبالاة بعدها عنه نوع تهكم بها . وقيل : المعنى فلا يقع ما أبالى على الدعاء ، وهذا إنما يظهر على رواية : فلا بك ما أبالى ؛ وأصله يكن ، أى : يحصل ، فحذفت النون عند الجزم تخفيفا . وما موصولة . ويروى : فأبك ، أى : أبعدك الله : دعاء أيضا . والتقالى : التباغض ، أى : فسيرى ما دام يظهر لك المسير ؛ أو أقيمى ، فهما منك سواء ، وأى شىء تفعلينه فهو ناشئ عن تباغض بينى وبينك ، ومع ذلك لا أعتنى بشأنك لأنى مشغول بأهم منك : وهو موت أقاربه ، والتفت إليها بالخطاب ليصدعها بالجواب .

(٣)
فى بئر لا حور سرى وما شعر بإفكه حتى إذا الصبح جشر

« لا » زائدة بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً . والحور ـ بالضم ـ : الهلكة جمع حائر أى هالك ، كبزل وبازل ، ونزل ونازل . وقيل : الحور بمعنى الهلاك ، وجمعه : أحور ، أى : سرى فى بئر هلاك وما درى بذلك . وقوله « بإفكه » يجوز تعلقه بشعر ، ويجوز تعلقه بسرى ؛ وشبه سبب الهلاك بالبئر على طريق التصريح التبعى والضرر بالوقوع فى كل ، ولذلك قال : سرى ، وهو يناسب الظلمة والحيرة ؛ لأنه بمعنى سار ليلا . والإفك : الباطل ؛ واستعار الصبح للحق على طريق التصريحية . وجشر : أضاء واتضح ، فحينئذ تبين كذبه ، أى : دام على كذبه حتى ظهر الحق .

وردّ له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ، أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة . فإن قلت : قوله تعالى (فلاوربك لايؤمنون) والأبيات التى أنشدتها : المقسم عليه فيها منفى ، فهلا زعمت أنّ « لا » التى قبل القسم زيدت موطئة للنفى بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفياً ، كقولك (لا أقسم بيوم القيامة) ، لاتتركون سدى ؟ قلت : لو قصر الأمر على النفى دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ، ولكنه لم يقصر . ألا ترى كيف لقى (لاأقسم بهذا البلد) بقوله (لقدخلقنا الإنسان) وكذلك (فلاأقسم بمواقع النجوم) بقوله (إنه لقرآن كريم) وقرئ : لأقسم ، على أنّ اللام للابتداء . وأقسم خبر مبتدإ محذوف ، معناه : لأنا أقسم . قالوا : ويعضده أنه فى الإمام بغير ألف ﴿ بالنفس اللوامة ﴾ بالنفس المتقية التى تلوم النفوس فيه أى فى يوم القيامة على تقصيرهن فى التقوى أو بالتى لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الإحسان . وعن الحسن : إن المؤمن لاتراه إلا لائما نفسه ، وإنّ الكافر يمضى قدما لايعاتب نفسه[1] . وقيل : هى التى تتلوّم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة . وعلى التفريط إن كانت مسيئة . وقيل : هى نفس آدم ، لم تزل تتلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة . وجواب القسم مادل عليه قوله ﴿ أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ﴾ وهو لتبعثن . وقرأ قتادة : أن لن يجمع عظامه ، على البناء للمفعول . والمعنى : نجمعها بعد تفرقها ورجوعها رميا ورفاتا مختلطا بالتراب ، وبعدما سفتها الرياح وطيرتها فى أباعد الأرض . وقيل إن عدى ابن أبى ربيعة ختن الأخنس بن شريق[2] وهما اللذان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : « اللهم اكفنى جارى السوء »[3] قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يامحمد حدثنى عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمره ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يامحمد ولم أومن به أويجمع الله العظام ، فنزلت ﴿ بلى ﴾ أوجبت مابعد النفى وهو الجمع ، فكأنه قيل ﴿ بلى ﴾ نجمعها . و ﴿ قادرين ﴾ حال من الضمير فى نجمع ، أى : نجمع العظام قادرين على تأليف جميعها وإعادتها إلى التركيب الأول ، إلى أن نسوى بنانه أى : أصابعه التى هى أطرافه ، وآخر مايتم به خلقه . أو على أن نسوى بنانه ونضم سلامياته على صغرها ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولا من غير نقصان ولا تفاوت ، فكيف بكبار العظام . وقيل : معناه بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه

(١) قوله : « وإن الكافر يمضى قدما لا يعاتب » فى الصحاح مضى قدما ـ بضم الدال ـ : لم يعرج ولم ينثن اه . (ع)

(٢) قوله « ختن الأخنس بن شريق » فى الصحاح « الختن » بالتحريك : كل من كان من قبل المرأة مثل الأب والأخ ؛ وعند العامة : ختن الرجل زوج ابنته . (ع)

(٣) ذكره الثعلبي والبغوى ، والواحدى بغير إسناد .

ورجليه ، أى نجعلها مستوية شيئا واحداً كخف البعير وحافر الحمار لانفرق بينها ، فلا يمكنه أن يعمل بها شيئا مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال ، والبسط والقبض ، والتأتى لما يريد من الحوائج . وقرئ قادرون ، أى : نحن قادرون ، ﴿ بل يريد ﴾ عطف على (أيحسب) فيجوز أن يكون مثله استفهاما ، وأن يكون إيجابا على أن يضرب عن مستفهم عنه إلى آخر . أو يضرب عن مستفهم عنه إلى موجب ﴿ ليفجر أمامه ﴾ ليدوم على فجوره فيما بين يديه من الأوقات وفيما يستقبله من الزمان لاينزع عنه . وعن سعيد بن جبير رضى الله عنه : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . يقول: سوف أتوب، سوف أتوب: حتى يأتيه الموت على شر أحواله وأسوإ أعماله ﴿ يسئل ﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة فى قوله ﴿ أيان يوم القيامة ﴾ ونحوه : ويقولون متى هذا الوعد .

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾

﴿ برق البصر ﴾ تحير فزعا ، وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره . وقرئ : برق من البريق ، أى لمع من شدة شخوصه . وقرأ أبو السمال : بلق إذا انفتح وانفرج . يقال : بلق الباب وأبلقته وبلقته : فتحته ﴿ وخسف القمر ﴾ وذهب ضوؤه ، أو ذهب بنفسه . وقرئ : وخسف على البناء للمفعول ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ حيث يطلعهما الله من المغرب . وقيل : وجمعا فى ذهاب الضوء [1] وقيل : يجمعان أسودين مكورين كأنهما ثوران عقيران فى النار . وقيل يجمعان ثم يقذفان فى البحر ، فيكون نار الله الكبرى ﴿ المفر ﴾ بالفتح المصدر ، وبالكسر : المكان . ويجوز أن يكون مصدراً كالمرجع . وقرئ بهما ﴿ كلا ﴾ ردع عن طلب المفر ﴿ لاوزر ﴾ لاملجأ ، وكل ما التجأت إليه من جبل أو غيره وتخلصت به فهو وزرك ﴿ إلى ربك ﴾ خاصة ﴿ يومئذ ﴾ مستقر العباد ، أى استقرارهم ، يعنى : أنهم لايقدرون أن يستقروا إلى غيره وينصبوا إليه . أو إلى حكمه [2] ترجع أمور العباد ، لايحكم فيها غيره ، كقوله (لمن الملك اليوم) أو إلى ربك مستقرهم ، أى : موضع قرارهم من جنة أو نار ، أى : مفوض ذلك إلى مشيئته ، من شاء أدخله

(١) قوله « وقيل وجمعا فى ذهاب الضوء » لعله : وقيل جمعا . (ع)

(٢) قوله « وينصبوا إليه أو إلى حكمه » فى الصحاح « نصب القوم » : ساروا يومهم ، وهو سير لين ، ونصب الرجل - بالكسر - نصبا : تعب . (ع)

الجنة ومن شاء أدخله النار ﴿ بما قدم ﴾ من عمل عمله ﴿ و ﴾ بما ﴿ أخر ﴾ منه لم يعمله أو بما قدم من ماله فتصدق به ، أو بما أخره فخلفه . وبما قدم من عمل الخير والشر ، وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة فعمل بها بعده . وعن مجاهد : بأول عمله وآخره . ونحوه : فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه ﴿ بصيرة ﴾ حجة بينة وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أو عين بصيرة . والمعنى أنه ينبأ بأعماله وإن لم ينبأ ، ففيه مايجزئ عن الإنباء ؛ لأنه شاهد عليها بما عملت ؛ لأن جوارحه تنطق بذلك (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) ، ﴿ولو ألقى معاذيره ﴾ ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها . وعن الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وقال : المعاذير الستور ، واحدها معذار ، فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب ، كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب . فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع معاذر لا معاذير ؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها ، ونحوه : المناكير فى المنكر .

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

الضمير فى ﴿ به ﴾ للقرآن . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقن الوحى نازع جبريل القراءة ، ولم يصبر إلى أن يتمها ، مسارعة إلى الحفظ وخوفا من أن يتفلت منه ، فأمر بأن يستنصت له ملقيا إليه بقلبه وسمعه ، حتى يقضى إليه وحيه ، ثم يقفيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه . والمعنى : لا تحرك لسانك بقراءة الوحى مادام جبريل صلوات الله عليه يقرأ ﴿ لتعجل به ﴾ لتأخذه على عجلة ، ولئلا يتفلت منك . ثم علل النهى عن العجلة بقوله ﴿ إن علينا جمعه ﴾ فى صدرك وإثبات قراءته فى لسانك ﴿ فإذا قرأناه ﴾ جعل قراءة جبريل قراءته : والقرآن : القراءة ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فكن مقفيا له فيه ولا تراسله ، وطأمن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ ، فنحن فى ضمان تحفيظه ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، كأنه كان يعجل فى الحفظ والسؤال عن المعنى جميعا ، كما ترى بعض الحراص على العلم ؛ ونحوه (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) ، ﴿ كلا ﴾ ردع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن عادة العجلة وإنكار لها عليه ، وحث على الأناة والتؤدة ، وقد بالغ فى ذلك بإتباعه قوله ﴿ بل تحبون

العاجلة ﴾ كأنه قال : بل أنتم يا بنى آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلون فى كل شىء ، ومن ثم تحبون العاجلة ﴿ وتذرون الآخرة ﴾ وقرئ بالياء وهو أبلغ . فإن قلت : كيف اتصل قوله (لا تحرك به لسانك) إلى آخره ، بذكر القيامة ؟ قلت : اتصاله به من جهة هذا التخلص منه ، إلى التوبيخ بحب العاجلة وترك الاهتمام بالآخرة . الوجه : عبارة عن الجملة [1] . والناضرة : من نضرة النعيم ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول . ألا ترى إلى قوله (إلى ربك يومئذ المستقر) ، (إلى ربك يومئذ المساق) ، (إلى الله تصير الأمور) ، (وإلى الله المصير) ، (وإليه ترجعون) ، (عليه توكلت وإليه أنيب) كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد فى محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم ، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا [2] إليه : محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذى يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، تريد معنى التوقع والرجاء . ومنه قول القائل :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا [3]

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ، ويأوون إلى مقائلهم . تقول : عيينتى نويظرة إلى الله وإليكم ، والمعنى : أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه ، والباسر : الشديد العبوس ، والباسل : أشد

---

(١) قال محمود : « الوجوه كناية عن الجملة ، وقدم إلى ربها ليفيد الحصر ... الخ » قال أحمد : ما أقصر لسانه عند هذه الآية ، فكم له يدندن ويطيل فى جحد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويتعمق ، فلما فغرت هذه الآية فاه : صنع فى مصادمتها بالاستدلال ، على أنه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول ، لأنها حينئذ غير منحصرة على تقدير رؤية الله تعالى ، وما يعلم أن المتمتع برؤية جمال وجه الله تعالى لا يصرف عنه طرفه ، ولا يؤثر عليه غيره ، ولا يعدل به عز وعلا منظوراً سواه ؛ وحقيق له أن يحصر رؤيته إلى من ليس كمثله شىء ؛ ونحن نشاهد العاشق فى الدنيا إذا أظفرته برؤية محبوبه لم يصرف عنه لحظه ، ولم يؤثر عليه ؛ فكيف بالمحب لله عز وجل إذا أحظاه النظر إلى وجهه الكريم ، نسأل الله العظيم أن لا يصرف عنا وجهه ، وأن يعيذنا من مزالق البدعة ومزلات الشبهة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٢) قوله « لو كان منظورا إليه » عدم كونه منظور إليه تعالى مبنى على مذهب المعتزلة ، وهو عدم جواز رؤيته تعالى . ومذهب أهل السنة جوازها . ويجوز أن يكون تقديم المفعول هنا للاهتمام بذكر المنظور إليه ، الذى يقتضى النظر إليه نضرة وجوه الناظرين ، لا للاختصاص . (ع)

(٣) يقول : وإذا رجوت مكارمك زدتنى نعما فالنظر إليه كناية عن ذلك . ويجوز أن المعنى : بمجرد نظرى إليك تجيبنى فوق مسئولى ، ولا تحتاج إلى التصريح بالطلب . ومن ملك : تمييز مقترن بمن . والبحر دونك : جملة اعتراضية أو حالية ، أى : أقل منك فى الخيرات والمكارم .

منه ، ولكنه غلب فى الشجاع إذا اشتد كلوحه ﴿تظن﴾ تتوقع أن يفعل بها فعل هو فى شدته وفظاعته ﴿فاقرة﴾ داهية تقصم فقار الظهر ، كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير .

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

﴿كلا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة ، كأنه قيل : ارتدعوا عن ذلك ، وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم ، وتنتقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين . والضمير فى ﴿بلغت﴾ للنفس وإن لم يجر لها ذكر ، لأن الكلام الذى وقعت فيه يدل عليها ، كما قال حاتم :

أَمَاوِيَّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ [1]

وتقول العرب : أرسلت ، يريدون : جاء المطر ، ولا تكاد تسمعهم يذكرون السماء ﴿التراقى﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال . ذكرهم صعوبة الموت الذى هو أول مراحل الآخرة حين تبلغ الروح التراقى ودنا زهوقها : وقال حاضرو صاحبها ـ وهو المحتضر ـ بعضهم لبعض ﴿من راق﴾ أيكم يرقيه مما به ؟ وقيل : هو من كلام ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ ﴿وظن﴾ المحتضر ﴿أنه الفراق﴾ أن هذا الذى نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة ﴿والتفت﴾ ساقه بساقه والتوت عليها عند علز [2] الموت . وعن قتادة: ماتت رجلاه فلا تحملانه ، وقد كان عليهما جوالا . وقيل : شدة فراق الدنيا بشدة إقبال

---

(١) أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

لحاتم الطائى ، والهمزة للنداء وماوى : مرخم ، أصله : ماوية ، اسم أمه وهى بنت عفير ، وكانت تلومه . وأصله : نسبة للماء ، لأنها تشبهه فى اللين والرقة والصفاء والثراء . والثروة : الغنى . والحشرجة : تردد صوت النفس فى الصدر . والضمير للنفس وإن لم تذكر ادعاء لشهرتها . روى أنه لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه قالت له عائشة لعمرك ما يغنى ... البيت ، فقال : لا تقولى هذا يا بنية (وجاءت سكرة الحق بالموت) وهى قراءة منسوبة إليه وكرر نداء ماوية للتقريع ، وغاد ورائح : آت وذاهب . وقوله «من المال» أى من آثاره ، ولو كفت «علم» عن العمل فى المفعول وعبر عن نفسه بالظاهر ؛ لأن هذا الكلام تتحدث به نفوس الأقوام ، فاعتبر صدوره منهم . وثراء المال : الغنى به ، أو جمعه . والوفر : الزيادة والمال الكثير .

(٢) قوله «علز الموت» هو كالرعدة تأخذ المريض . (ع)

الآخرة ، على أن الساق مثل فى الشدّة . وعن سعيد بن المسيب : هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه ﴿المساق﴾ أى يساق إلى الله وإلى حكمه .

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾

﴿فلا صدق ولا صلى﴾ يعنى الإنسان فى قوله (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) ألا ترى إلى قوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) وهو معطوف على (يسأل أيان يوم القيامة) أى : لا يؤمن بالبعث ، فلا صدق بالرسول والقرآن ، ولا صلى . ويجوز أن يراد : فلا صدق ماله ، بمعنى : فلا زكاه . وقيل : نزلت فى أبى جهل ﴿يتمطى﴾ يتبختر . وأصله يتمطط ، أى : يتمدد ، لأنّ المتبختر يمدّ خطاه . وقيل : هو من المطا وهو الظهر ، لأنه يلويه . وفى الحديث : « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم فقد جعل بأسهم بينهم »[3] يعنى : كذب برسول الله صلى الله عليه وسلم وتولى عنه وأعرض ، ثم ذهب إلى قومه يتبختر افتخارا بذلك ﴿أولى لك﴾ بمعنى ويل لك ، وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره .

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿فخلق﴾ فقدر ﴿فسوى﴾ فعدل ﴿منه﴾ من الإنسان ﴿الزوجين﴾ الصنفين ﴿أليس ذلك﴾ الذى أنشأ هذا الإنشاء ﴿بقادر﴾ على الإعادة . وروى أنّ رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه الترمذى وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى . وابن عدى من رواية موسى بن عبيدة عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر . وموسى ضعيف . وروى الترمذى أيضا والبزار عن محمد بن إسماعيل عن أبى معاوية عن يحيى بن سعيد عن عبد الله بن عبد الله بن دينار نحوه . قال الترمذى : ليس له أصل . وإنما المعروف حديث موسى بن عبيدة . وقال البزار : لا نعلم أحداً تابع عليه محمد بن إسماعيل وإنما يعرف عن موسى . واختلف فيه على يحيى بن سعيد . فرواه الحاكم من طريق حماد بن سلمة عنه عن عبيد عن خولة بنت قيس . ورواه الطبرانى فى الأوسط من رواية ابن لهيعة عن عمارة بن خزيمة عن يحيى بن يخنس مولى الزبير عن أبى هريرة . ورواه الأصبهانى فى الترغيب من طريق فرج بن فضالة عن يحيى بن يخنس مرسلا .

وسلم كان إذا قرأها قال سبحانك بلى [١] .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمنا بيوم القيامة » [٢] .

ســـورة الإنسان

مدنية ، وآياتها ٣١ [نزلت بعد الرحمن]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾

هل بمعنى « قد » فى الاستفهام خاصة ، والأصل : أهل ، بدليل قوله :

* أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ الْقَاعِ ذِى الأَكَمِ * [٣]

فالمعنى : أقد أتى ؟ على التقرير والتقريب جميعاً ، أى : أتى على الإنسان قبل زمان قريب ﴿حين من الدهر لم يكن﴾ فيه ﴿شيئاً مذكورا﴾ أى كان شيئا منسياً غير مذكور نطفة فى الأصلاب والمراد بالانسان: جنس بنى آدم ، بدليل قوله (إنا خلقنا الإنسان من نطفة) . ﴿حين من الدهر﴾ طائفة من الزمن الطويل الممتد . فإن قلت : ما محل (لم يكن شيئاً مذكوراً) ؟ قلت : محله النصب على الحال من الإنسان ، كأنه قيل : هل أتى عليه حين من الدهر غير مذكور . أو الرفع على الوصف لحين ، كقوله (يوما لا يجزى والد عن ولده) وعن بعضهم : أنها تليت عنده فقال : ليتها تمت ، أراد : ليت تلك الحالة تمت ، وهى كونه شيئاً غير مذكور ولم يخلق ولم يكلف .

---

(١) أبو داود . من رواية موسى بن أبى عائشة عن رجل سمعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ورواه الحاكم من رواية إسماعيل بن أمية عن أبى اليسع عن أبى هريرة نحوه ﴿قلت﴾ راويه عن إسماعيل عند الحاكم يزيد بن عياض متروك . ولكن أخرجه أحمد وأبوداود والترمذى من طريق سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن رجل عن أبى هريرة . واختلف فيه على إسماعيل على أوجه أخرى ذكرتها فى حاشية الأطراف .

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٣٤٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾

﴿ نطفة أمشاج ﴾ كبرمة أعشار[1] ، وبرد أكياش : وهى ألفاظ مفردة غير جموع ، ولذلك وقعت صفات للأفراد . ويقال أيضا : نطفة مشج ، قال الشماخ :

طَوَتْ أَحْشَاءُ مُرْتَجَةٍ لِوَقْتٍ عَلَى مَشَجٍ سُلَالَتُهُ مَهِينُ[2]

ولا يصحّ أمشاج أن يكون تكسيراً له ، بل هما مثلان فى الإفراد ، لوصف المفرد بهما . ومشجه ومزجه : بمعنى . والمعنى من نطفة قد امتزج فيها الماآن . وعن ابن مسعود : هى عروق النطفة . وعن قتادة : أمشاج ألوان وأطوار ، يريد : أنها تكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ﴿ نبتليه ﴾ فى موضع الحال ، أى : خلقناه مبتلين له ، بمعنى : مريدين ابتلاءه ، كقولك : مررت برجل معه صقر صائداً به غداً ، تريد : قاصداً به الصيد غداً . ويجوز أن يراد : ناقلين له من حال إلى حال ، فسمى ذلك ابتلاء على طريق الاستعارة . وعن ابن عباس : نصرفه فى بطن أمه نطفة ثم علقة . وقيل : هو فى تقدير التأخير ، يعنى : فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه ، وهو من التعسف .

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

شاكراً وكفورا : حالان من الهاء فى هديناه[3] ، أى : مكناه وأقدرناه فى حالتيه جميعاً . أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع : كان معلوما منه[4] أنه يؤمن أو يكفر ؛ لإلزام الحجة . ويجوز أن يكونا حالين من السبيل ، أى : عرفناه السبيل إما سبيلا شاكراً وإما سبيلا كفورا كقوله (وهديناه النجدين) ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز . وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة

---

(١) قوله « كبرمة أعشار » فى الصحاح « برمة أعشار » إذا انكسرت قطعا قطعا وقلب أعشار : جاء على بناء الجمع ، كما قالوا : رمح أقصاد اه ، ولم يذكر أكياش ولا مادته فيه ، فلينظر فى غيره . (ع)

(٢) للشماخ . ورتجت الباب وأرتجته : إذا أغلقته . والرتاج : الباب . ومشج الشيء : مزجه . والمشج - كسبب - : الممزوج . ومثله : أمشاج ؛ فهو مفرد على صورة الجمع كأخلاق . وقيل : جمع مشج . والسلالة - فى الأصل : ما ينسل من بين الأصابع من الطين المائع . والمهين : الحقير ، يصف امرأة قبلت المنى فى فرجها وطوت قبلها عليه . ومرتجة صفة للأحشاء : أى مغلقة إلى وقت تمام الحمل . على منى مختلط من منى الرجل ومنها ، سلالته : أى ما انسل وتدفق منه : مهين : حقير . وفعيل : يوصف به المذكر والمؤنث ، والواحد والمتعدد .

(٣) قال محمود « هما حالان من الهاء فى هديناه ... الخ » قال أحمد : هذا من تحريفه المنكر وهو عند أهل السنة على ظاهره .

(٤) قال محمود : « أو يكون معناه إنا دعوناه إلى الإيمان كان معلوما منه ... الخ » قال أحمد : واستحسانه القراءة أبى السمال لتخيله أن فى التقسيم إشعاراً بغرضه الفاسد ، وليس كذلك : فان التقسيم يحتمل الجزاء إما شاكرا فثاب ، وإما كفوراً فعاقب ، ويرشد إليه ذكر جزاء الفريقين بعد .

فى (أما) وهى قراءة حسنة . والمعنى : أما شاكراً فبتوفيقنا ، وأما كفورا فبسوء اختياره [1]

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد . وقرئ : سلاسل ، غير منون . وسلاسلا ، بالتنوين [2] . وفيه وجهان : أحدهما أن تكون هذه النون بدلا من حرف الإطلاق ، ويجرى الوصل مجرى الوقف . والثانى : أن يكون صاحب القراءة به ممن ضرى برواية الشعر ومرن لسانه على صرف غير المنصرف .

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾

﴿الأبرار﴾ جمع برّ أو بارّ ، كرب وأرباب ، وشاهد وأشهاد . وعن الحسن : هم الذين لا يؤذون الذرّ [3] . والكأس : الزجاجة إذا كانت فيها خمر ، وتسمى الخمر نفسها : كأساً ﴿مزاجها﴾ ما تمزج به ﴿كافوراً﴾ ماء كافور ، وهو اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور [4] ورائحته

---

(١) قوله « فبسوء اختياره » هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يخلق الشر ، أما عند أهل السنة فهو خالق الخير والشر ، كالشكر والكفر . (ع)

(٢) قال محمود : « قرئ بتنوين سلاسل فوجهه أن تكون هذه النون بدلا من ألف الاطلاق ... الخ » قال أحمد : وهذا من الطراز الأول لأن معتقده أن القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفاصيلها ، وأنها موكولة إلى اجتهاد القراء واختيارهم بمقتضى نظرهم كما مر له ، وطم على ذلك ههنا بجعل تنوين سلاسل من قبيل الغلط الذى يسبق إليه اللسان فى غير موضعه لتمرنه عليه فى موضعه ، والحق أن جميع الوجوه المستفيضة منقولة تواترا عنه صلى الله عليه وسلم ، وتنوين هذا على لغة من يصرف فى نثر الكلام جميع ما لا ينصرف إلا أفعل ؛ والقراآت مشتملة على اللغات المختلفة ، وأما قواريرا قواريرا : فقرئ بترك تنوينهما وهو الأصل ، وتنوين الأول خاصة بدلا من ألف الاطلاق لأنها فاصلة ، وتنوين الثانية كالأولى اتباعا لها ؛ ولم يقرأ أحد بتنوين الثانية وترك تنوين الأولى ، فانه عكس أن يترك تنوين الفاصلة مع الحاجة إلى المجانسة ، وتنوين غيرها من غير حاجة .

(٣) قوله « لا يؤذون الذر » فى الصحاح « الذر » النمل . (ع)

(٤) قال محمود : « كافورا عين فى الجنة إسمها كذلك فى لون الكافور ورائحته وبرده ... الخ » قال أحمد : هذا =

وبرده . و ﴿عينا﴾ بدل منه . وعن قتادة : تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك . وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده . فكأنها مزجت بالكافور . و(عينا) على هذين القولين : بدل من محل (من كأس) على تقدير حذف مضاف ، كأنه قيل : يشربون فيها خمرا خمر عين . أو نصب على الاختصاص . فإن قلت : لم وصل فعل الشرب بحرف الابتداء أولا ، وبحرف الإلصاق آخراً ؟ قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم وأول غايته ؛ وأما العين فبها يمزجون شرابهم ، فكان المعنى : يشرب عباد الله بها الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل ﴿يفجرونها﴾ يجرونها حيث شاؤا من منازلهم ﴿تفجيرا﴾ سهلا لا يمتنع عليهم ﴿يوفون﴾ جواب من عسى ، يقول : مالهم يرزقون ذلك ، والوفاء بالنذر مبالغة فى وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات ؛ لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿مستطيرا﴾ فاشيا منتشرا بالغاً أقصى المبالغ ، من استطار الحريق ، واستطار الفجر . وهو من طار ، بمنزلة استنفر من نفر ﴿على حبه﴾ الضمير للطعام ، أى : مع اشتهائه والحاجة إليه . ونحوه (وآتى المال على حبه) ، (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وعن الفضيل بن عياض : على حب الله ﴿وأسيرا﴾ عن الحسن : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : أحسن إليه ؛ فيكون عنده اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وعند عامة العلماء : يجوز الإحسان إلى الكفار فى دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات . وعن قتادة : كان أسيرهم يومئذ المشرك ، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه . وعن سعيد بن جبير وعطاء : هو الأسير من أهل القبلة . وعن أبى سعيد الخدرى : هو المملوك والمسجون . وسمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم الغريم : أسيرا ، فقال « غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك » ﴿إنما نطعمكم﴾ على إرادة القول . ويجوز أن يكون قولا باللسان منعاً لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر ؛ لأن إحسانهم مفعول لوجه الله ؛ فلا معنى لمكافأة الخلق . وأن يكون قولهم لهم لطفاً وتفقيها وتنبيهاً ، على ما ينبغى أن يكون عليه من أخلص لله . وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ، ثم تسأل الرسول ماقالوا ؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عندالله . ويجوز أن يكون ذلك بياناً وكشفاً عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئا . وعن مجاهد :

= الجواب على القولين الأولين ؛ وأما على القولين الآخرين وهو أن العين بدل من الكأس . ومعنى مزاجها بالكافور : إما اشتمالها على أوصافه ، وإما أن يكون الكافور المعهود كما تقدم ، فلا يتم الجواب المذكور ، فيجاب عن السؤال بأنه لما ذكر الشراب أولا باعتبار الوقوع فى الوجود ، ذكره ثانيا مطمئناً للالتذاذ به ، وكأنه قال : فيشربون منها فيلتذون بها ؛ وعليه حمله أبو عبيدة .

أما إنهم ما تكلموا به ، ولكن علمه الله منهم فأثنى عليهم . والشكور والكفور : مصدران كالشكر والكفر ﴿إنا نخاف﴾ يحتمل إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم ، لا لإرادة مكافأتكم ؛ وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة . ووصف اليوم بالعبوس . مجاز على طريقين : أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء ، كقولهم : نهارك صائم : روى أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران ، وأن يشبه فى شدته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل : والقمطرير : الشديد العبوس الذى يجمع ما بين عينيه . قال الزجاج : يقال : اقمطرت الناقة : إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها وزمت بأنفها [1] ، فاشتقه من القطر وجعل الميم مزيدة . قال أسد بن ناعصة [2]

وَٱصْطَلَيْتُ الْحُرُوبَ فِى كُلِّ يَوْمٍ بَاسِلَ الشَّرِّ قَمْطَرِيرَ الصَّبَاحِ [3]

***

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ

---

(١) قوله «وجمعت قطريها وزمت بأنفها» القطر : الناحية والجانب . وزق الطائر فرخه : أطعمه بفيه . والزوقرة : ترقيص الطفل ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله «قال أسد بن ناعصة» من النمص : وهو التمايل . (ع)

(٣) لأسد بن ناعصة . وصلى النار واصطلاها إذا ذاق شدة حرها وتدفأ بها ، فشبه الحرب بالنار على طريق المكنية ، والاصطلاء تخييل ، والباسل : الشجاع إذا اشتد كلوحه . والقمطرير : الشديد العبوس الذى يجمع ما بين عينيه ، يقال : اقمطرت الناقة ، إذا جمعت قطريها فرفعت ذنبها وزمت بأنفها ، فهو من القطر ، والميم زائدة ، ووصف الشر والصباح بذلك مجاز .

شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

﴿ولقاهم نضرة وسرورا﴾ أى: أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة فى الوجوه وسرورا فى القلوب، وهذا يدل على أنّ اليوم موصوف بعبوس أهله ﴿بما صبروا﴾ بصبرهم على الإيثار. وعن ابن عباس رضى الله عنه: أنّ الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس معه؛ فقالوا: ياأبا الحسن، لو نذرت على ولدك [1]، فنذر علىّ وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما: أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما معهم شىء، فاستقرض علىّ من شمعون الخيبرى اليهودى ثلاث أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعا واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياما؛ فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم، فآثروه؛ ووقف عليهم أسير فى الثالثة، ففعلوا مثل ذلك؛ فلما أصبحوا أخذ على رضى الله عنه بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ماأشدّ مايسوءنى ماأرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها. فساءه ذلك، فنزل جبريل وقال: خذها يامحمد هنأك الله فى أهل بيتك فأقرأه السورة. فإن قلت: مامعنى ذكر الحرير مع الجنة؟ قلت: المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار ومايؤدّى إليه من الجوع والعرى بستانا فيه مأكل هنىّ، وحريراً فيه ملبس بهىّ. يعنى: أن هواءها معتدل، لاحرّ شمس يحمى ولا شدّة برد تؤذى. وفى الحديث: هواء الجنة سجسج [2]، لاحرّ ولاقرّ. وقيل: الزمهرير القمر. وعن ثعلب: أنه فى لغة طيئ. وأنشد:

وَلَيْلَةٍ ظَلَامُهَا قَدِ اعْتَكَرْ قَطَعْتُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَازَهَرْ [3]

(١) أخرجه الثعلبى من رواية القاسم بن بهرام عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عباس ومن رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى (يوفون بالنذر ـ الآية) فذكر تمامه. وزاد فى أثنائه أشعاراً لعلى وفاطمة. قال الحكيم الترمذى فى الرابع والأربعين: ومن الأحاديث التى تنكرها القلوب حديث رووه عن مجاهد عن ابن عباس فذكره بشعره. ثم قال: هذا حديث مزوق مفتعل لايروج إلا على أحمق جاهل. ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات من طريق أبى عبدالله السمرقندى. عن محمد بن كثير عن الأصبغ بن نباتة. قال: مرض الحسن والحسين. إلى آخره فذكره بشعره وزيادة ألفاظ. ثم قال: وهذا لانشك فى وضعه.

(٢) قوله «هواء الجنة سجسج» تفسيره مابعده، كما يفيده الصحاح. (ع)

(٣) أى: ورب ليلة ظلامها قد تراكم واختلط وكثر، قطعتها وأمضيتها بالسير، والحال أن الزمهرير مازهر أى: ماظهر وأضاء. والزمهرير فى لغة طيئ: القمر؛ وهذه الحال مؤكدة لاعتكار الظلام.

والمعنى : أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها شمس وقمر . فإن قلت : ﴿ودانية عليهم ظلالها﴾ علام عطفت ؟ قلت : على الجملة التى قبلها ؛ لأنها فى موضع الحال من المجزيين ؛ وهذه حال مثلها عنهم لرجوع الضمير منها إليهم فى عليهم ، إلا أنها اسم مفرد ، وتلك جملة فى حكم مفرد تقديره : غير رائين فيها شمساً ولا زمهريرا ، ودانيـة عليهم ظلالها ؛ ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم ، كأنه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقر ودنو الظلال عليهم وقرئ : ودانية ، بالرفع ، على أن ظلالها مبتدأ ، ودانية خبر ، والجملة فى موضع الحال ؛ والمعنى : لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، والحال أن ظلالها دانية عليهم ؛ ويجوز أن تجعل (متكئين) و(لا يرون) و (دانية) كلها صفات لجنة . ويجوز أن يكون (ودانية) معطوفة على جنـة ، أى : وجنـة أخرى دانيـة عليهم ظلالها ، على أنهم وعدوا جنتين ، كقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) لأنهم وصفوا بالخوف : (إنا نخاف من ربنا) . فإن قلت : فعلام عطف ﴿وذللت﴾ ؟ قلت : هى ـ إذا رفعت (ودانية) ـ : جملة فعليـة معطوفة على جملة ابتدائية ، وإذا نصبتها على الحال ، فهى حال من دانية ، أى : تدنو ظلالها عليهم فى حال تذليل قطوفها لهم . أو معطوفة عليها على : ودانية عليهم ظلالها ، ومذللة قطوفها ؛ وإذا نصبت (ودانيـة) على الوصف ، فهى صفة مثلها ؛ ألا ترى أنك لو قلت : جنة ذللت قطوفها : كان صحيحاً ؛ وتذليل القطوف : أن تجعل ذللا لا تمتنع على قطافها كيف شاؤا . أو تجعل ذليـلة لهم خاضعة متقاصرة ، من قولهم : حائط ذليل إذا كان قصيرا ﴿قوارير قواريرا﴾ قرئا غير منونين ، وبتنوين الأول ، وبتنوينهما . وهذا التنوين بدل من ألف الإطلاق ، لأنه فاصـلة ؛ وفى الثانى لإتباعه الأول ، ومعنى قوارير من ﴿فضة﴾ أنها مخلوقة من فضة ، وهى مع بياض الفضة وحسنها فى صفاء القوارير وشفيفها . فإن قلت : ما معنى كانت ؟ قلت : هو من (يكون) فى قوله (كن فيكون) أى : تكوّنت قوارير ، بتكوين الله تفخيما لتلك الخلقة العجيبة الشأن ، الجامعة بين صفتى الجوهرين المتباينين . ومنه كان فى قوله : كان مزاجها كافورا . وقرئ : قوارير من فضـة ، بالرفع على : هى قوارير ﴿قدروها﴾ صفة لقوارير من فضة . ومعنى تقديرهم لها : أنهم قدروها فى أنفسهم أن تكون على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم ، فجاءت كما قدروا . وقيل : الضمير للطائفين بها ، دل عليهم قوله (ويطاف عليهم) على أنهم قدروا شرابها على قدر الرى ، وهو ألذ للشارب لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز . وعن مجاهد : لا تفيض ولا تغيض . وقرئ : قدروها ، على البناء للمفعول . ووجهه أن يكون من قدر ، منقولا من قدر . تقول : قدرت الشىء وقدرنيه فلان : إذا جعلك قادراً له . ومعناه : جعلوا قادرين لها كما شاؤا . وأطلق لهم أن يقدروا على حسب ما اشتهوا ، سميت العين زنجبيلا لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيبه .

قال الأعشى :

كَأَنَّ الْقَرَنْفُلَ وَالزَّنْجَبِيلَ بَاتَا بِفِيهَا وَأَرْيًا مَشُورَا [١]

وقال المسيب بن علس [٢]

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَافَةَ الْخَمْرِ [٣]

و ﴿سلسبيلا﴾ لسلاسة انحدارها فى الحلق وسهولة مساغها ، يعنى : أنها فى طعم الزنجبيل وليس فيها لذعه ، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة . يقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . ودلت على غاية السلاسة . قال الزجاج : السلسبيل فى اللغة : صفة لما كان فى غاية السلاسة . وقرئ : سلسبيل ، على منع الصرف ، لاجتماع العلمية والتأنيث ؛ وقد عزوا إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه أن معناه سل سبيلا إليها ، وهذا غير مستقيم على ظاهره . إلا أن يراد أن جملة قول القائل : سل سبيلا ، جعلت علما للعين ، كما قيل : تأبط شراً ؛ وذرّى حبا ؛ وسميت بذلك لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلا بالعمل الصالح ، وهو مع استقامته فى العربية تكلف وابتداع ؛ وعزوُه إلى مثل على رضى الله عنه أبدع . وفى شعر بعض المحدثين :

سَلْ سَبِيلاً فِيهَا إِلَى رَاحَةِ النَّفْـــسِ بِرَاحٍ كَأَنَّهَا سَلْسَبِيلُ [٤]

و (عينا) بدل من (زنجبيلا) وقيل : تمزج كأسهم بالزنجبيل بعينه . أو يخلق الله طعمه فيها . و (عينا) على هذا القول : مبدلة من (كأسا) كأنه قيل : ويسقون فيها كأسا كأس عين . أو منصوبة على الاختصاص . شبهوا فى حسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم باللؤلؤ المنثور

---

(١) للأعشى ، شبه رائحة فيها وطعمه بالقرنفل والزنجبيل ، لأن العرب تستطيبهما وتستلذهما ، وشبه طعم ريقها بطعم الأرى : وهو العسل . والمشور : اسم مفعول ، من شاره شوراً إذا جناه . والشور : موضع تعسل فيه النحل .

(٢) قوله «المسيب بن علس» العلس فى الأصل : القراد الضخم . وبه سمى الرجل ؛ كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) للمسيب بن علس ؛ وإجراء التشبيه هنا فى طعم الزنجبيل يفيد أنه فى البيت السابق كذلك ، وضمير به للفم وإذ ذقته : أى حين ذقت ريقه ، فهو مجاز ، وسلافة الخمر : أول ما يعصر من العنب ويتخمر ، وتشبيه طعم الريق بهما فى مطلق الاستلذاذ لا يفيد أن فيه حرافة كما فيهما . وسلافة : عطف على طعم . ويجوز أن ضمير «به» للريق وهو المذوق ، ومعنى كون السلافة به : أنها ممزوجة فيه .

(٤) اطلب طريقاً فيها إلى راحة نفسك ، براح : أى بخمر . والسلسبيل والسلسال والسلسل : عين فى الجنة سهلة الانحدار فى الحلق ، سلسة المساغ . وزيدت الباء مبالغة فى الدلالة على السلاسة والسهولة . وشبه الخمر بها لما هو معلوم وثابت بين الناس أن شراب الجنة أعلى الشراب .

وعن المأمون : أنه ليلة زفت إليه بوران بنت الحسن بن سهل وهو على بساط منسوج من ذهب وقد نثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ . فنظر إليه منثورا على ذلك البساط ، فاستحسن المنظر وقال : لله درّ أبى نواس ، وكأنه أبصر هذا حيث يقول :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ [1]

وقيل: شبهوا باللؤلؤ الرطب إذا نثر من صدفه ، لأنه أحسن وأكثر ماء (رأيت) ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم ، كأنه قيل : وإذا أوجدت الرؤية ، ثم . ومعناه : أن بصر الرائى أينما وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير . و(ثم) فى موضع النصب على الظرف ، يعنى فى الجنة ومن قال : معناه «ما ثم» فقد أخطأ ، لأن «ثم» صلة لما ، ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة (كبيرا) واسعا وهنيئا . يروى : أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام ، يرى أقصاه كما يرى أدناه . وقيل لازوال له . وقيل : إذا أرادوا شيأ كان . وقيل : يسلم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم . قرئ : عاليهم ، بالسكون ، على أنه مبتدأ خبره [2] (ثياب سندس) أى مايعلوهم من لباسهم ثياب سندس . وعاليهم . بالنصب ، على أنه حال من الضمير فى (يطوف عليهم) أو فى (حسبتهم) أى يطوف عليهم ولدان عاليا المطوف عليهم ثياب . أو حسبتهم لؤلؤا عاليا لهم ثياب . ويجوز أن يراد : رأيت أهل نعيم وملك عاليهم ثياب . وعاليتهم : بالرفع والنصب على ذلك . وعليهم . وخضر . وإستبرق : بالرفع ، حملا على الثياب بالجر على السندس . وقرئ : وإستبرق ، نصبا فى موضع الجر على منع الصرف لأنه أعجمى ، وهو غلط لأنه نكرة يدخله حرف التعريف ؛ تقول: الإستبرق ، إلا أن يزعم ابن محيصن أنه قد يجعل علما لهذا الضرب من الثياب . وقرئ : واستبرق ، بوصل الهمزة والفتح : على أنه مسمى باستفعل من البريق ، وليس بصحيح أيضا ؛ لأنه معرب مشهور تعريبه ، وأن أصله : استبره (وحلوا) عطف على (ويطوف عليهم) . فإن قلت : ذكرههنا أن أساورهم من فضة ، وفى موضع آخر أنها من

---

(١) لأبى نواس ، يصف الخمر بأن حبابها الذى يعلوها كالقوارير يشبه الدر ، وبأنها تشبه الذهب ؛ وهو من التشبيه المركب . وحكى أنه لما زفت بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون بن الرشيد كان على بساط منسوج بالذهب ونثرت عليه نساء دار الخلافة اللؤلؤ ، فنظر إليه وقال : لله در أبى نواس حيث قال : كأن صغرى ... البيت ؛ وقد عيب عليه استعمال صغرى وكبرى مجردتين من أل والاضافة ، مع أنهما عن أفعل التفضيل ، وهو إذا جرد وجب تذكيره .

(٢) قال محمود : «قرئ بالسكون على أنه مبتدأ خبره ثياب ... الخ» قال أحمد : فى هذا الوجه الآخر نظر ، فانه يجعله داخلا فى مضمون الحسبان ، وكيف يكون ذلك وهم لابسون السندس حقيقة ، لا على وجه التشبيه باللؤلؤ ، بخلاف كونهم لؤلؤا ، فانه على طريق التشبيه المقتضى لقرب شبههم باللؤلؤ إلى أن يحسبوا لؤلؤا . ويحتمل أن يصحح هذا الوجه لكن بعد تكلف مستغنى عنه بالأول .

ذهب . قلت : هب أنه قيل : وحلوا أساور من ذهب ومن فضة . وهذا صحيح لا إشكال فيه ، على أنهم يسوّرون بالجنسين : إما على المعاقبة ، وإما على الجمع ، كما تزاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلي وتجمع بينها ، وما أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ﴿شرابا طهورا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا ؛ لأنّ كونها رجسا بالشرع لا بالعقل ، وليست الدار دار تكليف. أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدى الوضرة[1] ، وتدوسه الأقدام الدنسة ، ولم يجعل فى الدنان والأباريق التى لم يعن بتنظيفها . أو لأنه لا يئول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقا من أبدانهم له ريح كريح المسك . أى : يقال لأهل الجنة ﴿إنّ هذا﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدّم من عطاء الله لهم : ما جوزيتم به على أعمالكم وشكر به سعيكم ، والشكر مجاز .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾

تكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لإنّ : تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل ، ليتقرّر فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أى وجه نزل إلا حكمة وصوابا ، كأنه قيل : ما نزّل عليك القرآن تنزيلا مفرقا منجما إلا أنا لا غيرى ، وقد عرفتنى حكيما فاعلا لكل ما أفعله بدواعى الحكمة ؛ ولقد دعتنى حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالمكافة والمصابرة ، وسأنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام بعد حين ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح ، وتأخيره نصرتك على أعدائك من أهل مكة ؛ ولا تطع منهم أحدا قلة صبر منك على أذاهم وضجرا من تأخر الظفر ، وكانوا مع إفراطهم فى العداوة والإيذاء له ولمن معه يدعونه إلى أن يرجع عن أمره ويبذلون له أموالهم وتزويج أكرم بناتهم إن أجابهم . فإن قلت : كانوا كلهم كفرة ، فما معنى القسمة فى قوله ﴿آثما أو كفورا﴾ ؟ قلت : معناه ولا تطع منهم راكبا لما هو إثم داعيا لك إليه . أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه ؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل هو إثم أو كفر ، أو غير إثم ولا كفر ، فنهى أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث . وقيل : الآثم عتبة ؛ والكفور : الوليد ؛ لأنّ عتبة كان ركابا للمآثم ، متعاطيا لأنواع الفسوق ، وكان الوليد غاليا فى الكفر

(١) قوله «فتمسه الأيدى الوضرة» من الوضر : وهو الدرن والدسم . أفاده الصحاح . (ع)

شديد الشكيمة فى العتو . فإن قلت : معنى أو : ولا تطع أحدهما ، فهلا جىء بالواو ليكون نهياً عن طاعتهما جميعا ؟ قلت : لو قيل : ولا تطعهما ، جاز أن يطيع أحدهما ؛ وإذا قيل : لاتطع أحدهما ، علم أنّ الناهى عن طاعة أحدهما : عن طاعتهما جميعاً أنهى . كما إذا نهى أن يقول لأبويه : أف ، علم أنه منهى عن ضربهما على طريق الأولى ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾ ودم على صلاة الفجر والعصر ﴿ومن الليل فاسجد له﴾ وبعض الليل فصل له . أو يعنى صلاة المغرب والعشاء . وأدخل (من) على الظرف للتبعيض ، كما دخل على المفعول فى قوله (يغفر لكم من ذنوبكم) . ﴿وسبحه ليلا طويلا﴾ وتهجد له هزيعاً طويلا [1] من الليل: ثلثيه ، أو نصفه . أو ثلثه .

إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾

﴿إنّ هؤلاء﴾ الكفرة ﴿يحبون العاجلة﴾ يؤثرونها على الآخرة ، كقوله (بل تؤثرون الحياة الدنيا) . ﴿وراءهم﴾ قدامهم أو خلف ظهورهم لايعبأون به ﴿يوما ثقيلا﴾ استعير الثقيل لشدّته وهوله ، من الشىء الثقيل الباهظ لحامله . ونحوه : (ثقلت فى السموات والأرض) الأسر : الربط والتوثيق . ومنه : أسر الرجل إذا أوثق بالقدّ وهو الإسار . وفرس مأسور الخلق . وترس مأسور بالعقب [2] . والمعنى : شددنا توصيل عظامهم بعضها ببعض ، وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب . ومثله قولهم : جارية معصوبة الخلق ومجدولته ﴿وإذا شئنا﴾ أهلكناهم و﴿بدلنا أمثالهم﴾ فى شدّة الأسر ، يعنى : النشأة الأخرى . وقيل : معناه : بدلنا غيرهم ممن يطيع . وحقه أن يجىء بإن ، لا بإذا ، كقوله (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم) ، (إن يشأ يذهبكم) .

إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيماً ﴿٣١﴾

---

(١) قوله «وتهجد له هزيما طويلا» فى الصحاح : مضى هزيع من الليل ، أى : طائفة . (ع)

(٢) قوله «وترس مأسور بالعقب» فى الصحاح : العقب ـ بالتحريك ـ : العصب : الذى تعمل منه الأوتار ؛ الواحدة عقبة ، تقول منه : عقبت السهم والقدح والقوس : إذا لويت شيئاً منه عليه . (ع)

﴿هذه﴾ إشارة إلى السورة أو إلى الآيات القريبة ﴿فمن شاء﴾ فمن اختار الخير لنفسه وحسن العاقبة واتخاذ السبيل إلى الله عبارة عن التقرب إليه والتوسل بالطاعة ﴿وما يشاؤن﴾ الطاعة [١] ﴿إلا أن يشاء الله﴾ بقسرهم عليها [٢] ﴿إنّ الله كان عليما﴾ بأحوالهم وما يكون منهم ﴿حكيما﴾ حيث خلقهم مع علمه بهم. وقرئ: تشاؤن، بالتاء. فإن قلت: ما محل (أن يشاء الله)؟ قلت النصب على الظرف، وأصله: إلا وقت مشيئة الله، وكذلك قراءة ابن مسعود: إلا ما يشاء الله: لأنّ (ما) مع الفعل كأن معه ﴿يدخل من يشاء﴾ هم المؤمنون ونصب ﴿الظالمين﴾ بفعل يفسره. أعدّ لهم، نحو: أوعد وكافأ، وما أشبه ذلك. وقرأ ابن مسعود: وللظالمين، على: وأعدّ للظالمين وقرأ ابن الزبير: والظالمون على الابتداء، وغيرها أولى لذهاب الطباق بين الجملة المعطوفة والمعطوف عليها فيها، مع مخالفتها للمصحف.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريرا» [٣].

---

(١) قال محمود: «ومعناه وما تشاؤن الطاعة إلا أن يشاء الله ... الخ» قال أحمد: وهذا من تحريفاته للنصوص وتسوره على خزائن الكتاب العزيز، كدأب الشطار واللصوص، فلنقطع يد حجته التي أعدها، وذلك حكم هذه السرقة وحدها، فنقول: الله تعالى نفى وأثبت على سبيل الحصر الذي لا حصر ولا نصر أوضح منه. ألا ترى أن كلمة التوحيد اقتصر بها على النفي والاثبات؛ لأن هذا النظم أعلق شيء بالحصر وأدله عليه، فنفى الله تعالى أن يفعل العبد شيئا له فيه اختيار ومشيئة، إلا أن يكون الله تعالى قد شاء ذلك الفعل؛ فمقتضاه مالم يشأ الله وقوعه من العبد لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه وقع، وهو رديف: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ وانظر إدخاله القسر في تعطيل الآية لا تأويلها كيف ناقض به؛ فإن معنى الآية عنده: أن مشيئة العبد الفعل لا تكون إلا إذا قسره الله عليها، والقسر مناف للمشيئة؛ فصار الحاصل أن مشيئة العبد لا توجد إلا إذا انتفت؛ فإذا لامشيئة للعبد البتة ولا اختيار، وما هو إلا فر من إثبات قدرة للعبد غير مؤثرة ومشيئة غير خالقة، ليتم له إثبات قدرة ومشيئة مؤثرين؛ فوقع في سلب القدرة والمشيئة أصلا ورأسا، وحيث لزم الحيد عن الاعتزال: انحرف بالكلية إلى الطرف الأقصى متحيزاً إلى الجبر، فيابعد ما توجه بسوء نظره. والله الموفق.

(٢) قوله «إلا أن يشاء الله أن يقسرهم عليها» إرادته تعالى تستلزم وجود المراد، ولكن لا تستلزم كون العبد مقسوراً ومجبوراً على الفعل إلا عند المعتزلة. وأما أهل السنة فقد أثبتوا للعبد الكسب، مع كون الله هو الخالق للفعل عندهم؛ وتفصيل ذلك في التوحيد. (ع)

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.

سورة المرسلات

مكية ، [إلا آية ٤٨ فمدنية] وآياتها ٥٠ [نزلت بعد الهمزة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)

أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة ، أرسلهنّ بأوامره فعصفن فى مضيهن كما تعصف الرياح ، تخففاً فى امتثال أمره ، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى . أو نشرن الشرائع فى الأرض . أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ، ففرّقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكراً إلى الأنبياء ﴿عذرا﴾ للمحقين ﴿أو نذرا﴾ للمبطلين . أو أقسم برياح عذاب أرسلهن . فعصفن ، وبرياح رحمة نشرن السحاب فى الجوّ ففرّقن بينه ، كقوله : (ويجعله كسفا) أو بسحائب نشرن الموات ، ففرّقن بين من يشكر لله تعالى وبين من يكفر ، كقوله (لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه) فألقين ذكراً إمّا عذراً للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله فى الغيث ويشكرونها ، وإما إنذاراً للذين يغفلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء ، وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سبباً فى حصوله إذا شكرت النعمة فيهن أو كفرت . فإن قلت : ما معنى عرفا ؟ قلت : متتابعة كشعر العرف[1] . يقال : جاؤا عرفا واحدا ؛ وهم عليه كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه ، ويكون بمعنى العرف الذى هو نقيض النكر ؛ وانتصابه على أنه مفعول له ، أى : أرسلن للإحسان والمعروف ؛ والأول على الحال . وقرئ : عرفا على التثقيل ، نحو نكر فى نكر . فإن قلت : قد فسرت المرسلات بملائكة العذاب ، فكيف يكون إرسالهم معروفا ؟ قلت : إن لم يكن معروفا للكفار فإنه معروف للأنبياء والمؤمنين الذين انتقم الله لهم منهم . فإن قلت : ما العذر والنذر ، وبما انتصبا ؟ قلت : هما مصدران من أعذر إذا محا الإساءة ، ومن أنذر إذا خوّف على

---

(١) قوله « كشعر العرف » فى الصحاح « العرف » : عرف الفرس . وقوله تعالى (والمرسلات عرفا) يقال : هو مستعار من عرف الفرس ، أى : يتتابعون كعرف الفرس . وفيه « تألبوا » : تجمعوا . (ع)

فعل، كالكفر والشكر، ويجوز أن يكون جمع عذير، بمعنى المعذرة؛ وجمع نذير بمعنى الإنذار. أو بمعنى العاذر والمنذر. وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرا على الوجهين الأولين. أو على المفعول له. وأما على الوجه الثالث فعلى الحال بمعنى عاذرين أو منذرين. وقرئا: مخففين ومثقلين.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

إن الذى توعدونه من مجيء يوم القيامة لكائن نازل لا ريب فيه، وهو جواب القسم. وعن بعضهم: أن المعنى: ورب المرسلات ﴿طمست﴾ محيت ومحقت. وقيل: ذهب بنورها ومحق ذواتها، موافق لقوله (انتثرت) و (انكدرت) ويجوز أن يمحق نورها ثم تنتثر ممحوقة النور ﴿فرجت﴾ فتحت فكانت أبوابا. قال الفارجى: باب الأمير المبهم ﴿نسفت﴾ كالحب إذا نسف بالمنسف. ونحوه (وبست الجبال بسا)، (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) وقيل: أخذت بسرعة من أماكنها، من انتسفت الشيء إذا اختطفته. وقرئت: طمست: وفرجت ونسفت مشددة. قرئ: أقتت. ووقتت، بالتشديد والتخفيف فيهما. والأصل: الواو. ومعنى توقيت الرسل: تبيين وقتها الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم. والتأجيل: من الأجل، كالتوقيت: من الوقت ﴿لأى يوم أجلت﴾ تعظيم لليوم، وتعجيب من هوله ﴿ليوم الفصل﴾ بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق. والوجه أن يكون معنى وقتت: بلغت ميقاتها الذى كانت تنتظره: وهو يوم القيامة. وأجلت: أخرت. فإن قلت: كيف وقع النكرة مبتدأ فى قوله ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾؟ قلت: هو فى أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله، ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه. ونحوه (سلام عليكم) ويجوز: ويلا، بالنصب؛ ولكنه لم يقرأ به. يقال: ويلا له ويلا كيلا.

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

قرأ قتادة: نهلك، بفتح النون، من هلكه بمعنى أهلكه. قال العجاج:

* وَمَهْمَهٍ هَالِكِ مَنْ تَعَرَّجَا * (١)

﴿ثم نتبعهم﴾ بالرفع على الاستئناف ، وهو وعيد لأهل مكة . يريد : ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم . ويقويها قراءة ابن مسعود . ثم سنتبعهم . وقرئ بالجزم للعطف على نهلك . ومعناه : أنه أهلك الأولين من قوم نوح وعاد وثمود ، ثم أتبعهم الآخرين من قوم شعيب ولوط وموسى ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نفعل﴾ بكل من أجرم إنذارا وتحذيرا من عاقبة الجرم وسوء أثره .

أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)

﴿إلى قدر معلوم﴾ إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به : وهو تسعة الأشهر ، أو مادونها ، أو ما فوقها ﴿فقدرنا﴾ فقدّرنا ذلك تقديرا ﴿فنعم القادرون﴾ فنعم المقدّرون له نحن . أو فقدرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن ؛ والأول أولى لقراءة من قرأ : فقدّرنا بالتشديد ، ولقوله (من نطفة خلقه فقدّره) .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)

الكفات : من كفت الشيء إذا ضمه وجمعه : وهو اسم ما يكفت ، كقولهم : الضمام والجماع لما يضم ويجمع ، يقال : هذا الباب جماع الأبواب ، وبه انتصب ﴿أحياء وأمواتا﴾ كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتا . أو بفعل مضمر يدل عليه وهو تكفت . والمعنى : تكفت أحياء على ظهرها ، وأمواتا في بطنها . وقد استدل بعض أصحاب الشافعي رحمه الله على قطع النباش بأن الله تعالى جعل الأرض كفاتا للأموات ، فكان بطنها حرزا لهم ؛ فالنباش سارق من الحرز . فإن قلت : لم قيل أحياء وأمواتا على التنكير ، وهي كفات الأحياء والأموات جميعا ؟ قلت :

---

(١) ومهمه هالك من تعرجا لا يرتجى الخريت منها مخرجا

للعجاج . والمهمه : المفازة القفرة . ويقال : أهلكه وهلكه . ومنه : هالك من تعرج . وعرج وتعرج : إذا نزل في المكان . والخريت : الدليل العارف بالطرق الضيقة ، ولو مثل خرت الابرة ، أي ؛ لا يرجو الدليل مخرجا منها إذا ولجها ، فما بال غيره ، وهو مع ذلك قطعه بالسير .

هو من تنكير التفخيم ،كأنه قيل : تكفت أحياء لا يعدون وأمواتا لا يحصرون ، على أنّ أحياء الإنس وأمواتهم ليسوا بجميع الأحياء والأموات. ويجوز أن يكون المعنى : تكفتكم أحياء وأمواتا ، فينتصبا على الحال من الضمير ؛ لأنه قد علم أنها كفات الإنس . فإن قلت : فالتنكير في ﴿رواسى شامخات﴾ و ﴿ماء فراتا﴾ ؟ قلت : يحتمل إفادة التبعيض ؛ لأنّ في السماء جبالا قال الله تعالى (وننزل من السماء من جبال فيها من برد) وفيها ماء فرات أيضا ، بل هي معدنه ومصبه ، وأن يكون للتفخيم .

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧)

أي يقال لهم : انطلقوا إلى ما كذبتم به من العذاب ، وانطلقوا الثاني تكرير . وقرئ : انطلقوا على لفظ الماضي إخباراً بعد الأمر عن عملهم بموجبه ، لأنهم مضطرون إليه لا يستطيعون امتناعا منه ﴿إلى ظل﴾ يعني دخان جهنم ، كقوله : وظل من يحموم ﴿ذي ثلاث شعب﴾ يتشعب لعظمه ثلاث شعب ، وهكذا الدخان العظيم تراه يتفرق ذوائب . وقيل : يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب ، فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم ؛ والمؤمنون في ظل العرش ﴿لا ظليل﴾ تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ﴿ولا يغنى﴾ في محل الجر ، أي : وغير مغن عنهم من حرّ اللهب شيئا ﴿بشرر﴾ وقرئ : بشرار ﴿كالقصر﴾ أي كل شررة كالقصر من القصور في عظمها . وقيل : هو الغليظ من الشجر، الواحدة قصرة ، نحو : جمرة وجمر . وقرئ : كالقصر ، بفتحتين : وهي أعناق الإبل ، أو أعناق النخل ، نحو شجرة وشجر . وقرأ ابن مسعود : كالقصر بمعنى القصور ، كرهن ورهن . وقرأ سعيد ابن جبير : كالقصر في جمع قصرة ، كحاجة وحوج ﴿جمالات﴾ جمع جمال . أو جمالة جمع جمل ؛ شبهت بالقصور ، ثم بالجمال لبيان التشبيه . ألا تراهم يشبهون الإبل بالأفدان والمجادل [1] . وقرئ : جمالات ، بالضم : وهي قلوس الجسور . وقيل : قلوس سفن البحر ، الواحدة جمالة .

(١) قوله «بالأفدان والمجادل» جمع فدن وجمع مجدل ، وكلاهما بمعنى القصر ، كذا في الصحاح . وفيه أيضا «الجسر» بالفتح : العظيم من الابل . وفيه «القلس» : حبل ضخم من قلوس السفن . (ع)

وقرئ : جمالة ، بالكسر ، بمعنى : جمال ، وجمالة بالضم : وهى القلس . وقيل ﴿صفر﴾ لإرادة الجنس . وقيل (صفر) : سود ، تضرب إلى الصفرة . وفى شعر عمران بن حطان الخارجى :

دَعَتْهُمْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَرَمَتْهُمُ بِمِثْلِ الْجِمَالِ الصُّفْرِ نَزَّاعَةُ الشَّوَى (١)

وقال أبو العلاء :

حَمْرَاء سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ فِى الدُّجَى تَرْمِى بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ (٢)

فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم فى العظم والحمرة ، وكأنه قصد بخبثه : أن يزيد على تشبيه القرآن ولتبجحه بما سوّل له من توهم الزيادة جاء فى صدر بيته بقوله «حمراء» توطئة لها ومناداة عليها ، وتنبيها للسامعين على مكانها ، ولقد عمى : جمع الله له عمى الدارين عن قوله عز وعلا ، كأنه جمالات صفر ؛ فإنه بمنزلة قوله : كبيت أحمر ؛ وعلى أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين : من جهة العظم ، ومن جهة الطول فى الهواء . وفى التشبيه بالجمالات وهى القلوس : تشبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله إغرابه فى طرافه وما نفخ شدقيه من استطرافه .

قرئ بنصب اليوم ، ونصبه الأعمش ، أى : هذا الذى قص عليكم واقع يومئذ ، ويوم القيامة طويل ذو مواطن ومواقيت : ينطقون فى وقت ولا ينطقون فى وقت ؛ ولذلك ورد الأمران فى القرآن . أو جعل نطقهم كلا نطق ؛ لأنه لا ينفع ولا يسمع ﴿فيعتذرون﴾ عطف

---

(١) لعمرو بن حطان يصف جهنم . وشبهها فى اختطافها الكفار بلهبها وكلاليبها بعاقل يصح منه الدعاء على سبيل المكنية ، فالدعاء والرمى : تخييل ، والصوت ترشيح . ويجوز أنها تفعل ذلك حقيقة ، كقولها (هل من مزيد) وقال ابن عباس : تدعو الناس بأسمائهم بلسان فصيح وتقول : إلىّ إلىّ ، فتلتقطهم كما يلقط الطير الحب ، ثم قال : ورمتهم بشرر مثل الجبال الصفر . والمراد التى يرهق سوادها صفرة . ونزاعة للشوى : فاعل . والشوى : اسم جمع شواة ، وهى الشواية : البقية القليلة من اللحم ونحوه ؛ وتصغر شواية على شوية لزيادة التحقير . ويحتمل أن «شوية» تصغير شىء ، قلبت ياؤه واواً وقلبت همزته ياء وألحق التاء المثناة . وقيل الشوى : الأطراف والجلد . وقيل : كل ما ليس مقتلا للانسان ، يعنى أنها تنزع جلود أهلها وأطرافهم ، لكن يبدلون غيرها ؛ والألف فى قافية البيت للاطلاق .

(٢) الموقدى نار القرى الآصال والاسحار بالأهضام والاشعاف
حمراء ساطعة الذوائب فى الدجى ترمى بكل شرارة كطراف

لأبى العلاء المعرى يصف قوما بالكرم ، والموقدى حذفت نونه بالاضافة لمفعوله . والآصال : جمع أصيل ، نصب على الظرفية ، أى : يوقدن النار فى الآصال للعشاء . وفى الأسحار لتعجيل الغداء . والأهضام : المواضع المطمئنة . والأشعاف : أعالى الجبل ، حمراء : حال من النار . وذوائبها : أطراف لهبها فى الدجى ، أى : الظلم ، ترمى : جملة حالية . وشبه الشرارة بالطراف : وهو بيت من أدم فى العظم والحمرة ، وإذا كانت الشرارة كذلك فكيف النار كلها؟

على (يؤذن) منخرط فى سلك النفى . والمعنى : ولا يكون لهم إذن واعتذار متعقب له ، من غير أن يجعل الاعتذار مسببا عن الإذن . ولو نصب لكان مسببا عنه لا محالة .

هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥)

﴿جمعناكم والأولين﴾ كلام موضح لقوله (هذا يوم الفصل) لأنه إذا كان يوم الفصل بين السعداء والأشقياء وبين الأنبياء وأممهم . فلا بدّ من جمع الأولين والآخرين ، حتى يقع ذلك الفصل بينهم ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه ، وتسجيل عليهم بالعجز والاستكانة ﴿كلوا واشربوا﴾ فى موضع الحال من ضمير المتقين ، فى الظرف الذى هو فى ظلال ، أى : هم مستقرون فى ظلال ، مقولا لهم ذلك .

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

و ﴿كلوا وتمتعوا﴾ حال من المكذبين ، أى الويل ثابت لهم فى حال ما يقال لهم كلوا وتمتعوا فإن قلت : كيف يصح أن يقال لهم ذلك فى الآخرة ؟ قلت : يقال لهم ذلك فى الآخرة إيذانا بأنهم كانوا فى الدنيا أحقاء بأن يقال لهم ، وكانوا من أهله تذكيرا بحالهم السمجة وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل على النعيم والملك الخالد . وفى طريقته قوله :

إِخْوَتِى لَا تَبْعَدُوا أَبَدًا وَبَلَى وَاللَّهِ قَدْ بَعِدُوا [1]

يريد : كنتم أحقاء فى حياتكم بأن يدعى لكم بذلك ، وعلل ذلك بكونهم مجرمين دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياما قلائل ، ثم البقاء فى الهلاك أبدا . ويجوز أن يكون (كلوا وتمتعوا) كلاما مستأنفا خطابا للمكذبين فى الدنيا ﴿اركعوا﴾ اخشعوا لله وتواضعوا له بقبول

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثانى صفحة ٤٠٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وحيه واتباع دينه . واطرحوا هذا الاستكبار والنخوة ، لايخشعون ولا يقبلون ذلك ، ويصرون على استكبارهم . وقيل : ما كان على العرب أشدّ من الركوع والسجود : وقيل : نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة ، فقالوا : لانجبي [1] فإنها مسبة [2] علينا . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : لاخير في دين ليس فيه ركوع ولاسجود ﴿بعده﴾ بعد القرآن ، يعني أنّ القرآن من بين الكتب المنزلة آية مبصرة ومعجزة باهرة ، فحين لم يؤمنوا به فبأي كتاب بعده ﴿يؤمنون﴾ وقرئ : تؤمنون ، بالتاء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين» [3]

ســـــورة عمّ يتساءلون

مكية ، وتسمى سورة النبإ ، وهى أربعون ، أو إحدى وأربعون آية

[نزلت بعد المعارج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

﴿عمّ﴾ أصله عما ، على أنه حرف جر دخل على ما الاستفهامية ، وهو في قراءة عكرمة وعيسى بن عمر . قال حسان رضى الله عنه :

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ [4]

---

(١) قوله «فقالوا لا نجبي» نجبي من التجبية : وهى الانحناء اه . (ع)

(٢) هكذا ذكره الثعلبي . وأخرجه أبو داود وأحمد وابن أبي شيبة والطبراني من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به وأتم منه .

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب .

(٤) على ما قام يشتمني لئيم كخنزير تمرغ في رماد
وتلقاه على ما كان فيه من الهفوات أونوك الفؤاد
جبين النبي لا ينبي عليه ويثني بعد عن سبل الرشاد

لحسان بن المنذر . وقيل : ابن ثابت ، يهجو أحد بني عائذ بن عمرو بن مخزوم . وما استفهام إنكاري وكان حقها =

والاستعمال الكثير على الحذف ، والأصل : قليل . ومعنى هذا الاستفهام : تفخيم الشأن ، كأنه قال : عن أى شأن يتساءلون . ونحوه ما فى قولك : زيد مازيد[1] ؟ جعلته لانقطاع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفى عليك جنسه فأنت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره ، كما تقول : ماالغول وما العنقاء ؟ تريد : أى شيء هو من الأشياء هذا أصله ؛ ثم جرد للعبارة عن التفخيم[2] ، حتى وقع فى كلام من لا تخفى عليه خافية ﴿يتساءلون﴾ يسأل بعضهم بعضا . أو يتساءلون غيرهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . نحو : يتداعونهم ويتراءونهم . والضمير لأهل مكة : كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ، ويتساءلون غيرهم عنه على طريق الاستهزاء ﴿عن النبإ العظيم﴾ بيان للشأن المفخم . وعن ابن كثير أنه قرأ : عمه ، بهاء السكت ، ولا يخلو : إما أن يجرى الوصل مجرى الوقف وإما أن يقف ويبتدئ (يتساءلون عن النبإ العظيم) على أن يضمر (يتساءلون) لأن ما بعده يفسره ، كشيء يبهم ثم يفسر . فإن قلت : قد زعمت أن الضمير فى يتساءلون للكفار ، فما تصنع بقوله ﴿هم فيه مختلفون﴾ ؟ قلت : كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ، ومنهم من يشك . وقيل : الضمير للمسلمين والكافرين جميعا ، وكانوا جميعاً يسألون عنه . أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا ، وأما الكافر فليزداد استهزاء . وقيل : المتساءل عنه القرآن . وقيل : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرئ : يسّاءلون بالإدغام ، وستعلمون بالتاء .

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

﴿كلا﴾ ردع للمتسائلين هزؤا . و ﴿سيعلمون﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون أن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق ، لأنه واقع لا ريب فيه . وتكرير الردع مع الوعيد تشديد فى ذلك . ومعنى ﴿ثم﴾ الإشعار بأن الوعيد الثانى أبلغ من الأول وأشد .

= حذف الألف لدخول حرف الجر عليها ، وثبوتها قليل ، أى : على أى شيء يسبنى لئيم مثل الخنزير المتمرغ فى الرماد لذله . ويروى : فى دمان كرماد وزنا ومعنى . أو بمعنى الدمنة وهى الكناسة المختلطة بالبعر ؛ ولعل ابن ثابت غيره وإلا فقصيدة ابن المنذر دالية لا نونية . والنوك : الحمق والهوج . والفؤاد : القلب والعقل ، أى : وتلقاه مع ما ثبت فيه من الخلل لا يخفى عليه الغى المبين ، أى : يرتكب طريقه ولا يعرف سبل الرشاد . ومعنى البعدية : تفاوت ما بين الخبرين . وغبا عليه الشيء ـ كرضى ـ : خفى عليه . وغبى هو عن الشيء ـ كرضى أيضا ـ : عجز عن معرفته . وفى قوله «لا يغبى ... الخ» طباق الايجاب والسلب .

(١) قال محمود : «معنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن ، كأنه قيل : عن أى شيء يتساءلون ونحوه ما فى قولك ... الخ» قال أحمد : وقد أكثرت أم زرع من هذا التفخيم فى قولها : وأبوزرع ما أبوزرع ، إلى آخر حديثها .

(٢) قال محمود : «هذا أصله ، ثم جرد للدلالة على التفخيم ... الخ» قال أحمد : لأن بعضهم يشك فى البعث ، وبعضهم يبت النفى ؛ ومن ثم قيل الضمير للمسلمين والكافرين ، فسؤال المسلمين ليزدادوا خشية ، وإنما سؤال الكفار لزيادة الاستهزاء والكفر .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

فإن قلت : كيف اتصل به قوله ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾[1] قلت : لما أنكروا البعث قيل لهم : ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة الدالة على كمال القدرة ، فاوجه إنكار قدرته على البعث ، وماهو إلا اختراع كهذه الاختراعات . أوقيل لهم : ألم يفعل هذه الأفعال المتكاثرة . والحكيم لايفعل فعلا عبثا ، وما تنكرونه من البعث والجزاء مؤدّ إلى أنه عابث فى كل مافعل (مهادا) فراشا . وقرئ : مهدا . ومعناه : أنها لهم كالمهدللصبى : وهو مايمهد له فينوم عليه ، تسمية الممهود بالمصدر ، كضرب الأمير . أو وصفت بالمصدر . أو بمعنى : ذات مهد ، أى : أرسيناها بالجبال كما يرسى البيت بالأوتاد ﴿سباتا﴾ موتا . والمسبوت : الميت ، من السبت وهو القطع ؛ لأنه مقطوع عن الحركة . والنوم : أحد التوفيين ،وهو على بناء الأدواء. ولما جعل النوم موتا ، جعل اليقظة معاشا ، أى : حياة فى قوله (وجعلنا النهار معاشا) أى : وقت معاش تستيقظون فيه وتتقلبون فى حوائجكم ومكاسبكم . وقيل : السبات الراحة ﴿لباسا﴾ يستركم عن العيون إذا أردتم هربا من عدوّ ، أو بياتا له . أو إخفاء مالا تحبون الاطلاع عليه من كثير من الأمور .

وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ ... تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ[2]

---

(١) قال محمود : «فإن قلت : كيف اتصال قوله (ألم نجعل الأرض مهادا) بما قبله ... الخ» قال أحمد : جوابه الأول سديد ، وأما الثانى فغير مستقيم ، فإنه مفرع على المذهب الأعوج فى وجوب مراعاة الصلاح والأصلح ، واعتقاد أن الجزاء واجب على الله تعالى عقلا ثوابا وعقابا بمقتضى إيجاب الحكمة . وقد فرغ من إبطال هذه القاعدة .

(٢) وكم لظلام الليل عندك من يد ... تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسرى إليهم ... وزارك فيه ذو الدلال المحجب

لأبى الطيب . وكم خبرية للتكثير . واليد : النعمة . وتخبر : تدل مجازاً مرسلا . والمانوية طائفة تنسب الخير للنور والشر للظلام ؛ فكذبهم فى البيت الأول ، واستدل على ذلك ، وبين اليد فى الثانى . والدلال : تمنع المحبوب مع رضاه . وتسرى : حال ؛ والمحجب : نعت ذى الدلال ، وإيضاح مسألة المانوية . أنه لم يخالف فى أن الله واحد

﴿سبعا﴾ سبع سموات ﴿شدادا﴾ جمع شديدة، يعنى: محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان ﴿وهاجا﴾ متلألئا وقادا، يعنى: الشمس: وتوهجت النار: إذا تلمظت [1] فتوهجت بضوئها وحرها. المعصرات: السحائب إذا أعصرت، أى: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، كقولك: أجز الزرع، إذا حان له أن يجز. ومنه: أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض. وقرأ عكرمة: بالمعصرات، وفيه وجهان: أن تراد الرياح التى حان لها أن تعصر السحاب، وأن تراد السحائب؛ لأنه إذا كان الإنزال منها فهو بها، كما تقول: أعطى من يده درهما، وأعطى بيده. وعن مجاهد: المعصرات الرياح ذوات الأعاصير. وعن الحسن وقتادة: هى السموات. وتأويله: أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب، فكأنّ السموات يعصرن، أى: يحملن على العصر ويمكنّ منه. فإن قلت: فما وجه من قرأ (من المعصرات) وفسرها بالرياح ذوات الأعاصير، والمطر لا ينزل من الرياح؟ قلت: الرياح هى التى تنشئ السحاب وتدر أخلافه [2]، فصحّ أن تجعل مبدأ للإنزال: وقد جاء أنّ الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب، فإن صحّ ذلك فالإنزال منها ظاهر. فإن قلت: ذكر ابن كيسان [3] أنه جعل المعصرات بمعنى المغيثات، والعاصر هو المغيث لا المعصر. يقال: عصره فاعتصر. قلت: وجهه أن يريد اللاتى أعصرن، أى حان لها أن تعصر، أى: تغيث ﴿ثجاجا﴾ منصبا بكثرة. يقال: ثجه وثج نفسه وفى الحديث: «أفضل الحج: العجّ والثجّ» [4] أى رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء الهدى. وكان ابن عباس مثجاً يسيل غربا، يعنى يثج الكلام ثجا فى خطبته. وقرأ الأعرج: ثجاجا. ومثاجج الماء: مصابه، والماء ينثجج فى الوادى ﴿حبا ونباتا﴾ يريد ما يتقوت من الحنطة والشعير وما يعتلف من التبن والحشيش، كما قال (كلوا وارعوا أنعامكم)، (والحب

= إلا الثنوية. قالوا: نجد فى العالم خيراً كثيراً وشراً كثيراً، والواحد لا يكون خيراً شريراً، فلكل من الخير والشر فاعل مستقل، فالمانوية والديصانية من الثنوية قالوا: فاعل الخير هو النور، وفاعل الشر هو الظلمة، واعتقدوا أنهما جسمان قديمان حساسان سميعان بصيران. والمجوس من الثنوية أيضاً قالوا: إن فاعل الخير هو: يزدان. وفاعل الشر هو: أهرمن، يعنون به الشيطان، وكل ذلك ظاهر البطلان.

(١) قوله «وتوهجت النار إذا تلمظت» فى الصحاح «توهجت النار» توقدت. وتوهج الجوهر: تلألأ؛ فقوله: فتوهجت ... الخ: يعنى جمعت بين التلألؤ بضوئها، والتوقد بحرها، فتدبر. (ع)

(٢) قوله «وتدر أخلافه» واحدها خلف: وهو ثدى الناقة، كما يفيده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «فإن قلت ذكر ابن كيسان» لعله «ذكر عن ابن كيسان». (ع)

(٤) أخرجه الترمذى من حديث ابن عمر بمعناه. وضعفه إبراهيم بن يزيد الخوزى. وأخرجه هو وابن ماجه من رواية محمد بن المنكدر، عن عبدالرحمن ابن يربوع عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه مرفوعا نحوه. وقال لم يسمع ابن المنكدر عن عبدالرحمن بن يربوع.

ذو العصف والريحان) . ﴿ألفافا﴾ ملتفة ولا واحد له ، كالأوزاع والأخياف [١] . وقيل : الواحد لف . وقال صاحب الإقليد : أنشدني الحسن بن علي الطوسي :

جَنَّةٌ لِفٌّ وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهُرْ [٢]

وزعم ابن قتيبة أنه لفاء ولف ، ثم ألفاف : وما أظنه واجداً له نظيرا من نحو خضر وأخضار وحمر وأحمار ، ولو قيل : هو جمع ملتفة بتقدير حذف الزوائد ، لكان قولا وجيها .

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

﴿كان ميقاتا﴾ كان في تقدير الله وحكمه حداً توقت به الدنيا وتنتهى عنده ؛ أو حدا للخلائق ينتهون إليه ﴿يوم ينفخ﴾ بدل من يوم الفصل ، أو عطف بيان ﴿فتأتون أفواجا﴾ من القبور إلى الموقف أمما كل أمة مع إمامهم . وقيل : جماعات مختلفة . وعن معاذ رضي الله عنه أنه سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور ، ثم أرسل عينيه وقال : تحشر عشرة أصناف من أمتي : بعضهم على صورة القردة ، وبعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منكسون : أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عميا ، وبعضهم صما بكما ، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم : يسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتناً من الجيف ، وبعضهم ملبسون جبابا سابغة من قطران لازقة بجلودهم ؛ فأما الذين على صورة القردة فالقتات من الناس . وأما الذين على صورة الخنازير : فأهل السحت . وأما المنكسون على وجوههم فأكلة الربا ، وأما العمى فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم البكم فالمعجبون بأعمالهم ، وأما الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء والقصاص الذين خالف قولهم

---

(١) قوله «كالأوزاع والأضياف» في الصحاح «أوزاع من الناس» أي : جماعات . والأوزاع : بطن من همدان . وفيه «الناس أضياف» أي : مختلفون . وإخوة أضياف ، إذا كانت أمهم واحدة ، والآباء شتى . (ع)

(٢) للحسن بن علي الطوسي . واللف ـ بالكسر ـ : الملتف أريد به الملتفة لتكاثف أشجارها وأوراقها . والمغدق الكثير الواسع . والبيض : مجاز عن الأخيار . ويجوز أنه على ظاهره . ورجل أزهر : مشرق الوجه ، فالزهر : المشرقو الوجوه ، كأحمر وحمر ، يعني : أن ندماءه خيار حسان الخصال . أو بيض حسان الوجوه . والمطرد في جمع أفعل وفعلاء على فعل : سكون العين . ويجوز في الشعر ضمها فيما صحت عينه ولامه ولم يضعف كما هنا ، وكما في قوله : * وأنكرتني ذوات الأعين النجل * على أنه يجوز للشاعر تحريك الساكن بحركة ما قبله للوزن ، ويجوز تحريكه بحركة ما بعده إذا سكن للوقف ، فيكون بفتح الهاء ، كغرفة وغرف .

أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون الجيران ، وأما المصلبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله فى أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء»[1] وقرئ : وفتحت ، بالتشديد والتخفيف . والمعنى : كثرة أبوابها المفتحة لنزول الملائكة ، كأنها ليست إلا أبوابا مفتحة ، كقوله (وفجرنا الأرض عيونا) كأن كلها عيون تتفجر . وقيل : الأبواب الطرق والمسالك ، أى . تكشط فينفتح مكانها وتصير طرقا لا يسدها شىء ﴿فكانت سرابا﴾ كقوله (فكانت هباء منبثا) يعنى أنها تصير شيئاً كلا شىء ، لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَئَابًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

المرصاد : الحد الذى يكون فيه الرصد . والمعنى : أن جهنم هى حد الطاغين الذى يرصدون فيه للعذاب وهى مآبهم . أو هى مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها ، لأن مجازهم عليها ، وهى مآب للطاغين . وعن الحسن وقتادة نحوه ، قالا : طريقاً وممراً لأهل الجنة . وقرأ ابن يعمر : أن جهنم ، بفتح الهمزة على تعليل قيام الساعة بأن جهنم كانت مرصاداً للطاغين ، كأنه قيل : كان ذلك لإقامة الجزاء . قرئ : لابثين ولبثين ، واللبث أقوى ، لأن اللابث من وجد منه اللبث ، ولا يقال «لبث» إلا لمن شأنه اللبث ، كالذى يجثم بالمكان لا يكاد ينفك منه ﴿أحقابا﴾ حقبا[2] بعد حقب ، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية ، ولا يكاد يستعمل الحقب والحقبة إلا حيث يراد تتابع الأزمنة وتواليها ، والاشتقاق يشهد لذلك . ألا ترى إلى

(١) أخرجه الثعلبى وابن مردويه من رواية محمد بن زهير عن محمد بن المهدى عن حنظلة السدوسى عن أبيه عن البراء بن عازب عنه بطوله .

(٢) قوله «وأحقابا» فى الصحاح «الحقب» بالضم : ثمانون سنة . والحقبة - بالكسر - : واحدة الحقب ، وهى السنون . والحقب : الدهر ، والأحقاب : الدهور . (ع)

حقيبة الراكب، والحقب الذى وراء التصدير [1] وقيل: الحقب ثمانون سنة، ويجوز أن يراد: لابثين فيها أحقابا غير ذائقين فيها بردا ولا شرابا إلا حميا وغساقا، ثم يبدلون بعد الأحقاب غير الحميم والغساق من جنس آخر من العذاب. وفيه وجه آخر: وهو أن يكون من «حقب عامنا» إذا قل مطره وخيره، وحقب فلان: إذا أخطأه الرزق، فهو حقب، وجمعه أحقاب، فينتصب حالا عنهم، يعنى لابثين فيها حقبين [2] جحدين. وقوله ﴿لايذوقون فيها بردا ولاشرابا﴾ تفسير له والاستثناء منقطع، يعنى: لايذوقون فيها بردا وروحا ينفس عنهم حر النار، ولاشرابا يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميا وغساقا وقيل «البرد» النوم، وأنشد:

فَلَوْ شِئْتُ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ ... وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا وَلاَ بَرْدَا [3]

وعن بعض العرب: منع البرد البرد [4]. وقرئ: غساقا، بالتخفيف والتشديد: وهو ما يغسق، أى: يسيل من صديدهم ﴿وفاقا﴾ وصف بالمصدر. أوذا وفاق. وقرأ أبو حيوة: وفاقا، فعال من وفقه كذا ﴿كذابا﴾ تكذيبا، وفعال فى باب فعل كله فاش فى كلام فصحاء من العرب لا يقولون غيره؛ وسمعنى بعضهم أفسر آية فقال لقد فسرتها فسارا ما سمع بمثله. وقرئ بالتخفيف، وهو مصدر كذب، بدليل قوله:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا ... وَالْمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَابُهْ [5]

وهو مثل قوله (أنبتكم من الأرض نباتا) يعنى: وكذبوا بآياتنا فكذبوا كذابا. أو تنصبه بكذبوا، لأنه يتضمن معنى كذبوا، لأن كل مكذب بالحق كاذب، وإن جعلته بمعنى المكاذبة فمعناه: وكذبوا بآياتنا، فكاذبوا مكاذبة. أوكذبوا بها مكاذبين، لأنهم إذا كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون عندهم كاذبين فبينهم مكاذبة. أولأنهم يتكلمون بما هو إفراط فى الكذب فعل من يغالب فى أمر، فيبلغ فيه أقصى جهده. وقرئ: كذابا، وهو جمع كاذب، أى: كذبوا

---

(١) قوله «والحقب الذى وراء التصدير» فى الصحاح «والتصدير»: الحزام، وهو فى صدر البعير، والحقب عند الثيل. وفيه «الثيل»: وعاء قضيب البعير. (ع)

(٢) قوله «لابثين فيها حقبين» لعله حقبين من حقب بالكسر كجحدين من جحد: إذا كان ضيقا قليل الخير فيهما، أفاده الصحاح. (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٩٤ فراجعه إن شئت اه مصححه.

(٤) قوله «منع البرد البرد» أى: منع البرد النوم. (ع)

(٥) الكذاب - ككتاب -: مصدر مضاف لفاعله. وصدقتها وكذبتها - بتخفيفها - بمعنى: قلت لها قولا صادقا تارة، وقولا كاذبا تارة أخرى. أوقلت لها: أنت صادقة تارة، وأنت كاذبة تارة. والضمير لنفسه أو صاحبته مثلا. وعلل ذلك بأن الكذب قد ينفع.

بآياتنا كاذبين ؛ وقد يكون الكذاب بمعنى الواحد البليغ فى الكذب . يقال : رجل كذاب ، كقولك : حسان ، وبخال ؛ فيجعل صفة لمصدر كذبوا ، أى : تكذيبا كذابا مفرطا كذبه ، وقرأ أبو السمال : وكل شيء أحصيناه ، بالرفع على الابتداء (كتابا) مصدر فى موضع إحصاء وأحصينا فى معنى كتبنا ، لالتقاء الإحصاء ، والكتبة فى معنى الضبط والتحصيل . أو يكون حالا فى معنى : مكتوبا فى اللوح وفى صحف الحفظة . والمعنى : إحصاء معاصيهم ، كقوله : (أحصاه الله ونسوه) وهو اعتراض . وقوله ﴿فذوقوا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ، وهى آية فى غاية الشدة ، وناهيك بلن نزيدكم ، وبدلالته على أن ترك الزيادة كالمحال الذى لا يدخل تحت الصحة . وبمجيئها على طريقة الالتفات شاهدا على أن الغضب قد تبالغ ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «هذه الآية أشد ما فى القرآن على أهل النار»[1] .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)

﴿مفازا﴾ فوزا وظفرا بالبغية . أو موضع فوز . وقيل : نجاة مما فيه أولئك . أو موضع نجاة . وفسر المفاز بما بعده . والحدائق : البساتين فيها أنواع الشجر المثمر . والأعناب : الكروم . والكواعب : اللاتى فلكت ثديهن[2] ، وهن النواهد . والأتراب : اللدات : والدهاق : المترعة . وأدهق الحوض : ملأه حتى قال قطنى . وقرئ : ولا كذابا ، بالتشديد والتخفيف ، أى : لا يكذب بعضهم بعضا . ولا يكذبه . أو لا يكاذبه . وعن على رضى الله عنه أنه قرأ بتخفيف الاثنين ﴿جزاء﴾ مصدر مؤكد منصوب بمعنى قوله (إن للمتقين مفازا) كأنه قال : جازى المتقين بمفاز . و ﴿عطاء﴾ نصب بجزاء نصب المفعول به . أى : جزاهم عطاء . و ﴿حسابا﴾ صفة بمعنى : كافيا . من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبى . وقيل : على حسب أعمالهم . وقرأ ابن قطيب : حسابا ، بالتشديد ، على أن الحساب بمعنى المحسب ، كالدراك بمعنى المدرك .

رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧)

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم والثعلبى من رواية جسر بن فرقد السبخى عن الحسن سألت أبا برزة الأسلمى فذكره وجسر ضعيف . ورواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب موقوفا .

(٢) قوله «فلكت ثديهن» فى الصحاح : «فلك ثدى الجارية تفليكا ، وتفلك : استدار . (ع)

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩)

قرئ : رب السموات . والرحمن : بالرفع ، على : هو رب السموات الرحمن . أورب السموات مبتدأ ، والرحمن صفة ، ولا يملكون : خبر . أوهما خبران . وبالجر على البدل من ربك ، وبجر الأول ورفع الثانى على أنه مبتدأ خبره (لا يملكون) . أوهو الرحمن لا يملكون . والضمير فى ﴿لا يملكون﴾ لأهل السموات والأرض ، أى : ليس فى أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به فى أمر الثواب والعقاب خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك ، فيزيدون فيه أو ينقصون منه . أولا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة فى الثواب ، إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه . و﴿يوم يقوم﴾ متعلق بلا يملكون . أو بلا يتكلمون . والمعنى : إنّ الذين هم أفضل الخلائق [1] وأشرفهم وأكثرهم طاعة وأقربهم منه وهم الروح والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه ، فما ظنك بمن عداهم من أهل السموات والأرض ؟ والروح : أعظم خلقاً من الملائكة وأشرف منهم وأقرب من رب العالمين . وقيل : هو ملك عظيم ماخلق الله بعد العرش خلقاً أعظم منه . وقيل : ليسوا بالملائكة ، وهم يأكلون . وقيل : جبريل . هما شريطتان : أن يكون المتكلم مأذوناً له فى الكلام . وأن يتكلم بالصواب فلا يشفع لغير مرتضى [2] ، لقوله تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠)

﴿المرء﴾ هو الكافر لقوله تعالى (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) والكافر : ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم . ويعنى ﴿ما قدّمت يداه﴾ من الشر ، كقوله (وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدّمت أيديكم) ، (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدّمت يداك) . (بما قدّمت

---

(١) قوله « إن الذين هم أفضل الخلائق » تفضيلهم على البشر مذهب المعتزلة ، ومذهب أهل السنة تفضيل البشر عليهم : والظاهر أن الروح كالملك فى هذا الخلاف ، فتدبر . (ع)

(٢) قال محمود : « وقف الشفاعة على شرطين ... الخ » قال أحمد : يعرض بأن الشفاعة لا تحل على مرتكبي الكبائر من الموحدين ، وقد صرح بذلك فى مواضع تقدمت له ، ويتلقى ذلك من أنها مخصوصة بالمرتضين ؛ وذوو الكبائر ليسوا مرتضين . ومن ثم أخطأ فان الله عز وجل ماخصهم بالإيمان والتوحيد وتوفاهم عليه ، إلا وقد ارتضاهم لذلك ، بدليل قوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم) فجعل الشكر بمعنى الإيمان المقابل للكفر ، مرضياً لله تعالى ، وصاحبه مرتضى .

أيديهم والله عليم بالظالمين) و (ما) يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدّمت ، أى ينظر أى شيء قدّمت يداه ، وموصولة منصوبة بينظر ، يقال : نظرته بمعنى نظرت إليه ، والراجع من الصلة محذوف . وقيل : المرء عام ، وخصص منه الكافر . وعن قتادة : هو المؤمن ﴿ياليتنى كنت ترابا﴾ فى الدنيا فلم أخلق ولم أكلف . أو ليتنى كنت ترابا فى هذا اليوم فلم أبعث . وقيل يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ، ثم يرده ترابا ، فيود الكافر حاله . وقيل : الكافر إبليس ، يرى آدم وولده وثوابهم ، فيتمنى أن يكون الشيء الذى احتقره حين قال (خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة عم يتساءلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة» .[١]

سورة النازعات

مكية ، وهى خمس أو ست وأربعون آية [نزلت بعد النبإ]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد ، وبالطوائف التى تنشطها

---

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بأسنادهم إلى أبي بن كعب .

أى تخرجها . من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها . وبالطوائف التى تسبح فى مضيها ، أى : تسرع فتسبق إلى ماأمروا به ، فتدبر أمراً من أمور العباد مما يصلحهم فى دينهم أودنياهم كما رسم لهم ﴿غرقا﴾ إغراقا فى النزع ، أى : تنزعها من أقاصى الأجساد من أناملها وأظفارها . أو أقسم بخيل الغزاة التى تنزع فى أعنتها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها ؛ لأنها عراب . والتى تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب من قولك «ثورناشط» إذا خرج من بلد إلى بلد . والتى تسبح فى جريها فتسبق إلى الغاية فتدبر أمر الغلبة والظفر ، وإسناد التدبير إليها ، لأنها من أسبابه . أو أقسم بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب . وإغراقها فى النزع : أن تقطع الفلك كله حتى تنحط فى أقصى الغرب ، والتى تخرج من برج إلى برج ، والتى تسبح فى الفلك من السيارة فتسبق فتدبر أمراً من علم الحساب . وقيل النازعات أيدى الغزاة ، أو أنفسهم تنزع القسىّ بإغراق السهام ، والتى تنشط الأوهاق [1] والمقسم عليه محذوف ، وهو «لتبعثن» لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة . و ﴿يوم ترجف﴾ منصوب بهذا المضمر . و﴿الراجفة﴾ الواقعة التى ترجف عندها الأرض والجبال ، وهى النفخة الأولى : وصفت بما يحدث بحدوثها ﴿تتبعها الرادفة﴾ أى الواقعة التى تردف الأولى ، وهى النفخة الثانية . ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى (قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) أى القيامة التى يستعجلها الكفرة استبعاداً لها ، وهى رادفة لهم لاقترابها . وقيل (الراجفة) الأرض والجبال ، من قوله (يوم ترجف الأرض والجبال) والرادفة : السماء والكواكب ؛ لأنها تنشق وتنتثر كواكبها على أثر ذلك . فإن قلت : ما محل تتبعها ؟ قلت : الحال ، أى : ترجف تابعتها الرادفة . فإن قلت : كيف جعلت (يوم ترجف) ظرفا للمضمر الذى هو لتبعثن ، ولا يبعثون عند النفخة الأولى ؟ قلت : المعنى : لتبعثنّ فى الوقت الواسع الذى يقع فيه النفختان ، وهم يبعثون فى بعض ذلك الوقت الواسع ، وهو وقت النفخة الأخرى . ودلّ على ذلك أنّ قوله (تتبعها الرادفة) جعل حالا عن الراجفة . ويجوز أن ينتصب (يوم ترجف) بما دلّ عليه ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ أى يوم ترجف وجفت القلوب ﴿واجفة﴾ شديدة الاضطراب ، والوجيب والوجيف : أخوان ﴿خاشعة﴾ ذليلة . فإن قلت : كيف جاز الابتداء بالنكرة ؟ قلت : (قلوب) مرفوعة بالابتداء ، و(واجفة) صفتها ، و(أبصارها خاشعة) خبرها فهو كقوله : (ولعبد مؤمن خير من مشرك) . فإن قلت : كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب ؟ قلت : معناه أبصار أصحابها بدليل قوله (يقولون) . ﴿فى الحافرة﴾ فى الحالة الأولى ، يعنون : الحياة بعد الموت . فإن قلت : ماحقيقة هذه الكلمة ؟ قلت : يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى : فى

---

(١) قوله «تنشط الأوهاق» هى حبال المواشى . أفاده الصحاح . (ع)

طريقه التي جاء فيها فحفرها ، أى : أثر فيها بمشيه فيها : جعل أثر قدميه حفراً ، كما قيل : حفرت أسنانه حفراً : إذا أثر الآكال فى أسناخها[1] . والخط المحفور فى الصخر . وقيل : حافرة ، كما قيل : عيشة راضية ، أى : منسوبة إلى الحفر والرضا ، أو كقولهم : نهارك صائم ، ثم قيل لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع إلى حافرته ، أى طريقته وحالته الأولى . قال :

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَعٍ وَشَيْبٍ   مَعَاذَ اللهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارِ[2]

يريد: أرجوعا إلى حافرة . وقيل : النقد عند الحافرة ، يريدون عند الحالة الأولى : وهى الصفقة . وقرأ أبو حيوة : فى الحفرة . والحفرة بمعنى : المحفورة . يقال : حفرت أسنانه فحفرت حفراً ، وهى حفرة ؛ وهذه القراءة دليل على أن الحافرة فى أصل الكلمة بمعنى المحفورة . يقال : نخر العظم فهو نخر وناخر ، كقولك طمع فهو طمع وطامع ؛ وفعل أبلغ من فاعل ؛ وقد قرئ بهما : وهو البالى الأجوف الذى تمر فيه الريح فيسمع له نخير . و﴿إذا﴾ منصوب بمحذوف ، تقديره : أئذا كنا عظاما نرد ونبعث ﴿كرة خاسرة﴾ منسوبة إلى الخسران ، أو خاسر أصحابها . والمعنى : أنها إن صحت فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها ، وهذا استهزاء منهم . فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿فإنما هى زجرة واحدة﴾ ؟ قلت : بمحذوف ، معناه : لا تستصعبوها ، فإنما هى زجرة واحدة ؛ يعنى : لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل ، فإنها سهلة هينة فى قدرته ، ما هى إلا صيحة واحدة[3] ، يريد النفخة الثانية ﴿فإذا هم﴾ أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا فى جوفها ، من قولهم : زجر البعير ، إذا صاح عليه . والساهرة : الأرض البيضاء المستوية ، سميت بذلك لأنّ السراب يجرى فيها ، من قولهم : عين ساهرة جارية الماء ، وفى ضدها : نائمة . قال الأشعث بن قيس :

---

(١) قوله «أثر الآكال فى أسناخها» فى الصحاح «أسناخ الأسنان» : أصولها . (ع)

(٢) أنشده ابن الأعرابى . والهمزة للانكار . والحافرة فى الأصل : الطريق المحفور بالسير ، فتسميته حافرة مجاز عقلى . أو على معنى النسب ، أى : ذات حفر ، ثم استعملت فى كل حال كنت فيه ، ثم رجعت إليه . وهى نصب بمحذوف ، أى : أأرجع حافرة ، أى فى طريقتى الأولى من الشباب والصبا . أو على نزع الخافض ، أى : أأرجع إليها . والصلع : انحسار شعر الجبهة ، ويغلب فى الهرم . ومعاذ : مصدر نصب بمحذوف . والسفه : الجهل والطيش .

(٣) قال محمود : «إن قلت : كيف اتصل بما قبله ؟ وأجاب أنهم أنكروا الاعادة ... الخ» قال أحمد : وما أحسن تسهيل أمر الاعادة بقوله (زجرة) عوضا من صيحة ، لأن الزجرة أخف من الصيحة ؛ وبقوله (واحدة) أى غير محتاجة إلى مثنوية ، وهو يحقق لك ما أجبت به من السؤال الوارد عند قوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) حيث قيل : كيف وحدها وهما نفختان ، فجدد به عهدا .

وَسَاهِرَةٍ يُضْحِي السَّرَابُ مُجَلِّلاً لِأَقْطَارِهَا قَدْ جُبْتُهَا مُتَلَثِّمَا [(١)]

أو لأنّ سالكها لا ينام خوف الهلكة . وعن قتادة : فإذا هم فى جهنم .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾

﴿اذهب﴾ على إرادة القول . وفى قراءة عبدالله : أن اذهب ، لأنّ فى النداء معنى القول . هل لك فى كذا ، وهل لك إلى كذا ؛ كما تقول : هل ترغب فيه ، وهل ترغب إليه ﴿إلى أن تزكى﴾ إلى أن تتطهر من الشرك ، وقرأ أهل المدينة : تزكى ، بالإدغام ﴿وأهديك إلى ربك﴾ وأرشدك إلى معرفة الله أنبهك عليه فتعرفه ﴿فتخشى﴾ لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة . قال الله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أى العلماء به ؛ وذكر الخشية لأنها ملاك الأمر ، من خشى الله : أتى منه كل خير . ومن أمن : اجترأ على كل شرّ . ومنه قوله عليه السلام «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل»[(٢)] بدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا ، وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله بالمداراة من عتوه ، كما أمر بذلك فى قوله (فقولا له قولا لينا) . ﴿الآية الكبرى﴾ قلب العصا حية لأنها كانت المقدمة والأصل ، والأخرى كالتبع لها ؛ لأنه كان يتقيها بيده ، فقيل

---

(١) للأشعث بن قيس ؛ والساهرة : الأرض البيضاء ؛ لأن السراب يجرى فيها فتشبه العين الساهرة ؛ لظهور بياضها وجريان مائها ، بخلاف الناعسة . أو وصفت بالسهر ، لأن السائر فيها ساهر لا ينام خوف الهلكة ، فهو مجاز عقلى . مجللا : خبر «يضحى» أى : ساترا لأقطارها وجوانبها . يقول : رب مفازة يسترها النهار بسراب يشبه جل الفرس ؛ ويطلق النهار على السراب ، وعلى فرخ الحبارى ، وتصح إرادة كل منهما . قد أتيتها لابسا اللثام خوف الحر والريح .

(٢) أخرجه الحاكم والبيهقى فى الشعب وأبو نعيم فى الحلية من رواية الثورى عن أبى عقيل عن الطفيل بن أبى عن أبيه بهذا . قال أبو نعيم تفرد به وكيع . قاله فى ترجمته وهو ضعيف برواية الحاكم من طريق عبد الله بن الوليد عن الثورى ورواه الترمذى والحاكم والعقيلى من رواية يزيد بن سنان سمعت بكر بن فيروز . سمعت أبا هريرة ـ فذكره .

له : أدخل يدك في جيبك . أو أرادهما جميعا ، إلا أنه جعلهما واحدة : لأن الثانية كأنها من جملة الأولى لكونها تابعة لها ﴿فكذب﴾ بموسى والآية الكبرى ، وسماهما ساحراً وسحراً ﴿وعصى﴾ الله تعالى بعد ما علم صحة الأمر ، وأنّ الطاعة قد وجبت عليه ﴿ثم أدبر يسعى﴾ أي لما رأى الثعبان أدبر مرعوباً[1] ، يسعى : يسرع في مشيته . قال الحسن . كان رجلا طياشا خفيفاً . أو تولى عن موسى يسعى ويجتهد في مكايدته ، وأريد : ثم أقبل يسعى ، كما تقول : أقبل فلان يفعل كذا ، بمعنى : أنشأ يفعل ، فوضع (أدبر) موضع : أقبل ؛ لئلا يوصف بالإقبال ﴿فحشر﴾ فجمع السحرة ، كقوله (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) . ﴿فنادى﴾ في المقام الذي اجتمعوا فيه معه . أو أمر منادياً فنادى في الناس بذلك . وقيل قام فيهم خطيباً فقال تلك العظيمة . وعن ابن عباس : كلمته الأولى : (ماعلمت لكم من إله غيري) والآخرة : (أنا ربكم الأعلى) . ﴿نكال﴾ هو مصدر مؤكد ، كوعد الله ، وصبغة الله ؛ كأنه قيل : نكل الله به نكال الآخرة والأولى والنكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم . يعني الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة[2] ، وعن ابن عباس : نكال كلمتيه الآخرة ، وهي قوله : (أنا ربكم الأعلى) والأولى وهي قوله (ماعلمت لكم من إله غيري) وقيل : كان بين الكلمتين أربعون سنة . وقيل عشرون .

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾

الخطاب لمنكري البعث ، يعني ﴿أأنتم﴾ أصعب ﴿خلقا﴾ وإنشاء ﴿أم السماء﴾ ثم بين كيف خلقها فقال ﴿بناها﴾ ثم بين البناء فقال ﴿رفع سمكها﴾ أي جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديدا رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ﴿فسواها﴾ فعدلها مستوية ملساء ، ليس فيها تفاوت ولا فطور . أو فتممها بما علم أنها تتم به وأصلحها ، من قولك : سوى فلان أمر فلان . غطش الليل وأغطشه الله ، كقولك : ظلم وأظلمه . ويقال أيضاً : أغطش الليل ، كما يقال أظلم ﴿وأخرج

(١) قال محمود : «أي لما رأى الثعبان ولى هاربا مذعوراً ... الخ» قال أحمد : وهذا الوجه الأخير حسن لطيف جداً ، وهو على هذا من أفعال المقاربة .

(٢) قال محمود : «وقوله (نكال الآخرة والأولى) يعني الاغراق في الدنيا والاحراق في الآخرة ... الخ» قال أحمد : فعلى الأول يكون قريبا من إضافة الموصوف إلى الصفة ؛ لأن الآخرة والأولى صفتان للكلمتين ؛ وعلى الثاني لا يكون كذلك .

ضحاها﴾ وأبرز ضوء شمسها ، يدل عليه قوله تعالى (والشمس وضحاها) يريد وضوءها . وقولهم : وقت الضحى، للوقت الذى تشرق فيه الشمس ويقوم سلطانها ؛ وأضيف الليل والشمس إلى السماء، لأن الليل ظلها والشمس هى السراج المثقب فى جوها[1] ﴿ماءها﴾ عيونها المتفجرة بالماء ﴿ومرعاها﴾ ورعيها، وهو فى الأصل موضع الرعى . ونصب الأرض والجبال بإضمار «دحا» و «أرسى» وهو الإضمار على شريطة التفسير . وقرأهما الحسن مرفوعين على الابتداء . فإن قلت : هلا أدخل حرف العطف على أخرج[2]؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون معنى (دحاها) بسطها ومهدها للسكنى ، ثم فسر التمهيد بما لابد منه فى تأتى سكناها ، من تسوية أمر المأكل والمشرب ؛ وإمكان القرار عليها ، والسكون بإخراج الماء والمرعى ، وإرساء الجبال وإثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر عليها . والثانى : أن يكون (أخرج) حالا بإضمار «قد» كقوله : (أو جاءوكم حصرت صدورهم) وأراد بمرعاها : ما يأكل الناس والأنعام . واستعير الرعى للإنسان كما استعير الرتع فى قوله (نرتع ونلعب) وقرئ : نرتع ، من الرعى ؛ ولهذا قيل : دل الله سبحانه بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح ، لأنه من الماء ﴿متاعا لكم﴾ فعل ذلك تمتيعاً لكم ﴿ولأنعامكم﴾ لأن منفعة ذلك التمهيد واصلة إليهم وإلى أنعامهم .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

﴿الطامة﴾ الداهية التى تطم على الدواهى ، أى : تعلو وتغلب . وفى أمثالهم : جرى الوادى فطم على القرى ، وهى القيامة لطمومها على كل هائلة . وقيل : هى النفخة الثانية . وقيل : الساعة التى تساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ﴿يوم يتذكر﴾ بدل من إذا جاءت ، يعنى : إذا رأى أعماله مدونة فى كتابه تذكرها وكان قد نسيها ، كقوله (أحصاه الله ونسوه) . و (ما) فى ﴿ماسعى﴾ موصولة ، أو مصدرية ﴿وبرزت﴾ أظهرت وقرأ أبو نهيك : وبرزت

---

(١) قوله «هى السراج المثقب فى جوها» فى الصحاح «ثقبت النار» : إذا اتقدت . وأثقبتها أنا . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت هلا أدخل العاطف على أخرج ... الخ» قال أحمد : والأول أحسن ، وهو مناسب لقوله (السماء بناها) ، لأنه لما قال (أأنتم أشد خلقا أم السماء) تم الكلام ، لكن مجملا ؛ ثم بين التفاوت ففسر كيف خلقها فقال . (بناها) ، بغير عاطف : ثم فسر البناء فقال (رفع سمكها) ، بغير عاطف أيضا

﴿لمن يرى﴾ للرائين جميعاً ، أى : لكل أحد ، يعنى : أنها تظهر إظهارا بينا مكشوفا[1] ، يراها أهل الساهرة كلهم ، كقوله : قد بين الصبح لذى عينين ، يريد : لكل من له بصر ؛ وهو مثل فى الأمر المنكشف الذى لايخفى على أحد . وقرأ ابن مسعود : لمن رأى . وقرأ عكرمة : لمن ترى . والضمير للجحيم ، كقوله (إذا رأتهم من مكان بعيد) وقيل : لمن ترى يا محمد .

فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩)

﴿فأما﴾ جواب (فإذا) أى : فإذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك . والمعنى : فإن الجحيم مأواه ، كما تقول للرجل : غض الطرف ، تريد : طرفك ، وليس الألف واللام بدلا من الإضافة ، ولكن لما علم أن الطاغى هو صاحب المأوى ، وأنه لا يغض الرجل طرف غيره : تركت الإضافة ؛ ودخول حرف التعريف فى المأوى والطرف للتعريف ، لأنهما معروفان ، و﴿هى﴾ فصل أو مبتدأ .

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)

﴿ونهى النفس﴾ الأمارة بالسوء ﴿عن الهوى﴾ المردى وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير . وقيل : الآيتان نزلتا فى أبى عزيز بن عمير ومصعب بن عمير ، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزيز يوم أحد ، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى نفذت المشاقص[2] فى جوفه[3] .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)

﴿أيان مرساها﴾ متى إرساؤها ، أى إقامتها ، أرادوا : متى يقيمها الله ويثبتها ويكونها ؟

---

(١) قال محمود : «يعنى أظهرت إظهارا بينا مكشوفا ... الخ» قال أحمد : وفائدة هذا النظم الاشعار بأنه أمر ظاهر لايتوقف إدراكه إلا على البصر خاصة ، أى : لاشىء يحجبه ولا بعد يمنع رؤيته ، ولاقرب مفرط ، إلى غير ذلك من موانع الرؤية .

(٢) قوله «حتى نفذت المشاقص» جمع مشقص : وهو السهم الطويل العريض . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) لم أجده .

وقيل أيان منتهاها ومستقرها[1]، كما أنّ مرسى السفينة مستقرّها، حيث تنتهى إليه ﴿فيم أنت﴾ فى أى شىء أنت[2] من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به، يعنى: ما أنت من ذكرها لهم وتبيين وقتها فى شىء. وعن عائشة رضى الله عنها: لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة يسأل عنها حتى نزلت[3]، فهو على هذا تعجب[4] من كثرة ذكره لها، كأنه قيل: فى أى شغل واهتمام أنت من ذكرها والسؤال عنها. والمعنى: أنهم يسألونك عنها، فلحرصك على جوابهم لا تزال تذكرها وتسأل عنها، ثم قال ﴿إلى ربك منتهاها﴾ أى منتهى علمها لم يؤت علمها أحدا من خلقه. وقيل: (فيم) إنكار لسؤالهم[5]، أى: فيم هذا السؤال، ثم قيل: أنت من ذكراها، أى: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء وآخر الرسل المبعوث فى نسم الساعة[6] ذكر من ذكرها وعلامة من علاماتها، فكفاهم بذلك دليلا على دنوها ومشارفتها ووجوب الاستعداد لها، ولا معنى لسؤالهم عنها ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أى: لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة الذى لا فائدة لهم فى علمه، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون من إنذارك لطفا له فى الخشية منها. وقرئ: منذر بالتنوين، وهو الأصل؛ والإضافة تخفيف، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال؛ فإذا أريد الماضى فليس إلا الإضافة، كقولك: هو منذر زيد أمس، أى: كأنهم لم يلبثوا فى الدنيا، وقيل: فى القبور ﴿إلا عشية أو ضحاها﴾. فإن قلت: كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية؟ قلت: لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما فى نهار واحد. فإن قلت: فهلا قيل: إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة؟ قلت: الدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا، ولكن

---

(١) قال محمود: «مرساها أى مستقرها ... الخ» قال أحمد: وفيه إشعار بثقل اليوم، كقوله (ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) ألا تراهم لا يستعملون الارساء إلا فيما ثقل كمرسى السفينة وإرساء الجبال.

(٢) قال محمود: «ومعنى (فيم أنت) أى: فى أى شىء أنت من أن تذكر وقتها ... الخ» قال أحمد: وفى هذا الوجه نظر؛ فان الآية الأخرى ترده، وهي قوله (يسئلونك كأنك حفى عنها) أى: أنك لا تحتفى بالسؤال عنها ولا تهتم بذلك، وهم يسئلونك كما يسئل الحفى عن الشىء، أى: الكثير السؤال عنه، فالوجه الأول أصوب.

(٣) أخرجه إسحق فى مسنده وابن مردويه من طريقه أخبرنا ابن عتبة عن الزهرى عن عروة عنها بهذا. ورواه الطبرى عن يعقوب عن إبراهيم عن ابن عتبة مثله. قال الحاكم بعد أن أخرجه من طريق ابن عتبة: لم يخرجاه لأن ابن عتبة كان يرسله. وقال ابن أبى حاتم عن أبى زرعة: الصحيح مرسل. وأخرجه عبد الرازق عن ابن عتبة مرسلا وقال الدارقطنى أسنده ابن عتبة مرة وأرسله أخرى.

(٤) قوله «فهو على هذا تعجب» لعله: تعجيب. (ع)

(٥) قال محمود: «وقيل (فيم) إنكار لسؤالهم، أى: فيم هذا السؤال ... الخ» قال أحمد: فعلى هذا ينبغى أن يوقف على قوله (فيم) ليفصل بين الكلامين.

(٦) قوله «فى نسم الساعة» فى الصحاح «نسم الريح»: أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد. ومن الحديث «بعثت فى نسم الساعة» أى: حين ابتدأت وأقبلت أوائلها. (ع)

ساعة منه عشيته أو ضحاه ؛ فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته ، فهو كقوله (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة والنازعات كان ممن حبسه الله في القبر والقيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة [١] » .

سورة عبس

مكية ، وآياتها ٤٢ وقيل ٤١ [نزلت بعد النجم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠)

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم [٢] - وأم مكتوم أم أبيه ؛ واسمه عبد الله بن شريح ابن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤى - وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام . والعباس بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة : يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم [٣] . فقال : يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما

---

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

(٢) ذكر الزمخشري سبب نزول الآية ، وهو أن ابن أم مكتوم الأعمى ... الخ» قال أحمد : وإنما أخذ الاختصاص من تصدير الجملة بضمير المخاطب وجعله مبتدأ مخبرا عنه وهو كثيرا ما يتلقى الاختصاص من ذلك ؛ ولقد غلط في تفسير الآية ، وما كان له أن يبلغ ذلك .

(٣) ذكره الثعلبي بلا إسناد ، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه دون قوله «صناديد قريش» ودون سياق نسب ابن أم مكتوم . وكذا أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة . قال : ذكر لنا فذكره . وبهذا الإسناد أن النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه بعد ذلك على المدينة مرتين يصلي بأهلها . ورواه الترمذي =

علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه، فنزلت : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين ؛ وقال أنس : رأيته يوم القادسية وعليه درع وله راية سوداء [١] . وقرئ : عبّس ، بالتشديد للمبالغة ؛ ونحوه : كلح في كلّح ﴿أن جاءه﴾ منصوب بتولى ، أو بعبس ، على اختلاف المذهبين . ومعناه : عبس ، لأن جاءه الأعمى . أو أعرض لذلك . وقرئ : آأن جاءه بهمزتين وبألف بينهما ، ووقف على (عبس وتولى) ثم ابتدئ ، على معنى : ألأن جاءه الأعمى فعل ذلك إنكارا عليه . وروى أنه ما عبس بعدها في وجه فقير قط ، ولا تصدى لغني . وفي الإخبار عما فرط منه ، ثم الإقبال عليه بالخطاب : دليل على زيادة الإنكار ، كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ، ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجها له بالتوبيخ وإلزام الحجة . وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك ، كأنه يقول : قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى ، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفا وترؤفا وتقريبا وترحيبا ، ولقد تأدب الناس بأدب الله في هذا تأدبا حسنا ؛ فقد روى عن سفيان الثوري رحمه الله أنّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء ﴿وما يدريك﴾ وأي شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى ؟ ﴿لعله يزكى﴾ أي يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم ﴿أو يذكر﴾ أو يتعظ ﴿فتنفعه﴾ ذكراك ، أي : موعظتك ؛ وتكون له لطفا في بعض الطاعات . والمعنى : أنك لا تدرى ماهو مترقب منه ، من تزكّ أو تذكر ، ولو دريت لما فرط ذلك منك . وقيل : الضمير في (لعله) للكافر . يعني أنك طمعت في أن يتزكى بالإسلام ، أو يتذكر فتقرّبه الذكرى إلى قبول الحق ؛ وما يدريك أن ما طمعت فيه كائن . وقرئ : فتنفعه ، بالرفع عطفا على يذكر . وبالنصب جوابا للعلّ ، كقوله (فأطلع إلى إله موسى)، ﴿تصدّى﴾ تتعرض بالإقبال عليه ، والمصاداة . المعارضة ؛ وقرئ . تصدى ، بالتشديد ، بإدغام

= والحاكم من حديث عائشة رضي الله عنها نحوه ﴿تنبيه﴾ النسب الذي ساقه في غاية التخليط ، يظهر لمن له أدنى إلمام بالأخبار والأنساب . قال ابن سعد : أما أهل المدينة فيقولون اسمه عبدالله . وأما أهل العراق وهشام الكلبي فيقولون اسمه عمرو ثم أجمعوا على نسبه . فقالوا : ابن قيس بن زياد بن الأصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص ابن عامر بن لؤى . وأمه عاتكة هي أم مكتوم بنت عبدالله بن عامر بن مخزوم . وقال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون . أخبرنا جويبر عن الضحاك . قال «كان النبي صلى الله عليه وسلم تصدى لرجل من قريش يدعوه إلى الاسلام فأقبل عبدالله بن أم مكتوم الأعمى ، فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعرض عنه ويعبس في وجهه ، ويقبل على الآخر . فعاتب الله رسوله فقال (عبس وتولى أن جاءه الأعمى - الآيات) فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرمه واستخلفه على المدينة مرتين» .

(١) أخرجه عبدالرزاق عن معمر عن قتادة . أخبرني أنس بهذا وكذا رواه أبو يعلى والطبري من رواية قتادة عن أنس رضي الله عنه .

التاء فى الصاد . وقرأ أبو جعفر : تصدى ، بضم التاء ، أى : تعرّض . ومعناه : يدعوك داع إلى التصدى له : من الحرص والتهالك على إسلامه ، وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام (إن عليك إلا البلاغ) ، ﴿يسعى﴾ يسرع فى طلب الخير ﴿وهو يخشى﴾ الله أو يخشى الكفار، وأذاهم فى إتيانك . وقيل : جاء وليس معه قائد ، فهو يخشى الكبوة ﴿تلهى﴾ تتشاغل ، من لهى عنه . والتهى . وتلهى . وقرأ طلحة بن مصرف : تتلهى . وقرأ أبو جعفر : تلهى ، أى : يلهيك شأن الصناديد . فإن قلت : قوله (فأنت له تصدى) . (فأنت عنه تلهى) كأن فيه اختصاصا . قلت : نعم ، ومعناه : إنكار التصدى والتلهى عليه ، أى : مثلك خصوصا لا ينبغى له أن يتصدى للغنىّ ويتلهى عن الفقير .

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

﴿كلا﴾ ردع عن المعاتب عليه ، وعن معاودة مثله ﴿إنها تذكرة﴾ أى موعظة يجب الاتعاظ والعمل بموجبها ﴿فمن شاء ذكره﴾ أى كان حافظا له غير ناس ، وذكر الضمير لأنّ التذكرة فى معنى الذكر والوعظ ﴿فى صحف﴾ صفة لتذكرة ، يعنى : أنها مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح ﴿مكرّمة﴾ عند الله ﴿مرفوعة﴾ فى السماء . أو مرفوعة المقدار ﴿مطهرة﴾ منزهة عن أيدى الشياطين ، لا يمسها إلا أيدى ملائكة مطهرين ﴿سفرة﴾ [1] كتبة ينتسخون الكتب من اللوح ﴿بررة﴾ أتقياء . وقيل : هى صحف الأنبياء ، كقوله (إنّ هذا لفى الصحف الأولى) وقيل السفرة : القرّاء . وقيل : أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)

﴿قتل الإنسان﴾ دعاء عليه ، وهى من أشنع دعواتهم [2] . لأنّ القتل قصارى شدائد

---

(١) قوله «سفرة» فى الصحاح : واحدهم سافر ، ككافر وكفرة . (ع)

(٢) قال محمود : «دعاء عليه وهو من أشنع دعائهم ... الخ» قال أحمد : ما رأيت كاليوم قط عبدا ينازع ربه ، الله تعالى يقول (ثم شققنا) فيضيف فعله إلى ذاته حقيقة ، كما أضاف بقية أفعاله من عند قوله (من نطفة خلقه) وهلم جرا . والزمخشرى يجعل الاضافة مجازية من باب إسناد الفعل إلى سببه ، فيجعل إضافة الفعل إلى الله تعالى ═

الدنيا وفظائعها. و﴿ما أكفره﴾ تعجب[١] من إفراطه في كفران نعمة الله، ولا ترى أسلوبا أغلظ منه، ولا أخشن مسا، ولا أدل على سخط، ولا أبعد شوطا في المذمة، مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للائمة على قصر متنه ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه، إلى أن انتهى وما هو مغمور فيه من أصول النعم وفروعها، وما هو غارز فيه رأسه من الكفران والغمط[٢] وقلة الالتفات إلى ما يتقلب فيه وإلى ما يجب عليه من القيام بالشكر ﴿من أى شيء خلقه﴾ من أى شيء حقير[٣] مهين خلقه، ثم بين ذلك الشيء بقوله ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾ فهيأه لما يصلح له ويختص به. ونحوه (وخلق كل شيء فقدره تقديرا). نصب السبيل بإضمار «يسر» وفسره بيسر والمعنى: ثم سهل سبيله وهو مخرجه من بطن أمه. أو السبيل الذي يختار سلوكه من طريق الخير والشر بإقداره وتمكينه، كقوله (إنا هديناه السبيل) وعن ابن عباس رضى الله عنهما: بين له سبيل الخير والشر ﴿فأقبره﴾ فجعله ذا قبر يوارى فيه تكرمة له، ولم يجعله مطروحا على وجه الأرض جزرا للسباع والطير كسائر الحيوان. يقال: قبر الميت إذا دفنه. وأقبره الميت. إذا أمره أن يقبره ومكنه منه. ومنه قول من قال للحجاج: أقبرنا صالحا ﴿أنشره﴾ أنشأه النشأة الأخرى. وقرئ: نشره ﴿كلا﴾ ردع للإنسان عما هو عليه ﴿لما يقض﴾ لم يقض بعد، مع تطاول الزمان وامتداده من لدن آدم إلى هذه الغاية ﴿ما أمره﴾ الله حتى يخرج عن جميع أوامره، يعنى: أن إنسانا لم يخل من تقصير قط.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾

= من باب إضافة الشق إلى الحراث؛ لأنه السبب. قتل القدرى ما أكفره على قول؛ وما أضله على آخر؛ وإذا جعل شق الأرض مضافا إلى الحراث حقيقة، وإلى الله مجازا، فما منعه أن يجعل الحراث هو الذى صب الماء وأنبت الحب، والعنب والقضب: حقيقة؛ وهل هما إلا واحد.

(١) قوله «تعجب من إفراطه» لعله: تعجيب. (ع)

(٢) قوله «من الكفران والغمط» بطر النعمة وتحقيرها. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله «من أى شيء خلقه من أى شيء حقير» لعله: أى من شيء... الخ». (ع)

ولما عدد النعم فى نفسه : أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه ، فقال ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ إلى مطعمه الذى يعيش به كيف دبرنا أمره ﴿أنا صببنا الماء﴾ يعنى الغيث . قرئ بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح على البدل من الطعام . وقرأ الحسين بن على رضى الله عنهما . أنى صببنا ، بالإمالة على معنى : فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء . وشققنا : من شق الأرض بالنبات ويجوز أن يكون من شقها بالكراب على[1] البقر ، وأسند الشك إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب . والحب : كل ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما . والقضب : الرطبة[2] . والمقضاب : أرضه ، سمى بمصدر قضبه إذا قطعه ، لأنه يقضب مرّة بعد مرّة ﴿وحدائق غلبا﴾ يحتمل أن يجعل كل حديقة غلباء ، فيريد تكاثفها وكثرة أشجارها وعظمها ، كما تقول : حديقة ضخمة ، وأن يجعل شجرها غلبا ، أى : عظاما غلاظا . والأصل فى الوصف بالغلب : الرقاب ، فاستعير . قال عمرو بن معد يكرب :

يَمْشِى بِهَا غُلْبُ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ ... بُزْلٌ كُسِينَ مِنَ الْكُحَيْلِ جِلاَلاَ[3]

والأب : المرعى ، لأنه يؤب أى يؤم وينتجع . والأبّ والأمّ : أخوان . قال :

جِذْمُنَا قَيْسٌ وَنَجْدٌ دَارُنَا ... وَلَنَا الأَبُّ بِهِ وَالْمَكْرَعُ[4]

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب فقال : أىّ سماء تظلنى ، وأىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به[5] . وعن عمر رضى الله عنه : أنه قرأ هذه الآية فقال :

---

(١) قوله «من شقها بالكراب» فى الصحاح : كربت الأرض ، إذا قلبتها للحرث . (ع)

(٢) قوله «والقضب الرطبة» فى الصحاح «القضبة ، والقضب» الرطبة . وفيه أيضا «الرطبة» بالفتح : القضب اه وفيه دور . وقال بعض الفضلاء «القضب» : هو المسمى فى مصر بالبرسيم الحجازى . (ع)

(٣) لعمرو بن معديكرب . ويقال : أسد أغلب ، أى : غليظ العنق ، والغلب : جمعه ، ثم استعير لكل غليظ والبزل : جمع بازل للذكر والمؤنث من الابل إذا انفطر نابه ، وذلك فى السنة التاسعة : والكحيل : القطران . والجلال : جمع جل : يصف مفازة تمشى فيها أسود غلاظ الأعناق ، كأنها فتيات من الابل دهنت بالقطران حتى صار عليها كالجلال ، فكسين : استعارة مصرحة ، والجلال : ترشيح . ويروى : كأنهم ، باستعارة ضمير العقلاء لغيرهم .

(٤) الجذم ـ بالكسر وقد يفتح : الأصل الذى يقتطع منه غيره . والأب والأم ـ بالفتح والتشديد ـ بمعنى المرعى ، لأنه يؤب ويؤم ، أى : يقصد . والمكرع : المنهل . يقول : نحن من قبيلة قيس ونجد هى ديارنا ، ولنا به أى فى نجد المرعى والمروى . وفيه تمدح بالشرف والشجاعة على غيره .

(٥) أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن . حدثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمى أن أبا بكر رضى الله عنه سئل عنه فذكره ورواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد من هذا الوجه . وهذا منقطع . ورواه يحيى الحمانى وابن عبد البر فى العلم من طريقه من رواية إبراهيم النخعى عن أبى معمر عن أبى بكر فذكره .

كل هذا قد عرفنا ، فما الأب ؟ ثم رفض عصاً كانت بيده[1] وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وماعليك يا ابن أمّ عمر أن لاتدرى ما الأب ، ثم قال : اتبعوا ماتبين لكم من هذا الكتاب ، ومالا فدعوه . فإن قلت : فهذا يشبه النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته . قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة على العمل ، وكان التشاغل بشيء من العلم لايعمل به تكلفاً عندهم ؛ فأراد أنّ الآية مسوقة فى الامتنان على الإنسان بطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أنّ الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لإنعامه ؛ فعليك بما هو أهم من النهوض بالشكر لله ـ على ماتبين لك ولم يشكل ـ مما عدّد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص الذى هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجلية إلى أن يتبين لك فى غير هذا الوقت ، ثم وصى الناس بأن يجروا على هذا السنن فيما أشبه ذلك من مشكلات القرآن .

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٣) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٤) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٥) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٦) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٧) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٨) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٣٩) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤١)

يقال : صخّ لحديثه ، مثل : أصاخ له ، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً : لأنّ الناس يصخون لها ﴿ يفر ﴾ منهم لاشتغاله بما هو مدفوع إليه ، ولعلمه أنهم لايغنون عنه شيئاً ؛ وبدأ بالأخ ، ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب وأحب ؛ كأنه قال : يفرّ من أخيه ، بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه . وقيل : يفرّ منهم حذراً من مطالبتهم بالتبعات . يقول الأخ : لم تواسنى بمالك . والأبوان : قصرت فى برنا . والصاحبة : أطعمتنى الحرام وفعلت وصنعت . والبنون : لم تعلمنا ولم ترشدنا ، وقيل : أوّل من يفرّ من أخيه : هابيل ؛ ومن أبويه : إبراهيم ؛ ومن صاحبته : نوح ولوط ؛ ومن ابنه : نوح ﴿ يغنيه ﴾ يكفيه فى الاهتمام به . وقرئ : يعنيه أى يهمه ﴿ مسفرة ﴾ مضيئة متهللة ، من أسفر الصبح : إذا أضاء . وعن ابن عباس رضى الله

(١) أخرجه الطبرى والطبرانى فى مسند الشاميين من طريق ابن وهب عن يونس وعمرو بن الحارث . ورواه الحاكم والبيهقى فى الشعب فى التاسع عشر من طريق صالح بن كيسان : وابن مردويه من رواية شعيب كلهم عن الزهرى أن إنسانا أخبره أنه سمع عمر فذكره . وله طريق أخرى من رواية حميد عن أنس أخرجها الحاكم . وروى الحاكم أيضا من وجه آخر عن عمر رضى الله عنه أنه سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن الآية فقال : هو نبت الأرض مما تأكله الدواب والأنعام . ولا يأكله الناس .

عنهما : من قيام الليل ؛ لما روى فى الحديث «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[١]» ، وعن الضحاك : من آثار الوضوء . وقيل : من طول ما اغبرت فى سبيل الله ﴿غبرة﴾ غبار يعلوها ﴿قترة﴾ سواد كالدخان ؛ ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه ، كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت ؛ وكأن الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة ، كما جمعوا الفجور إلى الكفر .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة عبس وتولى جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر[٢]» .

سورة التكوير

مكية ، وآياتها ٢٩ [نزلت بعد المسد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

فى التكوير وجهان : أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها ، أى : يلف ضوءها لفاً فيذهب

---

(١) تقدم فى سورة الفتح .

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

انبساطه وانتشاره فى الآفاق ، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها ؛ لأنها مادامت باقية كان ضياؤها منبسطا غير ملفوف . أو يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها ؛ لأنّ الثواب إذا أريد رفعه لف وطوى ؛ ونحوه قوله (يوم نطوى السماء) وأن يكون من طعنه فجوّره وكوّره : إذا ألقاه ، أى : تلقى وتطرح عن فلكها ، كما وصفت النجوم بالانكدار . فإن قلت : ارتفاع الشمس على الابتداء أو الفاعلية ؟ قلت : بل على الفاعلية رافعها فعل مضمر يفسره كوّرت ؛ لأنّ « إذا » يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط ﴿انكدرت﴾ انقضت . قال :

* أَبْصَرَ خِرْبَانَ فَضَاءٍ فَانْكَدَرْ * (١)

ويروى فى الشمس والنجوم : أنها تطرح فى جهنم ليراها من عبدها ، كما قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) . ﴿سيرت﴾ أى على وجه الأرض وأبعدت . أو سيرت فى الجوّ تسيير السحاب كقوله (وهى تمرّ مرّ السحاب) . والعشار فى جمع عشراء ، كالنفاس فى جمع نفساء : وهى التى أتى على حملها عشرة أشهر ، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ، وهى أنفس ما تكون عند أهلها وأعزها عليهم ﴿عطلت﴾ تركت مسيبة مهملة . وقيل : عطلها أهلها عن الحلب والصر ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقرئ : عطلت ، بالتخفيف ﴿حشرت﴾ جمعت من كل ناحية . قال قتادة : يحشر كل شىء حتى الذباب للقصاص . وقيل : إذا قضى بينها ردّت ترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبنى آدم وإعجاب بصورته ، كالطاوس ونحوه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : حشرها موتها . يقال : إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم حشرتهم السنة . وقرئ : حشرت ، بالتشديد ﴿سجرت﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ، من سجر التنور : إذا ملأه بالحطب ، أى : ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً . وقيل : ملئت نيراناً تضطرم لتعذيب أهل النار . وعن الحسن : يذهب ماؤها فلا تبقى فيها قطرة ﴿زوّجت﴾ قرنت كل نفس بشكلها . وقيل : قرنت الأرواح

---

(١) إذا الكرام ابتدروا الباع بدر ··· تقضى البازى إذا البازى كسر
وانى جناحيه من الطود فمر ··· أبصر خربان فضاء فانكدر

للعجاج يمدح عمر بن عبيد الله التيمى . والباع بالمهملة : قدر مد اليدين ، والمراد به الكرم مجازاً . وبدر : أسرع وغلب الكرام . وتقضى : نصب به . وأصله : تقضض ، أبدل الثانى حرف علة وكسر الأول ، أى : أمال جناحيه وداناهما من الجبل العظيم ، ومر : سار على وجه الجبل . وخربان ـ جمع خرب ـ : طائر يقال له الحبارى ، وهو مضاف لفضاء ، فانكدر : أى انقض وسقط عليها ليأكلها . ويروى صدر هذا الرجز :

لقد سما ابن معمر حين اعتمر ··· مغزى بعيداً من بعيد وضبر

تقضى البازى ... الخ . واعتمر : أى زار . والمغزى : مكان الغزو . وضبره ضبراً : جمعه جمعاً . يقول : ارتفع قدره حين غزا موضعا بعيداً من الشام ، وجمع لذلك جيشاً عظيما ، وأسرع كاسراع البازى إلى الحبارى : بالغ فى وصف البازى تصويراً لحال المشبه ، ومبالغة فى مدحه .

بالأجساد . وقيل بكتبها وأعمالها . وعن الحسن : هو كقوله (وكنتم أزواجا ثلاثة) وقيل : نفوس المؤمنين بالحور ، ونفوس الكافرين بالشياطين . وأد يئد مقلوب من آد يؤد : إذا أثقل . قال الله تعالى (ولا يؤده حفظهما) لأنه إثقال بالتراب : كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها : ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم فى البادية ؛ وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأمها : طيبيها وزينيها ، حتى أذهب بها إلى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً فى الصحراء ، فيبلغ بها البئر فيقول لها : انظرى فيها ، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها ، حتى تستوى البئر بالأرض . وقيل : كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة ؛ فإذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة ، وإن ولدت ابناً حبسته . فإن قلت : ماحملهم على وأد البنات ؟ قلت: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهنّ . أو الخوف من الإملاق ، كما قال الله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وكانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به ، فهو أحق بهنّ . وصعصعة بن ناجية ممن منع الوأد ؛ فبه افتخر الفرزدق فى قوله :

وَمِنَّا الَّذِى مَنَعَ الْوَائِدَاتِ فَأَحْيَا الْوَئِيدَ فَلَمْ تُوأَدِ[1]

فإن قلت : فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذى قتلت به ؛ وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها ؟ قلت : سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت فى قوله تعالى لعيسى (أأنت قلت للناس ... إلى قوله ... سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق) وقرئ : سألت ، أى : خاصمت عن نفسها ، وسألت الله أو قاتلها ؛ وإنما قيل (قتلت) بناء على أن الكلام إخبار عنها ؛ ولو حكى ماخوطبت به حين سئلت . فقيل : قتلت . أو كلامها حين سئلت لقيل : قتلت . وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : قتلت ، على الحكاية . وقرئ : قتلت ، بالتشديد . وفيه دليل بين على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لايستحق إلا بالذنب . وإذا بكت الله الكافر ببراءة الموؤدة من الذنب : فما أقبح به ، وهو الذى لا يظلم مثقال ذرة أن يكر

(١) للفرزدق ، يفتخر بجده صعصعة : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وقال : يارسول الله ، عملت أعمالا فى الجاهلية فهل لى فيها من أجر ؟ فقال : وما عملت ؟ قال : قد أحييت ثلاثا وستين من الموؤدة أشترى الواحدة منهن بناقتين عشراويتين وجمل ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا من باب البر ولك أجره إذ من الله عليك بالاسلام . ويقال : وأد بنته إذا دفنها وهى حية ، وكانت كندة تفعل ذلك خوف العار والفقر . ويروى : فأحيا الوئيد وهى أوقع . والوئيد يقال للمفرد والجمع مذكرا أو مؤنثا . ويروى : وجدى ، أى : هو الذى منع الجماعات الدافنات بناتهن حيات وفداهن من الموت ، فكأنه أحياهن ، فأطلق الوئيد على المشرفات على الموت مجازاً ، والاحياء ترشيح .

عليها بعد هذا التبكيت فيفعل بها ماتنسى عنده فعل المبكت من العذاب الشديد السرمد . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن ذلك ، فاحتجّ بهذه الآية ﴿ نشرت ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ، يريد : صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته ، ثم تنشر إذا حوسب . عن قتادة : صحيفتك يا ابن آدم تطوى على عملك ، ثم تنشر يوم القيامة ، فلينظر رجل مايملى فى صحيفته . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا قرأها قال : إليك يساق الأمر يا ابن آدم . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يحشر الناس عراة حفاة ، فقالت أم سلمة : كيف بالنساء ؟ فقال : شغل الناس ياأم سلمة ، قالت : وماشغلهم ؟ قال : نشر الصحف فيها مثاقيل الذرّ ومثاقيل الخردل[1] » ويجوز أن يراد : نشرت بين أصحابها ، أى فرقت بينهم . وعن مرثد بن وداعة : إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف من تحت العرش ، فتقع صحيفة المؤمن فى يده فى جنة عالية ، وتقع صحيفة الكافر فى يده فى سموم وحميم أى مكتوب فيها ذلك ، وهى صحف غير صحف الأعمال ﴿ كشطت ﴾ كشفت وأزيلت ، كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، والغطاء عن الشىء . وقرأ ابن مسعود : قشطت . واعتقاب الكاف والقاف كثير . يقال : لبكت الثريد ولبقته ، والكافور والقافور ﴿ سعرت ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً . وقرئ : سعرت بالتشديد للمبالغة . قيل : سعرها غضب الله تعالى وخطايا بنى آدم ﴿ أزلفت ﴾ أدنيت من المتقين ، كقوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) قيل : هذه اثنتا عشرة خصلة . ست منها فى الدنيا ، وست فى الآخرة . (وعلمت) : هو عامل النصب فى (إذا الشمس كورت) وفيما عطف عليه . فإن قلت : كل نفس تعلم ما أحضرت ، كقوله (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) لا نفس واحدة . فما معنى قوله ﴿ علمت نفس ﴾ ؟ قلت : هو من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه . ومنه قوله عز وجل : (ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ومعناه : معنى كم وأبلغ منه . وقول القائل :

* قَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ * [2]

وتقول لبعض قواد العساكر : كم عندك من الفرسان ؟ فيقول : رب فارس عندى . أو لا تعدم عندى فارسا ، وعنده المقانب[3] : وقصده بذلك التمادى فى تكثير فرسانه ، ولكنه أراد

---

(١) أخرجه الثعلبى من طريق محمد بن أبى موسى عن عطاء بن يسار عن أم سلمة بهذا . وأصله فى الصحيحين عن عائشة ، وأخرجه الحاكم من حديث سودة .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٠٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٣) قوله «وعنده المقانب» فى الصحاح «المقنب» : مابين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل . (ع)

إظهار براءته من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده، فضلا أن يتزيد، فجاء بلفظ التقليل، ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين. وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن قارئا قرأها عنده. فلما بلغ (علمت نفس ما أحضرت) قال: وانقطاع ظهرياه.

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾

﴿الخنس﴾ الرواجع. بينا ترى النجم فى آخر البرج إذ كرّ راجعا إلى أوله. و﴿الجوارى﴾ السيارة. و ﴿الكنس﴾[1] الغيب من كنس الوحشى: إذا دخل كناسه. قيل: هى الدرارى

(١) تعرض الزمخشرى فى تفسيره للعامل الخ. قال أحمد: هذا الجواب لايستمر، لأجل ظهور الفعل الثانى فى قوله (فلا أقسم بالخنس) ولما أعضل الجواب عن هذا السؤال فى سورة التكوير: التزم الشيخ أبو عمرو بن الحاجب إجازة العطف على عاملين، واتخذ هذه الآية وزره ومعضده فى مخالفة سيبويه، ورد على الزمخشرى جوابه فى سورة والشمس وضحاها، لأنه لم يطرد له ههنا، وكان على رده يستحسن تيقظ فطنته فى استنباطه؛ ونحن والله الموفق نلتزم مذهب سيبويه فى امتناع العطف على عاملين فى جعل الواو الثانية عاطفة، ويجرى جواب الزمخشرى ههنا وينفصل عن هذه الآية فنقول: قوله (والليل إذا عسعس) هذه الواو الأولى ابتداء قسم، والواو فى قوله (والصبح إذا تنفس) عاطفة فيطرد ماقال الزمخشرى. فان قيل: فقد خالفتم سيبويه، فانه لايرى الواو المتعقبة للقسم ابتداء قسم بل عاطفة، وقد جعلتم الواو الأولى وهى متعقبة للقسم ابتداء قسم؟ قلنا: إنما تكلم سيبويه فى الواو المتعقبة للقسم بالواو وأما الآية فالقسم الأول فيها بالباء والفعل، فجعلنا الواو بعد ذلك قسما وتبعا، وهو أبلغ؛ كأنه أقسم قسمين بشيئين مختلفين. فان قيل: أجل. إنما تكلم سيبويه على الواو المتعقبة للقسم بالواو، فما الفرق بين المتعقبة للقسم بالواو والمتعقبة للقسم بالباء؟ وماهما إلا سواء، فان كل واحد منهما آلة له، والتاء تدل على الباء فحكمهما واحد؟ قلنا: ليستا سواء فان القسم متى صدر بالواو ولم يله واو أخرى، فجعلها قسما آخر فيه تكرار مستكره، إذ الآلة واحدة، ولا كذلك إذا اختلفت الآلة؛ فان عاملة التكرار مأمونة إذا. ألاترى أنه لو صدر القسم بالواو، ثم تلاه قسم بالباء، لتحتم جعلهما قسمين مستقلين. فكذلك لو خولف هذا الترتيب. وأيضا، فانه إن كان المانع لسيبويه من جعل الواو الثانية قسما مستقلا مجىء الجواب واحدا، واحتياج الواو الأولى إلى محذوف، فالعطف يغنى عن تقدير محذوف، فيتعين، فلا يلزم اطراد الباء لأنها أصل القسم لاسيما مع التصريح بفعل القسم ثم تأكيده بزيادة لا، فان فى مجموع ذلك مايغنى عن إفراده بجواب مذكور، ولا كذلك الواو فانها ضعيفة المكنة فى باب القسم بالنسبة إلى الباء، فلا يلزم من حذف جواب تمكنت الدلالة عليه حذف جواب دونه فى الوضوح؛ وأختم الكلام على هذا السؤال بنكتة بديعة فأقول: إنما خصصت إيراد السؤال بالواو الثانية فى قوله (والليل إذا عسعس) دون الثالثة لأنه غير متوجه عليها. ألاترى لو جعلتها عاطفة لم يلزمك العطف على عاملين، لأنك تجعلها نائبة عن الباء وتجعل إذا فيها منصوبة بالفعل مباشرة إذا لم يتقدم فى جملة الفعل ظرف تعطف عليه إذا، فتصير بمثابة قولك: مررت بزيد وعمرو اليوم، فاليوم منصوب بالفعل مباشرة، وفهم من المثال أن مرورك بزيد مطلق غير مقيد بظرف، وإنما المقيد باليوم مرورك بعمرو خاصة لكن يطابق الآية: فان الظرف فيها وإن عمل فيه الفعل مباشرة فهو مقيد للقسم بالليل، لا للقسم بالخنس.

الخنسة : بهرام[١] ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة ، والمشترى : تجرى مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس : فخنوسها رجوعها ؛ وكنوسها : اختفاؤها تحت ضوء الشمس . وقيل : هى جميع الكواكب ، تخنس بالنهار فتغيب عن العيون ، وتكنس بالليل : أى تطلع فى أماكنها ، كالوحش فى كنسها . عسعس الليل وسعسع : إذا أدبر . قال العجاج :

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا   وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا[٢]

وقيل : عسعس : إذا أقبل ظلامه . فإن قلت : ما معنى تنفس الصبح ؟ قلت : إذا أقبل الصبح : أقبل بإقباله روح ونسيم ، فجعل ذلك نفسا له على المجاز . وقيل : تنفس الصبح .

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾

﴿إنه﴾ الضمير للقرآن ﴿لقول رسول كريم﴾ هو جبريل صلوات الله عليه[٣] ﴿ذى قوة﴾

---

(١) قوله «بهرام» : ليس بعربى ، والمراد به : المريخ . (ع)

(٢) للعجاج . وتنفس الصبح : اتساع ضوئه ، أو إقباله بضوء ونسيم . وضمير «لها» للشمس ؛ وقيل : المفازة . وانجاب : انقطع وانفصل عنها ظلام الليل . وعسعس : ولى مدبرا وزال ظلامه ، فهو توكيد لما قبله . ويجوز أن الضمير لبقرة وحشية مثلا .

(٣) قال محمود : «المراد بالرسول الكريم : جبريل عليه السلام . وقوله (عند ذى العرش) ليدل على عظم منزلته ومكانته ، وثم إشارة إلى الظرف المذكور يعنى عند ذى العرش الخ» قال أحمد : ما كان جبريل صلوات الله عليه يرضى منه هذا التفسير المنطوى على التقصير فى حق البشير النذير عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولقد اتبع الزمخشرى هواه فى تمهيد أصول مذهبه الفاسد ، فأخطأ على الأصل والفرع جميعا ؛ ونحن نبين ذلك بحول الله وقوته فنقول : أولا اختلف أهل التفسير ، فذهب منهم الجم الغفير إلى أن المراد بالرسول الكريم ههنا إلى آخر النعوت : محمد صلى الله عليه وسلم . فان يكن كذلك والله أعلم فذلك فضل الله المعتاد على نبيه ، وإن كان المراد جبريل عليه السلام فقد اختلف الناس فى المفاضلة بين الملائكة والرسل ، والمشهور عن أبى الحسن : تفضيل الرسل . ومذهب المعتزلة : تفضيل الملائكة ، إلا أن المختلفين أجمعوا على أنه لا يسوغ تفضيل أحد القبيلين الجليلين بما يتضمن تنقيص معين من الملائكة ومعين من الرسل ؛ لأن التفضيل وإن كان ثابتا إلا أن فى التعيين إيذاء للمفضول ؛ وعليه حمل الحذاق قوله صلى الله عليه وسلم «لا تفضلونى على يونس بن متى» أى لا تعينوا مفضولا على التخصيص ؛ لأن التفضيل على التعميم ثابت باجماع المسلمين ، أى تفضيل النبى صلى الله عليه وسلم على النبيين أجمعين ، وكان جدى رحمه الله يوضح ذلك بمثال فيقول : لو قلت بحضرة جماعة من الفقهاء : فلان أفضل أهل عصره ، لكان فى الجماعة احتمال لهذا التفضيل وإن لزم اندراجهم فى المفضولين ، ولو عينت واحداً منهم وقلت : فلان أفضل منك وأتقى لله ، لأسرع به الأذى إلى بعضك . وإذا تقرر لك أنه لا يلزم من اعتقاد التفضيل على التعميم جواز إطلاق التفضيل على التخصيص ، علمت أن الزمخشرى أخطأ على أصله لأنه بتقدير أن تكون الملائكة أفضل كما يعتقد ، لا يجوز أن يقال أحد من الملائكة على التخصيص : أنه أفضل من أحد الأنبياء على التخصيص ، لاسيما فى سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ =

كقوله تعالى (شديد القوى ذو مرة) لما كانت حال المكانة على حسب حال الممكن ، قال : ﴿عند ذى العرش﴾ ليدل على عظم منزلته ومكانته ﴿ثم﴾ إشارة إلى الظرف المذكور، أعنى : عند ذى العرش ، على أنه عند الله مطاع فى ملائكته المقرّبين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه . وقرئ : ثمّ ، تعظيما للأمانة ، وبيانا لأنها أفضل صفاته المعدودة .

وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

﴿وماصاحبكم﴾ يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿بمجنون﴾ كما تبهته الكفرة [١] ، وناهيك بهذا دليلا على جلالة مكان جبريل عليه السلام وفضله على الملائكة ، ومباينة منزلته[٢] أفضل الإنس محمد صلى الله عليه وسلم : إذا وازنت بين الذكرين حين قرن بينهما ، وقايست بين قوله (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثمّ أمين) وبين قوله (وما صاحبكم بمجنون) .

= ثم يعود الكلام على الآية بعد تسليم أن المراد جبريل ، وبعد أن نكله فى تعيينه النبى صلى الله عليه وسلم وعده مفضولا إلى الله فنقول : لم يذكر فيها نعت إلا وللنبى صلى الله عليه وسلم مثله ، أولها : رسول كريم ، فقد قال فى حقه صلى الله عليه وسلم فى آخر سورة الحاقة (إنه لقول رسول كريم) وقد قيل أيضا : إن المراد جبريل ، إلا أنه يأباه قوله (وما هو بقول شاعر) وقد وافق الزمخشرى على ذلك فيما تقدم ، فهذا أول النعوت وأعظمها . وأما قوله (ذى قوة) فليس محل الخلاف ؛ إذ لانزاع فى أن لجبريل عليه السلام فضل القوة الجسمية ومن يقتلع المدائن بريشة من جناحه ، لامراء فى فضل قوته على قوة البشر . وقد قيل هذا فى تفسير قوله (ذو مرة فاستوى) وقوله (عند ذى العرش مكين مطاع ثم) فقد ثبت طاعة الملائكة أيضاً لنبينا صلى الله عليه وسلم . ورد أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إن الله يقرئك السلام ، وقد أمر ملك الجبال أن يطيعك عند ما آذته قريش فسلم عليه الملك وقال : إن أمرتنى أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فصبر النبى صلى الله عليه وسلم واحتسب . وأعظم من ذلك وأشرف : مقامه المحمود فى الشفاعة الكبرى يوم لايتقدمه أحد ، إذ يقول الله تعالى له : ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع . وأما (أمين) فقد قال وهو الصادق المصدوق : والله إنى لأمين فى الأرض أمين فى السماء ، وحسبك قوله : وما هو على الغيب بظنين . إن قرأته بالظاء فمعناه أنه صلى الله عليه وسلم أمين على الغيب غير متهم ، وإن قرأته بالضاد رجع إلى الكرم ، فكيف يذهب إلى التفضيل بالنعوت المشتركة بين الفاضل والمفضول سواء ؛ ومالى مباحثة فى أصل المسئلة ، ولكن الرد عليه فى خطئه على كل قول يتعين ، وإلا فالمسئلة فى غير هذا الكتاب . فنسأل الله أن يثبتنا على الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، وعلى القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن يعمر قلوبنا بحبهم ، وأن يجعل توسلنا إليه بهم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) قوله «كما تبهته الكفرة» أى تتهمه بما ليس فيه . (ع)

(٢) قوله «ومباينة منزلته ... الخ» يعنى ارتفاع منزلته على منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مبنى على مذهب المعتزلة من تفضيل الملك على البشر . ومذهب أهل السنة : تفضيل رؤساء البشر . وإنما ذكر جبريل بتلك الصفات واقتصر على نفى الجنون عن النبى صلى الله عليه وسلم لأن جبريل مجهول لهم ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم فإنه صاحبهم ؛ ولهذا اقتصر على نفى ما بهتوه به . (ع)

وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَجِيمٍ (٢٥)

﴿ولقد رآه﴾ ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل ﴿بالأفق المبين﴾ بمطلع الشمس الأعلى ﴿وما هو﴾ وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحى إليه وغير ذلك ﴿بظنين﴾ بمتهم من الظنة وهى التهمة. وقرئ: بضنين، من الضن وهو البخل، أى: لا يبخل بالوحى فيزوى بعضه غير مبلغه؛ أو يسأل تعليمه فلا يعلمه؛ وهو فى مصحف عبد الله بالظاء، وفى مصحف أبىّ بالضاد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما. وإتقان الفصل بين الضاد والظاء: واجب. ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ، فإنّ أكثر العجم لا يفرّقون بين الحرفين: وإن فرقوا ففرقا غير صواب، وبينهما بون بعيد؛ فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أضبط يعمل بكلتا يديه. وكان يخرج الضاد من جانبى لسانه، وهى أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والشين، وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهى أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء. ولو استوى الحرفان لما ثبتت فى هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب فإن قلت: فإن وضع المصلى أحد الحرفين مكان صاحبه. قلت: هو كواضع الذال مكان الجيم، والثاء مكان الشين، لأن التفاوت بين الضاد والظاء كالتفاوت بين أخواتهما ﴿وماهو﴾ وماالقرآن ﴿بقول شيطان رجيم﴾ أى بقول بعض المسترقة للسمع، وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَٰلَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ (٢٩)

﴿فأين تذهبون﴾ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافا أو ذهابا فى بنيات الطريق[1]: أين تذهب؛ مثلت حالهم بحاله فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ﴿لمن شاء منكم﴾ بدل من للعالمين وإنما أبدلوا منهم لأنّ الذين شاؤا الاستقامة بالدخول فى الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعا ﴿وما تشاؤن﴾ الاستقامة يامن

(١) قوله «فى بنيات الطريق» فى الصحاح «بنيات الطريق»: هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة. (ع)

يشاؤها إلا بتوفيق الله [1] ولطفه. أو: وما تشاؤنها أنتم يامن لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة إذا الشمس كورت أعاذه الله أن يفضحه حين تنشر صحيفته» [2].

سورة الانفطار

مكية، وآياتها ١٩ [نزلت بعد النازعات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)

﴿انفطرت﴾ انشقت ﴿فجرت﴾ فتح بعضها إلى بعض، فاختلط العذب بالمالح، وزال البرزخ الذي بينهما، وصارت البحار بحرا واحدا. وروى أنّ الأرض تنشف الماء بعد امتلاء البحار، فتصير مستوية، وهو معنى التسجير عند الحسن، وقرئ: فجرت، بالتخفيف. وقرأ مجاهد: فجرت على البناء للفاعل والتخفيف، بمعنى: بغت لزوال البرزخ نظرا إلى قوله تعالى (لا يبغيان) لأنّ البغي والفجور أخوان. بعثر وبحثر بمعنى، وهما مركبان من البعث والبحث

(١) قوله «يا من يشاؤها إلا بتوفيق الله» تأويل المشيئة بذلك مبنى على أن فعل العبد بخلق العبد وإرادته، لا بخلق الله تعالى ولا بإرادته: وهو مذهب المعتزلة. ومذهب أهل السنة: أنه بخلق الله تعالى وإرادته كظاهر الآيات. وقوله بقسر الله، أى بجبره العبد على الفعل؛ لكن الجبر ينافى الاختيار المصحح للتكليف واستحقاق الثواب والعقاب، ويمكن أنه أراد بقسر الله إرادته المستلزمة لوجود المراد، كما سبق له فى الكتاب غير مرة التعبير بإرادة القسر، لكن استلزام الارادة للمراد لا يستلزم قسر العبد وجبره عند أهل السنة، وإن كان الله هو الخالق لفعل العبد؛ لأنهم أثبتوا للعبد الكسب، خلافا للمعتزلة. وتفصيل المقام فى علم التوحيد. (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بإسنادهم إلى أبي بن كعب.

مع راء مضمومة إليهما . والمعنى: بحث وأخرج موتاها . وقيل: لبراءة المبعثرة؛ لأنها بعثرت أسرار المنافقين .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ماغرّك بربك الكريم﴾ وكيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به [١]، وإنما يغتر بالكريم، كما يروى عن على رضى الله عنه أنه صاح بغلام له كرّات فلم يلبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: مالك لم تجبنى؟ قال: لثقتى بحلمك وأمنى من عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه [٢]. وقالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه. قلت: معناه أنّ حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله عليه، حيث خلقه حيا لينفعه، وبتفضله عليه بذلك حتى يطمع بعدما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب، اغترارا بالتفضل الأوّل، فإنه منكر خارج من حد الحكمة، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها: «غرّه جهله»[٣] وقال عمر رضى الله عنه: غرّه حمقه وجهله. وقال الحسن: غره والله شيطانه الخبيث، أى: زين له المعاصى وقال له: افعل ماشئت، فربك الكريم الذى تفضل عليك بما تفضل به أوّلا وهو متفضل عليك آخراً، حتى ورطه. وقيل للفضيل ابن عياض: إن أقامك الله يوم القيامة وقال لك: (ماغرك بربك الكريم) ماذا تقول؟ قال أقول: غرتنى ستورك المرخاة. وهذا على سبيل الاعتراف بالخطإ فى الاغترار بالستر، وليس باعتذار كما يظنه الطماع، ويظن به قصاص الحشوية ويروون عن أئمتهم: إنما قال (لربك الكريم) دون سائر صفاته، ليلقن عبده الجواب حتى يقول: غرنى كرم الكريم. وقرأ سعيد بن جبير: ماأغرك. إما على التعجب، وإما على الاستفهام؛ من قولك: غرّ الرجل فهو غارّ: إذا غفل،

---

(١) قال محمود: «إن قلت: قوله ما غرك بربك الكريم ما معناه وكيف يطابق الوصف بالكرم ... الخ»؟ قال أحمد: حجة الزمخشرى ههنا فارغة؛ فان الآية إنما وردت فى الكفار، بدليل قوله (كلا بل تكذبون بالدين) ونحن نوافقه على خلودهم وانقطاع معاذيرهم، لا على أن تخليدهم واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، فان الله لايجب عليه شىء. ويجوز عقلا أن يثيب الكافر ويخلده فى الجنة، وبالعكس فى المؤمن؛ ولولا ورود السمع بإثابة المؤمنين وعذاب الكافرين فيتعين المصير إليه، لكان ما ذكرناه فى الجواز والاحتمال؛ فان الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن عن كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن صالح بن مسمار قال بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية فذكره.

من قولك : بيتهم العدوّ وهم غارّون . وأغرّه غيره : جعله غارا ﴿فسوّاك﴾ فجعلك سويا سالم الأعضاء ﴿فعدلك﴾ فصيرك معتدلا متناسب الخلق من غير تفاوت فيه ، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا إحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود ، ولا بعض الشعر فاحما وبعضه أشقر . أو جعلك معتدل الخلق تمشى قائما لا كالبهائم . وقرئ : فعدلك بالتخفيف . وفيه وجهان . أحدهما : أن يكون بمعنى المشدّد ، أى : عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت . والثانى (فعدلك) فصرفك . يقال : عدله عن الطريق يعنى : فعدلك عن خلقة غيرك وخلقك خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق . أوفعدلك إلى بعض الأشكال والهيآت . (ما) فى ﴿ماشاء﴾ مزيدة ، أى : ركبك فى أىّ صورة اقتضتها مشيئته وحكمته من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة ، والشبه ببعض الأقارب وخلاف الشبه . فإن قلت : هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ماقبلها ؟ قلت : لأنها بيان لعدلك . فإن قلت : بم يتعلق الجار ؟ قلت : يجوز أن يتعلق بركبك . على معنى : وضعك فى بعض الصور ومكنك فيه ، وبمحذوف : أى ركبك حاصلا فى بعض الصور ؛ ومحله النصب على الحال إن علق بمحذوف ويجوز أن يتعلق بعدلك ، ويكون فى (أى) معنى التعجب [1] ، أى فعدلك فى صورة عجيبة : ثم قال : ماشاء ركبك . أى . ركبك ماشاء من التراكيب ، يعنى تركيبا حسنا .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

﴿كلا﴾ ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله والتسلق به ، وهو موجب الشكر والطاعة ، إلى عكسهما الذى هو الكفر والمعصية . ثم قال ﴿بل تكذبون بالدين﴾ أصلا وهو الجزاء . أو دين الإسلام . فلا تصدّقون ثوابا ولا عقابا وهو شر من الطمع المنكر ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ تحقيق لما يكذبون به من الجزاء ، يعنى أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها . وفى تعظيم الكتبة بالثناء عليهم : تعظيم لأمر الجزاء . وأنه عند الله من جلائل الأمور ؛ ولولا ذلك لما وكل بضبط مايحاسب عليه ، ويجازى به الملائكة الكرام الحفظة الكتبة . وفيه إنذار وتهويل وتشوير للعصاة [2] ولطف للمؤمنين . وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال : ما أشدها من آية على الغافلين .

---

(١) قوله «معنى التعجب» لعله : التعجيب . (ع)

(٢) قوله «وتشوير العصاة» أى إخجال اه كذا بهامش . وفى الصحاح «الشوار» : الفرج . ومنه قيل : شوربه أى كأنه أبدى عورته . (ع)

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)

﴿وماهم عنها بغائبين﴾ كقوله (وماهم بخارجين منها) ويجوز أن يراد: يصلون النار يوم الدين ومايغيبون عنها قبل ذلك، يعنى: فى قبورهم. وقيل: أخبر الله فى هذه السورة أنّ لابن آدم ثلاث حالات: حال الحياة التى يحفظ فيها عمله، وحال الآخرة التى يجازى فيها، وحال البرزخ وهو قوله (وماهم عنها بغائبين).

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)

يعنى أن أمر يوم الدين بحيث لاتدرك دراية دار كنهه فى الهول والشدّة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه، والتكرير لزيادة التهويل، ثم أجمل القول فى وصفه فقال ﴿يوم لاتملك نفس لنفس شيأ﴾ أى لاتستطيع دفعا عنها ولانفعا لها بوجه ولاأمر إلا لله وحده. من رفع فعلى البدل من يوم الدين، أو على: هو يوم لاتملك. ومن نصب فبإضمار يدانون؛ لأنّ الدين يدل عليه. أو بإضمار اذكر. ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو فى محل الرفع.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة وبعدد كل قبر حسنة». [1]

---

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب.

سورة المطففين

مكية ، وآياتها ٣٦ [نزلت بعد العنكبوت ، وهى آخر سورة نزلت بمكة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)

التطفيف : البخس فى الكيل والوزن : لأنّ ما يبخس شىء طفيف حقير . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلا ، فنزلت ، فأحسنوا الكيل[1] وقيل : قدمها وبها رجل يعرف بأبى جهينة ومعه صاعان : يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر[2] . وقيل : كان أهل المدينة تجارا يطففون ، وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة . فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها[3] عليهم . وقال : «خمس بخمس» . قيل : يارسول الله ، وماخمس بخمس ؟ قال «مانقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوّهم ، وماحكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر[4]» ، وعن على رضى الله عنه : أنه مر برجل يزن الزعفران وقد أرجح فقال له : أقم الوزن بالقسط ، ثم أرجح بعد ذلك ماشئت . كأنه أمره بالتسوية أولا ليعتادها ويفصل الواجب من النفل . وعن ابن عباس : إنكم معشر الأعاجم وليتم أمرين : بهما هلك من كان قبلكم : المكيال والميزان ؛ وخص الأعاجم لأنهم يجمعون الكيل والوزن جميعا وكانا مفرّقين فى الحرمين : كان أهل مكة يزنون

(١) أخرجه النسائى وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) نقله الثعلبى عن السدى .

(٣) لم أجده .

(٤) أخرجه الحاكم من رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه «مانقض قوم العهد ... الحديث» وفيه بشر ابن المهاجر . وفيه مقال ؛ ومن طريق عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن عمرو مرفوعا نحوه .

وأهل المدينة يكيلون . وعن ابن عمر أنه كان يمر بالبائع فيقول له : اتق الله وأوف الكيل ، فإنّ المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إن العرق ليلجمهم . وعن عكرمة : أشهد أنّ كل كيال ووزان فى النار ، فقيل له : انّ ابنك كيال أو وزان ؛ فقال : أشهد أنه فى النار . وعن أبىّ رضى الله عنه : لا تلتمس الحوائج ممن رزقه فى رؤس المكاييل وألسن الموازين . لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم[1] ويتحامل فيه عليهم : أبدل «على» مكان «من» للدلالة على ذلك . ويجوز أن يتعلق «على» بيستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل لإفادة الخصوصية ، أى : يستوفون على الناس خاصة ؛ فأما أنفسهم فيستوفون لها : وقال الفراء «من» و«على» يعتقبان فى هذا الموضع . لأنه حق عليه ؛ فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ؛ وإذا قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك . والضمير فى ﴿ كالوهم أو وزنوهم ﴾ ضمير منصوب راجع إلى الناس . وفيه وجهان : أن يراد : كالوا لهم أو وزنوا لهم ؛ فحذف الجار وأوصل الفعل ، كما قال :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلاً ... وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ نَبَاتِ الأَوْبَرِ[2]

والحريص يصيدك لا الجواد ، بمعنى : جنيت لك ، ويصيد لك . وأن يكون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . والمضاف هو المكيل أو الموزون ، ولا يصح أن يكون ضميراً مرفوعا للمطففين ، لأنّ الكلام يخرج به إلى نظم فاسد ؛ وذلك أنّ المعنى : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا أعطوهم أخسروا ؛ وإن جعلت الضمير للمطففين انقلب إلى قولك : إذا أخذوا من الناس استوفوا ، وإذا تولوا الكيل أو الوزن هم على الخصوص أخسروا ، وهو كلام متنافر

---

(١) قال محمود : «لما كان اكتيالهم على الناس اكتيالا يضرهم ... الخ» قال أحمد : لا منافرة فيه ، ولا يجعل هذا القائل الضمير دالا على مباشرة ولا إضمار أيضا فيه بذلك ، إنما يكون نظم الكلام على هذا الوجه : إذا كان الكيل من جهة غيرهم استوفوه ، وإذا كان الكيل من جهتهم خاصة أخسروه ، سواء باشروه أولا ، وهذا أنظم كلام وأحسنه والله أعلم ، والذى يدلك على أن الضمير لا يعطى مباشرة الفعل أن لك أن تقول : الأمراء هم الذين يقيمون الحدود لا السوقة ، ولست تعنى أنهم يباشرون ذلك بأنفسهم ؛ وإنما معناه أن فعل ذلك من جهتهم خاصة .

(٢) «جنى لا يتعدى إلا لواحد والثانى باللام ، فالأصل : جنيت لك ، فحذف الجار وأوصل الضمير . أو ضمنه معنى : أبحتك ، فعداه لهما . والأكمؤ : جمع كمأ ، كأفلس وفلس ؛ وهو واحد الكمأة ، وهى لنوع كبير من نبات يسمى شحمة الأرض ، سمى كمأة لاشتهاره بها . والعساقل : جمع عسقول كعصفور ، وكان حقه : عساقيل ؛ فحذفت الياء للوزن . وقيل : إنه جمع عسقل ، وهو نوع صغير منها جيد أبيض ، ونبات أوبر : نوع ردىء منها أسود مزغب ، كأن عليه وبر . وقيل : هو جنس آخر يشبه القلقاس أو الفت . ونبات أوبر : جمع ابن أوبر ، لأنه علم لما لا يعقل . وأل فيه زائدة . وقال المبرد : هو اسم جنس ، قال فيه معرفة ، والبيت من باب التمثيل لحال من أغرى على الطيب ، فعدل إلى الخبيث ، ثم رجع يتندم على عاقبته .

لأنّ الحديث واقع فى الفعل لا فى المباشر، والتعلق فى إبطاله بخط المصحف، وأنّ الألف التى تكتب بعد واو الجمع غير ثابتة فيه: ركيك؛ لأنّ خط المصحف لم يراع فى كثير منه حدّ المصطلح عليه فى علم الخط، على أنى رأيت فى الكتب المخطوطة بأيدى الأئمة المتقنين هذه الألف مرفوضة لكونها غير ثابتة فى اللفظ والمعنى جميعاً؛ لأن الواو وحدها معطية معنى الجمع، وإنما كتبت هذه الألف تفرقة بين واو الجمع وغيرها فى نحو قولك: هم لم يدعوا، وهو يدعو؛ فمن لم يثبتها قال: المعنى كاف فى التفرقة بينهما. وعن عيسى بن عمر وحمزة: أنهما كانا يرتكبان ذلك، أى يجعلان الضميرين للمطففين، ويقفان عند الواوين وقيفة يبينان بها ما أرادا. فإن قلت: هلا قيل: أو اتزنوا، كما قيل (أو وزنوهم)؟ قلت: كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، لأنهم يدعدعون[1] ويحتالون فى الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فى النوعين جميعاً ﴿يخسرون﴾ ينقصون. يقال: خسر الميزان[2] وأخسره ﴿ألا يظن﴾ إنكار وتعجيب عظيم من حالهم فى الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً ﴿أنهم مبعوثون﴾ ومحاسبون على مقدار الذرّة والخردلة. وعن قتادة: أوف يا ابن آدم كما تحب أن يوفى لك، واعدل كما تحب أن يعدل لك. وعن الفضيل: بخس الميزان سواد الوجه يوم القيامة. وعن عبد الملك بن مروان: أن أعرابياً قال له: قد سمعت ما قال الله فى المطففين: أراد بذلك أن المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذى سمعت به، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن. وفى هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته برب العالمين: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم فى التطفيف وفيما كان فى مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط، والعمل على السوية والعدل فى كل أخذ وإعطاء، بل فى كل قول وعمل. وقيل: الظنّ بمعنى اليقين، والوجه ما ذكر؛ ونصب ﴿يوم يقوم﴾ بمبعوثون. وقرئ بالجر بدلا من (يوم عظيم) وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ قوله (يوم يقوم الناس لرب العالمين) بكى نحيباً وامتنع من قراءة ما بعده.

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾

---

(١) قوله «يدعدعون ويحتالون» فى الصحاح الدعدعة تحريك المكيال ونحوه ليسعه الشيء. ودعدعت الشيء: ملأته. (ع)

(٢) قوله «يقال خسر الميزان» عبارة الصحاح: خسرت الشيء وأخسرته: نقصته. (ع)

﴿ كلا ﴾ ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكر البعث والحساب ، ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه ، ثم أتبعه وعيد الفجار على العموم . وكتاب الفجار : ما يكتب من أعمالهم . فإن قلت. قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه فى سجين ،وفسر سجينا بكتاب مرقوم : فكأنه قيل : إن كتابهم فى كتاب مرقوم . فما معناه : قلت : (سجين) كتاب جامع هو ديوان الشر : دون الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس . وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة . أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه ،فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت فى ذلك الديوان . وسمى سجيناً : فعيلا من السجن ، وهو الحبس والتضييق ، لأنه سبب الحبس والتضييق فى جهنم . أو لأنه مطروح ـ كما روى ـ تحت الأرض السابعة فى مكان وحش مظلم ، وهو مسكن إبليس وذريته استهانة به وإذالة [١]، وليشهده الشياطين المدحورون ، كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون . فإن قلت : فما سجين ، أصفة هو أم اسم ؟ قلت : بل هو اسم علم منقول من وصف كحاتم . وهو منصرف لأنه ليس فيه إلا سبب واحد وهو التعريف .

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)

﴿ الذين يكذبون ﴾ مما وصف به للذم لا للبيان ، كقولك فعل ذلك فلان الفاسق الخبيث ﴿ كلا ﴾ ردع للمعتدى الأثيم عن قوله ﴿ ران على قلوبهم ﴾ ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها: وهو أن يصر على الكبائر ويسوف التوبة حتى يطبع على قلبه . فلا يقبل الخير ولا يميل إليه . وعن الحسن : الذنب بعد الذنب حتى يسود القلب . يقال : ران عليه الذنب وغان عليه ، رينا وغينا ، والغين : الغيم ، ويقال : ران فيه النوم رسخ فيه ، ورانت به الخمر : ذهبت به . وقرئ بإدغام اللام فى الراء وبالإظهار ، والإدغام أجود . وأميلت الألف وفخمت ﴿ كلا ﴾ ردع عن

(١) قوله « استهانة به وإذالة » أى : إهانة ، كما فى الصحاح . (ع)

الكسب الرائن على قلوبهم . وكونهم محجوبين عنه : تمثيل [١] للاستخفاف بهم [٢] وإهانتهم ، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم ، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم . قال :

إِذَا اعْتَرَوْا بَابَ ذِي عُبِّيَّةٍ رُجِبُوا وَالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَرْجُوبٍ وَمَحْجُوبِ [٣]

عن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة : محجوبين عن رحمته . وعن ابن كيسان : عن كرامته :

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)

﴿ كلا ﴾ ردع عن التكذيب . وكتاب الأبرار : ما كتب من أعمالهم . وعليون : علم لديوان الخير الذي دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين ، منقول من جمع «عليّ» فعيل من العلو كسجين من السجن . سمي بذلك إما لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة ، وإما لأنه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون ، تكريماً له وتعظيما . روى «إن الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلونه ، فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله من سلطانة أوحى إليهم إنكم الحفظة على عبدي وأنا الرقيب على ما في قلبه ، وأنه أخلص عمله فاجعلوه في عليين ، فقد غفرت له؛ وإنها لتصعد بعمل العبد فيزكونه ، فإذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم : أنتم الحفظة على

---

(١) قال محمود : «وكونهم محجوبين عنه تمثيل ... الخ» قال أحمد : هذا عند أهل السنة على ظاهره من أدلة الرؤية ، فان الله تعالى لما خص الفجار بالحجاب دل على أن المؤمنين الأبرار مرفوع عنهم الحجاب ، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الادراك بالعين ؛ وإلا فالحجاب على الله تعالى بغير هذا التفسير محال ، هذا هو الحق وما بعد الحق إلا الضلال ، ومأرى من جحد الرؤية المدلول عليها بقواطع الكتاب والسنة يحظي بها ، والله المسئول في العصمة .

(٢) قوله «تمثيل للاستخفاف بهم» مبنى على مذهب المعتزلة : وهو عدم جواز الرؤية عليه تعالى . وذهب أهل السنة إلى جوازها . وفي النسفي : قال الزجاج : في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم ، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً . وقال الحسن بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده ، حجبهم في العقبى عن رؤيته . وقال مالك بن أنس : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلى لأوليائه حتى رأوه . وكذا في الخازن . وفيه أيضاً : قال الشافعي : في الآية دلالة على أن أولياء الله يرون الله جل جلاله .

(٣) غزوا : قصدوا . وروى : اعتروا ، أي : نزلوا به وأصابوه . والعبية : الكبر والفخر . قال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية بالآباء» الناس رجلان : مؤمن تقي وكافر شقي» . ورجبة الرجل : عظمته . يقول إنهم يلجون أبواب العظماء لا تمنعهم الحجاب ، بخلاف غيرهم فانهم تارة وتارة .

عبدى وأنا الرقيب على ما فى قلبه . وإنه لم يخلص لى عمله فاجعلوه فى سجين [١] » .

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿الأرائك﴾ الأسرة فى الحجال [٢] ﴿ينظرون﴾ إلى ماشاؤا مد أعينهم إليه من مناظر الجنة ، وإلى ماأولاهم الله من النعمة والكرامة ، وإلى أعدائهم يعذبون فى النار ، وماتحجب الحجال أبصارهم عن الإدراك ﴿نضرة النعيم﴾ بهجة التنعم وماءه ورونقه ، كما ترى فى وجوه الأغنياء وأهل الترفه . وقرئ : تعرف ، على البناء للمفعول . ونضرة النعيم ـ بالرفع . الرحيق الشراب الخالص الذى لاغش فيه ﴿مختوم﴾ تختم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطينة . وقيل ﴿ختامه مسك﴾ مقطعه رائحة مسك إذا شرب . وقيل : يمزج بالكافور ، ويختم مزاجه بالمسك . وقرئ : خاتمه ، بفتح التاء وكسرها ، أى : مايختم به ويقطع ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ فليرتغب المرتغبون ﴿تسنيم﴾ علم لعين بعينها : سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنمه إذا رفعه : إما لأنها أرفع شراب فى الجنة وإما لأنها تأتيهم من فوق ، على ماروى أنها تجرى فى الهواء متسنمة فتنصب فى أوانيهم . و ﴿عينا﴾ نصب على المدح . وقال الزجاج : نصب على الحال . وقيل : هى للمقربين ، يشربونها صرفا ، وتمزج لسائر أهل الجنة .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾

هم مشركو مكة : أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم : كانوا يضحكون

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد : أخبرنا أبو بكر ابن أبى مريم عن حمزة بن حبيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فذكره .

(٢) قوله « الأسرة فى الحجال » فى الصحاح : الحجلة ـ بالتحريك ـ : واحدة حجال العروس : وهى بيت يزين بالثياب والأسرة والستور . (ع)

من عمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزءون بهم. وقيل: جاء علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه. فنزلت قبل أن يصل علىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يتغامزون﴾ يغمز بعضهم بعضا، ويشيرون بأعينهم ﴿فكهين﴾ ملتذين بذكرهم والسخرية منهم، أى: ينسبون المسلمين إلى الضلال ﴿وما أرسلوا﴾ على المسلمين ﴿حافظين﴾ موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم، ويهيمنون على أعمالهم، ويشهدون برشدهم وضلالهم؛ وهذا تهكم بهم. أو هو من جملة قول الكفار، وإنهم إذا رأوا المسلمين قالوا: إنّ هؤلاء لضالون؛ وإنهم لم يرسلوا عليهم حافظين إنكاراً لصدهم إياهم عن الشرك، ودعائهم إلى الإسلام، وجدهم فى ذلك.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿على الأرائك ينظرون﴾ حال من ﴿يضحكون﴾ أى: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ماهم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر، ومن ألوان العذاب بعد النعيم والترفه: وهم على الأرائك آمنون. وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: اخرجوا إليها؛ فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم، يفعل ذلك بهم مراراً، فيضحك المؤمنون منهم. ثوّبه وأثابه: بمعنى، إذا جازاه. قال أوس:

سَأَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّى مُثَوِّبٌ   وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكَ وَتُحْمَدِى [1]

وقرئ بإدغام اللام فى الثاء.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة المطففين سقاه الله من الرحيق المختوم يوم القيامة[2]».

(١) لأوس بن حجر. ويقال: ثوبه وأثابه: إذا جازاه. فالمثوب المجازى أى: سأجزيك يافرسى بنفسى، أو يجزيك بدلا عنى مجاز غيرى. أومجازاة ناشئة عنى، وكافيك من الناس أن يثنوا عليك ويحمدوك؛ فعليك: نائب الفاعل. ويجوز أن يكون المثوب المنادى للحرب مشيرا بطرف ثوبه، ليرى من بعيد فيغاث.

(٢) أخرجه ابن مردويه والثعلبى والواحدى بسندهم إلى أبى بن كعب.

سورة الانشقاق

مكية ، وآياتها ٢٥ [نزلت بعد الانفطار]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥)

حذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب . أو اكتفاء بما علم فى مثلها من سورتى التكوير والانفطار . وقيل : جوابها مادلّ عليه (فملاقيه) أى إذا السماء انشقت لاقى الإنسان كدحه . ومعناه : إذا انشقت بالغمام ، كقوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) وعن على رضى الله عنه : تنشق من المجرة . أذن له : استمع له[1] . ومنه قوله عليه السلام : « ما أذن الله لشىء كأذنه لنبى يتغنى بالقرآن[2] » . وقول جحاف بن حكيم :

* أَذِنْتُ لَكُمْ لَمَّا سَمِعْتُ هَرِيرَكُمْ * [3]

والمعنى : أنها فعلت فى انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذى إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع ، كقوله (أتينا طائعين) . ﴿ وحقت ﴾ من قولك هو محقوق بكذا وحقيق به ، يعنى : وهى حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع . ومعناه الإيذان بأنّ القادر الذات[4] يجب أن يتأتى له كل مقدور ويحق ذلك ﴿ مدت ﴾ من مدّ الشىء فامتدّ :

(١) قال محمود : « معنى أذنت استمعت ... الخ » قال أحمد : نغص تفسير الآية بقوله : القادر بالذات ومابالة لايقول : القادر الذى عمت قدرته الكائنات ، حتى لا يكون إلا بقدرته : حقيق أن يسمع له ويطاع ، فيثبت لله صفة الكمال ، ويوحده حق توحيده : وهو خير من سلب صفة الكمال عن الله تعالى وإشراك مخلوقاته به ـ جل ربنا وعز ـ

(٢) متفق عليه ، وقد تقدم فى سورة إبراهيم .

(٣) أذنت لكم لما سمعت هريركم فأسمعتمونى بالخنا والفواحش

لجحاف بن حكيم . وأذنت : أصخت وأصغيت بأذنى لكلامكم حين سمعت صوتكم ، وضمن أسمعتمونى معنى : أعلمتمونى ، فعداه بالباء . ويجوز أنها زائدة . والخنا : الزنا وتوابعه مما يتعلق بالنساء ، والفواحش : أعم من ذلك

(٤) قوله « الايذان بأن القادر بالذات » هذا التعبير مبنى على مذهب المعتزلة من أنه تعالى قادر بذاته لا بقدرة زائدة على ذاته ، عالم بذاته لا بعلم زائد على ذاته . ومذهب أهل السنة : أنه قادر بقدرة زائدة على ذاته ، عالم بعلم زائد على ذاته ، وهكذا ، كما فى الحواشى

وهو أن تزال جبالها وآكامها وكل أمت فيها ، حتى تمتد وتنبسط ويستوى ظهرها ، كما قال تعالى (قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : مدّت مدّ الأديم العكاظى ؛ لأن الأديم إذا مدّ زال كل انثناء فيه وأمت واستوى أومن مدّه بمعنى أمدّه ، أى : زيدت سعة وبسطة ﴿وألقت مافيها﴾ ورمت بما فى جوفها ممادفن فيها من الموتى والكنوز ﴿وتخلت﴾ وخلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء فى باطنها ، كأنها تكلفت أقصى جهدها فى الخلو ، كما يقال : تكرم الكريم ، وترحم الرحيم : إذا بلغا جهدهما فى الكرم والرحمة ، وتكلفا فوق مافى طبعهما ﴿وأذنت لربها﴾ فى إلقاء مافى بطنها وتخليها .

يَـٰأَيُّهَا الإِنْسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

الكدح : جهد النفس فى العمل والكدّ فيه حتى يؤثر فيها ، من كدح جلده : إذا خدشه . ومعنى ﴿كادح إلى ربك﴾ جاهد إلى لقاء ربك ، وهو الموت ومابعده من الحال الممثلة باللقاء ﴿فلاقيه﴾ فملاق له لامحالة لامفرّ لك منه . وقيل : الضمير فى ملاقيه للكدح ﴿يسيرا﴾ سهلا هينا لايناقش فيه ولا يعترض بما يسوءه ويشق عليه ، كما يناقش أصحاب الشمال . وعن عائشة رضى الله عنها : هو أن يعرّف ذنوبه ، ثم يتجاوز عنه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يحاسب يعذب ، فقيل يارسول الله : فسوف يحاسب حسابا يسيرا . قال ذلكم العرض ، من نوقش فى الحساب عذب »[1] ﴿إلى أهله﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين . أو إلى فريق المؤمنين . أو إلى أهله فى الجنة من الحور العين ﴿وراء ظهره﴾ قيل : تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره . وقيل تخلع يده اليسرى من وراء ظهره . ﴿يدعو ثبورا﴾ يقول : ياثبوراه . والثبور : الهلاك . وقرئ : ويصلى سعيرا ، كقوله (وتصلية جحيم) ويصلى : بضم الياء والتخفيف ، كقوله (ونصله جهنم) . ﴿فى أهله﴾ فيما بين ظهرانيهم : أو معهم ، على أنهم كانوا جميعاً مسرورين ، يعنى أنه كان فى الدنيا مترفا بطرا مستبشراً كعادة

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

الفجار الذين لا يهمهم أمر الآخرة ولا يفكرون فى العواقب ، ولم يكن كئيبا حزينا متفكراً كعادة الصلحاء والمتقين وحكاية الله عنهم (إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين) . ﴿ظن أن لن يحور﴾ لن يرجع إلى الله تعالى تكذيبا بالمعاد . يقال: لا يحور ولا يحول ، أى : لا يرجع ولا يتغير . قال لبيد :

* يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ * (١)

وعن ابن عباس : ما كنت أدرى ما معنى يحور حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها : حورى ، أى : ارجعى ﴿بلى﴾ إيجاب لما بعد النفى فى (لن يحور) أى : بلى ليحورنّ ﴿إنّ ربه كان به بصيرا﴾ وبأعماله لا ينساها ولا تخفى عليه ، فلابدّ أن يرجعه ويجازيه عليها . وقيل : نزلت الآيتان فى أبى سلمة بن عبد الأشد وأخيه الأسود بن عبد الأشد .

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾

الشفق : الحمرة التى ترى فى المغرب بعد سقوط الشمس ، وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء ، إلا ما روى عن أبى حنيفة رضى الله عنه فى إحدى الروايتين : أنه البياض . وروى أسد بن عمرو : أنه رجع عنه ، سمى لرقته . ومنه الشفقة على الإنسان : رقة القلب عليه ﴿وما وسق﴾ وما جمع وضم ، يقال : وسقه فاتسق واستوسق . قال :

* مُسْتَوْسِقَاتٌ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقَا * (٢)

ونظيره فى وقوع افتعل واستفعل مطاوعين : اتسع واستوسع . ومعناه : وما جمعه وستره وآوى إليه من الدواب وغيرها ﴿إذا اتسق﴾ إذا اجتمع واستوى ليلة أربع عشرة . قرئ : لتركبن ، على خطاب الإنسان فى (يا أيها الانسان) ولتركبن ، بالضم على خطاب الجنس ، لان النداء للجنس ، ولتركبن بالكسر على خطاب النفس ، وليركبن بالياء على : ليركبن

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الرابع صفحة ١٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) إن لنا قلائصاً حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

القلائص : جمع قلوص وهى الفتية من الابل . والحقائق : جمع حقة ، التى استحقت الحمل عليها ؛ أو استحقت ضراب الفحل . ويقال : وسقه فاتسق واستوسق ، أى : جمع عليه الأحمال فتحمل ، أو جمعه فاجتمع ومستوسقات : متحملات أو مجتمعات ؛ ولو بمعنى إلى ، أى : واقفات إلى أن يجدن من يسوقهن فيسرن . ويروى : لو يجدن ، وفيه معنى التمنى . ويجوز أن جوابه مقدر ، أى : لأسرعن :

الإنسان . والطبق : ماطابق غيره . يقال : ماهذا بطبق لذا ، أى : لايطابقه . ومنه قيل للغطاء الطبق . وإطباق الثرى : ماتطابق منه ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها : طبق . ومنه قوله عز وعلا ﴿طبقا عن طبق﴾ أى حالا بعد حال : كل واحدة مطابقة لأختها فى الشدة والهول : ويجوز أن يكون جمع طبقة وهى المرتبة ، من قولهم : هو على طبقات . ومنه : طبق الظهر لفقاره الواحدة : طبقة ، على معنى : لتركبن أحوالا بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض . وهى الموت ومابعده من مواطن القيامة وأهوالها . فإن قلت : مامحل عن طبق ؟ قلت : النصب على أنه صفة لطبقاً ، أى : طبقا مجاوزاً لطبق . أوحال من الضمير فى لتركبن ، أى : لتركبن طبقاً مجاوزين لطبق . أومجاوزا . أومجاوزة ، على حسب القراءة : وعن مكحول : كل عشرين عاما تجدون أمرا لم تكونوا عليه .

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿لايسجدون﴾ لايستكينون ولايخضعون . وقيل . قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم (واسجد واقترب) فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر [١] ، فنزلت . وبه احتج ابو حنيفة رضى الله عنه على وجوب السجدة . وعن ابن عباس ليس فى المفصل سجدة . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أنه سجد فيها وقال : والله ماسجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد [٢] فيها . وعن أنس : صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان فسجدوا . وعن الحسن : هى غير واجبة ﴿الذين كفروا﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿بما يوعون﴾ بما يجمعون فى صدورهم ويضمرون من الكفر والحسد والبغى والبغضاء . أو بما يجمعون فى صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب ﴿إلا الذين آمنوا﴾ استثناء منقطع .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة انشقت أعاذه الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره » [٣] .

(١) لم أجده .
(٢) متفق عليه بمعناه .
(٣) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه باسنادهم الى أبى بن كعب .

سورة البروج

مكية ، وآياتها ٢٢ [نزلت بعد الشمس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)

هى البروج الاثنا عشر ، وهى قصور السماء على التشبيه . وقيل : ﴿البروج﴾ النجوم التى هى منازل القمر . وقيل : عظام الكواكب . سميت بروجا لظهورها . وقيل : أبواب السماء ﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة ﴿وشاهد ومشهود﴾ يعنى وشاهد فى ذلك اليوم ومشهود فيه . والمراد بالشاهد : من يشهد فيه من الخلائق كلهم ؛ وبالمشهود : مافى ذلك اليوم من عجائبه . وطريق تنكيرهما : إما ماذكرته فى قوله (علمت نفس ماأحضرت) كأنه قيل : وما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود . وإما الإبهام فى الوصف ، كأنه قيل : وشاهد مشهود لا يكتنه وصفهما . وقد اضطربت أقاويل المفسرين فيهما ؛ فقيل : الشاهد والمشهود : محمد صلى الله عليه وسلم ، ويوم القيامة . وقيل : عيسى . وأمته . لقوله (وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم) وقيل : أمة محمد ، وسائر الأمم : وقيل : يوم التروية ، ويوم عرفة . وقيل : يوم عرفة ، ويوم الجمعة . وقيل . الحجر الأسود ، والحجيج . وقيل : الأيام والليالى ، وبنو آدم . وعن الحسن : مامن يوم إلا وينادى : إنى يوم جديد وإنى على مايعمل فىّ شهيد ؛ فاغتنمنى ، فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم القيامة : وقيل : الحفظة وبنو آدم . وقيل : الأنبياء ومحمد عليه السلام .

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩)

فإن قلت : أين جواب القسم ؟ قلت : محذوف يدل عليه قوله ﴿قتل أصحاب الاخدود﴾ كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون ، يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود ؛ وذلك

أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم: من التعذيب على الإيمان. وإلحاق أنواع الأذى، وصبرهم وثباتهم، حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار، ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش، كما قيل: قتل أصحاب الأخدود وقتل: دعاء عليهم، كقوله (قتل الإنسان ما أكفره) وقرئ: قتّل، بالتشديد. والأخدود: الخد فى الأرض وهو الشق، ونحوهما بناء ومعنى: الخق والأخقوق. ومنه فساخت قوائمه فى أخاقيق جرذان [١]. روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضمّ إليه غلاما ليعلمه السحر، وكان فى طريق الغلام راهب: فسمع منه، فرأى فى طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس. فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان الراهب أحبّ إليك من الساحر فاقتلها؛ فقتلها؛ فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفى من الأدواء، وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله فقال: من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربى؛ فغضب فعذبه. فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدّ بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته، فدعا فرجف بالقوم، فطاحوا ونجا، فذهب به إلى قرقور [٢] فلججوا به ليغرقوه، فدعا فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتى وتقول: بسم الله رب الغلام، ثم ترمينى به. فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه ومات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام؛ فقيل للملك. نزل بك ما كنت تحذر؛ فأمر بأخاديد فى أفواه السكك وأوقدت فيها النيران فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبى فتقاعست [٣] أن تقع فيها، فقال الصبى: يا أماه، اصبرى فإنك على الحق؛ فاقتحمت. وقيل: قال لها قعى ولا تنافقى. وقيل: قال لها ماهى إلا غميضة فصبرت [٤]. وعن على رضى الله عنه: أنهم حين اختلفوا فى أحكام المجوس قال: هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أحلت لهم، فتناولها بعض ملوكهم فسكر، فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج. فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول: يا أيها الناس، إنّ الله أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول: إن الله حرّمه؛ فخطب فلم يقبلوا منه

---

(١) قوله «جرذان» فى الصحاح «الجرذ»: ضرب من الفار والجمع: الجرذان. (ع)

(٢) قوله «قرقور» فى الصحاح «القرقور»: السفينة الطويلة. (ع)

(٣) قوله «فتقاعست» فى الصحاح «تقاعس»: إذا تأخر عن الأمر ولم يتقدم. (ع)

(٤) أخرجه مسلم. والترمذى والنسائى وابن حبان والطبرى والطبرانى وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار كلهم من رواية ابن أبى ليلى من طرق وأقربها إلى لفظ الكتاب سياق الطبرى. تفرد به ثابت البنانى عن عبدالرحمن.

فقالت له : ابسط فيهم السوط : فلم يقبلوا ؛ فقالت له : ابسط فيهم السيف ، فلم يقبلوا ؛ فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران وطرح من أبى فيها ؛ فهم الذين أرادهم الله بقوله (قتل أصحاب الأخدود)[1] وقيل : وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام ، فدعاهم فأجابوه فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا ، فأحرق منهم اثني عشر ألفا في الأخاديد . وقيل : سبعين ألفا[2] ؛ وذكر أنّ طول الأخدود : أربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا .[3] وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوّذ من جهد البلاء[4] ﴿النار﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذات الوقود﴾ وصفها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس ، وقرئ : الوقود ، بالضم ﴿إذا﴾ ظرف لقتل ، أى لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها . ومعنى ﴿عليها﴾ على ما يدنو منها من حافات الأخدود ، كقوله :

* وَبَاتَ عَلَى النَّـارِ النَّدَى وَالْمُحَلِّقُ * [5]

وكما تقول : مررت عليه ، تريد : مستعليا لمكان يدنو منه . ومعنى شهادتهم على إحراق المؤمنين : أنهم وكلوا بذلك وجعلوا شهودا يشهد بعضهم لبعض عند الملك أنّ أحدا منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب . ويجوز أن يراد : أنهم شهود على ما يفعلون بالمؤمنين ، يؤدون شهادتهم يوم القيامة (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) . ﴿وما نقموا منهم﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :

* وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَـيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ * [6]

قال ابن الرقيات :

مَانَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلاَّ ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا [7]

(١) أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى . والطبري والطبراني . وأحمد وإسحاق والبزار كلهم من رواية عبدالرحمن بن حميد والطبري من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن عبدالرحمن بن أبزى قال « لما هزم المسلمون أهل الاسفيذبان انصرفوا فجاءهم يعني عمر رضي الله عنه . فاجتمعوا فقالوا . أي شيء يجرى على المجوس من الأحكام؟ فانهم ليسوا أهل كتاب . وليسوا من مشركي العرب . فقال : هم أهل الكتاب . فذكره . وسياق الطبري أتم منه

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة . حدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب . فذكره مطولا .

(٣) نقله الثعلبي عن الكلبي .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي أسامة عن عوف عن الحسن بهذا .

(٥) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٥٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٦) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة ١٤٢ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٧) لقيس الرقيات . ونقموا كرهوا : وحلم كظرف : صفح . يقول: إنهم جعلوا أحسن الأشياء وهو =

وقرأ أبو حيوة : نقموا ، بالكسر ، والفصيح : هو الفتح . وذكر الأوصاف التي يستحق بها أن يؤمن به ويعبد ، وهو كونه عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه حميدا منعما . يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه (له ملك السموات والأرض) فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقديرا ، لأن (مانقموا منهم) هو الحق الذى لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغيّ . وإن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يعدله عذاب ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ وعيد لهم ، يعني أنه علم مافعلوا ، وهو مجازيهم عليه .

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

ويجوز أن يريد بالذين فتنوا : أصحاب الأخدود خاصة ، وبالذين آمنوا : المطروحين في الأخدود . ومعنى فتنوهم : عذبوهم بالنار وأحرقوهم ﴿فلهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب جهنم﴾ بكفرهم ﴿ولهم عذاب الحريق﴾ وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين . أو لهم عذاب جهنم في الآخرة ، ولهم عذاب الحريق في الدنيا ، لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم . ويجوز أن يريد : الذين فتنوا المؤمنين ، أي : بلوهم بالأذى على العموم ؛ والمؤمنين : المفتونين ؛ وأن للفاتنين عذابين في الآخرة : لكفرهم ، ولفتنتهم .

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

البطش : الأخذ بالعنف ؛ فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم : وهو بطشه بالجبابرة والظلمة ، وأخذهم بالعذاب والانتقام ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ أي يبدئ البطش ويعيده ، يعني : يبطش بهم في الدنيا وفي الآخرة . أو دل باقتداره على الابداء والاعادة على شدة بطشه . وأوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذ لم يشكروا نعمة الابداء وكذبوا بالاعادة .

═ الحلم عند الغضب قبيحا . ويجوز أن فاعل الفعلين ضمير بنى أمية . ويجوز أن الأول لهم ، والثاني : للناقمين . وفيه استتباع المدح بما يشبه الذم للمبالغة في المدح ، حيث جعل الحلم عند الغضب ذما ، مع أنه غاية في المدح . ويروى ما نقم الناس ، وعليها فالصواب إسقاط «بني» لأجل الوزن .

وقرئ : يبدأ ﴿الودود﴾ الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود : من إعطائهم ما أرادوا . وقرئ : ذى العرش ، صفة لربك . وقرئ : المجيد ، بالجر صفة للعرش . ومجدالله : عظمته . ومجد العرش : علوه وعظمته ﴿فعال﴾ خبر مبتدأ محذوف . وإنما قيل : فعال ؛ لأنّ مايريد ويفعل فى غاية الكثرة[1] .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

﴿فرعون وثمود﴾ بدل من الجنود . وأراد بفرعون إياه وآله ، كما فى قوله (من فرعون وملئهم) والمعنى : قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿بل الذين كفروا﴾ من قومك ﴿فى تكذيب﴾ أىّ : تكذيب واستيجاب للعذاب ، والله عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لايعجزونه . والاحاطة بهم من ورائهم : مثل لأنهم لايفوتونه ، كما لايفوت فائت الشىء المحيط به . ومعنى الاضراب : أن أمرهم أعجب من أمر أولئك ، لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم ، ورأوا آثار هلاكهم ولم يعتبروا ، وكذبوا أشد من تكذيبهم ﴿بل هو﴾ أى بل هذا الذى كذبوا به ﴿قرآن مجيد﴾ شريف عالى الطبقة فى الكتب وفى نظمه وإعجازه . وقرئ : قرآن مجيد ، بالاضافة ، أى : قرآن رب مجيد . وقرأ يحيى بن يعمر : فى لوح . واللوح : الهواء[2] ، يعنى : اللوح فوق السماء السابعة الذى فيه اللوح ﴿محفوظ﴾ من وصول الشياطين إليه . وقرئ : محفوظ ، بالرفع صفة القرآن .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل يوم جمعة وكل يوم عرفة يكون فى الدنيا عشر حسنات[1] » .

---

(١) قال محمود : « إنما يقال فعال لأن مايريد ويفعل فى غاية الكثرة » قال أحمد : ماقدر الله حق قدره ، هلا قال : إنه لا فاعل إلا هو ، وهل المخالف لذلك إلا مشرك ، وكم أراد الله تعالى على معتقد القدرية من فعل فلم يفعله ، وهب أنا طرحنا النظر فى مقتضى مبالغة الصيغة ، أليس قد دل بقوله (لما يريد) على عموم فعله فى جميع مراده ، فما رده إلى الخصوص إلا نكوص عن النصوص .

(٢) قوله « واللوح الهواء » فى الصحاح « اللوح » بالضم : الهواء بين السماء والأرض . (ع)

(٣) أخرجه الواحدى والثعلبى وابن مردويه باسنادهم إلى بن كعب .

سورة الطارق

مكية ، وآياتها ١٧ [نزلت بعد البلد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)

(النجم الثاقب) المضيء ، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، كما قيل : درّىء ، لأنه يدرؤه ، أي : يدفعه . ووصف بالطارق ؛ لأنه يبدو بالليل ، كما يقال للآتي ليلا : طارق : أو لأنه يطرق الجني ، أي يصكه . والمراد : جنس النجوم ، أو جنس الشهب التي يرجم بها . فإن قلت : ما يشبه قوله (وما أدراك ما الطارق : النجم الثاقب) إلا ترجمة كلمة بأخرى ، فبين لى أى فائدة تحته ؟ قلت : أراد الله عز من قائل : أن يقسم بالنجم الثاقب تعظيما له ، لما عرف فيه من عجيب القدرة ولطيف الحكمة . وأن ينبه على ذلك فجاء بما هو صفة مشتركة بينه وبين غيره ، وهو الطارق ، ثم قال : (وما أدراك ما الطارق ؟) ثم فسره بقوله (النجم الثاقب) كل هذا إظهار لفخامة شأنه ، كما قال (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) روى أنّ أبا طالب كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانحط نجم ، فامتلأ ما ثم نورا . فجزع أبو طالب وقال : أي شيء هذا ؟ فقال عليه السلام : هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله ، فعجب أبو طالب[١] ، فنزلت .

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)

فإن قلت : ما جواب القسم ؟ قلت (إن كل نفس لما عليها حافظ) لأنّ «إن» لا تخلو فيمن قرأ لما مشددة ، بمعنى : إلا أن تكون نافية . وفيمن قرأها مخففة على أن «ما» صلة تكون مخففة من الثقيلة ، وأيتهما كانت فهي مما يتلقى به القسم ، حافظ مهيمن عليها رقيب ، وهو الله عز وجل (وكان الله على كل شيء رقيبا) ، (وكان الله على كل شيء مقيتا) وقيل : ملك يحفظ عملها ويحصى عليها ما تكسب من خير وشر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : «وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب . ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين[٢]» .

---

(١) هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير إسناد .

(٢) أخرجه الطبراني من رواية عفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبي أمامة به وأتم منه . وعفير ضعيف .

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)

فإن قلت : ماوجه اتصال قوله ﴿فلينظر﴾ بما قبله ؟ قلت : وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا ، أتبعه توصية الإنسان بالنظر فى أول أمره ونشأته الأولى ، حتى يعلم أنّ من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا مايسره فى عاقبته ؛ و﴿مم خلق﴾ استفهام جوابه ﴿خلق من ماء دافق﴾ والدفق: صبٌّ فيه دفعٌ. ومعنى دافق : النسبة إلى الدفق الذى هو مصدر دفق، كاللابن والتامر . أو الاسناد المجازى . والدفق فى الحقيقة لصاحبه ، ولم يقل ماءين لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما حين ابتدئ فى خلقه ﴿من بين الصلب والترائب﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة : وهى عظام الصدر حيث تكون القلادة . وقرئ : الصلب ـ بفتحتين ، والصلب بضمتين . وفيه أربع لغات : صلب ، وصلب ، وصلب وصالب . قال العجاج : * فى صُلُبٍ مِثْلِ الْعِنَانِ الْمُؤْدَمِ *[1]

وقيل : العظم والعصب من الرجل ، واللحم والدم من المرأة .

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)

﴿إنه﴾ الضمير للخالق ، لدلالة خلق عليه . ومعناه : إنّ ذلك الذى خلق الانسان ابتداء من نطفة ﴿على رجعه﴾ على إعادته خصوصا ﴿لقادر﴾ لبين القدرة لا يلتاث[2] عليه ولا يعجز عنه . كقوله : إننى لفقير[3] ﴿يوم تبلى﴾ منصوب برجعه ؛ ومن جعل الضمير فى (رجعه) للماء

---

(١) ريا العظام فخمة المخدم   فى صلب مثل العنان المؤدم

للعجاج . والريا : تأنيث الريان ، أى : لينة العظام : سمينة محل الخدام وهو الخلخال . والمخدم ـ بالتشديد ـ على اسم المفعول . والصلب ـ بضمتين ، وبفتحتين ، وبضم فسكون ـ : عظام الظهر ، والمراد هنا : الخصر . وفى بمعنى مع ، أى : وصفت بهذه الصفات ، مع أن لها خصرا رقيقا لينا ، مثل العنان المؤدم . على اسم المفعول ، أى : المؤلف بالفتل ، يقال : أدم بينهما ـ بقصر الهمزة ومدها ـ : بمعنى ألف وأصلح . أو المجعول له أدمة . أو لين الأدمة ـ بفتحتين ، وهى الجلدة المدبوغة المصلحة ، من أدمه بالمد : جعل له أدمة . والفخمة بالضم : الضخامة واسترخاء الرجلين . والفخمة ـ بالفتح ـ : وصف منه .

(٢) قوله «لا يلتاث عليه» فى الصحاح «التاث فى عمله» : أى أبطأ . (ع)

(٣) قوله «كقوله إننى لفقير» أى الشاعر ، حيث قال :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلى   لأفقر منى إننى لفقير   (ع)

وقد تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وفسره برجعه إلى مخرجه من الصلب والترائب أو الإحليل . أو إلى الحالة الاولى نصب الظرف بمضمر ﴿السرائر﴾ ما أسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، وما أخفى من الأعمال . وبلاؤها. تعرّفها وتصفحها ، والتميز بين ما طاب منها وما خبث . وعن الحسن أنه سمع رجلا ينشد :

سَيَبْقَى لَهَا فِى مُضْمَرِ القَلْبِ وَالْحَشَا ... سَرِيرَةُ وُدٍّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (١)

فقال : ما أغفله عما فى (والسماء والطارق) ؟ ﴿فماله﴾ فما للإنسان ﴿من قوة﴾ من منعة فى نفسه يمتنع بها ﴿ولا ناصر﴾ ولا مانع يمنعه .

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)

سمى المطر رجعاً ، كما سمى أوبا . قال :

رَبَّاءُ شَمَّاءُ لَا يَأْوِى لِقُلَّتِهَا ... إِلَّا السَّحَابُ وَإِلَّا الأَوْبُ وَالسَّبَلُ (٢)

تسمية بمصدرى : رجع ، وآب ؛ وذلك أنّ العرب كانوا يزعمون أنّ السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض . أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعاً . وأوبا ، ليرجع ويؤب . وقيل : لأنّ الله يرجعه وقتاً فوقتاً . قالت الخنساء : كالرجع فى المدجنة السارية . والصدع : ما يتصدّع عنه الأرض من النبات ﴿إنه﴾ الضمير للقرآن ﴿فصل﴾ فاصل بين

(١)
إذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر
سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

لمجنون بنى عامر صاحب ليلى العامرية . وسلا عنه سلوة وسلوا : صد عنه وأعرض ، وشبه بعث الحب إياه وحمله على دوام المودة بقول القائل على طريق التصريحية ، وتسمية الحب شافعاً : ترشيح . ومن بيانية . ويحتمل أنها تجريدية دلالة على أن الحب بلغ نهاية الشدة حتى حمل على دوام المودة فانتزع منه غيره وأسند له الفعل . ويجوز أنها تبعيضية دالة على أن بعضه يكفى فى الشفاعة . وقوله « المقابر » أى دخولها ، كناية عن الموت . والمراد : التأبيد ، بدليل ما بعده . ومضمر القلب : المضمر فى القلب . أو مضمر هو القلب . وتبلى : مبنى للفاعل ، أى : تفنى . ويحتمل بناءه للمفعول ، أى : تختبر . والحشا - بالفتح - : عطف على القلب أعم منه ، دلالة على أن الحب فى غير قلبه أيضا .

(٢) للمتنخل الهذلى يرثى ابنه . وقيل : يصف رجلا بأنه رباء ، أى طلاع من ربأ وارتبأ : إذا طلع لينظر إلى أمر . ومنه الربيئة : وإضافته إلى شماء من إضافة الوصف لمفعوله : وهى القلعة المرتفعة من الشمم وهو الارتفاع . وقلة الجبل وقنته : رأسه وأعلاه . والأوب : النحل ، لأنه يذهب ويؤوب إلى بيته . أو المطر ؛ لأن أصله من بحار الأرض على زعم العرب ، ثم يؤوب إليها . والسبل - بالتحريك - : المطر من أسبلت الستر إذا أرسلته وأرخيته ، وعلى أن الأوب بمعنى النحل لا مناسبة بينه قريبة ، وعلى أنه بمعنى المطر ، فالسبل مرادف له .

الحق والباطل، كما قيل له فرقان ﴿وما هو بالهزل﴾ يعنى أنه جدّ كله لا هوادة فيه. ومن حقه ـ وقد وصفه الله بذلك ـ أن يكون مهيباً فى الصدور، معظما فى القلوب، يترفع به قارئه وسامعه وأن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح، وأن يلقى ذهنه إلى أنّ جبار السموات يخاطبه فيأمره وينهاه، ويعده ويوعده، حتى إن لم يستفزه الخوف ولم تتبالغ فيه الخشية، فأدنى أمره أن يكون جادّا غير هازل، فقد نعى الله ذلك على المشركين فى قوله (وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون)، (والغوا فيه).

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

﴿إنهم﴾ يعنى أهل مكة يعملون المكايد فى إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق، وأنا أقابلهم بكيدى: من استدراجى لهم وانتظارى بهم الميقات الذى وقته للانتصار منهم ﴿فمهل الكافرين﴾ يعنى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به ﴿أمهلهم رويدا﴾ أى إمهالا يسيراً؛ وكرّر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات»[1].

سورة الأعلى

مكية، وآياتها ١٩ [نزلت بعد التكوير]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

تسبيح اسمه عزّ وعلا: تنزيهه عما لا يصح فيه من المعانى التى هى إلحاد فى أسمائه، كالجبر

(١) أخرجه الواحدى والثعلبى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب.

والتشبيه ونحو ذلك ، مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذى هو القهر والاقتدار ، لا بمعنى العلوّ فى المكان والاستواء على العرش حقيقة ؛ وأن يصان عن الابتذال والذكر ، لا على وجه الخشوع والتعظيم . ويجوز أن يكون (الأعلى) صفة للرب ، والاسم ؛ وقرأ على رضى الله عنه : سبحان ربى الأعلى . وفى الحديث لما نزلت : فسبح باسم ربك العظيم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعلوها فى ركوعكم » فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال : « اجعلوها فى سجودكم »[١] وكانوا يقولون فى الركوع : اللهم لك ركعت ، وفى السجود : اللهم لك سجدت ﴿خلق فسوّى﴾ أى خلق كل شىء فسوّى خلقه تسوية ، ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر عن عالم ، وأنه صنعة حكيم ﴿قدّر فهدى﴾ قدّر لكل حيوان ما يصلحه ، فهداه إليه وعرّفه وجه الانتفاع به . يحكى أنّ الأفعى إذا أتت عليها ألف سنة عميت ، وقد ألهمها الله أنّ مسح العين بورق الرازيانج الغض يرد إليها بصرها ، فربما كانت فى برية بينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوى تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم فى بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها ، فتحك بها عينيها وترجع باصرة بإذن الله . وهدايات الله للإنسان إلى مالا يحدّ من مصالحه ومالا يحصر من حوائجه فى أغذيته وأدويته ، وفى أبواب دنياه ودينه ، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض : باب واسع ، وشوط بطين[٢] ، لا يحيط به وصف واصف ؛ فسبحان ربى الأعلى . وقرئ : قدر ، بالتخفيف (أحوى) صفة لغثاء ، أى ﴿أخرج المرعى﴾ أنبته ﴿فجعله﴾ بعد خضرته ورفيفه ﴿غثاء أحوى﴾ دربنا[٣] أسود . ويجوز أن يكون (أحوى) حالا من المرعى ، أى : أخرجه أحوى أسود من شدّة الخضرة والرى ، فجعله غثاء بعد حوّيه .

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾

بشره الله بإعطاء آية بينة ، وهى : أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحى وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ ، فيحفظه ولا ينساه ﴿إلا ما شاء الله﴾ فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته ، كقوله (أو ننسها) وقيل : كان يعجل بالقراءة إذا لقنه جبريل ، فقيل : لا تعجل ، فإنّ جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءة مكررة إلى أن تحفظه ؛ ثم لا تنساه إلا ما شاء الله ، ثم تذكره بعد النسيان . أو قال : إلا ما شاء الله ، يعنى : القلة والندرة ، كما روى أنه أسقط آية فى

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان وأحمد من رواية إياس بن عامر عن عقبة بن عامر به .

(٢) قوله « وشوط بطين » أى بعيد أفاده الصحاح . (ع)

(٣) الدرين : حطام المرعى إذا قدم ، كذا فى الصحاح . (ع)

قراءته في الصلاة، فحسب أبيّ أنها نسخت، فسأله فقال: نسيتها[1]. أو قال: إلا ما شاء الله، الغرض نفي النسيان رأسا كما يقول الرجل لصاحبه أنت سهيمي فيما أملك إلا فيما شاء الله ولا يقصد استثناء شيء وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وقيل: قوله (فلا تنسى) على النهي، والألف مزيدة للفاصلة، كقوله (السبيلا) يعني: فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه، إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة (إنه يعلم الجهر) يعني أنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التفلت، والله يعلم جهرك معه وما في نفسك مما يدعوك إلى الجهر، فلا تفعل، فأنا أكفيك ما تخافه. أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وبطن من أحوالكم، وما هو مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه، فينسى من الوحي ما يشاء؛ ويترك محفوظا ما يشاء.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)

(ونيسرك لليسرى) معطوف على (سنقرئك) وقوله (إنه يعلم الجهر وما يخفى) اعتراض ومعناه: ونوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل، يعني: حفظ الوحي[2]. وقيل للشريعة السمحة التي هي أيسر الشرائع وأسهلها مأخذاً. وقيل: نوفقك لعمل الجنة. فإن قلت: كان الرسول صلى الله عليه وسلم مأموراً بالذكرى نفعت أو لم تنفع، فما معنى اشتراط النفع؟ قلت: هو على وجهين، أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوّاً وطغيانا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا، ويزداد جداً في تذكيرهم وحرصا عليه، فقيل له (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد)، (وأعرض عنهم وقل سلام)، (وذكر إن نفعت الذكرى) وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير. والثاني: أن يكون ظاهره شرطا، ومعناه ذمّا للمذكرين، وإخباراً عن حالهم، واستبعاداً لتأثير الذكرى فيهم، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم، كما تقول للواعظ: عظ المكاسين إن سمعوا منك. قاصداً بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون (سيذكر) فيقبل التذكرة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والنسائي والبخاري في جزء القراءة. والطبري من رواية زر عن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر فقرأ آية فذكر الحديث» وأخرجه أبو بشر الدولابي من هذا الوجه فقال: عن سعيد عن أبيه عن أبي بن كعب ... فذكره.

(٢) قوله «يعني حفظ الوحي» لعله: يعني في حفظ الوحي. (ع)

وينتفع بها ﴿من يخشى﴾ الله وسوء العاقبة ، فينظر ويفكر حتى يقوده النظر إلى اتباع الحق : فأما هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين ، فلا تأمل أن يقبلوا منك ﴿ويتجنبها﴾ ويتجنب الذكرى ويتحاماها ﴿الأشقى﴾ الكافر ؛ لأنه أشق من الفاسق . أو الذى هو أشق الكفرة لتوغله فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ﴿النار الكبرى﴾ السفلى من أطباق النار [١] وقيل (الكبرى) نار جهنم . والصغرى : نار الدنيا . وقيل ﴿ثم﴾ لأن الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلى ، فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة : والمعنى : لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾

﴿تزكى﴾ تطهر من الشرك والمعاصى . أو تطهر للصلاة . أو تكثر من التقوى ، من الزكاء وهو النماء . أو تفعل من الزكاة ، كتصدق من الصدقة ﴿فصلى﴾ أى الصلوات الخمس ، نحو قوله (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) وعن ابن مسعود : رحم الله امرأ تصدق وصلى . وعن على رضى الله عنه أنه التصدق بصدقة الفطر وقال : لا أبالى أن لا أجد فى كتابى غيرها [٢] ، لقوله (قد أفلح من تزكى) أى أعطى زكاة الفطر ، فتوجه إلى المصلى ، فصلى صلاة العيد ، وذكر اسم ربه فكبر تكبيرة الافتتاح . وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة معطوفة عليها ، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل . وعن ابن عباس رضى الله عنه : ذكر معاده وموقفه بين يدى ربه فصلى له . وعن الضحاك : وذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى صلاة العيد ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ فلا تفعلون ما تفلحون به . وقرئ :

---

(١) قال محمود : «والأشقى : الكافر ، لأنه أشقى من الفاسق . والنار الكبرى : السفلى من أطباق النار» قال أحمد : يشير إلى خلود الفاسق مع الكافر فى أسافل النار ؛ والفاسق أعلى منه ، كما تقدم له التصريح بذلك كثيرا .

(٢) قال محمود : «وعن على أنه قال هو التصدق بصدقة الفطر وقال لا أبالى أن لا أجد فى كتابى غيرها ... الخ» قال أحمد : فى تلقى هذين الحكمين الأخيرين من الآية تكلف : أما الأول ، فلأن العطف وإن اقتضى المغايرة فيقال بموجبها : فنحن إن قلنا إن تكبيرة الاحرام جزء من الصلاة ، فالجزء مغاير للكل ، فلا غرو أن يعطف عليه ، والمغايرة مع الجزئية ثابتة والحالة هذه . وأما الثانى ، فلأن الاسم معرف بالاضافة ، وتعريف الاضافة عهدى عند عقق الفن ، حتى إن القائل إذا قال : جاءنى غلام زيد ، ولزيد غلامان ، فانما تفهم من قوله معينا منهم بسابق عهد بينك وبينه ، هذا موضع تعريف الاضافة ؛ والمعهود فى افتتاح الصلاة : ما استمر النبى صلى الله عليه وسلم على العمل به قولا وفعلا : وهو التكبير المعروف ، ولو تنزلنا على أنه فى الآية مطلق ، فالحصر فى قوله : تحريمها التكبير قيد إطلاقه .

يؤثرون ، على الغيبة . ويعضد الأولى قراءة ابن مسعود : بل أنتم تؤثرون ﴿خير وأبقى﴾ أفضل فى نفسها وأنعم وأدوم . وعن عمر رضى الله عنه : ما الدنيا فى الآخرة إلا كنفجة أرنب .[١]

إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿هذا﴾ إشارة إلى قوله (قد أفلح) إلى (أبقى) يعنى أنّ معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف . وقيل : إلى ما فى السورة كلها . وروى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم أنزل الله من كتاب ؟ فقال : مائة وأربعة كتب ، منها على آدم : عشر صحف ، وعلى شيث : خمسون صحيفة ، وعلى أخنوخ وهو إدريس : ثلاثون صحيفة ، وعلى إبراهيم : عشر صحائف والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان[٢] . وقيل إنّ فى صحف إبراهيم ينبغى للعاقل أن يكون حافظا للسانه عارفا بزمانه مقبلا على شأنه . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد»[٣] وكان إذا قرأها قال : سبحان ربى الأعلى[٤] وكان على وابن عباس يقولان ذلك ، وكان يحبها[٥] وقال : أول من قال «سبحان ربى الأعلى» ميكائيل[٦] .

سورة الغاشية

مكية ، وآياتها ٢٦ [نزلت بعد الذاريات]

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾

﴿الغاشية﴾ الداهية التى تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها . يعنى القيامة ، من قوله

---

(١) قوله «إلا كنفجة أرنب» فى الصحاح «نفجت الأرنب» إذا ثارت . (ع)

(٢) هو مختصر من حديث طويل أخرجه ابن حبان والحاكم . وقد تقدمت الاشارة اليه فى الحج ﴿تنبيه﴾ وقع فيه «على آدم عشر صحائف» والذى عند المذكورين على موسى قبل التوراة عشر صحائف .

(٣) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(٤) أخرجه أبو داود والحاكم من طريق سعد بن جبير عن ابن عباس بهذا .

(٥) أخرجه البزار عن يوسف بن موسى : ووكيع عن إسرائيل عن ثور بن أبى فاختة عن أبيه عن على بهذا ورواه الواحدى من طريق أحمد بن حنبل ووكيع .

(٦) ذكره الثعلبي عن على بغير إسناد .

(يوم يغشاهم العذاب) وقيل : النار ، من قوله (وتغشى وجوههم النار) ، (ومن فوقهم غواش) ﴿يومئذ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خاشعة﴾ ذليلة ﴿عاملة ناصبة﴾ تعمل فى النار عملا تتعب فيه ، وهو جرها السلاسل والأغلال [1] ، وخوضها فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل ، وارتقاؤها دائبة فى صعود من نار ، وهبوطها فى حدور منها . وقيل : عملت فى الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت ، فهى فى نصب منها فى الآخرة . وقيل : عملت ونصبت فى أعمال لاتجدى عليها فى الآخرة . من قوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) . (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين حبطت أعمالهم) وقيل : هم أصحاب الصوامع . ومعناه : أنها خشعت لله وعملت ونصبت فى أعمالها من الصوم الدائب ، [2] والتهجد الواصب . وقرئ : عاملة ناصبة على الشتم . قرئ : تصلى بفتح التاء . وتصلى بضمها . وتصلى بالتشديد . وقيل : المصلى عند العرب : أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جمرا كثيرا ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه ، فأما مايشوى فوق الجمر أو على المقلى أو فى التنور ، فلا يسمى مصليا ﴿آنية﴾ متناهية فى الحر ، كقوله (وبين حميم آن) . الضريع : يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل مادام رطبا [3] ، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل . قال أبو ذؤيب :

رَعَى الشِّبْرِقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إذَا ذَوَى ... وَعَادَ ضَرِيعًا بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ [4]

وقال :

وَحُبِسْنَ فِى هَزْمِ الضَّرِيعِ فَكُلُّهَا ... حَدْبَاءُ دَامِيَةُ الْيَدَيْنِ حَرُودُ [5]

---

(١) قال محمود : «ذليلة تعمل فى النار عملا تتعب منه وهو جرها السلاسل ... الخ» قال أحمد : الوجه الأول متعين لأن الظرف المذكور وهو قوله (يومئذ) مقطوع من الجلة المضاف إليها ، تقديرها : يوم إذ غشيت ، وذلك فى الآخرة بلا إشكال ، وهو ظرف لجميع الصفات المخبر بها ، أعنى : خاشعة عاملة ناصبة ، فكيف يتناول أعمال الدنيا .

(٢) قوله «من الصوم الدائب» الدائب والواصب كلاهما بمعنى الدائم . (ع)

(٣) قال محمود : «الضريع : يبيس الشبرق ، وهو جنس من الشوك ترعاه الابل ما دام رطبا ... الخ» قال أحمد : فعلى الوجه الأول يكون صفة مخصصة لازمة . ذكرت شارحة لحقيقة الضريع . وعلى الثانى : تكون صفة مخصصة .

(٤) أى : رعى البعير الشبرق الريان ، أى : الشوك الرطب . وذوى يذوى ذويا : ذبل ذبولا . وذوى كرضى أنكرها الجوهرى ، وأثبتها أبو عبيدة ، أى : حتى إذا جف وصار ضريعا يابسا يتقصف بان عنه ، أى : بعد عنه النحائص : جمع نحوص وهى الناقة الحائل ، لعلمها أنه لا يسمن ولا يغنى من جوع .

(٥) لقيس بن عيزارة . وهزمه ـ بالزاى ـ : صدعه ، ومنه : الهزم ، أى : المتكسر . وناقة هزماء : بدا عظم وركيها من الهزال . وأما الهرم بالراء فهو الحمض ، وبعير هارم : يرعى الحمض . والضريع : نبت سوء =

فإن قلت: كيف قيل ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ وفى الحاقة (ولا طعام إلا من غسلين)؟ قلت: العذاب ألوان، والمعذبون طبقات؛ فمنهم أكلة الزقوم. ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع: (لكل باب منهم جزء مقسوم). ﴿لا يسمن﴾ مرفوع المحل أو مجروره على وصف طعام. أو ضريع، يعنى: أن طعامهم من شىء ليس من مطاعم الإنس، وإنما هو شوك والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به. وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقربه. ومنفعتا الغذاء منتفيتان عنه: وهما إماطة الجوع، وإفادة القوة والسمن فى البدن. أو أريد: أن لا طعام لهم أصلا: لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن، وهو منهما بمعزل. كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد: نفى الظل على التوكيد. وقيل: قالت كفار قريش: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت (لا يسمن) فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعنتوا بذلك وهو الظاهر، فيرد قولهم بنفى السمن والشبع. وإما أن يصدقوا فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

﴿ناعمة﴾ ذات بهجة وحسن، كقوله (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أو متنعمة ﴿لسعيها راضية﴾ رضيت بعملها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب ﴿عالية﴾ من علو المكان أو المقدار ﴿لا تسمع﴾ يا مخاطب. أو الوجوه ﴿لاغية﴾ أى لغوا، أو كلمة ذات لغو. أو نفسا تلغو، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. وقرئ: لا تسمع: على البناء للمفعول بالتاء والياء [1] ﴿فيها عين جارية﴾ يريد عيونا فى غاية الكثرة،

ـــ ذو شوك. والحدب: الانحناء. والحدباء: المنحنية. وحرد حردا: يبس وشح. يقول: حبسها النوق فى مرعى غث متفتت، فكلها منحنية الظهور أو الأرجل من الهزال، دامية اليدين من الشوك، قليلة اللبن.

(١) قوله «على البناء للمفعول بالتاء والياء» أى: ولاغية: بالرفع فيهما. (ع)

كقوله (علمت نفس) . ﴿مرفوعة﴾ من رفعة المقدار أو السمك ، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم . وقيل : مخبوءة لهم ، من رفع الشيء إذا خبأه ﴿موضوعة﴾ كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم عتيدة حاضرة ، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها . أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب . ويجوز أن يراد : موضوعة عن حد الكبار ، أوساط بين الصغر والكبر ، كقوله (قدروها تقديرا) . ﴿مصفوفة﴾ بعضها إلى جنب بعض . مساند ومطارح ، [1] أينما أراد أن يجلس على مسورة واستند إلى أخرى ﴿وزرابى﴾ وبسط عراض فاخرة . وقيل : هى الطنافس التى لها خمل رقيق . جمع زربية ﴿مبثوثة﴾ مبسوطة . أو مفرقة فى المجالس .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾ نظر اعتبار ﴿كيف خلقت﴾ خلقا عجيبا ، دالا على تقدير مقدر ، شاهدا بتدبير مدبر ، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة [2] فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها : لا تعاز ضعيفا ولا تمانع صغيرا ، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار . وعن بعض الحكماء . أنه حدث عن البعير وبديع خلقه ، وقد نشأ فى بلاد لا إبل بها ، ففكر ثم قال : يوشك أن تكون طوال الأعناق ، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش ؛ حتى إن أظماءها [3] لترتفع إلى العشر فصاعدا ، وجعلها ترعى كل شيء نابت فى البرارى والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم . وعن سعيد بن جبير قال : لقيت شريحا القاضى فقلت : أين تريد ؟ قال:

---

(١) قوله « مساند ومطارح » عبارة النسفى . وسائدة وقوله . على مسوره عبارة النسفى . على موسدة . (ع)

(٢) « قوله إلى البلاد الشاحطة » أى البعيدة . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « حتى إن أظماءها » فى الصحاح . « الظمء » ما بين الوردين : وهو حبس الابل عن الماء إلى غاية الورد ، والجمع : الأظماء . (ع)

أريد الكناسة: قلت: وما تصنع بها؟ قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت. فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم؛ فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله: إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين، وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز ﴿كيف رفعت﴾ رفعا بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد. و﴿كيف نصبت﴾ نصبا ثابتا، فهي راسخة لا تميل ولا تزول. و﴿كيف سطحت﴾ سطحا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للمتقلب عليها. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خلقت. ورفعت؛ ونصبت، وسطحت: على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها. فحذف المفعول. وعن هرون الرشيد أنه قرأ: سطحت بالتشديد، والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه. أي: لا ينظرون، فذكرهم ولا تلح عليهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون ﴿إنما أنت مذكر﴾ كقوله (إن عليك إلا البلاغ). ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ بمتسلط، كقوله (وما أنت عليهم بجبار) وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء؛ على أن «سيطر» متعد عندهم. وقولهم: تسيطر، يدل عليه ﴿إلا من تولى﴾ استثناء منقطع، أي: لست بمستول عليهم، ولكن من تولى ﴿وكفر﴾ منهم؛ فإن لله الولاية والقهر. فهو يعذبه ﴿العذاب الأكبر﴾ الذي هو عذاب جهنم. وقيل. هو استثناء من قوله (فذكر) أي: فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى، فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض. وقرئ: إلا من تولى، على التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود: فإنه يعذبه: وقرأ أبو جعفر المدني: إيابهم، بالتشديد. ووجهه أن يكون «فيعالا» مصدر «أيب» فيعل من الإياب. أو أن يكون أصله أوابا: فعالا من أوب، ثم قيل: إيوابا كديوان في دوان، ثم فعل به ما فعل بأصل: سيد وميت. فإن قلت. ما معنى تقديم الظرف؟ قلت: معناه التشديد في الوعيد، [1] وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير. ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حسابا يسيرا». [2]

---

(١) قال محمود: «إن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ وأجاب بأن معناه التشديد في الوعيد ... الخ» قال أحمد: ومعنى (ثم) الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته.

(٢) أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه بالإسناد إلى أبي بن كعب.

سورة الفجر

مكية ، وآياتها ٣٠ وقيل ٢٩ [نزلت بعد الليل]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥)

أقسم بالفجر كما أقسم بالصبح في قوله (والصبح إذا أسفر) ، (والصبح إذا تنفس) . وقيل : بصلاة الفجر . أراد بالليالى العشر : عشر ذى الحجة . فإن قلت : فما بالها منكرة من بين ما أقسم به ؟ قلت : لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالى : العشر بعض منها . أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها . فإن قلت : فهلا عرفت بلام العهد ، لأنها ليال معلومة معهودة ؟ قلت : لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير ؛ ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ، ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية . وبالشفع والوتر : إما الأشياء كلها شفعها ووترها ؛ وإما شفع هذه الليالى ووترها . ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر ، ووترها يوم عرفة ، لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسرهما بذلك .[١] وقد أكثروا فى الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه ، وذلك قليل الطائل ، جدير بالتلهى عنه ، وبعد ما أقسم بالليالى المخصوصة أقسم بالليل على العموم ﴿إذا يسر﴾ إذا يمضى ؛ كقوله (والليل إذ أدبر) ، (والليل إذا عسعس) . وقرئ : والوتر بفتح الواو ، وهما لغتان كالحبر والحبر فى العدد ، وفى الترة : الكسر وحده[٢] . وقرئ : الوتر بفتح الواو وكسر التاء : رواها يونس عن أبى عمرو ، وقرئ : والفجر ، والوتر ، ويسر : بالتنوين ، وهو التنوين الذى يقع بدلا من حرف الإطلاق . وعن ابن عباس : وليال عشر ، بالإضافة . يريد : وليال أيام عشر . وياء (يسر) تحذف فى الدرج ، اكتفاء عنها بالكسرة . وأما فى الوقف فتحذف مع

(١) ﴿قلت﴾ : التعليل من كلام الزمخشرى . وأصله عند النسائى وأحمد والبزار والحاكم والبيهقى فى الشعب الثالث والعشرين من رواية خير بن نعيم عن أبى الزبير عن جابر . قال : لا نعلمه إلا بهذا الاسناد .

(٢) قوله « وفى الترة الكسر وحده » فى الصحاح « والموتور » الذى قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ؛ تقول : وتره وترا وترة ، وكذلك : وتره حقه ، أى : نقصه . (ع)

الكسرة . وقيل : معنى « يسرى » يسرى فيه ﴿هل فى ذلك﴾ أى فيما أقسمت به من هذه الأشياء ﴿قسم﴾ أى مقسم به ﴿لذى حجر﴾ يريد : هل يحق عنده أن تعظم بالإقسام بها . أو : هل فى إقسامى بها لذى حجر ، أى : هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه . والحجر : العقل ؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغى ، كما سمى عقلا ونهية : لأنه يعقل وينهى . وحصاة : من الإحصاء وهو الضبط . وقال الفراء : يقال : إنه لذو حجر ، إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ؛ والمقسم عليه محذوف وهو « ليعذبن » يدل عليه قوله (ألم تر) إلى قوله (فصب عليهم ربك سوط عذاب)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عاد ، كما يقال لبنى هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم عاد الأولى وإرم ، تسمية لهم باسم جدهم ، ولمن بعدهم : عاد الأخيرة . قال ابن الرقيات :

مجدًا تليدًا بناه أوّلُهُ أدرك عادًا وقبلها إرمَا (١)

فإرم فى قوله ﴿بعاد إرم﴾ عطف بيان لعاد . وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة . وقيل (إرم) بلدتهم وأرضهم التى كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير : بعاد إرم ، على الإضافة . وتقديره : بعاد أهل إرم ، كقوله (واسأل القرية) ولم تنصرف قبيلة كانت أو أرضا للتعريف والتأنيث . وقرأ الحسن : بعاد أرم . مفتوحتين . وقرئ : بعاد إرم ، بسكون الراء على التخفيف ، كما قرئ : بورقكم . وقرئ : بعاد إرم ذات العماد ، بإضافة إرم إلى ذات العماد . والإرم : العلم ، يعنى : بعاد أهل أعلام ذات العماد . و ﴿ذات العماد﴾ اسم المدينة . وقرئ : بعاد إرمّ ذات العماد ، أى جعل الله ذات العماد رميما بدلا من فعل ربك ؛ وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة ، فالمعنى : أنهم كانوا بدويين أهل عمد . أو طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة . ومنه قولهم : رجل معمد وعمدان : إذا كان طويلا . وقيل : ذات البناء الرفيع ، وإن كانت صفة

(١) لابن الرقيات ، يصف رجلا بأنه حاز مجداً تليداً . أى : قديما . وشبهه بالحصن المبنى على طريق المكنية وبناء تخييل ، أى شرعه وجدده أوله ، أى : آباؤه الأولون : أدرك هذا المجد من جدود الممدوح عاداً وإرما قبله أى : قبل عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، فعقب عاد هذا : هم عاد الأولى ، ومن بعدهم : عاد الثانية .

للبلدة فالمعنى : أنها ذات أساطين . وروى أنه كان لعاد ابنان : شداد وشديد ؛ فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد ، فملك الدنيا ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة فقال : أبنى مثلها ، فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة : وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ؛ ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ؛ فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قلابة : أنه خرج فى طلب إبل له ، فوقع عليها ، فحمل ما قدر عليه مما ثم ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال : هى إرم ذات العماد [1] ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال ، يخرج فى طلب إبل له ؛ ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل ﴿لم يخلق مثلها﴾ مثل عاد ﴿فى البلاد﴾ عظم أجرام وقوة ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع ، وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحى فيهلكهم ، أو لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا . وقرأ ابن الزبير : لم يخلق مثلها ، أى : لم يخلق الله مثلها ﴿جابوا الصخر﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتا ، كقوله (وتنحتون من الجبال بيوتا) قيل : أول من نحت الجبال والصخور والرخام : ثمود ، وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . قيل له : ذو الأوتاد ، لكثرة جنوده ومضاربهم التى كانوا يضربونها إذا نزلوا ، أو لتعذيبه بالأوتاد ، كما فعل بماشطة بنته وبآسية ﴿الذين طغوا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون فى محل النصب على الذم . ويجوز أن يكون مرفوعا على : هم الذين طغوا . أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون . يقال : صب عليه السوط وغشاه وقنعه ، وذكر السوط : إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعدلهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وعن عمر بن عبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطا كثيرة ، فأخذهم بسوط منها . المرصاد : المكان الذى يترتب فيه الرصد «مفعال» من رصده ، كالميقات من وقته . وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب ، وأنهم لا يفوتونه . وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال : بالمرصاد . وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه قرأ هذه السورة عند بعض الظلمة حتى بلغ هذه الآية فقال : إن ربك لبالمرصاد يا فلان ، عرض له فى هذا النداء بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة ، فلله دره أى أسد

---

(١) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي عن عبد الله بن أبي صالح عن أبي لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن وهب بن منبه عن عبد الله بن قلابة أنه خرج فى طلب إبل له شردت فذكره مطولا . قلت : آثار الوضع عليه لائحة .

فرأس كان بين ثوبيه ، يدق الظلمة بإنكاره ، ويقصع أهل الأهواء [١] والبدع باحتجاجه .

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾

فإن قلت : بم اتصل قوله [٢] ﴿فأما الإنسان﴾ ؟ قلت : بقوله (إن ربك لبالمرصاد) كأنه قيل : إن الله لا يريد من الإنسان إلا الطاعة والسعى للعاقبة ، وهو مرصد بالعقوبة للعاصى ؛ فأما الإنسان فلا يريد ذلك ولا يهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها . فإن قلت : فكيف توازن قوله . فأما الإنسان ، ﴿إذا ما ابتلاه ربه﴾ وقوله (وأما إذا ما ابتلاه) [٣] وحق التوازن أن يتقابل الواقعان بعد أما وأما ، تقول : أما الإنسان فكفور ، وأما الملك فشكور . أما إذا أحسنت إلى زيد فهو محسن إليك ؛ وأما إذا أسأت إليه فهو مسىء إليك ؟ قلت : هما متوازنان من حيث إن التقدير : وأما هو إذا ما ابتلاه ربه ؛ وذلك أن قوله ﴿فيقول ربى أكرمن﴾ خبر المبتدأ الذى هو الإنسان ، ودخول الفاء لما فى « أما » من معنى الشرط ، والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر فى تقدير التأخير ، كأنه قيل : فأما الإنسان فقائل ربى أكرمن وقت الابتلاء ، فوجب أن يكون (فيقول) الثانى خبراً لمبتدإ واجب تقديره . فإن قلت : كيف سمى كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؟ قلت : لأن كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ؟ وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ؟ فالحكمة فيهما واحدة . ونحوه قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . فإن قلت : هلا قال : فأهانه وقدر عليه رزقه ، كما قال فأكرمه ونعمه ؟ قلت : لأن البسط إكرام من الله لعبده بإنعامه عليه متفضلا من غير سابقة [٤] ، وأما التقدير فليس بإهانة له ؛ لأن الإخلال بالتفضل لا يكون إهانة ، ولكن تركا للكرامة ، وقد يكون المولى مكرما لعبده ومهينا له ، وغير مكرم ولا مهين ، وإذا أهدى لك زيد هدية قلت : أكرمنى بالهدية ، ولا تقول : أهاننى

---

(١) قوله « ويقصع أهل الأهواء » فى الصحاح « قصعت الرجل » صغرته وحقرته . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت : كيف اتصل قوله (فأما الانسان) بما قبله ... الخ » قال أحمد : قوله لا يريد من الانسان إلا الطاعة ولا يأمره إلا بها : فاسد الصدر ، مبنى على أصله الفاسد ، سليم العجز .

(٣) قال محمود : « فان قلت كيف توازن قوله (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه) وقوله (وأما إذا ما ابتلاه) قال أحمد : يريد أنه صدر ما بعد أما الأولى بالاسم ، وما بعد أما الثانية بالفعل . ومقصود السائل أن يكونا مصدرين : إما باسمين أو بفعلين .

(٤) قال محمود : « فان قلت هلا قال فأهانه وقدر عليه رزقه ، كما قال فأكرمه ونعمه ؟ وأجاب بأن البسط إكرام من الله تعالى للعبد من غير سابقة » قال أحمد : « قيد زائد تفريعا على أصله الفاسد ، والحق أن كل نعمة من الله كذلك ،

ولا أكرمنى إذا لم يهد لك . فإن قلت : فقد قال (فأكرمه) فصحح إكرامه وأثبته ، ثم أنكر قوله (ربى أكرمن) وذمّه عليه ، كما أنكر قوله (أهانن) وذمه عليه . قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أنه إنما أنكر قوله ربى أكرمن وذمّه عليه ، لأنه قال على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته ، وهو قصده إلى أنّ الله أعطاه ما أعطاه إكراما له مستحقاً مستوجباً على عادة افتخارهم وجلالة أقدارهم عندهم ، كقوله (إنما أوتيته على علم عندى) [1] وإنما أعطاه الله على وجه التفضل من غير استيجاب منه له ولا سابقة مما لا يعتدّ الله إلا به ، وهو التقوى دون الأنساب والأحساب التى كانوا يفتخرون بها ويرون استحقاق الكرامة من أجلها . والثانى : أن ينساق الإنكار والذمّ إلى قوله (ربى أهانن) يعنى أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله وإكرامه ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان ، ويعضد هذا الوجه ذكر الإكرام فى قوله (فأكرمه) [2] وقرئ : فقدر بالتخفيف والتشديد . وأكرمن ، وأهانن : بسكون النون فى الوقف ، فيمن ترك الياء فى الدرج مكتفياً منها بالكسرة .

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

(كلا) ردع للإنسان عن قوله . ثم قال : بل هناك شرّ من القول [3] . وهو : أنّ الله يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدّون مايلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالتفقد والمبرّة ، وحض أهله

---

(١) قال محمود : «فإن قلت : فقد قال فأكرمه فصحح إكرامه وأثبته ، ثم أنكر قوله ربى أكرمن وذمه عليه كما أنكر قوله ربى أهانن وذمه عليه ، وأجاب بأمرين ، أحدهما أن المنكر عليه اعتقاده أن إكرام الله تعالى له عن استحقاق لمكان نسبه وحسبه وجلالة قدره ، كما كانوا يعتقدون الاستحقاق بذلك على الله ، كما قال : إنما أوتيته على علم» قال أحمد : والقدرى لا يبعد عن ذلك ، لأنه يرى أن النعيم الأعظم فى الآخرة حق للعبد على الله واجب له عليه ليس بتفضل ولا ممنون .

(٢) قال محمود : «والثانى أن سياق الانكار والذم إلى قوله (ربى أهانن) بمعنى أنه إذا تفضل عليه بالخير اعترف بتفضل الله تعالى ، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هوانا وليس بهوان ، ويعضد هذا الوجه ذكر الاكرام فى قوله فأكرمه» قال أحمد : كأنه يجعل قوله (فأكرمه) توطئة لذمه على قوله (أهانن) لأنه مذموم معه .

(٣) قال محمود : «إنما أضرب عن الأول للاشعار بأن هنا ماهو أشر من القول الأول ... الخ» قال أحمد : وفى هذه الآية إشعار بإبطال الجواب الثانى من جوابى الزمخشرى ؛ فانه جعل قوله (أكرمن) غير مذموم ، ودلت هذه الآية على أن المعنى أن للمكرم بالبسط بالرزق حالتين ، إحداهما : اعتقاده أن إكرام الله له عن استحقاق ، الثانية أشد من الأولى : وهى أن لا يعترف بالاكرام أصلا ، لأنه يفعل أفعال جاحدى النعمة ، فلا يؤدى حق الله الواجب عليه فى المال من إطعام اليتيم والمسكين .

على طعام المسكين ويأكلونه أكل الأنعام ، ويحبونه فيشحون به وقرئ : يكرمون ، ومابعده بالياء والتاء . وقرئ : تحاضون ، أى : يحض بعضكم بعضاً : وفى قراءة ابن مسعود : ولاتحاضون بضم التاء ، من المحاضة ﴿أكلا لما﴾ ذا لمّ وهو الجمع بين الحلال والحرام . قال الحطيئة :

إِذَا كَانَ لَمًّا يَتْبَعِ الذَّمُّ رَبَّهُ فَلَا قَدَّسَ الرَّحْمَنُ تِلْكَ الطَّوَاحِنَا [١]

يعنى : أنهم يجمعون فى أكلهم بين نصيبهم من الميراث ونصيب غيرهم . وقيل : كانوا لايورثون النساء ولا الصبيان ، ويأكلون تراثهم مع تراثهم . وقيل : يأكلون ماجمعه الميت من الظلمة ، وهو عالم بذلك فيلم فى الأكل بين حلاله وحرامه . ويجوز أن يذمّ الوارث الذى ظفر بالمال سهلا مهلا ، من غير أن يعرق فيه جبينه ، فيسرف فى إنفاقه ، ويأكله أكلا واسعاً جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ، كما يفعل الورّاث البطالون ﴿حباً جماً﴾ كثيراً شديداً مع الحرص والشره ومنع الحقوق .

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

﴿كلا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم . ثم أتى بالوعيد وذكر تحسرهم على مافرطوا فيه حين لاتنفع الحسرة ؛ ويومئذ بدل من ﴿إذا دكت الأرض﴾ وعامل النصب فيهما يتذكر ﴿دكا دكا﴾ دكا بعد دك . كقوله : حسبته بابا بابا ، أى : كرّر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا . فإن قلت : مامعنى إسناد المجىء إلى الله ، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان فى جهة قلت : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه : مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة مالايظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم ﴿صفاً صفاً﴾ ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس ﴿وجىء يومئذ بجهنم﴾ كقوله (وبرزت الجحيم) وروى أنها لما

---

(١) للحطيئة . واللم : الجمع بين الحلال والحرام من غير فرق . وروى «ربه» بدل «أهله» والطواحن : الأضراس . وتسمى : الأرحاء جمع رحى ، يقول : إذا كان الأكل جمعا ، أى : ذا جمع بين الخبيث والطيب يتبع صاحبه الذم ، فلا طهر الله تلك الأضراس التى تطحن ذلك المأكول ؛ والدعاء عليها : دعاء على صاحبها .

نزلت تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف فى وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ، فأخبروا علياً رضى الله عنه ، فجاء فاحتضنه من خلفه وقبله بين عاتقيه ؛ ثم قال : يا نبيّ الله ، بأبى أنت وأمى ما الذى حدث اليوم ، وما الذى غيَّرك ؟ فتلا عليه الآية . فقال على : كيف يجاء بها ؟ قال : يجىء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام ، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع [1] . أى يتذكر ما فرط فيه ، أو يتعظ ﴿وأنى له الذكرى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى ، لابد من تقدير حذف المضاف ، وإلا فبين : يوم يتذكر ، وبين (وأنى له الذكرى) تناف وتناقض ﴿قدمت لحياتى﴾ هذه ، وهى حياة الآخرة . أو وقت حياتى فى الدنيا ، كقولك : جئته لعشر ليال خلون من رجب ؛ وهذا أبين دليل على أن الاختيار كان فى أيديهم ومعلقا بقصدهم وإرادتهم ، وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصى ، كمذهب أهل الأهواء [2] والبدع ، وإلا فما معنى التحسر ؟ قرئ : بالفتح ، يعذب ويوثق . وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن أبى عمرو أنه رجع إليها فى آخر عمره . والضمير للإنسان الموصوف . وقيل هو أبىّ بن خلف أى لا يعذب أحد مثل عذابه ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ؛ لتناهيه فى كفره وعناده ، أو لا يحمل عذاب الإنسان أحد ، كقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقرئ بالكسر ، والضمير لله تعالى ، أى : لا يتولى عذاب الله أحد : لأنّ الأمر لله وحده فى ذلك اليوم . أو للإنسان ، أى : لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه .

يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

﴿يا أيتها النفس﴾ على إرادة القول ، أى : يقول الله للمؤمن (يا أيتها النفس) إمّا أن يكلمه إكراما له كما كلم موسى صلوات الله عليه ، أو على لسان ملك . و﴿المطمئنة﴾ الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن ، وهى النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التى سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك ، ويشهد للتفسير الأوّل : قراءة أبىّ بن كعب : يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة . فإن قلت : متى يقال لها ذلك ؟ قلت : إمّا عند الموت . وإمّا عند البعث ، وإمّا عند دخول الجنة . على معنى : ارجعى إلى موعد ربك ﴿راضية﴾ بما أوتيت ﴿مرضية﴾ عند الله ﴿فادخلى فى عبادى﴾ فى جملة عبادى الصالحين ، وانتظمى فى سلكهم ﴿وادخلى جنتى﴾ معهم ، وقيل : النفس الروح .

---

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى من طريق عطية عن أبى سعيد به وأتم منه .

(٢) قوله « كمذهب أهل الأهواء » إن كان المراد بهم أهل السنة لقولهم بأن الله هو الخالق لفعل العبد فهم يثبتون له الاختيار فيه لأنهم يثبتون له الكسب فيه وإن كان المراد بهم من قال بالجبر المحض وهم القائلون بأن العبد لا دخل له فى فعله أصلا ، بل هو كالريشة المعلقة فى الهواء ، فكلامه مسلم لظهور بطلان مذهبهم . (ع)

ومعناه : فادخلى فى أجساد عبادى . وقرأ ابن عباس : فادخلى فى عبدى . وقرأ ابن مسعود : فى جسد عبدى . وقرأ أبى : ائتى ربك راضية مرضية . ادخلى فى عبدى ، وقيل : نزلت فى حمزة ابن عبد المطلب . وقيل : فى خبيب بن عدى الذى صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللهم إن كان لى عندك خير فحوّل وجهى نحو قبلتك ، فحوّل الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوّله . والظاهر العموم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الفجر فى الليالى العشر غفر له ومن قرأها فى سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة» (١) .

سورة البلد

مكية ، وآياتها ٢٠ [نزلت بعد ق]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾

أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغموراً فى مكابدة المشاق والشدائد ؛ واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ يعنى : ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد فى غير الحرم . عن شرحبيل : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ، ويستحلون إخراجك وقتلك وفيه تثبيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوته . أو سلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقسم

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بإسنادهم إلى أبى رضى الله عنه .

بلده ، على أن الإنسان لايخلو من مقاساة الشدائد ؛ واعترض بأن وعده فتح مكة تتميماً للتسلية والتنفيس عنه . فقال : وأنت حل بهذا البلد ، يعني : وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ماتريد من القتل والأسر . وذلك أنّ الله فتح عليه مكة وأحلها له ، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ماشاء وحرّم ماشاء . قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة . ومقيس بن صبابة وغيرهما ، وحرّم دار أبي سفيان [١] ، ثم قال : إنّ الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ، فلا يعضد شجرها ولايختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . فقال العباس : يارسول الله ، إلا الإذخر فإنه لقيوننا [٢] وقبورنا وبيوتنا : فقال صلى الله عليه وسلم : «إلا الإذخر[٣]» . فإن قلت : أين نظير قوله (وأنت حل) في معنى الاستقبال ؟ قلت : قوله عز وجل (إنك ميت وإنهم ميتون) ومثله واسع في كلام العباد ، تقول لمن تعده الإكرام والحباء : أنت مكرم محبو ، وهو في كلام الله أوسع ؛ لأنّ الأحوال المستقبلة عنده كالحاضرة المشاهدة . وكفاك دليلا قاطعاً على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال : أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة عن وقت نزولها ، فما بال الفتح ؟ فإن قلت : ما المراد بوالد وما ولد ؟ قلت : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن ولده ، أقسم ببلده الذي هو مسقط رأسه وحرم أبيه ابراهيم ومنشأ أبيه إسماعيل ، وبمن ولده وبه . فإن قلت لم نكر ؟ قلت : للإبهام المستقل بالمدح والتعجب . فإن قلت : هلا قيل ومن ولد ؟ قلت : فيه مافي قوله (والله أعلم بما وضعت) أي بأي شيء وضعت ، يعني موضوعاً عجيب الشأن . وقيل : هما آدم وولده . وقيل : كل والد وولد .

والكبد : أصله من قولك : كبد الرجل كبدا ، فهو أكبد : إذا وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة . ومنه اشتقت المكابدة ، كما قيل : كبته بمعنى أهلكه . وأصله : كبده ، إذا أصاب كبده . قال لبيد :

يَاعَيْنُ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ ... قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدِ [٤]

---

(١) تقدم . وقتل ابن خطل : متفق عليه ، وقتل مقيس بن صبابة عند أبي داود والنسائي من رواية مصعب ابن سعد عن أبيه وقتل غيرهما تقدم أيضاً . ومنهم الحويرث بن نفيل . رواه الواقدي في المغازي . والمراد بقوله «حرم دار أبي سفيان قوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وقد رواه إسحاق وغيره

(٢) قوله «فإنه لقيوننا» القيون : جمع قين ، وهو الحداد . كذا في الصحاح . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة وله طرق وألفاظ .

(٤) للبيد يرثى أخاه أربد . وكبد كبداً كتعب : وجعت كبده وانتفخت ، فاتسع فيه حتى صار كتعب في المعنى أيضاً . يقول : ياعين هلا بكيت أخي وقت قيامنا للحرب وقيام الخصوم معنا فيه . والعاملان تنازعا قوله (في كبد) ونزل عينه منزلة من يعقل ، فخاطبها . وهلا : حرف تحضيض .

أى : فى شدة الأمر وصعوبة الخطب .

والضمير فى ﴿أيحسب﴾ لبعض صناديد قريش الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكابد منهم مايكابد . والمعنى : أيظن هذا الصنديد القوى فى قومه المتضعف للمؤمنين : أن لن تقوم قيامة ، ولن يقدر على الانتقام منه وعلى مكافأته بما هو عليه ، ثم ذكر مايقوله فى ذلك اليوم ، وأنه يقول ﴿أهلكت مالا لبدا﴾ يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ، ويدعونها معالى ومفاخر ﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ حين كان ينفق ما ينفق رئاء الناس وافتخارا بينهم ، يعنى : أن الله كان يراه وكان عليه رقيبا . ويجوز أن يكون الضمير للإنسان ، على أن يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الشريف ، ومن شرفه أنك حل به مما يقترفه أهله من المآثم متحرج برىء ، فهو حقيق بأن أعظمه بقسمى به ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ أى فى مرض : وهو مرض القلب وفساد الباطن ، يريد : الذين علم الله منهم حين خلقهم أنهم لا يؤمنون ولا يعملون الصالحات . وقيل : الذى يحسب أن لن يقدر عليه أحد : هو أبو الأشد ، وكان قويا يبسط له الأديم العكاظى فيقوم عليه ويقول : من أزالنى عنه فله كذا ، فلا ينزع إلا قطعا ويبقى موضع قدميه . وقيل : الوليد بن المغيرة ﴿لبدا﴾ قرئ بالضم والكسر : جمع لبدة ولبدة ، وهو ما تلبد يريد الكثرة : وقرئ : لبدا بضمتين : جمع لبود . ولبدا : بالتشديد جمع لابد .

أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

﴿ألم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما المرئيات ﴿ولسانا﴾ يترجم به عن ضمائره ﴿وشفتين﴾ يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ﴿وهديناه النجدين﴾ أى طريق الخير والشر . وقيل : الثديين ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ يعنى : فلم يشكر تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة : من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين ، ثم بالإيمان

الذى هو أصل كل طاعة ، وأساس كل خير ؛ بل غمط النعم[1] وكفر بالمنعم . والمعنى : أن الإنفاق على هـذا الوجه هو الإنفاق المرضى النافع عند الله ، لا أن يهلك مالا لبدا فى الرياء والفخار ، فيكون مثله (كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم . . . الآية) . فإن قلت : قلما تقع «إلا» الداخلة على الماضى إلا مكررة ، ونحو قوله :

* فَأَىُّ أَمْرٍ سَيِّئٍ لاَ فَعَلَهْ *

لا يكاد يقع ، فما لها لم تكرر فى الكلام الأفصح ؟ قلت : هى متكررة فى المعنى ؛ لأن معنى (فلا اقتحم العقبة) فلا فك رقبة ، ولا أطعم مسكينا . ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . وقال الزجاج قوله : (ثم كان من الذين آمنوا) يدل على معنى : (فلا اقتحم العقبة) ، ولا آمن . والاقتحام : الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة . والقحمة : الشدة ، وجعل الصالحة : عقبة ، وعملها : اقتحاما لها ، لما فى ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس . وعن الحسن : عقبة والله شديدة . مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان . وفك الرقبة : تخليصها من رق أو غيره . وفى الحديث : أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دلنى على عمل يدخلنى الجنة . فقال : تعتق النسمة وتفك الرقبة . قال : أو ليسا سواء ؟ قال : لا ، إعتاقها أن تنفرد بعتقها . وفكها : أن تعين فى تخليصها من قود أو غرم[2] . والعتق والصدقة : من أفاضل الأعمال . وعن أبى حنيفة رضى الله عنه : أن العتق أفضل من الصدقة . وعند صاحبيه : الصدقة أفضل ، والآية أدل على قول أبى حنيفة ؛ لتقديم العتق على الصدقة . وعن الشعبى فى رجل عنده فضل نفقة : أيضعه فى ذى قرابة ، أو يعتق رقبة ؟ قال : الرقبة أفضل ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من فك رقبة فك الله بكل عضو منها عضواً منه من النار[3]» . قرئ : فك رقبة ، أو إطعام على : هى فك رقبة ، أو إطعام . وقرئ : فك رقبة ، أو أطعم ، على الإبدال من اقتحم العقبة . وقوله (وما أدراك ما العقبة) اعتراض ، ومعناه : أنك لم تدرك كنه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله . والمسغبة ، والمقربة ، والمتربة : مفعلات من سغب : إذا جاع . وقرب فى النسب ، يقال : فلان ذو قرابتى . وذو مقربتى . وترب : إذا افتقر ، ومعناه . التصق بالتراب . وأما أترب فاستغنى ، أى : صار

---

(١) قوله «بل غمط النعم» أى : استحقرها . (ع)

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب المفرد ، والبيهقى فى الشعب ، والثعلبى وابن مردويه والواحدى من رواية عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب وليس عند أحد منهم قوله «من قود أو غرم» وكأنه من كلام الزمخشرى .

(٣) أخرجه الحاكم من حديث عقبة بن عامر بلفظ «من أعتق رقبة» .

ذا مال كالتراب فى الكثرة ، كما قيل : أثرى . وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (ذا متربة) الذى مأواه المزابل[1] ، ووصف اليوم بذى مسغبة نحو ما يقول النحويون فى قولهم : هم ناصب : ذو نصب . وقرأ الحسن : ذامسغبة نصبه بإطعام . ومعناه : أوإطعام فى يوم من الأيام ذامسغبة .

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ الْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة ، لا فى الوقت ؛ لأنّ الإيمان هو السابق المقدّم على غيره ، ولا يثبت عمل صالح إلا به . والمرحمة : الرحمة ، أى : أوصى بعضهم بعضا بالصبر على الإيمان والثبات عليه . أو بالصبر عن المعاصى وعلى الطاعات والمحن التى يبتلى بها المؤمن ، وبأن يكونوا متراحمين متعاطفين . أو بما يؤدى إلى رحمة الله . الميمنة والمشأمة : اليمين والشمال . أو اليمن والشؤم ، أى : الميامين على أنفسهم والمشائيم عليهن . قرئ : موصدة ، بالواو والهمزة ، من وصدت الباب وآصدته : إذا أطبقته وأغلقته . وعن أبى بكر بن عياش : لنا إمام يهمز مؤصدة ؛ فأشتهى أن أسدّ أذنى إذا سمعته .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله الأمان من غضبه يوم القيامة »[2] .

---

(١) أخرجه ابن مردويه من رواية مجاهد عن عبدالله بن عمر بهذا . وعند الحاكم عن ابن عباس : قال « هو الذى لا يقيه من التراب شىء » موقوف .

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بالسند الى أبى بن كعب .

سورة الشمس

مكية، وآياتها ١٥ [نزلت بعد القدر]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)

ضحاها: ضوؤها إذا أشرقت وقام سلطانها؛ ولذلك قيل: وقت الضحى، وكأن وجهه شمس الضحى. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار. والضحى فوق ذلك. والضحاء بالفتح والمد: إذا امتد النهار وقرب أن ينتصف ﴿إذا تلاها﴾ طالعا عند غروبها آخذا من نورها؛ وذلك فى النصف الأول من الشهر. وقيل: إذا استدار فتلاها فى الضياء والنور ﴿إذا جلاها﴾ عند انتفاخ النهار [1] وانبساطه، لأن الشمس تنجلى فى ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض، وإن لم يجر لها ذكر، كقولهم: أصبحت باردة: يريدون الغداة، وأرسلت: يريدون السماء إذا يغشاها، فتغيب وتظلم الآفاق، فإن قلت: الأمر فى نصب «إذا» معضل؛ لأنك لا تخلو إما أن تجعل الواوات عاطفة فتنصب بها وتجر، فتقع فى العطف على عاملين فى نحو قولك: مررت أمس بزيد، واليوم عمرو. وإما أن تجعلهن للقسم، فتقع فيما اتفق الخليل وسيبويه على استكراهه. قلت: الجواب فيه أن واو القسم مطرح معها إبراز الفعل إطراحا كليا، فكان لها شأن خلاف شأن الباء، حيث أبرز معها الفعل وأضمر، فكانت الواو قائمة مقام الفعل والباء سادة مسدهما معا، والواوات العواطف نوائب عن هذه الواو، فحققن أن يكن عوامل على الفعل [2] والجار جميعا، كما تقول: ضرب زيد عمرا،

(١) قوله «عند انتفاخ النهار» فى الصحاح: انتفخ النهار، أى: علا. (ع)

(٢) قوله «عوامل على الفعل» لعله: عمل الفعل. (ع)

وبكر خالداً ، فترفع بالواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذى هو عاملهما . جعلت «ما» مصدرية فى قوله (وما بناها) (وما طحاها) (وما سواها) وليس بالوجه لقوله (فألهمها) وما يؤدى إليه من فساد النظم . والوجه أن تكون موصولة . وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء ، والقادر العظيم الذى بناها ، ونفس ، والحكيم الباهر الحكمة الذى سواها ، وفى كلامهم : سبحان ما سخركن لنا . فإن قلت : لم نكرت النفس ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يريد نفسا خاصة من بين النفوس وهى نفس آدم ، كأنه قال : وواحدة من النفوس . والثانى : أن يريد كل نفس وينكر للتكثير على الطريقة المذكورة فى قوله (علمت نفس) . ومعنى إلهام الفجور والتقوى : إفهامهما وإعقالها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما[1] بدليل قوله ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ فجعله فاعل التزكية[2]

---

(١) قال محمود : « معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالها ؛ وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، وتمكينه ... الخ » قال أحمد : بين فى هذا الكلام نوعين من الباطل ، أحدهما فى قوله : معنى إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالها ؛ وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذى يكنه فى هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله : إعقالها ، أى خلق العقل الموصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما اغتنم فى هذا فرصة إشعار الالهام بذلك ، فانه ربما يظن أن إطلاقه على العلم المستفاد من السمع بعيد ، والذى يقطع دابر هذه النزغة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الأفعال ؛ فانا لاننفى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لا بد فى علم كل حكم شرعى من المقدمتين : عقلية ، وهى الموصلة إلى العقيدة . وسمعية مفرعة عليها ، وهي الدالة على خصوص الحكم . على أن تعلقه بظاهر لو سلم ظهوره فى قاعدة قطعية بمعزل عن الصواب . النزغة الثانية : وهى التى كشف القناع فى إبرازها أن التزكية وقسيمها ليس مخلوقين لله تعالى ، بل لشركائه المعتزلة ، وإنما نعارضه فى الظاهر من فحوى الآية ؛ على أنه لم يذكر وجهاً فى الرد على من قال : إن الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقرونة بسفاهته على أهل السنة ، فنقول : لامراء فى احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين ، أحدهما : أن الجمل سيقت سياقة واحدة من قوله (والسماء وما بناها) وهلم جرا ؛ والضمائر فيما تقدم هذين الفعلين عائدة إلى الله تعالى بالاتفاق ، ولم يجر لغير الله تعالى ذكر . وإن قيل بعود الضمير إلى غيره : فانما يتمحل لجوازه بدلالة الكلام ضمنا واستلزاما ، لا ذكراً ونطقاً ، وما جرى ذكره أولى أن يعود الضمير عليه . الثانى : أن الفعل المستعمل فى الآية التى استدل بها فى قوله (قد أفلح من تزكى) « تفعل » ، ولا شك أن « تفعل » مطاوع « فعل » فهذا بأن يدل لنا ، أولى من أن يدل له ؛ لأن الكلام عندنا نحن : قد أفلح من زكاه الله فتزكى ؛ وعنده الفاعل فى الاثنين واحد ، أضاف إليه الفعلين المختلفين ، ويحتاج فى تصحيح الكلام إلى تعديد اعتبار وجهه ، ونحن عنه فى غنية ؛ على أنا لا نأبى أن تضاف التزكية والتدسية إلى العبد ، على طريقة أنه الفاعل ، كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا اختياراً وقدرة مقارنة ، وإن منعنا البرهان العقلى الدال على وحدانية الله تعالى ونفى الشريك أن نجعل قدرة للعبد مؤثرة خالقة ، فهذا جوابنا على الآية تنزلا ؛ وإلا فلم يذكر وجهاً من الرد ، فيلزمنا الجواب عنه . وأما جوابنا عن سفاهته على أهل السنة ، فالسكوت ؛ والله الموفق .

(٢) قوله « فجعله فاعل التزكية » مبنى على مذهب المعتزلة : من أن العبد هو الفاعل لأفعاله الاختيارية . وذهب أهل السنة إلى أن الفاعل لها فى الحقيقة هو الله تعالى ، كما تقرر فى علم التوحيد . (ع)

والتدسية ومتوليهما والتزكية : الإنماء والإعلاء بالتقوى . والتدسية : النقص والإخفاء بالفجور . وأصل دسى : دسس ، كما قيل فى تقضض : تقضى . وسئل ابن عباس عنه فقال : أتقرأ (قد أفلح من تزكى) ، (وقد خاب من حمل ظلما) . وأما قول من زعم أنّ الضمير فى زكى ودسى لله تعالى ، وأنّ تأنيث الراجع إلى من ؛ لأنه فى معنى النفس : فمن تعكيس القدرية الذين يورّكون [1] على الله قدراً هو برىء منه ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم فى تمحل فاحشة ينسبونها إليه . فإن قلت : فأين جواب القسم ؟ قلت : هو محذوف تقديره : ليدمدمنّ الله عليهم ، أى : على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً . وأما (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لقوله (فألهمها فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شيء .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

الباء فى ﴿بطغواها﴾ مثلها فى : كتبت بالقلم . والطغوى من الطغيان : فصلوا بين الاسم والصفة فى فعلى من بنات الياء ، بأن قلبوا الياء واواً فى الاسم ، وتركوا القلب فى الصفة ، فقالوا : امرأة خزيى وصديى ، يعنى : فعلت التكذيب بطغيانها ، كما تقول : ظلمنى بجرأته على الله . وقيل : كذبت بما أوعدت به من عذابها ذى الطغوى ، كقوله : (فأهلكوا بالطاغية) ، وقرأ الحسن : بطغواها ، بضم الطاء كالحسنى والرجعى فى المصادر ﴿إذ انبعث﴾ منصوب بكذبت . أو بالطغوى . و ﴿أشقاها﴾ قدار بن سالف . ويجوز أن يكونوا جماعة ، والتوحيد لتسويتك فى أفعل التفضيل إذا أضفته بين الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وكان يجوز أن يقال : أشقوها ، كما تقول : أفاضلهم . والضمير فى ﴿لهم﴾ يجوز أن يكون للأشقين والتفضيل فى الشقاوة ، لأنّ من تولى العقر وباشره كانت شقاوته أظهر وأبلغ . و ﴿ناقة الله﴾ نصب على التحذير ، كقولك الأسد الأسد ، والصبى الصبى ، بإضمار : ذروا أو احذروا عقرها ﴿وسقياها﴾ فلا تزووها عنها ، ولا

(١) قوله «الذين يوركون على الله قدراً» فى الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، إذا قرفه به اه ، أى : اتهمه . ومراده بالقدرية : أهل السنة ، حيث قالوا : كل ما وقع فى الكون هو بقضائه تعالى وقدره خيراً كان أو شراً ، وبخلقه تعالى وإرادته ، قبيحاً كان أو حسناً ، من أفعال العباد أو من غيرها ، كما تقرر فى التوحيد . (ع)

تستأثروا بها عليها ﴿فكذبوه﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿فدمدم عليهم﴾ فأطلق عليهم العذاب ، وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمومة : إذا ألبسها الشحم ﴿بذنبهم﴾ بسبب ذنبهم . وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب، فعلى كل مذنب أن يعتبر ويحذر ﴿فسوّاها﴾ الضمير للدمدمة ، أي : فسوّاها بينهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي عاقبتها وتبعتها ، كما يخاف كل معاقب من الملوك فيبقى بعض الإبقاء . ويجوز أن يكون الضمير لثمود على معنى : فسوّاها بالأرض . أو فى الهلاك ، ولا يخاف عقبى هلاكها . وفى مصاحف أهل المدينة والشأم : فلا يخاف . وفى قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ولم يخف .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الشمس ، فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر »[(١)].

سورة الليل

مكية ، وآياتها ٢١ (نزلت بعد الأعلى)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤)

المغشى : إما الشمس من قوله ﴿والليل إذا يغشاها﴾ وإما النهار من قوله (يغشى الليل النهار) وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله (إذا وقب) . ﴿تجلى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل . أو تبين وتكشف بطلوع الشمس ﴿وما خلق﴾ والقادر العظيم القدرة الذى قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد . وقيل : هما آدم عليه السلام وحواء . وفى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : والذكر والأنثى . وقرأ ابن مسعود : والذى خلق الذكر والأنثى .

---

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

وعن الكسائي : وماخلق الذكر والأنثى بالجر على أنه بدل من محل (ماخلق) بمعنى : وماخلقه الله ، أي : ومخلوق الله الذكر والأنثى . وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم لانفراده بالخلق . إذ لا خالق سواه . وقيل : إنّ الله لم يخلق خلقا من ذوى الأرواح ليس بذكر ولا أنثى . والخنثى ، وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل ، معلوم بالذكورة أو الأنوثة ؛ فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكراً ولا أنثى ، ولقد لقى خنثى مشكلا : كان حانثا ؛ لأنه فى الحقيقة إمّا ذكرا أو أنثى ، وإن كان مشكلا عندنا ﴿شتى﴾ جمع شتيت ، أى : إنّ مساعيكم أشتات مختلفة ، وبيان اختلافها فيما فصل على أثره .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

﴿أعطى﴾ يعنى حقوق ماله ﴿واتقى﴾ الله فلم يعصه ﴿وصدّق بالحسنى﴾ بالخصلة الحسنى : وهى الإيمان . أو بالملة الحسنى : وهى ملة الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى : وهى الجنة ﴿فسنيسره لليسرى﴾ فسنهيؤه لها من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها . ومنه قوله عليه السلام : «كل ميسر لما خلق[1] له» ، والمعنى : فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها[2] ، من قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾

﴿واستغنى﴾ وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه . أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة ، لأنه فى مقابلة (واتقى) . ﴿فسنيسره للعسرى﴾ فسنخذله ونمنعه الألطاف ، حتى تكون الطاعة أعسر شىء عليه وأشده ، من قوله (يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) أو سمى طريقة الخير باليسرى ، لأنّ عاقبتها اليسر ؛ وطريقة الشر العسرى ، لأن عاقبتها العسر . أو أراد بهما طريق الجنة والنار ، أى : فسنهديهما فى الآخرة للطريقين . وقيل : نزلتا فى أبى بكر رضى الله عنه ، وفى أبى سفيان بن حرب ﴿وما يغنى عنه﴾ استفهام فى معنى الإنكار . أو نفى ﴿تردّى﴾ تفعل من الردى وهو الهلاك ، يريد : الموت . أو تردّى فى الحفرة إذا قبر . أو تردى فى قعر جهنم .

---

(١) متفق عليه من حديث عمران بن حصين ، ومن حديث على رضى الله عنه .

(٢) قال محمود : «والتيسير لليسرى خلق الألطاف ... الخ» قال أحمد : الا يطيل لسانه ههنا على أهل السنة ولكن قصره الحق فتراه يؤول الكلام بل يعطله ، لأنه يحمله مالا يحتمله ، وعلى كلامه فى أمثالها روعة السارق الخائف

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣)

﴿إنّ علينا للهدى﴾ إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل[٢] وبيان الشرائع ﴿وإنّ لنا للآخرة والأولى﴾ أى ثواب الدارين للمهتدى ، كقوله (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) .

فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)

وقرأ أبو الزبير : تتلظى . فإن قلت : كيف قال ﴿لا يصلاها إلا الأشقى ... ... وسيجنبها الأتقى﴾ وقد علم أن كل شقىّ يصلاها[١] ، وكل تقىّ يجنبها ، لا يختص بالصلى أشقى الأشقياء ، ولا بالنجاة

---

(١) قوله «له واجب علينا بنصب الدلائل» وجوب شىء على الله تعالى : مذهب المعتزلة . ولا يجب عليه شىء عند أهل السنة ، ولكن شأن الكريم تأكيد الوعد . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت : كيف قال لا يصلاها إلا الأشقى وسيجنبها الأتقى ، وقد علم أن كل شقى يصلاها ... الخ» قال أحمد : لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص ، فحاصل جواب الزمخشرى أن التخصيص ههنا لفائدة أخرى غير النفى عما عدا المخصص ، وتلك الفائدة المقابلة ؛ وحيث تمحض لك السؤال والجواب ، فهو يلاحظ نظر الشافعى رحمه الله فى قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) فانه لم يقل بمفهوم حصرها ، وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالرد لأحكام الجاهلية ، لا لنفى ما عدا المحصور . على أن الزمخشرى إنما ضيق عليه الخناق فى هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المذكور ، التفاته إلى قاعدته الفاسدة وحذره أن تنقض ، ويأبى الله إلا نقضها ورفضها ، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضح لك ما قلته ، فنقول : المصلى فى اللغة أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جمرا كثيرا ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه ؛ فأما مايشوى فوق الجمر أو على المقلى أو على التنور فليس بمصلى ، وهذا التفسير بعينه نص عليه الزمخشرى ونقله عن أهل اللغة فى سورة الغاشية أيضا ، وأنا وقفت عليه فى كتبهم ؛ فاذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشد أنواع الاحراق بالنار ، وفى علمك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف : مؤمن صالح فائز ، ومؤمن عاص ، وكافر ، وأن المؤمن الفائز يمر على النار فيطفىء نوره لهبها ولا يؤلم بمسها البتة ، وإنما يردها تحلة القسم ، والعاصى إن شاء الله تعذيبه ومجازاته فانما يعذب على وجه النار فى الطبقة الأولى باتفاق ، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه : وأشدهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه ؛ ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها ألبتة بوعد الله تعالى ، والكافر هو المعذب بين أطباقها : تبين لك أن النار لا يصلاها أى يعذب بين أطباقها ـ كما علمت تفسيره فى اللغة ـ إلا الكافر : وهو الأشقى ؛ لأن المؤمن العاصى لا يبلغ مبلغه فى الشقاء ، وأن المؤمن الفائز وهو الأتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصى =

أتق الأتقياء، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً بعينها مخصوصة بالأشق، فما تصنع بقوله (وسيجنبها الأتقى) فقد علم أن أفسق المسلمين [1] يجنب تلك النار المخصوصة، لا الأتقى منهم خاصة؟ قلت: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعل مختصا بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعل مختصا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضى الله عنه ﴿يتزكى﴾ من الزكاء. أي: يطلب أن يكون عند الله زاكيا، لا يريد به رياء ولا سمعة. أو يتفعل من الزكاة. فإن قلت: ما محل يتزكى؟ قلت: هو على وجهين: إن جعلته بدلا من (يؤتى) فلا محل له: لأنه داخل في حكم الصلة، والصلات لا محل لها وإن جعلته حالا من الضمير في (يؤتى) فمحله النصب ﴿ابتغاء وجه ربه﴾ مستثنى من غير جنسه وهو النعمة أي: ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه، كقولك: ما في الدار أحد إلا حمارا وقرأ يحيى بن وثاب: إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع: على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمار وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي حازم:

أَضْحَتْ خَلَاءً قِفَارًا لَا أَنِيسَ بِهَا ... إِلَّا الْجَآذِرُ وَالظِّلْمَانُ تَخْتَلِفُ [2]

وقول القائل:

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ ... إِلَّا الْيَعَافِيرُ وَإِلَّا الْعِيسُ [3]

= يجنب النار بالكلية، لأن وروده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا ألمها، وأن المؤمن العاصي الذي ليس بالأتقى ولا بالأشقى لا يصلاها ولا يجنبها بالكلية؛ لأن وروده تحلة القسم بل يعذب فيها لا بالصلى؛ فهذا أحسن ما حملت الآية عليه، لكن إنما ينزل على جادة السنة. وأما الزمخشري فينحرف عنها، فلا جرم أنه في عهدة الجواب يفكر ويقدر. والله أعلم.

(١) قوله «فقد علم أن أفسق المسلمين» لعله: وقد. (ع)

(٢) أضحت خلايا قفاراً لا أنيس بها ... إلا الجآذر والظلمان تختلف
وقفت فيها قلوصي كي تجاوبني ... أو يخبر الرسم عنهم أية انصرفوا

لبشر بن أبي خازم. وخلايا: جمع خلية أي خالية، والجآذر والظلمان استثناء منقطع، لأنها لا تدخل في الأنيس. ورويا بالنصب على الاستثناء، وبالرفع على الابدال من الضمير المستكن في الخبر، كما هو لغة عند تميم. والجآذر: أولاد بقر الوحش. وروى: الجوازئ، وهي الظباء التي اجتزأت بأكل الربيع عن شرب الماء. والظلمان: أولاد النعام. أو النعام نفسه. والقلوص. الفتية من الابل المكتنزة اللحم، والضمير فيها عائد للديار. وضمير «تجاوبني» لها أيضاً. والرسم: آثار الديار. وأية: اسم استفهام منصوب بما بعده على الظرفية، لقطعه عن الاضافة، أي: صرفهم عزمهم ونيتهم. وشبه الرسم بعاقل على طريق المكنية فأسند له الاخبار تخييلا، وكذلك الدار ومجاوبتها.

(٣) قد ندع المنزل يا لميس ... يعيش فيه السبع الجروس
وبلدة ليس بها أنيس ... إلا اليعافير وإلا العيس =

ويجوز أن يكون (ابتغاء وجه ربه) مفعولا له على المعنى ، لأنّ معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه ، لا لمكافأة نعمة ﴿ولسوف يرضى﴾ موعد بالثواب الذى يرضيه ويقرّ عينه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة والليل ، أعطاه الله حتى يرضى ، وعافاه من العسر ويسر له اليسر»[1] .

سورة الضحى

مكية ، وآياتها ١١ (نزلت بعد الفجر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)

المراد بالضحى : وقت الضحى ، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها . وقيل : إنما خص وقت الضحى بالقسم ، لأنها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام ، وألقى فيها السحرة سجدا ، لقوله (وأن يحشر الناس ضحى) وقيل : أريد بالضحى : النهار ، بيانه قوله (أن يأتيهم بأسنا ضحى) فى مقابلة (بياتا) . ﴿سجى﴾ سكن وركد ظلامه . وقيل : ليلة ساجية ساكنة الريح . وقيل معناه : سكون الناس والأصوات فيه . وسجا البحر : سكنت أمواجه . وطرف ساج : ساكن فاتر ﴿ماودعك﴾ جواب القسم . ومعناه : ما قطعك قطع المودع . وقرئ بالتخفيف ، يعنى : ما تركك . قال :

= لعامر بن الحرث المشهور بجران العود . ولميس : امرأة . والجروس : كثير الصوت ، وبلدة - بالجر - برب المقدرة بعد الواو ، أى : قد نترك المنزل خاليا من أهله بقتلنا إياهم ، أو لارتحالنا عنهم . واليعافير - بالرفع - : بدل من أنيس على لغة تميم فى الاستثناء المنقطع بعد النفى ، وإلا الثانية توكيد الأولى . واليعافير - جمع يعفور - : دابة قدر السخلة على لون الرماد . وقيل : غزال كذلك . وقيل : ولد البقرة الوحشية . والعيس : البيض من الظباء أو الابل : جمع أعيس أو عيساء . والعيساء أيضا : أنثى الجراد ، يخالط بياضها شقرة .

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

وَثَمَّ وَدَعْنَا آلَ عَمْرٍو وَعَامِرٍ فَرَائِسَ أَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ [١]

والتوديع : مبالغة فى الودع ؛ لأنّ من ودّعك مفارقا فقد بالغ فى تركك . روى أنّ الوحى قد تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما . فقال المشركون : إنّ محمداً ودعه ربه وقلاه [٢] . وقيل : إنّ أم جميل امرأة أبى لهب قالت له : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك [٣] ، فنزلت. حذف الضمير من (قلى) كحذفه من (الذاكرات) فى قوله (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) يريد : والذاكراته ونحوه : (فآوى . . . فهدى . . . فأغنى) وهو اختصار لفظى لظهور المحذوف.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)

فإن قلت : كيف اتصل قوله ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ بما قبله ؟ قلت : لما كان فى ضمن نفى التوديع والقلى : أنّ الله مواصلك بالوحى إليك [٤] ، وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه : أخبره أن حاله فى الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدّم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته ، وغير ذلك من الكرامات السنية ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ موعد شامل لما أعطاه فى الدنيا من الفلج والظفر [٥] بأعدائه يوم بدر ويوم فتح

---

(١) ثم إشارة لمكان الحرب أو زمانها ، واختلف فى «دع» بمعنى اترك ، هل يتصرف فيأتى منه الماضى والمصدر ، واسم الفاعل والمفعول . قال الجوهرى : أميت ماضيه وغيره ، وربما جاء فى الضرورة اه ، وهو المشهور ؛ ولكن حيث جاء فى القرآن (ماودعك) بالتخفيف . وفى الحديث «لينتهين قوم عن ودعهم الجماعات» أى تركهم . وجاء اسم المفعول وغيره فى الشعر ، فيجوز القول بقلة الاستعمال لا بالاماتة ، كما قاله بعض المتقدمين . والفرائس : مفعول ثان ، وهو جمع فريسة : وهى صيد الأسد المفترس . والمثقفة : المقومة بالثقاف ، وهو آلة تقويم الرماح . والسمرة : لون بين البياض والأدمة . وشبه الرماح بالأسود على طريق المكنية ، والفرائس تخييل ؛ والأقرب تشبيه آل عمرو وآل عامر بالفرائس تشبيها بليغا لذكر الأطراف ؛ إلا أن يقال : إنها تجريد المكنية ؛ لأنها تلائم الرماح .

(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية العوفى عن ابن عباس فى قوله (ما ودعك ربك وما قلى) قال أبطأ عليه جبريل ـ الحديث» .

(٣) متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلى بلفظ «جاءت امرأة فقالت يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك . فأنزل الله (والضحى) وفى المستدرك من حديث زيد بن أرقم «أن النبى صلى الله عليه وسلم مكث أياما لا ينزل عليه . فأتته امرأة أبى لهب فقالت : يا محمد ـ فذكره نحوه .

(٤) قال محمود : «إن قلت : كيف اتصل بما قبله ؟ وأجاب بأنه لما كان فى ضمن التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحى إليك ... الخ» قال أحمد : وإخراج أهل الكبائر من النار بشفاعته مضاف إلى ذلك .

(٥) قوله «من الفلج والظفر» الفلج : أى الظهور والفوز والقهر ، كما يفيده الصحاح . (ع)

مكة ، ودخول الناس فى الدين أفواجا ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم ، وبث عساكره وسراياه فى بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين فى أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف فى قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام [١] ، وفشو الدعوة واستيلاء المسلمين ، ولما ادّخرله من الثواب الذى لا يعلم كنهه إلا الله . قال ابن عباس رضى الله عنهما : له فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك . فإن قلت : ما هذه اللام الداخلة على سوف؟ قلت : هى لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف . تقديره : ولأنت سوف يعطيك ، كما ذكرنا فى : لا أقسم ، أن المعنى : لأنا أقسم ؛ وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء ، فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد ، فبقى أن تكون لام ابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدإ والخبر ، فلا بد من تقدير مبتدإ وخبر ، وأن يكون أصله : ولأنت سوف يعطيك . فإن قلت : ما معنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير ؟ قلت : معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر ، لما فى التأخير من المصلحة .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨)

عدّد عليه نعمه وأياديه ، وأنه لم يخله منها من أول تربيه وابتداء نشئه ، ترشيحاً لما أراد به ، ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه ، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة ؛ ولا يضيق صدره ولا يقل صبره . و ﴿ألم يجدك﴾ من الوجود الذى بمعنى العلم : والمنصوبان مفعولا وجد . والمعنى : ألم تكن يتيما ، وذلك أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمّه ، وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، وعطفه الله عليه فأحسن تربيته [٢] . ومن بدع التفاسير : أنه من قولهم « درّة يتيمة » وأن المعنى : ألم يجدك واحداً فى قريش عديم

(١) قوله « وتهيب الاسلام » أى : تخوف ، كما فى الصحاح ، أى : تخوف الناس من أهل الاسلام . (ع)

(٢) لم أجد هذا . وقال السهيلى فى الروض : أكثر العلماء على أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو فى المهد ، كما ذكره الدولابى وغيره . وقال ابن سعد : لا يثبت أنه مات أبوه وهو حمل . ورواه الحاكم من طريق ابن إسحاق : حدثنى مطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده أنه ذكر ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « توفى أبوه وأمه حبلى به » وبذلك جزم ابن إسحاق . وأما سنه عند ما ماتت أمه . فجزم ابن إسحاق أنها ماتت وهو ابن ست سنين . وقال ابن حبيب : وهو ابن ثمان سنين . وأما كفالة عمه له فذكرها ابن إسحاق وغيره .

النظير فآواك. وقرئ: فأوى، وهو على معنيين: إما من أواه بمعنى آواه. سمع بعض الرعاة يقول: أين آوى هذه الموقسة [١] وإما من أوى له: إذا رحمه ﴿ضالا﴾ معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع، كقوله (ما كنت تدرى ما الكتاب). وقيل: ضل فى صباه فى بعض شعاب مكة، فرده أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده على عبد المطلب. وقيل: ضل فى طريق الشام حين خرج به أبو طالب، فهداك: فعرفك القرآن والشرائع. أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السمعية، فنعم؛ وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم، فمعاذ الله؛ والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) وكفى بالنبى نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر ﴿عائلا﴾ فقيراً. وقرئ: عيلا، كما قرئ: سيحات. وعديما ﴿فأغنى﴾ فأغناك بمال خديجة. أو بما أفاء عليك من الغنائم. قال عليه السلام: «جعل رزقى تحت ظل رمحى [٢]». وقيل: قنعك وأغنى قلبك.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

﴿فلا تقهر﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه. وفى قراءة ابن مسعود: فلا تكهر: وهو أن يعبس فى وجهه. وفلان ذو كهرورة: عابس الوجه. ومنه الحديث: فبأبى وأمى هو، ما كهرنى [٣]. النهر، والنهم: الزجر. عن النبى صلى الله عليه وسلم [٤] «إذا رددت السائل ثلاثا فلم يرجع،

---

(١) قوله «يقول أين آوى هذه الموقسة» الموقسة: الابل الجربى، من الوقس: وهو ابتداء الجرب اه من هامش، والذى فى الصحاح: يقال وقسه وقسا، أى: قرفه، وإن بالبعير لوقسا: إذا قارفه شىء من الجرب، فهو موقوس. (ع)

(٢) هذا طرف من حديث. وأخرجه البخارى تعليقا وأحمد وأبو داود وابن أبى شيبة وعبد بن حميد. وأبو يعلى والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن عمر. وفى النسائى عن أبى هريرة أخرجه البزار من رواية صدقة ابن عبد الله عن الأوزاعى عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة. وقال: لم يتابع صدقة على هذا. وغيره يرويه عن الأوزاعى مرسلا. وله طريق أخرى فى ترجمة أحمد بن محمود فى تاريخ أصبهان لأبى نعيم بسنده إلى أنس، وإسناده ساقط.

(٣) أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى فى أثناء حديث.

(٤) أخرجه الدارقطنى فى الافراد من رواية الوليد بن الفضل عن عبد الله بن أبى حسين عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به لكن قال «تزبره - بدل - وتنهره» والوليد اتهمه ابن حبان بالوضع لكن تابعه طلحة ابن عمرو عن عطاء أخرجه الثعلبى من طريق عقبة بن مجالد عن حبان بن على عن طلحة وهذا إسناد ضعيف.

فلا عليك أن تزبره »[1] وقيل : أما إنه ليس بالسائل المستجدى ، ولكن طالب العلم : إذا جاء فلا تنهره . التحديث بنعمة الله : شكرها وإشاعتها . يريد : ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك . وعن مجاهد : بالقرآن ، فحدث : أقرئه ، وبلغ ما أرسلت به. وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول : رزقنى الله البارحة خيرا : قرأت كذا وصليت كذا ، فإذا قيل له : يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا ؟ قال : يقول الله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) وأنتم تقولون : لا تحدث بنعمة الله . وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف ، وأن يقتدى به غيره ، وأمن على نفسه الفتنة . والستر أفضل . ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة : لكفى به . وفى قراءة على رضى الله عنه : فخبر . والمعنى : أنك كنت يتيما ، وضالا ، وعائلا ، فآواك الله ، وهداك : وأغناك ؛ فهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنس نعمة الله عليك فى هذه الثلاث . واقتد بالله ، فتعطف على اليتيم وآوه ، فقد ذقت اليتم وهوانه ، ورأيت كيف فعل الله بك ؛ وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك ، كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر ؛ وحدّث بنعمة الله كلها ، ويدخل تحته هدايته الضلال ، وتعليمه الشرائع والقرآن ، مقتديا بالله فى أن هداه من الضلال .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل »[2] .

ـــــــــــــــــــــــ

= وأخرجه ابن مردويه من رواية أحمد بن أبى طيبة عن حيان فقال : عن أبى هريرة ـ بدل ابن عباس . وله طريق أخرى . أخرجها عبد الغنى بن سعيد فى إيضاح الاشكال من رواية وهب بن زمعة عن هشام بن وهب أبى البخترى القاضى . وهو كذاب .

(١) قوله «فلا عليك أن تزبره» تزبره : أى تزجره وتنهه . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

سورة الشرح

مكية ، وآياتها ٨ (نزلت بعد الضحى)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ؛ ولذلك عطف عليه : وضعنا : اعتبارا للمعنى . ومعنى : شرحنا صدرك : فسحناه حتى وسع عموم النبوّة ودعوة الثقلين جميعا . أوحتى احتمل المكاره التى يتعرض[1] لك بها كفار قومك وغيرهم : أوفسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم ، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذى يكون مع العمى والجهل . وعن الحسن : ملىء حكمة وعلما . وعن أبى جعفر المنصور أنه قرأ : ألم نشرح لك ، بفتح الحاء . وقالوا : لعله بين الحاء وأشبعها فى مخرجها ، فظن السامع أنه فتحها ، والوزر الذى أنقض ظهره ـ أى حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله ـ مثل لما كان يثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغمه من فرطاته قبل النبوّة . أومن جهله بالأحكام والشرائع . أومن تهالكه على إسلام أولى العناد من قومه وتلهفه . ووضعه عنه : أن غفر له ، أوعلم الشرائع ، أومهد عذره بعد ما بلغ وبلغ . وقرأ أنس: وحللنا ، وحططنا . وقرأ ابن مسعود : وحللنا عنك وقرك . ورفع ذكره : أن قرن بذكر الله فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب ، وفى غير موضع من القرآن (والله ورسوله أحق أن يرضوه) ، (ومن يطع الله ورسوله) ، (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وفى تسميته رسول الله ونبى الله ؛ ومنه ذكره فى كتب الأولين ، والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به . فإن قلت : أى فائدة فى زيادة لك ، والمعنى مستقل بدونه[2] ؟ قلت : فى زيادة لك ما فى طريقة

---

(١) قوله « المكاره التى يتعرض لك » لعله تعرض بصيغة الماضى . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت ما فائدة لك مع أن الاضافة تغنى عنها ... الخ » ؟ قال أحمد : وقد تقدم عند الكلام على نظيرها فى قوله : « قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى » قريب من هذا المعنى ، والله أعلم .

الإبهام والإيضاح ، كأنه قيل : ألم نشرح لك ، ففهم أن ثم مشروحا ، ثم قيل : صدرك ، فأوضح ما علم مبهما . وكذلك (لك ذكرك) و (عنك وزرك) .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

فإن قلت : كيف تعلق قوله (فإن مع العسر يسرا) بما قبله ؟ قلت : كان المشركون يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة ، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم ، فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال : (فإن مع العسر يسرا) كأنه قال : خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ، فإن مع العسر الذى أنتم فيه يسرا . فإن قلت : (إن مع) للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر ؟ قلت : أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب ، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر ، زيادة فى التسلية وتقوية القلوب . فإن قلت : ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما : لن يغلب عسر يسرين [1] وقد روى مرفوعا أنه خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو يضحك ويقول «لن يغلب عسر يسرين» [2] ؟ قلت : هذا عمل على الظاهر ، وبناء على قوة الرجاء ، وأن موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه ، والقول فى أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرا للأولى كما كرر قوله (ويل يومئذ للمكذبين) لتقرير معناها فى النفوس وتمكينها فى القلوب ، وكما يكرر المفرد فى قولك : جاءنى زيد زيد ، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيسر لا محالة ، والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر ، فهما يسران على تقدير الاستئناف ، وإنما كان العسر واحدا لأنه لا يخلو ، إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذى كانوا فيه ، فهو هو ؛ لأن حكمه حكم زيد فى قولك : إن مع زيد مالا ، إن مع زيد مالا . وإما أن يكون للجنس الذى يعلمه كل أحد فهو هو أيضا . وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس ، فإذا كان الكلام الثانى مستأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الأول بغير إشكال . فإن قلت : فما المراد باليسرين ؟ قلت : يجوز أن يراد بهما

(١) حديث ابن عباس : لم أجده . قلت : ذكره الفراء عن الكلبى عن ابن صالح عنه .

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن الحسن به مرسلا . ومن طريقه أخرجه الحاكم والبيهقى فى الشعب . ورواه الطبرى من طريق أبى ثور عن معمر . وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولا . وإسناده ضعيف . وفى الباب عن عمر رضى الله عنه ذكره مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه «أن عمر بن الخطاب بلغه أن أبا عبيدة حصر بالشام فذكر القصة . وقال فى الكتاب إليه : ولن يغلب عسر يسرين» ومن طريقه رواه الحاكم . وهذا أصح طرقه .

ماتيسر لهم من الفتوح فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وماتيسر لهم فى أيام الخلفاء [١]، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة ، كقوله تعالى (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب . فإن قلت : فما معنى هذا التنكير ؟ قلت : التفخيم ، كأنه قيل إن مع العسر يسرا عظيما وأىّ يسر ، وهو فى مصحف ابن مسعود مرة واحدة . فإن قلت : فإذا ثبت فى قراءته غير مكرر ، فلم قال : والذى نفسى بيده ، لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنه لن يغلب عسر يسرين [٢] ؟ قلت : كأنه قصد باليسرين : مافى قوله (يسرا) من معنى التفخيم ، فتأوله بيسر الدارين ، وذلك يسران فى الحقيقة .

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

فإن قلت : فكيف تعلق قوله ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ بما قبله ؟ قلت : لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآنفة ، بعثه على الشكر والاجتهاد فى العبادة والنصب فيها ، وأن يواصل بين بعضها وبعض ، ويتابع ويحرص على أن لايخلى وقتا من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى . وعن ابن عباس : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء . وعن الحسن : فإذا فرغت من الغزو فاجتهد فى العبادة . وعن مجاهد : فإذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك . وعن الشعبى : أنه رأى رجلا يشيل حجرا فقال : ليس بهذا أمر الفارغ ، وقعود الرجل فارغا من غير شغل أو اشتغاله بما لايعنيه فى دينه أو دنياه : من سفه الرأى وسخافة العقل واستيلاء الغفلة ، ولقد قال عمر رضى الله عنه : إنى لأكره أن أرى أحدكم فارغا سبهللا لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة [٣]. وقرأ أبو السمال : فرغت ـ بكسر الراء ـ وليست بفصيحة . ومن البدع : ماروى عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد ، أى فانصب عليا للإمامة ؛ ولو صح هذا للرافضى لصح للناصبى أن يقرأ هكذا ، ويجعله أمرا بالنصب [٤] الذى هو بغض علىّ وعداوته ﴿وإلى ربك فارغب﴾ واجعل رغبتك إليه خصوصا ، ولاتسأل إلا فضله متوكلا عليه . وقرئ : فرغب أى : رغب الناس إلى طلب ماعنده .

عن النبى صلى الله عليه وسلم : ومن قرأ ألم نشرح ، فكأنما جاءنى وأنا مغتم ففرج عنى [٥]

(١) قوله «وما تيسر لهم فى أيام الخلفاء» لعله : وما يتيسر ، بصيغة المضارع . (ع)

(٢) حديث ابن مسعود : أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون أبى حمزة عن ابراهيم عن ابن مسعود قال : «لو كان العسر فى جحر ضب لتبعه اليسر حتى يستخرجه : لن يغلب عسر يسرين» .

(٣) لم أجده ، وقد روى أحمد وابن المبارك والبيهقى كلهم فى الزهد وابن أبى شيبة من طريق المسيب بن رافع قال قال عبدالله بن مسعود «إنى لأمقت الرجل أراه فارغا ليس فى شىء من عمل دنيا ولا آخرة» .

(٤) قوله «بالنصب» فى الصحاح : نصبت لفلان نصبا : إذا عاديته . (ع)

(٥) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب . ورواه سليم الرهرى فى البر عنه مرسلا .

ســـورة التين

مكية ، وآياتها ٨ [نزلت بعد البروج]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)

أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة ، وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : « كلوا ، فلو قلت إنّ فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأنّ فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوها . فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس »[1] ومرّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة »[2] ، وسمعته يقول « هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي » وعن ابن عباس رضى الله عنه : هو تينكم هذا وزيتونكم . وقيل : جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية : طورتينا وطورزيتا ، لأنهما منبتا التين والزيتون . وقيل « التين » جبال ما بين حلوان وهمدان . و« الزيتون » جبال الشام ، لأنها منابتهما ، كأنه قيل : ومنابت التين والزيتون . وأضيف الطور : وهو الجبل ، إلى سينين : وهي البقعة . ونحو سينون : يبرون ، في جواز الإعراب بالواو والياء ، والإقرار على الياء ، وتحريك النون بحركات الإعراب . والبلد : مكة حماها الله . والأمين : من أمن الرجل أمانة فهو أمين . وقيل : أمان ، كما قيل : كرام في كريم . وأمانته : أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، من أمنه لأنه مأمون الغوائل ،

(١) أخرجه أبو نعيم في الطب . والثعلبي من حديث أبي ذر . وفي إسناده من لا يعرف .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والثعلبي من حديث معاذ بن جبل ، وإسناده واه .

كما وصف بالأمن فى قوله تعالى (حرما آمنا) بمعنى: ذى أمن . ومعنى القسم بهذه الأشياء . الإبانة عن شرف البقاع المباركة وماظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين : فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه . والطور : المكان الذى نودى منه موسى . ومكة : مكان البيت الذى هو هدى للعالمين ، ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ﴿فى أحسن تقويم﴾ فى أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه . ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية : أن رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا ، يعنى : أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة ، وهم أصحاب النار أو أسفل من سفل من أهل الدركات . أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل فى حسن الصورة والشكل : حيث نكسناه فى خلقه ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وتشنن [1] جلده وكان بضا ، وكلّ سمعه وبصره وكانا حديدين ، وتغير كل شيء منه : فمشيه دليف [2] ، وصوته خفات ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف [3] وقرأ عبدالله : أسفل السافلين . فإن قلت : فكيف الاستثناء على المذهبين ؟ قلت : هو على الأول متصل ظاهر الاتصال ، وعلى الثانى منقطع . يعنى : ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم . فإن قلت : ﴿فما يكذبك﴾ من المخاطب به ؟ قلت : هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات ، أى : فما يجعلك كاذبا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل ، يعنى أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء ، لأنّ كل مكذب بالحق فهو كاذب ، فأىّ شيء يضطرك إلى أن تكون كاذبا بسبب تكذيب الجزاء . والباء مثلها فى قوله تعالى (الذين يتولونه والذين هم به مشركون) والمعنى : أنّ خلق الإنسان من نطفة ، وتقويمه بشرا سويا وتدريجه فى مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر : لا ترى دليلا أوضح منه على قدرة الخالق ، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله : لم يعجز عن إعادته ، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ وعيد للكفار ، وأنه يحكم عليهم بما هم

---

(١) قوله «وتشنن جلده» فى الصحاح التشنن : التشنج واليبس فى جلد الإنسان ، والبضاضة : رقة الجلد ورخوصته . (ع)

(٢) قوله «فمشيه دليف» أى مشى رويد متقارب الخطو . (ع)

(٣) قوله «وشهامته خرف» لعله : خوف . (ع)

أهله . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها قال : « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » [١] .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة والتين أعطاه الله خصلتين : العافية واليقين مادام فى دار الدنيا ، وإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة » [٢] .

سورة العلق

مكية ، وآياتها ١٩ [وهى أول مانزل من القرآن]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

عن ابن عباس ومجاهد : هى أول سورة نزلت ، وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول مانزل ثم سورة القلم . محل ﴿ باسم ربك ﴾ النصب على الحال ، أى : اقرأ مفتتحا باسم ربك قل بسم الله ، ثم اقرأ . فإن قلت : كيف قال ﴿ خلق ﴾ فلم يذكر له مفعولا ، ثم قال ﴿ خلق الإنسان ﴾ ؟ قلت : هو على وجهين : إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه . وإما أن يقدر ويراد خلق كل شىء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض . وقوله : (خلق الإنسان) تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق ؛ لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض . ويجوز أن يراد : الذى خلق الإنسان ، كما قال (الرحمن علم القرآن خلق الانسان) فقيل : (الذى خلق) مبهما ، ثم فسره بقوله (خلق الإنسان) تفخيما لخلق الإنسان . ودلالة على عجيب فطرته . فإن قلت : لم قال ﴿ من علق ﴾ على الجمع ، وإنما خلق من علقة ، كقوله (من نطفة ثم من علقة) ؟ قلت : لأن

---

(١) أخرجه الحاكم عن أبى هريرة بالاسناد المتقدم فى القيامة ورواه الطبرى من رواية سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا ـ فذكره .

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

الإنسان فى معنى الجمع ، كقوله (إنّ الانسان لفى خسر) . ﴿الأكرم﴾ الذى له الكمال فى زيادة كرمه على كل كرم ، ينعم على عباده النعم التى لا تحصى ، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهى وإطراحهم الاوامر ، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم ، فما لكرمه غاية ولا أمد ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم ، حيث قال : الأكرم ﴿الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم﴾ فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده مالم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، ومادونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا ؛ ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط ، لكفى به . ولبعضهم فى صفة القلم :

وَرَوَاقِمٍ رُقْشٍ كَمِثْلِ أَرَاقِمٍ ... قُطْفِ الْخُطَا نَيَّالَةٍ أَقْصَى الْمَدَى

سُودِ الْقَوَائِمِ مَا يَجِدُّ مَسِيرُهَا ... إِلاَّ إِذَا لَعِبَتْ بِهَا بِيضُ الْمُدَى [1]

---

(١) للزمخشرى رحمه الله تعالى فى صفة الأقلام ، وكان حقه أن يذكر فى حرف الدال ؛ لأن حروف الاطلاق وهى الألف والواو والياء السا كنات غير معتبرة فى هذه الأبواب ؛ وإنما أخرناه ليكون جزاء للأقلام على عملها كما أن الأجير يوفى أجره بعد تمام عمله . والرواقم : جمع راقمة صفة للأقلام ، وهو مجرور برب المقدرة . وخبره قوله : كمثل أراقم . أو قطف الخطى ؛ والأظهر أن الخبر قوله : مايجد مسيرها . وإسناد الرقم إليها مجاز عقلى ، لأنها آلته . والرقش : جمع أرقش . أو رقشاء : الحية المنقوشة الظهر . والأراقم - جمع أرقم الثعبان الذى فيه سواد وبياض . والقطف : جمع أقطف ، وهو الذى يقارب بين خطاه . والخطى : جمع خطوة بالضم . والمدى ، بالفتح : يطلق على المسافة وعلى غايتها . والسود : جمع أسود أوسوداء . والقوائم : الأرجل . والجد بمعنى الاجتهاد أو ضد الهزل . والبيض : جمع بيضاء . والمدى ؛ بالضم : جمع مدية ، وهى الشفرة ، ثم إنه شبه انتقاش الأقلام بانتقاش الحيات ، فاستعار له الرقش على سبيل الاستعارة التصريحية ؛ وشبهها بالأراقم بجامع التلون والامتداد يمينا وشمالا وانشقاق لسان كل شعبتين وإلقائه اللعاب ؛ فالجامع مركب حسى . وقيل : إنه من قبيل تشبيه المركب المحسوس بالمركب المحسوس بجامع الهيئات التى تقع عليها الحركة . وكرر أداة التشبيه للتوكيد ، ثم شبهها بالدواب السائرة على طريق المكنية ، بجامع التلون والتردد ، والذهاب والاياب ، والتوصل بكل إلى المراد ، وإثبات القطاف والخطو والقوائم : تخييل . وقيل : يجوز أن هذا من قبيل تشبيه المركب بالمركب أيضا ، وهى وإن كان سيرها قليلا : تبلغ صاحبها مراده ، وإن كان بعيداً فنسبة النيل إليها مجاز عقلى ؛ لأنها آلته . وشبه المراد المعقول بالمقصد المحسوس ، وهو آخر المسافة بجامع الاحتياج فى إدراك كل إلى أسباب ؛ فأقصى المدى : استعارة تصريحية : وهى ترشيح لتلك المكنية ؛ وقوائم الأقلام : ما دق وطال من أطرافها ، وهى سود دائما ؛ وإثبات الجد للسير مبالغة بجد جده . وشبه المدى بما يصح منه اللعب على سبيل المكنية ، وإثبات اللعب تخييل هذا بيانه . وفيه من البديع بين الرواقم والأراقم شبه الاشتقاق ، وبين «قطف الخطى» «ونيالة أقصى المدى» شبه التضاد ؛ وبين السود والبيض ، وبين الجد واللعب : طباق التضاد ؛ وبين المسير ولعب المدى : شبه التضاد بحسب الظاهر ؛ لأن المدى =

وقرأ ابن الزبير : علم الخط بالقلم .

كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

﴿كلا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ﴿أن رآه﴾ أن رأى نفسه . يقال فى أفعال القلوب : رأيتنى وعلمتنى ، وذلك بعض خصائصها . ومعنى الرؤية : العلم ؛ ولو كانت بمعنى الإبصار لا متنع فى فعلها الجمع بين الضميرين . و﴿استغنى﴾ هو المفعول الثانى ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان ، تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان . والرجعى : مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع . وقيل : نزلت فى أبى جهل ، وكذلك ﴿أرأيت الذى ينهى﴾ وروى أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبا ، لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك ، فنزل جبريل فقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم[1] . وروى عنه لعنه الله أنه قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فو الذى يحلف به ، لئن رأيته توطأت عنقه ، فجاءه ثم نكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ، فقال : إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة ، فنزلت (أرأيت الذى ينهى) ومعناه : أخبرنى عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله . أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح ، كما نقول نحن ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾

= تبطل سير الحيوان إذا لعبت بقوائمه ، لكنه مناسب للأقلام . وبين المدى والمدى : الجناس المحرف ؛ وهذا مما يدل على أن المصنف رحمه الله وعمه برضاه : كان من مفلق سحرة البيان ، الحائزين قصبات السبق فى هذا الميدان .

(١) لم أجده . قلت : وآخره تقدم فى الاسراء بغير هذا السياق .

ويطلع على أحواله من هداه وضلاله ، فيجازيه على حسب ذلك . وهذا وعيد . فإن قلت : ما متعلق أرأيت ؟ قلت : الذى ينهى مع الجملة الشرطية ، وهما فى موضع المفعولين . فإن قلت : فأين جواب الشرط ؟ قلت : هو محذوف ، تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، ألم يعلم بأن الله يرى . وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى . فإن قلت : فكيف صح أن يكون (ألم يعلم) جوابا للشرط ؟ قلت : كما صح فى قولك : إن أكرمتك أتكرمنى ؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ فإن قلت : فما أرأيت الثانية وتوسطها بين مفعول أرأيت ؟ قلت : هى زائدة مكررة للتوكيد . وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة ﴿ كلا ﴾ ردع لأبى جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات ، ثم قال ﴿ لئن لم ينته ﴾ عما هو فيه ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار . والسفع : القبض على الشىء وجذبه بشدة . قال عمرو بن معديكرب :

قَوْمٌ إِذَا يَقَعُ الصَّرِيخُ رَأَيْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعِ (١)

وقرئ : لنسفعن ، بالنون المشددة . وقرأ ابن مسعود : لأسفعا . وكتبتها فى المصحف بالألف على حكم الوقف ، ولما علم أنها ناصية المذكور : اكتفى بلام العهد عن الإضافة ﴿ ناصية ﴾ بدل من الناصية ؛ وجاز بدلها عن المعرفة ، وهى نكرة ؛ لأنها وصفت فاستقلت بفائدة . وقرئ : ناصية ، على : هى ناصية . وناصية بالنصب . وكلاهما على الشتم . ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازى . وهما فى الحقيقة لصاحبها . وفيه من الحسن والجزالة ما ليس فى قولك : ناصية كاذب خاطئ . والنادى : المجلس الذى ينتدى فيه القوم . أى يجتمعون . والمراد : أهل النادى . كما قال جرير :

* لَهُمْ مَجْلِسٌ صُهْبُ السِّبَالِ أَذِلَّةٌ * (٢)

---

(١) لحميد بن ثور الهلالى الصحابى ، أى : هم قوم إذا نقع الصريخ ، أى : ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليها فتراهم دائرين بين ملجم مهره وسافع ، أى : قابض بناصية مهره ، ويجذبه إليه بسرعة . ومن زائدة ؛ ولو كانت فى الاثبات . وأو بمعنى الواو . ويروى : إذا يقع بالياء ، أى : يحصل . ويروى : إذا هتف ، أى : صاح ، فيكون بجد جده . ويجوز أن الصريخ بمعنى الصارخ . ويروى : إذا سمعوا الصريخ فهو مفعول . ويروى : ما بين ملجم . وهذا مما يؤيد أن «من» فى تلك الرواية زائدة .

(٢) لهم مجلس صهب السبال أذلة على من يعاديهم أشداء فاعلم

يقول : لهم مجلس يجتمعون فيه . أو لهم قوم مجتمعون جالسون ، ولا ترى ذلك إلا فى الرؤساء الأشراف . وصهب السبال : صفة لمرجع الضمير فى لهم على الأول ، وصفة لمجلس على الثانى ؛ لأنه بمعنى الجالسين . والصهبة : حمرة ترهق السواد . والصهب : جمع أصهب . والسبال : طرف الشارب جانب الفم ، وتلك الصهبة من خواص الروم ، ═

وقال زهير :

* وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ *

والمقامة : المجلس . روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال : ألم أنهك ؟ فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا [1] ، فنزلت . وقرأ ابن أبى عبلة : سيدعى الزبانية ، على البناء للمفعول . والزبانية فى كلام العرب : الشرط ، الواحد : زبنية ، كعفرية ، من الزبن : وهو الدفع . وقيل : زبنى ، وكأنه نسب إلى الزبن ، ثم غير للنسب ، كقولهم أمسى : وأصله : زبانى ، فقيل . زبانية على التعويض ؛ والمراد : ملائكة العذاب . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا [2]» . ﴿كلا﴾ ردع لأبى جهل ﴿لا تطعه﴾ أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه ، كقوله (فلا تطع المكذبين) . ﴿واسجد﴾ ودم على سجودك ، يريد : الصلاة ﴿واقترب﴾ وتقرب إلى ربك . وفى الحديث : «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد» [3] .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة العلق أعطى من الأجر كأنما قرأ المفصل كله [4]» .

= وهو كناية عن الغلظة والشدة ، وأذلة : أى فيما بينهم أشداء على من يعاديهم . وقدم المعمول للحصر . فاعلم ذلك وتيقنه فهو حق . ويروى بدل الشطر الثانى : * سواسية أحرارها وعبيدها * وسواسية كطواعية جمع سواء على غير قياس . وقيل : اسم جمع بمعنى مستوين . يعنى : أنهم مستوون فى الشرف وكمال الأخلاق ، ولولا مقام المدح لكان من قبيل التوجيه ، لاحتماله لوجه الذم أيضا . وأما إن قرئ بالكسر والتشديد ، فهو منسوب السواس وهو التمرن على حسن السير ، يعنى أن جميعهم رؤساء ، ولكن الأول أوجه . ومنه الحديث : «الناس سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» كما فى ترجمة شرح القاموس .

(١) أخرجه الطبرى وابن مردويه بهذا وأتم منه . وهو عند الترمذى والنسائى والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والبزار كلهم من رواية أبى خالد الأحمر عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما . قلت : وأصله فى صحيح البخارى .

(٢) أخرجه البخارى والنسائى من رواية معمر عن عبد الكريم الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس به . وهو الذى قبله من قول ابن عباس رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ «وهو ساجد» .

(٤) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

سورة القدر

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٥ [نزلت بعد عبس]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)

عظم القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها : أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره : والثانى . أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه ؛ والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه . روى أنه أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . وأملاه جبريل على السفرة ، ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة . وعن الشعبي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر واختلفوا فى وقتها فأكثرهم على أنها فى شهر رمضان فى العشر الأواخر فى أوتارها ، وأكثر القول أنها السابعة منها ؛ ولعل الداعى إلى إخفائها أن يحيى من يريدها الليالى الكثيرة : طلبا لموافقتها ، فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه ، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا فى غيرها . ومعنى ليلة القدر : ليلة تقدير الأمور وقضائها ، من قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم) وقيل سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالى ﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ يعنى : ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، ثم بين ذلك بأنها خير من ألف شهر ، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التى ذكرها : من تنزل الملائكة والروح ، وفصل كل أمر حكيم ، وذكر فى تخصيص هذه المدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر . فعجب المؤمنون من ذلك ، وتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأعطوا ليلة هى خير من مدة ذلك الغازى [1] . وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر ، فأعطوا

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وغيره من طريق ابن خالد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به مرسلا دون قوله « وتقاصرت إليهم أعمالهم » .

ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد ﴿تنزل﴾ إلى السماء الدنيا ، وقيل : إلى الأرض ﴿والروح﴾ جبريل . وقيل : خلق من الملائكة لاتراهم الملائكة إلا تلك الليلة ﴿من كل أمر﴾ أى تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل . وقرئ : من كل امرئ ، أى : من أجل كل إنسان . قيل : لايلقون مؤمناً ولامؤمنة إلاسلموا عليه فى تلك الليلة ﴿سلام هى﴾ ماهى إلاسلامة ، أى : لايقدرالله فيها إلاالسلامة والخير ، ويقضى فى غيرها بلاء وسلامة . أو : ماهى إلاسلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين . وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وكسرها .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر[1]» .

سـورة البينة

مكية ، وقيل : مدنية ، وآياتها ٨ [نزلت بعد الطلاق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم : لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعنى أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق : إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقنى الله الغنى ، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً ، فيقول واعظه : لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار : يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاما . وانفكاك الشىء من الشىء . أن يزايله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ؛ والمعنى : أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجىء البينة . و﴿البينة﴾ الحجة الواضحة [(١)] . و﴿رسول﴾ بدل من البينة . وفى قراءة عبد الله : رسولا ، حالا من البينة ﴿صحفاً﴾ قراطيس ﴿مطهرة﴾ من الباطل ﴿فيها كتب﴾ مكتوبات ﴿قيمة﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل ؛ والمراد بتفرقهم : تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه . أو تفرقهم فرقا : فمنهم من آمن ، ومنهم من أنكر وقال : ليس به ؛ ومنهم من عرف وعاند . فإن قلت : لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أولا ثم أفرد أهل الكتاب فى قوله ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب﴾ ؟ قلت : لأنهم كانوا على علم به لوجوده فى كتبهم ، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف ﴿وما أمروا﴾ يعنى فى التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفى ، ولكنهم حرفوا وبدلوا ﴿وذلك دين القيمة﴾ أى دين الملة القيمة . وقرئ : وذلك الدين القيمة ، على تأويل الدين بالملة . فإن قلت : ما وجه قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) ؟ قلت : معناه : وما أمروا بما فى الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا الله على هذه الصفة . وقرأ ابن مسعود : إلا أن يعبدوا ، بمعنى : بأن يعبدوا . قرأ نافع : البريئة

---

(١) قوله «والبينة الحجة الواضحة» فى نسخة بدل «والبينة» : القرآن ، وأولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) ورسول من الله : جبريل صلوات الله عليه ، وهو التالى للصحف المطهرة المنتسخة من اللوح التى ذكرت فى سورة عبس ، ولا بد من مضاف محذوف وهو الوحى . ويجوز أن يراد النبى صلى الله عليه وسلم . فإن قلت : كيف نسبة تلاوة الصحف المطهرة إليه وهو أمى ؟ قلت : إذا تلا مثل المذكور فيها كان تاليا لها ... . (ع)

بالهمز؛ والقراء على التخفيف . والنبيّ ، والبرية : مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل وقرئ : خيار البرية : جمع خير ، كجياد وطياب : فى جمع جيد وطيب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا [1]» .

سورة الزلزلة

مدنية وقيل مكية ، وآياتها ٨ [نزلت بعد النساء]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

﴿زلزالها﴾ قرئ بكسر الزاى وفتحها : فالمكسور مصدر ، والمفتوح : اسم ؛ وليس فى الأبنية فعلال بالفتح إلا فى المضاعف . فإن قلت : مامعنى زلزالها بالإضافة ؟ قلت : معناه زلزالها الذى تستوجبه فى الحكمة ومشيئة الله ، وهو الزلزال الشديد الذى ليس بعده . ونحوه قولك : أكرم التقيّ إكرامه ، وأهن الفاسق إهانته ، تريد : مايستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ماهو ممكن منه . الأثقال : جمع [2] ثقل . وهو متاع البيت ، وتحمل أثقالكم جعل مافى جوفها من الدفائن أثقالا لها ﴿وقال الإنسان مالها﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما فى بطنها ؛ وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء ، فيقولون ذلك

---

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(٢) قوله «جمع ثقل وهو متاع» فى الصحاح «الثقل» : واحد الأثقال ، مثل حمل وأحمال . والثقل ـ بالتحريك متاع المسافر وحشمه . (ع)

لما يبهرهم من الأمر الفظيع ، كما يقولون : (من بعثنا من مرقدنا) . وقيل : هذا قول الكافر ؛ لأنه كان لا يؤمن بالبعث ؛ فأما المؤمن فيقول : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . فإن قلت : ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها ؟ قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان ، حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات ؟ وأنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه . وقيل: ينطقها الله على الحقيقة . وتخبر بما عمل عليها من خير وشر . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها[1]. فإن قلت : (إذا ، ويومئذ) : ما ناصبهما ؟ قلت : (يومئذ) : بدل من (إذا) ، وناصبهما (تحدّث) . ويجوز أن ينتصب (إذا) بمضمر ، و(يومئذ) بتحدث . فإن قلت : أين مفعولا (تحدث) ؟ قلت : قد حذف أولهما ، والثانى أخبارها ، وأصله تحدث الخلق أخبارها ؛ إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيما لليوم . فإن قلت : بم تعلقت الباء فى قوله ﴿بأن ربك﴾ ؟ قلت : بتحدّث ، معناه : تحدّث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . ويجوز أن يكون المعنى : يومئذ تحدث بتحديث أنّ ربك أوحى لها أخبارها ، على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها : تحديث بأخبارها ، كما تقول : نصحتنى كل نصيحة ، بأن نصحتنى فى الدين . ويجوز أن يكون (بأن ربك) بدلا من (أخبارها) كأنه قيل : يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها ؛ لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا . و ﴿أوحى لها﴾ بمعنى أوحى إليها ، وهو مجاز كقوله (أن نقول له كن فيكون) قال :

* أَوْحَى لَهَا القَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ *[2]

وقرأ ابن مسعود : تنبئ أخبارها ، وسعيد بن جبير : تنبئ ، بالتخفيف . يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أشتاتا﴾ بيض الوجوه آمنين ؛ وسود الوجوه فزعين . أو يصدرون عن الموقف أشتاتا يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ، ليروا جزاء أعمالهم . وفى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم : ليروا بالفتح . وقرأ ابن عباس وزيد بن على : يره ، بالضم . ويحكى أنّ أعرابيا أخر (خيراً يره) فقيل له ، قدمت وأخرت : فقال :

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم من رواية ابن أيوب عن يحيى عن أبى سليمان المنقرى عن أبى هريرة . وسعيد ثقة . وخالفه رشدين بن سعد وهو ضعيف فقال : عن يحيى بن أبى سليمان عن أبى حازم بالسندين المذكورين عن أنس بن مالك . وأخرجه ابن مردويه .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة ٧٥ فراجعه إن شئت اه مصححه .

خُذَا بَطْنَ هَرْشَى أَوْقَفَاهَا فَإِنَّهُ كِلَا جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ [١]

والذرّة : النملة الصغيرة ، وقيل «الذر» ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء . فإن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر ، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشر [٢] ؟ قلت : المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً : من فريق السعداء . ومن يعمل مثقال ذرّة شراً : من فريق الأشقياء ؛ لأنه جاء بعد قوله (يصدر الناس أشتاتا) ،

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» [٣] .

---

(١) روى أن أعرابيا أخر قوله تعالى (خيراً يره) عما بعده ، فقيل : قدمت وأخرت ، فضرب ذلك البيت مثلا . وهرشى - كسكرى : ثنية فى طريق مكة عند الجحفة ، أى : اسلكا أمام تلك الثنية أو خلفها ، فانه أى : الحال والشأن كل من جانبيها طريق للابل التى تطلبانها ، وتكرير لفظ «هرشى» لتقررها فى ذهن السامع خوف غفلته عنها ، والمقام كان مقام هداية ، فحسن فيه ذلك .

(٢) قال محمود : «إن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر .. الخ» قال أحمد : السؤال مبنى على قاعدتين : إحداهما : أن حسنات الكافر محبطة بالكفر ، وهذه فيها نظر ؛ فان حسنات الكافر محبطة ، أى : لا يثاب عليها ولا ينعم . وأما تخفيف العذاب بسببها ، فغير منكر ؛ فقد وردت به الأحاديث الصحيحة . وقد ورد أن حاتما يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه ، وورد ذلك فى حق غيره كأبى طالب أيضا ، فحينئذ لحسنات الكافر أثر ما فى تخفيف العذاب ، فيمكن أن يكون المرئى هو ذلك الأثر ، والله أعلم . وأما القاعدة الثانية : وهى القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصغائر ويكفرها عن المؤمن ، فردود عند أهل السنة ؛ فان الصغائر عندهم حكمها فى التكفير فى حكم الكبائر : تكفر بأحد أمرين : إما بالتوبة النصوح المقبولة ، وإما بالمشيئة لا غير ذلك . وأما اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب التكفير للصغيرة ، فالسؤال المذكور إذاً ساقط عن أهل السنة ، ولكن الزمخشرى التزم الجواب عنه للزومه على قاعدته الفاسدة ؛ والله الموفق .

(٣) أخرجه الثعلبى من حديث على باسناد أهل البيت ، لكنه من رواية أبى القاسم الطائى . وهو ساقط وشاهده عند ابن أبى شيبة والبزار من رواية سلمة بن دزوان عن أنس مرفوعا : إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» وأخرجه ابن مردويه والواحدى باسناديهما إلى أبى بن كعب بلفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطى من الاجر كمن قرأ القرآن .

سورة العاديات

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ١١ [نزلت بعد العصر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿١١﴾

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح . والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون . وعن ابن عباس أنه حكاه فقال : أح أح . قال عنترة :

وَالْخَيْلُ تَكْدَحُ حِينَ تَضْبَحُ فِي حِيَاضِ الْمَوْتِ ضَبْحَا [(١)]

وانتصاب ضبحا على : يضبحن ضبحا ، أو بالعاديات ، كأنه قيل : والضابحات ؛ لأن الضبح يكون مع العدو [(٢)] . أو على الحال ، أى : ضابحات ﴿فالموريات﴾ تورى نار الحباحب [(٣)]

---

(١) الكدح : الجد فى العدو ، والضبح : إخراج النفس بصوت غير الصهيل والحمحمة . وحكاه ابن عباس فى التفسير فقال : أح أح ؛ وشبه الموت بالسيل على طريق المكنية ، والحياض تخييل لذلك .

(٢) قال محمود : «وأقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح صوت أنفاسها ... الخ» قال أحمد : ولم يذكر حكمة الاتيان بالفعل معطوفا على الاسم ، فنقول : إنما عطف (أثرن) على الاسم الذى هو (العاديات) وما بعده لأنها أسماء فاعلين ، تعطى معنى الفعل . وحكمة مجىء هذا المعطوف فعلا عن اسم فاعل : تصوير هذه الأفعال فى النفس ؛ فان التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم ، لما بينهما من التخالف : وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة ، وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضى ؛ وقد تقدمت له شواهد أقربها قول ابن معد يكرب :

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

(٣) قوله «تورى نار الحباحب» الحباحب : اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا نارا ضعيفة مخافة الضيفان ، فضربوا به المثل حتى قالوا : نار الحباحب : لما تقدحه الخيل بحوافرها . اه من الصحاح . (ع)

وهى ما ينقدح من حوافرها ﴿قدحا﴾ قادحات صاكات بحوافرها الحجارة. والقدح. الصك. والإيراء. إخراج النار. تقول. قدح فأورى، وقدح فأصلد [١]، وانتصب قدحا بما انتصب به ضبحا ﴿فالمغيرات﴾ تغير على العدو ﴿صبحا﴾ فى وقت الصبح ﴿فأثرن به نقعا﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿فوسطن به﴾ بذلك الوقت، أو بالنقع، أى وسطن النقع الجمع. أو فوسطن ملتبسات به ﴿جمعا﴾ من جموع الأعداء. ووسطه بمعنى توسطه. وقيل: الضمير لمكان الغارة. وقيل: للعدو الذى دلّ عليه (والعاديات) ويجوز أن يراد بالنقع: الصياح، من قوله عليه السلام «ما لم يكن نقع ولا لقلقة [٢]»، وقول لبيد:

* فَمَتَى يَنْقَعْ صُرَاخٌ صَادِقٌ * [٣]

أى: فهيجن فى المغار عليهم صياحا وجلبة [٤]. وقرأ أبو حيوة: فأثّرن بالتشديد، بمعنى: فأظهرن به غبارا؛ لأن التأثير فيه معنى الإظهار. أو قلب ثورن إلى وثرن، وقلب الواو همزة. وقرئ: فوسّطن بالتشديد للتعدية. والباء مزيدة للتوكيد، كقوله (وأتوا به) وهى مبالغة فى وسطن. وعن ابن عباس: كنت جالساً فى الحجر فجاء رجل فسألنى عن (العاديات ضبحا) ففسرتها بالخيل، فذهب إلى علىّ وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت، فقال: ادعه لى، فلما وقفت على رأسه قال: تفتى الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة فى الإسلام بدر،

---

(١) قوله «فأصلد» فى الصحاح: صلد الزند، إذا صوت ولم يخرج نارا: وأصلد الرجل: أى صلد زنده اه. (ع)

(٢) لم أجده مرفوعا. وإنما ذكره البخارى فى الجنائز تعليقا عن عمر. قال «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة» قال: والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت. ووصله عبد الرزاق والحاكم وابن سعد وأبو عبيد والحربى فى الغريب كلهم من طريق الأعمش عن أبى وائل قال «وقيل لعمر: إن نسوة من بنى المغيرة قد اجتمعن فى دار خالد بن الوليد يبكين عليه. وإنا نكره أن يؤذينك. فلو نهيتهن فقال: ما عليهن أن يهرقن من دموعهن على أبى سليمان سجلا أو سجلين ما لم يكن نقع أو لقلقة» وفى رواية ابن سعد قال: وكيع: النقع الشق. واللقلقة الصوت. وقال بعضهم: رفع التراب على الرأس وشق الجيوب. وأما اللقلقة فهى شدة الصوت. ولم أسمع فيه خلافا. وقال الحربى عن الأصمعى. النقع الصياح. وعن أبى سلمة هو وضع التراب على الرأس.

(٣) فمتى ينقع صراخ صادق جلبوه ذات جرس وزجل

للبيد بن ربيعة. وجلب على فرسه وأجلب: إذا صاح به وحثه على السبق. وجلب بالتشديد: صوت. والجرس الصوت الخفى. والزجل: صوت كدوى النحل. يقول: فمتى يرتفع صراخ للحرب صادق صرخوه ذات جرس، أى: كتيبة ذات جرس، وهو بدل من فاعل جلبوه. أو جاء على لغة أكلونى البراغيث. والمعنى: أن الصوت المنخفض ملازم لها، بخلاف المرتفع. ويجوز أن «جلبوه» جواب الشرط. ويجوز أنه صفة صراخ، وجواب الشرط فيما بعده، وهو أقرب من الأول.

(٤) قوله «صياحا وجلبة» فى الصحاح: الجلب والجلبة: الأصوات. (ع)

وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد (العاديات ضبحا) الإبل من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى [1] ؛ فإن صحت الرواية فقد استعير الضبح للابل ، كما استعير المشافر والحافر للانسان ، والشفتان للمهر ، والثفر للثورة[2] وما أشبه ذلك . وقيل الضبح لايكون إلا للفرس والكلب والثعلب . وقيل : الضبح بمعنى الضبع ، يقال : ضبحت الإبل وضبعت : إذا مدت أضباعها فى السير ، وليس بثبت . وجمع : هو المزدلفة . فإن قلت : علام عطف (فأثرن) ؟ قلت : على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه ؛ لأنّ المعنى : واللاتى عدون فأورين ، فأغرن فأثرن . الكنود : الكفور . وكند النعمة كنودا . ومنه سمى : كندة ، لأنه كند أباه ففارقه . وعن الكلبى : الكنود بلسان كندة : العاصى ، وبلسان بنى مالك : البخيل ، وبلسان مضر وربيعة : الكفور ، يعنى : أنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران ؛ لأن تفريطه فى شكر نعمة غير الله تفريط قريب لمقاربة النعمة ، لأن أجلّ ما أنعم به على الانسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن عُظماها فى جنب أدنى نعمة الله قليلة ضئيلة ﴿وإنه﴾ وإنّ الانسان ﴿على ذلك﴾ على كنوده ﴿لشهيد﴾ يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره . وقيل : وإنّ الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد ﴿الخير﴾ المال من قوله تعالى (إن ترك خيرا) والشديد : البخيل الممسك . يقال : فلان شديد ومتشدّد . قال طرفة :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِى   عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ [3]

يعنى : وإنه لأجل حب المال وأن إنفاقه يثقل عليه : لبخيل ممسك . أو أراد بالشديد: القوى ، وأنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس . تقول : هو شديد لهذا الأمر ، وقوىٌّ له : إذا كان مطيقاً له ضابطا . أو أراد : أنه لحب الخيرات غير هش منبسط ، ولكنه شديد منقبض ﴿بعثر﴾ بعث . وقرىء : بحثر ، وبحث . وبعثر ، وحصل : على بنائهما للفاعل . وحصل : بالتخفيف . ومعنى (حصل) جمع فى

---

(١) أخرجه الطبرى والحاكم من رواية أبى صخر عن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وأخرجه الثعلبى وابن مردويه من هذا الوجه .

(٢) قوله «والمهر والثفر للثورة» الثفر للسباع كالحياء للناقة ، وربما استعير لغيرها . والثورة : تأنيث الثور . قال الأخطل :

جزى الله عنا الأعورين ملامة   وفروة ثفر الثورة المتضاجم

وفروة : اسم رجل . والمتضاجم : المعوج الفم اه من هامش . (ع)

(٣) لطرفة بن العبد فى معلقته . واعتام يعتام اعتياما : اختار اختيارا . والعقيلة من كل شىء : أكرمه . يقول : أرى الموت يختار الكرام فيأخذها ، ويصطفى أعز مال للبخيل الشديد الامساك فيبقيه . وقيل : فيأخذه أيضا .

الصحف ، أي : أظهر محصلا مجموعا . وقيل : ميز بين خيره وشره . ومنه قيل للمنخل : المحصل. ومعنى علمه بهم يوم القيامة : مجازاته لهم على مقادير أعمالهم ؛ لأنّ ذلك أثر خبره بهم . وقرأ أبو السمال : إنّ ربهم بهم يومئذ خبير .

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من قرأ سورة والعاديات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا »[1].

ســـورة القارعة

مكية ، وآياتها ١١ [نزلت بعد قريش]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة ، أي : تقرع ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة ، والتطاير إلى الداعي من كل جانب ، كما يتطاير الفراش إلى النار . قال جرير :

إنّ الفرزدق ما علمتُ وقومَه ... مثلُ الفراشِ غشين نارَ المُصْطَلِي[2]

---

(١) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبي بن كعب .

(٢) لجرير . وما علمت : أي مدة علمي ، أو في علمي . وهذا من الانصاف في المحاورة . والفراش : ما يتطاير إلى السراج ؛ وربما ماص فيه لحقه . والمصطلي : المتدفئ بالنار : شبههم به في الذل والجهل والتهافت على الفهد ، كما يغشى الفراش رأس المصطلي ويحوم حولها . وربما ألقى بنفسه إلى النار ، فهم مثله .

وفى أمثالهم : أضعف من فراشة وأذل وأجهل . وسمى فراشا : لتفرشه وانتشاره . وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألوانا ؛ لأنها ألوان ، وبالمنفوش منه ؛ لتفرق أجزائها . وقرأ ابن مسعود : كالصوف . الموازين : جمع موزون وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله . أو جمع ميزان . وثقلها : رجحانها . ومنه حديث أبى بكر لعمر رضى الله عنهما فى وصيته له : « وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها فى الدنيا ، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها فى الدنيا ، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف[1]» ﴿فأمه هاوية﴾ من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة[2] : هوت أمه ؛ لأنه إذا هوى أى سقط وهلك ، فقد هوت أمه ثكلا وحزناً قال :

هَوَتْ أُمُّهُ مايَبْعَثُ الصُّبْحُ غَادِيًا ... وَماذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يَئُوبُ[3]

فكأنه قيل . وأما من خفت موازينه فقد هلك . وقيل (هاوية) من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً ، كما روى « يهوى فيها سبعين خريفاً[4] » أى فأواه النار . وقيل للمأوى : أم ، على التشبيه ؛ لأن الأم مأوى الولد ومفزعه . وعن قتادة : فأمه هاوية ، أى فأم رأسه هاوية فى قعر جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوساً ﴿هيه﴾ ضمير الداهية التى

(١) وهذا منقطع مع ضعف ليث . وهو ابن أبى سليم . وأخرجه ابن أبى شيبة وأبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أبى بكر من رواية إسماعيل بن أبى خالد عن زيد بن الحرث « أن أبا بكر لما حضره الموت أرسل إلى عمر . فلما أتى قال له : إنى موصيك بوصية ، إن لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار وحقا بالنهار لا يقبله فى الليل . وإنه ليس لأحدنا نافلة حتى يؤدى الفريضة . إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل ـ الحديث » .

(٢) قال محمود : « إذا دعوا على الرجل بالهلكة قالوا : هوت أمه ... الخ » قال أحمد : والأول أظهر ؛ لأنه مثل معروف كقولهم ؛ لأمه الهبل .

(٣) لكعب فى مرثية أخيه . وهوت أمه دعاء لا يراد به الوقوع بل التعجب . وما مبتدأ ، وما بعده خبر . والمعنى : أى شىء يبعثه الصبح منه ، وأى شىء يرده الليل ، كما روى : وماذا يرد الليل ؛ يعنى : أنه شىء عظيم . ومنه تجريد مقدر فيه ، يعنى : أنه كان يغدو فى طلب الغارة ويرجع فى الليل ظافرا . وما فى الموضعين من الاستفهام ، معناه التعجب والاستعظام . وإسناد الفعل للصبح والليل مجاز .

(٤) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذى فى صفة جهنم من رواية الحسن عن عتبة بن غزوان « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال . إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاما ماتفضى إلى قعرها » وقال غريب لا نعرف للحسن سماعا . من عتبة وهذا منقطع . وقد رواه مسلم من حديث عتبة بلفظ « وذكر لنا » وهو فى حكم المرفوع « وروى الحاكم من طريق عيسى بن طلحة عن أبى هريرة مرفوعا « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها فى النار سبعين خريفا » وأصله فى البخارى من رواية أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ « يهوى بها فى جهنم » حسب . وروى البزار من طريق مجالد عن الشعبى عن مسروق عن ابن مسعود رفعه ، يؤتى بالقاضى يوم القيامة فيوقف على شفير جهنم فإن أمر به فدفع فهوى فيها سبعين خريفا » .

دلّ عليها قوله (فأمّه هاوية) فى التفسير الأوّل . أو ضمير هاوية والهاء للسكت ، وإذا وصل القارئ حذفها . وقيل : حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج ، لأنها ثابتة فى المصحف . وقد أجيز إثباتها مع الوصل .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة[١] »

سورة التكاثر

مكية ، وآياتها ٨ (نزلت بعد الكوثر)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

ألهاه عن كذا وأقهاه : إذا شغله[٢] . و(التكاثر) التبارى فى الكثرة والتباهى بها ، وأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، وهؤلاء : نحن أكثر . روى أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا أيهم أكثر عددا ، فكثرهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم : إن البغى أهلكنا فى الجاهلية فعادّونا بالأحياء والأموات ، فكثرتهم بنو سهم . والمعنى : أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات : عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكما بهم : وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم . والمعنى : ألهاكم ذلك ـ وهو مما لا يعنيكم ولا يجدى عليكم فى دنياكم وآخرتكم ـ عما يعنيكم من أمر الدين الذى هو أهم وأعنى من كل مهم . أو أراد ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن

---

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(٢) قوله « وأقهاه إذا شغله » مضروب عليه بخط المصنف فى نسخة اه من هامش . وفى الصحاح : أقهى الرجل من الطعام إذا اجتواه . والقهوة : الخمر . يقال : سميت بذلك لأنها تقهى ، أى تذهب بشهوة الطعام . (ع)

متم وقبرتم ، منفقين أعماركم فى طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها ، إلى أن أتاكم الموت لا همّ لكم غيرها ، عما هو أولى بكم من السعى لعاقبتكم والعمل لآخرتكم . وزيارة القبور : عبارة عن الموت . قال :

لَنْ يُخْلِصَ الْعَامَ خَلِيلٌ عِشْرًا ذَاقَ الضِّمَادَ أَوْ يَزُورَ الْقَبْرَا [1]

وقال : زَارَ الْقُبُورَ أَبُو مَالِكٍ فَأَصْبَحَ أَلْأَمَ زُوَّارِهَا [2]

وقرأ ابن عباس : أألهاكم ؟ على الاستفهام الذى معناه التقرير ﴿كلا﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه ﴿سوف تعلمون﴾ إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم . والتكرير : تأكيد للردع والإنذار عليهم . و﴿ثم﴾ دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأوّل وأشد ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل . والمعنى : سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله . وإنّ هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم . ثم كرر التنبيه أيضاً وقال ﴿لو تعلمون﴾ محذوف الجواب ، يعنى : لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين ، أى : كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التى وكلتم بعلمها هممكم : لفعلتم مالا يوصف ولا يكتنه ؛ ولكنكم ضلال جهلة؛ ثم قال ﴿لترونّ الجحيم﴾ فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به ؛ وقد مرّ ما فى إيضاح الشىء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه ، وهو جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ماأوعدوا به مالا مدخل فيه للريب ؛ وكرره معطوفا بثم تغليظا فى التهديد وزيادة فى التهويل . وقرئ : لترؤن بالهمز ، وهى مستكرهة . فإن قلت : لم استكرهت والواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرد ؟ قلت : ذاك فى الواو التى ضمتها لازمة ، وهذه عارضة لالتقاء الساكنين . وقرئ : لترون ، ولترونها : على البناء للمفعول ﴿عين اليقين﴾ أى الرؤية التى هى نفس اليقين وخالصته . ويجوز أن يراد بالرؤية :

---

(١) لن يخلص العام حليل عشرا إن رأيه الضمد هينا نكرا
ذاق الضماد أو يزور القبرا

للأخطل . وضمد رأسه : عصبه . وضمد جرحه : ألصق عليه الدواء . والضمد والضماد : الحقد ، لكتمه فى القلب والتزوج لضم المرأة إلى الرجل . والنكر : المنكر ، ولن يخلص : بيان لوجه إنكار الضمد أى التزوج . والعام : نصب على الظرفية . ويروى ، حليل بالمهملة وبالمعجمة . وعشراً ـ بالكسر : أى معاشرة ، وبفتحها : أى عشر ليال . وذاق الضماد : صفة حليل ، فصلت عنه بالمفعول . وشبه الضماد بالمطعوم المكروه بحسب مارأى على طريق الكناية ، والذوق تخييل . وزيارة القبر : كناية عن الموت ، أى : لن يخلص إلى أن يموت ، ولا ينافيه التقييد بالعام لامكان الموت فيه ، ولعله كان جدبا .

(٢) زار القبور ، أى : مات . وفيه نوع تهكم به حيث كنى عن الموت المكروه عادة بالزيارة المحبوبة ، والألأم : أفعل تفضيل من اللؤم ، أى : الخسة . والزوار : جمع زائر ، أى : كان ألأم الأحياء ، فأصبح ألأم الأموات .

العلم والإبصار ﴿عن النعيم﴾ عن اللهو والتنعم الذى شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه. فإن قلت: ما النعيم الذى يسئل عنه الانسان ويعاتب عليه؟ فما من أحد إلا وله نعيم؟ قلت: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل، ولا يحمل نفسه مشاقهما؛ فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التى لم يخلقها إلا لعباده، وتقوى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل، وكان ناهضا بالشكر: فهو من ذاك بمعزل؛ وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى: أنه أكل هو وأصحابه تمرا وشربوا عليه ماء فقال: «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين»[1].

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ ألهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذى أنعم به عليه فى دار الدنيا، وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية»[2].

سورة العصر

مكية، وآياتها ٣ (نزلت بعد الشرح)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: (والصلاة الوسطى صلاة العصر، فى مصحف

---

(١) لم أجده هكذا. وفيه تخليط لعله من الناسخ. وهو يخرج من حديثين: أحدهما أخرجه النسائى وابن حبان والطبرى وابن مردويه من حديث جابر قال «أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم رطبا وشربوا ماء. فقال: هذا من النعيم الذى تسألون عنه». وروى أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث أبى سعيد الخدرى قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما قال: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين».

(٢) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب.

حفصة. وقوله عليه الصلاة والسلام «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»[١] ولأنّ التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم. أو أقسم بالعشى كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعا من دلائل القدرة. أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب. والانسان: للجنس. والخسر: الخسران، كما قيل: الكفر في الكفران. والمعنى: أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم، فوقعوا في الخسارة والشقاوة ﴿وتواصوا بالحق﴾ بالأمر الثابت الذى لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة ﴿وتواصوا بالصبر﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو الله به عباده.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر»[٢].

سورة الهمزة

مكية، وآياتها ٩ [نزلت بعد القيامة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

الهمز: الكسر، كالهزم. واللمز: الطعن. يقال: لمزه ولهزه طعنه، والمراد: الكسر من

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب.

أعراض الناس والغض[1] منهم ، واغتيابهم ، والطعن فيهم[2] وبناء «فعلة» يدل على أنّ ذلك عادة منه قد ضرى بها . ونحوهما : اللعنة والضحكة . قال :

* وَإِنِ أُغَيَّبْ فَأَنْتَ الْهَامِزُ اللُّمَزَهْ *[3]

وقرئ : ويل للهمزة اللمزة . وقرئ : ويل لكل همزة لمزة ، بسكون الميم : وهو المسخرة الذي يأتى بالأوابد[4] والأضاحيك فيضحك منه ويشتم . وقيل : نزلت فى الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة . وقيل : فى أمية بن خلف . وقيل : فى الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضه منه . ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإنّ ذلك أزجر له وأنكى فيه ﴿الذى﴾ بدل من كل . أو نصب على الذم . وقرئ : جمع بالتشديد ، وهو مطابق لعدده . وقيل ﴿عدّده﴾ جعله عدة لحوادث الدهر . وقرئ : وعدده أى جمع المال وضبط عدده وأحصاه . أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه ، من قولك : فلان ذو عدد وعدد : إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم . وقيل (وعدده) معناه : وعدّه على فك الادغام ، نحو : ضننوا ﴿أخلده﴾ وخلده بمعنى ، أى طوّل المال أمله ، ومناه الأمانى البعيدة ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أنّ المال تركه خالدا فى الدنيا لا يموت . أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض : عمل من يظن أن ماله أبقاه حيا . أو هو تعريض بالعمل الصالح . وأنه هو الذى أخلد صاحبه فى النعيم ؛ فأما المال فما أخلد أحدا فيه . وروى أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار . وقيل : عشرة آلاف . وعن الحسن : أنه عاد موسرا

---

(١) قوله «أعراض الناس والغض منهم» فى الصحاح : غض منه : إذا وضعه ونقص من قدره . (ع)

(٢) قال محمود : «قال المراد بالهمزة المكثر من الطعن على الناس والقدح فيهم ... الخ» قال أحمد : وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة ، فانه لما وسمه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه أتبع المبالغة بوعيده بالنار التى سماها بالحطمة لما يلقى فيها ، وسلك فى تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التى ضمنها الذنب ، حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء ، فهذا الذى ضرى بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التى هى ضارية بحطم كل ما يلقى اليها .

(٣) إذا لقيتك عن شحط تكاشرنى وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة

لزياد الأعجم . والشحط - بالفتح : البعد . وكشر عن أسنانه : أبداها فى الضحك وغيره ، لكن اشتهر فى لسان العرب فى الأول . والهمز : الكسر . واللمز : الطعن . روى أن أعرابيا سئل : أتهمز الفأرة ؟ فقال : نعم تهمزها الهرة ، أى : تأكلها ؛ والهامز هنا : المغتاب الغياب ، الذى يملأ فمه بما يخرم عرض غيره . والهمزة : من اعتاد ذلك . واللامز : الرامى لغيره بالمسبة . واللمزة : من اعتاد ذلك . يقول : إذا لقيتك على بعد المسافة بيننا تضاحكنى ، وإذا غبت عنك كنت المغتاب المكثر من الطعن فى عرضى . وروى : وإن أغيب فأنت الهامز ، على البناء للمجهول .

(٤) قوله «الذى يأتى بالأوابد» فى الصحاح : جاء فلان بآبدة ، أى : بداهية يبقى ذكرها على الأبد . (ع)

فقال : ماتقول فى ألوف لم أفتد بها من لئيم ، ولا تفضلت على كريم ؟ قال : ولكن لماذا ؟ قال : لنبوة الزمان ، وجفوة السلطان ، ونوائب الدهر ، ومخافة الفقر . قال : إذن تدعه لمن لا يحمدك ، وترد على من لا يعذرك ﴿ كلا ﴾ ردع له عن حسبانه . وقرئ : لينبذان ، أى : هو وماله . ولينبذن ، بضم الذال ، أى : هو وأنصاره . ولينبذنه ﴿ فى الحطمة ﴾ فى النار التى من شأنها أن تحطم كل مايلقى فيها . ويقال للرجل الأكول : إنه لحطمة . وقرئ : الحاطمة ، يعنى أنها تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، وهى أوساط القلوب ، ولا شىء فى بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألما منه بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه . ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . ومعنى اطلاع النار عليها : أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها . أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها ﴿ مؤصدة ﴾ مطبقا . قال :

تَحِنُّ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُوصَدَهْ [1]

وقرئ : فى عمد ، بضمتين . وعمد ، بسكون الميم . وعمد . بفتحتين . والمعنى : أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد ، استيثاقا فى استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى : أنها عليهم مؤصدة ، موثقين فى عمد ممددة مثل المقاطر [2] التى تقطر فيها اللصوص . اللهم أجرنا من النار ياخير مستجار .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه» [3] .

---

(١) يقول : تحن ناقتى شوقا إلى أجبال مكة ، جمع جبل ، كأسباب وسبب ، لأنها وطنها ، والحال أن أبواب صنعاء مدينة من اليمن ، مؤصدة : أى مغلقة أمامها ، والمراد : تحزنه وتشوقه إلى وطنه ، ونسبه للناقة مبالغة .

(٢) قوله « مثل المقاطر التى تقطر فيها » فى الصحاح « المقطرة » : الفلق ، وهى خشبة فيها خروق تدخل فيها أرجل المحبوسين . (ع)

(٣) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

سورة الفيل

مكية ، وآياتها ٥ (نزلت بعد الكافرون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

روى أنّ أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس [١] ، وأراد أن يصرف إليها الحاج ، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا [٢] ، فأغضبه ذلك . وقيل : أججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها ، فحلف ليهدمنّ الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود ، وكان قويا عظيما ، واثنا عشر فيلا غيره . وقيل : ثمانية . وقيل : كان معه ألف فيل ، وكان وحده ؛ فلما بلغ المغمس خرج إليه عبدالمطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع ، فأبى وعبأ جيشه وقدم الفيل ، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول ؛ فأرسل الله طيرا سودا . وقيل خضرا وقيل : بيضا . مع كل طائر حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانىء نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفارى ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ، ففروا فهلكوا فى كل طريق ومنهل ؛ ودوى أبرهة [٣] فتساقطت أنامله وآرابه ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه . وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائره يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه . وقيل : كان أبرهة جدّ

(١) قوله «وسماها القليس» بالتشديد ، مثل القبيط : بيعة كانت بصنعاء للحبشة : بناها أبرهة ، وهدمها حمير ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله «فقعد فيها ليلا» كناية عن التغوط . وفى الخازن فتغوط فيها ولطخ قبلتها بالعذرة . (ع)

(٣) قوله «ودوى أبرهة» أى مرض . وآرابه ، أى : أعضاؤه . (ع)

النجاشي الذى كان فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة ، وقيل : بثلاث وعشرين سنة [١] . وعن عائشة رضى الله عنها : رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان . وفيه أن أبرهة أخذ لعبدالمطلب مائتى بعير ، فخرج إليـه فيها ، فجهره [٢] وكان رجلا جسيما وسيما . وقيـل : هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رؤوس الجبال ، فلما ذكر حاجته قال : سقطت من عينى ، جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم فى قديم الدهر ، فألهاك عنـه ذود أخذ لك ؛ فقال أنا رب الإبل ، وللبيت رب سيمنعه ، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول :

لَاهُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْـــــنَعُ أَهْلَهُ فَامْنَعْ حَلَالَكْ

لَا يَغْلِبَـــنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكْ

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْـــــبَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ [٣]

---

(١) قوله « بأربعين سنة ، وقيل بثلاث وعشرين » لعله وكان قبله بأربعين سنة . وفى الخازن : اختلفوا فى عام الفيل ، فقيل : كان قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة اهـ . (ع)

(٢) قوله « فجهره » فى القاموس « جهر الرجل » : عظم فى عينه وراعه جماله ، كأجهره اهـ . (ع)

(٣)
لاهم إن المرء يمـــــنع أهله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليـــــب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً محالك
جروا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعـــــبتنا فأمر ما بدالك

لعبد المطلب حين أراد أبرهة بن الصباح هدم الكعبة وأغار على مائتى بعير له ، فخرج إليه عبد المطلب فى طلب الابل ، وقد قيل لأبرهة : إنه سيد قريش ، يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رؤوس الجبال ؛ فلما طلب الابل قال له : سقطت من عينى ، جئت لأهدم مع شرفكم فألهاك عنه طلب المال ؛ فقال : أنا رب الابل ، وللبيت رب يحميه ، ثم رجع وأخذ بحلقة الباب وقال ذلك . ولاهم : أصله اللهم ، فخفف . إن المرء يمنع ، أى : يحفظ أهله ، وأنت الله فاحفظ حلالك ، أى : سكان حرمك الذين حلوا فيه . يقال : حى حلال ، أى : نزول ، وفيهم كثرة . أو الذين هم فى حل منك . ويجوز على بعد أنه أطلق الحلال على البيت ، أو أهله على سبيل المشاكلة التقديرية للأهل ؛ على أن معناه الزوجة . وروى : إن المرء يمنع حله فامنع حلالك . والحل والحلال : ما يحل التصرف فيه . وروى : إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك ، وهو يؤيد الأول . والآل لا يضاف إلا لذى شرف ؛ فاضافته للصليب ليشاكل ما بعده . أو على زعمهم أنه ذو شرف . وعابديه : جمع مضاف للضمير إضافة الوصف لمفعوله . واليوم : ظرف للنصر . والمحال : مصدر ماحله إذا كايده بمكروه . والعدو : العدوان والظلم : وهو نصب على التمييز . أو على المفعول المطلق . ويروى : غدوا ، أى : فى الغد ، فهو ظرف . ويروى : أبدا . ويروى : جموع ، بدل جميع ، وكان معهم اثنا عشر فيلا فيها فيل جسيم عظيم اسمه محمود ؛ فراده بالفيل : الجنس ، أو المعهود . والعيال : مفرده =

يَارَبِّ لَاأَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَا يَارَبِّ فَامْنَعْ مِنْهُمْ حِمَاكَا (١)

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحو اليمن فقال : والله إنها لطير غريبة ماهى بنجدية ولاتهامية (٢) . وفيه : أنّ أهل مكة قد احتووا على أموالهم ، وجمع عبدالمطلب من جواهرهم وذهبهم الجور (٣) ، وكان سبب يساره . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سئل عن الطير فقال : حمام مكة منها . وقيل جاءت عشية ثم صبحتهم . وعن عكرمة : من أصابته جدرته وهو أوّل جدرى ظهر . وقرئ : ألم تر ، بسكون الراء للجد فى إظهار أثر الجازم : والمعنى : أنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة . و ﴿كيف﴾ فى موضع نصب بفعل ربك ، لا بألم تر ؛ لما فى (كيف) من معنى الاستفهام ﴿فى تضليل﴾ فى تضييع وإبطال . يقال : ضلل كيده ، إذا جعله ضالا ضائعاً . ومنه قوله تعالى (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) وقيل لامرئ القيس : الملك الضليل ؛ لأنه ضلل ملك أبيه ، أى . ضيعه ، يعنى : أنهم كادوا البيت أوّلا ببناء القليس ، وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ؛ وكادوه ثانياً بإرادة هدمه ، فضلل بإرسال الطير عليهم ﴿أبابيل﴾ حزائق ، الواحدة : إبالة . وفى أمثالهم : ضغث على إبالة ، وهى : الحزمة الكبيرة ، شبهت الحزقة من الطير فى تضامها بالإبالة . وقيل : أبابيل مثل عباديد ، وشماطيط لاواحد لها . وقرأ أبو حنيفة رحمه الله : يرميهم ، أى الله تعالى أو الطير ، لأنه اسم جمع مذكر ؛ وإنما يؤنث على المعنى . وسجيل : كأنه علم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً علم لديوان أعمالهم ، كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدوّن ، واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ؛ لأنّ العذاب موصوف بذلك ، وأرسل عليهم طيراً ، فأرسلنا عليهم

= عيل ، وجمعه عيائل ، كجيد وجياد وجيائد ، من قولهم تتعهد شأنه . عدوا : قصدوا ، حماك ، أى : حرمك الذى حميته لجهلهم . أو جاهلين وما خافوا عظمتك ، إن كنت تاركهم مع كعبتنا يفعلون بها ما شاؤا فأمر عظيم ظهر لك منا الآن من معاصينا . أو أمر تعلمه أنت ولا نعلمه من الحكمة والمصلحة . وفيه تفويض إلى الله وتسليم إليه .

(١) يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا فناكا

لعبد المطلب أيضا ، أى : لاأرجو لمنع الأعداء منا غيرك ، وألف القوافى للاطلاق ، وتكرير النداء للاستعطاف . والعدو : يطلق على الواحد والمتعدد ، أى : من كان عدوا لأهل بيتك فهو المعادى لك البالغ فى العداوة . والفناء : رحبة البيت . وروى بدله «قراكا» جمع قرية ؛ وبدء المصراع الثانى بألف الوصل جائز ، لأنه محل ابتداء فى الجملة ، كما نبه عليه الخليل .

(٢) قوله « ماهي ببحرية ولا تهامية » ببحرية : فى أبى السعود : بنجدية . (ع)
(٣) قوله «وذهبهم الجور» لعله الجرب : جمع جراب ، مثل : كتب ، جمع كتاب . (ع)

الطوفان . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر . وقيل : هو معرب من سنك كل . وقيل : من شديد عذابه ؛ ورووا بيت ابن مقبل :

* ضَرْبًا تَوَاصَتْ بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلاً * [1]

وإنما هو سجينا ، والقصيدة نونية مشهورة فى ديوانه ؛ وشبهوا بورق الزرع إذا أكل ، أى : وقع فيه الأكال : وهو أن يأكله الدود . أو بتبن أكلته الدواب وراثته ، ولكنه جاء على ماعليه آداب القرآن ، كقوله (كانا يأكلان الطعام) أو أريد : أكل حبه فبقى صفراً منه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ [2] » .

سورة قريش

مكية ، وآياتها ٤ (نزلت بعد التين)

بسم الله الرحمن الرحيم

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

﴿لإيلاف قريش﴾ متعلق بقوله ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين فإن قلت : فلم دخلت الفاء ؟ قلت : لما فى الكلام من معنى الشرط لأن المعنى : إما لا فليعبدوه لإيلافهم ،

---

(١) ورجلة يضربون البيض عن عرج . ضربا تواصت به الأبطال سجيلا

لابن مقبل . والرجلة : جماعة الرجال . والبيض ـ بالكسر ـ : كناية عن السيوف ، أى : يضربون بها ؛ وإن قرئ بالفتح فهى المغافر على رؤس الفرسان . والعرج : الميل والاعوجاج . ويروى : عن عرض ؛ ولعله تحريف . والمراد : اختلاف أحوال الضرب . والبطل : الشجاع . والسجيل : الشديد ، ولكن الرواية بالنون ؛ لأن القصيدة نونية ، وسنذكر بعضها فى أواخر حرف النون .

(٢) أخرجه ابن مردويه والثعلبى والواحدى بالسند إلى أبى بن كعب .

على معنى : أنّ نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة . وقيل المعنى : عجبوا لإيلاف قريش . وقيل : هو متعلق بما قبله ، أى : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، وهذا بمنزلة التضمين فى الشعر : وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله تعلقاً لا يصح إلا به ، وهما فى مصحف أبىّ سورة واحدة بلا فصل . وعن عمر : أنه قرأهما فى الثانية من صلاة المغرب ، وقرأ فى الأولى : والتين [1] . والمعنى أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك ، فيتهيبوهم زيادة تهيب ، ويحترموهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن فى رحلتيهم ، فلا يجترئ أحد عليهم . وكانت لقريش رحلتان : يرحلون فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا فى رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، فلا يتعرّض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم . والإيلاف من قولك : آلفت المكان أولفه إيلافا : إذا ألفته ، فأنا مؤلف . قال :

* مِنَ الْمُؤْلِفَاتِ الرَّهْوِ غَيْرِ الأَوَارِكِ * [2]

وقرئ : لئلاف قريش ، أى : لمؤالفة قريش . وقيل : يقال ألفته إلفا وإلافا . وقرأ أبو جعفر : لإلاف قريش ، وقد جمعهما من قال :

زَعَمْتُمْ أَنَّ إِخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ ... لَهُمْ إِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَافُ [3]

---

(١) هكذا وقع فى الثعلبى . وقال عمرو بن ميمون : صليت خلف عمر المغرب . فذكر الحديث . وكذا وصله عبد الرزاق وابن أبى شيبة من رواية أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون قال وصلى بنا عمر المغرب . فقرأ فى الأولى بالتين . وفى الثانية ألم تر ولإيلاف قريش» .

(٢) شددت إليك الرحل فوق شملة ... من المؤلفات الرهو غير الأوارك

الشملة بالتشديد . والشملال والشميل : الخفيفة السريعة السير ، أى : شددت الرحل فوق ناقة سريعة السير ذاهبا إليك ، وتلك الناقة من النوق المؤلفات المعتادات الرهو ، أى : السير السهل المستقيم . ويروى : الزهو ، بالزاى وهو سيرها بعد ورودها الماء . والأوارك : جمع آركة : المقيمات موضع الأراك ، ترعاه . أو ترعى نبتا يقال له الحمض ، أى : ليست كذلك بل مألوفة ومكرمة للسفر .

(٣) زعمتم أن إخوتكم قريش ... لهم إلف وليس لكم إلاف
أولئك أومنوا جوعا وخوفا ... وقد جاعت بنو أسد وخافوا

لمساور بن هند بن قيس يخاطب بنى أسد . وقريش خبر . وقولهم «لهم إلف» استئناف لبيان كذبهم . والإلف والإلاف : مصدر ألفه ، إذا أحبه واعتاده ولم ينفر منه . وآلف إيلافا بينهما : جعل بينهما إلفا . وقد جمعت قريش بين رحلة الشتاء والصيف ؛ فتارة ترحل هذه وتارة هذه بلا خوف ولا فزع «أولئك» إشارة لقريش «أومنوا» مبنى للمجهول ، أى آمنهم ربهم من الجوع والخوف . وقد جاعت وخافت بنو أسد : التفت إلى الغيبة دلالة على الإعراض عنهم ، وتعجيب غيرهم من شأنهم .

وقرأ عكرمة : ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف . وقريش : ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش : وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ، ولا تطاق إلا بالنار . وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضى الله عنهما : بم سميت قريش ؟ قال : بدابة فى البحر تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى . وأنشد :

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْـــرَ بِهَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا (١)

والتصغير للتعظيم . وقيل : من القرش وهو الكسب ؛ لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد . أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين ، تفخيما لأمر الإيلاف ، وتذكيراً بعظيم النعمة فيه ؛ ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به ، كما نصب (يتيما) بإطعام ، وأراد رحلتى الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس ، كقوله .

* كُلُوا فِى بَعْضِ بَطْنِكُمُ ... ... * (٢)

---

(١)
وقريش هى التى تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولاتترك ... يوما لذى جناحين ريشا
هكذا فى الكتاب نالت قريش ... يأكلون البلاد أكلا كشيشا
ولهم آخر الزمان نبى ... يكثر القتل فيهم والخموشا
يملأ الأرض خيلة ورجالا ... يحشرون المطى حشراً كميشاً

لتبع . وقريش : تصغير قرش . قال ابن عباس : اسم دابة فى البحر تأكل ولا تؤكل اه فصغر وسمي به النضر بن كنانة ، ثم سمى به أولاده . والمحدثون على أنه اسم لفهر بن مالك بن النضر ، وقال الروافض : هو اسم لقصى بن كلاب ؛ وتوصلوا بذلك إلى نفى إمامة أبى بكر وعمر لكونهما ليسا قرشيين ، لأنهما يجتمعان معه صلى الله عليه وسلم بعد قصى ، والامامة من قريش ، وقريش مبتدأ ، والجملة بعدها مستأنفة مبينة لها ، وبها سميت خبر ، أى : بسببها سميت هذه القبيلة قريشا تأكل ، أى قريش البحرية . ويؤيده ماروى قبل هذا البيت وهو :

سلطت بالعلو فى لجة البحـــر على سائر البحور جيوشا ... تأكل

ويحتمل أنها القبيلة . والغث الخبيث . والسمين ، الطيب وصاحب الجناحين ، كناية عن الطير . أو استعارة للغنى ، وبالغ فى أنها لاتبقى ولاتذر شيئا مما تظفر به بقوله : إنها لاتترك ريش ذى الجناحين . ويروى «فيه» بدل يوما وهو يعنى قريش البحرية . وهكذا : إشارة لحال دابة البحر ، أولما قاله هو . والكتاب : التوراة أو الانجيل . أوكتب التاريخ . وقريش هنا : للقبيلة ، ويروى :

هكذا فى البلاد حى قريش ... يأكلون البلاد ... ...

أى : يأخذون أموالها . والكشيش فى الأصل : الصوت الخفى ، أى : أكلا بسهولة ، بلا إرهاب ولا إتعاب ، فهو مجاز ، والنبى محمد صلى الله عليه وسلم . وخمشه خمشا : خدشه . والخموش : الخدوش . والخيلة : الشبح البعيد . والخيل : الخيالة . والرجال : المشاة على أرجلهم . ويحشرون : صفة لرجال ، ويبعد رجوعه لقريش ، والكميش : السريع . والمنضم . القاطع ، أى : يجمعونها بسرعة ، لكن المراد بالخموش هنا : الجروح .

(٢) قوله «كلوا فى بعض بطنكم» بقيته : «تعفوا» وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٧٩ فراجعه إن شئت اه مصححه . (ع)

وقرئ: رحلة، بالضم: وهى الجهة التى يرحل إليها: والتنكير فى (جوع) و (خوف) لشدتهما، يعنى: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أوخوف التخطف فى بلدهم ومسايرهم. وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف، من أن تكون الخلافة فى غيرهم. وقرئ: من خوف، بإخفاء النون.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها».[1]

سورة الماعون

مكية ثلاث آيات الأول، مدنية البقية؛ وآياتها ٧ (نزلت بعد التكاثر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

قرئ: أريت، بحذف الهمزة، وليس بالاختيار؛ لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب: ريت، ولكن الذى سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام فى أول الكلام. ونحوه:

صَاحِ هَلْ رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَدَّ فِى الضَّرْعِ مَا قَرَى فِى الْحِلَابِ[2]

---

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب.

(٢) لاسماعيل بن بشار؛ وفى حياة الحيوان ما هو صريح فى أنه لأفيلة بن عبد المدان بن خرشم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن هود عليه السلام. وصاح مرخم؛ فان كان أصله يا صاحبي، فترخيمه شاذ من وجهين، لأن فيه حذف المضاف إليه =

وقرأ ابن مسعود : أرأيتك ، بزيادة حرف الخطاب ، كقوله (أرأيتك هذا الذى كرّمت علىّ) والمعنى : هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو ؟ إن لم تعرفه ﴿ فذلك الذى ﴾ يكذب بالجزاء ، هو الذى ﴿ يدع اليتيم ﴾ أى : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ، ويرده ردّاً قبيحاً بزجر وخشونة . وقرئ : يدع ، أى : يترك ويجفو ﴿ ولا يحض ﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين ، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعنى : أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لخشى الله تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه : علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ، وماأخوفه من مقام ، وماأبلغه فى التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ، ثم وصل به قوله ﴿ فويل للمصلين ﴾ كأنه قال : فإذا كان الأمر كذلك ، فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها ، حتى تفوتهم أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع وإخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها : من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السور ، كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم . والمعنى : أنّ هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة ـ التى هى عماد الدين ، والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذى هو شعبة من الشرك ، ومنع الزكاة التى هى شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام ـ علما على أنهم مكذبون بالدين . وكم ترى من المتسمين بالإسلام ، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة ، فيامصيبتاه . وطريقة أخرى : أن يكون (فذلك) عطفا على (الذى يكذب) إمّا عطف ذات على ذات ، وصفة على صفة ، ويكون جواب (أرأيت) محذوفا لدلالة مابعده عليه ، كأنه قيل : أخبرنى ، وماتقول فيمن يكذب بالجزاء ؟ وفيمن يؤذى اليتيم ولا يطعم المسكين ؟ أنعم مايصنع ؟ ثم قال (فويل للمصلين) أى إذا علم أنه مسىء ، فويل للمصلين ، على معنى : فويل لهم ، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ؛ لأنهم كانوا مع التكذيب وماأضيف

= وحذف بعض المضاف وكلاهما شاذ وإن كان أصله ياصاحب بلا إضافة . فهو شاذ من جهة أنه ليس علما ولا مؤنثا بالهاء . وقيل : ترخيم النكرة المقصودة جائز ، وريت : أصله رأيت ؛ خفف بحذف الهمزة للضرورة ، وكان قياس تخفيفها جعلها بين بين . لعدم سكون ماقبلها . وقرى يقرى قريا : جمع جمعا . ويروى : ثوى ، أى تمكن واستقر . والحلاب : إناء الحلب ، وروى : العلاب ، جمع علبة ، وهى محلب من جلد . يقول : ياصاحبى هل رأيت أو سمعت أن راعيا رجع فى الضرع ماجمع فى المحلب من اللبن . وعدى لمفعلين ، أو بأحدهما بالباء ، لتضمين معنى العلم ويجوز أن الباء زائدة . وحسن حذف همزة رأيت أن «هل» بمعنى «قد» فى الأصل وهمزة الاستفهام منوية قبله وورد ذكرها قبلها قليلا ، بل قيل إنها مقدرة أيضا قبل أسماء الاستفهام كلها ، والبيت من باب التمثيل ، والمعنى : أن الماضى لا يعود ، والواقع لا يرتفع .

إليهم ساهين عن الصلاة مرائين ، غير مزكين أموالهم . فإن قلت : كيف جعلت المصلين قائما مقام ضمير الذى يكذب ، وهو واحد ؟ قلت : معناه الجمع ، لأن المراد به الجنس . فإن قلت : أى فرق بين قوله (عن صلاتهم) وبين قولك (فى صلاتهم) ؟ قلت : معنى (عن) : أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ؛ وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين . ومعنى (فى) : أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو فى صلاته فضلا عن غيره [1] ؛ ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو فى كتبهم . وعن أنس رضى الله عنه : الحمد لله على أن لم يقل فى صلاتهم . وقرأ ابن مسعود : لاهون . فإن قلت : ما معنى المراآة ؟ قلت : هى مفاعلة من الإراءة ، لأن المرائى يرى الناس عمله ، وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به . ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة . فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها . لقوله عليه الصلاة والسلام «ولا غمة فى فرائض [2] الله» لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ؛ ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ؛ وإن كان تطوعا ، فحقه أن يخفى ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ؛ فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ، فيثنى عليه بالصلاح . وعن بعضهم : أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها ، فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك ؛ وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة ؛ على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص . ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة المظلمة على المسح الأسود [3]» ﴿الماعون﴾ الزكاة ، قال الراعى :

قَوْمٌ عَلَى الإِسْلاَمِ لَمَّا يَمْنَعُوا مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلاَ [4]

---

(١) قال المخرج : ورد فى ذلك خمسة أحاديث (الأولى) قصة ذى اليدين . متفق عليها من حديث أبى هريرة من طرق عنه وحاصله أنه صلى ركعتين فى الظهر أو العصر ثم سلم سهوا (الثانى) حديث عبد الله بن بحينة . متفق عليه أيضا فى قيامه بغير تشهد أول وسجوده للسهو قبل السلام . وفيه عن سعد عن أبى يعلى (الثالث) حديث ابن مسعود متفق عليه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صلى الظهر خمساً . فقيل له فى ذلك . فسجد سجدتين بعد ما سلم » (الرابع) حديث عمران بن حصين «أنه صلى الله عليه وسلم صلى العصر ثلاث ركعات فقام رجل يقال له الخرباق ـ الحديث» (الخامس) حديث معاوية بن خديج قال «صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم المغرب . فسها فيها . فسلم فى ركعتين ثم انصرف» الحديث أخرجه ابن خزيمة وأبو داود وابن حبان وجزم بأن هذه القصة مغايرة لقصة عمران . وأنهما مغايرتان لقصة أبى هريرة ؛ قلت وقد بسط العلائى القول فيه فى جزء مفرد .

(٢) هو فى الحديث المتقدم فى سورة يونس .

(٣) لم أجده .

(٤) يقول : هم قوم ثابتون على الاسلام ، أو مع إسلامهم وزيادة عليه ، لم يمنعوا الزكاة ولا غيرها من =

وعن ابن مسعود : ما يتعاون فى العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها . وعن عائشة الماء والنار والملح ؛ وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً فى الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار ، وقبيحاً فى المروءة فى غير حال الضرورة .

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من قرأ سورة أرأيت غفر الله له إن كان للزكاة مؤديا[1] »

سورة الكوثر

مكية ، وآياتها ٣ (نزلت بعد العاديات)



إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

فى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا أنطيناك ، بالنون[2] . وفى حديثه صلى الله عليه وسلم[3] : « وأنطوا الثبجة »[4] والكوثر : فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة . قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر . وقال :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَاابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ ... وَكَانَ أَبُوكَ ابْنَ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا[5]

= الخيرات ، فلما لاستغراق المنفى فى الماضى ، وإما ترقب حصول المنفى بها فهو غالب وليس مراداً هنا ، ولم يضبطوا التهليلا : أى الصلاة ، لاشتمالها على لا إله إلا الله .

(١) أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدى باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(٢) أخرجه الطبرانى والدارقطنى فى المؤتلف والحاكم وابن مردويه والثعلبي من رواية عمرو بن عبيد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة وعمرو بن عبيد واهى الحديث .

(٣) هو فى الحديث المتقدم فى سورة يونس .

(٤) قوله « وأنطوا الثبجة » فى القاموس « الثبجة » محركة : المتوسطة بين الخيار والرذال اه . (ع)

(٥) للكميت : وأنت كثير ؛ أى كثير الخير والبر . ويروى بدله ; كوثر . وفى النداء تنويه باسمه وتعظيم =

وقيل (الكوثر) نهر فى الجنة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال : « أتدرون ما الكوثر ؟ إنه نهر فى الجنة وعدنيه ربى ، فيه خير كثير[1] » ، وروى فى صفته : أحلى من العسل ، وأشد بياضا من اللبن ، وابرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء[2] . وروى : لايظمأ من شرب منه أبداً : أول وارديه : فقراء المهاجرين : الدنسو الثياب ، الشعث الرؤس ، الذين لايزوجون المنعمات ، ولا تفتح لهم أبواب السدد ، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج فى صدره ، لو أقسم على الله لأبره ، [3] وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير ، فقال له سعيد بن جبير : إن ناسا يقولون : هو نهر فى الجنة ! فقال : هو من الخير الكثير . والنحر : نحر البدن ؛ وعن عطية : هى صلاة الفجر بجمع ، والنحر بمنى . وقيل : صلاة العيد والتضحية . وقيل . هى جنس الصلاة . والنحر : وضع اليمين على الشمال ، والمعنى : أعطيت مالاغاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يعطه أحد غيرك ، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان[4] : إصابة أشرف عطاء وأوفره ، من أكرم معط وأعظم منعم ؛ فاعبد ربك الذى أعزك بإعطائه ، وشرفك وصانك من منن الخلق ، مراغما لقومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفاً لهم فى النحر للأوثان ﴿إن﴾ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم ﴿هو الأبتر﴾ لا أنت ؛ لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر والمنار ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، ولك فى الآخرة ما لايدخل تحت الوصف ، فمثلك لا يقال له أبتر : وإنما الأبتر هو شانئك المنسى فى

ـــــ لقدره . واستمار الطيب لحسن السمعة . ويجوز أنه ضد الخبيث . والعقائل : خيار النساء ؛ والمراد جنسهن أو ما يشمل الجدات . والكوثر : بليغ النهاية فى الخير .

(١) أخرجه مسلم من رواية المختار بن فلفل عن أنس فى أثناء حديث ذكره فى أوائل الصلاة .

(٢) أخرجه الحاكم من حديث أبى برزة رفعه « حوضى ما بين أيلة إلى صنعاء : عرضه كطوله . فيه ميزابان يصبان من الجنان أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأشد بياضا من اللبن ، وألين من الزبد فيه أباريق عدد نجوم السماء ـ الحديث » وفى ابن مردويه من حديث ابن عباس فى قصة الاسراء ـ فذكر حديثاً طويلا جداً . وفيه ذكر الكوثر وحافتاه من زبرجد .

(٣) أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبرانى من حديث ثوبان . وفيه « أن حوضى ما بين عدن إلى أيلة . أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، أكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً وأول من يرد عليه فقراء المهاجرين الدنس ثيابا الشعث رءوسا الذين لا ينكحون المنعمات ولا يفتح لهم السدد »

(٤) قال محمود : « أى جمعنا لك الغبطتين السنيتين أحدهما إصابة أشرف عطاء وهو الكوثر ... الخ » قال أحمد : جعل الزمخشري توسط الضمير بين الجزءين مفيد للاختصاص لأن إفادته ههنا لذلك بينة مكشوفة .

الدنيا والآخرة ، وإن ذكر ذكر باللعن . وكانوا يقولون : إنّ محمداً صنبور[1] : إذا مات مات ذكره . وقيل : نزلت فى العاص بن وائل ، وقد سماه الأبتر . والأبتر : الذى لاعقب له . ومنه : الحمار الأبتر الذى لاذنب له .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر فى الجنة ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد فى يوم النحر أو يقربونه[2] » .

سورة الكافرون

مكية ، وهى ست آيات (نزلت بعد الماعون)

ويقال لها ولسورة الإخلاص : المقشقشتان ، أى المبرئتان من النفاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لايؤمنون . روى أنّ رهطا من قريش قالوا : يا محمد ، هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فقال معاذ الله أن أشرك بالله غيره ، فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك ، فنزلت : فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم ، فأيسوا . ﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل ، لأن « لا » لاتدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال ، كما أن « ما » لاتدخل إلا على مضارع فى معنى الحال ، ألا ترى أن « لن » تأكيد فيما تنفيه « لا »

---

(١) قوله « إن محمداً صنبور » ذكر فى القاموس معانيه : الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر اهـ . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

وقال الخليل فى «لن»: أنّ أصله «لا أن»، والمعنى: لا أفعل فى المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهى ﴿ولا أنا عابد ماعبدتم﴾ أى: وما كنت قط عابداً فيما سلف ماعبدتم[1] فيه، يعنى لم تعهد منى عبادة صنم فى الجاهلية، فكيف ترجى منى فى الاسلام ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ أى: وماعبدتم فى وقت ما أنا على عبادته. فإن قلت: فهلا قيل: ماعبدت، كما قيل: ماعبدتم؟ قلت: لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث، وهو لم يكن يعبد الله تعالى فى ذلك الوقت. فإن قلت: فلم جاء على «ما» دون «من»؟ قلت: لأن المراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل، ولا تعبدون الحق. وقيل: إن «ما» مصدرية، أى: لا أعبد عبادتكم، ولاتعبدون عبادتى ﴿لكم دينكم ولى دين﴾ لكم شرككم، ولى توحيدى. والمعنى: أنى نبيّ مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعونى، فدعونى كفافا ولاتدعونى إلى الشرك.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين، وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر». [2]

---

(١) قال محمود: «معناه فى المستقبل، لأن «لا» تنفى المستقبل، ولا أنتم عابدون ماأعبد: كذلك، ولا أنا عابد ما عبدتم: أى فيما سلف ... الخ» قال أحمد: هذا الذى قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً: أما على أصله القدرى، فانه وان كان مقتضاه أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قبل البعث على دين نبى قبله، لاعتقاد القدرية أن ذلك غميزة فى منصبه، ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة؛ إلا أنهم يعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر فى آيات الله تعالى وأدلة توحيده ومعرفته، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع فتلك عبادة قبل البعث يلزمهم ألا يخلوا به صلى الله عليه وسلم الاخلال بها، فحينئذ يقتضى أصلهم أنه كان قبل البعث يعبد الله تعالى؛ فالزمخشرى حافظ على الوفاء بأصله فى عدم اتباعه لنبى سابق، فأخل بالتفريع على أصله الآخر فى وجوب العبادة بالعقل. والحق أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعبد قبل الوحى ويتحنث فى غار حراء، فان كان مجىء قوله أعبد ـ لأن الماضى لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة فى الآية ـ فيحمل الأمر فيها والله أعلم على مجموع العبادات الخاصة التى لم تعلم إلا بالوحى، لا على مجرد توحيد الله تعالى ومعرفته؛ فان ذلك لم يزل ثابتا له صلى الله عليه وسلم قبل البعث، والله أعلم. أو يكون مجيئه مضارعا لقصد تصوير عبادته فى نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) والأصل: فأصبحت؛ وإنما عدل عنه للمعنى المذكور؛ وهو وجه حسن، فتأمله، والله أعلم.

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى بسندهم إلى أبى بن كعب. قلت: وصدره رواه الترمذي من حديث أنس رضى الله عنه.

سورة النصر

نزلت بمنى فى حجة الوداع ، فتعد مدنية ، وهى آخر مانزل من السور

وآياتها ٣ (نزلت بعد التوبة)



إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

﴿إذا جاء﴾ منصوب بسبح ، وهو لما يستقبل . والاعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة . روى أنها نزلت فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع . فإن قلت : ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه ؟ قلت : النصر الاغاثة والاظهار على العدو . ومنه : نصر الله الأرض غاثها . والفتح : فتح البلاد . والمعنى : نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على العرب . أو على قريش وفتح مكة . وقيل : جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم ، وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب ، وأقام بها خمس عشرة ليلة ، ثم خرج إلى هوازن ، وحين دخلها وقف على باب الكعبة ، ثم قال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ، ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئا ، فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء ، ثم بايعوه على الاسلام ﴿فى دين الله﴾ فى ملة الاسلام التى لادين له يضاف إليه غيرها (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) . ﴿أفواجا﴾ جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها

---

(١) أخرجه ابن إسحاق فى السيرة . وروى البخارى عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من مكة فى رمضان ـ الحديث ، قال : فصبحها لثلاث عشرة خلت من رمضان» وفى الدلائل من طريق ابن إسحاق عن الزهري وغيره قال : «فتحت لعشر بقين» .

بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدا واحداً واثنين اثنين . وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه أنه بكى ذات يوم ، فقيل له[1] . فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « دخل الناس فى دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا[2] » وقيل : أراد بالناس أهل اليمن . قال أبو هريرة : لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن : قوم رقيقة قلوبهم . الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية[3] » وقال أجد نفس ربكم من قبل اليمن »[4] وعن الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض ، فقالوا : أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم ، فكانوا يدخلون فى الإسلام أفواجا من غير قتال . وقرأ ابن عباس : فتح الله والنصر : وقرئ : يدخلون ، على البناء للمفعول . فإن قلت : ما محل يدخلون ؟ قلت : النصب إما على الحال ، على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت . أو هو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت ﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله : حامداً له ، أى : فتعجب لتيسير الله مالم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم ، واحمده على صنعه . أو : فاذكره مسبحاً حامداً ، زيادة فى عبادته والثناء عليه ، لزيادة إنعامه عليك . أو فصل له . روت أم هانىء : أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثمانى ركعات[5] وعن عائشة : كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك »[6] والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين : من الجمع بين الطاعة والاحتراس

---

(١) قوله «فقيل له» لعله : فقيل له فى ذلك . (ع)

(٢) أخرجه أحمد وإسحاق وابن مردويه والثعلبي من رواية الأوزاعي : حدثنى أبو عمار حدثنى جار لجابر ابن عبدالله قال « قدمت من سفر فجاءنى جابر بن عبدالله فسلم على فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا . فجعل يبكى . ثم قال : سمعت - فذكره » وله شاهد عن أبى هريرة فى العين من المستدرك .

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق عبدالرازق أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عنه . وأصله فى مسلم دون ما فى أوله . وله شاهد فى ابن حبان والنسائى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ومسند الشاميين من طريق جرير بن عثمان عن شبيب بن روح عن أبى هريرة به فى حديث أوله «الايمان يمان» ولا بأس باسناده . وله شاهد من حديث سلمة بن نفيل السكونى فى مسند البزار والطبرانى الكبير والبيهقى فى الأسماء . وفى إسناده إبراهيم بن سليمان الأفطس . قال البزار : إنه غير مشهور .

(٥) لم أجده هكذا : فان ظاهره يوهم أنه صلاها داخل الكعبة وفى الصحيحين من حديث أم هانىء «أن النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة اغتسل فى بيتها وصلى ثمان ركعات » ورواه أبو داود بلفظ «أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى سبحة الضحى ثمانى ركعات يسلم فى كل ركعتين» إسناده صحيح ، وأخرجه أحمد وابن أبى شيبة والطبرانى وابن حبان وأبو يعلى والبيهقى والحاكم والطبرى من طرق كثيرة تزيد على ثلاثين وجها ، لم يذكر أحد منهم هذه الزيادة .

(٦) متفق عليه واللفظ لمسلم .

من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفا لأمته ، ولأنّ الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس ، فهو عبادة فى نفسه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « إنى لأستغفر فى اليوم والليلة مائة مرة »[١] . وروى أنه لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه استبشروا وبكى العباس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا عم » ؟ قال : نعيت إليك نفسك . قال : « إنها لكما تقول »[٢] فعاش بعدها سنتين لم يرفيهما ضاحكا مستبشرا . وقيل : إن ابن عباس هو الذى قال ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أوتى هذا الغلام علما كثيرا »[٣] وروى أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن عبدا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه ، فاختار لقاء الله » فعلم أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا »[٤] . وعن ابن عباس أن عمر رضى الله عنهما كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبد الرحمن : أتأذن لهذا الفتى معنا وفى أبنائنا من هو مثله؟ « فقال إنه ممن قد علمتم »[٥] ، قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم ، وأذن لى معهم ، فسألهم عن قول الله تعالى (إذا جاء نصر الله) ولا أراه سألهم إلا من أجلى ؛ فقال بعضهم : أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه ؛ فقلت : ليس كذلك ، ولكن نعيت إليه نفسه ؛ فقال عمر : ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم ، ثم قال : كيف تلومونى عليه بعدما ترون ؟ وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا فاطمة رضى الله عنها فقال : « يا بنتاه إنه نعيت إلىّ نفسى ، فبكت ، فقال : لا تبكى ، فإنك أوّل أهلى لحوقا بى »[٦] ، وعن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمى سورة التوديع ﴿ كان توابا ﴾ أى كان فى الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين توابا عليهم إذا استغفروا ، فعلى كل مستغفر، أن يتوقع مثل ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث الأغر المزنى .

(٢) ذكره الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه دون الكتاب .

(٣) لم أجده .

(٤) متفق عليه أصله من حديث أبى سعيد الخدرى دون أوله من كونه كان عند نزول السورة . نعم فيه مايشعر بأن ذلك كان فى أواخر عمره ونزولها كان فى أواخر عمره بلا نزاع .

(٥) أخرجه البخارى من حديث ابن عباس بمعناه . وليس فيه تعيين عبدالرحمن بن عوف . واستدركه الحاكم فوهم . وأخرجه البزار وآخر لفظه موافق لآخر لفظ المصنف .

(٦) أخرجه البيهقى فى أواخر الدلائل وابن مردويه من رواية هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ولما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فقال لها إنه قد نعيت إلى نفسى فبكت فقال لها : اصبرى فانك أول أهلى لحوقا بى . فقال لها بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم . الحديث وشاهده فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها من رواية مسروق عنها مطولا .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطى من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة»[(١)].

سورة المسد

مكية ، وآياتها ٥ [نزلت بعد الفاتحة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)

التباب : الهلاك . ومنه قولهم : أشابة أم تابة ، أى : هالكة من الهرم والتعجيز . والمعنى : هلكت يداه ، لأنه فيما يروى : أخذ حجراً ليرمى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وتب﴾ وهلك كله . أو جعلت يداه هالكتين . والمراد : هلاك جملته ، كقوله تعالى (بما قدمت يداك) ومعنى (وتب) : وكان ذلك وحصل ، كقوله :

جَزَانِي جَزَاهُ اللهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ[(٢)]

---

(١) أخرجه الثعلبي والواحدى وابن مردويه بالسند إلى أبي بن كعب .

(٢) كأن قد فعل به خيرا لجزاه شراً ، فدعا عليه بقوله : جزاه الله شر جزائه . جزاء الكلاب : بدل من «شر جزائه» وضمير «جزائه» لله . أو الرجل المدعو عليه . وجزاء الكلاب العاويات : رجمها . ويروى «العاديات» بالدال ، بدل الواو . وقد فعل : أى فعل الله ذلك الجزاء فى الواقع ، حيث أوقعه . وفيه من أنواع البديع : الرجوع ، وهو العود إلى الكلام السابق بالنقض لنكتة ، لأن مقتضى الدعاء أن المدعو به لم يحصل ، فنقضه بقوله «وقد فعل» . ويروى بدل الشطر الأول : جزى ربه عنى عدى بن حاتم . وضمير «ربه» لحاتم ، وإن تأخر لفظا ورتبة للضرورة ؛ وأجازه الأخفش وابن جنى وابن مالك فى السعة ؛ لأن المفعول به كان مقدماً لشدة اقتضاء الفعل إياه . وقيل عائد للجزاء المعلوم من جزى . ويروى بدل الشطر الأول أيضا : جزى الله عبسا عبس =

ويدل عليه قراءة ابن مسعود : وقدتب ، وروى أنه لما نزل (وأنذر عشيرتك الأقربين) رقى الصفا وقال . ياصباحاه . فاستجمع إليه الناس من كل أوب . فقال : يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، إن أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ؛ قال : فإنى نذير لكم بين يدى الساعة ؛ فقال أبو لهب : تبالك ، ألهذا دعوتنا [١] ؟ فنزلت . فإن قلت : لم كناه ، والتكنية تكرمة ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون مشتهراً بالكنية دون الاسم ، فقد يكون الرجل معروفا بأحدهما ، ولذلك تجرى الكنية على الاسم ، أو الاسم على الكنية عطف بيان ، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ، ذكر الأشهر من علميه ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : يدا أبو لهب [٢] ، كما قيل : على بن أبو طالب . ومعاوية بن أبو سفيان : لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع ، ولفليتة بن قاسم أمير مكة ابنان ، أحدهما : عبد الله ـ بالجر ، والآخر عبد الله ـ بالنصب . كان بمكة رجل يقال له : عبد الله ـ بجرة الدال ، لا يعرف إلا هكذا . والثانى : أنه كان اسمه عبد العزى ، فعدل عنه إلى كنيته . والثالث : أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب ، وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها . ويقال : أبو لهب ، كما يقال : أبو الشر للشرير . وأبو الخير للخير ، وكما كنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا المهلب : أبا صفرة ، بصفرة فى وجهه . وقيل كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به ، وبافتخاره بذلك . وقرئ أبى لهب ، بالسكون . وهو من تغيير الأعلام ، كقولهم : شمس بن مالك بالضم ﴿ما أغنى﴾ استفهام فى معنى الإنكار ، ومحله النصب أو نفى ﴿وما كسب﴾ مرفوع . وما موصولة أو مصدرية بمعنى : ومكسوبه . أو : وكسبه . والمعنى : لم ينفعه ماله وما كسب بماله ، يعنى : رأس المال والأرباح . أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها ، وكان ذا سابياء [٣] . أو ماله الذى ورثه

= آل بغيض . وهى قبيلة معروفة ، ولعل الشاعر متعدد ، وما حكاه بعض شراح شواهد الجامى من أن عدى بن حاتم وجل روى بنى قصراً للنعمان بن امرئ القيس بظهر الكوفة ، فأعجبه فسأله : هل بنيت مثله فقال : لا ، وبقيته على حجر لو سقط سقط القصر ، فألقاه من أعلاه فخر ميتا ؛ فهو خطأ . والصواب أن هذه الحكاية إنما وقعت لسنمار المذكور فى قوله :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر ... وحسن فعل كما يجزى سنمار

لأن عدى بن حاتم صحابى من لب العرب ، وضمير «بنوه» : لأبى الغيلان بالكسر . وسنمار بكسرتين فتشديد . و «عن» متعلقة بجزى ، أى : جزاء ناشئاً عن كبر ؛ وفيه معنى التهكم . ويجوز أنها بمعنى البدل ، والأوجه أنها بمعنى بعد . وقيل : إنها بمعنى فى ، وليس بشيء ؛ وعبر بالمضارع بدل الماضى استحضاراً لما مضى ، لأنه عجيب .

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما .

(٢) قال محمود : «ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب» قال أحمد : وفى هذا دليل لأن الرفع أسبق وجوه الاعراب وأولها . ألا ترام إنما حافظوا على صيغته التى بها اشتهر الاسم ، وكانت أول أحواله .

(٣) قوله «وكان ذا سابياء» ذكر فى القاموس من معانيها : المال الكثير والنتاج ، والابل للنتاج والغنم التى كثر نسلها . والتالد ، القديم . والطارق . المستحدث (ع)

من أبيه والذى كسبه بنفسه . أو ماله التالد والطارف . وعن ابن عباس : ما كسب ولده . وحكى أن بنى أبى لهب احتكموا إليه ، فاقتتلوا ، فقام يحجز بينهم ، فدفعه بعضهم فوقع ، فغضب ، فقال : أخرجوا عنى الكسب الخبيث : ومنه قوله عليه السلام « إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » وعن الضحاك : ما ينفعه ماله وعمله الخبيث ، يعنى كيده فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن قتادة : عمله الذى ظن أنه منه على شىء ، كقوله (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) وروى أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخى حقاً فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدى ﴿سيصلى﴾ قرئ بفتح الياء وبضمها : مخففاً ومشدداً ، والسين للوعيد ، أى : هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته ﴿وامرأته﴾ هى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك[1] والسعدان فتنثرها بالليل فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كانت تمشى بالنميمة : ويقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أى : يوقد بينهم النائرة ويورث الشر . قال :

مِنَ الْبِيضِ لَمْ تَصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأْمَةٍ وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ الْحَىِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ[2]

جعله رطباً ليدل على التدخين الذى هو زيادة فى الشر ، ورفعت عطفاً على الضمير فى (سيصلى) أى : سيصلى هو وامرأته . و ﴿فى جيدها﴾ فى موضع الحال . أو على الابتداء ، وفى جيدها : الخبر . وقرئ : حمالة الحطب ، بالنصب على الشتم ؛ وأنا أستحب هذه القراءة ، وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل : من أحب شتم أم جميل . وقرئ : حمالة للحطب . وحمالة للحطب : بالتنوين ، والرفع والنصب . وقرئ : ومريته بالتصغير . المسد : الذى فتل من الحبال فتلا شديداً ، من ليف كان أو جلد ، أو غيرهما . قال :

---

(١) قوله «من الشوك والحسك» فى الصحاح « الحسك » : حسك السعدان . وفيه « السعدان » : نبت ذو شوك ، ولهذا النبت شوك يقال : حسك السعدان . (ع)

(٢) أنشده يعقوب . والبياض : مجاز عن الخلوص من أسباب الذم . وتصطد من الصيد ، أى : الوجدان والادراك ، وزنه يفتعل : قلبت تاء الافتعال طاء على القياس . ورواه بعضهم يضدد . وبعضهم : يضطاد ، بالضاد المعجمة فيهما ، على أنه من الضد ، ولينظر وجه الثانى ؛ لأن الدال فيه حقها التشديد ، فلعله خففها للضرورة . واللأمة : اللوم وسببه : شبهها بالمطية التى اعتاد صاحبها ركوبها على طريق المكنية ، فأثبت لها الظهر تخييلا لذلك . وروى : بالخطر ، بدل الحطب : وهو الخشب ، والحاطب الذى يحظر به ؛ والمراد النميمة : استعير لها ذلك بجامع ثوران المكروه من كل ، لأن الحطب الرطب إذا أوقدت فيه النار كثر دخانه . وروى : لم يضدد ، ولم يمش بالياء على أنها صفة لمذكر .

* وَمَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ * (١)

ورجل ممسود الخلق مجدوله . والمعنى : فى جيدها حبل مما مسد من الحبال ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون : تخسيساً لحالها ، وتحقيراً لها ، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن ، لتمتعض (٢) من ذلك ويمتعض بعلها ؛ وهما فى بيت العز والشرف . وفى منصب الثروة والجدة . ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبى لهب بحمالة الحطب ، فقال :

مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي ... أَمْ مَا تُعَيِّرُ مِنْ حَمَّالَةِ الْحَطَبِ

غَرَّاءَ شَادِخَةٍ فِي الْمَجْـــدِ غُرَّتُهَا ... كَانَتْ سَلِيلَةَ شَيْخٍ نَاقِبِ الْحَسَبِ (٣)

---

(٤) إن سرك الارواء غير سائق ... فاعجل بغرب مثل غرب طارق

ومسد أمر من أيانق ... ليس بأنياب ولا حقائق

ولا ضعاف مخهن زاهق

لعمارة بن طارق . يقول : إن سرك الاستقاء حال كونك غير سائق للابل التى يستق عليها، فأسرع إلى ماء بئر بدلو عظيمة مثل دلو طارق أبى . وبحبل أمر : بالبناء للمجهول ، أى : فتل فتلا شديداً . من أيانق ، أى : من أوبارها، أو من جلودها . والأيانق : جمع أينق . والأينق : جمع نوق والنوق : جمع ناقة ، ليس ذلك الحبل أنيابا ، أى ؛ نوقا مسنة ، ولا حقائق : أى فتيات ، ولا ضعافا : أى ليس من هذه الأنواع التى تساق بمشقة فى هذا التنويع تتغير عنها . ويروى : لسن ، أى : النوق التى يفتل منها . والأشبه :أن حق الرواية مع أيانق ، أى : أعجل بحبل مفتول من الليف الأبيض . ونوق شداد : لاتحتاج إلى السوق . ومخهن زاهق : قال الفراء : هو مرفوع ، والشعر مكفأ . يقول : بل مخهن مكتنز سمين على الابتداء ، وهذا مما يؤيد رواية : لسن بالنوق . وقال غيره : الزاهق هنا الذاهب ، وهو مجرور بالعطف ، أى : ولا ضعاف مخهن . وزاهق بالجر رداً على ضعاف ، فكأنه رفع مخهن بضعاف .

(٥) قوله « من المواهن لتمتعض » جمع ماهن وهى الخادم . والامتعاض : الغضب . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) هو تعيير للفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب . وحمالة الحطب : زوجة أبى لهب ؛ فهى جدته . والغراء البيضاء . والشادخة : المتسعة ؛ وذلك مجاز عن الظهور وارتفاع المقدار . والسليلة من سل من غيره ، والمراد بالشيخ : أبوها حرب ، لأنها أم جميل أخت أبى سفيان بن حرب ، كانت عوراء ، وماتت مخنوقة بحبلها الذى كانت تحمل فيه الحطب . وقيل : حمل الحطب مجاز عن إثارة الفتنة ، لأنها كانت نمامة . وإلى شتمى : متعلق بمحذوف أو بأردت على طريق التضمين ، أى : أى شىء أردته مائلا أنت إلى شتمى ، أو منضما هو إلى شتمى . أو ما الذى أردته من شتمى أو مع شتمى ؟ هل أردت أنك شريف لاعيب فيك . ويجوز أن إلى بمعنى من كما قال النحاة ، واستشهدوا عليه بقوله : * تقول وقد عاليت بالكور فوقها ... أيسقى فلا يروى إلى ابن أحمرا * ويمكن أنها للمصاحبة ، كما قالوه أيضا فى قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) وتعير : أصله تتعير ، فحذف منه إحدى التاءين . أما تتعير من جدتك النمامة لا ينبغى عدم ذلك . وروى : ثاقب الحسب . والمعنى : أن حسبه أصيل ، فكأنه داخل فى أجداد السابقين . أو سائر بين الناس ؛ وذمها الآن مع رفعة شأنها فيما كان : أشد فى الامتهان .

ويحتمل أن يكون المعنى : أن حالها تكون فى نار جهنم على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك : فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع ، وفى جيدها حبل من ما مسد من سلاسل النار : كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله فى جرمه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبى لهب فى دار واحدة [1] » .

سورة الإخلاص

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٤ (نزلت بعد الناس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

﴿ هو ﴾ ضمير الشأن ، و﴿ الله أحد ﴾ هو الشأن ، كقولك : هو زيد منطلق ، كأنه قيل : الشأن هذا ، وهو أن الله واحد لا ثانى له . فإن قلت : ما محل هو ؟ قلت : الرفع على الابتداء والخبر الجملة . فإن قلت : فالجملة الواقعة خبرا لابد فيها من راجع إلى المبتدإ ، فأين الراجع ؟ قلت : حكم هذه الجملة حكم المفرد فى قولك « زيد غلامك » فى أنه هو المبتدأ فى المعنى ، وذلك أن قوله (الله أحد) هو الشأن الذى هو عبارة عنه ، وليس كذلك « زيد أبوه منطلق » فإن زيداً والجملة يدلان على معنيين مختلفين ، فلا بد مما يصل بينهما . وعن ابن عباس : قالت قريش : يا محمد ، صف لنا ربك الذى تدعونا إليه ، فنزلت : يعنى : الذى سألتمونى وصفه هو الله ، وأحد : بدل من قوله ، الله . أو على : هو أحد ، وهو بمعنى واحد ، وأصله وحد . وقرأ عبد الله وأبىّ : هو الله أحد ، بغير (قل) وفى قراءة النبى صلى الله عليه وسلم : الله أحد ، بغير (قل هو) وقال من

(١) أخرجه الثعلبى والواحدى وابن مردويه من حديث أبى بن كعب .

قرأ : الله أحد ، كان بعدل القرآن . وقرأ الأعمش : قل هو الله الواحد . وقرئ : أحد الله ، بغير تنوين : أسقط لملاقاته لام التعريف . ونحوه

* وَلاَ ذَاكِرَ اللهِ إلاَّ قَلِيلاَ * [1]

والجيد هو التنوين ، وكسره لالتقاء الساكنين . و﴿الصمد﴾ فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه فى الحوائج . والمعنى : هو الله الذى تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها ، وهو الذى يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه ، وهو الغنى عنهم ﴿لم يلد﴾ لأنه لا يجانس ، حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . وقد دل على هذا المعنى بقوله (أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) . ﴿ولم يولد﴾ لأنّ كل مولود محدث وجسم ، وهو قديم لا أوّل لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد ، أى : لم يماثله ولم يشاكله . ويجوز أن يكون من الكفاءة فى النكاح ، نفيا للصاحبة : سألوه أن يصفه لهم ، فأوحى إليه ما يحتوى على صفاته . فقوله (هو الله) إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها ، وفى طىّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم ؛ لأن الخلق يستدعى القدرة والعلم ، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام . وفى ذلك وصفه بأنه حى سميع بصير . وقوله (أحد) وصف بالوحدانية ونفى الشركاء . وقوله (الصمد) وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه ، وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه : فهو غنى . وفى كونه غنياً مع كونه عالما : أنه عدل غير فاعل للقبائح [2] ، لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه . وقوله (لم يولد) وصف بالقدم والأوّلية . وقوله (لم يلد) نفى للشبه والمجانسة . وقوله (ولم يكن له كفواً أحد) تقرير لذلك وبت للحكم به : فإن قلت : الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك فى كتابه [3] ، فما باله مقدّماً فى أفصح كلام وأعربه ؟ قلت هذا الكلام إنما سيق لنفى المكافأة عن ذات البارى سبحانه ؛ وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا

---

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٤٤٨ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «وإنه عدل غير فاعل للقبائح» هذا مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى هو الخالق لجميع الأشياء خيرها وشرها قبيحها وحسنها . قال تعالى : (الله خالق كل شىء) وعلمه بقبح القبيح لا يمنعه من خلقه ، لأنه لحكمة وإن لم يعلمها غيره . (ع)

(٣) قال محمود : «إن قلت الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف وقد نص سيبويه على ذلك» قال أحمد : نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ : ولم يكن أحدا كفوا له ، وجرى هذا الجلف على عادته لجفا طبعه عن لطف المعنى الذى لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الاسم ، وذلك أن الغرض الذى سيقت له الآية نفى المكافأة والمساواة عن ذات الله تعالى ، فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أولى ، ثم لما قدمت لتسلب ذكر معها الظرف ليبين الذات المقدسة بسلب المكافأة ، والله أعلم .

الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه. وقرئ : كفؤا ، بضم الكاف والفاء . وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء : فإن قلت . لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصر متنها وتقارب طرفيها ؟ قلت : لأمر ما يسود من يسود ، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده ، وكفى دليلا من اعترف بفضلها وصدق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها : إنّ علم التوحيد من الله تعالى بمكان ، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم : يشرف بشرفه ، ويتضع بضعه ؛ ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله ، وإنافته على كل علم ، واستيلائه على قصب السبق دونه ؛ ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه ، وقلة تعظيمه له ، وخلوه من خشيته ، وبعده من النظر لعاقبته . اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك ، القائلين بعدلك وتوحيدك ، الخائفين من وعيدك . وتسمى سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين . وروى أبيّ وأنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد »[1] يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال : « وجبت » . قيل : يا رسول الله وما وجبت ؟ قال : « وجبت له الجنة »[2]

---

(١) لم أجده مرفوعا ، وأخرجه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن من رواية عبدالله بن غيلان الثقفي عن كعب الأحبار موقوفا .

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث عبيد بن حنين عن أبي هريرة . وله شاهد في الطبراني الكبير من حديث أبي أمامة .

سورة الفلق

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٥ (نزلت بعد الفيل)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

الفلق والفرق : الصبح ، لأن الليل يفلق عنه ويفرق : فعل بمعنى مفعول . يقال فى المثل : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح . ومنه قولهم : سطع الفرقان ، إذا طلع الفجر . وقيل : هو كل ما يفلقه الله ، كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأولاد ، والحب والنوى وغير ذلك . وقيل : هو واد فى جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض : الفلق . والجمع : فلقان . وعن بعض الصحابة أنه قدم الشأم فرأى دور أهل الذمّة وما هم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم ، فقال : لا أبالى ، أليس من ورائهم الفلق ؟ فقيل : وما الفلق ؟ قال : بيت فى جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه ﴿من شر ما خلق﴾ من شر خلقه . وشرهم[1] : ما يفعله المكلفون[2] من الحيوان من المعاصى والمآثم ، ومضارّة بعضهم بعضاً من ظلم وبغى وقتل وضرب وشتم وغير ذلك ، وما يفعله غير المكلفين منه من الأكل والنهس واللدغ والعض كالسباع والحشرات ، وما وضعه الله فى الموات من أنواع الضرر كالإحراق فى النار والقتل فى السم . والغاسق : الليل

---

(١) قوله «من شر خلقه وشرهم» لعله وشره ، أى : شر خلقه حيواناً أو مواتا . (ع)

(٢) قال محمود : «ومعناه من شر خلقه ، أى من شر ما يفعله المكلفون ... الخ» قال أحمد : لا يسعه على قاعدته الفاسدة التى هى من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقده خالقاً لأفعاله ، أو لما هو غير فاعل له البتة كالموات ؛ وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله الله تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك ، فلا ؛ لأنه يعتقد أن الله لا يخلق أعمال الحيوانات ، وإنما هم يخلقونها لأنها شر ، والله تعالى لا يخلقه لقبحه : كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التى وضح فسادها ، حتى حرف بعض القدرية الآية ، فقرأ : من شر ما خلق بتنوين شر وجعل ما نافية .

إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى (إلى غسق الليل) ومنه : غسقت العين امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة امتلأت دما . ووقوبه : دخول ظلامه فى كل شىء . ويقال : وقبت الشمس إذا غابت . وفى الحديث : لما رأى الشمس قد وقبت قال : هذا حين حلها ، يعنى صلاة المغرب[1] . وقيل : هو القمر إذا امتلأ ، وعن عائشة رضى الله عنها : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فأشار إلى القمر فقال : تعوّذى بالله من شر هذا ، فإنه الغاسق إذا وقب[2] . ووقوبه : دخوله فى الكسوف واسوداده . ويجوز أن يراد بالغاسق : الأسود من الحيات : ووقبه : ضربه ونقبه . والوقب : النقب . ومنه : وقبة الثريد ؛ والتعوّذ من شر الليل لأن انبثاثه فيه أكثر ، والتحرز منه أصعب . ومنه قولهم : الليل أخفى للويل . وقولهم : أغدر الليل ؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه ﴿النفاثات﴾ النساء ، أو النفوس ، أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها[3] ويرقين : والنفث النفخ من ريق ، ولا تأثير لذلك[4] ، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شىء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه . أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ؛ ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشو والرعاع[5] إليهنّ وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به . فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن[6] ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ومن إثمهنّ فى ذلك . والثانى : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن . والثالث : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن ، ويجوز أن يراد

---

(١) أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث من طريق عبيدالله بن عقبة مرسلا .

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى كلهم من طريق ابن أبى ذئب عن خالد الحرث بن عبدالرحمن عن أبى سلمة عنها .

(٣) قال محمود : «هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط وينفثن عليها ... الخ» قال أحمد : وقد تقدم أن قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر ، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه والأمر بالتعوذ منه . وقد سحر صلى الله عليه وسلم فى مشط ومشاطة فى جف طلعة ذكر . والحديث مشهور ؛ وإنما الزمخشرى استفزه الهوى حتى أنكر ماعرف ، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويغطى بكفه وجه الغزالة .

(٤) قوله «ولا تأثير لذلك» مبنى على مذهب المعتزلة من أنه لاحقيقة للسحر ولا تأثير له . وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره لظاهر الكتاب والسنة . (ع)

(٥) قوله «فينسب الحشوية والرعاع» فى الصحاح «الرعاع» : الأحداث الطغام . وفيه «الطغام» : أوغاد الناس وفيه «الوغد» : الرجل الدنىء الذى يخدم بطعام بطنه . (ع)

(٦) قال محمود : «فإن قلت : مامعنى الاستعاذة من شرهن ، وأجاب ... الخ» قال أحمد : وهذا من الطراز الأول فعد عنه جانبا ، ولو فسر غيره النفاثات فى العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتم إنكار وجود السحر : لعده من بدع التفاسير .

من النساء الكيادات ، من قوله (إن كيدكن عظيم) تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد. أو اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن ، كأنهن بسحرنهم بذلك ﴿إذا حسد﴾ إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه : من بغى الغوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبدالعزيز : لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد . ويجوز أن يراد بشر الحاسد : إثمه وسماجة حاله فى وقت حسده ، وإظهاره أثره . فإن قلت : قوله (من شر ماخلق) تعميم فى كل مايستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ؟ قلت : قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمره ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لايعلم ، كأنما يغتال به . وقالوا : شر العداة المداجى الذى يكيدك من حيث لا تشعر . فإن قلت : فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ؟ قلت : عرفت النفاثات ، لأن كل نفاثة شريرة ، ونكر غاسق ، لأنّ كل غاسق لايكون فيه الشر ، إنما يكون فى بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لايضرّ . ورب حسد محمود ، وهو الحسد فى الخيرات . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لاحسد إلا فى اثنتين[1] » وقال أبو تمام :

* وَمَا حَاسِدٌ فِى الْمَكْرُمَاتِ بِحَاسِدِ * [2]

وقال :

* إِنَّ الْعُلاَ حَسَنٌ فِى مِثْلِهَا الْحَسَدُ * [3]

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التى أنزلها الله تعالى كلها »[4] .

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود ، ومن حديث ابن عمر رضى الله عنهما ؛ وللبخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) وإنى لمحسود وأعذر حاسدى ... وما حاسدى فى المكرمات بحاسد

لأبى تمام . يقول : إنى جامع للخصال الجيدة ، فالحسد كناية عن ذلك . وعذر يعذر كضرب يضرب ، أى : أن حاسدى معذور لحسن صفاتى وعظمها ، وليس الحاسد فى الخصال الجيدة بحاسد مذموم ، بل مغتبط ممدوح .

(٣) فاخر فما من سماء للعلا ارتفعت ... إلا وأفعالك الحسنى لها عمد

واعذر حسودك فيما قد خصصت به ... إن العلا حسن فى مثلها الحسد

لأبى تمام . وشبه القدر المرتفع بالسماء ، واستعارها له على طريق التصريح ، والارتفاع ترشيح ، لأنه خاص بالمحسوسات وشبه الأفعال الجميلة بأعمدة السماء تشبيها بليغا ، لأن بها الارتفاع المعنوى .

(٤) أخرجه الثعلبى وابن مردويه والواحدى بأسانيدهم إلى أبى بن كعب ؛ وقد مضى غير مرة أنها واهية ، وأن الحديث المرفوع فى ذلك موضوع ، والله أعلم .

سورة النـاس

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٦ [نزلت بعـد الفلق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

قرئ : قل أعوذ ، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ، ونحوه . فخذ أربعة . فإن قلت : لم قيل[1] ﴿رب الناس﴾ مضافا إليهم خاصة ؟ قلت : لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس . فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم ، وهو إلههم ومعبودهم ، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم . فإن قلت : ﴿ملك الناس إله الناس﴾ ما هما من رب الناس ؟ قلت : هما عطف بيان ، كقولك : سيرة أبي حفص عمر الفاروق . بين بملك الناس ، ثم زيد بيانا بإله الناس ، لأنه قد يقال لغيره : رب الناس ، كقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وقد يقال : ملك الناس . وأما (إله الناس) فخاص لا شركة فيه ، فجعل غاية للبيان . فإن قلت : فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة ؟ قلت : لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار ﴿الوسواس﴾ اسم بمعنى الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة . وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال . والمراد به الشيطان ، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه ، لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه . أو أريد ذو الوسواس . والوسوسة : الصوت الخفي . ومنه : وسواس الحلي .

---

(١) قال محمود : «إن قلت : لم أضاف اسمه تعالى إليهم خاصة وهو رب كل شيء ... الخ » قال أحمد : وفي التخصيص جرى على عادة الاستعطاف ، فانه معه أتم . عاد كلامه قال : وإله الناس عطف بيان لملك الناس . أو كلاهما عطف بيان للأول ، والثاني أبين : لأن ملك الناس قد يطلق لغير الله تعالى ، وأما إله الناس فلا يطلق إلا له عز وجل ، فجعل غاية للبيان ، وزيد البيان بتكرار ظاهر غير مضمر ؛ والله سبحانه وتعالى أعلم . هذا ما يسر الله من القول ، وإني أبرأ إلى الله تعالى من القوة والحول ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

و﴿الخناس﴾ الذى عادته أن يخنس ، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات [١] لما روى عن سعيد بن جبير : إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى ، فإذا غفل وسوس إليه ﴿الذى يوسوس﴾ يجوز فى محله الحركات الثلاث ، فالجر على الصفة ، والرفع والنصب على الشتم ، ويحسن أن يقف القارئ على (الخناس) ويبتدئ (الذى يوسوس) على أحد هذين الوجهين ﴿من الجنة والناس﴾ بيان للذى يوسوس ، على أن الشيطان ضربان : جنى وإنسى ، كما قال شياطين الإنس والجن . وعن أبى ذر رضى الله عنه قال لرجل : هل تعوذت بالله من شيطان الإنس ؟ ويجوز أن يكون (من) متعلقاً بيوسوس ، ومعناه : ابتداء الغاية ، أى : يوسوس فى صدورهم من جهة الجن ومن جهة الناس ، وقيل : من الجنة والناس بيان للناس ، وأن اسم الناس ينطلق على الجنة ، واستدلوا بنفر ورجال : فى سورة الجن . وما [٢] أحقه ؛ لأن الجن سموا « جنا » لاجتنانهم ، والناس « ناساً » لظهورهم ، من الإيناس وهو الإبصار ، كما سموا بشراً ؛ ولو كان يقع الناس على القبيلين ، وصح ذلك وثبت : لم يكن مناسبا لفصاحة القرآن وبعده من التصنع . وأجود منه أن يراد بالناس : الناسى ، كقوله (يوم يدع الداع) كما قرئ (من حيث أفاض الناس) ثم يبين بالجنة والناس ؛ لأن الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله عز وجل .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت علىّ سورتان ما أنزل مثلهما ، وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما [٣] » يعنى المعوذتين . ويقال للمعوذتين : المقشقشتان .

---

(١) قوله « كالعواج والبتات » بائع العاج ، وبائع البتوت : وهى ضرب من الثياب . (ع)

(٢) قوله « وما أحقه » فى الصحاح : حققت الأمر : واحتققته : إذا تحققته وصرت منه على يقين . (ع)

(٣) لم أجده بهذا اللفظ . وأوله فى مسلم بمعناه من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال له . ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط (قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) وآخره فى ابن حبان من حديث عقبة بمعناه . وأيضا قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأن يقرأ سورة أحب إلى الله ولا أبلغ من قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ، فإن استطعت أن لا تدعهما فى صلاة فافعل » .

قال عبد الله الفقير إليه : وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات الله الكاملة التامة ، وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامة ، من كل ما يكلم الدين ، ويثلم اليقين ، أو يعود فى العاقبة بالندم ، أو يقدح فى الإيمان المسوط باللحم والدم [1] ، وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر ، ووضع الخد لجلاله الأعظم الأكبر ، مستشفعا إليه بنوره الذى هو الشيبة فى الإسلام ، متوسلا بالتوبة الممحصة للآثام ، وبما عنيت به من مهاجرتى إليه ومجاورتى ، ومرابطتى بمكة ومصابرتى ، على تواكل من القوى ، وتخاذل من الخطا ، ثم أسأله بحق صراطه المستقيم ، وقرآنه المجيد الكريم ، وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين ، فى عمل الكشاف عن حقائقه ، المخلص عن مضايقه ، المطلع على غوامضه ، المثبت فى مداحضه ، الملخص لنكته ولطائف نظمه ، المنقر عن فقره وجواهر علمه ، المكتنز بالفوائد المفتنة التى لا توجد إلا فيه ، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه [2] ومعانيه ، مع الايجاز الحاذف للفضول ، وتجنب المستكره المملول ؛ ولو لم يكن فى مضمونه إلا إيراد كل شىء على قانونه ، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأحبار ، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار ، وبما شرفنى به وبجدنى ، واختصنى بكرامته وتوحدنى : من ارتفاعه على يدى فى مهبط بشاراته ونذره ، ومتنزل آياته وسوره ، من البلد الأمين بين ظهرانى الحرم ، وبين يدى البيت المحرم ، حتى وقع التأويل ، حيث وجد التنزيل : أن يهب لى خاتمة الخير ، ويقينى مصارع السوء ، ويتجاوز عن فرطاتى يوم التناد ، ولا يفضحنى بها على رؤس الأشهاد ؛ ويحلنى دار المقامة من فضله ، بواسع طوله وسابغ نوله ، إنه الجواد الكريم ، الرؤف الرحيم .

(فى نسخة ما نصه) :

فى أصل المصنف بخطه رحمه الله تعالى : وهذه النسخة هى نسخة الأصل الأولى التى نقلت من السواد ، وهى أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها ، المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها فى السنة الشهباء ، فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة فى جناح داره السليمانية ، التى على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة : ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر فى عام ثمانية وعشرين وخمسمائة ، وهو حامد لله على باهر كرمه ، ومصل على عبده ورسوله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

(١) قوله «المسوط باللحم والدم» أى : المخلوط . أفاده الصحاح .
(٢) قوله «من بدع ألفاظه» فى الصحاح «شىء بدع» بالكسر : أ[ى] ... وفلان بدع فى هذا الأمر ، أى : مبدع (ع)

فهرس الجزء الرابع من تفسير الكشاف

[استدراك]

سقط أثناء طبع هذا الكتاب شرح شاهدين من شواهده . وهما :

الأول : بالجزء الثالث صفحة ٢٨٧ فى سورة الفرقان عند قوله تعالى (وهذا ملح أجاج) ...
قوله «وَصِلِّيَانًا بَرْدًا» وقد أورد الشيخ محمد عليان فى شرحه للشواهد هذا الشاهد هكذا .

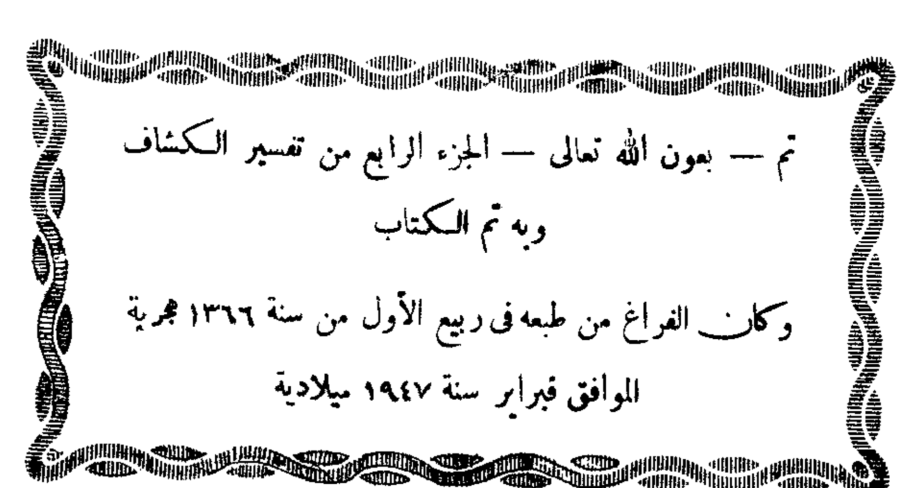
أصبح قلبى صردا لايشتهى أن يردا إلا عراراً عردا
وصليـــانا بردا وعنكثاً ملتبدا

أنشده أبو الهيثم . وصرد صرداً وتعب تعباً : إذا برد ، فهو صرد ، كحذر : أى بارد . والعرار : ورد ناعم أصفر طيب الرائحة ، ينبت مفترشاً بلا ساق . والعارد والعرد ـ كحذر : الصلب الغليظ الملتف من النبات . والصليان : نوع من النبات . وكذلك العنكث ؛ والبرد : أصله البارد . والملتبد : المجتمع المنضم بعضه إلى بعض . قال أبو الهيثم : زعمت العرب أن الضفدع كان له ذنب ، والضب لاذنب له . فتخاصما يوما : أيهما أصبر على الظمأ ، فخرجا فى نبات البر فعطش الضفدع ، فنادى : ياضب وردا وردا . فقال الضب : أصبح قلبى ... ... وفعلا فى اليوم الثانى كذلك ، فلما كان الثالث نادى الضفدع فلم يجبه الضب ، فبادر إلى الماء خفية ، فتبعه الضب فاقتلع ذنبه ووضعه لنفسه . وقيل : إن ذلك كان بين السمكة والضب .

الثانى : بالجزء الثالث صفحة ٦٠٩ فى سورة فاطر عند قوله تعالى (ومن الجبال جدد) ...
قوله « أَوْ مُذْهَبٌ جُدَدٌ عَلَى أَلْوَاحِهِ » وهو :

فكأن معروف الديار بقادم ٭ فبراق غول فالرجام وشوم ٭ أو مذهب جدد على الواحه
الناطق المبروز والمختـــوم ٭ دمن تلاعبت الرياح برسمها ٭ حتى تنكـــر نؤيها المهدوم

للبيد بن ربيعة يصف آثار الديار ومعروفها ، أى المعروف منها وقادم ، وبراق غول ، والرجام : أسماء مواضع . والوشوم : جمع وشم ، شبهها بالوشم ثم قال : أذاك تشبهه الدار أومذهب ، أى كتاب مطلى بالذهب ، على ألواحه جدد ، أى : طرائق تخالف بقية لونه . ومنه : جدة الحمار للخط الأسود على ظهره والناطق بقطع الهمزة : لأن أول المصراع محل ابتداء ، وإن لم يقف قبله . ونطق الكتاب : مجاز عن دلالته على المعانى . وقال الجوهرى : المبروز المنشور وهكذا ورد فى شعر آخر للبيد . وإن أنكرها أبو حاتم وقال : لعلها المزبور . أى المكتوب ووسط الواو لتوكيد ربط الصفة بالموصوف . والمختوم : الواجب العمل بما فيه ، ولعل الناطق خبر محذوف لعدم صحة وصف النكرة بالمعرفة ، ثم قال : هى دمن ، اى : قمامات متلبدة تلاعبت ، أى : جرت الرياح مختلفة على رسمها ، أى بقية آثارها حتى تنكر ، أى تغير نؤيها : وهو ماحفر حول الخباء يمنعه من الماء كالسيل .



تم — بعون الله تعالى — الجزء الرابع من تفسير الكشاف

وبه تم الكتاب

وكان الفراغ من طبعه فى ربيع الأول من سنة ١٣٦٦ هجرية

الموافق فبراير سنة ١٩٤٧ ميلادية

